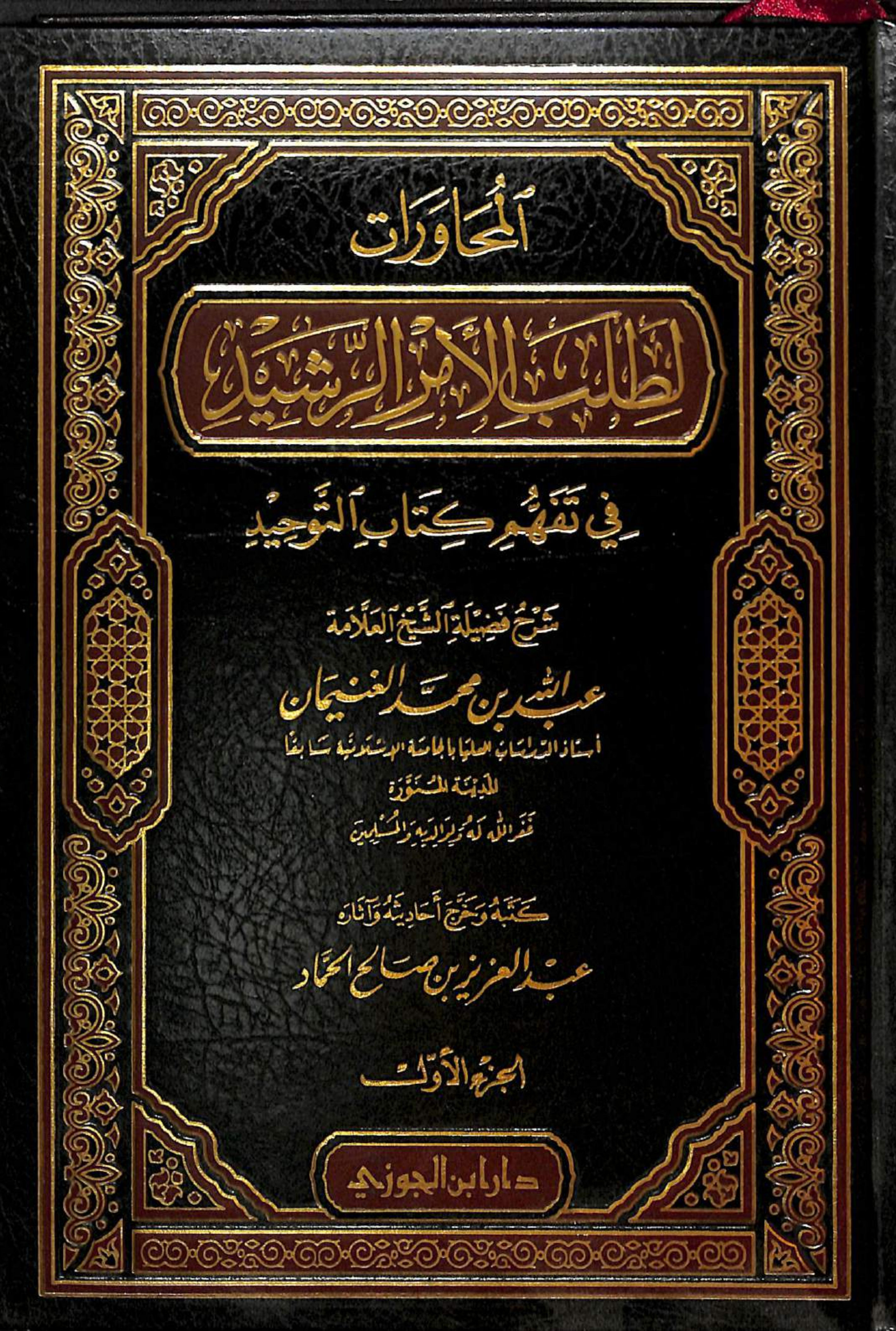
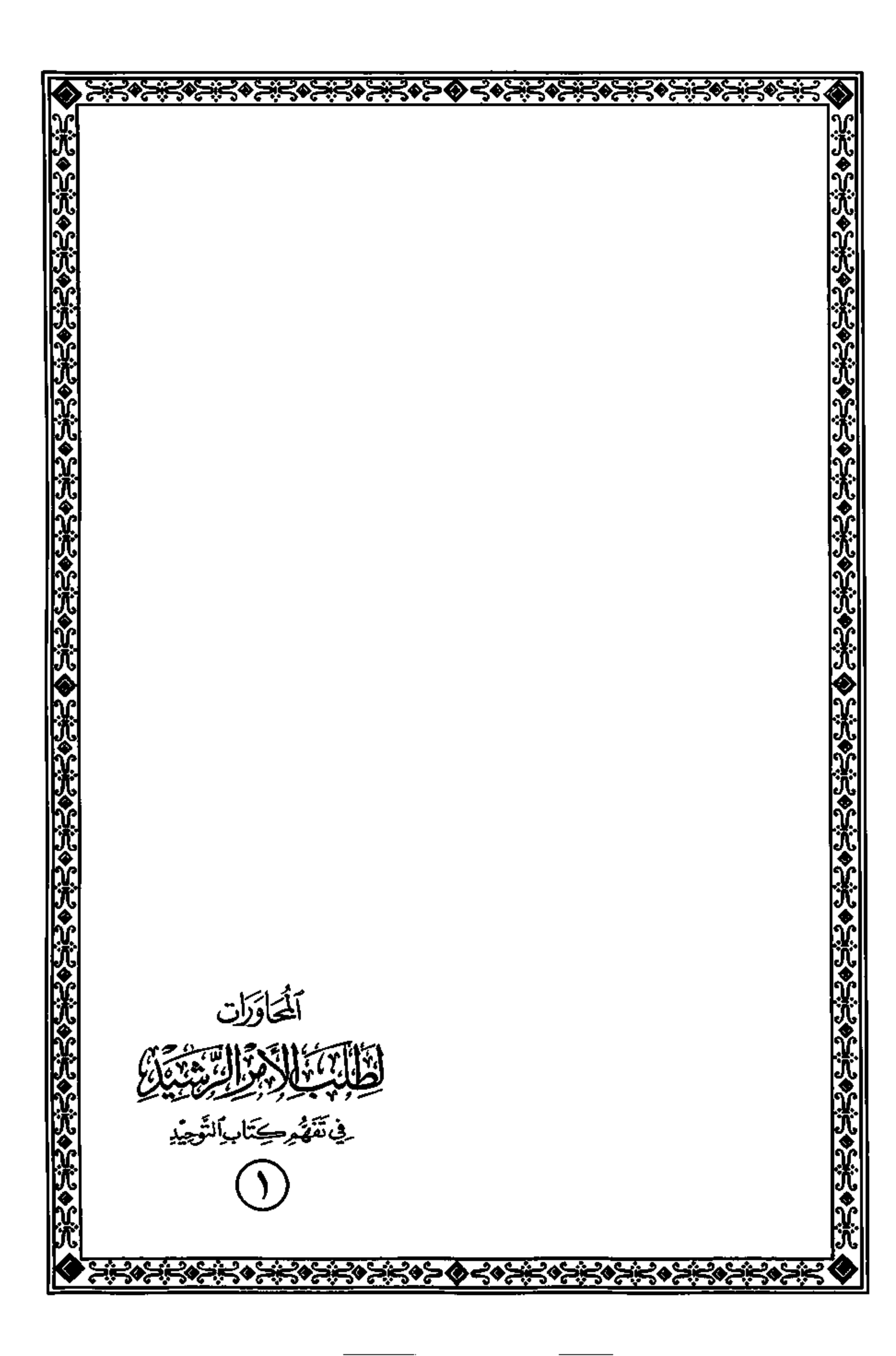

المحاورات
لطالب الأمر الرشيد
في تفهم كتاب التوحيد
شرح فضيلة الشيخ العلامة
عبد الله بن محمد الغنيمان
أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً
بالمدينة المنورة
غفر الله له ولوالديه والمسلمين
كتبه وخرج أحاديثه وآثاره
عبد العزيز بن صالح الحماد
الجزء الأول
دار ابن الجوزي

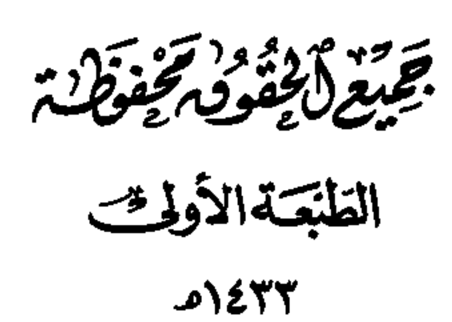


المحاورات

لطالب الأمر الرشيد

في تفهم كتاب التوحيد

(١)





دار ابن الجوزي

للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية: الدمام - طريق الملك فهد - ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣، ص ب: ٢٩٨٢

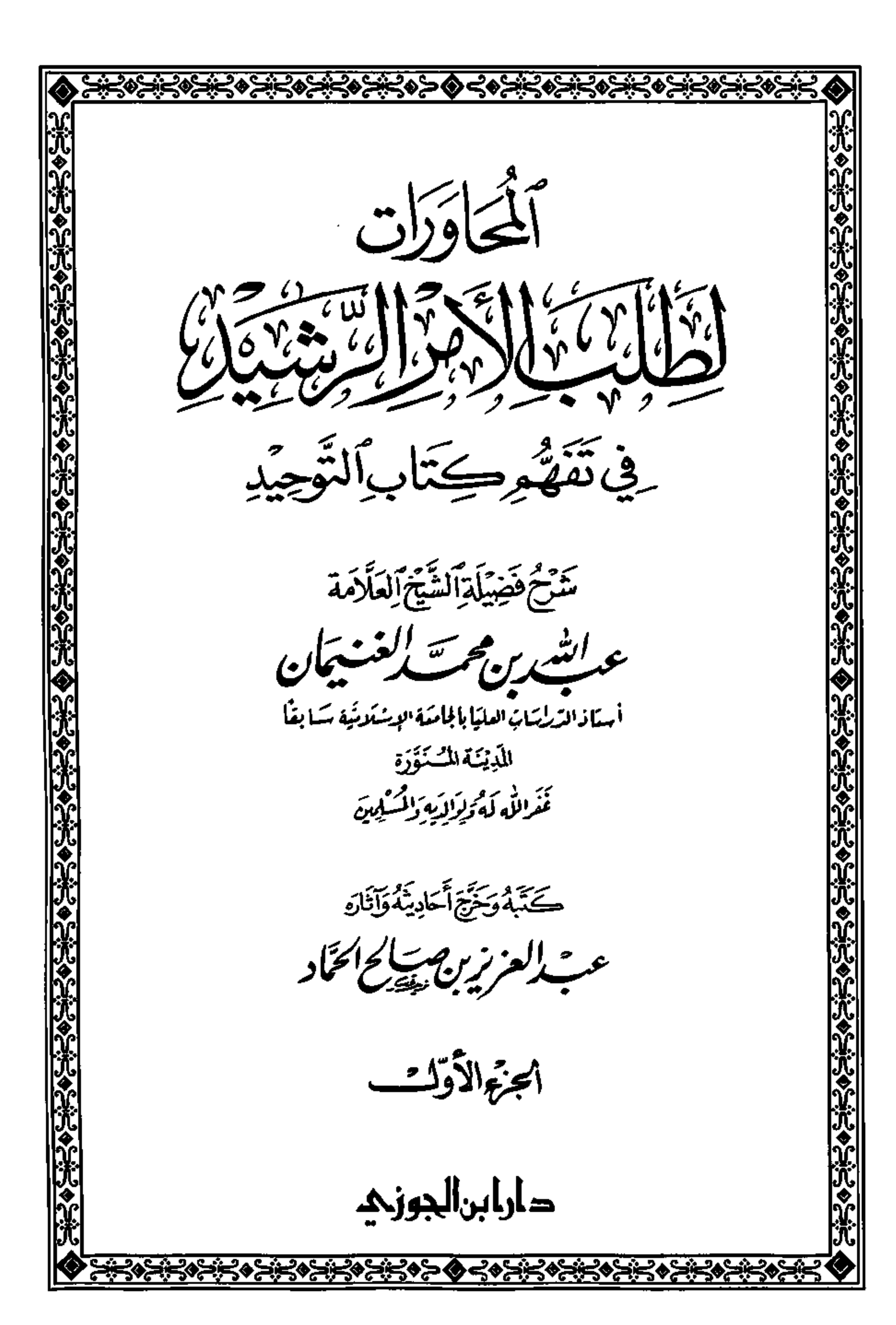
الرمز البريدي: ٣١٤٦١ - فاكس: ٨٤١٢١٠٠ - الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨ - جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨

الإحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢ - جدة - ت: ٦٣٤١٩٧٣ - ٦٨١٣٧٠٦ - ٠٥٦٣٤٧١٣٨٨ - بيروت - هاتف:

٨٦٩٦٠٠/٠٣ - فاكس: ٦٤١٨٠١/٠١ - القاهرة - ج م ع - محمول: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٨٣ - تلفاكس:

٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠ - الإسكندرية - ٠١٠٦٩٠٥٧٥٧٣ - البريد الإلكتروني:

aljawzi@hotmail.com - www.aljawzi.com



المحاورات
لطلب الأمر الرشيد
في تفهم كتاب التوحيد

شرح فضيلة الشيخ العلامة

عبد الله بن محمد الغنيمان

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقًا

المدينة المنورة

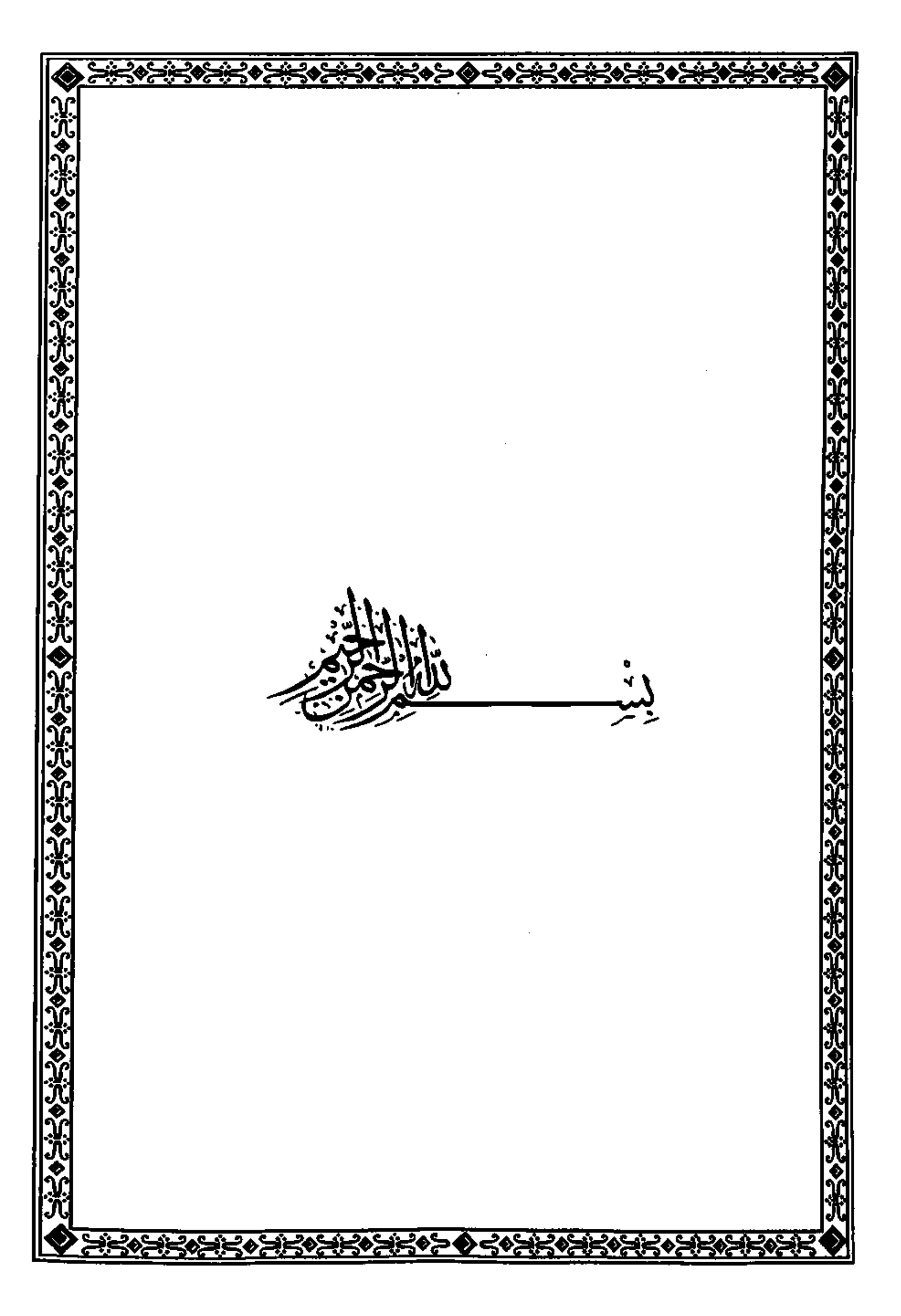
غفر الله له ولوالديه والمسلمين

كتبه وخرج أحاديثه وآثاره

عبد العزيز بن صالح الحماد

الجزء الأول

دار ابن الجوزي


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، لا إله إلا هو قائماً بالقسط، لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

وصلَّى الله وسلَّم على عبده ورسوله نبينا محمد، وآله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن أهمَّ ما يقوم به العبد في هذه الحياة العمل على تحقيق عبودية الله تعالى عملاً واعتقاداً وقولاً؛ لأن هذا هو طريق النجاة من العذاب، والفوز بالسعادة الأبدية، ولهذا صارت دعوة الرسل لأممهم أن يعملوا بذلك، ويقوموا به كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وخاتم الرسل محمد ﷺ دعا الناس إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وبيَّن ذلك بأنواع البيان، فلم يبق لأحد ممن كلف بالعبادة عذر وحذر مما يضاد العبادة بما أتاه الله من البيان والبلاغ، ووضح ذلك لمن صحبه، أو نظر في سيرته صلوات الله وسلامه عليه.

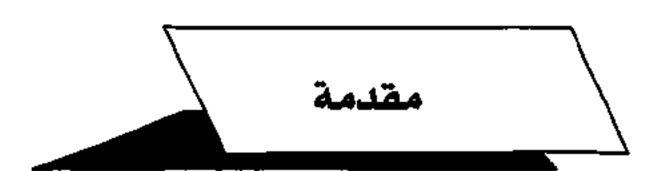
ثم أصحابه بعده قاموا بذلك أتم القيام، وتتابع العلماء على ذلك مع حدوث البدع والانحراف في عبادة الله تعالى، وإخلاص العمل له.

وكلَّما بَعُدَ عهد النبوة عن الناس زاد جهلهم، ولهذا كثر انحرافهم في هذه العصور المتأخرة، وكلما كثر الانحراف وزاد الجهل بعث الله من يدعو إلى توحيد الله تعالى وإخلاص العبادة له، وكان من آخرهم داعية التوحيد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، ومن آثاره العظيمة كتابه كتاب التوحيد، فقد نفع الله به وانتشر بين طلاب العلم، ولا يزال الناس بأمس الحاجة إليه في بقاع الأرض كلها، وهو جدير بأنه يترجم بجميع اللغات وينشر بين الناس.

ومع سهولة لفظه ووضوح معناه كثرت شروحه، وكنت ألقيت دروساً على الطلاب منه، فقام أحدهم بتسجيل تلك الدروس جزاه الله خيراً، ثم فرَّغها، فاستعرضتها وصحَّحت الأخطاء حسب ما ظهر لي، ومعلوم أن كل عمل الإنسان عُرضة للخطأ، ولا بد أن يبقى فيه ما يحتاج إلى تصحيح أو تعديل، وأرجو من الله تعالى أن ينفع به، فهو أهل الفضل والإحسان.

كتبه

عبد الله بن محمد الغنيمان



مقدمة

الحمدُ لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلَّى الله عليه وعلى آله وصحابته، ومن سار على نهجه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وبعد:

هذا الكتاب «كتاب التوحيد»، كتاب عظيم لا نظير له في هذا الباب فيما نعلم، لا من الكتب المتقدمة ولا من المتأخرة، ولهذا بعض الناس الذين لم يعرفوا الحقيقة يظنون أن هذا الكتاب ليس للشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، يقولون: هذا من أسلوب البخاري والدارمي ـ رحمهما الله ـ والعلماء الكبار، ولكن هذا توفيق الله جل وعلا، إذا وفَّق الله عبده سدَّده.

وهو أيضاً رحمه الله ألف هذا الكتاب في غربته، يقول حفيده عبد الرحمٰن بن حسن رحمه الله: أنه ألف كتاب التوحيد هذا في البصرة، حيث وجد هناك من العلماء الذين لهم باع في علم التوحيد، وعلم الحديث، وعلم التفسير وغيره، فتبصَّر وعرف الحق، ثم بدأ دعوته هناك، ولكن لم ترق لكثير من الناس هذه الدعوة فتألَّبوا عليه وأخرجوه من البصرة، فاتجه إلى الزبير في وقت شدة الحر فكاد يموت، إلا أن الله قيض له صاحب حمار في الطريق فأنقذه وحمله إلى الزبير[1]، وكانت نيته أن يذهب إلى الشام نظراً للحديث

---

(١) عنوان المجد في تاريخ نجد ١/ ٧ ـ ٨. وفيه: قال ابن بشر: «ثم خرج منها إلى نجد وتجهز إلى البصرة يريد الشام، فلما وصلها جلس يقرأ فيها عند عالم جليل من أهل المجموعة ـ قرية من قرى البصرة ـ في مدرسة فيها ذكر لي أن اسمه محمد المجموعي. فأقام مدة يقرأ عليه فيها وينكر أشياء من الشركيات والبدع، وأعلن بالإنكار واستحسن شيخه قوله، وقرر له التوحيد، وانتفع به.. ثم إن الشيخ تجمع عليه أناس في البصرة من رؤسائها وغيرهم، فآذوه أشد الأذى، وأخرجوه منها وقت =

عن النبي ﷺ في صفة الفرقة الناجية، ففي رواية معاذ بن جبل ﷺ: «وهم في الشام»[(١)]، فكأنه لاحظ هذا المعنى، وأراد أن يجعل دعوته هناك، ولكن الله جل وعلا أراد بأهل نجد خيراً، وضاعت نفقته فثناه ذلك عن الذهاب إلى الشام فرجع، وذهب إلى الأحساء، ثم رجع إلى بلده وبدأ دعوته فيها، ثم إنه كثر تلامذته ومريديه ينهلون من علم وذلك لما له من الأثر البالغ في نشر العلم، ثم انتقل إلى العُيينة وساعده أميرها، ثم بعد ذلك صار من أهل الباطل الذين يهدمون الحق بأكاذيب وتلفيقات وتزوير على دعوته، فتألب عليه كثير من أمراء البلاد وعلمائهم وعوامِّهم، وناوأوه وحاولوا أن يقضوا عليه وعلى دعوته، فذهب إلى الدرعية وقيض الله له أنصاراً هناك من الذين قبلوا الحق من الأمراء وغيرهم فنصره الله جل وعلا، وأظهر دعوته، وصارت هذه الدعوة هي المسيطرة، فانتشر العلم في البلاد عامة وفي بلاد نجد خاصة، وكذلك تم بسبب هذه الدعوة المباركة توحيد البلاد فعم نفعها، ولا تزال هذه الدعوة، وصار خير كثير، ولا تزال هذه الدعوة إلى اليوم، نسأل الله جل وعلا أن يجعلنا من أنصارها.

والمؤلف رحمه الله جمع في كتاب التوحيد مسائل هذه الفن حسب الحاجة

= الهجيرة ولحق شيخه منهم بعض الأذى، فلما خرج الشيخ من البصرة وتوسط في الدرب فيما بينها وبين بلد الزبير أدركه العطش وأشرف على الهلاك، وكان ماشياً على رجليه وحده فوافاه صاحب حمار مكاري يقال له أبو حميدان من أهل بلد الزبير فرأى عليه الهيبة والوقار وهو مشرف على الهلاك، فسقاه وحمله على حماره حتى وصل الزبير. ثم إن الشيخ أراد أن يصل الشام فضاعت نفقته التي معه، فانثنى عزمه عن المسير إليه. فخرج من تلك الديار وقصد الأحساء، فلما وصل إليه نزل على الشيخ العالم عبد الله بن محمد بن عبد اللطيف الشافعي الأحسائي، ثم إنه خرج من الأحساء، وقصد بلد حريملاء».

(١) رواه البخاري رقم ٣٦٤١ ولفظه عن معاوية قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتيهم أمر الله وهم على ذلك» قال عمير: فقال مالك بن يخامر: قال معاذ: وهم بالشام، فقال معاوية: هذا مالك يزعم أنه سمع معاذاً يقول: وهم بالشام. ورواه مسلم رقم ١٠٣٧ دون قوله: وهم بالشام.

نظراً لما كان عليه الناس في وقته، ولا تزال الحاجة إليه ماسة في الوقت الحاضر ولن تزال؛ لأنه هو أصل الدعوة التي جاء بها رسول الله ﷺ، وقد اشتمل على كثير من مسائل هذا العلم، ومعلوم أن هذا هو الأصل الذي يجب أن يُعتنى به أكثر من غيره.

وهو رحمه الله لإخلاصه في دعوته، وكذلك لكونه قد تضلَّع في هذا العلم وأعطاه الله جل وعلا ذكاء وفطنة وعقلاً وصبراً، صار له الأثر البالغ حتى صارت دعوته تشبه دعوة الرسل في هذا المجال، ومن المعلوم أن لكل دعوة أعداء، فقد قام أناس من أهل العلم وغيرهم في إبطال دعوته والتشنيع عليها، وكل قوم لهم وارث، ويستمر هذا إلى أن يرث الله جل وعلا الأرض ومن عليها، الحق له أنصاره والباطل له رجال وأعوان وأنصار، وهذه سُنَّة الله جل وعلا في خلقه، ومن أراد الحق فإنه واضح في كتاب الله جل وعلا، وسُنَّة رسوله ﷺ، ومن كلام العلماء الذين يوضحون ذلك لمن لا يكون واضحاً له، والتوحيد الذي دعا إليه الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، هو توضيح العبادة، وكتابه هذا أكثر مسائله حسب الحاجة التي دعت إليه في وقته، وكان الناس قد خالفوا مقتضى ذلك في كثير من أحوالهم وأعمالهم ولم يكن في وقته من يقوم بهذا الأمر ـ التوحيد ـ وإنما كان العلماء مشغولون في أحوالهم ومعيشتهم، وليس لديهم اهتمام في التوحيد ومعرفة الشرك، يجتهدون في كتب الفقه وفي حواشيه، وفي معرفة دراسة المتون وحفظها، والناس في مجال العبادة يقصدون القبور والأشجار وغيرها ولا أحد ينكر ذلك إلا نادراً، أو قد لا يكون هذا شأن الناس في العالم الإسلامي في الجملة.

فهذا الكتاب مع اختصاره، جمع مسائل كثيرة، معظم مسائل العبادة التي يحتاجها الإنسان، وإن كان هناك مسائل جدَّت تحتاج إلى البحث فيها؛ لأن حوادث الناس لا نهاية لها، ولكن كل ما يحدث للناس فحكمه موجود في كتاب الله جل وعلا؛ لأن الله لم يفرط في الكتاب من شيء، بل جمع

وأوعى، غير أن الله جل وعلا يعطي من يشاء فهماً يدرك به المراد من ذلك، والفهوم تختلف، والله يمنح من يشاء من المعرفة ومن الهداية والنور الذي يمشي به في الطرق المظلمة، وهذا ليس لكون الإنسان فلان بن فلان، بل هذا إذا لجأ العبد إلى ربه صادقاً وانطرح بين يديه وأقبل عليه، فإن الله لا يخيب من سأله جل وعلا.

المؤلف رحمه الله لم يذكر خطبة للكتاب يبيِّن فيها مراده ومقصده، وإنما قال: «بسم الله الرحمٰن الرحيم»، ثم قال: «كتاب التوحيد»، وقوله هذا يعني: «بسم الله الرحمٰن الرحيم» جعله بمنزلة الخطبة اقتداء بكتاب الله جل وعلا، وكذلك اقتداء بالأئمة الكبار، فالبخاري رحمه الله بدأ كتابه الصحيح بقوله: بسم الله الرحمٰن الرحيم، ثم قال: باب بدء الوحي، ويظهر أن الشيخ رحمه الله اقتدى به. وقد جاء في الحديث الذي رواه الرهاوي وغيره: «**كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمٰن الرحيم، فهو أقطع**»[1]، وفي رواية: «**كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بالحمد لله، فهو أقطع**»[2]، أو قال: «**هو أبتر**»[3]، والمقصود بالحمد لله هو ذكر الله جل وعلا، وقد بدأ الشيخ رحمه الله بذكر الله فقال: «بسم الله الرحمٰن الرحيم»، وقد جاء في رواية: «**بذكر الله**»[4]، يدل على أن المقصود ذكر الله جل وعلا، وهذا دل عليه القرآن، قال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ [العلق: ١]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ۝٤١﴾ [هود: ٤١]، وذكر الله يحصل حتى ولو لم يكتبه.

---

(١) رواه عبد القادر الرهاوي في الأربعين من حديث أبي هريرة.
(٢) مصنف ابن أبي شيبة رقم ٢٦٦٨٣، وهو عند النسائي في الكبرى ١٠٣٢٨، وصحيح ابن حبان رقم ١، وابن ماجه رقم ١٨٩٤.
(٣) رواه أحمد رقم ٨٧١٢: «**كل أمر ذي بال لا يفتح بذكر الله ﷻ فهو أبتر ـ أو قال: أقطع ـ**» ورواه الدارقطني رقم ٢.
(٤) رواه أحمد في المسند، انظر: الحاشية ٣، ورواه النسائي رقم ١٠٣٣١ بلفظ: «**كل كلام لا يبدأ في أوله بذكر الله فهو أبتر**».

❁ «بسم الله الرحمٰن الرحيم».

«الباء»: في بسم الله للإستعانة، وهذا هو المناسب؛ يعني: أستعين ربي على ما أبدأ فيه، وعلى تمامه، وعلى العمل به، وعلى فهمه، وعلى حصول المراد الذي أردته؛ أي: ينفع، فالأمور المضمرة هي التي ينويها الإنسان في نيته وهي التي أرادها بقوله:

«بسم الله الرحمٰن الرحيم» مستعيناً بالله جل وعلا على ذلك.

«الله»: عَلَمٌ على الذات كما هو المعلوم، الذات الكريمة الشريفة، والعَلَمَ: معناه الشيء الذي يكون دالاّ دلالةً واضحة على ذلك، وهذا لا يطلق إلا على الله جل وعلا.

وأصل «الله» يقول علماء اللغة: «الإلٰه» فحذفوا الهمزة الأولى، ثم أُتي باللام التي للتعريف، ثم أُدغمت اللام باللام الثانية، ثم فُخم فصار «الله» بالتفخيم والتعظيم، واختلف هل هو مشتق، أو أنه جامد؟

والفرق بين المشتق والجامد: أن الجامد الذي يجعل عَلَماً على هذا الشيء يميزه عن غيره كأسماء الناس.

أما المشتق: فما كان له أصل أخذ منه، ولا يلزم أنه أخذ من شيء سبقه كما توهمه السهيلي وشيخه ابن عربي ـ رحمهما الله ـ، فإن هذا غير صحيح، ولهذا أنكر السهيلي وشيخه على من قال: أنه مشتق[1].

ومقصود الذين قالوا: إنه مشتق؛ يعني: أن له معنًى أُخذ منه؛ يعني: أنه يلاقي مصدره؛ كالأسماء الحسنى؛ يعني: أنه أُخذ من التأله «أَلِه، يَأْلَه، إلٰهاً، وإلاهية وألوهية»، ولهذا جاء عن ابن عباس ﷺ كما رواه ابن جرير وغيره أنه قال: الله ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين[2]؛ يعني: مأخوذ من

---

(١) بدائع الفوائد ١/٢٦ قال: زعم أبو القاسم السهيلي وشيخه ابن العربي أن اسم الله غير مشتق لأن الاشتقاق يستلزم مادة يشتق منها، واسمه تعالى قديم والقديم لا مادة له فيستحيل الاشتقاق.

(٢) تفسير الطبري ١/١٢٣.

العبادة والتألُّه، والعبادة هي تأله القلب، القلب يَأله من يُحبه، ويَذل له ويُعظمه.

ولهذا جاءت الأسماء تابعة له، وقالوا: إنه هو الأسم الأعظم «اسم الله الأعظم»، وإن كان الاسم الأعظم الذي جاءت فيه أحاديث وآثار، وجاء فيه أيضاً قصص، ومن ذلك ما ذكره الله جل وعلا في القرآن في قصة سليمان: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [النمل: ٤٠]، يقول العلماء: هذا الذي عنده علم من الكتاب هو الذي كان يعرف اسم الله الأعظم[١]، فدعا الله باسمه الأعظم فحضر في لحظة، ولهذا يقولون: أخفى اسم الله الأعظم حتى لا يدعو به من لا يقدره، ومن لا يعرف الأمر كما ينبغي.

ابن القيم رحمه الله[٢] وغيره يقولون: أسماء الله كلها عظيمة، ولكن هذا يعني: الاستجابة وإعطاء السؤال بحسب ما يقوم بقلب الإنسان من تقدير الله وتعظيمه، وذله لله جل وعلا، وخضوعه وافتقاره له، فإذا وجد هذا فإن الله

---

(١) تفسير الطبري ١٩/٤٦١ قال رحمه الله: وهو رجل من الإنس عنده علم من الكتاب فيه اسم الله الأكبر، الذي إذا دعي به أجاب. قال ابن عباس: وهو آصف كاتب سليمان. وكذا رَوَى محمد بن إسحاق، عن يزيد بن رومان: أنه آصف بن برخياء، وكان صدّيقاً يعلم الاسم الأعظم. وكذا روي عن قتادة. تفسير ابن كثير ٦/ ١٩٢.

(٢) الجواب الكافي ١/ ٥ قال رحمه الله: وإذا اجتمع مع الدعاء حضور القلب وجمعيته بكليته على المطلوب وصادف وقتاً من أوقات الإجابة الستة وهي: الثلث الاخير من الليل وعند الأذان وبين الأذان والإقامة وأدبار الصلوات المكتوبات، وعند صعود الإمام يوم الجمعة على المنبر حتى تقضى الصلاة، وآخر ساعة بعد العصر من ذلك اليوم وصادف خشوعاً في القلب وانكساراً بين يدي الرب وذلالة وتضرعاً ورقة واستقبل الداعي القبلة وكان على طهارة ورفع يديه إلى الله تعالى وبدأ بحمد الله والثناء عليه ثم ثنى بالصلاة على محمد عبده ثم قدم بين يدي حاجته التوبة والاستغفار ثم دخل على الله وألح عليه في المسألة وتملقه ودعاه رغبة ورهبة وتوسل إليه بأسمائه وصفاته وتوحيده وقدم بين يدي دعائه صدقة، فإن هذا الدعاء لا يكاد يرد أبداً ولا سيما إن صادف الأدعية التي أخبر النبي أنها مظنة الإجابة أو أنها متضمنة للاسم الأعظم.

يستجيب له، وإن كان العبد ظالماً، ولهذا أخبرنا الله جل وعلا في كتابه بما جعله آية دالة على وجوب توحيده مخاطباً بذلك الكفار والمشركين بقوله سبحانه: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [النمل: ٦٢]، وكل مضطر يفتقر إلى ربه جل وعلا ويذل له معظماً خاضعاً مفتقراً، فإن الله يستجيب له فهذا آية، وهو من مقتضى ربوبيته جل وعلا، ومعناه أنه هو رب الخلق، والرب هو الذي يقوم على تربيتهم على ما يصلحهم وما يحتاجون إليه، والشيء الذي يحتاجون إليه يستجيب لهم فيه، ولكنه حكيم عليم جل وعلا، فقد يدعو الإنسان بشيء يضره فلا يستجيب له رحمة به، وقد جاء في الحديث عن أبي سعيد أن النبي ﷺ قال: «**ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن تعجَّل له دعوته، وإما أن يدَّخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها**»، فقال الرجل من القوم: إذاً نُكثر. قال: «**الله أكثر**»[1]، فكل داع لا يخيب، والله برحمته وإحسانه يفعل ما هو أصلح للعبد.

وقوله: «الرحمٰن الرحيم»: كلاهما جاء على صيغة المبالغة، الدالة على كثرة الرحمة، فقد جاء عن ابن عباس أنه قال: الرحمٰن الرحيم: هما اسمان رقيقان، أحدهما أرق من الآخر؛ أي: أكثر رحمة[2]. ومعنى أنهما رقيقان: أنه يرجى بهما الرحمة، وأحدهما أكثر رجاءً وهو الرحمٰن؛ لأن زيادة الحروف، وزيادة البناء تدل على زيادة المعنى، ولهذا يأتي في الدعاء: «**رحمٰن الدنيا والآخرة**»[3]، أما

---

(١) رواه أحمد في المسند رقم ١١١٣٣، والترمذي رقم ٣٥٧٢ وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ١٢٥.

(٣) رواه الطبراني في المعجم الصغير ٥٥٨ ولفظه: عن أنس بن مالك ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل: «**ألا أعلمك دعاء تدعو به لو كان عليك مثل جبل ديناً لأدى الله عنك؟ قل يا معاذ: اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء، وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء، وتذل من تشاء، بيدك الخير إنك على كل شيء قدير، رحمٰن الدنيا والآخرة، تعطيهما من تشاء، وتمنع منهما من تشاء، ارحمني رحمة تغنيني بها عن رحمة من سواك**»، ورواه البزار.

رحيم فهو أخص، ولهذا جاء أنه: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] رحيم بالمؤمنين، ولم يأت بالناس، رحيم بالخلق، وإنما أتى رحمٰن، وعلى هذا قال ابن القيم رحمه الله:

الرحمٰن: دال على الصفة القائمة به سبحانه، والرحيم: دال على تعلقها بالمرحوم، فكان الأول للوصف والثاني للفعل، فالأول دال أن الرحمة صفته، والثاني دال على أنه يرحم خلقه برحمته[1]؛ يعني: أن الرحمٰن يدل على تعلق الرحمة بالله جل وعلا، وأما الرحيم، فهو يدل على الفعل يدل على تعلقها بالمخلوق، وعلى هذا يكون أحدهما دال على الذات والآخر دال على الفعل، وعلى كل حال أسماء الله يجب التفقه فيها، وسؤال الله به؛ لأن الله أمرنا به، وهي كلها حسنى، قال ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف: ١٨٠]، ودعاؤه بها هو عبادته، والعبد لا ينفك عن عبادة بأسماء الله جل وعلا، والمؤمن دائماً يعبد ربه بأسمائه حتى في الأكل والشرب والنوم، والجلوس، والمشي، وغير ذلك، فيقول: «بسم الله» مثلاً، عند دخول المنزل، و«بسم الله» عند النوم، و«بسم الله» عند الأكل والشرب وهكذا، فهذا من العبادة، ومن دعائه بأسمائه، ومنها ما هو واجب حتم مثل: الذبح، فإن الله حرَّم الذبيحة حتى يُذكر عليها اسم الله، فهو من عبادته، وكما جاء في الحديث الذي صححه بعض العلماء، وقال به الإمام أحمد رحمه الله، وهو قول في مذهبه، قول الرسول ﷺ: **«لا صلاة لمن لا وضوء له، ولا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه»**[2]، وعلى هذا يكون واجباً ذكر الله على الوضوء، وإن كان هذا من أفراد مذهب الإمام أحمد، ومذهب الإمام أحمد معروف أنه يقدم الحديث الضعيف على القياس.

---

(١) بدائع الفوائد ١/ ٢٨.

(٢) رواه أحمد في المسند رقم ٩٤١٨، والبيهقي رقم ١٩٥، وأبو داود رقم ١٠١، وابن ماجه رقم ٣٩٩، والحاكم في المستدرك وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وله شاهد، ووافقه الذهبي.



الباب الأول

۞ **قال المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ: **«كتاب التوحيد»**.

وهذه الكلمة أغنت عن الخطبة ودلَّت على مراده، ومقصده في هذا الكتاب؛ لأن التوحيد معروف أنه التوحيد الذي جاءت به الرسل، فمع هذا كأنه يقول: هذا كتاب أجمع فيه مسائل التوحيد ومكملاته وواجباته، ومناقضاته، ومنقصاته، مما يجب أن يُبتعد عنه، وهي كافية عن التصريح وبسط العبارة.

والشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ اقتدى بالأئمة الذين يسلكون هذا المسلك مثل: البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ، فإن من قرأ كتابه، وتأمَّله، دلّه على أنه يُعلِّم من يقرأ كتابه ويُفهمه أن يتدرب على الاستنتاج، واستخراج المعاني من النصوص بما يضعه من التراجم، ولهذا تجده مثلاً إذا وضع الترجمة لا يأتي بالحديث الصريح الواضح الجلي، دائماً يأتي بحديث يحتاج إلى تفكر وإمعان النظر حتى تستخرج الحكم منه، ولهذا يقول النووي[1] رَحِمَهُ اللَّهُ:

وضعه لتدريب الطالب على الاستنتاج والاستخراج والتفكر، وهذا من أنفع ما يقدم لطالب العلم؛ لأنه بذلك يتحصل على أشياء كثيرة ويتدرب على الاستنتاج من النصوص والاستنباط منها، فيوفر عليه وقتاً طويلاً، أما إذا صار يطلب ذلك من كلام الناس فيحتاج جهد أكثر ووقت أطول، ثم من وراء ذلك كله فتحُ الله جل وعلا وتفهيمُه لمن أراد.

---

(١) فتح الباري لابن حجر ١/١٣ ـ ١٤ وقد يفعل ذلك لغرض شحذ الأذهان في إظهار مضمره واستخراج خبيئه وكثيراً ما يفعل ذلك، أي هذا الأخير حيث يذكر الحديث المفسر لذلك في موضع آخر متقدماً أو متأخراً فكأنه يحيل عليه ويومئ بالرمز والإشارة إليه وكثيراً ما يترجم بلفظ الاستفهام كقوله: باب هل يكون كذا أو من قال كذا ونحو ذلك، وذلك حيث لا يتجه له الجزم بأحد الاحتمالين وغرضه بيان هل يثبت ذلك الحكم أو لم يثبت فيترجم على الحكم ومراده ما يتفسر بعد من إثباته أو نفيه أو أنه محتمل لهما وربما كان أحد المحتملين أظهر وغرضه أن يبقى للنظر مجالاً... إلخ.

قوله: «كتاب»: الكتاب يدل على الجمع، ولهذا يقال لجماعة الخيل: الكتيبة. ويقال: تكتب بنو فلان إذا اجتمعوا، فالكتاب هو الذي يجمع أبواباً ومسائل في الفن المقصود به، وهو مصدر: كتب، يكتب كتاباً وكتابة وكتباً.

وقوله: «التوحيد»: مصدر: وحَّد، يوحِّد، توحيداً. والتوحيد يقول كثيرٌ من الشراح معناه: جعلته واحداً، ومقصوده: جعلته يعني: اعتقدت وحدانيته، وإلا لا أحد يجعل الله واحداً. اعتقد يعني: عقد قلبه على ذلك، اعتقَدَ وحدانيته وعملتُ بها، فإن العقيدة لا تكفي بل لا بد من العمل ولا بد من الدلائل، والمؤلف ﷺ يقول: دلائل التوحيد سأذكرها، وهذا كتاب أجمع فيه أدلة التوحيد التي أوجب الله جل وعلا على عباده أن يعرفوها ويعملوا بها.

والتوحيد معناه أن يكون العمل واحد لله جل وعلا. فالتوحيد هو إخلاص العمل وتصفيته وتخليصه من الشوائب والبدع التي تقدح في الإخلاص، والبدع التي تقدح في العمل.

فالتوحيد لا بد فيه من الإخلاص والمتابعة؛ يعني: أن يكون التوحيد عبادة لله خالصة على الطريقة التي جاء بها رسول الله ﷺ؛ أي: بالشرع الذي جاء به ﷺ، ولهذا اتفق العلماء على أن العبادة لا بد أن تشتمل على أمرين أساسين وإلا تكون مردودة وفاسدة: **أحدهما**: الإخلاص، أن تكون خالصة لله جل وعلا، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [البينة: ٥]، وقال جل وعلا: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ الآية [الزمر: ٣].

الثاني: المتابعة، أن تكون على ضوء ما جاء به رسول الله ﷺ من كتاب الله وسُنَّته ﷺ؛ أي: ما دل عليه الكتاب والسُّنَّة، قال ﷺ: **«من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»**[1]، وفي رواية: **«من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»**[2]، كلاهما من حديث عائشة ﵂، فإذا لم يشتمل العمل على هذين الأساسين فهو عمل مردود.

---

(١) رواه البخاري رقم ٢٦٩٧، ومسلم رقم ١٧١٨.

(٢) رواه مسلم رقم ١٧١٨.

وسُمي الإسلام توحيداً؛ لأنه مبني على الإخلاص بخلاف النصرانية وغيرها فهي مبنية على الشرك والتنديد والتعديد، وكذلك عبادة سائر الناس من وثنيين وكتابيين وغيرهم فهي لا تخلو من الشرك، وإن كانت من أهل الكتاب.

والتوحيد كما هو معلوم ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

توحيد **الربوبية**، وتوحيد **الأسماء والصفات**، وتوحيد **العبادة**، وإن شئت قلت إلى قسمين، فهو من باب الإيضاح والبيان. قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: وأما التوحيد الذي دعت إليه الرسل، ونزلت به الكتب، فهو نوعان: توحيد في المعرفة والإثبات، وتوحيد في الطلب والقصد[(١)].

توحيد في المعرفة والإثبات هو: توحيد الربوبية والأسماء والصفات، وتوحيد في الطلب والقصد وهو الإلٰهية والعبادة[(٢)].

وهذا التقسيم استقرائي من كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، والاستقراء: هو التتبع والنظر في الأدلة من كلام الله جل وعلا، وأحاديث رسوله ﷺ، وإلا لم يأت النص عليها؛ لأن هذا لا يحتاج إلى نص؛ لأن الله جل وعلا يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة: ٢١]، فالعبادة هي التوحيد، تكون العبادة خالصة له وحده ثم قال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، هذا هو توحيد الربوبية: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، ثم قال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾... الآية. فالخلق من صفاته، فهذا هو توحيد الأسماء والصفات: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢٢]، فهذا توحيد الربوبية، فالآية فيها الأقسام الثلاثة.

وهكذا قوله جل وعلا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة].

«﴿ٱلْحَمْدُ﴾»: هو: الثناء على الجميل الاختياري الذي يفعله المحمود. والحمد كله لله جل وعلا، فهو المستحق للحمد كله.

---

(١) مدارج السالكين ٣/٤٤٩.

(٢) فتح المجيد ص٣٧.

«﴿ٱللَّهِ﴾»: عَلَمٌ على الذات المقدسة. كما جاء عن ابن عباس أنه قال: «الله» ذو الألوهية والمَعْبودية على خلقه أجمعين[(١)]؛ يعني: أنه هو المألوه الذي تألهه القلوب وتعبده وتوحِّده، والقلب لا يطمئن إلا بعبادته، فإذاً معنى الله غير معنى الرب.

«﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾»: الرب: هو المالك المتصرف الذي يملك ويتصرف، ويقوم على المملوك بما يحتاج إليه من رزق وحياة وحماية وغير ذلك.

«﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾»: اسمان لله، ففيه توحيد الأسماء والصفات، وهذا كثير جداً في القرآن إذا تتبعه العبد وأمعن النظر فيه، كما قال جل وعلا في آخر سورة من القرآن: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾ [الناس: ١ ـ ٣]، فهذه الأقسام كأنها صريحة وواضحة في هذه السورة كما هي صريحة وواضحة في سورة الفاتحة، فكل القرآن إذا تأمله العبد يجد هذا.

ونقول أن هذا التقسيم استقرائي وليس بالنص؛ لأنه لم ينص على أنها ثلاث فقط، وإلا فالأدلة على هذه الأقسام واضحة وجلية.

ومن الجهل العظيم الذي يقول به بعض من يناصر الشرك وعبادة القبور ـ نسأل الله العافية ـ يقولون: إن أول من نطق بهذا التقسيم وتكلم به ابن تيمية، ثم جاء ابن عبد الوهاب وتبعه على هذا، وإلا الناس كانوا لا يعرفونه، الناس خلقوا موحدين، فهذا الجهل وعدم فهم كلام الله جل وعلا، إما أن يكون جهل عظيم، أو عناد كبير.

* **القسم الأول: توحيد الربوبية**، وهذا كثيرٌ في القرآن وهو واضح وجلي، وقد جعله الله جل وعلا دليلاً ملزماً للمشركين على توحيد العبادة لما قال جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٢﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢]؛

---

(١) تفسير الطبري ١/١٢٣.

يعني: أنهم يعلمون أن الله هو الذي خلقهم وهو الذي خلق من قبلهم، قال ﷻ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٨٧﴾ [الزخرف: ٨٧]، وهو الذي جعل لهم الأرض على هذه الكيفية مستقرة يستطيعون الانتفاع بها والسير عليها كما قال جل وعلا: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ۝١٥﴾ [الملك: ١٥]، وكذلك هو الذي خلق السماء فوقهم، وهو الذي توحد بإنزال المطر، وإنبات النبات لا يشاركه في ذلك أحد، النبات الذي يأكلون منه وتأكل منه أنعامهم، قال جل وعلا: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٣١﴾ [يونس: ٣١]، وقال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨٤ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٨٥ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۝٨٦ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٨٧ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨٨ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ۝٨٩﴾ [المؤمنون: ٨٤ ـ ٨٩]، فهو سبحانه تفرد بهذه الأشياء ليس له مشارك، فهم يعلمون هذا تمام العلم، ولا أحد يشك في هذا منهم، فإذا كانوا يعلمون ذلك فكيف يجعلون له أنداداً في الدعاء والتأله؟ ولهذا قال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ٢٢]؛ يعني: لا تعبدوا معه غيره ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٢﴾ [البقرة: ٢٢] أنه هو المتفرد بهذه المذكورات، فيجب عليكم أن تعبدوه وحده. وهذا المعنى كثير جداً في كتاب الله جل وعلا يُلزم المشركين بالعبادة الخالصة لله وحده، فإنه هو المستحق لها.

فإذاً الشرك الذي وقع منهم هو شركهم في الألوهية كونهم يطلبون من الشجر والحجر أو من الأموات النفع، والدفع، والشفع ـ يشفع له ـ يقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله ما نعبدهم إلا ليقربونا عند الله زلفى، فهم يقرُّون أن معبوداتهم عبيد مخلوقة معبدة كما كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريك هو لك تملكه وما ملك[1]. ولكن هذه المعبودات لها مقام

(١) رواه مسلم رقم ١١٨٥ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان المشركون يقولون: لبيك =

عند الله تشفع لهم فقط هذا هو شركهم في الواقع، أما أن أحداً كان يعتقد أن مخلوقاً شارك الله جل وعلا في الخلق والإيجاد، أو الإحياء والإماتة، أو التصرف في الكون فهذا ما وقع، فتوحيد الربوبية واضح وجلي لم ينكره أحد إلا ما جاء شذوذاً من بعض الطغاة الذين يعاندون ويكابرون ويدعون الناس إلى عبادتهم، وإن لم تكن صراحة، وقد تكون صراحة مثل ما قال فرعون: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [القصص: ٣٨]. وكذلك الطاغوت الآخر الذي قال لإبراهيم عليه السلام: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْۦِى وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْۦِى وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة: ٢٥٨]، وهو كاذب، هي دعوى باطلة، فهذا شذوذ في الواقع وخروج عن الفطرة، وإلا إذا حقت الحقائق ووقع الأمر عادوا كما قال فرعون ـ عليه لعنة الله ـ لمَّا أدركه الغرق فقال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]، فقال الله تعالى: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [يونس: ٩١، ٩٢]، الآن لما عاينت الموت ما يفيد الإيمان في هذه الحالة، ولهذا قال الرسول ﷺ: «**تقبل توبة التائب ما لم يعاين**»[1]؛ يعني: يعاين ملك الموت، أو يعاين خروج روحه، فهم في حقيقة الأمر يقرون به قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ

= لا شريك لك، قال: فيقول رسول الله ﷺ: «ويلكم قد قد» فيقولون: إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك يقولون هذا وهم يطوفون بالبيت.

(١) الزهد لأبي حاتم الرازي ١/ ٧٢ عن أبي مجلز، قال: «لا يزال العبد في توبة ما لم يعاين الملك» وتفسير الطبري ٨/ ٩٤ وفيه كذلك عن الضحاك: «إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب»، وله التوبة ما بينه وبين أن يعاين ملَك الموت، فإذا تاب حين ينظر إلى ملك الموت، فليس له ذاك.

ﭐلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل: ١٤]، كما قال تعالى حكاية عن موسى وهو يناظر فرعون: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾ [الإسراء: ١٠٢]، ولكنهم في الظاهر يتظاهرون بإنكاره اتباعاً لما هم عليه من الملك والعبودية؛ يعني: أنهم يُعبدون، وهكذا الطواغيت التي تقول للناس: أطيعونا واتركوا أمر الله، أمرنا هو الذي يجب أن يفعل، وهو الذي يجب أن يُتبع فهذه عبادة لهم وهم يدعون إلى عبادة أنفسهم، ولا تخلو الأرض من مثل هؤلاء، فالتوحيد يبطل هذا الاعتقاد وهذا القول تمام الإبطال، ولهذا يريدون أن يعمُّوا الأمر على الناس، ويريدون أن يضعوا بدل التوحيد سماحة الأديان ومشاركتها في الاعتقاد، كما يقولون، وكما يَدعون إليه، ولكن دعوتهم ستبوءُ بالفشل بإذن الله جل وعلا، فإن الله جل وعلا فطر خلقه وضمن لنبيه ﷺ أن تقوم أمةٌ من أمته على الحق ظاهرين منصورين لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك، نسأل الله جل وعلا أن يجعلنا منهم.

فالمقصود أن توحيد الربوبية كانوا مقرِّين به ولا ينكرونه، ولكن لا يُدخلهم ذلك في الإسلام كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: ١٠٦]. جاء عن ابن عباس أنه قال: من إيمانهم، إذا قيل لهم: من خلق السموات؟ ومن خلق الأرض؟ ومن خلق الجبال؟ قالوا: «الله»، وهم مشركون به[١]. وكذا قال مجاهد، قال: إيمانهم قولُهم: الله خالقنا، ويرزقنا ويميتنا، وهم يشركون به[٢]. وهذا كثير أيضاً في القرآن، فإقرارهم بتوحيد الربوبية أمر ظاهر، ومع هذا لا يجدي وحده، ولا ينفع، ولا يجعل الإنسان مسلماً، والله جل وعلا أخبر عن المشركين أنهم إذا سُئلوا من خلق السماوات والأرض قالوا الله، فهم يعلمون هذا تماماً، ومع هذا هم في النار إذا ماتوا على شركهم.

* **القسم الثاني: توحيد الأسماء والصفات**، فهو مبني على انفراد الله

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/٤١٨.

(٢) تفسير الطبري ١٦/٢٨٨.

جل وعلا بما سمَّى به نفسه وما اتصف به، لا يشاركه فيه أحد من الخلق، وهذا القسم ظاهر وجليٌّ، والخلق مقرون به حتى كفار قريش لم يأت أنهم أنكروا من ذلك إلا اسم (الرحمٰن) جل وعلا، وهذا الإنكار من باب المكابرة، وإلا السور المكية مملوءة بأسماء الله جل وعلا وأوصافه، ولم يأت عنهم أنهم أنكروا شيئاً من ذلك، قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: والظاهر أن إنكارهم هذا؛ يعني: (الرحمٰن)، إنما هو جحود وعناد وتعنت في كفرهم، فإنه قد وجد في أشعارهم في الجاهلية تسمية الله تعالى بالرحمٰن. قال ابن جرير رَحِمَهُ اللهُ وقد أُنشد لبعض الجاهلية الجُهال:

ألا ضَرَبَتْ تلك الفتاةُ هَجِينَها   ألا قَضَبَ الرحمٰنُ ربي يمينها

وقال سلامة بن جندل الطهوي:

عَجِلْتُمْ علينا عَجْلَتَيْنَا عليكُمُ   وما يَشأ الرحمٰن يَعْقِد ويُطْلِقِ[1]

وأسماء الله جل وعلا في القرآن كثيرة جداً، فهي أكثر من ذكر الأحكام؛ لأن الله بعلمه وحكمته كل ما كان الناس إلى شيء أحوج كان وجوده وكثرته تناسب ذلك، فالله جل وعلا علم أن الناس يلحدون في أسمائه، وأنهم يضلون فيها فأكثر من ذكرها جل وعلا، فقد وقع الخلل في هذا القسم من جانبين:

جانب التقصير والجفاء، ومن جانب الزيادة والغلو، فوقع التشبيه ووقع التعطيل.

وعبادة الله جل وعلا العبادة الصحيحة الحقيقية النافعة لا يمكن أن تكون إلا بعد معرفة أسمائه، وفهمها، والتفقه فيها، ولكن كون هذين القسمين الأول والثاني ظاهرين وجليين لم يتكلم المؤلف رَحِمَهُ اللهُ عليهما.

* **القسم الثالث: توحيد الألوهية**، وهو الذي وضع الكتاب من أجله؛ لأن الخلل والخلاف وقع فيه كثيراً، وهذا الخلل ليس حديثاً بل هو قديم،

(١) تفسير ابن كثير ١/ ١٢٧.

والرسل الذين أرسلت كلهم لأجل أن الناس أخلوا بهذا القسم من التوحيد وصار بعضهم يلجأ إلى بعض العباد ويعبدونهم ويسألونهم سواء سؤالاً يقصد به النفع الحاضر، أو النفع المؤجل الذي يكون شفاعة يوم القيامة ونحوها.

ثم الذي يضاد التوحيد الشرك، ولفظة الشرك تدل على أنهم يعبدون الله ولكنهم عبدوا معه غيره، وبذلك صاروا مشركين، والشرك أيضاً أقسام ثلاثة مثل أقسام التوحيد؛ يعني: كل قسم من أقسام التوحيد فيه شرك:

فالشرك في الربوبية، مثل: جحد فرعون ونحوه، أن الله هو الخالق، قال: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٣﴾ [الشعراء: ٢٣]، فهذا تجاهل منه؛ وكذلك شرك الفلاسفة الذين يقولون: إن هذا العالم أزلي قديم ليس له مبدأ، وسيبقى كذلك بلا نهاية فهذا شرك أيضاً في الربوبية، وهو من الشرك الظاهر الجلي.

أما الشرك في الأسماء والصفات، فمثل: شرك النصارى الذين جعلوا مع الله إلٰهاً أو خالقاً وجعلوه عيسى، ومثل شرك الحلولية والاتحادية من الصوفية الذين قالوا: الله حالّ في الكون، أو أن الله الكون كله، وهذا من أقبح الشرك، وهو يناقض كتاب الله جل وعلا، ومراده جل وعلا فبعضهم يجعلوه الغاية في التوحيد والمعرفة كابن عربي حيث يقول:

العبد رب والرب عبد ... ليت شعري من المكلف
إن قلت رب فهو ميت ... وإن قلت عبد أنى يُكلَّف

ويقول:

وكل كلام في الوجود كلامه ... سواء علينا نثره ونظامه[1]

يعني: كل ما يُنطق به فهو كلام الله، حتى نبح الكلاب عنده، تعالى الله وتقدس، وكذلك أتباعه مثل: ابن الفارض الذي يسمونه صاحب نظم السلوك، وشيخ الإسلام يسميه «نظم الشكوك»[2]، بل نظم الشرك في الواقع، حيث إنه

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية «التفسير» ١/ ٢٤٠.
(٢) مجموع الفتاوى ٤/٧٣ ـ ٧٤ يقول ﷺ: وابن الفارض من متأخري الاتحادية =

يجعل العبد يصلي لنفسه، ويعبد نفسه ليس هناك فرق[1]، ولما قيل للتلمساني: ما الفرق عندكم بين الزوجة والأجنبية والأخت، والكل واحد؟ قال: لا فرق بين ذلك عندنا، وإنما هؤلاء المحجوبون اعتقدوه حراماً، فقلنا هو حرام عليهم، وأما عندنا فما ثم حرام[2].

فالمقصود أن هذا من الشرك القبيح، الشرك في الأسماء والصفات، ومن ذلك: اشتقاق أسماء للمعبودات من دون الله مثل: تسمية الصنم إلٰهاً، فهذا شرك كما جاء عن ابن عباس ﷺ صريحاً قال: «اللّات» بالتشديد: كان رجلاً يلت السَّويق للحجاج[3]، فلما مات عكفوا على قبره[4]. وعنه ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ [الأعراف: ١٨٠] قال: إلحاد الملحدين أن دعوا اللات في أسماء الله. عن مجاهد قال: اشتقوا «اللات» من الله، واشتقوا «العُزَّى» من العزيز[5].

أما الشرك في الألوهية فهو واضح وهو أن يجعل شيء من العبادة لغير الله، وهو ينقسم إلى قسمين: أكبر وأصغر كما هو معلوم.

= صاحب القصيدة التائية المعروفة بنظم السلوك، وقد نظم فيها الاتحاد نظماً رائق اللفظ فهو أخبث من لحم خنزير في صينية من ذهب، وما أحسن تسميتها بنظم الشكوك الله أعلم بها وبما اشتملت عليه، وقد نفقت كثيراً وبالغ أهل العصر في تحسينها والاعتداد بما فيها من الاتحاد، ولما حضرته الوفاة أنشد:

إن كان منزلتي في الحب عندكم ... ما قد لقيت فقد ضيعت أيامي
أمنية ظفرت نفسي بها زمناً ... واليوم أحسبها أضغاث أحلام

(١) أولياء الرحمٰن وأولياء الشيطان ١/ ٦٩ يقول:

لها صلواتي في المقام أقيمها ... وأشهد فيها أنها لي صلت
كلانا مصل واحد ساجد إلى ... حقيقته بالجمع في كل سجدة
وما كان لي صلى ولم تكن ... صلاتي لغيري في أداء كل ركعة

(٢) جامع الرسائل ١/ ٢٦٦.

(٣) رواه البخاري رقم ٤٨٥٩.

(٤) تفسير الطبري ٢٢/ ٥٢٣ قال: وقرأ ذلك ابن عباس ومجاهد، وأبو صالح «اللّات» بتشديد التاء وجعلوه صفة للوثن الذي عبدوه، وقالوا: كان رجلا يَلُتّ السويق للحاج؛ فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه.

(٥) تفسير ابن كثير ٣/ ٥١٥ ـ ٥١٦.

الأكبر: جعل شيء من العبادات التي ثبتت أنها عبادة لله جل وعلا للمخلوق، فإذا فعلت العبادة لمخلوق فهذا هو الشرك الأكبر مثل: الدعاء والرجاء، والخوف والمحبة، أو الذبح، أو نذر، أو استعاذة، أو استغاثة، وما أشبه ذلك من العبادات الثابتة لله جل وعلا، فهو شرك أكبر.

أما الشرك الأصغر: فإن كثيراً من العلماء عدل عن التعريف بذكر الضابط إلى تعريفه بالأمثلة فقالوا: كيسير الرياء، وكالحلف بغير الله، ومثل قول الرجل: لولا الله وأنت، ولولا كذا لكان كذا، وما أشبه ذلك، وهذا تعريف ابن القيم[1].

أما التعريف الذي يقول: إنه كل وسيلة إلى الشرك الأكبر فإنه يكون شركاً أصغر فهذا غير منضبط؛ لأن هناك وسائل توصل إلى الشرك الأكبر وليست من الشرك الأصغر، مثل: الصلاة عند القبر لله جل وعلا، فكون الإنسان يصلي عند القبر مخلصاً في صلاته لربه جل وعلا، فهذه وسيلة إلى الشرك الأكبر، وليست من الشرك الأصغر، بل هو من المحرمات التي جاء النهي عنها.

على هذا نقول: التوحيد المقصود به أن يوحد الله جل وعلا في فعله، وأن يوحد في أسمائه وصفاته، وأن يوحد في حقه الذي أوجبه على خلقه، فتوحيد الله في أفعاله، وكذلك في خصائصه ـ من الأسماء والصفات التي تخصه ـ وكذلك في حقه الذي أوجبه على خلقه أن يُجعل واحداً في هذه لا شريك له، لا يشاركه مخلوق في شيء من هذه الأمور الثلاثة، فعله الذي هو تصرفه، وخلقه وإحياؤه، وإماتته، وأسماؤه، وصفاته، فهو الرحمٰن الرحيم، الحي القيوم، وهو على كل شيء قدير، وبكل شيء عليم، فجميع أسمائه يجب أن تكون خاصة به وأنه لا يشاركه فيها أحد من الخلق، وهذان أمران واضحان.

أما حقه الذي أوجبه على خلقه فهو الذي فيه الكلام الكثير، وهو الذي

(١) مدارج السالكين ١/ ٣٤٤، إغاثة اللفهان ١/ ٥٩.

فيه الخلل وهو الذي يحتاج إلى البحث، والتفقه، والنظر، وإرجاع أفعال الناس فيه إلى النصوص من الكتاب والسُّنَّة حتى تستقيم على الصراط المستقيم.

❁ قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ: وقول الله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات].

قوله: «وقول الله»: بالجر والرفع، إما استئناف، أو عطف على كتاب التوحيد، وهذا في كل ما يأتي إلى آخر الكتاب.

قوله: «﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾»: يخبر جل وعلا أنه خلق الجن والإنس لعبادته، وهل هذا خبر أو أمر؟ فإذا كان خبر فإنه يرد عليه إشكال كما استشكله بعض المتكلمين فقالوا: إن هذا خبر، والخبر يجب أن يكون مطابقاً للواقع، وأخبار الله جل وعلا لا تُخالف الواقع، فهي صدق وحق ولا يمكن أن يكون خبره مخالف للواقع فأين صدق هذا الخبر؟ فالواقع إذا نظرنا إليه ليس كذلك، أكثر الخلق لا يعبدون الله جل وعلا، ولفظ الآية لا يدل على أنه أمر، وإذا قلنا: إنه خبر بمعنى الأمر؛ لأنه يأتي الخبر ويقصد به الأمر ويكون ذلك أبلغ؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [البقرة: ٨٤]، وهذا خبر بمعنى الأمر، ولهذا ثبتت النون في ﴿لَا تَسْفِكُونَ﴾ فهم يقولون: إذا جاء بهذه الصيغة فهو أبلغ من كونه يأتي أمراً مجرداً، ولكن هذه الآية على خلاف ذلك ﴿وَمَا خَلَقْتُ﴾، فهو خبر ظاهر، ولهذا جاء الإشكال الذي أورده المتكلمون، وهم في الواقع لم يفهموا الآية، ولم يفهموا مراد الله جل وعلا، فهذا الخبر عن الغاية التي خُلقوا لها، والحكمة التي أُوجدوا لها، ولهذا يقول العلماء: إن هذه الآية تدل على الحكمة من إيجاد الخلق، والحكمة المقصود بها هي: الغاية التي وجد الخلق من أجلها، ولا يلزم من ذلك أن يمتثلوا ذلك وأن يفعلوه، فالله جل وعلا يخبر أنه خلقهم وأوجدهم ليوجدوا هم العبادة حتى يستحقوا بذلك الجزاء، ولم يذكر أنه جل وعلا هو الذي يُوجد العبادة فيهم وقد جعل الله جل وعلا لهم القدرة على ذلك،

أعطاهم العقل، وأعطاهم الفكر والنظر، وأعطاهم القوى التي يعملون ما أُمروا به، ومكنهم من ذلك وصار الاختيار إليهم، فهو جل وعلا خلق الخلق للجزاء بعد أن يأمرهم وينهاهم، فيتميز من يستحق الإحسان والإكرام، ومن يستحق العذاب ولا يكون ذلك إلا بالأمر والنهي، وقد جعل لهم عقولاً وأفكاراً يميزون بها بين ما يضر وما ينفع، وجعل فيهم قدرات وإرادات، وهذه الإرادات والقدرات التي خُلقت فيهم صح بها أمرهم ونهيهم، وصح أن يضاف ذلك إليهم، وإذا فعلوا ذلك وامتثلوا أمر الله ونهيه استحقوا ما رتب على هذا فليس في الآية إشكال بل هي واضحة، وظاهرة والحمد لله.

وقد ذكر الله جل وعلا أيضاً غير هذا من الحِكَم التي من أجلها خلق الخلق، ولكنها ترجع إلى هذا كلها؛ كقولة تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: ١٢]؛ يعني: أنه خلقهم ليعرفوه بصفاته وأسمائه وأفعاله جل وعلا، وهذا داخل في التوحيد، وكذلك قوله جل وعلا: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ [تبارك: ١، ٢]، فهذا أيضاً ابتلاء داخل في العبادة في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾، يقول علماء البلاغة: إذا جاء النفي، ثم جاء الإثبات بعد، فهذا يدل على الحصر، وهذا من أبلغ الكلام مع الإيجاز؛ يعني: أن الجن والإنس إيجادهم وخلقهم محصور بالعبادة، في عبادة الله جل وعلا فقط.

وقدَّم الجن إما لتقدم خلقهم على الإنس، أو لغير ذلك لما هو أعلم به جل وعلا، وسمُّوا جنّاً لاجتنانهم واستتارهم، وإلا فهم على وجه الأرض معنا، ولكننا لا نراهم، والجن هم أولاد الشيطان، أولاد إبليس وذريته، ومعلوم أن لهم عقولاً ولهم أفكاراً ولهم تمييز فهم أهل للتكليف، وأهل للجزاء والعقاب، وقد أخبر جل وعلا أنه سيملأ جهنم من الجِنَّة والناس أجمعين؛ يعني: ممن لا يعبده جل وعلا.

والمقصود هنا من الآية ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ المطابقة للكتاب، وهذا هو الإسلام

الذي بُعثت به الرسل، ولهذا قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾؛ أي: إلا لآمرهم أن يعبدوني، وأدعوهم إلى عبادتي[1]. وعن مجاهد قال: لآمرهم وأنهاهم[2].

والعبادة: فعلُ أمر الله واجتناب نهيه، هذه هي العبادة، هذا أخذ من الآية.

والعبادة لها تعريفات، عرَّفها أهل الأصول بقولهم: ما أُمر به شرعاً من غير اطرادٍ عُرفي أو اقتضاء عقلي[3]؛ يعني هذا: أن العبادة هي ما أمر به الشارع من غير أن يدل عليه العرف المطرد عند الناس، ومن غير أن يكون دل عليه العقل؛ يعني: أن العرف والعقل لا دخل له بالعبادة.

وعرَّفها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بقوله: العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال، والأعمال الظاهرة والباطنة[4]؛ يعني: أعمال القلوب، وأعمال الجوارح، فالباطن ما يكون في القلب من المحبة والخوف والخشية، والرجاء، والإنابة وما أشبه ذلك، والظاهرة التي تفعل مثل: الذكر، والقراءة، والصدقة، وما أشبه ذلك، وهذا التعريف جامع مانع.

والعبادة مأخوذة من التعبيد: وهو التذليل من الذل، يقال: طريق معبد[5]، إذا ذُلل بوطء الأقدام[6]، وصار ليس حَزناً ولا صعباً، سهلاً سلوكه، فالعابد ذلت نفسه وانقادت، ففعل الأمر طائعاً منقاداً، بل مغتبطاً محباً لمن يعبده، ويرغب في ذلك ويتلذذ في هذا، فلا بد أن يكون فيها ذل، وخضوع، وتعظيم، فمجرد فعل الأمر بلا ذل، ولا خضوع، ولا تعظيم، لا يكون عبادة، فالواقع أن عبادة الله جل وعلا هي ألذ ما يكون، فالإنسان الذي ما يعرف العبادة على حقيقتها في الواقع ما وجد ألذ ما في الدنيا؛ لأن الناظر في لذات

---

(١) تفسير البغوي ٧/ ٣٨٠. (٢) درء التعارض ٤/ ٣٣٢.
(٣) الفروع وتصحيح الفروع للمرداوي ١/ ١٦٣، والمبدع شرح المقنع ابن مفلح ١/ ٨٣.
(٤) مجموع الفتاوى ١٠/ ١٤٩.
(٥) الصحاح في اللغة للجوهري ص٤٤٠.
(٦) تهذيب اللغة للأزهري ١/ ٢٣١ ويقال: طريقٌ مُعَبَّدٌ: إذا كان مذلَّلاً بكثرة الوطء.

البطون والفروج يرى أنه يشترك فيه الكلاب والبهائم، والعاقل وغير العاقل فهي ليست غريبة، وليست من الخصائص التي يختص بها أهل العبادة، وهكذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: أن في الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة[١]. لكن هذه الجنة تتفاوت عند الناس تفاوتاً كثيراً جداً، بعضهم يجد شيئاً من اللذة قليلاً، وبعضهم يجد شيئاً كثيراً جداً مثل ما قال إبراهيم بن أدهم: والله لو يعلم الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف ـ وهم لا يُريدون هذا، هم يريدون الدنيا فقط ـ ويقول بعضهم: إنه ليمر بالقلب أوقات أقول: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب. وقال بعض المحبين: مساكين أهل الدنيا خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها، قالوا: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله والأنس به، والشوق إلى لقائه، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه، ونحو هذا من الكلام[٢]. ولهذا يتحمل العبد الضرب، والقتل، والسجن، والتعذيب، وغير ذلك في هذا السبيل، ولا يبالي، ويحتسب ذلك عند ربه جل وعلا، ويتحدى بذلك الطغاة، فهو عبد لله جل وعلا، وليس عبداً لطواغيت الأرض، فهذا هو المطلوب من العبد أن يكون على هذه الصفة، ولكن الناس يتفاوتون كما حصل للصحابيين اللذين وضعهما الرسول ﷺ في شعب للحراسة حتى لا يأتي العدو، فعن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة ذات الرقاع من نخل فأصاب رجلٌ امرأةَ رجلٍ من المشركين، فلما انصرف رسول الله ﷺ قافلاً أتى زوجها، وكان غائباً، فلما أخبر الخبر حلف لا ينتهي حتى يهريق في أصحاب محمد دماً، فخرج يتبع أثر رسول الله ﷺ، فنزل رسول الله ﷺ منزلاً فقال: من رجل يكلؤنا ليلتنا هذه؟ قال: فانتدب رجل من المهاجرين ورجل آخر من الأنصار فقالا: نحن يا رسول الله، قال: فكونا بفم الشعب. قال: وكان رسول الله ﷺ وأصحابه قد نزلوا إلى شعب من الوادي، وهما عمار بن ياسر، وعباد بن بشر، فلما خرج الرجلان إلى فم الشعب قال الأنصاري

---

(١) الوابل الصيب ١/ ٦٧.

(٢) مدارج السالكين ١/ ٤٥٤.

للمهاجري: أي الليل تحب أن أكفيكه: أوله أم آخره؟ قال: بل اكفني أوله، قال: فاضطجع المهاجري فنام وقام الأنصاري يصلي، قال: وأتى الرجل فلما رأى شخص الرجل عرف أنه ربيئة «طليعة» القوم. قال: فرمى بسهم فوضعه فيه، قال: فنزعه ووضعه فثبت قائماً، قال: ثم رماه بسهم آخر فوضعه فيه. قال: فنزعه فوضعه وثبت قائماً، ثم عاد له بالثالث فوضعه فيه قال: فنزعه فوضعه، ثم ركع وسجد، ثم أهب صاحبه فقال: اجلس فقد أثبت، قال: فوثب فلما رآهما الرجل عرف أن قد نذرا به فهرب. قال: ولما رأى المهاجري ما بالأنصاري من الدماء قال: سبحان الله أفلا أهببتني أول ما رماك؟ قال: كنت في سورة أقرؤها فلم أحب أن أقطعها حتى أنفذها، فلما تابع عليّ الرمي ركعت فأذنتك، وايم الله لولا أن أضيع ثغراً أمرني رسول الله ﷺ بحفظه لقطع نفسي قبل أن أقطعها، أو أنفذها[١]. فلذة القرآن، والتأمل في كلام الله جل وعلا أنساه ألم الجراح، والدماء التي تسيل، وهكذا في غزوة بدر لما حرَّض الرسول الله ﷺ الصحابة على القتال قائلاً: **«والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة»**، وفي رواية عند مسلم أنه لما دنا المشركون قال النبي ﷺ: **«قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض»**، وعندما سمع ذلك عمير بن الحُمَام ﷺ قال: يا رسول الله! أجنة عرضها السماوات والأرض؟ قال: **«نعم»** قال: بخٍ بخٍ. فقال رسول الله ﷺ: **«ما حملك على قولك: بخ بخ»**، قال: لا، والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها. قال: **«فإنك من أهلها»**، فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن. ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة. فرمى بما كان معه من التمرات، ثم قاتلهم حتى قتل[٢]، وقال خالد بن الوليد: فوالذي لا إله غيره لأبعثن إليكم قوماً يحبون

(١) سيرة ابن هشام ٤/ ١٦٣.

(٢) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص٣٤٩.

الموت كما تحبون الحياة[١]. وهكذا الصحابة إذا سقط أحدهم قالوا له: هنيئاً لك الشهادة، يهنؤن الميت المقتول، كل واحد يود أنه هو ذلك المقتول.

المقصود من الآية قوله: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ المطابقة للكتاب، والعبادة لا تكون عبادة شرعية إلا إذا كانت خالصة لله جل وعلا، بدليل أن الكفار كانوا يعبدون الله جل وعلا، قال الله تعالى: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣﴾ [الكافرون: ٣]، ومشهور جداً، فكانوا يلبون به في أيام الحج يقولون: «لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك»[٢]، وهذا مما أدخله الشيطان عليهم في أول الأمر، وأول من فعل ذلك عمرو بن لحي الخزاعي الذي غيَّر دين إبراهيم ﷺ، فإنه كان يقود الحجيج إلى المشاعر؛ لأنه هو رأسهم، فجاءه الشيطان متمثلاً بصورة إنسان كلما صار يلبي قال: «لبيك لا شريك لك»، قال له: «إلا شريك هو لك»، فأنكر ذلك فقال له: «تملكه وما ملك» عند ذلك استساغها، وتبعه العرب على ذلك؛ والمقصود أنهم كانوا يعبدون الله جل وعلا بأنواع من العبادات ولكنهم يجعلون بينهم وبين الله وسائط يدعونهم لتقربهم من الله زلفى كما ذكر الله ذلك في القرآن: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ۝٣﴾ [الزمر: ٣]، ومعنى ذلك أنهم كانوا يتخذونها شفعاء لتشفع لهم، وإلا فهم يقرُّون بأن الله جل وعلا المالك لكل شيء، وأنه المتفرد بالملك وحده، فهي ـ أي: العبادة ـ لا تكون إلا إذا كانت بامتثال أمر العابد الذي جاء به الرسول ﷺ وإخلاص هذه العبادة للمعبود وحده، وهذا هو المراد هنا.

وينبغي أن نعرف أن العبادة تنقسم إلى قسمين من ناحية اللغة: عبادة تكون قسرية قهرية لا يثاب عليها، وهذه التي تكون بمشيئته الكونية، وهو جل وعلا كل ما في الكون خاضع له ذليل منقاد لحكمه ولقدره لا يتأبى عليه شيء، فلهذا قال جل وعلا: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٢/ ١٨٤.

(٢) رواه مسلم رقم ١١٨٥.

عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم: ٩٣]؛ يعني: ذليلاً خاضعاً منقاداً لا يمتنع على أمره، وهذا يشمل البر والفاجر والمؤمن، والكافر.

القسم الثاني: هو المعتبر، وهو أن تكون صادرة من العبد باختياره وقدرته فهو يعبد ويذل؛ يعني: تصدر العبادة منه عن اختيار وليس عن قهر وتقدير، بل عن اختيار منه، فهذه التي أمر الله جل وعلا بها، وهي المقصودة في هذه الآية، وهذه يكون معناها عبد بمعنى: عابد متذلل خاضع بالأمر، والنهي.

❁ **قال المؤلف** رحمه الله: **وقوله تعالى:** ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

الواو هنا واو القسم. وقد للتحقيق.

لأن المخاطب إما مشغول بأمر من أمور الدنيا، وإما أنه غافل، فإذا جاء الكلام مؤكداً بالقسم ونحوه، ففيه شيء من لفت النظر، والانتباه لهذا.

قوله: «﴿بَعَثْنَا﴾»: والبعث هو الإثارة، إثارة الشيء من مكمنه، يقال: بعثت البعير إذا أثرته من مبركه، وبعثت الصيد إذا أثرته من مكانه. وهنا البعث المقصود به الإرسال، وهو يخبر جل وعلا أنه أرسل في كل أمة من الناس رسولاً، وهذا الرسول يأمرهم أن يعبدوا الله وحده، وأن يجتنبوا الطاغوت وهذا هو التوحيد.

قوله: «﴿أُمَّةٍ﴾»: المقصود بها الجماعة من الناس والجن؛ لأن الرسل أرسلوا إلى بني آدم، وإلى بني الجن فهم الذين كُلفوا كما في الآية الأولى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، وهذا قسم من الله جل وعلا بالواقع الذي وقع فيخبرنا بذلك.

فقوله: «﴿فِي كُلِّ﴾»: كل هذه أداة عموم، تدل على أن كل أمة جاء فيها رسول داعياً يقيم الحجة على الخلق، ويدعوهم إلى عبادة ربهم، فالله جل وعلا أرسل رسله تترا، قال جل وعلا: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ [المؤمنون: ٤٤]؛ أي: تتابع، وقد تكون رسالة ... واحد، فلكل جماعة رسول.

ولفظ (الأمة) في كتاب الله جل وعلا جاءت بعدة معاني:

إحداها: هذا المعنى بمعنى الناس الكثيرين، والجماعة من الناس، والأمة التي يبعث إليها الرسول لا تكون أمة لهذا الرسول إلا إذا كانت مستجيبة له، ويأتي يوم القيامة معه من أجابه فقط، أما الكفار فهم خرجوا عن دعوته فأصبحوا إلى من سبقهم مضافين، فالكفر شيء واحد، وإن تعددت أنواعه.

المعنى الثاني: بمعنى الرجل القدوة الذي يُقتدى به، كما في قوله تعالى ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [النحل: ١٢٠]؛ يعني: أنه قدوة يقتدى به في الخير.

المعنى الثالث: بمعنى: الوقت، الطائفة من الزمن؛ كقوله جل وعلا: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾﴾ [هود: ٨]؛ يعني: إلى وقت محدود، وكقوله جل وعلا في قصة يوسف عليه السلام: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾﴾ [يوسف: ٤٥]؛ يعني: بعد ذهاب وقت على قوله: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢].

المعنى الرابع: الملة، والنحلة؛ كقوله جل وعلا: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الزخرف: ٢٢]؛ يعني: على نحلة ينتحلونها ويتعبدون بها.

وقوله: «﴿رَسُولًا﴾»: الرسول هو الذي يوحى إليه، ويكلف بإبلاغ هذا الوحي والدعوة إليه، وقد يكون غير النبي، وقد يكون بمعناه؛ يعني: أن الرسول يطلق على النبي والنبي يطلق على الرسول، ولكن إذا اجتمعا فكل واحد يكون له معنى، والصواب في هذا أن النبي الذي يبعث في أمة مسلمة، ويوحى إليه في أمور خاصة.

أما الرسول فلا بد أن يكون أرسل إلى قوم كافرين وكلف بإبلاغهم دعوتهم، وأوضح مثال لهذا ما جاء في حالة نبينا ﷺ، فإنه أول ما نزل عليه قوله جل وعلا: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق: ١ ـ ٥]، فبهذا الوحي الذي جاءه من الله صار نبياً؛ لأن النبي مأخوذ من الإنباء وهو:

الإخبار بالوحي، وليس فيه الأمر، فلم يأمره الله جل وعلا، ولا كلفه في شيء، وإنما أوحي إليه، ثم فتر الوحي؛ واختلف فيه العلماء منهم من قال: أنها سنتين، ومنهم من قال: أنها أقل من ذلك، ثم لما نزل عليه قول الله جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ [المدثر: ١، ٢] صار بذلك رسولاً؛ يعني: كلَّفه الله جل وعلا بالنذارة والأمر، فكان أولاً نبياً، ثم صار رسولاً.

والأنبياء في بني إسرائيل كثير كما هو معروف، والرسالة تتطلب أربعة أمور:

أولاً: مُرسلٍ، وهو الله جل وعلا.

ثانياً: مُرَسلَ، وهو الرسول البشري أو الملكي.

ثالثاً: مرسل به وهو القرآن أو الأمر.

رابعاً: مرسل إليهم، وهم الخلق، الجن، والإنس، ولا بد أن يكونوا قوماً كافرين.

قوله: «﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾»: هذا هو ثمرة الرسالة، بل هذا هو مقصودها؛ يعني: أن الرسول أرسل ليأمر قومه ليعبدوا الله.

والعبادة هي إخلاص العمل لله جل وعلا، أن يكون العمل المأمور به خالصاً لله جل وعلا، ولا يكون عبادة إلا إذا كان خالصاً لله، أما إذا كان فيه شرك؛ يعني: فيه عبادة لغير الله فلا يكون عبادة شرعية، وإن كان عبادة في اللغه، فيسمى في اللغة عبادة، ولكنه في الشرع ليس عبادة.

قوله: «﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾»: هذا من لازم العبادة؛ يعني: لا يمكن أن تكون العبادة صحيحة إلا باجتناب الطاغوت.

قوله: ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟﴾ الاجتناب أبلغ من الترك؛ يعني: كونوا في جانب وهو في جانب؛ يعني: بعيدين عنه، ابتعدوا عنه كل البعد؛ وهذا يدل على أنه لا تمكن عبادة الله، وإخلاص العمل له إلا إذا اجتنبت الطاغوت.

قوله: ﴿ٱلطَّٰغُوتَ﴾: الطاغوت مأخوذ من الطغيان، وهو: التجاوز في الحد. وكل ما تجاوز حده فهو طاغوت؛ لأنه خرج عن الوضع الذي خُلق

له، وأمر به فطغى، ولهذا يقول جل وعلا: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾﴾ [الحاقة: ١١]؛ يعني: زاد عن العادة والمعتاد، والحد الذي حد للخلق، العبودية لا يجوز أن يتجاوزوها ويتعدُّوها، فإذا جاوزوا العبودية، وطلبوا أن يكونوا شركاء للمعبود إما بالتشريع، أو بالأمر والنهي الذي يكون لله جل وعلا، أو بالاتباع، أن يكونوا متبوعين مطاعين في معاصي الله جل وعلا، فإنهم يكونوا تجاوزوا الحد.

والعبادة كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: العبادة هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة[١]؛ يعني: أقوال اللسان، وأقوال القلب وأعماله، وأفعال الجوارح، وهي أيضاً امتثال الأمر، واجتناب النهي على وجه التعبد، والذل، والخوف، لا بد أن يكون في العبادة ذل وخوف، فالعبادة مبنية على هذا الأمر أن يكون العابد ذليلاً لمن يعبده خاضعاً له، ويكون خائفاً منه؛ يعني: الذل والخوف المتضمن الرجاء، فالرجاء والخوف مبنى العبادة عليهما.

والطاغوت عرَّفه ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: الطاغوت كل ما تجاوز به العبد حده من معبود، أو متبوع، أو مطاع[٢]. فالذي يُعبد من دون الله يكون طاغوتاً، والذي يُطاع في معصية الله يكون طاغوتاً، والذي يُتبع بلا دليل يكون طاغوتاً، فهذه طواغيت العالم لا تخرج عن هذه الأمور الثلاثة.

وجاء عن الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ قوله: الطاغوت ما عُبد من دون الله[٣].

وإن كان هذا شاملاً يحتاج إلى استثناء، فإذا كان المعبود من دون الله مثلاً رجلاً صالحاً فإنه لا يكون راضياً بذلك، بل يكون ساخطاً، فلا يكون طاغوتاً وإنما الطاغوت الذي أمر بعبادته؛ يعني: الشيطان.

وأما التعيينات التي جاءت عن السلف، كما جاء عن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: الطاغوت الشيطان، وقال جابر: الطاغوت: هم الكهان، كل قبيلة فيها كاهن

(١) مجموع الفتاوى ١٠/١٤٩.
(٢) إعلام الموقعين ١/ ٥٠.
(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١/١٤٠٧.

ينزل عليهم الشيطان. وبعضهم قال: الطاغوت حيي بن أخطب، وكعب بن الأشرف. فهذا للتمثيل، وإلا الطاغوت أعم من هذا؛ وعلى كل حال طواغيت العالم كُثر، وكل ما صدَّ عن عبادة الله جل وعلا، ووقف أمام الناس يمنعهم من عبادة الله فهو طاغوت؛ فهو من الطواغيت سواءً كان حسياً أو معنوياً، والإنسان يجب أن يتأمل هذا الأمر؛ لأن هذا أمر مهم، وأمر عظيم جداً؛ فقد يكون الإنسان واقعاً في شيء من ذلك، ثم إن هذا فرض فرضه الله جل وعلا على جميع عباده أن يمتثلوا ذلك؛ أن يعبدوه، وأن يجعلوا العبادة له، وأن يجتنبوا الطواغيت.

فمعنى الآية إذاً: أنه جل وعلا يخبر أنه بعث في كل طائفة من الناس رسولاً يقول لهم: اعبدوا الله، واجتنبوا الطاغوت؛ كل رسول يقول لهم هذا، وهذا هو معنى لا إله إلا الله، وهذه الآية لها نظائر في كتاب الله كثيرة، وهي أصل العبادة التي بُعثت بها الرسل ففيها إثبات حق الله جل وعلا، وفيها أيضاً النبوة التي يتفضل الله بها جل وعلا على عباده بأن يُرسل لهم رسولاً يُبين لهم الحق، وينهاهم عن الباطل، ويدلهم على ما فيه خلاصهم، ونجاتهم من عذاب الله جل وعلا.

❁ **قال المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ: **وقول الله تعالى:** ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ [الإسراء: ٢٣].

قوله: «﴿وَقَضَىٰ﴾»: كلمة قضى جاءت لمعان عدة منها: فرغ من الشيء؛ كقوله جل وعلا: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ الآية [فصلت: ١٢]. ومنها: وصى. ومنها: قدر، وهذا كله جاء في القرآن، والمعنى يعرف بالسياق؛ يعني: أن السياق والقرينة هما اللذان يحددا المراد.

بعض المفسرين يقول: ﴿وَقَضَىٰ﴾ أمر، وهو كذلك. والقضاء فيه معنًى زائد، ففيه الزام بهذا، فالمراد: ألزم، وأوجب. فالله جل وعلا أمر أمراً حتماً لا يجوز مخالفته بحال من الأحوال.

«﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾»: هذا خطاب للرسول ﷺ وهو متجه لكل مخاطب وكل إنسان يخاطبه ربه جل وعلا، فهذا الأمر من الله لا بد منه لكل مربوب، والمربوب: هو المتصرَّف فيه، المخلوق الذي لا يملك لنفسه ضراً، ولا نفعاً، وهذه صفة الخلق كلهم.

قوله: «﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾»؛ يعني: أنه أمر أمراً شرعياً أن تكون العبادة له وليس الأمر قضائياً، ولهذا خالف أكثر الناس هذا الأمر؛ لأنه أمر شرعي، أما لو كان أمراً قضائياً؛ يعني: قدري فلا يمكن لأحد مخالفته، والواقع يدل على أن هذا ليس قدرياً كما قد يتوهمه بعض من لا يفهم هذا.

﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ عام في كل من تأتى إليه الخطاب من المكلفين ألا يعبدوا إلا إياه، وهذا هو التوحيد؛ يعني: أن تجعلوا العبادة له وحده، فتقديم ما حقه التأخير يدل على الحصر في هذا؛ يعني: أن تكون العبادة لله وحده جل وعلا، وكذلك إذا كان بالنفي والاستثناء ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾، فإن هذا حصر يدل على الاختصاص، فهو الذي جل وعلا يجب أن يخص بالعبادة وحده، كما أنه هو الذي تفرد بالخلق كذلك يجب أن يُفرد بالعبادة، أن يُفرده عباده بالعبادة ويتجهوا إليه بها وحده، فكيف يخفى هذا على بعض الناس، فيتوجه إلى الميت فيسأله يقول: اشفع لي، أو انصرني على فلان أو يقول: اكشف ضري، أو يقول مثلاً: أنا أريد ولداً، أو أريد كذا وكذا، فهل هم لا يفهمون أن الطلب، والسؤال عبادة؟ نقول: نعم؛ لا يفهمونه؛ لأنه خفي عليهم شيئان:

أحدهما: خفيت عليهم العبادة معناها وشمولها.

الثاني: خفي عليهم معنى الإله.

فبخفاء هذين الأمرين دخل الضرر على المسلمين، وهو تقصير منهم، وإلا فالأمر فيه وضوح، فالعبادة كما مر تعريفها لا يجوز أن تكون لمخلوق أصلاً، والسؤال، والدعاء من أشرف العبادة، فلا يجوز أن تكون لغير الله جل وعلا؛ أما كونك تسأل مخلوقاً شيئاً يملكه، وهذا المخلوق عندك حاضر يستطيع إعطائك إياه، فهذا فيه تفصيل كما هو معروف، لكن سؤال

أمر غيبي، أو أمر لا يقدر عليه إلا الله، فهذا لا يجوز أن يقع لمخلوق شرعاً، ولا يجوز أن يقع لمخلوق أصلاً، فإن وقع فهو الشرك الأكبر.

وقوله: ﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾: يدل على الإخلاص أيضاً؛ فالآية كل ألفاظها تدل على الإخلاص.

وقوله: «﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾»: إذا جاءت الواو العاطفة على أمر سابق فمعنى ذلك أن الأمر موجود، فكأنه قال: «وقضى أيضاً أن تحسنوا بالوالدين إحساناً»، وهذا يدل على تأكد حق الوالدين على الولد، وأنه أمر حتم، ولهذا قرنه الله جل وعلا بحقه تعظيماً لذلك.

قوله: ﴿إِحْسَٰنًا﴾: إحساناً نصب على المصدرية، وفعله معروف محذوف من جنسه من لفظه؛ يعني: «وأحسنوا بالوالدين إحساناً»؛ يعني: كل الإحسان الذي تستطيعون، ولم يعين شيئاً معيناً ولهذا جاءت ﴿إِحْسَٰنًا﴾ نكرة ليعم جميع الإحسان، فلا يكون إحساناً خاص، بل يشمل معاني الإحسان، والإحسان معناه: هو المبالغة في تحسين العمل وتزيينه، أن يكون غاية في ذلك وهذا حسب الاستطاعة.

ثم قال جل وعلا: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣] كل هذه تأكيدات، ومبالغة في إكرام الوالدين والاعتناء بحقهما غاية الاعتناء، والتحذير من إهمال ذلك، مما يدل على أن الأمر مهم جداً، ولهذا جاء في الحديث أنه: «**لا يدخل الجنة عاق**»[1]؛ أي: الذي يعق والديه لا يدخل الجنة ـ نسأل الله العافية ـ.

والله جل وعلا قرن ذلك بحقه مبالغة في ذلك حتى قال:

«﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾»؛ يعني: أي كلمة يمكن يفهم منها التضجر، وعدم

---

(١) رواه أحمد في المسند رقم ٦٨٨٢، والنسائي في الكبرى رقم ٤٩١٤، وابن حبان رقم ٣٣٨٤ من حديث عبد الله بن عمرو ولفظه: «**لا يدخل الجنة عاق، ولا منان، ولا مدمن خمر**»، ورواه ابن أبي شيبة في مصنفه رقم ١٩٨٢٣ من رواية أبي سعيد الخدري.

الارتياح، فهذا منهي عنه، وإذا فعله العبد فإنه لم يقم بما أوجب الله جل وعلا عليه، وهذا أمر معروف في كتب الفقه وغيرها وكتب الآداب، وكذلك في كتب الحديث، وهذا جاء تبعاً، ولكن هذه الأمور التي منها إكرام الوالدين، وبرهما، والإحسان إليهما وغير ذلك من إكرام الضيف، وإكرام الجار، كلها أوامر من الله بها يكمل التوحيد، ويتم، وإذا خالفها العبد نقص توحيده وصار إن لم يكن ذاهباً بالكلية ناقصاً يستوجب العذاب ـ نسأل الله العافية ـ.

❁ **قال المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ: **وقول الله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾** [النساء: ٣٦].

هذا من الأوامر بالعبادة؛ كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۝٢١﴾ [البقرة: ٢١]، وأمره جل وعلا يجب أن يمتثل.

قوله: «﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾»: العبادة كما سبق إنها تكون بامتثال أمر الله جل وعلا واجتناب نهيه، على وجه ترغب في ثوابه، وترهب من عقابه؛ ممتثلاً لأمره مؤمناً به، ولا تشرك به شيئاً.

وقوله: «﴿وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾»: هذا تأكيد لقوله جل وعلا: ﴿وَٱعۡبُدُواْ﴾؛ لأن العبادة إذا وقع فيها الشرك فليست عبادة شرعية، فلا تكون العبادة عبادة صحيحة إلا بترك الشرك، ولكن قد يتوهم أن عابداً عبد الله جل وعلا، وإن كان عنده شيء من الشرك، أن هذا يُجدي، وينفع، فبيَّن جل وعلا أن هذا لا يكون نافعاً.

فعبادة الله جل وعلا مع الشرك باطلة، ومردودة، وإلا فالخلق؛ أي: الكفار الذين بُعثت فيهم الرسل، كلهم يعبدون الله، ولكنهم يعبدون معه غيره فصاروا مشركين.

وقوله: «﴿شَيۡـٔٗاۖ﴾»: نكرة تدل على نفي الشرك كله، دقيقه وجليله وظاهره وخفيه؛ لأن الشرك أنواع كما سبق، فكل نوع من أنواع التوحيد يدخله الشرك على قسمين كما هو معلوم، ولكن الشرك في العبادة هو أكثرها

وقوعاً في الناس ولهذا ركز عليه، ولا يزال الشرك بكثرة في بني آدم، ويستمر إلى أن ينتهي الخلق، وقد ثبت: **«أن شرار الخلق من تقوم عليهم الساعة الذين يعبدون الشيطان ويتهارجون تهارج الحُمُر»**[1].

وهذه الآية في سورة النساء تسمَّى آية الحقوق العشرة؛ لأن فيها الأمر بعشرة أشياء ويبدأها بالأمر بعبادته: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾، مما يدل على أن العبد إذا لم يعبد الله فإن كل أعماله باطلة، ولا قيمة لها، سواءً أحسن بوالديه، أو لم يحسن بهما، أو أحسن بالناس أو لم يحسن بهم، فلا بد للعبد من إخلاص العمل حتى يكون عابداً لله جل وعلا، فإن لم يكن كذلك فهو كافر، أو مشرك.

❁ **قال المؤلف** رحمه الله: **وقول الله تعالى:** ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ١٥١﴾ [الأنعام: ١٥١].

هذه الآية في آخر سورة الأنعام في ذكر ما كان المشركون يحرِّمونه على أنفسهم بلا دليل، وإنما هو تحكُّم منهم وتزيين للباطل الذي زينته لهم شياطينهم، ووجدوا عليه آباءهَم فحرَّموا أشياء، وأباحوا أشياء بآرائهم، وأهوائهم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: إذا سرَّك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام[2]. ولهذا أخبر الله جل وعلا أن الأنعام ثمانية أصناف، وأنها كلها ذكورها وإناثها ما اشتملت عليه أرحام الأمهات؛ يعني: أنها كلها سواء، فكيف يحرمون الذكر أو الأنثى، ويحلون الثاني، مجرد آراء زينتها لهم شياطينهم من الجن والإنس، وكذلك إذا كان ميتاً في بطن أمه حكمهم فيه بالتحكم، وكذلك إذا كان مثلاً الأنثى جاءت بعدة بطون

---

(١) رواه مسلم رقم ٢٩٣٧ من حديث النواس بن سمعان، وليس فيه: **«الذين يعبدون الشيطان»**.

(٢) رواه البخاري رقم ٣٣٣٥.

متواصلة كلها إناث حرَّموها، وحرَّموا ركوبها، فكلها آراء باطلة ليس عليها من برهان، ولهذا قال الله جل وعلا لنبيه ﷺ:

«﴿قُلْ﴾»: هذا أمر لرسول الله ﷺ موجهاً له، ومع ذلك قال لنا: ﴿قُلْ﴾، ومعنى هذا: أنه ﷺ بلغنا كل ما سمع من جبريل ﷺ الذي تكلم به جبريل بلغنا إياه، وسُئل عن هذا ﷺ فقال: «**قيل لي فقلت**»[1]. ولهذا استدل العلماء بهذا على أن كل ما في المصحف هو كلام الله، ومن جحد حرفاً واحداً منه فهو كافر.

قوله: «﴿تَعَالَوْا﴾»: أي: هلموا واقبلوا.

وقوله: «﴿أَتْلُ﴾»: أقرأ عليكم، وأقص، وأذكر، وأخبركم بما حَرم ربكم عليكم حقاً، لا تخرصاً، ولا ظناً، بل وحي منه، وأمر من عنده، وليس بالأوضاع التي وجدتم عليها آباءكم فإن هذه لا تغني من الحق شيئاً.

ثم بدأ بأعظم المحرمات فقال:

«﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾»: هذه «ألا» معها «أن» ادغمت فيها، وتقدير الكلام حرَّم عليكم أن تشركوا به شيئاً؛ يعني: أنه حرم عليكم الشرك، وبدأ بالشرك من المحرمات؛ لأنه أعظمها، ولهذا جاء عن ابن مسعود ﷺ أنه قال للنبي ﷺ: أيُّ الذنب أعظم؟ قال: «**أن تجعل لله نداً وهو خلقك**»[2]، ولهذا حرم الله الجنة على من يموت وهو مشرك، قال جل وعلا: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة: ٧٢]، وهو لا يغفر أن يشرك به كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء: ٤٨]، فحرَّم الله جل وعلا أن يقع العبد في شيء من الشرك سواء كبيراً، أو صغيراً.

---

(١) رواه البخاري رقم ٤٩٧٦.

(٢) رواه البخاري رقم ٤٤٧٧، ومسلم رقم ٨٦.

قوله: «﴿أَلَّا تُشْرِكُوا﴾»: كلمة شرك يفهم منها أنهم كانوا يعبدون الله ولكن هذه العبادة ليست خالصة؛ أي: أنهم يجعلون من العبادة شيئاً لغير الله وهذا هو الشرك، أما الذي لا يعبد أصلاً فلا يقال: أنه أشرك، بل يقال: هذا أعرض ولم يعبد أصلاً، ومعروف أنهم كانوا يتعبدون بأنواع العبادات مثل الصوم، والحج، والصدقات والإحسان إلى الغير، والدعاء، وغير ذلك وكذلك الذبح، والنذر يتقربون إلى الله بأنهم يذبحون القربان عند البيت تعظيماً لله جل وعلا، ولكنهم يشركون في هذه العبادات مع الله غيره، وهذا الشرك أخبث الأعمال وأنجسها، لأن المشرك ألحق المخلوق الضعيف الذي هو نظيره، أو هو أقل منه درجة بالكامل العظيم من جميع الوجوه، فالعبادة لا تصلح إلا لله جل وعلا فالشرك أعظم الجرائم وأعظم الذنوب.

وقوله: «﴿شَيْئًا﴾»: نكرة تعم أنواع الشرك، سواء الشرك الذي عرفنا أقسامه بالحصر، والتقسيم والسبر بالنظر ما لله من حقوق، وما له من أوصاف، وما له من أفعال، فالشرك يدخل فيها كلها سواءً شرك التعطيل، أو شرك العبادة، أو شرك التشبيه، أو شرك الاشتقاق من كونهم يشتقون من أسمائه جل وعلا للمخلوقات شيئاً مثل كونهم يسمون اللات، أو العزى، أو ما أشبه ذلك، أو يسمونها الإلٰه، وهذا مشهور جداً يسمون الصنم إلٰه والمعبود إلٰه؛ لأن الإلٰه هو الذي يألهه القلب.

فكلمة ﴿شَيْئًا﴾ تعم الشرك الأكبر، والأصغر بأنواعه؛ والشرك الأكبر الذي هو صرف شيء من عبادة الله لغيره من مات عليه، فهو في النار قطعاً.

وأما الشرك الأصغر الذي هو مثل يسير الرياء، أعظم من الكبائر؛ لأن صاحب الكبيرة إذا مات على كبيرته، فهو تحت المشيئة، أما الشرك فلا؛ لأن الله قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ...﴾ الآية [النساء: ٤٨]؛ والشرك الأصغر لا يُخرج من الدين الإسلامي، فإن دخل النار، وعوقب فيها فإنه يخرج منها.

والشرك الأصغر: كيسير الرياء، ومصانعة الناس، ومثل أن يعمل عملاً صالحاً يبتغي به غرضاً من الأغراض، ويتبع هذا الشرك في الألفاظ مثل: الحلف بغير الله، وقول: لولا الله وفلان، وقد يكون هذا شركاً أكبر بحسب ما يقوم بقلب القائل، والآية تعم الشرك الكبير، والصغير، والعملي، واللفظي،

وفي هذا دليل ظاهر في الرد على المرجئة الذين يجعلون الإيمان بالقلب، أما الأعمال فهي لا تضر؛ لأنه إذا وجد عندهم الإيمان فإنه لا تضر معه معصية.

ومعلوم عند أهل السُّنَّة أن الإيمان مركب من أجزاء ثلاثة: من النية، والعلم، ومن القول والعمل، فلا بد أن تجتمع هذه الثلاثة كلها حتى يكون العبد مؤمناً؛ وهذه الآيات كلها تدل على قول أهل السُّنَّة، أنه لا بد من العمل، ومعلوم أن الله أرسل رسله معهم كلامه الذي هو أمره ونهيه ليمتثلوا الأمر، ويجتنبوا النهي، وهذا هو الإسلام؛ لأن الإسلام هو الانقياد لله بالطاعة والاستسلام له، وعدم الاعتراض.

والعبد يجب أن يهتم غاية الاهتمام بمعرفة أنواع الشرك، وأقسامه وقليله وكثيره حتى لا يقع في شيء منه وهو لا يدري، ولا يعذر في كونه يشرك بالله؛ لأن الشرك بيَّنه الله بياناً واضحاً، فلا يقول ما عرفت معناه فهذا تفريط منه فهو واضح في كتاب الله، وسُنَّة رسوله ﷺ أن يكون الذل والخضوع لله وحده، والرسول ﷺ بيَّن أن الإنسان إذا عمل من أجل شيء أنه يكون مشركاً، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه في صحيح البخاري[1]: «**تعس عبد الدينار، وعبد الدرهم، وعبد الخميصة...**» الحديث، فهو سماه عبداً للدينار، والدرهم، والخميصة والخميلة، ففي آخر الحديث تفسيراً لذلك: «**إذا أعطي رضي، وإذا منع سخط**»؛ يعني: أنه يعمل من أجل حصوله على الدنيا فسماه عبداً لذلك؛ والعبادة تختلف، والأوضاع تتجدد والأصنام تتغير، ففي زمن الرسول ﷺ فيه أصنام مجسدة، من حجر، وشجر ومن بشر، وغير ذلك، وفي الوقت الحاضر تغير الوضع صار هناك أصنام معنوية مثل: كون الإنسان يتعلق بهذه اللعبة قلبه ويترك فروض الله جل وعلا، ولا يبالي بها، هذه عبادة، والمال كذلك يتعبد القلوب فيكون همه الحصول على المال، ولا يبالي في أمر الله جل وعلا، وكذلك الطاعة والاتباع، وغير ذلك، وإذا فهمت العبادة فهم هذا كله.

قوله: «﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾»: ثم ذكر مثل ما في الآية الأولى، الإحسان بالوالدين مقروناً بوجوب عبادته تعالى وحده.

---

(١) رقم ٢٨٨٧.

وقوله: «﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾»: إملاق؛ يعني: من فقر، خوفاً من الفقر.

كان العرب منهم طوائف يقتلون أبناءهم، ويئدون البنات، والموؤودة هي الطفلة التي تدفن وهي حية، وأول من فعل ذلك بنو تميم، وذلك أنه صار بينهم وبين قبيلة من قبائل العرب قتال فغلبتهم هذه القبيلة وسبت بعض بناتهم، بعد ذلك قالوا هذا عار كون البنت تسبى، تُؤخذ من أهلها فصاروا يقتلونهنَّ، ثم وجد من يخاف الفقر من كثرة الأولاد ويقتلونهن والبنت لا تُغير، ولا تدافع بخلاف الولد فإنه يُغير، ويقاتل وصاروا يدفنون البنات، ومنهم من يفعل ذلك حتى في الذكور خوفاً من الفقر، ولهذا قال جل وعلا: ﴿مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾؛ يعني: خوف الفقر، فإن رزقهم على الله فهو يرزقهم ويرزقكم، وهذا جاء في آيتين، مرة قدم جل وعلا رزقهم عليهم ومرة قدم رزق الأولاد على أنفسهم، مما يدل على أنهم لا تصرف لهم بذلك فهم رزقهم تكفل به الله، وهذا يكون نهياً خاصاً عن هذه الحالة الخبيثة، ولهذا جاء في الصحيح من حديث ابن مسعود ﵁ قال: سألت رسول الله ﷺ: أيُّ الذنب أعظم؟ قال: «**أن تجعل لله نداً وهو خلقك**»، قلت: ثم أيٌّ؟ قال: «**أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك**»، قلت: ثم أيٌّ؟ قال: «**أن تزاني بحليلة جارك**»[1]؛ يعني: زوجة جارك، فذكر من كل نوع أعظمه، مع أن القتل جاء تحريمه مطلقاً، فدل هذا أنه أفحش الذنب وأعظمه، وذلك أن الولد محل الرحمة، والإحسان، والرعاية، فإذا قتل انعكست القضية.

فإذا انضم إلى هذا كونه يخاف الفقر، انضم إليه ذنب ثالث، وهو اعتقاد أن الرزق عنده هو، هو الذي يأتي به، وهو الذي يمكن أن يكثره أو يقلله، يُكثره بقلة الأولاد ويُقلله بكثرة الأولاد، جاء في أول كتاب الدارمي ﵀ بسنده بقوله: أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: «يا رسول الله إنا كنا أهل جاهلية، وعبادة أوثان، فكنا نقتل الأولاد وكانت عندي ابنة لي، فلما أجابت ـ يعني: صارت تعرف إذا دعيت أجابت، وإذا نهيت انتهت ـ وكانت مسرورة بدعائي

(١) سبق تخريجه ص٤١.

إذا دعوتها فدعوتها يوماً فاتبعتني فمررت حتى أتيت بئراً من أهلي غير بعيد فأخذت بيدها فرديت بها في البئر، وكان آخر عهدي بها أن تقول: يا أبتاه يا أبتاه، فبكى رسول الله ﷺ حتى كف دمع عينيه، فقال له رجل من جلساء رسول الله ﷺ: أحزنت رسول الله ﷺ، فقال له: كف فإنه يسأل عما أهمه، ثم قال له: أعد علي حديثك فأعاده، فبكى حتى كف الدمع من عينيه على لحيته، ثم قال له: **إن الله قد وضع عن الجاهلية ما عملوا فاستأنف عملك**»[(١)].

فهذه شنيعة فكيف نزعت الرحمة، ونزعت الرأفة من قلب الأب حتى أصبح بهذه المثابة وهذا من أمور الجاهلية، وأمور الجاهلية من أخبث الأشياء وأقبحها، ولكن يقارنونها بمحاسن الإسلام، وعوامل القرآن التي جاءت مطابقة للفطرة، والعقل وكذلك هي إحسان، فإذا قُرنت بها أمور الجاهلية الخبيثة مثل هذه تبيَّن حُسن الإسلام بياناً واضحاً، وهذا محفوظاً عنهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨﴾ [التكوير: ٨]، وهذه من الأمور العظيمة في السورة التي قال عنها رسول الله ﷺ كما في حديث ابن عباس: قال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله قد شبت، قال: «**شيبتني هود، والواقعة، والمرسلات،** و﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١﴾ [النبأ: ١]، و﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾ [التكوير: ١]»[(٢)].

والله جل وعلا قال: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨﴾؛ يعني: هي تسأل، فكيف الذي وأدها، فإذا كانت هي تسأل بأي ذنب قتلت، وهي ما لها ذنب، ذنبها أنها مولودة أنثى، وهذا أمر الله جل وعلا.

وبعض العلماء يلحق بهذا، الامتناع من إنجاب الأولاد خوفاً من العجز عن تربيتهم وعن كونه يوفر لهم ما يحتاجونه، من كل شيء، فيمتنع من كونهم يكثرون، ولكن هذا لا يدخل فيه؛ لأن هذا من الأسباب، والأسباب قد يفعلها

---

(١) رواه الدارمي رقم ٢.

(٢) رواه الترمذي رقم ٣٢٩٧ وقال: حديث حسن غريب، ورواه الحاكم في المستدرك رقم ٣٣١٤ وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

الإنسان لأمر يكون جائزاً، إما لمرض زوجة وما أشبه ذلك، وأما إذا كان الحامل عليها الخوف من الفقر فلا يجوز بحال من الأحوال وهي دعاية يهودية ونصرانية جاءت لقصد إقلال المسلمين، وعدم تكثيرهم؛ لأنهم يخافون من كثرتهم، ولهذا يُضيفون إلى هذا مبررات مثل: ما يزعمونه من أن الأرض سوف تمتلئ بالسكان، وتقل الموارد وتحصل المجاعات، وكل هذا كلام باطل.

ثم ذكر بعد هذا تحريم المحرمات فقال جل وعلا: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾.

وقوله: «﴿وَلَا تَقْرَبُوا﴾»؛ يعني: ابتعدوا عنها، فإن الذي يقرب من الشيء قد يقع فيه فكونوا بعيدين عن هذا، حتى لا تقعوا فيه؛ وبهذا يُستدل على أن العبد يجب عليه أن يحمي نفسه ودينه بالابتعاد عن مواطن الخوف، ومن ذلك قرناء السوء، ودعاة الخناء.

قوله: «﴿الْفَوَاحِشَ﴾»: هذه تعم الذنوب التي هي فاحشة، والفاحشة هي: ما فحش في نفوس أهل الاستقامة والنظر. وفحش؛ يعني: كبر. وقد ذكر الله هذا كثيراً في القرآن؛ يعني: الفواحش، ولهذا فسرت بأنها الذنوب الكبيرة.

وقوله: «﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾»: فهذه حالتان تستوفيان كل الذنوب، حالة الظهور، وحالة البطون ـ ما ظهر وما بطن ـ من العلماء من يقول: ما ظهر: ما كان بينك وبين الناس قد علموه، وما بطن: الشيء الذي تستره، يكون بينك وبين ربك. ومنهم من قال: الظهور ما كان بفعل الجوارح، باللسان واليد ونحوهما.

والباطن: ما كان في القلب؛ من النيات، والمقاصد، والغل، والحسد، وغير ذلك وأعمال القلوب أعظم من أعمال الجوارح. والصحيح أنها تعم هذا وهذا، فهي تعم كل فاحشة.

ثم قال: «﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾»: تقييدها بحق؛ يعني: أن الذي يجب عليه القتل شرعاً لا يدخل فيه هذا، وهذا معلوم كما في حديث ابن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب**

الزاني، والمفارق لدينه التارك للجماعة»[1]، فهذه الأمور الثلاثة إذا قتل فيها فهو مقتول بحق. وقد صح عنه ﷺ أنه قال: «**من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاماً**»[2]، مع أن قتل الكافر ليس من الكبائر بل هو من الصغائر إذا لم يكن معاهداً، أما إذا كان محارباً فإنه من الفضائل، بل فيه الأجور الكبيرة، والله أمر به، فالمعاهد هو الذي يعطى عهداً، يعطيه المسلمون عهداً أنه آمن، وأنه ليس عليه بأس منهم.

ثم قال: «﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾»: والوصية: هي إعلام الغير بأمر مهم، مع العظة، والتخويف، وهي أمر مؤكد، يؤكد على من يُلزم به. فالله جل وعلا أكد علينا هذه المذكورات.

وقوله: «﴿لَعَلَّكُمْ﴾»: «لعل» هذه للتعليل. قال القرطبي رحمه الله: هذا بالنسبة لنا، وليس بالنسبة لله جل وعلا، ومعنى ذلك أن الله يعلم كل شيء، يعلم ما سيصير، فلا يليق به جل وعلا أن يُضاف إليه هذا التعليل، هذا مقصود القرطبي رحمه الله[3]، التعليل ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ هذا علة الأمر، حتى نعقله وإذا عقلنا تذكرنا وإذا تذكرنا اتقينا، ولهذا جاء آخر الآية: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، وقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]، والتي بعدها: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، التعليل

---

(١) رواه البخاري رقم ٦٨٧٨، ومسلم رقم ١٦٧٦.

(٢) رواه البخاري رقم ٣١٦٦ من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١/٦٩ قال رحمه الله: قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ «لعلّ» متصلة بـ﴿اعْبُدُوا﴾ لا بـ﴿خَلَقَكُمْ﴾؛ لأن من ذَرَأه الله لجهنم لم يخلقه ليتّقي. قال ابن القيم رحمه الله في شفاء العليل ١/١٩٦: فصل: النوع السابع: التعليل بلعل وهي في كلام الله ﷻ للتعليل مجردة عن معنى الترجي فإنها إنما يقارنها معنى الترجي إذا كانت من المخلوق، وأما في حق من لا يصح عليه الترجي فهي للتعليل المحض كقوله: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، فقيل: هو تعليل لقوله: اعبدوا ربكم، وقيل: تعليل لقوله: خلقكم، والصواب: أنه تعليل للأمرين لشرعه وخلقه. ومنه قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]، وقوله: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]، وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، ﴿لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤]، فلعل في هذا كله قد أخلصت للتعليل، والرجاء الذي فيها متعلق بالمخاطبين.

بالنسبة لهذه الأوامر أننا إذا عقلنا وعرفناها كما ينبغي وامتثلنا، أنه يحصل لنا ذلك ولا بد، خلاف المعرض، أو الذي لا يهتم بها لا يحصل له شيء من ذلك.

❁ ثم قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الأنعام: ١٥٢].

قوله: «﴿وَلَا تَقْرَبُوا﴾»: هذا من أبلغ النهي؛ لأن النهي عن القربان يدل على أن يبتعد كل البعد عنه.

قوله: «﴿الْيَتِيمِ﴾»: اليتيم: هو الذي فقد والده في الصغر، وهو معدود من الضعفاء فقد لا يستطيع حماية حقه، ولهذا خُصَّ بذلك، ويدخل في هذا أيضاً من كان في معناه مثل المرأة، والأجير الذي لا يستطيع الانتصار لنفسه، فقد جاءت النصوص تحذر من هذا، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النساء: ١٠].

وقوله: «﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾»: استثنى هذا فقط، والتي هي أحسن: القيام عليه بمصالحه من التنمية، والتجارة به حتى لا يذهب، وهذا بالنسبة لمن تولاه. أما الذي ليس عليه ولاية فالنهي عام مطلق بالنسبة إليه؛ يعني: لا يقربه مطلقاً.

يقول العلماء: إذا كان الوصي على اليتيم له مال، فالأولى أن لا يأكل شيء من الربح، وإن لم يكن له مال، ولا يستطيع القيام عليه وتنميته والتجارة به إلا بترك مصالحه يجوز أن يأكل من الربح الشيء الذي يناسب ذلك؛ لأن ذلك من مصلحته؛ لأنه لو تركه مثلاً يمكن ينتهي، تأكله الزكاة، والصدقة، وغير ذلك.

وقوله: «﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾»: الكيل والميزان؛ يعني: اجعلوها وافية، وهذا قول بعض العلماء يقول: إن المقصود به المكيال نفسه لا يجوز تغييره، ولا يجوز إنقاصه، وكذلك الميزان الموازين نفسها يجب أن تبقى كما هي.

ومنهم من يقول: إن الكيل والميزان هو الذي يوضع في المكيال والميزان يجب أن يوفى، والآية تشمل هذا وهذا.

وقوله: ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾: بالعدل.

وقوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾: المعنى أنكم إذا امتثلتم الأمر، ثم وقعتم في خطأ غير مقصود لا تستطيعون التخلص منه فإن هذا معفو عنه.

وقوله: «﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾»: هذا نهي عن الظلم مطلقاً، فهو أمره جل وعلا بالعدل بالقول بعد العدل بالفعل، فأمر بأن يعدل الإنسان بالقول سواء على القريب والولي، أو على البعيد، والعدو، فالقول يجب أن يكون بحق، وعدل مطلقاً، ولهذا قال: ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾؛ يعني: الذي تقولون فيه هذا، وإن كان قريباً منكم يجب أن تقولوا الحق، ومثل ذلك إذا كان بعيداً، وقوله له ليس عليه، فيجب على العبد أن يكون متقياً لربه جل وعلا. يقول العلماء: إن العدل إذا كان يُفعل خوفاً من الله، فعلامة ذلك أنه لا يتغير بالنسبة لمن فُعل معه، محبوباً قريباً، أو مبغضاً بعيداً يكون سواء، ولا يتغير بكون هذا الذي قيل فيه صديقاً لك، أو غير صديق.

ثم أمر بالوفاء بالعهد، فقال جل وعلا: ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟﴾، والوفاء بالعهد مطلقاً، وهذا هو الظاهر من السياق أن العهد: كل ما عُهد إليك بفعله من أوامر الله، ومن أمور الخلق، وإن كان الشارح رحمه الله خص هذا بالمواثيق التي تُبرم بين الناس.

ثم بعد ذلك أوصى وصية عامة، فقال جل وعلا:

۞ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣].

يعني: أن هذه الأوامر التي تقدمت في السورة، وهذه الأوامر التي نهى عنها هي صراط الله، وصراطه هو شرعه الذي جاء به رسوله ﷺ، ولهذا قال: «﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾»؛ يعني: امتثلوا الأوامر، واجتنبوا النواهي.

والصراط المقصود به: الطريق الذي يُسلك، سمَّاه صراطاً؛ لأنه يكون واسعاً لمن سلكه ومستقيماً واضحاً سهلاً، وهذا هو صفة الإسلام، ومنهم من قال الصراط؛ يعني: الكتاب. ومنهم من قال: النبي. ومنهم من قال: الإسلام. وكله حق، فكلها تدل على شيء واحد.

وقوله: «﴿مُسْتَقِيمًا﴾»؛ يعني: أنه سهل، واضح، وسلوكه ليس فيه ما يعثر من الشوك، والأمور التي قد تكون مؤثرة على السالك.

وهذا الصراط معنوي: وهو امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه. والصراط في كتاب الله صراطان:

معنوي: وهو دينه، وشرعه الذي جاء به الرسول ﷺ.

وحسِّي: وهو الصراط الذي ينصب على متن جهنم للعبور عليه إلى الجنة. ومعلوم أن الجنة. في السماء كما قال جل وعلا: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الذاريات: ٢٢]، والنار تكون في الأرض، ولكن ليس هناك عبور إلا من فوق النار، فينصب الصراط فمن كان مستقيماً على هذا الصراط المعنوي، استقام على ذاك الصراط «الحسِّي»، ومن تعثر على هذا تعثر على ذاك ولم يستطع السلوك، والسلوك على الصراط الذي ينصب على النار يكون بالأعمال وهذا أمر واضح.

وقوله: «﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾»: السبل: هي طرق الفساد، من البدع، والمعاصي، والمخالفات.

وقوله: «﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾»: يعني: أنها تأخذكم المآخذ التي ترديكم.

وقوله: «﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾»؛ يعني ذلك المتقدم وصاكم به ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾؛ يعني: إذا فعلتم هذا جعلتم بينكم وبين المخوف واقياً يقيكم.

❁ **قال المؤلف** رحمه الله: **قال ابن مسعود: من أراد أن ينظر إلى وصية محمد ﷺ التي عليها خاتمه، فليقرأ قوله تعالى:** ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ **إلى قوله:** ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥١ ـ ١٥٣][1].

ابن مسعود رضي الله عنه هو عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب

---

(١) رواه الترمذي رقم ٣٠٧٠ ولفظه: «**من سرَّه أن ينظر إلى الصحيفة...**»، والطبراني في الكبير رقم ١٠٠٦٠، ابن أبي حاتم رقم ٨٠٨٣.

أبو عبد الرحمٰن صحابي كريم من السابقين الأولين، حضر مع رسول الله ﷺ جميع المشاهد التي شهدها، وأرسله عمر ﷺ معلماً وقاضياً إلى الكوفة، توفي عام (٣٢) هجرية.

وهذا الأثر رواه الترمذي وحسنه، وكذلك رواه ابن المنذر، والطبراني، وابن أبي حاتم وغيرهم.

ومعناه: من أراد أن ينظر إلى وصيته التي كان الرسول ﷺ كتبها وختمها فلم يزد فيها ولم ينقص منها، ولم تغير، فليقرأ هذه الآيات؛ يعني: أن هذه الآيات هي مضمون ما أرسل الله جل وعلا به رسوله ﷺ، فهي آيات محكمات وفيها الأمر بعبادة الله جل وعلا والنهي عن الشرك، وكذلك القيام بحقوق الله، والقيام بحقوق خلقه، وأن هذا صراطه المستقيم الذي نصبه لعباده يوصل إلى الجنة، وليس لأحد طريق، أو مسلك يسلكه في النجاة إلا هذا الصراط، وهو مضمون شهادة أن لا إلٰه إلا الله، وأن محمداً رسول الله.

والرسول ﷺ لم يوص، وإنما أوصى بكتاب الله كما جاء في صحيح مسلم عن زيد ﷺ قال: «قام رسول الله ﷺ يوماً فينا خطيباً بماء يدعى غدير خم بين مكة والمدينة فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكر، ثم قال: **أما بعد ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به**، فحثَّ على كتاب الله ورغب فيه»، وفي رواية: «**كتاب الله ﷻ هو حبل الله، من اتبعه كان على الهدى، ومن تركه كان على ضلالة**»[1]، فحض على كتاب الله جل وعلا، والتمسك به، وكذلك سُنَّته ﷺ[2]. أما دعوى الطائفة المخذولة الرافضة أنه أوصى لعلي بن أبي طالب بأنه يكون خليفته، فهذا لا يستند إلى أثارة من علم، فهو من الكذب والتزوير والدجل، ودينهم كله مبني

---

(١) رواه مسلم رقم ٢٤٠٨.

(٢) سنن البيهقي الكبرى عن ابن عباس ﷺ: أن رسول الله ﷺ خطب الناس في حجة الوداع فقال: «**يا أيها الناس أني قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً كتاب الله وسُنَّة نبيه**» ومالك في الموطأ رقم ٣٣٣٨، والحاكم في المستدرك رقم ٣١٩.

على الكذب وهم يعلمون هذا، ولكنهم زنادقة؛ يعني: علماؤهم، وإنما يعتمدون الكذب للتلبيس على العوام.

وأما حديث ابن عباس ﷺ الذي في الصحيحين قوله: ﷺ في مرضه: «ائتوني بكتاب أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً»[١]، فهذا جاء مبيناً أنه أراد أن يكتب لأبي بكر ﷺ بأن يكون هو الخليفة، ثم عدل عن ذلك، وكان قال لعائشة ﷺ: «ادع لي أباك، وأخاك حتى أكتب له كتاباً لئلا يتمنى متمن أو يقول قائل»، ثم عدل عن ذلك وقال: «يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر»[٢]، ودل الصحابة على ذلك بأمره أن يتولى الصلاة بهم في مرضه ﷺ وقال: «مروا أبا بكر فليصل بالناس»، ولما روجع في ذلك غضب وقال: «مروا أبا بكر أن يصلي بالناس»[٣]، وغير ذلك من الأمور التي فيها إشارات، وإن كان بعض أهل السُّنَّة يقول: إن أمر أبي بكر بالنص وليس بالإشارة، ولكن الصحيح أن الأمور التي أشار إليها واضحة، وقد فهمها الصحابة، ولهذا عدل عن الكتاب صلوات الله وسلامه عليه، ولو أراد الكتاب لم يمنعه أحد ولكنه علم أن الصحابة سيتفقون على أبي بكر، ورأى أن اتفاقهم عليه أبلغ في التمسك بذلك. فالمقصود أن الرسول ﷺ أوصى بمضمون هذه الآيات العظيمة.

۞ قال المؤلف ﷺ: وعن معاذ بن جبل ﷺ قال: كنت رديف النبي ﷺ على حمار فقال لي: «يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد، وما حق العباد على الله؟»، قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «حق الله على العباد: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً»، قلت: يا رسول الله أفلا أبشر الناس؟ قال: «لا تبشرهم فيتكلوا»، أخرجاه في الصحيحين[٤].

---

(١) البخاري رقم ٣٠٣٥، ومسلم رقم ١٦٣٧، من حديث ابن عباس ﷺ.
(٢) مسلم رقم ٢٣٨٧.
(٣) البخاري رقم ٧١٣، ومسلم رقم ٤١٨، من حديث عائشة ﷺ.
(٤) رواه البخاري رقم ٢٨٥٦، ومسلم رقم ٣٠.

معاذ رضي الله عنه: هو معاذ بن جبل الأنصاري الخزرجي من كبار علماء الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، وهو معروف بعبادته، وكذلك بعلمه حتى جاء فيه قول النبي ﷺ: **«معاذ يحشر يوم القيامة أمام العلماء برتوة»**[1]، فسِّرت الرتوة بأنها رمية سهم، أو بأنها مد البصر، أو بأنها مرتفع أمام العلماء، وهذه الثلاثة المعاني التي ذكرها صاحب النهاية ابن الأثير، وقال في فتح المجيد: وهذه الثلاث أشبه بمعنى الحديث[2].

قوله: «كنت رديف النبي ﷺ»: الرديف: هو الذي يركب على دابة من خلف الراكب.

قوله: «على حمار»: فمعاذ رضي الله عنه كان رديف النبي ﷺ على الحمار، وهذا الحمار كان أهداه المقوقس للنبي ﷺ، وجاء أن اسمه «عُفير» مع بغلة، وجارية اسمها مارية التي جاءت بولده ﷺ إبراهيم عليه السلام، وهذا كان لما أرسل إليه الرسول ﷺ بكتابه يدعوه إلى الإسلام، وقد عرف أنه رسول الله حق، ولكنه ظل في ملكه كعادة الملوك، فإن الملك يمنع من اتباع الحق غالباً.

وفيه: أن الرسول ﷺ صفته ليست صفة الملوك، فما كان يتكبر عن ركوب الحمار بل هو يركبه، ويردف عليه مما يدل على تواضعه.

وفيه: أنه يجوز أن يحمل على الحمار، أو غيره أكثر من واحد إذا كان مطيقاً لذلك.

وفيه: فضيلة معاذ رضي الله عنه حيث جاء أنه رديفاً له، وجاء الإرداف لعدد من الصحابة، فأردف أسامة[3]، وأردف ابن عباس كما جاء في الترمذي أنه كان راكباً خلفه، فأوصاه بوصيته المشهورة[4].

قوله: «فقال لي: «يا معاذ»»: استدلوا بهذا على أن العلم يجوز أن يخصَّص

---

(١) أخرجه موصولاً ابن سعد في الطبقات ٢/٣٤٨، ٣/٥٨٠، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٢٢٨ من حديث عمر.

(٢) فتح المجيد ص٥٦.

(٣) رواه مسلم رقم ١٢٨٠.

(٤) رواه الترمذي رقم ٢٥١٦.

به شخص دون آخر لمصلحة أو أمر عام، ولكن هذا لا يدل على التخصيص، وفي آخر الحديث ما يدل على هذا ففيه نوع تخصيص، وليس تخصيصاً عاماً وهو قوله: «**أفلا أبشر الناس**»، قال: «**لا تبشرهم**»، ولكن معاذ فهم أن هذا ليس خاصاً به، وأن النهي ليس مطلقاً؛ يعني: بالنسبة لكل من يخبر بذلك، وإنما يدل هذا على أن الناس يختلفون في تقبل العلم، فمنهم من يفهمه على وجهه ومنهم من لا يفهمه، فالذي يخشى أن لا يفهمه على وجهه لا يلقى إليه إلا بعد المقدمات، وبعد الفهم، ولهذا السبب أخبر به معاذ عند موته، ولو كان خاصاً به لم يخبر به.

وقال الراوي: «فأخبر بها معاذ عند موته تأثماً»[1]؛ يعني: خوفاً من الوقوع في الإثم؛ يعني: في كتمان العلم.

وعلى هذا قوله: «**يا معاذ**»، هذا كخطابه ﷺ لسائر الأمة، فإنه ﷺ إذا خاطب رجلاً، أو امرأة فهو خطاب للأمة كلها، وهذا أصل يذكره أهل الأصول، فكلام الرسول ﷺ للرجل؛ ككلامه للأمة كلها؛ لأنه ﷺ رسول للأمة يخاطبها بما أمره الله جل وعلا.

قوله: «أتدري»: أتدري: استفهام من الدراية وهي العلم والمعرفة. وأسلوب الاستفهام جاء كثيراً في كلامه ﷺ وهذا من أبلغ التعليم، وأحسنه؛ لأن الإنسان إذا سئل عن الشيء الذي لا يعلمه ثم أُخبر به بعد الامتحان بالسؤال صار ذلك أدعى لفهمه وحفظه، فإن نفسه تتشوق للجواب، فيكون أحرص على تلقفه وتثبيته في نفسه أكثر مما إذا ألقي إليه بدون سؤال، وأصحاب كتب التربية يسمون هذا حواراً ويزعمون أن هذا شيء مبتكر، وهذا لجهلهم بأحاديث الرسول ﷺ وطريقته، وهذا بخلاف طريقة الإلقاء ويقولون: إنها ليست جيدة كونك تلقي فقط، لا بد أن يكون السامع مشاركاً معك فإذا شارك يكون أبلغ للقبول، وأقرب للفهم.

قوله: «ما حق الله على العباد؟»: كلمة حق تدل على الثبوت، واللزوم؛ يعني: الشيء الذي ثبت، ولزم، ولا محيد لهم عنه، بحيث أنهم لا ينفكون عن فعله، فإذا تركوه عذبوا.

---

(١) رواه البخاري رقم ١٢٩، ومسلم رقم ٣٢.

وهو مأخوذ من الثبوت، والاستقرار. يقال في اللغة: حق في المكان إذا ثبت واستقر فيه، ويقال للكلام الصدق حق؛ لأن وقوعه متحقق، فالحق هو مأخوذ من هذا؛ لأنه ذو ثبوت، واستقرار وعدم تزعزع، بخلاف الباطل فإن من صفات الباطل الزهوق والذهاب، والتزعزع، ولهذا يقول جل وعلا: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الأنبياء: ١٨]، وقوله جل وعلا: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء: ٨١]، وقوله جل وعلا: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾ [سبأ: ٤٩]، فالباطل صفته أنه يكون له صولة أول الأمر، ولكنه سريعاً ما يزهق ويتمزق أمام الحق؛ لأنه لا ثبات له، ولا استقرار، أما الحق فهو ثابت مستقر.

قوله: «ما حق الله على العباد؟»، وحق الله جل وعلا على عباده جاء تفسيره في الحديث تفسيراً واضحاً **بقوله:**

«أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً»، وهذا كلام جامع، فحقه تعالى على عباده أن يعبدوه مخلصين له الدين، يخلصون له العبادة ممتثلين ما أمرهم به، وأوجبه عليهم وأعظم حقه جل وعلا هو التوحيد، وكذلك من أعظم حقه اجتناب الشرك، وكل ما نهاهم عنه وحرمه عليهم، فهو من حقه ألا يفعلوه.

قوله: «أن يعبدوه»: والمراد بالعبادة فعل الطاعات، واجتناب المعاصي. والعبادة في اللغة: هي الذل، والخضوع، قال الأزهري: معنى العبادة في اللغة: الطاعة مع الخضوع. ويقال: طريقٌ مُعَبَّدٌ إذا كان مذلَّلاً بكثرة الوطء[1]. وقال الجوهري: أصل العُبودِيَّةِ الخضوعُ والذلُّ. والتعبيدُ: التذليلُ يقال: طريقٌ مُعَبَّدٌ[2]، وقال: والعِبادة: الطاعةُ. والتَعَبُّدُ: التَنَسُّكُ[3].

أما العبادة في الشرع، فقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: العبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال، والأعمال الباطنة والظاهرة.

(١) تهذيب اللغة ١/ ٢٣١.
(٢) الصحاح في اللغة ١/ ٤٤٠.
(٣) المصدر السابق ١/ ٤٤١.

وقيل هي: كمال الحب مع كمال الخضوع؛ لأن الحب الكامل، مع الذل التام يتضمن طاعة المحبوب والانقياد له، والعبد هو الذي ذلله الحب والخضوع لمحبوبه، فطاعة العبد لربه تكون بحسب محبته، وذله له.

وعطف على العبادة عدم الشرك، قال: «ولا يشركوا به»؛ لأن العبادة لا تنفع عند الله تعالى، ولا تعتبر إلا إذا كانت خالصة منه؛ أي: إذا كان العبد خالصاً من الشرك، وإلا تكون العبادة غير شرعية، وإن كانت العبادة تسمى عبادة في اللغة، ولكنها في الشرع لا بد من شرط خلوها من الشرك، والمشركون كانوا يعبدون الله، ويعبدون معه غيره، ولهذا اشترط نفي الشرك في اعتبار العبادة ويكون التقدير في هذه الجملة يعبدونه في حال عدم الإشراك به، هذا حقه عليهم، وقال ابن حبان: عبادة الله إقرار باللسان، وتصديق بالقلب، وعمل بالجوارح، ولهذا قال في الجواب: «فما حق العباد إذا فعلوا ذلك؟»، فعبَّر بالفعل، ولم يعبر بالقول[1]. «إذا فعلوا ذلك؟»، وهذا تعريف الإيمان عند أهل السُّنَّة، والإيمان هو العبادة.

وقوله: «وما حق العباد على الله؟»: وهذا جاء تفسيره في الحديث تفسيراً واضحاً **بقوله:**

«أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً»، والتقييد أن لا يعذب من يعبده، ومن لا يشرك به شيئاً، ولا بد من هذا التقييد؛ لأن عدم الشرك مع عدم العبادة لا ينفع، وهذا معلوم من نصوص الشرع، ولهذا قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في فتح الباري: اقتصر على نفي الإشراك؛ لأنه يستدعي التوحيد بالاقتضاء[2]؛ يعني ترك الشرك يستدعي التوحيد، ويلزم منه أن يكون العبد موحداً، فإن هذا مقتضاه. وقال رحمه الله: يستدعي إثبات الرسالة باللزوم؛ لأن العبادة لا تكون عبادة إلا إذا كانت بما جاء به الرسول ﷺ، ثم قال: إذ مَن كذَّب الرسول، فقد كذَّب الله، ومَن كذب الله فهو مشرك، وهذا مثل قول القائل: من توضأ صحت صلاته؛ أي: مع سائر الشرائط[3] المعتبرة للصلاة.

(١) فتح الباري لابن حجر ١١/٣٣٩.
(٢) فتح الباري لابن حجر ١/٢٢٨.
(٣) المصدر السابق.

فالمراد من مات حال كونه مؤمناً بجميع ما يجب الإيمان به، فحقه أن لا يعذب وأن يدخل الجنة.

قوله في الحديث: «شيئاً»: هذه نكرة في سياق النفي، فهي تدل على العموم؛ أي: أنه لا يقع منه شرك لا قليل، ولا كثير، ولا خفي، ولا جلي، فمن لا يقع منه الشرك على هذه الصفة مع عبادة الله تعالى فهو من السابقين إلى الجنة بغير حساب، ولا عذاب.

وقوله: «وحق العباد على الله»: هذا يدلنا على أن للعبد على ربه حقاً.

وقد استشكل بعض الناس هذا فقال بعضهم: معنى هذا أنه من باب المقابلة فقط[١]، والمقابلة تقال في كلام يقابل كلام، والمعنى غير مقصود، ولكن هذا لا يوجد في كلام الله جل وعلا ورسوله ﷺ.

ومنهم من قال: الحق معناه: «صدق الوعد»؛ يعني: كونه جل وعلا يبلغهم ما وعدهم والله لا يخلف الميعاد، فوعده حق[٢]. قال شيخ الإسلام: من أثبت شيئاً زائداً على هذا، وهو أن للعباد على الله حق، ولكن ليس على ما يفهم؛ لأن المفهوم من اللغة: أن الحق يحقه من هو أعلى على من هو عليه الحق، والعباد لا يصلون إلى هذا، أنهم يحقون على الله شيئاً، ولكن

---

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري ٣٢/ ١٣٢ ـ ١٣٣: قوله: ما حق العباد على الله يحتمل وجهين: **أحدهما**: أن يكون أراد حقاً شرعياً لا واجباً بالعقل كما تقول المعتزلة وكأنه لما وعد به ووعده الصدق صار حقاً من هذه الجهة. **والثاني**: أن يكون هذا من باب المشاكلة، وهو نوع من أنواع البديع الذي يحسن به الكلام. وقال النووي في شرحه على مسلم ١/ ٢٣١ بعد ذكره كلام صاحب التحرير: وقال غيره: إنما قال حقهم على الله تعالى على جهة المقابلة لحقه عليهم، ويجوز أن يكون من نحو قول الرجل لصاحبه: حقك واجب عليَّ، أي متأكد قيامي به. ومنه قول النبي ﷺ: **«حق على كل مسلم أن يغتسل في كل سبعة أيام»** والله أعلم.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ١/ ١٢. وحق العباد على الله تعالى: هو ما وعدهم به من الثواب والجزاء؛ فحق ذلك ووجب بحكم وعده الصدق، وقوله الحق الذي لا يجوز عليه الكذب في الخبر، ولا الخُلف في الوعد، فالله تعالى لا يجب عليه شيء بحكم الأمر إذ لا آمر فوقه، ولا بحكم العقل؛ إذ العقل كاشف لا موجب كما بيناه في الأصول.

هذا الحق هو جل وعلا كتبه على نفسه تفضلاً وإحساناً منه كما قال جل وعـلا: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنعام: ٥٤]، فهو حق أحقه الله على نفسه جل وعلا وليس العباد، أما العباد فهم ملكه من شاء تفضل عليه وهداه، ويسر له العمل الذي يرضى به فضلاً منه، وليس لقوة العباد شيء من ذلك، ولهذا أخبرنا ربنا جل وعلا عن أهل الجنة أنهم يحمدون الله ويقولون: أن هذا بفضل الله، ولولا فضله ما بلغنا هذا: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأعراف: ٤٣]، وهذا في كل شيء، فالعبد لا يؤمن بقوته ولا بعقله ونظره، وإنما فضل من الله يتفضل به عليه؛ فالمؤمن يجب أن يستشعر هذا في قلبه أن هذا فضل الله أن جعله مؤمناً فيشكره، ويسأله الثبات على هذا، ويسأله المزيد من فضله، فإذاً يكون الحق في قوله في الحديث: «**حق العباد على الله**» أنه بشيء أحقه الله جل وعلا على نفسه وهو إثابتهم، وعدم تعذيبهم.

ومعلوم أن الله لو يؤاخذ العباد بكل ما هو واجب عليهم ما استطاع أحدٌ أن يسلم من عذاب الله أبداً، وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**لن يُدخل أحداً منكم عمله الجنة**»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟، قال: «**ولا أنا إلا أن يتغمَّدني الله منه بفضل ورحمة**»[1]، ولكن العمل سبب، والمسبب الذي يترتب عليه كله من الله جل وعلا، وإذا نظر العبد إلى هذا المعنى بعقله، وجد أنه بأمس الحاجه بل بالضرورة إلى دفع المؤلم وجلب المنعم، ودفع المؤلم وجلب المنعم كل واحد له سبب، فإذاً تكون الأمور أربعة: أصل، وسبب، وإذا نظرنا فإذا كل هذه الأمور الأربع بيد الله جل وعلا، لا يملكها أحد، فإذاً يجب أن يعبد الله، ويفتقر إليه، ويسأله دائماً.

(١) رواه البخاري رقم ٥٦٧٣، ومسلم رقم ٢٨١٦ واللفظ له.

فهذا الحق من فضله جل وعلا، وكرمه، وليس استحقاق وجزاء من باب المعاوضة كما تقوله المعتزلة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: للناس في هذه المسألة ثلاثة أقوال:

منهم من يقول: للمخلوق على الله حق يُعلم بالعقل.

ومنهم من يقيس الخالق تعالى على المخلوق كما هو مذهب المعتزلة، وكلا هذين القولين باطل.

ومنهم من يقول: لا حق للمخلوق على الله تعالى بحال، ولكن يعلم ما يفعله بعبده بحكم وعده، وخبره، وهذا قول الجهم، والأشعري، وبعض من ينتسب إلى السُّنَّة، وهناك قول غير هذه الأقوال، وهو أنه أوجب الله على نفسه حقاً لعباده المؤمنين كما حرم الظلم على نفسه، ولم يوجب ذلك عليه أحد، ولم يُحرم ذلك عليه أحد، بل هو فضله وإحسانه، وكرمه، ولا يقاس بمخلوقاته تعالى، بل هو برحمته وحكمته وعدله كتب على نفسه الرحمة، وحرَّم على نفسه الظلم كما في الحديث الذي في صحيح مسلم وغيره: «**يا عبادي إني حرَّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا**»[1]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وقال جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الروم: ٤٧]، فمن قال ليس للمخلوق على ربه حق فهو صحيح إذا أراد أنه ليس عليه حق بالاعتبار، والقياس على خلقه، كما يجب للمخلوق على مثله، كما يظن ذلك جهال العباد، يظنون أن لهم على الله حقاً بعبادتهم؛ لأن النفوس الجاهلة تتخيل أن الإنسان بعبادته، وعمله يصير له على الله حق من جنس ما يصير للمخلوق على المخلوق، ولهذا تجد الجهال وأنصاف المتعلمين يلهجون كثيراً إلى الله تعالى بسؤاله بحق فلان وفلان، ويعتقدون أن هذا أقرب لحصول مطلوبهم، وهو من جهل الإنسان بربه وظلمه وعدم تقديره حق قدره، وأكثر ما يقع الشرك في المسلمين من هذا الباب ـ نسأل الله العافية ـ كما هو صنيع عباد القبور، وعباد الأولياء، وغيرهم

(١) رواه مسلم رقم ٢٥٧٧، من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

فالأمر ليس كما يظن هؤلاء أن من أطاع الله جل وعلا، ومن عبده يكون كمن يطيع سيده ورئيسه المخلوق، يجلب له منفعة، ويدفع عنه مضرة، ويبقى يتقاضى العوض، والمجازاة على ذلك، ويقول عند الجفاء: ألم أفعل كذا وكذا؟ يمنّ عليه بما فعل وإن لم يقوله بلسانه، فهذا حقيقة ما يكون في قلبه، وتخيل هذا في حق الله جل وعلا من جهل الإنسان وظلمه، ولهذا بيّن تعالى أن عمل العبد يعود نفعه عليه وأن الله غني عن الخلق، وقال جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ [لقمان: ١٢]، وقال تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت: ٤٦].

ومن قال: للمخلوق على الله حق فإنه صحيح إذا أراد به الحق الذي أخبر الله جل وعلا بوقوعه، وأن الله لا يخلف الميعاد، وهو الذي أوجبه على نفسه بحكمته، ورحمته وإحسانه، وهذا القول هو الحق الذي دلت عليه النصوص من الكتاب والسُّنَّة، وأما القول الأول فهو ضلال بيِّن، حيث لم يفرق قائله بين ما يجب على الخالق تعالى، وما يجب على المخلوق، ومعلوم أن الفروق بين الخالق والمخلوق لا تخفى، ويجب أن تعلم ما جاءت به النصوص، ليس من عميت بصيرته، وأصبح يقيس الخالق على المخلوق ليس من هذا في شيء - نسأل الله العافية -.

ومن الفروق أن الرب تعالى غني بنفسه عن كل ما سواه، وممتنع عن أن يكون محتاج لغيره بوجه من الوجوه، وأما الخلق فساداتهم وملوكهم، وكبراؤهم وعظماؤهم ومن دونهم محتاجون إلى غيرهم حاجة ضرورية من خدمهم وعساكرهم ووزرائهم، وغيرهم، ومنها أن الرب تعالى وإن كان يحب الأعمال الصالحة، ويفرح بتوبة التائب فهو الذي يخلق ذلك وييسره، فلا يحصل ما يحبه ويرضاه إلا بقدرته ومشيئته، فالمخلوق كثيراً ما يحصل له ما يحبه من غير فعله بل بفعل غيره، ومنها أن الرب - تعالى وتقدس - أمر العباد بما يصلحهم، ونهاهم عما يفسدهم ليس لمصلحته هو جل وعلا، قال قتادة كَلَلهُ: إن الله لم يأمر العباد بما أمرهم به لحاجته إليهم، ولا نهاهم عما

نهاهم بخلاً عليهم، بل أمر بما ينفعهم ونهاهم عما يضرهم بخلاف المخلوق فإنه يأمر غيره بما يحتاج إليه، وينهاه بُخلاً عليه. ومنها أنه سبحانه هو المنعم بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وهو المنعم بإيجاد القدرة والحياة، وهو المنعم بالهداية، وحصول الإيمان، وتزيينه في القلب، وتكريه الكفر والفسوق والعصيان، وهذه كلها نعم الله جل وعلا، والعبد ليس له في ذلك قدرة على أن يحصل على ذلك بنفسه، وهو فقير إلى ربه جل وعلا، ومنها أن نعمه تعالى على عباده أعظم من أن تحصى، فلو قُدر أن العبادة جزاءً لنعمه لن يقوم الناس بشكر قليل منها، فكيف والعبادة من نعمه، ومنها أن العباد لا يزالون مقصِّرين في حقه محتاجين إلى عفوه ومغفرته، فلن يدخل الجنة أحد بعمله كما ثبت ذلك في الصحيحين، فعن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لن يدخل أحداً عمله الجنة**»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟، قال: «**لا ولا أنا إلا أن يتغمَّدني الله بفضل ورحمة، فسدِّدوا وقاربوا، ولا يتمنَّيَنَّ أحدكم الموت، إما محسناً فلعله أن يزداد خيراً، وأما مسيئاً فلعله أن يستعتب**»[1]، وما من أحد إلا وله ذنوب يحتاج فيها إلى مغفرة ربه، قال جل وعلا: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾ [فاطر: ٤٥]، ومن ظن أنه قائم بما يجب عليه لله جل وعلا، وأنه غير محتاج إلى مغفرة ربه، وعفوه، وهدايته وتوفيقه، فهو ضال ظالم.

وقوله في الحديث: «الله ورسوله أعلم»: هذا لا يدل على أن معاذاً ﷺ لا يعرف أن العبادة واجبة على العباد، وسوف يأتي في كلام المؤلف أنه نص على هذا، ولكن الرسول ﷺ ينزل عليه الوحي كثيراً، فلا يدري هل المقصود ما كان ثابتاً سابقاً بالنصوص، أو أنه أمر تجدد؛ لأنه يُحتمل أنه يأت أمر جديد، ويوضح هذا ما حدث في حجة الوداع، فإن الرسول ﷺ لما قام يخطب سألهم؛ فعن أبي بكرة ﷺ قال: خطبنا النبي ﷺ يوم النحر قال:

---

(١) سبق تخريجه ص٥٨، وهذا اللفظ للبخاري.

«أتدرون أي يوم هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسمِّيه بغير اسمه، قال: **أليس يوم النحر؟** قلنا: بلى، قال: **أي شهر هذا؟** قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسمِّيه بغير اسمه»، فسكتوا يعرفون قطعاً أنه شهر محرم أنهم في ذي الحجة، لكن سكتوا خوفاً أن يكون فيه تغيير أمر من الله وجاء وحي حتى قال: **«أليس ذو الحجة؟** قلنا: بلى، قال: **أي بلد هذا؟** قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسمِّيه بغير اسمه قال: **أليست بالبلدة الحرام؟** قلنا: بلى»، فهم يعرفون أنها مكة، فتوقفوا وسكتوا حتى قال لهم: **«فإن دماءكم وأموالكم عليكم حرام؛ كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا إلى يوم تلقون ربكم، ألا هل بلغت؟** قالوا: نعم، قال: **اللهم اشهد فليبلغ الشاهد الغائب، فرُبَّ مبلَّغ أوعى من سامع، فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»**(١).

هذا هو السبب في كون معاذ يقول: «الله ورسوله أعلم»، وفيه الأدب الذي يجب أن يسلكه طالب العلم، أنه إذا سئل عن الشيء الذي يشكل عليه، أو ليس عنده فيه برهان أنه يتوقف، ولا يتكلم بالجواب؛ لأن الأمر في هذا فيه صعوبة، وفيه خطورة؛ لأن العبد إذا قال الحكم: كذا وكذا، فإن معناه إنه يخبر عن الله جل وعلا، وقد جاء تعظيم مثل هذا، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [النحل: ١١٦]؛ فالحلال ما أحله الله، والحرام ما حرمه الله جل وعلا، والحكم ما حكم به، كل قضية في الناس لله فيها حكم، لكن إذا اضطر الإنسان إلى الجواب؛ لأن الناس لا بد لهم من يفتيهم؛ لأنهم لو تركوا لضاعوا، إذا كان العبد متقياً لله واجتهد فإنه إذا أخطأ في هذا فإن خطأه معفو عنه بشرط أن يكون أهلاً للاجتهاد كما جاء في الحديث عن عبد الله بن بريدة عن أبيه عن النبي ﷺ قال: **«القضاة ثلاثة: قاضيان في النار وقاض في الجنة، قاض عرف الحق فقضى به، فهو في الجنة،**

---

(١) رواه البخاري رقم ١٧٤١، ومسلم رقم ١٦٧٩.

وقاض عرف الحق فجار متعمداً، فهو في النار، وقاض قضى بغير علم فهو في النار»[١]. هذا في قضية خاصة بين اثنين، فكيف بالإفتاء، الذي يكون عاماً، فهو أعظم من القضاء، ولهذا ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ سمى كتابه «إعلام الموقعين عن ربِّ العالمين»، وصعب توقيع العبد عن رب العالمين، فقد يقع في القول على الله بغير علم، وقد جاء في الآية التي في سورة الأعراف أن القول على الله بغير علم فوق الشرك، وزيادة قال جل وعلا: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣].

فينبغي لمن سُئل أن لا يتكلف الجواب بدون يقين، ولكنه يكل العلم إلى عالمه، وكان السلف ـ رضوان الله عليهم ـ يتحاشون كثيراً من أن يتكلموا في المسائل التي قد يكون فيها ظنون، ولهذا ذكر المزي رَحِمَهُ اللهُ عن ربيعة بن أبي عبد الرحمٰن قال: قال لي ابن خلدة ـ وكان نعم القاضي ـ: يا ربيعة أراك تفتي الناس، فإذا جاءك الرجل يسألك فلا تكن همتك أن تخرجه مما وقع فيه، ولتكن همتك أن تتخلص مما سألك عنه[٢]. والمقصود من الحديث بيان أن حق الله على عباده هو عبادته الخالصة من الشرك وهي طاعته بفعل ما أمر به واجتناب ما نهى عنه، فلا يُخالف ما جاء عن الله جل وعلا، أو جاء عن الرسول ﷺ لغرض، أو منفعة عاجلة، أو آجلة، أو غير ذلك.

ومن ذلك؛ يعني: حق الله تعالى على عباده اتباع ما وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف، ولا إلحاد فيه، ولهذا ترجم على هذا الحديث البخاري رَحِمَهُ اللهُ في كتاب الرقاق بقوله: «باب من جاهد نفسه في طاعة الله تعالى»، ومراده أن الرسول ﷺ قد بيَّن ما يجب لله على عباده من عبادته واتباع أمره، واجتناب نهيه، وكذلك عبادته بأسمائه وصفاته، وتنزيهه عن مشابهة المخلوقين وما يستحقه من فعل هذا، فإنه بين ذلك بأنه حق

---

(١) المستدرك رقم ٧٠٦٢، وأبو داود رقم ٣٥٧٣، والترمذي رقم ١٣٢٢، وابن ماجه رقم ٢٣١٥، والبيهقي رقم ٢٠١٤١.

(٢) تهذيب الكمال للمزي ٢١/ ٣٢٩.

على الله جل وعلا أن لا يعذبه، وهذا غاية ما يطلبه العبد أن يسلم من العذاب في الآخرة، ويفوز بفوز الله جل وعلا وجزائه وإحسانه.

قوله: «أفلا أبشر الناس؟»: فهو ﷺ يستأذن النبي ﷺ أن يبشر الناس في هذا، حيث أنه أخبر أن من يعبد الله ولا يشرك به شيئاً أن الله لا يعذبه، فهذه بشارة عظيمة؛ ففيه أنه يُستحب أن يبشر المؤمن بما يسره، وهذا أمر متقرر عند الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ وأنهم تلقوا عن النبي ﷺ أن بشارة الناس أنها فضل، وأنه عمل يُرجى خيره.

«قال: لا تبشرهم فيتكلوا»: الاتكال أن يعتمد على الظاهر، ويدع العمل، وليس كل أحد يتكل؛ لأن العبد لا ينفك عن الذنوب، ولا يستطيع أن يجزم أنه جاء بالمطلوب على الوجه الذي يرضاه الله جل وعلا، فهو دائم خائف، فهو بين ذنب لا يدري هل غفر له، وقبلت توبته منه وبين عمل لا يدري هل قبل أو رد.

ولا يمكن أيضاً أن يفي بحق الله جل وعلا، فهو دائماً خائف، ولهذا جاء كثيراً في القرآن أنه يقرن بين الخوف والرجاء، قال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ۝٥٠﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠]، ومن ذلك أن الله جل وعلا يذكر أهل النار وما أعد لهم، ثم يتبع ذلك بذكر أهل الجنة، وما أعد لهم من النعيم أو بالعكس، وهذا معنى كون القرآن مثاني والله أعلم.

قوله: «فيتكلوا»؛ يعني: يتكلوا على ثواب الله، وجزائه، أنه لا يعذب من لا يشرك به شيئاً فيدع العمل، ففي هذا أن النبي ﷺ يطلب من أمته أن يعملوا، ويجتهدوا في العمل، وهذا في أحاديث ونصوص كثيرة.

❁ قال المؤلف رحمه الله: فيه مسائل:

❁ الأولى: أن العبادة هي التوحيد؛ لأن الخصومة فيه.

لأن العبد لو عبد الله وهو واقع في الشرك لا يكون قد أتى بالعبادة، وتسمى عبادة في اللغة؛ لأن العبادة في الشرع هي الخالية من الشرك. قوله: **«والخصومة فيه»** المقصود الخصومة التي وقعت بين الرسل وأممهم التي قصَّ الله

جل وعلا علينا قصصهم، فإن كل رسول يقول لأمته: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦]، وهذه العبادة التي أمر الله بها هي التوحيد.

۞ **الثانية: أن من لم يأت به، لم يعبد الله، ففيه معنى قوله: ﴿وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾﴾** [الكافرون: ٣].

يعني: من لم يأت بالتوحيد الخالص لم يكن عابداً لله جل وعلا؛ وقوله: ﴿وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾﴾؛ يعني: مع وجود العبادة منهم، نفى عنهم العبادة الشرعية المطلوبة، وهي التي تكون مع الإخلاص، واجتناب الشرك، وإن كانت العبادة اللغوية واقعة منهم، ولذلك لا تعتبر عبادتهم لوجود الشرك، فخلو العبد من الشرك شرط في كونه عبداً لله أن لا يكون مشركاً.

۞ **الثالثة: الحكمة من إرسال الرسل.**

وهي الدعوة إلى التوحيد، والنذارة من الشرك، وما يكون من الأوامر والنواهي، والشرائع يكون تبعاً لهذا.

۞ **الرابعة: أن الرسالة عمَّت كل أمة.**

لأنه قال جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، والأمة إما أن تكون أمة عامة في زمنٍ واحدٍ، أو أممٌ متعددة في زمنٍ واحدٍ، ولهذا أحياناً يكون عدد من الأنبياء في وقتٍ واحدٍ، كما أخبرنا جل وعلا أنه بعث إبراهيم عليه السلام وبعث لوط عليه السلام في وقت واحدٍ.

۞ **الخامسة: أن دين الأنبياء واحد.**

يعني: التوحيد، بخلاف الشرائع، فإنها كما قال الله جل وعلا: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ [المائدة: ٤٨].

۞ **السادسة: المسألة الكبيرة أن عبادة الله لا تحصل إلا بالكفر بالطاغوت، ففيه معنى قول الله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾** [البقرة: ٢٥٦].

الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ ينهى عن الأمور التي كانت في وقته واقعة بين الناس، فمن الناس من يعبد الله بزعمه، ويعبد الطاغوت، ويعتقد أنه مسلم، والطاغوت سبق تعريفه: أنه كل ما عُبد من دون الله؛ فإن كان حياً عاقلاً فلا بد من أن يقيد بأن يكون راضياً بهذا. أما إن كان ميتاً، أو جماداً، أو غير ذلك، فهذا معلوم أنه لا أمر له، ولا اختيار فقد يُعبد، وعبادته هي: طلب البركات منه والتوجه إليه بالدعوات، وطلب إزالة الملمات، وتفريج الكربات، أو الطواف على قبور من يُسمون أولياء، والجلوس عندهم عكوفاً عند قبورهم تبركاً، أو بطلب الشفاعة، يقول: اشفع لي، أو ما أشبه ذلك هذا كله من عبادة الطاغوت.

فالكفر بالطاغوت شرط لوجود الإيمان؛ لأن الكفر بالطاغوت هو اجتناب الشرك وهو مثل قوله جل وعلا: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [النساء: ٣٦]، فلا بد أن يكون الطلب والطواف، والعبادة جميعها خالصة لله جل وعلا، ليس لأحدٍ من الخلق فيه شيء.

۞ السابعة: عظم شأن الثلاث آيات المحكمات في سورة الأنعام عند السلف، وفيها عشر مسائل، أولها: النهي عن الشرك.

السلف المقصود بهم الصحابة؛ لأن ابن مسعود يقول: من أراد أن ينظر إلى وصية النبي ﷺ التي عليها خاتمه فليقرأ قول الله تعالى: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ...﴾، ومعلوم أن ابن مسعود لا يقصد أن النبي ﷺ كتب وصية فختمها، وإنما يقصد أن هذا مضمون وصية رسول الله ﷺ، فإنه وصّى بكتاب الله، وهذه الآيات الجامعة التي فيها الأمر بعبادة الله، واجتناب الشرك، وإقامة العدل، والقول الحق، واتباع الصراط الذي جاء به الرسول ﷺ.

۞ الثامنة: التنبيه على وصية رسول الله ﷺ عند موته.

يعني: أنه لم يوص إلا بكتاب الله كما قال ابن مسعود: من أراد أن ينظر إلى وصية النبي ﷺ فلينظر إلى هذا. وسبق أن ذكرنا حديث ابن

عباس الذي في الصحيحين: «الرزية كل الرزية ما حال بين الرسول ﷺ وبين الكتابة بأنه قال: **ائتوني بكتاب أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده أبداً**»[(١)]، ثم اختلفوا، قالوا: هذا قوله من أثر المرض، وقيل: نأتي بالكتاب فلما اختلفوا قال: «**قوموا عني**»، ولكن لو أراد النبي ﷺ أن يكتب ما أحد يحول بينه وبين ذلك، ولهذا فسر هذا بالرواية الأخرى أنه عدل عن هذا وقال: «**يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر**»، وقد نبَّه على هذا بقوله: «**مروا أبا بكر فليصلي بالناس**»، تقول عائشة ﵂: علمت أن الذي يقوم مقام النبي ﷺ بعده إنه يُكره لدى الناس فراجعته في ذلك فقلت: إن أبا بكر رجل «أسيف» إذا قرأ القرآن لا يسمع الناس من البكاء، لو أمرت عمر، فقال: «**مروا أبا بكر أن يصلي بالناس**»، تقول: فذهبت إلى حفصة فقلت لها: اذهبي إليه فقولي: إن أبا بكر كذا وكذا، فذهبت وقالت حسب ما أمرتها عائشة، فغضب عليه الصلاة والسلام، وقال: «**إنكن صواحب يوسف، مروا أبا بكر أن يصلي بالناس...**» إلى غير هذا، ففيه أحاديث أخرى، ولهذا قال بعض أهل السُّنَّة: إن استخلاف أبي بكر بالنص، والصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ كثيراً منهم قال: الرسول ﷺ رضي لنا أبا بكر في ديننا، فنحن نرضاه لدنيانا[(٢)].

۞ **التاسعة: أن هذه المسألة لا يعرفها أكثر الصحابة.**

الواقع أن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ يعرفون التوحيد تماماً، ولكن من اقتصر على هذا من عبادة الله وحده، واجتناب الشرك، أنه يكون ناجياً

---

(١) البخاري رقم ١١٤، ومسلم رقم ١٦٤٧ عن ابن عباس قال: لما اشتد بالنبي ﷺ وجعه قال: «**ائتوني بكتاب أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده**، قال عمر: إن النبي ﷺ غلبه الوجع وعندنا كتاب الله حسبنا، فاختلفوا وكثر اللغط، قال: **قوموا عني ولا ينبغي عندي التنازع**، فخرج ابن عباس يقول: إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين كتابه».

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣/١٨٣ عن الحسن قال: قال علي: لما قبض النبي ﷺ نظرنا في أمرنا فوجدنا النبي ﷺ قد قدم أبا بكر في الصلاة فرضينا لدنيانا من رضي رسول الله ﷺ لديننا فقدمنا أبا بكر.

وسالماً من العذاب في الدنيا والآخرة، هذا قد لا يعرفه أكثر الصحابة، ولهذا قال معاذ: الله ورسوله أعلم.

۞ العاشرة: جواز كتمان العلم للمصلحة.

كتمان العلم مثل ما قال في آخر الحديث: «**لا تبشرهم فيتكلوا**»، إذا كان يوهم أمراً يعود على السامع بالضرر جاز أن يخص العلم بالبعض، ويكتم عن الذي لا يفهمه ولا يدركه.





الباب الثاني

۞ قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: باب فضل التوحيد وما يكفِّر من الذنوب.

لما ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ وجوب التوحيد، وأنه فرض على كل مسلم وأنه لا بد منه، ولا يعذر أحد بتركه ولا بجهله؛ ناسب أن يذكر مع هذا الوجوب أنه فضيل، وأنه يُكفر الذنوب.

قوله في الترجمة «**وما**».

هذه يجوز أن تكون موصولة، فيكون المعنى: هذا باب فضل التوحيد وذكر ما يكفِّر من الذنوب. ويمكن أن تكون مصدرية، ويكون المعنى: هذا باب فضل التوحيد وتكفيره الذنوب. وهذا أرجح، وأظهر، والسبب أن الموصولة قد يفهم منها أن هناك ذنوب لا يكفرها التوحيد، وهو غير مراد، وأما إذا كانت مصدرية فلا يحتمل ذلك؛ يعني: أن كل الذنوب تكفر بالتوحيد وهذا هو المراد؛ لأن الله جل وعلا يقول: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: ٥٣]، وغفرانه الذنوب جميعاً للموحد الذي وحد الله جل وعلا ولم يشرك به شيئاً.

والتوحيد كما سبق إخلاص العبادة لله تعالى بما أمر وشرع، فالعبادة لا تكون إلا بأمره وشرعه. وفضله يتبين من ذكر بعض هذه الأحاديث والنصوص وغيرها كثير.

۞ قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: وقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢].

هذه الآية بعد قول الله جل وعلا في محاورة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ومحاجته قومه لما خوَّفوه بآلهتهم التي يعبدونها كما هي سُنَّة المشركين مع رسلهم، يخوفونهم

بآلهتهم قال: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الأنعام: ٨١]، ثم جاء الحكم سواءً كان هذا من تمام كلام إبراهيم عليه السلام الذي حكاه الله عنه أو أنه حُكم فصل الله جل وعلا به بين إبراهيم عليه السلام وقومه؛ لأن هذا كان في آخر المناظرة التي جرت بين إبراهيم عليه السلام وقومه؛ لأن قوم إبراهيم على القول الصواب الذي لا يجوز خلافه أنه ناظرهم في معبوداتهم وليس كما توهم بعض أهل الكلام أن إبراهيم أول ما نظر إلى هذا الكون وشاهد هذا الكوكب وقال: هذا ربي، ثم شاهد ما هو أكبر منه فقال: هذا ربي... إلخ، وإبراهيم عليه السلام ما كان من المشركين فهو يناظرهم يقول: أهذا الكوكب ربي؟ ثم أفل، وغاب وذهب، هذا هو الصحيح، وليس الأفول كما يقول الرازي وغيره: التحرك[1]، ومن تحرك فلا يجوز أن يكون إلـٰهاً؛ لأن الحركة حدث والحوادث بُنيت على كون الذي تقع منه، وتوجد منه الحوادث مخلوق[2]، وهذا أصل المعتزلة والأشاعرة الذين استدلوا بذلك على وجود الله، وهذا باطل وضلال، والرسل عليهم الصلاة والسلام دعت قومها إلى أن يوحدوا الله جل وعلا ويعبدوه، أن يقولوا: لا إلـٰه إلا الله.

فالمقصود أن الكوكب يغيب ويذهب، فكيف يُدعى، كيف يدعوه عابده وهو ذاهب وغائب، والمعنى: أن الإلـٰه الذي يجب أن يعبد يجب أن يكون مراقباً حاضراً يسمع ويعلم، يسمع ما يقوله عابده، ويعلم حاله، وإذا لجأ إليه كشف ما به، والكوكب ليس كذلك، وكذلك يقال في القمر والشمس، ولهذا

---

(١) تفسير الرازي ٦/٣٤٨ فتفكر فرأى النجم، فقال: ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾ فلما شاهد حركته قال: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦].

(٢) تفسير الرازي ٦/٣٥٠: أفول الكواكب يدل على كونها عاجزة عن الخلق والإيجاد وعلى أنه لا يجوز عبادتها، وبيانه من وجوه: الأول: أن أفولها يدل على حدوثها. وحدوثها يدل على افتقارها إلى فاعل قديم قادر ويجب أن تكون قادرية ذلك القادر أزلية. وإلا لافتقرت قادريته إلى قادر آخر، ولزم التسلسل وهو محال، فثبت أن قادريته أزلية...

قال الله تعالى بعد ذلك: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنعام: ٨٣].

هذا ظاهر جداً أنها مجادلة ومحاجة، ومناظرة وليس كما يزعمه هؤلاء أن ابتداء إبراهيم عليه السلام أنه فكر في هذه الأشياء فقال: هذا ربي، ثم انتقل مما هو أصغر إلى ما هو أكبر هذا ضلال.

إبراهيم عليه السلام آتاه الله رشده من صغره كما أخبر الله جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الأنبياء: ٥١]، ولكن هم على عادة الكفار الذين يخوفون الرسل بآلهتهم فقال لهم إبراهيم عليه السلام متعجباً: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا﴾، ثم قال: ﴿فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٨١] هل الذي عبد الله وحده، ولم يشرك به شيئاً أم الذي عبد معه الكوكب، أو القمر، أو الشمس، أو غيرها من الشياطين؟ ثم جاء الحكم، والفصل بين هٰذين الفريقين: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

والآية فيها أربع صفات، وإن شئت فقل: ثلاث صفات وجزاء: الإيمان، وأنهم لم يلبسوا إيمانهم بظلم، وأنهم مهتدون، والجزاء قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾، والإيمان هو أهم هذه الأشياء، وهو قبول ما جاء عن الله جل وعلا على لسان رسوله ﷺ مع علمه، والعمل به ظاهراً، وباطناً.

والإيمان ليس مجرد تصديق القلب أو علم القلب، لا بد مع ذلك من العمل ولهذا جعل أهل السُّنَّة الإيمان مكوناً من ثلاثة أجزاء: من قول وعمل وعقيدة، وإن شئت قلت: من قول، وعلم، وعمل. والعقيدة هي عقيدة القلب، والعلم: هو العلم النافع الذي يعمل به.

والإيمان يزيد بالطاعات، وينقص بالمعاصي، فمن الناس من يكون إيمانه كاملاً، ومنهم من يكون متوسطاً، ومنهم من يكون ناقصاً، ولهذا اختلفت درجاتهم في الجنة.

قوله: «﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟﴾»: اللبس في اللغة: الخلط، والمزج. خلط الشيء

من غير جنسه؛ كلبس الحق بالباطل، وذلك بأن يُخلط حتى يمكن أن يُقبل عند من لا يعرفه، كما أخبر الله جل وعلا عن اليهود أنهم يصنعون ذلك.

قوله: «﴿إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾»؛ يعني: أنهم لم يخلطوا إيمانهم بظلم، وهذا يدلنا أولاً: على أن الإيمان ليس مجرد العلم إذ لو كان مجرد العلم فكيف مثلاً العلم يلبس ويخلط، العلم لا يقبل الخلط إلا أن يكون غير العلم بل هو جهل، فلا بد أن يدلنا هذا على أن الإيمان عمل سواءً كان عمل القلب مع الجوارح على القول الصحيح الذي هو الحق، أو أنه عمل القلب، أو عمل الجوارح.

ثم اللبس هنا ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ قد فهم الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ أنه مطلق اللبس؛ يعني: مطلق الظلم، ولهذا لما نزلت هذه الآية شق ذلك عليهم كثيراً، كما جاء في حديث ابن عمر ﷺ قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ شق ذلك على أصحاب النبي ﷺ وقالوا: أينا لم يظلم نفسه؟ فقال رسول الله ﷺ: «**ليس كما تظنون إنما هو كما قال لقمان لابنه:** ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]»[١]، فجعل لبس الظلم بالإيمان هو الشرك الذي يمنع من الأمن، ومن الاهتداء.

قوله: «﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾»: الأمن والاهتداء يحصلان في الدنيا والآخرة، فمن آمن ولم يلبس إيمانه بظلم فإنه مهتدي في الدنيا إلى اتباع الرسول ﷺ وسلوك الصراط الذي أمر بسلوكه، وهو آمن من العذاب في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فهو آمن من العذاب الذي يعذب به الكفار؛ لأن الدنيا لا يمكن أن يكون العبد سالماً فيها من كل شيء أبداً، هذا مستحيل؛ لأنها خُلقت للمشاكل، والابتلاء، والامتحان، ولهذا لا يمكن أن يسلم أحدٌ فيها من العذاب الظاهر؛ يعني: عذاب البدن، أو عذاب النفس، أو الابتلاء بالغير، وما أشبه ذلك، وهذا من أكبر الأدلة على زوالها، وأنها غير باقية وهذا أمر معلوم، وإنما يكون آمناً من العذاب الذي يصيب الكفار كما أصاب قوم نوح وقوم لوط، وقوم صالح، وغيرهم ممن ذكرهم الله جل وعلا،

---

(١) البخاري رقم ٦٩٧٣، ومسلم رقم ١٢٤.

فالمؤمن الذي دخل في هذا آمن مما أصاب أولئك هذا في الدنيا.

أما في الآخرة فالآمن مطلق، يكون آمناً من العذاب في قبره، وفي موقفه إذا بعث من قبره، وفي منقلبه بعد الحساب، فهو آمن مطلقاً، هذا بالنسبة للآمن.

أما الاهتداء فهو واضح أنه اهتداء إلى قبول ما جاء به الرسول ﷺ وسلوكه هذا الصراط المعنوي، وأما في الآخرة فهو مهتد إلى منزله في الجنة، وإلى خلاصه من كل ما يقع فيه أصحاب الشرك الذين لبسوا إيمانهم بظلم.

يبقى الإشكال الذي وقع للصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ والذي شق عليهم، وصورته أن الذنوب ظلم، ومعلوم أن الظلم ينقسم إلى أقسام ثلاثة:

القسم الأول: ظلمٌ هو الشرك، وهو أظلم الظلم، وهذا لا يُقبل منه شيء أصلاً، وهذا الذي قال الله فيه في آيات متعددة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء: ٤٨]، وأخبر جل وعلا أن المشرك إذا مات على شركه إنه في النار خالداً فيها، قال جل وعلا: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]، وهذا مقطوع فيه، فمن مات مشركاً فهو في النار قطعاً، وهذا لا يكون له أمن؛ لأنه لم يهتد في الدنيا، وهو لم يؤمن في الدنيا ليأمن من عذاب الله في الآخرة، لذلك هو خالد في النار.

القسم الثاني: ظلم العباد، أن يظلم غيره من الناس، وهذا لا بد من استيفائه كما جاء في الحديث؛ فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«من كانت عنده مظلمة لأخيه فليتحلله منها قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، فيؤخذ لأخيه من حسناته، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات أخيه فطرحت عليه»**[1]، فلا بد من أداء الحق لمستحقه، ولا بد من المحاسبة والمقاضاة، فإذا كان بين العباد شيء فإن الله جل وعلا يقضي بينهم، ويعطي كل إنسان حقه، وهذا أقل من الذي قبله.

(١) البخاري رقم ٦٥٣٤.

القسم الثالث: ظلم الإنسان نفسه فيما بينه وبين ربه في التقصير في الأوامر وارتكاب النواهي، أو بعضها. وهل ظلم الإنسان نفسه في ترك الواجبات وفعل المحرمات، أو بعضها يوجب النار؟ أو هو داخل في قوله جل وعلا: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾؟

أولاً: يجب أن نتفطن أن كلام الله جل وعلا لا يتضارب، وكلام رسوله ﷺ لا ينقض بعضه بعضاً، وقوله جل وعلا: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾، والرسول ﷺ في توجيهه للصحابة رضوان الله عليهم ما فهموا أن من آمن، ولم يشرك مطلقاً، يكون آمناً مطلقاً، ومهتدياً مطلقاً؛ لأن في آيات كثيرة مثل قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [النساء: ٣١]، وقوله جل وعلا: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾﴾ [البقرة: ٢٧٥]، إلى أن قال جل وعلا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾ [البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩]، وقوله جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النساء: ١٠]، وغير ذلك من الآيات الكثيرة، وأحاديث الرسول ﷺ.

وكان الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ يهتمون كثيراً في دخول الجنة، والواجب على العبد أن يهتم بهذا، فكانوا يهتمون بالأسباب التي تدخل الجنة، وكانوا يسألونه، وجاءت عدة أسئلة في أحاديث متعددة أنه سُئل ما العمل الذي يُدخل الجنة، فأخبر بهذا العمل: «**أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وأن تقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً**»، هذه الأمور التي رتب عليها دخول الجنة، فإن ترك العبد بعضها لم يأت بالشرط فيصبح الشرط مختلاً، ففي المسند وغيره عن بشير بن الخصاصية

قال: أتيت النبي ﷺ لأبايعه، قال: فاشترط علي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وأن أقيم الصلاة، وأن أؤدي الزكاة، وأن أحج حجة الإسلام، وأن أصوم شهر رمضان، وأن أجاهد في سبيل الله، فقلت: يا رسول الله أما اثنتان فوالله ما أطيقهما الجهاد والصدقة، فإنهم زعموا أنه من ولى الدبر فقد باء بغضب من الله، فأخاف إن حضرت تلك جشعت نفسي، وكرهت الموت، والصدقة فوالله ما لي إلا غنيمة وعشر ذودهن رسل أهلي، وحمولتهم، قال: فقبض رسول الله ﷺ يده، ثم حرك يده، ثم قال: **فلا جهاد ولا صدقة، فبم تدخل الجنة إذاً؟**»، قال: قلت: يا رسول الله أنا أبايعك، قال: فبايعت عليهن كلهن[1]. فجعل الصدقة والجهاد أيضاً من الشرط الذي يدخل العبد به الجنة، والأحاديث في هذا كثيرة؛ فالآية معناها مع جواب الرسول ﷺ أن من لا يقع منه الشرك الأكبر يكون آمناً من الخلود في النار، وآمناً من العذاب الذي يكون للكفار في الدنيا، وليس هذا أنه لا يقع له عذاب في الآخرة أو في الدنيا.

أما من حيث مناقشة اللفظ وفهمه، فإذا نظرنا إلى هذه الأنواع الثلاثة فإذا هي كلها تسمى ظلم، ثم الظلم الذي هو المانع للاهتداء والآمن عرفنا أنه الشرك، والشرك فيه الكبير المنافي للإيمان المحبط للعمل، وفيه الصغير الذي لا ينافي الإيمان، ولكن ينافي كماله، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: وقوله: «إنما هو الشرك» إن أراد الأكبر فمقصوده: أن من لم يكن من أهله فهو آمن مما وُعد به المشركون من عذاب الدنيا والآخرة. وإن كان مراده جنس الشرك فيقال: ظُلم العبد لنفسه ـ كبخله ـ بحب المال ببعض الواجب هو شرك أصغر. وحبه ما يبغضه الله تعالى حتى يقدم هواه على محبة الله شرك أصغر، ونحو ذلك. فهذا فاته من الأمن والاهتداء بحسبه، ولهذا كان السلف يدخلون الذنب في الشرك بهذا الاعتبار[2].

فالذنوب تدخل في الشرك الأصغر؛ لأن بغض العبد للحق الذي وجب

---

(١) المسند رقم ٢١٩٥٢.

(٢) ابن تيمية (الكلام على حقيقة الإسلام) ص١٢٢ ـ ١٢٤.

عليه حباً للمال هو شرك؛ لأنه قدم حب المال على ما أوجب الله عليه وعلى محبة الله وامتثال أمره فصار نوعاً من الشرك الأصغر وهذا كثير. وهكذا يقال فيمن يرتكب محرماً اتباعاً لهواه وشهوته، فإنه قدم شهوته وهواه على طاعة ربه جل وعلا فيكون نوعاً من الشرك، ولكنه الشرك الأصغر الذي لا يكون العبد به كافراً خلافاً لأهل البدع.

فعلى هذا نقول في نوعي الظلم؛ ظلم العباد وظلم الإنسان نفسه إنهما قادحان في كمال التوحيد ومنقصان للثواب الذي رتب عليه، فلو دخل الجنة تكون منزلته ليست بمنزلة الذي جاء بالتوحيد كاملاً، هذا بلا تردد فهو واضح، فعلى هذا يكون اللبس في الآية يجوز أن يكون مطلقاً، وليس الشرك الأكبر فقط وهذا هو الذي قرره شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ـ رحمهما الله تعالى ـ وغيرهما من المحققين، وهذا الذي تدل عليه النصوص الكثيرة في كتاب الله جل وعلا وأحاديث رسوله ﷺ، غير أن المانع من الاهتداء التام، والأمن التام مطلقاً، هو الشرك الأكبر، أما وجود النوعين من الظلم ـ ظلم العباد وظلم العبد نفسه ـ فهما مانعان من كمال الاهتداء وكمال الأمن، وبقي معه شيء من الخوف وعدم الأمن، ونوع من الضلال بسبب الذنوب التي ارتكبها وتقديم هواه، وما تزينه نفسه على أمر الله، وأمر رسوله ﷺ فهذا نوع من الضلال فهو قادح في توحيده ومنقص له، وكذلك هو مؤثر على حالته في الآخرة من كونه يكون له الأمن مطلقاً وبلوغ منزلته من كمال التوحيد.

فهنا تبين لنا معنا اللبس: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم﴾؛ يعني: وحَّدوا الله بالعبادة، هذا الذي يُريد المؤلف رحمه الله ﴿ءَامَنُوا۟﴾ فسَّرها بالتوحيد، والتوحيد هو العبادة الخالصة لله جل وعلا؛ لأن العبادة إذا لم تكن خالصة فليست عبادة في الشرع، وإن كانت عبادة في اللغة، وعلى هذا فنقول: ﴿ءَامَنُوا۟﴾؛ أي: عبدوا الله وحده، ولم يُدخلوا في عباداتهم شيئاً مما يُنقصها، أو يُذهب بكمالها، أو يُذهبها بالكلية، فهم أصحاب الأمن في الدنيا والآخرة، وهم المهتدون في الدنيا حيث وفقهم الله جل وعلا للإيمان الخالص، وعبدوا الله وحده، وهم كذلك المهتدون إلى طريق الجنة في الآخرة،

والآمنون بعد الموت من كل ما يقع فيه أهل الضلال وأهل الكفر، فيكون هذا هو المقصود.

❁ **قال المؤلف رحمه الله: وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمتُه ألقاها إلى مريم وروحٌ منه، والجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل»[(١)].**

عبادة بن الصامت بن قيس الأنصاري الخزرجي، أبو الوليد من أجلِّ أصحاب رسول الله ﷺ، وهو أحد النقباء الذين بايعوا في العقبة، وهو بدري وشهد سائر المشاهد مع رسول الله ﷺ، توفي في فلسطين على القول الصحيح وكانت وفاته قرابة خمس وثلاثين أو ست وثلاثين من الهجرة، وبعضهم يقول أنه أدرك زمن معاوية، وله اثنتان وسبعون سنة.

قوله: «من شهد أن لا إله إلا الله»: الشهادة لا بد فيها من العلم واليقين وعدم التردد، فهي تدل على العلم؛ يعني: أنه علم معنى هذه الكلمة، ونطق بها بعد العلم، ولا بد من التزام ما دلت عليه؛ لأن الذي يشهد بما لا يعلم يكون كاذباً كما قال الله جل وعلا: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١﴾ [المنافقون: ١]؛ يعني: أنهم كاذبون في شهادتهم مع قولهم: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾، فهم ينطقون بلا علم ولا اعتقاد؛ وقال جل وعلا: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝٨٦﴾ [الزخرف: ٨٦]، فكلمة: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ جملة حالية؛ يعني: حال شهودهم بالحق الذي هو لا إله إلا الله يعلمون معناها، وما دلت عليها ويلتزمون حقها.

وقوله: «أن لا إله إلا الله»: هي خبر ولكن المقصود الامتثال والعمل، «الإله» اسم جنس؛ ويعني بالجنس: الشائع في نوعه مثل بقرة فهل يخطر

(١) البخاري رقم ٣٤٣٥، مسلم رقم ١٢٤.

ببالك بقرة بعينها، أو أنه يصدق على أي بقرة، وكذلك شجرة وامرأة؛ وكذلك إلٰه يصدق على كل مألوه سواءً بحق، أو بغير حق، فمن تعلق قلبه بشيء فقد اتخذه إلٰهاً، ولهذا قال الله جل وعلا: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية: ٢٣]، فهو يطلق على المألوه بالحق وعلى المألوه بالباطل، ولهذا كره العلماء اسم عبد الإلٰه، ولا بد من تقييد الإلٰه في شهادة أن لا إلٰه إلا الله بأنه بحق، لأن الألٰهة كثيرة فهي ملئ الدنيا، فالإلٰه لا يلزم أن يكون متجسداً مرئياً، فقد يكون معنًى ويكون مألوهاً وقد يكون شهوة، وقد يكون رئاسة، وقد يكون طاعة لمخلوق، فلا بد أن يكون المؤمن قلبه وتألهه متعلقاً بالله جل وعلا وحده، والإلٰه هو المألوه الذي تألهه القلوب وتميل إليه حباً وخوفاً، فإذا قلت: «لا إلٰه» هذا نفي لكل مألوه أن يكون إلٰهاً؛ لأن «لا» هي النافيه للجنس، وهي تحتاج إلى اسم وخبر؛ لأنها تعمل عمل إن كما هو معروف، و«لا إلٰه» اسمها، أما خبرها فمقدر معروف بهذا الشيء؛ يعني: لا إلٰه بحق إلا الله، أو لا إلٰه حقٌّ إلا الله.

وتقدير النحويين بقولهم: لا إلٰه موجود إلا الله، أو لا إلٰه كائن إلا الله؛ لأن المحذوف لا بد أن يكون مشتقاً، واسم المفعول، واسم الفاعل مشتق، فهذا باطل؛ لأن الآلهة موجودة بكثرة.

والشهادة تقتضي العلم كما سبق كما قال جل وعلا: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾ [محمد: ١٩]، يقول البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه الصحيح: باب العلم قبل القول والعمل لقوله جل وعلا: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، فبدأ بالعلم. اعلم أمر من الله جل وعلا يقتضي أن يكون العمل مسبوقاً بالعلم، وإلا لا يكون مجدياً، وهكذا شهادة أن لا إلٰه إلا الله فإن المتكلم والناطق بها لا بد أن يكون عارفاً عاملاً بما دلت عليه وما تقتضيه، وأن يأتي بحقها ولوازمها، ومن حقها جميع الأوامر التي أمر الله جل وعلا بها، ولهذا لما روجع أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عند قتال أهل الردة بين أن الزكاة من حقها، فعن أبي هريرة قال: لما توفي

رسول الله ﷺ واستخلف أبو بكر بعده وكفر من كفر من العرب، قال عمر لأبي بكر: كيف تقاتل الناس، وقد قال رسول الله ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله عصم مني ماله ونفسه إلا بحقها وحسابه على الله**». فقال: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عَناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها. فقال عمر: فوالله ما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق[1]. ثم بعد ذلك اتفق الصحابة على هذا، فمعنى هذا أن كل ما أوجبه الله ورسوله على العباد أنه من حق لا إلٰه إلا الله، فإذا لم يأت بها فالشهادة لم تتم.

وقوله: «وحده»: تأكيداً لشهادة أن لا إلٰه إلا الله؛ يعني: أنه هو المألوه وحده، وفي هذا إبطال الآلهة التي يألهها الخلق غير الله؛ يعني: أنه هو المألوه الذي تتعلق به القلوب حباً وخوفاً ورجاءً وإنابة وجميع أعمال القلب.

وقوله: «لا شريك له»: تأكيداً للإثبات؛ يعني: أن التأله له، ينفي الاشتراك في شيء معه في التأله، ولا شريك له في التوجه والعبادة، فلا بد للعبد أن يكون عارفاً عاملاً بمعناها، وبما دلت عليه، وبهذا يتبيَّن أن الذين لا يعرفون معناها يقعون في المتناقضات الظاهرة تجدهم مثلاً يقولون: لا إلٰه إلا الله ويطوف بالقبور، ويستنجدون بأصحابها ويدعونهم في السر والعلن، وهذا هو الشرك الأكبر الذي تبطله هذه الكلمة لو كان عاقلاً لها، عارفاً لمعناها لم يفعل هذا الفعل والكفار قديماً يعرفون معناها، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مرض أبو طالب، فأتته قريش وأتاه النبي ﷺ يعوده وعند رأسه مقعد رجل، فقام أبو جهل، فقعد فيه، فشكوا رسول الله ﷺ إلى أبي طالب، فقالوا: إن ابن أخيك يقع في آلهتنا، قال: ما شأن قومك يشكونك يا ابن أخي؟ قال: «**يا عم، إنما أردتهم على كلمة واحدة، تدين لهم بها العرب وتؤدي إليهم بها العجم الجزية**»، فقال: وما هي؟ قال: «**لا إله إلا الله**»، فقاموا فقالوا: أجعل الآلهة إلٰهاً واحداً؟ قال: ونزلت: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ

---

(١) رواه البخاري رقم ١٣٩٩، ومسلم رقم ٢٠.

عُجَابٌ﴾ [ص: ١ ـ ٥][١]، فأبوا وقالوا: هذا انتقال من دين إلى دين آخر، أنترك ديننا ونترك دين آبائنا وما كانوا عليه، فننتقل إلى دين جديد، فهم يعلمون ذلك تماماً، ولهذا لما قال الرسول ﷺ لعمه أبي طالب، وقد حضرته الوفاة وعنده عبد الله بن أبي أمية، وأبو جهل: «**يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج بها لك عند الله**. قال أبو جهل، وعبد الله: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب..»[٢]؛ يعني: أن هذا القول ليس مجرد قول فقط بل هو قول يعقبه انتقال من دين إلى آخر، وهذا هو الإيمان، ولهذا يقول شيخ الإسلام ابن عبد الوهاب رحمه الله: لا خير في مسلم يكون أبو جهل أعلم منه بلا إلٰه إلا الله[٣].

فالمقصود أن الشهادة تقتضي العلم، وتقتضي عقد القلب عليها، وتقتضي العمل بها فلا بد من ذلك، وإن لم يكن العبد كذلك فإنها لا تنفعه فهي مبنية على النفي والإثبات، تنفي جميع التأله وتثبته لله وحده جل وعلا، تنفيه عن الخلق عموماً ليس مخلوق يصح أن يكون إلٰهاً، والألوهية والعبادة لله وحده ولهذا سُميت هذه الكلمة كلمة الإخلاص، ومن قالها صادقاً مخلصاً فإنه لا بد أن يأتي بما أوجبه الله عليه ويترك ما حرمه الله عليه، فهي كلمة لها وقع عظيم في الأثر الذي يكون في القلب، وفي العمل الذي يكون في الجوارح، وكلام العلماء على هذه الكلمة كثير جداً، وهو كله يدور على جعل العبادة خالصة لله، وأنه لا يجوز أن يكون فيها شيء لغير الله جل وعلا، وهذا هو الدين الذي بعث الله جل وعلا به الرسل من أولهم إلى آخرهم، ولهذا تضمنت هذه الكلمة الدين كله.

---

(١) أحمد في المسند رقم ٢٠٠٨، والترمذي رقم ٣٢٣٢، والنسائي في الكبرى رقم ٨٧٦٩، والبيهقي في الكبرى رقم ١٨٤٢٨، وابن حبان رقم ٦٦٨٦، والحاكم في المستدرك رقم ٣٦١٧ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(٢) رواه البخاري رقم ١٣٦٠، ومسلم رقم ٢٤.

(٣) المسألة الرابعة من باب قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]: أن أبا جهل ومن معه يعرفون مراد النبي ﷺ إذا قال للرجل: «قل لا إله إلا الله»، فقبح الله من أبو جهل أعلم منه بأصل الإسلام.

وقوله: **«وأن محمد عبده ورسوله»** جاء باسمه العلم حتى يتميز ويُعين فلا بد أن يكون معلوماً؛ لأنه لا بد من معرفة النبي ﷺ، فقد جاء في الحديث عندما يوضع العبد في قبره يُسأل عن ذلك، فعن أنس رضي الله عنه أن نبي الله ﷺ قال: **«إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه إنه ليسمع قرع نعالهم فيأتيه ملكان فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ قال: فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله. فيقال: انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله مقعداً في الجنة فيراهما جميعاً. وأما الكافر أو المنافق فيقول: لا أدري كنت أقول ما يقول الناس، فيقال: لا دريت ولا تليت، ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين»**[1].

ولا يكفي كون العبد يعرفه باسمه ونسبه، لا بد أن يتيقن أنه رسول الله بدلائل النبوة وهي كثيرة جداً، فمنها أنه أتى إلى قوم كفار وحده، وصار يتحداهم ويقول: إن لم تؤمنوا بما جئت به سوف يسلطني الله عليكم فأقتلكم وآخذ أموالكم، وهو وحده ليس معه جنود، وليس معه من يحميه، فلا يمكن أن يقول هذا عاقل أمام أعدائه إلا إذا كان واثقاً تمام الثقة بما يخبر به، وأنهم لن يصلوا إليه، فهذا من أكبر الدلائل على أنه رسول الله، ثم صار يخبر بالأمور فتقع كما أخبر بها، ويدعو فيستجيب الله له، وكذلك حاله كما قالت خديجة رضي الله عنها: كلا والله لا يخزيك الله إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكَلَّ، وتعين على نوائب الحق[2].

وكذلك في قصة هرقل مع أبي سفيان، فعن أبي سفيان بن حرب أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش وكانوا تجاراً بالشام في المدة التي كان رسول الله ﷺ، فأتوه وهم بإيلياء فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا بترجمانه فقال: أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: فقلت: أنا أقربهم نسباً، فقال: أدنوه مني وقرِّبوا أصحابه

---

(١) رواه البخاري رقم ١٣٣٨، ومسلم رقم ٧١٤٥ واللفظ للبخاري.

(٢) رواه البخاري رقم ٣، ومسلم رقم ٤٠١.

فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه: قل لهم إني سائل عن هذا الرجل فإن كذبني فكذبوه، فوالله لولا الحياء من أن يأثروا علي كذباً لكذبت عنه، ثم كان أول ما سألني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب. قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلت: لا. قال: فهل كان من آبائه من ملك؟ قلت: لا. قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقلت: بل ضعفاؤهم. قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون. قال: فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا. قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا. قال: فهل يغدر؟ قلت: لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها. قال: ولم تمكني كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة. قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم. قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سجال ينال منا وننال منه. قال: ماذا يأمركم؟ قلت: يقول: اعبدوا الله وحده، ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة.

فقال للترجمان: قل له: سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها، وسألتك: هل قال أحد منكم هذا القول؟ فذكرت أن لا، فقلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يأتسي بقول قيل قبله، وسألتك: هل كان من آبائه من ملك، فذكرت أن لا، قلت: فلو كان من آبائه من ملك، قلت: رجل يطلب ملك أبيه، وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرت أن لا فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله، وسألتك: أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت أن ضعفاؤهم اتبعوه وهم أتباع الرسل، وسألتك أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم، وسألتك: أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب، وسألتك هل يغدر؟ فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر، وسألتك: بما يأمركم؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة

والصدق والعفاف، فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظن أنه منكم فلو أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه[1].

وهو ﷺ يخبر بالمغيبات، وغير ذلك من الأمور التي تجعل العبد يستيقن حقاً لا ريب فيه أنه رسول الله. والمسلم قد لا يشك في هذا فهو تلقى هذا من صغره، ولكن لا بد من العلم؛ لأن العبد لو أخذ هذا بالتلقي فقط والعادة التي وجد عليها الناس فقد يتعرض لشبهة، بخلاف من علم هذا عن يقين ومعرفة فإن الشبه سوف تتحطم أمامه.

فإذا شهد أن محمداً عبده ورسوله، فلا بد أن يتحقق أنه رسول أرسله الله جل وعلا، وأنه عبد تعبده الله بطاعته، وبامتثال أمره، وتبليغ رسالته التي كلفه بها إلى خلقه، ولا بد أن يتيقن هذا في قلبه، وتيقن هذا كما سبق ينتج من النظر في سيرته ﷺ ودعوته وفي الآيات التي جاء بها، فهي التي تُثبت ذلك، وتنمي هذا العلم في قلبه، وتجعله محققاً لا يقبل الشك، ولا التردد، وهذا لا بد منه للمسلم.

وذكر اسمه العلم لا بد منه، ولا يدخل في قوله جل وعلا: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور: ٦٣]، قال العلماء: أن يقول: رسول الله، نبي الله؛ يعني: لا تقولوا: محمد. أما في هذا فلا بد من ذكر اسمه العلم؛ لأنه أمر لا بد فيه من التعيين والتحقق؛ لأن الرسل كثيرون، وكما يتعين ذكر اسمه العلم في الصلاة، وفي الآذان.

ولا بد مع العلم من العمل بما تقتضيه هذه الشهادة، ويكون العمل بها: بتصديقه أولاً؛ لأنه رسول حقاً جاء من عند الله، ثم وجوب طاعته بامتثال ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه، وأنه لا يجوز العدول عن ذلك، وأنه لا يسع أحداً العمل بغير رسالته، وأن من لم يفعل ذلك أنه في النار.

---

(١) رواه البخاري رقم ٧، ومسلم رقم ١٧٧٣.

قوله: «عبد الله ورسوله»: قدَّم وصفه بالعبودية قبل وصفه بالرسالة، إما على سبيل الابتداء بما هو وصفه سابقاً وأبداً، ثم الارتقاء بوصف الرسالة.

وجمع بين هذين الوصفين منعاً للإفراط والتفريط كما وقع فيه كثير من الناس منعاً من الغلو، ومنعاً من الجفاء. فالغلو: أن يرفع فوق منزلته، وأن يجعل له مع الله مقاماً، إما من حقوق الربوبية، أو الألوهية، فقد وقع هذا ممن ينتسب إلى أتباعه، بل ممن ينسب إلى العلم حتى قال بعضهم:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم
إن لم تكن في معادي آخذاً بيدي فضلاً وإلا فقل: يا زلة القدم
فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

وقال كذلك:

ولن يضيق رسول الله جاهك بي إذا الكريم تجلى باسم منتقم[1]

يعني: أنه يستغيث بالرسول ﷺ من الله، فالمعنى يقول: إذا غضب الله يوم القيامة الغضب الذي لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعد مثله فأنا أستجير بك من غضبه، وأحتمي بك منه ـ نسأل الله العافية ـ فهل يكون هذا إلا أن يكون مشاركاً لله جل وعلا على هذا الوصف تعالى الله وتقدس، فذكر هنا وصفه بالعبودية؛ أي: أنه عبد معبداً لله جل وعلا وليس له مع الله شيء ولا يستحق من الألوهية شيئاً، ولا من الربوبية، وإنما هو عبد مكلف، وهو قام بعبودية الله حسب استطاعته وما مكنه الله منه؛ وقد ذكر الله رسوله بلفظ العبد في أشرف المقامات التي شرفه بها؛ كمقام التحدي كما في قوله جل وعلا: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [البقرة: ٢٣]، وفي مقام الإسراء: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء: ١]، وفي مقام الدعوة: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾ [الجن: ١٩]،

---

(١) هذه الأبيات للبوصيري.

وفي مقام إنزال الوحي: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ①﴾ [الفرقان: ١]، فكلها ذكرها بلفظ العبودية مما يدل على أن العبد إذا قام بعبودية ربه فهذا منتهى الشرف، وغاية الكمال.

«عبده ورسوله»، وإذا أضيف شيء قائمٌ بنفسه إلى الله تعالى فلا يكون ذلك إلا من باب الإضافة إلى الربوبية ـ الربوبية الخاصة ـ أو الربوبية العامة، أو أن يكون ذلك مما يحبه الله جل وعلا، ويرتضيه فيكون من باب التشريف والإكرام، أما إذا كان المضاف إلى الله جل وعلا معنى من المعاني لا يقوم بنفسها؛ كالسمع والعلم والبصر، فلا بد أن يكون هذا صفة، والصفة لا بد أن تقوم بموصوف، لا تقوم بنفسها، فعلى هذا يكون المضاف إلى الله نوعين:

إما أن يكون غير قائم بنفسه بل هو معنى فيكون من إضافة الصفة إلى الموصوف.

أو يكون عيناً قائمة بنفسها فيكون من باب إضافة التشريف، أو إضافة العبودية والله يحبه، كبيت الله، وناقة الله، ورسول الله، وما أشبه ذلك.

وكذلك رسوله ـ يعني: وصفه بأنه رسول الله ـ يدل هذا على أن العبد يجب أن يكون جامعاً في اعتقاده بين محبته لرسول ﷺ ومتابعته، فلا يكون جافياً، ولا يكون غالياً؛ لأن من الناس من رفع الرسول الله ﷺ إلى مقام الربوبية، ومنهم من جعله إلٰه يعبده ويدعوه، ويستغيث به، ومنهم من قصر في محبته ومتابعته، فلم يطعه، ولم يتبعه، فلا بد من محبته ﷺ وتكون محبته مقدمة على محبة الولد والوالد والنفس والأهل والمال والدنيا كلها، لأن هذا أمر ديني أَمَرَ الله جل وعلا به.

وقوله: «وأن عيسى عبد الله ورسوله»: وجمع في هذا الحديث بين محمد ﷺ وعيسى عليه السلام؛ لأن كل واحد لا بد أن يشهد أنه عبد الله ورسوله، لأن الغلو حصل في هذين النبيين الكريمين، فعيسى عليه السلام ضلَّت فيه طائفتان من الناس، فالنصارى زعموا أنه الله، أو أنه ابن الله، أو أنه شريك الله ـ تعالى الله وتقدس ـ، واليهود زعموا أنه ابن بغي قاتلهم الله، فلا بد من مخالفة هذه العقائد الفاسدة، ولهذا يقول النووي رحمه الله على هذا الحديث: هذا حديث

عظيم الموقع، وهو أجمع، أو من أجمع الأحاديث المشتملة على العقائد فإنه ﷺ جمع فيه ما يخرج عن جميع ملل الكفر على اختلاف عقائدهم وتباعدهم، فاختصر ﷺ في هذه الأحرف على ما يباين به جميعهم[1].

ويقول القرطبي رحمه الله: وفيه بيان لما يلقنه النصراني إذا أسلم[2]. فلا بد أن يلقن هذا الحديث يقال له: إشهد أن محمداً عبد الله ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه. الحديث.

وقوله: «وعيسى عبد الله ورسوله»؛ يعني: أنه عبد معبدٌ تعبده الله وتجري عليه كذلك أحكام العبودية، ليس له شيء من الألوهية وليس له اشتراك مع الله في ربوبيته، وهذا على كل أحد من الخلق مقربيهم وغيرهم، والمؤلف رحمه الله يقول في المسائل: فيه التنبيه على الجمع بين محمد وعيسى عبدي الله ورسوله. فمقصوده في هذا أن الجفاء والتطرف وقع في النصارى واليهود وأنه يقع في هذه الأمة، فلا بد من الاعتدال في هذا لا بد أن يشهد أنه عبد الله، ومعنى عبد أنه مملوك له معبد ليس له مع الله شيء في ملكه وتدبيره، وأنه لا يُسأل ولا يستقل بشيء دون الله. أما الشفاعة فهي ملك لله جل وعلا، وليس له منها شيء، وإنما الله جل وعلا يكرمه بإذنه له، يرفع قدره، وإذا أراد أن يرحم من شاء من عباده أمره بالشفاعة إظهاراً لكرامته، رحمة لهذا المشفوع له، وإلا الشفاعة ملك لله جل وعلا كما قال جل وعلا: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزمر: ٤٣، ٤٤].

والرسول عبد مثل العباد الآخرين، ولهذا قال الله جل وعلا: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠]، المثلية واقعة من جميع الجوانب إلا أنه شرفه الله بالوحي وبالرسالة، فلا بد أن يشهد العبد بهذا أنه عبد من

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ١/ ٢٢٧.
(٢) فتح الباري ٦/ ٤٧٥.

عباد الله الذين تعبدهم الله، وأنه ليس له من الأمر شيء، هذا مراد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو الواجب.

ثم الجانب الثاني وهو الجفاء، وهو كون العبد لا يشهد أنه رسول فلا يطيعه ولا يتبعه فلا بد أن يشهد أنه رسول، ولا بد من أن يعطى حقه من الحب والاتباع، فنحبه ﷺ أكثر من محبة النفس والولد والوالد، والناس أجمعين.

وكذلك عيسى تعتقد أنه عبد معبَّد، غير أنه خُلق من أنثى بلا ذكر بياناً لكمال قدرة الله جل وعلا، ولهذا نوع خلق بني آدم على أربع صور:

الأولى: الأصل الذي هو من التراب، وهو آدم عليه السلام.

الثاني: أنه خلق أنثى من ذكر، وهذا أيضاً عجيب وهي زوجه، ولهذا قال العلماء: فيه حكمة كون الرجل يميل إلى المرأة، والمرأة تميل إلى الرجل؛ لأنها جزءٌ منه.

الثالث: خلق من ذكر وأنثى.

الرابع: ما حصل لعيسى عليه السلام من أنثى بلا ذكر.

ويشهد العبد أن عيسى عليه السلام رسول الله أكرمه الله بالرسالة كغيره من الرسل، وهو من أولي العزم من الرسل.

قوله: «وكلمتُه»: الضمير يعود على الله جل وعلا، والكلمة مضافة إلى الله. وهذه الكلمة ضل فيها طائفتان: طائفة النصارى، وطائفة الجهمية. الجهمية قالوا كلمة الله مخلوقة - يعني: كلام الله مخلوق - لقوله: **«وكلمتُه»**، فوصف عيسى بأنه كلمة وعيسى بلا شك مخلوق فإذا الكلام مخلوق هذه شبهتهم. والنصارى قالوا: إنه جزء من الله - تعالى الله وتقدس - لأنه قال: **«وروحٌ منه»**. والحق: أنه كلمته أوجده بكلمته، قال الله له كن فكان، فكان بالكلمة، وليس هو الكلمة، الكلمة وصف لله، ولكنه تكون بها كغيره من المخلوقات التي إذا أرادها جل وعلا قال لها: كوني فكانت. وجاء وصف ذلك في القرآن أن الله أرسل الملَك متمثلاً ببشر في خلوتها وتعبدها: ﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ۝١٨﴾ [مريم: ١٨]، فأخبرها أنه ليس بشر إنما

هو ملك: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ۝١٩﴾ [مريم: ١٩] مولوداً مباركاً، ونفخ في جيب درعها فدخلت النفخة في فرجها فحملت به، وجاءت به وهذا من آيات الله جل وعلا، ولهذا جعله الله آية.

وقوله: «وروحٌ منه»؛ يعني: أنه أرسل بهذه الروح التي نفخ فيها أرسل بها جبريل عليه السلام إليها، فكونه فعل ذلك بأمر الله أطلق على ذلك أنه روح منه مع أن هذا وصف به آدم عليه السلام: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٢٩﴾ [الحجر: ٢٩]، ولكن مريم نفخ فيها جبريل، فجبريل هو الذي نفخ، والروح هي النفخة، ولكن جبريل لا يفعل شيء استقلالاً وإنما هو بأمر الله، ولهذا صح أن يضاف إلى الله ـ وروح منه ـ والمفسرون يقولون: إنه مثل سائر الأرواح؛ لأن كل مخلوق يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح إذا بلغ حد معيناً في بطن أمه مثله مثل سائر الأرواح، قال أُبي بن كعب: عيسى روحٌ من الأرواح التي خلقها الله تعالى، واستنطقها بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢] بعثه الله إلى مريم فدخل فيها.

وقوله: «منه» يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله: إنه مخلوق بأمر الله، كائن منه، وهذا كقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝١٣﴾ [الجاثية: ١٣]؛ يعني: أنه كائن منه؛ كما أن معنى الآية الأخرى: أنه سخر هذه الأشياء كائنةً منه؛ أي: أنه مُكوِّنُ ذلك، وموجوده بقدرته وحكمته. انتهى[1].

قوله: «﴿جَمِيعًا مِّنْهُ﴾»؛ يعني: خلقاً وتسخيراً، فهو لا يمكن أن يوجد حركة، أو سكون إلا بأمره وتدبيره جل وعلا، فلا بد من معرفة هذا المعنى أنه روح منه؛ يعني: نُخالف ما يقوله الضلال.

وقوله: «والجنة حق والنار حق»: الحق هو الثابت، يقال: حق في المكان إذا ثبت فيه، واستقر، أو هو الصدق الذي يطابق الواقع.

---

(١) فتح الباري ٦/ ٤٧٥.

فالجنة التي وعدها الله جل وعلا المتقين حق ثابت بلا ريب، فهو حق وأمر حق، والنار حق أعدها الله لأهل المعاصي، ولأهل الكفر، والله ذكر في كتابه كثيراً أنهما معدَّتان موجودتان.

وفي هذا دليل على أن الجنة موجودة، والنار كذلك موجودة بلا شك، والمعتزلة يقولون: الجنة غير موجودة الآن، ستوجد، فهم قاسوا الرب سبحانه على أفعالهم، ولهذا سمَّاهم أهل السُّنَّه مشبهة الأفعال نفاة الصفات، يشبهون أفعال الرب بأفعالهم من باب القياس يقولون مثلاً: لو أن شخصاً بنى بيتاً وأودعه أصناف الأثاث والمأكولات، ثم أغلقه لا يكون هذا حسناً، وكذلك الجنة إذا كانت مخلوقة ومعطلة من السكان وكذلك النار فهذا لا يصلح فهذا عبث والله يتعالى عن العبث، فهي ستخلق عند الحاجة إليها فهم يحكمون على الله بآرائهم.

وقد تكاثرت النصوص في ذكر الجنة والنار، وأخبرنا رسولنا ﷺ أن الله أطلعه عليهما؛ فعن عمران بن حصين عن النبي ﷺ قال: «**اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء، واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء**»[1]، ولما كسفت الشمس وصلى بالناس حصل منه التقهقر، ثم تقهقرت الصفوف خلفه ثم تقدم، فلما سئل عن ذلك قال: «**عرضت عليّ الجنة والنار دون هذا الحائط حتى أني رأيت في النار عمرو بن لحي الخزاعي يجر قصبه؛ لأنه أول من غيَّر دين إبراهيم ﷺ، ورأيت في النار امرأة في هرة حبستها حتى ماتت لا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض فرأيتها تخمش وجهها في النار**».

وقال كذلك: «**ورأيت الجنة حتى هممت أن آخذ منها قطفاً** (يعني: عنقود عنب) **ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا، ثم بدا لي أن لا أفعل**»[2]. ولهذا نص العلماء على وجوب اعتقاد وجود الجنة والنار وأنهما معدتان، الجنة أعدت للمتقين، والنار أعدت للكافرين.

---

(١) البخاري رقم ٣٢٤١، ومسلم رقم ٢٧٣٧. (٢) رواه مسلم رقم ٩٠٤.

قوله: «أدخله الله الجنة على ما كان من العمل»: هذا جواب الشرط «من شهد»، ومعنى أدخله الله على ما كان من العمل؛ يعني: أنه يدخله الجنة وإن كان عنده تقصير وإن كان عنده ذنوب، ففي هذا دليل واضح على فضل التوحيد، وأنه يكفر الذنوب، وهذا ما أراده المؤلف من إيراد هذا الحديث.

۞ قول المؤلف ﷺ: ولهما في حديث عِتبان: «فإن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله»[1].

التحريم: هو المنع من الشيء مطلقاً، فمعنى حرم أنه امتنع أن يدخل النار فلا يدخلها أصلاً، وهذا جاءت فيه أحاديث كثيرة حتى قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ: قد تواترت الأحاديث بأنه يخرج من النار من قال: لا إلٰه إلا الله، وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، وما يزن خردلة، وما يزن ذرة.

وتواترت أيضاً أن كثيراً ممن يقول: لا إلٰه إلا الله يدخل النار، ثم يخرج منها. وتواترت الأحاديث بأن الله حرَّم على النار أثر السجود من بني آدم، فهؤلاء كانوا يصلون ويسجدون، ومعلوم أن الذي يسجد ويصلي أنه يقول: لا إلٰه إلا الله.

وتواترت الأحاديث بأن الله يُحرم على النار من قال: لا إلٰه إلا الله، وشهد أن لا إلٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله، ولكن جاءت مقيدةً بالقيود الثِّقال. والأحاديث في هذا ثلاثة أقسام:

ـ أحاديث جاءت في: أن من قال: لا إلٰه إلا الله دخل الجنة كما في حديث عبادة بن الصامت ﷺ الذي مر معنا، وليس فيه أن النار محرمة، أو هو محرم عليها.

ـ وأحاديث فيها: أن من قال لا إلٰه إلا الله أنه يحرم على النار، أو أن النار تحرم عليه مثل: حديث معاذ ﷺ الذي في الصحيحين عن قتادة قال: حدثنا أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ ـ ومعاذ رديفه على الرَّحل ـ قال:

---

(١) رواه البخاري رقم ٤٢٥، ومسلم رقم ٣٣.

«يا معاذ»، قال: لبيك يا رسول الله وسعديك قال: **«يا معاذ»**، قال: لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: **«يا معاذ»**، قال: لبيك يا رسول الله وسعديك ـ ثلاثاً ـ قال: **«ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله صدقاً من قلبه إلا حرمه الله تعالى على النار»**، قال: يا رسول الله، أفلا أخبر به الناس فيستبشروا، قال: **«إذاً يتكلوا»**، فأخبر بها معاذ عند موته تأثماً[1].

ـ وأحاديث كثيرة ومتواترة: أن الله حرم على النار أثر السجود أن تأكلها مثل اليدين والركبتين، وأطراف القدمين، والجبهة، والأنف، ومعنى هذا أن المصلين يدخلون النار.

ـ وأحاديث فيها: أنه يُخرج من النار من كان في قلبه ما يزن شعيرة من الخير، وفي أخرى مثقال ذرة، وفي أخرى مثقال خردلة، والجمع بين هذه الأحاديث:

أولاً: أحاديث الرسول ﷺ لا يناقض بعضها بعضاً، بل يصدق بعضها بعضاً.

وأحسن الجمع في هذا أن الأحاديث التي فيها دخول الجنة، ودخول النار ليس فيها إشكال؛ لأن الأحاديث التي فيها أنه يدخل الجنة ليس فيها أنه يحرم على النار، يجوز أنه يعذب في النار ثم يدخل الجنة، ويجوز أن يدخل الجنة بلا عذاب، فالرسول ﷺ أخبر أن من أمته سبعون ألفاً يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب، وبيَّن أن سبب سبقهم إلى الجنة أنه بإخلاصهم التوحيد، ولكن التي فيها إشكال الأحاديث التي فيها تحريم النار عليهم، أو تحريمهم على النار، فقالوا إن أحسن الجمع في الأحاديث التي فيها أنه يحرم على النار، أو أنه محرم هو على النار، أنه فيمن قالها بالقيود التي جاءت مقيدة بها في الأحاديث صادقاً مخلصاً يبتغي بذلك وجه الله، وأنه إذا قال هذه الكلمات على هذه الصفة يكون تائباً غير مُصِرٍّ على ذنب أصلاً، تائباً توبةً نصوح، ثم يموت بعد ذلك على هذه التوبة، وعلى هذا القول الذي صدر منه بصدق،

(١) رواه البخاري رقم ١٢٨، ومسلم رقم ٣٢.

وإخلاص وابتغاءً لوجه الله؛ لأنه إذا جاء بها على هذا الوجه فإن الذنوب كلها تكون مكفرة بل قد تنقلب ذنوبه حسنات.

أما الذين يدخلون النار، فقوم قالوها ولم يسلموا من الشرك الأصغر والذنوب، فكان قولهم قد أضعفته السيئات، فرجحت سيئاتهم على حسناتهم فلم يصلوا في نطقهم لها المرتبة التي تجعلهم تائبين غير مصرِّين على الذنوب، وتفاوت الناس في هذا تفاوتاً عظيماً حتى قال ابن القيم رحمه الله: إن الرجلين ليكونان في الصلاة الواحدة وإن ما بينهما في الفضل كما بين السماء والأرض، وذلك أن أحدهما مقبل بقلبه على الله عز وجل، والآخر ساهٍ غافل، فإذا أقبل العبد على مخلوق مثله، وبينه وبينه حجاب لم يكن إقبالاً ولا تقرباً، فما الظن بالخالق عز وجل[1]. كلهما ينطقان بشيء واحد ويعملان عملاً واحداً لا يختلفان في العمل، ولكن يختلفان في قلبيهما.

ولهذا يكون المعنى أن العبد إذا تكلم بهذه الكلمة فإما أن يكون مخلصاً صادقاً موقناً، ثم إخلاصه وصدقه يجعله تائباً من جميع الذنوب التي عملها توبة نصوحاً فلا يصبح مصرّاً على أي ذنب، ثم يموت على هذه الصفة، وإن عمل أعمالاً أخرى من الذنوب فإنه يسارع إلى التوبة، وإلى إحراق هذه الذنوب بهذه الكلمة صادقاً موقناً فيموت على هذا مباشرة، فالقائل لها لا يخلو إما أن يقولها على هذه الصفة، أو يقولها تقليداً من دون أن يعرف المعنى، وبدون أن يعمل بالمدلول، فمثل هذا لا تنفعه فهذا يكون من أقرب الناس إلى قوله جل وعلا: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف: ٢٣]، فيكون له نصيباً من هذا ويخاف عليه أن يكون ممن إذا امتحن في قبره أن يقول: ها ها لا أدري سمعت الناس يقولون هذا فقلته، أو يكون ممن يقولها بصدق، وإخلاص ومحبة ويقين، ولكن بعد ذلك طرأ عليه من الذنوب، ومن الشرك الأصغر الذي رجح سيئاته على قولها، فاستحق دخول النار،

---

(١) الوابل الصيب ص٤٦.

والعذاب، ثم بعد ذلك يخرج من النار إلى الجنة، فتكون الأقسام ثلاثة:

ـ قسمٌ لا ينتفع بقولها؛ لأنه لم يقلها عن علم، وصدق، وإخلاص، بل قالها تقليداً وعادة فقط فهذا بالاجماع أنه لا ينفعه، لو أن رجلاً مثلاً: لا يعرف المعنى، ولا يعرف اللغة ولكن سمع الناس يقولون شيئاً فقاله بلسانه؛ يعني: سمعهم يقولون: لا إلٰه إلا الله، فقال ذلك بلسانه وهو لا يعرف مدلولها ولا معناها، وكذلك رأى الناس يصلون فصلى، ورأى الناس يصومون فصام، ورآهم يحجون فحج وهو لا يعرف المعنى، ولا يعرف المراد، فهل يكون هذا مسلم؟ الجواب: أنه ليس بمسلم، لا بد أن يكون المسلم عالم في قلبه، لا بد أن يعتقد دين الإسلام حقاً في قلبه، أما مجرد نطق فهذا لا ينفع، ومعلوم تفاوت الناس في العلم وكذلك في قول هذه الكلمة، فجاءت الأحاديث مختلفة على هذا المعنى على تفاوت الناس فليس بين الأحاديث إشكال.

ـ وقسمٌ قالها بصدق، وإخلاص، ويقين، لكنه خلط عملاً صالحاً، وآخر سيئاً، فطرأ عليه من الذنوب والشرك الأصغر ما أضعف تأثير هذه الكلمة فرجحت سيئاته على حسناته، فإن كان قائلها قد اجتنب الشرك الأكبر، وبقي عنده الشرك الأصغر، والأصغر تدخل فيه المعاصي كبخله ـ بحب المال ـ ببعض الواجب فيمتنع من بذله فهذا نوع من الشرك الأصغر، وحبه ما يبغض الله حتى يقدم هواه على محبة الله ونحو ذلك، فإذا كان هذا الذي قالها عنده شيء من الصغائر ومات على التوحيد فالصغائر يرجى أن تكفر باجتناب الكبائر، كما قال جل وعلا: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [النساء: ٣١]، فلا يكون من أهل النار، وأما إذا كان مصراً على شيء من الكبائر، فالكبائر جاءت النصوص الكثيرة بالتوعد عليها في النار مثل: أكل الربا، وأكل مال اليتيم ونحو ذلك، فهو إلى مشيئة الله جل وعلا إن شاء أن يعذبه في النار عذبه، وإن شاء أن يعفو عنه عفا، فالأمر إلى الله جل وعلا فهذا وإن استحق دخول النار، والعذاب، فإن مصيره إلى الجنة.

وفي هذا ينفصل أهل السُّنَّة عن المعتزلة، والخوارج الذين يكفِّرون

بالذنوب أما الخوارج فعندهم الناس قسمان فقط: بر تقي، وفاجر شقي، ليس فيهم وسط وهم يقترحون على الله أن يكون الخلق هكذا، وهذا تحكم وجهل فأكثر الخلق ليسوا كذلك.

وأما المعتزلة فهم جعلوا الفاسق في منزلة بين المنزلتين لا هو في الإيمان ولا هو في الكفر بين الكفر والإيمان؛ كالشاة العائر التي تكون بين القطيعين من الضأن، مرة تلتفت هنا ومرة تلتفت هنا، هذا في الدنيا فهو لا يُعطى حكم المؤمن ولا يُعطى حكم الكافر ولكن في الآخرة يكون في النار، فهم يتفقون مع الخوارج في الحكم عليه ويختلفون عنهم في التسمية، وهذه بدعة ابتدعوها ما سبقهم إليها أحد واختصوا بها، والعجيب أنهم جعلوا هذا أصل من أصول الإسلام؛ لأن أصول الإسلام عندهم خمسة هذا أحدها، وكلها خلاف ما جاء به النبي ﷺ. والمعتزلة لهم وجود اليوم ولهم كتب انتشرت الآن بكثرة، بل يوجد منهم دكاترة، وموجهون، ومدرسون، وناس يتبنون هذا المذهب، وإن كان قد يضاف إليه بعض الصفات من التحسين والأمور التي لا قيمة لها ولا تعتبر.

فالمقصود أن الإنسان لا بد أن يعرف الباطل حتى يجتنبه خشية أن يقع فيه، ولا سيما إذا كان الباطل له أنصار، وله كتب، وله من يقرر ذلك ويكتب فيه. والفرق السالفة التي سلفت وإن كان أئمتها ودعاتها قد ذهبوا، فلا بد من أن لهم وارث يتبعهم، فإن لكل قوم وارث، ولكن قد تختلف الأساليب وتختلف العبارات، والمعنى واحد.

- وقسم قالها بصدق وإخلاص ويقين مبتغياً بذلك وجه الله، وتاب من الذنوب توبة نصوحاً، ولم يكن مصرّاً على ذنب أصلاً، فإن كمال إخلاصه ويقينه يوجب أن يكون الله أحب إليه من كل شيء، فإذاً لا يبقى في قلبه إرادة لما حرم الله، ولا كراهية لما أمر الله، فهذا الذي إذا مات على هذه الصفة يكون محرماً على النار، وإن كانت له ذنوب قبل ذلك. فإن هذا الإيمان، وهذا الإخلاص، وهذه التوبة، وهذه المحبة، وهذا اليقين، لا يترك له ذنباً إلا مُحيَ عنه، بل قد تنقلب ذنوبه حسنات كما سبق.

وقوله: «يبتغي بذلك وجه الله»: هذا هو الإخلاص، والإخلاص لا بد فيه من الصدق، والعلم؛ العلم بمعنى هذه الكلمة والصدق معناه أن يأتي بالعمل. فكفار قريش يعرفون معنى هذه الكلمة وأن الذي يقولها ينتقل من دين إلى دين؛ لأنه لو كان مجرد قول مثل ما عليه كثير من الناس اليوم يقولونها تقليداً وعدم معرفة لمعناها الحقيقي لسارعوا إلى قولها، ولم يكن بينهم وبين رسول الله ﷺ أي خلاف، ولكنهم عرفوا أن من قال: لا إله إلا الله يكفر بكل معبود من دون الله وأن يكون عبداً مخلصاً لله جل وعلا، ممتثلاً لأمره، مجتنباً لنهيه فتكون عبادته لله وحده، وليس لأحد منها شيء، فإذا قال هذه الكلمة بصدق وإخلاص ويقين مبتغياً وجه الله، ولم يأت بما يناقض هذه الكلمة أو ينقصها وتاب توبة نصوحاً ومات على ذلك فإنه يدخل الجنة، ويكون محرماً على النار، وتكون ذنوبه معفواً عنها بفضل الله وكرمه، وإلا لا يمكن العبد أن يتخلص من الذنوب نهائياً فلا بد منها وهي التقصير في الأوامر، وكذلك ارتكاب بعض النواهي، هذا أمر لا ينفك منه أحد من خلق الله إلا من شاء الله، ولهذا جاء في الحديث عن أنس أن النبي ﷺ قال: **«كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوَّابون»**[(١)].

فالمقصود أن هذا الحديث يدل على أن من قال هذه الكلمة عالماً بها وبمدلولها وعاملاً بما تقتضيه مخلصاً بذلك فإن النار تكون عليه محرمة، فمعنى ذلك أنه يُعفى عنه جميع ذنوبه، وهذا ظاهر جداً في فضل التوحيد، وأنه يكفر الذنوب؛ كالحديث الذي قبله.

۞ قال المؤلف رحمه الله: وعن أبي سعيد الخُدريِّ رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «قال موسى: يا ربِّ علِّمني شيئاً أذكرُكَ وأدعوك به. قال: قُل يا موسى: لا إله إلا الله. قال: كلُّ عبادك يقولون هذا. قال: يا موسى لو أن السماواتِ السبعَ وعامِرهُنَّ غيري والأرضين السبعَ في كِفةٍ، ولا إله إلا الله في كفةٍ، مالت بهن لا إله إلا الله»، رواه ابن حبان، والحاكم، وصححه الحاكم قال: على

(١) الترمذي رقم ٢٤٩٩، وابن ماجه رقم ٤٢٥٠، والمسند رقم ١٣٠٧٢، وابن أبي شيبة رقم ٣٤٢١٦، والمستدرك رقم ٧٦١٧.

شرط مسلم، وأقره الذهبي على ذلك[١].

يجوز أن يكون هذا من باب الوحي، وأن يكون من باب المخاطبة؛ لأن موسى هو كليم الرحمٰن، كلمه بلا واسطة، موسى في الأرض، والله جل وعلا على عرشه وكذلك من شاركه في هذا، ولكن على غير هذه الصفة آدم ﷺ، وكذلك محمد ﷺ حينما عرج به إلى السماء وخاطبه الله جل وعلا، وفرض عليه الصلوات، ولكن موسى ﷺ مرات يواعده جل وعلا ثم يكلمه.

قوله: «يا ربّ علمني»: معلوم أن الرسل من بني آدم يحتاجون إلى التعليم، ويحتاجون إلى التنبيه، ولهذا موسى من أولي العزم، ويطلب ربه جل وعلا أن يعلمه شيئاً يخصه به فهم فقراء إلى الله جل وعلا، ولا علم لهم إلا ما علمهم الله إياه.

قوله: «شيئاً أذكرك وأدعوك به»؛ يعني: أثني عليك به، وأتوسل به إليك حتى تقربني إليك، وترفع درجتي، وهذا هو الأدب الذي ينبغي للمسلم أن يتبعه قبل أن يدعو يثني على ربه، والثناء عليه بذكر أسمائه وصفاته التي يتعرف بها إلى عباده؛ والرسل يلجأون إلى ربهم بل هم أشد الناس خوفاً من الله، وأعلم الخلق بالله، وهم أرعى الناس لحدود الله ومحارمه، ولهذا كان الرسول ﷺ يقول: **«والله إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بما أتقي»**[٢].

قوله: «أدعوك به»؛ أي: أسألك، وقد جاء من أسباب الإجابة أن يكون العبد بهذه الصفة يثني على ربه أولاً، ثم يصلي على نبيّه ﷺ، ثم يذكر مسألته، وهذا لا يجوز الإخلال به؛ لأنه من أسباب الإجابة، والمسلم بحاجة دائماً إلى الابتهال إلى الله ودعائه، وكما جاء عند الترمذي عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الدعاء هو العبادة»**[٣]، وقال جل وعلا: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ

---

(١) السنن الكبرى رقم ١٠٩٨٠، والمستدرك رقم ١٩٣٦، وصحيح ابن حبان رقم ٦٢١٨.

(٢) رواه مسلم رقم ١١١٠.

(٣) الترمذي رقم ١٤٧٩، وابن ماجه رقم ٣٨٢٨، وأبو داود رقم ١٤٧٩، وأحمد في المسند رقم ١٨٣٧٨.

﴿عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝﴾ [غافر: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النساء: ٣٢]، وحكم الأمر هنا واجب، ولهذا جاء في السنن عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«من لم يسأل الله يغضب عليه»**[1]، وابن آدم إذا دُعي غضب؛ لأنه فقير، فعلى هذا يجب أن يكون العبد متعرفاً على طريقة الرسول ﷺ في هذه العبادة وهي التي يشير إليها هذا الحديث؛ ومعنى ذلك أن هذه هي طريقة الرسل هكذا يثنون على ربهم ثم يدعونه، ويدلنا أيضاً على أن هذه العبادة لا يستغني عنها عبد كل عبد مضطر إليها، وإن كان الناس يُعرضون عن هذا الشيء، ولا يلجأون إلى الله إلا في الضرورات، أو عندما يحتاجون إلى ذلك.

قوله: «قال: قل يا موسى: لا إله إلا الله»: في هذا أن لا إلٰه إلا الله ثناء ودعاء معاً، الثناء كونه الإلٰه الحق الذي يملك كل شيء وبيده تصريف كل شيء؛ لأن هذا من لازم لا إلٰه إلا الله.

ودعاء؛ لأنه يأله ربه، ويخضع، ويذل له، فهو عبده الذال الخاضع المنيب المستكين الذي لا يرجو إلا إياه، ولا يخاف غيره، ولا يُسأل إلا إياه.

وكأن موسى ﷺ أراد شيئاً يختص به دون سائر الخلق، أما هذه الكلمة فالمسلمون كلهم يقولونها، ولكن في هذا أن هذه الكلمة مع كثرتها، وسهولتها هي أفضل الذكر والدعاء وحكمة الله جل وعلا، وإحسانه أن الشيء إذا كان الناس إليه أحوج فوجوده يكون أكثر وأعم، وهذه سُنَّة الله جل وعلا، فانظر مثلاً إلى الماء لو كان عند بعض الناس فقط ماذا يكون والهواء أو الأمور الثابتة مثل: الملح لو كان عند بعض الناس يحتكره ولكن كثر جداً لكثرة الحاجة إليه، وهذا من معاني الربوبية؛ لأن من معاني الربوبية كونه يربي خلقه، ويربِّهم بالنعم التي يحتاجون إليها، والناس إلى هذه الكلمة أعظم حاجة إلى الأكل والشرب، والهواء، والتنفس، أعظم بكثير، ولهذا كانت سهلة ميسورة، وهي أفضل الكلام، وأفضل الذكر، وأفضل الثناء على الله جل وعلا،

---

(١) الترمذي رقم ٣٣٧٣، والمسند رقم ٩٦٩٩، والمستدرك رقم ١٨٠٦.

وأفضل ما يتوسل به إليه؛ لأنها هي كلمة الإخلاص، وهي الكلمة التي تجمع عبادة الله وتجعلها خالصة له جل وعلا إذا فهم معناها، وعُمل بمدلولها، وقد جاءت الأحاديث في بيان فضلها عن الرسول ﷺ؛ كحديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعاً: «**خير الدعاء يوم عرفة، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الحمد وهو على كل شيء قدير**»، رواه الإمام مالك، والترمذي[1]، فهي أفضل الذكر وأكثره ثواباً وأكثره تكفيراً للذنوب؛ لأنها مبنية على الإخلاص، والإخلاص لا يعدله شيء، ولهذا يجب أن يأتي بها العبد كاملة يقول: لا إلٰه إلا الله. ولا يصنع كما تصنع جهلة المتصوفة المبتدعة يقولون: (الله، الله) أو بعضهم يقتصر على لفظ: هو، وقد ألف ابن عربي كتاباً سمَّاه «كتاب الهو»، وهم في هذا كالكلاب التي تنبح إذا ذكروها، فهذا من البدع التي يحبها الشيطان، وشرعها، ولم يأت بها نص لا من كتاب ولا من سُنَّة.

أما زعمهم أن هذا من شدة التعلق بالله ولأنهم لا يستطيعون أن يقولوا: لا إلٰه إلا الله خوفاً أنه يموت قبل أن يكملها فيموت بين النفي والإثبات، فهذا من الهراء والادعاء الذي لا يقبل أصلاً ولا معنى له.

«**لا إله إلا الله**»: وإن كان لفظها خبر، فالمقصود بها الإنشاء كما قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران: ١٨]، والإلٰه: هو المألوه الذي تألهه القلوب خوفاً وحباً وذلاً له، وأن هذه تدل على أن التوحيد له ركنان:

النفي والإثبات، لا بد من النفي، ولا بد من الإثبات؛ النفي معناه: أن تنفي ألوهية كل مألوه، وتثبت التأله لله جل وعلا، وفي الركن الأول إبطال الشرك، وإبطاله يقتضي الكفر به، والبعد عنه، وكذلك معاداة أهله ومحاربتهم، ولا يكفي كونك عدو لهم، لا بد أن يكون هذا في القلب، ولا بد أن تبدؤهم بالعداوة، ولا بد من جهادهم.

---

(١) الترمذي رقم ٣٥٨٥، وموطأ مالك رقم ٩٤٥.

قال: «كل عبادك يقولون هذا»: «يقولون» بإثبات النون، نظراً لمعنى «كل»، ولكن في أكثر الأصول «يقولوا» بحذفها نظراً للفظ كل، ولأن كل معناها الجمع، والثاني لفظها الإفراد، فالمعنى أنه جائز إثبات النون وحذفها، والمعنى أنه يريد ﷺ شيء يخصه به دون الخلق، ومن طبيعة العبد أنه يفرح بالشيء الذي يختص به هو، ولكن في ضمن هذا التنبيه على فضل لا إلٰه إلا الله.

قوله: «قال: يا موسى لو أن السماوات السبع وعامرهن غيري»: هذا نص في أن السماوات سبع، وهذا جاء كثيراً في النصوص، ولهذا أكثر ما يرد ذكر السماوات بالجمع بخلاف الأرض جاءت في القرآن بالإفراد إلا في آية واحدة، وليست أيضاً صريحة في قوله جل وعلا: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: ١٢] مثليه فقط، ولكن جاء في الأحاديث النص على أنها سبع كما في صحيح البخاري عن أبي سلمة بن عبد الرحمٰن وكانت بينه وبين أناس خصومة في أرض فدخل على عائشة فذكر لها ذلك، فقالت: يا أبا سلمة اجتنب الأرض فإن رسول الله ﷺ قال: «**من ظلم قِيد شبر طُوقه من سبع أرضين**»[(١)].

وقوله: «وعامرهن»: هذا نص أن لكل سماء عامر، والعامر هم العباد الذين يكونون فيها يعمرونها بالطاعة. السماوات الذين فيها عمَّار، أما الأرض فالذين فيها أكثرهم مفسدون وليسوا عامرين، ولهذا جاءت الآيات التي يُخاطب بها الرسل قومهم، قال جل وعلا: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف: ٥٦]، فالإفساد في الأرض بالمعاصي، والإفساد من بني آدم ومن الجن، وهؤلاء هم الذين يكونون ملء جهنم، كما هو معلوم في كتاب الله جل وعلا. فالمقصود هنا عامرهن؛ يعني: عامر السماوات، والعمارة بالطاعة، ومعلوم أن سكان السماوات ملائكة، فهي مملوءة من الملائكة، ولهذا جاء ذكر الملائكة في القرآن إذا تأملته بلفظ الجماعات كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾

---
(١) البخاري رقم ٣١٩٥، ومسلم رقم ١٦١٢.

﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢﴾ [المرسلات: ١، ٢] يذكرهم بلفظ الجماعة لكثرتهم فهم كثيرون جداً، فعن أبي ذر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون، أطَّت السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، وما تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصُّعُدات تجأرون إلى الله، لوددت أني كنت شجرة تعضد»**[1]، والسماء على عظمتها، وسعتها معمورة بطاعة الله جل وعلا، والملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، يلهمون التسبيح، والتحميد والتقديس مثل ما نُلْهَم النفس.

هذه الكثرة التي في السماء، وهذه السعة جاء أن السماء لها سُمْك مسيرة خمسمائة عام فهي ليست مجرد سقف، فيها درجات وفيها مساكن بعضها فوق بعض، وهي متفاوتة، ففيها أماكن كثيرة وعمَّار كثيرون إذا تصورت هذه الكثرة، والسماء الدنيا محيطة بالأرض من جميع الجهات، من أي جهة ذهبت في الأرض إذا السماء فوقك؛ لأن الأرض شبه البيضة في قلب السماء، والسماء التي فوق السماء الدنيا محيطة بها من جميع الجهات، فالثانية أوسع من الأولى بكثير جداً والثالثة أوسع من الثانية، وهكذا إلى السماء السابعة، وهي أوسع السماوات كلها ثم الكرسي، والسماوات كلها كأنها سبع دراهم ألقيت في أرض فلاة بالنسبة للكرسي، ثم العرش الذي هو أكبر المخلوقات وسقفها، وهذه أمور يجب أن يُفكر فيها العبد حتى يدله ذلك على عظمة الله جل وعلا، فيخلص له العبادة ويفتقر إليه ويسأله، وهو يعني: العبد ذرة من الذرات المخلوقة، وهو مذكور عند ربه لا يخفى عليه شيء من تصرفاته وكلامه، وحاله، ويحمد الله أن جعله عبداً له ليس عبداً للشياطين، أو عبداً لفرجه أو بطنه كما هو الواقع لأكثر الناس، وهذا أنفع ما يكون للإنسان أنه يفكر في هذه الأشياء.

قوله: «وعامرهن غيري» استثنى نفسه جل وعلا، وهذا يدلنا على أن الله

---

(١) الترمذي رقم ٢٣١٢، وابن ماجه رقم ٤١٩٠، وأحمد في المسند رقم ٢١٥٥٥، والحاكم في المستدرك رقم ٣٨٨٣.

جل وعلا في السماء، وقد جاء قوله ﷻ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾﴾ [الملك: ١٦] من هو الذي في السماء أمنَّاه؟ لا يجوز أن يكون نأمن من عذاب الله، وقوله: ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾، كما يقول أهل السُّنَّة: ﴿فِى﴾، إما أن تكون بمعنى: (على)؛ كقوله جل وعلا: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ [آل عمران: ١٣٧]؛ يعني: على الأرض ليس معناه أنكم تدخلون في قلب الأرض، وكقوله عن فرعون: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]؛ أي: على جذوع النخل وليس أنه يصلبون في قلب الجذع؛ فمعنى هذا: أن ﴿فِى﴾ تأتي بمعنى على، أو تكون السماء المقصود بها العلو، وكلاهما ثابت في النصوص، هذا وهذا وكلاهما حق، أما أن يفهم أن ﴿فِى﴾ تدل على الظرفية فهذا فهم خاطئ ولا يجوز أن يفهمه عبد بالنسبة لله جل وعلا، فالله جل وعلا لا ظرف له، ولا يكون شيء مقلّاً له ومظلاً له تعالى الله وتقدس، وأما العرش فليس معناه أنه يقله لأنه بحاجة إليه، بل العرش بحاجة إلى الله، فهو الذي يمسك العرش بقدرته جل وعلا، فهو الغني عن العرش وعن كل شيء، الغني بنفسه عن كل ما سواه، وهو أكبر من كل شيء، ولا ينافي هذا إخبار الرسول ﷺ أن الله ينزل آخر كل ليلة إلى السماء الدنيا[1]، وكذلك ينزل إلى الأرض في يوم القيامة يحاسب خلقه[2]، فهو ينزل إلى السماء الدنيا وإلى الأرض، وهو فوق عرشه ولا يكون شيء فوقه بل هو فوق كل شيء، ولهذا يقول أهل السُّنَّة: العلو صفة ذات، ومعناه أنها لا يجوز أن تفارق رب العالمين، دائماً متصف به، أما صفة الفعل فهي تتعلق بمشيئته إذا شاء فعلها مثل النزول، ومثل المجيء، ومثل الخلق والرزق، والهدى والضلالة وما أشبه ذلك.

---

(١) رواه مسلم رقم ٧٥٨ ولفظه: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا مضى شطر الليل أو ثلثاه ينزل الله تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا فيقول: هل من سائل يعطى، هل من داع يستجاب له، هل من مستغفر يغفر له، حتى ينفجر الصبح»**، وفي المسند برقم ٨٩٦٢.

(٢) الترمذي رقم ٢٣٨٢، وصحيح ابن حبان رقم ٤٠٨.

وقوله: «والأرضين السبع»: ولم يقل: وعامرهن، والسبب أن أكثر من في الأرض مفسد، وليس عامر، ولكن دخلوا في العموم غير أنهم ما نص عليهم لفسادهم.

وجاء النص على أنها سبع، ولكن في القرآن لم تأت إلا مفردة إلا في موضع واحد وهو قوله جل وعلا: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: ١٢]، اختلف العلماء في الأرضين هل هي مثل السماوات بينها فتوق؟ يعني: بين كل أرض وأخرى مسافة أم أنها مجرد طبقات؟ ذكر القرطبي هذا في تفسيره، وقال: الراجح القول الأول أنهن بينهن فتوق وأنهن لهن عمار وسكن، وقال: إن هذا هو قول السلف، وهو الذي تدل عليه النصوص، والحق خلاف هذا، فالذي تدل عليه النصوص أنها سبع فقط، وليس لهن عمار، أما النصوص التي ذكرت عن ابن عباس وغيره فيظهر والله أعلم أنها منقولة من زنادقة أهل الكتاب، والذين يريدون أن يفسدوا عقائد المسلمين، ولم يصح عن النبي ﷺ في ذلك شيء، ويقول: إن في كل طبقة سكان يماثلون بأسمائهم وصفاتهم من على هذه الطبقة العليا؛ يعني: أن في طبقة من الأرض آدم ونوح إلى آخره.

وقال بعض المفسرين: إن المقصود بالأرضين هذه الأقاليم، الأقليم الجنوبي والشمالي والوسط والغربي، وأصبح بعض الناس يسميها قارات، ولكن هذا ليس صحيحاً؛ لأن مثل هذا لا تكون طبقات ولا تكون المثلية متطابقة، والصواب أن الأرضين طبقات واحدة تحت الأخرى وأسفلها السابعة التي هي المركز وهي نار متأججة لا تطاق وليس فيها فتوق، إنما هي طبقات لكل طبقة خصائصها التي خلقها الله جل وعلا، فهي المثلية في الطبقات، وليس بين أخرى وأخرى مسافات كما قال القرطبي، وهذا شيء معلوم قد علم هذا الآن يقيناً ليس في هذا إشكال ولا شك بإمكان الإنسان أن يدور على الأرض من جميع الجوانب الآن فأين الفتوق؛ لأن الأرض كأنه بيضة في قلب السماء، وهي في وسطها والسماء فوقها من جميع الجهات، وبعض الناس لا

يتصور هذا وهذا سهل جداً؛ لأن الجهات جهتان فقط الفوق والتحت، أما الباقي فهي وهمية أو إضافية؛ لأن يمينك يكون شمالاً لغيرك، وخلفك أماماً لغيرك، وهكذا، وبهذا فسر شيخ الإسلام رحمه الله الحديث الذي عند الترمذي وإن كان ضعيفاً: «**قال والذي نفس محمد بيده لو أنكم دليتم رجلاً بحبل إلى الأرض السفلى لهبط على الله، ثم قرأ:** ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ [الحديد: ٣]»[1]، قال الترمذي: قال بعض أهل العلم: وقع على علم الله، وقال: هذا تأويل لا يجوز، ولكن الأرض الله قابضها بقبضة واحدة ومهما اتجهت فهو يقع على الله فهو أكبر من كل شيء وأعظم من كل شيء، ويجب أن يُفهم على هذا فهي صغيرة جداً بالنسبة للسماء والله محيط بالسماء، فكيف بالأرض والأرض صغيرة جداً بالنسبة لله جل وعلا بل بالنسبة للسماوات، ثم السماء التي تلي السماء الدنيا أكبر منها وأعظم وأوسع بأمور قد لا يتصورها الإنسان؛ لأن بينها وبين التي تليها مسافة طويلة جداً، وكذلك التي فوقها فكل سماء تكون أوسع من التي تحتها إلى السماء السابعة والجنة فوق السماء السابعة، ولهذا صارت الجنة عرضها كعرض السماء والأرض؛ لأنها أوسع من السماوات كلها وأعظم منها؛ لأن كل ما ارتفع اتسع، ولهذا قال جل وعلا: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧﴾ [الذاريات: ٤٧] سعة هائلة جداً، ثم الكرسي، ثم العرش الذي هو أكبر المخلوقات على الإطلاق وأعظمها، ولهذا يقال: العرش العظيم والسماوات لم يأت وصفها بالعظمة؛ والله أمرنا أن نتفكر في مخلوقاته؛ لأن هذا يدل على عظمة الخالق، ولهذا لما ذكر الله الاحتجاج على بني آدم الذين يشركون قال: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٧﴾ [غافر: ٥٧].

وعلى هذا فقوله أن الأرضين سبعاً على هذا النهج؛ أي: أنها طبقات سبع، وكل طبقة تحت الأخرى إلى أن يكون المركز الذي هو أسفل كل شيء، وبعض العلماء يرى أن جهنم فيها، وأنها من سجين، والنيران فيها،

---

(١) رواه الترمذي رقم ٣٢٩٨ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وهذا شيء مشاهد أحياناً يتفجر بركان من الأرض يقذف بالحمم والنيران التي إذا شاهدها العبد اهتال وذهب عقله، ولهذا يقول الرسول ﷺ: **«لا يركب البحر إلا حاج، أو معتمر، أو غاز في سبيل الله، فإن تحت البحر ناراً، وتحت النار بحراً»**[(١)]، والبحار سوف تسجر نيران يوم القيامة، قال الله جل وعلا: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦﴾ [التكوير: ٦].

قوله: «في كفة»: يقول بعضهم: إن كل مستدير يسمى كِفَّة، ومعناه أن الميزان يكون له كفتان، كفة يوضع فيها شيء يقابل الشيء الثاني حتى يتميز الوزن بينهما، فهل هذا معناه: أن كلمة لا إلٰه إلا الله لها جرم محسوس يشاهد؟

السماوات مشاهدة والمخلوقات مشاهدة، ولكن لا إلٰه إلا الله كلام والكلام كما يقوله المتكلمون عَرَض، فالعرض هو الذي لا يقوم بنفسه لا بد أن يقوم بغيره مثل الون والمرض والعلم؛ ومثل الكلام فهو لا يقوم بنفسه لا تجد كلاماً قائماً بنفسه بارزاً، فالكلام صفة المتكلم، وأما الجوهر فهو الذي يشغل مكاناً، أو تُحس به وتشاهده يكون أمامك، وهذا الحصر الذي أخذوه عن الفلاسفة طبقوه وجعلوه توحيداً، ولهذا يقولون: إن الله ليس بعرض ولا جوهر وعليه نفوا صفات الله ـ تعالى وتقدس ـ ولهذا قال أهل السُّنَّة: إن هذا من أبطل الباطل، وهؤلاء الذين بنوا دينهم على العرض والجوهر بنوه على جرف هار فانهار بهم في نار جهنم، ولكن هذا لا ينفي كون هذا صحيح بالوضع بالنسبة للمخلوق، أما بالنسبة للخالق فهو: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

والجواب: أقول أن المقصود بوضع هذه في كفة إما ثوابها؛ يعني: ثواب لا إلٰه إلا الله، والثواب يُجعل أجساماً مشاهدة، أو أن لا إلٰه إلا الله تكون في كتابة كما في حديث البطاقة وتوضع هذه الكتابة في كفة إما هذا، وإما هذا، وكلاهما حق جاءت نصوص تدل عليه، فقد جاء أن الرجل يوزن نفسه ويوزن عمله وقال ﷺ: **«كلمتان خفيفتان على اللسان حبيبتان إلى الرحمٰن**

---

(١) رواه أبو داود رقم ٢٤٨٩، والبيهقي رقم ٨٤٤٥. من حديث عبد الله بن عمرو.

ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»[(١)]، فالكلمتان تكون في الميزان، ومعلوم أن الكلام عمل، وأن الأعمال التي يعملها العبد بالنطق والقراءة والذكر، ونحو ذلك يكون لها جرم يوم القيامه تُرى وتوضع، ويكون لها ثقل ويكون لها خفة حتى ما يقوم بقلب الإنسان من الإخلاص لله جل وعلا، وكذلك قد يوزن أصحابها كما جاء في الحديث عن أبي هريرة ﷺ، عن رسول الله ﷺ قال: «**إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة، وقال اقرأوا إن شئتم: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا﴾** [الكهف: ١٠٥]»[(٢)]، ولما ضحك الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ تعجباً من دقة ساقي عبد الله بن مسعود، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مِمَّ تَضْحَكُونَ؟ قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللهِ مِنْ دِقَّةِ سَاقَيْهِ، فَقَالَ: وَالذي نَفْسِي بِيَدِهِ لَهُمَا أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ أُحُدٍ**»[(٣)]. معنى ذلك: أن الرجل يوزن، وقد يوزن عمله، وأمور الآخرة تختلف وتتنوع حسبما يريد الله جل وعلا، والعلماء ينصون على وجوب الإيمان بالميزان، وأنه حق.

«**لو أن السماوات السبع وعامرهن غيري والأرضين السبع في كفة**»؛ يعني: توضع هذه المخلوقات كلها المشاهدة وغير المشاهدة ووضعت «**لا إله إلا الله في كفة مالت بهن لا إله إلا الله**»؛ أي: رجحت بها، وهذا ظاهر جداً في فضل التوحيد، وأن هذه الكلمة لا يقاومها شيء إذا قيلت عن صدق وإخلاص وعُمل بمدلولها على الوصف الذي جاءت النصوص به، وكما جاء في حديث البطاقة.

فعن عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ ﷻ يَسْتَخْلِصُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُؤوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَنْشُرُ له تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلاً كُلُّ سِجِلٍّ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ لَه: تُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئاً أَظَلَمَتْكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ؟ قَالَ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَلَكَ عُذْرٌ، أَوْ حَسَنَةٌ؟ فيهاب الرَّجُلُ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً وَاحِدَةً لَا**

(١) البخاري رقم ٦٦٨٢، ومسلم رقم ٢٦٩٤.
(٢) البخاري رقم ٤٧٢٩، ومسلم رقم ٢٧٨٥. (٣) رواه أحمد رقم ٣٩٩١.

ظُلْمَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ فَتُخْرَجُ لَهُ بِطَاقَةٌ فِيهَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِله إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: أَحْضِرُوهُ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هذه البِطَاقَةُ مَعَ هذه السِّجِلَّاتِ؟ فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ، قَالَ: فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كِفَّةٍ قَالَ: فَطَاشَتْ السِّجِلَّاتُ وَثَقُلَتْ الْبِطَاقَةُ، وَلَا يَثْقُلُ شَيْءٌ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ»[1].

❁ قال المؤلف رحمه الله: وللترمذي وحسنه عن أنس سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة»[2].

هذا جزاء من حيث أوله فيه: «قال الله: يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيك بقرابها مغفرة»، والمؤلف اختصره واقتصر على موضع الشاهد منه، وهذا الحديث يجب أن يحفظه العبد ويعرفه، ولهذا وضعه الإمام النووي رحمه الله في الأربعين النووية[3] التي هي أصول في الدين، واشترط أن لا يضع فيها إلا حديثاً صحيحاً والنووي من الجهابذة.

قوله: «قال الله تبارك وتعالى»: الأصل أن هذه الصفة من صفات الله جل وعلا، وهي صفة الكلام «يقول، وقال»، فهو يتكلم، ويقول إذا شاء.

وهذا من الأحاديث التي تنسب إلى الله قولاً أنه قالها جل وعلا، وقوله جل وعلا ليس مقصوراً على القرآن، فله أقوال يرويها رسوله ﷺ عن ربه جل وعلا، وقد اختُلف في الحديث القدسي، والصحيح أنه ما أُضيف إلى الله قولاً ومعنى؛ لأن الأحاديث التي يقولها الرسول ﷺ كلها معناها من الله جل وعلا: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝﴾ [النجم: ٣، ٤]، فلا بد

---

(١) رواه أحمد في المسند رقم ٦٩٩٤، والترمذي وقال: هذا حديث حسن غريب، وابن ماجه رقم ٤٣٠٠، والحاكم رقم ١٩٣٧.

(٢) رواه أحمد رقم ٢١٥٤٤، والترمذي رقم ٣٥٤٠.

(٣) الحديث الثاني والأربعون.

أن يكون هذا فيه زيادة أنه قول الله لفظه ومعناه غير أنه يفارق القرآن بأنه لا يُتحدى به ولا تصح الصلاة به ولا تلزم الطهارة له، وغير ذلك من الفروق بين الحديث القدسي والقرآن.

وقوله: «يا ابن آدم»: وهو خطاب لكل من يتأتى له الخطاب من بني آدم.

قوله: «لو أتيتنى بقراب الأرض»: «بقراب»؛ يعني: قرب: ملئها، تصور لو أن العبد أذنب ذنوباً، فهل يُمكن أن تملء الأرض؟

وكلمة لو كما هو معروف أنه لا يلزم أن تكون واقعاً، الحكم الذي يُذكر مقابلاً لها، ولكن هذا تمثيل لو قدر أن ذنوبك بهذه الكثرة قد ملئت الأرض أو قريباً من ملئها، ثم «**لقيتني لا تشرك بي شيئاً**»؛ يعني: مات على التوحيد، على الإخلاص مخلصاً لله جل وعلا لا تشرك بالله شيئاً ويلاحظ كلمة «**شيئاً**» نكرة تنفي الشرك الأكبر والأصغر، والخفي والجلي، وهذا شرط ثقيل فإذا مات لا يشرك بالله شيئاً يكون ممن لقي ربه بقلب سليم؛ أي: سالم من الشرك، والشرك قسمان: أصغر وأكبر، فمن مات على الشرك الأكبر فهو من أهل النار قطعاً، ومن ترك الأكبر وكان عنده الشرك الأصغر فإن كان قليلاً وله حسنات كثيرة فيكون مغموراً بجانب الحسنات، أما إذا كان الأصغر كثيراً، وله سيئات ولا يقوى توحيده على تكفير الذنوب لكثرت الشرك الأصغر فهذا يعاقبه الله جل وعلا إذا شاء ولكن مآله إلى الجنة.

فالتوحيد الذي يكفر الذنوب هو أن يكون العمل خالصاً ليس فيه شيء من الشرك فيكون مكفراً لجميع الذنوب.

قوله: «لقيتني»، وقوله: «**أتيتني**»: تدل على أن العبد لا بد أن يأتي إلى ربه، ولا بد أن يلاقيه فيكون متضمناً للرؤية، ولهذا قال علماء أهل السُّنَّة: كل لقاء جاء في الكتاب والسُّنَّة، فهو يتضمن الرؤية؛ كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦﴾ [الانشقاق: ٦] فمعنى ملاقيه؛ يعني: ملاقياً ربك، لا كما تقوله الأشاعرة؛ يعني: ملاقياً الثواب أو العقاب، وغير هذا من التأويل الباطل، بل ملاقياً الله كما ثبت ذلك في الأحاديث الصحيحة، ومنها

۞ الثالثة: تكفيره مع ذلك للذنوب.

يعني: مع كثرة ثوابه يكفر الذنوب؛ ويعني هذا أن فيه أعمال يكون ثوابها كثير لكنها لا تكفر الذنوب، ولا بد للذنوب إذا كانت كبيرة من التوبة. أما التوحيد فهو يكفرها وهذا خاص به، فالتوحيد يكفر الذنوب مع كثرة ثوابه، أما الصلاة والصوم والحج والصدقة فيها ثواب كثير لكن لا بد من اجتناب الكبائر.

فالتوحيد إذا جاء خالصاً صادقاً، ما يدع ذنباً إلا كفره، فهذا يجب أن نفهمه أيضاً.

۞ الرابعة: تأمل الخمس اللواتي في حديث عبادة ﷺ.

التأمل معناه: التفكير والتدبر، والخمس هن:

الأولى: أن تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمد عبده ورسوله.

الثانية: وأن عيسى عبد الله ورسوله.

الثالثة: وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه.

الرابعة: وأن الجنه حق.

الخامسة: وأن النار حق.

۞ الخامسة: أنك إذا جمعت بينه وبين حديث عِتبان وما بعده تبين لك معنى قول: «لا إله إلا الله»، وتبيَّن خطأ المغرورين.

يعني: حديث عبادة بن الصامت فيه: «أن من شهد بهذه الخمس موقناً أنه يدخل الجنة على ما كان من العمل»، وحديث عتبان فيه: «**من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله**» هذا هو المقصود، مقصود الشيخ أنه مقيد بالإخلاص، أن من قال هذه الكلمة مخلصاً، وحديث أبي سعيد الخدري فيه أنها لا تكون بهذه الصفة (يعني: من رجحانها بجميع المخلوقات) إلا إذا ابتغى بها وجه الله جل وعلا، وإلا كثير من الناس يقولها ومع ذلك يخف ميزانه، وقد يكون قولها بمنزلة اللغو لا يستفيد منها، فإذاً الأحاديث مجتمعة مفيدة بما ذكر فلا بد أن تكون معتبرة في جميعها، فلا تنفع هذه الكلمة إلا إذا ابتغى بها وجه الله وكانت عن علم ويقين، وقام بموجبها.

۞ السادسة: كون الأنبياء يحتاجون للتنبيه على فضل لا إله إلا الله.

وهذا ليس فيه تنقص للرسل؛ لأن الرسل كمالهم بالوحي الذي يوحيه الله إليهم.

۞ السابعة: التنبيه لرجحانها بجميع المخلوقات، مع أن كثيراً ممن يقولها يخف ميزانه.

يعني: أنها ليست لكل أحد، وإنما هي لمن يقولها مخلصاً، وقد اجتمعت فيه شرائطها.

۞ الثامنة: أن لهن عماراً.

يعني: السماوات والأرض: فالسماوات ظاهر جداً كما في الحديث: «**لو أن السماوات السبع وعامرهن غيري والأرضين السبع**»، ولم يذكر فيها عمار، ولكن لا بد أن فيها خلق يسبح الله ويقدسه، كل شيء يسبح الله ويحمده، وسبق أن العمارة هي الطاعة.

ومعصية الله إفساد ليس عمارة، قال جل وعلا: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]، وإصلاحها بالرسل والطاعة، وإفسادها بالمعاصي.

۞ التاسعة: إثبات الصفات خلافاً للأشعرية.

المقصود إثبات الوجه والنظر والعلو، فالله استثنى نفسه عما في السماوات، ومعنى هذا أنه في السماوات؛ يعني: في العلو، و«في» تفسر بشيئين: أن تكون بمعنى «على»، وهذا سائغ وموجود مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ۝١١﴾ [الأنعام: ١١]، وقوله: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ٧١]؛ يعني: على الأرض وعلى جذوع النخل.

أو يكون المقصود بالسماء العلو، وهذا فسّر به قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝١٦﴾ [الملك: ١٦]؛ أي: أءمنتم من في العلو كما جاء صريحاً في آيات كثيرة.

ومسألة العلو ينكرها الأشاعرة اتباعاً للمعتزلة وغيرهم فهم يقولون: إن الله في كل مكان تعالى الله وتقدس ويزعمون أنه إذا قيل: أنه في السماء لزم من ذلك التشبيه التجسيد، أنه جسم؛ يعني: يكون في جهة قالوا هذا يقتضي المكان، ولهذا يسمون أهل السُّنَّة المشبهة؛ لأنهم يثبتون علو الله، ولأنهم يجوزون السؤال عن الرب بكلمة أين؟ وقد جاء هذا عن النبي ﷺ[1]. ولهذا يسمون أهل السُّنَّة الأينية هذا سؤال عن المكان، والله جل وعلا لا مكان له عندهم. ويقولون: إن الله كان ولا مكان، ثم خلق المكان، وهو الآن على ما كان عليه قبل خلق المكان. هذا كله من نحاتة أفكارهم، تركاً للنصوص الواضحة الجلية التي لا إشكال فيها.

فإثبات الصفات هو إثبات علو الله على خلقه، فإنه قال: **«لو أن السماوات السبع وعامرهن غيري»**، هذا نص أنه جل وعلا في السماء.

وفيه صفات عدة في هذه النصوص، خلافاً للمعطلة والمؤوِّلة مثل الجهمية.

۞ العاشرة: أنك إذا عرفت حديث أنس، عرفت أن قوله في حديث عتبان: فإن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله ـ أنه ترك الشرك ليس قولها باللسان.

لأنه قال: **«لقيتني لا تشرك بي شيئاً»**، فأخبر أن مع قولها أنه لا بد أن يكون تاركاً لشرك مجتنباً له وإلا لا تنفع.

---

(١) كما في قصة الجارية عند مسلم رقم ٥٣٧ عن معاوية بن الحكم السلمي قال: وكانت لي جارية ترعى غنماً لي قبل أحد والجوانية، فاطلعت ذات يوم فإذا الذيب قد ذهب بشاة من غنمها وأنا رجل من بني آدم آسف كما يأسفون، لكني صككتها صكة فأتيت رسول الله ﷺ فعظم ذلك علي، قلت: يا رسول الله أفلا أعتقها؟ قال: **«ائتني بها»**، فأتيته بها فقال لها: **«أين الله؟»**، قالت: في السماء، قال: **«من أنا؟»**، قالت: أنت رسول الله، قال: **«اعتقها فإنها مؤمنة»**.

۞ **الحادية عشر: تأمل الجمع بين كون عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام عبدَي الله ورسوليه.**

يعني: أن الغلو وقع في هذين الرسولين صلوات الله وسلامه عليهما، فعيسى ادُّعي أنه ابن الله، أو أنه ثالث ثلاثة، أو أنه الله تعالى وتقدس، ولا زال الاعتقاد عند كثير من أهل الأرض ويدعون إليه ويزعمون أنه حق مع أنه أبطل الباطل.

أما محمد ﷺ ما قيل فيه هذا، ولكن قيل المعنى؛ لأن كونه ينص على أنه الله، أو ابن الله، فهذا تبطله النصوص الواضحة الجلية بأنه عبد الله جل وعلا وأكرمه برسالته، ولكن أخذوا المعنى الذين يكون للإلٰه وجعلوه للرسول ﷺ وزين لهم الشيطان أن هذا من باب الحب، وباب الثناء عليه ومدحه، فكان حظهم من الرسول ﷺ هو الإطراء؛ يعني: تجاوز الحد بالثناء والمدح، وبذلك ارتكبوا ما نهاهم عنه وتركوا متابعته، وهذا كثير في أقوال الشعراء، وكذلك في دعوات الداعين الذين يتجهون إلى النبي ﷺ ويسألونه.

۞ **الثانية عشر: معرفه اختصاص عيسى بكونه كلمة الله.**

عرفنا من كونه وُجِد بالكلمة، قيل له: كن فكان، فكان اختصاصه بذلك؛ يعني: أنه وجد من أنثى بلا ذكر.

۞ **الثالثة عشر: معرفة كونه روحاً منه.**

يعني: أنه وجد بالنفخة التي نفخها جبريل حينما أرسله إلى مريم.

۞ **الرابعة عشر: معرفة قوله: «على ما كان من العمل».**

يعني: أنه يدخل الجنة، وإن كان عنده ذنوب، وتقصير.

۞ **الخامسة عشر: معرفة ذكر الوجه.**

يعني: «**يبتغي بذلك وجه الله**» إثبات صفة الوجه لله تعالى، ومعلوم أنه يقصد بذلك الإخلاص لله جل وعلا، ولكن ذكر الوجه يدل على أن لله وجهاً، وقد تكاثرت النصوص في هذا وأهل البدع يقولون: أن المقصود بالوجه الذات وهذا باطل، بل لله وجهاً ينظر إليه أهل الجنة ويتنعمون به.



الباب الثالث

❁ **قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب؛ يعني: ولا عذاب.**

لما ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ وجوب التوحيد، وأنه فرض عينٍ على كل أحد، ثم ذكر فضل التوحيد وتكفيره للذنوب، ذكر في هذا الباب من حققه دخل الجنة بلا حساب ولا عذاب، فهذا الأمر يجب أن يهتم به؛ لأن دخول الجنة بلا حساب ولا عقاب أمر لا يجوز التهاون به، فيهتم به كثيراً، ولكن يجب أن نعرف ما هو تحقيق التوحيد؟ التحقيق: أن يجعله حقاً كله، ليس فيه شيء من الباطل. فهو التخليص والتصفية من الشوائب والوسائل التي تلحقه، فتحقيق التوحيد:

هو معرفته والعمل به، وتخليصه وتصفيته من جميع الشوائب التي يمكن أن تنقصه أو تضعفه، ومعنى ذلك أن يكون الموحد مجتنباً للشرك، والبدع والذنوب.

وتحقيقه بلا علم لا يمكن، ومعرفته أن يعلم العبد أن الله ربه خلقه لعبادته فيعلم ما أمره به وما نهاه عنه ثم تنجذب روحه إليه، فيتصل به فيصبح قلبه سليماً أن يكون فيه مراداً لغير ما أمر الله به، وأن لا يكون قلبه متوقفاً أو متردداً في عبادة ربه ووجوب طاعته. ولهذا صار من حققه من الخلص الذين اصطفاهم الله جل وعلا، ولكن هذا ليس عزيزاً بحيث يقول العبد: أنا لا أدركه، كلا بل هو سهل ميسور وإنما يجب على العبد أن يبذل وسعه في معرفة ما لله عليه ويبذل وسعه في معرفة ربه بأسمائه وصفاته، فيعبده على ما قال جل وعلا: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف: ١٨٠]، فيكون قد وصل إلى درجة يسبق بها إلى الجنة بلا حساب ولا عذاب وهذا السبق يكون في الموقف حينما

يجتمع الناس للحساب ويقفون وقوفاً طويلاً ويلحقهم من العنت والعناء الشيء الذي كثير منهم يتمنى أن يخلص من الموقف ولو إلى النار؛ لأن الموقف أمره شديد جداً، وهؤلاء يسبقون والناس ينظرون؛ لأنهم ليس عليهم حساب، وجاء أن وجوههم تضيء كإضاءة القمر ليلة البدر، وأنهم يكونون متماسكي الأيدي، وأن قلوبهم تكون على قلب رجل واحد منهم، ليس فيها غل[(١)].

ثم هؤلاء لا يلزم أن يكونوا هم أفضل الناس، هم يسبقون إلى الجنة، ويجوز أن يتأخر غيرهم ويكونوا أعلى درجة منهم، والفضل بيد الله جل وعلا.

قوله في الترجمة: «بلا حساب»:

هل يكون هذا مخصصاً للعمومات التي جاءت في القرآن؟ لأن الله جل وعلا أخبر أن الناس قسمان كما قال الله جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝﴾ [الانشقاق: ٦ ـ ٩]، ثم القسم الثاني: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ۝ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝﴾ [الانشقاق: ١٠ ـ ١٢]، وفي الآيات الأخرى هذا التقسيم، والحديث يأتي بياناً للقرآن وتفسيراً له، ففي هذا الحديث الذي سيذكره أن هؤلاء الجمع يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب، فيكون هناك تقسيم وراء القسمة التي ذكرت في الآية، فيكون قسم ثالث أنه لا يحاسب وهو المذكور في هذا الحديث، وإن كان جاء تفسير قوله جل وعلا: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝﴾ جاء تفسيره مرفوعاً أن الحساب اليسير هو العرض؛ يعني: تعرض عليه أعماله كما في حديث عبد الله بن عمر الذي في الصحيحين قيل له: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى؟ قال: سمعته يقول: **«يدني الله عبده المؤمن فيضع عليه كنفه فيقرره بذنوب، فإذا رأى أنه قد هلك يقول الله جل وعلا له: أنا سترتها عليك في الدنيا وأغفرها لك اليوم فيعطى كتابه بيمينه»**[(٢)].

---

(١) رواه البخاري رقم ٦٥٤٧، وأحمد في المسند رقم ٢٢.

(٢) سبق تخريجه.

وجاء في حديث رواه البزار وغيره: «**أن حسابه يكون بتعريفه بذنوبه**» يقال له:

ذنوبك كذا وكذا، وهذا نفس مضمون حديث ابن عمر، يُعرف بذنوبه، ثم يمن الله جل وعلا عليه بالمغفرة، أما إذا نوقش الحساب فإنه يهلك ولا بد.

فقوله: «باب من حقق التوحيد دخل الجنة بلا حساب ولا عذاب»؛ يعني: أن من مات وهو محققاً للتوحيد أنه يكون سابقاً إلى الجنة بدون محاسبة ولا يلزم أنه لا يعرض عليه كتابه، ويقال: إنك عملت كذا وكذا.

❁ **قال المؤلف** رحمه الله: **وقول تعالى:** ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [النحل: ١٢٠].

وصف الله جل وعلا إبراهيم عليه السلام في هذه الآية بأربع صفات:

الأولى: أنه كان أمة؛ يعني: قدوة في الهدى، داعية إلى الخير متبع على ذلك، وقد جاء هذا المعنى عن ابن مسعود رضي الله عنه فقال: الأمة: معلم الخير، والقانت: المطيع لله ورسوله[١]. وقد جاء عن الصحابة تفسيراً آخر للأمة كما رواه ابن جرير عن ابن عباس قال: كَانَ عَلَى الإسلام ولم يكن في زمانه مِنْ قَوْمِهِ أحد عَلَى الإسلام غيره[٢]. فيكون المعنى هنا: المنفرد وحده على الخير وهذا هو الذي يشير له المؤلف رحمه الله في المسائل بقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ لئلا يستوحش سالك الطريق من قلة السالكين. ومعلوم أن العبد إذا كان في طريق وحده والناس من حوله مخالفون له أن الأمر يكون شديداً وصعباً ولا يثبت على هذا إلا من كان قانتاً لله جل وعلا.

والمعنيان متلازمان لا خلاف بينهما، وقد جاءت نصوص أن إبراهيم عليه السلام لم يستجب له أحد إلا لوط ابن عمه، ثم أرسله الله إلى قومه فلم يستجب له أحد فخرج من بلده ليس معه أحد إلا بناته حتى زوجته خالفته في دعوته.

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/٦١١.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٩/١٢٧.

الصفة الثانية: قوله: «﴿قَانِتًا﴾»: والقنوت: دوام الطاعة؛ يعني: أنه دائم الطاعة لله جل وعلا غير منفك عنها، ولا منتكس في وقت من الأوقات، فهذا يدل على تحقيق التوحيد وأنه مديماً عليه مخلصاً لربه ولم يحد عن ذلك في وقت من الأوقات، وقوله جل وعلا: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩]، فجعل القنوت للساجد وللقائم فمن أدام الطاعة فهو قانت.

الصفة الثالثة: قوله: «﴿حَنِيفًا﴾»؛ يعني: أنه متجهاً إلى الحق قصداً، مائلاً إليه قصداً وإرادة واختياراً، وتاركاً كل ما خالف ذلك، فهذا أيضاً يدل على كمال التوحيد والعرب كانوا يسمون الذي يحج ويختتن حنيفاً؛ لأنه خالف أكثر الناس إلى ما كان عليه إبراهيم ﷺ، فالحنيف هو الميلُ إلى الحق قصداً، والجنف هو الميل إلى الباطل قصداً.

الصفة الرابعة: قوله: «﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾»؛ أي: كان موحداً خالص التوحيد، ولم يكن من المشركين لا في الاعتقاد ولا في العمل، ولا في المكان وتكثير سوادهم بل كان بعيداً متبرئاً منهم، ولا يلزم من هذا أنه لا يكون محارباً لهم مبغضاً لهم ومعادياً لهم، وقد تكلم المؤلف رحمه الله على هذه الآيه فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ لئلا يستوحش سالك الطريق من قلة السالكين: ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ لا للملوك ولا للتجار المترفين.

﴿حَنِيفًا﴾ لا يميل يميناً ولا شمالاً، كفعل العلماء المفتونين: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ خلافاً لمن كثر سوادهم، أو زعم أنه من المسلمين. انتهى[(١)].

فالمقصود أن الله جل وعلا وصف إبراهيم عليه السلام بهذه الصفات لتحقيقه التوحيد وهذا معناه أن تحقيق التوحيد يكون اتباع ملة إبراهيم؛ لأنه عليه السلام جاهد في هذا السبيل وصار أمة وحده في ذلك فجعله إماماً للحنفاء فيما بعد تبرأ من أبيه ومن قومه عموماً، ولاقى في هذا أشد العنت حتى ألقوه في النار وهو صابر مطيع لله جل وعلا، ولكن الله جل وعلا جعل النار عليه برداً وسلاماً.

---

(١) مسائل الباب.

فبهذه الصفات استدل المؤلف على أن من حقق التوحيد يكون بهذه المثابة تجتمع فيه هذه الأمور وأن يكون متابعاً لرسول الله ﷺ ويكون قانتاً لله مخلصاً له العمل ولا يكون عمله لدنيا ولا لغيرها، وإنما هو لله، وأن يكون مختاراً للتوحيد مغتبطاً به وأن يكون مبتعداً عن المشركين محارباً لهم وبهذا يكون محققاً للتوحيد مستحقاً بذلك السبق إلى الجنة بلا حساب.

۞ قال المؤلف رحمه الله: وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩﴾ [المؤمنون: ٥٩].

هذا في معرض الثناء على سادة الأولياء الذين يرثون الفردوس فوصفهم الله تعالى بأنهم بربهم لا يشركون، ومناسبة الآية للترجمة من جهة أن الله تعالى وصف المؤمنين السابقين إلى الجنات بصفات أعظمها الثناء عليهم بأنهم بربهم لا يشركون، لا شركاً أصغر ولا أكبر، لا جلي ولا خفي، فهم لا يقعون في الشرك، فاجتنابه بتحقق التوحيد فمن سلم من الشرك كبيره وصغيره، جليه وخفيه، فقد حقق التوحيد، فمن كان كذلك فإنه يسبق إلى الجنة بلا حساب ولا عذاب.

۞ قال المؤلف رحمه الله: عن حصين بن عبد الرحمٰن قال: كنت عند سعيد بن جبير فقال: أيكم رأى الكوكب الذي انقضَّ البارحة؟ قلت: أنا، ثم قلت: أما إني لم أكن في صلاة، ولكني لدغت قال: فماذا صنعت؟ قلت: ارتقيت؟ قال: فما حملك على ذلك؟ قلت: حديث حدثناه الشعبي. فقال: وما حدثكم؟ قلت: حدثنا عن بريدة بن الحصيب أنه قال: لا رقية إلا من عين أو حمة. قال: قد أحسن من انتهى إلى ما سمع، ولكن حدثنا ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «عرضت علي الأمم فرأيت النبي ومعه الرهيط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد، إذ رفع لي سواد عظيم فظننت أنهم أمتي، فقيل لي: هذا موسى ﷺ وقومه، فنظرت فإذا سواد عظيم، فقيل لي: هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب». ثم نهض فدخل منزله فخاض الناس في أولئك، فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا

رسول الله ﷺ، وقال بعضهم: فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام ولم يشركوا بالله شيئاً، وذكروا أشياء فخرج عليهم رسول الله ﷺ فأخبروه، فقال: «هم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون»، فقام عكاشة بن محصن فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: «أنت منهم»، ثم قام رجل آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: «سبقك بها عكاشة»[1].

قوله: «عن حصين بن عبد الرحمٰن»: هو السلمي أبو الهذيل الكوفي، ثقة مات سنة ست وثلاثين ومائة، وله ثلاث وتسعون سنة.

قال: «كنت عند سعيد بن جبير»؛ يعني: في مجلس العلم والتعلم، وسعيد بن جبير هو الإمام الفقيه من أجلِّ أصحاب ابن عباس، روايته عن عائشة وأبي موسى مرسلة، وهو كوفي مولى لبني أسد، لقي عدداً من الصحابة، وهو الذي قتله الحجاج في قصة مشهورة في محاورة بينه وبين الحجاج؛ لأنه كان ممن خرج عليه مع القراء الذين خرجوا على الحجاج فتتبعهم وقتلهم. وسعيد أمسك في مكة ووكل به رجل يذهب به إلى الحجاج، فلما رأى الرجل اجتهاده في العبادة وتقواه قال: اذهب إلى حيث شئت لا يسألني الله عنك. يقول له وهو يمشي به فقال: لن أذهب، إذا ذهبت فسألك الحجاج يقتلك ولكن أمرنا إلى الله. قتل بين يدي الحجاج سنة خمسة وستين، ولم يكمل الخمسين.

قوله: «أيكم رأى الكوكب الذي انقض البارحة؟»: الكوكب أحد الكواكب، والمقصود بها الشهاب الذي يُرى؛ لأن الكواكب الثابتة لا تنقض.

«انقض»: سقط.

«البارحة»: هي أقرب ليلة مضت، قال أبو العباس: يقال قبل الزوال: الليلة، وبعد الزوال: رأيت البارحة. وهي مشتقة من برح: إذا زال.

وسعيد بن جبير سأل تلامذته عن سقوط الكواكب ليخبرهم بالحكمة التي من أجلها يسقط؛ لأن الجاهلية يعتقدون في ذلك اعتقاداً باطلاً، جاء في الصحيح عن عبد الله بن عباس ﷺ قال: أخبرني رجل من أصحاب النبي ﷺ

(١) رواه البخاري رقم ٥٧٠٥، ومسلم رقم ٢٢٠.

من الأنصار أنهم بينما هم جلوس ليلة مع رسول الله ﷺ رمي بنجم فاستنار فقال لهم رسول الله ﷺ: **«ماذا كنتم تقولون في الجاهلية إذا رمي بمثل هذا»**، قالوا: كنا نقول ولد الليلة رجل عظيم ومات رجل عظيم، فقال رسول الله ﷺ: **«فإنها لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته، ولكن ربنا تبارك وتعالى اسمه إذا قضى أمراً سبح حملة العرش، ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم حتى يبلغ التسبيح أهل هذه السماء الدنيا، ثم قال الذين يلون حملة العرش لحملة العرش: ماذا قال ربكم؟ فيخبرونهم ماذا قال ـ قال ـ فيستخبر بعض أهل السماوات بعضاً حتى يبلغ الخبر هذه السماء الدنيا فتخطف الجن السمع فيقذفون إلى أوليائهم ويرمون به فما جاءوا به على وجهه فهو حق، ولكنهم ينقصون فيه ويزيدون»**[1]، فالشياطين يركب بعضها على بعض تسترق السمع من الملائكة ويرسل إليهم الشهاب فإما أن يقتله وإما أن يخبله، وقد يخطئه فيذهب بالكلمة التي سمعها إلى وليه من الإنس فيقرها في إذنه فيزيد فيها مائة كذبة، والظاهر أن سعيد أراد أن يخبرهم بهذا وإن سقوطها حفظاً من الشياطين التي تسترق السمع؛ يعني: الوحي الذي يوحيه الله جل وعلا إلى ملائكته ويأمرهم به حتى لا يلتبس ذلك على الناس، ولما بُعث رسول الله ﷺ حُرست السماء حراسة شديدة فأصبح الشياطين لا يستطيعون أن يصلون إلى شيء كما أخبر الله جل وعلا في كتابه عن الجن أنهم قالوا: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩﴾ [الجن: ٨، ٩]، وقد قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠﴾ [الصافات: ١٠]، وأخبر الله جل وعلا أن النجوم زينة للسماء ويهتدي بها في مسير البر والبحر، وأنها رجوم للشياطين وهذه هي الحكمة.

فيظهر أن سعيد أراد أن يبين هذا لتلامذته ولكنه عرض أمر آخر، وهو أنه لما قال:

---

(١) رواه مسلم ٢٢٢٩، وأحمد رقم ١٨٨٢.

أيكم؟ قال حصين بن عبد الرحمٰن: أنا، ثم خاف حصين رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يظن أنه لما رأى الكوكب أنه يصلي أو يقرأ ويتهجد؛ يعني: يتلو أو يذكر الله فنفى ذلك قال: «**أما إني لم أكن في صلاة**»، وإنما أرغمت على السهر فرأيته وهذا يدلنا على بعدهم ـ رحمهم الله ـ عن مدح الإنسان بما ليس فيه وحرصهم على الإخلاص والبعد عن الرياء والسمعة، بخلاف الذين يُظهرون أعمالهم يقولون: فعلنا كذا وكذا بدون مبرر، والسلف كانوا أحرص شيء على إخفاء أعمالهم وأبعد شيء عن مدح الإنسان بما ليس فيه.

قوله: «ولكني لدغت»: قال أهل اللغة: يقال: لدغه العقرب، وذوات السموم: إذا أصابته بسمها وذلك بأن تأبره بشوكتها.

لما قال: لدغت، سأله شيخه: «**قال: فماذا صنعت؟ قلت: ارتقيت**»، وفي لفظ مسلم: «استرقيت»؛ يعني: طلبت من يرقيني، والرقية هي: القراءة والنفخ على المريض.

عند ذلك سأله **قال: «فما حملك على ذلك؟»**.

سأله عن مستنده في هذا الفعل، فهذا يدل على أن السلف ما كانوا يعملون شيئاً إلا إذا كان لهم دليل، وهذا هو الواجب على كل مسلم أن لا يقدم على عمل إلا إذا عرف أن له دليلاً من الشرع.

«**قلت: حديث حدثناه الشعبي، قال: وما حدثكم؟ قلت: حدثنا عن بريدة بن الحصيب**» ابن الحارث الأسلمي، صحابي شهير، مات سنة ثلاث وستين.

أنه قال: «لا رقية إلا من عين أو حُمَة»؛ يعني: لا رقية أنفع وأبلغ من رقية العين والحمة، فهي من أنفع ما يُعالج به هذين النوعين.

وليس في هذا نفياً لتأثير الرقية في الأمراض الأخرى، فهي نافعة من جميع الأمراض كما جاءت الأحاديث في ذلك، وهذا أسلوب معروف في اللغة تقول: المفتي في هذا البلد فلان، أو تقول: ما فيه مفتي في هذه البلد إلا فلان، فليس معنى ذلك أنك تنفي أن هناك أحد يُحسن الإفتاء، ولكن تقول: هذا أولى.

والعين: هي إصابة العائن غيره بعينه إذا رأى نعمة، أو شيئاً أعجبه، فبعض الناس عنده شر وحسد وأمر يُودعه الله في نفسه من غبطة الناس، فإذا رأى ما يُعجبه جعل الله شيئاً يخرج من نفسه، وقد يكون مقترناً أيضاً بما يزينه الشيطان، فتؤثر على الذي غبطه بنعمة أو غيرها، فقد يصاب وقد يمرض، وقد تذهب النعمة بإذن الله جل وعلا وقد جاء أن العين حق[1]، وقال الله تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾﴾ [القلم: ٥١]؛ يعني: يصيبونك بأعينهم، لكن الله يحفظ رسوله ﷺ فقوله: «**العين حق**»؛ يعني: الإصابة بها، وقد وقع شيء من ذلك من الصحابة عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف أن أباه حدثه أن رسول الله ﷺ خرج وساروا معه نحو مكة حتى إذا كانوا بشعب الخزار من الجحفة اغتسل سهل بن حنيف، وكان رجلاً أبيض حسن الجسم والجلد فنظر إليه عامر بن ربيعة أخو بني عدي بن كعب وهو يغتسل، فقال: ما رأيت كاليوم ولا جلد مخبأة، فلبط سهل فأتي رسول الله ﷺ فقيل له: يا رسول الله هل لك في سهل والله ما يرفع رأسه وما يفيق، قال: «هل تتهمون فيه من أحد»؟ قالوا: نظر إليه عامر بن ربيعة، فدعا رسول الله ﷺ عامراً فتغيظ عليه وقال: «**علام يقتل أحدكم أخاه، هلَّا إذا رأيت ما يعجبك بركت** ـ يعني يقول: اللهم بارك عليه ـ ثم قال له: **اغتسل له**، فغسل وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه وأطراف رجليه وداخلة إزاره في قدح، ثم صب ذلك الماء عليه يصبه رجل على رأسه وظهره من خلفه يكفئ القدح وراءه ففعل به ذلك، فراح سهل مع الناس ليس به بأس»[2]، فالمقصود أن هذا قد يقع والإنسان قد يكون كارهاً.

أما الحمة فهي: ذات السموم، مثل العقرب، والحية، والزنبور، وهي

---

(١) رواه البخاري رقم ٥٧٤٠ من حديث أبي هريرة، ومسلم رقم ٢١٨٧، وعند مسلم رقم ٢١٨٨ من حديث ابن عباس: عن النبي ﷺ قال: «**العين حق ولو كان شيء سابق القدر سبقته العين، وإذا استُغسلتم فاغسلوا**».

(٢) أحمد في المسند رقم ١٥٩٨٠، ومالك في الموطأ رقم ٣٤٦٠، والحاكم في المستدرك رقم ٥٧٤١.

كثيرة؛ لأنها إذا أصابت الإنسان حُمَّ بذلك؛ يعني: جاءته الحمى؛ أي: المرض الذي ينتج من السم، فالرقية منها نافعة جداً كما أنها نافعة من العين، ولا سيما إذا كان الراقي ممن يؤمن بالله جل وعلا، ومن أهل الإيمان، والتوحيد، وقد يشفى المصاب بالحال كما ثبت في الصحيح عن أبي سعيد ﷺ قال: انطلق نفر من أصحاب النبي ﷺ في سفرة سافروها حتى نزلوا على حي من أحياء العرب فاستضافوهم فأبوا أن يضيفوهم فلدغ سيد ذلك الحي فسعوا له بكل ممكن لا ينفعه شيء، فقال بعضهم: لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا لعله أن يكون عند بعضهم شيء، فأتوهم فقالوا: يا أيها الرهط إن سيدنا لدغ وسعينا له بكل شيء لا ينفعه فهل عند أحد منكم من شيء؟ فقال بعضهم: نعم والله إني لأرقي، ولكن والله لقد استضفناكم فلم تضيفونا، فما أنا براق لكم حتى تجعلوا لنا جعلاً، فصالحوهم على قطيع من الغنم، فانطلق يتفل عليه ويقرأ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝﴾ فكأنما نشط من عقال ـ يعني: كأن رجله كانت محزومة بحبل ففكت فبرأ في الحال ـ فانطلق يمشي وما به قلبة. قال: فأوفوهم جعلهم الذي صالحوهم عليه، فقال بعضهم: اقسموا، فقال الذي رقي: لا تفعلوا حتى نأتي النبي ﷺ، فنذكر له الذي كان فننظر ما يأمرنا، فقدموا على رسول الله ﷺ فذكروا له فقال: «**وما يدريك أنها رقية**»، ثم قال: «**قد أصبتم اقسموا واضربوا لي معكم سهماً**». فضحك رسول الله ﷺ[١]. فالمقصود أن الرقية من ذات السموم، وكذلك من العين من أنفع ما يعالج به ونفعها ظاهر جداً.

وقد كثرت في وقتنا الرواقي والعزائم وصار الناس يلتجأون إلى الراقي كثيراً، وصار الراقي له في هذا مرتزق بل يأخذ من الناس أشياءً كثيرة جداً، ومثل هذا لا يجوز بل هو من المحرمات؛ لأنه لا يجوز أن يأخذ شيئاً إلا إذا تيقن أنه شفي بسبب رقياه، أما بدون ذلك فهو من أكل أموال الناس بالباطل وكذلك قد يكون من الجاهلين، وإنما هو مكتسب وأمر الناس في هذا كثيراً ما

---

(١) رواه البخاري رقم ٢٢٧٦، ومسلم رقم ٥٨٦٥.

يخالف الشرع، ويخرج عن المعتاد الذي عرفه أهل العلم فبعضهم يتحيلون على الضعفاء مثل: النساء والجهلة، وقد يكون بواسطة الشياطين الذين يزعمون أنهم يستعينون بهم ويكذبون على الناس ويقولون: إنهم مسلمون، والجن عقلاء لا يأتون للإنسان يقولون: نريد خدمتك نفعل كذا وكذا، هذا ممتنع إلا أن يُقدم لهم شيئاً أفضل مما يقدمونه له كأن يعبدهم ويشرك بالله، أو أقل شيء يستهين بالمصحف، وما أشبه ذلك إذا فعل ذلك يأتون له ببعض الشيء الذي يريده، وليس كله وقد عُلم أن كثيراً ممن يعالجون بهذه الطريقة بعضهم لا يصلي، وبعضهم يكون عاقاً لوالديه، وبعضهم يكون معروفاً بالمعاصي كيف تنفع رقياه بهذا المثابة، ثم يأتون بأشياء واضحة أنها دجل وهي إما سحر، وإما بواسطة الشياطين.

قوله: «قد أحسن من انتهى إلى ما سمع»؛ يعني: الذي يعمل بالعلم فإنه محسن؛ لأن العلم وجد للعمل، أما الذي يعمل بلا علم فإنه مسيء، فأنت أحسنت عندما انتهيت؛ يعني: وقفت حيث أوقفك العلم، فقد أحسنت والإحسان: هو المبالغة في تحسين العمل وتزيينه، العمل الشرعي فمن عمل بالعلم الذي وصل إليه فقد أحسن.

قوله: «ولكن»: هذه كلمة استدراك تدل على أن هذا حسن، وهناك شيء أفضل.

«حدثنا ابن عباس»: هو ابن عم الرسول ﷺ، وقد دعا له الرسول ﷺ فقال: «**اللَّهم فقّهه في الدين وعلمه التأويل**»[1]، فكان كما دعا له رسول الله ﷺ، ولهذا قال عبد الله بن مسعود ﷺ: لو أن ابن عباس أدرك أسناننا ما عاشره منا أحد[2]. فكان من حملة العلم بل كان هو حبر هذه الأمة لا سيما في تفسير كلام الله جل وعلا، مات بالطائف سنة ثمان وستين.

---

(١) رواه أحمد في المسند رقم ٢٣٩٧، والحاكم في المستدرك رقم ٦٢٨٠ وهو في الصحيحين دون قوله: «**وعلمه التأويل**».

(٢) المستدرك رقم ٦٢٨٩.

«**عن النبي ﷺ أنه قال: «عُرضت عليَّ الأمم**»: يجوز أن يكون عرض الأمم في الرؤيا، أو يكون تمثيلاً مثلها له الله جل وعلا كما تجيئ يوم القيامة، وهذا هو الأقرب، والله أعلم.

ويجوز أن يكون عرضها عليه في اليقظة، فيكون مثل قوله ﷺ: «**إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها**»(١)، فأطلعه الله على مجيئ الأمم على هيئتها يوم القيامة، وكلا الأمرين حق سواء كان نوماً أو يقظة، لا فرق بينهما فهو حق ثابت لا مرية فيه.

قوله: «**الأمم**»: كل الأمم التي قبله، وجميع الأمم قبل هذه الأمة، وهذه الأمة آخر أمة وتكون عليه أنه آية الدنيا، وهذه الأمة أكثر الأمم ابتلاء وامتحاناً لحكمة أرادها الله جل وعلا.

قال: «فرأيت النبي ومعه الرهط»: الذي في صحيح مسلم: «الرُّهيط»(٢) بالتصغير. والرهط: لا مفرد له من لفظه، وهم الجماعة من الثلاثة إلى التسعة فقط؛ يعني: الجماعة دون العشرة، فالثلاثه رهط، والأربعة رهط، والسبعة رهط، أما العشرة فلا.

«**والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد**»: فهذا من العجائب، من عجائب بني آدم، فكيف يُبعث النبي إلى أمة كبيرة، ثم لا يتبعه إلا الرهيط، ويبعث النبي، ثم لا يتبعه إلا هذا العدد القليل مما يدل على أن طبائع الناس تحملهم على اتباع الشيطان وعلى مخالفة الرسل، ولهذا كان أكثر الناس هالكون، قال الله جل وعلا: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ۝﴾ [الأنعام: ١١٦].

والواقع الذي يُشاهد الآن، يشهد لهذا، الأرض مملوءة من بني آدم، ومعظمهم وجلهم كفرة فجرة عبَّاد للشهوات وعبَّاد للدنيا، فالحق صعب على النفوس، فلا نظر لهم في ما بعث الله جل وعلا به رسوله، بل كثير منهم أيضاً يعرف هذا فيعاديه أشد المعاداة ويحاربه كما هو الواقع، فلهذا صار ظن

---

(١) رواه مسلم رقم ٧٤٤٠.

(٢) مسلم رقم ٥٤٩.

الشيطان صادقاً عليهم كما أخبر الله جل وعلا عنه في ذلك: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٢٠﴾ [سبأ: ٢٠]، ثم أعجب من هذا كون النبي يبعث ولا يتبعه إلا الرجل الواحد أو الرجلان، وهذا إمام الحنفاء إبراهيم عليه السلام خليل الرحمٰن، فإنه لم يؤمن به من قومه إلا لوط ابن عمه كما قال الله جل وعلا: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٢٦﴾ [العنكبوت: ٢٦]؛ أي: ترك قومه، ثم أرسل الله تعالى لوطاً إلى مدن كبيرة فيها أعداد كثيرة فلم يؤمن منهم أحد فخرج من هذه البلاد ليس معه إلا بناته حتى زوجته كفرت به فهذا أعجب، ولهذا قال: «والنبي وليس معه أحد»؛ يعني: يرسل إلى قوم فلا يتبعه أحد، وهذا يدلنا على أن أكثر بني آدم في النار، ولهذا ثبت في الصحيح عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: عن النبي ﷺ قال: «**يقول الله تعالى: يا آدم! فيقول: لبيك وسعديك والخير في يديك، فيقول: أخرج بعث النار، قال: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين فعنده يشيب الصغير وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى، وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد**». قالوا: يا رسول الله وأينا ذلك الواحد؟ قال: «**أبشروا فإن منكم رجلاً ومن يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعون، ثم قال: والذي نفسي بيده إني أرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة**»، فكبرنا، فقال: «**أرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة**»، فكبرنا فقال: «**أرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة**»، فكبرنا، فقال: «**ما أنتم في الناس إلا كالشعرة السوداء في جلد ثور أبيض، أو كشعرة بيضاء في جلد ثور أسود**»[1]، وهذا واضح في أن يأجوج من بني آدم، وأنهم مثل غيرهم، وإنما هم كفرة معادون للحق ومنابذون له.

إذا كانت الرسل على ما جاء في حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله كم عِدَة الأنبياء؟ قال: «**مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً الرسل من ذلك ثلاث مائة وخمسة عشر جم غفير**»[2]، فهم كلهم على هذا النحو،

---

(١) رواه البخاري رقم ٣٣٤٨، ومسلم رقم ٢٢٢.

(٢) أحمد في المسند رقم ٢٢٢٨٨، والبيهقي رقم ١٨١٦٦، والحاكم في المستدرك رقم ٤١٦٦، وصحيح ابن حبان رقم ٣٦١.

باستثناء موسى ﷺ فإن أتباعه أعداد كبيرة، فنوح أولهم كل الذين معه في السفينة مع الحيوانات وغيرها والبقية هالكون»، وكل هذه عبر يجب أن يعتبر بها العبد، فإذا كان على الحق يغتبط ويحمد ربه ويسأله الثبات على ذلك حتى يتوفاه الله مسلماً، ولا يكون في جهنم وكثير ممن يسمع هذا الحديث يتطلع أن يكون مع هؤلاء السبعين ألف، والعاقل يقول: يا ليتني أموت مسلماً ولا أكون خالداً في النار، ولكن الله يُعطي فضله من يشاء فنجد بعض الناس مطمئن بإيمانه واثقاً برحمة ربه جل وعلا يزداد خيراً كل يوم يكون أحسن من الذي قبله، وهذا فضل الله.

وذكرُ الأنبياء بهذا الوصف يدلنا على أن كل نبي يأتي معه من استجاب له فقط، أما الكافرون فليسوا معه فأمته الذين أطاعوه واستجابوا له، هم الذين يتبعونهم والنبي الذي لم يأت معه أحد يُسأل: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾﴾ [المائدة: ١٠٩] يسألهم يقول لهم: لماذا لم تجابوا؟ قالوا: «لا علم لنا»؛ يعني: الأمر إليك، فإذا كان الرسل يجمعون ويسألون أول شيء فكيف حالة الذين كفروا.

ثم قال: «إذ رُفع لي سواد عظيم، فظننت أنهم أمتي»، فهذا يدل على أن الله وعده خيراً كثيراً، وأن النبي يفرح بكثرة أتباعه؛ لأن كثرة أتباعه كثرة في الخير له؛ لأن كل من عمل صالحاً بدعواه فله من الأجر مثل أجره من غير أن ينقص من أجورهم شيء، وهذا ليس خاصاً بالنبي بل كل داع إلى الخير هكذا يكون، وكذلك ضده الداعي إلى الضلال من ضل بدعوته فعليه من الوزر مثل أوزار من ضل بدعوته إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أوزارهم شيء، وهذا يدل على أن بعض الناس يتحمل من الأوزار الذي لا تطيقه الجبال، ويتفاوتون في هذا تفاوتاً عظيماً جداً وكذلك بالعكس يتفاوتون في الأجر والخير.

قوله: «فظننت أنهم أمتي»؛ يعني: أنه رأى أشخاصهم من بعد ولم يميزهم، وهذا لا يُعارض ما جاء عن النبي ﷺ في حديث أبي هريرة ﷺ أنه أخبر أنه يعرف أمته بالغرة والتحجيل. «قالوا: يا رسول الله تعرف أمتك؟

قال: **تردون عليَّ غرّاً محجَّلين من أثر الوضوء»**[١]، فهذا لبعدهم لا يميز الغرة والتحجيل، ولهذا قال: **«فظننت أنهم أمتي»**.

«فقيل لي: هذا موسى وقومه»: والنبي ﷺ لو رأى موسى من قرب عرفه، وفي هذا فضل موسى ﷺ، وأن أتباعه من بني إسرائيل كثيرون.

«فنظرت فإذا سواد عظيم»: وفي صحيح مسلم: **«فقيل لي: ولكن انظر الى الأفق»**[٢]، الأفق: الجانب الذي إذا التفت ترى السماء، **«فقيل لي: انظر عن يمينك فنظرت فإذا وجوه الرجال قد سدت الأفق، ثم قيل لي: انظر عن يسارك فإذا وجوه الرجال قد سدت الأفق»**[٣]؛ يعني: أكثر من قوم موسى بكثير.

«فقيل لي: هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب»؛ يعني: لا يحاسبون ولا يعذبون، وقد جاءت صفتهم كما في الصحيحين أنهم: **«تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر، وأنهم يدخلونها متماسكي الأيدي»**[٤]؛ لأن الباب واسع مسيرة شهر ومع ذلك أبواب الجنة ثمانية[٥]، كل واحد بين مصراعيه مسيرة أربعين سنة، ويأتي يوم ولها كظيظ من الناس؛ يعني: يدخلون بزحام[٦]، وهؤلاء سيدخلون الجنة قبل محاسبة الناس.

وجاء في أحاديث أنهم أكثر من سبعين ألف فقد روى الإمام أحمد[٧]،

---

(١) رواه مسلم رقم ٢٤٧. (٢) رواه مسلم رقم ٢٢٠.

(٣) رواه أحمد في المسند رقم ٣٨٠٦، والبخاري رقم ٥٤٢٠، ومسلم رقم ٢٢٠.

(٤) رواه البخاري رقم ٦٥٥٤، رواه مسلم رقم ٢١٩ عن أبي حازم عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: **«ليدخلن الجنة من أمتي سبعون ألفاً أو سبعمائة ألف ـ لا يدري أبو حازم أيهما قال ـ متماسكون آخذ بعضهم بعضاً لا يدخل أولهم حتى يدخل آخرهم وجوههم على صورة القمر ليلة البدر»**.

(٥) رواه البخاري رقم ٣٢٥٧ عن سهل بن سعد ﷺ: عن النبي ﷺ قال: **«في الجنة ثمانية أبواب فيها باب يسمى الريان لا يدخله إلا الصائمون»**.

(٦) رواه مسلم رقم ٢٩٦٧، وأحمد في المسند رقم ١٧٥٧٥.

(٧) أحمد في المسند رقم ٨٧٠٧.

والبيهقي وغيرهم في حديث أبي هريرة: **«فاستزدت ربي فزادني مع كل ألف سبعين ألف»**، قال الحافظ في الفتح: إسناده جيد.

قال: «ثم نهض ودخل منزله، فخاض الناس في أولئك»: خوض الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ في ذلك لحرصهم على الخير يسأل بعضهم بعضاً يقولون: من ترون هؤلاء السبعين؟ كل واحد منهم يود أن يكون منهم بلا شك هذا شيء معروف، ولكنهم عرفوا أن هذا لا يحصل إلا بالعمل، فصاوروا يبحثون عن ذلك حتى يعملوا، وهم أحرص الناس على العمل رضي الله عنهم أجمعين.

وفيه دليل على جواز البحث في مسائل العلم والمناظرة فيها وإن كان هناك من إذا رُجع إليه بين المسألة وأزال الإشكال؛ لأن الرسول ﷺ عندهم قريب منهم ومع ذلك صاروا يخوضون في هؤلاء السبعين.

«فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ ـ وقال بعضهم: فلعلهم الذين وُلدوا في الإسلام فلم يشركوا بالله شيئاً وذكروا أشياء»: وكلها اجتهاد، وفي هذا دليل على أن المسائل التي ليس فيها نصوص يجوز الاجتهاد فيها غير أن المجتهد لا يجوز له أن يجزم بالحكم مثل ما قال الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ هنا لعل الأمر كذا أو كذا إلا إذا كان عند الإنسان دليل يعتمد عليه.

قوله: «فخرج عليهم رسول الله ﷺ فأخبروه، فقال: هم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتكلون»: هذه أربع صفات، وجاء في صحيح مسلم: **«لا يرقون ولا يسترقون»**، فقوله: **«ولا يرقون»**، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: **«ولا يرقون»** غلط، فإن رقياهم لغيرهم ولأنفسهم حسنة[1]. فلم يقل النبي ﷺ: **«لا يرقون»**، وقد سئل ﷺ عن الرقي فقال: **«من استطاع منكم أن ينفع أخاه فلينفعه»**[2]، وقال: **«لا بأس بالرقي ما لم يكن فيه شرك»**[3].

---

(١) مجموع الفتاوى ١/ ١٨٢.
(٢) رواه مسلم رقم ٢١٩٩.
(٣) رواه مسلم رقم ٢٢٠٠، وأبو داود رقم ٣٨٨٨.

❁ **وقال أيضاً كَلَّلهُ: وقد رقى جبريل عليه السلام النبي ﷺ**[١]**، ورقى النبي ﷺ أصحابه**[٢].

وقال ابن القيم: والفرق بين الراقي والمسترقي أن المسترقي سائل مستعط ملتفت إلى غير الله بقلبه، والراقي محسن نافع[٣]. فالراقي محسن، ولا يكون الإحسان إلا رفعة في الدرجات ولا يكون مانعاً من السبق إلى الجنة فلا بد أن يكون هذا خطأ ولهذا أسقطها المؤلف كَلَّلهُ.

قوله: «لا يسترقون»؛ يعني: لا يطلبون من غيرهم أن يرقيهم، والفرق بين الاسترقاء وكونه يرقي واضح في أن المسترقي: طالب مستنجد ملتفت إلى غير الله جل وعلا، أما الراقي فهو محسن ليس عنده طلب، أو افتقار لغير الله جل وعلا، بل يحسن إلى غيره، وفرق بين هذا وهذا، فلماذا صار هذا من أوصاف الذين يسبقون إلى الجنة بلا حساب ولا عذاب مع أن الرقى جائزة وبعضهم يقول مستحبة؟

الجواب: هناك علة أخرى غير الرقية وهو الطلب والسؤال؛ أي: سؤال المخلوق، أما إذا رقيت أنت نفسك فهو أمر مستحب والرسول ﷺ أمر بذلك، وقال: **«لا بأس بالرقي ما لم تكن شركاً»**[٤]، وأخبر بإنها حق، وهذا أنفع إذا رقى الإنسان نفسه، فهو أنفع وأجدى؛ لأنه يكون بذلك صادقاً مخلصاً ولا يرجو نفعاً من الناس ولا مدحاً، وكذلك إذا رقاك أحد بغير طلب أو سؤال منك، فالرسول ﷺ رقاه جبريل عليه السلام، وهو ﷺ من أعظم من حقق التوحيد.

---

(١) رواه مسلم رقم ٥٨٢٩ عن أبي سعيد أن جبريل أتى النبي ﷺ فقال: «يا محمد، اشتكيت؟ فقال: نعم، قال: **باسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك من شر كل نفس أو عين حاسد الله يشفيك باسم الله أرقيك**»، وأحمد في المسند رقم ١١٢٢٥.

(٢) رواه البخاري رقم ٥٣٥١ عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ كان إذا أتى مريضاً أو أتي به قال: «**أذهب البأس رب الناس، اشف وأنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقماً**»، ومسلم رقم ٢١٩٢ وعنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا مرض أحد من أهله نفث عليه بالمعوذات، فلما مرض مرضه الذي مات فيه جعلت أنفث عليه وأمسحه بيد نفسه لأنها كانت أعظم بركة من يدي.

(٣) مفتاح دار السعادة ٢/ ٢٣٤.

(٤) سبق تخريجه.

فإذاً يكون السبب بكونهم لا يسترقون؛ يعني: لا يطلبون من غيرهم، فإذا كانوا لا يطلبون الرقية فهم كذلك لا يطلبون غيرها، فالمعنى: أنهم يستغنون بالله جل وعلا عن غيره من الخلق، ولا تتعلق قلوبهم بأحد من الناس، بل لكمال إخلاصهم وصدقهم مع ربهم لا يسألون أحداً شيئاً، وقد كان الرسول ﷺ في آخر الأمر يبايع بعض الناس على هذا الأمر إذا بايع على الإسلام. فعن عوف بن مالك الأشجعي قال: كنا عند رسول الله ﷺ تسعة أو ثمانية أو سبعة فقال: «**ألا تبايعون رسول الله؟**»، وكنا حديث عهد ببيعة فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، ثم قال: «**ألا تبايعون رسول الله؟**»، فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، ثم قال: «**ألا تبايعون رسول الله ﷺ؟**»، قال: فبسطنا أيدينا وقلنا: قد بايعناك يا رسول الله فعلام نبايعك؟ قال: «**على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً والصلوات الخمس وتطيعوا** (وأسرَّ كلمة خفية) **ولا تسألوا الناس شيئاً، فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسل أحداً يناوله إياه**»[1]، فكان أحد هؤلاء الذين يبايعون على ذلك يركب راحلته والناس تحت راحلته، ثم يسقط سوطه فينزل من على الراحلة فيأخذه، ولا يقول لمن عنده ناولني السوط؛ لأنه لا يسأل الناس شيئاً، يستغني بالله عن سؤال الناس، ولو كان شيئاً يسيراً، وهذا يدل على كمال الإخلاص والصدق مع الله، والسبب في هذا أن سؤال الناس فيه نوع من الافتقار إليهم ويجعل القلب يلتفت نوع التفات إلى من أحسن إليه، فيكون فيه نوع تعلق لمن بذل له هذا الشيء، والواجب أن يكون القلب مخلصاً لله جل وعلا وتعلقه كله به جل وعلا، ولهذا جاء في الحديث: «**اللهم لا تجعل لفاجر عليَّ نعمة فيوده قلبي**»[2]، ومن هنا حرمة المسألة.

---

(١) رواه مسلم رقم ١٠٤٣.

(٢) روح المعاني ـ ٢٨/ ٣٥، أخرجه الديلمي من طريق الحسن عن معاذ قال: قال رسول الله ﷺ: «**اللهم لا تجعل لفاجر ـ في رواية: ولا لفاسق ـ عليّ يداً ولا نعمة فيوده قلبي، فإني وجدت فيما أوحيت إليّ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله**»، وأخرجه ابن مردويه عن كثير بن عطية عن رجل.

وقوله: «ولا يكتوون»؛ يعني: لا يتعالجون بالكي، والكي مكروه كما جاء عن النبي ﷺ في الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: **«الشفاء في ثلاثة: شربة عسل، وشرطة محجم، وكية نار، وأنهى أمتي عن الكي»**[١]، وفي رواية: **«وما أحب أن أكتوي»**[٢]، وفي رواية: **«وأنا أكره الكي ولا أحبه»**[٣]، وقد جاء الإذن في الكي. قال أنس: كويت من ذات الجنب ورسول الله ﷺ حي، وشهدني أبو طلحة، وأنس بن النضر، وزيد بن ثابت، وأبو طلحة كواني[٤]. عن جابر قال: بعث رسول الله ﷺ إلى أبي بن كعب طبيباً فقطع منه عرقاً، ثم كواه عليه[٥]. وعن أنس رضي الله عنه: أن النبي ﷺ كوى أسعد بن زرارة من الشوكة[٦]. وجاء في الصحيح أن عمران بن حصين رضي الله عنه فيه بواسير[٧] فاكتوى، وكانت تسلم عليه الملائكة، فلما اكتوى اختفت فأصبحت لا تسلم عليه حتى تاب، فلما تاب رجعت تسلم عليه فأخبر أحد تلامذته، وقال: لا تخبر بهذا حتى أموت فلم يخبر به حتى مات[٨].

فالكي مباح ولكنه مكروه، قال ابن القيم رحمه الله: فقد تضمَّنت أحاديث الكي أربعة أنواع: **أحدها**: فعله. **والثاني**: عدم محبته له. **والثالث**: الثناء على من تركه. **والرابع**: النهي عنه. ولا تعارض بينها بحمد الله تعالى فإن فعله يدل على جوازه، وعدم محبته له لا يدل على المنع منه، وأما الثناء على تاركه فيدل على أن تركه أولى وأفضل، وأما النهي عنه فعلى سبيل الاختيار

---

(١) رواه البخاري رقم ٥٦٨١.

(٢) رواه البخاري رقم ٥٦٨٣، ومسلم رقم ٢٢٠٥.

(٣) أحمد في المسند رقم ١٧٣١٥.

(٤) رواه البخاري رقم ٥٧١٩.

(٥) رواه مسلم رقم ٢٢٠٧.

(٦) رواه الترمذي رقم ٢٠٥٠، والحاكم في المستدرك رقم ٤٨٥٩، وابن حبان رقم ٦٠٨٠.

(٧) رواه البخاري رقم ١٠٦٦ قال: كانت بي بواسير فسألت النبي ﷺ عن الصلاة فقال: **«صلي قائماً فإن لم تستطع فقاعداً..»** الحديث.

(٨) رواه مسلم رقم ١٢٢٦ وفيه عن عمران بن حصين قال: «وقد كان يسلم علي حتى اكتويت فتركت ثم تركت الكي فعاد».

والكراهة، أو عن النوع الذي لا يحتاج إليه بل يفعل خوفاً من حدوث الداء والله أعلم[١]. وكونه مكروه؛ لأنه فيه ألم متحقق والشفاء فيه مظنون، والسبب في كونه يمنع من السبق إلى الجنة: لأنه يدل على التعلق في الدنيا بالأوهام فهو يدل على شدة حب الدنيا، وأن رغبته فيها أكثر من الآخرة فهو يقدم أمور لا تكون محبوبة لله جل وعلا، وهذه لا تكون صفة المحققين للتوحيد، هذه العلة في كون الكي صار سبباً مانعاً من السبق إلى الجنة بلا حساب، والله أعلم.

وقوله: «لا يتطيرون»: والطيرة: هي التشاؤم بفعل الطير أو صوته أو الحيوان أو غيره. وهي ليست خاصة بالطيور، التشاؤم بالكلام والأشخاص والأيام وغيرها.

والطيرة شرك كما جاء في الحديث: «**الطيرة شرك**»[٢] فقوله: «**لا يتطيرون**»؛ يعني: لا تقع منهم الطيرة؛ لأن هذا توهم من الشيطان وإلا الطيور والدواب وغيرها ليس في فعلها، أو نعيبها، أو كلام الناس شيء يدل على ما يقع، ولهذا يكون هذا من الشرك في الربوبية.

وقوله: «وعلى ربهم يتوكلون»: التوكل هو اعتماد القلب على الله جل وعلا بعد فعل السبب، فهم يبذلون الأسباب ويتعاطونها ويعتمدون على الله جل وعلا في حصول المطلوب، وهذا هو الجامع للخصال التي اجتنبوها هو توكلهم على الله جل وعلا، ولا يجوز أن نفهم أن التوكل هو ترك الأسباب بل التوكل هو فعل السبب الشرعي وليس السبب الممنوع، ثم اعتماد القلب في حصول المسبَّب على هذا السبب على الله تعالى مسبِّب الأسباب؛ لأن السبب ليس هو الذي يحصل به الشيء، ولكن الله جعله سبباً «**وجعل لكل شيء سبباً**»، فلا بد من فعل السبب، فتعطيل الأسباب نقص في العقل

---

(١) زاد المعاد ٤/ ٥٨.

(٢) رواه أحمد في المسند رقم ٣٦٨٧، وأبو داود رقم ٣٩١٠ ولفظه: عن عبد الله بن مسعود: عن رسول الله ﷺ قال: «**الطيرة شرك ـ الطيرة شرك ـ ثلاثاً ـ وما منا إلا ولكن الله يذهبه بالتوكل**».

والدين، والالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع[١].
فأما الاعتماد عليها فهو شرك؛ لأن الإنسان لا بد أن يعتمد على ربه، ولكن لا يعطل السبب، فالحديث لا يدل على أنهم لا يباشرون الأسباب أصلاً، فإن مباشرة الأسباب ـ في الجملة ـ أمر فطري ضروري ولا انفكاك لأحد عنه، بل نفس التوكل مباشرة لأعظم الأسباب، وإنما المراد أنهم يتركون الأمور المكروهة مع حاجتهم إليها توكلاً على الله تعالى كالاكتواء، والاسترقاء، فتركهم له؛ لأنه سبب مكروه لا سيما والمريض يتشبث فيما يظنه سبباً لشفائه بخيط العنكبوت.

فهذا جاء في شيء مخصوص وهو الاسترقاء والكي فقط، فلا يدخل فيها غير ذلك من الأدوية، فمباشرة الأسباب والتداوي ـ على وجه لا كراهية فيه ـ غير قادح في التوكل فلا يكون تركه مشروعاً أو مستحباً.

فالعلاج والتداوي جاءت به نصوص كثيرة، بل جاء الأمر به عن أسامة بن شريك قال: قالت الأعراب: يا رسول الله ألا نتداوى؟ قال: «**نعم يا عباد الله تداووا، فإن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء، أو قال: دواء إلا داء واحداً، قالوا: يا رسول الله وما هو؟ قال: الهرم**»[٢]، وعن أبي هريرة مرفوعاً: «**وما أنزل الله من داء إلا وأنزل له شفاء**»[٣]، وفي رواية أحمد: «**علمه من علمه وجهله من جهله**»[٤]، فالرسول ﷺ تداوى، وأمر بالدواء.

وقد اختلف العلماء في حكم التداوي: وقد ذهب جمهور العلماء

---

(١) مجموع الفتاوى ٨/ ٧٠ ذكر هذا القول عن أبو حامد، وأبو الفرج ابن الجوزي وغيرهما. منهاج السنة النبوية ٥/٣٦٦.

(٢) رواه الترمذي رقم ٢٠٣٨، وأبو داود رقم ٣٨٥٥، وأحمد في المسند رقم ١٨٤٥٤، والحاكم في المستدرك رقم ٧٤٣٠.

(٣) رواه البخاري رقم ٥٦٧٨، وعند مسلم رقم ٢٢٠٤ ولفظه: أنه قال: «**لكل داء دواء فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله ﷻ**».

(٤) المسند رقم ٣٥٧٨ من رواية عبد الله بن مسعود ﷺ.

ـ الحنفيّة والمالكيّة ـ إلى أنّ التّداوي مباح، غير أنّ عبارة المالكيّة: لا بأس بالتّداوي.

وذهب الشّافعيّة، والقاضي وابن عقيل وابن الجوزيّ من الحنابلة إلى استحبابه، لقول النّبيّ ﷺ: **«إنّ الله أنزل الدّاء والدّواء، وجعل لكلّ داء دواءً فتداووا ولا تتداووا بالحرام»**، وغير ذلك من الأحاديث الواردة، والّتي فيها الأمر بالتّداوي، قالوا: واحتجام النّبيّ ﷺ وتداويه دليل على مشروعيّة التّداوي. وقال النووي في شرح مسلم على حديث: **«لكل داء دواء، فإذا أصيب دواء الداء برئ بإذن الله»**، وفي هذا الحديث إشارة إلى استحباب الدواء، وهو مذهب أصحابنا، وجمهور السلف، وعامة الخلف[1]، ومحلّ الاستحباب عند الشّافعيّة عند عدم القطع بإفادته، أمّا لو قطع بإفادته كعصب محلّ الفصد فإنّه واجب.

ومذهب جمهور الحنابلة: أنّ تركه أفضل، ونصّ عليه أحمد قالوا: لأنّه أقرب إلى التّوكّل.

۞ وقال شيخ الإسلام ـ ابن تيمية ـ رحمه الله: وأما التداوي فليس بواجب عند جماهير الأئمة، وإنما أوجبه طائفة قليلة كما قاله بعض أصحاب الشافعي وأحمد، بل قد تنازع العلماء أيما أفضل التداوي أم الصبر للحديث الصحيح حديث ابن عباس عن الجارية التي كانت تصرع، وسألت النبي أن يدعو لها فقال: «إن أحببت أن تصبري ولك الجنة، وإن أحببت دعوت الله أن يشفيك، فقالت: بل أصبر، ولكني أتكشف فادع الله لي أن لا أتكشف، فدعا لها أن لا تتكشف»[2]، ولأن خلقاً من الصحابة والتابعين لم يكونوا يتداوون بل فيهم من

---

(١) المنهاج شرح مسلم ١٤/ ١٩١.

(٢) البخاري رقم ٥٣٢٨ ولفظه عطاء بن أبي رباح قال: قال لي ابن عباس: ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ قلت: بلى، قال: هذه المرأة السوداء أتت النبي ﷺ فقالت: إني أصرع وإني أتكشف فادع الله لي، قال: **«إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله أن يعافيك»**. فقالت: أصبر، فقالت: إني أتكشف فادع الله أن لا أتكشف فدعا لها»، ومسلم رقم ٢٥٧٦.

اختار المرض؛ كأُبي بن كعب، وأبي ذر، ومع هذا فلم ينكر عليهم ترك التداوي[١].

والذي يظهر أن الراجح ما ذهب إليه الإمام الشافعي رحمه الله، والله أعلم. فالتداوي ليس واجباً؛ يعني: أن الإنسان إذا أصيب بمرض ثم امتنع من أن يذهب إلى العلاج لا يكون آثماً، ولا سيما إذا كان العلاج قد يصحبه أمور منكرة، فإن هذا يكون مبرراً لكونه يمتنع، والأمور المنكرة التي تصاحب العلاج كثيرة كما هو معروف في المستشفيات وغيرها.

فالمقصود أن الأدلة دلت بأن العلاج أمر به، فالرسول ﷺ عالج، فكان يحتجم ويشرب العسل علاجاً، وكذلك تعالج من السحر وغير ذلك، فهي سُنَّته صلوات الله وسلامه عليه، فالمعالجة ما عدا الأسباب المكروهة التي منها الطلب من الغير والافتقار إليه، وكذلك الكي فإن هذا مكروه وتركه أولى، ولا يكون من فعله سابقاً إلى الجنة مع السبعين الألف، أما ما عدا ذلك من العلاج فإنه جائز بل مستحب، ولا يكون الذهاب إلى الطبيب وإخباره وطلب أن يصرف له العلاج لا يكون من هذا الباب؛ يعني: الاسترقاء، فهو يأخذ منه الوصف حتى يفعل السبب فقط، والذي يفعل السبب يكون معتمداً على الله جل وعلا، والتوكل ليس معناه ترك الأسباب بل معناه فعل السبب، ثم الاعتماد بالقلب على الله جل وعلا في حصول المطلوب هذا هو حقيقة التوكل.

والتوكل فرض على كل شخص كما قال الله جل وعلا: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، وقد أخبر الله أن المسببات مربوطة بأسبابها، وأنه جعل لكل شيء سبباً، فلا بد من فعل السبب، وترك السبب قدح في العقل بل وحتى في الشرع، أما الاعتماد على السبب فهو شرك، فلا بد من النهج الصحيح في هذا أنه يفعل السبب على أنه سبب إلا إذا كان سبباً محرماً؛ لأنه محرماً؛ لأن من الأسباب ما هو محرم، ومنها ما هو مكروه، فمثل هذا يُجتنب حسب الإمكان.

(١) مجموع الفتاوى ٢٤/٢٦٩.

قوله: «فقام عكَّاشة بن محصن»: عكَّاشه بن صفوان بن محصن، من المهاجرين السابقين ومن أفضل الصحابة، وكان من أحسن الرجال منظراً وكان شجاعاً فارساً كما وصف بذلك، وقد حضر وقعة بدر وما بعدها من الوقائع، وقُتل في قتال الردة مع خالد بن الوليد سنة اثنتي عشرة قتله طُليحة الأسدي لما تنبأ، ثم أسلم طليحة وقُتل في قتال الفرس فهو ﷺ مات شهيداً، ولهذا يقول العلماء: تحقق قول النبي ﷺ فصار هذا من علامات نبوته ﷺ؛ لأنه قتل شهيداً مستمراً ثابتاً على دين الله جل وعلا، فهذا دليل على صدق ما أخبر به ﷺ في الظاهر، وإلا يجب علينا أن نصدقه إذا قال ولو لم يظهر لنا ذلك فهو الصادق المصدوق، وعلامات نبوته كثيرة جداً لكن كونها تكون في أمور غيبية فقد يُنازع فيها؛ لأن فيه أمور ظاهرة جداً من أعظم الآيات التي جاء بها الرسول ﷺ هذا القرآن لكن أكثر الناس لا يعرفون كيف يكون هذا القرآن آية كيف يكون معجزة؛ لأنهم لا يفهمونه ولا يفهمون حتى اللغة التي نزل بها، فإذا كان لا يفهم اللغة فكيف يفهم أنه معجزة وأنه آية باهرة، ولكن إذا فهم اللغة، وفهم مواقع الكلام ظهر العجب في هذا القرآن، والإنسان يقرأ القرآن عدة مرات بل سنين، وفي كل مرة يتبين له شيء ما تبين من قبل، وهذا لا يمكن أن يكون في كلام الناس أبداً.

وقوله: «أنت منهم»: وفي رواية البخاري: **«اللَّهم اجعله منهم»**(١): ففيه طلب الدعاء من الفاضل. وقوله: «ثم قام رجل آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: سبقك بها عكاشة»: قال القرطبي ﷺ: ولقوّة يقينه وشدّة حرصه على الخير ورغبته فيما عند الله سبق الصحابةَ كلَّهم بقوله: «ادع الله أن يجعلني منهم». ولمّا لم يكن عند القائم بعده من تلك الأحوال الشريفة ما كان عند عُكاشة، قال له: **«سبقك بها عُكاشة»**، وأيضاً فلئلّا يطلبَ كلّ من هناك ما طلبه عُكاشة، ويتسلسل الأمر، فسدّ النبي ﷺ الباب بقوله: **«سبقك بها»**(٢). بل هذا من حسن خلق الرسول ﷺ، وجميل معاملته لأصحابه حيث جاء

---

(١) البخاري رقم ٦٥٤١.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ٣/٩٦.

بالمعاذير التي لا تُحرج أحداً، وبذلك توقف الطلب فلم يرده ردّاً يقوله له: أنت لست منهم أو أنا لن أدعو لك، أو من الكلام الذي قد يكون فيه شيء من تحسر النفس، أو الغضب للذي يقال له، بل قال: «**سبقك بها عكّاشة**»، فهذا أسلوب جميل وتعريض حسن، ولهذا توقف الناس.

ولم يبيِّن هذا الرجل، وقد جاء في حديث لكنه يقول الحافظ: إنه واهي الإسناد أنه سعد بن عبادة، فإذا كان واهياً فلا يعتمد عليه، ثم إن سعد رضي الله عنه من كبار الصحابة فبعيد أن يكون هو[(١)].

وأما قول بعض الشراح أنه منافق فهذا غير صحيح أيضاً؛ لأن المنافق لا يقول: ادع الله لي أن يدخلني الجنة؛ لأن المنافق أصلاً لا يؤمن بالجنة، وهو يُبطن الكفر، فالمنافق ليس عنده دافع لطلب الجنة إلا إذا كان يقصد الرياء.

وأما ما جاء في طلب عكّاشة في أن يجعله منهم وقيام الآخر مثله، فهذا عُد من أنواع الشفاعة؛ لأن الشفاعة هي: الدعاء بضم الدعاء إلى دعاء المشفوع له؛ لأنه كان فرداً، ثم انضم إليه الشافع فصار شفعاً، فهي أخذت من هذا، والشفاعة لها باب خاص سيأتي؛ لأن الشفاعة أصل دخول الشرك على الناس.

❁ قال المؤلف رحمه الله: فيه مسائل:

❁ الأولى: معرفة مراتب الناس في التوحيد.

لأن أهل الإيمان يدخلون الجنة كلهم، فمنهم من يسبق بلا حساب ومنهم من يحاسب، ومنهم من يعذب، ثم يدخل الجنة.

❁ الثانية: ما معنى تحقيقه.

تخليصه وتصفيته من شوائب الشرك ومن البدع والذنوب، وليس هذا

---

(١) رواه الخطيب في المبهمات ١/ ٢٥. قال الحافظ في فتح الباري ١١/ ٤١٢، قال: جاء من طريق واهية أنه سعد بن عبادة أخرجه الخطيب في المبهمات من طريق أبي حذيفة إسحاق بن بشر البخاري أحد الضعفاء من طريقين له عن مجاهد، وهذا مع ضعفه وإرساله يستبعد من جهة جلالة سعد بن عبادة.

معناه أن الإنسان يمكن أن يكون ليس عنده أي ذنب، ولكن المقصود في هذا أن يكون تائباً غير مصر على ذنب هذا هو المقصود، وإلا فالذنوب لا بد منها ليس يخلو من الذنب عبد، ولكن يجب على الإنسان أن يتوب؛ لأن التوبة واجبة وإذا تركها الإنسان فهذا ذنب؛ لأن الله يقول: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١].

۞ الثالثة: كون ترك الرقية والكي من التوحيد.

يعني: ترك طلب الرقية وليس المقصود الرقى نفسها، وإنما المقصود أن الإنسان لا يطلب من غيره أن يرقيه، ولا يدخل في هذا كون الإنسان يرقي نفسه أو غيره يرقيه من دون طلب منه، فإن هذا لا يكون مانعاً.

أما الكي ففيه خلاف، فمنهم من قال: طلبه أيضاً مثل: الرقية؛ لأنه قال: «**ولا يكتوون**»؛ يعني: لا يطلبون أحداً يكويهم. ومنهم من قال: تركه مطلقاً، فالكي مكروهاً مطلقاً سواء طلب أحداً يكويه أو هو قائم بكيٍّ نفسه، فالكي نفسه مكروه؛ لأن فيه ألم محقق وهو يدل على الرغبة في الدنيا أكثر من غيرها، وقد جاء النهي عنها بخلاف الرقية كما في التفصيل السابق.

۞ الرابعة: حرصهم على الخير.

يعني: الصحابة، وذلك عندما تداولوا هذه المسألة.

۞ الخامسة: فضيلة هذه الأمة بالكمية والكيفية.

الكمية هي: الكثرة، والكيفية: هي كون منهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب، فهي أفضل الأمم كثرة وصفة.

۞ السادسة: فضيلة أصحاب موسى ﷺ.

أصحاب موسى ما ذكر منهم أن فيهم أحد يسبق إلى الجنة بلا حساب وإنما جاءت كثرتهم حتى ظن الرسول ﷺ أنهم أمته، فدل على فضلهم، وقد قال الله جل وعلا في ذكرهم: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ

وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ [الجاثية: ١٦] يقول العلماء؛ يعني: على عالمي زمنهم، ليس على العالمين مطلقاً[(١)].

ولكن قول الله جل وعلا: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الواقعة: ١٣، ١٤]، أكثر المفسرين على أن قوله: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾ أنه ليس المقصود به هذه الأمة، الأمم السابقة[(٢)]. فهذا أيضاً نص في السبق؛ لأن السبق هو إلى الجنة، واستدلوا على هذا بأشياء منها ما ذكر الله في سورة آل عمران: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [آل عمران: ١٤٦]، حيث أخبر الله جل وعلا أن كثير من الأنبياء قاتل معهم رِبيُّون كثير، والرِّبِّي: هو الذى تربى أو ربَّ غيره بالعلم والتقى، وذكرهم بأوصافاً جميلة، والله أعلم.

والرسول ﷺ رجا أن تكون هذه الأمة ثلثي أهل الجنه[(٣)]، فالكثرة ليس فيها إشكال ولكن الصفة التي يفضلونه بها.

❁ السابعة: عرض الأمم عليه ﷺ.

وهذا من المعجزات ولا إشكال فيه، بل هذا حق ويجب الإيمان به فهو رآها كما تأتي يوم القيامة.

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٧٤، قال ﷺ: والمقصود: أنهم كانوا أفضل أهل زمانهم، وإلا فهذه الأمة أشرف منهم وافضل عند الله، وأكمل شريعة، وأقوم منهاجاً، وأكرم نبياً، وأعظم ملكاً، وأغزر أرزاقاً، وأكثر أموالاً وأولاداً، وأوسع مملكة، وأدوم عزاً، قال الله ﷻ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقال: والجمهور على أنه خطاب من موسى لقومه وهو محمول على عالمي زمانهم كما قدمنا.

(٢) تفسير ابن كثير ٧/ ٥١٧ يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء السابقين أنهم: ﴿ثُلَّةٌ﴾ أي: جماعة ﴿مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾. وقد اختلفوا في المراد بقوله: ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾، و﴿ٱلْآخِرِينَ﴾. فقيل: المراد بالأولين: الأمم الماضية، والآخرين: هذه الأمة. هذا رواية عن مجاهد، والحسن البصري، رواها عنهما ابن أبي حاتم. وهو اختيار ابن جرير، واستأنس بقوله ﷺ: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة».

(٣) سبق تخريجه.

۞ الثامنة: أن كل أمة تحشر وحدها مع نبيها.

كل أمة تأتي مع نبيها، ولا يأتي معه إلا من استجاب له فقط، أما الكافرون فهم يُحشرون جميعاً من أولهم إلى آخرهم.

۞ التاسعة: ثمرة هذا العلم وهو عدم الاغترار بالكثرة وعدم الزهد في القلة.

يعني: ما ذكر في هذا الحديث ونحوه، فثمرته أن يثمر عند العبد البحث عن الحق والتمسك به، وأن لا يغتر بالكثرة، فلا يغتر بما يقوله بعض الناس عندما يؤمر بشيء يقول: كل الناس يفعلون هذا، أو ما أشبه ذلك، وهذه هي سُنَّة الجاهليين الذين يقولون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]، ولهذا يقول ابن مسعود: لا يكون أحدكم إمَّعة قالوا: وما الإمَّعة يا أبا عبد الرحمٰن؟ قال: يقول: إنما أنا مع الناس إن اهتدوا اهتديت، وإن ضلُّوا ضللت، ألا ليوطن أحدكم نفسه على أنه إن كفر الناس أن لا يكفر[1]. بل يجب أن يكون العبد عنده فرقان من العلم يفرق به بين الحق والباطل، وأن لا يغتر بالناس.

۞ العاشرة: الرخصة في الرقية من العين والحُمى.

العين: هي إصابة العائن بعينه. والحمة: هي ذات الحموم؛ يعني: ذات السموم.

وقوله: «لا رقية إلا من عين أو حمة»؛ يعني: لا رقى نافعة ومجدية أكثر منها في هذا. والرخصه يقول العلماء بأنها لا تُفعل إلا عند الحاجة؛ لأنها هي الحكم الذي جاء على خلاف القاعدة الشرعية.

۞ الحادية عشر: بُعد السلف عن مدح الإنسان بما ليس فيه.

هذا أخذ من قول حصين بن عبد الرحمٰن: أما إني لم أكن في صلاة.

---

(١) المعجم الكبير ٩/ ١٥٢ وقال: «اغد عالماً، أو متعلماً، ولا تغد إمَّعة فيما بين ذلك» مشكل الآثار للطحاوي ص٥٣٤٤ وقال: «لا يكونن أحدكم إمعة»، قالوا: وما إمعة؟ قال: «يجري مع كل ريح». مساوئ الأخلاق للخرائطي ص٢٨٧.

❁ الثانية عشر: فضيلة عكّاشة ﷺ.

حيث إنه شُهد له أنه من السابقين إلى الجنة بلا حساب، ولا عذاب، وهو من المهاجرين الأوائل.

❁ الثالثة عشر: استعمال المعاريض.

لقوله: «**سبقك بها عكاشة**»، والمعاريض هو أن لا يقابل الإنسان بما يكرهه أو يتكلم بالكلام الذي قد يكون فيه حرج للمتكلم، وهذا من الأدب، فالرسول ﷺ يُعلم الأدب بل يُعلم الخير كله، فإذا مثلاً بلغه عن أحد من أصحابه أمراً فأراد أن ينهى عنه فإنه لا ينص على فلان وفلان بل يقول: «**ما بال رجال يقولون: كذا وكذا**»[1].

ففي هذا جواز استعمال المعاريض، وقد جاء في الحديث: «**إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب**»[2]. والمعاريض: هي أن يخبر عن شيء قد لا يفهمه السامع، وهو يريد ذلك الشيء ويكون صادقاً.



(١) رواه مسلم رقم ١٤٠١ عن أنس أن نفراً من أصحاب النبي ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السر؟ فقال بعضهم: لا أتزوج النساء، وقال بعضهم: لا آكل اللحم، وقال بعضهم: لا أنام على فراش، فحمد الله وأثنى عليه. فقال: «**ما بال أقوام قالوا كذا وكذا؟ لكني أصلي وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**».

(٢) سنن البيهقي رقم ٢١٣٦٤ عن عمران بن الحصين، والصحيح أنه موقوف عليه، وكذلك جاء عن عمر بن الخطاب ﷺ.



الباب الرابع

۞ **قال المؤلف رحمه الله: باب الخوف من الشرك.**

لما بيَّن المؤلف وجوب التوحيد، وأنه فرض عين على كل أحد، وبيَّن فضله وما يكفِّر من الذنوب، وذكر أن من حقق التوحيد؛ أي: خلَّصه من شوائب الشرك والبدع والذنوب فإنه يدخل الجنة بلا حساب ولا عذاب، بيَّن هنا الخوف من الشرك؛ يعني: أن المسلم يجب أن يخاف من أن يقع في الشرك، ومقتضى الخوف من الشرك أمور:

أولاً: أن الشرك أنواع كثيرة، فيه الجلي الظاهر، وفيه الخفي، وله وسائل وأسباب كثيرة، فإذا لم يتوقاها العبد، فقد يقع في الشرك وهو لا يدري.

ثانياً: أنه لا يغفر، والإنسان عمره واحد، فإذا وقع في شيء من ذلك ومات عليه فلا يمكنه الاستدراك.

ثالثاً: أن من مات عليه يكون خالداً في النار لا يُرجى له خير، بل يكون منقطع الرجاء نهائياً.

رابعاً: أن الإنسان لا يملك قلبه، فالقلوب بيد الله جل وعلا، فهذا إبراهيم الخليل عليه السلام، وهو من أكمل الخلق توحيداً وعبادة وإخلاصاً لله الذي اتخذه الله خليلاً، وهو الذي ابتلاه الله بكلمات فوفَّاهن، وهو الذي أمره الله جل وعلا بذبح ابنه فامتثل ذلك، وهو الذي حطم الأصنام وصبر على أذى الكفار وعلى تعذيبهم، فألقوه في النار وصبر في ذلك محتسباً لله جل وعلا، ومع ذلك كله يخاف أن يقع في الشرك.

خامساً: أن الرسول ﷺ خافه على صحابته، فلا بد أن يكون من لا يدانيهم مخوف عليه، ولهذا كان العلماء يخافون من الوقوع فيه، ولا سيما ما ذكر المؤلف في الحديث الذي فيه: «**أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**،

فسئل عنه فقال: الرياء»، فإن هذا قد لا يسلم منه إلا النادر، نسأل الله السلامة.

وليس المقصود بالشرك عبادة الأصنام، أو عبادة الأشخاص، وإنما المقصود الوقوع في الكفر عامة، سواء كفراً أو نفاقاً، ولهذا قال ابن أبي مليكة: أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه ما منهم أحد يقول: إنه على إيمان جبريل وميكائيل. ويذكر عن الحسن: ما خافه إلا مؤمن، ولا أمنه إلا منافق[1].

والشرك كما سبق يقع في أنواع التوحيد كلها: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، وينقسم إلى: شرك أكبر، وشرك أصغر.

۞ قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨].

يقول الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير هذه الآية: أخبر تعالى أنه: ﴿لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾؛ أي: لا يغفر لعبد لقيه وهو مشرك به، ﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: من الذنوب ﴿لِمَن يَشَآءُۚ﴾؛ أي: من عباده[2].

وبهذا يتبين أن الشرك أعظم الذنوب؛ لأن الله قطع الرجاء عن صاحبه، وأخبر أنه غير مغفور له، وإذا كان غير مغفور له فإنه يكون في النار قطعاً، غير أن الشرك كما هو معلوم ينقسم إلى قسمين: شرك أكبر وهذا هو الذي إذا مات عليه الإنسان فإنه يكون في النار قطعاً، كما قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في شرحه لمسلم فإنه يقول: وأما حكمه ﷺ على من مات مشركاً بدخول النار ومن مات غير مشرك بدخوله الجنة، فقد أجمع عليه المسلمون، فأما دخول المشرك النار فهو على عمومه فيدخلها ويخلد فيها ولا فرق فيه بين الكتابي اليهودي والنصراني وبين عبدة الأوثان وسائر الكفرة، ولا فرق عند أهل الحق بين الكافر عناداً وغيره، ولا بين من خالف ملة الإسلام وبين من انتسب إليها، ثم حُكم بكفره بجحده وغير ذلك، وأما دخول من مات غير مشرك الجنة، فهو

(١) رواه البخاري كتاب الإيمان باب ٣٦ خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر.
(٢) تفسير ابن كثير ٢/ ٣٢٥.

مقطوع له به، لكن إن لم يكن صاحب كبيرة مات مصرّاً عليها دخل الجنة أولاً، وإن كان صاحب كبيرة مات مصراً عليها فهو تحت المشيئة فإن عُفي عنه دخل أو لا، وإلا عُذب، ثم أُخرج من النار وخُلد في الجنة، والله أعلم[١].

فالذي يسلم من الشرك، فإذا لم يكن صاحب كبائر فإنه يكون في الجنة قطعاً بدون عذاب، أما إن كان صاحب كبائر فأمره إلى الله إن شاء عذبه، ثم بعد ذلك يُخرجه بعد تعذيبه في النار إلى الجنة، خلافاً لما تقوله المعتزلة والخوارج، فالمعتزلة يجعلونه لا مسلماً ولا كافراً، ويجعلونه في الآخرة كافراً في النار. فحكمه في الآخرة عندهم مثل حكم الخوارج؛ لأن الخوارج يجعلونه كافراً في الدنيا والآخرة.

فقوله: ﴿أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾: ﴿أَن﴾ إذا دخلت على معمولها فإنها تكون مصدرية فتكون عامة، من أدوات العموم. فتدل على أن الشرك عمومه يدخل في ذلك، فأي شرك يقع فيه الإنسان فإنه غير مغفور له هذا لمن يموت عليه بلا توبة، وهذه مسألة خلاف.

وقد جاءت آيات أخرى تدل على هذا مثل قوله جل وعلا: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]، وهذا فيه أن الجنة حرام عليه، وأنه من أهل النار، ففي هذه الآيات لم يذكر نوع الشرك بل أطلق.

وقد اختلف العلماء في الشرك الأصغر هل هو داخل في الآية؛ يعني: أنه لا يغفر له، ودخوله في عموم اللفظ لا شك فيه؛ لأنه يسمى شركاً، وقد سمَّاه الرسول ﷺ شركاً وتنديداً وكفراً، ففي الحديث أن ابن عمر سمع رجلاً يقول: لا والكعبة، فقال ابن عمر: لا تحلف بغير الله، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك**»[٢]، وعن ابن

---

(١) المنهاج شرح النووي على مسلم ٢/ ٩٧.

(٢) رواه الترمذي رقم ١٥٣٥ وحسنه، والحاكم في المستدرك رقم ٧٨١٤ وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

عباس ﷺ قال رجلٌ للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت، قال: «أجعلتني لله نداً؟! ما شاء الله وحده»[1]، فهذا تنديد إذاً، والله ﷻ يقول: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، وشيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ مرة مال إلى أنه يُغفر، ومرة مال إلى أنه لا يغفر؛ لأن الآية واضحة في هذا، وهي عامة في الشرك كله.

ولكن بالنظر إلى أن المعاصي قد تدخل في الشرك الأصغر، والمعاصي جاءت النصوص بأنها تغفر للعبد المسلم، وهي تحت المشيئة، فيكون الشرك الأصغر داخلاً في الذنوب، والآية تحمل على الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله جل وعلا، ويؤيد هذا أن الشرك الأصغر لا يُخرج من الدين الإسلامي يبقى العبد مسلماً، وإن كان عنده الشرك الأصغر، والمسلم المؤمن لا يكون خالداً في النار.

والذين يقولون أنه لا يغفر يقولون: إنه لا يكون مخلداً في النار، ولكن لا بد من أخذه بأن يعاقب صاحبه عليه، وليس معنى ذلك أنه يكون كافراً أو يكون حكمه حكم المشرك الشرك الأكبر أنه يكون خالداً في النار، فصاحب الشرك الأصغر يُعذب على حسب إجرامه وشركه، ثم يكون مآله إلى الجنة؛ لأن الشرك الأصغر لا يكون صاحبه خارجاً من الدين الإسلامي، وأما الأكبر فإنه يخالف هذا بأنه لا يدخل الجنة أصلاً بل الجنة تكون عليه حرام.

ولهذا تردد شيخ الإسلام في هذا بين كونه يغفر أو لا يغفر، فإذا كان الأمر هكذا، فالواجب على الإنسان أن يبتعد عن الأمور التي يكون فيها اشتباه، وهذا وجه من وجوه الخوف من الشرك.

وقوله: «﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾»: هذا لمن مات بلا توبة، أما إذا تاب فالتائب إذا قبلت توبته؛ فكأنه لم يُذنب، ولهذا يقول الله جل وعلا: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: ٥٣]، فقوله: ﴿الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ لا يخرج منها ذنب ويدخل في هذا الشرك.

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد رقم ٧٨٣.

وأما الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾، فهذه لمن يموت على الشرك فإنه لا يغفر له، والآية تدل على أن من مات على الشرك الأكبر والأصغر فإنه غير مغفور له، ولكن إذا كان كبيراً فهو من أهل النار خالداً فيها، وأما إذا كان صغيراً فإنه يعذب على حسب إجرامه وشركه، ثم يكون مآله إلى الجنة، ولا يكون خارجاً من الدين الإسلامي إلا أن يكون شركه يسيراً قد غُمِرَ بكثير الحسنات، فرجحت حسناته، فهذا يُغفر له ولا يدخل النار، وقد سبق ذكر الخلاف في ذلك أن هذا القول مرجوح لعموم الأدلة.

وقوله: «﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾»: من مات غير مشرك بالله جل وعلا، فلا يخلو أن يكون صاحب كبيرة مصرّاً عليها أو لا يكون، فإن كان صاحب كبيرة مصرّاً عليها، ومات على ذلك فهو تحت مشيئة الله، إن شاء عفا عنه وأدخله الجنة بلا عذاب، وإن شاء أخذه بكبيرته وعذبه في النار أو في غيرها، ثم بعد ذلك يُدخل الجنة، وهذا مقطوع به عند أهل السُّنَّة والجماعة، وأما إذا كان غير مصرٍّ على كبيرة فإنه يكون في الجنة بلا عذاب؛ لأن الصغائر تكفر باجتناب الكبائر، قال الله جل وعلا: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [النساء: ٣١]، وأما الكبائر فلا بد فيها من التوبة.

فكل ما دون الشرك فهو تحت المشيئة، وهو إلى الله جل وعلا، ولكن لا يُجزم بأنه مغفور له، أو غير مغفور له؛ لأن الله جعله إلى مشيئته. وأن لا أحد يخلو من الذنوب، والذنوب قد تكون كبيرة والعبد لا يدري، وهي تنقسم إلى ظاهرة وباطنة، وكل من القسمين فيه الكبير والصغير، والباطن أعمال القلوب من الحسد والغل والحقد والبغضاء وغيرها، والأعمال الظاهرة التي تكون في الجوارح وهي كثيرة، والعبد قد يتصور الشيء أنه ليس كبيراً مثل ما قال الله جل وعلا: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [النور: ١٥]، وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾﴾ [الحجرات: ٢]، فإذا كان العبد قد يحبط عمله وهو لا يشعر، وحبوط العمل بالكبائر، فالتقدم بين يدي الله ورسوله قد

يحبط عمل الإنسان وهو لا يشعر، وكذلك الجهر بين يدي الرسول ﷺ بالقول وبالكلام ورفع الصوت فقط. فهناك أمور يتساهل فيها العبد وهي ليست سهلة، وهذا يدخل في الخوف وإن لم تكن شركاً، فقد تكون مانعة للعبد من دخول الجنة من أول الأمر، والعذاب في النار صعب جداً وشديد، وعلى المرءِ أن يتصور النار التي بين يديه هل يستطيع أن يضع فيها أصبعه فكيف بنار جهنم التي يُلقى فيها العبد، ثم هو لا يموت فيها ولا يحيا.

فالمقصود أن الأمور التي وعدنا بها يجب أن نتصورها تماماً؛ لأننا سوف نعايشها ونلاقيها.

فوجه الدلالة من الآية أن الله أخبر أنه لا يغفر للمشرك، فإذا كان الشرك لا يغفر فيتعين على العبد أن يبحث عن أنواعه، وعن أسبابه ووسائله فيجتنبها لئلا يقع فيه وهو لا يدري، فإن كثيراً من الناس من الأذكياء بل من العلماء وقعوا في الشرك الأكبر؛ لأنهم جهلوا ذلك فوقعوا فيه، والسبب التهاون والتساهل، كما هو الواقع في كثير من مدن المسلمين إلى الآن، والناس متجهون للقبور يسألون أصحابها ويرون أن هذا ليس بشرك، وإنما هو توسل جائز، فهذا من المصائب، والشرك الذي لا يغفره الله جل وعلا يكون عند بعض الناس طاعة يتقرب بها إلى الله جل وعلا، وفي الآية دليل على أن الذنوب ما عدا الشرك لا يكفر بها المسلم، فيكون فيه الرد على الخوارج الذين يكفرون الناس بالذنوب، وكذلك فيه الرد على إخوانهم المعتزلة الذين يجعلون صاحب الكبيرة خالداً في النار وإن كانوا لا يسمونه كافراً ولكنهم يقولون: إنه خرج من الإسلام، بل هو مؤمن ناقص الإيمان، وإذا ماتوا بدون توبة فأمرهم إلى الله، كما هو مفهوم هذه الآية، فإن شاء عفا عنهم وأدخلهم الجنة بلا عذاب، وإن شاء عذبهم، ثم بعد ذلك يدخلهم الجنة.

وفي الآية أن المشرك إذا مات على شركه فإنه غير مغفور له، وأما إذا تاب فالله إذا شاء قبل توبته، فقبول التوبة، إليه جل وعلا، غير أن الثقة بالله جل وعلا ورجائه إنه يقبل التوبة بل يفرح بتوبة التائب أشد الفرح، وإن كان سبحانه لا ينتفع بطاعة الطائعين، ولا بتوبة التائبين، فهو الغني بذاته عن كل

من سواه، ولكن الله جل وعلا لكرمه، وجوده لا يحب أن يعذب عباده، وإذا تاب عبده فرح بذلك، ولهذا أرسل الرسل، وأنزل الكتب، حتى لا يكون لأحد عذر أمام الله جل وعلا، فإرسال الرسل وإنزال الكتب كافياً لإقامة المعذرة؛ لأن الله جل وعلا جعل في الإنسان عقلاً وفكراً يُدرك بذلك منفعته، فإذا عرف أن الرسول جاء بالحق والهدى من عند الله يجب عليه أن يبحث عما جاء به الرسول، وإن لم يفعل فاللوم عليه فهو الملوم والحجة قائمة عليه ليس له عذر، فلا ينتظر العبد أن يأتيه الرسول في بيته أو في خصوص نفسه ويقول: كذا وكذا، ولا عذر للعبد بقوله: أنا جاهل ولم أدر، فهذا لا ينفعه قوله، فإذا علم أن الله جل وعلا أرسل رسوله وأنزل كتابه فيجب عليه أن يبحث هو عن الحق.

❁ **قال المؤلف** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **وقول الله جل وعلا:** ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

قوله: «﴿وَٱجْنُبْنِي﴾»؛ يعني: اجعلني في جانب بعيداً أنا وبني عن عبادة الأصنام.

وقوله: «﴿وَبَنِيَّ﴾»؛ يعني: أبناءه، والمقصود بهم أبنائه لصلبه. وقد استجاب الله له وجعل بنيه أنبياء، وجعل كلمة الإخلاص في ذريته باقية إلى يوم القيامة؛ يعني: التوحيد باقياً إلى يوم القيامة في ذرية إبراهيم، ومع أنه لا ينفع الانتساب لشريف أو لكريم على الله، لا ينفع إلا العمل، ومن أجل ذلك قص الله علينا قصة نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع ابنه، وقصة لوط عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع زوجته، وكذلك إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع أبيه، ومحمد ﷺ مع عمه وأبناء عمه ما نفعهم انتسابهم إلى هؤلاء والصلة القويه التي تربطهم هو دين الله، وما ينفع الإنسان إلا عمله هو وتوحيده.

قوله: «﴿ٱلْأَصْنَامَ﴾»: الصنم: يقول: أهل اللغة ما نُحت على صورة سواءً صورة إنسان أو صورة حيوان، وسواء كان التصوير تخطيطاً أو نحتاً، أو تصويراً بالخشب، أو الحجر، أو الطين، وما أشبه ذلك. والوثن: ما عبد على غير هذه الصورة، مثل الحجر والشجر، والقبر وما أشبه ذلك، فقد جاء

دعاء الرسول ﷺ: «**اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد**»[1]، ولما جاء الرجل يستفسره عن الوفاء بالنذر في المكان المعين قال له: «**هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد؟**»[2]؛ لأن ذلك المكان جبل، والجبل يكون فيه حجارة غالباً تعبد، وهذا هو الصحيح في التفرقة بين الصنم والوثن. وقد يطلق الوثن على الصنم كما أخبر الله جل وعلا عن إبراهيم ﷺ أنه قال لقوله: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: ١٧]، وهي أصنام كانوا ينحتونها ويعبدونها، فدل على أن الوثن أعم فيطلق على الصنم وعلى غيره، فالأصنام المنحوتة أوثان، والقبور المعبودة أوثان، والحجارة أوثان، وغيرها مما يجعل له شيء من العبادة أوثاناً، والأصنام والأوثان قد تتنوع فقد تكون صنماً منحوتاً، أو مصنوعاً باليد يد البشر، وهذا من العجائب يصنعونها بأيديهم، ثم يعبدونها، ولهذا قال الله جل وعلا عنهم: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنبياء: ٩٨]؛ لأنهم هم الذين يعملون هذه الأشياء، ثم يتجهون إليها بالطلب، أو تكون هذه الأوثان والأصنام معنى من المعاني، فإذا كان العبد يُقدم هذا المعنى على طاعة الله جل وعلا فيجعله هو مقصوده ويعمل لأجله فهذا يكون معبوداً؛ بمعنى: الصنم من دون الله جل وعلا، وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «**تعس عبد الدينار، وعبد الدرهم، وعبد الخميصة، إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله أشعث رأسه، مغبرَّة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع**»[3]، فسمَّاه عبداً للدينار وهو قطعة الذهب، والدرهم الذي هو قطعة الفضة، وكذلك عبداً للكساء الذي يلبسه الخميلة والخميصة، وقد يكون عبداً لما يطأه. ومعلوم أنه لا يسجد لهذه الأشياء ولا يتجه إليها بطلب، وإنما

(١) رواه مالك في الموطأ رقم ٥٩٣ عن عطاء بن يسار.
(٢) رواه أبو داود رقم ٣٣١٣.
(٣) رواه البخاري رقم ٢٨٨٧.

يعمل لهذه الأشياء، وكذلك قد يكون عبداً لوظيفته التي يعمل فيها، فإذا كان لا يهمه إلا هذه الوظيفة ويقدمها على طاعة الله جل وعلا فهو عبداً لهذا الوثن، فهذا وثن من الأوثان، وكذلك قد يكون عبداً لفرجه أو لبطنه إذا كان يُقدم ذلك على طاعة الله جل وعلا، فإنه يكون عبداً لهذا الشيء، فهو عبد لما يعمل له، والعبد يجب أن يكون عبداً لله خالص العبودية لله جل وعلا، وإلا توازعته مظاهر الدنيا، فكل مظهر منها يأخذ منه نصيباً فيصبح عبداً لمعبودات كثيرة، وهذه سُنَّة الله، من لم يعبد الله جل وعلا عَبَدَ غيره، ولا بد وإن كان أكثر الناس يزعم أنه لا يعبد شيئاً والواقع أنه يعبد أشياء كثيرة، قد تكون شهوته، وقد تكون رئاسة، وقد تكون محبوبته، وقد تكون صورة يتجه إليها، ومن ينظر في الواقع يرى أشياء كثيرة من هذا القبيل.

ولهذا عرَّف ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ الطاغوت بقوله: الطاغوت كل ما تجاوز به العبد حده من معبود، أو متبوع، أو مطاع، فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله، أو يعبدونه من دون الله، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله[1]. فجعل الطاعة والاتباع بلا دليل، والطاعة في المعصية عبادة للطاغوت؛ لأنه تجاوز به وضعه وحده، فكل شيء حده الذي خُلق له أن يكون عبداً لله جل وعلا.

والمقصود أن قول إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ يدل على خوف إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ من عبادة الأصنام، فدعا ربه أن يجعله وبنيه في جانب بعيد عنها، وفي هذا دليل على أن العبد لا يملك لنفسه الاحتراز ولا يملك لنفسه النفع، ولا دفع الضر، وإنما يجب عليه أن يسأل ربه ويتجه إليه وإذا لم يعصمه الله جل وعلا فلا عاصم له، وإذا لم يهده فلا هادي له، والإنسان ضعيف وضعفه ملازم له، وهو غير مستطيع أن يجلب لنفسه النفع، وغير مستطيع أن يدفع عن نفسه الضر، فإذا لم يتعلق بربه جل وعلا ويعبده ويسأله وُكل إلى ضيعة وإلى ضلال، وهلك وتخطفته الشياطين، شياطين الإنس

(١) إعلام الموقعين ١/ ٥٠.

والجن من كل جانب، لهذا خليل الرحمن الذي اتخذه الله خليلاً يتجه إلى ربه طالباً سائلاً أن يُجنبه عبادة الأصنام التي ضلَّ فيها أكثر الناس، وقد استجاب الله له فجعله إمام الحنفاء، وقدوة لمن يُخلص عبادته لله جل وعلا، وأمر أهل التوحيد أن يقتدوا به ويتأسوا به: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾ [الممتحنة: ٤]، وكذلك بنوه جعلهم الله أنبياء، والظاهر أن المقصود بنوه لصلبه وهم: إسماعيل وإسحاق، وكذلك أولاد إسحاق يعقوب، فإنه حفيده، ثم صارت النبوة في ذريته إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها كما أخبر الله جل وعلا أنه جعل الكتاب والنبوة في ذريته.

ففي دعاء إبراهيم ﷺ عبرة، وبعضهم استشكل هذا وقال: إن المقصود «رب اجنبني وبني أن نعبد الأصنام»؛ يعني: لما يصد عن عبادة الله أو يلهيني عنها، فإبراهيم دعا ربه أن لا يلهيه شيء عن عبادة ربه أو يشغله أمر من أمور الدنيا، فهذا غير صحيح بل إبراهيم ﷺ دعا ربه أن لا يقع في عبادة الأصنام وهذا واضح، وهو ظاهر الآية، وهو الذي فهمه الصحابة والسلف الصالح بعدهم ولهذا: كان إبراهيم التيميّ يقول: من يأمن من البلاء بعد خليل الله إبراهيم حين يقول: ربّ «اجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ»[1]؛ يعني: من يأمن الوقوع في الشرك بعد خوف إبراهيم ﷺ فليس فيه أحد يأمن.

والدليل على أنه قصد عبادة الأصنام قوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، فاعتبر بالكثرة، ووقوع الناس، فكثير منهم وقع في عبادة غير الله جل وعلا، فخاف أن يقع فيما وقع فيه الكثيرون.

وكذلك يدل على هذا أيضاً أنه جاء أمة كبيرة بالدعوة الواضحة الجلية التي لا إشكال فيها ولم يستجب له إلا رجل واحد فقط، هو لوط ﷺ: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ [العنكبوت: ٢٦]،

(١) تفسير الطبري ١٧/١٧.

والباقون صاروا يجادلون عن الشرك، وعن عبادتهم، فلما تحيل عليهم وقال لهم: أنه سيتخلف عن اجتماعهم الذي كانوا يجتمعونه فتخلف إلى أصنامهم وحطمها، وأخذ الفأس وعلقه في رأس كبيرهم، فلما رجعوا وجدوا أصنامهم محطمة غضبوا غضباً شديداً: ﴿قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾﴾، فقال بعضهم: ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾﴾؛ يعني: يسبهم ويعيبهم، ويخبر أنهم لا ينفعون ولا يضرون، هذا معنى يذكرهم، ﴿قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾﴾ على فعله حتى تقوم عليه الحجة، ﴿قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾، ويشير إليه: ﴿إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ يخبرونكم، ﴿فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾﴾، ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾﴾[1]، كيف تعبدون من لا ينطق ولا يرجع لكم قولاً ولا يملك لكم ضراً ولا نفعاً، وهذا أمر ظاهر جداً، ولكنهم استمروا على ضلالهم وحجتهم في هذا أنهم وجدوا آبائهم على ذلك، أليس عندهم عقول وفكر؟ بلى وعندهم كذلك الأسماع، ومع ذلك فهم يتمسكون بهذه الأشياء. وكذلك قوم نوح عليه السلام صار بعضهم يخاف أن يؤثر نوح عليه السلام في دعوته فصار يُوصي بعضهم بعضاً: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾ تمسكوا بها إياكم أن يصدكم عنها نوح، ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣]، فنصُّوا على هذه المسميات؛ لأنها هي الكبيرة عندهم، وإلا فهم يتمسكون بآلهتهم عموماً، أليس هؤلاء عندهم عقول وأفكار وأسماع وأبصار؟ بلى. فكيف يستبعد العبد أنه يقع في مثل ما وقع فيه هؤلاء.

وإذا فكرت في الناس الموجودين تجد أن بعضهم يعبد بعضاً، وبعضهم يعبد فرجه، وبعضهم يعبد بطنه، وبعضهم يعبد وظيفته، وبعضهم يعبد زوجته، وغير ذلك من محبوباتهم، فهم لا يخلون من معبودات ظاهرة؛ لأن من سُنَّة الله جل وعلا أن من لا يعبد الله يجعله يعبد المظاهر الأخرى، يعبد أمثاله من

---

(١) الآيات المذكورة في سورة الأنبياء من [٥٩ ـ ٦٦].

العباد، ومن لا يعبد الله عبد غيره، فالإنسان لا ينفك عن عبادة شاء أم أبى، فيجب على العبد أن يحرص أن يكون عبداً لله جل وعلا، وأن يقدم محبوبات الله على محبوبات نفسه، وأن يكون عبداً مخلصاً لربه جل وعلا.

فالمقصود أن قول هذا القائل أن إبراهيم ﷺ لم يخف من الوقوع في عبادة الأصنام، لأن الله أعطاه المعرفة، وأعطاه رشده من صغره، وإنما خاف أن تصده الدنيا وملذتها وأن تلهيه عن العبادة فقط، فجعل هذه كأنها أصنام هذا قول بعض المفسرين، وقد ذكره الراغب الأصفهاني في تفسيره على هذه الآية وارتضاه وقال: هذا هو الذي ينبغي، وهذا ليس مرضياً بل هذا خلاف ظاهر الآية، وخلاف ما قاله العلماء، فإبراهيم ﷺ كما سبق خاف من الوقوع في عبادة الأصنام التي وقع فيها أكثر الناس؛ لأن الأمر بيد الله جل وعلا إذا شاء أن يقلب القلب قلبه وجعله منتكساً وجعل الحق عنده باطلاً والباطل حقاً، فلا بد أن يتعلق العبد بربه وأن يدعوه ليلاً ونهاراً لعله يُسلمه مما وقع فيه الكثيرون، فإذا كان إبراهيم ﷺ أبو الأنبياء، وخليل الرحمٰن يخاف أن يقع في الشرك فكيف بالذي لا يمكن أن يصل ولا إلى عشر معشاره من الهدى والمعرفة بالله جل وعلا، فيجب أن يخاف العبد من الوقوع في الشرك، وهذا هو وجه الاستدلال بالآية.

❁ قال المؤلف ﷺ وفي الحديث: «أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر»، فسئل عنه؟ فقال: «الرياء».

المؤلف ﷺ لم يذكر من روى الحديث؛ لأنه ﷺ كتب هذا الكتاب وهو بعيد عن مكتبته، وقد يكتب الشيء ليراجعه ثم ينساه، وهذا كثير يوجد في كتب العلماء.

وهذا الحديث رواه الإمام أحمد وغيره، والراوي هو محمود بن لبيد اختلف في صحبته، ورجح البخاري أنه صحابي، وكذلك ابن عبد البر والحافظ ابن حجر[1]، قاله الشارح ﷺ. وقال ابن عبد البر وغيره: إن أكثر

---

(١) فتح الباري لابن حجر ٩/٣٦٢ محمود بن لبيد ولد في عهد النبي ﷺ ولم يثبت له منه =

أحاديثه التي جاءت مرسلة؛ يعني: أنها بواسطة الصحابي، ومن كان بينه وبين النبي ﷺ صحابي فإن هذا لا يضر؛ لأن الصحابة كلهم عدول[١]. والحديث متصل السند، وهو حديث حسن سنده لا مطعن فيه، ولفظ الحديث عن محمود بن لبيد أن النبي ﷺ قال: **«إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر؟ قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: الرياء، يقول الله ﷻ يوم القيامة إذا جزي الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء»**[٢].

قوله: «أخوف ما أخاف عليكم»: هذا الخطاب موجه للصحابة مع كمال إيمانهم، وتلقيهم العلم عن الرسول ﷺ، ومعلوم أن هذه ميزة لم تكن لأحد من الناس، ولهذا الإيمان عندهم أمثال الجبال رسوخاً ويقيناً.

وكذلك هم ـ رضوان الله عليهم ـ أفضل الأمة قال ﷺ: **«خير أمتي القرن الذين بعثت فيهم ثم الذين يلونهم»**[٣]، ومع هذا يقول لهم الرسول ﷺ: **«أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر»**، فإذا كان الشرك الأصغر مخوفاً على الصحابة فكيف بمن دونهم بدرجات كثيرة، فإنه يُخاف عليهم أكثر.

وقوله: «الشرك الأصغر»: هذا واضح في أن الذي خافه عليهم هو الشرك الأصغر، وليس الشرك الأكبر؛ لأن الشرك الأكبر قد يكون عند من يعرفه من المؤمنين ممتنع الوقوع؛ يعني: الدافع إليه معدوم أو ضعيف جداً في

= سماع وإن ذكره بعضهم في الصحابة فلأجل الرؤية. الاستيعاب ١/ ٤٣٠: وذكر ابن أبي حاتم أن البخاري قال: له صحبة. قال: وقال: إني لا أعرف له صحبة. قال أبو عمر: قول البخاري أولى، وقد ذكرنا من الأحاديث ما يشهد له، وهو أولى بأن يذكر في الصحابة من محمود بن الربيع فإنه أسن منه.

(١) قال الحافظ ابن حجر في تقريب ٢/ ١٦٤: محمود بن لبيد بن عقبة بن رافع الأوسي الأشهلي أبو نعيم المدني صحابي صغير وجل روايته عن الصحابة، مات سنة ست وتسعين، وقيل: سنة سبع، وله تسع وتسعون سنة.

(٢) رواه أحمد في المسند رقم ٢٣٦٣٠، والطبراني في الكبير رقم ٤٣٠١.

(٣) رواه مسلم رقم ٢٥٣٤ من حديث أبي هريرة ﷺ، وهو عند البخاري رقم ٣٦٥٠ من حديث عمران بن حصين.

قلوب المؤمنين الكاملين، لا وجود له بل يود أحدهم أن يلقى في النار ولا أن يشرك بالله جل وعلا.

قوله: «فسئل عنه؟ فقال: الرياء»؛ يعني: الذي خافه عليهم الشرك الأصغر، وهو الرياء الذي هو المصانعة التي يقصد بها حظ النفس فإنه يعمل العمل فيزينه ويحسّنه من أجل رؤية الناس كما جاء في الحديث الآخر: **«أن يقوم الرجل يصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل»**[1]؛ لأن هذا له دوافع ودواعي تدعوا إليه، فإن النفوس مجبولة على حب المدح والثناء والتقدم في الناس وأن يشار إليها، فهذا طبعي في الإنسان؛ يعني: حب الثناء عليه والمدح ولو بالباطل، وكل ما يرفع مقامه عند الناس وهذا من الفتن، وهذه تسمى الشهوة الخفية، ولهذا خافه رسول الله ﷺ؛ لأنه متأصل عند العبد، وإذا كان كذلك فالذى يسلم منه قليل فالداعي إليه قوي، ولهذا خيف على المؤمنين بخلاف الشرك الأكبر فإنه الداعي إليه معدوم، أو أنه ضعيف جداً؛ لأن المؤمن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار[2]، ولهذا جاء عن الرسول ﷺ معالجة لهذا الداء، حيث نهى ﷺ عن المدح في الوجه فقال: **«إذا رأيتم المدَّاحين فاحثوا في وجوههم التراب»**[3]؛

---

(١) رواه ابن ماجه رقم ٤٢٠٢ عن أبي سعيد قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتذكر المسيح الدجال فقال: **«ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟»** قال: قلنا: بلى، فقال: **«الشرك الخفي أن يقوم الرجل يصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل»**، وهو في المسند بلفظ: **«أن يقوم الرجل يعمل لمكان رجل»**.

(٢) كما جاء في الحديث عند البخاري رقم ١٦ عن أنس عن النبي ﷺ قال: **«ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار»** ورواه مسلم رقم ٤٣.

(٣) رواه مسلم رقم ٣٠٠٢ عن همام بن الحارث: أن رجلاً جعل يمدح عثمان فعمد المقداد فجثا على ركبتيه وكان رجلاً ضخماً فجعل يحثو في وجهه الحصباء، فقال له عثمان: ما شأنك؟ فقال: إن رسول الله ﷺ قال: **«إذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب»** ورواه أحمد في المسند رقم ٢٣٨٢٣، والترمذي رقم ٢٣٩٣، وابن ماجه رقم ٣٧٤٢.

لأن العبد يميل إلى ذلك وإن كان يعرف نفسه، ولكن النفس ضعيفة فقد يُغالط ويقول لعليّ كما قال فلا يجوز أن يؤتى بالأعمال التي تكون سبباً للانحراف عن الإخلاص، وعن الصدق مهما كانت؛ لأنها تقدح في دين المرء ثم يميل إليها لأنه يجد في ذلك راحة.

ولذلك حض الرسول ﷺ أن تكون الأعمال في البيوت؛ يعني: الصلاة ونحوها حتى تكون بعيدة عن الناس فلا يتطرق الشيطان إلى شيء من إفساد العمل، فبيَّن أن الصلاة في البيت أفضل منها في المسجد إذا كانت نفلاً. وكذلك الصدقة الخفية صدقة السر جاء أن صاحبها مع السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله؛ يعني: أنه يُخفيها غاية الإخفاء والسبب في هذا حتى لا يكون فيها شيء لغير الله جل وعلا؛ لأنه إذا أخفاها بهذه الصفة فلا يكون لأحد منها نصيب فتكون خالصة لله جل وعلا.

والرياء داء دوي، ولهذا لا تسلم أكثر الأعمال التي تظهر من الرياء إلا من حماه الله جل وعلا وسلمه، فلهذا يجب أن يُحذر، ويجب أن يعلم العبد أن الناس لا ينفعونه بشيء ولا يضرونه بشيء كما قال ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: **«واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام وجفت الصحف»**[1]، فالأمر كله بيد الله، التدبير له وهو رب كل شيء جل وعلا، فيجب أن يقطع العبد علاقته من الناس ويجعل تعلقه بالله جل وعلا وحده، وهمه إخلاص العمل لله جل وعلا غير أنه لا يدعو ذلك إلى أن يحتقر الناس ويزدريهم بل يرى للناس حقهم ويعمل على نفعهم، ولكن يجب أن يكون عمله خالصاً لله جل وعلا وليس لأحد فيه شيء، وهذا أمر مهم جداً، فالأعمال غالبة تكون مشاهدة وبعضه يكون متعدى النفع مثل الصدقة فهذا الإخلاص فيه قد يكون فيه صعوبة على كثير من النفوس لهذا لا بد من المعالجة والأعمال بالنيات، والنية هي التي يُبنى عليها

---

(١) رواه الترمذي رقم ٢٥١٦ وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأحمد في المسند رقم ٢٦٦٩.

ذلك فإذا كانت خالصة لله جل وعلا قُبل العمل ويجب أن تستمر معالجة النية؛ لأنها تتغير وتتقلب تقلبات كثيرة فلا بد من المجاهدة في هذا.

وفي الحديث أن الرياء شرك وأنه من الشرك الأصغر، فهذا يدلنا على أن الشرك فيه أكبر وفيه أصغر.

وأما كون الرياء من الشرك الأصغر فهذا ليس على إطلاقه، ففيه تفصيل: إذا كان العمل الباعث عليه هو الرياء فهذا ليس من الأصغر بل هذا من الأكبر فقد ذكره الله جل وعلا عن الكفار في قوله جل وعلا: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنفال: ٤٧]، وذكر ذلك عن المنافقين الذين هم في الدرك الأسفل من النار بقوله جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء: ١٤٢].

أما الرياء الذي يكون شركاً أصغراً، هو ما كان رياء يسيراً فلا بد أن يُقيد الرياء بأنه الرياء اليسير كأن يكون الإنسان في عبادة فيحسّنها ويزينها ويطيلها من أجل نظر الغير، فالمقصود أن الرياء إذا كان يسيراً فهو شرك أصغر، والشرك الأصغر يُحبط العمل كما في آخر الحديث، حيث يقول الله لهؤلاء الذين يراؤون: «**اذهبوا الى الذين كنتم تراؤون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء**»، فهذا ظاهر أن العمل حابط، وأنه ليس له جزاء عند الله. والشرك الأصغر كما عرفنا أن صاحبه غير مغفور له على أحد قولي العلماء، وأنه لا بد أن يُعاقب، ولهذا خافه الرسول ﷺ على الصحابة، وهذا لا يقتضي أن يكون العبد خارجاً من الدين الإسلامي ولا يكون خالداً في نار، ولكن عمله الذي صاحبه هذا الشيء حابط بلا شك، وهذا العمل قد يكون فريضة، فإذا كانت فريضة فالأمر أعظم.

وطروءُ الرياء على العمل أقسام:

فإذا كان رياءً محضاً، بحيث لا يُراد به سوى مُراءات المخلوقين لغرض دنيوي كحال المنافقين النفاق الاعتقادي في صلاتهم كما قال الله جل وعلا عنهم: ﴿وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾

[النساء: ١٤٢]، وكذلك وصف الله جل وعلا كفار قريش الذين خرجوا إلى بدر بأنهم يراؤون الناس فقال جل وعلا: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ [الأنفال: ٤٧]، وهذا ليس من الشرك الأصغر بل من الشرك الأكبر كما تقدم، وهذا لا يكاد يصدر من مؤمن في فرض الصلاة والصيام، وقد يصدر في الصدقة الواجبة أو الحج، وغيرها من الأعمال الظاهره أو التي يتعدى نفعها، فإن الإخلاص فيها عزيز، وهذا العمل لا يشك مسلم أنه حابط، وأن صاحبه يستحق المقت من الله والعقوبة، فقد خرج مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرَّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت ولكنك قاتلت؛ لأن يقال: جريء فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار. ورجل تعلم العلم وعلَّمه وقرأ القرآن، فأتي به فعرَّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلَّمت العلم وعلَّمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت ولكنك تعلَّمت العلم ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل وسَّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتي به فعرَّفه نعمه فعرفها قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت ولكنك فعلت ليقال: هو جواد فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه، ثم ألقي في النار**»[1].

وفي الحديث: قال أبو عثمان: وحدثني العلاء بن أبي حكيم أنه كان سيافاً لمعاوية فدخل عليه رجل فأخبره بهذا عن أبي هريرة، فقال معاوية قد فعل بهؤلاء هذا فكيف بمن بقي من الناس؟ ثم بكى معاوية بكاء شديداً حتى ظننا أنه هالك وقلنا: قد جاءنا هذا الرجل بشر، ثم أفاق معاوية ومسح عن وجهه وقال: صدق الله ورسوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ

---

(١) رواه مسلم رقم ١٩٠٥.

أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود: ١٥، ١٦][١].

وتارة يكون العمل لله، ويشاركه الرياء، فإن شاركه من أصله، فالنصوص الصحيحة تدل على بطلانه وحبوطه أيضاً، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «**قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**»[٢]، وخرَّج النسائي من حديث أبي أمامة الباهلي قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر ما له؟ فقال رسول الله ﷺ: «**لا شيء له، فأعادها ثلاث مرات يقول له رسول الله ﷺ: لا شيء له، ثم قال: إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً وابتغي به وجهه**»[٣].

وأما إن كان أصل العمل لله، ثم طرأ عليه نية الرياء، فإن كان خاطراً ودفعه وأعرض عنه فهذا لا يضره إن شاء الله، وهذا بغير خلاف.

وأما إن استرسل معه واستدعاه، فإن كان العمل مرتبط آخره بأوله؛ كالصلاة، والصيام، والحج فهذا يبطل، وأما إذا كان العمل لا ارتباط فيه؛ كالقراءة، والذكر، وإنفاق المال، ونشر العلم، فإنه ينقطع ويبطل بنية الرياء الطارئة عليه ويحتاج إلى تجديد نيته.

وأما إذا عمل العمل لله خالصاً، ثم ألقى الله له الثناء الحسن في قلوب المؤمنين بذلك ففرح بفضل الله ورحمته، واستبشر بذلك، لم يضره ذلك، ففي حديث أبي ذر ﷺ قال: قيل لرسول الله ﷺ: أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه؟ قال: «**تلك عاجل بشرى المؤمن**»[٤]، وفي رواية: «**الرجل يعمل العمل لله فيحبه الناس عليه**»[٥]، وبهذا المعنى فسَّره الإمام أحمد

---

(١) رواه الترمذي رقم ٢٣٨٣ وقال: هذا حديث حسن غريب.

(٢) رواه مسلم رقم ٢٩٨٥، وابن ماجه رقم ٤٢٠٢ ولفظه: «**فأنا منه بريء وهو للذي أشرك**».

(٣) رواه النسائي رقم ٣١٤٠. (٤) رواه مسلم رقم ٢٦٤٢.

(٥) أحمد في المسند رقم ٢١٤٠٠، وابن ماجه رقم ٤٢٢٥.

وإسحاق بن راهويه، وابن جرير الطبري وغيرهم، وصحح الحديث ابن حبان.

وأعمال العبد التي تكون ظاهرة مثل: الصدقة، وقراءة القرآن، وتحسين الصوت به في الصلاة، وما أشبه ذلك، فهذه الأعمال قد يثاب عليها العبد، وقد يكون معاقباً، فهي بحسب ما يقوم بقلبه من الإخلاص، فإذا كان يعمل العمل، وهو مخلصاً لله جل وعلا وإنما يُريد أن يقتدي الناس به، أو أن يسمعهم القرآن ويحسِّن صوته به ويزينه حتى يجلب الناس ليسمعوا القرآن ويتأمَّلوه، ويكون أدعى لحضور قلوبهم، فهذا لا يدخل في الرياء لقول أبي موسى الأشعري للنبيِّ ﷺ لما مرَّ به وهو يقرأ، وقف يستمع لقراءته، فلما أصبح قال له الرسول ﷺ: **«لو رأيتني وأنا أستمع لقراءتك البارحة لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود»**[1]، فقال: يا رسول الله لو علمت بك لحبَّرته لك تحبيراً[2]؛ يعني: حسنته وزينته. فهذا ليس من الرياء؛ لأنه لم يرد أنه يمدح عليه ويثني عليه في ذلك، وإنما أراد أن يفعل ذلك؛ لأن الرسول ﷺ يحب ذلك، فهو يفعل ذلك لمحبة الرسول ﷺ فقط، والرسول ﷺ كان يحب الصوت الجميل بالقرآن وقال: **«حسِّنوا القرآن بأصواتكم فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حسناً»**[3]، وقال: **«ليس منا من لم يتغن بالقرآن»**[4]، والصحيح من أقوال العلماء: أن التغن بالقرآن هو تحسين الصوت وتزيينه، وليس مثل ما قال بعضهم: الاستغناء بالقرآن، وبعضهم قال: يرفع صوته به، فرفع الصوت جاء النهي عنه في بعض الأماكن مثل: المسجد، عن أبي سعيد الخدري ﷺ

---

(١) رواه مسلم رقم ٧٩٣.

(٢) سنن البيهقي رقم ٢١٥٨٥، وصحيح ابن حبان رقم ٧١٩٧.

(٣) رواه الدارمي رقم ٣٥٠١، والبيهقي في شعب الإيمان من حديث البراء بن عازب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول. والحديث ذكره البخاري معلقاً في باب قول الرسول ﷺ: الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، ووصله في كتابه خلق أفعال العباد رقم ٢٥٢، وأحمد في المسند رقم ١٨٤٩٤، وأبو داود رقم ١٤٦٨، وابن ماجه رقم ١٣٤٢ ولفظه: **«زينوا القرآن بأصواتكم»**.

(٤) رواه البخاري رقم ٧٥٢٧ من حديث أبي هريرة ﷺ.

قال: اعتكف النبي ﷺ في المسجد فسمعهم يجهرون بالقراءة وهو في قبة له فكشف الستور وقال: **«ألا كلكم يناجي ربه فلا يؤذين بعضكم بعضاً، ولا يرفعن بعضكم على بعض في القراءة في الصلاة»**[(١)]؛ لأن المسجد فيه من يصلي، وفيه من يقرأ، وفيه من يذكر الله.

وإن كان يحسِّن صوته ويزينه ليثنى عليه ويمدح على ذلك فهذا من الرياء، فتحسين الصوت بالقرآن وتزيينه قد يكون رياء، وقد يكون مطلوباً يثاب العبد عليه، **ووجه الاستدلال من الحديث من وجوه:**

الوجه الأول: أن الرسول ﷺ خافه على الصحابة وهم أفضل القرون، وأكمل الناس إيماناً وعلماً، فغيرهم من باب أولى أن يخاف عليهم.

الوجه الثاني: أن النفوس مجبولة على حب الثناء والمدح، والرفعة في الناس وأن يشار إليه وأن هذا فيه حظ للنفس، وهي شهوة كامنة في النفوس فتحمل العبد على مصانعة الناس وتحسين العمل لهم وتزيينه، فيحبط عمله بذلك.

الوجه الثالث: تسميته للرياء شركاً أصغراً، والشرك الأصغر غير مغفور لصاحبه على أحد قولي العلماء، بل هو كما مر مؤاخذ عليه ومعاقب إذا كان كثيراً.

❁ **قال المؤلف** رحمه الله: **وعن ابن مسعود** رضي الله عنه **أن الرسول ﷺ قال: «من مات وهو يدعو من دون الله نِدّاً دخل النار»، رواه البخاري**[(٢)].

وفي البخاري في كتاب الجنائز أن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من مات يشرك بالله شيئاً دخل النار»**. وقلت أنا: من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة[(٣)]. ذكره البخاري في ثلاثة مواضع من

---

(١) رواه أحمد في المسند رقم ١٩٠٢٢، والنسائي في الكبرى رقم ٨٠٩٢، والحاكم في المستدرك رقم ١١٦٩.

(٢) رواه البخاري رقم ٤٤٩٧ في كتاب التفسير.

(٣) البخاري رقم ١٢٣٨، ورواه مسلم رقم ٩٢.

صحيحه في كتاب التفسير، وهو الموضع الذي أشار إليه المؤلف، وكتاب الإيمان والنذور ولفظه: «**من مات يجعل لله نداً أدخل النار**»[1] فقط.

والذي ذكر المؤلف بالمعنى إلا أن يكون في بعض النسخ، ورواية الحديث بالمعنى أمر متفق عليه.

وهذا قول ابن مسعود وهو مفهوم قول الرسول ﷺ، وقد جاء هذا صريحاً عن الرسول ﷺ، ولا فرق بين قوله: «**نداً**»، وقوله: «**وهو يشرك**»؛ لأن التنديد يكون صغيراً ويكون كبيراً؛ لأن دعوة الند تطلق على من حلف بغير الله، أو من أسند الفعل لغير الله، وتطلق على من عبد غير الله، وكلها تكون مثل قوله: «**وهو يشرك**».

قوله: «من مات»: قيد هذا بالموت والموت ليس بعيداً عن العبد، قريبٌ جداً، مما يدل على أن العبد يُختم له بعمله الأخير؛ يعني: أنه يُعامل بعمله الأخير، والأعمال السابقة إما أن تكون ملغاة؛ لأن الذي بعدها أبطلها، أو تكون خلاف ذلك.

والعبد إذا انتهت حياته ليس له حياة أخرى، يمكن أن يستدرك بها ما فات، ليس له إلا هذه الحياة، فإذا مات على الشرك فقد خسر نفسه الخسارة التي لا يرجى معها ربح أبداً.

«**وهو يدعو من دون الله نداً دخل النار**»: الند: هو الشبيه، والنظير، والمثل، ولو في صفة من الصفات لا يلزم أن يكون مماثلاً من كل وجه، ولهذا لما قال رجل للنبيّ ﷺ: «**ما شاء الله وشئت! قال: أجعلتني لله ندّاً؟! ما شاء الله وحده**»[2]؛ لأنه جمع بين مشيئته ومشيئة الله جل وعلا، وإذا جُعل للمخلوق شيء مما هو حق الله جل وعلا فقد جعل ذلك المخلوق نداً لله، وهذا يدخل فيه توحيد العبادة، وتوحيد الصفات، وتوحيد الربوبية، كلها وقع فيها التنديد.

ويدخل فيه الشرك الأكبر، كأن يتجه بالدعاء إلى غير الله جل وعلا كمن يسأل الشفاعة من الميت عند القبر فإن هذا شرك صريح، وهو من الشرك

(١) البخاري رقم ٦٦٨٣.

(٢) سبق تخريجه.

الأكبر، وهو من شرك المشركين، فإن أصله طلب الشفاعة فأول ما وقع الشرك في هذا وهو أمر ظاهر؛ لأنهم ما كانوا يعتقدون أن اللات والعزى ومناة وغيرها من أصنامهم أنها تخلق شيئاً من السماوات، أو شيئاً من الأرض، أو أنها تنزل المطر، أو أنها تنبت، أو أنها تحيي أو تميت، وإنما كما ذكر الله عنهم: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣]؛ يعني: تشفع لهم فهذا هو أصل الشرك، وقد قال الله جل وعلا: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزمر: ٤٣، ٤٤] ليس لأحد شفاعة ولا يملكها إلا الله وحده.

ويدخل فيه الشرك الأصغر الذي منه شرك الألفاظ كأن يقول: مثلاً: لولا الله وأنت، أو أنا بالله وبك، أو يحلف بغير الله، أو ما أشبه ذلك، أو يضيف الأشياء إلى أسبابها: لولا أن السيارة جديدة ما وصلنا بهذه السرعة، أو ما أشبه ذلك، وقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢] قال: الأنداد هو الشرك أخفى من دبيب النمل على صَفَاة سوداء في ظلمة الليل، وهو أن يقول: والله وحياتك يا فلان، وحياتي، ويقول: لولا كلبة هذا لأتانا اللصوص، ولولا البطّ في الدار لأتى اللصوص، وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئتَ، وقول الرجل: لولا الله وفلان. لا تجعل فيها «فلاناً». هذا كله به شرك[1].

فقوله جل وعلا: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، وقوله جل وعلا: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: ٨]، فالأنداد التي تُجعل لله جل وعلا يدخل فيها التنديد باللفظ ويدخل فيها التنديد بالعمل، ويدخل فيها التنديد بالاعتقاد، ويدخل فيها التنديد بالدعوة، والعبادة، وكذلك بالتدبير، والملك وكذلك بالاشتراك بالاسم والصفة، فكل هذا يجب أن يكون العبد مبتعداً عنه، ولا يمكن أن يكون

(١) تفسير ابن كثير ١/١٩٦.

مبتعداً عنه إلا إذا علمه وعرف أسبابه، وهذا من أهم الأشياء كون الإنسان يبحث عن هذه الأشياء ويعرفها حتى لا يقع فيها، وقد جاء عن حذيفة ﷺ أنه كان يقول: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني[1]. وكذلك الذي لا يعرف الشر فإنه يقع فيه وهو لا يدري، وقد قال عمر ﷺ: «**إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية**»[2]؛ يعني: إذا كانوا لا يعرفون الشرك والشرور، فإنهم قد يخرجون من الإسلام وهم لا يشعرون.

۞ قال المؤلف ﷺ: ولمسلم عن جابر ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة، ومن لقي الله يشرك به شيئاً دخل النار»[3].

قوله: «من لقي»: فسر اللقاء بأنه يتضمن المعاينة ولا بد أن يكون قبله عمل كما قال جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦﴾ [الانشقاق: ٦]، ولقاء الله لا بد منه، وهو قريب جداً؛ لأنه ما بينه وبين الإنسان إلا أن يموت، والموت بين يدي العبد دائماً، قال جل وعلا: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨﴾ [الجمعة: ٨] ملاقيك في أي طريق سلكته.

والمرءُ قد يموت وهو لم يستعد، بل قد يموت ولم يتقدم للموت رسول؛ لأن الموت له رسل في الغالب مثل: المرض، وما أشبه ذلك، وقد جاء موت الفجأه بكثرة، عن عائشة قالت: سألت رسول الله ﷺ عن موت الفجأة فقال: «**راحة للمؤمن وأخذة أسف لفاجر**»[4]؛ يعني: يؤخذ على غرة ـ نسأل الله العافية ـ فلا يتمكن من توبة ولا استعتاب، فإذا كان العبد لا يدري متى الموت، فيجب أن يكون مستعداً دائماً.

---

(١) رواه البخاري رقم ٣٦٠٦، ومسلم رقم ١٨٤٧.
(٢) منهاج السنة النبوية ٤/ ٥٩٠.
(٣) رواه مسلم رقم ٩٣.
(٤) رواه أحمد في المسند رقم ٢٥٠٤٢.

فاللقاء يتضمن المعاينة، ولهذا جعله الله جل وعلا دليلاً على رؤيته: **«من لقي الله»**، وفي حديث عدي رضي الله عنه الذي في الصحيحين أن النبي ﷺ قال: **«ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان ولا حجاب يحجبه»**[1]، وهذا خاص بالمؤمنين؛ لأن الخطاب موجه إليهم، وأما الكفار فقد أخبر الله أنه لا يكلمهم ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم، والكلام الذي نفي عنهم يكون كلام مسألة أو محاسبة؛ لأنهم لا يقام لهم وزناً بل يأمر بهم إلى النار ـ نسأل الله العافية ـ فالذي ليس عنده إيمان فإنه يُذهب به إلى النار بلا محاسبة ولا موازنة، وقد يكون هناك توبيخ لقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ۝﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، فهذا الكلام يكون عذاباً ـ نسأل الله العافية ـ وهذا خلاف الذي ذكره في الموقف: «**ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه**»، وفي الحديث الآخر الذي في الصحيحين حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه سئل: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله يدني المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره، فيقول: أتعرف ذنب كذا أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم أي رب حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه هلك قال: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، فيعطى كتاب حسناته. وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد: ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨]**»[2].

ولهذا إذا بُلي الإنسان بمعصية يجب أن يستر نفسه ولا يُظهرها لأحد يقول: أنا فعلت كذا وكذا؛ لأنه في هذا الحديث يقول الله جل وعلا: «**أنا سترتها عليك في الدنيا، وأغفرها لك اليوم**».

فالمقصود أن اللقاء قريب؛ أي: ملاقاة العبد لربه قريبة، ولهذا فسر كثير من شراح الحديث اللقاء بالموت، إذا مات فقد لقي ربه؛ يعني: لقي عمله؛ لأنه منذ أن يموت إما أن يبشر بالسعادة والخير والنعيم، أو تكون الملائكة تعذبه قبل خروج روحه كما ذكر الله جل وعلا في القرآن: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت: ٣٠]، أو أنها تضرب دبره ووجهه وتقول أخرج نفسك: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣]؛ يعني: أخرج روحك، فالعبد يجب أن ينظر من أي القسمين هو، والأمر مثل ما قال ابن مسعود لما قيل له: كيف نعرف وضعنا عند ربنا جل وعلا؟ قال: اعرض عملك على القرآن فإن كنت ممن أثنى الله عليهم فأبشر، وإلا فأنت من القسم الثاني ـ فنسأل الله العافيه ـ.

فقوله: «من لقي الله»؛ يعني: مات.

وقوله: «لا يشرك به شيئاً»؛ يعني: من مات وليس عنده من الشرك شيء. وقوله: **«شيئاً»** يدخل فيها الشرك الأكبر والأصغر والقليل والكثير والجلي والخفي.

وقوله: «دخل الجنة»: وهذا يدلنا على أن العمل بالخواتيم؛ يعني: أنه لو سبق أنه كان مشركاً، ثم تاب فمات غير مشرك فإنه يُحكم له بأنه من أهل الجنة، وكذلك بالعكس.

قوله: «ومن لقيه يشرك به شيئاً»؛ يعني: وإن كان قبل ذلك غير مشرك ولكنه مات على الشرك فإنه من أهل النار، فيكون دليلاً على أن الإنسان يُختم له بآخر عمله ويؤاخذ به العبد، ولهذا اهتم العلماء كثيراً بآخر العمر وخاتمة العمر، وصاروا يسألون الله ويخافون من سوء الخاتمة ـ نسأل الله السلامة ـ.

فقوله: «دخل الجنة»؛ يعني: من سلم من الشرك الظاهر والباطن في القول وفي الاعتقاد والعمل فإنه يكون من أهل الجنة إذا مات عليه، وهذا أمر مقطوع به للمؤمن عند أهل السُّنَّة، لكن إن لم يكن صاحب كبيرة مصرّاً عليها دخل الجنة أولاً بلا عذاب، وإن كان صاحب كبيرة مصرّاً عليها فهو تحت المشيئة إن شاء الله عفا عنه بدون عذاب وأدخله الجنة، وإن شاء عذبه في النار، ثم أخرجه وأدخله الجنة، هذه هي عقيدة أهل السُّنَّة. واقتصر على نفي

الشرك هنا؛ لأن انتفاء الشرك يستدعي ما هو ضده، وضده التوحيد والإخلاص، وكذلك يستدعي أن يكون عاملاً بما جاء به الرسول ﷺ؛ لأن العبادة لا بد أن تكون أُخذت من رسول الله ﷺ وهذا كقولك مثلاً: من توضأ صحَّت صلاته؛ يعني: مع الشروط والأركان الأخرى التي لا بد من فعلها، فلا بد من الالتزام بما جاء به الرسول ﷺ ليس مجرد اجتناب الشرك فقط، بل لا بد من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والصوم والحج وغير ذلك، فلا يستدل بهذا من يقول من ترك الشرك ومات عليه يكون من أهل الجنة، ولو لم يصلِّ، فإن هذا ليس مقصوداً، فمقصوده أنه يكون ملتزماً بما جاء به الرسول ﷺ مجتنباً للشرك.

وقوله: **«ومن لقيه يشرك به شيئاً»**: هذا يدخل فيه الشرك كله كبيره وصغيره، دقيقه وجليله، فقوله: «شيئاً» نكرة فهي تعم أنواع الشرك سواء كان باللفظ، أو الفعل، أو الاعتقاد، أو غير ذلك من النيات والمقاصد، وسيأتي أن هذا من الشرك الأكبر، شرك المقاصد والنيات والإرادات؛ لأن هذا مبني العمل عليه فهذا كله من الأمور العظيمة التي يخاف أن يقع فيها الإنسان، أو في شيء منها فيكون متواعداً بالنار؛ لأنه قال: **«دخل النار»**، وبهذا استدل من قال: إن الشرك لا يغفر سواء كان كبيراً، أو صغيراً، وإنما الذي يكون تحت المشيئة الكبائر عدا الشرك، والعبد لا يخلو من الذنوب أبداً لا يمكن لا يُتصور العبد بلا ذنوب أبداً، ولكن الذنوب لا تخلوا إما أن تكون كبائر، أو صغائر، فإن كان العبد مات مؤمناً وله ذنوب صغائر فالصغائر تُغفر باجتناب الكبائر كما قال سبحانه: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [النساء: ٣١].

وإن كانت كبائر غير الشرك فهي تحت المشيئة، إن شاء الله غفر له بلا مؤخذة ولا عذاب، وإن شاء عُذب عليها، ثم يصير المؤمن مرتكب الكبيرة إلى الجنة.

أما الشرك فإن كان من الشرك الكبير فإن الجنة محرمة على صاحبه، فيكون خالداً في النار أبداً، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ

عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]، وأما إن كان صغيراً فإنه يُعذب عليه ويطهر في النار، ثم يخرج إلى الجنة.

وطائفة من العلماء يقولون: إن الشرك الصغير داخل في حكم الكبائر فما دامت الكبائر تحت المشيئة فهو كذلك؛ لأن الذي وقع في الشرك الصغير لم يخرج من الإسلام بل هو مسلم فهو مثل الزنا والسرقة وما أشبه ذلك، وهذا من باب القياس فقط؛ لأن الذين قالوا بالقول الأول استدلوا بأدلة، أما هؤلاء فقد قاسوا بأقيسة وليس معهم أدلة؛ يعني: نصوص، فالله جل وعلا يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] هذا عام في الشرك كله وكذلك هذا الحديث، وعلى كل حال، فإذا كانت المسألة فيها خلاف بين العلماء فالواجب على الإنسان أن يأخذ بالحيطة، غير أن الذين قالوا أنه يُغفر يقسمون الشرك إلى أقسام؛ يعني: الشرك الأصغر يقولون:

إذا كان الشرك مثلاً شرك ألفاظ مثل الحلف بغير الله، وقول: لولا الله وفلان وأنت، وما أشبه ذلك، فهذا الذي فيه الكلام.

أما إذا كان من الشرك الذي يكون محبطاً للعمل إذا قارنه مثل: الرياء فقد جاء النص فيه، فلا ينبغي أن يكون فيه خلاف، فإن الذين يراءون الناس يقول الله لهم يوم القيامة: «**اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء**»[1]، ومعنى هذا أنه لا يغفر، غير أن الشرك في عمل دون آخر.

ووجه الاستدلال من الحديث قوله: «**ومن لقي الله يشرك به شيئاً**»، فشيئاً نكرة تعم جميع أنواع الشرك، وكذلك من كون العبد يُختم له بآخر عمله ويأخذ به، وكذلك الجنة فإنه اشترط لدخولها نفي الشرك مطلقاً أن لا يكون مشركاً لا بالألفاظ، ولا بالفعل، ولا بالاعتقاد، ولا بغير ذلك من شرك النيات والمقاصد. فهو نص جلي ومخوف جداً، فيجب على العبد أن يخاف

---

(١) سبق تخريجه.

ذلك، وأن يحقق توحيده، وأن يعرف حق ربه، ويخاف يوم يلقاه؛ لأن لقاء الله جل وعلا يتضمن المعاينة.

۞ قال المؤلف رحمه الله: فيه مسائل:

۞ الأولى: أنه من الشرك الأصغر.

يعني: يسيره، وأما كثيره فليس من الشرك الأصغر.

۞ الثانية: أنه أخوف ما يخاف منه على الصالحين.

لأن الخطاب وجِّه إلى الصحابة وهم أفضل الصالحين، فإذا كان رسول الله ﷺ يخاف عليهم فكيف بغيرهم؟ هذا **أولاً**.

وثانياً: أن الداعي له قوي؛ يعني: داعي الرياء قوي وهو حب المدح والثناء، بخلاف الشرك الأكبر؛ لأنه إما أن يكون الداعي إليه معدوماً عند المؤمنين، أو يكون ضعيفاً جداً؛ لأن المؤمن لو أنه يُحرق بالنار ولا يشرك بالله شيئاً لاختار ذلك.

۞ الثالثة: قرب الجنة والنار.

أخذها من قوله: «**من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئاً دخل النار**» أخذها من هذا.

۞ الرابعة: الجمع بين قربها في حديث واحد.

يعني: العمل واحد ولكن النية والقصد والإرادة اختلفت.

۞ الخامسة: أنه من لقيه لا يشرك به شيئاً دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئاً دخل النار ولو كان من أعبد الناس.

يعني: من أكثرهم عبادة، والعبادة لا تكون عبادة شرعية إلا إذا كانت إخلاصاً، ولكن مقصودة في الصورة والظاهر، أما الباطن لا بد أن تكون خالصة لله جل وعلا، وموافقة لسُنَّة الرسول ﷺ، وإلا لا تكون عبادة شرعاً، وإن كانت عبادة في اللغة.

۞ السادسة: المسألة العظيمة: سؤال الخليل له ولبنيه وقاية عبادة الأصنام.

وصارت عظيمة؛ لأنها جاءت من إبراهيم الخليل ﷺ، فقال: «**رب اجنبني وبني أن نعبد الأصنام**»، فهو اعتبر بما يقع من أكثر الناس قال: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [براهيم: ٣٦] فخاف أن يكون مع الكثرة، فسأل ربه، وهذا يعطينا شيئين:

أولاً: أن الإنسان لا يملك قلبه، بل القلوب بيد الله جل وعلا، فيجوز أن يقع في الباطل وهو يعرف أنه باطل إذا أزاغ الله قلبه، فقد يزين له الباطل ويحسن ويكره له الحق وإن كان يعرف أنه حق فيقع في خلافه.

ثانياً: أن اعتبار أكثر الناس ونظرهم إلى أن يكون مع الجمهور وهذا أمر ذكره الله جل وعلا عن سائر الأمم، كل أمة إذا جاءها رسولاً قالوا: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف: ٢٣]، إن قومنا على دين ما نتركه لقولك أنت، وقوم نوح قالوا: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ [هود: ٢٧] الضعفاء والذين كل يوم يبدون لهم رأياً، أما الكبار وأصحاب العقول، الذين يملؤون النظر إذا نُظر إليهم في أجسامهم وأقوالهم، فهؤلاء ليسوا بادي رأي، فهم لا يتبعون الرسل، ولهذا لما سأل هرقل أبا سفيان عن حالة الرسول ﷺ قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ - فتصور أبو سفيان في ذلك الوقت أن هذا فيه غضاضة على الرسول ﷺ - فقال: يتبعه الضعفاء. فقال له في الجواب: هكذا هم أتباع الرسل[(١)] ما يتبعه إلا الضعفاء أما الكبار فلا يتبعونهم، الذي يمنعهم إما الملك والسيطرة، أو الأموال، أو الأتباع.

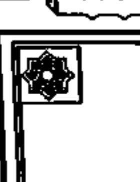
---

(١) رواه البخاري رقم ٧، ومسلم رقم ١٧٧٣.

❁ السابعة: فيه تفسير ـ لا إله إلا الله ـ كما ذكره البخاري.

أنه ترك الشرك ومجانبته، وليس مجرد عبادة فقط، العبادة تقع من المشرك ولهذا كانت قريش تعبد الله ولكن تعبد معه الأصنام، هكذا كل مشرك فهو يعبد الله ولكنه أشرك في عبادته، فتفسير «لا إله إلا الله» اجتناب الشرك مع العبادة.







الباب الخامس

❁ **قال المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ: **باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله.**

يعني: ما حكم ذلك هل هو فريضة، أو أنه مستحب؟ فهو لما ذكر وجوب التوحيد وأنه فرض على كل مكلف وأنه الأمر الذي خلقت من أجله الخليقة، وأنه لا يجوز أن يكون العبد جاهلاً به أو مقصراً فيه، فهو أمر ملزم لا بد منه، ثم ذكر مع فرضيته أنه يُكفر الذنوب كلها، ثم ذكر الخوف من الشرك والوقوع فيه الخوف من أن ينزع منه هذا التوحيد، أو ينقص يذهب كماله فيتعرض العبد للعذاب؛ لأن العبد إذا تحصل على هذه النعمة الكبرى يجب أن يُحافظ عليها بكل إمكاناته، ناسب أن يذكر وجوب الدعوة إلى التوحيد، الدعوة إلى شهادة أن لا إلـٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله، فهذه هي الدعوة إلى التوحيد، فإذا تحلى العبد بالتوحيد أنه لا يقتصر على نفسه بل يدعو إلى الله جل وعلا عباد الله؛ لأن هذا مما أوجبه الله جل وعلا على من عرف ذلك.

قوله: «باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله»: والمعنى: الدعاء إلى عبادة الله، وإلى توحيد الله؛ لأن شهادة أن لا إلـٰه إلا الله في ضمنها شهادة أن محمداً رسول الله، وهذا في ضمنه الدين كله الذي جاء به رسول الله ﷺ، فمن شهد لله بالوحدانية وبعبوديته لزمه أن يقبل كل أمْر أمَر الله به، وأن ينتهي عن كل نهي نهى عنه، وكذلك يلزمه اتباع الرسول ﷺ بما جاء به وهو شهادة أن محمداً رسول الله، ويشهد بأنه رسول أرسله الله جل وعلا بالتوحيد والأمر الذي كلف به بعباده، وأنه لا يعبد الله جل وعلا إلا بالشرع الذي جاء به، فشهادة أن لا إلـٰه إلا الله هي التوحيد؛ لأن الإلـٰه هو المألوه الذي تأله القلوب ذلاً وإنابة وخوفاً ورجاءً، ولا يجوز أن يكون مألوهاً للقلب إلا الله جل وعلا.

والعبد لا بد أن يشهد هذه الشهادة، وقد اتفق العلماء على أن الإنسان

لا يكون مسلماً إلا إذا نطق بالشهادتين يقول: أشهد أن لا إلـٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله، ثم إنه لا يكفي التلفظ بها، بل لا بد أن يعرف معناها، ثم يعمل بالمعنى الذي عرف، أما مجرد النطق فهذا لا يكفي؛ لأن اليهود وغيرهم كانوا ينطقون بها، وهم كفار كما سيأتي في حديث علي ﷺ.

وذكر العلماء حكم الدعوة أنها قد تكون فرض عين، وقد تكون فرض كفاية فهي تختلف باختلاف الحال.

❁ **قال المؤلف** رحمه الله: **وقول الله تعالى:** ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨].

قوله: «﴿قُلْ﴾»: الأمر في هذه الآية موجه إلى النبي ﷺ، فقال لنا مثل ما قيل له تماماً لم يغير الصيغة، ونظائر هذا في القرآن كثير مثل: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، وقوله جل وعلا: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [آل عمران: ٦٤]، وقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وبهذا استدل العلماء على أن الرسول ﷺ بلغ كل ما سمعه من جبريل عليه السلام، وأنه كلام الله جل وعلا، وأنه لم يترك حرفاً واحداً منه حتى الأمر الذي وجه إليه، وقد سئل عن ذلك فقال: «**قيل لي، فقلت**»[1]، ولهذا اتفق العلماء على أن من جحد حرفاً من القرآن أنه يكون كافراً؛ لأن هذا ثابت قطعاً والصحابة أخذوه عن الرسول ﷺ، ثم أُخذ جيلاً عن جيل إلى الآن، وهذا من حفظ الله جل وعلا لكتابه، فإنه هو الذي تولى حفظه بخلاف الكتب الأخرى، فإنها لا تروى هكذا، فلو حاول إنسان أن يغير في كلام الله شيئاً فكلٌّ يرد عليه حتى الصبيان الذين في الكتاتيب فهم يعرفون أنه باطل، وهذا من خصائص هذه الأمة رحمة من الله بها، بخلاف الكتب السابقة فإنها غُيرت، وبدلت، وزيد فيها، ونقص، وهذا الكتاب تسلط أهل الضلال على تحريف معانيه فقط؛ لأنهم لم يستطيعوا أن

---

(١) رواه البخاري رقم ٤٩٧٧ ولفظه: عن زر بن حبيش قال: سألت أبي بن كعب عن المعوذتين فقال: سألت رسول الله ﷺ فقال: «**قيل لي، فقلت**». فنحن نقول كما قال رسول الله ﷺ.

يحرِّفوا شيئاً من ألفاظه حتى قال أحد كبار الضلال: وددت أني أحك من المصحف قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤][1]، وأشار الآخر على الخليفة المأمون أن يكتب على ستر الكعبة: ليس كمثله شيء وهو العزيز الحكيم، حرَّف كلام الله بنفي وصفه ـ تعالى ـ بأنه السميع البصير[2]. فكتب وكان متأثراً به، فلما كتب صار أضحوكة للناس وصار ساقطاً من أعين الناس، وقالوا هذا يتلاعب به أهل الباطل حتى تجرأ على تحريف كلام الله جل وعلا.

وقوله: «﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾»؛ يعني: أخبر الناس عموماً بأن حياتي ووجودي وعملي كله في الدعوة ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ التي أحيا عليها، وأعيش عليها هي الدعوة إلى الله جل وعلا، وكذلك أموت عليها كما قال جل وعلا: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

فكلامه ﷺ وعمله وفعله في حياته، وكذلك ما يموت عليه هو الدعوة إلى الله جل وعلا.

قوله: «﴿أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ﴾»: فسبيل الرسول ﷺ الدعوة إلى الله جل وعلا، والدعوة إلى الله هي الدعوة إلى شهادة أن لا إلٰه إلا الله، وأن يوحد الله ويعبد وحده ولا يشرك به شيئاً كما جاء موضحاً في أحاديثه كما في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله**»[3].

ومن المعلوم أن بني آدم ركبت فيهم العقول، وأنهم يعرفون ربهم، وما منهم أحد ينكر وجود الله أصلاً إلا من كابر وفسدت فطرته، فكانوا يدعون الله، ولكن يدعون معه غيره، فجاءت الرسل لإصلاح هذه الدعوة ولإخلاص العبادة لله وحده من أولهم إلى آخرهم، وقد خُتموا بمحمد ﷺ الذي قام بهذه الدعوة خير قيام وأوذي في ذلك وتحمل أعباء الدعوة وما يترتب عليها، وكذلك أتباعه لا بد أن يكون لهم نصيب من ذلك.

---

(١) شرح الطحاوية في العقيدة السلفية ١/٢٣٦ والقائل هو: جهم بن صفوان.
(٢) شرح الطحاوية في العقيدة السلفية ١/٢٣٦ وهو: أحمد بن أبي دؤاد القاضي.
(٣) رواه البخاري رقم ٢٩٤٦، ومسلم رقم ٢٠.

وقوله: «﴿إِلَى اللَّهِ﴾»: فيه الإشارة إلى الإخلاص، وأن الدعوة يجب أن تكون خالصة من الشوائب التي قد يكون للنفس فيها حظوظ، فالدعوة يجب أن تكون خالصة لله ولا يكون فيها مقاصد أخرى، فإن ذلك يفسدها ويجعلها غير مثمرة.

ففيه كما يقول المؤلف: التنبيه على الإخلاص؛ لأن كثيراً من الناس ولو دعا إلى الحق فهو يدعو إلى نفسه. حتى يكثر أتباعه ويكون له صوت عند الناس وحتى يكون له تلاميذ وله من يُعظمه، وله أيضاً أمور أخرى من مقاصد الدنيا الفانية، فهو في الظاهر يدعو إلى الله ولكنه يدعو إلى نفسه، فيجب أن تكون الدعوة خالصة لله جل وعلا لا يرجو منها دنيا ولا يرجو منها مدحاً، ولا مقاماً في أعين الناس وغير ذلك، بل إذا كان له شيء من ذلك فهي دعوة باطلة لا تنجح، والله جل وعلا من سُنَّته التي سنها في خلقه أن الذي يكون مقصوده لغير الله أنه لا بد أن يتبين للناس، ولهذا تجد كثيراً من الناس يقولون فلان مرائي، وهو لم يتكلم بشيء ولم يظهر شيئاً، فتظهر أعماله ـ نسأل الله العافية ـ.

قوله: «﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾»: البصيرة هي اليقين والعلم النافع؛ يعني: على بصيرة فيما يدعو به، وفيما يدعو إليه.

فيجب على الداعي أن يكون عالماً بما يدعو إليه، عارفاً بما يترتب على ذلك ويكون على بصيرة، والبصيرة العلم والعقل، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسير ذلك: قول الله تعالى لعبده ورسوله إلى الثقلين الإنس والجن، آمراً له أن يخبر الناس: أن هذه سبيله؛ أي: طريقه ومسلكه وسنته، وهي الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يدعو إلى الله بها على بَصِيرة من ذلك، ويقين وبرهان، هو وكلّ من اتبعه يدعو إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ على بصيرة ويقين وبرهان شرعي وعقلي[(١)].

البرهان العقلي، والبرهان السمعي متلازمان، والشرع لا يأتي بما يخالف العقل، بل هو الذي يرشد العقل ويدله.

قوله: «﴿أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾»: العطف إما أن يكون على الضمير البارز

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٢٢.

﴿أَنَا۠﴾، أو الضمير المستتر في ﴿أَدْعُوٓاْ﴾، فإذا كان العطف على الضمير المستتر في ﴿أَدْعُوٓاْ﴾؛ يعني: أدعو ومن اتبعني يدعو. فمعنى ذلك أن أتباعه هم أهل الدعوة، ولا يلزم أن يكونوا أهل بصيرة، وأن من لا يدعو لا يكون من أتباعه.

وإذا كان العطف على الضمير البارز ﴿أَنَا۠﴾ فالمعنى: أني أنا وأتباعي على بصيرة، فالدعاة الذين يدعون هم أهل البصيرة، والبصيرة هي بصيرة الدين، فأتباع الرسول ﷺ هم أهل البصيرة الذين عرفوا وعملوا ودعوا كما قال جل وعلا: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت: ٣٣]، ولهذا فسر بالرسول ﷺ وبمن تبعه.

والمعنيان متلازمان؛ لأن الدعوة بلا بصيرة لا تنفع، ولهذا قال الله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥]، والحكمة والموعظة الحسنة: هي البصيرة؛ لأن الناس يختلفون، إنسان يريد الحق ولكنه يخفى عليه، فإذا بُيّن له الحق تبعه فهذا يُدعى بالحكمة، وإنسان عنده إما شبه أو ما يمنعه من ذلك، فهذا يُدعى بالموعظة ويجادل بالتي هي أحسن ولكن الجدال لا يكون لانتصار النفس وإظهار العلم هذا لا ينفع، ولكن الجدال بالتي هي أحسن؛ يعني: إبطال الباطل وإظهار الحق فقط، فالناس على هذا السبيل، وهذا هو الذي يكون على بصيرة.

فإذاً أتباع الرسول ﷺ هم الدعاة وهم أهل البصيرة؛ لأن الدعوة بلا بصيرة لا تنجح بل قد يكون الإنسان يُفسد أكثر مما يصلح إذا كان يدعو بجهل كما هو واقع كثير من الناس، وقد يكون يعاند ويكابر في ذلك، فهذا لا ينفع ولا يمكن أن ينتج شيء، وإن تحصل على أتباع فلا يكون له أثر حسن غالباً. قال ابن القيم رحمه الله: فالآية تدل أن أتباعه هم أهل البصائر الداعين إلى الله على بصيرة فمن ليس منهم فليس من أتباعه على الحقيقة والموافقة، وإن كان من أتباعه على الانتساب والدعوى[١].

قوله: «﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾»: سبحان: اسم مصدر، مأخوذ من البُعد وهو

(١) مدارج السالكين ٢/ ٤٨٢.

السبح البعيد، ولهذا يقال: فرس سبوح إذا كانت تبعد في جريها، وتسمى الكواكب بالسابحات لسيرها بسرعة وقوله: «**سُبْحَانَ اللهِ**» تنزيه لله تبارك وتعالى، وتعظيم له؛ أي: أنزه الله وأجله وأعظمه عن أن يكون له شريك، أو نديد تبارك وتعالى. وهذا يبين أن الشرك مسبة لله تبارك وتعالى، وأن التوحيد تنزيه لله، وإبعاد للموحد أن يقع في التنجيس الذي هو مسبة لله جل وعلا.

وقوله: «﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾»: لا في المنهج والعمل ـ يعني: الشرك ـ ولا في المكان والاجتماع ولا في الرأي والتفكير، فهو بعيد عن الشرك والمشركين، ولهذا استنتج المؤلف في المسائل قوله: إبعاد المسلم عن المشركين لا يصير منهم ولو لم يُشرك.

والمقصود أن الله أمر رسوله ﷺ بأن يخبر أن حياته التي يعيشها ويحياها في الدعوة إلى الله، وأن شأن من اتبعه كذلك، وهذا يدل على وجوب الدعوة إلى الله جل وعلا؛ لأن اتباع الرسول ﷺ واجب وهو فرض عين لا بد منه فكذلك الدعوة ولكن الدعوة تختلف باختلاف القدرة، والله لا يكلف نفساً إلا وسعها غير أن الإنسان يجب أن يدعو باستطاعته، وأول ما يبدأ بنفسه، ثم ولده وأهله وأقربائه، ثم جيرانه، وهكذا حسب الاستطاعة، ولو أننا طبقنا هذه الآية على أنفسنا وعملنا بها لتحصلنا على خير كثير جداً؛ لأنه لا يمكن أن تستقيم الأحوال ويعتز المسلمون وينتصروا على عدوهم إلا بالدعوة إلى الله جل وعلا، وبدون ذلك لا تستقيم أمورهم، ولو صارت لهم قوة.

قال رحمه الله عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن قال له: «**إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله ـ وفي رواية: إلى أن يوحِّدوا الله ـ فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوك لذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**»، أخرجاه[1].

---

(١) رواه البخاري رقم ١٤٩٦، ومسلم رقم ١٩.

ابن عباس: هو ابن عم رسول الله ﷺ أطلق عليه أنه حبر الأمة من آثار دعوة النبي ﷺ فإنه دعا له قال: «**اللهم فقِّهه في الدين وعلِّمه التأويل**»[١]، فظهر ذلك عليه حتى قيل: هو ترجمان القرآن، توفي رسول الله ﷺ، وهو ابن خمسة عشر سنة على القول الصحيح، وتوفي هو في الطائف سنة ثمان وستين على القول الصحيح.

قوله: «أن رسول ﷺ لما بعث معاذاً»: الأحاديث التي يرويها ابن عباس رضي الله عنهما غالبها عن الصحابة، وقد جاء أن بعث معاذ في السنة العاشرة قُبيل حجة الوداع، فيكون هذا في آخر حياة النبي ﷺ.

وجاء أنه وصَّى معاذاً رضي الله عنه، وقال له: «**لعلك لا تراني بعد هذا اليوم**»، فلم يره فكان مقدم معاذ من اليمن في خلافة أبي بكر، ثم ذهب إلى الشام فمات في الطاعون المشهور بطاعون عمواس.

ومعاذ بن جبل من سادة الصحابة وعلمائهم، جاء أنه يحشر أمام العلماء برتوة[٢]، والرتوة قيل: إنها المرتفع، وقيل: إنها رمية الحجر، وفضائله رضي الله عنه كثيرة، ومنها ما رواه النسائي، وأبو داود بسند صحيح أنه ﷺ أخذ بيده يوماً، ثم قال: «**يا معاذ والله إني لأحبك**»، فقال له معاذ: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، وأنا والله أحبك، قال: «**أوصيك يا معاذ لا تدعن في دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعنِّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**»[٣]، وهذه منقبة عظيمة إذا كان الرسول ﷺ يحبه، ومعلوم أن الله جل وعلا ورسوله ﷺ يحبان كل مؤمن تقي، ولكن إذا نُص على شخص بعينه دل على إيمانه، والأمور التي تأتي في مدح شخص من الله ورسوله؛ كمدح الصحابة والثناء عليهم تدل على

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) معرفة الصحابة لأبي نعيم الأصبهاني رقم ٥٣٧٤ عن أبي العجفاء، قال: قال عمر بن الخطاب: لو أدركت معاذ بن جبل ثم وليته، ثم لقيت ربي ﷻ فقال: من استخلفت على أمة محمد؟ قلت: سمعت عبدك ونبيك ﷺ يقول: «**يأتي بين يدي العلماء برتوة**» ورواه ابن سعد في الطبقات الكبرى ٢/ ٣٤٧.

(٣) السنن الكبرى للنسائي رقم ٩٩٣٧، وأبو داود رقم ١٥٢٤.

أنهم يموتون على الإيمان؛ لأن هذا يكون بالوحي فلا يمكن أن يمدح الله شخصاً يمكن أن يرتد كما يقوله أهل البدع المنحرفون، بل أهل الضلال.

قوله: «لما بعث معاذاً»: بعث معاذاً للدعوة والنيابة عن الرسول ﷺ في القضاء والحكم في تلك الأمور، ولكن أهم شيء الدعوة إلى الله جل وعلا ولهذا بيَّنه، وهو محل الشاهد الذي أراده المؤلف.

والبعث في الأصل إثارة الشيء من مكانه، وقد يطلق على غير ذلك كما في هذا الحديث، يقال: بعثت البعير إذا أثرته من مبركه، وبعث الصيد إذا أثاره من مكمنه، والله يبعث من في القبور؛ يعني: يحييهم ويخرجهم أحياء.

والبعث هنا المراد به الإرسال؛ يعني: أرسله، وكذلك قوله جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾ [النحل: ٣٦]؛ يعني: كلفهم بالرسالة، أن يبلغوا الناس ما أُرسلوا به.

وقوله: «إلى اليمن»: اليمن: سُمي بذلك؛ لأنه كما يقال على أيمن الكعبة، كما أن ما كان أشأم منها فهو الشام، وقد يكون هذا الاسم له نصيب من الصحة، وقد يكون غير ذلك، والأسماء كما يقول أهل اللغة لا تعلل، والأسماء تكون لأدنى مُلابس وكثير منها لا يُعرف أصله وملابساته وسببه، غير أن الأسماء لتميز بعض المسميات عن بعض فقط كما يتميز الشخص عن الآخر بالاسم.

وقوله: «إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب»: المقصود بأهل الكتاب اليهود والنصارى، وسُمِّيا بأهل الكتاب؛ لأن الله جل وعلا أنزل عليهم التوراة والإنجيل فيهما الهدى والنور وفيهما أوامره ونواهيه، وقد وقع فيهما الزيادة والنقص والتحريف والتبديل، ثم نسخهما الله جل وعلا بالقرآن، فالإنجيل مكمل للتوراة وليس ناسخاً لها، وإنما فيه التخفيف، وفيه وضع بعض الآصار التي كانت عليهم كما ذكر ذلك الله في كتابه، والذين كانوا في اليمن هم اليهود، أما النصارى فكانوا في أدنى اليمن.

وفي قوله: «إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب»: هذا كالتوطئة للاستعداد، فهو يدل على أن الناس يختلفون في الدعوة والمجادلة، وإن الداعي يجب أن يكون عنده استعداد وتهيؤ يهيئ نفسه يتسلح بالعلم، وأن الداعي لا يصلح أن

يكون جاهلاً بل لا بد أن يكون عالماً، فإذا ألقيت عليه الشبه يحلها ويبطلها، وكذلك تكون دعوته على بصيرة، فهذا فائدة قوله: **«إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب»**؛ يعني: استعد لذلك وتهيأ، واعلم أن مخاطبتهم ليست كمخاطبة أهل الأوثان الجاهلين.

قوله: «فليكن»: أمر من الرسول ﷺ يجب امتثاله، وهذا ليس خاصاً بمعاذ رضي الله عنه، معاذ وغيره في هذا سواء، وهذا الحكم لا يتعلق بذي السلطة فقط، بل هذا عام بالخلق كلهم؛ لأن دين الله جاء عاماً للخلق كلهم، فكل واحد يجب عليه ما يستطيعه من الدعوه إلى الله، ولكن هذا يتفاوت من شخص إلى آخر، فبعض الناس يكون عليه الواجب أكثر وألزم، وولي الأمر في هذا عليه واجب ليس على غيره يجب أن يبعث الدعاة يدعون إلى التوحيد فإن لم يفعل فهو آثم، وسوف يحاسبه الله يوم القيامة؛ لأن هذه سيرة الرسول ﷺ والذي يكون في هذا المنصب يجب أن يكون مترسماً لطريقة الرسول ﷺ، فإن لم ينصح لمن يتولى عليهم فإنه إذا لقي الله يوم القيامة يُحرم عليه الجنة، كما جاء عن معقل بن يسار رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«ما من والٍ يلي رعية من المسلمين فيموت وهو غاش لهم إلا حرم الله عليه الجنة»**[1]، فالأمر ليس سهلاً.

فاللام في قوله: **«فليكن»** للأمر الوجوبي الذي لا يجوز التساهل فيه.

وقوله: «فليكن أول ما تدعوهم إليه، شهادة أن لا إله إلا الله»: يرشده أولاً إلى طريقة الدعوة، وأنه يبدأ بالأساس الذي يُبنى عليه غيره وهو التوحيد، فأول ما يبدأ به تصحيح العقيدة وتصفيتها، فشهادة أن لا إلٰه إلا الله معناها الإخلاص لله جل وعلا؛ لأنه هو الذي تبنى عليه الأعمال الأخرى، فإذا لم يكن العمل خالصاً لله وحده فالأعمال التي تبنى عليه تكون فاسدة، ويكون كالذي يبني على جُرفٍ هار فيكون خسارة وعملاً بلا نتيجة، فهذا يدلنا على أهمية هذا الأمر، وأن الذي يقول ندعوا الناس إلى إصلاح أخلاقهم وإلى

---

(١) رواه البخاري رقم ٧١٥١، ومسلم رقم ١٤٢ ولفظه: **«ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة»**.

حسن معاملتهم، ونترك الأمور المشكلة التي فيها نفرة بين الناس، فلا نقول لهم لا تتوسلون بالأولياء ولا تدعون القبور، هذا خلل بالدعوة وجهل، ويقول: ندعوهم أولاً إلى أن يصلوا وأن يتعارفوا فيما بينهم ويتآلفوا ويكثروا من الدعاء، فهذا عمل لا فائدة فيه؛ لأنه على غير طريقة الرسول ﷺ، وعلى غير أساس، فلا بد من تصحيح العقيدة أولاً وتصفيتها؛ لأن الإنسان الذي مثلاً يدعو ميتاً ويتوسل به صلاته وصدقته لا تنفعه، فكيف تدعو لعمل لا ينفع هذا عبث ولا يجوز، ولهذا أرشد الرسول ﷺ إلى أن يكون أول الدعوة هو تصحيح العقيدة: **«فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله»**، ومعناه أن العبد لا بد أن يتحقق من هذا القول يشهد به قلبه ويطابق قلبه لسانه، والشهادة لا تقال إلا على ما هو محقق قد عقد عليه القلب وآمن به، أما إذا كان عن ظاهر اللسان وخلاف العمل فهذه الشهادة لا تفيد ولا تجدي ولا تسمى شهادة.

وقوله: **«أن لا إله إلا الله»**: معروف أن هذه الكلمة هي أصل الإسلام وهي مبنية على النفي والإثبات، فقوله: **«أن لا إله»** لا هذه نافية للجنس، وهي لا تدخل: إلا على الجنس، ولهذا إله اسم جنس يطلق على كل إله بالحق والباطل، ولهذا احتيج إلى النفي والإثبات بعدها حتى يكون التأله كله محصوراً لله جل وعلا، فإذا قلت: إله فهذا يطلق على كل متأله سواءً كان حقاً أو باطلاً، وهذا التركيب النفي والإثبات هو الإخلاص وهو من أبلغ الكلام وأبينه، ومن لا يفهم هذا الشيء مع هذا البيان معناه أنه لا يفهم اللغة العربية، واللغة العربية فهمها مهم جداً؛ لأنه يترتب عليه فهم كلام الله وكلام رسوله ﷺ.

والإله هو المألوه الذي تألهه القلوب خوفاً ورجاءً وحباً وإنابة وخضوعاً كما تقدم.

وقد يكون التأله باطلاً، ولهذا جعلت هذه الكلمة على هذا التركيب، فلها ركن هو النفي، ولها ركن آخر هو الإثبات، فإذا قال العبد: **«لا إله»** معناه نفي التأله مطلقاً، وإذا قال: **«إلا الله»** أثبت الإلـهية لله جل وعلا، وقد كان العرب يفهمون هذا تماماً، وكان الرسول ﷺ إذا قال لهم قولوا: **«لا إله إلا الله»** نفروا من ذلك وقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝﴾

[ص: ٥]؛ لأن لهم آلهة متعددة وكثيرة ومنها الله جل وعلا فإنهم يألهونه ويعبدونه، ولكن يعبدون معه غيره، وهذا الذي جعلهم كفاراً، ومن يموت على ذلك يكون خالداً في النار؛ لأنه لا بد أن يُخلص التأله لله ﷻ، وهذا يدلنا على أن الذي يُبدأ فيه بالدعو سواءً كان المدعو عنده علم أو ليس عنده علم، أنه يُدعى إلى شهادة أن لا إلٰه إلا الله، وهذا باتفاق العلماء أن الإنسان لا يكون مسلماً إلا إذا شهد أن لا إلٰه إلا الله.

ومعلوم أن هذه لا تكفي، فلا بد أن يشهد أن لا إلٰه إلا الله، وأن محمداً رسول الله عبده ورسوله، أرسله بالدين الذي لا يقبل سواه، فمن أطاعه واتبعه فهو من أهل الجنة، ومن خالفه فهو من أهل النار قطعاً، ليس هناك طريق آخر إلى الله، أو إلى النجاة إلا باتباع رسول الله ﷺ.

وإذا قال العبد: لا إلٰه إلا الله فبذلك يدخل الإيمان، فإذا كان قوله عن علم ويقين، قال ذلك بلسانه وبقلبه فهو مؤمن، ولزمه بعد ذلك ما رُتب على هذا مما افترضه الله جل وعلا، فإن التزم وإلا قتل، فإن الإنسان إذا قال أنا أشهد أن لا إلٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله ولكن لا أصلي ولا أصوم ولا أزكي، نقول: هذا لا يقبل، إذا شهدت أن لا إلٰه إلا الله وجب عليك أن تلتزم بأوامر الله، ولا يُقبل أنك تتراجع، فإن تراجع حكم عليه بأنه مرتد فيُقتل.

وجاء في رواية: «**إلى أن يوحدوا الله**»، وفي رواية: «**إلى عبادة الله**»، وفي رواية: «**إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله**»، فهذه روايات ثلاثة كلها ثابتة في الصحيحين، وهذا يدلنا على أن رواية الحديث بالمعنى جائزة، ولكن يجب أن يكون الذي يروي بالمعنى يفهم كلام رسول الله ﷺ تماماً، فيعبر بالمرادف للكلمة، ولا يلزم أن يكون حفظ لفظ الرسول ﷺ؛ لأنه من المعلوم أن الرسول ﷺ ما قال هذه الألفاظ الأربع كلها في مخاطبته لمعاذ، وإنما قال واحدة فهذا كثير جداً في الأحاديث.

وفي هذا دليل على أن أول ما يجب على العبد شهادة أن لا إلٰه إلا الله وهو أمر متفق عليه عند أهل السُّنَّة، وإنما يخالف فيه المتكلمون الذين يقولون أول ما يجب على العبد النظر العقلي في الأدلة على وجود الله، أن ينظر العبد

في الأدلة الكونية المشاهدة، أو العقلية المدركة مثل: كون المخلوق لا بد له من خالق، ولا يمكن أن يكون المخلوق خلقه مخلوق مثله، فإذاً لا بد أن يكون خالقه غني بذاته عن كل من سواه غير مشابه له بل هو كامل من جميع الوجوه حتى لا يلزم تسلسل ولا يلزم باطل، وهذا هو الذي ينتهي إليه العقل، أو النظر أيضاً في المخلوقات هذه الموجودات وغيرها، وبعضهم يذهب إلى أبعد من هذا ويقول الواجب الشك؛ لأن الشك يدعو إلى النظر؛ يعني: يكون أول واجب الكفر والكفر يدعوه إلى أن يفكر وينظر وهذا من أبطل ما يكون، ولهذا قال القرطبي ﷺ في المفهم: لو لم يكن في الكلام إلا هذه المسألة لكفى في التنفير عنه؛ لأن هذا يلزم منه الكفر[١].

فالمقصود أن أدلة الكتاب والسُّنَّة، ودعوة الرسول ﷺ تدل على أن أول ما يجب على العبد الإيمان بالله والكفر بالطاغوت، والإيمان بالله هو شهادة أن لا إله إلا الله؛ لأن في ضمنها الكفر بالطاغوت، قال الله جل وعلا: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ٢٢/٥٢: ولو لم يكن في الكلام شيء يذم به إلا مسألتان هما من مبادئه، لكان حقيقاً بالذم، وجديراً بالترك. إحداهما: قول طائفة منهم: إن أول الواجبات الشك في الله تعالى. والثانية: قول جماعة منهم: إن من لم يعرف الله تعالى بالطرق التي طرقوها، والأبحاث التي حزروها، فلا يصح إيمانه وهو كافر. فيلزمهم على هذا تكفير أكثر المسلمين من السلف الماضين، وأئمة المسلمين، وأن من يبدأ بتكفيره أباه وأسلافه، وجيرانه، وقد أورد على بعضهم هذا، فقال: لا تشنع عليّ بكثرة أهل النار، أو كما قال: ثم إن من لم يقل بهاتين المسألتين من المتكلمين ردوا على من قال بهما بطرق النظر والاستدلال بناء منهم على: أن هاتين المسألتين نظريتان، وهذا خطأ فاحش، فالكل يخطئون، الطائفة الأولى بأصل القول بالمسألتين، والثانية بتسليم أن فسادها ليس بضروري، ومن شك في تكفير من قال: إن الشك في الله تعالى واجب؟ وأن معظم الصحابة والمسلمين كفار، فهو كافر شرعاً، أو مختل العقل وضعاً؟ إذ كل واحدة منهما معلومة الفساد بالضرورة الشرعية الحاصلة بالأخبار المتواترة القطعية، وإن لم يكن كذلك فلا ضروري يصار إليه في الشرعيات ولا العقليات. عصمنا الله من بدع المبتدعين، وسلك بنا طرق السلف الماضين.

أَسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ثم فيه أنه يبدأ بالأهم فالأهم، فإنه رتب الدعوة إلى الصلاة والزكاة والصوم على الإتيان بشهادة أن لا إله إلا الله، وشهادة أن لا إله إلا الله لا بد من معرفة معناها فمجرد النطق لا يكفي ولا بد من العمل بها، ولا بد من أن يكون الإنسان مغتبطاً بهذه الشهادة فرحاً بها يحبها، مسروراً بها، ولا يبغي غيرها في حياته، ولا بد أن يكون في قولها صادقاً، فإنه إذا لم يكن صادقاً يموت منافقاً، ولا بد أن يكون مخلصاً، والإخلاص معناه: أن يكون العمل لله وحده فقط، لا يقصد شيئاً آخر.

ولا يمكن أن يكون الصحابة يدعون إلى مجرد اللفظ فقط بلا عمل ولا معنى؛ لأنهم هم أهل اللسان وأهل المعرفة، والعرب لما قال لهم رسول الله ﷺ: «**قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا**»[1]، فهموا من هذا الإخلاص، وأن معنى ذلك ترك دينهم أصلاً واعتناق دين جديد ما كانوا يعرفونه، ولهذا قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ [ص: ٥]، مما يبين ويوضح هذا تماماً، لما دخل الرسول ﷺ على عمه في مرض موته وعنده أبو جهل فقال: «**أي عم قل: لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله**»، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب ترغب عن ملة عبد المطلب فلم يزالا يكلمانه حتى قال آخر شيء كلمهم به هو على ملة عبد المطلب، فقال النبي ﷺ: «**لأستغفرن لك ما لم أنه عنه**»، فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [التوبة: ١١٣]، ونزلت: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [القصص: ٥٦][2]، فأبو جهل كان يعرف معنى لا إله إلا الله، ويعرف أنه إذا قالها ترك ملة عبد المطلب وصار على ملة محمد بن عبد الله ﷺ، فأعاد عليه الرسول فأعاد عليه أبو جهل نفس كلامه فقط، فمات على ملة عبد المطلب.

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة رقم ٣٦٥٦٥، وأحمد في المسند رقم ١٦٠٢٣، والحاكم في المستدرك رقم ٣٩.

(٢) رواه البخاري رقم ٣٨٨٤، ومسلم رقم ٢٤.

وقوله: «فإن هم أطاعوك لذلك»؛ يعني: استجابوا وشهدوا أن لا إلٰه إلا الله.

قوله: «فأعلمهم»: هذا يدل على أنه لا بد من معرفة ذلك والعلم به وأنهم يعلمون، ويلزم من هذا تعليمهم الوضوء، وتعليمهم ما يلزم للصلاة من الستر واستقبال القبلة وغير ذلك.

قوله: «أن الله افترض»: أصل الفرض هو القطع. والمقصود هنا هو اللزوم والوجوب الذي لا محيد عنه.

قوله: «فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات»: هذا يدل على ما قلنا: أن الواجب على الداعي الذي يدعو إلى الله أن يبيِّن للناس التوحيد أولاً وأن يدعوهم إليه قبل كل شيء، فإن صح عندهم ذلك واستقامت أحوالهم على التوحيد دعاهم إلى الصلاة، والصلاة هي الركن الثاني بعد شهادة أن لا إلٰه إلا الله، وكل الأركان تبنى على الركن الأول على شهادة أن لا إلٰه إلا الله، لا بد أن يُصَحح ويدلنا على أنهم إذا ما استجابوا إلى أن يشهدوا أن لا إلٰه إلا الله وأن يوحدوا الله أنهم لا يدعون إلى الصلاة وهذا المفهوم واضح من النصوص، وهكذا الواجب على الداعية إلى الله جل وعلا أن يهتم بهذا الموضوع كما كان الرسول ﷺ يهتم به، وإلا تكون الدعوة غير مجدية وغير مفيدة ولا نافعة؛ لأنها دعوة إلى أعمال الطاعة والأصل فاسد، فتكون هذه الأعمال غير معتد بها، ولا قيمة لها، فتكون الدعوة ضائعة على هذا الباب، وهذا الذي أقول يجب أن يفهمه الدعاة الذين يدعون إلى الله جل وعلا؛ لأن هذه طريقة الرسول ﷺ وهي التي تجدي وتنفع وغيرها لا ينفع، فإذا استجابوا لك وشهدوا أن لا إلٰه إلا الله فانقلهم بعد ذلك إلى أن تعلمهم وتخبرهم أن الله أوجب عليهم وافترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة؛ يعني: في أربع وعشرين ساعة، وهذه الصلوات لا بد أن تبين بركعاتها وأوقاتها وشروطها وفروضها، وما إلى ذلك، فالمفروض أن الداعية يكون عالماً بذلك، ولهذا أجمل ذلك الرسول ﷺ، وذكر أنه افترض عليهم خمس صلوات، ولم يذكر عدد الركعات ولا الأوقات، ولم يذكر كل ما يلزم لها بناءً على أن الداعية فاهم ذلك، وأنه سوف يدعو الناس لذلك، وسوف يبينه، وهذا يدلنا على أن الأمور

الواضحة لا تحتاج إلى أن ينبه عليها ويكتفى بها إجمالاً، وأيضاً يدلنا على أنه لا يجب على المسلم غير هذه الصلوات الخمس؛ يعني: أن الوتر غير واجب ولا سيما أن هذا الحديث كان بآخر حياة النبي ﷺ، وقد قال أبو حنيفة رحمه الله بوجوب الوتر، وهذا يحتاج إلى دليل وإن كان دليلهم في الصحيحين: «**اجعلوا آخر صلاتكم بالليل وتراً**»[١]، وكذلك حديث علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا أهل القرآن أوتروا فإن الله عز وجل وتر يحب الوتر**»[٢]، والعلماء جمعوا بين هذا وبين هذه الألفاظ التي جاءت في لفظ الوجوب، أو الأمر بأن الوجوب يدل على التأكيد في السُّنَّة كما جاء عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**الغسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم**»[٣]، أن يغتسل يوم الجمعة في الأسبوع مرة، وجاءت أحاديث تدل على أن هذا ليس بواجب.

فعن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ: «**من توضأ يوم الجمعة فبها ونعمت ومن اغتسل فهو أفضل**»[٤]، وفي هذا أنه ﷺ اقتصر على خمس صلوات فقط، ولم يذكر لهم الوتر، أما العيدين فاختلف العلماء في حكمهما، فمنهم من يقول أنهما فرض كفاية، ومنهم من يقول: أنهما سُنَّة، ومنهم من يقول: أنهما واجبتان[٥]، ولم تذكر اعتماداً على أن هذا يكون من

---

(١) رواه البخاري رقم ٩٩٨، ومسلم رقم ٧٥١ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) رواه أحمد في المسند رقم ٨٧٧، ١١١٨، والترمذي رقم ٤٥٣، وأبو داود رقم ١٤١٦، وابن ماجه رقم ١١٦٩، والنسائي رقم ١٦٧٥.

(٣) رواه البخاري رقم ٨٥٨، ومسلم رقم ٨٤٦.

(٤) مصنف عبد الرزاق رقم ٥٣١١، وأحمد في المسند رقم ٢٠١٧٤، وأبو داود ٣٥٤، والترمذي رقم ٤٩٧، وابن ماجه رقم ١٠٩١، والنسائي رقم ١٣٨٠.

(٥) صلاة العيدين واجبة على القول الصّحيح المفتى به عند الحنفيّة، والمراد من الواجب عند الحنفيّة: أنّه منزلة بين الفرض والسّنّة، ودليل ذلك: مواظبة النّبيّ ﷺ عليها من دون تركها ولو مرّةً، وأنّه لا يصلّي التّطوّع بجماعة ـ ما خلا قيام رمضان وكسوف الشّمس وصلاة العيدين فإنّها تؤدّى بجماعة، فلو كانت سنّةً ولم تكن واجبةً لاستثناها الشّارع كما استثنى التّراويح وصلاة الخسوف.
أمّا الشّافعيّة والمالكيّة: فقد ذهبوا إلى القول بأنّها سنّة مؤكّدة. ودليلهم على ذلك قوله ﷺ في الحديث الصّحيح للأعرابيّ ـ وكان قد ذكر له الرّسول ﷺ الصّلوات =

عَرف الخمس صلوات أنه سيعرفها؛ لأنها لا تكون في السنة إلا مرة.

وفي قوله: «خمس صلوات»: نص على أن المتعيَّن على العبد الخمس الصلوات فقط، وما زاد على ذلك فهو نفل إذا جاء به صار له الأجر والثواب، وإن لم يأت به فليس عليه عقاب، ولكن يجب أن يقيم الصلاة وإقامة الصلاة ليس القيام والركوع والقراءة، إقامتها أن يأتي بها كاملة، فإذا تأمل العبد القرآن والأحاديث وجد أن كل أمر جاء بالصلاة بلفظ الإقامة وإقامتها لا بد أن تقام على الوجه الذي فرضها رسول الله ﷺ عليه وقال: «**صلوا كما رأيتموني أصلي**»[(١)]، ومن أعظم إقامتها حضور القلب فيها فحضور القلب واجب فرض؛ لأنه لا يكتب للإنسان إلا محضر الجزء الذي لا يحضر القلب فيها غير معتد فيه وإن كان لا يأمر بإعادة الصلاة؛ يعني: أنها تسقط عنه فريضة الصلاة ولكنه يعاقب عليها؛ لأنه قصر في هذا فالصلاة أمرها عظيم جداً، ولهذا يقول الرسول ﷺ: «**وجعلت قرة عيني في الصلاة**»[(٢)]، وكان يرتاح بها[(٣)]، وكان إذا حزبه أمر فزع إليها[(٤)].

وقوله: «فإن هم أطاعوك في ذلك»:؛ أي: استجابوا لك بكونهم وحدوا الله وأقاموا الصلاة.

= الخمس فقال له: هل عليّ غيرهنّ؟ قال لا، إلّا أن تطوّع»، قالوا: ولأنّها صلاة ذات ركوع وسجود لم يشرع لها أذان فلم تجب بالشّرع، كصلاة الضّحى. وذهب الحنابلة إلى القول بأنّها فرض كفاية لقوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝﴾ [الكوثر: ٢]، ولمداومة الرّسول ﷺ على فعلها. الموسوعة الفقهية الكويتية ٢/٩٧٥٣.

(١) رواه البخاري رقم ٦٣١ من حديث مالك بن الحويرث ﷺ.

(٢) رواه أحمد في المسند رقم ١٤٠٣٧، والبيهقي رقم ١٣٨٣٦، والنسائي رقم ٣٩٥٠، والحاكم في المستدرك رقم ٢٦٧٦ وقال: حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. ولفظ الحديث عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**حبب إلي من الدنيا النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة**».

(٣) رواه أحمد في المسند رقم ٢٣٠٨٨ عن سالم بن أبي الجعد عن رجل من أسلم أن النبي ﷺ قال: «**يا بلال أرحنا بالصلاة**»، وابن أبي شيبة رقم ٩٣٩، وأبو داود رقم ٤٩٨٧.

(٤) رواه أحمد في المسند رقم ٢٣٢٩٩، وأبو داود رقم ١٣١٩ ولفظه عن حذيفة كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى.

وقوله: «فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة»: افترض مثل افتراض الصلاة؛ يعني: أوجب وألزم ولكن على الأغنياء.

وقوله: «تؤخذ من أغنيائهم»: الغني: هو الذي يملك النصاب، فمن كان عنده نصاب من المال فهو غني، وهذا مطلق سواءً كان مكلف، أو غير مكلف؛ لأنه قال: أغنيائهم، فيدخل فيه من بلغ ويدخل فيه الصبي، ويدخل فيه غيرهم حتى المجانين، وكل من هو غني تؤخذ منه الزكاة، ويقال في هذا مثل ما قيل في الصلاة: أن هذه الأمور موكولة إلى الداعية أن يبيِّن لهم مقدارها والمال الذي تجب فيه، وكيف تخرج وما يلزم لها، فهذا الذي نقول أنه يجب على الداعية أن يكون عالماً بما يدعو إليه ألا يكون علمه إجمالاً بل يجب أن يكون علمه مفصلاً، وكلما دعا إلى شيء فإنه يبينه ويوضحه، وكذلك إذا أُورد عليه شيء من الإشكالات، أو الشبه يزيل ذلك.

قوله: «وترد على فقرائهم»: استدل به بعض الفقهاء على أن الزكاة تكون في بلد المال؛ لأن الضمائر هنا لأهل اليمن، فاستدلوا على عدم نقل الزكاة من بلد إلى آخر، وهذا الاستدلال ليس قطعياً؛ لأن دلالة المفهوم ليست قطعية، ولهذا اختلف في هذه المسألة، فالذين منعوا من نقل الزكاة يقولون أنها توضع في فقراء هذا البلد إلا إذا لم يوجد فقير، فإنها تنقل إلى أقرب بلد. والذين نازعوهم قالوا إن الضمير يعود على فقراء المسلمين عموماً، ولهذا جاء أن معاذ أرسل من الزكاة إلى المدينة.

وفيه دليل على أنه يجوز أن يقتصر على صنف من أصناف أهل الزكاة، وهم ثمانية كما ذكرهم الله جل وعلا، وإن كان بعض هذه الأصناف يجوز أن يعطى وإن كان غنياً مثل العامل، والمجاهد يعطى مع غناه، وأما السبب في الاقتصار على الفقراء يقول العلماء: لأن هذا هو الغالب؛ يعني: أن غالب أهل الزكاة الفقراء فهم الأغلب، والأكثر، أو لأنهم الأكثر حاجة وأشد فاقتصر عليهم ولا يلزم أن يكون البقية غير مراد في ذلك.

ويأخذ من هذا أن الذي يتولى أخذ الزكاة هو الإمام لقوله: «**تؤخذ**».

قوله: «فإن هم أطاعوك لذلك، فإياك وكرائم أموالهم»: منصوب على التحذير؛ يعني: احذر أن تأخذ كرائم الأموال. يقول الحافظ: كرائم

أموالهم؛ أي: نفائسها[1]. وكرائم الأموال هنا مطلق الأموال يكون في الثمار والبهائم، وقد يكون في النقود أيضاً؛ لأنها تختلف باختلاف النسبة التي تضاف إليها، فإذا كان ذهباً وفضة، فإن كان الذهب والفضة أكثر مما خلط بهما كان أحسن وأكثر قيمة فيسري هذا على المال كله، وإن كانت من البهائم فهي ذات اللون الجميل والصوف الكثيف واللبن الغزير واللحم الكثير وما أشبه ذلك.

وإن كان مما يخرج من الأرض فهو أحسنه، وهو يختلف فالحبوب تختلف والزبيب يختلف والشعير يختلف، فالواجب أن تأخذ الزكاة من الوسط، فإذا أخذ الزكاة من كرائم الأموال فهو ظلم، وكذلك لا يجوز لصاحب المال أن يدفع شراره ورديئه، فإنه حرام عليه بل يجب عليه أن يدفع من متوسط المال، فلا يُؤخذ من كرائم الأموال إلا أن يسمح صاحب المال وتطيب به نفسه من تقديم الكرائم فإنه يقبل وما زاد فهو صدقة.

وقوله: «واتق دعوة المظلوم»: اتق؛ يعني: اجعل لك واقياً من أن تلحقك دعوة المظلوم، وهذا يدل على أن أخذ الكرائم من الأموال أنه ظلم، كما أنه دليل على أن المظلوم دعوته مستجابة فاتقي دعوة المظلوم بالعدل، واتباع الحق، والخوف من الله في ذلك.

وقوله: «فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»: الضمير يقولون: ضمير الشأن، فإن الأمر والشأن أنه ليس بينها وبين الله حجاب؛ يعني: أن الله يستجيب للمظلوم، وهذا أمر مجرب، فإن المظلوم إذا دعا يستجيب الله له، ولكن قد لا تظهر الاستجابة قريباً، وقد لا تظهر له بارزة، وهي فيه؛ يعني: واقعة فيه.

و**«المظلوم»** مطلقاً، ولهذا يقول العلماء: أن المظلوم تستجاب دعوته، وإن كان كافراً فكفره عليه؛ لأن الظلم لا يُقر، وقد يقول قائل: نحن نشاهد الظلم كثيراً جداً، وكثير من المظلومين يدعون، ولا تراهم يُستجاب لهم؟

نقول: هذا وإن كان أُطلق هكذا فهو كما جاء معلق بالمشيئة لا بد من مشيئة الله جل وعلا، ولأنه لا يقع شيء إلا بمشيئة الله جل وعلا، فهو معلق

---

(١) فتح الباري لابن حجر ١/١٧٩.

بمشيئة الله جل وعلا، والرسول ﷺ أخبرنا: «**أنها تستجاب**»، وأخبرنا أن الداعي لا يخلو إذا دعا من أمور ثلاثة كما في حديث أبي سعيد رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث، إما أن تعجل له دعوته، وإما أن يدَّخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها**»، قالوا: إذاً نكثِر؟ قال: «**الله أكثر**»[(١)].

فهو إذا دُعي لا يخيب أبداً، فالله أخبرنا أننا إذا دعونا أنه يكشف عنا السوء إذا شاء سبحانه، فهذا تقييد لكل دعاء يدعو به الداعي أنه بمشيئته جل وعلا.

والظالم لا تستقيم حاله غالباً بل لا بد أن يعاجل بأي نوع من العقابات وقد يؤخذ أخذاً ظاهراً، وقد يكون الظالم تمادى في ظلمه وتجرًّأ على الله، ثم يُمد في عمره ويزداد ظلماً حتى يوافي يوم القيامة، وقد كملت حسرته وخسارته من جميع النواحي، فيصبح هذا أشد في الأخذ وفي النكال، ولهذا من العرب كما ذكر عن عقلائهم لما ذكر له أن فلاناً يظلم قال لن يموت سوياً، فقيل له: قد مات سوياً، فقال: إن كنتم صدقتم فوالله لتبعثن وليكون لكم داراً أخرى تجازون فيها هذا، وهو جاهلي لا يعرف شيئاً، وهم كانوا ينكرون البعث، ولكن الظلم لا يُقر.

والمظلوم يتفاوت، فهناك مظلوم لا ناصر له، ومظلوم قد ينتصر، وقد ينتصر بغيره، فظلم الضعيف الذي لا ناصر له إلا الله هو الذي يكون أشد وأعظم جرماً، والعقاب لهذا أسرع ـ نسأل الله العافية ـ مثل الضعفاء كما جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**اللهم إني أحرِّج حق الضعيفين: اليتيم والمرأة**»[(٢)]، فالمرأة ضعيفة قد لا تستطيع أن تصل وتأخذ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أحمد في المسند رقم ٩٦٦٦، والنسائي في الكبرى رقم ٩١٤٩، وابن ماجه رقم ٣٦٧٨، والحاكم في المستدرك رقم ٢١١ وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

حقها، وإذا دعت وهي مظلومة فدعوتها تستجاب مع أن دعوة المظلوم كلها مستجابة كما قال الرسول ﷺ، ومثل ذلك: الأجير أيضاً قد يكون ضعيفاً ولا يستطيع أن ينتصر فيلجأ إلى الدعاء[١]، فيجب على العبد الذي يخاف الله جل وعلا أن يتقي هذا الجانب ويحذر عقاب الله جل وعلا فإنه ينتصر جل وعلا للمظلوم ولهذا قال: **«فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»**؛ يعني: أنه يستجيب للمظلوم إذا دعا على ظالمه.

والحديث لم يذكر فيه الصوم ولا الحج مع أنه في آخر عهد النبي ﷺ **وعن هذا جوبان:**

أحدهما: أن هذا من اختصار الرواة وهو غير مستقيم؛ لأنه لو كان حديثاً واحداً أمكن أن يقال هذا، ثم هذا فيه فتح باب القدح في الرواة فيصبح لا يوثق بهم.

الثاني: أن هذا على حسب نزول الفرائض، فأول ما افترض الله جل وعلا شهادة أن لا إله إلا الله كما جاءت النصوص في ذلك كما جاء عن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله»**[٢]، وكذلك الصلاة من أوائل ما افترض فرضها في مكة حينما عرج بالنبي ﷺ إلى السماء، ثم الزكاة ولكن الزكاة فرضت في المدينة، أما الآيات التي ذكرت فيها الزكاة وهي مكية يقول العلماء: المقصود بها زكاة البدن؛ يعني: تطهيره وتزكيته بالإيمان بالله جل وعلا، وهذا الحديث لا ينطبق عليه هذا الجواب؛ لأن الحديث في آخر حياة النبي ﷺ فيتطلب جواب آخر غير هذا.

والجواب عن هذا: أن الأمور التي ذكرت هي الأمور التي يقاتل عليها، وهي التي تلزم كل أحد، أما الصوم فإنه سر بين العبد وبين ربه يجوز أن يظهر

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: **«قال الله: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حراً فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره»** رواه البخاري رقم ٢٢٢٧.

(٢) رواه البخاري رقم ٢٥، ومسلم رقم ٢٢.

الإنسان أنه صائم وهو كاذب؛ كالطهارة، فهي شرط للصلاة، وهي لم تذكر لأنها أمانة بين العبد وبين ربه؛ يعني: موكولة إلى إيمانه، فكذلك الصوم، أما الحج فإنه لا يجب على كل أحد وإنما يجب على المستطيع، ثم هو لا يجب في العمر إلا مرة فصار الاقتصار على الأمور الظاهرة التي يقاتل عليها، والتي ترتبط بعضها ببعض، فهذا هو الجواب الذي يرتضى عن هذا الحديث.

والشاهد من الحديث أن الرسول ﷺ حينما بعث معاذاً مبلغاً عنه ونائباً عنه في الحكم والقضاء أمره أن تكون الدعوة إلى شهادة أن لا إلٰه إلا الله أول ما يبدأ به، فهل يجوز مثلاً أن يذهب شخص إلى قوم لا يعرفون شيئاً، ثم يأمرهم بتحسين أخلاقهم، أو بأن يصلُّوا أو يصوموا وهم يعبدون غير الله، بل لا يعرفون شهادة أن لا إلٰه إلا الله؟ نقول: هذا لا يجوز؛ لأن هذا لو فعلوه فلا فائدة فيه، لا بد أن يكون العمل مبني على العقيدة على شهادة أن لا إلٰه إلا الله، فالله ﷻ يقول: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [النساء: ١٢٤]؛ يعني: هذا شرط لا بد أن يكون قد آمن.

وقد استدل بعض العلماء بقوله: «**ثم ادعوهم إلى**» على أن الكفار غير مخاطبين بفروع الشرع، ووجه ذلك أنه قال: «**فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم**»، فرتب إعلامهم بالصلاة وغيرها على طاعته، فدل على أنهم مخاطبون بالشهادتين فقط.

وهذا الاستدلال وإن كان صحيحاً فهو ضعيف جداً؛ لأن فعل الصلاة وغيرها مبني على شهادة أن لا إلٰه إلا الله لا يفيد ولا ينفع، ولا يعتد به حتى يأتي الإنسان بالإيمان، فإذن لا يكون فيه دليل على ذلك والمسألة خلافية ولا فائدة فيها إلا في زيادة عذابهم، وعذابهم إذا كانوا يُقرنون مع الشيطان في جهنم يكفيهم ذلك ـ نسأل الله العافية ـ، ومعلوم أنهم يختلفون في العذاب فمنهم من هو في الدرك الأسفل، ومنهم منه فوقه، ولكن كما جاء في الحديث عن النعمان بن بشير ﷺ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة لرجل توضع في أخمص قدميه جمرة يغلي منها دماغه**»[1]، هذا

---

(١) رواه البخاري رقم ٦٥٦١، ومسلم رقم ٢١٣.

أخفهم من يغلي منها دماغه، فكيف الذي يكون في طبقاتها ـ نسأل الله العافية ـ.

وفي الحديث بيان وجوب الدعوة إلى الله، وأن الإمام يبعث الدعاة الذين يدعون إلى الإسلام وإلى شهادة أن لا إلٰه إلا الله، وفيه صفة الداعي الذي يدعو إلى الإسلام كما في هذا الحديث، وأن الدعوة إلى توحيد الله جل وعلا.

۞ قال رحمه الله تعالى: ولهما، عن سهل بن سعد ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: «لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله يفتح الله على يديه»، فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يُعطاها، فلما أصبحوا غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها فقال: «أين علي بن أبي طالب؟»، فقيل: هو يشتكي عينيه، فأرسلوا إليه فأتى فبصق في عينيه ودعا له فبرأ كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية فقال: «انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم»[1]. يدوكون؛ أي: يخوضون.

سهل بن سعد بن مالك بن خالد الأنصاري الخزرجي الساعدي أبو العباس صحابي شهير، وأبوه صحابي أيضاً مات سنة ثمان وثمانين. وقد جاوز المائة.

قوله: «يوم خيبر»: غزوة خيبر كانت في السنة السابعة بعد رجوعه من الحديبية، وهي خاصة بأهل الحديبية كما ذكر الله جل وعلا ذلك في سورة الفتح. فقوله: «يوم خيبر» هذا كان في آخر الأيام؛ لأن أيام القتال معدودة، وقد كان تأبى فتح خيبر وقتاً، حيث قاتل المسلمون، ثم قاتلوا ولم يفتح عليهم، ثم بعد ذلك بعد ما أمسوا انصرفوا من القتال، قال رسول الله ﷺ: **«لأعطين الراية»** هذا القول ففرح الناس، ولكن اشتغلوا فيمن تدفع إليه الراية، مع أنه فيه بشارة بالفتح، ولكن همهم الذي تدفع إليه لما ذكر رسول الله ﷺ أن الله يحبه ورسوله، فهذا هو الذي اهتموا به أكثر، ومعلوم أن الله جل وعلا

---

(١) رواه البخاري رقم ٣٠٠٩، ومسلم رقم ٢٤٠٦.

يحب كل مؤمن تقي، وكذلك رسوله ﷺ، ولكن الرسول ﷺ إذا شهد لمعين بعينه أن هذا الرجل يُحبه الله، ويحبه رسوله ﷺ كل أحد يحب أن يكون ذلك الرجل المشهود له، والسبب في هذا أن الإنسان لا يثق في عمله، ولا يدري هل هو أتى بالعمل على الوجه المطلوب؛ لأن الأعمال لها غوائل ولها قوادح كثيرة فهو لا يثق بأنه وصل إلى هذه الدرجة، فإذا شهد له الرسول ﷺ كان هذا مفرح جداً، وكل واحد يود أن يكون ذلك الرجل، هذا هو السبب في كونهم اشتغلوا عن هذه البشارة، وكلهم غدا إلى رسول الله ﷺ يرجو أن تدفع إليه الراية حتى يفوز بهذه البشارة من رسول الله ﷺ بأن الله يحبه ورسوله، وأما كون العبد هو يحب الله ورسوله، فهذا أمر لازم ولا يحصل الإيمان إلا بذلك.

وقد وقع لرسول ﷺ وهو سيد ولد آدم، والصحابة وهم سادات الأولياء وأفضل الناس بعد الرسل ما وقع من شدة في القتال ومن الجوع والوباء حتى يظهر فقر العباد إلى الله، وأن الأمر كله بيد الله تعالى، والمؤلف رحمه الله استدل بهذا على التوحيد، ووجه الاستدلال بهذا أن الرسول ﷺ مع أنه أكرم الخلق على الله، لا يملك لنفسه شيئاً من دون الله، ولا يملك لأصحابه شيئاً، ولا يملك إلا ما أعطاه الله جل وعلا، وهو عبد تجري عليه أقدار الله، وأحكامه فلا يُدعى مع الله، ولا يُطلب منه ما يطلب من الله بل يجب أن يخلص التوحيد لله والعبادة لله وحده، فما يكون أحد مشاركاً له فيها لا الرسول ولا غيره، والله ﷻ يبتلي عباده بالضرَّاء حتى يظهر الصابر والمجاهد حقاً من المنتكس الذي لا يصبر، وحتى أيضاً يحصل لهم رفع الدرجات؛ لأن الجنة درجات عالية جداً، وتختلف منازلهم باختلاف مقامات التوحيد في قلوبهم والصبر والجهاد والنصح والصدق مع الله جل وعلا، ولهذا جاء في الحديث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: عن النبي ﷺ قال: «**إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق، أو المغرب لتفاضل ما بينهم**»[1]، فكيف ترى مثلاً سهيلاً، هل أحد يمكن أن

---

(١) رواه البخاري رقم ٣٢٥٦، ومسلم رقم ٢٨٣١ وتمامه «قالوا: يا رسول الله تلك منازل =

يصل إليه، أو الكواكب التي تكون بجانب السماء، فمنزلة أصحاب الغرف مثل هذه الكواكب وبعدها عن الأرض فهي بعيدة جداً.

فهذه الرفعة وهذا العلو العظيم ليس لأنهم جاؤوا بأمور لم يأت بها غيرهم، من صلاة وصيام وغيرها، بل لأنه صار في قلوبهم من معرفة الله جل وعلا وتوحيده وحبه والإنابة إليه ما لم يكن عند غيرهم، وكذلك الأعمال الأخرى فهم يختلفون فيها كثيراً، فإذا كان العبد منهم يستطيب الموت، وأحدهم ينظر إلى تمرات في يده ويقول: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة[1] فهو يكره الحياة كلها، يريد أن يتقدم إلى ما آمن به من قول رسول الله ﷺ، وهو: أن العبد إذا قتل في سبيل الله فله الجنة، فهذا هو المطلب العالي الذي يتسابق إليه أهل الفضل.

وكذلك ما جاء في قصة عبَّاد بن بشر رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «**من رجل يكلؤنا الليلة؟**» فقام رجلان عمار بن ياسر، وعباد بن بشر فقالا: نحن يا رسول الله نكلؤك. وجلس الرجلان على فم الشعب، فقال أحدهما لصاحبه: أي الليل أحب إليك، أن أكفيك أوله فتكفيني آخره؟ قال: اكفني أوله. فنام عمار بن ياسر، وقام عباد بن بشر يصلي، وأقبل عدو الله يطلب غرة فلما رأى سواده رماه فأصابه فانتزع السهم، ثم رماه بآخر فانتزعه، ثم رماه الثالثة فلما غلب عليه الدم ركع وسجد، ثم قال لصاحبه: اجلس فقد أُتيت فجلس. فقال: أي أخي ما منعك أن توقظني في أول سهم رمى به؟ قال: كنت في سورة أقرأها فكرهت أن أقطعها حتى أفرغ منها، ولولا أني خشيت أن أضيع ثغراً أمرني به رسول الله ﷺ ما انصرفت، ولو أتي على نفسي[2]، فأصبح يستلذ الآلام في جانب الطاعة، وهذا هو المعنى الذي يقول كثير من العلماء: إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة[3]. الجنة هذه هي

= الأنبياء لا يبلغها غيرهم قال: بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين».

(١) كما في قصة عمير بن الحمام، سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) مدارج السالكين ١/٤٥٤ قال ابن القيم: سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله =

استلذاذ الطاعة وكونه في نعيم فيها، وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ [الانفطار: ١٣]، كما قال ابن القيم في دورهم الثلاث: في الدنيا، وفي البرزخ، وفي الآخرة[1]. وليس النعيم هو الأكل والشرب وتحصيل الشهوات وغيرها من المناصب، بل النعيم الأنس بالله وبطاعته جل وعلا، وإلا النعيم الذي تشترك فيه البهائم مع العقلاء ليس نعيماً.

فالمقصود أن ما أصابهم من الجوع حين اضطروا إلى أن طبخوا الحمر الأهلية، ثم أمر النبي ﷺ بإكفاء القدور وقال إنها رجس، وما أصابهم من الوباء؛ لأن خيبر موبئة فلما أخبرهم الرسول ﷺ بالفتح اشتغلوا بهذا عما أصابهم حرصاً على حب الله ورسوله فشغلهم هذا عن البشارة كما قال المؤلف، فهذا يدل على فضلهم وتسابقهم إلى الخير وأن كل واحد منهم يود أن يكون هو ذلك الرجل، وقد جاء عن عمر رضي الله عنه أنه قال: ما أحببت الإمارة إلا يومئذ، قال: فتساورت لها رجاء أن أدعى لها[2]. وحبه للإمارة لأجل هذه الشهادة، وليس لذات الإمارة.

= روحه يقول: إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة.

(١) الجواب الكافي ١/ ٨٤ قال رحمه الله: ولا تظن أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤] يختص بيوم المعاد فقط، بل هؤلاء في نعيم في دورهم الثلاثة، وهؤلاء في جحيم في دورهم الثلاثة، وأي لذة ونعيم في الدنيا أطيب من بر القلب وسلامة الصدر ومعرفة الرب تعالى ومحبته والعمل على موافقته، وهل عيش في الحقيقة إلا عيش القلب السليم، وقد أثنى الله تعالى على خليله عليه السلام بسلامة القلب فقال: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ [الصافات: ٨٣، ٨٤]، وقال حاكياً عنه أنه قال: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

والقلب السليم هو الذى سلم من الشرك والغل والحقد والحسد والشح والكبر وحب الدنيا والرياسة، فسلم من كل آفة تبعده من الله، وسلم من كل شبهة تعارض خبره، ومن كل شهوة تعارض أمره، وسلم من كل إرادة تزاحم مراده، وسلم من كل قاطع يقطعه عن الله، فهذا القلب السليم في جنة معجلة في الدنيا وفي جنة في البرزخ وفي جنة يوم المعاد، ولا يتم له سلامته مطلقاً حتى يسلم من خمسة أشياء: من شرك يناقض التوحيد، وبدعة تخالف السُّنَّة، وشهوة تخالف الأمر، وغفلة تناقض الذكر، وهو يناقض التجريد والإخلاص يعم، وهذه الخمسة حجب عن الله».

(٢) رواه مسلم رقم ٢٤٠٥ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قوله: «لأعطين»: تأكيد باللام والنون. وفي رواية: **«إني دافع اللواء إلى رجل»**(١).

قوله: «الراية»: هي العَلَم المعروف الآن، الراية لها لون وصفة، والعلم له لون وصفة، كما قاله بعض العلماء، وقد جاء عن ابن عباس ﷺ أنه قال: كانت راية رسول الله ﷺ سوداء ولواؤه أبيض(٢). وعند ابن عدي: مكتوب فيه: لا إلٰه إلا الله محمد رسول الله(٣). وقال الحافظ: إنها شيء واحد(٤).

والراية علامة على القائد، وهي تدل على أن الجيش مستقيم، وأن حاله مستمرة ما دامت مرفوعة وخفاقة، ولهذا يحافظ عليها فإنها إذا سقطت فهي علامة الانهزام.

ويدل على أن الرسول ﷺ كان له راية كان يرفعها وقت القتال ويعطيها من هو مقدم وشجاع؛ لأن بها قيام الجيش وقيام الأمر، ومعنى ذلك أن المقصود الأمير الذي يؤمِّره على القتال؛ لأن الإمام يُقدم من يرى أنه أهلاً للقتال ويُؤمِّره على غيره، ثم غيره من المسلمين يطيعونه ويكونون تحت أمره ما دام مطيعاً لله جل وعلا.

قوله: «يفتح الله عليه»: أخبر ﷺ أن الفتح من الله جل وعلا **«يفتح الله عليه»**، وهو يكون سبب فقط، والسبب والمسبَّب كله من الله جل وعلا، وقد فتح الله على يديه خيبر، وفي هذا أن فتحها بالقوة وهذا شيء معلوم.

---

(١) أحمد في المسند رقم ٢٢٩٩٣.

(٢) رواه الترمذي رقم ١٦٨١، وابن ماجه رقم ٢٨١٨، والطبراني في الكبير رقم ١٢٩٠٩.

(٣) ابن عدي في الكامل رقم ٤١٧.

(٤) فتح الباري لابن حجر ٦/١٢٧ قال: وقد أخرجه أحمد من حديث بريدة بلفظ: «إني دافع اللواء إلى رجل يحبه الله ورسوله» الحديث، وهذا مشعر بأن الراية واللواء سواء. وقال في مكان آخر: والراية بمعنى اللواء وهو العلم. ثم قال: وقد صرح جماعة من أهل اللغة بترادفهما، لكن روى أحمد، والترمذي من حديث ابن عباس: «كانت راية رسول الله ﷺ سوداء ولواؤه أبيض»، ومثله عند الطبراني عن بريدة، وعند ابن عدي عن أبي هريرة وزاد: «مكتوباً فيه لا إله إلا الله محمد رسول الله»، وهو ظاهر في التغاير، فلعل التفرقة بينهما عرفية.

وهذا فيه أيضاً علمٌ من أعلام النبوة، وبشارة من الرسول ﷺ فوقع كما أخبر صلوات الله وسلامه عليه.

وقوله: «يحب الله ورسوله»: لم يعين الرجل منه، وإنما وصفه بأنه: **«يحب الله ورسوله»**، وهذه صفة كل مؤمن فليست خاصة برجل، وإن كان الحب يتفاوت، مؤمن يحب الله ورسوله أكثر وآخر أقل، ولكن لا بد منهما فهذا هو أصل الإيمان وهو معنى التأله.

وقوله: «ويحبه الله ورسوله»: هذا هو الشأن، وهذا هو الذي حرص عليه الصحابة والله ورسوله أيضاً يحبان كل مؤمن تقي، ولكن إذا نص الرسول ﷺ على رجل معين فإن كل واحد يحب أن يكون ذلك المعين؛ لأن هذا يدل على القبول، ويدل على الإيمان للمعين والإنسان لا يدري مهما عمل هل قبل منه أو رد عمله، كما أن له ذنوب لا يدري هل غفرت، أو لم تغفر، وهذا هو السبب في كون الإنسان يخاف؛ لأن له ذنوباً ليس عنده علم أنها غفرت بالتوبة وأن توبته قبلت، وله أعمال لا يدري هل قبلت منه، أو ردَّت، وآفات الأعمال كثيرة فإذا جاءت الشهادة من الرسول ﷺ في مثل هذا فكل يتطلع إليها، ويحب أن يكون هو ذلك الرجل.

وفي هذا شهادة لعلي رضي الله عنه أنه بهذه الصفة، وبأنه مؤمن، وفيه الرد على الخوارج الذين يكفرونه هو وإخوانه من الصحابة رضي الله عنهم، والرافضة يجعلونه وحده المؤمن ومعه عدد قليل جداً من الصحابة، فهل يتم هذا لهؤلاء ولهؤلاء؟

نقول: لا يتم؛ لأن كلا الطائفتين يتمسَّك بجانب ويترك الجوانب الأخرى، فإذا قالت الرافضة مثل هذه الأقوال التي صدرت من الرسول ﷺ فيهم قالها قبل ردتهم يقابلهم النواصب بمثل هذا، يقولون أيضاً: هذا القول صدر من الرسول ﷺ في علي قبل ردته. فكل طائفة لا يتم استدلالهم، وإنما يتم لأهل السُّنَّة الذين يرون أن الصحابة على الحق، ولم يطرأ عليهم شيء مما يقول هؤلاء الضلال، فالله جل وعلا عليم حكيم لا يمكن أن يثني على أحد وهو يعلم أنه يرتد؛ لأنه علام الغيوب، فثناؤه على الصحابة يدلنا على أنهم يستمرون على الخير وعلى الفضل حتى يموتوا على ذلك.

وفيه صفة الحب لله جل وعلا «**يحبه الله**»، وأن الله يحب من يشاء من عباده، وهو من صفاته التي تكاثرت في القرآن وفي الأحاديث، وقد أنكرها أهل البدع مثل المعتزلة والأشاعرة، فالأشاعرة يؤوِّلونها، أو يفوِّضونها وكلاهما باطل، ولكن حبه جل وعلا حب يليق به ولا يشبه حب الخلق؛ لأن الشبهة التي منعت هؤلاء المبتدعه أن لا يقولوا بذلك؛ يعني: بهذه الصفة لله هو ما يعرفونه من أنفسهم أن الحب يدل على الميل إلى الملائم، أو يدل على الحاجة، أو ما أشبه ذلك، وهذه صفة المخلوق، أما صفة الرب جل وعلا فهي لا تشبه صفة المخلوقين، كما أنه جل وعلا بنفسه لا يشبه المخلوقين، وكذلك صفاته تبع لذاته، وكذلك حب الرسول ﷺ، فإنه واجب متعين على كل مسلم ولا يحصل الإيمان إلا بذلك، وقد جاءت الأحاديث في توضيح ذلك، وبيَّن رسول الله ﷺ أن العبد يجب أن يحب رسول الله ﷺ أكثر من حبه لنفسه ومن ولده والناس أجمعين، وأنه لا يحصل له الإيمان إلا بذلك كما في حديث أنس ؓ قال: قال النبي ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين**»[1].

وفي حديث عبد الله بن هشام قال: كنا مع النبي ﷺ، وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب، فقال له عمر: يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، فقال النبي ﷺ: «**لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك**»، فقال له عمر: فإنه الآن والله لأنت أحب إلي من نفسي، فقال النبي ﷺ: «**الآن يا عمر**»[2]، والإيمان الذي أمرنا به هو الإيمان الذي ينجي من عذاب الله.

قوله: «فبات الناس يدوكون»: بات؛ يعني: باتوا ليلتهم، يدل هذا على اهتمام الصحابة في طلب الخير، وإن كان أصابهم ما أصابهم من التعب والإعياء من القتال، فمع ذلك لم يبالوا بذلك بل باتوا يتباحثون كل واحد يرجو أن يكون هو الذي تدفع إليه، وقد فسر «**يدوكون**» فسَّرها بأنهم يخوضون؛ يعني: التباحث والتساؤل فيما بينهم، وفيه جواز المباحثة في العلم، وإن كان

---

(١) رواه البخاري رقم ١٥، ومسلم رقم ٤٤. (٢) رواه البخاري رقم ٦٦٣٢.

عند الناس من يكشف المسألة مثل: الصحابة عندهم الرسول ﷺ إذا سألوه ورجعوا إليه كشف لهم الأمر جلياً.

وقوله: «ليلتهم»: يطلق عليها، ولو كان أكثر الليل أو بعضه، ولا يلزم أن يكون الليل كله.

قوله: «فلما أصبحوا غدوا»: غدا؛ يعني: ذهبوا مبكرين.

قوله: «على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها»:؛ يعني كل واحد يود ويحب أنها تدفع إليه لما ذكر من أن الله يحبه ورسوله.

قوله: «فقال: أين علي بن أبي طالب؟»: علي ﷺ لم يكن مع الحاضرين والرسول ﷺ كأنه استبعد أن يكون علي ليس مع هؤلاء الذين حضروا عنده؛ لأنه نظر إليهم فلم يره فسأل عنه أين هو؟

وعلي ﷺ تخلف؛ لأنه كان أرمد، ثم بعد ذلك لام نفسه، وقال: كيف أتخلف؟ فذهب وهو أرمد ولكنه لم يستطع الحضور لوجع عينيه، وفي هذا يقول الشراح[١]: وفيه سؤال الإمام عن رعيته وتفقده أحوالهم وسؤاله عنهم في مجامع الخير. وفيه كما يقول المؤلف ﷺ: الإيمان بالقدر، لحصولها لمن لم يسع لها، ومنعها عمن سعى[٢].

وقوله: «فأخبروه أنه يشتكي عينيه»: فيه أن الرسول ﷺ ما كان يعلم الغيب، فلهذا لم يعرف أن علياً كان أرمداً، وأنه لم يحضر بسبب عينيه.

وقوله: «فأرسلوا إليه»، وفي رواية: **«فأرسل إليه فأتي به»**، وجاء أن سلمة بن الأكوع هو الذي ذهب وجاء به، كما جاء عند مسلم[٣] قال: ثم أرسلني إلى علي وهو أرمد، قال: فأتيت علياً فجئت به أقوده وهو أرمد ـ يقاد لا يبصر لا يرى شيئاً قد انطبقت عيناه من المرض ـ حتى أتيت به رسول الله ﷺ فبصق في عينيه فبرأ، وأعطاه الراية.

قوله: «فبصق في عينيه ودعا له»: تفل في عينيه من ريقه صلوات الله

---

(١) تيسير العزيز الحميد ص١٠٨.

(٢) المسألة الثالثة والعشرون.

(٣) رواه مسلم رقم ١٨٠٧.

وسلامه عليه «فبرأ كأن لم يكن به وجع» كأن لم يكن به بأس، وكأن لم يصب بمرض، وقد برئ في ساعته في هذه اللحظة التي بصق به رسول الله ﷺ، وهذه آية من آيات الرسول ﷺ، وقد جاء عن علي ﷺ أنه قال: ما رمدت منذ تفل النبي ﷺ في عيني[1]. وجاء عنه ﷺ أنه قال: يا رسول الله إني أرمد العين قال: فتفل في عيني، وقال: «اللهم أذهب عنه الحر والبرد» فما وجدت حراً ولا برداً منذ يومئذ[2]. فهو برئ براً تاماً ببركة تفلة الرسول ﷺ وريقه ودعاءه.

وفيه التبرك بما كان من فضلات الرسول ﷺ؛ يعني: من ريقه وعرقه وما أشبه ذلك، وهذا أمر مشهور جداً، ولكن لا يجوز أن يقاس عليه غيره لأمور منها:

أولاً: لأن قياس غير الرسول ﷺ قياس مع الفارق البعيد.

الثاني: أن غيره لا يؤمن عليه الفتنة من مثل هذا؛ يعني: إذا تُبرك به.

ثالثاً: أن الصلاح والتقى أمر خفي؛ يعني: هو في القلب، وقد يكون الظاهر الذي يظهر للناس هناك شيء خلافه.

رابعاً: الذي هو أهم من هذا، وهو دليل واضح أن الصحابة رضوان الله عليهم أعلم بهذا الأمر فلم يفعلوه مع غير الرسول ﷺ، فما تبركوا بأبي بكر، ولا بعمر، ولا بعثمان، ولا بعلي، ولا بغيرهم، بل قصروا هذا الأمر على الرسول ﷺ، فدل على أن هذا من خصائصه ﷺ، وأن غيره لا يجوز أن يُفعل معه ذلك.

وأما قول النووي كَلَلهُ في شرحه لهذا الحديث[3] وغيره: ففيه التبرك

---

(١) رواه أحمد في المسند رقم ٥٧٩، وعند الطيالسي رقم ١٨٩ يقول: ما رمدت ولا صدعت منذ دفع رسول الله ﷺ الراية إلي يوم خيبر. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٢٢/٩ بعد أن ساق لفظ: «**ما رمدت ولا صدعت منذ مسح رسول الله ﷺ وجهي وتفل في عيني يوم خيبر حين أعطاني الراية**» قال: رواه أبو يعلى وأحمد باختصار، ورجالهما رجال الصحيح غير أم موسى وحديثها مستقيم.

(٢) رواه ابن أبي شيبة رقم ٣٢٠٨٠، وأحمد في المسند رقم ٧٧٨، والنسائي في الكبرى رقم ٨٤٠١، وابن ماجه رقم ١١٧.

(٣) شرح النووي على مسلم ٢١٩/٤.

بآثار الصالحين واستعمال فضل طهورهم وطعامهم وشرابهم ولباسهم، فهو مردود بهذه الأمور، وفيه أيضاً سد الذرائع الموصلة للشرك، ولكونه فيه توسل بالمخلوق وغيره، ومعروف حكم سد الذرائع إذا كان هذا الأمر جائزاً بنفسه ولكن قد يكون وسيلة للمحرم فإنه يمنع لئلا يقع المحرم.

وفيه فضيلة علي ﷺ وهذا من أعظم المناقب.

وقوله: «فأعطاه الراية، وقال انفذ على رسلك»: انفذ؛ يعني: امضي بعزيمة وبقوة بدون تردد وتوقف. على رسلك؛ يعني: على هيئتك مترفقاً، غير مستعجلاً.

وقوله: «حتى تنزل بساحتهم»: الساحة: هو المتسع قرب البيوت.

وقوله: «ثم ادعهم إلى الإسلام»: هذا هو الشاهد، وفي رواية في صحيح مسلم: «فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب فأعطاه إياها وقال: **امش ولا تلتفت حتى يفتح الله عليك**، قال: فسار علي شيئاً، ثم وقف، ولم يلتفت فصرخ: يا رسول الله على ماذا أقاتل الناس؟ قال: «**قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله**»[1]، فقوله: «**ادعهم إلى الإسلام**» هو معنى شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله؛ لأن الإنسان لا يكون مسلماً حتى ينطق بهذه الكلمة، وهذا يدلنا على أن الكافر إذا كان كفره بالجحود فلا بد أن يقر بما جحد؛ لأن اليهود يقولون: لا إله إلا الله، ولكن لا يقولون: محمداً رسول الله، وهم لا يشركون بل يعيبون على المشركين أنهم يشركون، ومع ذلك هم كفار في النار لأنهم كفروا برسول الله ﷺ.

وفي هذا الأمر دعوة الكافر وأنه يجب أن يدعى قبل القتال، فإن استجاب لله ﷻ واعتنق الإسلام فإن هذا هو المطلوب ويكف عن قتاله، وإلا يقاتل حتى يقبل الحق، أما إذا أبى فإنه يقاتل، والعلماء فصَّلوا في هذا فقالوا:

إذا كان الكافر ما بلغته الدعوة فإنه لا يجوز قتاله قبل دعوته بل يجب أن يُدعى إلى إحدى ثلاث: إما أن يسلم فيكف عنه ويُترك وبلاده، وإما أن يدفع

---

(١) مسلم رقم ٢٤٠٥ من حديث أبي هريرة.

الجزية والمسلمون يحمونه ويتركونه وماله، فإن أبى ذلك فالقتال والله ينصر من يشاء، هكذا كان الصحابة يقولون ويفعلون، هذا إذا كانت الدعوة ما بلغته، فإن الدعوة في حقه واجبة؛ يعني: أنه لا يجوز قتالهم حتى يُدعوا، وإذا كانت قد بلغتهم الدعوة فإن الدعوة في حقهم مستحبة كما في هذا الحديث؛ لأن هؤلاء قد بلغتهم الدعوة فإن كثيراً من الذين في خيبر في ذلك الوقت خرجوا من المدينة وقد سبروا الدعوة وعرفوها تماماً، وعرفوا الرسول ﷺ كما يعرفون أبناءهم كما أخبر الله جل وعلا بذلك.

وإذا كانت قد بلغتهم الدعوة فإنه يجوز مداهمتهم بلا دعوة؛ لأن رسول الله ﷺ أغار على بني المصطلق، وهم غارون وأنعامهم تسقي على الماء فقتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم وأصاب يومئذ جويرية[١]. لأن الدعوة قد بلغتهم ولأنه بلغه ﷺ أنهم كانوا يجمعون له[٢]

فقوله: «ادعهم إلى الإسلام»: بحيث يسمعوا صوتك تدعوهم إلى الإسلام تقول لهم: أدعوكم إلى الإسلام أسلموا حتى تسلموا، اقبلوا الإسلام حتى تكونوا مثلنا هكذا كان يقول الصحابة.

وقوله: «وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه»؛ يعني: في الإسلام، وفي هذا دليل أنه لا يقتصر على الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله فقط، فلا بد من إعلامهم بأن الصلاة واجبة، والزكاة والصوم وكذلك الحج وما يلزم لذلك.

قوله: «فوالله»: خبر الرسول ﷺ حق وصدق لا يمكن أن يتطرق إليه شك أو ارتياب، ومع ذلك يقسم صلوات الله وسلامه عليه؛ لأن الموقف موقف ترغيب وفضل عظيم، فالرسول ﷺ لا يحلف إلا على الأمور المهمة، وفيه جواز الحلف، ولو لم يطلب من الإنسان أن يحلف إذا كان هذا فيه حض على الخير والدعوة إلى الله جل وعلا، وفيه تأكيد لمن قد يكون عنده شيء من التردد فإن هذا يكون مستحباً اتباعاً للرسول ﷺ.

---

(١) رواه البخاري رقم ٢٥٤١، ومسلم رقم ١٧٣٠.

(٢) السنن الكبرى للبيهقي ٣٨/٩، والطبراني رقم ١٥٨.

وقوله: «لئن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم»: حمر النعم: هي النوق الحمر وهي التي يُضرب بها المثل في نفاسة المال. وهي أفخر المال عند العرب وأحسنه، وهي التي يتفاخرون بها ويتنافسون على اقتنائها، وعن أبي رافع يرفعه: «**لأن يهدي الله ﷺ على يديك رجلاً خير لك مما طلعت عليه الشمس وغربت**»[(١)]؛ لأن هداية رجل واحد يكون له أجر هذا الاهتداء، وأجر عمله إلى أن يموت، وحسنة واحدة تكون في صحيفة العبد المؤمن أفضل له من الدنيا كلها، ومن هذا يُعلم أن قياس أمور الدنيا بالآخرة تقريبية فقط، وإلا ليس فيه قياس، فموضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها[(٢)].

يقول النووي رحمه الله: إن تشبيه أمور الآخرة بأعراض الدنيا إنما هو للتقريب من الأفهام، وإلا فذرة من الآخرة الباقية خير من الأرض بأسرها وأمثالها معها لو تصورت[(٣)]. فكيف الذي يهتدي على يديه رجال كثيرون، فربما آلاف هذا لا يمكن أن يقال له: خير لك من الدنيا، هذا أمر لا يقدر بقدر يعرف، فلا يعرف فضله إلا الله جل وعلا، وهذا يدلنا أنه مع وجوب الدعوة إلى الله أن فيها فضل عظيم، كما سبق أن التوحيد مع وجوبه وفرضيته أنه يكفر الذنوب، وفيه فضل عظيم، ومعلوم أن الدنيا زائلة وما عليها، والإنسان عمره محدود فينبغى أن يختار الأمور التي تبقى له ويجدها أمامه ويكون مغتبطاً بها إذا قبلها الله جل وعلا، وبهذا يتبيَّن لنا أن الدعوة إلى التوحيد هي أهم ما ينبغي للعبد أن يقوم به، وإن كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك من أمور الإسلام داخلة في الدعوة إلى التوحيد ولكن يجب أن تصحح العقائد أولاً.

❁ **قال المؤلف رحمه الله: فيه مسائل:**

❁ **الأولى: التنبيه على الإخلاص؛ لأن كثيراً من الناس لو دعا إلى الحق فهو يدعو إلى نفسه.**

---

(١) رواه الطبراني في الكبير رقم ٩٣٠، والحاكم في المستدرك رقم ٦٥٣٧.
(٢) رواه البخاري رقم ٢٨٩٢ من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه.
(٣) شرح النووي على مسلم ١٥/١٧٨.

لما قيل لهم: لا إلـه إلا الله فهموا أن المقصود أن العبادة تكون لله وحده، والمشركون قاموا على الرسول ﷺ وقالوا: بأنه عاب ديننا وشتم آباءنا، وعيب الدين وشتم الآباء هو التبري منه والكفر به، وهذا هو تفسير التوحيد، فعبادة الله وحده لا تكفي، لا بد أن يكفر بكل معبود من دونه، ولا بد من أن يتبرأ منه، ولا بد أن تقوم العداوة بين عابد الله جل وعلا وعابد الأوثان، أما مصافاتهم ومؤاخاتهم فمعنى ذلك أن التوحيد غير موجود.

فقوله رحمه الله: **«تفسير التوحيد»**؛ يعني: إيضاحه وبيانه بالكتاب والسُّنَّة وليس بكلام الناس، فلهذا اقتصر على النصوص التي فيها الإيضاح الجلي فمعنى ذلك أنه موضح ومفسر، وإنما جاء الجهل من الناس هم الذين جهلوه وكثير من الناس يقرأ كتاب الله، ولا يفهمه، وهذا من القصور بل هذا من الذنوب؛ لأن الله أنزل كتابه ليُتدبر ويُفهم ويُعمل به.

لهذا نقول: ليس لأحد عذر بعد ما جاء كتاب الله، وكذلك دعوة الرسول ﷺ؛ لأن كلام الناس لا يكفي وكذلك أفعالهم لا يجوز أن تتخذ ديناً، فالمؤلف لما ذكر الأبواب السابقة التي هي وجوب التوحيد، وكذلك فضله أنه يكفر الذنوب، وكذلك الخوف من ضده الذي هو الشرك، وكذلك وجوب الدعوة إليه، أراد أن يبين هذا الأمر بياناً واضحاً جلياً لا إشكال فيه، فعقد هذه الترجمة لأجل ذلك، وسيأتي تفسير هذه الترجمة فيما بعدها من الأبواب إلى آخر الكتاب؛ يعني: كل ما يذكره بعد ذلك هو من تفسير التوحيد؛ لأنه إما أن يذكر ما هو واجب لله جل وعلا أن يُفعل خالصاً لله، أو ما هو شرك يناقض التوحيد، أو ما هو منقص له وذاهب بكماله وهذا كله تفسير له؛ لأن من تفسير الشيء أن تذكر أضداده فيبين بها «وبضدها تتبين الأشياء»، وتفسيره الذي كلٌّ يفهمه هو البراءة من كل معبود من دون الله والكفر به وإخلاص العبادة لله، وأن تكون العبادة لله وحده، وأن كل معبود من دون الله جل وعلا يجب أن يكفر به، ويعادي ويجانب كل المجانبة، هذا هو حقيقة تفسير التوحيد، وهو التوحيد الذي جاءت به الرسل كلها من أولها إلى آخرها، وليس معنى التوحيد أن الإنسان يقول: لا إلـه إلا الله، وهو

يستنجد بالمقبورين، أو أنه يُحكِّم القوانين، أو أنه يتولى الكافرين، فإن هذا ليس توحيداً في الواقع بل هو مناقض له، ولهذا لما ذكر الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه المختصر رسالته التي جعلها في نواقض التوحيد اقتصر على عشرة نواقض وجعل منها من لم يُكفر المشركين أو شك في كفرهم، أو أنه لم يتبرأ من دينهم، فجعل هذا ناقضاً وقال أنه بإجماع العلماء[1].

وفي أيامنا هذه نسمع ناساً كثيراً يتبرَّمون من دعوة الشيخ ومن فهمه ومما يقرره، كأنه جاء بشيء جديد لم يُسبق إليه، وهذا من الجهل الفظيع ـ نسأل الله العافية ـ بل من الانحراف، فإنه لم يأت بشيء من عند نفسه وكل ما جاء به تقريراً لما قرره رب العالمين ولما بينه رسوله ﷺ، والجهل به أمر خطير جداً بل قد يجعل الإنسان ليس من أهل الإخلاص وأهل التوحيد، فمعنى ذلك أن تفسير التوحيد واضح والإنسان إذا أحب الكفر وأهله فهو كافر، وإذا لم يكفر الكافر ويبغضه فهو كافر، كفار قريش قالوا للرسول ﷺ: اتركنا على ديننا ونتركك على دينك ولا تتعرض لديننا بالشتم والسب؛ لأن هذا عندهم عيب ونتركك؛ لأنه ﷺ أول ما جاءهم بالدعوة استحسنوها جداً قالوا: هذا شيء حسن، ولكن لما قال لهم: إن آلهتكم هذه باطلة وأن من عبدها لا عقل له وهو في النار، جعلوا هذا سبّاً فثارت ثائرتهم، ومع ذلك اشتدت العداوة بينهم وبين الرسول ﷺ، فلو كان يدعو إلى عبادة الله فقط دون محاربة الباطل وأهله ما تعارضوا معه كما يقول الكفار اليوم كل يدين بدينه، ولا فيه معاداة ولا قتال، وتصير معايشة عامة، فهذه الدعوة هي الدعوة التي كانت قريش تدعو إليها نفسها فلم يقرهم عليها رسول الله ﷺ.

فتفسير التوحيد أنها قضية ليست سهلة فهي قضية الأنبياء كلهم من أولهم إلى آخرهم، فهم كانوا يعتنون به ويوضحونه للناس مع أنه واضح جلي، ولكن الأوضاع التي تواضع عليها الناس ووجدوا عليها الآباء فاستبعدوا أن يكون الذي هم عليه شركاً؛ يعني: دعوة المقبورين والالتجاء إليهم فهم يجعلون هذا

---

(١) مجموعة رسائل في التوحيد ٢٨/٥٨ قال: «الثالث: من لم يكفر المشركين، أو شك في كفرهم، أو صحح مذهبهم، كفر».

عمل مطلوب، ويزعمون أنه داخل تحت قوله: ﴿وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]، وأن الوسيلة هي التعلق بالأموات، ففهموا هذا الفهم الخاطئ وتعاقبوا على ذلك فصار تفسير التوحيد الذي يقوله الشيخ عندهم مخالف لما هم عليه، ومخالفة الإنسان للعادة التي اعتادها هو وآباؤه صعبة جداً، وليست سهلة، ولهذا كان الكفار يقولون للرسول ﷺ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]، وجدناهم على ملة وطريقة ونحن على آثارهم مقتدون، وكذلك قال كفار قريش للرسول ﷺ: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧﴾ [ص: ٧] لما جاءهم بالتوحيد قالوا: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾، وقالوا: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ شيء كذب فمخالفة الآباء صعبة جداً عند الناس، ويكفي في هذا قصة الرسول ﷺ مع عمه عندما حاول معه أن يقبل منه أن يقول لا إلٰه إلا الله عند الموت، وكان عنده أبو جهل، وعبد الله بن أبي أمية، وهما من المشركين فقالا له: أترغب عن ملة عبد المطلب.

والشيخ رحمه الله لقي في هذا من العلماء في وقته مشاكل وأموراً كثيرة، فهم كانوا يقولون أنه أتى بمذهب خامس ورموه بالكفر بسبب أنه جاء بالتوحيد الخالص.

ومقصوده رحمه الله بتفسير التوحيد: أن التوحيد هو العبادة وأن الإلٰه هو التأله؛ لأنه كان فيه إشكال واشتباه والتباس على كثير من الناس، ولهذا وقعوا في الشرك، ولهذا يحتاجون إلى إيضاح وتفسير للتوحيد لأمور منها:

أولاً: بُعد عهدنا عن عهد النبوة، ومعلوم أنه إذا تباعد الإنسان عن زمن الخير صلته تضعف، وهذا يختلف باختلاف الناس واهتمامهم.

ثانياً: أن لغتنا فسدت فأصبحنا لا نفهم من الكلمات التي نسمعها من كتاب ربنا ومن قول رسولنا ﷺ لا نفهمها كما ينبغي لفساد الألسن.

ثالثاً: وهو أن التعلق بالدنيا صار أغلب وأكثر، وقد ورد عن علي رضي الله عنه وغيره: «**إن الدنيا والآخرة ضرتان**»[1]، والضرة هي الزوجة الثانية

(١) روي هذا عن وهب بن منبه رحمه الله ولفظه: مثل الدنيا والآخرة كمثل رجل له ضرتان إن =

كل واحدة ضرة للأخرى تضرها، أو تضارها، وإذا مال الإنسان لإحداهن ضرَّ بالأخرى، هذا المعنى، وليس المعنى أن هذه تضر هذه؛ لأن الشرع يمنع من هذا، وأكثر الناس صار عبداً للدنيا فأصبحت عبادتها مقدمة على عبادة الله ـ نسأل الله العافية ـ وقد قال ﷺ: **«تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة، إن أعطي رضي، وإن لم يعط لم يرض»**[1]، فسمَّاه: عبداً للدينار، وعبداً للدرهم بل سمَّاه عبداً للخميصة والخميلة وهي لباس، أو فراش يوطئ بالأرجل فكيف يكون العبد عبداً لهذه الأشياء، وليس من المعقول أنه يسجد لهذه أو يدعوها، أو يستنجد بها فليس هذا هو المراد، وإنما المراد أنه يعمل لها، فمن عمل لها فكأنما عبدها، فهذه الأشياء استعبدها قلبه ـ نسأل الله العافية ـ.

رابعاً: وهو عدم الاهتمام بما جاء به الرسول ﷺ، وهذا أمر ظاهر وواضح في الناس؛ لأن الإنسان إذا اهتم بشيء لا بد أن يبحث عنه، فمثلاً لو أراد الإنسان أن يبني له بيتاً فتجده يسأل من بنى قبله، ويسأل الناس الذين لهم صلة بالتخطيط، أما أمور الدين فقليل من يهتم بها، وقد يكون معدوماً، وإذا أردت أن تعرف هذا جلياً فانظر حالة الناس عند الصلاة، وعند الوضوء، وعند الحج، وعند الصوم فتجد كثيراً منهم لا يعرفون أحكامها، وكذلك العبادة والتأله خصوصاً، كثير من الناس لا يعرفون حقيقتها، فليس غريباً أن يقع الالتباس في تفسير التوحيد عند كثير من الناس، أضف إلى هذا أنه وقع الخلل الكبير في تصور العبادة عند كثير من الناس حتى الذين يؤلفون الكتب مثل الذي يكتب في السيرة والتفسير والفقه وشرح الحديث فالذي يقول:

= أرضى أحدهما أسخط الأخرى. رواه ابن المبارك في الزهد، والعقيلي في الضعفاء رقم ١١١٢، وعند أحمد في المسند رقم ١٩٦٩٧ عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: **«من أحب دنياه أضر بآخرته، ومن أحب آخرته أضر بدنياه، فآثروا ما يبقى على ما يفنى»**، والحاكم في المستدرك رقم ٧٨٥٣ وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وقال الذهبي: فيه انقطاع.

(١) سبق تخريجه.

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم

إن لم تكن في معادي آخذاً بيدي فضلاً وإلّا قل يا زلّة القدم

فإنّ من جودك الدنيا وضرّتها ومن علومك علم اللوح والقلم

ولن يضيق رسول الله جاهك بي إذا الكريم تجلى باسم منتقم(١)

فجعل الاستغاثة بالرسول ﷺ من أفضل الأعمال التي يرجو ثوابها ـ نسأل الله العافية ـ ثم يأتي كثير من أتباع هؤلاء ويقولون: هذا طلب الشفاعة، فلو أننا سلمنا أن هذا شفاعة فهل الشفاعة تطلب من الرسول ﷺ، بل الشفاعة تطلب من الله جل وعلا، قال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـًٔا وَلَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزمر: ٤٣، ٤٤]، فهذا واضح بالقرآن فكيف يخفى هذا فلا تستغرب على المؤلف كَلَّلَهُ بعد ما ذكر لنا الأبواب السابقة في إيضاح التوحيد وبيان وجوبه وفرضيته وفضله، وأن هذا أمر واضح في الكتاب والسُّنَّة أن يعقد لنا باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إلٰه إلا الله ولا سيما أنه قد سبق هذا الباب باب الدعاء إلى شهادة أن لا إلٰه إلا الله، فهل يمكن أن يدعو الإنسان إلى شيء وهو لا يعرفه، فهذا يدلنا على دقة المؤلف كَلَّلَهُ، وعلى اهتمامه في هذا الأمر وبُعد نظره وسبره للواقع هذا الذي جعله كَلَّلَهُ يقول هذه الأشياء.

ثم تفسير التوحيد وشهادة أن لا إلٰه إلا الله لا حصر له في كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، وذكر كَلَّلَهُ شيئاً يسيراً جداً منها وترك أشياء أوضح من هذه جداً؛ لأنه أراد أن يأتي بالمختصر الذي يمكن للمبتدئ أن يدركه.

---

(١) هذه الأبيات من البردة للبوصيري شرف الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد بن حماد بن عبد الله الصنهاجي البوصيري المصري (٦٠٨ ـ ٦٩٦هـ) نسبة إلى بوصير من قرى بني سويف بمصر، شاعر. أغلب شعره في مديح النبي ﷺ على طريقة الصوفية. من أشهر قصائده: البردة، والهمزية، والرائية.

۞ **قال المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ: **وقول الله تعالى:** ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ۝٥٧﴾ [الإسراء: ٥٧].

وقبل هذه الآية قوله جل وعلا: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ۝٥٦﴾ [الإسراء: ٥٦].

«﴿ٱدۡعُواْ﴾»: أمر، وهو أمر للتعجيز والتبكيت.

وقوله: «﴿زَعَمۡتُم﴾»: بالتتبع لكتاب الله يتبيَّن أن معنى زعم تدل على الكذب، فهي تدل في كتاب الله على الكذب الذي يكون خلاف الواقع مثل قوله جل وعلا: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ﴾ [التغابن: ٧]، وهنا زعمتم ذلك كذباً وزوراً على خلاف الواقع زعمتم أن لكم أولياء وأنهم لكم شفعاء، ثم دعوتموهم ويجب على العبد أن يعرف كيف كانت دعوتهم؛ يعني: كان المشركون يدعون أوليائهم من دون الله، فهل كانوا يدعونهم وهم يعتقدون أنهم شركاء لله في الخلق والإيجاد والتصرف والإحياء والإماتة؟ بل دعوتهم إياهم قد بيَّنها الله جل وعلا لنا في قوله: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، وتقريب الزلفى معناه الشفاعة، فكل ما جاء في مبدأ الشرك هو ذكر الشفاعة؛ يعني: أنهم يتخذون شفعاء، والشافع هو الذي يطلب؛ يعني: يضم طلبه إلى المشفوع له ولهذا سُمي شافعاً؛ لأن بعد ما كان الطالب فرداً جاءه الشافع فضم شفاعته إليه فصار شفعاً هذه حقيقة الشفاعة وهذا أصلها، وهذا معناها، فهم يدعون رجالاً صالحين سواء من الملائكة، أو من البشر، أو يدعون مخلوقات يزعمون أنها لا ذنوب لها، أما أنهم يدعونهم على أنهم شركاء لله، أو لأن الله ملكهم شيئاً من ذلك كما يقول متأخرو المشركين من عبَّاد القبور يقول أحدهم: أنا أعرف أن الولي الفلاني لا يملك مع الله شيئاً ولكن الله ملَّكه، وأنه إذا دعي أنه يستجيب، وهذه دعوة مجردة بلا دليل وكل دعوة ليس عليها دليل فهي باطلة ويجب أن ترد.

ودعواهم هذه لا فائدة فيها، فإذا وقع الداعي في مرض أو ضرٌّ فالمدعو

لا يستطيع أن يكشف المرض ولا أن يخففه، ولا أن يحوله من حالة إلى أخرى، فدعوتهم إياهم باطلة وضائعة بل خسارة وضرر محض؛ لأنها الشرك، فهذه الدعوة التي ادَّعوها، الواقع يخالفها في كل ذراته وفي مخلوقاته التي خلقها الله جل وعلا كلها تدل على أن كل ما سوى الله عبد مسخر مذلل لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً فكيف لعبد أن يدعو عبداً فقيراً، بل غريق يتشبث بغريق، فهذا من الباطل الظاهر.

وخلاصة كلام المفسرين في هذا أن المقصود بهولاء الذين كانوا يدَّعون أنهم كانوا يدعون عباداً لله يجتهدون في التقرب إلى الله فهم عبيد لله فقراء لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً فضلاً عن غيرهم، وسواء كانوا من الملائكة أو من الرسل، أو من الجن الذين أسلموا وكان المشركون يدعونهم قبل إسلامهم كما هو واضح في كتاب الله جل وعلا في سورة الجن، فأسلم الجنيُّون فبقي الإنس على شركهم يدعون أولئك، وهم يجتهدون في دعاء الله ويتقربون إليه خوفاً من عذابه ورجاء لثوابه، وكذلك إذا كان المدعو مثلاً: الشمس، أو القمر، أو النجوم، أو حتى الشجر، فإنها مسخرة طاعة لله تطيع الله وتخاف الله جل وعلا: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ۝٩٣﴾ [مريم: ٩٣]، وكل ما في السمٰوات والأرض يسبح لله ويعبده، وإنما الكفر والإباء والتولي من بني آدم ومن بني الشيطان فقط، أما بقية المخلوقات فهي ذالة لله تعبده، فكل معبود يُعبد من دون الله هو يخاف الله ويخاف عذابه، ولكن الحجارة والشجر والأماكن وغيرها من الجبال والشمس والنجوم والقمر هذه لم يُجعل لها عقول، وتكلف بالعبادة التي كُلف بها بنو آدم وإنما هي مسخرة لأمر الله سائرة بأمره مطيعة له طاعة كونية، وكذلك لا تعصيه في شيء، وإنما الذين رُكبت فيهم العقول وجعلت لهم القدرة على تنفيذ الأمر والقيام به واجتناب النهي وخلقت لهم الجنة والنار هم بنو آدم، وكذلك بنو الشيطان، فلهذا أخبر الله جل وعلا أنه سوف يملأ جهنم من الجِنَّة والناس أجمعين فقط من عصاتهم الذين أبوا أن يعبدوا الله جل وعلا.

وقوله: «﴿فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا﴾»؛ يعني: إذا أصابكم

ضر فالذين تدعونهم من دون الله لا يملكون أن يكشفوا هذا الضر فلا يستطيعون أن يزيلوا المرض الذي وقع فيكم، أو أذى الكفار، أو غير الكفار ولا يستطيعون تحويله، أو رده أو صده، والتحويل معناه أنهم لا يحوّلونه إلى غيركم، أو لا يحوّلونه من كونه شديداً إلى أن يكون قليلاً، أو ضعيفاً، فهم لا يملكون شيئاً كما قال جل وعلا في الآية الأخرى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣]، فأخبر أنهم لا يملكون قطميراً ولا يملكون أقل شيء فهم ضعفاء والداعي لهم يكون ضالاً مع شركه واستحقاقه لعقاب الله جل وعلا وعذابه.

وقوله: «﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾»؛ يعني الذين زعموا، فإذا كان هذا من أناس معينين سواء كانوا من الملائكة، أو من الأنبياء؛ لأن عبادة الأنبياء وقعت من بعض الناس كعبادتهم لعيسى ولأمه وعزير وغيرهم، أو كان المعبود جناً، ثم أسلموا وتبرؤوا من العبادة، ولكن الذين كانوا يعبدونهم قبل إسلامهم استمروا على دعوتهم وعبادتهم، والعبادة هي دعوتهم وجعلهم وسطاء بينهم وبين الله يطلبون منهم الشفاعة، أو المساعدة، أو المدد في أمر من أمور الدنيا الغيبية، وأمور الآخرة في الشيء الذي لا يقدرون عليه، أو أنهم غائبون مطلقاً فإن كان غائباً فإن دعائه بأي شيء، وإن كان قادراً عليه لو كان حاضراً فإنه يكون من الشرك، نقول هؤلاء كلهم يتقربون إلى الله بطلب النجاة من عذابه، والسلامة والفوز برحمته وكرامته؛ يعني: هؤلاء الذين يُدعون من دون الله جل وعلا.

وقوله: «﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾»: الوسيلة هي القربى؛ يعني: العمل الذي يقربهم. والوسيلة في اللغة هو الشيء الذي يوصلك إلى المقصود. فالطريق المسلوك يسمى وسيلة، إذا سلكت طريقاً واضحاً معبداً فهو وسيلة يوصلك إلى ما تريد بسلوكه، والحبل المدلى في البئر يسمى وسيلة. فالوسيلة إذن السبب، فالعبادة وسيلة إلى حصول المطلوب.

والمطلوب من الله هو الثواب والوقاية من العذاب هذه هي الغاية، والوسيلة العبادة والقربى بالأعمال الصالحة، فهؤلاء يطيعون الله بامتثال أمره واجتناب نهيه وهذه هي الوسيلة يريدون الغاية والغاية أن يُنيلهم الثواب ويقيهم العذاب، وكل واحد يود أن يكون أرفع من الآخر، وهذا مطلوب شرعاً فإن الله يقول: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]، وهذه ليست في الدنيا بل في الدرجات عند الله جل وعلا، فالتنافس معناه كل واحد يُنافس الآخر لعله يسبقه في هذا الشيء وهؤلاء الذين يبتغون الوسيلة أيهم أقرب فسّر هذا بقول: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾، وهذان مبنى العبادة فهي مبنية على الخوف والرجاء لا بد أن يكون خائفاً راجياً، فالرجاء يقود الإنسان إلى فعل الطاعة والخوف أيضاً يسوقه، فيجب أن يكون هذا هو الذي يتحلى به الإنسان خائفاً راجياً فالعبادة لا تقع إلا بهذا، ولهذا قال بعض السلف: من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري[1]، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن[2]. ولهذا كان من وصف الرسل: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

فالمقصود أنه بيَّن جل وعلا أن هؤلاء الذين يُدْعَونَ من دون الله لأجل الشفاعة أنهم يدعون ربهم مجتهدين ممتثلين أمره مجتنبين نهيه يخافون عذابه ويرجون رحمته، فهم مشغولون في طلب التقرب إلى الله جل وعلا عن دعوة هؤلاء الذين يدعونهم غافلون عنهم كما قال جل وعلا: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ۝﴾ [الأحقاف: ٥، ٦]؛ لأنهم لا يعلمون بعبادتهم إلا إذا حشر الناس وجمعوا معهم، وقيل لهم هؤلاء عبيدكم الذين كانوا

---

(١) نسبة إلى حروراء: موضع في العراق وهي تجمع الخوارج الأوائل فيه، والخوارج هم الذين يكفرون بالذنوب.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ٣/٢٣٨.

يدعونكم: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [سبأ: ٤٠] فيتبرئون منهم ويكفرون بهم: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ: ٤١]، والجن هم الشياطين التي دعتهم إلى هذه العبادة.

ووجه تفسير التوحيد في هذه الآية أن الشيء يتبين بضده كما قيل: «وبضدها تتبين الأشياء»، ففي هذه الآية بيان شرك المشركين الذين يدعون غير الله وببيان الشرك يتبين التوحيد فالإخلاص الذي أمر الله به أن دعاء الله وحده خوفاً ورجاء هو التوحيد وهو معنى لا إله إلا الله؛ لأن الله بيَّن أن شرك المشركين أنها دعوة مخلوق وذلك المخلوق غافل عما يدعى إليه، وإذا قدر أنه ليس غافلاً فيكون كارهاً، وإذا كان راضياً فهو طاغوت بل رئيساً من رؤساء الطواغيت، فهؤلاء المدعوين عباد فقراء لله جل وعلا يتسابقون بطاعة ربهم أيهم أقرب إليه، وأيهم الذي يحظى برضاه وأرفع درجة من الآخر هم مشغولون بهذا فكيف يُدعون، وكيف العبد الضعيف المفتقر يُدعى مع الله أليس هذا انتكاس في العقل، وفي الفطر، وفي الشرع؟ وكل هذا واقع، وبهذا صار جزاء هذه الدعوة أن صاحبها خالداً في النار ـ نسأل الله العافية ـ لأنه أسوأ حال من أي مخلوق كان عند الله، وهذا جهل في حق الله جل وعلا، وكذلك تنقص لله تعالى كيف المخلوق الضعيف يُجعل نظيراً لله تعالى وتقدس، وذلك أن الشرك تشبيه المخلوق بالخالق هذه هي حقيقة الشرك وذلك بأن يُجعل لهذا الضعيف شيئاً مما هو من خصائص الخالق من العبادة.

۞ **قال المؤلف** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **وقوله تعالى:** ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزخرف: ٢٦ ـ ٢٨].

إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أول ما تبرأ من أقرب الناس إليه، وقال بعضهم: إن الولاء والبراء ليس لازماً، يقولون: لأن إبراهيم استغفر لأبيه وأنه دعاه، وأنه كذا وكذا، يقولون هذا ويغفلون عن مثل هذا الآية؛ لأنهم ينظرون بعين عوراء بل

ينظرون إلى الباطل ولا يريدون الحق، والعادة أن سُنَّة الله جل وعلا أن الإنسان إذا كان قصده الباطل أن الله يُعميه ويزيغ قلبه وأنه يقلب الأمور أمامه بحيث يصبح الباطل حقاً والحق باطلاً، ويصبح الباطل محبوباً له والحق مكروهاً إليه، فإذا كان بهذه المثابة فقد استحكم ضلاله.

وقوله: «﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾»: البراء هو الخلاص من الشيء والبعد عنه؛ يعني: أنه بعيد عنهم وعن عبادتهم، وأنه مبغض لهم وكاره لهم ومحارب لهم ومعادياً لهم، فإبراهيم ﷺ تبرأ منهم وتبرأ من معبوداتهم كذلك، فهذا التبرؤ الذي يدل على الكفر بهم وعداوتهم وبغضهم ومحاربتهم هو ركن التوحيد، والركن الثاني: أن تكون العبادة مخلصة لله جل وعلا.

فالتوحيد له ركنان:

الركن الأول: الكفر بالطواغيت وبغضها ومعاداتها أشد المعاداة.

والركن الثاني: عبادة الله وحده، تكون العبادة له وحده، ولهذا قال جل وعلا: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وكل ما هو عبادة لغير الله فهو طاغوت سواءً كان معبوداً يُسأل، ويُرجى، ويُخاف، أو كان ينفذ أحكامه، ويُطاع في معصية الله، وسواءً كان عاقلاً، أو كان معنًى من المعاني فإنه طاغوت، ويكون فاعل ذلك مشركاً بالله جل وعلا، فقوله جل وعلا: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الزخرف: ٢٦] هو أمر لنا بأن نسلك مسلك إبراهيم ﷺ، وأن نتبرأ من كل عابد ومعبود غير الله جل وعلا، نتبرأ من المعبود ومن عابده، والبراءة معناها الكفر به ومعاداته ومحاربته وبغضه حسب الاستطاعة.

وقوله: «﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾»: فطرني؛ يعني: خلقني، ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [إبراهيم: ١٠]؛ يعني: خالق السماوات، فاستثنى من المعبودات فاطرها؛ يعني: خالقها، وهذا يدلنا على أن قومه يعبدون الله ولكن يعبدون معه غيره من الأصنام كما ذكر الله جل وعلا عنهم في قصة إبراهيم في مواضع من كتابه جل وعلا.

وقوله: «﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾»؛ يعني: بالكلمة الباقية هنا التبرؤ، والاستثناء كونه تبرأ من المعبودات، ثم استثنى فاطرها وهو الله؛ يعني: يدل على أن هذا هو معنى لا إلٰه إلا الله وأنه عبَّر عن الكلمة بمعناها، ولهذا الكثير من السلف فسروا ذلك بكلمة لا إلٰه إلا الله[1]، قالوا هذا هو معنى لا إلٰه إلا الله؛ لأن قوله: «**لا إلٰه**»؛ يعني: الكفر بكل إلٰه دون الله، وقوله: «**إلا الله**»؛ يعني: التأله يكون له والعبادة له وحده، هذا قول إبراهيم ﷺ، ولهذا يقولون أن هذه الآية تفسر لا إلٰه إلا الله، وهو ما أراده المؤلف فهي تفسير للإلٰه إلا الله فمعنى تفسير لا إلٰه إلا الله البعد عن الشرك ومعادته، وكذلك المشرك فلا بد من التبرئ من الشرك ومن المشرك، وإخلاص العبادة لله وحده فهذا هو تفسير لا إلٰه إلا الله، وهذا كما قلت أنه واضح في كتاب الله في آيات كثيرة، ومن أوضح ذلك وأبينه قول الله جل وعلا في دعوة الرسل كما في قصة هود ﷺ مع قومه: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧٠﴾ [الأعراف: ٧٠]؛ يعني: أن ترك ما يعبد آباؤنا؟ فهذا معناه ترك عبادة ما كانوا يعبدونه ويعبده آباؤهم، واجتنابه والبعد عنه، وكل الأنبياء يقولون لأممهم هذا، وأممهم فهمت ذلك فقد بينه الله ووضحه، ولكن الأمر الذي يتعجب منه العاقل كيف مع هذا البيان، وهذا الإيضاح في كتاب الله تجد بعض طلبة العلم فضلاً عن غيرهم تجدهم يقعون في الشرك الصريح الذي هو مناقض لهذا البيان وهو كونهم يدعون الأموات ويتقربون إليهم بالنذور والدعوات ويسألونهم تفريج الكربات ويزعمون أنهم يملكون كشف الضر وجلب النفع، ولا يزال هذا موجوداً في كثير من البلاد الإسلامية، والدعوة إلى هذا الشرك جادة وقائمة، ولكن الشرك والوثنية لُبِّست ثياباً جديدة غير الثياب القديمة حتى تُلبِّس

---

(١) تفسير ابن كثير ٧/ ٢٢٥ قال: وهي «لا إله إلا الله»، أي: جعلها دائمة في ذريته يقتدي به فيها من هداه الله من ذرية إبراهيم ﷺ. وقال عكرمة، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، والسدي، وغيرهم في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ يعني: لا إله إلا الله، لا يزال في ذريته من يقولها. ورُوي نحوه عن ابن عباس.

على الناس، وليست هي التي لبست ولكن أُلبست من قبل النصارى واليهود والمتنصّرين والمتهوِّدين من جميع الناس، والأمر في هذا خطير جداً لأن دعوتهم الآن صارت تنشر وتقرر وصار لها رموز وصار لها أناس يدافعون عنها بل دول تدافع عنها وتدعو إليها مع وضوح الأمر وجلائه، فالمقصود أن هذه الآية التي ذكرها المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ وغيرها من الآيات كثيرة فيها من إيضاح التوحيد وبيانه وتفسير لا إله إلا الله ما لا عذر لأحدٍ بجهله.

✿ **قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: وقوله تعالى:** ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣١].

قوله: «﴿ٱتَّخَذُوٓاْ﴾»: الضمير هنا عائد على اليهود والنصارى. والأحبار هم العلماء وأحدهم حبر نسبة للحبر الذي يُكتب به؛ لأن مبدأ العلم الكتابة، ولهذا يقول جل وعلا: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾﴾ [العلق: ١ ـ ٤] أول التعليم يكون بالقلم، وكله يكون بالقلم، فلهذا قيل: أحبار لمن كان عالماً؛ لأنه تعلمه بالكتابة.

وأما الرهبان فهم العباد. والأحبار الغالب عليهم أنهم يهود، والرهبان الغالب عليهم أنهم نصارى، فاليهود علماء ولكنهم قساة القلوب يخالفون ما يعلمون ويكفرون بذلك، والرهبان النصارى عبَّاد ولكنهم ضُلال، ولهذا أمرنا الله جل وعلا أن نسأله أن لا نكون من هؤلاء ولا من هؤلاء في كل ركعة من ركعات الصلاة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾ [الفاتحة]، المغضوب عليهم العلماء الذين خالفوا ما علموا، والضالون الذين يتعبدون بضلالات ليس بالاتباع ولا بالشرع.

والمقصود أن الآية قد فسرها رسول الله ﷺ، فعن عدي بن حاتم قال: أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب فقال: «**يا عدي إطرح هذا الوثن من عنقك**» فطرحته، فانتهيت إليه وهو يقرأ سورة براءة فقرأ هذه الآية:

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ حتى فرغ منها فقلت: إنا لسنا نعبدهم فقال: «**أليس يحرِّمون ما أحل الله فتحرِّمونه، ويحلُّون ما حرَّم الله فتستحلُّونه؟**»، قلت: بلى، قال: «**فتلك عبادتهم**»[1]، وهذا هو مقصود المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ؛ يعني: أن طاعة مخلوق في معصية الله يكون اتخاذاً له إلـٰهاً ونقض للتوحيد، وأن هذا ينافي كلمة لا إلـٰه إلا الله كلمة الإخلاص، وهذا أيضاً من التفسير، طاعة المخلوق في المعصية يكون شركاً بالله جل وعلا فهو من تفسير شهادة أن لا إلـٰه إلا الله، ولهذا أمر الله جل وعلا بطاعته وطاعة رسوله ﷺ. فمعنى التوحيد وشهادة أن لا إلـٰه إلا الله يقتضي إفراد الله بالطاعة، وإفراد الرسول ﷺ بالمتابعة لا بد من ذلك أن يفرد الله جل وعلا بالطاعة، ولهذا كثير من العلماء يفسر الإلـٰه بالمعبود المطاع، فالإلـٰه: هو المعبود المطاع، فمن أطاع مخلوقاً في ذلك فقد عبده، فلهذا جعل هذه الآية تفسيراً للتوحيد كما هو ظاهر.

❁ **قال المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ: **وقوله تعالى**: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وهذا أيضاً نوع آخر من أنواع تفسير التوحيد، فالآية التي قبلها في الطاعة وأن الطاعة تكون لله ولرسوله ﷺ فقط، ولكن طاعة الله عبادته أن يعبده ويتبع أمره، ويجتنب نهيه، وطاعة الرسول ﷺ بما جاء به من عند الله جل وعلا أن يطاع ويتبع، وأن لا يعبد الله إلا بالشرع الذي جاء به وأن الشرع متوقف على مجيء الرسول ﷺ، وأما هذه فهي في المحبة؛ يعني: أن يكون الحب لله وحده.

وقوله: «﴿أَندَادًا﴾»: الأنداد هي الأمثال والنظراء ولو في وصف، أو معنى من المعاني وليس في كل شيء، ولهذا لما قال رجل لرسول الله ﷺ: ما شاء الله وشئت. قال له: «**أجعلتني لله نداً؟ بل ما شاء الله وحده**»[2]، فالأنداد

---

(١) الطبراني في الكبير رقم ٢١٨، والبيهقي رقم ٢٠٨٤٧، والترمذي رقم ٣٠٩٥.
(٢) سبق تخريجه.

الأمثال والنظراء والشبهاء الذين يتشبهون بالله جل وعلا، فهذا في حقه، أما في خصائصه فهذا لا يستطيعه أحد ولكن قد يدعي مدعي.

وقوله: «﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾»؛ يعني: حب التأله والتعبد كمحبة الله؛ يعني: الحب الذي فيه الذل والخوف، وفيه التعظيم؛ أي: يحبون تلك الأنداد هذه المحبة فهم سوَّوا بين الله وبين أندادهم بالحب، فهذا هو الشرك، فمعنى ذلك أن الحب يجب أن يكون خالصاً لله وأن لا يكون شيئاً منه لغير الله، فمن أحب مع الله غيره فقد أشرك، وهذا ضد لا إله إلا الله، ضد التوحيد، وبضدها تتبين الأشياء، ولهذا يقول المؤلف في المسائل:

فيه أكبر المسائل وأهمها، وهي تفسير التوحيد، وتفسير الشهادة؛ وبيَّنها بأمور واضحة ومنها: آية البقرة في الكفار الذين قال الله فيهم: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧] ذكر أنهم يحبون أندادهم كحب الله؛ فدل على أنهم يحبون الله حباً عظيماً ولم يدخلهم في الإسلام. فكيف بمن أحب الند أكبر من حب الله؟ فكيف بمن لم يحب إلا الند وحده، ولم يحب الله؟[1]، فمثل هذا يكون بعيداً كل البعد عن التوحيد، ومراده رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن معنى التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله هو إفراد الله بأصل الحب الذي يستلزم إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، وعلى قدر التفاضل في هذا الحب يتفاضل الناس في التوحيد، وفي منازلهم عند الله جل وعلا.

۞ ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «من قال: لا إله إلا الله، وكفر بما يُعبد من دون الله حَرُم ماله ودمه وحسابه على الله عَزَّ وَجَلَّ»[2].

قوله في الصحيح؛ يعني: صحيح مسلم، وهذا الحديث عن أبي مالك الأشجعي رضي الله عنه عن أبيه عن النبي ﷺ، وأبو مالك الأشجعي اسمه سعد بن طارق كوفي ثقة، مات في حدود الأربعين ومائة.

قوله: «من قال: لا إله إلا الله»؛ يعني: أنه لا بد أن ينطق بهذه الكلمة، ولا بد من اعتقاد معناها ولا بد من العمل بما دلت عليه.

---

(١) المسألة الرابعة.

(٢) رواه مسلم رقم ٢٣.

وقوله: «وكفر بما يعبد من دون الله»؛ يعني: من عبد الله وحده وكفر بما يعبد من دون الله فتكون عبادته خالصة لله جل وعلا ومع ذلك لا بد من أن يكفر بكل معبود يعبد من دون الله، والكفر بالمعبود هو معاداته وبغضه والبراءة منه والبعد عنه، لا بد من ذلك وإلا لا يكون العبد موحداً، فالأمر ليس مجرد قول، أو مجرد علم يكون بالقلب، فلا بد من القول ولا بد من العمل، ولا بد من العقيدة، وهذا يدلنا على دقة تعبير السلف أهل السُّنَّة الذين عبَّروا عن الإيمان قالوا: أنه مركب من أمور ثلاثة من القول ومن العمل ومن الاعتقاد، وهذه الأمور الثلاثة عبارة عن الإيمان، وإذا تخلف واحد منها فإن العبد لا يكون مؤمناً، والإيمان هو كون الإنسان يعبد الله وحده وهو معنى قول لا إلٰه إلا الله، ولهذا قال الرسول ﷺ: **«من قال: لا إله إلا الله»**، فمنطوق الحديث يدلنا على أنه لو اعتقد أن الإلٰه هو الله وحده ولكن لم يتكلم ولم ينطق بهذه الكلمة، ولم يشهد بذلك فإنه يكون كافراً من أهل النار، وكذلك لو أنه عمل بمعنى لا إلٰه إلا الله، ولكنه لم ينطق بها فإنه لا يكون مؤمناً، وكذلك لو نطق وعمل بمدلولها، ولكنه لم يكفر بما عُبد من دون الله فإنه لا يكون مؤمناً بل يكون كافراً، ولهذا لما ذكر المؤلف رحمه الله نواقض الإسلام جعل بإجماع العلماء أن من لم يُكفر الكفار، أو صحح دينهم، أو رأى أنهم يسعهم ذلك فإنه كافر بالإجماع[1]، واستدل بمثل هذا الحديث ونحوه، والحديث واضح في هذا؛ لأن الرسول ﷺ يقول: **«من قال: لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله»**، فقوله: **«كفر»** مع قوله: **«لا إله إلا الله»** لا بد منه.

وقوله: «حرم ماله ودمه وحسابه على الله»؛ يعني: أن العبد إذا لم يقل: لا إلٰه إلا الله، ولم يكفر بما يعبد من دون الله فإنه حلال الدم والمال يقتل كافراً، ويسبى ماله وكذلك ولده ونسائه.

وقوله: «وحسابه على الله»؛ يعني: أن من قال ذلك في ظاهره وكفر بما

---

(١) موسوعة مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب ١٠/ ١٧٠ قال: الثالث: من لم يكفّر المشركين، أو شك في كفرهم، أو صحح مذهبهم، كفر إجماعاً.

يعبد من دون الله في الظاهر فالباطن إلى الله، إن كان قوله وعمله ظاهراً وباطناً، فهذا المسلم ظاهراً وباطناً وسوف يجزيه الله جل وعلا ويكرمه، أما إذا كان هذا مجرد ظاهر فهذا أمره إلى الله والله سيتولى حسابه، ويدخل في هذا مثلاً المنافق الذي يقول: لا إلٰه إلا الله، ويكفر بما يعبد من دون الله في الظاهر موافقة لأهل الإيمان حتى يكون معهم ويسلم من سيفهم ويُحرز ماله ودمه، لكن أمره إلى الله وحسابه عليه وسوف يُجزيه جزاء المنافقين، فهذا أيضاً تفسير للا إلٰه إلا الله وللتوحيد، فبهذا تبين أن التوحيد هو عبادة الله بالإخلاص له وحده والبراءة من كل معبود سواه، والكفر به والتبري منه، وبدون ذلك لا يكون الإنسان موحداً.

❁ **قال المؤلف** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **فيه مسائل:**

❁ **«فيه أكبر المسائل وأهمها وهي تفسير التوحيد وتفسير الشهادة وبيَّنها بأمور واضحة:**

❁ **منها: آية الإسراء: بيَّن فيها الرد على المشركين الذين يدعون الصالحين، ففيها بيان أن هذا هو الشرك الأكبر».**

يعني: قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ۝٥٧﴾ [الإسراء: ٥٧]؛ يعني: أن المدعوين يدعون الله ويخلصون الدعوة لله، فهم عبيد فقراء إلى الله جل وعلا فكيف أنتم تدعون عبيداً فقراءَ وهم يتقربون إلى الله يعملون الأعمال كل واحد منهم يريد أن يسبق أخاه إلى رضى الله بما أمره الله به فإذاً تكون الدعوة؛ يعني: دعوة هؤلاء شرك والتوحيد تفسيره بذكر ضده فإنه بضدها تتبين الأشياء.

وقوله: «ففيها بيان أن هذا من الشرك الأكبر»؛ يعني: أن الذين يتوسلون بالأموات ويطلبون منهم النفع ودفع الضر أنهم مشركون الشرك الأكبر.

❁ **ومنها: آية براءة بيَّن فيها: «أن أهل الكتاب اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، وبيَّن أنهم لم يؤمروا إلا بأن يعبدوا إلٰهاً واحداً مع أن تفسيرها الذي لا إشكال فيه طاعة العلماء والعباد في المعصية لا دعاؤهم إياهم».**

والأحبار هم العلماء والرهبان هم العبَّاد، ووضح في الأمر أنها ليست عبادة وإنما هي مجرد طاعتهم في المعصية، أطاعوهم فيما أمروهم به فصارت عبادة لهم وليست سجود ولا ركوع، وإنما هي طاعة المخلوق في معصية الله جل وعلا، فإذا أطيع المخلوق في معصية الله جل وعلا فهذا يكون شركاً في الطاعة.

❁ **ومنها قول الخليل ﷺ للكفار: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾** [الزخرف: ٢٦، ٢٧]، **فاستثنى من المعبودين ربه، وذكر سبحانه أن هذه البراءة وهذه الموالاة هي تفسير شهادة أن لا إله إلا الله فقال: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾** [الزخرف: ٢٨].

يعني: أن قوم إبراهيم ﷺ كانوا يعبدون الله ولكنهم كانوا يعبدون معه غيره فهذا هو الشرك، وهذا تفسير التوحيد وبيانه، ولهذا لما تبرأ منهم وتبرأ من معبوداتهم استثنى الله جل وعلا قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾، ومعنى فطرني: خلقني؛ لأن الفطر هو إيجاد الشيء بلا سابق عمل آخر يمكن أن يُقتدى به.

فقال: «﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾»: فقوله: «﴿تَعْبُدُونَ﴾» دخل فيما يعبدونه أصنامهم والله جل وعلا، فهم يعبدون الأصنام ويعبدون الله جل وعلا، فتبرؤ من الأصنام واستثناء مما عبدوا ربه فيخرج رب العالمين فإنه يعبده قومه عبادة غير خالصة جعلوا من عبادتهم نصيباً للأصنام ولله نصيباً من العبادة، وهذا هو معنى الشرك، أما أن يوجد من الناس من يعبد الصنم فقط فهذا لم يوجد، فالشرك هو عبادة الله وعبادة غيره معه والإخلاص هو أن تكون العبادة لله وحده.

وقوله: «﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾»؛ يعني: هذا مضمون هذه الآية ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾، هذا تعبير عن كلمة التوحيد بالمعنى، فالآية عبَّر عنها بالمعنى، فالبراءة من الشرك واستثناء الله تعالى من المعبودات والبراءة منها هو معنى قوله: «لا إله إلا الله»، ولهذا عبر بقوله: «جَعَلَهَا»؛ يعني: هذه الكلمة التي عُبر عنها بهذا المعنى وهم يفسرونها بقولهم: لا إلـه إلا الله جعلها باقية في ذريته وذريته، كان فيهم

الأنبياء وورثة الأنبياء إلى أن تقوم الساعة، لا بد أن يبقى من يعبد الله جل وعلا، فالمقصود أن هذه الآية توضح التوحيد وتبينه، وهو معنى التفسير.

۞ ومنها آية البقرة في الكفار الذين قال الله فيهم: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧]، ذكر أنهم يحبون أندادهم كحب الله، فدل على أنهم يحبون الله حباً عظيماً، ولم يُدخلهم في الإسلام، فكيف بمن أحب الند أكبر من حب الله، وكيف بمن لم يحب إلا الند وحده ولم يحب الله؟.

آية البقرة هي قول الله جل وعلا: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ١٦٥]؛ الند: هو المثيل والنظير ولو بصفة من الصفات أو فعل من الأفعال، فإذا جعل للمخلوق شيء مما هو لله فذلك المخلوق نداً كما قال ﷺ للذي قال له: «ما شاء الله وشئت» قال: «**أجعلتني لله نداً**»؛ يعني: جعلت مشيئة المخلوق مشاركة لمشيئة الخالق بالفعل فيكون ذلك تنديداً، فالند هو المشارك في الشيء، أو الذي أعطى صفة من صفات الله جل وعلا، والحب المقصود به حب الذل والخضوع الذي يقترن به التعظيم، فهذا لا يجوز أن يكون لغير الله جل وعلا، وبعضهم يفسره بحب السر؛ يعني: الحب الغيبي الذي يكون في القلب يتضمن طلب نفع، أو دفع ضر هذا هو الشرك، فإذا جُعل هذا الحب لغير الله فهو الشرك الأكبر، وشرك المحبة نوع من أنواع الشرك؛ لأن الشرك أقسام منها:

شرك الدعوة كما في الآيات التي فيها: أن المشركين إذا ركبوا في البحر وعصفت بهم الريح دعوا الله مخلصين له الدين وإذا سلموا ونجوا عادوا إلى شركهم كما قال جل وعلا: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ۝٦٥﴾ [العنكبوت: ٦٥].

شرك النية والإرادة والقصد كما قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝١٥ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٦﴾ [هود: ١٥، ١٦].

شرك الطاعة كما في قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣١﴾ [التوبة: ٣١].

شرك الحب كما في قوله جل وعلا: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وقوله في سورة الشعراء في ذكر كلام أهل النار وهم فيها: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨] يخاطبون الذين كانوا يشركونهم مع الله يقولون: والله إن كنا لفي ضلال بيِّن إذ نسويكم برب العالمين، وهم لم يسويهم برب العالمين في الخلق والفعل والتصرف والإحياء والإماتة وغير ذلك ما أحد من الخلق فعل هذا ولكن سوَّوهم به في الحب فقط، حب الذل والخضوع، الحب الذي هو التأله يجب أن يكون خالصاً لله جل وعلا ولا يجوز أن يكون للمخلوق منه شيء، فإذا صار للمخلوق منه شيء فإنه الشرك الأكبر.

يقول الشيخ: إن هذا يفسر التوحيد وذلك أن كثيراً من الناس يأتي إلى صاحب القبر فيتضرع عنده يقول: يا فلان يا سيدي أنقذني من كذا، أو اشفع لي، أو أعطني كذا وكذا، وما أشبه ذلك ويخضع له ويذل ويستكين قلبه، فهذا شرك أكبر إذا مات عليه الإنسان كان من أهل النار الخالدين فيها، وإن كان يصلي ويصوم ويحج ويتصدق لا ينفعه هذا مع هذا الشرك.

۞ ومنها قوله ﷺ: «من قال: لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله»، وهذا من أعظم ما يبين معنى لا إله إلا الله فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصماً للدم والمال بل ولا معرفة معناها مع لفظها، بل ولا الإقرار بذلك، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له، بل لا يحرم ماله ودمه حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله، فإن شك أو توقف لم يحرم ماله ولا دمه، فيا لها من مسألة ما أعظمها وأجلها، ويا له من بيان ما أوضحه وحجة ما أقطعها للمنازع.

وهذه قضية كبيرة جداً يجب أن يتنبه لها، وهو أن الكفر بالطواغيت لا يمكن أن يكون التوحيد مستقيماً إلا به، كما قال جل وعلا: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة: ٢٥٦]، والطاغوت كل ما عُبد من دون الله، أو كل ما صد عن عبادة الله، أو كل من دعا إلى عبادة

غير الله فهو طاغوت، فهنا يقول: «**من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وكفر بما يعبد من دون الله**» هذا من باب التفسير والإيضاح.

وقوله: «من شهد أن لا إله إلا الله»: يكفي إذا فهم العبد ذلك؛ لأنه يدل على أنه لا بد من الكفر بالطاغوت، **فقوله: «لا إله»** نفي مطلق ينفي أن يكون هناك مألوه غير الله، ومعنى هذا النفي هو إبطاله والكفر به؛ يعني: بالآلهة الموجودة غير الله، وقوله: «**إلا الله**» إثبات التأله لله وحده، إذن **قوله: «وكفر بما يعبد من دون الله»** من باب الإيضاح والتفسير حتى لا يكون للإنسان تعلق في شيء أو عنده تردد في هذا الأمر، وكان الرسول ﷺ يوضح الكلام غاية الإيضاح.

قال الشيخ رحمه الله: لو أن الإنسان وقع منه التوحيد؛ يعني: صار لا يعبد إلا الله ولكنه لم يكفر بما يعبد من دون الله ما يحرم ماله ولا دمه، كذلك إذا قال: «**لا إله إلا الله**» مجرد قول لا يكفي، فلا بد أن يضيف إلى قول لا إله إلا الله العمل في القلب وفي الجوارح، وعمل القلب أن يعتقد بطلان ما يُعبد من دون الله ويبغضه ويكرهه غاية الكراهة، والعمل أن يعمل على البعد عنها وقتال أصحابها ومجاهدتهم باليد واللسان والفعل إذا أمكن، ولهذا جاء في الحديث أن الرسول ﷺ قال: «**من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، ومن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»[(١)]، فالمقصود أن هذا من الأمور الواضحة التي توضح شهادة أن لا إله إلا الله، وهو جعل هذا الباب أصلاً يُبنى عليه كل ما بعده من الأبواب.

وقوله: «فيالها من مسألة ما أعظمها..»: لكن هذا لمن يفهم ذلك يكون واضحاً وحجة عنده، أما المغالط والذي غطى على قلبه، أو نكس على فهمه فأصبح الباطل عنده حقاً والحق عنده باطلاً فلا يكون ذلك واضحاً لديه.

المؤلف رحمه الله يقول: «وشرح هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب».

وما بعدها فيها ذكر العبادات وأنواعها، وفيها ذكر ما يضاد لا إله إلا الله

---

(١) رواه مسلم رقم ٤٩ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

سواء كان يضاده مضادة تامة، أو أنه يذهب كماله، أو ينقصه، ينقص أصله ولا يذهب بأصله، وإنما يذهب بأجزائه؛ لأن في ذكر الأضداد بيان لما أريد وذلك أن الذي لا يعرف الشرك ولا يعرف أنواعه يقع فيه وهو لا يدري، ولهذا كان الصحابة رضوان الله عليهم لما كانوا واقعين في الشرك قبل دخولهم في الإسلام ويعرفون حقائقه وأنواعه صاروا من أعظم الناس تمسكاً بالتوحيد وبعداً وكراهيةً لضده، كما قال عمر ﷺ: أتدري متى تنقض عرى الإسلام عروة عروة؟ إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية.

وكان حذيفة ﷺ يقول: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن أقع فيه. ففيه أن الإنسان يتعرف على الشر؛ لأن الذي لا يعرف الشر يوشك أن يقع فيه، وهو لا يدري، أو أقل حاله أنه لا ينكره وإنكاره واجب، فينكره ويكرهه.

فبدأ بالشرك الأصغر فقال:





الباب السابع

۞ قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ: باب من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه. أطلق أنه من الشرك بدون تعيين نوعه هل هو من الأكبر أو الأصغر.

قوله: «لبس»؛ يعني: كل ما لبس على هذا الشكل وسواءً جعل في الرأس، أو في الرقبة، أو في البدن، أو في الجيب أو غير ذلك فهو لبس؛ يعني: أنه اعتقد نفع ذلك، إما إزالة البلاء إذا كان نازلاً، أو منعه قبل أن ينزل، أو رفعه بعد ما ينزل، ودفعه قبل نزوله.

«**الحلقة والخيط ونحوهما**»؛ يعني: هذا مثال، فكل ما كان على هذه الصفة سواءً كان من الخيوط، أو من الخرق، أو غيرها مثل السلاسل سواءً من الذهب، أو الفضة، أو النحاس التي توضع الآن أو غيرها فهي مثل ذلك. والحديد والصفر والنحاس ما له في نفسه نفع في مثل هذه الأمور وليست أسباباً، وليست علاجاً، وإنما هذا حسب ما يتوهم الإنسان، والتوهم قد يكون مرضاً، فإذا فعل ذلك زال ذلك التوهم أو شيء منه، فيصبح وهمه كأنه شيء حقيقي، وهو ممنوع من أجل أن القلب يتعلق به.

قوله: «لرفع البلاء»: رفعه بعد حصوله سواءً رفع بالكلية أو جزئياً. والبلاء مطلق؛ يعني: من حمى أو عين، أو جني أو ما أشبه ذلك، فالبلاء يقصد به كل مضر وكل مؤلم سواءً نفسياً أو بدنياً.

قوله: «أو دفعه»: الدفع يكون قبل نزوله وقبل الحصول؛ كالذي يُعلق التمائم خوفاً من الجن أو خوفاً من عين الإنسان، أو ما أشبه ذلك، فهذا يفعل ذلك لدفعه ولمنعه أن يحصل. والله جل وعلا هو الفعال لما يريد، وهو الذي يتصرف في الكون كله، ولكنه جعل أسباباً لكل شيء، وإذا عُرفت

الأسباب وعُرف أن الله جل وعلا جعلها أسباباً فلا يجوز تعطيلها.

وإذا كان وضع هذا الشيء لأجل رفع أو دفع البلاء، فقد وقع في الشرك، ولكن هذا الشرك هل هو من الشرك الأكبر أو من الشرك الأصغر؟

ذكره للآية يدل على أنه من الشرك الأكبر، ولكن سيأتي في المسائل أن هذا من الشرك الأصغر، وهذا يختلف باختلاف المقصد والنية، إذا كان الإنسان لبس هذا الخيط أو الحلقة مثلاً أنها تؤثر في نفسها في ذلك فهذا من الشرك الكبير، وإن اعتقد أن الله جعلها سبباً لذلك فهذا من الأصغر، في قصة ابن مسعود لما دخل على زوجته ذات يوم فتنحنح قالت: وعندي عجوز ترقيني من الحمرة فأدخلتها تحت السرير فدخل فجلس إلى جنبي فرأى في عنقي خيطاً قال: ما هذا الخيط؟ قلت: خيطاً رقي لي فيه، قالت: فأخذه فقطعه ثم قال: إن آل عبد الله لأغنياء عن الشرك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الرقى والتمائم والتولة شرك**» قالت: فقلت له: لم تقول هذا وقد كانت عيني تقذف فكنت أختلف إلى فلان اليهودي يرقيها، وكان إذا رقاها سكنت، قال: إنما ذلك عمل الشيطان كان ينخسها بيده فإذا رقيتها كف عنها إنما كان يكفيك أن تقولي كما قال رسول الله ﷺ: «**أذهب الباس رب الناس، اشف أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقماً**»[1]، فالشيطان يأتي إلى الإنسان فيؤذيه في ذلك حتى يقع في الشرك، فإذا وقع الشرك أزال عنه ذلك حتى يبقى مشركاً.

وليس كل شيء يحصل به نفع يكون مشروعاً، أو يكون جائزاً، فبعض الناس ينتفع بالزنا مثلاً، وينتفع بشرب الخمر، وينتفع بأشياء من هذا القبيل، فهذا لا يدل على أن هذا جائز؛ لأن فيه نفع، وإنما الجائز ما أباحه الله جل وعلا وأمر به، فهو يختلف باختلاف مقصد الإنسان الذي وضع هذا الشيء، إذا كان يرى أنه ينفع بذاته وبنفسه فهو شرك أكبر؛ لأنه جعله شريكاً لله جل وعلا في الربوبية والتصرف والنفع والضر.

---

(١) أحمد في المسند رقم ٣٦١٥، والبيهقي رقم ٢٠٠٨٨، وأبو داود رقم ٣٨٨٣.

وإن كان يقول هذا سبب، الله جعله سبباً ووجد به كذا وكذا وأنه ينفع؛ لأنه سبب يدفع البلاء قبل نزوله وكذلك يرفعه بعد حصوله أو يخففه، فهذا من الشرك الأصغر؛ لأن الله لم يجعل ذلك سبباً، والأسباب يجب أن تكون ثابتة في الشرع مباحة، فالأسباب التي جعلها الله أسباباً تُفعل ولا يجوز إهمالها، ولكن الأسباب لا تستقل بالتأثير، فإن المؤثر هو الله جل وعلا وحده ولا يوجد سبب وحده يقوم بالمسببات ويؤثر فيها فلا بد للسبب من أسباب أخرى، والأسباب لها موانع إذا أراد الله جل وعلا لم تعمل عملها، فالمقصود أن الأسباب نوعان:

أحدهما: أسباب جعلها الله أسباباً فهذه يعمل بها ولكن لا يعتمد عليها، وإنما الاعتماد على الله جل وعلا في حصول المقصود بعد فعل السبب.

والثاني: أسباب لم يجعلها الله أسباباً فهذه التعلق بها وجعلها أسباباً من الشرك، وهذا الشرك قد يكون أكبر، وقد يكون أصغر بحسب اعتقاد فاعله، أو الذي تعلق به، والشرك الأصغر أعظم من الزنا ـ نسأل الله العافية ـ فإذا قلنا: أنه أصغر فليس معناه أنه سهل بل هو صعب، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، يدخل فيه هذا العموم؛ يعني: أن الإنسان إذا مات عليه فهو غير مغفور له لا بد أن يعاقب عليه.

❁ **قال المؤلف** رحمه الله: وقول الله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨].

قبل هذه الآية قوله جل وعلا: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾﴾ [الزمر: ٣٦].

يخوّفونه بآلهتهم كما هي سُنَّة الكفار يقولون: إذا خالفتهم أو كفرت بهم فسوف يعاقبونك ويفعلون بك كذا وكذا، كما قالوا لهود عليه السلام: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ [هود: ٥٤]؛ يعني: أصابك بخبل وجنون: ﴿قَالَ إِنِّىٓ

أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوٓا أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾ [هود: ٥٤، ٥٥]؛ يعني: لا تتركوني لحظة أسرعوا بكيدكم اجتمعوا أنتم وآلهتكم فكيدون بأي وسيلة تريدون فلا تستطيعوا ولن تصلوا إلي؛ لأنه ﷺ وليه الله، وهو متوكل على ربه جل وعلا الذي هو آخذ بناصية كل دابة فلن يصلوا إليه، وكذلك هؤلاء الكفار يخوّفونه باللات والعزى وغيرها فهم يخوفونه بما يعبدونه من دون الله ويرجونه.

قوله: «﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم﴾»: الله جل وعلا أمر نبيه ﷺ أن يسألهم يقول: آلهتكم هذه التي تدعون من دون الله أخبروني عنها.

«﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾»: هذا في آلهتهم في الأصنام التي يدعون من دون الله، وهي إما أن تكون شجراً أو حجراً أو ميتاً أو جنياً أو ملكاً أو كوكباً وما أشبه ذلك.

وقوله: «﴿إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾»: من مرض، أو عذاب وما أشبه ذلك.

وقوله: «﴿هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾»: هل تستطيع أن تكشفه، أو تزيله، أو تخففه، وقد أنزله الله بي؟

وقوله: «﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ﴾»: من صحة، أو هداية، أو قوة، أو نصر.

قوله: «﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾»؛ يعني: هل تستطيع أنها تمنعها؟ الجواب: أنها لا تستطيع أن تفعل شيئاً من ذلك فهي لا تدفع عن نفسها شيئاً فكيف عن غيرها!! وكذلك لا تجلب لنفسها شيئاً فكيف لغيرها. فكيف يدعون شجرة؟ كيف يدعون حجراً؟ وكيف يدعون ميتاً، أو غائباً ليس حاضراً، وهو مخلوق ضعيف ويزعمون أنه يملك النفع والضر ومن فعل ذلك، فقد وقع في الشرك فأين العقول؟ فالخطاب للعقول يجب أن يفكروا في عقولهم، وإذا كانت العقول مغطاة بالباطل، وما كان عليه الآباء والعادات السابقة، وإن ضاف إلى ذلك البغض بغض الداعي والمبين، وإن ضاف إليها مصالح دنيوية من رئاسات ومنافع وما أشبه ذلك، صارت إجابة الدعوة صعبة جداً، ولهذا صار أكثر الناس لا يستجيبون للرسل ولا سيما الكبراء، وإنما يستجيب للرسل الضعفاء من الفقراء والعبيد والمستضعفين، فهم أتباع الرسل كما قال الله جل

وعلا في دعوة الرسل لقومهم: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ﴾ [المؤمنون: ٣٣].

يعني: هم الذين تملأ مناظرهم الأعين أصحاب المناصب وأصحاب الأموال والرئاسات، فهؤلاء منعتهم رئاساتهم ومصالحهم وكونهم مثلاً لهم شهوات ولهم أهواء، فمنعتهم هذه كلها عن اتباع الحق.

فليس لهم جواب، فهذه المعبودات جميعها، وقد جاء بـ«ما» لتشمل جميع معبوداتهم فهم سكتوا؛ لأنهم يعرفون أنها لا تستطيع، وهكذا عادتهم أنهم إذا أخرسوا بالحجة سكتوا، وهكذا جميع الباطل، وقد يكابر صاحب الباطل، ويأتي بأمور خلاف العقل وخلاف الوضع الذي عليه الناس.

وكل ما طلب منه النفع أو طلب منه الدفع لبلاء فهو داخل في هذه الآية، فالذي مثلاً يعلق التميمة فهو يطلب بها أن تدفع عنه شيئاً متوقع الوصول، أو أن ترفع عنه شيئاً موجوداً فيه من مرض سواء كان من إصابة جني، أو عين إنسان، أو غير ذلك، وهذا لا فرق فيه بين كونه من كلام الناس، أو من طلسمات الخطوط التي يخططونها أو من أسماء الشياطين، أو من القرآن وأسماء الله جل وعلا، وإذا كانت من القرآن ففيها خلاف وسوف يأتي أن الصواب أنه لا يجوز تعليقها.

فكل نفع غيبي يكون طلبه من مخلوق فهو شرك، والمخلوق سواءً كان عاقلاً أو غير عاقل، والغيبي؛ يعني: أنه شيء يتوقع لن يحصل الآن، وهو غير محسوس مثل: إزالة المرض، فهل مثلاً خيط يُعلقه الإنسان فيزيل المرض، أو كتاب تضعه في جيبك، أو تحت الوسادة يزيل المرض؟ وهم يقولون: إنه من التحرزات ويسمونها حرز يحرز الإنسان، والتحرزات ليست بالأوراق والخيوط والخرق التي تخاط، التحرزات بالله تعالى وأصلها في القلب أن يتجه الإنسان إليه بقلبه فيذكره بلسانه وقلبه مؤمن به يطلب منه النفع وحده والدفع منه وحده هذا هو التحرز الحقيقي، أما إذا وجه ذلك إلى مخلوق فهذا من الشرك.

قوله: «﴿قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾»: هذا أمر من الله جل وعلا، وحسبي معناها: كافيني؛ أي: الله كافيني وحده، أكتفي بربي وحده، هو الذي التجأ إليه ويمنعني من كل محذور، وينيلني كل ما أطلب منه جل وعلا إذا شاء.

قوله: «﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾»: التوكل هو اعتماد القلب على الله جل وعلا؛ لأن الإنسان عبد لله، بل الخلق كلهم عبيده وما من دآبة إلا هو آخذ بناصيتها جل وعلا، فإذا توكل العبد على ربه حق التوكل فإنه يكفيه. فأمره الله جل وعلا أن يعتمد على ربه ويخبر هؤلاء أن آلهتهم التي يدعونها أنها لا تنفع ولا تضر، وأنها لا تستطيع أن تملك من رفع البلاء، أو إمساك الخير والسعادة شيئاً، وهذا مثل ما سبق في الآية التي في سورة الإسراء أن المدعوين من دون الله لا يستطيعون رفع الضر، ولا تحويله إما إلى غيرهم، أو من موضع إلى موضع؛ يعني: أنها لا تنفع أصلاً ولا تدفع.

وهذه الآية في الشرك الأكبر، فكيف استدل على أن لبس الخيط والحلقة داخل في هذه الآية؟

هذا من باب القياس، ولبس الحلق والسلاسل من الشرك، والآية تدل على أن الشرك كله يدخل فيما ذكر كبيره وصغيره، ولم يزل الصحابة رضوان الله عليهم وأتباعهم يستدلون على الشرك الأصغر وبطلانه فيما نزل في الشرك الأكبر كما هو واضح من تفسيرهم ومن الوقائع التي وقعت لهم مع غيرهم، وهذا منها فقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢] قال: الأنداد هو الشرك أخفى من دبيب النمل على صَفَاة سوداء في ظلمة الليل، وهو أن يقول: والله وحياتك يا فلان، وحياتي ويقول: لولا كلبة هذا لأتانا اللصوص، ولولا البطّ في الدار لأتى اللصوص، وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئتَ، وقول الرجل: لولا الله وفلان. لا تجعل فيها «فلان». هذا كله به شرك[1]. وكذلك ما رواه عُرْوَة قال: دخل حذيفة على مريض فرأى في عضده سيراً فقطعه ـ أو: انتزعه ـ ثم قال: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ۝١٠٦﴾ [يوسف: ١٠٦][2]، وقد جاء تفسيرها بغير ذلك، قال ابن عباس: من إيمانهم، إذا قيل لهم: من خلق

---

(١) تفسير ابن كثير ١/١٩٦.

(٢) المصدر السابق ٤/٤١٨، وابن أبي حاتم رقم ١٢٨٩١.

السماوات؟ ومن خلق الأرض؟ ومن خلق الجبال؟ قالوا: «الله»، وهم مشركون به[1]. فهذا في الشرك الأكبر، والشرك الأكبر يدخل فيه الشرك الأصغر وهذا هو وجه الاستشهاد من الآية، وهو أن الله جل وعلا أخبر أن كل من طلب النفع، أو طلب المنع من الأذى، أو رفعه سواءً كان صنماً يعبد، أو كان بحلقة، أو خيطاً، فإنه يكون شركاً وتعلقاً بغير الله جل وعلا، وبهذا يتبين أن لبس الخيوط والحلق والتمائم والخرز والودع وغيرها، وكذلك الطلسمات والخطوط وكل ما يجعل من هذا القبيل لأجل النفع، أو لأجل دفع البلاء، فإنه داخل في هذا وهو من الشرك، وسواءً كان من الشرك الأكبر أو من الأصغر، إنما هو شرك والآية تدل عليه وكونه من الأكبر، أو من الأصغر هو في حسب اعتقاد الفاعل إذا كان الذي يسأل ذلك يعتقد أنه يدفع وينفع بذاته فهو من الشرك الأكبر.

۞ قال المؤلف رحمه الله: عن عمران بن حصين رضي الله عنه أن النبي ﷺ رأى رجلاً في يده حلقة من صُفْر فقال: «ما هذه؟»، قال: من الواهنة. فقال: «انزعها، فإنها لا تزيدك إلا وهناً، فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحتَ أبداً»، رواه أحمد بسند لا بأس به[2].

أحمد رحمه الله رواه في المسند قال: حدثنا خلف بن الوليد، حدثنا المبارك عن الحسن قال: أخبرني عمران بن حصين رضي الله عنه، وقد اختلف العلماء هل الحسن سمع من عمران؟ والصحيح أنه سمع، وهذا الحديث واضح في صحة سماعه منه قال: أخبرني عمران. وهذا الذي رجحه البخاري وغيره من العلماء.

وجاء في رواية أخرى أن عمران هو الذي لبس الحلقة[3].

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/٤١٨.

(٢) رواه أحمد في المسند رقم ٢٠٠٠٠، وابن ماجه رقم ٣٥٣١، وابن حبان رقم ٦٠٨٥، والحاكم في المستدرك رقم ٧٥٠٢ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(٣) سنن البيهقي رقم ٢٠٠٩٤، ومسند البزار رقم ٣٥٤٧، والمستدرك رقم ٧٥٠٢ قال: دخلت =

قوله: «**رأى رجلاً**»: فيه الأدب كون الإنسان يعبر عن الشيء المكروه بما لم يسم؛ لأن هذا مكروه أن يضيف الرجل إلى نفسه شيء فيه شرك، ولهذا قال: «**رجلاً**» فدخل فيه هو وغيره.

وقوله: «**في يده حلقة**»: الحلقة هي ما لويت أطرافه، ودخل بعضها ببعض يكون حلقة سواءً كبيرة، أو صغيرة، وسواءً من الخيوط، أو من النحاس، أو من الصفر، أو من الذهب، أو من غير ذلك.

وقوله: «**من صُفْر**»: معدن من النحاس معروف.

قوله: «**ما هذه؟**»: ما: هذه للاستفهام. والنبي ﷺ لم يسئل عن ماهيتها ما هي، هل هي حديد أو نحاس أو ما أشبه ذلك؟ ولكن الاستفهام عن المقصود، عن الوضع الذي وضعت من أجله؛ يعني: عن فعل الإنسان، وهذا يدلنا على أنه لو جعلها لشيء غير هذا الذي جعله له فإنه قد يختلف الحكم.

وهذا يدلنا أيضاً على أن إنكار المنكر يجب أن يُعلم أنه منكر أولاً، فإذا عُلم ذلك يُنكر.

وفيه أن الذي يريد أن يحكم على الشيء؛ كالمفتي والحاكم وغير ذلك أنه يجب أن يتثبت ويعرف العلة ويتصور الأمور التي يحكم فيها؛ لأن قوله: ما هذه؟ بُني عليه ما بعد، فلما قال: من الواهنة. ذكر الحكم.

قوله: «**من الواهنة**»: الواهنة مأخوذة من الوهن، وهو ضعف البدن، وهو مرض يقولون: أنه يصيب الإنسان في يده وكتفه ويزعمون أنها تصيب الرجال دون النساء، وأن الخيوط التي تعلق أنها تنفع كما يزعم الجاهليون الجدد أن السلاسل التي توضع في اليد تنفع من الروماتزم، والواهنة هي الروماتزم ولكنه في موضع معين كما زعموا قال: «**من الواهنة**»؛ يعني: إما لرفعها بعد حصولها؛ يعني: يتوهم وجودها، أو لدفعها قبل حصولها وهذا داخل في الكهانة فهي من الشرك ولا تنفع، أما التوهمات فلا يُبنى عليها شيء؛ لأن الوهم لا يبنى عليه حكم، والانفعالات النفسية هي في الواقع

= على النبي ﷺ وفي عضدي حلقة صفر، فقال: ما هذه؟ فقلت: من الواهنة، فقال: انبذها.

انفعالات حسب الاعتقاد، فللإنسان قد يعتقد أنه مريض فيمرض ويعتقد أنه صحيح فلا يحس بالمرض، فقد يحصل له شيء من ذلك فهو لا يُبنى عليها شيء ولا يجوز أن يقول أنها من الأسباب؛ لأنها ليست أسباباً فيجعلها أسباباً هو من الشرك، أما إن اعتقد أن ذات الحلقة مثلاً: أنها تنفع فتزيل الوهن والمرض، فهذا ما يعتقده عاقل، فالمحذور أنه يجعلها سبباً، فقد أخبر الرسول ﷺ أنها لا تزيد الإنسان إلا وهناً.

قوله: «انزعها»: النزع هو الجذب بقوة، والذي في المسند: **«انبذها»**[1]، وهذا أبلغ من النزع؛ لأن النبذ هو طرحها وإبعادها بعيداً فإنها تضر ولا تنفع.

وقوله: «فإنها لا تزيدك إلا وهناً»؛ لأن الضار والنافع هو الله جل وعلا. **«وهناً»**؛ يعني: ضعفاً، أما كونها تزيد وهناً فهذا من ناحية الدين والاعتقاد لا من ناحية البدن، فهي لا تزيد ولا تنقص، ولكن من ناحية العقيدة والتعلق فهي تُوهنه، والمعاصي تُوهن البدن وتهدمه وتضعفه كثيراً وهذا منها، وكذلك توهن القلب، والقلب هو ملك الأعضاء، فإذا كان القلب تعلقه بالله جل وعلا وحده فإنه لا يلتفت إلى هذه الأشياء.

وقوله: «فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبداً»: لو مت وأنت مستمر على هذا الفعل بدون توبة ما أفلحت أبداً. والفلاح: هو إدراك السعادة وإدراك الخير، ومعنى ذلك: أنه لا يدرك الخير أبداً، فهل هذا يناسب أن يكون من الشرك الأصغر؟

ظاهره أنه يدل أن هذا ليس من الشرك الأصغر، ولكن قد يقال: إن هذا من باب الوعيد ونصوص الوعيد لا يجوز أن تفسر، تترك كما جاءت ويقال: الله أعلم بالمراد بها؛ كقوله جل وعلا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النساء: ١٠] وقوله: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء: ٩٣].

---

(١) المسند رقم ٢٠٠٠٠، والحاكم في المستدرك رقم ٧٥٠٢.

هذا كلام الله لا يجوز أن نصرفه عن ظاهره، فالإنسان سوف يحاسبه الله ويقول له: وما يدريك أن مرادي كذا؟ ولهذا قال كثير من العلماء أنه يجب أن تبقى على ما هي عليه، فهذا أمره إلى الله جل وعلا، وهذا الحديث مثلها فلا يجوز أن نؤوله تأويلات تخرجه عن مقصود المتكلم؛ لأنه واضح وظاهر. وإذا كان العبد إذا فعل هذا يقول: إنها سبب من الله جعل فيها شيئاً من الخاصية ترفعه، فيقال: هذا من الشرك الأصغر ويجب أن تجتنبها مطلقاً. وفي هذا أن العبد لا يعذر بجهله في مثل هذا؛ لأنه كان جاهلاً أن هذا ينفع، أو أنه يضر فمع ذلك لم يعذره الرسول ﷺ بذلك وقال: «**ما أفلحت أبداً**» لو مت وهي عليك.

وفيه أن الإنسان يحكم له بما مات عليه إذا مات على شيء فهو يحكم في الآخرة على ذلك الشيء الذي مات عليه، والأعمال بالخواتيم؛ يعني: إذا ختم له بعمل فهو له حكم ذلك العمل إن كان خيراً فهو خير، وإن كان شراً فهو شر، وهذا يشمل كل ما كان من هذا الجنس. وفيه أن الإنسان إذا وقع في خطأ شرك أو غيره، ثم تنبه ونزع منه أن هذا لا يقدح فيه ولا في ولايته، وأنه من أولياء الله فقد جاء أن هذا الرجل المبهم هو عمران بن حصين الخزاعي وهو من أفاضل الصحابة، وهو الذي كانت تسلم عليه الملائكة فلما اكتوى امتنعت من التسليم، فلما تاب عادت إلى التسليم. فالأعمال بالخواتيم والأمور التي تفعل قبل العلم بها أنها لا تؤثر إذا أقلع عنها العبد وتاب.

❁ **قال المؤلف** رحمه الله: **وله عن عقبة بن عامر مرفوعاً: «من تعلق تميمة فلا أتم الله له، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له»**[1]**، وفي رواية: «من تعلق تميمة فقد أشرك»**[2].

قوله: «وله»: الضمير يعود على الإمام أحمد رحمه الله.

---

(١) رواه أحمد في المسند رقم ١٧٤٠٤.

(٢) رواه أحمد في المسند رقم ١٧٤٢٢ ولفظه: أن رسول الله ﷺ أقبل إليه رهط فبايع تسعة وأمسك عن واحد، فقالوا: يا رسول الله بايعت تسعة وتركت هذا، قال: «**إن عليه تميمة فأدخل يده فقطعها فبايعه وقال: من علق تميمة فقد أشرك**».

قوله: «من تعلّق»: التعلق: هو فعل القلب، تعلق كذا بخلاف علق فهذا يكون فعل اليد. تعلق؛ يعني: أن قلبه تعلق بهذا؛ لأن العاقل لا يفعل فعلاً إلا وقد بعث عليه قلبه وإرادته، فالإرادة سابقة للأفعال.

قوله: «تميمة»: التميمة سميت تميمة من باب التفاؤل؛ يعني: أنه يتم للإنسان مقصوده، فقالوا تميمة فعادة العرب أنهم يتفاؤلون بالأسماء وكثيراً ما يسمون الأشياء بأسماء أضدادها تفاؤلاً بأنه يحصل لهم ما في التسمية، فتسميتهم اللديغ سليماً يعني تفاؤلاً بأنه يسلم، وتسميتهم الأرض المهلكة التي لا ماء فيها ولا مرعى ولا أحد يسمونها مفازة تفاؤلاً أن من سلكها يفوز بالنجاة من الهلاك فيها، وهكذا هنا يسمونها تميمة تفاؤلاً بأنه سيتم المقصود الذي من أجله عُلقت. والتميمة إما خرز، أو حصى، أو غير ذلك، تُنظم ثم توضع في رقبة الصبي، أو النساء، أو البعير، أو البهائم، أو السيارات أو الحوانيت، أو البيوت أو غيرها حتى لا تصيبها العيون، أو لا يأتي إليها الجن؛ يعني: أنهم يجعلونها لدفع شر يتوقعونه سواءً من الجان أو من أمر غيبي، ومن التمائم ما يكتب، ثم يغلف ويعلق إما تعلق في الرقبة، أو توضع في البيت، وقد تكون طلسمات؛ أي: خطوط تخط لا تفهم، وقد تكون هذه إشارة إلى أسماء شياطين معينين، أو كلمات شركية يعرفونها فيأخذون بعض الكلمات منها، ويتركون البعض حتى لا تكشف، ولكن هم وشياطينهم يعلمون المقصود، فتعليق ذلك كله من الشرك، ومعلوم أن الإنسان يُعلق مثلاً الخيط، أو يعلق الخرزة، أو يعلق ورقة فيها خطوط وما أشبه ذلك بناءً على الاعتقاد الذي عنده، وأما تعليقها مجرد عن العقيدة فهذا ما يفعله عاقل، فلا بد من اعتقاد أنه ينفع أو أن فيه فائدة، وإنما يعتقدون في قلوبهم أن هذا مفيد، وأن فيه خاصية تدفع، أو تمنع ولهذا صار من الشرك.

قوله: «فلا أتم الله له»: هذا يحتمل أمرين: يحتمل أن يكون دعاء على من فعل ذلك، الرسول ﷺ دعا على من فعل ذلك بنقيض قصده، وذلك أن التميمة أُخذت من المعنى الذي أراده مُعلقها، وهو أن يتم له مراده ومقصده، وهذا هو الظاهر.

ويحتمل أن يكون خبر، أن الرسول ﷺ أخبر أنه لا يتم له مراده. وكلاهما يدل على أن هذا أمر عظيم، وأن مرتكبه قد جانب الحق وفعل جنفاً، بل فعل شركاً استحق أن يُدعا عليه، أو يخبر بأنه لا يتم له مراده؛ لأن الله جل وعلا سُنَّته في عباده أنه يعامل الظالم بنقيض قصده ومراده ولا سيما الشرك، ويدل هذا على أن هذا الفعل محرم، وأنه لا يجوز فعله.

وقوله: «ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له»: الودع شيء يخرج من البحر شبه الصدف. قال الشارح[1]: التميمة شيء يعلقونه على الأولاد، والودع شيء يُستخرج من البحر شبه الصدف يتقون به العين. لدفع عين الجان وشره، أو عين الإنسان؛ لأن الجان يصيب الإنسان بعينه كما يصيب الإنسان، وهذا شيء معروف، فهذا تمثيل وإلا الأمر أعم من هذا وأوسع، فكل ما علقه الإنسان من هذا النوع سواءً كان من فعله أو من فعل غيره، أو كان شيئاً زعم أن له خاصية؛ كالنحاس مثلاً، أو الصفر، أو الذهب، أو الخيوط، أو غيرها أو الحجارة الكريمة التي يقولون: أنها حجارة كريمة، أو العقيان أو غيرها التي يقولون: أن لها خاصيات كلها سواء لا فرق بينها فمن فرق فعليه الدليل ولا دليل على هذا فكلها داخلة في ذلك.

وقوله: «فلا ودع الله له»: يقال فيه مثل ما قيل في الأول: يحتمل أن يكون دعاء، ويحتمل أن يكون خبر، فإن كان دعاء فمعنى ذلك: لا جعله الله في دعة وسعة وعافية بل ضيق الله عليه وعامله بنقيض قصده، وإن كان خبر فخبر الرسول ﷺ صدق وحق لا يمكن أن يخالف الواقع، فهو في الضيق وفي الحرج وفي الإثم، وكل من خالف أمر الله جل وعلا وأمر رسوله ﷺ فهذا وصفه وهذه حاله، فتبين أن هذا من الشرك وأن فاعل ذلك صار عبداً للشيطان وجانب الإخلاص.

وقوله: «وفي رواية: من تعلّق تميمة فقد أشرك»: هذه الرواية جاءت

---

(١) تيسير العزيز الحميد ص١٣٠، سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، صاحب كتاب تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد.

تفسيراً وإيضاحاً بأن تعلق الشيء شرك، وهذا كلام الرسول ﷺ لا يحتاج إلى إيضاح أو تخصيص أو تقييد، لا يجوز أن يقيد كلام الرسول ﷺ بكلام الناس بل كلام الناس الذي يجب أن يُعرض عليه فإن وافقه وإلا رد عليهم.

فعلى هذا يتبين لنا أن تعليق الأشياء لأجل النفع، أو الدفع أنه شرك، ويحتمل أن يكون من الشرك الأكبر أو من الأصغر، فإن كان يرى أنها مجرد سبب فهو من الشرك الأصغر، وأما إذا كان يرى أنها تنفع بذاتها وتضر بذاتها فهذا من الشرك الأكبر، فالشرك بالتعلق على غير الله جل وعلا والتعلق بالقلب في الغالب من اعتمد قلبه على تميمة، أو تعلق بها فقد وقع في الشرك، والشرك وإن كان صغيراً فهو أكبر من الكبائر، أكبر من السرقة ومن شرب الخمر ومن الزنا ـ نسأل الله العافية ـ لأن الله جل وعلا يخبرنا أنه لا يغفره لمن مات عليه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء: ٤٨]، فجعل ما دون الشرك تحت المشيئة والشرك الأصغر يدخل في الأكبر.

۞ قال المؤلف رحمه الله: ولابن أبي حاتم عن حذيفة رضي الله عنه أنه رأى رجلاً في يده خيط فقطعه وتلا قوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: ١٠٦][(١)].

ابن أبي حاتم رحمه الله: هو الحافظ الجليل عبد الرحمٰن بن أبي حاتم الرازي، عرف بكتبه الجليلة المعروفة مثل: التفسير والجرح والتعديل وغيرها.

وهذا الأثر موقوف على حذيفة، وإذا جاء القول مثلاً عن صحابي فله حكم الرفع إذا لم يخالف نصاً.

ولكن حذيفة استدل بآية من كتاب الله فقطع هذا الخيط وتلا الآية: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾، وجاء إيضاح ذلك أنه دخل على رجل

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٨/٤٧٣ عن عزرة، قال: دخل حذيفة على مريض، فرأى في عضده سيراً، فقطعه أو انتزعه، ثم قال: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ وابن كثير في تفسيره ٤/٤١٨.

يعوده فمس يده فوجد فيها خيط، فقال: ما هذا؟ قال: من الحمى فقطعه، وقال: لو مت ما صليت عليك[1]، وتلا هذه الآية، **وفي هذا فوائد منها:**

ـ وجوب إنكار المنكر بالفعل، ولا ينظر إلى إذن صاحبه، ولا غيره فينكره ويزيله، وإنكار المنكر درجات، فإذا كان يمكن إزالته بالكلام اكتفى بذلك، وإن كان الذي رأى المنكر يستطيع أنه يزيله بيده فعل ذلك، وعلى هذا جاء النص عن النبي ﷺ كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، ومن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»[2]، فقوله: «**من رأى منكم منكراً**» عام في الأمة الإسلامية.

قد جاء تفصيل ذلك أنه دخل على رجل يعوده، والسُّنَّة أن الإنسان يجس بدن المريض إذا عاده؛ يعني: يلمس يده أو جبهته، فهذا كانت عادة النبي ﷺ وحذيفة سلك هذا المسلك، فلمس يده فوجد خيطاً فقال: ما هذا؟ قال: من الحمى (يعني: من أجل الحمى، لبسته حتى تخف، أو تزول هذا المقصود) فقطعه وأخبر أن هذا شرك، أن هذا الحكم؛ يعني: لبس الخيط ونحوه، من أجل تخفيف الألم أو رفعه شرك.

ـ فيه الاستدلال على الشرك الأصغر بما نزل في الأكبر؛ يعني: أن هذا ظاهره أنه من الشرك الأصغر، أما إذا كان هناك مقاصد ونيات قد يتغير.

ـ أن المعتبر عموم اللفظ وهذا هو الواجب، فقوله جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ يدخل في هذا عموم الشرك، سواء كان كبيراً، أو صغيراً، فالشرك غير مغفور لصاحبه إذا لم يتب ومات عليه فهو معذب عليه، وكذلك الإنسان إذا وقع في الشرك الأصغر فهو واقع في الشرك بدليل قوله: ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ١٠٦﴾، وقد جاء تفسير هذه الآية عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما أنهم قالوا: إيمانهم أنك إذا سألتهم من خلق السماوات والأرض ومن خلقهم؟ ومن ينزل المطر؟ ومن

(١) مصنف ابن أبي شيبة رقم ٢٣٤٦٣. (٢) رواه مسلم رقم ٤٩.

ينبت النبات؟ ومن الذي يحيي ويميت؟ قالوا: الله، فهذا إيمانهم وشركهم أنهم يعبدون مع الله غيره، من الأصنام التي يزعمون أنها تشفع لهم، وهم لا يعتقدون أنها شريكة لله في التدبير والإحياء والإماتة والخلق والتصرف ما كانوا يعتقدون هذا، وإنما قالوا تشفع لنا عند الله، فيطلبون منها الشفاعة، هذا هو شركهم، فإذا وازنا بين هذا وبين من يذهب إلى المقبور فيناديه بخضوع وذل وبكاء: يا سيدي فلان أغثني، هل بينها مقارنة؛ يعني: هؤلاء الضلال الذين يزعمون أنهم مسلمون صار شركهم أعظم من شرك الكفار، أعظم من شرك أبي جهل وأضرابه، وأولئك أعقل منهم؛ لأن أولئك إذا وقعوا في الشدائد أخلصوا دعاءهم لله جل وعلا وقالوا: الأصنام ما تنفع ولا تجدي في هذا شيئاً، وإنما يدعونها في الرخاء، وأيضاً دعاؤهم أياها لأجل شفاعتها: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] فقط، ويقولون: إنها تشفع لنا، ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، والله جل وعلا يقول لهم في ذلك: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨]؛ يعني: تخبرونه بشيء لا يعلمه، فالشيء الذي لا يعلمه الله لا وجود له بل هو معدوم أصلاً، فهم في الواقع في أوهام أوهمهم إياه الشيطان، ولكن المقصود أن هؤلاء الذين في بلاد المسلمين ويقعون في هذه الكوارث ـ نسأل الله العافية ـ لو ذهبنا مثلاً إلى أحد الأولياء الذين يزعمون أنهم أولياء، إما عبد القادر الجيلاني، أو أحمد البدوي، أو الدسوقي أو غيرهم من الأوثان التي في بلاد المسلمين ترى العجائب.

هذا يأتي بخرفان فيذبحها عندهم، وهذا يأتي بفلوس يرميها عندهم، وهذا قد يأتي بولده يقول: يا سيدى هذا ولدي يخدمك، وتأتي الشياطين من الإنس بالحكايات الكاذبة الشيطانية التي تغر هؤلاء، ويقولون: السيد فلان فعل كذا، وفعل كذا، ولهم حيل حتى يأكلوا أموال الناس بهذه الطرق فيضللونهم ويأكلون أموالهم، وهم ضالون؛ لأنهم لم يستعملوا عقولهم ولا قرؤوا كتاب الله، أهدروا عقولهم، وكذلك كتاب الله ما عرفوا ماذا أراد الله منهم، فهم في الواقع غير معذورين فعلى هذا قوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ

إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ أن هذا عام مطلق كل من وقع في الشرك فهي تناله هذة الآية سواء كان شركاً أكبر أو شركاً أصغر، فإذا كان لبس الخيط ونحوه من أجل الحمى؛ يعني: تخفيفها أو إزالتها أو منعها من هذا القبيل فمعنى ذلك: أن الآية عامة في كل من تعلق على شيء فما يُقصد أنه سبب، وهو ليس في الشرع سبباً لا يجوز أن تتعلق القلوب بها، ولكن تُفعل على أنها سبب، والقلب يعتمد على ربه جل وعلا في حصول المقصود الذي وضع السبب من أجله هذا هو الذي يجب.

وقوله: «﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾»؛ يعني: يؤمن بوجود الله وبأنه هو المتصرف في الكون، وهذا إيمان لا ينفع إلا إذا انضاف إليه الإيمان بإنه هو المعبود وحده، وأنه لا يعبد معه غيره، ثم يضيف إلى هذا الكفر بكل معبود غير الله تعالى وبكل عابدٍ لذلك المعبود ومعاداته والبراءة منه وبدون ذلك لا يكون العبد موحداً ومؤمناً.

❁ **قال المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ: **فيه مسائل:**

❁ **الأولى: التغليظ في لبس الحلقة والخيط ونحوها لمثل ذلك.**

التغليظ وأن هذا من الشرك، فمقصوده من التغليظ: أنه أمر كبير؛ لأنه شرك.

❁ **الثانية: أن الصحابي لو مات وهي عليه ما أفلح. فيه شاهد لكلام الصحابة: أن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر.**

القول أنه من الأصغر، والرسول ﷺ يقول: «**ما أفلحت أبداً**» يحتاج إلى تأويل وإخراج عن الظاهر، وإلا فالظاهر أنه ليس من الأصغر لأن الفلاح هو كونه يدرك السعادة، والشرك الأصغر ما يمنع السعادة إلا مؤقتاً، فإن قصد بالفلاح الفلاح المطلق فله وجه، ولكن يشكل عليه قوله: «**أبداً**» هذا يمنع أن يكون الفلاح مؤقتاً، فكونه من الشرك الأكبر أظهر وأبين إلا أن يقال: أن هذا من نصوص الوعيد التي يقول العلماء: أنه يجب أن تبقى على ظاهرها بدون تأويل، ولكن جمهورهم يأولها حتى تتفق مع النصوص الأخرى، فهذا أقرب.

۞ الثالثة: أنه لم يعذر بالجهالة.

الجهالة في أمور التوحيد، والعبادة التي يبينها الرسول ﷺ يكون العبد هو الملوم عليها؛ لأن التقصير منه، والشيء الذي يعذر الإنسان بجهالته الأمور التي تتوقف على الفهم وعلى الاستنتاج بعد ما يبذل الإنسان جهده فلا يصل إلى الحق يكون بعد ذلك معذوراً، أما إذا قصر في طلب العلم والمعرفة التي نص عليها، أو قصر في تطبيق النص فإنه يكون غير معذور، فإذن العذر بالجهل يجب أن يعرف متى يكون ومتى لا يعذر.

۞ الرابعة: أنها لا تنفع في العاجلة بل تضر لقوله: «لا تزيدك إلا وهناً».

يعني: أن تعليق الحلقة لا تزيل شيئاً من المرض بل تضر، ولكن إذا قيل: إنها تضر ففيها شيء نقول: إنها لا تضر ولا تنفع، ولكن ليس هذا قصده أن ذاتها تضر، ولكن ما يتعلق فيها من فعله وقلبه هذا هو الذي يضره؛ لأنه تعلق بغير الله وبسبب لم يشرعه الله جل وعلا.

۞ الخامسة: الإنكار بالتغليظ على من فعل مثل ذلك.

مثل ما سمعنا من قول الرسول ﷺ: «**لو مت وهي عليك ما أفلحت أبداً**» هذا هو التغليظ؛ يعني: التشديد حتى يتجنب الناس هذه الأمور؛ لأن هذه عظيمة ليست سهلة.

۞ السادسة: التصريح بأن من تعلق شيئاً وكل إليه.

ومعنى ذلك: أن الله يتخلى عنه ويصبح موكولاً إلى هذا المخلوق الضعيف، ومن وكل إلى مخلوق ضاع، ولا يمكن أن يدرك شيئاً من النفع.

۞ السابعة: أن تعليق الخيط من الحمى من ذلك.

يعني: أنه أشرك.

۞ الثامنة: تلاوة حذيفة الآية دليل على أن الصحابة يستدلون بالآيات التي في الشرك الأكبر على الأصغر، كما ذكر ابن عباس في آية البقرة.

هذا يقوله المؤلف رحمه الله ردّاً على من يتوسّلون بالأموات ويقولون: أنهم

يشفعون لنا، نحن نطلب منهم الشفاعة، وإلا نحن نعلم أن الله هو النافع الضار، ولكن نعرف أنهم صلحاء، عندهم من الصلاح والتقى الذي يجعلهم إذا سألوا شيئاً من الله يستجيب لهم، فنحن نطلب منهم هذا الشيء، فكيف تجعلنا مشركين؟ كيف تستدل علينا بما نزل بالمشركين الذين يعبدون اللات والعزى وغيرهما، فيقول الصحابة: كانت هذه طريقتهم حتى لو كان أقل من هذا فإنهم يستدل بالآية التي نزلت بالشرك الأكبر على الشرك الأصغر لعموم اللفظ والمعنى.

۞ التاسعة: الدعاء على من تعلَّق تميمة أن الله لا يتم له، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له.

أي: لا ترك الله له.

كأنه يرجح أن هذا دعاء، وهو الظاهر.





الباب الثامن

۞ **قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ: باب ما جاء في الرقى والتمائم.**

يعني: من المنع أو من الرخصة، ولما كان الحكم فيه تفصيل لم يذكر الحكم وكذلك التميمة فيها خلاف فقال: «**باب ما جاء**»؛ يعني: يجب على طالب العلم أن يبحث عن الحكم من خلال الأدلة، وقد ذكر في هذا الباب بعض الأدلة وهي تكفي لمن يريد الحق.

و«**الرقى**»: جمع رقية وهي القراءة على المريض مع تفل عليه بريق أو نفث.

والرقى إذا كانت بأسماء الله وصفاته وباللغة العربية وبالشيء المفهوم، وأن يعتقد الإنسان أنها لا تأثير لها في نفسها، فهذا جائز بالإجماع إذا استكملت هذه الشروط الثلاثة، وإذا كانت الرقى تشتمل على شرك، إما بأسماء الشياطين أو الطلسمات أو الحروف التي لا تفهم، والكلام غير المفهوم، فهذه ممنوعة لا تجوز خشية أن تكون من الشرك.

والرقى كانت قديمة حتى كانت في الجاهلية، فعن عوف بن مالك الأشجعي قال: كنا نرقي في الجاهلية، فقلنا: يا رسول الله كيف ترى في ذلك؟ فقال: «**اعرضوا عليّ رقاكم لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك**»(١)، وفي رواية قال: «**من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل**»(٢)، فالرقى إما أن تكون شركاً أو مأذوناً بها، أو تكون سُنَّة يثاب فاعلها.

وأما التمائم فقد سبق تعريف التميمة، وأنها مأخوذة من أنه يتم للإنسان ما قصد من باب التفاؤل، وهي خرزات أو ودع أو وتر يعلقونها لدفع العين أو دفع الجن وما أشبه ذلك، تعلق على الصبيان والدواب ونحو ذلك، ومن فعل

---

(١) رواه مسلم رقم ٢٢٠٠.
(٢) رواه مسلم رقم ٢١٩٩.

هذا فقد تعلق على غير الله جل وعلا ومن تعلق على غير الله وكل إليه.

قال في الصحيح: عن أبي بشير الأنصاري: «أنه كان مع النبي ﷺ في بعض أسفاره، فأرسل رسولاً أن لا يبقين في رقبة بعير قلادة من وتر ـ أو قلادة ـ إلا قطعت»[١].

«في الصحيح»؛ يعني: في الحديث الصحيح؛ لأن الحديث في الصحيحين، وهذه طريقته رحمه الله، كثيراً ما يقول في الصحيح ويكون الحديث في الصحيحين، فكأنه يقول: في الحديث الثابت عن النبي ﷺ.

وأبو بشير قيل: إن اسمه قيس بن عبيد، وقال ابن عبد البر: لا يوقف له على اسم صحيح، وهو من صحابة الرسول ﷺ الأكارم الأفاضل، ومعلوم أن الذين رووا حديث الرسول ﷺ بالنسبة لعموم الصحابة فيهم قلة، وإلا كثير من الصحابة لا تعرف أسماؤهم؛ لأنهم ليس لهم رواية. فالذين رووا الحديث كما ذكرهم الحافظ في الإصابة ما تجاوزوا اثني عشر ألفاً مع التكرار وذكر الخلاف في بعضهم؛ لأنه جعل كتابه على أقسام، قسم متفق عليه، وقسم مختلف فيه. وأبو زرعة يقول: حضر مع النبي ﷺ في حجة الوداع أكثر من ثلاث مائة ألف. وكل الذين حضروا حجة الوداع من الصحابة؛ لأن الصحابي هو من لقي النبي ﷺ، وشاهده مؤمناً به ومات على ذلك.

قوله: «أنه كان مع النبي ﷺ في بعض أسفاره»: معلوم أن أسفار النبي ﷺ كانت في الجهاد، وليس لازم أن نعرف هذا السفر، والمقصود الحكم الذي بينه في هذا الحديث، والغالب أن في السفر تتبين هذه الأمور.

قوله: «فأرسل رسولاً»: يقول الحافظ: أن هذا الرسول الذي أرسل هو زيد بن حارثة كما جاء ذكر ذلك في مسند الحارث بن أسامة[٢]، وهذا أمر يعم الناس كلهم ولا يجوز إسقاطه فعليه يتعين على العبد إذا عرف ذلك إن كان يستطيع إزالته يزيله سواء بالفعل، أو القول.

---

(١) البخاري رقم ٣٠٠٥ واللفظ له، ومسلم رقم ٢١١٥.

(٢) فتح الباري لابن حجر ١/ ٢٩١.

قوله: «أن لا يبقين»، وفي رواية: «لا تبقين»: وهذا لتأكيد إزالة ذلك، وهذا يدل على أن هذا ممنوع.

وقوله: «في رقبة بعير»: وقد تكون في رقبة فرس أو غيرها من الدواب، أو في رقبة الإنسان ولد، أو كبير.

قوله: «قلادة من وتر، أو قلادة إلا قطعت»: هذا فيه شك؛ يعني: هل جاء الأمر بقطع القلادة المقيدة أو المطلقة؟ والمقيدة إذا كانت من وتر، والوتر هو حبل القوس، والقوس عود يثنى ويعالج وهو من نوع معين، ويوضع في حنيته الوسطى محل يمسك السهم، والوتر هو الحبل الذي يحزم به طرفاه فيكون قوياً، فإذا ضعف غيَّروه ووضعوه قلادة للبعير، فهل القلادة مقيدة بأنها من هذا النوع أو أنها مطلقة؟ الصحيح أنها مقيدة، وقد سئل الإمام مالك رحمه الله عن القلادة؟ فقال: ما سمعت بكراهتها إلا في الوتر[1].

وقد علم أن الجاهلية يقلدون الأوتار، ويعتقدون أنها تمنع من العين، أو أنه تمنع من الجن أو غير ذلك. فهي تمنع من الإصابة وهذا من الشرك؛ لأنهم اعتقدوا أن الضر والنفع يحصل من القلادة وعدمها والوتر حبل لا ينفع ولا يضر، وهكذا اعتقاد النفع في كل شيء من الأشياء التي لم يجعل الله جل وعلا فيها نفعاً، فإن اعتقاد ذلك يكون من الشرك. ومن هذا ما يعلق في رقبة الإنسان أو في البيت، أو على سيارة، أو ما أشبه ذلك لأجل دفع الشر المتوقع من الشرك، وهذا نوع من التمائم والتميمة سبق أنها سميت تميمة من التفاؤل أنه يتم المقصود الذي علقت من أجله، وتقدم أن هذه التمائم شرك وأنه من تعلَّق تميمة يدعى عليه، فإن الرسول ﷺ دعا عليه بأن لا يتم له مقصوده، فإذا صاحب القلادة اعتقد الانتفاع بها سواء انتفاعاً بعد نزول البلاء، أو أنه ينفع قبل نزوله فهذا هو المنهي عنه؛ لأن هذا تعلق على غير الله جل وعلا، واعتقاد أن الحبل ينفع أو يضر يوقع في الشرك.

أما الحبل الذي قد يوضع في رقبة البعير ليقاد أو ليعقل به، أو لغرض

---

(١) فتح الباري ٦/١٤١.

من الأغراض وليس فيه اعتقاد النفع أو الضر، وإنما هو يمسك البعير لئلا يذهب، أو تربط به الخيل فهذا جائز.

وأما ما يفعله الآن بعض أهل المواشي من وضع جرس في الشاة حتى إذا مشت صار له صوت، فهل هذا من هذا النوع؟ فهؤلاء أصحاب لهو، وأصحاب باطل، ولقد جاء النهي عنه.

۞ قال: وعن ابن مسعود ﷺ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الرقى والتمائم والتِّوَلة شرك»[1]، رواه أحمد، وأبو داود.

وأول الحديث، عن زينب امرأة عبد الله قالت: كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب تنحنح وبزق كراهية أن يهجم منا على شيء يكرهه، قالت: وإنه جاء ذات يوم فتنحنح قالت: وعندي عجوز ترقيني من الحمرة فأدخلتها تحت السرير فدخل فجلس إلى جنبي فرأى في عنقي خيطاً قال: ما هذا الخيط؟ قالت: قلت: خيط أرقي لي فيه، قالت: فأخذه فقطعه، ثم قال: إن آل عبد الله لأغنياء عن الشرك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن الرقى والتمائم والتولة شرك»**، قالت: فقلت له: لم تقول هذا، وقد كانت عيني تقذف فكنت أختلف إلى فلان اليهودي يرقيها، وكان إذا رقاها سكنت، قال: إنما ذلك عمل الشيطان كان ينخسها بيده، فإذا رقيتها كف عنها، إنما كان يكفيك أن تقولي كما قال رسول الله ﷺ: **«أذهب البأس رب الناس، اشف أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك شفاءً لا يغادر سقماً»**[2]

قوله: «إن الرقى»: هذا عام في الرقى فلم يخص منه شيئاً، وقد خصَّ من الرقى ما كان بآيات الله، وبأسمائه وصفاته فإنه جائز أو مستحب كما دلت الأحاديث على ذلك، وقد سبق ذلك، وجاءت الأدلة بجواز ذلك، بل قال كثير من العلماء أنه مستحب؛ لأنه دعاء لله جل وعلا بأسمائه وصفاته ومن

---

(١) أحمد في المسند رقم ٣٦١٥، وأبو داود رقم ٣٨٨٣، وابن ماجه رقم ٣٥٣٠، والبيهقي في الكبرى رقم ١٩٣٨٧.

(٢) أحمد في المسند رقم ٣٦١٥.

صفاته كلامه جل وعلا، آياته القرآنية من صفاته، فإذا رقى بها، فهو نوع من العبادة ويسأل الله جل وعلا بها، والله أخبرنا أنه أنزل القرآن شفاءً والصحيح أن شفاء القرآن عام؛ يعني: شفاء للجهل ولما في القلوب وكذلك للأبدان، ولهذا قال جل وعلا: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ۝٨٢﴾ [الإسراء: ٨٢]، وهذا من أعظم الشفاء إذا استشفى به المؤمن الصادق الذي يتعلق بربه وحده جل وعلا، فإذا رقى به نفسه أو رُقي به فإنه شفاء تام وأحسن من الأدوية المركبة ولكن التأثير يستلزم الإيمان به والصدق مع الله جل وعلا، وكمال التعلق بالله جل وعلا، فهذا نوع لا يجوز أن يكون فيه خلاف بل لا خلاف فيه بين العلماء، وإنما الخلاف فيه بينهم هل هو من الجائز، أو من المستحب، فكانت الرقى أقسام ثلاثة:

أولاً: محرم بالاتفاق، وهو ما كان فيه شرك، وهو الذي يكون بأسماء الشياطين، أو بأسماء الملائكة، أو بأسماء الأنبياء، أو بالكلمات المقطعة، أو بالكلمات التي لا تفهم، وكذلك إذا خلط الجائز بغيره كما يقع فيه كثير من الذين يجعلون هذا لهم متجراً يستكثرون به الدنيا، والغالب أن هؤلاء مقصودهم الدنيا، ولهذا يخلطون ويزعمون أنهم يستعينون بالجن، وبعضهم يقول: إنه يستعين بالجن المسلمين وهذا تمويه على الناس، وإلا الجن المسلم لا يفعل المحرم، وما يدريه أنه مسلم، وإذا قدر أنه عرف أنه مسلم فهو من طريقه وطريقه غير موثوق به، بل هم أعداء لبني آدم، وقد يأتون إلى الإنسان، ويقول أحدهم: إنه مسلم وهو كاذب، وإنما يريد أن يلبس عليه ولو قدر أنه مسلم فالاستعانة بمثل هذا فيها خطورة ولا يجوز إلا بالأمور الواضحة الجلية التي ليس فيها من المحرمات شيء، وكذلك إذا كانت الرقية ليست باللغة العربية، أو ليست بالكلام المفهوم وإن كانت باللغة العربية فإنها من المحرمات؛ لأنها يحتمل أن تكون شركاً وكفراً بالله تعالى.

ثانياً: ما هو جائز بالإجماع وبعض العلماء، أو كثيراً منهم يقول: إنها مستحبة؛ لأن الرسول ﷺ يرقي نفسه كثيراً، كان يجمع كفيه، ثم ينفث فيها، ثم يمسح بها وجهه ورأسه وما استطاع من بدنه، كما في حديث عائشة الذي

في الصحيح وغيره: «أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه، ثم نفث فيهما فقرأ فيهما: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ بهما على رأسه ووجهه، وما أقبل من جسده يفعل ذلك ثلاث مرات»[١]، وفي سنن أبي داود عن فضالة بن عبيد عن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من اشتكى منكم شيئاً، أو اشتكاه أخ له فليقل: ربنا الله الذي في السماء تقدس اسمك أمرك في السماء والأرض، كما رحمتك في السماء فاجعل رحمتك في الأرض، كما رحمتك في السماء اغفر لنا حوبنا وخطايانا، أنت رب الطيبين أنزل رحمة من رحمتك، وشفاء من شفائك، على هذا الوجع فيبرأ»**[٢]، وكذلك جاءت الرخصة في الرقية من العين والحمة، وكذلك في غيرهما في أحاديث كثيرة.

قال السيوطي رحمه الله: أجمعوا على جواز الرقية إذا جمعت ثلاثة شروط:

الأول: أن تكون بأسماء الله وصفاته وبالقرآن.

الثاني: أن تكون باللسان العربي، أو بما يعرف معناه.

الثالثة: أن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها بل بالله تعالى[٣].

ثالثاً: إذا كان فيه كلام غير مفهوم فينبغي أيضاً أن يمنع لخوف الوقوع في الشرك فيه.

قوله: «والتمائم»: تقدم تعريفها، وهي قد تكون بالكتابة في أوراق، أو في جلد، أو غيره ثم تعلق، وقد تكون من الخرزات، أو حجر، أو عظام أو غيرها من خشب ونحوها، فيعتقد أنها إذا علقت أنها تنفع في تخفيف المرض أو إزالته، أو منع حصوله ووقوعه، وهذا من الشرك، ويستثنى من هذا ما كان

---

(١) رواه البخاري رقم ٥٠١٧.

(٢) رواه أبو داود رقم ٣٨٩٢، وأحمد في المسند رقم ٢٣٩٥٧، والنسائي في الكبرى رقم ١٠٨٧٥، والحاكم في المستدرك رقم ٧٥١٢ وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(٣) فتح المجيد ص١٤٨، وذكره ابن حجر في فتح الباري ١٠/١٩٥ ولم يعزه لأحد.

من القرآن كما ذكر المؤلف، فقد اختلف فيه، فمن العلماء من جوَّزه روي عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وكذلك روي عن عائشة، وعن الإمام أحمد في رواية، أما الذي روي عن عبد الله بن عمرو فهو محتمل؛ لأنه كان يُعلم أولاده الكبار الذين يعقلون قول الرسول ﷺ: **«أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق»**، والذي لا يعقل يكتب ذلك في لوح ويعلقه في رقبته، فبعضهم قال: إنه يعلقه؛ لأنه تميمة، ولكن هذا يحتمل أنه يعلقه حتى يحفظه أو يُحفظ إياه؛ لأن تعليق التمائم لا يكون في اللوح، وإنما يكون في ورق أو خرقة أو ما أشبه ذلك، وجاء أيضاً ما يدل على أن عائشة كانت تفعل شيئاً من ذلك، وأنه يجوز، والصحيح أن هذا ممنوع لأمور:

الأول: أن الأدلة التي جاءت عامة كما في هذا وغيره فقال: **«التمائم والتولة شرك»**، ومن ادعى الخصوص فعليه الدليل، ولا يوجد دليل عن الرسول ﷺ، أو في كتاب الله جل وعلا يدل على ذلك، وإذا عارض كلام الرسول ﷺ أو كلام الله جل وعلا فعل الراوي، فإنه لا يكون مخصصاً له هذا القول الصحيح بل يبقى على عمومه.

الثاني: أن هذا يكون وسيلة وفتحاً للباب إلى تعليق ما لا يجوز، ويكون منعه من باب سد الذرائع، ومعلوم أن الرسول ﷺ كان يشدد في مثل هذا وسيأتي في باب حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلى الشرك وهذا منه.

الثالث: أن تعليق شيء من القرآن، أو من أسماء الله وصفاته لا يخلو من امتهان، وامتهان كلام الله، أو أسمائه وصفاته من المحرمات الكبيرة التي لا يجوز أن ترتكب، وقد يدخل فيه الخلاء، وقد يجعله تحته وينام عليه، وما أشبه ذلك من الأمور التي تدل على عدم الاهتمام بهذا، وأنه يكون ممتهناً فهذه أمور ثلاثة تدل على أن الراجح أن التمائم إذا كانت من القرآن أنها لا تجوز، وبهذا يتبين لنا أن التمائم ثلاثة أقسام:

أولاً: قسم محرم بالاتفاق بل هو من الشرك.

ثانياً: قسم فيه خلاف وهو ما كان من القرآن، أو من أسماء الله وصفاته.

ثالثاً: قسم مكروه عند بعض العلماء والواجب أنه يدخل في الأول إذ هو داخل في قوله: «**إن الرقى والتمائم**»، فإن «إن» هذه للتأكيد، وذكر الرقى بلفظ العموم والتمائم كذلك فشملت ما ذكر.

وقوله: «والتِّوَلة»: التولة: شيء تصنعه المرأة يُحببها إلى زوجها وبالعكس، وبهذا فسره ابن مسعود راوي الحديث كما في صحيح ابن حبان والحاكم قالوا: يا أبا عبد الرحمٰن هذه الرقى والتمائم قد عرفناها، فما التولة؟ قال: «شيء يصنعه النساء يتحببن إلى أزواجهن»[1]، وهذا نوع من السحر وهذا نوع من السحر لا يزال يصنع يسمونه المحبب، وتصنعه النساء؛ لأن النساء يتعلقن بهذا كثيراً، وليس معنى ذلك أن المرأة هي التي تصنعه، ولكنها تشتريه من الساحر ويصنع لها؛ لأن هذا لا يصنعه إلا ساحر.

والسحر لا يصنع إلا إذا كان بواسطة الشياطين واستخدامهم؛ يعني: طاعتهم وعبادتهم فهو بعمل الشياطين، وإذا أطاع الشيطان عمل له بعض ما يريد في ذلك، والشيطان لا يمكن أن يأتي لنفع الإنسان إلا إذا حصل مقصوده، أو بعض مقصوده من الشرك بالله جل وعلا، وقد يقنع بالشيء اليسير حتى يظفر بما هو أعظم منه فلهذا جعله من الشرك؛ أي: جعل التولة شركاً مع التمائم، وهذا منافياً للتوحيد فهو من تفسير التوحيد بالمضاد والمقابل، وبضدها تتبين الأشياء، فلا إلٰه إلا الله تنفي هذا وتبطله، فمن كان يشهد أن لا إلٰه إلا الله فيجب أن يكون مجتنباً لذلك، ويكون عارفاً لهذا.

۞ وقوله: «**التمائم: شيء يعلق على الأولاد من العين. لكن إذا كان المعلق من القرآن فرخص فيه بعض السلف وبعضهم لم يرخص فيه، ويجعله من المنهي عنه منهم ابن مسعود ﵁**».

وقد يكون على غير الأولاد، فقد يكون في السيارة، وقد يكون في البيت، وقد يكون في الدكان، وقد يكون في غير ذلك.

وقال الخلخالي: «التمائم جمع تميمة، وهي ما يعلق بأعناق الصبيان من

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه رقم ٦٠٩٠.

خرزات، أو عظاماً لدفع العين»، فهذا تمثيل وإلا كل ما علق من أجل النفع، فإنه يكون تميمة، ويكون داخلاً في الشرك لقوله: **«إن التمائم شرك»**، فالحكم لا يختلف إذا وجد المقصد، فالحكم يطرد في هذا، والضابط في هذا أن يكون التعليق لأجل دفع ضرر، أو جلب نفع، فمن علقه من أجل هذا مهما كان المعلق، سواء كان من الكلام، أو من الخرز، أو من الحصى، أو من الودع، أو غير ذلك مما يعتقد الناس فيه. فإن هذا يكون من الشرك واستدرك من هذا فقال: «لكن إذا كان المعلق من القرآن فرخص فيه بعض السلف، وبعضهم لم يرخص فيه ويجعله من المنهي عنه».

الترخيص؛ يعني: أن هذا جائز ولا بأس فيه إذا كان المعلق من القرآن، أو من أسماء الله وصفاته، وذكروا من رخص في هذا عبد الله بن عمرو وعائشة، ولكن السند فيه مقال إلى عبد الله، وبعضهم فسره على غير ذلك.

وقوله: «وبعضهم لم يرخص فيه»: مثل: ابن مسعود، وابن عباس، وأصحاب ابن مسعود من التابعين، وقد رجح عدم الرخصة؛ لأن التعليق يخالطه شيء من غير القرآن لا بد أن يكون في ورق، أو في جلد، أو ما شبه ذلك، **ورجح المنع لأمور:**

الأول: أن النصوص التي ذكرت مطلقة لم يأت ما يخصصها.

الثاني: أن هذا قد يكون وسيلة إلى ما لا يجوز.

الثالث: أن تعليق ذلك غالباً لا يسلم من الامتهان إذا كان على صبي ونحوه.

فيكون المنع لهذا الأمور وغيرها أولى، فتعليق المصحف سواء تعليقه في الرقبة، أو تعليقه في السيارة، أو في البيت، فإن هذا لا يجوز أصلاً حتى ولو خلا من العقيدة؛ لأنه يكون فيه امتهان، وفيه استعمال لكلام الله جل وعلا، إما في الزينة، أو في أغراض أخرى، وهذا خلاف تعظيم المصحف فإن العلماء أجمعوا على وجوب تعظيم المصحف واحترامه والمشاهد الآن عند كثير من الناس عدم تعظيم المصحف فقد يوضع على الأرض، وقد تمد إليه الأرجل وغير ذلك مما يدل على الاستهانة به، وهذا من أعظم المحرمات.

وقوله: «الرقى هي التي تسمى العزائم»: العزائم من العزم، وهي القراءة، ولكن تسمى اصطلاحاً كما ذكر؛ يعني: يقرأ عليه بالنفث حتى يذهب ما به من بأس.

وقوله: «وخص منها الدليل ما خلا من الشرك فقد رخص فيه الرسول ﷺ من العين والحمة»: العين هي إصابة العائن؛ أي: الحاسد غيره بعينه، ومن غير العين والحمة، فقد جاءت الأحاديث في الرخصة من النملة والدم؛ يعني: الرعاف ومن غير ذلك، ولكن سبق معنى حديث بريدة الذي فيه: **«لا رقية إلا من عين أو حمة»** أن الرقية من العين والحمة في هذين الأمرين أنفع من غيرهما، وأسرع شفاء وإلا فهي نافعة في جميع الأمراض فالقراءة نافعة جداً، وقد يزول المرض في الحال إذا شاء الله جل وعلا، وكان العازم من أهل الصدق والبر والتقى، وكذلك المعزوم عليه لا بد أن يكون عنده القبول، والإخلاص، والصدق.

والرقية إذا كانت من القرآن، أو من أسماء الله فهي مباحة أو مأمور بها، وإذا كانت مأمور بها فهي مستحبة، فالرسول ﷺ رقى ورُقي وأمر بها وأجازها، كما قال الخطابي رحمه الله.

وأما الشيء الذي يحتمل؛ يعني: بغير اللغة العربية، أو يكون بكلام غير مفهوم فهذا لا يجوز أن يستعمل، فهذا النوع الذي يكون مكروهاً، وعند بعض العلماء، يكون ممنوعاً مطلقاً، فلهذا يتبين أنها أقسام ثلاث كما سبق:

قسم لا خلاف فيه، وهي ما كان بأسماء الله وصفاته، أو بالقرآن وخلا من الشرك، فهذا جائز ولا خلاف فيه، وقسم محرم بالاتفاق، وهو ما كان فيه شرك، وقسم فيه خلاف فمن العلماء من كرهه، ومنهم من حرمه، والصحيح أنه محرم، ويدخل في القسم الثاني، فعلى هذا تكون قسمين فقط، فلا يجوز للإنسان أنه يرقى باسم مجهول أو بشيء غير معروف، ولا أن يدعو بهذا فإن الدعاء يجب أن يكون باللغة العربية، ولا يكون بألفاظ أعجمية، والألفاظ الأعجمية لا تكون شعاراً للمسلمين.

وقوله: «التولة شيء يصنعونه يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها

والرجل إلى امرأته»: وهو نوع من السحر، والسحر لا ينفك من الشرك؛ لأنه بواسطة الشياطين والإنسان إذا أطاع الشيطان يأتينه ببعض ما يريد، والشيطان لا يُطاع إلا في معصية الله جل وعلا؛ يعني: في الشرك.

۞ **وقوله: عن عبد الله بن عُكيم مرفوعاً: «من تعلق شيئاً وكل إليه»[(١)]، رواه أحمد، والترمذي.**

التعلق يكون بالقلب ويكون أيضاً بالفعل؛ يعني: تعلقه بقلبه، وقد يعلقه أيضاً بفعله فإذا تعلق ذلك وكله الله جل وعلا إليه ومن وكل إلى خيط أو قلادة فقد ضاع وهلك، والعبد المؤمن يجب أن يكون تعلقه بربه جل وعلا الذي بيده النفع والضر، ومن توكل على الله جل وعلا وتعلق به فإنه يكفيه جل وعلا.

وقوله: «شيئاً»: نكرة يعم كل ما تعلق به سواء كان من الأفعال التي يعلقه هو، أو تعلق قلبه بأمور أخرى من أمور الدنيا فإنه يوكل إليه، وكونه يوكل إليه معناه: أن الله يكله إلى هذا المخلوق الضعيف، ومن وكل إلى ذلك ضاع وهلك؛ لأن العبد إذا لم يكن في حماية ربه جل وعلا ويتعلق به فإنه يكون هالكاً بلا شك، وهذا من باب مقابلة الشيء بضده والله جل وعلا جعل ذلك سُنَّة في خلقه؛ يعني: أن الجزاء من جنس العمل، فهي قاعدة في الشرع بل قاعدة في خلق الله جل وعلا، فمن تعلق على غير الله فإنه يكون هالكاً، ويأتيه الضرر من حيث يظن أنه يأتيه النفع بخلاف الذي يتعلق على الله جل وعلا، فإنه يكون في حمايته وصيانته، وهذا عام ليس فقط في التمائم، أو في الأشياء التي ذكرت بل عام في كل شيء حتى في الأمور العادية التي يعتقد الإنسان أنها أمور معتادة مثل: الصناعات، والأعمال التي يعملها الناس فمن تعلق بصناعته، أو بعمله، أو معرفته التي يكتسب بها شيئاً فإنه يوكل إلى هذه الصناعة، وإذا وكل إليها لن يتحصل على خير بل يتعثر وتكون نهايته

---

(١) رواه أحمد في المسند رقم ١٨٨٠٣، والترمذي رقم ٢٠٧٢، والبيهقي في الكبرى رقم ١٩٣٩٥، والحاكم في المستدرك رقم ٤٠٧٩.

الخسارة، وإن كانت مثل هذه تكون أسباباً؛ يعني: أسباباً لجلب الرزق، أو ما أشبه ذلك قد جعلها الله أسباباً، ولكن السبب لا يجوز أن يعتمد عليه فإن الاعتماد عليه يكون من الشرك، وإذا كان السبب مشروعاً فإن العبد يفعله على أنه سبب، ولكن اعتماده على ربه جل وعلا.

۞ قال: وروى الإمام أحمد عن رويفع ﷺ قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا رويفع لعلَّ الحياة ستطول بك فأخبر الناس أن من عقد لحيته، أو تقلد وتراً، أو استنجى برجيع دابة، أو عظم، فإن محمداً بريء منه»[1].

هذا الحديث رواه الإمام أحمد كما قال المؤلف ﷺ، ولكن من طريق ابن لهيعة، وقد جاء من طريق آخر فدل على أنه صحيح.

قوله: «لعل الحياة»: لعل: تَرَجِّي، وقد طالت به الحياة كما أخبر رسول الله ﷺ، فإن رويفعاً طالت حياته إلى سنة ست وخمسين، فمات ببرقة من أعمال مصر أميراً عليها، وهو من الأنصار، وقيل: مات سنة ثلاث وخمسين.

وقوله: «فأخبر الناس»: أمره أن يخبر الناس، وليس هذا خاص به، بل كل من كان عنده علم فإنه مأمور بإخبار الناس؛ لأن أمر الرسول ﷺ لواحد من الأمة؛ كأمره لجميع الأمة، فمن كان عنده علم ليس عند غيره، فإنه يجب عليه أن يخبر الناس عموماً، أما إذا كان العلم عنده وعند غيره، فإن إخباره يصبح من أمور الكفايات وفروض الكفاية إذا قام بها من يكفي سقط عن البقية، وإلا لزام كما هو معلوم.

وفيه وجوب نشر العلم الذي يحتاج الناس إليه، فكل من كان عنده علم بذلك وجب عليه أن يبثه وينشره، ولا ينتظر أنه يسأل، أو يطلب ذلك منه، وهذا أمر معلوم لا يختلف فيه أحد، فقوله: **«أخبر الناس»** إخبار الناس هو إعلامهم بأن هذا لا يجوز.

---

(١) رواه أحمد في المسند رقم ١٦٩٩٦، وأبو داود رقم ٣٦، والبيهقي في الكبرى رقم ١، والنسائي في الكبرى رقم ٩٣٣٦، والطبراني في الكبير رقم ٤٤٩١.

وقوله: «أن من عقد لحيته»: بكسر اللام، لا يجوز غير ذلك، ولكن إذا جمعت جاز الجر والضم، ويجوز الفتح. وعقد اللحية اختلف في معناه:

فمن العلماء من يقول هو معالجة الشعر حتى يتعقد لتجمل والتزيين؛ كصنيع النساء، ومن يشبه النساء. ومنهم من يقول: عقدها أن تعقد على زي الأعاجم من باب التكبر والتجبر عند الحرب ونحو ذلك حتى يكون المنظر فيه تخويف، ومنهم من قال: المقصود بعقدها في الصلاة كما ذكر ذلك ابن أبي زرعة؛ لأنه يقول: ورد الحديث في ذلك فيكون ذلك مثل النهي عن كف الثياب في الصلاة، فعقدها في الصلاة؛ يعني: كف الشعر حتى لا يصيب الأرض، وقد يطلق على ما هو أعم فيدخل في ذلك اشتغاله بها بيده فيمسكها ويرفعها، وما أشبه ذلك، هذا إذا كان في الصلاة، وإذا كانت هذه الأمور الثلاثة كلها يدل عليها الحديث فكلها تدخل فيه.

وقوله: «أو تقلد وتراً»: تخصيص الوتر؛ لأنه كان يُتقلد، وإلا فلو تقلد غيره بقصد ما يقصد من تقلد الوتر فهذا لا يجوز ويكون له نفس الحكم، وتقليد الوتر كما سبق يعتقدون أنه يدفع الضر سواء إصابة العين، أو إصابة الجن، أو غير ذلك من الأضرار التي يعتقدونها، وكانت الجاهلية واقعة في الشرك في أمور كثيرة وهذا منها.

وقوله: «أو استنجى برجيع دابة، أو عظم»: الاستنجاء إذهاب النجو، وهو أثر الخارج من الإنسان، ورجيع الدابة مثل: البعير، أو البقرة، أو غيرها، وقد جاء تعليل ذلك أنها علف لبهائم الجن المؤمنين، وكذلك العظام، فإنه يكون طعاماً لهم يجدون عليه اللحم أوفر ما كان، فقد سألوا النبي ﷺ الزاد فقال: «**لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحماً، وكل بعرة علف لدوابكم، فقال رسول الله ﷺ: فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم**»[1]، ولدوابهم الروث فمن فعل ذلك يفسدها عليهم، وهذا يكون من المحرمات، ولو لم نعلم الحكمة في ذلك، وإذا جاء نهي النبي ﷺ وجب الكف عن ذلك والامتناع منه.

---

(١) رواه مسلم رقم ٤٥٠.

ويدل على أنه أيضاً لا يطهران، وأن الإنسان لو فعل ذلك لا تصح صلاته حتى يستنجي، كما جاء عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ نهى أن يستنجى بروث أو عظم وقال: «**إنهما لا تطهران**»[١].

قوله: «فإن محمداً بريء منه»: هذا من نصوص الوعيد التي تترك كما جاءت ليكون ذلك أدعى للانزجار والابتعاد عن اقتراف هذه الأمور، وإن كان المسلم لا يكفر بذلك، ولكن لا يجوز أن نخفف من أمرها حتى يكون أدعى لعدم القربان، أما قول البعض كما يقوله النووي: أنه بريء من فعله. فهذا فيه نظر؛ لأنه قال: «**بريء منه**»، ولم يقل: «بريء من فعل ذلك الفاعل»، فهذا تأويل على خلاف الظاهر، والواجب أنها تبقى على ما هي عليه، فنصوص الوعيد لا تفسر ولا تأول، تبقى على ما هي عليه، وهذا هو المختار فلا يجوز التهاون في ذلك؛ لأن هذا يقلل من شأنها كثيراً.

وإن كانت لا تدل على الكفر والخروج من الدين الإسلامي، ولكن تدل على عظم الأمر، وأقل ما يقال فيها: أنها تكون كبيرة والشاهد من هذا قوله: «**أو تقلد وتراً**»، والبراءة ممن فعل هذه الأشياء كلها أو فعل واحداً منها، فإن محمداً ﷺ بريء منه فدل على تحريمها، فأما الوتر فلا إشكال فيه أنه شرك؛ لأنه تعلق بغير الله، وأما البقية فإن هذا من فعل المتكبرين، أو فعل المخنثين، والاستنجاء يفسد على الجن المسلمين ما أعطاهم الرسول ﷺ إياه من علف دوابهم وطعامهم، وفي هذا كما يقول الشارح علم من أعلام النبوة، وأعلام النبوة معناها دلائلها ومعجزاتها حيث أخبر الرسول ﷺ بطول حياة رويفع، وقد طالت.

وفيه كما هو ظاهر جواز تصغير الأسماء، فإن رويفع مصغراً، وكذلك عُكيم كما سبق فإنه مصغر، والرسول ﷺ أقر ذلك.

---

(١) سنن الدارقطني باب الاستنجاء رقم ٩.

۞ **قال: وعن سعيد بن جبير قال: «من قطع تميمة من إنسان كان كعدل رقبة»[١]. رواه وكيع. وله عن إبراهيم؛ قال: «كانوا يكرهوا التمائم كلها من القرآن وغير القرآن»[٢].**

قوله: «كعدل رقبة»؛ يعني: كأنه أعتق رقبة، وهذا موقوف على سعيد، ولكن مثل هذا لا يقال بالرأي مثل: ذكر الثواب، والجزاء على الأعمال؛ يعني: أن له كذا وكذا، فالظاهر أنه له مستند في هذا، وسعيد تابعي فهو من تلاميذ ابن عباس وغيره من الصحابة، فيكون هذا مرسل له حكم الرفع عند أهل العلم.

وفي هذا تخليص الإنسان مما يقع فيه من كونه يعلق شيئاً عليه، أو على ولده، أو ما أشبه ذلك، ومعلوم أنه ليس المقصود أنه يقطعها، بل لا بد من ذكر الحكم وأن هذا لا يجوز، ولكن فيه إنكار المنكر باليد في هذا؛ لأن هذا منكر عظيم فيقطعها ويعلمه أن هذا شرك مثل ما قال حذيفة: **«لو مت، وهي عليك ما صليت عليك»**، وكذلك قول الرسول ﷺ للذي لبس حلقة من صفر: **«لو مت وهي عليك ما أفلحت أبداً»**، فيعلمه مع قطعها أن هذا لا يجوز فعله، وأن هذا قادح في التوحيد بل مُذهب لكماله، وقد يذهب به إذا كان يعتقد أنها تنفع بنفسها.

وقوله: «وله عن إبراهيم»: هو ابن يزيد النخعي من تلامذة عبد الله بن مسعود، وهو تابعي، وقد أدرك كثيراً من الصحابة وأخذ العلم عن عبد الله بن مسعود ولازمه، وعن غيره من الصحابة، مات سنة ست وتسعين، وله خمسون سنة أو نحوها.

قوله: «كانوا»: هذا عموم وليس مقصوداً بعموم الصحابة وغيرهم، وإنما مقصوده أصحاب ابن مسعود مثل: عبيدة، والربيع بن خثيم، والأسود بن يزيد، وعلقمة وأبي وائل، والحارث بن سويد، ومسروق وغيرهم كثيرون، وهم من سادات التابعين.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه رقم ٢٣٤٧٣.

(٢) المصدر السابق رقم ٢٣٤٦٧.

وقوله: «يكرهون»: الكراهة هنا يقصد بها التحريم، فإن هذا عندهم من المحرمات وإطلاق الكراهة عند السلف ولا سيما أصحاب ابن مسعود يقصد بها التحريم وليست الكراهة التي اصطلح عليها المتأخرون، أما السلف فإن عندهم الكراهة يقصد بها التحريم، وهذا لغة القرآن التي جاء بها، وكذلك لغة الصحابة والرسول ﷺ.

قوله: «التمائم كلها من القرآن ومن غير القرآن»: سواء من القرآن، أو من أسماء الله وصفاته، أو من غيرها، فلم يستثن من ذلك شيئاً، ولهذا قال: «من القرآن ومن غير القرآن»؛ يعني: الذي قيل: أنه جائز، والذي اتفق أنه لا يجوز؛ لأنه من الشرك عند أصحاب ابن مسعود أن هذا محرم، وهذا هو الراجح كما سبق.

❁ **قال المؤلف كَلَّلهُ: فيه مسائل:**

❁ **الأولى: أن هذه الثلاث كلها من الشرك من غير استثناء.**

يعني: أن الرقى والتمائم والتولة، وأخرج الدليل من الرقى إذا كانت من القرآن، أو بأسماء الله وصفاته، فليست من الشرك، ولكن هذا يحمل على رقى الجاهلية، ولهذا قال: «**كلها من الشرك**»؛ يعني: رقى الجاهلية.

❁ **الثانية: أن الرقية بالكلام الحق من العين والحمة ليس من ذلك.**

ومن غير العين والحمى ولكن مقصوده: أنه نص على العين والحمية في الحديث.

❁ **الثالثة: فضل ثواب من قطع تميمة من إنسان.**

لقول سعيد أنه كعتق رقبة؛ يعني: مثل إذا أعتق رقبة؛ لأن العتق جاء فضله منصوصاً عليه في أحاديث الرسول ﷺ أنه يكون له عتق من النار بكل عضو من المعتق في مقابله ما يعتق من المعتق عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «**من أعتق رقبة مسلمة أعتق الله بكل عضو منه عضواً من النار**

حتى فرجه بفرجه»[1]، فهذا فضل عظيم، وقد سبق أن هذا لا يقال بالرأي، فلا بد أن يكون مستند إلى كلام الرسول ﷺ.

۞ الرابعة: أن كلام إبراهيم لا يخالف ما تقدم من الاختلاف؛ لأن مراده أصحاب عبد الله بن مسعود.

يعني: **قوله: «كانوا يكرهون»**؛ يعني: ليس مقصوده العموم، وإنما كان يقصد بذلك أصحاب عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.



(١) رواه البخاري رقم ٦٧١٥، ومسلم رقم ١٥٠٩.



الباب التاسع

❁ **قال المؤلف رحمه الله: باب من تبرك بشجر أو حجر ونحوهما.**

يعني: ما حكم ذلك هل يكون ذلك شرك أو لا؟

والتبرك معناه: أن يطلب البركة ويرجوها؛ يعني: طلب البركة من الشيء المعين، أو اعتقادها فيه مثل: الحجر، ومثل: الأشخاص، ومثل: القبور، وما أشبه ذلك، ويعتقد البركة تحصل لمن لامسها، أو جلس عندها، أو طلبها منها، فهذا من الشرك كما يأتي.

والبركة لا تكون إلا من الله جل وعلا؛ لأن البركة هي النماء في الشيء والزيادة فيه والتكثير، وطلب البركة كله من العبادة التي لا تجوز أن تكون إلا لله جل وعلا، فإذا جُعلت لشجرة، أو حجر، أو غار، أو لمكان، أو لقبر، أو ما أشبه ذلك، فقد وقع فاعل ذلك في الشرك.

وعادة الناس أنهم يتبركون بأشخاص معينين يعتقدون صلاحهم وأن ملامستهم فيها بركة مثل: ثيابهم، أو فضلات طعامهم، أو عرقهم، أو ما أشبه ذلك، وقد أكثر النووي رحمه الله في شرح مسلم من ذكر هذا الشيء إذا أتى إلى ما ذكر عن النبي ﷺ أن الصحابة كانوا يتبركون به يتبركون بفضلاته من العرق، أو شيء يلامس بدنه من ثوب، أو نحو ذلك، أو شعر وهذا شيء مشهور كما في قصة الحديبية في قول عروة ابن مسعود أنه جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينه قال: فوالله ما تنخم رسول الله ﷺ نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فيدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيماً له فرجع عروة إلى أصحابه، فقال: أي قوم والله لقد وفدت على الملوك ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله إن رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد ﷺ محمداً، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت

في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده وما يحدون إليه النظر تعظيماً له، وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها[١].

ومن المشهور أيضاً أنه لما حلق شعره قسمه على أصحابه عن أنس ﷺ: «أن رسول الله ﷺ لما حلق رأسه كان أبو طلحة أول من أخذ من شعره»[٢]، وفي رواية: «أن رسول الله ﷺ أتى منى فأتى الجمرة فرماها، ثم أتى منزله بمنى ونحر، ثم قال للحلاق: خذ وأشار إلى جانبه الأيمن، ثم الأيسر، ثم جعل يعطيه الناس»[٣]، وهذا كثير في سيرته ﷺ، فإذا جاء هذا يقول النووي: فيه استحباب التبرك بالصالحين[٤] وهذا فيه نظر، وذلك لأمور:

أولاً: أنه لا أحد يقارب النبي ﷺ فضلاً عن السماوات، ولا يمكن أحد أن يقول هذا.

الثاني: أن الصلاح في القلب وهو أمر لا يعلمه إلا الله جل وعلا، وإنما الناس يعلمون الشيء الظاهر لهم، أما الاطلاع على القلوب فهذا إلى الله جل وعلا، فكونه يحكم على هذا الشخص بأنه صالح فهذا أمر ظني ليس يقيني، فلا يمكن أن يتبرك بشيء مظنون؛ يعني: لا تصلح البركة، هذا لو قدر أنها جائزة.

الثالث: أن الصحابة رضوان الله عليهم لم يفعلوا هذا مع غير النبي ﷺ لا في حياته، ولا بعد مماته صلوات الله وسلامه عليه، فلم يفعلوه مع أبي بكر ولا مع عمر، ولا مع عثمان، ولا مع غيرهم من أفاضل الصحابة، فدل على أنه مقصور على النبي ﷺ.

الرابع: أن هذا فيه وسيلة وذريعة إلى فعل ما لا يجوز، والافتتان في هذا الباب أمره واضح.

---

(١) رواه البخاري رقم ٢٧٣٠.　　(٢) رواه البخاري رقم ١٧١.

(٣) رواه مسلم رقم ١٣٠٥.

(٤) شرح النووي على مسلم ٥/ ١٦١ يقول: ومنها التبرك بالصالحين وآثارهم والصلاة في المواضع التي صلوا بها وطلب التبريك منهم.

الخامس: أن المتبرك به قد يكون له فتنة فيُعجب بنفسه فيكون مثل: المدح الذي نهى عنه الرسول ﷺ في المواجهة.

فعلى هذا لا يجوز أن يتبرك بأحد من الناس على هذا الوجه؛ يعني: استدلالاً بما كان الصحابة يفعلونه بالنبي ﷺ.

❁ **قال المؤلف** رَحِمَهُ اللهُ: **وقول الله تعالى**: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾﴾ [النجم: ١٩] **الآيات؛ يعني: إلى آخر الآيات وهي قوله تعالى**: ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾ [النجم: ٢٠ ـ ٢٣].

ذكر هذه الآيات بعد ما ذكر الله جل وعلا الوحي إلى نبيه ﷺ: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم: ١ ـ ٤]، فقال بعد ذلك: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾﴾؛ يعني: الأصنام التي اتخذتموها آلهة والكلام فيها مقدر مفهوم من الكلام تقديره: هل أوحيت إليكم، أو هل تنفعكم، أو تضركم، فإنها لا تفعل من ذلك شيء، حتى تكون شركاء لله تعالى؟

واللات والعزى ومناة هذه الثلاث من الطواغيت الكبيره عند العرب، وأكبرها العزى، ثم يليها اللات، ثم تليها مناة.

قوله: «﴿أَفَرَءَيْتُمُ﴾»: هذا استفهام، والتقدير: أخبروني هل هذه التي اعتقدتم فيها الشفاعة، وأنها تتوسط لكم عند الله وتنفعكم هل فعلت شيئاً، أو أوجدت شيئاً مع الله جل وعلا؟

وقوله: «﴿ٱللَّٰتَ﴾»: قُرأت بالتخفيف، وقرأت بالتشديد، فقرأ الجمهور: بتخفيف التاء «اللاَت» وقرأ ابن عباس، وابن الزبير، ومجاهد، وحميد وغيرهم بتشديد التاء.

فمن خفف لاحظ أنه مشتق من الإله، ولكنها مؤنثة أخذوها من اسم الله جل وعلا، وهذا من الإلحاد في أسماء الله جل وعلا، ومن الشرك في توحيد

الأسماء والصفات وعلى قراءة التشديد فهي مأخوذة من اللت وهو الخلط، وقد جاء أنه رجل يلت السويق[١] بالزيت أو السمن، ويقدمه لمن أتى إليه، ولما مات دفنوه تحت الصخرة، ثم عبدوها وصاروا يعكفون عندها[٢]، ويطوفون بها ويتبركون بها، وصار لها بناء معظم، وصاروا يفتخرون بها على سائر العرب إلا قريش فإن قريش عندهم العزى أعظم منها، وكانت اللات في الطائف في ثقيف ومن والاهم من مشركي العرب، والأصل على قراءة التخفيف أنها صخرة منقوشة كما يقول الكلبي في كتابه الأصنام يقول: إنها كانت صخرة، ولما أسلمت ثقيف أرسل رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبة فهدمها وأحرقها[٣]، ثم بنى المسجد[٤] قريباً منها حتى تنسى، وقد نسيت ولم يعرف مكانها إلا بذكر الذين حفظوه واعتنوا بهذا الموضوع.

وقوله: «﴿وَٱلْعُزَّىٰ﴾»: قيل: إنها مأخوذة من اسم الله العزيز، وهي عبارة عن شجرات ثلاث سمرات عليها بناء وأستار في وادي نخلة قرب عرفات، وكانت قريش تعظمها، ولهذا لما حصل ما حصل يوم أُحد كان قائد المشركين أبو سفيان يقول: يوم بيوم بدر، والحرب سجال إنكم ستجدون في القوم مُثلة لم آمر بها ولم تسؤني، ثم أخذ يرتجز: أعلُ هبل أعل هبل، قال النبي ﷺ: **«ألا تجيبونه؟»**، قالوا: يا رسول الله ما نقول؟ قال: **«قولوا: الله أعلى وأجل»**، قال: إن لنا العزى، ولا عزى لكم، فقال النبي ﷺ: **«ألا تجيبونه؟»**، قالوا: يا رسول الله ما نقول؟ قال: **«قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم»**[٥]. فالعزى شجرات لها أستار، ولها سدنة فكانوا يعظمونها فيأتون إليها ويعكفون

---

(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ كان اللات رجلاً يلت سويق الحاج. رواه البخاري رقم ٤٨٥٩.

(٢) تفسير الطبري ٥٢٣/٢٢ فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه. ذكره عن مجاهد.

(٣) الأصنام للكلبي ص٢، ٣.

(٤) تفسير ابن كثير ٤٥٧/٧ قال: وقد بعث إليها رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبة وأبا سفيان صخر بن حرب، فهدماها وجعلا مكانها مسجد الطائف.

(٥) رواه البخاري رقم ٣٠٣٩.

عندها للتبرك لطلب البركة ويعلقون بها أسلحتهم، وقد يسمعون منها الكلام؛ لأن الشيطان يدخلها ويتكلم فيها ليفتنهم[١] وهذا يقع كثير.

ولما فتح رسول الله ﷺ مكة، بعث خالد بن الوليد ﷺ إلى نخلة ـ وكانت بها العزى، وكانت على ثلاث سمرات ـ فقطع السمرات وهدم البيت الذي كان عليها، ثم أتى النبي ﷺ فأخبره فقال: «**ارجع فإنك لم تصنع شيئاً**» فرجع خالد، فلما أبصرته السدنة أمعنوا في الجبل، وهم يقولون: يا عزى. فأتاها خالد فإذا امرأة عريانة ناشرة شعرها تحفن التراب على رأسها (وهذه هي الشيطان الذي كانوا يسمعونه)، فعمَّمها بالسيف فقتلها. ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: «**تلك العزى**»[٢].

وقوله: «﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾»: المتأخرة الحقيرة؛ كقوله جل وعلا: ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ﴾ [الأعراف: ٣٨]؛ يعني: سقطائهم ومتأخروهم على أحد قولي المفسرين لرؤسائهم وسادتهم، ومناة قيل: إنها مأخوذة من اسم الله المنان تعالى الله وتقدس، وقيل: مأخوذة من الفعل الذي يحصل عندها وهو كثرة ما يمنى عندها من الدماء فتراق الدماء عندها تقرباً إليها.

وكانت بين مكة والمدينة: فعن عروة عن عائشة ﷺ كان رجال من الأنصار ممن كان يهل لمناة، ومناة صنم بين مكة والمدينة، وكانت خزاعة والأوس والخزرج يعظمونها، فإذا أراد أهل المدينة الحج أو العمرة يهلون منها، ويعظمونها كثيراً وكذلك القبائل حولها[٣]، فأرسل رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب ﷺ وقيل: أبا سفيان فهدمها.

فهم اشتقوا لهذه الأصنام أسماء من أسماء الله جل وعلا، فالعزى من العزيز، واللات من اسم الله جل وعلا، ومناة من اسمه جل وعلا المنان[٤]

---

(١) أخبار مكة للأزرقي ١/ ١٧٤ قال الكلبي: وكانت اللات والعزى ومناة في كل واحدة منهن شيطانة تكلمهم وتتراءى للسدنة، وهم الحجبة، وذلك من صنيع إبليس وأمره.

(٢) رواه النسائي في الكبرى رقم ١١٥٤٧، ومسند أبي يعلى رقم ٩٠٢.

(٣) تفسير ابن كثير ٧/ ٤٥٦.

(٤) تفسير الطبري ١٣/ ٢٨٣ ذكره عن مجاهد، وتفسير ابن كثير ٣/ ٥١٦، وتفسير البغوي ٣/ ٣٠٧.

وهذا من الإلحاد في أسماء الله جل وعلا ومن الشرك، فقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أن المشركين يشركون في أسماء الله جل وعلا اشتقوا منها العزى ومناة ونحو ذلك فهذا شرك.

وهم يقولون: إنها مؤنثة من الله تعالى وتقدس، وهكذا هم يؤنثون معبوداتهم، ومعلوم أن التأنيث يدل على الرخاوة وعلى اللين وعلى الضعف، ولهذا قال الله جل وعلا: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝٢١ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ۝٢٢﴾ [النجم: ٢١، ٢٢]؛ يعني: أنكم أنتم تأنفون من أن تُنسب إليكم الإناث: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨﴾ [النحل: ٥٨]، ثم يذهب يجعل لله جل وعلا ولد أنثى تعالى الله وتقدس، ويجعلون له شركاء إناث في العبادة والتوجه والطلب تعالى الله وتقدس عن قولهم.

فهذه من أصنام العرب الكبيرة، ولهم أصنام غيرها كثيرة مثل: هبل وإساف ونائلة وكانت في مكة، أما هبل فكانوا يعبدونه ويدعونه، ولهذا قال أبو سفيان يوم أحد في فخره: أعل هبل، فقال ﷺ: **أجيبوه**، قالوا: وماذا نقول؟ قال: قولوا: **الله أعلى وأجل**. وقبل ذلك كان ﷺ ينهاهم عن إجابته فلما جاء بالشرك وانتقاص رب العالمين أمرهم بإجابته.

وقد جاء أن الرسول ﷺ لما فتح مكة وجد عندها منصوباً أكثر من ثلاثمائة من الأصنام المعبودة، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «دخل النبي ﷺ مكة وحول الكعبة ثلاثمائة وستون نصباً فجعل يطعنها بعود في يده وجعل يقول: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ الآية [الإسراء: ٨١]»(١)، فصارت تتهاوى على رؤوسها؛ لأن هذا هو الباطل الذي أمر الله جل وعلا أن يزهق، وأن يمحى ويمحق وكل المعبودات من دونه.

كان فعلهم في هذه الأصنام أنهم يطوفون عليها ويجلسون عندها طلباً للبركة، وقد يُعلقون أسلحتهم وثيابهم، ويأتون إليها بالقرابين التي يذبحونها، ثم يأكلونها يريقون الدماء عندها فيزعمون أنها تشفع لهم وما كان أحد منهم

---

(١) رواه البخاري رقم ٢٤٧٨، ومسلم رقم ١٧٨١.

يقول: إنها مشاركة لرب العالمين في التدبير والخلق، أو ما أشبه ذلك وكلهم يعتقدون أنه يدعوها لتقربه إلى الله؛ يعني: أنها واسطة لتشفع له عند الله، فما ذكر عن أحد من المشركين القدماء أنه اعتقد أن مع الله شريكاً في الخلق والتدبير والتسخير، ولهذا يقول الله جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢]؛ يعني: يعلمون هذه الأمور حقيقة أن الله هو الذي خلقهم وخلق الذين من قبلهم وحده لم يشاركه في الخلق أحد، وهو الذي جعل الأرض على هذه الصفة، وجعل السماء سقفاً لها مرفوعاً على هذه الصفة، وهو الذي ينزل وحده من السماء ماء فيخرج به من الثمار والحبوب ما يأكلونه وتأكله أنعامهم يعلمون هذا جيداً لهذا قال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾؛ يعني: في العبادة والتقرب والتبرك وأنتم تعلمون أنه جل وعلا هو المتفرد بما ذكر، وكذلك قوله جل وعلا: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [الزخرف: ٨٧]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الزخرف: ٩] في آيات كثيرة جداً.

في هذا كلها تبيين أنهم كانوا مقرين بتوحيد الربوبية الذي هو توحيد الرب جل وعلا وتفرده بأفعاله من الخلق والرزق والإحياء والإماتة ونحو ذلك، على هذا يكون شركهم في مثل هذه الأصنام أنهم جعلوها واسطة بينهم وبين الله يدعونها لتشفع لهم، وبعضهم يقول أطلب منها أن تقربني إلى الله زلفى لأنها لا ذنوب لها أما نحن فمذنبون، أما إذا دعونه بلا واسطة يمكن أن يرد دعاءنا، ويقولون أيضاً: إننا نجعل بيننا وبين ربنا وسائط لأنه أنجح للسؤال لأننا نرى الملوك والكبراء لا يخاطبون رأساً وإنما يتقرب إليهم بالواسطة التي تكون مقربة إليهم مثل: وزير، أو أخ، أو زوج، أو ما أشبه ذلك، فقاسوا رب العالمين على المخلوق الضعيف الذي لا يعلم شيئاً ولا يستطيع أن يستقل في الأمور وحده، وكل هذه من أسباب الشرك التي أوقعتهم في الكفر والابتعاد عن الله جل وعلا، ثم صاروا يتتابعون على هذا، وصار

الابن يقلد الأب، ثم صار ديناً مسلوكاً، وإذا تغير، أو جاءت الرسل للدعوة إلى التوحيد توحيد الله جل وعلا تعجبوا وقالوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [ص: ٥]؛ لأنهم تربُّوا على هذا وعاشوا عليه، فعلى هذا يوازن العاقل الذي ينظر بعقله وببصيرته إلى واقع كثير من المسلمين الذين يهرعون إلى القبور كلما ألم بهم مُلم يدعونه بتضرع وخشوع وذل، وكذلك إذا لم يلم بهم ملم وإنما يذهبون إليه يطلبون الرزق منه، أو الولد أو الانتصار على العدو، أو كشف الضر، أو جلب النفع، أو ما أشبه ذلك، وهم يزعمون أنهم مسلمون وإذا قيل لهم في ذلك، قالوا ليس هذا شرك وإنما هذا حب الصالحين فنحن نحبهم ونتوسل بهم، والسبب في هذا أنهم جهلوا معنى العبادة وجهلوا معنى التأله لا يعرفون معنى الإلٰه ولا يعرفون معنى العبادة. فتتابعوا على هذا الشيء حتى صار مألوفاً لديهم وأصبح شركهم أعظم من شرك المشركين القدماء الذين بُعث فيهم رسول الله ﷺ؛ لأن الله قد قص علينا في كتابه عنهم أنهم إذا وقعوا في الشدائد أخلصوا الدعاء لله جل وعلا وتركوا شركهم، أما هؤلاء فبالعكس إذا وقع أحدهم في شدة أخلص لمعبوده من دون الله الدعاء والتضرع والخضوع والذل تجده يبكي بلهفة وشجن، أمر لا يكون لأكثرهم أو لكلهم في المساجد عندما يصلون لله جل وعلا فصار شرك المشركين القدامى أقل من شركهم مع أنهم يزعمون أنهم ليسوا مشركين وإذا قيل لهم: هذا شرك صاحوا بمن قال ذلك وقالوا: أتجعلنا كالمشركين ونحن نشهد أن لا إلٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله، وهم يتكلمون بهذه الكلمة مثل السكران أو النائم أو المجنون يهذون بها هذياناً لا يفهمون معناها ولا يعملون بمقتضاها، وهي لا تنفعهم ففعل هؤلاء بالمقبورين أعظم من فعل أولئك بالأحجار والأشجار.

قوله: «﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ۝٢١﴾»؛ يعني: كيف تجعلون لله ولد، ثم تجعلون هذا الولد أنثى وأنتم تأنفون من ذلك، ثم تجعلونها شركاء لله جل وعلا، فوق هذا كله فهذه ظلمات بعضها فوق بعض. والمعنى أن هذه الآلهة مؤنثة، والأنثى كما هو معلوم ضعيفة، والتأنيث يدل على اللين والرخاوة

والضعف، فكيف تجعلون هذا القسم الضعيف شريكاً لرب العالمين، تعالى الله وتقدس ولهذا قال:

«﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾﴾»؛ يعني: جائرة، لو كانت بين مخلوقين لكانت ظلم وجور، فكيف تجعلون هذه القسمة بينكم وبين رب العالمين، فبهذا يتبين كون الشرك لا يغفر؛ لأنه أظلم الظلم وأعظم الذنوب.

ثم قال جل وعلا هذه ليس لها حقائق: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا﴾ [النجم: ٢٣]؛ يعني: مجرد أسماء ليس لها حقائق لا يدل الاسم على مسمى وليس لها من الإلٰهية شيء، بل هي أسماء مكذوبة وضعت على غير مسماها، فتسميتها إلٰه معبود هذا كذب وزور وبهتان وشرك بالله جل وعلا، فهي ناقصة ليست مما يتصرف أيضاً ويعقل ويأخذ ويعطى بل هي أقل من ذلك فكيف تجعلونها لله شريكاً.

قوله: «﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾»: مجرد أتباع لآبائكم وتقليداً وتعظيماً لهم.

قوله: «﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾»؛ يعني: ليس لكم فيها برهان وحجة ولا أثارة من علم مجرد اتباع للآباء واتباع للهوى وطاعة للشيطان فقط ليس فيه غير هذا.

قوله: «﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾»؛ يعني: إحسان ظنهم بآبائهم على هذا المنهج الشركي.

قوله: «﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾»؛ يعني: أنهم يفعلون ذلك؛ لأن فيها حظ نفوسهم من تعظيم آبائهم وتعظيم آلهتهم وافتخارهم بما يتخذونه على غيرهم.

ثم أخبر جل وعلا أن الحق جاءهم به نبيهم ﷺ ولكنهم صدفوا عنه وأعرضوا، ولم يقبلوه فكانوا ضلالاً بقوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٣]؛ يعني: جاءهم الرسول ﷺ بالتوحيد وبالنور الذي فيه سعادتهم لو آمنوا به واتبعوه، ولكنهم أعرضوا عنه، وتمسكوا بما وجدوا عليه آبائهم من الشرك الذي لم ينزل الله جل وعلا به من سلطان.

ووجه الاستدلال من الآية واضح، وهو أن الذي يتبرك بالشجر، أو

بالحجر، أو بالمكان، أو بالقبر أو بما أشبه ذلك أنه مشابه لفعل المشركين تماماً في اتخاذهم اللات والعزى ومناة وهبل وإساف ونائلة وغيرها من أصنامهم الكثيرة.

۞ قال المؤلف رحمه الله: عن أبي واقد الليثي رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حدثاء عهد بكفر، وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم يقال لها: ذات أنواط. فمررنا بسدرة، فقلنا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط، كما لهم ذات أنواط، فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر إنها السنن قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨] لتركبُن سُنن من كان قبلكم»، رواه الترمذي وصححه[(١)].

قوله: «خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين»؛ يعني: عام الفتح، فتح مكة فإن الرسول ﷺ لما فرغ من مكة توجه إلى هوازن؛ لأنه بلغه أنهم يجمعون له الجموع ليقاتلوه فبادرهم قبل إتيانهم، وهكذا كانت سُنَّته ﷺ إذا علم أن أحداً من المشركين يريد غزوه بادر بالغزو، فإنه يغزوهم في بلادهم ولا يغزونه، ولهذا لما وقعت وقعة الأحزاب قال النبي ﷺ يوم الأحزاب: **«نغزوهم ولا يغزوننا»**[(٢)]، فما غُزي ﷺ في بلده بعد ذلك اليوم، وكان هو الذي يغزو صلوات الله وسلامه عليه، وهكذا يجب على المسلمين أن لا ينتظروا المشركين حتى يهجموا عليهم في بلادهم بل يجب عليهم أن يغزوهم في بلادهم، ولهذا يقول الفقهاء يجب على المسلمين أن يغزوا ولو في السنة مرة؛ يعني: أنهم لا يجوز أن يعطلوا الجهاد والله المستعان.

وقوله: «إلى حنين»: وحنين اسم وادي كانت فيه الواقعة.

---

(١) رواه الترمذي رقم ٢١٨٠ وقال: هذا حديث حسن صحيح،، وأحمد في المسند رقم ٢١٨٩٧.

(٢) رواه البخاري رقم ٤١٠٩ عن سليمان بن صرد وفي رواية: **«الآن نغزوهم ولا يغزوننا نحن نسير إليهم»**.

قوله: «ونحن حدثاء عهد بشرك أو قال: بكفر»: ليبين أن هذا الذي وقع منهم أن الصحابة يعرفون أنه لا يجوز؛ لأنهم يعلمون أن هذا من الشرك، وأن هذا أمر لا يجوز أن يخفى على المسلم وإنما وقع هذا من الجهل، لأنهم قريب عهد بكفر؛ يعني: أنهم دخلوا في الإسلام قريباً فخفي عليهم هذا الأمر، فذكر ذلك لهذه العلة؛ يعني: أن غيرهم من المسلمين لا يخفى عليهم ذلك، وفي هذا دليل على أن الإنسان الذي دخل حديثاً في الإسلام أنه قد يقع في أمور عظيمة وهو لا يدري. ويدل على أن الإنسان قد يرتكب الأمر العظيم يظنه خيراً وهو شر.

وقوله: «وللمشركين سدرة»: السدرة معروفة لا تزال بهذا الاسم، وليس هذا خاص بالسدرة، بل أي شجرة اعتقد فيها تكون من هذا النوع، فهي ذات أنواط.

قوله: «يمكفون عندهم»؛ يعني: يجلسون عندها، وجلوسهم عندها لطلب البركة، والعكوف أمره ظاهر فإن العكوف عبادة، ولا يجوز أن يكون إلا في المساجد لله جل وعلا، ولا يكون عند الأحجار والأشجار والقبور، فمن فعل ذلك فقد صرف عبادة الله لمخلوق وهو الشرك.

قوله: «وينوطون بها أسلحتهم»؛ يعني: يعلقونها، ناط ينوط إذا علق الشيء، فهم يعلقونها طلباً للبركة؛ لأنهم يعتقدون أنهم إذا علقوها بها صار أمضى لها وصارت لا تخطئ مقاتل العدو؛ فمعناه: أنهم يعتقدون أن الأسلحة تكتسب البركة منها، ويكون بذلك سبب النصر لهم، ومثل ذلك ما إذا طلب الإنسان البركة من قبر، أو من شجر فعلق بها خرقة، أو ثوب، أو ما أشبه ذلك، أو بناء أو حديد مثل شباك يجعل مثلاً على قبور، أو ما أشبه ذلك كما هو الواقع فإنه يكون له هذا الحكم تماماً فيكون قد وقع في الشرك الذي يجب أن يتوب منه ويقلع عنه قبل أن يموت.

قوله: «يقال لها: ذات أنواط»؛ يعني: سميت من الفعل الذي يفعلونه وهو التعلق؛ يعني: أخذوا هذا الاسم لها مما يفعلونه بها.

قوله: «فقلنا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط»:

ظنوا أن هذا أمر محبوب لله وللرسول ﷺ، ولهذا طلبوا ذلك من النبي ﷺ. وفي هذا كما يقول المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: **«أنه متقرر عندهم أن العبادات مبناها على الأمر»**[١]. ولهذا قالوا: **«اجعل لنا»** طلبوا منه، وبدون أن يجعل النبي ﷺ شيئاً يتعبدون به فإنه لا يثبت، ومعنى ذلك أنهم لم يفعلوا وإنما طلبوا ظناً أنه يجوز ذلك، فبيَّن النبي ﷺ أن هذا أمر لا يجوز وأنه من الشرك.

والمؤلف رَحِمَهُ اللهُ يقول: **«فصار فيه التنبيه على مسائل القبر، أما من ربك؟ فواضح، وأما من نبيك؟ فمن إخباره بأنباء الغيب، وأما ما دينك؟ فمن قولهم: «اجعل لنا»»**[٢].

فمسائل القبر لا تؤخذ من هذا الحديث، وإنما يقول صار التنبيه على مسائل القبر وهي معرفة المعبود ومن جاء بالعبادة، وكذلك العبادة لا بد أن تكون معلومة؛ يعني: يكون العبد عابداً بأمرٍ جاءه من الله والرسول ﷺ تبين صدقه بالمعجزات، ومنها الإخبار بالغيوب وغيرها، وأما المعبود فله في كل شيء آية تدل على أنه واحد، ولهذا قال: وأما من ربك؟ فواضح بالأدلة الكثيرة، إما في نفس الإنسان أو فيما حوله وغير ذلك مما يحدث، فهي تستنبط من كونهم عرفوا وعلموا أنهم لا يقدمون على عبادة حتى يكون مأمور بها وجاء بها الرسول ﷺ، ولهذا استأذنوه في ذلك والرسول ﷺ عُلم صدقه بالمعجزات، ومنها إخباره بالغيوب ومنها قوله: **«إنها السنن»**؛ يعني: الطرق التي كانت مسلوكة.

قوله: «الله أكبر»: في الترمذي قال: **«سبحان الله»**[٣]: والمعنى واحد، فتكبير الله وتسبيحه كله تنزيه أن يضاف إليه الشرك، وهذه عادة الرسول ﷺ أنه يكبر عند الأمور التي فيها انتهاك لحق الله جل وعلا، أو خدش معنى الربوبية والإلٰهية، أو الأمر العجيب وهذا من الأمور العجيبة؛ لأن هذا الواجب أنه لا يخفى على العاقل؛ لأن الشجر والحجر ليس عندها شيء من نفع ولا ضر.

---

(١) المسألة العشرون.
(٢) المسألة العشرون.
(٣) الترمذي رقم ٢١٨٠.

وقوله: «السنن»؛ يعني: سنن الأمم السابقة؛ يعني: الطرق التي كانت مسلوكة، فأنتم تسلكون كما سلك غيركم، ولهذا قال ﷺ: **«قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿أَجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾** [الأعراف: ١٣٨]».

الله جل وعلا قد أخبرنا عن بني إسرائيل أنه لما أنجاهم من فرعون حينما فلق لهم البحر فأنجاهم وأغرق فرعون وهم يشاهدون وينظرون الآيات العظيمة يضرب موسى البحر بعصاه فيصير طرقاً؛ كأنها جبال الماء واقف عن يمينهم وشمالهم وهم يمشون في أرض يبس لا يدركهم فيها زلق ولا يخافون فيها أن يلتئم عليهم الماء، ثم لما تكاملوا خارجين وقد دخل فرعون وقومه تبعاً لهم أطبق الله جل وعلا البحر فأغرقهم فامتن الله عليهم بهذا، وهذه آية عظيمة، وبعد ذلك بقليل يمرون على قوم يعكفون على أصنام لهم؛ يعني: قد جلسوا عندها وأحاطوا بها يطلبوا منها البركات، وإنالة الطلبات كعادة المشركين، فقالوا لموسى: ﴿أَجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾، فأيها أعظم طلب ذات أنواط، أو طلب هؤلاء؟ فهو شرك ظاهر، ومع هذا أقسم النبي ﷺ أنهم قالوا مثل ما قالت بنو إسرائيل، فتبين بهذا أن طلب البركة من شجر أو حجر أو نحوهما أنه شرك أكبر ليس من الشرك الأصغر، وكذلك طلب البركات من الأماكن؛ يعني: البقاع، فكل طلب يكون من مخلوق لبركة، أو إعطاء الشفاء، أو ما أشبه ذلك شرك بالله جل وعلا؛ كدعوة الأصنام لا فرق بين طلب التبرك وبين كونها تُدعى إلهاً من دون الله جل وعلا فهو كله شرك.

قوله: «والذي نفسي بيده»: الذي نفس الرسول ﷺ بيده هو الله جل وعلا، والمعنى الذي يملك إماتتي وإحيائي هو الله الذي يتصرف فيَّ وفي جميع خلقه هو الله جل وعلا.

وهذا قسم من الرسول ﷺ، وهو لا يقسم إلا إذا كان فيه مصلحة، والمصلحة في هذا البيان الواضح الذي يبين أن هذا شرك لا يجوز أن يقع في الأمة المسلمة المتبعة للرسول ﷺ، فيجب أن يحذر غاية الحذر.

قوله: «كما قالت بنو اسرائيل لموسى: ﴿أَجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ

ءَالِهَةٌ﴾»: فجعل الرسول ﷺ هذا الطلب كطلب بني إسرائيل من موسى ﷺ أن يجعل لهم إلهاً كما للمشركين آلهة يعبدونها من دون الله، فإذا وازنا بين هذا وبين طلب الصحابة من الرسول ﷺ فإذا هو مجرد طلب، ولكن أمر بني إسرائيل واضح أنهم مروا على أصنام، أما هذا فمجرد طلب أن يجعل لهم شجرة يعلقون بها الأسلحة أو غيرها، ولكن فيه أن المشركين يعكفون عند هذه الشجرة، ويعلقون بها أسلحتهم فعكوفهم عبادة وكونهم يعلقون بها الأسلحة يرون أنها تكتسب بذلك بركة، فهذا أيضاً نوع من العبادة فصار مطابقاً لما قالته بنو إسرائيل، ولهذا أقسم النبي ﷺ بقوله: «**قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى**»، قد يقول قائل: هل مجرد هذا الطلب يكون به المسلم خارجاً من الدين، ولم يأت عن الرسول ﷺ أنه أمرهم أن يجددوا دينهم؟ نقول: إنهم لم يفعلوا وإنما ظنوا أن هذا جائز، وأنه متوقف على إجازة النبي ﷺ فلم يقع الفعل وإنما وقع طلب مبني على ظن أنه محبوب لله ورسوله ﷺ، فلما تبين لهم ذلك تبرؤوا منه، فمعنى هذا أن الإنسان إذا فعل شيئاً، أو أراد فعله وهو يجهله، ثم تبين له أنه محرم أنه بمجرد تركه، والابتعاد عنه يكفيه في تكفيره هذا الشيء ولا يحتاج أنه يجدد دينه؛ لأنه لم يقع عن علمه وإرادته وإنما هو ظن باجتهاده وفي هذا الحديث أن ما ذكر عن بني إسرائيل من اليهود والنصارى من ذمهم وأنهم ارتكبوا أشياء تخالف أمر الله وأمر رسله وكذلك التحذير والتبكيت لهم أن المقصود به نحن؛ لأن خطاب الكفار وخطاب المشركين وخطاب اليهود والنصارى مع إعراضهم عن ذلك لا يجدي ولا ينفع ولا وراءه جدوى، وإنما الخطاب يكون لمن سمع ومن يمتثل فنحن المقصودون بهذا، فكل ما ذموا به في الكتاب والسُّنَّة فلأجلنا لأجل أن لا نسلك مسالكهم ونعمل عملهم، وهذا الحديث في ذلك واضح وكذلك غيره.

قوله: «لتركبن سنن من كان قبلكم»: السنن بضم السين الطرق التي يتبع فيها المتأخر الأول، والطرق هذه هي الطرق المعنوية وليست الطرق الحسية يعني طرق الاعتقاد والعمل.

قوله: «من كان قبلكم»: الذين قبلنا بنو إسرائيل ويدخل فيهم النصارى

أتباع عيسى ﷺ؛ لأن كل نبي بعث بعد إبراهيم ﷺ فهو من ذريته وكلهم أولاد إسرائيل وإسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، ولهذا لا يجوز أن نسمي شرذمة شذاذ الناس وخبثائهم أن نسميهم إسرائيل؛ لأن إسرائيل نبي كريم فالواجب أن يقال: يهود نجس خبثاء، فكل نبي بعثه الله بعد موسى فهو من ولد إسرائيل من ولد يعقوب إلا محمد ﷺ فهو ولد إسماعيل، وإسماعيل وإسحاق كليهما أبناء إبراهيم، ولكن إسماعيل هو بكره، وهو الذي بُشر به بعد ما بلغه الكبر وهو ابن هاجر الأمة التي وهبتها له زوجته سارة كما هو معروف، وفي هذا إخبار فيه التحذير من أن نقع في مثل هذا، ومع هذا فلا بد من وقوع ذلك؛ لأنه خبر صدق، ولهذا جعل هذا دليلاً على نبوته ﷺ، لأنه أخبر بشيء لم يقع فوقع كما أخبر، والآن أصبحت الأمور ظاهرة يُقلد اليهود والنصارى في الدقيق والجليل حتى في الأكل والشرب، وفي اللباس، وفي النطق، وفي المساكن، وفي كل الحركات حتى اتخاذ الكلاب صاروا يتخذون كلاباً كما يتخذ اليهود والنصارى الكلاب يضعونها في سياراتهم وفي غيرها وغير ذلك اتباع دقيق، ولهذا جاء وصف ذلك بدقة بقوله ﷺ: **«لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه»**[1]، وجاء في رواية: **«حتى لو أن منهم من يأتي أمه علانية لكان في هذه الأمة من يصنع ذلك»**[2].

قوله: «حذوا القذة بالقذة»: القذة: هي ريشة السهم، ولكن هذا لا نعرفه

---

(١) رواه البخاري رقم ٣٤٥٦، ومسلم رقم ٢٦٦٩، ولفظه عن أبي سعيد ﷺ: أن النبي ﷺ قال: **«لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه»**، قلنا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: **«فمن»**. ورواه أحمد في المسند رقم ١٧١٣٥، والطبراني في الكبير من حديث شداد بن أوس، والحاكم في المستدرك رقم ٨٤٤٨ عن حذيفة وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(٢) رواه الترمذي رقم ٢٦٤١ ولفظه عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: **«ليأتين على أمتي ما أتى على بني إسرائيل حذو النعل بالنعل حتى إن كان منهم من أتى أمه علانية لكان في أمتي من يصنع ذلك..»** الحديث.

الآن، والمعنى أنهم يكونون مثلهم في أعمالهم وأفعالهم هذا المعنى.

قوله: «حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه»: هذا لا يعرفه ولا يفهمه إلا من كان يعرف الضب، ويعرف طريقته في حفر الجحور، فإنه خص جحره من بين الجحور؛ لأن الضب لا يمكن أنه يحفر سامتاً وإنما يحفره متلوياً متجهاً إلى التحت حتى يكون عسر الدخول عليه فلا يدخل عليه حيوانات لعسره فهو أعسر الجحور دخولاً، لهذا مثل به النبي ﷺ يقول: لو كان المسلك الذي يسلكونه من أصعب المسالك سلكه من يسلكه من هذه الأمة، ولا يلزم أن تكون الأمة كلها تفعل هذا، يكفي إذا وجد من يفعل ذلك منها، الذين يقعون في التقليد لهؤلاء كثيراً حتى أصبحت ملابس المسلمين، وللأسف تصنع في باريس وفي أسواق الكفر، ولا سيما لباس النساء، وفي كل وقت يأتينا موضة، وأنواع جديدة يصنعونها لنا، فهذا يدل في الواقع على سخافة المسلمين، وعلى قلة وعيهم وقلة دينهم، وأنهم لم يتمسكوا بالدين كما ينبغي، وإنما أصبحوا ينظرون إلى الغرب معجبين به ويستوردون كل ما يصنع لهم الغرب مع ذهاب الأموال والثروات الكثيرة إلى الأعداء التي يتقوون بها على محاربة الدين وأهله.

والمقصود بالأمة في قوله: «لتتبعن» الخطاب لمن استجاب للنبي ﷺ الأمة المستجيبة، فمعنى ذلك: أنهم يُجانبون الهدى ويتبعون الكفار ويختلفون في ذلك، فمنهم من تكون متابعته كاملة تامة، ومنهم من يكون دون ذلك، ولكنه لا بد أن يقع، وقد وقع كما أخبر صلوات الله وسلامه عليه كما هو واضح لمن سبر أحوال الناس اليوم، وسبب ذلك أن هؤلاء ليس عندهم الإيمان القوي والاعتزاز بدينهم فأصبح عندهم الضعف وأصبحوا ينظرون إلى الكفار نظرات تقدير وتكبير، فأعجبوا بهم فاتبعوهم وسلكوا طريقهم، وهذا فيه من الخطر ما قد يجر الإنسان إلى الخروج من الدين نهائياً ـ نسأل الله العافية ـ.

❁ **قال المؤلف** رحمه الله**: فيه مسائل:**

❁ **الأولى: تفسير آية النجم.**

هي آيات عدة وتفسيرها المقصود به أن الآية تدل على هذا، وليس

المقصود تفسيرها بذكر المفردات والمعنى المجمل، وإنما يقصد أنها دلت على هذا الشيء آية النجم: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾﴾، ومقصوده بالتفسير أن التبرك بالحجر، أو الشجر، أنه شبيه بفعل المشركين بهذه الأصنام، فاللات عبارة عن حجر، والعزى عبارة عن شجر، ومناة كذلك عبارة عن حجارة، والأماكن والقبور لا تخلوا أن تكون شبيه بذلك.

۞ الثانية: معرفة صورة الأمر الذي طلبوا.

يعني: في حديث أبي واقد وصورته أنهم ظنوا أنه شيء محبوب لله ورسوله فطلبوا من الرسول ﷺ أن يأذن لهم أن يجعلوا لهم مثل ما للمشركين، وليس هذا دليل لمن يقول: إن الإنسان يكون معذوراً في الشرك إذا كان جاهلاً؛ لأنهم ما فعلوه، وإنما طلبوا أن يجعل لهم ظناً منهم أن هذا جائز، ولكن هذا يكون فيه دليل على أن الإنسان إذا وقع في منكر عظيم وهو لا يدري، ثم نبه فرجع وتنبه أن هذا لا يضره.

۞ الثالثة: كونهم لم يفعلوا.

يعني: أنه مجرد طلب، وأنهم لو فعلوا لوقعوا في الشرك، ولكنهم طلبوا طلباً مبني على ظن أنه يكون حسناً عند الله مطلوباً، فلما تبين لهم ذلك تبرؤوا منه.

۞ الرابعة: أنهم إذا جهلوا هذا فغيرهم أولى بالجهل.

يعني: إذا كان الصحابة مع النبي ﷺ فجهلوا أن هذا من الشرك، وأن هذا مما تنفيه كلمة الإخلاص فتدل على نفيه فغيرهم من الذين بَعُدَ عهدهم عن عهد النبوة، وضعف إدراكهم لمعاني كتاب الله جل وعلا وسيرة الرسول ﷺ أولى أن يجهلوا، ولهذا وقع كثيرون من الناس في عبادة القبور.

۞ الخامسة: أن لهم من الحسنات والوعد بالمغفرة ما ليس لغيرهم.

وهذا كثير في كتاب الله، أخبر أنه رضي الله عنهم، وأخبر جل وعلا أنه

قبل توبتهم، وأخبر أنه يحبهم والرسول ﷺ يقول: **«لا تسبوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مُد أحدهم ولا نصيفه»**[١]. المد ربع الصاع، ومع هذا لم يكن هذا مانعاً من أن يواجههم الرسول ﷺ بالإنكار الشديد، حيث سبح الله ونزهه ثم قال: **«قلتم والذي نفسي بيده...»**، ولم يشفع ما لهم من الحسنات فالإنسان إذا وقع في أمر عظيم يجب أنه يخرج منه بفعل الحسنات التي يحبها الله جل وعلا.

۞ السادسة: الأمر الكبير وهو المقصود: أنه أخبر أن طلبهم؛ كطلب بني إسرائيل لما قال لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا﴾.

يعني: أنه شرك هذا هو المقصود فإذا تبين مقصوده من الترجمة أن من تبرَّك بشجر أو حجر ونحوهما أنه وقع في الشرك الأكبر، وقوله: **«نحوهما»** مثل القبور.

۞ السابعة: أن نفي هذا من معنى لا إله إلا الله مع دقته وخفائه على أولئك.

ذلك أن التأله يجب أن يكون كله لله جل وعلا، ومن ذلك طلب البركة، فالبركة لا تكون إلا من الله جل وعلا، فإذا بارك الله فيه فهو المبارك ومن جعله الله مباركاً فهو مبارك، ولا يكون ذلك إلا بطاعة الله جل وعلا، وبدون ذلك لا يكون؛ يعني: أن الشيء لا يكتسب بذاته بركة هذا لا وجود له أصلاً، وإنما البركة تكون بطاعة الله وعبادته واتباع أمره فقط لا غير، فعل هذا البركة في الإنسان نفسه أن يطيع ويتبع الله ورسوله فتحصل له البركة، أما أن يطلب البركة من الغير فهذا لا يحصل، فالمقصود أن العبادة التي هي طلب النفع، أو دفع الضر مع حصول الثواب، والنجاة من العذاب هذا لا يكون إلا من الله جل وعلا، وأما كون بعض الأماكن أحسن من بعض فهذا لأجل أثر العبادة، كما أن بعضها يكون أسوء من بعض من أثر معاصي الله جل وعلا، فبيت الله

---

(١) رواه البخاري رقم ٣٦٧٣، ومسلم رقم ٢٥٤١ من حديث أبي سعيد الخدري ﵁.

جعله مباركاً هو من أجل طاعة الله جل وعلا، وإلا البيت لا يعبد، ولا يطلب منه شيء، وإنما الطلب والعبادة من الله جل وعلا.

۞ الثامنة: أنه حلف على الفتيا، وهو لا يحلف إلا لمصلحة.

والمصلحة في هذا التيقن بهذا والتبصر به أن يعلم ذلك بيقين.

۞ التاسعة: أن الشرك فيه أكبر وأصغر؛ لأنهم لم يرتدوا بهذا.

يعني: أنهم إذا قدر أنهم وقعوا في هذا الشيء فلم يرتدوا فمعنى ذلك أنهم فعلوا صغيرة؛ لأنهم لو فعلوا كبيرة للزمهم الرجوع إلى الدين، وهذا لم يحصل، لم يقل لهم شيئاً من ذلك، فدل هذا على أنه صغير. وهم لم يفعلوا ذلك، وإلا لو فعلوا ذلك لارتدوا، وإنما هذا مجرد طلب، ومع ذلك أقسم الرسول ﷺ أنهم قالوا مثل ما قالت بنو إسرائيل لموسى، وبنو إسرائيل في طلبهم وقعوا في الشرك، فإذا كان هذا مثل ذلك فهذا شرك، ولكنهم لم يقعوا فيه، وإنما وقوعهم متوقف على إذن النبي ﷺ فهم طلبوا الإذن فقط.

۞ العاشرة: سد الذرائع.

يعني: أن العمل يكون جائزاً، ولكن يمكن أن يوصل إلى ما هو محرم، أو شرك فلا يجوز فعله، مثل: الصلاة لله جل وعلا عند القبر هذه ذريعة إلى أن يُدعى صاحب القبر فمنع ذلك وحرم، والصلاة باطلة في مثل ذلك، ومثل المدح الذي يخرج به الإنسان عن الحق، فإن هذا ذريعة إلى تعظيم المخلوق فوق ما يستحق.

ومن ذلك أن الله نهانا أن نسب آلهة المشركين حتى لا يسبوا إلهنا، فإذا كانت مسبة آلهتهم ذريعة إلى مسبة الله، فإنه لا يجوز مسبة آلهتهم.

۞ الحادية عشر: النهي عن التشبه بأهل الجاهلية.

الجاهلية هي خلاف الحق، خلاف العلم الذي جاء به الرسول ﷺ فهو جاهلية سواء كانت قديماً أو حديثاً.

۞ **الثانية عشر: الغضب عند التعليم.**

الغضب عند التعليم إذا كان الإنسان قد ارتكب منكراً، وقد يكون ذلك أبلغ حتى يعرف أن هذا أمر عظيم.

۞ **الثالثة عشر: القاعدة الكلية لقوله: «إنها السنن».**

يعني: أن هذه ليست في هذه الأمة خاصة؛ لأن الأمم تتابع فإذا نظرنا في كتاب الله إلى أول أمة أرسل إليها رسول وردهم على رسولهم، وكيف تمسكوا بالشرك ويوصي بعضهم بعضاً بالتمسك به، فالواقع أن هذه قاعدة كلية في بني آدم بعضهم يتبع بعضاً، ولهذا قال: «**لا تكونوا إمعة تقولون إن أحسن الناس أحسنا وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساءوا فلا تظلموا**»[1]، وكما قالت قريش: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]، وفرعون كذلك لعنه الله يقول: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝﴾ [طه: ٥١]، القرون الأولى كلها مشركة تابع بعضهم بعضاً، لهذا ينبغي للإنسان أن يتبع الحق وإن كان مع شخص واحد، والكثرة لا يعتبر بها. المقصود أن العبد لا يعذر بكونه يتبع من سبقه ويقتدي بالناس، فإنه يجب أن يعرف الحق الذي جاء به الرسول ﷺ فيتبعه، والحق لا يعرف بالناس، وإنما يعرف الناس بالحق.

۞ **الرابعة عشر: أن هذا عَلَم من أعلام النبوة، لكونه وقع كما أخبر.**

العلم هو الدليل على صدقه صلوات الله وسلامه عليه، والأدلة على هذا لا حصر لها.

۞ **الخامسة عشر: أن كل ما ذم الله به اليهود والنصارى في القرآن أنه لنا.**

نحن المقصودون به؛ لأنهم لا ينتفعون به، وإنما ينتفع به من صدقه ومن آمن به.

---

(١) رواه الترمذي رقم ٢٠٠٧ وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، ورواه البزار رقم ٢٨٠٢.

۞ السادسة عشر: أنه مقرر عندهم أن العبادات مبناها على الأمر، فصار فيه التنبيه على مسائل القبر: أما من ربك؟ فواضح، وأما من نبيك؟ فمن إخباره بأنباء الغيب، وأما ما دينك؟ فمن قولهم: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا﴾ إلى آخره.

مسائل القبر ثلاث: إذا وضع الإنسان في قبره سُئل عنها، من ربك؟ وما نبيك؟ وما دينك؟ وقد جاء في الأحاديث: مَن هذا الرجل الذي بُعث فيكم[١]؟ ما كنت تعبد[٢]؟ وما دينك؟ وإذا أجاب عنها، سُئل أيضاً سؤال آخر قيل له: وما يدريك؟[٣] وهذا تابع للأسئلة وليس سؤال رابع، يقال: ما يدريك؟ وبهذا السؤال استدل العلماء كما هو واضح أن هذه لا يجوز التقليد فيها، أنها تعلم بالدليل، والجواب جاء أيضاً في الحديث إذا كان موقناً، أو كان مؤمناً قال: «قرأت كتاب الله وآمنت به»، فقوله: قرأت كتاب الله وآمنت به فهو لا يقول: قال لي فلان أو سمعت فلان، الدليل على أن الذي يعتمد عليه هو كتاب الله هو الوحي ليس العقل، فلا يقول: نظرت في عقلي وتفكرت وأدركت ذلك بعقلي، كما يقوله المتكلمون بل يقول: «قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت»، عند ذلك تنتهي الأسئلة فيقول الملكان قد علمنا، «**فينادي مناد من السماء أن صدق عبدي، فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة. قال: فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له في قبره مد بصره. قال: ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرك هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول له: من أنت فوجهك الوجه يجيء بالخير، فيقول: أنا عملك الصالح، فيقول: رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي**»[٤]، وهذا جاء مفصلاً مبيناً في أحاديث. وهذا يجب على العبد أن يعرضه على نفسه دائماً، ويعلم أنه سوف يُسأل عنه، وأنه لا يكتفي أنه يصلي كما يصلي الناس، أو يقول كما يقول الناس، ويرد كما يريد الناس، بل لا بد أن يتيقن يقيناً مستنداً إلى الوحي.

---

(١) أحمد في المسند رقم ١٨٥٣٤، وأبو داود رقم ٤٧٥٣.
(٢) أحمد في المسند رقم ١٣٤٤٧، وأبو داود رقم ٤٧٥١.
(٣) أبو داود رقم ٤٧٥٣.
(٤) أحمد في المسند رقم ١٨٥٣٤، وغيره من حديث البراء بن عازب الطويل.

والمقصود هذا الاستنباط من الشيخ ﷀ يقول: إنه عندهم أن العبادات مبناها على الأمر، هذا واضح من قولهم، اجعل لنا ذات أنواط؛ لأنهم لو كانت العبادات ليست متقررة على الأمر لفعلوا ما بدا لهم دون أن يرجعوا إلى النبي ﷺ، ولكن هذا متقرر عندهم أن العبادات لا تكون عبادة إلا إذا جاءت مأموراً بها من الله جل وعلا ورسوله ﷺ فتكون عبادة، فصار في ذلك التنبيه على مسائل القبر التي يُسئل عنها كل مقبور؛ لأنها جاءت بالوحي، وهذه لا تدرك بالعقل ولا بالتجربة ولا بالنظر، وإنما أدركت بخبر الصادق المصدوق ﷺ، فهذا الاستنباط، ولهذا قال: أما من ربك؟ فواضح؛ لأن الله هو الذي أمر ونهى، وهو الذي أرسل الرسول الموضوح لنا أن العبادة له وحده. وأما من نبيك؟ فمن إخباره بأمور الغيب؛ يعني: بالدلائل التي دلت على أنه نبي، وبهذا يتبين لنا أنه لا يكتفى بمعرفة الرسول ﷺ بذكر نَسَبه، بل لا بد من الاستناد في ذلك إلى دلائل النبوة التي يتيقنها الإنسان، وإخباره بالغيب من دلائل النبوة، وأما ما دينك؟ فمن قولهم: اجعل لنا؟؛ يعني: أن الدين لا يجوز أن يُتدين به إلا ما جاء به الرسول ﷺ، ولهذا السؤال ما دينك؟؛ يعني: الدين الذي تتدين به من أين أخذته؟ هل هو بالرأي أو بالعادة أو بالتقليد إذا كان كذلك فصاحبه هو الذي يقول: هاه هاه لا أدري، سمعت الناس يقولون: شيئاً فقلته.

۞ السابعة عشر: أن سُنَّة أهل الكتاب مذمومة؛ كسُنَّة المشركين.

أهل الكتاب المقصود بهم اليهود والنصارى، والكتاب الذي يضافون إليه هو التوراة والإنجيل، والإنجيل مكمل للتوراة ومتمماً لها، ومخففاً بعض ما فيه من الشدائد والآصار فصارت كأنها شريعة واحدة، ولكنهم اختلفوا فصاروا كأنهم طائفتين، ومعلوم أن اليهود لما لم يؤمنوا بعيسى كفروا، ولا ينفعهم كونهم يقولون: نحن نتمسك بالتوراة، وكذلك النصارى لما كفروا بمحمد ﷺ صاروا من أهل النار كفاراً، ولا ينفعهم إذا قالوا: نحن نتمسك بالإنجيل مع أن كتابهم ليس موجوداً كما أنزل، موجود أناجيل متعددة وكل واحد يخالف الثاني؛ لأنها كتبت من أشخاص، ومثل ذلك التوراة حصل فيها التبديل

والزيادة والنقص الشيء الكثير. والمقصود أن من كفر بنبي، فإنه يكون كافراً بجميع الأنبياء.

فقول الرسول ﷺ: **«إنها السنن»**، هذا خرج مخرج الذم، **«لتتبعن سنن من كان قبلكم»** خرج مخرج الذم، وإن كان خبر فهو مخرج الذم وفيه التحذير.

۞ الثامنة عشر: أن المنتقل من الباطل الذي اعتاده قلبه لا يؤمن أن يكون في قلبه بقية من تلك العادة لقولهم: ونحن حدثاء عهد بكفر.

هذا شيء معلوم أن الإنسان يبقى عنده من الأمور السابقة التي نشأ عليها بقية سواء من الذين يتلقون العلم وفي غيره، فأبو الحسن الأشعري رَحِمَهُ اللَّهُ لما بقي أربعين سنة، وهو يتعلم مذهب المعتزلة، ثم خرج منه بقي عليه بقايا من المذهب لم يتخلص منها وإن كان يجهلها، وكذلك غيره.





الباب العاشر

۞ قال المؤلف رحمه الله: باب ما جاء في الذبح لغير الله.

يعني: ما حكمه؟ هل هو شرك أو أنه جائز؟ وإذا كان شركاً هل هو من الشرك الأكبر، أو من الشرك الأصغر؟

الذبح المقصود بها إراقة الدماء تعظيماً للمذبوح له وتقرباً إليه. والذبح من أعظم العبادات، ولهذا قرنه الله جل وعلا بالصلاة كما في هاتين الآيتين التي ذكرهما المؤلف. فإذا كان من أعظم العبادات فصرفه لغير الله جل وعلا من أعظم الشرك.

فقوله: «باب ما جاء في الذبح لغير الله»: يقصد أنه يذبح متقرباً لغير الله إما لمقبور، أو لشجر، أو لجن أو لغير هذا، ومعلوم أنه الآن وقبل في زمن الجاهلية كثير من عباد الله يذبحون لغير الله، يذبحون للقبور ولغيرها، وهذا يكون في المسلمين، وفي غير المسلمين، وقد يكون الذبح للجن، والجن لا يقنعون إلا بالشرك؛ لأنه إذا أشرك العبد تمت خسارته فأصبح من حطب جهنم إن لم يتب ويهديه الله جل وعلا، وهذا هو المطلوب لهم، يطلبون هذا بحرص شديد جداً، وذلك حتى يكونوا معهم في النار، وهذا أثار العداوة التي وقعت بين أبينا وبين إبليس، ولن تزل هذه العداوة والحروب قائمة، وكل واحد من آدم عليه السلام وإبليس له أنصار؛ يعني: من بني آدم ليس من الجن، أما الجن فأمرهم واضح الذي يُهدى قلة كبني آدم.

فقوله: «باب ما جاء في الذبح لغير الله»؛ يعني: أنه شرك أكبر، ثم الذبح الذي يكون للأكل يجب أن يذكر عليه اسم الله وإلا لا يحل، وهذا من معاني قول الله جل وعلا: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف: ١٨٠]، ومن ذلك كل عمل

يعمله الإنسان من أكل أو شرب، أو نوم، أو دخول منزل، أو لبس ثوباً، أو ما أشبه ذلك متعبد بأن يذكر اسم الله في ذلك مأمور بهذا، ولهذا أخبر الرسول ﷺ فقال: «**إذا دخل الرجل بيته فذكر الله عند دخوله، وعند طعامه قال الشيطان: لا مبيت لكم ولا عشاء، وإذا دخل فلم يذكر الله عند دخوله قال الشيطان: أدركتم المبيت، وإذا لم يذكر الله عند طعامه قال: أدركتم المبيت والعشاء**»[1]، لا يستطيع أن يدخل المنزل إذا ذكر اسم الله، فإذا لم يذكر اسم الله كذلك على الطعام شارك الآكلين في أكلهم، وكذلك في غير هذا، في الشرب، وكذلك عندما يجامع الإنسان زوجته، فقد صحت الأحاديث عن الرسول ﷺ أنه قال: «**لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله فقال: باسم الله اللهم جنِّبنا الشيطان وجنِّب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضره شيطان أبداً**»[2]، ولهذا يقول الله جل وعلا مخاطباً الشيطان: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾ [الإسراء: ٦٤]، وهذه مشاركته مشاركتهم في الأموال أنه يأكل معهم إذا لم يذكروا اسم الله، ومشاركتهم في الأولاد أنه قد يكون له نصيب من الولد إذا لم يتحرز الإنسان بذكر الله جل وعلا، ومن نعم الله جل وعلا أنه جعل ذكره يطرد الشيطان، فهو يفر من ذكر الله جل وعلا، ولهذا الشيطان يفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة لا يقربه[3]، أما إذا كان البيت مشتملاً على الصور والأغاني، فهذا هو مسكنه، وهذا الذي يأنس به ويألفه، ولهذا تكثر ملابسته ومخالطته لمن كانت هذه صفتهم ـ نسأل الله العافية ـ.

فقوله: «**باب ما جاء في الذبح لغير الله**» يقصد به أنه يذبح متقرباً لغيره، إما لمقبور أو لشجر أو لجني أو لغير هذا، ولم يذكر الحكم هنا كعادته رحمه الله؛

---

(١) رواه مسلم رقم ٢٠١٨ من حديث جابر بن عبد الله.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) رواه مسلم رقم ٧٨٠ عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة**».

يعني: من الوعيد أو أنه شرك؟ يريد أن نأخذ الحكم من الأدلة، وهو ظاهر في هذا.

❁ قال المؤلف رحمه الله: وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

قوله: «﴿قُلْ﴾»: سبق أن هذا الأمر ﴿قُلْ﴾ يدل على أن الرسول ﷺ عبد الله ورسوله، وأنه بلَّغ كل ما جاءه من الله، فإن هذا القول: ﴿قُلْ﴾ موجه إليه، فقال كما قيل له، ما غيَّر شيئاً، ولهذا قال العلماء: من جحد حرفاً من كتاب الله فإنه كافر؛ لأن كل ما في المصحف من أوله إلى آخره كله كلام الله جل وعلا.

قوله: «﴿إِنَّ صَلَاتِي﴾»: الصلاة سُميت صلاة لاشتمالها على الدعاء، وإن كان المقصود بها الصلاة الشرعية المعروفة التي تفتتح بالتكبير وتختتم بالتسليم حسب ما شرعها رسول الله ﷺ، ووضع عليها هذا الاسم وضعاً شرعياً وإلا لم تكن معروفة عندهم؛ يعني: عند المشركين.

قوله: «﴿وَنُسُكِي﴾»: النسك هو الذبيحة التي يُتقرب بها إلى الله جل وعلا. والذبح أقسام:

أولاً: ما يذبح لأجل لحمه.

ثانياً: ومنه ما يذبح إكراماً لمن يكرم لأجل اللحم فقط؛ لأن اللحم أطيب الأطعمة وأفضلها، ولكن هذه إذا صدرت من مسلم يجب أن تكون مقترنة بالعبادة، فإذا ذبحها سمَّى الله وكبَّر «بسم الله والله أكبر»، وهذه عبادة ولا تحل إلا بذلك، فصار فيها عبادة، وإن كانت للأكل.

ثالثاً: أما إذا كانت للتقرب المحض مثل: الهدي والأضحية والعقيقة، وما نذر لله جل وعلا، فإن هذا من أعظم القربات، وهذا هو الذي قرن بهذه الآية وهو النسك؛ لأن النسك سُمي نسكاً؛ يعني: أنه فعل عبادة عظيمة يفعلها لله جل وعلا.

رابعاً: ما يذبح تقرباً للمذبوح له بإراقة الدماء، فإن هذا من الشرك الذي لا يجوز أن يقع من مخلوق.

وقَرْنُه النسيكة بالصلاة يدل على أن لها مقام عظيم عند الله جل وعلا، وهاتان العبادتان الصلاة والنسك من أخص ما يتعبد به إلى الله، يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ ابن تيمية: أمره الله أن يجمع بين هاتين العبادتين العظيمتين وهما: الصلاة والنسك الدالتان على القرب والتواضع والافتقار، وحسن الظن، وقوة اليقين، وطمأنينة القلب إلى الله، وإلى عِدَته وأمره، وفضله وخلقه عكس حال أهل الكبر والنفرة، وأهل الغنى عن الله الذين لا حاجة لهم في صلاتهم إلى ربهم يسألونه إياها، والذين لا ينحرون له خوفاً من الفقر وتركاً لإعانة الفقراء وإعطائهم وسوء الظن منهم بربهم، ولهذا جمع الله بينهما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢]، والنسك هي الذبيحة ابتغاء وجهه.

والمقصود أن الصلاة والنسك هما أجل ما يتقرب به إلى الله، فإنه أتى فيهما بالفاء الدالة على السبب؛ لأن فعل ذلك وهو الصلاة والنحر سبب للقيام بشكر ما أعطاه الله إياه من الكوثر والخير الكثير، فشكر المنعم عليه وعبادته أعظمها هاتان العبادتان، بل الصلاة نهاية العبادات، وغاية الغايات؛ كأنه يقول: إنا أعطيناك الكوثر الخير الكثير، وأنعمنا عليك بذلك لأجل قيامك لنا بهاتين العبادتين شكراً لإنعامنا عليك وهما السبب لإنعامنا عليك بذلك فقم لنا بهما، فإن الصلاة والنحر محفوفان بإنعام قبلهما وإنعام بعدهما وأجل العبادات المالية النحر، وأجل العبادات البدنية الصلاة وما يجتمع للعبد في الصلاة لا يجتمع له في غيرها من سائر العبادات كما عرفه أرباب القلوب الحية، وأصحاب الهمم العالية، وما يجتمع له في نحره من إيثار الله، وحسن الظن به وقوة اليقين والوثوق بما في يد الله أمر عجيب إذا قارن ذلك الإيمان والإخلاص وقد امتثل النبي ﷺ أمر ربه فكان كثير الصلاة لربه كثير النحر حتى نحر بيده في حجة الوداع ثلاثاً وستين بدنة، وكان ينحر في الأعياد وغيرها[١].

---

(١) مجموع الفتاوى ١٦/٥٣١ و٥٣٢.

فالمسلم فقير دائماً إلى الله، وينقرب إليه في الصلاة ويتقرب إليه في نسكه وفيما يبذله لله جل وعلا من عطاء وإحسان إلى الغير.

وقوله: «﴿وَمَحْيَايَ﴾»؛ يعني: ما آتيه في حياتي من الأعمال هو لله جل وعلا.

وقوله: «﴿وَمَمَاتِي﴾»؛ يعني: ما أموت عليه من الاتجاه إلى الله والإيمان به، ورجائه وخوفه، وكذلك الإيمان بوعده ووعيده.

فمعنى هذا: أن العبد يجب أن يكون كله لله، ولا يكون فيه شيء لغير الله فأعمالي الخاصة التي أتقرب بها ومحياي؛ يعني: كل ما آتيه في حياتي هو لله، ومماتي؛ يعني: ما أموت عليه من علم وعمل ورجاء وخوف كلها لله، فحياة العبد ليست للعب ولا للشيطان ولا لغير ذلك، فإن عمل عملاً من أعمال الدنيا فهو أيضاً بنيته وقصده أنه عمل لله حيث يكون عمله في الدنيا طلباً للحلال، وكف النفس والأهل عن التطلع لما في أيدي الناس، أو التطلع إلى الحرام فيكون هذا مُثاباً عليه، وهو لله فحياة العبد ليست للعب، ولا للهو، ولا للغفلة بل يكون مقترناً دائماً بعبادة الله جل وعلا لا ينفك منها بحال من الأحوال، إن أكل فهو يعبد، وإن مشى فهو يعبد، وإن جلس فهو يعبد، وإن نام نام على عبادة الله، وإذا استيقظ كذلك أول ما يستيقظ يبدأ بذكر الله جل وعلا وهكذا، أما إذا كان على خلاف ذلك فليست حياته لله، ويجوز أن يكون مماته لغير الله؛ لأن من حيا على شيء يموت عليه، ومن مات على شيء بُعث عليه ولا بد، فالناس يبعثون على ما ماتوا عليه[1]، ولهذا أخبر الله جل وعلا عن المنافقين أنهم إذا بعثوا يوم القيامة يحلفون لله كما يحلفون للناس أنهم كذا وكذا: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾﴾ [المجادلة: ١٨] يظنون أنهم على ما كانوا عليه في الدنيا يحلفون لرب

---

(١) رواه مسلم رقم ٢٨٧٨ عن جابر قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «يبعث كل عبد على ما مات عليه».

العالمين علام الغيوب كذباً على خلاف الواقع؛ لأنهم حيوا على ما ماتوا عليه، هذا في العقيدة، وكذلك في الأمر الظاهر أيضاً يبعث على ما مات عليه تماماً؛ يعني: إذا كان حالقاً للحيته يبعث حالقاً للحيته، لم يتغير منه شيء، ولا أحد يخفى عليه شيء من ذلك. فحياة العبد كلها لله عبادة ودعوته وغير ذلك كلها لله جل وعلا.

قوله: «﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾»: قوله: ﴿لِلَّهِ﴾؛ يعني: خالصاً لله جل وعلا ليس فيه أي شائبة اشتراك.

وقوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: الرب هو الذي يرب الشيء بالملك والتصرف والقيام عليه بما يلزم، فهو ربي ورب كل شيء، فهو الذي تجب له العبادة، ويجب أن يكون النسك له وتجب أن تكون الحياة والممات كلها لله جل وعلا، ومن كان كذلك فهو عبد الله حقاً خلاف من توزعته المظاهر والأشخاص والدنيا وغيرها، كل شيء آخذ نصيباً من قلبه فإن هذا يكون موزع.

﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: جمع عالَم، فكل جنس من المخلوقات عالم، فالإنس عالم والجن عالم، والملائكة عالم، والطيور عوالم وهكذا، وهو رب كل شيء جل وعلا.

وقوله: «﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾»: هذا تأكيد لقوله: ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ يعني: أنه لا شريك له فيما ذكر بل هو خالصاً له جل وعلا.

وقوله: «﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾»؛ يعني: أن هذا أمر الله جل وعلا الذي لا يجوز مخالفته، فهذا ليس خاصاً بالنبي ﷺ بل عام له ولأمته كما هو ظاهر.

وقوله: «﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾»؛ يعني: أنه أول من أسلم من هذه الأمة هو نبي الله ورسوله ﷺ، والإسلام هو الاستسلام لله والانقياد له بالطاعة وإخلاص العبادة، والبراءة من الشرك وأهله.

والمقصود قوله: ﴿وَنُسُكِى﴾ جعل النسك مقروناً بالصلاة مما يدل على أنه عبادة عظيمة، فإذا ثبت أنه عبادة فجعله لغير الله من الشرك الأكبر، فإذا

ذبح الإنسان مثلاً لجني أو لساحر، وما أشبه ذلك، فمعنى ذلك أنه نسك له، وإن كان يقول: أنا أذبح الذبيحة وأفرقها على الفقراء، ولكن المقصود، القصد إراقة الدم والتقرب بالذبح، فإن كان تقرب بالذبح لهذا المخلوق سواءً كان جني، أو إنسي، أو قبر، أو غيره صار بذلك عابداً لذلك الذي تقرب له، وتكون الذبيحة محرمة، ويكون فيها كما يقول شيخ الإسلام مانعان[١]:

أحدهما: أنها مما أُهِلَّ به لغير الله.

الثاني: أنها صارت ذبيحة مرتد، إذا كان الذابح مسلم صار مرتداً بهذه الذبيحة، وذبيحة المرتد حرام لا يجوز الأكل منها.

ومثل ذلك أو قريب منه إذا ذبح باسم شيء من المخلوقات باسم المسيح كما يقوله النصراني، أو كما يقوله عباد الكواكب: بسم الزهرة، أو بسم كذا شيطان، أو غيره، ويقول: أنا لا أتقرب وإنما ذكرت اسمه فقط، وإلا أنا أتقرب إلى الله جل وعلا نقول: الذبيحة محرمة؛ لأنها مما ذكر عليها اسم غير الله، والله جل وعلا يقول: ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام: ١٢١]، فهي مثل الذبح للأنصاب والأزلام والأصنام.

❁ **قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ**: وقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢].

هذا جزاء للعطاء، فإن الله قال: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١]، والكوثر هو النهر الذي يصب في الحوض[٢] كما جاء تفسيره عن النبي ﷺ

---

(١) اقتضاء الصراط ١/٢٥٩، وعلى هذا فلو ذبح لغير الله متقرباً به إليه لحرم وإن قال فيه بسم الله كما يفعله طائفة من منافقي هذه الأمة الذين يتقربون إلى الأولياء والكواكب بالذبح والبخور ونحو ذلك، وإن كان هؤلاء مرتدين لا تباح ذبيحتهم بحال لكن يجتمع في الذبيحة مانعان.

(٢) رواه مسلم رقم ٢٣٠٠ عن أبي ذر قال: «قلت: يا رسول الله ما آنية الحوض؟ قال: **والذي نفس محمد بيده لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء وكواكبها إلا في الليلة المظلمة المصحية، آنية الجنة من شرب منها لم يظمأ آخر ما عليه يشخب فيه ميزابان** =

يقول: الكوثر هو الخير الكثير، ونفس هذا النهر داخل في الخير الكثير[1].

«﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾»: اجعل صلاتك خالصة لله جل وعلا ليس لأحد فيها شيء، وكذلك نحرك.

«النحر»: هو الذبح، وهو النسك الذي يتقرب به إلى ربه بإراقة الدماء إليه، فالتقرب إلى الله جل وعلا بالنحر من أفضل الأعمال، ومن أعظم العبادات التي تكون بالمال، ويجب أن يكون مقترناً بالإخلاص وقوة اليقين، وحسن الظن بالله جل وعلا، واليقين بجزائه وموعوده، وكونه جل وعلا يعوض عبده عن ذلك الشيء الكثير.

وليس هذا خاص بالأضحية؛ لأنهم قالوا: ﴿فَصَلِّ﴾؛ يعني: صلاة العيد ﴿وَٱنْحَرْ﴾؛ يعني: الأضحية بل هذا عام في كل صلاة، وفي كل نحيرة يجب أن تكون لله جل وعلا.

أما ما يذبح للأكل لأجل اللحم، أو لإكرام الضيف، فيجب أن يذكر عليه اسم الله، يقول: بسم الله والله أكبر، حتى يكون حلالاً، وتحصل العبادة بذلك، هذا إذا كان مقصوده اللحم فقط، أما النسك فهو الذي يتقرب به بإراقة الدماء إلى الله فهذا عبادته كعبادة الصلاة، ولهذا قُرن بالصلاة، وبهذا يتبين لنا أن النحر هو الذبح لله جل وعلا، وقد جاء في حديث يرويه إسرائيل بن حاتم

= من الجنة من شرب منه لم يظمأ، عرضه مثل طوله ما بين عمان إلى أيلة، ماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل»، وعند أحمد في المسند رقم ٣٧٨٧ حديث طويل عن ابن مسعود وفيه: «قال: ويفتح نهر من الكوثر إلى الحوض» والبزار رقم ١٥٣٤، والحاكم في المستدرك رقم ٣٣٨٥ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وعثمان بن عمير هو ابن القطان، وقال الذهبي: لا والله فعثمان ضعفه الدارقطني والباقون ثقات.

(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في الكوثر: هو الخير الذي أعطاه الله إياه. قال أبو بشر: قلت لسعيد بن جبير: فإن الناس يزعمون أنه نهر في الجنة؟ فقال سعيد: النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه. رواه البخاري رقم ٤٦٨٢، وعن أنس رضي الله عنه قال: لما عرج بالنبي ﷺ إلى السماء قال: «أتيت على نهر حافتاه قباب اللؤلؤ مجوفاً فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر» رواه البخاري رقم ٤٦٨٠.

عن عليّ ﷺ: قال لما نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝﴾ [الكوثر: ١، ٢] قال النبي ﷺ لجبريل: **«ما هذه النحيرة التي أمرني بها ربي ﷻ»**؟ قال: إنها ليست بنحيرة، ولكنه يأمرك إذا تحرمت للصلاة أن ترفع يديك إذا كبرت، وإذا ركعت، وإذا رفعت رأسك من الركوع، فإنها صلاتنا وصلاة الملائكة الذين في السماوات السبع. قال النبي ﷺ: **«رفع الأيدي من الاستكانة التي قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٦]»**[1]، فهذا حديث موضوع، قال ابن حبان عن إسرائيل بن حاتم: أنه يروي عن مقاتل الموضوعات والطامات، ومن ذلك هذا الخبر الذي يرويه.

۞ قال المؤلف ﷺ: عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: حدثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات: «لعن الله من ذبح لغير الله، لعن الله من لعن والديه، لعن الله من آوى محدثاً، لعن الله من غيَّر منار الأرض»، رواه مسلم[2].

هذا الحديث فيه قصة قال: كنا عند علي فجاء رجل فقال: ما الذي أسرَّه الرسول ﷺ إليكم أهل البيت؟ فغضب ﷺ غضباً شديداً فقال: ما أسر إليّ شيئاً كتمه الناس، ولكن سمعته يقول فذكر الحديث.

اللعن معناه ـ كما يقول أهل اللغة ـ: الطرد والإبعاد عن مظان الخير والإحسان، واللعين هو المطرود المبعد، أو من حقة عليه اللعنة، أو من لعن.

والله يلعن من يشاء كما أنه يرضى على من يشاء ويرحم، ولكن الملعون

---

(١) رواه البيهقي رقم ٢٦٢٩، والحاكم في المستدرك رقم ٣٩٨١ وقال الذهبي في تعليقه: إسرائيل صاحب عجائب لا يعتمد عليه، وأصبغ شيعي متروك الحديث عند النسائي، وقال ابن حجر في التلخيص الحبير ١/ ٢٧٣: رواه البيهقي وإسناده ضعيف جداً واتهم به ابن حبان في الضعفاء إسرائيل بن حاتم. وقال ابن الجوزي في الموضوعات ٢/ ٩٩: هذا حديث موضوع وضعه من يريد مقاومة من يكره الرفع، والصحيح يكفي. وقال يحيى: أصبغ ليس يساوي شيئاً.

(٢) رقم ١٩٧٨.

يكون قد فعل ما يستحق اللعن، ومن لعنه الله، فهو الملعون، والملعون الشيطان ومن اتبعه والله واجهه بذلك.

أما لعن المخلوق فهو سبه وشتمه، أو يدعو عليه باللعنة يقول: اللهم العنه. وقد جاء في القرآن قوله جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [البقرة: ١٥٩]، فكل من لعنه الله فعباده كذلك يلعنونه من الملائكة وغيرهم، فمن لعنه الله فقد خسر وخاب وابتعد كل البعد عن الخير والسعاده ووقع في الشر والشقاء.

ولا يجوز للمسلم أن يلعن أحداً من المسلمين، ولا حتى من الدواب ولا من غيرها، وإنما من استحق اللعنة في كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، وليس على مراد الإنسان أنه إذا خالفه لعنه، ولا يجوز للإنسان أن يستعمل اللعن في غير موضعه، فقد جاءت النصوص الكثيرة بالوعيد على اللاعن الذي يلعن، وجاء النهي عن اللعن، فإن الإنسان كما جاء في الحديث: إذا لعن شيئاً ذهبت اللعنة إلى ذلك الشيء الملعون، فإن كان أهلاً لها، وإلا عائت يميناً وشمالاً، ثم رجعت إلى قائلها؛ يعني: ذلك أنه يكون قد لعن نفسه فرجعت إليه اللعنة ـ نسأل الله العافية ـ وجاء في الحديث الصحيح أن اللعانين لا يكونون شهداء ولا صديقين، لهذا لا يجوز للإنسان أن يعوِّد نفسه على هذا الشيء، ولما سمع رسول الله ﷺ امرأة في إحدى الغزوات لعنت راحلتها؛ لأنها تأبَّت عليها وتلكأت، وقالت: لعنك الله، فأمر ﷺ أن يؤخذ ما على الراحلة، وتترك، وقال: «**لا تصحبنا فإنها ناقة ملعونة**»[1]، وهذا من العقاب، فلا يجوز أن تلعن الدواب ولا غيرها، وإنما يلعن بنو آدم والشيطان الذين حقت عليهم اللعنة.

قال: «من ذبح لغير الله»: بدأ في هذه الرواية بلعن من ذبح لغير الله؛

(١) رواه مسلم رقم ٢٥٩٥ عن عمران بن حصين قال: بينما رسول الله ﷺ في بعض أسفاره وامرأة من الأنصار على ناقة فضجرت فلعنتها، فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال: «**خذوا ما عليها ودعوها فإنها ملعونة**»، قال عمران: فكأني أراها تمشي في الناس ما يعرض لها أحد.

لأن هذا شرك، وهو أكبر الذنوب وأعظمها. والذبح لغير الله إما للصنم، أو للقبر أو غير ذلك، فهو ملعون وهذا دليل على أنه ارتكب ذنباً عظيماً، وهو الشرك الأكبر، ومعلوم أن أفعال الناس في الذبح تختلف باختلاف المقاصد، منهم: من يذبح نسكاً لله جل وعلا متقرباً إلى الله؛ كالأضحية، وكذلك النحيرة التي تكون نسك في الحج وفي العمرة، وكذلك العقيقة، فإنها نحيرة نسك يتقرب به إلى الله، هذا من العبادات العظيمة التي يجب أن تكون خالصة لله جل وعلا، فإذا صرف ذلك لمخلوق فقد وقع الذابح في الشرك الأكبر.

النوع الثاني من الذبح: كأن يذبح ليأكل لحمه، فهذا أيضاً لا بد أن يشمل على شيء من العبادة، وهو ذكر اسم الله جل وعلا على الذبيحة حتى تكون حلالاً فيشكر الله على ذلك.

النوع الثالث: أن تذبح إكراماً للضيف تقدم له اللحم لا إراقة لدماء، فإن إراقة الدماء يجب أن يكون لله، وإنما يكرم باللحم الذي يقدم له؛ لأن اللحم هو أحسن الطعام وأفضله، وهذا أيضاً في الأمور العادية، ولكن لا بد أن يشتمل على شي من العبادة الذي هو ذكر الله جل وعلا على الذبيحة يقول: «بسم الله والله أكبر»، وبذلك تكون حلالاً، وهذا نوع من عبادة الله جل وعلا.

النوع الرابع من الذبح: التقرب إلى مخلوق بإراقة الدماء، فإن هذا من الشرك الذي لا يجوز أن يقع لمخلوق بل هذا يجب أن يكون لله جل وعلا، وقوله ﷻ: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [المائدة: ٣]؛ يعني: ما ذبح على غير اسمه، وذكر اسم ذلك الشيء، فهم سواء كانوا يرفعون أصواتهم بالاسم الذبيحة لفلان، أو أذبح له، أو أذبح على اسمه كما يذبح على اسم الزهرة، أو على اسم المسيح، أو اسم البدوي، أو عبد القادر، أو ما أشبه ذلك، فهذا من الشرك الأكبر الذي حرمه الله جل وعلا، وصاحبه إذا مات عليه فهو خالد في النار، وهذا الذي أراد المؤلف أن يبينه رحمه الله. قال العلماء: الذبيحة التي يهل بها لغير الله يجتمع فيها مانعان تكون حراماً من أجلهما:

أحدهما: أنها مما أهل به لغير الله، وقد نهى الله جل وعلا عن ذلك: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾؛ يعني: لا تأكلوا ذلك فإنها محرمة.

والثاني: أنها تكون ذبيحة مرتد، إذا كان مسلماً قبل هذا الذبح يرتد بذلك وذبيحة المرتد حرام؛ لأن الذابح لا بد أن يكون مسلماً، أو يهودياً، أو نصرانياً على دينهم، فإن الله أباح طعامهم لنا، والمقصود بالطعام الذبائح.

فالتقرب لمخلوق بإراقة الدماء هذا من الشرك الأكبر، وقد جاء النهي عن النبي ﷺ عن ذبائح الجن، فإن البيهقي روى الحديث في هذا قال: إن النبي ﷺ نهى عن ذبائح الجن[1]، وكذلك ما كان يفعله الجاهلون من الذبح عند القبور وغيرها، وهذا الذي أراده المؤلف؛ لأن هذا كان منتشراً في وقته، ولا يزال يوجد في البلاد الإسلامية يتقربون بذلك ويسمون ذلك نذراً، وقد يسمونه حقاً، وقد يسمونه قربة، وقد يسمونه للولي، وما أشبه ذلك، ومهما سموه فهو من الشرك الذي حرمه الله جل وعلا، وهو منافياً للتوحيد ومنافياً لكلمة الإخلاص لا إله إلا الله، والمؤلف في هذا يبين شيئاً من تفسيرها.

قوله: «ولعن الله من لعن والديه»: إما أن يكون بالفعل المباشر أو يكون بالسبب، وقد يقع هذا يعني أن الإنسان يلعن والديه مباشرة، ويكون ملعوناً؛ كالذي ذبح لغير الله، ويقع بالسبب بأن يلعن أبا الرجل فيلعن ذلك الرجل أباه فيكون سبباً في اللعنة، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه»**، قيل: يا رسول الله، وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: **«يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه»**[2].

والمعروف أن الولد يحسن إلى والديه لا يلعنهما فكيف تنعكس القضية وهذا فيمن كان سبباً للعن والديه فكيف بالذي يباشر اللعن؛ يعني: يلعن والديه

---

(١) البيهقي رقم ١٩٨٣٢ عن الزهري يرفع الحديث: أنه نهى عن ذبائح الجن، قال: وذبائح الجن أن تشترى الدار أو تستخرج العين وما أشبه ذلك فيذبح لها ذبيحة للطيرة.

(٢) رواه البخاري رقم ٥٩٧٣، ومسلم رقم ٩٠.

بالفعل، هذا أعظم، وهذا يحدث من بعض المجرمين، والوالدين حقهما عظيم كما قال الله جل وعلا: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣]؛ يعني: أحسنوا إلى الوالدين إحساناً كما يجب، وحذف العامل حتى يكون الإحسان كله في كل مجال، وفي كل ما يمكن أن يوضع الإحسان فيه للوالدين، وقال جل وعلا: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝٢٣ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ۝٢٤﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤].

الوالد الكبير مظنة بأن يكون عنده من الأشياء التي قد لا يتخلص منها من الأذى، ونحو ذلك فلهذا قال: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ الأف هو التأفف من الشيء المكروه، وليس النطق بل التضجر من ذلك، والتأفف منه فأمر أن يحسن إليه، وأن لا يصدر منه أي شيء يدل على تضجره وتبرمه منه بل يجب أن يغتبط في خدمته، وفي الإحسان إليه، ولعل ذلك يكون مما يقابل إحسان الوالد الذي هو أسبق من الولد قد كان يبذل كل جهده في الإحسان إلى ولده، والمقصود أن كون الإنسان يجعل بدل الإحسان إليهما لعنهما هذا أعظم الذنوب، ولهذا قرن بالشرك بالله جل وعلا نسأل الله العافية كما قرن الله جل وعلا حق الوالد بحقه فهذا نظير ذلك، فإنه قرن الإساءة إليه بالشرك به، ويجب أن يتنبه لهذا فإن هذا أمر عظيم يدل على عظم حق الوالد.

قال: «ولعن الله من آوى محدثاً»: كلمة «محدثاً» قرئت بكسر الدال وقرئت بفتحها محدِثاً، وكلاهما صحيح، والمعنى يختلف، فإذا كان الكسر «محدِثاً»، فهو اسم فاعل؛ يعني: فاعل الحدث، والحدث هو الإحداث في الدين ما ليس منه، أو ارتكاب الحدود التي حرمها الله جل وعلا، ومؤويه هو الذي يحميه، ويحول بينه وبين إزالة المنكر، وإقامة الحدود عليه، فمن آواه وحماه، فإنه يكون ملعون، والفتح محدَثاً، فهو أهم من هذا فيصبح الحدث نفسه وإيوائه الرضا به ونشره والدعوة إليه فمن رضي بالبدعة، وأقر فاعلها ولم ينكر عليه، فقد آواه، هذا أعظم من الأول جرماً، وهذا يدخل فيه البدع كلها، ويكون صاحب البدعة ملعون في هذا الحديث ـ نسأل الله العافية ـ ويدخل

فيها من فعل تلك البدعة ومن رضي بها، ومن دعا إليها، وزينها ونشرها في الناس كل هؤلاء يكونون داخلين في اللعنة ـ نسأل الله العافية ـ.

قوله: «ولعن من غيَّر منار الأرض»: منار الأرض مراسيمها وعلاماتها، والحدود التي تميز الحقوق حق فلان من حق فلان، أو العلامات التي توضع على الطرق يهتدي بها السالك، ومن ذلك ما يوضع الآن على الطرق من اللافتات التي يكتب فيها الطريق سائر إلى كذا وكذا ومغيرها يقع في اللعنة؛ لأنه بذلك يضل السالك الذي يسلك الطريق، وسواء كانت هذه الإرشادات التي توضع على الطريق كتابة، أو غير كتابة بأن تكون علامة من بناء، أو ما أشبه ذلك، وكذلك المراسيم التي تفصل بين حقوق الجيران وغيرها بأن يقدمها أو يؤخرها، وبذلك تختلف الحقوق ويدخل بعضها ببعض، ويتسبب في أخذ حق الغير، ومن ظلم الناس للناس وقد جاء في الحديث الصحيح: **«من ظلم قِيد شبر طُوقه من سبع أرضين يوم القيامة»**[1]، وابن آدم مسكين وضعيف كيف يحمل سبع طبقات على رقبته يحملها يوم القيامة، فإذا كان هذا الذي يغير المراسيم التي تفصل بين الحقوق، أو العلامات التي تدل على الطرق يكون ملعوناً بهذا، فكذلك من يغير حدود شرع الله جل وعلا، أو يمنع بيان ذلك؛ كالدعاة الذين يدعون إلى الله جل وعلا فإن هذا أولى من غيره، فالذي يمنعهم ملعون فهو أعظم وأشد جرماً من غيره.

وفي الحديث دليل على جواز لعن أنواع الفساق؛ كقولك: لعن الله آكل الربا، ولعن الله السارق، ولعن الله الظالمين وما أشبه ذلك، فقد جاء في ذلك أحاديث كثيرة، بخلاف المعيَّن بعينه هذا فيه خلاف بين العلماء هل يجوز لعنه أو لا؟

عن عمر بن الخطاب أن رجلاً على عهد النبي ﷺ كان اسمه عبد الله، وكان يلقب حماراً وكان يُضحك رسول الله ﷺ، وكان النبي ﷺ قد جلده في

(١) رواه البخاري رقم ٣١٩٨، ومسلم ١٦١٠ عن سعيد بن زيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أخذ شبراً من الأرض بغير حقه طوقه في سبع أرضين يوم القيامة».

الشراب، فأتي به يوماً فأمر به فجُلد، فقال رجل من القوم: اللهم العنه ما أكثر ما يؤتى به، فقال النبي ﷺ: **«لا تلعنوه فوالله ما علمت إلا إنه يحب الله ورسوله»**[1]، وكذلك لما أقيم الحد على امرأة زانية، ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها، وأمر الناس فرجموها، فيقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فتنضح الدم على وجه خالد فسبها، فسمع نبي الله ﷺ سبه إياها، فقال: **«مهلاً يا خالد فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له»**، ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت[2] ونحو ذلك، وقد جاءت أحاديث تدل على جواز لعن المعين، فإن الرسول ﷺ لعن أناس بأعيانهم بأسمائهم وأسماء آبائهم، ولم يأت شيء ينسخ هذا فإذا كان الإنسان رأساً في الشر، وفي الكفر، وفي محاربة الله ورسوله جاز لعنه بعينه، كما فعل الرسول ﷺ، فقد جاء ذلك في الصحيح.

۞ قال المؤلف رحمه الله: وعن طارق بن شهاب أن رسول الله ﷺ قال: «دخل الجنة رجل في ذباب، ودخل النار رجل في ذباب»، قالوا: وكيف يا رسول الله؟ قال: «مر رجلان على قوم لهم صنم لا يجاوزه أحد حتى يقرّب له شيئاً. قالوا لأحدهما: قرِّب، قال: ليس عندي شيء أقرّب، قالوا له: قرب ولو ذباباً، فقرّب ذباباً، فخلوا سبيله فدخل النار. وقالوا للآخر: قرّب، قال: ما كنت لأقرّب لأحد شيئاً دون الله عز وجل فضربوا عنقه، فدخل الجنة»[3].

هذا الحديث رواه الإمام أحمد في كتاب الزهد عن طارق بن شهاب، وقد اختلف في طارق هل كان سمع الرسول ﷺ أو لا؛ يعني: اختلف هل هو صحابي أو لا، والصحيح أنه سمع الرسول ﷺ وأحاديثه مرسلة، ولكنها مراسيل صحابي.

قوله: «رجل»: يجوز أن يكون هذا الرجل من بني إسرائيل، والنبي ﷺ كثيراً ما يحدث عن بني إسرائيل، وبنو إسرائيل لم يكن لهم العفو عن الإكراه

---

(١) رواه البخاري رقم ٦٧٨٠.
(٢) رواه مسلم رقم ١٦٩٥.
(٣) أحمد في كتاب الزهد ص١٥.

كما لهذه الأمة، فإن الله جل وعلا عفا لهذه الأمة عما استكرهت عليه وعن النسيان؛ لأن هذا من الأمور التي وضعت عليهم من باب تشديدهم، والله وضع عن هذه الأمة الآصار والأغلال، فله الفضل والمنة، عن أبي ذر الغفاري قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان، وما استكرهوا عليه**»[1]، فقوله: «**تجاوز عن أمتي**» يدل على أن هذا لم يعف لغير أمته؛ يعني: يجب عليهم أن يصبروا، ولهذا يظهر السبب في كون هذا دخل النار في ذباب؛ لأن الواجب عليه أن يصبر ويؤثر الآخرة على الحياة الدنيا.

وقوله: «**في ذباب**»: الفاء سببية، كقوله ﷺ: «**دخلت النار امرأة في هرة**»؛ يعني: بسبب الذباب، وإلا دخوله النار بفعله لكونه أشرك بالله جل وعلا، وهذا يدل على أن هذا الرجل كان مسلماً إذ لو كان مشركاً، أو كافراً ما ناسب أن يذكر أنه دخلها في ذباب؛ لأن أعماله يكون فيها ما هو أعظم من ذلك من الشرك.

والصحابة رضوان الله عليهم تعجبوا كيف يدخل النار في هذا المخلوق الحقير الخسيس هذا من العجب، فبيَّن لهم ذلك الرسول ﷺ أن هؤلاء المشركون الذين يدعون إلى الشرك ويرغمون الناس عليه أنهم أرغموه على التقريب، فلما لم يجد ما يقرب قالوا: يكفي صورة التقريب، ولو تقرب ذباباً ومعلوم أنهم لا ينتفعون بالذباب، ولا أحد ينتفع به، وإنما المقصود عمل القلب؛ يعني: التوجه إلى هذا الصنم بالصورة الظاهرة فيكون عمل القلب هو المقصود حتى عند عبدة الأوثان.

وقوله: «**لا يجاوزه أحد**»؛ يعني: أنهم كانوا على الطريق يمنعون أحداً أن يجاوزه بلا تقريب لصنمهم، هؤلاء أهل سلطة، وهذا يريد التخلص بهذا التقريب؛ لأنه علم أنه لا نفع فيه ولا خير فيه، وهو يريد أن يخلص نفسه من ذلك، ومع ذلك صار فعله ذلك سبباً لدخوله النار، وهذا يدل على عظم الشرك، وأن الذبح لغير الله لا يجوز ولو كان شيئاً حقيراً.

---

(١) رواه ابن ماجه رقم ٢٠٤٣.

وفيه أن الإنسان قد يدخل النار بسبب لا يقصده، ويستصغره في نفسه، ولهذا كان الصحابة يحذرون من الذنوب الصغيرة، كما قال أنس رضي الله عنه: إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر إن كنا لنعدها على عهد النبي ﷺ من الموبقات[1].

أما الآخر فإنه علم عظم الشرك فأبى أن يقدم شيئاً وآثر الموت والقتل على التقريب لغير الله جل وعلا لما يعلمه من جرم الشرك وإثم مرتكبه، وأنه يكون من أهل النار، فيستحق بذلك أن يكون من أهل الجنة.

وبهذا يتبين أن الذبح لغير الله جل وعلا أنه من الشرك الأكبر، وأن فاعله يكون مستحقاً لدخول النار إذا لم يتب منه، ومات على ذلك بلا توبة، ويكون قد فعل الشرك الأكبر، وإذا كان يدخل النار مثل هذا، فكيف بمن يسمّن الحيوانات ويختارها ليقربها للميت في القبر، أو الولي الذي يدعى أنه الولي، وكذا يقوم على الخروف ويغذيه وينميه حتى يكون من أحسن ما يكون، فيذهب به ليقول أنه نذر لفلان، فهذا من أعظم الشرك وأكبره ـ نسأل الله العافية ـ.

❁ قال المؤلف رحمه الله: فيه مسائل:

❁ الأولى: الفرق بين لعن المعين، ولعن أهل المعاصي على سبيل العموم.

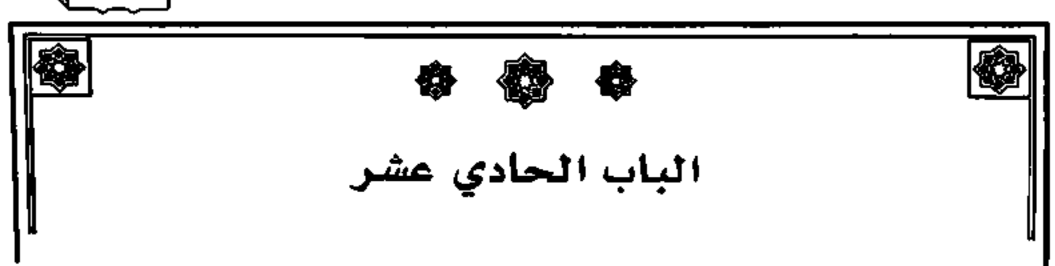
يعني: أن الحديث فيه لعن أهل المعاصي، وليس فيه لعن المعين؛ لأن المسألة فيها خلاف.

❁ الثانية: معرفة قدر الشرك في قلوب المؤمنين، كيف صبر ذلك على القتل ولم يوافق على طلبهم مع كونهم لم يطلبوا إلا العمل الظاهر.

لأن عمل القلب لا يستطيعون أن يطلعوا عليه فهو بينه وبين ربه، ولكن الظاهر أن هذا مثل ما سبق أنه في بني إسرائيل الذين لم يُعْفَ لهم عن الاستكراه، والله أعلم.

---

(١) رواه البخاري رقم ٦٤٩٢.



الباب الحادي عشر

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: باب لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله.

قوله: «لا يذبح»: يحتمل أن تكون لا نافية، ويحتمل أن تكون ناهية، وكونها ناهية أظهر لما ذكر من النصوص هنا، فإن النصوص تدل على النهي، ومعلوم أن الذبح عبادة لله، وهو من أجلِّ العبادات، ولهذا قرنه بالصلاة التي هي عماد الدين، وهي صلة بين العبد وبين ربه جل وعلا، ولها مكانة في نفوس المؤمنين لا يعدلها مكانة، وقرن الذبح بها في غير آية.

والمقصود بالذبح أن يذبح متقرباً به إلى الله جل وعلا، ومعلوم أن الله جل وعلا غني بذاته عن كل ما سواه، ولكن المقصود التقرب بها بإراقة الدماء، قال الله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الحج: ٣٧].

فالمقصود فعل القلب بالذبح، فالذبح له أثر في عمل الإنسان كثيراً إذا أخلص ذلك لله تعالى قريباً من أثر الصلاة، فإنه يعطي الإنسان الثقة بالله والحب والخضوع والغنى بالله والاتجاه إليه وحده جل وعلا.

قوله: «بمكان يذبح فيه لغير الله»؛ يعني: أن الذبح خالصاً لله تعالى، ولكن المكان كان مكان شرك وهو لم يذكر الحكم هنا؛ يعني: في الترجمة، وإنما جعل ذلك محتملاً، فإذا قرأت النصوص تبين ذلك أنه لا يجوز فإذا كان منهياً عنه، فهل هو محرم، أو شرك، أو وسيلة إلى الشرك، أو تشبه بالمشركين؟

كل هذه قد تدخل فيه، أما تحريمه فهو ظاهر، وأما كونه شركاً فليس كذلك، ولكنه يكون وسيلة إلى الشرك وتشبهاً بالمشركين والتشبه بالمشركين أقل ما يقال فيه أنه من الكبائر، وإلا فالظاهر أنه كُفر وخروج من الدين الإسلامي؛

لأن قول الرسول ﷺ: «من تشبه بقوم فهو منهم»[(١)]، يدل على أنه يكون حكمه حكمهم، فيجب على المسلم أن يبتعد عن مشابهة الكفار، ولو في الأمكنة.

وكذلك المكان يكون مكان معصية، ومكان المعصية مكان غضب الله جل وعلا حري أن تنزل عقوبة الله على من كان فيه، ولهذا تقريب العبادة فيه يكون موافقة للكفار المشركين في المكان فقط، فيكون هذا منهياً عنه، وهذا قد يؤدي إلى تعظيم ذلك المكان، وقد يكون تكثيراً للمشركين في فعلهم وموافقة لهم.

فيدخل في هذا أن الوسائل التي تدعوا إلى المحرمات أنها محرمة، ويدل على منعها، فيقال في مثل هذا «فيه سد الذرائع»، وهذا الباب من الأبواب التي تفسر شهادة أن لا إله إلا الله ووجه ذلك أن كل نهي جاء به الشرع فإنه إذا ارتكب يكون قادحاً في قول لا إله إلا الله فيمن ارتكب ذلك النهي، كما أن المأمورات كلها تكون داخلة في مقتضى لا إله إلا الله، وحاصل ذلك أن كلمة الإخلاص هي الإسلام كله.

❁ **قال المؤلف** رحمه الله: **وقول الله:** ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [التوبة: ١٠٨].

هذه الآية في سورة التوبة، وسورة التوبة نزلت في غزوة تبوك، وهي آخر غزوة غزاها الرسول ﷺ، والذين بنوا هذا المسجد بنوه كما ذكر الله علام الغيوب إخباراً بمقاصدهم، ونياتهم ومرادهم، وقد جاءوا إلى النبي ﷺ وهو يستعد إلى غزوة تبوك وطلبوا منه أن يأتي إليهم فيصلي فيه ليكون ذلك حجة لهم، فهم في ظاهر أمرهم يريدون الخير، ويوهمون أنهم بنوه للضعفاء في الليلة المطيرة الشاتية وهو قريب من مسجد قباء، وباطن أمرهم يريدون الشر كما أخبر الله ﷻ، والذي حارب الله هو أبو عامر وطائفته الذين أمرهم أن

(١) أحمد في المسند رقم ٥١١٤، وأبو داود رقم ٤٠٣١.

يبنوا هذا المسجد ليكون معقلاً لمن يأتي من رسول، وكتب، وأموال حتى يكون خلية فاسدة لحرب الإسلام والمسلمين، هذا هو المقصود الذي بنوه من أجله فعصمه الله أن يصلي فيه، فقال لهم: «**إننا على سفر ولكن إذا عدنا إن شاء الله صلينا لكم فيه**»، كعادته ﷺ فإنه إذا طلب منه أن يصلي في مكان ليُتخذ مصلاًّ فإنه يفعل ذلك كما هو معروف في الصحيحين وغيرها، فلما قدم من السفر وبقي على المدينة يوم، أو بعض اليوم نزلت هذه الآية ففضح الله حقيقة نواياهم: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [التوبة: ١٠٧]، فدعا بعض الصحابة من بني عوف، وهم من ذلك المكان فأمرهم أن يذهبوا إلى ذلك المسجد ويهدموه ويحرقوه على من فيه، فذهبوا يشتدون فلما وصلوا، منهم من ذهب يأتي بالحطب، ومنهم من يأتي بالنار فأحرقوه.

فنهى الله جل وعلا نبيه ﷺ أن يقوم مصلياً ومتعبداً لله جل وعلا في مسجد الضرار؛ لأنه أسس على المعصية ومحاربة الله جل وعلا، وإرصاداً لأعدائه يكون معقلاً لهم ومأوى يجتمعون فيه ويدبرون أمورهم ضد الإسلام وأهله، وهذا معناه أن المكان تؤثر فيه المعاصي كما أن الطاعات أيضاً يكون لها أثر في ذلك، وهذا ليس خاصاً بالنبي ﷺ بل أمته تبعاً له في ذلك.

ووجه الدلالة من الآية للترجمة من باب القياس على النظير والمثيل والقريب؛ لأنه إذا منع الله جل وعلا رسوله ﷺ عن القيام لله جل وعلا في هذا المسجد المؤسس على هذه المقاصد الخبيثة مع أنه ﷺ لا يقوم إلا لله، فكذلك الموضع المعد لمعصية الله جل وعلا ومحاربته أنه لا يؤدي فيه العبادة لله تعالى وليس لغيره؛ لأن الرسول ﷺ في هذا يقوم مصلياً لله جل وعلا ولكن المكان مكان غضب؛ لأنه أسس على محاربة الله جل وعلا ومحاربة رسوله ﷺ، وإعداده للمنافقين والكافرين ملجأ لهم، ومكاناً يتآمرون فيه على الإسلام، وأهله فصار محل غضب، فنهى نبيه أن يقوم فيه مصلياً.

وقد جاءت نصوص تدل على أن المعصية تؤثر في الأماكن تصبح

الأماكن محل عذاب، أو يخاف أن يقع فيها العذاب، كما قال عليه الصلاة والسلام لما مر بديار ثمود، وديار ثمود لا تزال آثارهم كأنها قريبة؛ لأنها نحتت في الجبال، فهي لم تتأثر على مر السنين، وقد أرسل الله إليهم صالح ﷺ، وكثيراً من الناس يسميها مدائن صالح، وهذا لا يجوز تسميتها بذلك فهي مدائن أهل الفساد والكفر الذين أهلكهم الله، وصالح ﷺ تركها وهجرها؛ لأنها بلاد كفر ومعصية. فلما مر بها رسول الله ﷺ مع الصحابة قال لأصحابه: **«لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم لا يصيبكم ما أصابهم»**[1]، وهؤلاء لا وجود لهم، صارت أرواحهم في جهنم، وأجسامهم تراب، وهي في النار وإن كانت تراب، ولكن المقصود أماكنهم، قال عليه الصلاه والسلام: **«لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم ما أصابهم»**[2]، خوفاً من الله أن يصيبكم ما أصابهم، ثم قنع رأسه ﷺ وأسرع بالسير حتى جاز الوادي، فمن دخلها للتفكه والضحك والغفلة خطيراً أن يصيبه ما أصابهم.

والذين تقدموا من الصحابة وأخذوا شيئاً من الماء أمرهم أن يلقوه ويعلفوا العجين البهائم؛ لأن مياههم كانت موجودة فعجنوا منها فأمرهم أن يلقوا ما أخذوا. قال عليه الصلاة والسلام: **«لا تشربوا من مائها**[3]**، ولا تتوضأوا منه للصلاة**[4]**، وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه الإبل، ولا تأكلوا منه شيئاً، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها ناقة صالح ﷺ»**[5].

---

(١) رواه البخاري رقم ٤٣٣، ومسلم رقم ٢٩٨٠ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) رواه البخاري رقم ٣٣٨٠، ومسلم رقم ٢٩٨٠.

(٣) البخاري رقم ٣٣٧٨ عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ لما نزل الحجر في غزوة تبوك أمرهم أن لا يشربوا من بئرها ولا يستقوا منها فقالوا: قد عجنا منها واستقينا فأمرهم أن يطرحوا ذلك العجين ويهريقوا ذلك الماء. ويروى عن سبرة بن معبد وأبي الشموس أن النبي ﷺ أمر بإلقاء الطعام. وقال أبو ذر عن النبي ﷺ: **«من اعتجن بمائه»**.

(٤) دلائل النبوة للبيهقي رقم ١٩٩٣.

(٥) البخاري رقم ٣١٩٩ عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «أن الناس نزلوا مع رسول الله ﷺ أرض =

ومعنى ذلك أن الماء كذلك يكون متأثراً ومؤثراً، فهذا يدل على أن المعاصي تؤثر في الأماكن والمياه والثمار وغيرها، وتأثيرها قد لا يحس به الإنسان، فيصبح قلبه محباً للمعاصي متمادياً فيها حتى يأخذه الله، وأخذ الله قد يكون غير ظاهر بأن يميت قلبه، ثم يموت على ذلك فيلقى الله عاصياً، وإلا لا يمكن أحداً أن يفوت الله ﷻ لا بد أن يرجع إليه والرجوع قريب، ولهذا قد يقول إنسان كيف يكون هذا الظلم الذي يقع من نهب الأموال وقتل الأنفس والتعدي على الناس بالقوة، وقتل الصبيان، وقتل النساء، وإفساد الحرث والنسل وهدم البيوت وجرفها بالمجارف هذا ظلم لا يقره أحد، فقد يقول: كيف يصنعون هذا، ثم يعيشون كما يعيش الناس ويموتون كما يموت الناس؟ فالجواب أن يقال: إن الدنيا لا تصلح أن تكون محلاً لعذاب الفاجر لقلتها وذهابها، فالباقي في هذه الدنيا قليل، وقد قال الله ﷻ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [آل عمران: ١٧٨]، فكونه تزاد له الحياة أياماً حتى يزاد إثمه فيزيد عذابه فتركه في الحياة هذا من العذاب ـ نسأل الله العافية ـ.

فالمقصود من هذا أن المعاصي تؤثر في الأماكن، وكذلك أصحاب المعاصي يؤثرون على من جالسهم، ولهذا أمر الله جل وعلا بالتبرؤ من المشركين والابتعاد عنهم.

وقوله: «﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾»: ﴿لَا﴾ هذه، الظاهر أنها للنهي، ولهذا جزم الفعل بعدها، وقوله: ﴿أَبَدًا﴾؛ يعني: في المستقبل، ولو تغير بأي شكل كان فهذا المكان يصبح متروكاً مبتعداً عنه دائماً حيث بني على المعصية فقط، بني على معصية الله والإضرار بالمسلمين، ومحاربة الرسول ﷺ ودينه، وهذا من أعظم الجرائم، فالمكان الذي يذبح فيه لغير الله يذبح فيه للطواغيت

= ثمود الحجر فاستقوا من بئرها واعتجنوا به فأمرهم رسول الله ﷺ أن يهريقوا ما استقوا من بئرها وأن يعلفوا الإبل العجين وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة»، ومسلم رقم ٢٩٨١.

ويتقرب فيها لغير الله جل وعلا، أو كان فيها أوثان، أو أعياد جاهلية، وتقام فيها البدع وتفعل، فإنه لا يجوز للمسلم أن يفعل الطاعة فيها قياساً على هذه الآية؛ لأن الأمة تبعاً لرسول الله ﷺ.

وقوله: «﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ﴾»: اختلف في هذا المسجد ما هو؟ هل هو مسجد قباء، أو مسجد الرسول ﷺ؟

في صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري قال: تمارى رجلان في المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم، فقال رجل: هو مسجد قباء، وقال الآخر: هو مسجد رسول الله ﷺ، فسألا رسول الله ﷺ فقال: «**هو مسجدي هذا**»[1]، وهذا قول عمر وابنه، وزيد بن ثابت وغيرهم.

وهذا نص من الرسول ﷺ أن مسجده هو الذي أسس على التقوى من أول يوم، ولكن الآية ظاهر منها أن المقصود هو مسجد قباء، قال ابن كثير رحمه الله: وقد صرح بأنه مسجد قباء جماعة من السلف، رواه علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس. ورواه عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن الزهري، عن عُرْوَة بن الزبير. وقاله عطية العوفي، وعبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم، والشعبي، والحسن البصري، ونقله البغوي عن سعيد بن جُبَير، وقتادة.

وقد ورد في الحديث الصحيح: أن مسجد رسول الله ﷺ هو المسجد الذي أسس على التقوى. وهذا صحيح، ولا منافاة بين الآية وبين هذا؛ لأنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم، فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى والأحرى[2].

---

(١) هذه رواية أحمد في المسند رقم ١١٠٤٦ و٢٢٨٠٥، وهو عند مسلم رقم ١٣٩٨ عن أبي سلمة بن عبد الرحمٰن قال: مر بي عبد الرحمٰن بن أبي سعيد الخدري قال: قلت له: كيف سمعت أباك يذكر في المسجد الذي أسس على التقوى؟ قال: قال أبي: دخلت على رسول الله ﷺ في بيت بعض نسائه فقلت: يا رسول الله أي المسجدين الذي أسس على التقوى؟ قال: فأخذ كفاً من حصاء فضرب به الأرض ثم قال: «**هو مسجدكم هذا**» لمسجد المدينة، قال: فقلت: أشهد أني سمعت أباك هكذا يذكره.

(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٢١٤.

وقد حث الله تعالى على الصلاة في مسجد قباء الذي أسس من أول يوم بني على التقوى وهي طاعة الله ورسوله ﷺ، وجمعاً لكلمة المؤمنين ومعقلاً ومنزلاً للإسلام وأهله، فقد جاء عند الترمذي، وقال عنه: إنه حسن غريب أن رسول الله ﷺ قال: «**صلاة في مسجد قباء كعمرة**»[١]، وهذا الحديث صححه بعض العلماء، وله شواهد عند ابن حبان، وعند الحاكم والإمام أحمد، والترمذي إذا قال: غريباً، فالغالب أنه ضعيف. وفي الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ يأتي مسجد قباء كل سبت ماشياً وراكباً. وكان عبد الله رضي الله عنه يفعله[٢].

قوله: «﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾»: جاء في التفسير عن ابن عباس، وأبي العالية، ومجاهد وغيرهم يتطهرون؛ يعني: من الذنوب، وعن المنهال، قال: كنت عند أبي العالية فتوضأ أو توضأت، فقلت: إن الله يحب المتطهرين، فقال: إن الطهور بالماء لحسن، ولكنهم المتطهرون من الذنوب[٣]. وقال الأعمش: التوبة من الذنب، والتطهير من الشرك[٤]. والطهارة من الذنوب بالتوبة والإقلاع.

---

(١) الترمذي رقم ٣٢٤ وقال: حديث أسيد حديث حسن غريب ولا نعرف لأسيد بن ظهير شيئاً يصح غير هذا الحديث، ولا نعرفه إلا من حديث أبي أسامة عن عبد الحميد بن جعفر، ورواه ابن ماجه رقم ١٤١١، ورواه ابن أبي شيبة رقم ٧٥٢٩، والبيهقي في الكبرى رقم ١٠٥٩٤، والطبراني في المعجم الكبير رقم ٥٧٠، والحاكم في المستدرك رقم ١٧٩٢ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه إلا أن أبا الأبرد مجهول. وجاء عند أحمد في المسند رقم ١٥٩٨١ عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف يقول: قال أبي: قال رسول الله ﷺ: «**من خرج حتى يأتي هذا المسجد - يعني مسجد قباء - فيصلي فيه كان كعدل عمرة**» ورواه النسائي رقم ٦٩٨، والحاكم في المستدرك رقم ٤٢٧٩ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، والطبراني في الكبير رقم ٥٥٥٨، وابن ماجه رقم ١٤١٢ ولفظه: «**من تطهر في بيته ثم أتى مسجد قباء فصلى فيه صلاة كان له كأجر عمرة**» ورواه ابن أبي شيبة رقم ٧٥٣٠ وفيه: «.. فركع فيه أربع ركعات..».

(٢) رواه البخاري رقم ١١٩٣، ومسلم رقم ١٣٩٩ وعنده: «فيصلي فيه ركعتين»، وهي عند البخاري رقم ١١٩٤ قال فيه: زاد ابن نمير: حدثنا عبيد الله عن نافع فيصلي فيه ركعتين.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٧/٤١٧.

(٤) تفسير ابن كثير ٤/٢١٦.

وثبت أن النبي ﷺ قال لبني عوف: «**إن الله قد أحسن عليكم الثناء بالطهور في قصة مسجدكم، فما هو هذا الطهور الذي تطهرون به؟**»، فقالوا: يا رسول الله ما نعلم شيئاً إلا أنه كان لنا جيران من اليهود فكانوا يغسلون أدبارهم من الغائط فغسلنا كما غسلوا»(١)، وفي رواية عن جابر وأنس: «**هو ذاك فعليكموه**»(٢)، وهذا نص أن هذا داخل في الآية.

وهذا استدل به بعض العلماء على أن الصحابة كانوا لا يعرفون الاستنجاء، وإنما كانوا يستجمرون يستعملون الحجارة، وهذا معروف، والآية تدل كذلك على أن الاستنجاء أفضل وأكمل من الاستجمار، والاستجمار يكفي إذا كان على الشروط؛ يعني: إذا كان بثلاثة أحجار منقية فهو يكفي.

وقوله: «﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾»: الذين يتنزهون من القاذورات والذنوب، والنجاسات الحسية والمعنوية.

وفي الآية إثبات محبة الله للمؤمنين، وأنه يحب بعض أفعال عباده، وأن بعض الأعمال تكون سبباً لمحبة الله جل وعلا، والآيات في ذكر محبة الله جل وعلا كثيرة جداً، خلافاً لأهل الكلام، وأهل الكلام منهم من ينفي هذا نفياً قطعياً؛ كالمعتزلة والجهمية، ومنهم من يأوّلها مثل: الأشاعرة، والماتريدية، وتأويلهم من باب الوجوب؛ أي: أنه يحب، ويقولون: إنه يحب عملهم؛ يعني: يجازي على ذلك ويثيب عليه، وهذا تأويل باطل، وهم يفرون

---

(١) أحمد في المسند رقم ١٥٤٨٥، وابن خزيمة في صحيحه رقم ٨٣، والطبراني في الكبير رقم ٣٤٨ من حديث عويم بن ساعدة الأنصاري قال: إن النبي ﷺ أتاهم في مسجد قباء.. وذكر الحديث.

(٢) سنن البيهقي رقم ٥٢٥ عن طلحة بن نافع أنه حدثه قال: حدثني أبو أيوب وجابر بن عبد الله وأنس بن مالك الأنصاريون: إن هذه الآية لما نزلت: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾، فقال رسول الله ﷺ: «**يا معشر الأنصار إن الله قد أثنى عليكم خيراً في الطهور، فما طهوركم هذا؟**» قالوا: يا رسول الله نتوضأ للصلاة ونغتسل من الجنابة. فقال رسول الله ﷺ: «**فهل مع ذلك غيره؟**»، قالوا: لا، غير أن أحدنا إذا خرج من الغائط أحب أن يستنجي بالماء. قال: «**هو ذاك فعليكموه**» ورواه ابن ماجه رقم ٣٥٥، والدارقطني باب الاستنجاء رقم ٢.

من ذلك يقولون: إن المحبة هي المجانسة أو الميل إلى الملائم هذا يجب أن ينزه الله عنه، وهذا في الواقع تفسيراً منهم بما يجدونه من أنفسهم، فهو من باب القياس، أو من باب التشبيه، والله جل وعلا ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] لا في ذاته ولا في أوصافه، وصفاته تبعاً لذاته، فيجب أن تمحى المشابهة من الأذهان بالنسبة لله جل وعلا، وأن صفاته تخصه ولا يشابهه بها أحد من خلقه، وإن كان الميل إلى الملائم فلا محذور في ذلك.

وكثير من العلماء يقول: هذا ليس تأويلاً وإنما نسميه تحريفاً، فهو تحريف، وليس تأويلاً، وإن كان التأويل دخل فيه أضرار بالغة في العقائد وغير العقائد على الأمة عموماً، ومن المعلوم أن التأويل قد جاء ذكره في كتاب الله جل وعلا لكنه غير ما يقول هؤلاء، فالتأويل قسمه العلماء إلى قسمين:

القسم الأول: تأويل معروف وسائغ، وهو أقسام ثلاثة:

الأول: التفسير، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الفرقان: ٣٣]، وهذا يرادف التأويل، والمفسرون يسمون التفسير تأويلاً، كما يقول ابن جرير وغيره: القول في تأويل قوله تعالى كذا وكذا.

الثاني: عاقبة الشيء؛ يعني: ما يؤول إليه الشيء، قال الله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

الثالث: ويقصد به العمل لما في حديث عائشة ﵂: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «**سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي**» يتأول القرآن[1]؛ يعني: يعمل به بما جاء في سورة النصر.

القسم الثاني: محدث وهو صرف الكلام عن ظاهره المتبادر منه إلى معنى آخر لا يدل عليه إلا بدليل، فهذا لم يكن معروفاً عند السلف، وهو الذي يقصده الأشاعرة وغيرهم.

(١) رواه البخاري رقم ٧٨٤، ومسلم رقم ٤٨٤.

وقوله: «إلا بدليل» والدليل ليس له ضابط؛ لأنهم جعلوا الدليل عقلي، وهو غير منضبط. وهم يقولون: يجب التأويل، فإن لم يكن التأويل وجب التفويض، والتفويض أخبث من التأويل وأشر؛ لأن التفويض عندهم معناه: أنه كلام لا يفهم، بل لا يطلب منه المعنى ولا يمكن أن يوصل إلى المعنى، وهذا يمكن أن يخاطب الله بمثل هذا، فهو ممتنع والله جل وعلا يقول: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ۝﴾ [محمد: ٢٤]، ينزل الله آياته للتدبر والعلم: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ۝﴾ [الطلاق: ١٢]، وهذا التعليل جاء في عدة آيات ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟﴾: (لتعرفوا) قدرة الله، وتعرفوا أن الله على كل شيء قدير، وتعلموا أن الله عليم بكل شيء؛ يعني: تفقهوا صفاته وتعرفوه بها جل وعلا.

فالآية دلت على أن الله يحب المتطهرين، الطهارة الحسية، فالله يحب من تطهر طهارة حسية؛ يعني: الوضوء الذي أمر الله به، ومعلوم أن المحبة هذه إذا فعل هذا طاعة لله جل وعلا وطلباً لمرضاته فهو يحب جل وعلا من فعل هذا.

ومحبة التائب أعظم من هذا، فالتائب يتطهر من أقذار المعاصي، ويرجع إلى ربه وهو جل وعلا يحب التوابين، ولهذا قرن بين التوبة والطهارة في آية أخرى، فقوله جل وعلا: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ۝﴾ [البقرة: ٢٢٢].

۞ قال المؤلف رحمه الله: عن ثابت بن الضحاك قال: نذر رجل أن ينحر إبلاً ببوانة فسأل النبي ﷺ فقال: «هل كان فيه وثن من أوثان الجاهلية يعبد؟»، قالوا: لا. قال: «فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟»، قالوا: لا. فقال رسول الله ﷺ: «أوف بنذرك، فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله، ولا فيما لا يملك ابن آدم»[1].

---

(١) رواه أبو داود رقم ٣٣١٣، والبيهقي في السنن الكبرى ١٩٩٢، وقال شيخ الإسلام =

ثابت بن الضحاك بن خليفة الأشهلي صحابي مشهور روى عنه أبو قلابة وغيره، مات سنة أربع وستين.

قوله: «نذر»: النذر: هو التزام عبادة غير واجبة. وهو في الأصل مكروه لقول النبي ﷺ: **«إنه لا يأتي بخير، وإنما يستخرج من البخيل»**[(١)]، وذلك أن النذر عبادة معلقة على حصول منفعة، والعبادة المنجزة محبوبة لله جل وعلا، فمثلاً النذر والدعاء كلاهما عبادة، فالدعاء لا يكون معلقاً على شيء، أما النذر إن كان يعلقه على حصول شيء له فهذا مكروه، ثم هو أيضاً قد يوقع في الإثم والحرج، وذلك أن الإنسان قد ينذر الشيء، ثم لا يستطيع فعله أو يتساهل بفعله ويتهاون فيقع في الإثم، ولذلك كره النذر؛ يعني: مطلقاً، وإن كان نذر طاعة، ولكن إذا وقع نذر الطاعة فيجب أن يفعل، عن عائشة ﷺ: عن النبي ﷺ قال: **«من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه»**[(٢)].

قوله: «رجل»: يحتمل أن يكون هذا الرجل هو كردم بن سفيان، والد ميمونة لما روى أبو داود عنها قالت: خرجت مع أبي في حجة رسول الله ﷺ فرأيت رسول الله ﷺ، وسمعت الناس يقولون: رسول الله ﷺ فجعلت أبده بصري (معناه: أتبعه بصري وألزمه أياه لا أقطعه عنه) فدنا إليه أبي وهو على ناقة له معه درة كدرة الكتاب، فسمعت الأعراب والناس يقولون: الطبطبية الطبطبية، فدنا إليه أبي فأخذ بقدمه. قالت: فأقر له ووقف فاستمع منه فقال: يا رسول الله إني نذرت إن ولد لي ولد ذكر أن أنحر على رأس بوانة في عقبة من الثنايا عدة من الغنم، قال: لا أعلم إلا أنها قالت: خمسين، فقال

= ابن تيمية في اقتضاء الصراط ١٨٦/١: أصل هذا الحديث في الصحيحين، وهذا الإسناد على شرط الصحيحين وإسناده كلهم ثقات مشاهير وهو متصل بلا عنعنة.

(١) رواه أحمد في المسند رقم ٥٥٩٢، ومسلم رقم ١٦٣٩، والنسائي رقم ٣٨١٠ من حديث ابن عمر ﷺ وهو عند البخاري ٦٦٠٨ بغير هذا اللفظ عن ابن عمر ﷺ قال: نهى النبي ﷺ عن النذر قال: **«إنه لا يرد شيئاً وإنما يستخرج به من البخيل»**.

(٢) رواه البخاري رقم ٦٦٩٦.

رسول الله ﷺ: «**هل بها من الأوثان شيء؟**»، قال: لا، قال: «**فأوف بما نذرت به لله**»، قالت: فجمعها فجعل يذبحها فانفلتت منها شاة فطلبها وهو يقول: اللهم أوف عني نذري فظفرها فذبحها[1]. ومحتمل أنها تكون قصة أخرى.

قوله: «ببوانة»: بضم الباء: بُوانة، وقيل بفتحها. والباء الأولى ليست من أصل الكلمة فربما أخذت من البينونة والظهور، فإذا أخذت من هذا فهي تدل على أن تلك الأرض بائنة؛ يعني: إنها جبل أو ما أشبه ذلك، وقد اختلف في هذا المكان، فقيل: أنها أسفل مكة، كما قاله البغوي، ولكنه قال: إنها دون يلملم[2]، وهذا تحديد ليس دقيقاً، ويلملم ليست أسفل مكة، وإنما هي جنوب مكة، وهي ميقات أهل اليمن وهذا بعيد. وقال أبو السعادات: هضبةٌ من وراء ينبع[3]. ولا يزال فيه هضبة بين ينبع وأملج تسمى بوانة، وهذا هو الصحيح.

وسواء كانت هذه أو هذه الحكم معلوم، وهو أن الإنسان يجوز أن يخص مكاناً من الأمكنة بالعبادة إذا كان ذلك المكان خالياً من الموانع ومن ذلك الذبح لغير الله.

قوله: «هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد؟»: الوثن يطلق على المعبودات إذا كانت من شجر، أو حجر، أو قبر، أو مكان فإنه يسمى وثناً، وأما إذا كانت معبودات على صورة، إما صورة إنسان، أو حيوان فهو يسمى صنماً، فالفرق الصحيح بين الصنم والوثن إن الصنم ما كان على صورة، والوثن ما كان على غير صورة، وإن كان أحدهما يطلق على الآخر فقد جاء في قصة إبراهيم عليه السلام إطلاق الأوثان على الأصنام: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ الآية [العنكبوت: ١٧]، فدل على أن هذا يطلق على هذا، ويقال: أن الوثن أعم فالأصنام أوثان كما أن القبور أوثان، ولكن هذا الفرق عندما يفرق بين الصنم والوثن.

---

(١) رواه أبو داود رقم ٣٣١٤.

(٢) التلخيص الحبير لابن حجر ٤/ ١٨٠ قال البغوي: أسفل مكة دون يلملم.

(٣) التلخيص الحبير ٤/ ١٨٠ وفيه: وقال المنذري: هضبة من وراء ينبع. وفي لسان العرب ٦١/١٣ وفيه: قال ابن الأثير: هي بضم الباء وقيل بفتحها هَضْبةٌ من وَراء يَنبُع.

وجاء عن علي بن أبي طالب ﷺ أنه مر على قوم وهم يلعبون بالشطرنج، فقال: ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون[1]. فهو جعلها عبارة عن تماثيل فكيف هذه الخطوط التي يوضع فيها الحصى؛ يعني: الشطرنج فهل يكون لها هذا الحكم؟ علي ﷺ يقول: ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون؟ ومعنى ذلك: أن كل شيء يشغل الإنسان عن عبادة الله وعما خلق له فهو داخل في الأوثان، ومعلوم أن هذا يشغل القلب والفكر ويلهي، فكثير ما تحضر الصلاة ولا يقومون إليها فهم مشغولون في لهوهم، ومن ذلك المال الذي يتعلق به القلب ويشغله عما أوجبه الله عليه فإنه يكون معبوداً ويكون وثناً يمثله الله يوم القيامة معبوداً يقول له: اتبعه، كما ثبت في الأحاديث أن الله إذا جاء لفصل القضاء[2] بين عباده يخاطب الناس في الموقف: «**يا أيها الناس ألم ترضوا من ربكم الذي خلقكم وصوركم ورزقكم أن يوالي كل إنسان ما كان يعبد في الدنيا ويتولى أليس ذلك عدل من ربكم؟ قالوا: بلى..**»[3]، هذا هو العدل، فيأتي بكل معبود في ذلك الموقف فيقول لهم: اتبعوا معبوداتكم فيتبعونها فإذا كان المعبود ملكاً، أو نبياً مثل: عيسى ﷺ؛ لأنه عبد من

---

(١) ابن أبي شيبة في مصنفه رقم ٢٦١٥٨، والبيهقي في سننه رقم ٢١٤٥٧، وابن أبي حاتم رقم ١٤٥٣٥.

(٢) المعجم الكبير للطبراني رقم ٩٧٦٣ من حديث ابن مسعود وفيه: يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم قياماً أربعين سنة شاخصة أبصارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاء قال: وينزل الله ﷻ في ظلل من الغمام من العرش إلى الكرسي ثم ينادي مناد أيها الناس ألم ترضوا من ربكم الذي خلقكم ورزقكم وأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً أن يولي كل ناس منكم ما كانوا يتولون ويعبدون في الدين أليس ذلك عدلاً من ربكم؟ قالوا: بلى، قال: «**فلينطلق كل قوم إلى ما كانوا يعبدون في الدنيا..**».

(٣) الحاكم في المستدرك رقم ٨٧٥١ وقال: رواة هذا الحديث عن آخرهم ثقات غير أنهما لم يخرِّجا أبا خالد الدالاني في الصحيحين لما ذكر من انحرافه عن السنة في ذكر الصحابة، فأما الأئمة المتقدمون فكلهم شهدوا لأبي خالد بالصدق والإتقان والحديث صحيح ولم يخرجاه، وأبو خالد الدالاني ممن يجمع حديثه في أئمة أهل الكوفة تعليق الذهبي في التلخيص: ما أنكره حديثاً على جودة إسناده.

دون الله، وكذلك الصالحون فإنه يأتي بشيطان على صورة ذلك المعبود، فيقال لهم: اتبعوهم[(١)].

لأنهم في الواقع هم يعبدون شيطاناً[(٢)]؛ لأنه هو الذي أمرهم بهذه العبادة، وهو الذي زين ذلك لهم، وصور لهم هذه الأمور وعبدوها، قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنبياء: ٩٨].

قوله: «الجاهلية»: الجاهلية ضد العلم، هي ما كانت على خلاف الحق، وما خالف الإسلام فهو جاهلية، ولكن الجاهلية كانت في وقت محدد يعني: في الاصطلاح فهي كانت تطلق على ما قبل بعثة النبي ﷺ لجهلهم، وكانوا يفعلون أشياء تخالف حتى العقل مثل: قتل أولادهم وتحريم بعض الحيوانات مع أن الأصل واحد؛ يعني: إذا أنتجت الناقة ذكر صار له حكم عندهم، وإن كان أنثى صار له حكم عندهم، وكذلك تحريم بعض أجزاء الزرع يكون لأوثانهم جزء منه وجزءاً يكون لله، ولهم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين ومائة في سورة الأنعام: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ إلى قوله: ﴿قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٠][(٣)].

والجاهلية تطلق على ما قبل البعثة، وكذلك على الفعل الجاهلي كما قال ﷺ لأبي ذر، وكان أبو ذر له غلام مملوك فعيره بأمه، فقال له النبي ﷺ:

---

(١) البخاري رقم ٤٥٨١، ومسلم رقم ١٨٣ عن أبي سعيد الخدري.

(٢) المستدرك رقم ٣٤٢٤ وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه بهذا اللفظ ووافقه الذهبي قال فيه: «ويمثل لمن كان يعبد عزيراً شيطان عزير حتى يمثل لهم الشجرة والعود والحجر ويبقى أهل الإسلام جثوماً..» الحديث. وفي رواية رقم ٨٧٥١، والطبراني في الكبير رقم ٩٧٦٣: «...فينطلق كل إنسان منكم إلى ما كان يتولى في الدنيا ويمثل لهم ما كانوا يعبدون في الدنيا وقال: يمثل لمن كان يعبد عيسى شيطان عيسى ويمثل لمن كان يعبد عزيراً شيطان عزير حتى يمثل لهم الشجر والعود والحجر ويبقى أهل الإسلام جثوماً..».

(٣) رواه البخاري رقم ٣٥٢٤.

«**يا أبا ذر أعيرته بأمه إنك امرو فيك جاهلية..**»[1]، وفي رواية: «**قلت: على حين ساعتي هذه من كبر السن؟ قال: نعم**»[2]، فالجاهلية قد تكون في الإنسان وإن كان ولياً، فهكذا إذا وقع الإنسان في مخالفة فهو في الجاهلية.

«**قوله: لا**»: الظاهر أن السؤال موجه للعموم؛ لأنه جاء الجواب بـ«**قالوا**»، فهي معروفة عندهم.

«**قال: فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟**»: العيد نوع آخر غير الأوثان والعيد يكون اسماً لما يتكرر ويَعود، بعَود الزمان أو بمعاودة ذلك المكان، ويتبع ذلك أعمال يعملونها فلا بد أن فيه أعمال، فيكون اسماً للمكان لكونهم يعاودونه مرة أخرى، فقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا تتخذوا قبري عيداً ولا تجعلوا بيوتكم قبوراً، وحيثما كنتم فصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني**»[3]، فمن العجب أن بعض الناس يقول: إن معنى هذا الحديث أنه يقول: لا تجعلوا مجيئكم إلي مثل مجيئكم إلى العيد في السَّنَة مرة بل ترددوا إليه كثيراً، بعكس ما أراد الرسول ﷺ حيث قال: «**صلوا علي أينما كنتم فإن صلاتكم تبلغني**»، وإنما قال هذا بعض المتأخرين من دعاة عبادة القبور.

وقد يكون اسماً لزمان؛ كعيد الأضحى، وعيد الفطر، والجمعة؛ كقول النبي ﷺ في يوم الجمعة عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن هذا يوم عيد، جعله الله للمسلمين، فمن جاء إلى الجمعة فليغتسل، وإن كان طيب فليمس منه، وعليكم بالسواك**»[4]، وقد يطلق على الكل، ومعلوم أن العيد ليس للمكان فقط ولا للزمان فقط، بل يتبعه اجتماع؛ كقول ابن عباس: شهدت العيد مع رسول الله ﷺ، وأبي بكر، وعمر، وعثمان ﷺ، فكلهم كانوا يصلون قبل الخطبة[5]. وأعمال تعمل فيه من الفرح ومن غير ذلك عن عائشة: أن أبا بكر دخل عليها والنبي ﷺ عندها يوم فطر، أو أضحى وعندها قينتان

---

(١) البخاري رقم ٣٠ باب المعاصي من أمر الجاهلية، ومسلم رقم ١٦٦١.
(٢) البخاري رقم ٦٠٥٠، ومسلم رقم ١٦٦١.
(٣) أحمد في المسند رقم ٨٨٠٤، وأبو داود رقم ١٠٤٢ من حديث أبي هريرة ﷺ.
(٤) رواه ابن ماجه رقم ١٠٩٨.
(٥) رواه البخاري رقم ٩٦٢.

تغنيان بما تقاذفت الأنصار يوم بعاث، فقال أبو بكر: مزمار الشيطان؟ مرتين، فقال النبي ﷺ: **«دعهما يا أبا بكر، إن لكل قوم عيداً وإن عيدنا اليوم»**[1]، واجتماع أهل الجاهلية يكون للهو والباطل والكفر بالله جل وعلا ومحاربة بعض خلقه.

والمقصود المكان الذي فيه أوثان الجاهلية، أو فيه أعيادهم، وإن كانت انقطعت عن هذا المكان فإنه لا يجوز للمسلم أن يتشبه بهم في ذلك وغيره، ولو بعد تركهم لذلك الفعل خشية أن يكون متشبهاً بفعل المشركين، وإن اختلفت النيات والمقاصد، وكل هذا فيه إبعاد للمسلم عن أن يكون مع المشرك ولو في الصورة الظاهرة، ومثل ذلك سائر العبادات مثل: الجلوس للذكر وبحث العلم؛ لأن هذه طاعة، ومجالس الذكر من أفضل المجالس، فإنه لا يجوز أن يتقرب في هذا المكان لله بالطاعة قياساً على الذبح؛ لأن المعاصي تؤثر في الأمكنة، كما أنها تؤثر في الأبدان، ولهذا السبب لما مر رسول الله ﷺ في وادي محسر أسرع[2]، وهذا يدل على أن الذبح لله في المكان الذي كان فيه وثن، أو عيد من أعياد الجاهلية منهي عنه، وأن النذر في ذلك المكان معصية.

والإسلام ليس فيه إلا أعياد الإسلام التي هي عيد الأضحى، وعيد الفطر، ولا يجوز للمسلم أن يصنع أعياداً غير هذين العيدين، وإن كان عيد الأسبوع هو الجمعة، ولكن الجمعة ليس فيها تعطيل للأعمال حتى لا نكون مشابهين لأهل الكتاب في تعطيلهم أعمالهم في عيدهم، كما ذكر ذلك العلماء.

والمقصود أن المسلم ممنوع من أن يتشبه بأهل الأوثان سواء كان في عباداتهم التي يتقربون بها إلى أوثانهم، أو في أفعالهم العادية التي يعتادونها

---

(١) رواه البخاري رقم ٣٩٣١، ومسلم رقم ٨٩٢.

(٢) رواه مسلم رقم ٣٠٠٩ وفيه: «حتى أتى بطن محسر فحرك قليلاً»، وعند أحمد في المسند رقم ٢١٨١٢: «فقال الفضل: لم يزل يسير سيراً ليناً كسيره بالأمس حتى أتى على وادي محسر فدفع فيه حتى استوت به الأرض».

من فرح واجتماع وغيره، ويدل التعليل أنه لو كان فيها واحد مما ذكر لكان ذلك مانعاً من الوفاء بالنذر؛ لأنه يكون حينئذ نذر معصية، ولا وفاء في نذر المعصية.

قوله: «قالوا: لا، قال ﷺ: «فأوف بنذرك»»: هكذا جاءت الرواية بالفاء **«فأوف»**[١]، وقد أخذ التعبير بالفاء هنا حكم أن الوصف المذكور رتب على نفس الوصفين المذكورين؛ يعني: العيد والأوثان رتب عليهما بالفاء مما يدل على أنهما سبباً لانتفاء الحكم إذا وجد واحد منهما.

وقوله: «فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله»: هذا يدلنا على أن النذر لله جل وعلا في مكان معصيته أنه لا يجوز الوفاء به وإن كان قد زال هذا الوثن أو ذلك العيد، وأنه يصبح هذا نذر معصية لو وجد في هذا المكان، وما كان من نذر المعصية فلا يجوز الوفاء به، وإن كان له زيادة مثل: كونه مشابهة للمشركين، أو وسيلة إلى الشرك، وكذلك من كونه بدعة، فإن هذا اشتمل على أمرين:

الأمر الأول: شرك الذي هو الوثن.

الأمر الثاني: بدع التي هي الأعياد. سواء المكان ابتدع فجعل عيداً، أو جعل فيه أيضاً عملاً بدعياً فإنه لا يجوز أن تعمل فيه الطاعة لهذا الحديث.

فالأماكن التي يعبد فيها غير الله الفعل الذي يفعل فيها يكون معصية لله جل وعلا، لذلك صارت الصلاة في المسجد الذي فيه قبر لا تصح، وليست قربة، بل هي باطلة لأجل ذلك مما يكون المسلم مشابهاً للكافرين، فهو ممنوع أن يتقرب في الأماكن التي يتقرب فيها للشيطان، فالوفاء بنذر المعصية لا يجوز، وقد اختلف في نذر المعصية هل أنه لا يفعل، ويكون ذلك كافياً، أو أن فيه كفارة يمين؟ على قولين للعلماء:

---

(١) أحمد في المسند رقم ١٥٤٥٦ و٢٧٠٦٤، وابن أبي شيبة رقم ١٢٤٣٨، والطبراني في الكبير رقم ٧٤، وأبو داود رقم ٣٣١٤.

الأولى: لا كفارة عليه، وروي ذلك عن مسروق، والشعبي، والشافعي لحديث الباب.

والثاني: أنه تجب فيه الكفارة وهو المذهب، وروي عن ابن مسعود وابن عباس، وبه قال أبو حنيفة وأصحابه لحديث عائشة عند الإمام أحمد مرفوعاً عن عائشة: أن رسول الله ﷺ قال: «**لا نذر في معصية الله وكفارته كفارة يمين**»[1]، وهذا هو الصحيح أنه يجب عليه كفارة اليمين ولا يجوز الوفاء به مثل أن ينذر أن يشرب الخمر فلا يجوز أن يشربها، ولكن عليه كفارة يمين، أما كون هذا الحديث أطلق، ولم يذكر فيه الكفارة هذا لا ينافي الزيادة التي جاءت فيها زيادة حكم، ولكن قال ابن القطان: أخشى أنها ليست من كلام النبي ﷺ[2].

وقوله: «ولا فيما لا يملك ابن آدم»؛ يعني: إذا نذر أن يتصدق بمال فلان، أو أن يوقف بيت فلان، أو ما أشبه ذلك، فهذا لا وفاء فيه؛ لأنه لا

---

(١) رواه أحمد في المسند رقم ٢٦٠٩٨، والترمذي رقم ١٥٢٤، وأبو داود رقم ٣٢٩٠، وابن ماجه رقم ٢١٢٥، والنسائي ٣٨٤٣ وقال الترمذي: قال أبو عيسى: هذا حديث لا يصح لأن الزهري لم يسمع هذا الحديث من أبي سلمة قال: سمعت محمداً يقول: روى غير واحد منهم موسى بن عتبة، وابن أبي عتيق عن الزهري عن سليمان بن أرقم عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن عائشة عن النبي ﷺ، قال محمد: والحديث هو هذا. وعند أبي داود رقم ٣٣٢٢ عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال: «**من نذر نذراً لم يسمه فكفارته كفارة يمين، ومن نذر نذراً في معصية فكفارته كفارة يمين، ومن نذر نذراً لا يطيقه فكفارته كفارة يمين، ومن نذر نذراً أطاقه فليف به**»، قال أبو داود: وروى هذا الحديث وكيع وغيره عن عبد الله بن سعيد بن أبي الهند أوقفوه على ابن عباس. قال ابن حجر في التلخيص الحبير ٤/ ١٧٦: وللحديث طريق أخرى رواه أبو داود من حديث كريب عن ابن عباس وإسناده حسن فيه طلحة بن يحيى وهو مختلف فيه، وقال النووي في الروضة: حديث لا نذر في معصية وكفارته كفارة يمين ضعيف باتفاق المحدثين، **قلت**: قد صححه الطحاوي، وأبو علي بن السكن فأين الاتفاق.

(٢) التلخيص الحبير لابن حجر ٤/ ١٧٥ قال حديث: «**من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه**» رواه البخاري عن عائشة وزاد الطحاوي في هذا الوجه: وليكفر عن يمينه، قال ابن القطان: عندي شك في رفع هذه الزيادة.

يملكه، وهل حكمه حكم نذر المعصية؛ يعني: هل يلزم فيه الكفارة؟ الظاهر أنه يلزمه الكفارة، والكفارة كفارة يمين.

بهذا يتبين لنا أن المكان الذي عرف أنه فيه معاصي؛ كأن يعبد فيه غير الله، أو أن فيه أعياد جاهلية أنه لا يجوز أن تفعل فيه الطاعة، وإن كانت لله جل وعلا، مثل: الذبح لله جل وعلا أو غيره من العبادات، فأنها تقاس على الذبح لله، فإنه لا يجوز أن يتقرب إلى الله جل وعلا بأي طاعة في الأماكن التي يعصى الله فيها سواء زالت تلك المعصية، أو كانت باقية في الأماكن، وقد يشكل على هذا: أنه لما هدمت اللات بني في مكانها مسجد، أجاب ابن القيم رحمه الله عن هذا في الهدي[1] بقوله: إن هذا الذي فعل؛ لأنه خشي أن تدعا فبنى المسجد فنسيت. فإذا ترجح الفعل في المثل هذا يكون أثره منسياً لهذا الشيء أنه لا بأس به، أما ما عدا ذلك فلا يجوز.

فإن المسلم يجب عليه أن يكون مخالفاً للمشركين في جميع أعمالهم التي عرفوا بها وصارت خاصة بهم، وأن مشاركتهم في ذلك من الأمور الكبيرة؛ يعني: من الكبائر التي تقدح في توحيد المسلم، وهذا هو المقصود من هذا الباب والله اعلم.

❁ قال المؤلف رحمه الله: فيه مسائل:

❁ الأولى: أن المعصية قد تؤثر في الأرض وكذلك الطاعة.

قد هنا للتحقيق، وإذا كانت الطاعة تؤثر في الأرض، ولا يقتضي طلب البركة من تلك الأماكن أو العكوف بها فإن هذا لا يجوز، ولكن أثر الطاعة مما يجعله الله عز وجل في الأماكن فلا يكون لها أثر فيه، فلا يجوز أن نطلب

---

(١) زاد المعاد ٣/ ٥٢٥ قال فيه: ومنها: استحباب اتخاذ المساجد مكان بيوت الطواغيت فيعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً في الأمكنة التي كان يشرك به فيها، وهكذا الواجب في مثل هذه المشاهد أن تهدم وتجعل مساجد إن احتاج إليها المسلمون وإلا أقطعها الإمام هي وأوقافها للمقاتلة وغيرهم. وقال في موضع آخر ٢/ ٢٦٧: فقصد النبي ﷺ إظهار شعائر الإسلام في المكان الذي أظهروا فيه شعائر الكفر والعداوة لله ورسوله، وهذه كانت عادته صلوات الله وسلامه عليه أن يقيم شعائر التوحيد في مواضع شعائر الكفر والشرك، كما أمر النبي ﷺ أن يبنى مسجد الطائف موضع اللات والعزى.

منها شيئاً لا بركة ولا غيرها، وإنما تطلب البركة من الله جل وعلا هو الذي يجعل الشيء مباركاً، قال الله جل وعلا عن الكفار: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَآءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الدخان: ٢٩]؛ يعني: أن الأماكن لها إحساس وشعور جعله الله فيها تتأثر بالطاعة، وقد جاء في التفسير(١) أن هذا محل صعود العمل والأرض التي يؤدون عليها العبادة أماكن السجود تبكي على من سجد عليها لله جل وعلا، والسماء كذلك الموضع الذي يصعد منه عملك يبكي عليك، ومن المعلوم أن المعاصي هي الإفساد في الأرض، وقد أخبر الله جل وعلا أن الكفار والمنافقين يفسدون في الأرض بعد إصلاحها بالطاعة وإفسادها بالمعصية، ولهذا كانت آثار الكفار المعروفة لها أثر في ذلك لما جاء النبي ﷺ إلى مدائن ثمود نهى أصحابه أن يدخلوا عليهم إلا إذا كانوا باكين خشية أن يصيبهم ما أصابهم ونهاهم أن يستقوا من آبارهم، وأذن أن يستسقوا من بئر الناقة فقط، والذين سبقوا وعجنوا أمرهم أن يعلفوه البهائم، فهذا يدل على أن المعصية تؤثر في العبادة وفي البقعة، ومن ذلك أنه ﷺ لما وصل إلى وادي محسر أسرع؛ لأنه محل العذاب الذي عذب فيه أصحاب الفيل.

۞ الثانية: رد المسألة المشكلة إلى المسألة البينة ليزول الإشكال.

هذا مأخوذ من قوله: «**هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد؟**»،

---

(١) تفسير الطبري ٢٢/ ٣٤ عن سعيد بن جُبير، قال: أتى ابن عباس رجل فقال: يا أبا عباس أرأيت قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَآءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ فهل تبكي السماء والأرض على أحد؟ قال: نعم إنه ليس أحد من الخلائق إلا له باب في السماء منه ينزل رزقه، وفيه يصعد عمله، فإذا مات المؤمن فأغلق بابه من السماء الذي كان يصعد فيه عمله، وينزل منه رزقه، بكى عليه؛ وإذا فقده مُصَلاه من الأرض التي كان يصلي فيها، ويذكر الله فيها بكت عليه، وإن قوم فرعون لم يكن لهم في الأرض آثار صالحة، ولم يكن يصعد إلى السماء منهم خير، قال: فلم تبك عليهم السماء والأرض. وعن قتادة، في قوله: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَآءُ وَالْأَرْضُ﴾ قال: بقاع المؤمن التي كان يصلي عليها من الأرض تبكي عليه إذا مات، وبقاعه من السماء التي كان يرفع فيها عمله.

وقوله: «**هل كان فيها عيد من أعيادهم؟**»، فهو استفسر ووضح حتى يزول الاحتمال، فإذا استفتي الإنسان عن شيء فلا بد من التفصيل، وكذلك إذا اشتبه على الإنسان شيء لا بد من الإيضاح؛ لأنه إذا كان هناك شيء مجمل فإنه قد يحصل غلط، فلا بد من الإيضاح والتفصيل.

۞ الثالثة: أن تخصيص البقعة بالنذر لا بأس به إذا خلا من الموانع.

قال بالنذر بخلاف العبادات الأخرى فهو يرى النذر؛ لأنه جاء به النص فقط؛ لأن النبي ﷺ أفتى بالنذر قال: «**فأوف بنذرك**»، أما غيرها مثل: تخصيص مكان للصلاة أو غيرها إذا خلت من الموانع فهذا عام؛ لأنه ﷺ قال: «**وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل**»[1].

۞ الرابعة: الحذر من مشابهة المشركين في أعيادهم، ولو لم يقصده.

هذا واضح من الباب وهو المقصود، ولكن الشيء الذي يجب أن يسأل عنه كيف صار هذا تفسيراً لشهادة أن لا إلٰه إلا الله؟ وقد عرفنا أن التفسير يأتي بالضد ويأتي بالمعنى المقصود الذي تضمنه؛ يعني: بالمنافي والمثبت الذي دلت عليه، **الجواب**: وجه ذلك أن هذه الكلمة لا إلٰه إلا الله تضمَّنت الدين كله، فكل أمر مما أمر الله به فهو داخل في ضمنها، وكل نهي نهى عنه فارتكابه يكون قادحاً في قولها منقصاً لها، ولعمل ذلك الذي فعله.

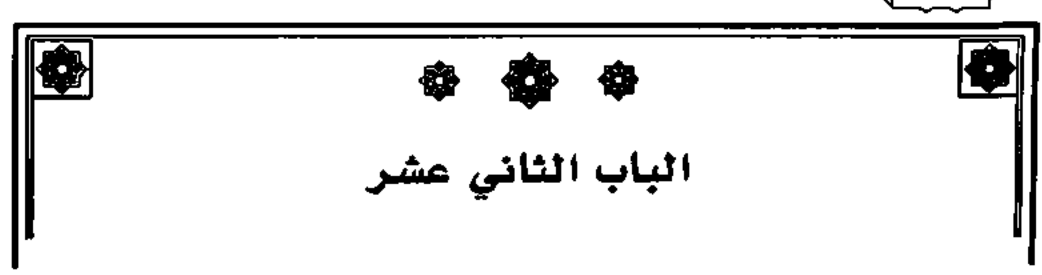
۞ الخامسة: لا نذر لابن آدم فيما لا يملك.

ومعنى قوله: لا نذر؛ يعني: أنه لا يقع ولا يجوز النذر، ولو وقع النذر لا يجوز أن يفي به.



---

(١) رواه البخاري رقم ٣٣٥، ومسلم رقم ٥٢١ من حديث جابر بن عبد الله ﷺ.



الباب الثاني عشر

۞ قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: باب من الشرك النذر لغير الله.

مقصوده رَحِمَهُ ٱللَّهُ من هذا الباب أن يبيِّن أن النذر عبادة، وصرف العبادة لغير الله من الشرك، ولهذا نص على أنه شرك، والدليل على أنه عبادة أن الله جل وعلا أثنى على الموفين بالنذر ومدحهم بقوله: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧﴾ [الإنسان: ٧]، ولا يثني ربنا جل وعلا ويمدح إلا من فعل واجباً أو مستحباً، أما إذا كان مباحاً فإنه لا يثني على صاحبه فبثنائه ومدحه على من أوفى به تبين أنه عبادة؛ لأن الله جل وعلا يجزيه على ذلك فقد جعل جزاءهم الجنة، ولكن الثناء على الموفي به وليس على الناذر، فلا ينافي ما سبق أن النذر مكروه، وإنما إنشائه وابتدائه هو المكروه، أما إذا وقع فإذا كان طاعة وجب الوفاء به لقوله ﷺ: «**من نذر أن يطع الله فليطعه**»[1]، ومن أوفى به فهو ممدوح ومثنى عليه ومجازى عليه.

والجزاء يكون على فعل طاعة ليس على فعل مباح إلا إذا اقترن به نية صالحة؛ كالأكل والنوم والسفر مثلاً للفرجة والنظر، وما أشبه ذلك فهذه من المباحات، ولكن قد يكون عبادة بالنية، وقد ذكر العلماء أن النذر تتطرق إليه الأحكام الخمسة؛ يعني: يكون محرماً ويكون واجباً؛ يعني: الوفاء به، ويكون مباحاً، ويكون مكروهاً، ويكون مستحباً، وقد يكون مخير بين فعله وتركه، أما كونه مكروهاً فهذا جاءت الأحاديث به فإن الرسول ﷺ قال: «**لا يأتي ابن آدم النذر بشيء لم يكن قُدِّر له، ولكن يلقيه النذر إلى القدر قد قُدِّر له فيستخرج الله به من البخيل فيؤتيني عليه ما لم يكن يؤتيني عليه من قبل**»[2]، وعن ابن عمر

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) البخاري رقم ٦٦٩٤، ومسلم رقم ١٦٤٠ من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

عن النبي ﷺ أنه نهى عن النذر وقال: «**إنه لا يأتي بخير، وإنما يستخرج من البخيل**»[١]، وعن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يأتي النذر على ابن آدم شيئاً لم أقدره عليه ولكنه شيء أستخرج به من البخيل**»[٢]، فهذا يدل على أنه مكروه؛ يعني: إنشاء النذر وابتداؤه مكروه؛ لأنه لا يغير من القدر شيئاً، فالمقدر لا بد أن يقع نذر الإنسان، أو لم ينذر ووجه الكراهة قوله: «**لا يأتي لابن آدم النذر بشيء**» وقوله: «**لا يأتي بخير**»، بل قد يأتي بشر وذلك أن الإنسان قد ينذر نذراً، ثم يثقل عليه، ثم يتساهل فلا يفي به؛ يعني: نذر الطاعة فيصبح قد ارتكب حراماً، وارتكاب المحرم شر، وأما كونه مستحباً أو مباحاً، أو مستوي الطرفين فهذا يختلف باختلاف ما يفعله الإنسان.

فمثلاً: المباح مثل ما جاء في الحديث، وإن كان فيه كلام ما رواه أبو داود[٣] عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، وأحمد، والترمذي[٤] عن عبد الله بن بريدة عن أبيه: أن امرأة أتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، إني نذرت أن أضرب على رأسك بالدف قال: «**أوفي بنذرك**»، فضرب الدف أمر مباح فدل على أنه يجوز الوفاء به إذا كان النذر مباحاً، وأما كونه مكروهاً، فمثل الطلاق ينذر أن يطلق زوجته مثلاً: فهذا مكروه الوفاء به؛ لأن الطلاق من المكروهات، وأما كونه محرم فهو ظاهر؛ كنذره أن يفعل معصية كشرب الخمر، أو كترك الصلاة، وما أشبه ذلك فهذا لا يجوز له أن يفي به كما سيأتي في الحديث، فعلى كل حال النذر في الأصل إنشاءه مكروه، ولكن إذا فعله العبد فلا يخلو الأمر إما أن يكون نذر طاعة لله جل وعلا فهذا يجب عليه

---

(١) رواه البخاري رقم ٦٦٠٨، ومسلم رقم ١٦٣٩ واللفظ له.
(٢) رواه النسائي رقم ٣٨٠٤.
(٣) رواه أبو داود رقم ٣٣١٢، ورواه البيهقي الكبرى رقم ١٩٨٨٩ وقال: يشبه أن يكون ﷺ إنما أذن لها في الضرب لأنه أمر مباح وفيه إظهار الفرح بظهور رسول الله ﷺ ورجوعه سالماً لا أنه يجب بالنذر، والله أعلم.
(٤) أحمد في المسند رقم ٢٣٠١١، والترمذي رقم ٣٦٩٠ وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب من حديث بريدة، وفي الباب عن عمر وسعد بن أبي وقاص وعائشة. ورواه ابن حبان في صحيحه رقم ٤٣٨٦.

أن يفي به، أو يكون أمراً مباحاً كأن ينذر أنه يسافر للتفرج والنزهة فهذا لا يلزمه الوفاء به، ويكون محرماً مثل ما مثّلنا، وقد يكون ممتنع الوفاء به كأن ينذر مثلاً أن يتصدق بمال فلان، أو بيته، أو ما أشبه ذلك فلا نذر للإنسان في المحرم ولا فيما لا يملك، فالشيء الذي لا يملكه لا يجوز الوفاء به ولا يلزمه ذلك، ولكن هل تلزمه الكفارة؟

فيه خلاف بين العلماء والصحيح أنه تلزمه الكفارة، والكفارة كفارة يمين لما جاء في حديث عائشة ﵂: أن النبي ﷺ قال: «**لا نذر في معصية وكفارته كفارة اليمين**»، رواه أبو داود[1]. قال الحافظ: قال النووي في الروضة: حديث: «**لا نذر في معصية، وكفارته كفارة يمين**» ضعيف باتفاق المحدثين، قلت: قد صححه الطحاوي، وأبو علي بن السكن[2]، فإذا صحح الحديث حافظ من حفاظ الأمة المعتبرين فإنه يجب العمل به.

❁ **قال المؤلف** ﵀: **وقول الله تعالى:** ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ [الإنسان: ٧].

هذا في الثناء على عباد الله الذين أثنى عليهم بعدة أوصاف منها أنهم يوفون بالنذر ومدحهم عليه، وأخبر أنه يثيبهم عليه بقوله جل وعلا: ﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ۝﴾ [الإنسان: ١٢]، فإذا تبين هذا دل على أن النذر عبادة لله جل وعلا لا يجوز صرفها لغيره فمن جعلها لغير الله فقد أشرك.

وقوله: «﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧]»: فقرن النذر بالخوف من يوم القيامة وأهواله الذي هو عبادة لا يجوز صرفها لغير الله جل وعلا مما يؤكد أن النذر عبادة لله جل وعلا وهو الوفاء به إذا كان في طاعة الله جل وعلا.

❁ **وقال المؤلف** ﵀: **وقوله:** ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۝﴾ [البقرة: ٢٧٠].

النفقة المقصود بها هي النفقة التي يبتغي بها وجه الله تعالى، والنفقة في سبيل الله قد حث الله عليها ووعد عليها الأجر الجزيل.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) التلخيص الحبير لابن حجر ٥/ ٤٥٧.

وقوله: «﴿أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ﴾»؛ يعني: نذر طاعة لله جل وعلا، فعطفه جل وعلا النذر على النفقة في سبيل الله يدل على أنه عبادة لله جل وعلا، وطاعة يجب إخلاصها لله جل وعلا كما يجازي من فعل ذلك؛ يعني: من أوفى به لله جل وعلا كما يجازي المنفق في سبيله جل وعلا.

وقوله: «﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾»: وفي ضمنه أنه يجازي فاعله، ويثيبه على ذلك قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى: بأنه عالم بجميع ما يفعله العاملون من الخيرات من النفقات والمنذورات، وتَضَمن ذلك مجازاته على ذلك أوفر الجزاء للعاملين لذلك ابتغاء وجهه ورجاء موعوده[1]. فدل هذا على أن النذر عبادة يجازي الله عليها فإذا تبين لنا أن النذر عبادة فإنه يجب أن تكون خالصة لله جل وعلا، وأن من صرفها لغير الله، فقد أشرك.

وبهذا يعرف أن النذر للقبور، أو لأصحاب القبور، أو لأماكن معينة التي يظن أن فيها بركة؛ لأنه قد يكون جلس عندها رجل صالح مثلاً، أو نبي، أو ما أشبه ذلك يكون شركاً وسواءً كان النذر نقوداً، أو في حرث، أو في غير ذلك من أنواع الأموال، أو في شيء يقوم على هذا المكان مثلاً: تنويره بالمصابيح، أو ترميمه، أو جعل المياه فيه لمن يأتي إليه، أو ينذر الزيوت حتى يسرج على القبر، ومنهم من ينذر لمن يخدم القبة والمكان يسمونهم سدنة تشبهاً بسدنة الأصنام وغيرهم، فينذرون لهم ويجعلون لهم شيئاً من أموالهم فهذا شرك بالله جل وعلا، وكذلك النذور للأمكنة التي يعتقدون أنها شريفة، وقد يعتقد أنها تقبل النذر كما يقول القبوريون، والمشركون يقولون: هذا شيء يقبل النذر؛ يعني: أنه إذا نُذر له يحصل لهم ما أرادوا بزعمهم أنه هو الذي أوجد لهم ذلك، ومعنى هذا أن الأموات تتصرف، وأنها تنفع وتضر، وهذا شرك في الربوبية ـ نسأل الله العافية ـ وهذا الذي قصده المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ لأن هذا كان في وقته كثير كما أنه في وقتنا أيضاً كثير في بلاد المسلمين يجعلون

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٧٠١.

قسماً من أموالهم لمن يعتقدون أنهم أولياء ولا سيما إذا وقع أحدهم في أمر عظيم إما مرض، أو عدو، أو فقر، أو فقد ولد وما أشبه ذلك، فيقدم النذور للأموات والقبور يرجو أنه يحصل له مطلوبه في ذلك، وهذا أمر واضح جداً وظاهر في الوقت الحاضر كما كان في الماضي في وقت الشيخ وقبله، فأراد أن يبين أن هذا من أعظم الشرك بالله جل وعلا، وأن الإنسان إذا كان يفعل هذا ومات عليه فإنه مشرك الشرك الأكبر الذي لا يُغفر إلا بالتوبة منه والإقلاع عنه، وأما وجه كونه تفسيراً وشرحاً لشهادة أن لا إلٰه إلا الله وبياناً لها فلأن هذا مناف للشهادة ومضاداً لها وبضدها تتبين الأشياء؛ لأنه كما سبق أن الشيخ كَلَلهُ لما ذكر تفسير شهادة أن لا إلٰه إلا الله قال: وتفسير ذلك بما بعدها من التراجم. فهو يذكر التفسير إما بما ينافي التوحيد مثل هذا، أو بما يذهب بكماله، أو ينقصه ويذهب بجزء منه، أو بما يكمله ويتممه؛ كالحب في الله، وما أشبه ذلك.

۞ قال المؤلف كَلَلهُ: وفي الصحيح عن عائشة ﷺ عن الرسول ﷺ قال: «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه»[1].

قوله: «في الصحيح»؛ يعني: صحيح البخاري، أو أنه يقصد في الحديث الصحيح الثابت عن الرسول ﷺ وهذا هو الغالب؛ لأنه يذكر أحاديث في هذا اللفظ وهي في الصحيحين.

قوله: «من نذر»: «من»: اسم موصول، وهو من صيغ العموم؛ يعني: أن هذا عام في كل من صدر منه النذر ممن يصح ذلك منه فإنه يلزمه أن يفي به إذا كان طاعة لله جل وعلا ولا يجوز له أن يفي به إذا كان نذر معصية.

قوله: «نذر»: النذر: مصدر نذر ينذر، أوجب على نفسه شيئاً لم يكن واجباً عليه شرعاً تعظيماً للمنذور له، وأصله في اللغة الإيجاب.

قوله: «أن يطع الله فليطعه»: فمن نذر أن يطيع الله وجب عليه أن يفي

(١) سبق تخريجه.

بنذره، وهذا مطلق في جميع الطاعات، ومعلوم أن الطاعة لا تخلو إما أن تكون واجبة، أو تكون مستحبة، فإذا نذر شيئاً مستحباً يجب عليه أن يفي به وكذلك إذا نذر أمراً يجب عليه؛ كأن يصلي الظهر، أو يصلي العصر، أو يصلي المغرب، أو ما أشبه ذلك فإنه يجب عليه وإن كان واجباً في الأصل، ولكن معنى ذلك أنه لو خالف لزاد إثمه، وكذلك إذا كان أمراً مستحباً مثل: الاعتكاف وما أشبه ذلك، مع أن الإمام أبي حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: إنه لا يجب إلا إذا كان له أصل واجب في الشرع، فالاعتكاف عنده ليس واجباً، فمعنى ذلك أنه لا يلزمه الوفاء به، لكن الحديث يدل على خلاف ما قال رَحِمَهُ اللَّهُ فالحديث فيه أن من نذر أن يطيع الله فليطعه، وهذا مطلق سواءٌ كان واجباً في أصل الشرع، أو لم يكن واجباً، والنذر لا يغير من الواقع شيئاً، فالأمور مقدرة مكتوبة، ولكن الدعاء، هو الذي ينفع كون الإنسان يتجه إلى ربه ويدعو، ويبتهل ويجتهد في الدعاء، فهذا يستجيب الله جل وعلا له، ويحصل له مراده بإذن الله فهو عبادة يثاب عليها، وأما النذر فقد يكون مؤجلاً فالعبادة المؤجلة فيها منٌّ وفيها تعليق على شيء إذا حصل أفعل، وقد لا يحصل، وسواءٌ نذر الطاعة صار معلقاً، أو ابتداءً؛ كأن يقول: لله عليّ أن أصوم، أو أن أصلي، أو ما أشبه ذلك، فهذا يجب عليه أن يفي به، ولو لم يعلقه بحصول شيء، أو زوال شيء من الأمور المكروهة، ولا يلزم أن يقول: نذرت، بل إذا قال: لله عليّ كذا، أو سأفعل كذا؛ كالطاعات فإنه يكون نذراً، والنذر شبيهاً بالحلف.

وقوله: «ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه»:، وهذا مطلق وعام في كل معصية لا يجوز أن يفي بنذره بل يحرم عليه ذلك، ونذر المعصية مثل: أن ينذر أن يشرب الخمر، أو يترك الصلاة، فهذا يحرم عليه أن يفي بنذره. ومن نذر المعصية النذر للقبور، أو بقعة من البقع والذين يقولون: إنه يقبل النذر؛ يعني: أنه يحصل للناذر ما نواه وأراده، ومعلوم أن هذا شيء ينافي العقل فضلاً عن منافاة الشرع، كيف المكان ينفع، أو يضر، أو المقبور الذي هو رميم لا يستطيع أن يصرف عن بدنه الديدان التي تأكله، ولا يستطيع أن يستزيد حسنة في صحيفة حسناته، أو ينقص سيئة مما ثبت عليه، فهو أفقر من الحي

الذي يطلب منه نفعاً، فهذا يدل على سخافة المشرك؛ لأنه في الواقع يأتي إلى مخلوق ضعيف مثله ويطلب منه النفع الغيبي، أو الدفع، ويزعم أن هذا مجرب ونافع؛ لأنه وقع مرة، أو أكثر من مرة قدراً من الله جل وعلا، فجعل ذلك بواسطة الشيطان وإحيائه أن هذا من الميت فصار هذا له فتنة، وكل من عبد القبور وطلب منها جلب نفع، أو دفع الضر فقد وقع في الشرك الأكبر وعمدتهم في هذا إما رؤى، وإما حكايات تحكى في مثل هذا الذي وقع له قدراً، أو أحاديث موضوعة على رسول الله ﷺ، ولكن ذلك صادف الهوى والتقليد الذي وجدوا عليه من يعظمونه فيستدلون به، فهذه هي عمدة القبوريين غالباً، وقد يتعلقون بأشياء لا تدل على مرادهم بل تدل على عكسه إذا كانت صحيحة، وقد يستدلون مثلاً: بأقوال جاءت عن بعض الأئمة ليست مقصودة، مثلاً: إذا ذكروا ترجمة رجل قالوا: قبره يزار، أو يعظم، أو يتبرك به وما أشبه ذلك، مع أن هذا يجب الحذر منه، وأن لا يطلق ذلك؛ لأنه فتنة لهؤلاء، فإذا سمعوا مثل هذا الكلام ظنوا أن العلماء يؤيدونهم على ذلك، أو أنهم يرونه حقاً، أو أنهم يظنون أنهم يفعلون كفعلهم.

والمقصود أنه لا دليل لهم من كتاب الله جل وعلا، ولا من سُنَّة رسوله ﷺ، ولا من العقل والفطرة على فعلهم. فمن قدم النذور للأموات، أو للقبور، أو للأمكنة أو غيرها فإن هذا من الشرك الأكبر الذي لا يغفر لصاحبه إذا مات عليه لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

ونذر المعصية كما سبق لا يجوز الوفاء به، ولكن فيه الكفارة، والكفارة كفارة يمين إطعام عشرة مساكين، أو كسوتهم، أو تحرير رقبة، فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام، وهذا مطلق في جميع المعاصي. وهذا الحديث الذي قال فيه ابن القطان: حديث: **«من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه»** البخاري عن عائشة وزاد الطحاوي[1] في هذا الوجه: **«وليكفر عن**

(١) بيان مشكل الآثار للطحاوي ٨٦/٤ عن عبيد الله بن عمر عن القاسم بن محمد عن =

يمينه» عندي شك في رفع هذه الزيادة[١]. ويغني عن هذا ما جاء في المسند، وغيره عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: **«لا نذر في معصية الله وكفارته كفارة يمين»**[٢]، وقد جاء أيضاً أن لا نذر لابن آدم فيما لا يملك[٣] فهذا مثله.

وأما الأمور التي يكون الإنسان فيها مخيراً كما ذكر أئمة الفقهاء فإنه إذا نذر غضب ولجاج، واللجاج كونه يلج في الأمر ويعتمد البقاء عليه، أو المضي فيه ويكون غضبان فينذر أنه يفعل كذا فإذا كان فعله ليس محرماً، وليس من الأمور الواجبة فإنه يكون مخيراً بين فعله وتركه، ولكن جاء في حديث عمران بن حصين رضي الله عنه مرفوعاً: **«لا نذر في غضب وكفارته كفارة اليمين»**[٤]، وله طرق وفيه كلام لبعض العلماء في السند والصحيح أنه يلزمه كفارة يمين كما في هذا الحديث، والله أعلم.



= عائشة عن النبي ﷺ قال: **من نذر أن يطيع الله ﷻ فليطعه ومن نذر أن يعصي الله ﷻ فلا يعصه**، قال حفص: وسمعت ابن مجبر وهو عند عبيد الله فذكره عن القاسم عن عائشة عن النبي ﷺ مثله وقال فيه: **«يكفر يمينه»**.

(١) التلخيص الحبير ٤/ ١٧٥.

(٢) أحمد في المسند رقم ٢٦٠٩٨، والترمذي رقم ١٥٢٤، وأبو داود رقم ٣٢٩٠، والنسائي رقم ٣٨٤٣، وابن ماجه رقم ٢١٢٥.

(٣) رواه أحمد في المسند رقم ٦٩٩٠، ومسلم رقم ١٦٤١ عن عمران بن حصين في قصة العضباء ناقة رسول الله ﷺ وفيه: **«سبحان الله بئسما جزتها نذرت لله إن نجاها الله عليها لتنحرنها لا وفاء لنذر في معصية ولا فيما لا يملك العبد»**، وأبو داود رقم ٣٣١٣ من حديث ثابت بن الضحاك المتقدم، وابن ماجه رقم ٢١٢٤: **«لا نذر في معصية، ولا نذر فيما لا يملك ابن آدم»** من حديث عمران بن حصين، والنسائي رقم ٣٨٢١.

(٤) أحمد في المسند رقم ١٩٨٨٨، والنسائي رقم ٣٨٥١، والبيهقي رقم ٢٠٥٦١، والطبراني في الكبير رقم ٤٨٥.



الباب الثالث عشر

قال المؤلف رحمه الله: باب من الشرك الاستعاذة بغير الله.

الاستعاذة هي: الالتجاء والاعتصام والاحتماء بمن يدفع الشر، أو يمنعه قبل حصوله.

وقد جاء الأمر في القرآن الكريم في آيات كثيرة بالاستعاذة بالله، قال جل وعلا: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾ [فصلت: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾﴾ [الفلق: ١، ٢]، وقوله ﷻ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾﴾ [الناس: ١ ـ ٣]، فالله جل وعلا يأمر عباده أن يستعيذوا به، ومعلوم أن الاعتصام بالله جل وعلا توحيد وعبادة، وأن من فعل ذلك فإن الله يكفيه ويحميه، وإذا ثبت أنه عبادة فصرفها لغير الله جل وعلا شرك فمن التجأ واحتمى بشخص، سواء كان آدمياً، أو جنياً، أو شيئاً موهوماً فقد وقع في الشرك الأكبر الذي لا يغفر إلا بتركه والتوبة منه، فالاستعاذة لا يجوز أن تكون بغير الله جل وعلا.

والاستعاذة تكون من الأمر المرهوب المخوف، كما أن اللياذ يكون في الأمر المرغوب كما قال الشاعر:

يَا مَنْ ألوذُ به فيمَا أؤمِّلُه ... وَمَنْ أعوذُ به مما أحَاذرُه[1]

والالتجاء قد يكون بالفعل الظاهر، وقد يكون بالقلب وما يقوم بالقلب، ومعلوم أن الفعل بالجوارح يتبع القلب؛ لأنه لا يقع فعل للعاقل إلا إذا سبقه فعل القلب، وهذا المقصود فيه الأمر الظاهر، فلا بد من اجتماع فعل الجوارح مع فعل القلب في كل عبادة.

---

(١) ديوان المتنبي ٢/ ٢٧٢.

والاستعاذة بالله تكون من كل شيء فيه شر؛ لأن الأشياء بعضها لا شر فيها ولكن يقال مثلاً: هذه استعاذة عامة مطلقة الإطلاق الوصفي، وليس الإطلاق الكلي وذلك أن الجنة شيء، والجنة كلها خير لا شر فيها، ومثل الملائكة خير لا شر فيهم، ومثل الأنبياء لا يستعاذ بالله منهم لا شر فيهم بل هم خير؛ يعني: هذا أنه يجب أن يكون على الإطلاق الوصفي، ومعنى الإطلاق الوصفي: أنه يوصف ذلك الذي استُعيذ بالله منه؛ لأنه فيه شر ففي قوله جل وعلا: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ [الفلق: ٢]، وما في الحديث: «**أعوذ بكلمات الله التامة من شر ما خلق**» هذا عام.

فإذن كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ جاءت بالاستعاذة بالله جل وعلا وحده، فلا يجوز أن يستعاذ بمخلوق، ولكن إذا كان المخلوق يملك الشيء الذي يُستعاذ به فهل يجوز أن يستعاذ به؟ مثل أن تقول: أعوذ بك من شرِّك، أو أعوذ بك من شر فلان، وهو يستطيعه، أو مثلاً ولده وما أشبه ذلك هل يجوز مثل هذا؟

والجواب: أنه لا يستطيع أن يمنع حتى شره، فالمخلوق ضعيف ولا يستطيع أن يمنع حتى شر ولده فهو ضعيف جداً، فالواجب أن تكون الاستعاذة بالله وحده ولا تكون الاستعاذة بغيره جل وعلا؛ لأن الاستعاذة الالتجاء والاحتماء بالقلب أولاً قبل القول وقبل الفعل، وما يقوم بالقلب من الالتجاء والانطراح بين يدي الله، والخضوع له، والذل له، والاستكانة له، والإنابة وتسليم الأمر له هذا لا يجوز أن يكون شيء منه لغير الله أصلاً؛ لأنه هو العبادة والتأله، بل هو من أفضل لأنه عبادة بالربوبية والألوهية، وإن كان عبودية الألوهية والربوبية بينهما تلازم، فأحدهما يتضمن الآخر، والثاني يستلزمه فهذا لا بد منه، ولا ينفك أحدهما عن الآخر، وأن الذي يُطلب منه الشيء يجب أن يكون مالكاً له، والمخلوق لا يملك إلا ما ملكه الله جل وعلا.

أما أن يقول الإنسان من باب المغالطة: أنا أعوذ بهذا وأسأله؛ لأنه يملك ذلك نقول: وما يدريك أنه يملك من أين علمت هذا؟

ونقول مثلاً: صاحب هذا القبر، أو هذا النبي، أو الملك، أو ما أشبه ذلك قد أقدره الله وأعطاه القوة وأعطاه فضلاً منه أنه من احتمى به أنه يحميه، وكثيرون منهم يستحوذ عليه الشيطان ويقول: هذا جربناه ووجدناه صحيحاً بالفعل، فلا نقبل القول بعد وقوع الفعل من ذلك، وهذا سيأتي بحثه عند الآية.

ولكن المقصود بيان أن الاستعاذة أنها يجب أن تكون بالله وحده ولا يجوز أن تكون بمخلوق أصلاً.

أما شر الإنسان مثل أن يقال: كف شرك عنا، فهذا يجب أن يكون أمراً، ولا يجوز أن يكون استعاذة فنقول: كف شرك وشر من تحت يدك، يجب أن يكون بالأمر موجهاً إليه، ولا يجوز أن يكون بالخضوع والذل وإلا احتمى به حتى وإن كان ملكاً، أو أميراً لا يجوز ذلك، ومعلوم أن الإنسان يخضع للآخر ويذل له، بل يعبده وأكثر الناس يعبد بعضهم بعضاً وهذا أمر ظاهر، فكل من أطاع مخلوقاً في معصية الله جل وعلا فقد اتخذه رباً وهو مشرك في هذا، وهذا كثير جداً إذا تأمله الإنسان، ولهذا أكثر الناس لا ينفك عن الشرك، وإذا قدم هواه وشهوته على مراد الله وأمره، فإنه يكون عابداً لهواه، وأكبر معبود تحت أديم السماء الهوى، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية: ٢٣] يقول العلماء: ﴿ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾؛ يعني: إذا هوى شيئاً فعله بدون مبالاة وبدون أن يرتدع بأمر الله جل وعلا[1]. قال مالك: لا يهوى شيئاً إلا عبده[2].

ولكن المقصود أن المخالفات التي تقع من الناس، إذا كان الإنسان عالماً بها وفعلها امتثالاً للمخلوق وهو يعلم أن الله ينهى عن هذا، فمعنى ذلك

---

(١) تفسير الطبري ٢٢/ ٧٥ وفيه: فقال بعضهم: معنى ذلك: أفرأيت من اتخذ دينه بهواه، فلا يهوى شيئاً إلا ركبه لأنه لا يؤمن بالله، ولا يحرِّم ما حَرَّمَ، ولا يحلل ما حَلَّلَ، إنما دينه ما هويته نفسه يعمل به. عن قتادة: لا يهوى شيئاً إلا ركبه لا يخاف الله.

(٢) تفسير ابن كثير ٧/ ٢٦٨.

أنه اتخذ هذا المخلوق رباً فهو عنده أعظم من الله، أما إذا أهدر أمر لله جل وعلا ورماه خلف ظهره لأجل أنه يشتهي هذا الشيء ويريده، فهذا إما أن يكون إيمانه ضعيفاً وغطى عليه هواه وشهوته، ثم إذا أفاق رجع وندم وتاب، وقد لا يرجع ولا يتوب، ويتمادى فيكون عابداً لشهواته. فالإنسان قد يكون عابداً لبطنه أو فرجه، وقد يكون عابداً لزوجته، يقدم هواهم على أمر الله وهكذا، وهذا يجب على العبد أن يتأمله في نفسه وفي من حوله لعله أن يسلم فالأمر ليس سهلاً، ولهذا يقول الرسول ﷺ: «**الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل على الصفاة الصماء في ظلمة الليل**»[1]، فالشرك ليس أن يسجد الإنسان لصنم فقط، أو يتجه إليه بالدعاء والطلب والتضرع، الشرك أعم من هذا.

فالاستعاذة اتفق العلماء على أنها عبادة وهذا أمر ظاهر، فإذا كانت عبادة فمن المعلوم أنه يجب أن تكون خالصة لله جل وعلا، فإذا كان فيها شيء لغير الله وقع الشرك، والعبد قد يستكثر، وقد يقلل حسب ما يقوم في نفسه.

وإذا تأمل الإنسان كتاب الله لا يجد فيه شيئاً يدل على أنه يجوز أن يستعاذ بمخلوق، وكذلك أحاديث الرسول ﷺ بخلاف الاستغاثة فإنها سيأتي فيها التفصيل؛ لأن الاستغاثة هي الدعاء المخصوص لمن وقع في الشدة، والشدائد لا تدوم، فهي تعرض وتنتهي، وإذا عرضت فقد يكون المطلوب عنده

---

(١) الحديث بألفاظ متعددة رواه أحمد في المسند رقم ١٩٦٠٦، وابن أبي شيبة رقم ٢٩٥٤٧، والبخاري في الأدب المفرد رقم ٧١٦ عن معقل بن يسار يقول: انطلقت مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلى النبي ﷺ فقال: «**يا أبا بكر للشرك فيكم أخفى من دبيب النمل**، فقال أبو بكر: وهل الشرك إلا من جعل مع الله إلٰهاً آخر؟ قال النبي ﷺ: **والذي نفسي بيده للشرك أخفى من دبيب النمل، ألا أدلك على شيء إذا قلته ذهب عنك قليله وكثيره قال: قل: اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم**»، والحاكم في المستدرك رقم ٣١٤٨ وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ولفظه عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**الشرك أخفى من دبيب الذر على الصفا في الليلة الظلماء، وأدناه أن تحب على شيء من الجور وتبغض على شيء من العدل، وهل الدين إلا الحب والبغض، قال الله عز وجل: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾** [آل عمران: ٣١]».

أسباب تخليص هذا الذي وقع فيها الشيء الذي يخلصه، ولهذا سيأتي أن الاستغاثة بمخلوق قادر حاضر مستطيع أنها جائزة بخلاف الاستعاذة فهي عامة مطلقة، فهي من العبادات العامة.

❁ **قال المؤلف** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **وقول الله تعالى**: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾ [الجن: ٦].

قراءتان بالفتح وبالكسر في الآيات كلها في هذه السورة. وقد جاء في تفسير ذلك أنه في الجاهلية إذا أمسى أحدهم بواد قفر وخاف على نفسه قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه. ويقصد الجن وهذا معروف عنده.

قوله: «﴿رِجَالٌ﴾»: سماهم رجال، فكلاهما رجال وبعضهم يعوذ ببعض، وفيهم النساء، فالجن كالإنس. وهذا من الكلام الذي ذكره الله جل وعلا عن مؤمن الجن، والجن عقلاء مكلفون بعبادة الله جل وعلا، ويثابون على الطاعة ويعاقبون على المعصية؛ كالإنس، وقد أخبر الله جل وعلا عن ذلك في مواطن كثيرة من كتابه وأقسم بنفسه الكريمة جل وعلا أنه سوف يملأ جهنم من الجِنَّة والناس أجمعين فهم وقود جهنم؛ يعني: كفرتهم وطغاتهم وخلقوا لها، فلهم عقول وأفكار، وفيهم المؤمن والكافر، وفيهم الشياطين كالإنس، وفيهم الجهلة، وفيهم العلماء، وهم على الأرض مع الناس، غير أن الله جل وعلا أخفاهم فهم يروننا من حيث لا نراهم وهم يرسل إليهم الرسل، ولكن الرسل الذين يرسلون إليهم من الإنس؛ لأنه ليس من الجن رسل، وإنما يأتي إلى الرسل منهم من يؤمن فيذهب فينذر قومه كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ۝٢٩﴾ [الأحقاف: ٢٩].

وفي هذه الآيات ذكر الله موسى، ولم يذكر عيسى قال: ﴿قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٣٠﴾ [الأحقاف: ٣٠]، ولم يقل من بعد عيسى؛ لأن عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ جاء مكملاً لشريعة موسى، ولم يأت بشريعة مستقلة، فالأصل الشريعة التي جاء بها

موسى ﷺ، ولهذا قال: «﴿مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ﴾»، والمقصود أنه جاء، كما قال عليه الصلاة والسلام: «من الجن النُّذُر وليس فيهم الرسل»[1]، ولهذا أخبر الله جل وعلا أن الرسل رجال من الإنس، وقال أنهم من أهل القرى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٠٩﴾ [يوسف: ١٠٩]، فلم يرسل من البوادي أحداً.

والمقصود أنه لما أسلم بعض الجن الذين أتوا إلى النبي ﷺ صاروا يذكرون الأمور الشركية التي كانوا يفعلونها قبل أن يعرفوا الحق ويدخلوا فيه ويقع بينهم وبين الإنس وعابوا هذا، وقد قال جل وعلا: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ١٢٨﴾ [الأنعام: ١٢٨]، فالاستمتاع الذي وقع منهم هو هذا الذي ذكر هنا: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٞ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٖ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾، فالإنسي يعوذ بالجني، والجني قد يقضي بعض حاجات الإنسي، ولكنه يكون مكتسباً من ذلك التعظيم والعلو والتكبر، وقد يكون أخص من هذا الاستمتاع، قد يكون بالشهوات أو يأتي له بشيء من المأكولات، أو من الملبوسات، أو من غيرها، والجني لا يملك الأشياء التي يملكها الإنسان ولكنه يسرق، يذهب يسرق من الإنس ويأتي به، وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله من هذا أشياء كثيرة يقول: وأعرف من ذلك وقائع كثيرة في أقوام استغاثوا بي وبغيري في حال غيبتنا عنهم فرأوني، أو ذاك الآخر الذي استغاثوا به قد جئنا في الهواء ودفعنا عنهم ولما حدثوني بذلك بينت لهم أن ذلك إنما هو شيطان تصور بصورتي وصورة غيري من الشيوخ الذين استغاثوا بهم ليظنوا أن ذلك كرامات للشيخ فتقوى عزائمهم في الاستغاثة بالشيوخ الغائبين والميتين، وهذا من أكبر

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٤٠ قال ابن عباس: الرسل من بني آدم، ومن الجن نُذُر.

الأسباب التي بها أشرك المشركون وعبدة الأوثان[1]؛ لأن الشيطان قد يتصور للإنسان في صورة ما يتخيله ويطلبه حتى يغويه ويتمادى في الشرك ـ نسأل الله العافية ـ وهذا يقع كثيراً.

والمقصود أن هذا من الاستمتاع الذي ذكره الله جل وعلا بالآية، وقد يخبره بشيء من الغيب يطلع عليها الجن ولا يطلع عليها الإنس، وإلا فالجن لا يعلمون الغيب على الإطلاق، وإنما عندهم قدرة على أنهم يعرفون ما لا يعرفه الإنسان، فقد يحضرون الأشياء التي قد يفكروا أنهم لا يحضرهم أحد،

(١) مجموع الفتاوى ١/٣٥٩ و٣٦٠ قال ﷺ: ولا يجوز لأحد أن يستغيث بأحد من المشايخ الغائبين ولا الميتين مثل أن يقول: يا سيدي فلاناً أغثني وانصرني وادفع عني، أو أنا في حسبك ونحو ذلك، بل كل هذا من الشرك الذي حرم الله ورسوله، وتحريمه مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام. وهؤلاء المستغيثون بالغائبين والميتين عند قبورهم وغير قبورهم لما كانوا من جنس عبَّاد الأوثان صار الشيطان يضلهم ويغويهم كما يضل عبَّاد الأوثان ويغويهم، فتصور الشياطين في صورة ذلك المستغاث به وتخاطبهم بأشياء على سبيل المكاشفة كما تخاطب الشياطين الكهان وبعض ذلك صدق لكن لا بد أن يكون في ذلك ما هو كذب بل الكذب أغلب عليه من الصدق، وقد تقضي الشياطين بعض حاجاتهم وتدفع عنهم بعض ما يكرهونه فيظن أحدهم أن الشيخ هو الذي جاء من الغيب حتى فعل ذلك، أو يظن أن الله تعالى صوَّر ملكاً على صورته فعل ذلك ويقول أحدهم هذا سر الشيخ وحاله وإنما هو الشيطان تمثل على صورته ليضل المشرك به المستغيث به كما تدخل الشياطين في الأصنام وتكلم عابديها وتقضي بعض حوائجهم كما كان ذلك في أصنام مشركي العرب وهو اليوم موجود في المشركين من الترك والهند وغيرهم، وأعرف من ذلك وقائع كثيرة في أقوام استغاثوا بي وبغيري في حال غيبتنا عنهم، فرأوني أو ذاك الآخر الذي استغاثوا به قد جئنا في الهواء ودفعنا عنهم، ولما حدثوني بذلك بينت لهم أن ذلك إنما هو شيطان تصور بصورتي وصورة غيري من الشيوخ الذين استغاثوا بهم ليظنوا أن ذلك كرامات للشيخ فتقوى عزائمهم في الاستغاثة بالشيوخ الغائبين والميتين، وهذا من أكبر الأسباب التي بها أشرك المشركون وعبدة الأوثان. وكذلك المستغيثون من النصارى بشيوخهم الذين يسمونهم العلامس يرون أيضاً من يأتي على صورة ذلك الشيخ النصراني الذي استغاثوا به فيقضي بعض حوائجهم، وهؤلاء الذين يستغيثون بالأموات من الأنبياء والصالحين والشيوخ وأهل بيت النبي غاية أحدهم أن يجري له بعض هذه الأمور أو يحكي لهم بعض هذه الأمور فيظن أن ذلك كرامة وخرق عادة بسبب هذا العمل..».

وهم يشاهدونه حينما يسرق أو يفعل شيء من الأشياء، فإذا لجأ إليهم الإنسي وطلب منهم ذلك أخبروه بهذا وهم لا يخبرونه إلا بثمن، ولا يقول مثل ما يقوله بعض الجهال الذين يلبسون على الناس، وقد يكون هم مُلبس عليهم يقولون: إننا نستعين بالجن من المؤمنين، وأنهم يكونون معنا، وبعضهم يقول: أنا معي عدد كبير جداً من الجن المؤمنين إذا طلبت منهم شيئاً جاءوا به، فلا يصدق مثل هذا، وما يُدريه أنهم مؤمنين ليس له قرينة إلا أنه يقول: أنهم أخبروني أنهم مسلمين، فيُقال: إخبارهم إياك من باب الإضلال حتى تثق بهم فيضلوك.

وقد يأتي الجني إلى الإنسان بأشياء، إما لأنهم فسقة، ويطلب منه استمتاع، إما ليغويه، وإما لأنه يقدم له عبادة من العبادات، أما بدون شيء من ذلك فلا يمكن إلا أن يكون مثلاً هذا نادراً من المؤمنين الصادقين فقد يقع شيء من ذلك، ولكن المؤمن لا يفعل المحرم إلا أن يكون جاهلاً.

وقد علم أن كثيراً من الإنس يلجأون إلى الجن كثيراً، ولا يزال هذا، فهم يزعمون أن الجن عندهم مقدرة في تخليص الإنسان من الشرور والسحر ومن غير ذلك، فلهذا كثير من الناس يذبح لهم؛ يعني: لا تكفي الاستعاذة؛ لأنهم هم لا يمكن أنهم يقدموا شيئاً للإنسان إلا بشيء يُقدمه، إما أن يمتهن القرآن، أو يذبح لهم ذبيحة، أو أن يخضع لهم خضوع العبادة، وقد كان في هذه الأمة خلق كثير استحوذت عليهم الشياطين حتى الذين يعتقد الناس أنهم أولياء ذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه: الفرق بين أولياء الرحمٰن وأولياء الشيطان أشياء كثيرة من هذا أن منهم من يطير في الهواء، ومنهم من يذهب ليلة عرفة من البلاد البعيدة ويقف مع الناس ولكن بدون إحرام وبدون وضوء، يقف، ثم يرجع[1]، ومعروف أن الإنس لا يطيرون، وإنما الذين يطيرون هم

(١) مجموع الفتاوى ١/ ٨٢ و٨٣ و٨٤ قال رحمه الله: وهؤلاء المشركون قد تتمثل لهم الشياطين وقد تخاطبهم بكلام وقد تحمل أحدهم في الهواء، وقد تخبره ببعض الأمور الغائبة، وقد تأتيه بنفقة أو طعام أو كسوة أو غير ذلك كما جرى مثل ذلك لعبّاد الأصنام من العرب وغير العرب، وهذا كثير موجود في هذا الزمان وغير هذا الزمان =

الشياطين؛ لأنهم يطيرون. وكل هذا إغواء لهم وهم يزعمون أن هذه كرامات، وهي في الواقع إهانات، فهم يعوذون بالجن من شر الجن أنفسهم وقد يلجأون إليهم من شر غيرهم.

= للضالين المبتدعين المخالفين للكتاب والسُّنَّة، إما بعبادة غير الله، وإما بعبادة لم يشرعها الله. وهؤلاء إذا أظهر أحدهم شيئاً خارقاً للعادة لم يخرج عن أن يكون حالاً شيطانياً أو محالاً بهتانياً، فخواصهم تقترن بهم الشياطين كما يقع لبعض العقلاء منهم وقد يحصل ذلك لغير هؤلاء لكن لا تقترن بهم الشياطين إلا مع نوع من البدعة إما كفر وإما فسق وإما جهل بالشرع، فإن الشيطان قصده إغواء بحسب قدرته فإن قدر على أن يجعلهم كفاراً جعلهم كفاراً، وإن لم يقدر إلا على جعلهم فساقاً أو عصاة، وإن لم يقدر إلا على نقص عملهم ودينهم ببدعة يرتكبونها يخالفون بها الشريعة التي بعث الله بها رسوله فينتفع منهم بذلك، ولهذا قال الأئمة: لو رأيتم الرجل يطير في الهواء أو يمشي على الماء فلا تغتروا به حتى تنظروا وقوفه عند الأمر والنهي، ولهذا يوجد كثير من الناس يطير في الهواء وتكون الشياطين هي التي تحمله لا يكون من كرامات أولياء الله المتقين.
ومن هؤلاء من يحمله الشيطان إلى عرفات فيقف مع الناس ثم يحمله فيرده الى مدينته تلك الليلة، ويظن هذا الجاهل أن هذا من أولياء الله ولا يعرف أنه يجب عليه أن يتوب من هذا، وإن اعتقد أن هذا طاعة وقربة إليه فإنه يستتاب فإن تاب وإلا قتل، لأن الحج الذي أمر الله به ورسوله لا بد فيه من الإحرام والوقوف بعرفة ولا بد فيه من أن يطوف بعد ذلك طواف الإفاضة فإنه ركن لا يتم الحج إلا به بل عليه أن يقف بمزدلفة ويرمي الجمار ويطوف للوداع، وعليه اجتناب المحظورات والإحرام من الميقات إلى غير ذلك من واجبات الحج، وهؤلاء الضالون الذين يضلهم الشيطان يحملهم في الهواء يحمل أحدهم بثيابه فيقف بعرفة ويرجع من تلك الليلة حتى يرى في اليوم الواحد ببلده ويرى بعرفة.
ومنهم من يتصور الشيطان بصورته ويقف بعرفة فيراه من يعرفه واقفاً فيظن أنه ذلك الرجل وقف بعرفة، فإذا قال له ذلك الشيخ أنا لم أذهب العام إلى عرفة ظن أنه ملك خلق على صورة ذلك الشيخ وإنما هو شيطان تمثل على صورته ومثل هذا وأمثاله يقع كثيراً وهي أحوال شيطانية، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرف: ٣٦]، وذكر الرحمٰن هو الذكر الذي أنزله على نبيه ﷺ، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩]، وقال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ إلى قوله: ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٣ ـ ١٢٦] ونسيانها هو ترك الإيمان والعمل بها وإن حفظ حروفها قال ابن عباس: تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة وقرأ هذه الآية، فمن اتبع ما بعث الله به رسوله محمداً من الكتاب والحكمة هداه الله وأسعده، ومن أعرض عن ذلك ضل وشقي وأضله الشيطان وأشقاه.

فقوله: «﴿يَسُوذُونَ﴾»: تدخل فيه الاستعاذة من الجن ومن الإنس وكلا الأمرين واقع، وفي هذا دليل واضح أن الجن عندهم عقول وتصرفات مثل: تصرفات الإنس، ولهذا كلفوا بأمر الله، والرسل والأوامر التي جاءت من الله للجن والإنس، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، أما كون أحكام الدنيا تختلف فإنها من ناحية الأمر والنهي لا خلاف فيها، فهم مأمورون بما أمر به الإنس لا يختلفون، ولكن مثل ما قال الله جل وعلا: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧]، فهم معنا ويشاهدوننا فنسمع كلامهم؛ لأنه قد يقع هذا وهم في كل بلد وفي كل مكان يكونون مثل أصحاب تلك البلاد، وتكون لغتهم لغة تلك البلاد، وأخلاقهم نفس أخلاقهم ففيهم الرافضة، وفيهم النصيرية، وفيهم المعتزلة ومنهم غير ذلك كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾﴾ [الجن: ١١] طرائق مثل طرائق الإنس فإذا تكلموا في إنسان لابسوه نجده يختلف؛ لأنه قد يأتي من بعيد، ويتكلم بكلام بلد آخر، وهو يتكلم على لسان من يلابسونه.

أما في الآخرة فقد اختلف العلماء في ذلك منهم من يقول: أنها تنعكس القضية يصبح الإنس يشاهدونهم وهم لا يشاهدونهم، وهذا يحتاج إلى دليل.

والصواب أنهم يدخلون الجنة؛ يعني: مؤمنهم، وأما الكافر منهم فلا إشكال فيه أنه في النار، ولهذا جاء في سورة الرحمٰن التثنية للفريقين للجن والإنس: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ [الرحمٰن: ١٣]، وصح عن الرسول ﷺ في السنن عن جابر رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمٰن من أولها الى آخرها فسكتوا. فقال: «**لقد قرأتها على الجن ليلة فكانوا أحسن رداً منكم، كنت كلما أتيت على قوله: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾﴾ قالوا: لا بشيء من نعمك ربنا نكذب، فلك الحمد**»[1].

---

(١) رواه الترمذي رقم ٣٢٩١ وقال: قال أبو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم عن زهير بن محمد، قال ابن حنبل: كأن زهير بن محمد الذي =

وفي هذه التثنية دليل على أنهم يكونون مع الإنس في الجنة، ولهذا قال في الزوجات في الجنة: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٧٤] الطمث هو: إدماء المرأة البكر عند جماعها.

وأما كون الإنسان يخاف منهم فهذا لا يجوز، وهم أيضاً يخافون من الإنس، والله جل وعلا قد أمر بالاستعاذة من الجن وجعل هذا عبادة فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ [المؤمنون: ٩٧، ٩٨]، وقال جل وعلا: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٠] في آيات عدة يأمر جل وعلا بالاستعاذة به من الجن الشياطين، أما إذا ترك الإنسان ذلك فإنهم يتسلطون عليه ويشاركونه في زوجته، وفي أكله، وفي مسكنه، وفي غير ذلك، فقد قال الله جل وعلا: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾ [الإسراء: ٦٤]، فهو يشاركهم بهذه الطريقة، والاعتصام منه والاحتماء يكون بذكر الله جل وعلا، فقد جاء عن النبي ﷺ يقول: «**إذا دخل الرجل بيته فذكر الله عند دخوله وعند طعامه قال الشيطان: لا مبيت لكم ولا عشاء، وإذا دخل فلم يذكر الله عند دخوله قال الشيطان: أدركتم المبيت، وإذا لم يذكر الله عند طعامه قال: أدركتم المبيت والعشاء**»[1]، ولا يلزم أن يكون هذا هو الشيطان الذي يقارنه؛ لأن الشياطين كثيرون جداً، وإبليس يرسلهم إلى إغواء بني آدم فيدخل معه ويكون معه أصحابه أيضاً فيقول لأصحابه: «**أدركتم المبيت**»، فإذا قدم الطعام ولم يسم قال: «**أدركتم المبيت والعشاء**»، وهم

= وقع بالشام ليس هو الذي يروى عنه بالعراق كأنه رجل آخر قلبوا اسمه يعني لما يروون عنه من المناكير. وسمعت محمد بن إسماعيل البخاري يقول: أهل الشام يروون عن زهير بن محمد مناكير وأهل العراق يروون عنه أحاديث مقاربة. وأخرجه الحاكم في المستدرك رقم ٣٧٦٦ وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(١) رواه مسلم رقم ٢٠١٨ من حديث جابر ﷺ.

يأكلون، فقد جاء عن النبي ﷺ قوله: «**لا تأكلوا بالشمال فإن الشيطان يأكل بالشمال**»[1]، ولهذا شرعت لنا التسمية، وهذا من معاني قوله جل وعلا: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف: ١٨٠]، فكونك تسمي بأسماء الله الحسنى هذا من دعاء الله بأسمائه وعبادته بها، مع أنها تنفعك كثيراً فهي تطرد عدوك عنك، فيجب أن يكون العبد على حذر من هذه الأشياء، وفي الصحيح أن الرسول ﷺ قال: «**لو أن أحدهم إذا أراد أن يأتي أهله قال: بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا. فإنه إن يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضره شيطان أبداً**»[2]. والصواب أن الرجل والمرأة كلاهما يقولان ذلك عند المقارنة.

وأما إذا كثر الجهل وقلَّ الاعتصام بالله جل وعلا وكثرت المعاصي والصور التي هي محبوبة للشياطين ونصبت في البيوت وامتلأت بها، والأغاني وغيرها، كثر مس الجن واختلاطهم بالناس وأذيتهم وتسلطوا عليهم، فالمقصود أنهم مكلفون وأنهم رجال ونساء مثل الإنس.

وقوله جل وعلا: «﴿يَعُوذُونَ﴾»: الاستعاذة: هي الالتجاء والاعتصام والاحتماء كما سبق أنه يقول أحدهم: أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه.

وإذا عرفنا أن الاستعاذة عبادة لله جل وعلا أمر بها، وأنها الالتجاء والاعتصام والاحتماء بمن يدفع الشر، أو يمنعه قبل حصوله، وأن هذا لا يقدر عليه إلا الله جل وعلا، وأنها قبل ذلك هي فعل القلب؛ لأن ما يقوم بالقلب من الالتجاء والاعتصام به والانطراح بين يديه جل وعلا والافتقار والتذلل له أمر أعظم من فعل الجوارح، بل إن فعل الجوارح تبعاً لعمل القلب وأن الإنسان ضعيف لا يستطيع أن يدفع الشر حتى عن نفسه هو، إذا تبين لنا هذا فإن من التجأ واحتمى بشخص سواءً كان آدمياً، أو جنياً شيطاناً، أو شيئاً موهوماً، فقد صرف العبادة لغير الله ووقع في الشرك الأكبر الذي لا يغفر إلا بتركه والتوبة منه.

---

(١) رواه مسلم رقم ٢٠١٩ من حديث جابر ﷺ.

(٢) رواه البخاري رقم ٦٣٨٨، ومسلم رقم ١٤٣٤ من حديث ابن عباس ﷺ.

وقوله: «﴿فَزَادُوهُمْ﴾»: الضمير في قوله: «زَادُوهُمْ» ضمير فاعل وضمير مفعول، فمن الفاعل؟ هل هم الجن أو الإنس؟

المفسرون قالوا: هذا وهذا. وإن كان الظاهر أنهم الجن هم الذين يعود إليهم الضمير الفاعل.

والضمير المفعول في قوله: «هم» يعود على الإنس؛ يعني: أن الجن زادوا الإنس خوفاً وذلاً ورهبة بالشيء الذي يفعلونه معهم.

ويجوز العكس؛ يعني: أن المستعيذ زاد المستعاذ به ﴿رَهَقًا﴾؛ يعني: تمادياً في الشر وتكبراً واغتراراً بالنفس، فقال مثل ما يقول شياطينهم: سدنا الإنس والجن.

والصواب أن كلا المعنيين واقع، فهؤلاء زادوهم خوفاً وشراً وشركاً؛ يعني: تعلقاً بهم.

والإنس زادوا الجن طغياناً وتكبراً وتجاوزاً وتمادياً في الباطل، فكل واحد من الفريقين زاد الآخر شراً، ووجه ذكر الآية والاستدلال به:

أن هذا ذكر من باب الذم بذكر الشرك الذي يقع من الجن والإنس، وأن مؤمنو الجن عرفوا التوحيد فصاروا يذكرون الشرك ويعترفون بأنه شرك بالله جل وعلا وأنه كفر فتبرؤوا منه؛ يعني: أن الاستعاذة بغير الله شرك وهو أمر واضح.

۞ قال المؤلف ﷺ: وعن خولة بنت حكيم قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من نزل منزلاً، فقال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، لم يضره شيء حتى يرحل من منزله ذلك»[(١)].

خولة بنت حكيم بن أمية السلمية، يقال لها: أم شريك، ويقال لها: خويلة بالتصغير، قيل: إنها هي الواهبة التي وهبت نفسها للنبي ﷺ، وكانت قبل ذلك تحت عثمان بن مظعون فتوفي عنها ﷺ، يقول الحافظ ابن عبد البر:

---

(١) رواه مسلم رقم ٢٧٠٨.

كانت صالحة فاضلة[(١)]. وهذا هو الغالب على نساء الصحابة.

وفي هذا دليل على أن النبي ﷺ كان يخاطب النساء ويدعوهن ويعلمهن، ولهذا كن يروينا عنه الأحاديث، فهذا الحديث روته خولة قالت: سمعت رسول الله ﷺ، وقد تكون النساء مع الرجال؛ يعني: خلفهم في المسجد حينما يتكلم الرسول ﷺ، وقد يكون الكلام معهن خاصة، كما وقع عدة مرات من النبي ﷺ فكانت من سُنَّته ﷺ أن يقصد النساء بالتعليم والوعظ والإرشاد، كما جاء في الصحيح في خطبة العيد التي خطبها أنه بعد ما انتهى من كلامه مع الناس ذهب إلى النساء فقال: **«تصدقن فإني رأيتكن أكثر أهل النار»**[(٢)]، ولهذا صار فيهن عالمات مثل أم الدرداء وغيرها، فالاعتناء بالنساء أمر لازم.

قوله: «من نزل منزلاً»: كلمة نزل ومنزلاً كلاهما عام، لكن يفهم من هذا أنه في السفر، وقد يدخل فيه النزول في البلد في كل وقت، والنزول كونك تمشي فتنزل، فهو خطاب عام لكل نازل، ولكل منزل سواءً كان في البراري، أو في البيوت.

قوله: «أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق»: وهذا كلام وجيز وسهل بإمكان كل أحد أن يحفظه وأن يقوله، ولكن العياذ يجب أن يكون بصدق وإخلاص، فإذا استعاذ الإنسان بربه صادقاً مخلصاً فإنه لا بد أن يحميه ويُعيذه إلا أن يشاء الله؛ لأن هناك موانع.

والناس يتفاوتون في ذلك في الصدق والعلم والاعتقاد، صدق اللجأ،

---

(١) الاستيعاب ٢/ ٩٢.

(٢) رواه البخاري رقم ١٤٦٢ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: خرج رسول الله ﷺ في أضحى أو فطر إلى المصلى ثم انصرف فوعظ الناس وأمرهم بالصدقة فقال: **«أيها الناس تصدقوا»**، فمر على النساء فقال: **«يا معشر النساء تصدقن فإني رأيتكن أكثر أهل النار»** فقلن: وبم ذلك يا رسول الله؟ قال: **«تكثرن اللعن وتكفرن العشير ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن يا معشر النساء»**، ومسلم رقم ٧٩ من حديث ابن عمر.

وتصديق قول النبي ﷺ بلا تردد، وأنه ما يقول ذلك على سبيل التجربة؛ يعني: يجرب هل يحصل له ذلك، أو لا يحصل، فمثل هذا الغالب أنه لا يحصل له شيء، وإنما يجزم بأن هذا حق، وأنه وحي من الله جل وعلا، وأن من قال ذلك صادقاً أنه لا يضره شيء حتى يرتحل من ذلك المنزل.

قوله: «أعوذ»؛ أي: ألوذ وأحتمي وألتجأ، والله جل وعلا هو المعاذ الذي بيده ملكوت كل شيء.

قوله: «بكلمات الله التامات»: كلمات جمع كلمة، وهذا يدل على أن الله ﷻ يتكلم كلام حق خلاف لما يقوله أهل الباطل من الجهمية، والمعتزلة، والماتريدية، والأشاعرة، فالأشاعرة، ينكرون أن الله يتكلم، وهم في هذا يتفقون مع المعتزلة، فقد صرح بعض كبارهم أنهم لا خلاف بينهم وبين المعتزلة، كما قال ذلك الجويني في كتابه «الإرشاد» يقول: الخلاف مع المعتزلة خلاف لفظي في هذه المسألة. وهو كذلك؛ لأن الأشاعرة يقولون كلام الله قسمان:

كلام معنوي وهو الذي يوصف الله جل وعلا به، وهو معنى واحد قائم بذات الرب جل وعلا، وقد يصرحون بهذا ويفصلون فيقولون: هو عبارة عن المعنى الواحد؛ يعني: عبارة عن الأمر والنهي والاستفهام والإخبار، ولكنه قائم بذاته هذا هو المعنى الواحد عندهم.

القسم الثاني: الكلام اللفظي الذي يُلفظ به ويُسمع، فهو عندهم يمتنع على الله ولا يصفون الله بذلك، وهذا عين الباطل؛ لأن الكلام إذا أطلق فإنه هذا هو المراد به، وهم يستدلون بأشياء مثل قول النبي ﷺ: «**إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل، أو تتكلم**»[١]، فيقولون أنه سمي حديث النفس كلاماً، ونحن نقول: معلوم أن الرسول ﷺ قيده قال: «حديث النفس»: أما إذا قال: حديث، بلا قيد، فهذا لا يفهم منه إلا الكلام المسموع الملفوظ به.

---

(١) رواه البخاري رقم ٥٢٦٩، ومسلم رقم ١٢٧ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فالمقصود أن هذا له كتب وله فروع، وله أشياء كثيرة، ولكن نقول أن هذا الحديث يبطل زعمهم، وما أكثر الأدلة التي تبطل زعمهم، وقد كتب شيخ الإسلام كتاباً سمَّاه «التسعينية»، وهو يبطل كلام النفس من تسعين وجه.

فالمقصود أن الكلام يجب أن يكون على الظاهر، وأنه كلام حقيقي، والكلام الحقيقي يشتمل على الحروف والأصوات وينطق به، أما غير هذا فلا يسمى كلاماً إلا بالقيد مثل قوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٧] يقولون في نفوسهم هذا بقيد، ومثل قوله: «ما حدثت به أنفسها» هذا قيد، فلو قال: «عفا الله عما تحدثوا به»، فهذا لا يفهم منه إلا الكلام الظاهر الذي ينطق به، فدل على أن قولهم من الباطل، مع أن هذه المسألة كبيرة وألف فيها مؤلفات لا حصر لها، ولا تزال المسألة مشكلة عند كثير من الناس ولا يزال كثير منهم على الباطل فيها، والسبب الذي دعاهم إلى ذلك هو التشبيه؛ لأنهم قاسوا صفات الرب جل وعلا على ما يعرفونه من أنفسهم، ولو لم يتكلموا بهذا ولم ينطقوا به، ولهذا قالوا: الكلام يتطلب لساناً وشفتين ولهاة وحنجرة وحبال صوتية... إلخ.

نقول: هذا كلامهم فهم كأنهم يقولون: ما عرفنا من الكلام إلا هذا مع أن الله يقول: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢٠ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢١﴾ [فصلت: ٢٠، ٢١]، أليس هذا إنطاق، وفي الحديث عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**خلق الله جنة عدن وغرس أشجارها بيده، فقال لها: تكلمي، فقالت: قد أفلح المؤمنون**»[1]، وعن أبي هريرة ﷺ يقول: قال رسول الله ﷺ: «**اشتكت النار إلى ربها فقالت: رب أكل بعضي بعضاً، فأذنَ لها بنفسَين نفَس في الشتاء ونفس في الصيف، فأشد ما تجدون من الحر وأشد ما تجدون من الزمهرير**»[2]، وجاء في

(١) مصنف ابن أبي شيبة رقم ٣٤٠٨٧، والطبراني رقم ١١٤٣٩، والحاكم في المستدرك رقم ٣٤٨٠ وقال: حديث صحيح ولم يخرجاه وضعفه الذهبي.

(٢) رواه البخاري رقم ٥٣٦، ومسلم رقم ٦١٧.

الحديث المتفق عليه من حديث أبي هريرة ﷺ أن الرسول ﷺ قال: «**تحاجت الجنة والنار، فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين، وقالت الجنة: ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم. قال الله تبارك وتعالى للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي، وقال للنار: إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي ولكل واحدة منهما ملؤها، فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع رجله، فتقول: قط قط قط، فهنالك تمتلئ ويزوي بعضها إلى بعض، ولا يظلم الله ﷻ من خلقه أحداً، وأما الجنة فإن الله ﷻ ينشئ لها خلقاً**»[1]، والنار عندما يلقى فيها تقول: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ۝٣٠﴾ [ق: ٣٠] هذا استفهام؛ يعني: أعطوني زيدوني، وهذا هو الصحيح، وهذا كلام على ظاهره.

وكذلك قال الله جل وعلا: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ۝٤٤﴾ [الإسراء: ٤٤]، فكل شيء يسبح بحمده جل وعلا، وقال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ﴾ كلها تسجد لله جل وعلا، وقال: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾، ثم قال: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۝١٨﴾ [الحج: ١٨]؛ يعني: فما عدا الإنسان فهم الذين كثير منهم لا يسجد لله، ومثلهم الجن، وأما البقية فكلهم يسجدون لله.

وكذلك قصة منبر الرسول ﷺ، وكذلك الحجر الذي كان يسلم على النبي ﷺ، فالسجود لله والتسبيح على ظاهره.

فالمقصود أن نفيهم لكلام الله من أبطل الباطل، وهم يقولون في ظواهر النصوص: إنها لا تعطي اليقين، فاليقين إذن في آرائهم، وفي أفكارهم المنحرفة، والإنسان إذا كان معافًى من هذه الأشياء يحمد الله ﷻ؛ لأن الذي وقع في هذه الأشياء لا يستطيع أن يتخلص منها، فكلام الله على الظاهر، وأنه

---

(١) رواه البخاري رقم ٤٨٥٠، ومسلم رقم ٢٨٤٦.

يتكلم والرسول ﷺ يخاطبنا ويقول لنا: «**ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان، ولا حجاب يحجبه**»[(١)]، فإذاً كل واحد يكلم بلغته، يكلمه الله يوم القيامة باللغة التي يعرفها، وقوله: «**منكم**»؛ يعني: من المسلمين؛ لأن الكفار لا يكلمهم الله.

وكلمات الله تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: كلمات دينية أمرية قولية، مثل: الأوامر التي ينزلها على عباده مثل: القرآن، والتوراة، والإنجيل، والوحي الذي يوحيه إلى رسله يأمر به عباده وينهاهم، فالرسالة تقتضي الكلام بلا شك، فهي بكلماته التي يرسلها إلى رسله، وهذه كلها دينية فهو يدين بها خلقه؛ يعني: أمرهم بها وأمرهم أن يطيعوها ويتبعوها، وهذه الكلمات الدينية أكثر الخلق لا يمتثلها ويخالفها، معنى ذلك أنه يجاوزها، والمجاوزة معناها العصيان أن يعصي هذه الأوامر ويرتكب النواهي التي جاءت بهذه الكلمات، والذين لا يجاوزونهن هم المؤمنين المتقون فهم لا يجاوزونهن إلا عن غير قصد إما لغلبة الشهوة، أو غفلة، أو ما أشبه ذلك، أو نسيان، أو جهل، أما أن يجاوزهن وهو يعلم ويعرف، فهذا قد يقع باستحواذ الشيطان، ولكنه يرجع ويتوب إلى الله جل وعلا، وهذا هو الغالب قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [آل عمران: ١٣٥]، والأمر بيد الله جل وعلا يصرف القلوب كيف يشاء، فالملك له يتصرف فيه كيف يشاء، والعباد ملكه كل العباد ملكه يُضل من يشاء ويهدي من يشاء، ويعز من يشاء ويذل من يشاء، لا راد لما قضى.

القسم الثاني: كلمات كونية قدرية، وهي التي لا يتخلف مرادها، فهي جارية على الخلق كلهم سواءً كانوا راضين، أو ساخطين، سواءً كانوا مؤمنين أو كافرين.

قوله: «**التامات**» ينطبق على الكونية وعلى الشرعية الأمرية، تمام الكونية

---

(١) سبق تخريجه.

أنها قامت بالعدل ولا يلحقها نقص ولا عيب، وأما الشرعية فهي تامة في الأوامر والنواهي والحكمة والشفاء لمن قَبِلَها وآمن بها، ولا يلحقها نقص ولا عيب، وهكذا كل صفات الله جل وعلا. وبعض شراح الحديث قال: إن كلمات الله: هي القرآن وكونها تامة، لأنها تامة في الصدق في الأخبار، وتامة في العدل في الأحكام، وهذا الحديث يدخل فيه الكلمات الكونية التي لا يتخلف مرادها فلا بد أن تقع، والكلمات الدينية الشرعية، وهي التي وجهت إلى المخلوق، والمخلوق قد يمتثل، وقد لا يمتثل، وأكثرهم لا يمتثل، وإذا لم يمتثل فقد جاوزها، ومجاوزتها هو عصيانها أن يعصيها إذا كانت أمراً، وأن يرتكبها إذا كانت نهياً، فتجوز الاستعاذة بكلمات الله الكونية والدينية، وإن كان الظاهر أن الحديث يدل أن الاستعاذة بكلمات الله الكونية؛ لأنه جاء في حديث وصفها بقوله: «**أعوذ بكلمات الله التامة التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر**»[1]، وهذه صفة الكونية فهي التي لا يعصيها بر ولا فاجر بل هي جارية على وفق تكوين الله جل وعلا، وإرادته ومشيئته، وعلى كل حال سواءً كانت الكونية، أو الشرعية، فإنها من صفات الله، والاستعاذة بها عبادة.

وفي هذا دليل على أن كلام الله صفة له، لأنه ثبت أنه لا تجوز الاستعاذة بغير الله، لا يجوز الاستعاذة بمخلوق وأنها شرك، وبهذا استدل العلماء من أهل السُّنَّة على الجهمية في قولهم أن القرآن مخلوق لأنه من المعلوم أن الاستعاذة بمخلوق شرك والرسول ﷺ حث على الاستعاذة بكلمات الله، فدل على أنها من صفاته، فالاستعاذة بها تكون استعاذة بصفة من صفاته جل وعلا، وليس معنى هذا أن الصفة تُدعى، ولكن المستعاذ به هو الله جل وعلا بذكر وصفه الذي يُمدح به ويُثنى عليه به تعالى وتقدس، أما دعوة الصفة كأن يقول: يا رحمة الله،

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم ١٥٤٦١ مسند أحمد: «أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر، من شر ما خلق وذرأ وبرأ، ومن شر ما ينزل من السماء، ومن شر ما يعرج فيها، ومن شر ما ذرأ في الأرض، ومن شر ما يخرج منها، ومن شر فتن الليل والنهار، ومن شر كل طارق إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمٰن»، والنسائي في الكبرى رقم ١٠٧٩٢.

يا عزة الله، فهذا لا يجوز، الرحمة لا تُدعى، وإنما يدعى من اتصف بها ويتوسل إليه بالرحمة وهو معنى قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، فكلام الله يجوز أن يستعاذ به، ويجوز أن يعالج به من الجهل، وهذا واضح مثل: الشبهات التي تعرض للإنسان ويعالج به من المرض الذي يعرض للبدن قال سبحانه: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: ٨٢]، فقوله: ﴿شِفَآءٌ﴾ نكرة يعم جميع الاستشفاءات، ولكن معلوم أن الشفاء من الشبهات هو أعظم شيء.

وقوله: «من شر ما خلق»؛ يعني: الاستعاذة تكون من كل شيء فيه شر؛ لأن بعض المخلوقات ليس فيها شر مثل الملائكة والرسل والجنة.

وقوله: «لم يضره شيء»: إذا استعاذ الإنسان فإنه لا يناله أذى في بدنه حسب مفهوم هذا الحديث فهو يعم الأشياء التي تكون مثل الهوام والدواب والجن والإنس والشيء الذي قد يحدث في نفسه؛ يعني: الوساوس وما أشبه ذلك، ولكن هذا الجزاء الذي رتب على الاستعاذة ليس لكل أحد وإنما هو للمؤمن الصادق الذي يؤمن بكلام الرسول ﷺ ويصدقه، لا يقول ذلك من باب التجربة والاختبار، فإذا جرى ذلك قال: إن هذا حق لأننا جربناه ووجدناه كذا وكذا، وكلام الله وكلام الرسول ﷺ كله حق، وكله يجب أن يمتثل ويصدق مضمونه، ويعمل بمقتضاه فقوله: **«لم يضره شيء»** هذا نكرة، وإن كانت الأشياء يجب أن تكون محددة حسب مقتضى الخطاب والوضع والحالة فيجب أن ننظر إلى هذه الأشياء فقد يأتي الإطلاق ولا يقصد به العموم الإطلاقي مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾﴾ [الفلق: ١، ٢]، ﴿مَا﴾ هذه موصولة والموصول يدل على العموم فيكون المعنى: «من شر الذي خلقه»، فهل هذا الإطلاق إطلاق عمومي مطلق، أو أنه إطلاق وصفي؟ الفرق بين العمومي والوصفي أن الوصفي يقيد بالصفة؛ يعني: المخلوق الذي فيه شر؛ لأنه يوجد من المخلوقات من ليس فيه شر، مثل: الجنة والملائكة والرسل كما تقدم، فهذه لا يستعاذ منها، وأما قول مريم عليها السلام لما جاءها جبريل عليه السلام: ﴿قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾﴾ [مريم: ١٨]، فهي

ظننت أنه بشر فلا يقول الإنسان أعوذ بالله من الجنة؛ لأن الجنة كلها خير، فمثلاً الاستعاذة في مثل قوله: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾، وقوله في الحديث: «لم يضره شيء» هذا حسب ما يقتضيه الخطاب ويعضده مفهوم السياق والقرائن؛ لأنه يأتي الإطلاق ولا يقصد مثل قوله: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٥]، وهذا في الريح التي أرسلها الله على عاد، وقد قال جل وعلا: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٥]، فمساكنهم شيء ولم تدمر، وقال جل وعلا في المرأة التي ملكت سبأ: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ۝٢٣﴾ [النمل: ٢٣] أوتيت من كل شيء يصلح للملك، وإلا فهي لم تؤت ملك سليمان عليه السلام، ولا غيره.

فهذا يدلنا على أنه يجب علينا أن نحدد المفهوم حسب السياق والقرائن، وهذه القاعدة يجب أن يتنبه لها دائماً حتى في صفات الله جل وعلا في القواعد التي يقعِّدها أهل السُّنَّة مثل قولهم: إن صفات الله يجب أن تفهم على ظاهر الخطاب إذا كان المفهوم صحيحاً ولا يجوز تأويلها، فإن التأويل من التحريف مثل قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٢١٠﴾ [البقرة: ٢١٠]، وقوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝٢٢﴾ [الفجر: ٢٢]، نقول: هذا يجب أن يفهم على ظاهره بأنه مجيء حقيقي، ولكن هذا يوم القيامة، وقول الرسول ﷺ: «**ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له**»(١)، فهذا يجب أيضاً أن يفهم على ظاهره ولا يجوز تأويله، وهكذا كل ما جاء المجيء مضافاً إلى الله جل وعلا على أنه فعله أو الإتيان، ولكن مثل قوله تعالى: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [الحشر: ٢]، هؤلاء هم بنو النضير الذين كانوا في المدينة، فهذا الإتيان لا يمكن أن نقول أنه مثل قوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢]، وقوله:

(١) رواه البخاري رقم ١١٤٥، ومسلم رقم ٧٥٨ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠]، وإذا قلنا في قوله تعالى: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾ أنه جاءت جنده وعذابه ليس هذا تأويلاً؛ لأن هذا هو الذي دل عليه السياق والقرائن أنه هو مراد المتكلم، وإذا عرفنا مراد المتكلم فهو الظاهر الذي يجب أن نقول به، وكذلك قوله جل وعلا: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [النحل: ٢٦]، فالمقصود أن القاعدة إذا قلنا قولاً لا يجوز أن يطرد في كل مورد من موارد النص حتى يتبين لنا مراد المتكلم، ومعرفة مراد المتكلم يتبين بالقرائن والحال التي جاء الأمر فيها والبيان الذي يقارن ذلك، فإذا تبين مراد المتكلم لنا فهو الظاهر، ومثله كذلك قوله ﷺ في التائب: «**إذا تقرب العبد إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً، وإذا تقرب إلي ذراعاً تقربت منه باعاً، وإذا أتاني بمشي أتيته هرولة**»[(١)].

فهل يقول في مثل هذه المسألة: أننا نصف الله بقطع المسافات من الشبر والذراع والباع، ونحو ذلك والمشي والهرولة، فأما التائب فهو بالاتفاق أنه لا يتقرب بالشبر ولا بالذراع ولا بالمشي ولا بالهرولة إنما بالطاعة، فهو يتقرب إلى الله بالطاعة فإذا كان هذا بالاتفاق من جانب العبد فالثاني يكون من جنسه هذا كما هو الظاهر، فالرسول ﷺ لا يأتي بالأشياء المتضادة والمتخالفة، والقواعد التي قعدها أهل العلم لا يمكن أن تخالف الظاهر، والنصوص نفسها قواعد يجب أن يرجع إليها.

ووجه الاستدلال أن كلام الله صفة من صفاته فيستعاذ بها، فالاستعاذة تكون بالله، أو صفة من صفاته، والآية والحديث يدلان على أن الاستعاذة يجب أن تكون مقصورة على الله جل وعلا من عباده، فإذا استعاذوا وجب أن يستعيذوا بالله جل وعلا ولا تجوز الاستعاذة بمخلوق، فمن استعاذ بمخلوق فقد وقع في الشرك، والاستعاذة تكون من الشر وتكون من أسبابه، والشر كله في المخلوقات لذلك قال: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾﴾، وما هنا موصولة؛ يعني:

---

(١) رواه البخاري رقم ٧٤٠٥، ومسلم رقم ٢٦٧٥ من حديث أنس ﷺ.

من شر الذي خلقه الله وفيه شر؛ لأنه ليس كل ما خلق الله فيه شر، فالمقصود أن الشر يكون في المخلوق، وليس في فعل الله وخلقه وفي صفته فالله جل وعلا لا ينسب إليه الشر، ولهذا جاء إضافة الشر في القرآن إذا ذكر الشر يكون **على ثلاثة أوجه:**

الأول: إما أن يحذف فاعله كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠﴾ [الجن: ١٠] فحذفوا الفاعل ﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ﴾، وهكذا في قوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾، فجعل الشر في المخلوق.

الثاني: أن يكون الشر مضافاً إلى المخلوق كما في هذه الآية: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾.

الثالث: أن يدخل في العموم: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ وَكِيلٞ ۝٦٢﴾ [الزمر: ٦٢].

فهذه الأوجه التي جاء فيها ذكر الشر، وقد كان الرسول ﷺ يقول في تهجده وثناءه على ربه: «**والشر ليس إليك**»[1]، فالشر ليس إلى الله جل وعلا لا وصفاً ولا فعلاً، فمعنى ذلك: أن الشر في المفعولات والاستعاذة ممن يملك ذلك والذي يملكه هو رب العباد الذي بيده ملكوت كل شيء وكل مخلوق ناصيته بيد الله جل وعلا يتصرف فيه كيف يشاء، لهذا وجب أن تكون الاستعاذة بالله جل وعلا فلا يستعاذ بغيره، ويكون ذلك من التوحيد وضده من الشرك.

وقوله: «حتى يرتحل من منزله ذلك»: فهو غياب هذا الجزاء الذي ذكره بالارتحال من ذلك المنزل الذي نزله.

۞ قال المؤلف رحمه الله: فيه مسائل:

۞ الأولى: أن كون الشيء يحصل به منفعة دنيوية، من كف شرٍّ، أو جلب نفع لا يدل على أنه ليس من الشرك.

---

(١) رواه مسلم رقم ٧٧١.

هذا أخذه من الآية بأنهم قالوا: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾ [الجن: ٦]؛ يعني: أن هذا أمر كان أهل الجاهلية يفعلونه ويحصل لهم بذلك بعض المنفعة مثل: دفع أذية بعض الجن الذين يتسلطون عليهم، وكونه يحصل به شيء من النفع لا يدل على أنه جائز وهذا شيء معلوم، فمثلاً: شرب الخمر يكون فيه شيء من النفع لكن نفعه لا يكون وسيلة لجوازه، أو مبرراً له، وكذلك الزنا والسرقة وما أشبه ذلك، فليست المنفعة هي الفيصل في هذا، وإنما الشرع هو المعتمد في هذا.

وإذا نهى الله عن شيء فلا نفع فيه ولا خير حتى في الأمور التي يتداوى بها، وإن زعم الناس أنهم ينتفعون بها فهذه أوهام، وقد يكون ذلك ابتلاء واختبار، أو يكون موافقة للقدر، قدر الله ذلك وهذا الذي لجئ إليه ليس له أي أثر بل بالعكس؛ لأن من تعلق بغير الله فإنه يوكل إليه، ومن وكِّل إلى مخلوق فقد وكل إلى ضعة وإلى ضعف.

وقد استدل القبوريون والخرافيون على صحة صنيعهم بمثل هذه الأشياء قالوا: إننا مثلاً: إذا دعونا عند القبر يحصل لنا ما أردنا، والواقع أن هذا ليس صحيحاً ولكن قد يحصل بالمائة مرة موافقة للقدر فحصل لهم هذا المراد فيضيفون هذا لكل من يعمل هذا أنه يحصل له مثل هذا؛ يعني: يشرك ويدعو، والعجيب أنهم إذا جاءوا إلى قبور سادتهم الذين يعبدونهم، ثم ما حصل مرادهم قالوا: لُجوؤنا إليهم ليس صادقاً، أو أن السيد غضبان علينا؛ لأننا ما قدمنا حقه كاملاً، وصاروا يعيدون الأمور إلى أنفسهم - نسأل الله العافية -.





الباب الرابع عشر

قال المؤلف رحمه الله: باب من الشرك أن يستغيث بغير الله، أو يدعو غيره.

هذا من عطف العام على الخاص؛ لأن الاستغاثة دعاء ولكنه دعاء في حالة خاصة؛ يعني: في حالة الكرب ووقوع الشدائد، وهذا أخص من الدعاء عامة، فالاستغاثة هي طلب الغوث وتكون لمن وقع في شدة وكرب كقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص: ١٥]، ومعلوم أن الاستغاثة تدل على صدق اللجأ والإخلاص غالباً، وانكسار القلب وافتقاره، ولهذا غالباً أن الله يستجيب للمستغيث؛ لأن هذا من مقتضيات الربوبية، فمن مقتضى كونه رب العباد أن يستجيب لهم.

والاستغاثة يجب أن تكون بالله جل وعلا؛ كالدعاء يجب أن يكون لله جل وعلا؛ لأنها نوع منه بل هي أخص، والمؤلف رحمه الله يقصد بهذه الترجمة الرد على الذين يعبدون غير الله من المقبورين؛ كالأنبياء والأولياء وغيرهم، فكثير من الناس يعبدون أشخاص معينين، فمثلاً: الرافضة يعبدون علي رضي الله عنه ويستغيثون به، ويعبدون الحسين ويستغيثون به، ويوجدون لهم حكايات وأكاذيب كثيرة جداً يلفقونها على عوامهم فيضلونهم في هذا، فتجده إذا وقع في أمر من الأمور اتجه إلى علي، أو الحسين يستغيث به ويدعوه.

وكذلك القبوريون إذا وقع أحدهم في كرب من كروبات الدنيا استغاث بمن يعبده دون الله تعالى فكيف في حالة الرخاء فهم يدعونهم دائماً، وكذلك إذا أعوز أحدهم أو لم يأته ولد أو مرض هرع إلى القبر يستغيث به ويدعوه، فإن قُدر وحصل شيء مما يطلبه ويقصده موافقاً للقدر الذي قدره الله نسب هذا إلى الميت إلى الولي الفلاني، وإذا لم يحصل له شيء اعتذر عن الميت قال يمكن أنه غائب، ذهب يدير الأمور في بلد آخر، أو أنه غضبان علينا، أو لم نوفه من

النذور التي نذرنا، وغير ذلك مما يعتذرون به، وهذا كثير فهم يلجأون للقبور عند الشدائد، أما في غير الشدائد فهم يدعون أصحاب القبور دائماً، فتجد أحدهم ذِكر معبوده على لسانه دائماً إن قام وإن جلس يلهج به يستغيث به ويدعوه.

فالاستغاثة كانت للمشركين بالله جل وعلا، وما كانوا يستغيثون بالمعبودات؛ لأنهم أصح عقولاً من هؤلاء، يعلمون أن الشدائد لا يكشفها إلا رب العالمين جل وعلا، ولهذا إذا ركبوا الفلك؛ يعني: السفينة في البحر وهب بهم الريح التي يخشون أنها تُغرقهم أخلصوا الدعاء لله، وإذا كان معهم أصنام رموها في البحر وقالوا: هذه لا تنفع في هذه الحالة فهم يخلصون لله في الشدائد وإذا نجوا عادوا إلى شركهم؛ لأنهم يقلدون آباءهم وأسلافهم وما عليه عظماءهم.

❁ **قال المؤلف** رحمه الله: **وقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ ۝١٠٦﴾** [يونس: ١٠٦].

الخطاب موجه إلى النبي ﷺ، ومعلوم أن النبي ﷺ ما كان يدعو شيئاً من ذلك، حتى في الجاهلية كان يكره ما كان عليه قومه، ولكن هذا يدلنا على أن خير الناس وأقرب الناس إلى الله جل وعلا لو أشرك بالله لحبط عمله ولا ينفعه شيء، ولهذا قال جل وعلا في آية أخرى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ۝٦٤ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝٦٥﴾ [الزمر: ٦٤، ٦٥] هذا خطاب لرسول الله ﷺ، وكذلك لما ذكر الأنبياء الذين هم من أصفياء الخلق، قال بعد ذكر قصتهم: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٨٨﴾ [الأنعام: ٨٨]؛ يعني: لو أشركوا بالله، ليس بين الله وبين خلقه صلة إلا الطاعة فقط، من أطاع الله فهو المقرب إليه جل وعلا، قال جل وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۝١٣﴾ [الحجرات: ١٣]، فلو كان ابن نبي، أو أنه له صلة ونسب في ولي، أو ما أشبه ذلك هذا لا ينفع، ولهذا قال الله ﷻ: ﴿ضَرَبَ

ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [التحريم: ١٠]، فلم ينفعهما كونهما امرأتي نبيين كريمين صارتا في النار، وأما قوله: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ الخيانة ليست خيانة الفراش والعرض، وإنما هي خيانة الدين وكونهما لم يستجيبان لهما.

ثم ضرب المثل الثاني: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾ [التحريم: ١١]، فهي زوجته وتحته في فراشه مع ذلك لم يضرها؛ لأنها آمنة بالله جل وعلا واتجهت بعبادتها لله جل وعلا، وكذلك إذا كان ابن نوح عليه السلام ما أغنى عنه شيئاً لما كفر، فالمقصود أن الإنسان إذا أشرك فهو حابط عمله مهما كان، وهذا هو السبب في توجيه الأمر إلى النبي ﷺ حتى يعتبر الإنسان فما دام أن الخطاب هذا يوجه للنبي ﷺ، ومعلوم أن الأمة كلها تبعاً له فكيف بمن هو دونه في الدرجات.

وقوله: «﴿وَلَا تَدْعُ﴾»: الدعاء ينقسم إلى قسمين: **أحدهما**: دعاء مسألة. **والثاني**: دعاء عبادة.

وكلاهما جاء في القرآن الكريم كما جاء في بعض هذه الآيات، ودعاء المسألة أن تذكر شيئاً تُعينه تسأله الله جل وعلا تقول: اللهم إني أسألك الجنة، اللهم إني أسألك رزقاً حلالاً وعلماً نافعاً وقلباً خاشعاً، وهكذا سواءً من أمور الدنيا أو من أمور الآخرة، فهذا السؤال عبادة يجب أن تتوجه بها إلى الله وحده، وأن تخلصها لله جل وعلا، فإذا فعلت ذلك فأنت عبد الله تدعو ربك بمقتضى ربوبيته لك وإنعامه عليك أن يعطيك ما تطلبه.

أما دعاء العبادة فهو أعم من ذلك، فهو يدخل فيه دعاء المسألة وغيره، فكل عبادة تتعبد بها ترجو ثوابها من الله، ولو تركتها تخاف عقاب الله، فهي دعاء سواءً كانت صلاة، أو قراءة، أو تسبيحاً، أو صدقة أو غير ذلك، فكله يكون دعاء عبادة فهو عام مطلق، وذلك مثل الذي يتصدق بالمال وهو يأمل أن الله يثيبه على هذه الصدقة، فهو يدفع ذلك رجاء الثواب، والفوز بعطاء الله

وإحسانه، وهكذا كل فعل يفعله ويتعبد به فهو من دعاء العبادة، وكلهما من أفضل العبادة كما جاء في الحديث الذي في الترمذي وغيره: «**الدعاء هو العبادة**»[(١)]، وفيه: «**من لا يدعو الله يغضب عليه**»[(٢)]، فالله جل وعلا يغضب إذا لم يُعبد، وجاء كذلك: «**أن الدعاء عماد الدين وسلاح المؤمن**»[(٣)]، وبه رضا ربه جل وعلا. فقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ﴾ يعني: لا دعاء عبادة ولا دعاء مسألة؛ لأن الدعاء في كتاب الله يُطلق على مجموع النوعين، وقد يأتي ويُقصد به أحدهما، قال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: ٦٠]، يجوز أن يكون من دعاء المسألة ويجوز أن يكون من دعاء العبادة.

ولهذا قال بعض المفسرين: «**أستجب لكم**» قال: أثبكم، وبعضهم قال: أعطكم، فمن قال: أثبكم، فهو يقصد بذلك أنه دعاء عبادة، وأما من قال: أعطكم فهو يقصد أنه مسألة، ودعاء المسألة عبادة كما في الآية التي سيذكرها في قصة إبراهيم وغيرها، فهي صريحة في أن دعاء المسألة الذي هو طلب الرزق يجب أن يكون لله وحده جل وعلا، فيجب أن تخلص لله ولا يجوز أن تكون لغيره ﷻ، والذين يعبدون القبور يخرجون دعاء المسألة من كونه عبادة

---

(١) رواه أحمد في المسند رقم ١٨٣٥٢ عن النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الدعاء هو العبادة ثم قرأ: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾**»، والترمذي رقم ٣٢٤٧، وقال: حديث حسن صحيح، وأبو داود رقم ١٤٧٩، وابن ماجه رقم ٣٨٢٨، والحاكم في المستدرك رقم ١٨٠٢ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد.

(٢) الحاكم في المستدرك رقم ١٨٠٦ وهو عند أحمد في المسند رقم ٩٧٠١، والترمذي رقم ٣٣٧٣، والبخاري في الأدب المفرد رقم ٦٥٨ ولفظه: «**إنه من لم يسأل الله يغضب عليه**» وقال الترمذي: قال: وروى وكيع وغير واحد عن أبي المليح هذا الحديث ولا نعرفه إلا من هذا الوجه، وأبو المليح اسمه صبيح سمعت محمداً يقوله وقال: يقال له: الفارسي حدثنا إسحاق بن منصور حدثنا أبو عاصم عن حميد بن أبي المليح عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ نحوه.

(٣) المستدرك رقم ١٨١٢ عن علي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الدعاء سلاح المؤمن وعماد الدين ونور السماوات والأرض**»، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح فإن محمد بن الحسن هو التَّلُّ أو هو صدوق في الكوفيين.

وأنه ليس شركاً، والواقع أن هذا جهل فظيع فهم يريدون أن يحتجوا على شركهم ولو بالمغالطات كما هي طريقتهم.

وقوله: «﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾»؛ يعني: غيره، أن تدعى غيره معه من المخلوقات مثل: الملائكة والرسل والجن والإنس، أو الأولياء وغيرهم، فكلمة «**من دون الله**» تدل على العموم المطلق على أن الدعوة إذا كانت لغير الله فهي باطلة والنهي موجه إلى من صدر منه ذلك، فتبين أن الدعاء يجب أن يكون لله وحده ولا يجوز أن يُدعى معه غيره، ولا فرق بين كونه دعاء مسألة أو دعاء عبادة، غير أن المسألة إذا كانت لحي حاضر سامع قادر على ذلك فهذا لا بأس به بشروطه، وإلا مسألة المخلوق محرمة، والسبب في هذا أن المسؤول قد يتعلق به القلب ويلتفت إليه إذا أعطى ومنَّ وتفضل، والله صان قلب عبده المؤمن أن يستعبده غيره من المخلوقات فيجب أن يكون عبداً لله عبودية كاملة مطلقة ولا يتنازعه شيء من المخلوقات يكون عبداً لله في أمور وعبداً لغيره في أمور وهذا هو الشرك.

وقوله: «﴿مَا لَا يَنفَعُكَ﴾»: لا يقصد بذلك مفهوم ذلك أن هناك ما ينفع ويضر من غير الله جل وعلا، فالمقصود لا تدعوا شيئاً غير الله فإنه لا ينفع ولا يضر، وهذه صفة المخلوق، فكل مخلوق هذه صفته لا ينفع ولا يضر إلا بإذن الله، إذا أراد الله شيئاً فلا بد منه، أما هو بذاته لا ينفع ولا يضر، وهذا يدلنا على أن المعبود يجب أن يكون مالكاً لما يُدعى إليه، مالكاً للنفع والضر، وأما إذا كان غير مالك فدعوته ضائعة وضلال وكفر بالله جل وعلا، والمعنى أن النفع والضر بيد الله جل وعلا فلا يجوز أن توجه الدعوة لغيره ولهذا قال:

وقوله: ﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾؛ يعني: دعوة غير الله ﴿فَإِنَّكَ إِذًا﴾ في هذه الحالة ﴿مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ من المشركين؛ لأن الشرك أظلم الظلم وأعظمه وأقبحه ولهذا قال: ﴿مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فأل تدل على الظلم المطلق، والظلم المطلق هو الذي ليس فيه عدل أصلاً بل هو جور، والظلم هو وضع الشيء في غير موضعه، وهذا هو تفسير الظلم الصحيح الشرعي واللغوي، وأما تفسير الظلم بأنه

التصرف في ملك الغير بغير حق، أو بغير إذنه، فهذا تفسير غير صحيح لما يترتب عليه من لوازم، ولهذا لما فسره الأشاعرة بذلك جاؤوا بلوازم باطلة جداً، قالوا مقتضى ذلك أن الله جل وعلا كل شيء ملك له، ولو تصرف في أي شيء لا يكون ظلماً بمعنى أنه لو عذب من أفنى عمره في طاعته واتباع رسوله ﷺ وجعله في النار خالداً فيها أن هذا ليس ظلم عندهم، وقالوا على هذا: الظلم ممتنع على الله.

فقوله: «﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾»: الخطاب عام لكل أحد، وهذا الظلم من أعظم الظلم وأقبحه وضع العبادة في غير موضعها؛ يعني: وضع العبادة لغير الله هو أقبح الظلم، ولهذا لا يُغفر لصاحبه إذا مات عليه ويكون خالداً في النار: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء: ٤٨]، فعلق ما دون الشرك بمشيئته إذا شاء أن يغفره غفره، وإذا شاء أن يأخذ به أخذ به؛ لأن الملك له والعباد عباده، أما الشرك فقطع الأمر فيه قطعاً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾، ويقول الله جل وعلا في نهي النصارى عن غلوهم الذين قالوا: المسيح ابن الله، وقالوا أن المسيح هو الله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة: ٧٢]، فالمشرك الجنة عليه محرمة، وفي الآية الآخرى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الأعراف: ٤٠]؛ يعني: أمر مستحيل فلا يمكن أن يدخل الجمل في ثقب الإبرة.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ [يونس: ١٠٧] يبين الله جل وعلا في هذه الآية أنه هو المتصرف في خلقه، فمن أراد أن ينفعه فلا أحد يملك منع نفعه ومن أراد ضره فلا أحد يكشف ضره، وهذا بيان واضح لقوله تعالى: ﴿مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ﴾، فليس هناك

شيء يكشفه ويزيله لا من المخلوقين العاقلين من الأولياء، أو الأنبياء، أو الملائكة أو غيرهم، فقد أخبر جل وعلا في آيات أخرى أن المعبودات من دون الله لا تستطيع كشف الضر ولا تحويله بأن تخففه إذا كان كبيراً، أو تصرفه من مكانه إلى آخر، أو من شخص إلى غيره، أو غير ذلك من المنافع فإنها لا تملك شيئاً.

وقوله: «﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾»؛ يعني: لا أحد يستطيع أن يرد فضل الله إذا أراد بعبده شيئاً من الخير، ولهذا ثبت عن النبي ﷺ كما في الترمذي وغيره من حديث ابن عباس أنه قال: «**واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف**»[1]، فالأمر كله بيد الله جل وعلا، وهذا أمر واضح ولكن العادات التي يتعارف عليها الناس ويعيشون عليها، وكذلك تعظيم الأسلاف وتعظيم الكُبراء قد يُغطي على عقل العبد وفكره، والأمور الدنيوية من مناصب أو أموال، أو مصالح دنيوية تمنعه أن ينظر في الحق ويرضى بما هو عليه، وإن كان المتاع قليلاً، ثم المصير إلى جهنم ـ نسأل الله العافية ـ.

ففي هذه الآية بيان واضح بأن الدعاء عبادة، وأن الله هو المتصرف في خلقه وعبيده، وأن هذا من خصائص الله جل وعلا، فإذا كان الأمر كذلك فيجب أن تتجه الدعوة إليه جل وعلا، ولا يجوز أن يُدعى معه غيره فإن فعل الإنسان ودعا معه غيره، فقد وقع في الشرك، فإن جعل شيئاً من هذه العبادة لمخلوق ظلم، والظلم هو ظلم الشرك الذي هو وضع العبادة في مخلوق مثله، فهذا من الضلال البين، والظلم الواضح؛ لأن المخلوقين كلهم فقراء لله جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: ١٥]، وكلهم وجِدوا من العدم: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن

---

(١) أحمد في المسند رقم ٢٦٦٩ رواه الترمذي رقم ٢٥١٦ عن ابن عباس قال: كنت خلفت رسول الله ﷺ يوماً فقال: **يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله...**» الحديث.

شَيْئًا مَّذْكُورًا ۝ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝﴾ [الإنسان: ١، ٢]، وهم ليس في أيديهم مما بيد الله شيء، فالملك كله والأمر كله له والمشيئة مشيئته، والتدبير تدبيره، وهو على كل شيء قدير جل وعلا.

❁ قال المؤلف رحمه الله: وقول الله تعالى: ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

ذكر الله جل وعلا هذه الآية بعد ما بيَّن أن دعوة غيره لا تنفع ولا تضر؛ لأنها إما دعوة جمادات، أو دعوة أموات، أو دعوة عبيد فقراء لا يملكون لأنفسهم النفع فضلاً عن غيرهم، فقال جل وعلا: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝﴾ [العنكبوت: ١٧]، فابتغاء الرزق عند الله من العبادة وابتغاؤه وسؤاله إياه وطلبه منه جل وعلا، وهذا صريح واضح في أنه دعاء مسألة.

وتبين بهذه الآية أن دعاء المسألة عبادة يجب أن يخلص لله جل وعلا ولا يجوز أن يشرك الله جل وعلا في ذلك غيره من المخلوقات، ولهذا عطف العبادة على الرزق فعطف العبادة ﴿وَٱعْبُدُوهُ﴾ من عطف العام على الخاص كما في الترجمة؛ لأن ما في الترجمة أو يدعو غيره، ففي هذه الآية الأمر بطلب الرزق، وأن طلب الرزق له أسباب ظاهرة ولا يجوز أن يضيفه العبد إلى تلك الأسباب بل يجب أن يضيف ذلك إلى مسبب الأسباب، وأن يكون قلبه خالصاً لله جل وعلا في عبادته، فهو جل وعلا إذا شاء لم تُؤثر الأسباب، وإن كانت أسباباً ظاهرة، ومعلوم أن الأمور كلها لها أسباب رتبت عليها، فالله جل وعلا جعل ذلك، وهذه الأمور قد تحول بين الإنسان وبين فكره ونظره الذي يجب أن يكون الأمر لله جل وعلا، فتجده مثلاً قد يعتمد على صنعته، أو على وظيفته، أو على شيء من الأمور الظاهرة في ذلك، ولا يلتفت بقلبه إلى الله جل وعلا، فأراد المؤلف رحمه الله أن يبين أن هذا خطأ، وأن الواجب أن الإنسان يكون دائماً تعلقه بربه جل وعلا، وينظر إلى الأسباب على أنها أسباب وأن الله هو الذي نصَّبها أسباباً، وأن فعل الأسباب مأمور به شرعاً،

ولكن لا يجوز أن يُعتمد عليها، فالاعتماد على السبب شرك وتعطيل السبب قدح في الشرع وفي العقل أيضاً، فلا بد من فعل السبب ولكن السبب الذي شرعه الله، وليس كل سبب يكون جائزاً شرعاً، والأسباب المشروعة يفعلها معتمداً على الله، وأن الله هو الذي جعلها أسباباً ولو شاء لعطلها، فيكون قصده من الله ولهذا يقول: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾؛ يعني: اطلبوا الرزق من عند الله، فإذاً ابتغاء الرزق من الله عبادة يجب أن تكون خالصة لله جل وعلا، ولا يُطلب من وجهة أخرى، من أسباب أخرى، بل من الله جل وعلا، فهو الذي ييسر للإنسان السبب ويهيئه له ويجعله مقتضياً للمسبب، وإن شاء عطله، وتقديم الظرف ليدل على الحصر؛ يعني: ابتغوا الرزق من الله لا من غيره.

قوله: «﴿وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓ﴾»؛ لأنه هو الذي جل وعلا خلقكم وأوجدكم وهيأ لكم الأسباب، جعل لكم قوى وجعل لكم أفكاراً، وعقولاً، فاشكروه على ذلك، والشكر هو الثناء باللسان وكذلك العمل بالجوارح بالطاعة، والقلب متحلياً بذلك ولا بد، وختم الآية بقوله: ﴿إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾؛ يعني: مصيركم إلينا، وأنكم سوف تحاسبون على أعمالكم، فإن كان العبد مخلصاً وصادقاً فسوف يلقى الجزاء الأوفى، ويُزاد من فضل الله جل وعلا ما لا حد له، وإن كان على خلاف ذلك فلن يُعجز الله وسوف يُعاقبه الله جل وعلا ويكون من المعذبين ـ نسأل الله العافية ـ، فالله بحلمه وإحاطته وقدرته لا يُعاجل الظالم؛ لأن مرجعه إليه، ولن يجد محيداً عن المصير إلى ربه جل وعلا، وعند ذلك يُجازيه أفقر ما كان.

✿ **قال المؤلف** رحمه الله: **وقول الله تعالى:** ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾ [الأحقاف: ٥، ٦].

قوله: «﴿وَمَنۡ أَضَلُّ﴾»: استفهام استنكاري أن يكون هناك أحد أضل ممن هذه صفته، فهذا قد بلغ في الضلال غايته ونهايته، فليس وراء هذا الضلال ضلال أعظم منه.

قوله: «﴿مِمَّن يَدْعُوا۟﴾»: يدعو مثل ما سبق في آية سورة يونس؛ يعني: سواءً كان دعاء عبادة أو دعاء مسألة فكلاهما داخل في هذا.

وقوله: «﴿مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ﴾»: الاستجابة هي أن ينيله مقصوده.

قوله: «﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾»: هذه نزلت فيمن يدعو ميتاً، أو غائباً، أو شجرة، أو حجراً، أو ملكاً، أو غير ذلك من المخلوقات، ولو كان مخلوقاً حياً حاضراً ولكنه يُسأل ما لا يقدر عليه، ولا يستطيعه فلا يستجيب له، إذا بُعثوا يوم القيامة جميعاً، يُسأل الداعي والمدعو، فإن كان المدعو راضياً بذلك فهو شريكه كما قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ۝٩٨﴾ [الأنبياء: ٩٨]، أما إذا كان غير راض أو أنه غافل عن دعوته؛ لأنه إما أن يكون مطيعاً لله جل وعلا مشتغلاً بها، أو يكون ميتاً، أو يكون غائباً فهو غافل عن ذلك؛ لأنه لا علم له به، فإذا كان يوم القيامة سُئل فإذا كان غير راض ويبغضه تبرأ منه كما أخبر جل وعلا عن الملائكة، فهو يسألهم يقول: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَهَـٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٤٠﴾ [سبأ: ٤٠] قالوا: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ۝٤١﴾ [سبأ: ٤١]؛ يعني: الشياطين الذين أمرتهم بذلك فهم في الواقع يعبدونهم فهم الذين زينوا لهم هذه العبادة، وأمرتهم بها فوقعت العبادة لهم في الحقيقة، وجاء في الحديث أنه يخاطبهم ويقول: «**أليس عدلاً مني أن أولي كل واحد منكم ما كان يتولاه في الدنيا**»[1]، الجواب: بلى، فيأتي بكل معبود عُبد من دون الله إلا أن يكون رسولاً، أو رجلاً صالحاً فإنه يؤتى بشيطان على صورة ذلك[2] على حسب ما يتصوره العابد فيقال لهم:

---

(١) المعجم الأوسط للطبراني رقم ٨١ عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال: «**يحشر الناس يوم القيامة فينادي منادي أليس عدلاً مني أن أولي كل قوم ما كانوا يعبدون، ثم يرفع لهم آلهتهم فيتبعونها حتى لا يبقى أحد إلا المؤمنون فيقال لهم: ما بكم؟ قالوا: ما نرى إلهنا الذي كنا نعبد، قال: فيتجلى لهم تبارك وتعالى**».

(٢) المعجم الكبير للطبراني رقم ٩٧٦٣ وفيه: «**... فلينطلق كل قوم إلى ما كانوا يعبدون في الدنيا، قال: فينطلقون ويمثل لهم أشياء ما كانوا يعبدون، فمنهم من ينطلق إلى** =

اتبعوهم، فيتبعونهم إلى جهنم، ويبقى المؤمنون وفيهم المنافقون.

فقوله: «﴿مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾»: يوم القيامة يستجيب بالكفر به والتبرؤ منه فحصل له الندامة، وحصل العذاب؛ لأن المشرك يتراكم عليه العذاب، عذاب الحسرات والعذاب الفعلي الذي هو عذاب جهنم، وكذلك عذاب التقريع والتوبيخ.

«﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ﴾»: الحشر هو الجمع والضم. والحشر يكون بعد إخراجهم من قبورهم أحياء يُجمعون جميعاً هم ومعبوداتهم.

«﴿كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً﴾»؛ يعني: المعبودين يعادون العابدين وكل واحد يتبرأ من الثاني كما قال الله تعالى ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ [البقرة: ١٦٦]، الأسباب التي حصلت العبادة من أجلها، وهي المودة جاء عن ابن عباس ﷺ قوله: هي المودة التي بينهم[1]. وكذلك المعاداة من أهل الحق الذين عُبدوا وهم ساخطون كارهون فإنهم لا شك أنهم أعداء لهم من الأصل.

«﴿وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾»:، وهذا لكل معبود ومتبع، لمن يتبعه بلا حق ولا هدى، ولهذا أخبر جل وعلا أن الشيطان نفسه يتبرأ منهم ويقول: ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢]؛ يعني: ما أنا بمغني عنكم شيئاً، وما أنتم بمغنون عني شيئاً، ويتبرأ من طاعتهم من شركهم هذا أعلى شيء، ثم كل من دونه على هذا السبيل.

= **الشمس، ومنهم من ينطلق إلى القمر وإلى الأوثان من الحجارة، وأشباه ما كانوا يعبدون، قال: ويمثل لمن كان يعبد عيسى شيطان عيسى، ويمثل لمن كان يعبد عزيراً شيطان عزير..»** ورواه الحاكم في المستدرك رقم ٨٧٥١ وقال: رواة هذا الحديث عن آخرهم ثقات غير أنهما لم يخرجا أبا خالد الدالاني في الصحيحين لما ذكر من انحرافه عن السُّنَّة في ذكر الصحابة، فأما الأئمة المتقدمون فكلهم شهدوا لأبي خالد بالصدق والإتقان والحديث صحيح ولم يخرجاه، وأبو خالد الدالاني ممن يجمع حديثه في أئمة أهل الكوفة. وقال الذهبي في التلخيص: ما أنكره حديثاً على جودة إسناده.

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٤٧٧ قال عطاء عن ابن عباس: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ قال: المودة. وكذا قال مجاهد في رواية ابن أبي نجيح.

۞ قال المؤلف رحمه الله: وقول الله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [النمل: ٦٢].

هذا استفهام يُقصد به التقرير وهو من الحجج التي يُقيمها الله جل وعلا على المشركين؛ لأنهم يعلمون هذا تماماً، فهم إذا وقعوا في الضر والكروبات اتجهوا إلى الله وسألوه حتى يكشف ما بهم، وهم يعلمون أنه لا يستجيب دعاءهم في مثل هذه الحالة إلا رب العالمين جل وعلا، فالمضطر إذا دعاه للضرورة فإنه يجيبه، وهذا أمر ظاهر في الناس حتى في المشركين، وهذا من مقتضى ربوبيته، فإن ربوبيته تقتضي أن يستجيب للمضطر، وأنه يقوم بمصالح عباده وإن كانوا ظالمين، وإن كانوا عاصين، فإن مرجعهم إليه فيحاسبهم جل وعلا، ولهذا جعله الله دليلاً على وجوب الإخلاص له في كل الحالات وفي كل الأوقات أن يخلصوا دعوته ويتجهوا إليه، ولكن عادتهم وملتهم حالت بينهم وبين ذلك.

وقوله: «﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾»: وهذا من عطف الخاص على العام؛ لأن السوء قد يكون سبباً للاضطرار، السوء هذا قد يكون خاصاً وقد يكون عاماً، فهذا يعم المرض والفقر والخوف وما يوقعه العدو وغير ذلك، فكل ما يسوء الإنسان فهو سوء. فإذا وقع فيه الإنسان واتجه إلى ربه صادقاً فإن الله يكشفه، ولا يكشفه غيره وهذا للمسلم والكافر.

قوله: «﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾»؛ يعني: أنكم خلفتم قوماً مضوا قبلكم فأنتم خُلفائهم في الأرض، وكذلك سيخلفكم أولادكم ويأتون بعدكم، فهو الذي قدر هذا وجعله هكذا، وأن أحداً لا يقدر على هذا بل هو من خصائص الله جل وعلا، فكذلك إجابة المضطر من خصائص الله، وكذلك كشف السوء من خصائصه جل وعلا، فإذاً يجب أن تكون العبادة له كلها، ولا يجوز أن يُتجه لا إلى ولي ولا إلى نبي ولا ملك، بل يجب أن تكون العبادة لله وحده الذي هذا شيء من صفة أفعاله التي يقر بها الناس ويعرفونها تماماً.

۞ قال المؤلف ﵀: وروى الطبراني بإسناده: أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين، فقال بعضهم: قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق؛ فقال النبي ﷺ: «إنه لا يُستغاثُ بي، وإنما يُستغاثُ بالله»(١).

ذكروا أن هذا المنافق هو عبد الله بن سلول، وهو كبير في قومه، وذو جاه وله مقام عندهم، وكان له مواقف مع النبي ﷺ، ومع المؤمنين ذكر الله بعضها في كتابه، فله مواقف سيئة كلها تدل على النفاق المتأصل عنده.

والنفاق هو إبطان الخلاف، وإظهار الوفاق. يظهر أنه موافق، ويبطن الكفر والخلاف والبغض والحقد.

وذكروا أن سبب النفاق الذي وقع فيه أنه كان قبل مجيء النبي ﷺ كان الأنصار يُهيئوا الأمر ليتوجوه ويجعلوه رأساً عليهم، فلما جاء النبي ﷺ بطل ذلك وصار الأمر كله للنبي ﷺ، فنجم النفاق من أجل هذا، وهذا من الأسباب التي يهيؤها الله جل وعلا، وليس هذا من الدواعي لينافق، ولهذا غيره ممن هو مهيأ مثل: سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، وأسيد بن حضير وغيرهم من الرؤساء الكبار كان لهم مقام، ولم يحل هذا بينهم وبين الإيمان، ولكن فضل الله جل وعلا يؤتيه من يشاء.

قوله: «يؤذي»: الأذى يكون للأمور التي يكون ضررها خفيفاً مثل: أن يسمعون كلاماً يؤذي، أو شتم، أو ما أشبه ذلك.

أما الضرر فالمنافقون لا يستطيعون أن يضروا المؤمنين؛ لأنهم يعاقبون، لكنهم يؤذونهم بالكلام، إما كلام بالنبي ﷺ، أو في أهله، أو المؤمنين، أو في الدين الذي جاء به الرسول ﷺ فإذا سمعوا شيئاً من ذلك تأذوا.

قوله: «فقال بعضهم»: قيل: هو أبو بكر الصديق ﵁.

قوله: «قوموا بنا نستغيث»: الاستغاثة: طلب الغوث وهو إزالة الشدة.

---

(١) قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/١٥٩: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير ابن لهيعة وهو حسن الحديث. وقد رواه أحمد بغير هذا السياق وهو في الأدب في باب القيام.

وقد تطلق على ما هو أقل من هذا كما في هذا الحديث، فهي أطلقت على الشيء الذي ليس في الوقع من الشدائد والكروبات.

«**برسول الله ﷺ من هذا المنافق**»: الرسول ﷺ يستطيع أن يغيثهم في مثل ذلك الأمر، وذلك بأن يأمر بالمنافق فيقتل، أو يضرب، أو يمنع أقل شيء، ولكن لما كانت الصيغة التي تقدموا بها إليه فيها شيء من الإيهام بترك الأدب مع الله استنكرها النبي ﷺ وقال: «**إنه لا يستغاث بي، وإنما يستغاث بالله**».

فأراد أن يبين ﷺ أن الأولى والأفضل أن تكون الاستغاثة بالله وحده حتى في الشيء الذي يقدر عليه الحي الحاضر كما في هذا الحديث، سداً للذرائع وحماية للتوحيد.

الجمع بين هذا الحديث والآية التي فيها: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥].

أن هذا فيه أنه جائز، والحديث فيه المنع «**إنه لا يستغاث بي**»، والآية تدل على جواز الاستغاثة بالحاضر القادر، فالذي عندك قادر على أن يغيثك من عدو، أو يعينك على شيء قد وقعت فيه، أو ما أشبه ذلك أن هذا جائز.

والحديث يدل على الأدب مع الله جل وعلا، والأولى والأفضل أن يكون تعلق العبد بالله دائماً وحده، ولهذا كان النبي ﷺ في آخر الأمر إذا جاء من يبايعه على الإسلام وليس لكل أحد كان يشترط عليه أن لا تسأل أحداً شيئاً[1]، يبايعه على أن يشهد أن لا إلـٰه إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان والحج والجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وأن لا يسأل الناس شيئاً. والسبب أن السؤال يعطف

---

(١) أحمد في المسند رقم ٢٢٤٥٨، وأبو داود رقم ١٨٣٧، ولفظه عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من يضمن لي واحدة وأضمن له الجنة؟** قال: قلت: أنا يا رسول الله، قال: **لا تسأل الناس شيئاً**، قال: فكان سوط ثوبان يسقط وهو على بعيره فينيخ حتى يأخذه وما يقول لأحد ناولنيه».

القلب على المسؤول ويكون له تعلقٌ به، فإذاً يجب أن يكون تعلق القلب كله بالله، ويكون الأمر كله لله والاتجاه كله لله.

فالاستغاثة بالحي القادر الحاضر جائزة، ولهذا جاءت قصص كثيرة أن بعض المؤمنين يستغيث ببعض في الشدائد؛ يعني: في القتال وغيره في جهات معينة وأوقات معينة، فكذلك الإنسان إذا وقع مثلاً في بئر، أو سقط عليه جدار، أو ما أشبه ذلك فيستغيث بمن عنده بأن يعينه ويخرجه، ويساعده على النجاة من ذلك إذا كان قادراً.

أما الاستغاثة بالأموات أو بغائب فهذا لا يجوز مطلقاً، فهذه النصوص تبين أن الدعاء يجب أن يكون لله جل وعلا كله، وأن يكون خالصاً لله جل وعلا، وتبين أن المخلوقين لا يملكون شيئاً وليس بأيديهم شيء، وأن الذي يدعوهم ويتجه إليهم أنه ضال، وإن كان المخلوق ميتاً، أو غائباً، أو حجراً، أو شجرة فالضلال أعظم وأكبر.

والذين يدعون غير الله لهم شُبه في هذا كثيرة، وقد أجاب عنها المؤلف في كتاب كشف الشبهات، ولكن هناك أشياء لم يذكرها المؤلف، وهي تتعلق بهؤلاء وهي ما بين حديث مكذوب موضوع على رسول الله ﷺ مثل قولهم الذي ينسبونه لرسول الله ﷺ: «لو أحسن أحدكم ظنه بحجر لنفعه»، هذا كذب لم يقله رسول الله ﷺ، الحجر لا ينفع شيئاً بل المخلوقين كلهم لا ينفعون شيئاً، إلا ما شاء الله فيما أقدرهم عليه، ويجعلون هذه حجة على عبادة القبور، وبعضهم يضع أحاديث في الحال.

ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أنهم في وقت مجيء التتار جاؤوا بأحاديث منها: «إذا داهمكم التتار فلوذوا بقبر ابن عمر»، ويجعلون هذا حديثاً ويقولون: هذا من علامات النبوة؛ لأن الرسول ﷺ أخبر به قبل وقوعه، وقبل مجيئه، وقبل التتار، وسماهم بأسمائهم، وقد يكون الشيطان نفسه ينطق على ألسنة من يعتقد أنه ولي، أو أنه مقرب كما ذكر الشعراني في كتاب «طبقات الأولياء»، والشعراني معروفة حاله ـ نسأل الله العافية ـ.

❁ **قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: فيه مسائل:**

❁ **الأولى: أن أصلح الناس لو يفعله إرضاء لغيره صار من الظالمين.**

هذا أخذه من الخطاب؛ لأن الخطاب وجه إلى النبي ﷺ.

❁ **الثانية: كون ذلك لا ينفع في الدنيا، مع كونه كفراً.**

ولكن دعوى بعض الناس إذا حصل له شيء نسب هذا إلى من كان يعتقده وهو كذب، وإلا كيف الميت يملك شيئاً مع أن شرك الأولين ليس من هذا النوع، هو شرك أكبر، ولكنه ليس من هذا النوع شركهم كله طلب الشفاعة.





الباب الخامس عشر

❁ **قال المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ: **باب قول الله تعالى:** ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾﴾ [الأعراف: ١٩١، ١٩٢].

في هذا الباب وثلاثة أبواب بعده بدأ المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ فيها بذكر دلائل التوحيد البراهينية التي يجب أن يعرفها الموحد، وبطلان الشرك، وهي براهين عقلية وشرعية، وذلك أن التوحيد ينقسم إلى ثلاثة أقسام أو إلى قسمين:

توحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء وصفات، وهذا من أكبر الأدلة وأعظمها على توحيد العبادة كما ذكر الله جل وعلا ذلك في مواضع كثيرة من كتابه جل وعلا مثل قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢]، يعلمون يقيناً أن الله هو الذي خلق الأرض وخلق السماء، وهو الذي ينزل المطر، وينبت به النبات الذي يأكلون منه، وتأكل منه أنعامهم، يعلمون هذا جيداً، ويعلمون أن الله لم يشاركه أحدٌ في ذلك، بل هو المتفرد في ذلك كله، مع ذلك يتوجهون بالعبادة إلى غيره يجعلون له شريكاً في العبادة، وهذا تناقض منهم؛ لأن المعبود هو الذي يجب أن يكون مالكاً متصرفاً قادراً، ولهذا صار الإقرار بتوحيد الربوبية ملزماً بالإقرار بتوحيد العبادة، إذا أقر به لزمه ذلك وإلا صار متناقضاً.

❁ **قال المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ: **وقول الله تعالى:** ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾﴾.

فهم لا يملكون من الخلق شيئاً، وهم يخلقون، لا يملك التصرف في

نفسه ولا يملك نفعاً لغيره فكيف يعبد؟ فعبادته تكون ضلالاً ظاهراً عقلاً وفطرة وشرعاً. والسبب في كونها ضلالاً ظاهراً صار الوقوع في الشرك لا يعذر فيه إنسان؛ لأنه ظاهر الضلال دلت عليه العقول والفطر والأدلة القائمة، فإذا وقع فيه فهو مستحق لعذاب الله جل وعلا.

وقوله: «﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾»؛ يعني: لمعبوديهم.

«﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾»: لا ينصرون عابديهم، ولا ينصرون أنفسهم، فكيف يعبد من كان هذه صفته وكيف يدعى؟ لأن المعبود إن لم يكن مالكاً متصرفاً قادراً فعبادته ضلال، وهؤلاء ليس لهم من الملك شيء ولا من الخلق والإيجاد والتصرف شيء، فهم لا يستطيعون أن ينصروا أنفسهم، ولا أن يدفعوا عن أنفسهم ما أريد بهم من الله جل وعلا، فبذلك يتبين أنهم فقراء، وأن عبادتهم لا تصلح، وبهذا يكون الدليل البرهاني قائم على من عبدهم وتوجه إليهم في الدعوة، وأنه ليس بيده شيء.

والاستفهام هنا ﴿أَيُشْرِكُونَ﴾ هو استفهام إنكار؛ لأن هذا واقع منهم، والله جل وعلا ينكر ذلك عليهم.

قوله: «﴿مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾»: الخلق يطلق على الإيجاد والإبراز، ويطلق على التقدير يقدر الشيء ويكون ذلك خلقاً كما قال الشاعر:

وأنت تفري ما تخلق ... وبعض القوم يخلق ثم لا يفري

يعني: أنك تفعل الشيء الذي تقدره، وغيرك لا يستطيع ذلك، ولهذا فسر قوله جل وعلا: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [البقرة: ٢٩]، وذكر تعالى لنا أنه خلق لنا ما في الأرض جميعاً، وجاء في الآية الأخرى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾﴾ [النازعات: ٢٧ ـ ٣٢]، فبين هنا أن دحي الأرض كان بعد خلق السماوات، وبيَّن أن الدحي هو إخراج مائها، وإرساء الجبال فيها، فيكون قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾؛ يعني: تقديراً قدر ذلك، وأما الإبراز والإظهار؛

يعني: إبراز بعض ما في الأرض وإظهاره يكون بعد خلق السماوات.

❁ **قال المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ: **وقول الله تعالى:** ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣، ١٤].

يدل هذا على أن المدعو يجب أن يكون مالكاً لما يدعى له، وإذا لم يكن مالكاً فدعوته لا تصلح. وهنا بيَّن جل وعلا أن المدعوين لا يملكون:

«﴿مِن قِطْمِيرٍ﴾»: والقطمير كما قال ابن عباس رضي الله عنهما، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة ـ رحمهم الله ـ: هو اللفافة التي تكون على نواة التمرة[١]. وهي أحقر شيء ولا تنفع.

فإذا كانوا لا يملكون هذا الشيء الحقير فهم فقراء ليس بأيديهم شيء أصلاً، وهم عباد مثل من يدعوهم، وقد يكونون أقل درجة ممن يدعوهم؛ لأنه قد يكون ميتاً، فالميت لا يملك شيئاً ولا يتصرف في شيء.

قوله: «﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَآءَكُمْ﴾»؛ يعني: سماع قبول وإجابة وعطاء، فمجرد السماع لا يكفي، فالحجارة تسمع والشجر يسمع، وكل شيء يسمع، وهي مستنطقة ومستشهدة، ولكن سماعها على قدرها ويليق بها.

وبعض المتأخرين أنكر سماع الموتى في القبور يقولون: حتى لا يحتج به علينا القبوريون، وهذا خلاف النصوص، قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [النمل: ٨٠]؛ أي: سماع قبول؛ أي: هم يسمعون الكلام.

قوله: «﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾»: الاستجابة تلبية الدعاء، وينال مطلوب الداعي.

وقوله: «﴿وَيَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾»؛ يعني: أن المدعو يصبح عدواً لمن دعاه يوم القيامة، ويتبرأ من دعوته.

---

(١) تفسير ابن كثير ٦/ ٥٤١.

وقوله: «﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾»؛ يعني: الله جل وعلا خبير بالأمور كلها، فهو يخبر بالواقع أنه يقع على ما أخبر به جل وعلا. فهذا من الأدلة البرهانية على بطلان الشرك، ومعرفة ذلك فطرة ظاهرة، ثم إن المدعو مهما كان يكون فقيراً، يكون محتاجاً يكون غير مالك لنفسه جلب نفع، ولا دفع الضر عن نفسه إذا أريد به ضر فكيف يدعى؟ وكيف العاقل يقدم على دعوة من هذه صفته؟

۞ قال المؤلف رحمه الله، وفي الصحيح عن أنس قال: شج النبي ﷺ يوم أحد وكسرت رَباعيته، فقال: «كيف يفلح قوم شجوا نبيهم؟»، فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [آل عمران: ١٢٨][(١)].

قال ابن الأثير: الشَّجُّ في الرأس خاصَّة في الأصل، وهو أن يَضرِبَه بشيء فيَجْرَحَه فيه ويَشُقَّه، ثم استُعْمِل في غَيره مِنَ الأعْضَاءِ. يقال: شجَّه يَشُجُّه شجّاً[(٢)].

وهو أن يجرح ويسيل الدم، وقد يدخل الجرح وهو يختلف لقوة الضرب وضعفه، ثم أطلق على ما كان في غير الرأس، وبيَّن أنه في وجهه ﷺ.

قوله: «يوم أحد»: أحد جبل معروف، وأضيفت إليه الواقعة؛ لأنها بجواره.

وعند أحمد في المسند[(٣)] ومسلم[(٤)] «كسرت رباعيته يوم أُحد وشج في رأسه فجعل يسلت الدم عنه، ويقول: **كيف يفلح قوم شجوا نبيهم وكسروا رَباعيته وهو يدعوهم إلى الله؟**»، فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ الإنسان له أربع رباعيات: اثنتان من أسفل، واثنتان من أعلى، وهي لم تقلع من أصلها، وإنما كسر شيء منها.

قوله: «كيف يفلح قوم شجوا نبيهم؟»: وهو يدعوهم إلى الله جل وعلا،

---

(١) علقه البخاري باب ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ...﴾، ورواه مسلم رقم ١٧٩١.
(٢) النهاية في غريب الأثر ١٠٩٧/٢.
(٣) المسند رقم ١١٩٥٦.
(٤) مسلم رقم ١٧٩١.

وكانوا حريصين على قتله، فهذا قصار ما وصلوا إليه أنهم شجوه في وجهه فسالت الدماء من وجهه صلوات الله وسلامه عليه، فصار يسلت الدم من وجهه ويقول: «**كيف يفلح قوم شجوا نبيهم وكسروا رَباعيته وهو يدعوهم إلى الله؟**»، قال القرطبي: وقوله: «**كيف يفلح قوم شجوا نبيهم؟**»، هذا منه ﷺ استبعاد لتوفيق من فعل ذلك به. وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ تقريب لما استبعده وإطماع في إسلامهم، ولما أُطمع في ذلك، قال ﷺ: «**اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**»، وإذا تأمل الفطن هذا الدعاء في مثل تلك الحال علم معنى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤]، فإنه ﷺ لم يدع عليهم فينتصر، ولم يقتصر على العفو حتى دعا لهم، ولم يقتصر على الدعاء لهم حتى أضافهم لنفسه على جهة الشفقة، ولم يقتصر على ذلك حتى جعل جهلهم بحاله؛ كالعذر، وإن لم يكن عذراً، وهذا غاية الفضل والكرم التي لا يشارك فيها، ولا يوصل إليها[1].

فالأمر بيد الله جل وعلا يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وفي هذا دليل على أنه ﷺ لا يملك لنفسه شيئاً من دون الله جل وعلا، كما أنه كان يستنصر بربه، ويسأله ويدعوه، ويقول عند ابتداء القتال: «**اللهم أنت عضدي ونصيري بك أحول وبك أصول وبك أقاتل**»[2]. فيسأل ربه أن ينصره، ومقام الرسول ﷺ عند الله عظيم، ومع هذا ما استطاع أن يدفع عن نفسه أذى المشركين، وما استطاع أن يحمي عمه الذي قتل في تلك الغزوة.

وفيه أن الرسول ﷺ بشر وأنه يناله ما ينال البشر، وأنه ليس له مع الله في الملك شيء، وأنه فقير إلى ربه جل وعلا عبد يدعوه، وأن مهمته الدعوة والإنذار، أن ينذر من عصاه، ويبشر من أطاعه، ولهذا نزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ۝١٢٨﴾ [آل عمران: ١٢٨]، والمعنى: أنك عبد لله جل وعلا مأمور بأمره، وتمضي فيما كلفك به، وأما

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ١١/١٤٤.

(٢) سنن سعيد بن منصور رقم ٢٥٢٢ عن أبي مجلز، وهو عند أحمد في المسند رقم ١٢٩٦ عن علي رضي الله عنه.

أمر عباده فهو إليه يتصرف فيهم كيف يشاء، إن شاء أن يعذبهم عذبهم، وإن شاء أن يتوب عليهم تاب عليهم، فالأمر إليه جل وعلا وحده.

وفي هذا تدليل على توحيد العبادة واضح، وهو أن أكرم الخلق وأفضلهم عند الله جل وعلا تصيبه الأدواء، وتصيبه الآلام ولا يستطيع أن يدفع عن نفسه شيئاً من دون الله فهو يلجأ إلى الله، ويعبده، ويسأله.

وفيه أن الرسل تبتلى، وينالهم في أجسادهم الأذى، وكذلك يقتلون.

قال: وفيه عن ابن عمر ﷺ: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر: «**اللهم العن فلاناً وفلاناً**» بعد ما يقول: «**سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد**»، فأنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨][1].

وفي رواية: يدعو على صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام، فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾[2].

قوله: «وفيه»؛ يعني: في الحديث الصحيح، وهذا في صحيح البخاري.

قوله: «أنه سمع رسول الله ﷺ يقول إذا رفع رأسه»: بعد هذه الواقعة كان يقنت ويدعو على رؤساء الكفار الذين هم أبو سفيان، وسهيل بن عمرو، وصفوان بن أمية، والحارث بن هشام، وكان يسميهم بأسمائهم، وأسماء آبائهم في الصلاة فيقول: «**اللهم العن فلاناً ابن فلان**».

قوله: «اللهم العن»: سبق أن اللعن هو: الطرد عن مظان الرحمة، وهذا من الله جل وعلا، ومن لعنه الله فهو ملعون ومطرود عن رحمة الله جل وعلا.

وأما من البشر فاللعن هو: الدعاء عليهم بأن يلعنهم الله، وبعضهم

---

(١) رواه البخاري رقم ٤٠٦٩.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٤٠٧٠ قال: وعن حنظلة بن أبي سفيان سمعت سالم بن عبد الله يقول: كان رسول الله ﷺ يدعو على صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام، فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾، وأخرجه أحمد في المسند رقم ٥٦٧٤.

يقول: هو السب والشتم. ولكن الظاهر أن اللعن من بني آدم أنه يقصد بذلك أن الله يلعنه ويجعله ملعوناً، ولهذا لا يجوز أن يلعن المسلم، وجاء: «**أن لعن المسلم كقتله**»[(١)]، وجاء أن الإنسان إذا لعن من لا يستحق اللعنة أنها ترجع إليه[(٢)].

وفي هذا من العبر أن سيد البشر ﷺ بقي وقتاً يدعو على هؤلاء، وخلفه سادات المسلمين من أولياء الله يُؤَمنون على دعائه، وأنه يعين أناساً بأعيانهم وهم رأس الكفر الذين غزوا رسول الله ﷺ في بلده وقتلوا أبناء عمهم المسلمين، وكذلك أنصار الله، وأنصار رسوله ﷺ فجرحوه جراحة بليغة في وجهه حتى ضربه عبد الله بن قميئة في وجنته ودخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته صلوات الله وسلامه عليه فصارت الدماء تسيل، وهذه مبالغة في أذية رسول الله ﷺ ومحاربته، ومحادة الله جل وعلا ومع ذلك كله لم يستجب الله جل وعلا له في دعائه بل أخبره أنه ليس له من الأمر شيء، وأنه عبد يجب أن يكون ممتثلاً لأمر ربه جل وعلا.

وفيه أن القنوت في النوازل أنه يكون بعد قوله: «**ربنا ولك الحمد**»، وفي رواية البخاري[(٣)] بإسقاط الواو: «**ربنا لك الحمد**»، وبعض الشراح يقول: كلا الروايتين صحيح، وابن دقيق العيد يقول: كأن إثبات الواو دال على معنى زائد؛ لأنه يكون التقدير مثلاً ربنا استجب، ولك الحمد فيشتمل على معنى الدعاء ومعنى الخبر[(٤)].

ثم إن فيه أنه يبدأ بالمقصود ولا يقول: «اللهم اهدنا فيمن هديت..»،

---

(١) رواه البخاري رقم ٦١٠٥ عن ثابت بن الضحاك: عن النبي ﷺ قال: «**من حلف بملة غير الإسلام كاذباً فهو كما قال، ومن قتل نفسه بشيء عذب به في نار جهنم، ولعن المؤمن كقتله، ومن رمى مؤمناً بكفر فهو كقتله**» وأخرجه مسلم رقم ١١٠.

(٢) أخرجه أبو داود عن أبي الدرداء يقول: قال رسول الله ﷺ: «**إن العبد إذا لعن شيئاً صعدت اللعنة إلى السماء فتغلق أبواب السماء دونها ثم تهبط إلى الأرض فتغلق أبوابها دونها ثم تأخذ يميناً وشمالاً فإذا لم تجد مساغاً رجعت إلى الذي لعن، فإن كان لذلك أهلاً وإلا رجعت إلى قائلها**».

(٣) رقم ٣٨٤٢.

(٤) فتح الباري لابن حجر ٢/ ٢٨٢.

بل يبدأ بالدعاء الذي قصده إذا قال: «**سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد**» بدأ مباشرة بالموضوع الذي من أجله قنت، ولا يأتي بمقدمات؛ يعني: دعاء عاماً أو غيره سواءً لنفسه، أو للمسلمين، أو غير ذلك هذه هي السُّنَّة.

وفيه أن الإمام يجمع بين قوله: «**سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد**» خلافاً لمن كرهه[1]، وقد جاءت أحاديث زيادة على ذلك في الدعاء. وتسمية الإنسان في الصلاة باسمه لا تضر عند الحاجة لذلك.

وقوله: «سمع الله لمن حمده»؛ يعني: سمع سمع الإجابة، سمع من يحمده، وفي ضمن هذا أنه يستجيب له.

و«الحمد»: الله جل وعلا له المحامد كلها. والحمد هو ذكر المحاسن مع الحب، أن تذكر محاسن المحمود مع حبه وتعظيمه، أما إذا جاء ذكر المحاسن بدون الحب والتعظيم فهذا يسمى مدحاً. والذم ضده أن تذكر مساويه مع بغضه.

و«أل» دخلت على الحمد ليشمل جميع المحامد، والله محمود على فعله وعلى خلقه وعلى تقديره، وعلى ما يقوم به من الصفات، فالحمد كله له جل وعلا.

وقوله فأنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨] بعد ما مضى وقت وهو يدعو على هؤلاء، فلما نزلت ترك الدعاء.

وهؤلاء أسلموا وحسن إسلامهم الذين كان النبي ﷺ يدعو عليهم بأسمائهم مع ما فعلوه كما سبق، ومع إظهارهم الشرك وهتفهم به كما قال أبو سفيان يوم صعد أُحد بعد المعركة صار ينادي بأعلى صوته فقال: أفي القوم محمد؟ فقال: «**لا تجيبوه**». فقال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ قال: «**لا تجيبوه**». فقال: أفي القوم ابن الخطاب؟ فقال: إن هؤلاء قتلوا فلو كانوا أحياء لأجابوا، فلم يملك عمر نفسه فقال: كذبت يا عدو الله أبقى الله عليك ما يخزيك. قال أبو سفيان: اعل هبل، فقال النبي ﷺ: «**أجيبوه**»، قالوا: ما

---

(١) وهو قول مالك وأبي حنيفة، والشافعي يرى أن المأموم يجمع بينهما.

نقول؟ قال: «**قولوا: الله أعلى وأجل**». قال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم، فقال النبي ﷺ: «**أجيبوه**». قالوا: ما نقول؟ قال: «**قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم**»[(١)]. فهذا إظهار للشرك، وهو محاربة لله جل وعلا ومبارزة له، ومع ذلك لم ينزل عليهم العذاب، ولم يستجب الله لنبيه ﷺ في دعائه عليهم مما يدل على أنه ليس لأحد معه تصرف فهو المالك المتصرف، وهو الحليم الذي لا يعجل، وإذا أراد أخذ أحد من خلقه فلا أحد يمنعه، فتاب على هؤلاء بعد ما فعلوا هذه الأفعال العظيمة التي لم يفعلها أحد من المجرمين إلا ما شاء الله، وكل هذا يدل على أن الله هو المعبود وحده، وهو الذي يجب أن تكون العبادة له؛ لأنه هو المالك لكل شيء، وهو الذي يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وهو الذي يثيب على العبادة ويعاقب على تركها، أما المخلوق فلا يملك شيئاً، ومن المخلوقين رسول الله ﷺ، وكذلك رسله من الملائكة، وكذلك سائر عباده، فدعوتهم والتعلق بهم ينافي الإخلاص لله جل وعلا وعبادته، وذلك جراءة على الله وسوء ظن به وتنقص لحقه، ولهذا صار هذا من أعظم الذنوب، فمن فعله ومات عليه، فإنه يكون من الخالدين في النار، وتكون الجنة حرام عليه ـ نسأل الله العافية ـ.

❁ **قال المؤلف** رحمه الله: **وفيه عن أبي هريرة** رضي الله عنه **قال: قام رسول الله** ﷺ **حين أنزل الله** عز وجل: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ۝﴾ [الشعراء: ٢١٤]. **قال: «يا معشر قريش ـ أو كلمة نحوها ـ اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئاً»**[(٢)].

أبو هريرة لا يعرف اسمه العلم، وإنما يعرف بكنيته، وقد اختلف الحفاظ باسمه على ما يقرب من ثلاثين قولاً، وهو معلوم معروف من أفاضل

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه البخاري رقم ٢٧٥٣، ومسلم رقم ٢٠٦.

الصحابة والحفاظ، وقد روى له في الكتب الستة قرابة خمسة آلاف حديث، أو أكثر، ولهذا عاداه أهل الباطل لكثرة ما روى عن رسول الله ﷺ، وكان بداية ذلك قد وقع في وقته بعض من ينتقده، وأخبر أنه كان يلازم رسول الله ﷺ ولا يفارقه ويكتفي بشبع بطنه فقط، وأنه شكا مرة إلى رسول الله ﷺ قلت: يا رسول الله، إني أسمع منك حديثاً كثيراً فأنساه، قال: «**أبسط رداءك**»، فبسطته، قال: فغرف بيديه، ثم قال: «**ضمه**» فضممته، فما نسيت شيئاً بعده[1]. وكان يدرس الحديث ليلاً؛ يعني: يراجع حفظه، ولم يكن يكتب، ولهذا قال: ما من أصحاب النبي ﷺ أحد أكثر حديثاً عنه مني إلا ما كان من عبد الله بن عمرو، فإنه كان يكتب ولا أكتب[2].

ومع هذا فهو أكثر حديثاً من عبد الله بن عمرو. وفي صحيح مسلم سأل رسول الله ﷺ أن يحببه إلى المسلمين قال: قلت: يا رسول الله، ادع الله أن يحببني أنا وأمي إلى عباده المؤمنين ويحببهم إلينا، قال: فقال رسول الله ﷺ: «**اللهم حبب عُبيدك هذا** ـ يعني: أبا هريرة ـ **وأمه إلى عبادك المؤمنين، وحبب إليهم المؤمنين**»، فما خلق مؤمن يسمع بي ولا يراني إلا حبني[3]. ولهذا يقول: لا يحبني إلا مؤمن، ولا يبغضني إلا منافق. وهذا ليس خاصاً به وحده بل هو في الصحابة كلهم ـ رضوان الله عليهم ـ.

ومعاداته الآن وقبل الآن ظاهرة جداً عند أهل الباطل، فهم يرمونه بالكذب وبالعظائم، ومعلوم أن هذه جراءة عظيمة، وضلال كبير.

قوله: «﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾»: عشيرة الرجل هم أبناء أبيه الأقربون، وقد يطلق على أقربائه وعلى قبيلته، والقبيلة هي العشيرة، أو هم أقربائه من آبائه الأدنون.

قوله: «يا معشر قريش ـ أو كلمة نحوها ـ اشتروا أنفسكم»: من النار؛

---

(١) رواه البخاري رقم ١١٩.

(٢) أخرجه البخاري رقم ١١٣، وأحمد في المسند رقم ٩٢٣١.

(٣) أخرجه مسلم رقم ٢٤٩١.

يعني: اشتروها بعبادة الله وحده، بأن تطيعوا رسوله، وتطيعوا أمره وتخلصوا الدعاء له والعبادة، فإنقاذ النفس يكون بالإيمان والعمل الصالح.

قوله: «لا أغني عنكم من الله شيئاً»: ثم خص الأقربين من عشيرته فقال: **«يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئاً»**، فخص وعم.

جاء في رواية: **«يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئاً»**، فبين رسول الله ﷺ أنه لا يملك شيئاً لأقربائه، وليس له مع الله تصرف في ذلك، فهو ينذر أهله وأقربائه كابنته وعمته وعمه وعشيرته، ثم يعم بالنذارة.

وقد ذكر أهل السير والتفسير أنه لما نزلت عليه هذه الآية: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝﴾ [الشعراء: ٢١٤] خاف أنه قد قصر في النذارة والبلاغ، خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا فهتف: **«يا صباحاه»**؛ لأن العادة عند العرب أن الإنسان إذا شاهد أمراً خطيراً يمكن أن يدهم قومه قبل الاستعداد أنه يصيح ويقول: واصباحاه - يعني: أنكم صبحتم العدو أو صبَّحكم - فقالوا: من هذا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو فاجتمعوا إليه فقال: **«أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدِّقي»**، قالوا: ما جربنا عليك كذباً قال: **«فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»**، قال أبو لهب: تباً لك ما جمعتنا إلا لهذا، ثم نزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝﴾ [المسد: ١]، وقد تب[١].

يقول شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب: جِدُّهُ ﷺ في هذا الأمر؛ بحيث فعل ما نُسب بسببه إلى الجنون وكذلك لو فعله مسلم الآن[٢]. فهو فعل فعلاً نسب إليه الجنون؛ لأنهم قالوا: إنك مجنون على هذا الفعل مع أن هذا امتثال لأمر الله جل وعلا، وهو مما قام به نذراة لقومه خوفاً أنه لم يؤدِّ النذارة كما ينبغي، فهو من أمر الله جل وعلا، ويقول كذلك لو أن أحداً من الناس فعل مثل هذا لقيل أنه مجنون؛ لأنه يقتدي برسول الله ﷺ في ذلك.

---

(١) رواه البخاري رقم ٤٩٧١، ومسلم رقم ٢٠٨ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) المسألة الثانية عشر.

والمقصود أنه ﷺ أخبر وهو الصادق الذي يجب تصديقه، ولا يقول إلا حقاً أنه لا يغني عن ابنته ولا عن عمته ولا غيرهم من أقربائه فضلاً عن البعداء وسائر الناس لا يغني عنهم من عذاب الله شيئاً، وأنهم إذا عصوا الله وعصوا رسوله ﷺ فإنهم يعذبون ويستحقون العذاب، ونسبهم وقرابتهم من الرسول الله ﷺ لا تغني عنهم شيئاً فكيف يُدعى؟ ويطلب منه كشف الضر؟ أو يقال: أنه من جوده الدنيا وضرتها كما قال البوصيري:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به	سواك عند حدوث الحادث العمم
ولن يضيق رسول الله جاهك بي	إذا الكريم تحلى باسم منتقم
فإن من جودك الدنيا وضرتها	ومن علومك علم اللوح والقلم
إن لم تكن في معادي آخذاً	بيدي فضلاً وإلّا قل يا زلّة القدم

رسول منصوب على النداء؛ يعني: (يا رسول الله) كيف يقارن قول هذا القائل مع قول رسول الله ﷺ: «**لا أغني عنكم من الله شيئاً**» لابنته وعمته وعمه وغيرهم، فهل يكون هذا مؤمناً بهذا القول؟ مصدقاً له متبعاً لرسول الله ﷺ؟ أو أنه مكذب؟ أو أنه لا يفهم ولا يعرف شيئاً؟ لأن الإنسان قد يطبع على قلبه فيرى حسناً ما ليس بحسن إذا أراد الله جل وعلا فتنته، ثم كيف يكون هذا من العلماء يفسرون كلام الله، ويفسرون أحاديث رسول الله ﷺ ويكتبون الكتب والأصول، ثم يقعون في مثل هذه المناقضات، مناقضة للرسول ﷺ، وهذا كثير ليس هذا خاصاً بهذا الرجل بل هو كثير جداً، وهذا الذي كان الرسول ﷺ يحذر منه ويقول: «**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده فقولوا: عبد الله ورسوله**»[1].

فالواجب على عباد الله جل وعلا أن يتبعوا رسولهم، وأن يعبدوا ربهم ويعرفوا حقه كما أنه واجب عليهم أن يعرفوا ما لرسول الله ﷺ من الحق، ولكن لا يجعل له ما لله جل وعلا، وقد جاء عنه ﷺ أنه قال: «**إن أوليائي يوم القيامة المتقون وإن كان نسب أقرب من نسب، فلا يأتيني الناس بالأعمال،**

---

(١) رواه البخاري رقم ٣٤٤٥ من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وتأتوني بالدنيا تحملونها على رقابكم فتقولون: يا محمد، فأقول: هكذا وهكذا لا وأعرض في كلا عطفيه»[١]، فهذا أيضاً شبيه بما نزل في سبب هذه الآية، وفعله ﷺ في آخر حياته فحذر كما أنه حذر جميع أصحابه من ذلك، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قام فينا النبي ﷺ فذكر الغلول فعظمه، وعظم أمره قال: «**لا ألفينَّ أحدكم يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء على رقبته فرس لها حمحمة يقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً قد أبلغتك، وعلى رقبته بعير لها رغاء يقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك، وعلى رقبته صامت فيقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك، أو على رقبته رقاع تخفق فيقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئاً قد بلغتك**»[٢].

وهو صلوات الله وسلامه عليه كان يدعو إلى إخلاص العبادة لله جل وعلا، ويبين أن الأمر كله لله، وأنه لا ينفع إلا توحيد الله، أما التعلق بالخلق فهذا لا يجدي شيئاً، فإذا كان سيد البشر ﷺ لا يغني عن من يدعوه، أو يتوجه إليه شيئاً، فكيف بمن دونه من المقبورين، أو غير المقبورين الذين يتعلق بهم الناس، فهذا ضلال ظاهر.

والشبه التي يتعلق بها من يدعو الأولياء ومنهم رسول الله ﷺ، قد

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد رقم ٨٩٧ من حديث أبي هريرة، وأخرجه الحاكم في المستدرك رقم ٦٩٥٢ عن رفاعة بن رافع الزرقي عن أبيه عن جده: «أن رسول الله ﷺ قال لعمر بن الخطاب: **يا عمر اجمع لي قومك فجمعهم**، ثم دخل عليه فقال: يا رسول الله قد جمعتهم فيدخلون عليك أم تخرج إليهم؟ فقال: **بل أخرج إليهم**، فسمعت بذلك المهاجرون والأنصار فقالوا: لقد جاء في قريش وحي فحضر الناظر والمستمع ما يقال لهم فقام بين أظهرهم فقال: **هل فيكم غيركم؟** قالوا: نعم فينا حلفاؤنا وأبناء إخواننا وموالينا، فقال رسول الله ﷺ: **حلفاؤنا منا وموالينا منا**، ثم قال: **ألستم تسمعون أوليائي منكم المتقون فإن كنتم أولئك فذلك وإلا فابصروا ثم أبصروا لا يأتين الناس بالأعمال وتأتون بالأثقال فيعرض عنكم**، ثم نادى فرفع صوته فقال: **إن قريشاً أهل أمانة من بغاهم العواثر كبه الله لمنخره قالها ثلاثاً**» وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(٢) رواه البخاري رقم ٣٠٧٣، ومسلم رقم ١٨٣١.

تولى الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ الرد عليهم في كتابه «كشف الشبهات»، إلا أن هناك بعض الأحاديث التي لم يذكرها وهي ما بين أحاديث ضعيفة أو موضوعة، أو أنها لا دلالة فيها على المدعى مثل حديث الأعمى الذي رواه الترمذي، وحديث عثمان بن حنيف رواه الترمذي، ومثل الحديث الذي رواه ابن السني، وأبو يعلى عن عبد الله بن مسعود أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا انفلتت دابة أحدكم بأرض فلاة فليناد: يا عباد الله احبسوا! يا عباد الله احبسوا! فإن لله حاضراً في الأرض سيحبسها**»[1] تعلقوا بهذا، وقالوا: إن هذا يدل على أن دعوة الغائب أنها جائزة، وأنها تنفع، فهذا حديث يرويه مجاهيل وليس فيه متعلق لدعوة الموتى وغيرهم؛ لأنه قال: «**فإن لله حاضراً**» على تقدير صحته؛ يعني: أن المدعو أنه حاضر موجود، ولكنه لا يشاهد إما جني أو غيرهم، ولكن كيف تترك النصوص الواضحة الجلية المحكمة، ثم يؤخذ بحديث مجهول الراوي ضعيف، وبعض رواته متروك هذا يدل على اتباع الهوى.

❁ **قال المؤلف** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **فيه مسائل:**

❁ **الأولى: أنهم فعلوا أشياء ما فعلها غالب الكفار، منها: شجهم نبيهم، وحرصهم على قتله ومنها: التمثيل بالقتلى، مع أنهم بنو عمهم.**

ومع هذا لم يستجب له مع فعلهم هذه الأفعال، مما يدل على أن الأمر كله لله جل وعلا وليس لأحد معه شيء، فهذا هو وجه الاستدلال بهذه المذكورات على التوحيد.

❁ **الثانية: لعن المعيَّن في القنوت.**

المعين كان كافراً، ولعن الكفار جائز، ولكن الخلاف في لعن العصاة من أهل الكبائر والقول الراجح في هذا: أن اللعن في ذلك في العموم ولا يكون لمعين.

---

(١) رواه الطبراني في الكبير رقم ١٠٥١٨، وأبو يعلى رقم ٥٢٦٩، وابن السني في عمل اليوم والليلة رقم ٥٠٧.

۞ الثالثة: قوله للأبعد والأقرب: «لا أغني عنك من الله شيئاً» حتى قال: «يا فاطمة بنت محمد، لا أغني عنك من الله شيئاً». فإذا صرح وهو سيد المرسلين بأنه لا يغني شيئاً عن سيدة نساء العالمين، وآمن الإنسان أنه ﷺ لا يقول إلا الحق، ثم نظر فيما وقع في قلوب خواص الناس اليوم، تبين له التوحيد وغربة الدين.

مقصود الشيخ رحمه الله في هذا أنه عارضه في دعوته إلى التوحيد خواص الناس الذين هم العلماء وجادلوا في أن دعوة الأولياء الذين يزعمون أنهم أولياء، وإلا فقد يكونون شياطين، وأن هذا أمر وجدوا عليه الناس، وأنه ليس مخالفاً لدين الإسلام، يقول: إذا نظر الإنسان في هذا الأمر وما قام في قلوب كثير من الناس بكونهم يدعون ويتوجهون إلى غير الله جل وعلا من الأحياء والأموات، وقد يكون المدعو لا يصلي يكون مجنوناً ويسمونه مجذوباً؛ يعني: أنه ذاهب عقله، ولكنه من أولياء الله فيدعونه ويعبدونه ويجعلون هذا من أفضل الأعمال يقول: إذا تأمل الإنسان الواقع عند هؤلاء ومجادلاتهم في ذلك، وما فعل برسول الله ﷺ كما في هذه القصة، وتأمل هذه تبين له غربة الدين الإسلامي، وأن من قام به عودي وحورب ونسب إلى أنه جاء بشيء خارج عن الدين خالف جماعة المسلمين كما وقع له رحمه الله.

وهذا كثير وباقي وسيبقى، فالذي ينظر اليوم في بلاد المسلمين كثيراً منهم يتجه إلى القبور ويجعل ذلك من أفضل الأعمال فيفزعون إليهم في الشدائد، ويحتجون بأن عندهم علماء، وأنهم قد يشاركونهم في ذلك، ومن أنكر هذا إما أن يقولوا هذا لا يحب الأولياء ويبغضهم، وقد يقولون أنه لا يحب الرسول، ويجعلون مثلاً تجريد التوحيد وعبادة الله وحده يجعلونه خارجاً عن الدين الإسلامي، وأن هذا دين الخوارج، أو أنه أعظم من دين الخوارج.





الباب السادس عشر

❁ **قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ: باب قول الله تعالى:** ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣].

هذا الباب نظير الباب الذي قبله، أراد رحمه الله أن يبين دلائل التوحيد، وبراهينه التي يجب أن تتبع، ففي هذا الباب ذكر عظمة الله جل وعلا، أنه يجب أن يكون التعظيم، والعبادة، والدعاء والالتجاء كله لله وحده، وأن الخلق ضعفاء حتى الملائكة، وكبارهم مثل: جبريل عليه السلام بالنسبة لله جل وعلا، وأنهم لا يملكون مع الله شيئاً، ولهذا وصف السماوات كيف تأخذها الرعدة والرجفة إذا سمعت كلام الله، والملائكة يصعقون خوفاً من الله، فالسماوات نفسها تخاف من الله، وكذلك الملائكة من شدة خوفهم يأخذهم الفزع فيصعقون. فكيف بالضعيف ابن آدم ونحوه، ولكن قلبه قاسي؛ لأنه جاهل بالله جل وعلا لا يعرف شيئاً عن عظمته، وما قدر الله حق قدره.

ذكر هذا يتبين أن الأمر كله لله، والعبادة يجب أن تكون لله، وأن العبد وإن قرب من الله لا يجوز له شيء من حقوق الله التي هي العبادة، وأن من كان قريباً من الله فإنه يكون أكثر خوفاً منه، وأقرب الخلق إلى الله هو جبريل ومع ذلك يُصعق إذا سمع كلام الله، والسبب أنه يخاف أن يكون أمر بالقيامة أن تقوم، وإذا قامت القيامة وقع عذاب الله جل وعلا على من يستحقه، وهم يخشون أن ينالهم شيء من ذلك لشدة الأمر فإن الله بيده كل شيء، من شاء أن يعذبه عذبه ولا يُسأل عما يفعل جل وعلا، فمراد المؤلف رحمه الله هو الرد على القبوريين الذين يدعون الأموات المرتهنين بأعمالهم وغيرهم.

وهذه الآية تتعلق بالتي قبلها وهي قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن

قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣].

والصواب في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ أن الضمير يعود إلى الملائكة لما تبين من الحديث الذي ذكره أن الملائكة إذا سمعوا كلام الله بالوحي وأول من يسمع الكلام جبريل ﷺ فيُصعق خوفاً من الله جل وعلا.

قوله: «﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ﴾»؛ يعني: زال الفزع، والفزع هو الخوف الشديد الذي يأخذ السامع بغتة، فإذا أخذه صعق والصعق معناه فقدان العقل والوعي، وفقدان الإحساس من شدة الخوف، فإذا أزيل الفزع عن قلوبهم، وذهب عند ذلك يتساءلون:

«﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾»: وهذا يدل على أنهم سمعوا صوتاً لم يفقهوه، مجرد صوت، وجاء وصفه في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: **«كأنه سلسلة على صفوان»** أنهم يسمعون صوتاً كجر السلسلة على الصفوان، ويعلمون أنه صوت الرب جل وعلا، وفي هذا إثبات الصوت لله، وأنه يتكلم كلاماً حقيقي يُسمع والأدلة على هذا كثيرة جداً، ولكن الجهمية وأضرابهم ينكرون الصوت والكلام الحقيقي لله تعالى، ومعنى هذا أنهم ينكرون النصوص الثابتة في كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، وهذا من الضلال البين.

ولهذا قالوا: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾، فبعضهم يسأل بعضاً؛ لأن من في السماء الأولى أبعد ممن في السماء الثانية وهكذا، فكل فريق يسأل من فوقه؛ يعني: ماذا أمر به ويُريدون بذلك امتثال أمره، والمسارعة إلى ذلك تقرباً إليه جل وعلا وطاعة له حتى ينتهي السؤال إلى من يؤمر بتبليغ الأمر الذي هو جبريل ﷺ فإذا وصل إليه قال لهم:

«﴿قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾»: ولم يخبرهم بما قال، والله جل وعلا لا يقول إلا حقاً، ولهذا لشدة طاعتهم كلهم يقولون: **«قال الحق..»**، ويكتفون بهذا. وجاء أن هذا في أول ما أنزل الله جل وعلا على رسوله ﷺ، وفي هذا أن الله يتكلم بكلام يسمع، وأن الملائكة تسمعه، وتعلم أنه صوته جل وعلا ولكنهم لم يفقهوه، وكذلك السماء تسمع كلام الله، ولهذا صاروا يسألون ماذا قال؟ فهو يتكلم ويقول، ولهذا قال البخاري رحمه الله على هذه الآية: ولم يقل ماذا خلق

ربكم[1]. بل قالوا: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ مما يدل على أنه يقول ما شاء متى شاء، والقول والكلام شيء واحد، ولا يزال متكلماً جل وعلا، ولكن الكلام متعلق بمشيئته.

وقوله: «﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾»: العلو معناه الارتفاع، والارتفاع يكون بالذات، ويكون عال على جميع المخلوقات فليس فوقه شيء جل وعلا، بل هو العالي العلو المطلق والمخلوقات كلها تحته، وأقرب شيء إليه عرشه، وهو أكبر المخلوقات.

وكذلك العلو علو القهر، فهو القهار يقهر الخلق كلهم، وكلهم عبدٌ ذليل له، ولهذا يقول تبارك وتعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم: ٩٣]؛ يعني: خاضعاً ذالّاً صاغراً، وهذا يوم القيامة تظهر العبودية عبودية الربوبية عبودية القهر، وليست عبودية الاختيار، ولهذا يقول العلماء: العبودية تنقسم إلى قسمين:

عبودية تصدر من العبد، عبودية بمعنى عابد، يعبد هو ويذل ويخضع حسب أمر الله وهذه التي تنفع وهي المطلوبة، وهي التي تنجي الإنسان.

وعبودية بمعنى جريان أحكام الله عليه، وهو ذال خاضع لا يستطيع أن يتخلص منها أو يمتنع منها، وهذه لكل أحد، فكل مخلوق عبد ذال خاضع لله حيث إن جريان أحكامه وأقداره جارية عليه صاغراً غير منظور إلى إختياره، أو أمره، فهذا القسم الثاني هو الذي يكون يوم القيامة.

فالعلو يكون بالقهر كما يكون بالذات، ويكون بالقدر، فالعلو له معاني ثلاثة:

الأول: علو ذات، فهو عال على خلقه بذاته جل وعلا فوق عرشه، وليس فوقه شيء.

الثاني: علو القهر، فهو القهار القاهر للخلق كلهم، ولا يمكن أحد أن يمتنع من قهره جل وعلا.

---

(١) البخاري ٣٢ باب قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ [سبأ: ٢٣].

الثالث: علو القدر، وهذا لا يكون إلا عند عباد الله الذين يعرفون الله، ويقدرونه حق قدره فهو عال في قلوبهم أعلى من كل شيء، وأعظم من كل شيء، أما أكثر الخلق فهم يفقدون هذا المعنى.

قوله: ﴿الْكَبِيرُ﴾: أيضاً من أسماء الله التي تدل على الصفات، التي أخذت منها الأسماء فهو أكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء، ولهذا أخبر سبحانه أنه يقبض السماوات كلها بيده اليمنى فتكون صغيرة بالنسبة إليه حقيرة كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: ٦٧] ذكر ابن جرير عند هذه الآية عن ابن عباس بسنده أنه قال: وإنما يستعين بشماله المشغولة يمينه[١].

وإنما الأرض والسماوات كلها بيمينه وليس في شماله شيء، ولهذا شرع لنا الله التكبير في جميع مواطن العبادة، ففي الصلاة عند ما ينتقل المصلي من ركعة إلى أخرى حتى يستشعر أن الله أكبر من كل شيء، وكذلك في نهاية العبادات والأمور المعظمة، وكذلك شرع عندما يطغى الإنسان ويتكبر فإنه يشرع التكبير، وأن الله أكبر من كل شيء، ولهذا السلف يطفئون النار بالتكبير؛ لأن النار تطلب العلو فإذا وقع الحريق كبروا فتطفأ بإذن الله[٢]، وكذلك شرع الرسول ﷺ التكبير

---

(١) تفسير الطبري ٢١/ ٣٢٤.

(٢) أخرج الطبراني في المعجم الأوسط رقم ٨٥٦٩ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أطفئوا الحريق بالتكبير». ورواه الطبراني في الدعاء رقم ٢٩٣، وعمل اليوم والليلة لابن السني ولفظه عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم الحريق فكبروا؛ فإن التكبير يطفئه»، وهو في المطالب العالية للحافظ ابن حجر العسقلاني رقم ٣٥٠٦، «إذا رأيتم الحريق فكبروا»، وقال الحافظ: هذا مرسل حسن. قال ابن القيم في زاد المعاد ٤/ ١٩٤: لما كان الحريق سببه النار وهي مادة الشيطان التي خلق منها وكان فيه من الفساد العام ما يناسب الشيطان بمادته وفعله كان للشيطان إعانة عليه وتنفيذ له وكانت النار تطلب بطبعها العلو والفساد، وهذان الأمران وهما العلو في الأرض والفساد هما هدي الشيطان وإليهما يدعو وبهما يهلك بني آدم، فالنار والشيطان كل منهما يريد العلو في الأرض والفساد وكبرياء الرب ﷻ تقمع الشيطان وفعله، ولهذا كان تكبير الله ﷻ له أثر في =

إذا علا نشزاً من الأرض من جبل أو مرتفع[1]؛ لأن الله أعلى من كل شيء، وأكبر من كل شيء، وأما إذا هبط في المنخفضات فإنه يسبح والتسبيح معناه التنزيه؛ يعني: سبحان الله أن يكون منخفضاً، أو يكون شيء فوقه.

۞ قال المؤلف رحمه الله: في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن نبي الله ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان ـ قال: علي، وقال غيره: صفوان ينفذهم ذلك ـ فإذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: قال الحق، وهو العلي الكبير، فيسمعها مسترق السمع، ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض ـ ووصف سفيان بكفه فحرفها وبدد بين أصابعه ـ فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته حتى يلقيها على لسان الساحر، أو الكاهن فربما أدرك الشهاب قبل أن يلقيها وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معها مائة كذبة، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا كذا وكذا، فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء»[2].

قوله: «في الصحيح»: سبق أن هذا الأسلوب عنده رحمه الله يتكرر كثيراً يقول في الصحيح، ويقصد الحديث الصحيح، وقد يقصد الكتاب، وهذا الحديث في الصحيحين.

قوله: «إذا قضى الله»: القضاء هنا يقصد به الحكم الذي يحكم فيه، فهو

= إطفاء الحريق، فإن كبرياء الله ﷻ لا يقوم لها شيء، فإذا كبر المسلم ربه أثر تكبيره في خمود النار وخمود الشيطان التي هي مادته فيطفئ الحريق، وقد جربنا نحن وغيرنا هذا فوجدناه كذلك، والله أعلم.

(١) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ كان إذا قفل من غزو أو حج أو عمرة يكبر على كل شرف من الأرض ثلاث تكبيرات ثم يقول: **«لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير. آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون. صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده»** رواه البخاري رقم ١٧٩٧، وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: كنا إذا صعدنا كبرنا وإذا نزلنا سبحنا. رواه البخاري رقم ٢٩٩٣.

(٢) رواه البخاري رقم ٤٧٠١.

يكون بالكلام، يأمر جبريل أن يفعل كذا وكذا، وهذا ظاهر أن الأمر يكون بكلامه جل وعلا، ومعلوم أن الأمر لا يكون إلا بالكلام، وقد بيَّن سبحانه الفرق بين الأمر والخلق، قال جل وعلا: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤]، فالخلق هو تكوين الأشياء وإيجادها بعد أن كانت عدماً، والأمر بقوله الذي يحكم به، ويشرعه لعباده بأمره ونهيه.

قوله: «في السماء»؛ يعني: في السماء العلو، والسماء تطلق على السماء المبنية، وتطلق على العلو.

وقوله: **«في»**: يدل على أن معناه العلو، وليست هذه ظرفية حتى تكون السماء ظرف لله سبحانه وتقدس، وليس هناك حاجة؛ لأن نقول أن: «في» هنا بمعنى: «على» مع أن «في» تأتي بمعنى على كثيراً، مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأنعام: ١١]، ومعلوم أن المقصود سيروا على الأرض، وقوله تعالى في قصة فرعون: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]، وهذا كثير وحروف الجر قد تتناوب كثيراً، وهذه من الأمور التي ينبغي على طالب العلم أن يطلع عليها، ويعرفها حتى لا يلتبس عليه الأمر في ذلك.

والصوت المسموع هو صوت الله جل وعلا خلافاً لأكثر شراح الحديث الذين يقولون: إن الصوت هو صوت السماء فهل يعقل أن السماء تسمع، صوت السماء يقولون: أنها تأخذها رعدة ورجفة من صوتها، هذا غير معقول ولا يصلح أن يكون في الكلام، ولهذا البخاري رحمه الله لما ذكر الآية ذكر الأحاديث التي تدل على أن الله يصوت مثل حديث أنيس ذكره تعليقاً قال: ويذكر عن جابر عن عبد الله بن أنيس قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**يحشر الله العباد فيناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب أنا الملك أنا الديان**»[1]، وحديث

(١) رواه البخاري رقم ٣٢ باب قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ [سبأ: ٢٣].

أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «**يقول الله: يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك، فينادي بصوت إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار**»[١] قال البخاري: «قالوا: ماذا قال ربكم؟ ولم يقولوا ماذا خلق ربكم؟»[٢]، فالمقصود أن البخاري بيَّن بالأحاديث أن المسموع الذي جاء أنه كأنه سلسلة، أنه صوت الله جل وعلا، وهذا هو ظاهر الأحاديث، وهو الذي يدل عليه كلام شيخ الإسلام في مواضع متعددة، وهو الذي لا ينبغي أن يعدل عنه؛ لأنه ظاهر النص، وإن كان الحافظ ابن حجر، وابن بطال في شرحهما لصحيح البخاري يأبيان كل الإباء هذا، ويجعلون هذا من الباطل، والواقع أن هذا هو الحق؛ لأن الواجب على الإنسان أن يتعرف على مراد المتكلم ولا يحاول أن يجعل كلام المتكلم موافقاً لعقيدته التي نشأ عليها وأخذها عن مشايخه، وهذا هو الذي يحمل عليه صنيعهم، ولا نقول أنهم أرادوا مخالفة الحق، ولكن هذا الذي تبين لهم، وإن كان الحق خلاف ما قالوا، ودليلهم ما رواه الإمام أحمد وأبو داود، ولفظ أبي داود هو الذي تعلقوا به: «**إذا تكلم الله بالوحي سمع للسماء صوت**»[٣]، فهذا هو الذي تمسكوا به ويجوز أن هذه الرواية بالمعنى، فكثير ما تروى الأحاديث بالمعنى كما سبق في حديث معاذ، وألفاظه كلها في الصحيح: «**أنك تأتي قوم أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله**»، وفي رواية «**أن يعبدوا الله**»، وفي رواية: «**أن يوحدوا الله**» فلا يقال: أن رسول الله ﷺ قال: «**يعبدوا الله، يوحدوا الله، يشهدوا أن لا إله إلا الله**»، بل هذا من تصرف الرواة يعبرون بما يرونه، ومثل حديث عمران الذي في صحيح البخاري أيضاً، وهو حديث فرد لم يروه إلا البخاري، وهو رواية واحد قال: عن عمران بن حصين ﷺ قال: دخلت على النبي ﷺ،

(١) رواه البخاري رقم ٧٤٨٣. (٢) سبق تخريجه.

(٣) سنن أبي داود رقم ٤٧٣٨ عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السماء للسماء صلصلة كجر السلسلة على الصفا فيصعقون فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل حتى إذا جاءهم جبريل فزع عن قلوبهم**»، قال: «**فيقولون: يا جبريل ماذا قال ربك؟ فيقول: الحق، فيقولون: الحق الحق**».

وعقلت ناقتي بالباب فأتاه ناس من بني تميم فقال: «اقبلوا البشرى يا بني تميم». قالوا: قد بشرتنا فأعطنا مرتين، ثم دخل عليه ناس من أهل اليمن فقال: «اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم». قالوا: قد قبلنا يا رسول الله، قالوا: جئناك نسألك عن هذا الأمر، قال: «كان الله، ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السماوات والأرض». فنادى مناد ذهبت ناقتك يا ابن الحصين، فانطلقت فإذا هي يقطع دونها السراب، فوالله لوددت أني كنت تركتها[(١)].

فهذا جاء فيه قوله: «لم يكن شيء غيره»، وفي لفظ: «لم يكن شيء قبله»[(٢)]، ولفظ آخر: «لم يكن شيء معه» هذا كله في الصحيح، فلا يقال: إن رسول الله ﷺ قال: «قبله، معه، غيره»، ولكنها ألفاظ مترادفة وكل واحد من الرواة عبر عنه باللفظ الذي حضره، وهو مرادف لما قاله رسول الله ﷺ والإشكال الذي وقع عندهم في قوله: «كأنه سلسلة» كاف التشبيه فهذا الذي منعهم بأن يقولوا: إنه كلام الله فهم يقولون: كيف يشبه كلام الله بجر السلسلة على الصفا مع اعتقادهم من نفي الكلام الحقيقي عن الله تعالى، وأن كلامه معنى قائم بذاته نقول: إن المشبه هو الصوت المسموع لهم أي الملائكة سمعوا كلاماً لم يفهموه ولكنهم علموا أنه كلام الله جل وعلا، فأراد الرسول ﷺ أن يبين لهم أن الذي سمعوا كلام الله، ولكنهم ما فهموه، ولهذا صاروا يسألون: ماذا قال ربنا؟ فهل يعقل أنهم إذا سمعوا صوت السماء، قالوا: ماذا قال ربنا؟ السماء تكون هي القائلة، ثم يسألون: ماذا قال ربهم؟ فهذا تشبيه الصوت بالصوت، وليس تشبيه المصوت به، وهذا تقريب للأذهان فقط فهو كقوله ﷺ: «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر»[(٣)].

وقوله: «ضربت الملائكه بأجنحتها خضعاناً لقوله»: خضعاناً: بفتحتين؛ يعني: خضوعاً وذلاً له تعالى، ويجوز أن تضم الخاء وتسكن الضاد؛ يعني:

(١) رواه البخاري رقم ٣١٩١. (٢) رواه البخاري رقم ٧٤١٨.
(٣) رواه البخاري رقم ٥٥٤، ومسلم رقم ٦٣٣ من حديث جرير بن عبد الله.

تضرب بأجنحتها خضعاناً وذلاً وعبادة وسكوناً له، وخوفاً منه مع عظمة الملائكة وكبرها، فكيف ببني آدم المسكين الضعيف المتكبر الذي يبارز ربه بالمعاصي وهو ينظر إليه، لا يمتثل أمره، وقد يفعل ما نهاه عنه مع ضعفه، لو أصيب بشوكة وجدته ساهراً متألماً حياته قد تضطرب، فإذا انكسر ظفره، أو انكسر أصبعه، أو رجله يألم ألماً شديداً، ومع هذا يبارز ربه بالمعاصي، ولا بد له من ربه لا بد أن يرجع إلى ربه ويسأله عن فعله؛ لأنه خُلق للعبادة، خلقه الله ليعبده، وسخر له ما في السماوات وما في الأرض.

والملائكة مع عظمتها تعرف الله، وكل من عرف الله ذل له وخضع، كما قال بعض السلف: من كان بالله أعرف، كان منه أخوف[١]. فهذه قاعدة مطردة، إلا من أزاغه الله؛ لأن الأمر بيد الله، فالشيطان يعرف ربه جل وعلا ولكنه كفر؛ لأن الله أراد هذا، فالواقع أنه لا يمكن أن يقع شيء إلا بإذنه.

وكثير من العلماء يعرفون الله لكن معرفة محدودة، ثم يزيغون ـ نسأل الله العافية ـ ويؤثرون الدنيا، بل ويؤثرون طاعة المخلوق على طاعة الله وهذا كثير، والأمر بيد الله من استقام فالمنة لله جل وعلا عليه يجب أن يعترف لله بفضله عليه، ويسأل الله أن لا يسلبه ذلك، ولهذا يقول الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى: في قوله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الحديد: ١٧] فيه إشارة إلى أنه، تعالى، يلين القلوب بعد قسوتها، ويَهدي الحَيَارى بعد ضَلالتها، ويفرِّج الكروب بعد شدتها، فكما يحيي الأرض الميتة المجدبة الهامدة بالغيث الهتَّان الوابل، كذلك يهدي القلوب القاسية ببراهين القرآن والدلائل، ويولج إليها النور بعد ما كانت مقفلة لا يصل إليها الواصل، فسبحان الهادي لمن يشاء بعد الإضلال، والمضل لمن أراد بعد الكمال الذي هو لما يشاء فعال، وهو الحكم العدل في جميع الفعال، اللطيف الخبير الكبير المتعال[٢].

---

(١) تعظيم قدر الصلاة للمروزي ٢/٧٢٨، أحمد بن عاصم الإنطاكي يقول: من كان بالله أعرف كان من الله أخوف، قال أحمد: صدق والله.

(٢) تفسير ابن كثير ٨/٢١.

والملائكة خضوعها وذلها خوفاً من العذاب، مع أنهم يعبدون الله لا يفترون وألهموا التسبيح مثل ما ألهمنا النفس، ألهموا التسبيح والتهليل والتقديس مع عظمتهم، والرسول ﷺ رأى جبريل عليه السلام على صورته مرتين، مرة في الأرض ومرة في السماء، رآه في الأرض سد الأفق؛ يعني: سد السماء من كل جوانبها وهو فوقه له ستمائة جناح وهو الذي تعاديه اليهود بأنه يأتي بالعذاب فقلع مدائن قوم لوط، وكانت سبع مدائن بما فيها من أرضها بطرف أحد جناحيه اقتلعها من تخوم الأرض وطار بها إلى أن صارت الملائكة الذين في السحاب يسمعون نبيح الكلاب وصياح الديكة، ثم قلبها وجعل عاليها أسفلها، ثم أمطروا حجارة من سجيل.

وكذلك صاح في قوم صالح ثمود، صاح بهم صيحة فأخمدوا عن آخرهم، هذه هي الصيحة التي يذكرها جل وعلا أنها أخذتهم مع هذه العظمة والقوة يخضع لله، حتى قال رسول الله ﷺ: رأيته عند سدرة المنتهى كأنه خلق ملقى خضوعاً لله وذلاً له جل وعلا[1]. وهكذا الملائكة كلها تخضع لله، وتذل خوفاً من الله.

قوله: «لقوله»: خوفاً أن يكون قد أمر بقيام الساعة، فيخافون أن ينالهم شيء من العذاب، مع أنهم قاموا بالعبادة قدر المستطاع.

وقوله: «كأنه سلسلة»: الكاف كاف التشبيه؛ يعني: أنهم يُشبهون الصوت المسموع لهم؛ كأنه صوت سلسلة تجر على صفا، هذا الصواب فلا يجوز أن نحرف كلام رسول الله ﷺ عن مراده؛ لأن الرسول ﷺ هو أعلم بالله، وهو أعظم تقديراً لله جل وعلا فلا يظن بالرسول ﷺ أنه عبر عن الحق بما يوهم الباطل، وسلوك غير الحق.

وقوله: «ينفذهم ذلك»؛ يعني: الصوت ينفذهم كلهم؛ يعني: أنه يمضي فيهم، لا يخفى عليهم يسمعونه كلهم. فهذا الصوت ينفذ في قلوبهم فيقعون مغشياً عليهم خوفاً من الله جل وعلا.

وقوله: «حتى إذا فزع»: حتى هنا قبلها كلام مقدر فهم من قوله:

---

(١) رواه البيهقي في دلائل النبوة ٢/٣٦٨ ـ ٣٦٩.

«حتى»؛ يعني: أنهم إذا سمعوا ذلك صعقوا وأصبحوا صرعى كأنهم ذاهبة عقولهم من شدة الخوف.

وقوله: «فُزع عن قلوبهم»؛ يعني: أُزيل الخوف عن قلوبهم الذي أصابهم، الذي من جرائه حصل الصعق، وهكذا الإنسان إذا خاف الخوف الشديد صُعق فقد شعوره. إذا زال ذلك، صاروا يسألون: **«ماذا قال ربكم؟»** يسأل بعضهم بعضاً. والملائكة بعضهم أقرب إلى الله من بعض، حتى ينتهي السؤال إلى من يتولى أمر الله الذي هو جبريل ﷺ، فإذا انتهى إليه قال لهم:

«قال الحق»: وفي هذا دليل على أنه لا يخبرهم عما أمره الله به؛ لأنه قد لا يكون يخصهم ويعلمون أنه لا يقول: إلا الحق، فينتهون عند ذلك، وكلهم يقول مثل ذلك:

«قال الحق وهو العلي الكبير»: وهذا يدل على ذلهم وخضوعهم واتباعهم لأمر الله جل وعلا، فلما قيل لهم هذا القول: ﴿قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]، فانتهوا إلى هذا فلم يبحثوا عن هذا القول، ولماذا؟ فخوفهم منعهم من أن يسألوا أكثر من ذلك، ثم يتحدثون بأمر الله الذي أنهاه جبريل ﷺ إليهم هم الذين يكونون قريباً من الأرض وليس الملائكة الذين في السماء؛ لأن الأمر هذا الذي سمعه جبريل أمراً يكون في الأرض فيُرسل جبريل إليهم فيبلغهم ذلك، فهم إما في السحاب أو دون السحاب فيتحدثون فيما بينهم في أمر الله الذي ينفذونه، وتكون الشياطين التي تسترق السمع يركب بعضهم بعضاً حتى يصلوا إلى قرب الملائكة يتصنتون حتى يسترقوا كلمة من الملائكة، ثم يأخذونها بسرعة فيأتي بها إلى وليهم من الإنس (الكاهن)، والكاهن هو الذي له تابع من الشياطين.

وقوله: «فيسمعها مسترق السمع، ومسترق السمع هكذا وصفه سفيان بن عيينة بكفه فحرفها وبدد بين أصابعه»: فقال هكذا يكون واحد فوق الثاني، والله أعطاهم هذه المقدرة لحكمة أرادها الله جل وعلا، ونزول الشهب هو من أجل ذلك، فإذا صاروا مثل ذلك، أُلقي عليهم الشهاب، وقد يقتلهم، وقد يذهب عقله، وقد يسلم، فهي مخاطرة فالشيطان يخاطر بهذا، كل ذلك حرصاً على إضلال الناس وكونه يحرقه، أو لا يحرقه كل هذا بأمر الله جل وعلا وركوب

بعضهم فوق بعض ليس إلى السماء الدنيا، وإنما إلى العنان؛ أي: السحاب، فعن عائشة ﷺ: أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الملائكة تنزل في العنان، وهو السحاب، فتذكر الأمر قضي في السماء فتسترق الشياطين السمع فتسمعه فتوحيه إلى الكهان فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم**»[1].

قوله: «فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته»: فإذا سمعها القريب من الملائكة ألقاها لمن تحته خوفاً من أنه يُصاب قبل أن يذهب بها، ثم الذي تحته يلقيها على من تحته حتى تصل إلى من في الأرض فيذهب بها مسرعاً إلى الكاهن فيلقيها بأذنه ويكذب معها مئة كذبة، فإذا حدث بالكذب واستُغرب قال الناس: «أليس قد قال لنا: يوم كذا كذا»، فوقع مثل ما قال: «**فيُصدق بتلك الكلمة التي سُمعت من السماء**» فيصدقون الكذب الكثير لأجل هذه الكلمة الواحدة التي سُمعت من الملائكة، وفي هذا دليل على أن الإنسان مجبول على تصديق الكذب، وأن الحق يكون ثقيل عليه، وهذا عام في الخلق والواقع يشهد لهذا.

والشهب: شظايا تنطلق من النجوم، والنجوم لا تزول عن أماكنها ولا تسقط. والله جعل النجوم زينة للسماء ورجوماً للشياطين يُرجمون بها، وهذا في الشيء الذي لا يُرى من النجوم، أو أنها شظايا تنطلق منها. ولهذا لما بُعث الرسول ﷺ شددت الحراسة فأصبح الشياطين لا يصلون إلى السماء كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ⑨﴾ [الجن: ٩]، هذا الذي يقوله مؤمن الجن، والإنس شعروا بها فالعقلاء من العرب صاروا يقولون: انظروا إذا كان الرمي بالكواكب المعروفة الثابتة فمعنى ذلك أن هذا إذان بزوال الدنيا وذهابها وإتيان الآخرة، وإن كان من غيرها، فهو لأمر حدث، فعن ابن عباس ﷺ قال: كان الجن يصعدون إلى السماء يسمعون الوحي، فإذا سمعوا الكلمة زادوا فيها تسعاً، فأما الكلمة فتكون حقاً، وأما ما زاد فيكون باطلاً، فلما بعث رسول الله ﷺ منعوا

---

(١) رواه البخاري رقم ٣٢١٠.

مقاعدهم فذكروا ذلك لإبليس، ولم تكن النجوم يرمى بها قبل ذلك، فقال لهم إبليس: ما هذا إلا من أمر قد حدث في الأرض فبعث جنوده فوجدوا رسول الله ﷺ قائماً يصلي بين جبلين أراه قال بمكة فأتوه فأخبروه فقال: هذا الذي حدث في الأرض[(١)].

وجاء في المسند عن ابن عباس قال: أخبرني رجل من أصحاب النبي ﷺ من الأنصار أنهم بينما هم جلوس ليلة مع رسول الله ﷺ رمي بنجم فاستنار، فقال لهم رسول الله ﷺ: **«ماذا كنتم تقولون في الجاهلية إذا رمي بمثل هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم كنا نقول: ولد الليلة رجل عظيم، ومات رجل عظيم، فقال رسول الله ﷺ: فإنها لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته، ولكن ربنا تبارك وتعالى اسمه إذا قضى أمراً سبح حملة العرش، ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم حتى يبلغ التسبيح أهل هذه السماء الدنيا، ثم قال الذين يلون حملة العرش لحملة العرش: ماذا قال ربكم؟ فيخبرونهم ماذا قال، قال: فيستخبر بعض أهل السماوات بعضاً حتى يبلغ الخبر هذه السماء الدنيا فتخطف الجن السمع فيقذفون إلى أوليائهم ويرمون به فما جاءوا به على وجهه، فهو حق ولكنهم يقرفون فيه ويزيدون»**[(٢)]، وهذا يدل على أن النجوم مسخرة، وليس لها تصرف كما يزعمه المنجمون من أنها تدل على النحوس، أو السعود، وأن من ولد في برج كذا فإنه يكون كذا أو كذا، هذا كذب وضلال، وقد أخبر الله جل وعلا عن الحكمة من خلقها، وأنها لثلاثة أشياء:

زينة للسماء، وعلامات يهتدى بها السائر في البر والبحر، ورجوماً للشياطين[(٣)].

---

(١) أخرجه الترمذي رقم ٣٣٢٤ وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأخرجه النسائي في الكبرى رقم ١١٦٢٦.

(٢) رواه مسلم رقم ٢٢٢٩، وأحمد في المسند رقم ١٨٨٢.

(٣) رواه البخاري في باب النجوم عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [الملك: ٥] خلق هذه النجوم لثلاث جعلها زينة للسماء ورجوماً للشياطين وعلامات يهتدى بها، فمن تأول فيها بغير ذلك أخطأ وأضاع نصيبه وتكلف ما لا علم له به.

كل هذا حتى لا يأخذ الشيطان شيئاً من القرآن، ومن الوحي فيلقيه على الكاهن فيتكلم به، فيقول الناس هذا الذي جاء به محمد مثل ما يقول الكاهن، أما بعد وفاة الرسول ﷺ فإن الأمر رجع إلى ما كان عليه قبل البعثة، فكان قبل بعثته يرمى بالشهب والآن يرمى بها لنفس الغرض كما جاء في حديث عبد الرحمٰن بن حصين السابق.

قوله: «حتى يلقيها إلى الساحر أو الكاهن»: هذا شك من الراوي، الساحر له قرين من الجن، والكاهن كذلك كلاهما بواسطة الشياطين، ولكن المقصود بالساحر هنا هو الساحر الحقيقي؛ لأن السحر له معاني كثيرة، وهو أنواع فمنها ما لا يكون إلا بواسطة الشياطين يتعاون الشيطان مع النفوس الخبيثة فيقع الأذى على المسحور بإذن الله الكوني القدري.

أما الكاهن فهو الذي يخبر بالمغيبات، هكذا يُطلق على هؤلاء، والعرب كان عندهم كهنة، والكاهن لا بد له من شيطان يكلمه ويخاطبه يسمع خطابه، وهذا كثير جداً عند العرب، وكانوا يفخرون بالكهنة، إذا كان لأحد القبائل كاهن افتخروا بذلك ورجعوا إليه، ولا يزال الكهان إلى الآن يوجدون؛ لأن الشياطين تطلع على الأشياء التي لا يطلع عليها الإنسان، وعندهم المقدرة بكونهم يقطعون المسافات الشاسعة بوقت قصير وعندهم الاستطاعة بكونهم يركب بعضهم فوق بعض ويصلون إلى العنان «السحاب» بدون صواريخ ولا طائرات بأنفسهم، ولهذا لما قال سليمان ﷺ لجلسائه وكانوا أعيان الإنس وملوك الجن قهرهم بأمر الله، قال لهم: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [النمل: ٣٨] سليمان كان في بيت المقدس، وبلقيس كانت في اليمن مسيرة شهر، أخبره بأنه يأتيه بعرشها وهو الكرسي الذي كانت تجلس عليه: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾ [النمل: ٣٩]، ولكن: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٤٠]، وهذا من أعجب الأشياء قال العلماء[1]:

---

(١) تفسير ابن كثير ٦/ ١٩٢ قال ابن عباس: وهو آصف كاتب سليمان. وكذا رَوَى محمد بن إسحاق، عن يزيد بن رومان: أنه آصف بن برخياء، وكان صدّيقاً يعلم الاسم =

الذي عنده علم من الكتاب هو الذي يعرف اسم الله الأعظم فدعا لله باسمه الأعظم فحضر بلحظة.

قوله: «فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيه»؛ يعني: أدركه فقتله، وقد يصيبه فيصبح مصاباً، وقد يُزيل عقله يصبح لا عقل له، وقد يسلَم، فهي مخاطرة، وهم يعرفون هذا، فهذا يدلنا على حرصهم على إغواء بني آدم؛ لأن الكاهن يغوي خلقاً كثيراً، فإذا استولوا عليه معنى هذا أنهم استولوا على خلق كثير من بني آدم، ولهذا يحرصون على هذا.

قوله: «فيكذب معها مئة كذبة»: الضمير يصلح أن يعود إلى الشيطان، ويصلح أن يعود إلى الكاهن، أن الكاهن يكذب مئة كذبة، أو الشيطان يكذب للكاهن مئة كذبة، وقد يكون كل واحد منهما يكذب وليس ذلك ببعيد. فإذا جاء الكذب الظاهر وتداوله الناس، أكثر الناس ينكره، فإذا أنكره احتج عليه غيره بأن يقول: قد قال لنا يوم كذا كذا وكذا فصار صدقاً فيُصدق بهذه الكلمة الوحده تصدق بها مئة كذبة.

۞ قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ عن النَّواس بن سمعان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله أن يُوحِيَ بالأمرِ تكلَّمَ بالوَحي، أخذَتِ السماوات منه رَجفةٌ، أو قال: رِعْدَةٌ شديدةٌ خوفَ أمرِ الله، فإذا سمِعَ بذلك أهل السماوات صَعِقوا وخرُّوا لله سجَّداً فيكون أول من يرفع رأسَهُ جَبرائيل فيكلمُه الله من وحيه بما أراد، ثم يمر جبرائيل على الملائكة كلما مر بسماء سأله ملائكتها: ماذا قال ربنا يا جبرائيل؟ فيقول جبرائيل: قال الحقَّ وهو العلي الكبير، قال: فيقولون كلهم مثل ما قال جبرائيل، فينتهي جبرائيل بالوحي حيث أمره الله»[(١)].

في هذا الحديث ما ليس في الحديث الأول، فيه: «**إذا أراد الله أن**

= الأعظم. وعن قتادة، قوله: «قال: الذي عنده علم من الكتاب»، «وكان رجلاً من بني إسرائيل: اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب» تفسير ابن أبي حاتم ١١/١٣٧.

(١) تفسير الطبري ٢٠/٣٩٧، ٣٩٨، وابن كثير في تفسيره ٦/٥١٦، ورواه ابن أبي عاصم في السنة ١/٢٢٧.

يوحي بالأمر تكلم بالوحي»، وهو صريح بأن أمره يكون بالكلام، وهو من أعظم الأدلة على إبطال دعوى الذين ينكرون كلام الله، ومنهم الأشاعرة الذين يقولون أن الكلام هو معنى واحد يقوم بالنفس، ومعلوم أن المعنى لا يُسمع ولا يكون له أثر، هذا الحديث صريح بأن الله ﷻ يتكلم، وأن كلامه يتعلق بإرادته، إذا أراد أن يتكلم تكلم، فهو فعال لما يريد، وبهذا استدل أهل السُّنَّة بأن كلام الله يتجدد، وأنه يقول الشيء الذي ما سبق أن قاله وأنه متعلق بإرادته إذا شاء أن يتكلم تكلم، وهذا يكون في الماضي والمستقبل، أما الماضي فلا يجوز أن يحد بوقت من الأوقات، فلا يجوز أن نقول أنه كان غير متكلم، ثم صار يتكلم، فهذا وإن كان يقوله كثير من الناس فهو من أبطل الباطل، وكذلك في المستقبل وفي الحال، فإذا الكلام يتعلق بمشيئته في الماضي والحال والمستقبل دائماً متعلق بمشيئته وهو داخل في قوله جل وعلا: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦]، وهذا الوصف لا يجوز أن يكون إلا لله ﷻ هو الذي إذا أراد شيئاً فعله تعالى وتقدس.

وهذه المسألة تتعلق بمسألة التسلسل المعروفة التي كثير من الناس إما أنهم لم يفهموها فأصبحوا يشنعون على من يقولها كما يقول الحافظ ابن حجر في فتح الباري يقول: «هذه المسأله من أشنع ما روي عن ابن تيمية وذكر له»، كيف صارت هذه المسألة من أشنع ما روي عنه؛ لأنهم يتصورون أن القول بتسلسل الحوادث أنه قول بقدم العالم هذا هو الذي يتصورونه، والحوادث هي الحوادث المحدثة والمتكلمون يقسمون التسلسل إلى قسمين:

قسم ممتنع عقلاً وفطرة وشرعاً وهو بالإجماع، وهو التسلسل في المُحْدِثين؛ يعني: أن كل محدِث قبله محدث إلى ما لا نهاية، فهذا باطل قطعاً؛ لأن المحدث هو الله جل وعلا، وهو أول بلا بداية ليس له مبدأ كما أنه آخر بلا نهاية: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ [الحديد: ٣].

والقسم الثاني: وهو التسلسل في المحدثات، أي الحوادث (المخلوقات): وهذا القسم للناس فيه ثلاثة مذاهب:

الأول: أنه جائز في المستقبل دون الماضي، وكثير من الناس يزعم أن هذا هو مذهب أهل السُّنَّة وليس كذلك، والسبب في هذا أنهم وجدوا في كتاب الله والأحاديث أن الجنة لا نهاية لها، والنار كذلك، وأهلها، فهذا في المستقبل بلا نهاية، ومعلوم أن جميع أفعال المخلوقات، ووجود المخلوقات هو الحوادث المقصودة.

الثاني: أن التسلسل ممنوع في الماضي والمستقبل وهذا ينسب إلى بعض المعتزلة مثل: أبي الهذيل العلاف، وأصحابه وهذا هو الذي بني عليه فناء الجنة والنار، وإن كان هو يقول أن الجنة لا تفنى، والنار تفنى، وإنما تفنى الحركات، وابن القيم[1] لما ذكر هذا في النونية صار يتهكم به، قال معناه أن أصحاب الجنة إذا تناول أحدهم قطفاً من العنب ففتح فاه، يبقى فاه مفتوحاً أبداً، وإذا مد يده تبقى ممدودة أبداً، وهكذا وهذا باطل.

الثالث: أن تسلسلها في الماضي والمستقبل، وهذا هو الذي يدل عليه قول البخاري، وهو الذي قال به أبو سعيد الدارمي في رده على الجهمية، وعلى بشر المريسي، وكذلك قول الإمام أحمد في رده على الزنادقة يدل كلامه على هذا، وليس المعنى أن هذا الكون المشاهد قديم، فحديث عمران بن حصين قوله: «نسألك عن هذا الأمر»[2] عن شيء مشار إليه مثل

---

(١) قال كَلَّلْهُ:

وتلطف العلاف من أتباعه	فأتى بضحكة جاهل مجان
قال الفناء يكون في الحركات لا	في الذات واعجباً لذا الهذيان
أيصير أهل الخلد في جناتهم	وجحيمهم كحجارة البنيان
ما حال من قد كان يغشى أهله	عند انقضاء تحرك الحيوان
وكذاك ما حال الذي رفعت يدا	ه أكلة من صحفة وخوان
فتناهت الحركات قبل وصولها	للفم عند تفتح الأسنان
وكذاك ما حال الذي امتدت يد	منه إلى قنو من القنوان
فتناهت الحركات قبل الأخذ هل	يبقى كذلك سائر الأزمان
تبا لهاتيك العقول فإنها	والله قد مسخت على الأبدان
تباً لمن أضحى يقدمها على ال	آثار والأخبار والقرآن

(٢) سبق تخريجه.

المخلوقات السماء والأرض، ولا شك أن هذه كانت بعد أن لم تكن، ولكن هل يقال: أنه لم يكن قبلها شيء، نقول هذا هو الذي لا يجوز بل الله لم يزل يفعل ما يشاء ليس شرطاً أن نعرف نحن هذا؛ لأن عقولنا قاصرة، وأفكارنا محدودة لا يمكن أن تحيط بشيء من صفات الله ﷻ، ولكن المبدأ في هذا أن نقول أن الله لم يكن معطلاً عن الفعل، ثم صار يفعل بعد أن لم يفعل، فالله لم يزل يفعل ما يشاء، هذا هو المقصود والأمر الذي يترتب عليه باطل فهو باطل.

قوله: «إذا أراد الله»: الإرادة معروفة أنها إرادة الفعل، فهي الباعث على ما يفعله، **وإرادة الله تنقسم إلى قسمين:**

الأول: إرادة أمرية دينية شرعية كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، فهذه لم تقع للناس كلهم لكن لمن قبل أمر الله، فهم الذين يسرهم لليسرى وجنبهم العسرى، ولهذا فهي تتعلق بالأمر فقط بأمر الله جل وعلا.

القسم الثاني: إرادة كونية قدرية، والكونية القدرية تدخل فيها الدينية.

قوله: «أن يوحي»: والوحي هو: الإعلام بخفية، يُعلم بالشيء بخفاء، وأمره يخفى على أكثر الناس، وهو ينقسم إلى أقسام:

القسم الأول: قد يقصد به الإلهام، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [النحل: ٦٨]؛ يعني: ألهمها، وليس وحياً يُكلمها به، ومثل الوحي إلى أم موسى فهو إلهام يلهمها الله إياه.

القسم الثاني: يقصد به الكلام، وهذا إما أن يكون من وراء حجاب مثل ما كلم موسى وكلم آدم، ومحمد ﷺ في ليلة المعراج بدون واسطة لكنه من وراء حجاب.

القسم الثالث: أن يكون بواسطة الملك وهو جبريل ﷺ، وهو الذي يأتي إلى الرسل، وهو السفير بين الرسل وبين الله جل وعلا في جميع الرسل.

القسم الرابع: أن يكون بنفث في الرُّوع، فعن حذيفة ﷺ قال: قام النبي ﷺ فدعا الناس فقال: **«هلموا إلي»**، فأقبلوا إليه فجلسوا، فقال: **«هذا**

رسول رب العالمين جبريل نفث في رُوعي أنه لا تموت نفس حتى تستكمل رزقها، وإن أبطأ عليها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزق أن تأخذوه بمعصية الله، فإن الله لا ينال ما عنده إلا بطاعته»[1].

قوله: «تكلم بالوحي»: وهذا واضح في أن كلامه يسمع، ففيه الرد على الأشاعرة الذين يقولون: إن الكلام الذي يجب أن يُوصف الله به هو المعنى القائم بنفسه فقط، أما كلام يُسمع فهذا ممتنع؛ يعني: الكلام الذي يكون بحرف وصوت؛ لأن المسموع لا بد أن يكون بحرف وصوت فهذا عندهم ممتنع ويجعلونه مخلوقاً، ولهذا السبب هم يقولون: أن القرآن عبارة عن كلام الله والذي عبر هو الملك الرسول ويستدلون على هذا بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾﴾ [التكوير: ١٩]، فأضاف القول إليه، **فالجواب عن هذا إن يقال:**

إن الكلام جاء مرة مضافاً إلى الرسول الملكي، وجاء مرة مضافاً إلى الرسول البشري، وإضافته إلى واحد منهما يمنع إضافته إلى الآخر، فدل على أن نسبة القول له؛ لأنه مبلغ عن الله، وليس هو الذي أنشأه، ومعلوم أن القول يضاف لمن قاله مبتدأ، وليس لمن قاله مبلغاً، فالقول لمن بدأه وأنشأه، وليس لمن بلغه وأسمعه، والله يقول: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾ [التوبة: ٦]، وهو يسمع كلام الله من المبلغ الذي يبلغ عن الله جل وعلا، ولهذا قال في سورة الحاقة لما ذكر الرسول البشري: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [الحاقة: ٤٠ ـ ٤٣]، فنصَّ على أنه تنزيل من الله، ثم قال: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾﴾ [الحاقة: ٤٤، ٤٥]؛ لأنهم يعرفون أن الأخذ باليمين أقوى وأشد، وإن كان الله جل وعلا لا يوصف بأن يده الأخرى ضعيفة تعالى وتقدس، ولهذا جاء عن الرسول ﷺ قوله في قصة آدم: **«اخترت يمين ربي وكلتا يدي ربي يمين»**[2]؛

---

(١) أخرجه البزار رقم ٢٩١٤.

(٢) أخرجه الترمذي رقم ٣٣٦٨ وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه. وأخرجه =

يعني: قوية تامة كاملة لا يلحقها نقص كيد المخلوق، فيد المخلوق اليسار أضعف من اليمين، وقوله: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝٤٥﴾ [الحاقة: ٤٥]؛ يعني: بالقوة التي لا هواد فيها، فهم يفهمون أن الأخذ باليمين هو أشد وأقوى، ومن هذا يتبين لنا قول بعض المتأخرين: إن ذكر الشمال لا يجوز، ولا يجوز أن نصف ربنا بأن يده شمال، وما ثبت في صحيح مسلم في قوله ﷺ: «**يطوي الله ﷻ السماوات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين بشماله، ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟**»[1] يقول أن هذا شاذ، وكذلك جاء في غير مسلم[2] نقول إن هذا باطل، فالشذوذ يكون لما خالف غيره، وهذا تأسيساً وهذا ليس فيه شيء يخالف، والمشكلة تأتي من الفهم، يتصور أن معنى قوله: «**كلتا يديه يمين**» أنها من جانب واحد تعالى وتقدس، فهذا لا يجوز أن يفهم هذا شَوَهٌ ـ نسأل الله العافية ـ، ومعلوم لكل مسلم أن الرسول ﷺ أعلم الخلق بالله، وأعظمهم تقديراً لله، فلا يجوز أن يعبر الرسول ﷺ بشيء فيه من تنقص لله جل وعلا، فإذا قال الرسول ﷺ قولاً وجب علينا أن نقبله، ولكن يجب أن يصان عن الفهوم الفاسدة والآراء التي تكون قاصرة.

وقوله: «إذا تكلم بالوحي أخذت السماوات»: مفعول به، و«**رجفة**» فاعل؛ يعني: أن السماوات تصيبها رجفة أو قال: «**رعدة شديدة**»، هذا أيضاً من محل الشاهد للباب، فإذا كانت السماوات على كبرها وعظمتها تخاف من الله هذا الخوف الشديد وهي السماوات، ألا يخاف الذي يدعو غير الله الذي يدعو ميتاً رميماً تحت أطباق الثرى لا يستطيع أن يدفع الدود عن

= الحاكم في المستدرك رقم ٢١٤ وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، فقد احتج بالحارث بن عبد الرحمٰن بن أبي ذباب، وقد رواه عنه غير صفوان وإنما خرجته من حديث صفوان لأني علوت فيه. وله شاهد صحيح. وقال الذهبي: على شرط مسلم. وأخرجه البيهقي رقم ٢١٠٢٥، وأبو يعلى في مسنده رقم ٦٥٨٠.

(١) رواه مسلم رقم ٢٧٨٨ من حديث ابن عمر ﷺ.

(٢) رواه الطبراني في الأوسط رقم ١٣٣١، وأبو يعلى في مسنده رقم ٥٥٥٨.

جسده، ولا يستطيع أن يمحو سيئة من صحيفته، ولا يزيد حسنة في صحيفته ومع هذا يدعوه يقول: اشفع لي أو أعطني كذا، أو فلان ظلمني، أو ما أشبه ذلك كما هو الواقع في كثير من بلاد المسلمين وللأسف.

أو يأتي مثلاً إلى من هو معظم، قد عظمه الله جل وعلا، وأعظم من هو معظم الملائكة كما سمعنا، فيأتي إلى الرسول فيدعوه ويستنصره يقول مثلاً: أمتك هُضمت وظُلمت فانتصر لها، وهذا ـ نسأل الله العافية ـ كثير في الناس، والسبب في توجههم إلى هذه الأمور أنهم لم يقدروا الله حق قدره، ولم يعلموا عظمة الله جل وعلا فجعلوا شيئاً من حقوق الله وصفاته للمخلوق.

وقوله: «رجفة»، أو قال «رعدة»: المعنى واحد، ولكن يظهر أن هذا شك من الراوي؛ يعني: هل قال الرسول ﷺ «رجفة»، أو «رعدة شديدة»؟ ثم بيَّن السبب من الرجفة أو الرعدة أنه الخوف من الله، ومعلوم أن السماوات جماد فلا نعلم نحن ما هي مادة السماء خلاف الأرض التي هي تراب وحجارة ومياه، فالسماء ما رأيناها هل هي مثل الأرض أو من نوع آخر؟ كما يقول بعض الناس: إنها من جواهر أخرى، فهذا لا يضيرنا ولا يهمنا، ولكن نقول أنها جماد مثل الجبال، ومثل الشجر فهي من هذه الأشياء، فهذا معناه أن الجمادات لها إحساس فإنها تخاف، ولهذا قال جل وعلا: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر: ٢١].

وهذا يجب أن يكون على ظاهره؛ يعني: أنه لو وجه هذا القرآن إلى هذه الجبال لصارت بهذه الصفة، ولكنه مخاطب به أناس قلوبهم أعظم قساوة من الجبال وهم غافلون عن هذا، وهم لا يتأثرون به لأجل الغفلة وطول الأمل، وأنه سيبقى ويفكر فيما بعد، ثم يفاجأ الإنسان الموت وهو في غفلة، فالواجب على الإنسان أن يكون أجله بين عينيه دائماً، وأن وقته الحاضر هو الذي يستغله، وهو الفرصة؛ لأن الماضي انتهى لا حيلة فيه لك إلا إذا وفقك الله بالتوبة والاستغفار مما مضى، والوقت الحاضر والمستقبل غيب أمره إلى الله لا تدري أنت تدركه أو لا تدركه، فالمقصود أن السماوات تخاف

من الله، وقد أخبر الله جل وعلا عنها كما قال: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: ٤٤]، وكثيراً ما يأتي في القرآن أن ما في السماوات وما في الأرض يسبح لله، والقول الصحيح أن التسبيح بالقول والفعل ليس بالحال؛ لأن بعض الناس يقول تسبيح حالي، معناه أن العاقل إذا نظر إليها سبَّح الله؛ لأنها تدل على وجود الله فهذا بعيد، الأول هو الصحيح وهو الذي يدل عليه الكلام.

قوله: «فإذا سمع ذلك أهل السماوات»: أهل السماوات سكانها الذين يُعمرونها، والسماوات فيها سكان كثير على سعتها، فقد جاء في الحديث قوله ﷺ: «**إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون. وإن السماء أطت وحق لها أن تئط. ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، وما تلذذتم بالنساء على الفرشات، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله**»[1]، والأطيط هو التصويت من الثقل، يقولون: أطَّ الرحل، والرحل هو الخشب الذي يهيأ ويصنع ويوضع على البعير، ثم يحمل عليه، فإذا كان الحمل ثقيل صار له صرير الذي هو الأطيط، فمعنى هذا أنها مملوءة من الملائكة، وهم خلقوا لعبادة الله وهم عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ولا يفترون من العبادة، ولا يسأمون منها دائماً وأبداً، مع أن فيهم من الملائكة من هو موظف في شئون بني آدم، فالإنسان معه أربعة ملائكة اثنان في الليل واثنان في

---

(١) أحمد في المسند رقم ٢١٥١٦، والترمذي رقم ٢٣١٢، وابن ماجه رقم ٤١٩٠ من حديث أبي ذر رضي الله عنه، وأخرج الطبراني في المعجم الكبير رقم ١٧٥١ عن جابر بن عبد الله: قال رسول الله ﷺ: «**ما في السماوات السبع موضع قدم ولا شبر ولا كف إلا وفيه ملك قائم أو ملك راكع أو ملك ساجد، فإذا كان يوم القيامة قالوا جميعاً سبحانك ما عبدناك حق عبادتك إلا أنا لم نشرك بك شيئاً**»، قال في مجمع الزوائد: رواه الطبراني في الكبير وفيه عروة بن مروان. قال الدارقطني: ليس بقوي في الحديث، وبقية رجاله رجال الصحيح. جامع الأحاديث للسيوطي ١٩/ ٦٩.

النهار، وهؤلاء دائماً معه، ثم إذا مات لا يذهبون إلى غيره يحفظون أعمالهم إما أن يستغفروا له أو يكونون حيث شاء الله جل وعلا، وهؤلاء غير الحفظة، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ [الرعد: ١١] هذه المعقبات تحفظه ما دام أجله لم يأت، فإذا جاء الأجل تخلَّوا عنه ومضى أمر الله فيه، وهم يعمرون السماء وعمارتها بالعبادة، وحتى الأرض عمارتها بالعبادة والإفساد في الأرض هو بالمعاصي: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]، وإصلاحها بالرسل الرسل يأتون للإصلاح في الأرض، وأهل المعاصي يفسدون فيها: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ١١﴾ [البقرة: ١١].

قوله: «صعقوا»؛ يعني: أصابتهم الصعقة، والصعقة هي أن يسمع الإنسان صوتاً مزعجاً فيفقد حسه، ويفقد عقله، ويزول من شدة هذا الفزع، وهذا يقع للإنسان كثيراً.

«صعقوا وخروا لله سجداً»: هل مع الصعق يخرون لله سجداً؟ وكيف مع الصعق يخرون سجداً؟ لأن السجود يدل على إرادة؛ يعني: إرادة السجود، أما الصعق فلا، فهو يُصاب بشيء لا إرادة له فيه وهو فقدان الحس، ومعنى هذا أنهم يُصعقون، ثم يزول الصعق، ثم يسجدون لله، والواو لا تدل على الترتيب، وإنما تدل على الجمع فقط، فإذا زال الصعق سجدوا لله؛ لأنهم علموا أنه كلام الله ﷻ تكلم به.

والأزهري في تهذيب اللغة تكلم عن هذه الآية، فجعل هذا خاص لما تكلم بالوحي الذي أوحاه إلى محمد؛ لأن الوحي قد انقطع فلما تكلم به أصابهم هذا الخوف الشديد خوفاً من أنها الساعة، وأنه أمر جل وعلا بقيام الساعة، وهم يخافون من قيام الساعة؛ لأن العذاب يحق ولا بد أن يقضي بينهم كما قال تعالى: ﴿وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٦٩﴾ [الزمر: ٦٩]، معناه أنهم يحاسبون، فهم يخافون من عذاب الله جل وعلا، وقد قال الرسول ﷺ لجبريل عليه السلام: **«ما لي لم أر ميكائيل ضاحكاً قط؟ قال: ما ضحك ميكائيل منذ**

خُلقت النار»[١]، فلما خلق الله الجن والإنس أمنت الملائكة شيئاً من ذلك؛ لأنهم هم وقودها[٢].

فالمقصود أنه لما زال عنهم الصعق خروا لله سجداً، والخرور يكون من قيام ومن جلوس.

قوله: **«فيكون أول من يرفع رأسه جبريل»**: هذا يدل على أن جبريل أيضاً يصيبه ذلك، ثم يسجد لله خوفاً من الله خضعاناً له فيكون أول من يرفع رأسه من السجود؛ لأن الله يكلمه ويأمره بالوحي «فيكلمه بوحيه، بما أراد».

قوله: «ثم يمر جبريل على الملائكة»؛ يعني: أنه يمضي بأمر الله، فيمر على الملائكة الذين في السماوات، والسماوات كما هو معلوم أنها متفاوتة في العلو.

قوله: «كلما مر بسماء سأله ملائكتها: ماذا قال ربنا يا جبريل؟»: فكلما مر على أهل سماء سألوه، فهذا فيه دليل على أن الكلام سمع في السماوات كلها الذي مر معنا أنه كجر السلسلة على الصفوان، وجبريل ﷺ لا يخبرهم **«فيقول: قال الحق»** فقط، ومعلوم أن الله لا يقول إلا حقاً وينتهون عند هذا، ففيه دليل على انقيادهم وطاعتهم، وأنهم لا يسألون عن الشيء الذي لا يُعنون به، ولكن خافوا أن تكون القيامة، أو غير ذلك. ثم يقولون مثل ما قال: «قال الحق وهو العلي الكبير».

العلي: العالي ذاتاً، والعالي قدراً، والعالي قهراً، فالعلو له ثلاث معاني:

---

(١) أحمد في المسند رقم ١٣٣٤٣.

(٢) عن عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم قال: لما خلق الله النار ذعرت منها الملائكة ذعراً شديداً، وقالوا: ربنا لم خلقت هذه النار؟ ولأي شيء خلقتها؟ قال: لمن عصاني من خلقي. قال: ولم يكن لله خلق يومئذ إلا الملائكة، والأرض ليس فيها خلق، إنما خلق آدم بعد ذلك، وقرأ قول الله: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١﴾ [الإنسان: ١] قال: قال عمر بن الخطاب: يا رسول الله ليت ذلك الحين. ثم قال: قالت الملائكة: يا رب، أويأتي علينا دهر نعصيك فيه! ـ لا يرون له خلقاً غيرهم ـ قال: لا إني أريد أن أخلق في الأرض خلقاً...» تفسير الطبري ١/٤٦٦.

علو الذات: وهو الارتفاع، فهو أعلى من كل شيء وليس فوقه شيء جل وعلا، ومعنى ذلك أنه دائماً في العلو حتى في نزوله كما أخبر عليه الصلاة والسلام يقول: «**ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له**»[1]، فنزوله وهو عال على عرشه؛ لأن نزوله وأفعاله لا يجوز أن تكون شبيهة بنزول وأفعال المخلوقين، فالمخلوق إذا كان فوق السطح، ثم نزل فلا بد أن يكون السطح فوقه، والله جل وعلا ليس بحاجة للعرش ولا لغيره، وهو الغني بذاته عن كل من سواه، ولكنه خلق العرش لحكمة أرادها واستوى عليه، وإلا فهو العلي الأعلى.

وعلو القدر: فهذا لا يكون إلا في قلوب عباد الله الذين يعرفونه، وهم يتفاوتون، منهم من تكون معرفته تامة مثل الرسل والملائكة، ومنهم ما تكون متفاوته تفاوتاً عظيماً، ولهذا تجد كثيراً من الناس لا يمتثل أمر الله ولا يتورع أو يمتنع عن معصيته؛ لأنه لم يعرف عظمة الله جل وعلا، ولهذا يقول كثير من العلماء المعاصي: ليس فيها كبير وصغير كلها كبيرة بالنظر إلى مخالفة أمر العظيم فهو عظيم، ومخالفة أمره وإن كان صغيراً فهو كبير، ولكن الصحيح أن المعاصي فيها كبير وصغير لقوله تعالى ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [النساء: ٣١]

والمعنى الثالث للعلو: علو القهر، فهو قاهر فوق خلقه بمعنى أن حكمه وأمره القدري ماض في الكون كله، ولا يمكن أن يمتنع عنه أحد، ولهذا قال سبحانه: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم: ٩٣].

عبداً بمعنى: ذليل خاضع، وليس عبد بمعنى: عابد؛ لأن هذا يكون يوم القيامة كلهم خاشعين، لا يرفع الإنسان طرفه خوفاً من الله، ولكن هذا لا ينفع؛ لأن هذا صار بعد المعاينة والمشاهدة، وأما الإيمان بالغيب لما كان يُطلب منهم ما كان هذا ليحصل منهم.

(١) رواه البخاري رقم ١١٤٥، ومسلم رقم ٧٥٨ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قوله: «فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل»: هذا يدلنا على حسن استسلامهم، وامتثالهم واتباعهم لأمر الله جل وعلا، فليس عندهم طلب من الفضول، خوفاً من الله جل وعلا.

ثم **يقول: «فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله ﷻ»**؛ يعني: أن هذا الذي تكلم به هو الوحي، أمر جبريل ﵇ أن يذهب به.

والمقصود بهذا بيان عظمة الله جل وعلا، وأن المخلوقات العظيمة من السماوات والملائكة أنها تخاف أشد الخوف بمجرد ما تسمع كلامه ترتجف ويأخذها الخوف الشديد، فكيف يسوغ لعاقل أن يدعو غير الكبير المتعال جل وتقدس، ولهذا كانت دعوة غير الله من أعظم الضلال، ويترتب عليها الخلود في النار؛ لأنه أظلم الظلم، إذ وضع ما هو حق لله جل وعلا في مخلوق ضعيف لا يملك لنفسه نفعاً، ولا يدفع عنها ضراً انتكاس في الفعل والشرع فاستحق بذلك أشد العقاب ـ نسأل الله العافية ـ، وكل هذا يدعو العبد أن يتأمل حاله ويفكر هل قام بأمر الله على الوجه المطلوب؟ فيدعوه إلى الاجتهاد، وإلى الخوف من الله جل وعلا، إذا كان المقربون إلى الله الذين لا يعصون الله طرفة عين يخافون منه هذا الخوف الشديد، فكيف يتجه من عنده عقل إلى غير خالق السماوات والأرض فيدعوه ويلتجئ إليه، وهو لا ينفع ولا يضر، ولا بد للعبد من الرجوع إلى الله فيجب أن يراقب نفسه وأن يحاسبها، ويتفقد عمله هل هو خالص لله جل وعلا؟ وهل هو على الوجه المطلوب، على ما جاء به النبي ﷺ؟ فإذا كان كذلك فليستبشر فإن الله جواد كريم يجزي على القليل الكثير، كما أنه إذا اعترف العبد بتقصيره ورجع فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين.

❁ **قال المؤلف ﵀: فيه مسائل:**

❁ **الأولى: ما فيها من الحجة على إبطال الشرك، خصوصاً ما تعلق على الصالحين، وهي الآية التي قيل: إنها تقطع عروق شجرة الشرك من القلب.**

هذا قاله ابن القيم: يقول إذا أعملت هذه الآية فإذا هي تقلع عروق

شجرة الشرك من القلوب؛ لأنه إذا نظرت إلى قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [سبأ: ٢٢]، يقول: لأن المفروض أن المدعو يملك الشيء الذي يُدعى له، فإذا كان لا يملك فهل تنفع دعوته لا تنفع دعوته شيئاً فأخبر الله جل وعلا أن المدعوين لا يملكون شيئاً ولا مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، فإذا انتفى الملك انتفت الدعوة، ولكن يبقى احتمال أنهم لا يملكون استقلالاً، ولكن لهم شرك مع المالك فنفي هذا الاحتمال: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾.

ويبقى احتمال ثالث وهو أنهم لهم معاونة، ومساعدة، فنفاه بقوله: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ ويبقى احتمال رابع: وهو الشفاعة وهم لا يملكون لا استقلالاً ولا شركاً، وليس لهم مظاهرة ومساعدة ومعاونة ومؤازرة مثل: ملوك الدنيا فبقي الشفاعة؛ يعني: أنهم يشفعون فأخبر الله أن الشفاعة لا تنفع إلا لمن أذن له: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣].

فصارت هذه الآية تنفي تعلقات المشركين من جميع الاتجاهات، وهذا هو السبب في قوله أنها تقلع عروق شجرة الشرك، ولكن لمن فهم، وفي كتاب الله من هذا النوع كثير، الآية والأحاديث تدل على ثبوت الشفاعة، وأن **الشفاعة قسمان:** شفاعة منفية، وشفاعة مثبتة.

ولكن المعتزلة والخوارج ينفون الشفاعة، وليس كل الشفاعة ينفونها، ينفون الشفاعة لأصحاب الكبائر سواءً الذين دخلوا النار، أو الذين لم يدخلوها بعد، فكل من مات على كبيرة فهو في النار عندهم ولا تنفعه الشفاعة؛ لأن الله أخبر أن يوم القيامة لا تملك نفس لنفس شيئاً، وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [البقرة: ١٢٣]، وما أشبه ذلك هذه هي أدلتهم فأخبر أن الشفاعة لا تنفع في الظلمة، وأما من مات على كبيرة فلا تنفعه الشفاعة فهو في النار، ولكن الخوارج يكفرونه في الدنيا ويحكمون عليه بالخلود في النار، والمعتزلة يحكمون عليه بالخلود في النار ولا يكفرونه في الدنيا، يقولون:

صاحب الكبيرة في منزلة بين المنزلتين بين الإيمان والكفر، وهذه هي التي اختصوا بها من بين الطوائف.

❁ **الثانية: تفسير قوله: ﴿قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.**

يعني: أن الله قوله حق، ومعنى الحق: الثابت المتيقن الذي لا يزول ولا يتطرق إليه الباطل، فالحق خلاف الباطل، الباطل يتضعضع ويزول ويضمحل ولا بد وإن كان له صولة في أول الأمر، ولكنه في النهاية لا يثبت: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ۝٨١﴾ [الإسراء: ٨١]، وقال جل وعلا: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ۝١٨﴾ [الأنبياء: ١٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ۝٤٩﴾ [سبأ: ٤٩]، ما يبدئ؛ يعني: ليس له مبدأ وثبوت، وليس في أخريته ثبوت بل هو مضمحل، ولهذا جاء في استفتاح النبي ﷺ في صلاة الليل: «**أنت الحق، وقولك الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والساعة، حق**»[1]؛ يعني: شيء ثابت لا بد منه، وواقع لا بد منه، خلاف الباطل فإنه لا يثبت.

❁ **الثالثة: سبب سؤالهم عن ذلك.**

لأنهم سمعوا كلاماً لم يفهموه وخافوا أن يكون الأمر بقيام الساعة قاله الأزهري هذا هو السبب.

❁ **الرابعة: أن جبرائيل يجيبهم بعد ذلك بقوله: «قال كذا وكذا».**

يعني: قال الحق، وهذا معناه أنه شيء مسموع، هذا هو المقصود أنه كلام مسموع، فالله كلامه يسمع، فإذا كان يسمع فهو بحرف وصوت.

---

(١) رواه البخاري رقم ٧٤٤٢ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ إذا تهجد من الليل قال: «**اللهم ربنا لك الحمد أنت قيم السموات والأرض، ولك الحمد أنت رب السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن، أنت الحق وقولك الحق ووعدك الحق ولقاؤك الحق والجنة حق والنار حق والساعة حق. اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك خاصمت وبك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وأسررت وأعلنت، وما أنت أعلم به مني، لا إله إلا أنت**».

۞ **الخامسة: أنه يقول لأهل السماوات كلهم؛ لأنهم يسألونه.**

يعني: أنه كل ما مر في سماء، وهذا يدل على أنهم سمعوا الصوت كلهم، وهذا هو الذي دل عليه نص الحديث: «**أخذت السماوات رجفة أو قال: رعدة**».

۞ **السادسة: أن جبرائيل هو الذي ينتهي بالوحي إلى حيث أمره الله.**

هو الذي يكون واسطة بين الله وبين الرسل، فهو المبلِّغ عن الله، فمعنى هذا أن الرسول لا يأخذ مباشرة عن ربه جل وعلا بل يأتيه جبريل ﷺ فيبلغهم عن الله، كما أننا لا نأخذ أيضاً عن الله مباشرة لا بد لنا من رسول يبلغنا، فالرسول واسطة بيننا وبين ربنا وهذه الواسطة لإبلاغ كلامه وأمره، ونهيه وتوحيده. أما واسطة تتخذها للدعاء والشفاعة والوسيلة نتوسل بها إلى مرادنا وطلباتنا، فهذه من الشرك لا تجوز، فعلى هذا الواسطة تكون حقاً، وتكون باطلة.

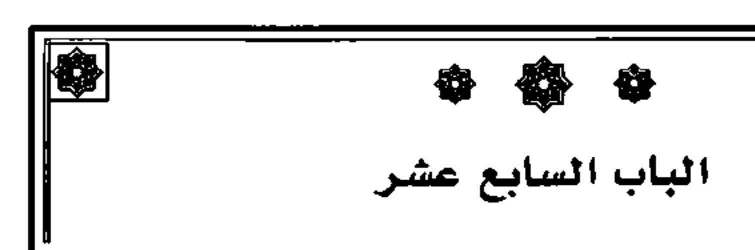
۞ **السابعة: إرسال الشهاب.**

الشهب التي ترسل كما قال الله جل وعلا: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾ [الصافات: ١٠]، والشهاب الثاقب الذي يمضي حيث أمر، وقد يصيبه وقد يخطئه، وقد يقتله إذا أدركه قتله.

۞ **الثامنة: أنه تارة يدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وتارة يلقيها في أذن وليه من الإنس قبل أن يدركه.**

إذا أدركه قتله، وقد يذهب بعقله تقدم ذكر ذلك.





الباب السابع عشر

❁ قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: باب الشفاعة.

هذا الباب والبابين قبله، والباب الذي بعده، الأربعة أبواب هذه أراد المؤلف بها تبيين أن المشرك ليس له أي تعلق؛ لأن هذه الأبواب تبين أن الملك والأمر كله لله، وليس لأحد معه شيء.

فالأول كون المدعو لا يملك شيئاً كيف يشرك به وهو مخلوق، وهو لا يستطيع أن ينصر نفسه، فكيف ينصر غيره؟ فإذا فكر الإنسان في هذا تبين له أن دعوة ذلك المخلوق الذي هذه صفته باطلة، والثانية صفة الملائكة الذين لهم قرب عند الله كيف تكون حالتهم إذا سمعوا كلام الله؟ يخافون أشد الخوف فكيف لو خالفوا أمر الله، مع أنهم يُطيعونه ولا يعصونه طرفة عين، فهم عباد مكرمون كما أخبر الله عنهم، والأمر الثالث الشفاعة تعلق بها المشركون قديماً وحديثاً، والواقع أنها أصل الشرك الذي تعلق به المشركون، وهم زعموا أن الشفاعة من باب التعظيم؛ لأنهم قاسوا رب العالمين جل وعلا على الضعيف الذي لا يملك أن يتصرف بنفسه لا بد له من أعوان، ولا بد له من حجبة؛ يعني: من الملوك والرؤساء الكبار، قالوا لو أن إنساناً ذهب إليهم رأساً ما استطاع أن يتحصل على مراده بخلاف ما إذا توسط لديهم من هو مقرب عندهم وطلب شفاعته فإنه ينجح، فهم يقولون الشفاعة من باب التعظيم فكيف تُنكر، فالله أعطى بعض أولياءه كرامة وقرباً، فنحن نسأل ذلك الولي القريب أن يُقربنا إلى الله.

فالمشركون عموماً يسألون أصنامهم بأنها لا ذنوب لها أن تشفع لهم، وإلا ما وجد أحد له عقل ونظر يدعي أن مخلوقاً يملك مع الله شيئاً، وأنه خلق من المخلوقات شيئاً، وإنما قالوا إنهم مقربون عند الله، فإذا طلبوا منه شيئاً أعطاهم ذلك، هذه هي شبهتهم، فهم يزعمون أن من يدعونهم ويتعلقون بهم

يكونون شفعاء لهم، فهذا من باب القياس، قاسوا رب العالمين على المخلوق من الملوك والرؤساء والأمراء الذين لا بد لهم من يثبت ملكهم من الوزراء والكبار الذين يخدمونهم، فقالوا إن الشفاعة هي أقرب وسيلة لحصول المطلوب، فأصل الشرك داخل من هذا الباب، فنجد كثيراً ممن يتعبد يصلي ويصوم تجده يلهج كثيراً بأن له وسائط يتعلق بجاههم ويقربهم، وأن لهم عند الله مقام كبير، وأنه يرجو شفاعتهم، وكل هذا من تزيين الشيطان وتسويله.

فأراد المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ أن يبطل هذا التعلق بهذا الباب، ثم يأتي بعد ما هو خاص في الرسل وجعل ذلك في أشرفهم وأعظمهم، والبقية يكون تبع وهو رسولنا ﷺ؛ لأنه لا يملك هداية أحد، يخبر أن ابنته التي هي أقرب الناس إليه أنه لا يملك لها من الله شيئاً، وإنما يملك ماله الذي ملكه الله إياه، إذا سألوه ذلك أعطاهم منه.

فبهذه الأبواب الأربعة بطل تعلق القبوريين الذين يتعلقون بالأولياء، ولكن بالتأمل فيها والتأمل في الآيات والأحاديث التي ذكرها وفهمها الفهم الصحيح.

أما الشفاعة فهي مشتقة من الشفع، والشفع يقابل الوتر، والوتر هو الفرد الواحد، والله وتر يحب الوتر[1]، ليس له شفع فهو وحده المالك لكل شيء وهو المتصرف في كل شيء، وهو الذي يفعل ما يشاء وغيره لا يستطيع من جميع المخلوقات، فهو الفعال لما يريد، وهو الذي تختص به أسماءه وصفاته لا يُشاركه أحد من خلقه، وإن حصل مشاركة لفظية فهي منتفية عند الإضافة والتخصيص، لا يمكن أن يكون للمخلوق شيء من ذلك، إذا أُضيفت إلى الله وخُص بها انتفى ذلك كله.

فالشفاعة أُخذت من كون الشافع يضم طلبه إلى المشفوع له، بدل ما كان المشفوع له فرداً وتر في طلبه انضم إليه آخر فسمي شفعاً.

---

(١) رواه البخاري رقم ٦٤١٠، ومسلم رقم ٢٦٧٧ واللفظ له عن أبي هريرة: عن النبي ﷺ قال: «لله تسعة وتسعون اسماً من حفظها دخل الجنة، وإن الله وتر يحب الوتر»، وفي الرواية ابن أبي عمر: «من أحصاها».

والشفاعة: هي الفعل الذي يفعله هذا الذي انضم إليه من قول أو فعل أو دعاء، وهي في هذا الدعاء فقط. والشفاعة جاءت في كتاب الله **على نوعين**:

الأولى: نوع منفي لا وجود له، ولا يقع وإنما يزعم المشركون وقوعه، وهي منتفية وقد نفاه الله في آيات كثيرة، وهي ما كانت مطلوبة من غير الله جل وعلا، وهي التي يدَّعيها هؤلاء أن أحداً يشفع بدون أن يأذن الله له، فهذه لا وجود لها، ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يونس: ١٨]، فالذي لا يعلمه الله لا وجود له، فمعنى هذا أن الشفاعة المزعومة لا وجود لها أصلاً، فهم يتعلقون بالشيء الذي يصوِّرونه بأذهانهم وزينه لهم الشيطان وهو مجرد أوهام.

ولا يقال في مثل هذا أنتم تنكرون شفاعة النبي ﷺ، فشفاعة النبي ﷺ لا تكون منه استقلالاً وبدون إذن الله تعالى، لا شفاعته عليه الصلاة والسلام، ولا شفاعة غيره، فلا يمكن أن تقع إلا إذا أمر الله بالشفاعة، فالإذن الذي جاء في الآيات: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥] هو الأمر، قبل أن يقول له ذلك لا يشفع، فهذا من تمام سلطانه جل وعلا، فالملك والسلطان كله له ليس لأحد منه شيء، وكذلك شفاعة غيره.

الثانية: الشفاعة المثبتة، وهذه الشفاعة قيدت بقيدين لا بد منهما:

الأول: إذنه جل وعلا للشافع أن يشفع، فلا تقع الشفاعة إلا إذا أذن له الله جل علاه، ولهذا أنكر وجودها ووقوعها بدون ذلك: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾.

الثاني: أن الشفاعة لا تقع إلا لمن رضي الله جل وعلا عنه، قال سبحانه: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم: ٢٦].

وقد يقول قائل: إذا كان الله يرضى عنه فما فائدة الشفاعة إذن؟

نقول: إن الشفاعة حقيقتها: هي إرادة الله ﷻ رحمة عبده المشفوع له وإظهار كرامة الشافع فقط، وإلا فالأمر لله جل وعلا، إذا أراد الله جل وعلا أن يرحم عبده المخلص، ويكرم الشافع أمر الشافع أن يشفع، وهذا يتبين من تأمل النصوص التي جاء فيها ذكر الشفاعة لرسول الله ﷺ يقول: «ثم أشفع فيحد لي حداً»[1]، لا يشفع فيمن يريد، هذا لا يمكن أبداً لا هو عليه الصلاة والسلام ولا غيره، فالإذن جاء في الآيات كلها، والشفاعة لله جل وعلا: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزمر: ٤٣، ٤٤]، فالشفاعة من تمام ملكه جل وعلا.

فالشفاعة إرادة الله ﷻ الرحمة للمشفوع له، وإظهار كرامة الشافع، فإذا أراد الله ﷻ أن يظهر كرامة النبي ﷺ ألهم الناس في الموقف أن يطلبوا الشفاعة من الرسول ﷺ كما في صحيح مسلم إذا طال عناءهم ووقوفهم ألهمهم الله أن يطلبوا الشفاعة[2]، ولا يلزم أن يكونوا كلهم، يكفي البعض، يقول بعضهم لبعض: لماذا ما نستشفع بالرسل فيشفعوا لنا، عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«يجمع الله المؤمنين يوم القيامة كذلك فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا حتى يريحنا من مكاننا هذا، فيأتون آدم فيقولون: يا آدم أما ترى الناس؟ خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء، اشفع لنا إلى ربنا حتى يريحنا من مكاننا هذا، فيقول: لست هناك ويذكر لهم خطيئته التي أصاب، ولكن ائتوا نوحاً فإنه أول رسول بعثه الله**

---

(١) رواه البخاري رقم ٤٤٧٦، ومسلم رقم ١٩٣ من حديث أنس بن مالك وفيه: «فأنطلق حتى أستأذن على ربي فيؤذن لي، فإذا رأيت ربي وقعت ساجداً، فيدعني ما شاء الله ثم يقال: ارفع رأسك وسل تعطه، وقل يسمع، واشفع تشفع، فأرفع رأسي فأحمده بتحميد يعلمنيه، ثم أشفع فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة ثم أعود إليه، فإذا رأيت ربي مثله ثم أشفع فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة ثم أعود الرابعة فأقول ما بقي في النار إلا من حبسه القرآن ووجب عليه الخلود».

(٢) رواه مسلم رقم ١٩٣ وفيه: «يجمع الله الناس يوم القيامة فيهتمون لذلك»، وقال ابن عبيد: فيلهمون لذلك، «فيقولون: لو استشفعنا على ربنا حتى يريحنا من مكاننا هذا».

إلى أهل الأرض فيأتون نوحاً فيقول: لست هناكم ويذكر خطيئته التي أصاب، ولكن ائتوا إبراهيم خليل الرحمٰن، فيأتون إبراهيم فيقول: لست هناكم ويذكر لهم خطاياه التي أصابها، ولكن ائتوا موسى عبداً آتاه الله التوراة وكلَّمه تكليماً، فيأتون موسى فيقول: لست هناكم ويذكر لهم خطيئته التي أصاب، ولكن ائتوا عيسى عبد الله ورسوله وكلمته وروحه، فيأتون عيسى فيقول: لست هناكم، ولكن ائتوا محمداً ﷺ عبداً غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فيأتونني، فأنطلق فأستأذن على ربي فيؤذن لي عليه، فإذا رأيت ربي وقعت له ساجداً فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال لي: ارفع محمد، وقل يسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع، فأحمد ربي بمحامد علَّمنيها، ثم أشفع فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة، ثم أرجع فإذا رأيت ربي وقعت ساجداً فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال: ارفع محمد، وقل يسمع وسل تعطه، واشفع تشفع، فأحمد ربي بمحامد علمنيها ربي، ثم أشفع فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة، ثم أرجع فإذا رأيت ربي وقعت ساجداً فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال: ارفع محمد قل يسمع وسل تعطه، واشفع تشفع فأحمد ربي بمحامد علمنيها، ثم أشفع فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة، ثم أرجع فأقول يا رب ما بقي في النار إلا من حبسه القرآن ووجب عليه الخلود»، قال النبي ﷺ: «يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، ثم يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وكان في قلبه من الخير ما يزن برة، ثم يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وكان في قلبه ما يزن من الخير ذرة»[1].

والشفاعة لا تكون إلا لأهل الإخلاص، والإخلاص هو: محبة الله وإرادة وجهه بالعمل.

وقسم العلماء الشفاعة حسب ورودها في النصوص، وإلا ليس فيها تقسيم عقلي ولا قياسي، فكل ما ورد في النصوص جعلوه نوعاً من الشفاعة، وقد تواترت النصوص عن النبي ﷺ في ذكر بعض الشفاعات، كما أن القرآن

(١) رواه البخاري رقم ٧٤١٠، ومسلم رقم ١٩٣.

يدل على هذا، فقوله جل وعلا: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله سبحانه: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ۝﴾ [المدثر: ٤٨]، كل هذا يدل على أنه هناك شفاعة مثبتة، وشفاعة منفية، فالشفاعة المثبتة هي التي تكون بإذنه وأمره، وإذنه هو أمره، لا يمكن أن يقدم أحد من الخلق لا محمد ﷺ ولا غيره أن يُقدم على طلب الشفاعة إلا إذا أُذن لهم؛ لأن تمام الملك وعظمة الله يمنع أحداً أن يطلب بدون إذنه، ولكن المشركين لا يفهمون هذا.

أنواع الشفاعات الست التي قسمها العلماء منها ما هو متواتر، ومنها ما جاء فيه نصوص، وصاحب شرح الطحاوية جعلها ثمان[1]، وجعل منها

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ١/١٤٧ ـ ١٥٠ قال ﷺ: الشفاعة أنواع: منها ما هو متفق عليه بين الأمة، ومنها ما خالف فيه المعتزلة ونحوهم من أهل البدع.

النوع الأول: الشفاعة الأولى، وهي العظمى، الخاصة بنبينا ﷺ من بين سائر إخوانه من الأنبياء والمرسلين، صلوات الله عليهم أجمعين.

النوع الثاني والثالث من الشفاعة: شفاعته ﷺ في أقوام قد تساوت حسناتهم وسيئاتهم، فيشفع فيهم ليدخلوا الجنة، وفي أقوام آخرين قد أمر بهم إلى النار أن لا يدخلونها.

النوع الرابع: شفاعته ﷺ في رفع درجات من يدخل الجنة فيها فوق ما كان يقتضيه ثواب أعمالهم. وقد وافقت المعتزلة هذه الشفاعة خاصة، وخالفوا فيما عداها من المقامات، مع تواتر الأحاديث فيها.

النوع الخامس: الشفاعة في أقوام أن يدخلوا الجنة بغير حساب، ويحسن أن يستشهد لهذا النوع بحديث عكاشة بن محصن، حين دعا له رسول الله ﷺ أن يجعله من السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب، والحديث مخرج في الصحيحين.

النوع السادس: الشفاعة في تخفيف العذاب عمن يستحقه، كشفاعته في عمه أبي طالب أن يخفف عنه عذابه. ثم قال القرطبي في التذكرة بعد ذكر هذا النوع: فإن قيل: فقد قال تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ۝﴾ قيل له: لا تنفعه في الخروج من النار، كما تنفع عصاة الموحدين، الذين يخرجون منها ويدخلون الجنة.

النوع السابع: شفاعته أن يؤذن لجميع المؤمنين في دخول الجنة، كما تقدم. وفي صحيح مسلم عن أنس ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: **«أنا أول شفيع في الجنة»**.

النوع الثامن: شفاعته في أهل الكبائر من أمته، ممن دخل النار، فيخرجون منها، وقد تواترت بهذا النوع الأحاديث. وقد خفي علم ذلك على الخوارج والمعتزلة، فخالفوا =

الشفاعة في السبعين ألف الذين يدخلون الجنة بغير حساب، وقال: الدليل ما في حديث حصين بن عبد الرحمٰن أن عكاشة بن محصن قام وقال: يا رسول الله ادع الله أن أكون منهم فقال: «**اللهم اجعله منهم**»[(١)]، فهذه شفاعة بأن يكون مع السابقين الذين يسبقون إلى الجنة بغير حساب.

أما الشفاعة الكبرى فهي متفق عليها بين أهل السُّنَّة والمعتزلة والخوارج؛ لأن إنكار المعتزلة والخوارج للشفاعة هو الذي جعل أهل السُّنَّة يذكرون الشفاعة في العقائد، وكلما أنكر أهل البدع شيئاً ثابتاً في الكتاب والسُّنَّة نص عليه أهل السُّنَّة في عقائدهم، وإن كان من الفروع، لهذا تجد مثلاً ذكر المسح على الخفين في العقيدة، في صفة أهل السُّنَّة، وأهل السُّنَّة يرون المسح على الخفين؛ لأن الرافضة لا يرون ذلك، والعجيب أنهم ينكرون المسح على الخفين ويمسحون على الرجلين؛ لأنهم منكوسون، وهم مخذولون لا في نظرهم وعقيدتهم، ولا في نهجهم وسيرتهم.

فالمقصود: الشفاعة الكبرى اتفقوا عليها؛ لأنها ليس فيها إخراج أحد من النار، وليس فيها إدخال أحد من أهل المعاصي الجنة، هذا هو السبب، وإنما فيها أن يفصل الرب بين خلقه فيدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار.

ومثلها الشفاعة في افتتاح باب الجنة، وهذه أيضاً الأحاديث فيها ثابتة، وفيها عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد، فيقول: بك أمرت لا أفتح لأحد قبلك**»[(٢)]، فيدخل أهل الجنة الجنة؛ لأنهم إذا عبروا الصراط حُبسوا فلا يدخلون الجنة ولا لأحد على الآخر في قلبه شيء من غل أو

= في ذلك، جهلاً منهم بصحة الأحاديث، وعناداً ممن علم ذلك واستمر على بدعته. وهذه الشفاعة تشاركه فيها الملائكة والنبيون والمؤمنون أيضاً. وهذه الشفاعة تتكرر منه ﷺ أربع مرات. ومن أحاديث هذا النوع، حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي**» رواه الإمام أحمد.

(١) سبق تخريجه.
(٢) رواه مسلم رقم ١٩٧.

حقد؛ لأن أمور الدنيا كثيرة ويحدث ما يحدث بين المؤمنين من الشحناء والبغضاء، ومن الأشياء التي تبقى في صدورهم، ولهذا أخبر سبحانه أنه نزع ما في صدورهم من غل، وأخبر أنهم إخواناً على سرر متقابلين: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحجر: ٤٧]، وهناك يُصَفُّون فإذا صفوا وهذبوا ونقوا مما في صدورهم أُذن لهم بدخول الجنة[1]، ولا يؤذن لهم إلا بشفاعة الرسول ﷺ، وهذه خاصة بالنبي ﷺ.

وشفاعة ثالثة لا خلاف فيها: وهي رفعة درجات بعض أهل الجنة، وهذه ليست خاصة بالنبي ﷺ، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾ [الطور: ٢١]، فهذه من أنواع الشفاعة.

القسم الرابع: وهي خاصة بالنبي ﷺ، وهي في فرد وهي شفاعته في عمه أبي طالب عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه: قيل للنبي ﷺ: ما أغنيت عن عمك فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال: «**هو في ضحضاح من نار ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار**»[2]، وفي رواية: «**لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيجعل في ضحضاح من النار يبلغ كعبيه يغلي منه دماغه**»[3]، وفي رواية: «**أهون أهل النار عذاباً أبو طالب، وهو منتعل بنعلين يغلي منهما دماغه**»[4]، وجاء: «**إن أهون أهل النار عذاباً من له نعلان وشراكان من نار يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل، ما يرى أن أحداً أشد منه عذاباً وإنه لأهونهم عذاباً**»[5]؛ يعني: أهل النار، أما خروجه من النار فلا يمكن؛ لأنه كافر، مات على الكفر.

---

(١) رواه البخاري رقم ٦٥٣٥ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا**».

(٢) رواه البخاري رقم ٣٨٨٣، ومسلم رقم ٢٠٩.

(٣) رواه البخاري رقم ٣٨٨٥، ومسلم رقم ٢١٠ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٤) رواه مسلم رقم ٢١٢ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) رواه مسلم رقم ٢١٣ من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما.

القسم الخامس: الشفاعة فيمن دخل النار من أهل الكبائر، وهذه الأحاديث فيها متواتر أن النبي ﷺ يشفع، والمؤمنون يشفعون، والملائكة تشفع جاء في حديث أبي سعيد الخدري ﷺ: «**ثم يؤتى بالجسر فيجعل بين ظهرَي جهنم**»، قلنا: يا رسول الله، وما الجسر؟ قال: «**مدحضة مزلة عليه خطاطيف وكلاليب وحسكة مفلطحة لها شوكة عقيفاً تكون بنجد يقال لها: السعدان، يمر المؤمن عليها؛ كالطرف، وكالبرق، وكالريح، وكأجاويد الخيل والركاب، فناج مسلَّم، وناج مخدوش، ومكدوس في نار جهنم حتى يمر آخرهم يسحب سحباً فما أنتم بأشد لي مناشدة في الحق قد تبين لكم من المؤمن يومئذ للجبار وإذا رأوا أنهم قد نجوا في إخوانهم يقولون: ربنا إخواننا كانوا يصلون معنا ويصومون معنا ويعملون معنا، فيقول الله تعالى: اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من إيمان فأخرجوه، ويحرم الله صورهم على النار فيأتونهم وبعضهم قد غاب في النار إلى قدمه وإلى أنصاف ساقيه فيخرجون من عرفوا، ثم يعودون فيقول: اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار فأخرجوه فيخرجون من عرفوا، ثم يعودون فيقول: اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه فيخرجون من عرفوا**».

قال أبو سعيد: فإن لم تصدقوني فاقرأوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا﴾ [النساء: ٤٠]، **فيشفع النبيون والملائكة والمؤمنون، فيقول الجبار: بقيت شفاعتي فيقبض قبضة من النار فيخرج أقواماً قد امتحشوا فيلقون في نهر بأفواه الجنة يقال له: ماء الحياة، فينبتون في حافتيه كما تنبت الحبة في حميل السيل قد رأيتموها إلى جانب الصخرة إلى جانب الشجرة فما كان إلى الشمس منها كان أخضر، وما كان منها إلى الظل كان أبيض، فيخرجون كأنهم اللؤلؤ فيجعل في رقابهم الخواتيم فيدخلون الجنة، فيقول أهل الجنة: هؤلاء عتقاء الرحمٰن أدخلهم الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه، فيقال لهم: لكم ما رأيتم ومثله معه**»[1] والأطفال يشفعون،

---

(١) رواه البخاري رقم ٧٤٣٩، ومسلم رقم ١٨٣.

فالذي يموت له طفل صغير يشفع له(١).

فهذه ينكرها المعتزلة والخوارج؛ لأن عندهم أنه من دخل النار لا يخرج منها لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۝١٩٢﴾ [آل عمران: ١٩٢]، فإذا أُخزي فلا يمكن أن يخرج منها، وهم يتعلقون بالظواهر ويتركون الأمور المحكمة الثابتة، ويجعلون ذلك من حجتهم على كفر مرتكب الكبيرة وهذا ضلال، والخوارج أصلهم أعراب لا يفهمون القرآن كما قال عليه الصلاة والسلام: «**يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم**»(٢)؛ يعني: لا يصل إلى قلوبهم ولا يفمهونه، ولهذا اقترحوا على الله اقتراح لا وجود له أن يكون الناس قسمين فقط: تقي نقي، وشقي بعيد فقط، وليس عندهم وسط إما هذا أو هذا، إما كافر أو مؤمن، وهذا ضلال ظاهر.

وبعضهم زاد الشفاعة في من يدخل الجنة بلا حساب، يقول الحافظ: ويستشهد لهذا بقصة عكاشة لما ذكر الرسول ﷺ أن من أمتي سبعون ألف يدخلون الجنة بلا حساب قام عكاشة فقال: ادع الله أن يجعلني منهم قال:

---

(١) رواى البخاري في صحيحه رقم ١٢٤٨ عن أنس ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «**ما من الناس من مسلم يتوفى له ثلاث لم يبلغوا الحنث إلا أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم**»، عن أبي سعيد ﷺ: إن النساء قلن للنبي ﷺ: اجعل لنا يوماً، فوعظهن وقال: «**أيما امرأة مات لها ثلاثة من الولد كانوا لها حجاباً من النار**». قالت امرأة: واثنان؟ قال: «**واثنان**»، البخاري رقم ١٢٤٩، ومسلم رقم ٢٦٣٣. وعند أحمد في المسند مسند أحمد رقم ١٠٦٢٢ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من مسلمين يموت لهما ثلاثة أولاد لم يبلغوا الحنث إلا أدخلهما الله وإياهم بفضل رحمته الجنة وقال: يقال لهم: ادخلوا الجنة، قال: فيقولون: حتى يجيء أبوانا، قال: ثلاث مرات، فيقولون مثل ذلك فيقال لهم: ادخلوا الجنة أنتم وأبواكم**»..

(٢) رواه البخاري رقم ٥٠٥٨، ومسلم رقم ١٠٦٤ ولفظه عن أبي سعيد الخدري ﷺ أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يخرج فيكم قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، وصيامكم مع صيامهم، وعملكم مع عملهم، ويقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، ينظر في النصل فلا يرى شيئاً، وينظر في القدح فلا يرى شيئاً، وينظر في الريش فلا يرى شيئاً، ويتمارى في الفوق**».

«اللهم اجعله منهم»، يقول هذا قسم سابع[(١)].

وقسم ثامن: الشفاعة في قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم أن يدخلوا الجنة[(٢)].

❁ **قال المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ: وقول الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الأنعام: ٥١].

الإنذار هو الإعلام بمواقع الخوف؛ يعني: الإعلام عن شيء متوقع أنه سيقع، ولهذا سمي الرسل «منذرين»، فالرسول بشير ونذير، بشير لمن أطاعه واتبعه بالسعادة في الدنيا والآخرة، ونذير لمن عصاه.

قوله: «﴿بِهِ﴾»: الضمير يعود إلى القرآن؛ يعني: أنذر بهذا القرآن الذي أنزل عليك وفيه النذارة الكافية من ذكر الحق وذكر الباطل، وأن الإنسان إذا اتبعه يكون متقياً ناجياً، ومن خالفه يكون مخوفاً عليه، بل متوقع أنه قريب يؤخذ ولا سيما إن كان من جملة المتبعين؛ **لأن الأمة تنقسم إلى قسمين**:

---

(١) فتح الباري لابن حجر ٤٢٨/١١ قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقال النووي تبعاً لعياض: الشفاعة خمس: في الإراحة من هول الموقف، وفي إدخال قوم الجنة بغير حساب، وفي إدخال قوم حوسبوا فاستحقوا العذاب أن لا يعذبوا، وفي إخراج من أدخل النار من العصاة، وفي رفع الدرجات»، ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «ودليل الثانية قوله تعالى في جواب قوله ﷺ: «أمتي أمتي»: أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليهم. كذا قيل، ويظهر لي أن دليله سؤاله ﷺ الزيادة على السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب فأجيب».

(٢) فتح الباري لابن حجر ٤٢٨/١١ قال رَحِمَهُ اللَّهُ: وظهر لي بالتتبع شفاعة أخرى وهي الشفاعة فيمن استوت حسناته وسيئاته أن يدخل الجنة، ومستندها ما أخرجه الطبراني عن ابن عباس قال: «السابق يدخل الجنة بغير حساب، والمقتصد يرحمه الله، والظالم لنفسه وأصحاب الأعراف يدخلونها بشفاعة النبي ﷺ، وقد تقدم قريباً أن أرجح الأقوال في أصحاب الأعراف أنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم»، وهذا الأثر الذي رواه عن الطبراني في المعجم الكبير رقم ١١٤٥٤ ولفظه عن ابن عباس: عن رسول الله ﷺ أنه قال ذات يوم: شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي، قال ابن عباس: السابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب، والمقتصد يدخل الجنة برحمة الله، والظالم لنفسه وأصحاب الأعراف يدخلون الجنة بشفاعة محمد.

الأولى: أمة يقال لها: أمة الإجابة.

الثانية: وأمة يقال لها: أمة الدعوة.

كل الخلق أنذرهم الرسول ﷺ، وهي أمة الدعوة من يهود ونصارى ووثنيين، كلهم أمة لمحمد ﷺ، وكلهم قد دعاهم عليه الصلاة والسلام، ثم هذا يدل على أن الإنسان يجب أن يفهم القرآن، والإنسان إذا أسلم وجب عليه أن يتعلم العربية، واللغة دين لا يمكن أن يُفهم كلام الله وكلام رسوله ﷺ إلا بها، وعلى هذا لا يمكن أن يسعد الإنسان إلا بتعلم اللغة العربية، ولهذا صارت واجبة.

وأنت تجد دعاة الضلال من مستشرقين وغيرهم ممن ابتليت الأمة بهم، ويتولون بعض القيادات أنهم يقللون من شأن اللغة العربية، بل يريدون أن يقضوا عليها ويعظمون لغة الكفار، ويريدون أن تكون هي التي يُعتنى بها ويكثف تعليمها.

فالمقصود أن **قوله**: «﴿وَأُنذِرَ بِهِۦ﴾»: أن من أنذر يجب أن يفهم ما أنذر به، والذي أنذر به هو القرآن فلا بد من تدبره وتعلمه وتفهمه، وتعلمه سهل ليس صعباً، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٧﴾ [القمر: ١٧].

والمعنى: هل من طالب علم فيعان؟[1]، هل من متذكر فيذكر؟ فإذا صار الإنسان عنده حسن استماع وطلب وفهم لا بد أن يحصل على شيء، وإن لم يحصل على الكل؛ لأن كلام الله لا حد لنهايته، ولهذا قال رجل للحسن البصري: «ما أفهم من الآيات الشيء الكثير»، قال: يكفي ما تفهمه؛ لأن كلام الله لا يحاط بكل معانيه، أو نحو هذا الكلام.

فتأمل في كتب التفسير منذ جاء الإسلام، والناس يكتبون في كلام الله ولا ينتهي، كل عالم يفتح الله عليه شيء لم يفتح على الآخر.

---

(١) البخاري باب قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ وقال مجاهد: يسرنا القرآن بلسانك هوّنا قراءته عليك، وقال مطر الوراق: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝٣٢﴾. قال: هل من طالب علم فيعان عليه.

فالمقصود أن يكون العبد قابلاً لكلام الله يتصور أن الله يخاطبه فيتفهم.

قوله: «﴿يَخَافُونَ﴾»: هذا فيه أن النذارة تكون خاصة، نذارة للخائفين، ولهذا يقول الفضيل بن عياض:

ليس كل خلقه عاتب، إنما عاتب الذين يعقلون فقال: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾... ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٥١][1]، أما أشباه البهائم فهم سادرون يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوًى لهم.

والخوف: هو الخوف من الله، الخوف الغيبي، الذي يقتضي الإيمان بالله، وهذا يقتضي أنه يعلم أن الله يُشاهد ويسمع كلامه، ويرى تقلباته ولا يخفى عليه شيء فيمتنع من ارتكاب نهيه ويمتثل أمره، فهذا معنى الخوف ﴿يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا﴾.

والحشر هو: الجمع في الشيء، فالحشر هو جمع الخلق من أولهم إلى آخرهم، والخلق هم الجن والإنس، فهم يجمعون في صعيد واحد، وهذا جاء كثيراً في كتاب الله، فبعد أن يحييهم من قبورهم يجمعهم للجزاء وكثير من الناس لا يؤمنون بهذا.

وقوله: «﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾»؛ يعني: يحشرون إلى ربهم جل وعلا حتى يُحاسبهم وإن كان هذا في الأرض والأرض غير هذه، وليس هذا معناه أنهم يذهبون إلى أرض أخرى، ولكن الأرض تُغير وتبدل وتصبح الأرض التي سفكت عليها الدماء وعملت عليها المعاصي مبدلة ويأتي غيرها: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ [إبراهيم: ٤٨]، فالجبال والبحار تذهب وتُمد فتصبح أرضاً مستوية فيحشرون عليها فيأتي الله جل وعلا فيقضي بينهم إذا شاء، ولهذا قال: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾.

والشاهد من الآية قوله: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام: ٥١] قوله: ﴿لَيْسَ لَهُمْ﴾ حال والتقدير متخلين عن الولي، فإذا كان هؤلاء الذين

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٥/ ٢٤٠.

يخافون ربهم ويؤمنون به لا يكون لهم ولي ولا شفيع، فكيف بالمشرك، وهذا عام ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾، فلا يقال: هذا خرج مخرج الخصوص، فهذا العموم لا يخصص سواءً كان رسولاً، أو ملكاً، أو مؤمناً تقياً، أما الكافر فالأمر فيه معروف، فمعنى هذا نفي الشفاعة ونفي الولاية، نفي الشفاعة عن غير الله، وهذه الآية مثل قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ﴾ [الزمر: ٤٣، ٤٤]، وهذا العموم المطلق ليس لأحد مع الله شفاعة، فالشفاعة لله جل وعلا وحده.

فهذا يدلنا على أن الكفار الذين يتعلقون بالقبور أنهم في ضلال بعيد لا يفهمون خطاب الله، وهم يتخبطون في الجهل ومخالفة أوامر الله جل وعلا، وهم يتقربون بهذه الأعمال التي يعملونها إلي مساخط الله وعذابه: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾﴾ [الأحقاف: ٥]، وهم: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾﴾ [الغاشية: ١ ـ ٤]، الغاشية هي: يوم القيامة، وقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾﴾؛ يعني: في يوم القيامة، خاشعة كانت في الدنيا، ﴿نَّاصِبَةٌ﴾ تعمل تكدح، وتذهب والنتيجة أنها: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾﴾، وهذا قول الله تعالى والحكم إليه ﷻ.

قوله: «﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ﴾»: من دون ربهم الذي يحشرون إليه.

«﴿وَلِيٌّ﴾»: هو الناصر، ليس لهم أحد ينصرهم.

«﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾»: الشفيع أقل من الناصر.

فبدأ بالولي ليس لهم ولي يتولاهم وينصرهم ويساعدهم متخلّين عن الولي الناصر. كل واحد يأتي كما ولدته أمه فرداً لا مال له حتى الشيء الذي يضعه على عورته، أو يستظل به، فكيف يكون له ناصر، ولهذا قال ﷺ: «**إنكم محشورون حفاة عراة غرلاً**»[1] غرلاً؛ يعني: غير مختونين؛

---

(١) رواه البخاري رقم ٣٣٤٩، ومسلم رقم ٢٨٦٠ عن ابن عباس رضي الله عنهما: عن النبي ﷺ =

لأن الخلقة تعود كما كانت حتى يذوق العذاب كله، أو النعيم كله.

فإذا كان الأمر هكذا فهو دليل واضح جلي على أنه لا يجوز دعاء غير الله ولا تعلق بغيره فهو الولي، وهو الذي يملك الشفاعة وهو الذي يأذن لمن يشفع أن يشفع.

فهذه الآية دالة دلالة واضحة على إبطال دعوى المشركين ومن سار على نهجهم ممن يدعي الإسلام، وهو يدعو الأولياء ويتشفع بهم، أو يدعو الرسول ﷺ، ويقول أنه يشفع.

❁ قال المؤلف رحمه الله: وقول الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزمر: ٤٤].

هذه الآية يحسن أن يضاف إليها الآية قبلها وهي قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ إذا جاءت ﴿أَمِ﴾ في مثل هذا فمعناها «بل»؛ يعني: بل اتخذوا.

«﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ﴾»: واقع هؤلاء أنهم ضلوا، ثم قال: ﴿أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾.

قوله: «﴿شَيْـًٔا﴾»: الشفاعة دخلت في هذا النفي، ونفي غيره، فهم لا يملكون شيئاً، فشيء نكرة، فنفي كل ما يدخل تحت شيء من شفاعة ونصرة ونفع وغير ذلك، فهم مع ذلك لا يعقلون؛ يعني: ليس عندهم العقل الذي ينتفعون به؛ لأنهم إما جماد، أو أنهم لا يسمعون فيعقلون دعوتهم التي يدعونهم لا يسمعونها ولا يعقلونها فكيف تدعون شيئاً لا يسمع ولا يعقل الخطاب الذي تخاطبونهم به، أليس هذا سفه ودعوة ضائعة، وليست ضائعة

= قال: «إنكم محشورون حفاة عراة غرلاً - ثم قرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] -، وأول من يكسى يوم القيامة إبراهيم وإن إناساً من أصحابي يؤخذ بهم ذات الشمال فأقول: أصحابي أصحابي، فيقول: إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم، فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٧، ١١٨]».

فقط بل هي ضلال، فهم في الواقع يعملون العمل الذي يمنع الشفاعة يأتون بما يرد الشفاعة.

ثم قال ﷻ: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾.

قوله: «﴿لِّلَّهِ﴾»: يدل على أن الملك لله وحده؛ لأن تقديم ما حقه التأخير يدل على الحصر والاختصاص (التخصيص)، وأنه خاص بالله، فإذاً إثبات شفاعة الرسل وشفاعة الملائكة ليست شفاعة مستقلة، وليست ملكاً لهم فهم لا يملكون شيئاً، وإنما هم يمتثلون أمر الله إذا أمرهم شفعوا وبدون أمره لا يمكن أحداً أن يشفع، فكيف يقال: إن لهم الشفاعة؟

الشفاعة لله، فكلام الله لا يتضاد ولا يناقض بعضه بعضاً، فكونها لله فهو يأذن لمن يشاء، فإذا قال المشرك أنك تقر بأنهم يشفعون، فأنا أطلب منهم الذي أُذن لهم فيه؟

فالجواب عن هذا أن يقال: طلبك منهم الشفاعة هو طلب لها من غير من هي ملك له، وهو يمنع من أن تقع لك الشفاعة؛ أي: أنه مشرك والمشرك لا تنفعه شفاعة الشافعين، كما قال الله تعالى يعني: أنهم لا يدخلون فيها.

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [البقرة: ٤٨]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ [الانفطار: ١٩]، هذا عموم مطلق فلا أحد يملك شيئاً، فيوم القيامة ظهر الملك تماماً لله وحده، وإن كان الملك لله دائماً أولاً وآخراً، لكنه في هذه الدنيا ملَّك بعض خلقه ما يشاء ملكاً مؤقتاً وهو أيضاً قاصر، فإذا أراد أن يسلبه منه سلبه، وكل هذه الآيات معناها واحد، ولكن كثرة الأدلة وتكرارها لعله يجدي وينفع.

❁ **قال المؤلف** رحمه الله: **وقول الله تعالى:** ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

«﴿مَن﴾»: استفهام إنكاري، أن هذا لا يقع، أن أحداً يشفع عند الله إلا إذا أُذن له، والله أخبرنا أنه لا يأذن إلا لمن رضي قوله، فالشرك يمنع أن يكون مأذوناً له في الشفاعة.

قوله: «﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾»: الإذن هنا معناه: الأمر، فهم لا يشفعون إلا إذا أمرهم، وقبل ذلك لا يشفعون، وهذا أمره الشرعي الذي يأمر به عباده، وليس أمره الكوني.

وهذا الاستفهام الإنكاري من أدوات العموم، فهو يشمل الملائكة والرسل وكل أحد، لا يخرج منه أحد، ولهذا نص الأصوليون على أن هذا من أدوات العموم التي تكون عامة عموماً مطلق.

❁ **قال المؤلف** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **وقوله تعالى:** ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم: ٢٦].

قوله: «﴿وَكَم﴾»: تسمى تكثيرية، يعني كثير من الملائكة في السماوات.

وقوله: «﴿لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ﴾»؛ يعني: أنها لا تقع شفاعتهم ولا يشفعون إلا من بعد أن يأذن الله، وإذن الله أيضاً لمن شاء منهم؛ يعني: من الملائكة.

قوله: «﴿وَيَرْضَىٰٓ﴾»: ويرضى عن المشفوع له، فهذان شرطا الشفاعة: الإذن والرضى، فشرط الشفاعة:

أولاً: الإذن للشافع أن يشفع.

ثانياً: الرضا عن المشفوع له. والرضا يسبق الإذن، لا بد أن يكون الله قد رضي عن المشفوع له، ثم يأذن للشافع أن يشفع، فدل على أن الشفاعة لله وحده وأنه لا أحد يملك منها شيئاً.

❁ **قال المؤلف** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **قوله تعالى:** ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣].

في هذه الآية ذكر أن الأمور المقدرة أربعة أشياء، وهذه من باب السبر والتقسيم، فالطلب يُفرض أن يكون ممن: يملك المطلوب الذي يريده عابده منه، فإن لم يكن يملك المطلوب فطلبه ضلال، فإن لم يكن مالكاً يكون شريكاً للمالك، فإذا لم يكن شريكاً، يكون معاوناً وظهيراً للمالك، فإذا لم يكن معاوناً، يكون شفيعاً عنده، فهي على الترتيب.

وقوله: «﴿زَعَمْتُم﴾»: تدل على التكذيب؛ يعني: زعم شيئاً باطلاً، لا حقيقة له، فزعمهم هذا باطل وكذب أن أحداً يملك الشفاعة من دون الله، أو أنهم آلهة.

قوله: «﴿قُلِ ٱدْعُوا۟﴾»: أمر تعجيز؛ أي: ليس لهم أن يدعوهم، يدل على أنهم مفلسون، لا يملكون مثقال ذرة في السماوات، ولا في الأرض، وهذا كما هو معلوم كانوا يدعون الرسل ويدعون الأولياء والحجر والشجر، وكلهم دخلوا في هذا أنهم لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، فإذا كانوا لا يملكون مثقال ذرة في السماوات والأرض فكيف بما فوقها، فنفى هذه وأبطلها.

قوله: «﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا﴾»؛ يعني: في السماوات والأرض.

قوله: «﴿مِن شِرْكٍ﴾»؛ يعني: لا يشاركون الله في هذا، ثم بيَّن أنه هو وحده المتصرف له الملك ليس له مساعد أو مظاهر، أو مؤازر.

قال: «﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾»: ثم بقيت الشفاعة فنفاها فقال:

«﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾»: قد بيَّن تعالى أنه لا يأذن إلا لأهل التوحيد الخالص، أما المشركون الذين يدعون غير الله فدعوتهم تمنع أن تقع لهم الشفاعة، قال جل وعلا: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر: ٤٨]، وغيرها من النصوص الكثيرة.

۞ قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال أبو العباس: نفى الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون، فنفى أن يكون لغيره ملك أو قسط منه، أو يكون عوناً لله. ولم يبق إلا الشفاعة. فبيَّن أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب، كما قال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾، فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون، هي منتفية يوم القيامة، كما نفاها القرآن وأخبر النبي ﷺ: «أنه يأتي فيسجد لربه ويحمده» لا يبدأ بالشفاعة أولاً. ثم يقال له: «ارفع رأسك وقل يُسمع، وسل تُعط، واشفع تُشفَّع».

وقال له أبو هريرة: من أسعد الناس بشفاعتك؟ قال: «من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه»، فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص، بإذن الله، ولا تكون لمن أشرك بالله. وحقيقته: أن الله سبحانه هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع، ليكرمه وينال المقام المحمود.

فالشفاعة التي نفاها القرآن ما كان فيها شرك، ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع.

وقد بيَّن النبي ﷺ أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص[1].

ثم ذكر كلام شيخ الإسلام، وكنيته أبو العباس وهو كَلَّهُ ليس له ولد لم يتزوج؛ لأنه لم يكن عنده وقت ليتزوج، كان وقته كله مشغولاً في العلم والدعوة إلى الله منذ بلغ وهو لم يفرغ وقتاً من الأوقات إما في السجن، وإما في القتال والدعوة إلى الله والاشتغال الذي يكون ليلاً ونهاراً ولا يبقى له إلا وقت التعبد الذي لا بد منه، والذي حدده لنفسه في آخر الليل وغيره كما في أول النهار، فإنه كان له ورد لا يخل به فهو يقول: هذه غدوتي، ولو لم أتغد الغداء سقطت قوتي[2]، هذا هو حياتي، وهو اتصاله بربه ودعوته، فالمقصود أنه لم يكن عنده وقت ليتزوج، وإلا هو لم يترك الزوج ترهباً أو رغبة عنه؛ لأن الزواج سُنَّة الرسل، وتوفي كَلَّهُ مسجوناً؛ لأنه قام بالحق والحق ثقيل على الناس ولا بد أن يكون للحق معادياً، والغالب أن أهل الدنيا هم أعداء الحق؛ لأنهم يخافون على دنياهم ومناصبهم ولا سيما إذا عرفوا أن هذا يقلل من شأنهم.

والأمور تتشابه فكل من قام بالحق لا بد أن يناله شيء من الأذى، فهذه

---

(١) مجموع الفتاوى ٧/ ٧٧ ـ ٧٨.

(٢) الوابل الصيب ١/ ٦٣ يقول ابن القيم: وحضرت شيخ الاسلام ابن تيمية مرة صلى الفجر ثم جلس يذكر الله تعالى إلى قريب من انتصاف النهار، ثم التفت إلي وقال: هذه غدوتي ولو لم أتغد الغداء سقطت قوتي، أو كلاماً قريباً من هذا. وقال لي مرة: لا أترك الذكر إلا بنية إجمام نفسي وإراحتها لأستعد بتلك الراحة لذكر آخر، أو كلاماً هذا معناه.

حكمة الله جل وعلا فلا بد أن يناله من الأذى والمحن حتى إلى القتل، ولهذا الرسول ﷺ عالج من الأذى من الكفار الشيء الكثير، فيجب أن تُقرأ سيرته حتى يُتأسى به ﷺ.

قوله: «نفى الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون، أن يكون لغيره ملك أو قسط منه»؛ يعني: من الملك ليس لهم ملك ولا نصيب منه.

قوله: «أو يكون عوناً»: أو يكون أحد من المدعوين عوناً لله.

قوله: «ولم يبق إلا الشفاعة فبين أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب كما قال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]»: وقد تبين أن الإذن يكون لأهل التوحيد.

قوله: «فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون: هي منتفية يوم القيامة كما نفاها القرآن»: وبالعقل أيضاً، فالله جل وعلا هو المالك لكل شيء وسلطانه تام، ولا أحد يجرأ أن يتقدم بين يدي الله جل وعلا بالكلام، ولا يتكلمون إلا بإذنه: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [هود: ١٠٥]، فكيف يقدمون على الشفاعة.

وقوله: «وأخبر النبي ﷺ: أنه يأتي فيسجد لربه ويحمده. لا يبدأ بالشفاعة أولاً»؛ يعني: أنه لا يأتي فيقول: يا رب اشفع، بل يبدأ بالسجود والحمد والثناء حتى يأمره الله جل وعلا بالشفاعة يقول له: **«اشفع»**، فقبل أن يقول له: اشفع، فإنه لا يشفع، وقلنا أنه جاءت الأحاديث أنه يُحد له حداً من الناس يقول: هؤلاء اشفع فيهم. فإذا لا يمكن أنه يشفع بشيء إلا بأمر الله جل وعلا وغيره مثله.

قوله: «فيسجد لربه ويحمده»: الله جل وعلا هو الذي يفتح عليه المحامد حتى يرضى بذلك، **«ثم يفتح الله علي من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبلي»**[1]، فهذا يدلك أن الأمر كله لله جل وعلا، وإنما أراد جل علا أن يظهر كرامة نبيه أمام الناس فقط، وإلا فالشفاعة لله فأمره أن يشفع

---

(١) سبق تخريجه.

حتى تظهر كرامته. وكرامته معناها أن الله يُكرمه، ليس الناس هم الذين يكرمونه، الله يكرمه حيث أمره أن يشفع.

قوله: «ثم يقال له: ارفع رأسك، وقل يسمع، وسل تعط، واشفع تشفع».

وقوله: «وقال له أبو هريرة: من أسعد الناس بشفاعتك؟ قال: «من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه»[1]»، الإخلاص أن لا يكون في العمل شيء لغير الله جل وعلا. فبيَّن الرسول ﷺ أن أسعد الناس بشفاعته هم أهل الإخلاص، وأهل الشرك ليس لهم نصيب من شفاعته ﷺ.

قوله: «فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص بإذن الله، ولا تكون لمن أشرك. وحقيقته ـ يعني: حقيقة الأمر ـ: **أن الله ﷻ هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع ليكرمه وينال المقام المحمود»**، والمقام المحمود القول الصحيح أنه هو الشفاعة الكبرى التي تكون في الموقف.

وقوله: «فالشفاعة التي نفاها القرآن: ما كان فيها شرك، ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع، وقد بين النبي ﷺ أنها لا تكون إلا لأهل الإخلاص».

فالشيخ رحمه الله عرَّف الإخلاص هنا قال: الإخلاص هو: محبة الله وحده وإرادة وجهه.

فعلى هذا تكون الشفاعة حقيقتها إظهار كرامة الله للشافع، وإرادة رحمته للمشفوع له، والشفاعة التي جاءت في القيامة ذكر العلماء أنها أنواع.

والشفاعة التي تكون شركاً هي التي تطلب من غير الله جل وعلا، سواءً كان براً أو غير بر، عاقلاً أو غير عاقل، فالشفاعة حق لله جل وعلا يجب أن

---

(١) رواه البخاري رقم ٩٩ عن أبي هريرة أنه قال: قيل: يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ: **«لقد ظننت ـ يا أبا هريرة ـ أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك لما رأيت من حرصك على الحديث، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه أو نفسه».**

تطلب منه، وبهذا يتبين أن تعلق المشركين بها تعلق موهوم، وأنه سبب لحرمانهم الشفاعة، وأنه شرك بالله جل وعلا، وعرفنا أن شرك المشركين كله طلب الوساطة وهو الشفاعة.

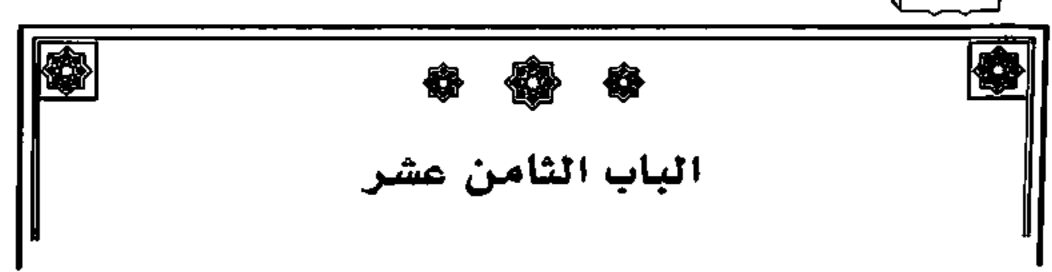
۞ قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: فيه مسائل:

۞ الأولى: من أسعد الناس بها؟

يعني: أهل الإخلاص، ويظهر أن من أسعد الناس بها عند ما تقع الشفاعة الكبرى أنهم الذين يسبقون إلى الجنة بلا حساب، هؤلاء هم أسعد الناس بها؛ لأنهم لا يذهبون إلي الجنة قبل مجيء الله جل وعلا للفصل بين خلقه، ومجيئه للفصل بين خلقه يكون بعد الشفاعة الكبرى، ثم يتبع هؤلاء أهل الإخلاص بحسب درجاتهم.







الباب الثامن عشر

❁ قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [القصص: ٥٦].

هذا الباب من جنس الباب الذي قبله؛ لأن أفضل الخلق كما هو معلوم هو رسول الله ﷺ، وقد نفى الله جل وعلا عنه أن يستطيع هداية أحد، فالهداية لله وحده جل وعلا، فإذا كان ما استطاع أنه يهدي عمه الذي كان يحميه ويحوطه من المشركين، ويدافع عنه ويتحمل الأذى في هذا السبيل كما هو معلوم في السيرة ما استطاع هدايته، فهو لا يستطيع أن يهدى أحداً، وغيره من باب أولى.

فإذن الهداية لله وحده، فالذي يطلب من غير الله جل وعلا شيئاً من هداية القلوب، أو مغفرة الذنوب، أو دفع الكروب، أو جلب المنافع، أو أعطى الرزق، أو النصر على الأعداء، أو غير ذلك من الأمور التي لا يملكها إلا الله جل وعلا يكون ضالاً مشركاً بالله جل وعلا.

والهداية كما هو واضح في كتاب الله جل وعلا على نوعين:

النوع الأول: هداية بمعنى خلق الهُدى في القلب، أو تحبيب الإيمان للإنسان، وتكريه الكفر والفسوق إلى قلبه، فهذا لا يملكه إلا الله جل وعلا، قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات: ٧، ٨]، فهو فضله ونعمته على عبده جل وعلا.

النوع الثاني: الهداية بمعنى الدلالة والإرشاد والدعوة والتعليم وبيان الحق من الباطل، وهذا هو الذي جُعل للنبي ﷺ ولأتباعه، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]؛ يعني: تدل عليه، وتُوضحه

وتبينه وتدعو إليه، فهذا لا يُنكر وهذا الواجب أن يقوم به أهل العلم يبنون للناس ويدلونهم على الحق ويحذرونهم من الباطل.

أما النتائج التي تترتب على هذا فهي إلى الله جل وعلا؛ يعني: كون الإنسان يهتدي، أو لا يهتدي، هذا لا يملكه أحد سوى الله جل وعلا.

فالمؤلف رَحِمَهُ اللهُ أراد أن يبين أن الرسول ﷺ لا يملك من هداية القلوب شيئاً وأن هداية القلوب بيد الله جل وعلا، وهذا واضح من الآية، فكيف يأتي الإنسان إلى قبر الرسول ﷺ ويشكو إليه كثرة الذنوب، وكثرة الأعداء ويقول له في شكايته وكثرة ما يذكره:

هـذه عـلـتـي وأنـت طـبـيـبـي ليس يخفى عليك في القلب داء[1]

فهل يليق هذا؟ ولا يصدر هذا ممن يقتدى به من أهل العلم، العلم النافع هو الذي يكون فيه الحق، ويكون فيه الهداية والاتباع.

فإذا كان مثل هذا يصدر من بعض العلماء فكيف بالعوام، ولهذا تجد عند القبور التي يُزعم أنها قبور أولياء، أو قبور أنبياء كيف يصنعون، وكيف يتوجهون لها ويدعونها هذا مع وضوح الأمر وجلائه، مع أن الرسول ﷺ ما استطاع أن يهدي أقرب الناس إليه الهداية التي ينتفع بها وإن كان يعلمها.

فأراد أن يبيِّن أن رسول الله ﷺ لا يجوز أن يُدعى ولا يجوز أن يتوجه إليه بالطلب في النفع، أو الضر الذي يكون من أمور الدين أو من أمور الآخرة؛ لأنه صلوات الله وسلامه عليه كان يطلب في حياته في الشيء الذي يملكه من مال وما أشبه ذلك، وأما بعد وفاته فإنه لا يجوز أن يطلب منه شيء ومن طلب منه هداية، أو دفع شر، أو نفعاً غيبياً، أو ظاهراً فإنه ضال ومشرك، وهذا يقع كثيراً من بعض الناس كما ذكر صاحب الهمزية البوصيري أنه جاء إلى قبر الرسول ﷺ مكشوف الرأس، فجعل يعدد على النبي ﷺ مصائبه ومطالبه، ويقول في آخرها:

هـذه عـلـتـي وأنـت طـبـيـبـي ليس يخفى عليك في القلب داء

(١) البوصيري في همزيته.

فجعل الرسول هو الطبيب لكل شيء، وجعله ما يخفى عليه شيء كما قال في البردة التي كثير من الناس يعظمها أكثر من تعظيم القرآن، بل منهم من يجعلها ورداً له يقرؤها في المساء والصباح، والمؤلف كَلَلهُ أراد أن يبين هذا الضلال المتناهي، وأن هذا شرك بالله، وكثير من الشعراء جعل حظه من النبي ﷺ الغلو في المدح والإطراء حتى أعطوه ما زعم النصارى في عيسى ابن مريم إلا أنهم تجنبوا الألفاظ التي كان النصارى يتلفظون بها، أما المعاني فكلها جعلوها للنبي ﷺ، فأراد أن يبين أن كل من يتعلق بغير الله جل وعلا في الدعاء والاستشفاع والوساطة والطلب الغيببي سواءً كان من أمور الدنيا، أو أمور الآخرة إذا كان غائباً، أو ميتاً أن هذا ضلال وأنه شرك بالله جل وعلا، فإذا كان هذا في المصطفى ﷺ والله جل وعلا نفى أن يهدي أحداً؛ أي: يهدي قلبه أو ينفعه، فكيف بغيره فهذا من باب أولى.

قوله: «﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾»؛ يعني: أنك لا توجد الهدى في قلب من تحبه، وإنما الهداية بيد الله جل وعلا يمنّ بها على من يشاء.

وقوله: «﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾»؛ يعني: أن العباد ملك لله جل وعلا، من شاء هدايته منهم هداه والمنّة والفضل له سبحانه وتعالى، ومن تركه ونفسه والشيطان فلن يهتدي فالهدى فضل من الله يتفضل به على من يشاء.

۞ قال المؤلف كَلَلهُ: وفي الصحيح عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة فقال: «أي عم قل: لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله»، فقالا له: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فأعاد عليه النبي ﷺ فأعادا، فكان آخر ما قال: هو على ملة عبد المطلب[1]، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، قال رسول الله ﷺ: «والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك»، فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١١٣]، وأنزل الله في أبي طالب فقال لرسول الله ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ

(١) رواه البخاري رقم ١٣٦٠، ومسلم رقم ٢٤.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾[1] [القصص: ٥٦].

قوله: «في الصحيح»: ومقصوده بالصحيح؛ يعني: بالحديث الصحيح الذي ثبت بالنقل الصحيح الثابت. والحديث في الصحيحين.

«عن سعيد بن المسيب عن أبيه»: وأبيه هو حزن وهو صحابي كما أن جده صحابي، أما هو فتابعي من أفضل التابعين، أو هو أفضلهم كما قال الزهري، وهو أحد الفقهاء السبعة، قال ابن المديني: لا أعلم في التابعين أوسع علماً منه. وهو معروف من سيرته واقتدائه بالنبي ﷺ مات بعد التسعين. وأما جده فهو صحابي ممن قتل في واقعة اليمامة، وأبوه حضر بيعة الرضوان.

وقوله: «عن أبيه»: يجوز أن يكون أبوه حاضراً القصة هذه، فلا يكون كما يقول الحافظ: فيه دليل على أن هذا من مراسيل الصحابي؛ لأن أباه أيضاً من بني مخزوم وعبد الله بن أبي أمية من بني مخزوم، فيجوز أن يكون قد حضر هذه القضية، ولكنه كان في ذلك الوقت مشركاً فمنّ الله عليهم جميعاً فأسلموا. وسعيد كان يقول: سيَّب الله من سيَّبني. فهو لا يحب أن يقال: المسيَّب، ولكن الأسماء لا يقصد ما تدل عليه فهي للعَلَمية فقط.

قوله: «لما حضرت أبا طالب الوفاة»؛ يعني: علاماتها ومقدماتها بحيث أنه صار يأخذ الكلام ويرده، ولو كانت الوفاة حضرت ما أفاده هذا؛ يعني: إذا عاين، أو بلغت الروح الحلقوم ما ينفع قوله لا إلٰه إلا الله، وفي هذا دليل على أن من حضرته الوفاة ولم يُعاين الملائكة، أو لم تبلغ روحه حلقومه أنه إذا قال: لا إلٰه إلا الله يُحكم بإسلامه إذا كان كافراً، وأنها تنفعه بشرط أن يتيقن أن هذا حق وينطق بذلك ويكون قلبه عالم بمعناها مُوقن بها، وبهذا يكون مسلماً، أما إذا اعتقد صحة الإسلام، وأنه حق ولكنه لم ينطق بكلمة الإخلاص فهو كافر بالاتفاق كما ذكر الإجماع على ذلك النووي وغيره وكذلك شيخ الإسلام.

قوله: «أبا طالب»: هو عم رسول الله ﷺ الذي كان يحبه حباً شديداً،

---

(١) رواه البخاري رقم ٤٤٧٧، ومسلم رقم ٢٤.

ولكنه حباً طبيعياً وليس حباً لأنه رسول الله. وكان يعلم أنه صادق وكان يصرح بهذا في قصائده وفي كلامه، ويعلم أنه لا يعني بالأكاذيب ولا يقولها وأن قوله كله حق، ومع ذلك كان كافراً، كفر الإباء والتقليد للآباء.

وقوله: «جاءه رسول الله»: يدل على أن النبي ﷺ حرص على هدايته وأحب ذلك وعمل ما في وسعه على أنه يهتدي، ولكنه ما استطاع على أن يعمل شيئاً في ذلك، والحكمة لله جل وعلا في هذا وغيره، فهذا دليل على أنه عبد لا يملك شيئاً مع الله وأن هداية القلوب بيد الله، فهو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وهو جل وعلا أعلم بمن يستحق الهداية فيتفضل عليه ممن يستحق الغواية فيضله بعدله وحكمته، وكل ذلك فضله وعدله وهو حكم عدل لا يُسأل عما يفعل تعالى وتقدس، فالخلق كلهم عبيده يتصرف فيهم كيف يشاء ولا يجوز أن يُسأل لماذا فعل كذا؟ ولماذا لم يفعل كذا؟ لأن العبد ليس أهلاً لذلك، وهو تعالى المالك لكل شيء المتصرف في كل شيء جل وعلا، ولكنه يسدي فضله على من يشاء بالهداية وعلى العبد أن يذل بين يديه ويخضع له ويستكين ويطلبه الهداية لعله يمن عليه بالهدى، وليس له من نفسه قوة ولا من غيره من الخلق، فإذا لم يهده الله فلن يستطيع أحد أن يهديه.

وفي هذا مضرة صحبة الأشرار، وأنهم أضر شيء على الإنسان؛ لأن هذا من الأسباب التي منعت أبا طالب أن يقول: لا إله إلا الله، وقد نظر إلى النبي ﷺ وكاد أن يتكلم، ولكن جلساء السوء منعوه من ذلك بما ذكروا له من الحجة الشيطانية حجة تعظيم الآباء.

قوله: «يا عمِّ»: هذا أصلها عميَ فحذفت الياء وجعلت الكسرة دليلاً عليها.

قوله: «قل: لا إله إلا الله»: فيه أنه يعرف معناها، وأن أبا جهل يعرف معناها، وكذلك عبد الله بن أبي أمية وكانا كافرين في ذلك الوقت وعرفا أنه إذا قال: هذه الكلمة ينتقل من ملة إلى أخرى، من ملة الكفر والشرك إلى ملة التوحيد والإخلاص لله جل وعلا، ولهذا قالا له: «أترغب عن ملة عبد المطلب؟» فقط؛ يعني: أنك إذا قلتها رغبة عن ملة عبد المطلب الذي

مات مشركاً، وانتقلت إلى ملة محمد ﷺ فهم يعرفون هذا تماماً.

والانتقال معناه أن العبادة الإخلاص، أما الربوبية فهم يعلمون هذا، وفي قصة عبد المطلب مع أبرهة في قصة هدم الكعبة وفيها: «إن الملك يقول لك: ما حاجتك؟ قال: حاجتي أن يرد الملك علي مائتي بعير أصابها لي. فلما قال له ذلك، قال أبرهة لترجمانه قل له: قد كنت أعجبتني حين رأيتك، ثم قد زهدت فيك حين كلمتني، تكلمني في مائتي بعير أصبتها لك، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك، وقد جئت لهدمه، لا تكلمني فيه؟ قال عبد المطلب: إني أنا رب إبلي، وإن للبيت رباً سيمنعه»[1]، فهو يعرف أن الله هو المالك، وأنه هو الذي يحمي البيت، فحمى الله البيت وأهلك أبرهة وجنده.

فالمقصود أنهم كانوا يؤمنون بربوبية الله جل وعلا وأنه هو المتصرف في الكون كله، وإنما النقص والخلل دخل عليهم في العبادة التي تصدر منهم مثل: الدعاء، دعوتهم الأشجار والأحجار والمقبورين والملائكة والأنبياء والنجوم، يدعونهم دعاء شُفعاء وليس دعاء مالكين يتصرفون مع الله، بل يزعمون أنهم شُفعاء لهم يشفعون عند الله، وهذا كثير في القرآن.

فالمقصود: أنهم كانوا يعرفون معنى لا إله إلا الله، ولهذا يقول المؤلف في المسائل: إن أبا جهل ومن معه يعرفون مراد النبي ﷺ إذا قال للرجل: «قل: لا إله إلا الله»، فقبح الله مَن أبو جهل أعلم منه بأصل الإسلام[2]. فهل يكون المسلم فيه خير إذا كان الكفار أعلم منه بلا إله إلا الله، ولكن الحقيقة أن هذا لتغير الأحوال وتغير اللغة واللسان؛ لأن أولئك كانوا عرب فصحاء، والرسول ﷺ منهم يخاطبهم بلغتهم التي يعرفونها، والقرآن نزل بلغتهم فهم يعرفون ذلك تماماً. أما في ما بعد فصار كثير من الناس ما يعرف معنى الإله، ولا يعرف معنى العبادة ما هي. وجعل العبادة هي الربوبية كما هو الواقع كثيراً، فهذا سببه الجهل وهو الإعراض عما جاء به الرسول ﷺ.

قوله: «فكان آخر ما قال: هو على ملة عبد المطلب»، يقول الحافظ

---

(١) أخبار مكة للأزرقي ١/ ١٩٠.

(٢) المسألة الرابعة.

ابن حجر رحمه الله: وفي رواية معمر هو على ملة عبد المطلب، وأراد بذلك نفسه، ويحتمل أن يكون قال: أنا[١]، فغيَّرها الراوي أنفة أن يحكي كلام أبي طالب استقباحاً للفظ المذكور وهي من التصرفات الحسنة[٢]؛ يعني: اجتناب الألفاظ القبيحة والتعبير عنها بالعبارات التي تدل عليه.

قوله: «وأبى أن يقول: لا إله إلا الله»: هذا تصريح من الراوي أنه أبى ما قاله له الرسول ﷺ، وبهذا يُرد على الذين يزعمون أنه أسلم هو وعبد المطلب، كما تقوله الرافضة، وبعض الصوفية القبوريين، وهم يترضون على أبي طالب وعبد المطلب وهذا من جهلهم ويزعمون أنهم مسلمين، وقد قال الله جل وعـــــلا: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾﴾ [البقرة: ١١٩]، وفي القراءة الأخرى: «ولا تَسأل»، يقولون: أن السبب أنه كان يقول: **«ليت شعري ما فعل أبواي؟»**، فنزلت هذه الآية، وهذا تصريح واضح، وكذلك ما ثبت في الصحيحين: أنه ﷺ لما ذهب في عمرة القضية أو الحديبية مر بقبر أمه بالأبواء وجلس عنده طويلاً وبكى، وأبكى الذين معه ثم قال: **«استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يؤذن لي، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي، فزوروا القبور فإنها تذكر الموت»**[٣]، فهذا صريح ظاهر.

والسيوطي له ثلاثة كتب كتبها في حياة الأبوين أن الله أحياهما للنبي ﷺ فأسلما ثم ماتا.

فما ندري هذه العجيبة والآية الباهرة ما عرفها إلا السيوطي وقلة ممن يميل إلى الخرافة، أما العلماء الكبار والحفاظ فأنكروها.

وعلى كل حال الأمر بيد الله جل وعلا، وفي صحيح مسلم عن أنس: أن رجلاً قال: «يا رسول الله أين أبي؟ قال: **في النار** ـ فتغير وجه الرجل ـ،

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك رقم ٣٢٩١: **«أنا على ملة عبد المطلب فمات»**، قال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، فإن يونس وعقيلاً أرسلاه عن الزهري عن سعيد. ووافقه الذهبي.

(٢) فتح الباري لابن حجر ٨/ ٥٠٧.

(٣) رواه مسلم رقم ٩٧٦ عن أبي هريرة.

فلما قفى دعاه، فقال: **إن أبي وأباك في النار**»[1]. اذهب أي قبر مشرك مررت به فقل له: «**إني رسول رسول الله إليك أبشر بالنار**». قال الرجل: لقد كلفت شططاً[2]. فكان كل ما مر بقبر مشرك قال له: «أني رسول رسول الله إليك أبشر بالنار»؛ لأنه أمره ﷺ بذلك.

فالمقصود أنه قال: «**إن أبي وأباك في النار**»، وهذا من حكمة الله ليبين أن الرسول ﷺ لا يملك من الهداية شيئاً، ولا يملك مع الله شيئاً، فالملك كله بيده هو الذي يهدي.

فعلى هذا تبين أن التعلق بمخلوق يدعوه هو من الضلال البين الظاهر، ومن الإفلاس وطاعة الشيطان فهذا المقصود من هذا الباب.

وقوله: «والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك»، فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١١٣].

هذا فيه أشكال؛ لأن موت أبي طالب كان قبل الهجرة بسنة، أو قريباً من ذلك، ثم بعد ثمانية أيام من موته ماتت خديجة، وكان ذلك العام يسمى عام الحزن؛ لأن المشركين تسلطوا على رسول الله ﷺ وصلوا إلى شيء من أذاه ما كانوا يصلون إليه من قبل لما كان عمه أبو طالب حياً، ثم أذن الله له بالهجرة بعد ما تمالؤوا على قتله، وقالوا إلى متى نصبر عليه، وهو كل يوم يدخل في دينه من شبابنا ونساءنا وجهالنا ـ هكذا يسمونهم ـ جماعات، إلى متى نصبر عليه، لا بد من الفصل بيننا وبينه فتواعدوا ليتداولوا الرأي فيه في دار الندوة، فقد جاء أنه: «لما رأت قريش أن رسول الله ﷺ قد صارت له

---

(١) رواه مسلم رقم ٢٠٣.

(٢) رواه ابن ماجه رقم ١٥٧٣، والطبراني رقم ٣٢٦، والبيهقي في دلائل النبوة رقم ١٠٥ وعن سالم عن أبيه قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إن أبي كان يصل الرحم وكان وكان. فأين هو؟ قال: «في النار» قال: فكأنه وجد من ذلك. فقال: يا رسول الله فأين أبوك؟ فقال رسول الله ﷺ: «**حيثما مررت بقبر مشرك فبشره بالنار**» قال: فأسلم الأعرابي بعد. وقال: لقد كلفني رسول الله ﷺ تعباً. ما مررت بقبر كافر إلا بشرته بالنار.

شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم عرفوا أنهم قد نزلوا داراً، وأصابوا منهم منعة فحذروا خروج رسول الله ﷺ إليهم وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم، فاجتمعوا له في دار الندوة - وهي دار قصي بن كلاب التي كانت قريش لا تقضي أمراً إلا فيها - يتشاورون فيها ما يصنعون في أمر رسول الله ﷺ حين خافوه.

ذكر ابن إسحاق بسنده عن ابن عباس ﷺ قال: لما أجمعوا لذلك وتواعدوا أن يدخلوا في دار الندوة ليتشاوروا فيها في أمر رسول الله ﷺ، غدوا في اليوم الذي تواعدوا له وكان ذلك اليوم يسمى يوم الزحمة، فاعترضهم إبليس في هيئة شيخ جليل بحلة فوقف على باب الدار فلما رأوه واقفاً على بابها، قالوا: من الشيخ؟ قال: شيخ من أهل نجد سمع بالذي تواعدتم له فحضر معكم ليسمع ما تقولون، وعسى أن لا يعدمكم منه رأياً ونصحاً، قالوا: أجل فادخل فدخل معهم، وقد اجتمع فيها أشراف قريش، ومن كان معهم وغيرهم ممن لا يعد من قريش. فقال بعضهم لبعض: إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم، فإنا والله ما نأمنه على الوثوب علينا فيمن قد اتبعه من غيرنا، فأجمعوا فيه رأياً، قال: فتشاوروا. ثم قال قائل منهم: احبسوه في الحديد وأغلقوا عليه باباً، ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله زهيراً والنابغة ومن مضى منهم من هذا الموت حتى يصيبه ما أصابهم، فقال الشيخ النجدي: لا والله ما هذا لكم برأي. والله لئن حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم، ما هذا لكم برأي فانظروا في غيره فتشاوروا.

ثم قال قائل منهم: نخرجه من بين أظهرنا، فننفيه من بلادنا، فإذا أخرج عنا فوالله ما نبالي أين ذهب، ولا حيث وقع إذا غاب عنا وفرغنا منه فأصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت. فقال الشيخ النجدي: لا والله ما هذا لكم برأي، ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به، والله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحل على حي من العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه، ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم بهم في بلادكم

فيأخذ أمركم من أيديكم، ثم يفعل بكم ما أراد، دبروا فيه رأياً غير هذا. قال: فقال أبو جهل بن هشام: والله إن لي فيه لرأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد، قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟ قال: أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شاباً جليداً نسيباً وسيطاً فينا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه. فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعاً، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً، فرضوا منا بالعقل فعقلناه لهم. قال: فقال الشيخ النجدي: القول ما قال الرجل، هذا الرأي الذي لا رأي غيره، فتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون له[١].

عند ذلك جاء الإذن له من الله بالهجرة، وجاء جبريل في تلك الليلة وقال له: لا تنم في منامك الليلة، وأمر علياً أن ينام فيه وقال له: لن يصلوا إليك لا تخاف، فخرج إلى أبي بكر وخرجا جميعاً. وسُنَّة الله فيما قص علينا في كتابه أن الكفار إذا أخرجوا أنبيائهم عذبهم الله ﷻ، لكن رحمة الله في هذا غلبت وله الفضل، أراد الخير والرحمة بهم وإلا فهم يستحقون العذاب.

فالمقصود أن هذا كان في مكة وقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦] في سورة مكية، وقوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟﴾ [التوبة: ١١٣] هذه في سورة مدنية وهي التوبة، وهي من آخر ما نزل، نزلت في غزوة تبوك.

وجه الإشكال أنه قال: **«لأستغفرن لك ما لم أنه عنك»**، فأنزل الله هذه الآية: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ...﴾ الآية. وأنزل في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ الإشكال في الفرق الزمني.

الرسول ﷺ كما سمعنا في الحديث الصحيح أنه لما ذهب في غزوة الحديبية أو في عمرة القضية بعدها بسنة طلب من ربه أن يستغفر لأمه فأبى عليه، وهذا يدل أيضاً على تأخر نزول قوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ...﴾ الآية، كما هو واضح أن نزولها في غزوة تبوك.

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٤٨٠.

وأيضاً جاء أن المؤمنين لما سمعوا أن الرسول ﷺ يستغفر لعمّه صاروا يستغفرون لآبائهم، وقالوا أيضاً: إبراهيم ﷺ استغفر لأبيه فنحن نستغفر لهم، فأنزل الله هذه الآية بعد فترة من ذلك، فكان فيها النهي عن الاستغفار للمشركين، يدل على هذا أن النبي ﷺ كان في المدينة يستغفر للمنافقين، وقد يصلي عليهم كما صلى على رأسهم بعد موته عبد الله بن أبي سلول، فإنه جاء ابنه إلى الرسول ﷺ وطلب ثوباً فأعطاه ثوباً وكفنه به، فعن ابن عباس، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: لما مات عبد الله بن أبي ابن سلول دعي له رسول الله ﷺ ليصلي عليه، فلما قام رسول الله ﷺ وَثَبْتُ إليه، فقلت: يا رسول الله أتصلي على ابن أبي وقال: قال يوم كذا وكذا كذا وكذا؟ أعدِّد عليه قوله، فتبسم رسول الله ﷺ وقال: «أخِّر عني يا عمر». فلما أكثرت عليه قال: «إني خُيرت فاخترت، لو أعلم أني إن زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها». قال: فصلى عليه رسول الله ﷺ، ثم انصرف، فلم يمكث إلا يسيراً حتى نزلت الآيتان من براءة: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ إلى: ﴿وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: ٨٤] قال: فعجبت بعد من جرأتي على رسول الله ﷺ يومئذ، والله ورسوله أعلم[1]. فهذا يدل أيضاً على تأخر ذلك، فإن الاستغفار للمشركين والنهي عن الصلاة على المنافقين والاستغفار لهم كان متأخراً لفترة طويلة بلغت سنين.

الخلاصة: أن الهداية التي هي هداية القلوب أنها ملك لله، وأن أحداً من الخلق لا يملكها، وأما الهداية التي جعلها الله للرسل وأتباعهم فهي هداية الدلالة والدعوة والإرشاد، وهي مجرد بيان فقط، وأن الله جل وعلا جعل الفصل بين المؤمن والكافر وإن كان قريباً، فالمؤمن يجب أن يتبرأ من الكافر مهما كان، وإن كان أباه أو أمه، فإذا مات على الكفر فإن الصلة مقطوعة بينه وبينه لا يصله، ومن ذلك الصلاة عليه إذا مات والدعاء له والصدقة وما أشبه ذلك، فإن الله قطع ذلك بين من مات على الشرك ومن كان مسلماً. ثم إن الاتجاه والتعلق والدعاء والعبادة يجب أن تكون لله وحده وأن أحداً من الخلق

---

(١) رواه البخاري رقم ١٣٦٦.

لا يجوز أن يكون له شيء من ذلك لا الرسول والملائكة ولا غيرهم، وبهذا يتبين أن دين الله الذي جاء به الرسول ﷺ وكلف الناس به أنه إخلاص الدعاء والعبادة لله وحده، وأنه لا يعبد ولا يدعى إلا الله وحده، وبهذا يتبين ضلال الذين يتوسلون بالمقبورين ويزعمون أنهم يشفعون لهم ويدعونهم من أجل ذلك، فإن ذلك هو سبيل المشركين وهو دعوتهم لا فرق بين هذا وما كان عليه المشركون.

أما التوسل بالرسول أو الولي، أو ما أشبه ذلك فصار فيه التباس عند كثير من الناس؛ لأنه قد جاء أن الصحابة ﷺ كانوا يستسقون ويقولون: «اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا ﷺ فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا قال: فيسقون»[1]، فالتبس الحق فيه بالباطل عند كثير من الناس، قالوا: نتوسل؛ يعني: معناه أنهم يتوسلون بذاته فصار التوسل يطلق على دعاء الله بالمخلوق فيقول: أسألك بفلان أو بجاه فلان أو بقربه أو عمله أو بأنه ولي أو بأنه نبي، وهذا لم يكن معروفاً عند الصحابة ﷺ، والتوسل جاء ذكره في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٣٥﴾ [المائدة: ٣٥].

الوسيلة هي الطريقة التي توصل إلى رضى الله وإلى إثابته، وهي الأعمال الصالحة. فهل يتوسل بالمخلوق؟ نقول: هذا فيه تفصيل:

إذا كان المخلوق حياً حاضراً يجوز التوسل بدعائه، أما إذا كان ميتاً فلا يجوز التوسل به.

أما بذاته فلا يُتوسل بها لا في حياته، ولا بعد مماته، وإن كان الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: لا فرق بين التوسل بالدعاء والتوسل بالذات، وهذا من الأمور التي أخطأ فيها خطأ واضحاً، وتبعه بعض تلامذته على هذا، وذكره في

---

(١) رواه البخاري رقم ١٠١٠ عن أنس ﷺ: أن عمر بن الخطاب كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب فقال: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا ﷺ فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا، قال: فيسقون.

كتاب «الدر النضيد في معنى كلمة التوحيد». ويستدل على هذا بقصة أصحاب الغار وغيرها وكلها مغالطات؛ لأن أصحاب الغار توسلوا بصالح أعمالهم الخالصة لله، وفرق بين هذا وهذا، فلا يجوز للعبد أن يتوسل إلى الله بالمخلوق، وإذا كان المخلوق له أعمال فهي له، فالإنسان ما يستطيع أن يتحصل من عمله شيئاً، فمثلاً إذا قال: أسألك بفلان فلا صلة بينك وبين فلان، إذا قلت: أسألك برسولك هذا، إذا كنت تقصد بإيماني برسولك واتباعي له نقول: هذا صحيح؛ لأن هذا عملك وأنت يجوز لك أن تتوسل إلى الله بعملك، أما بذات الرسول، أو عمله، فهذا أجنبي عنك ولا يجوز أن تفعل ذلك؛ لأنه غير مشروع وليس عليه دليل بل هو وسيلة إلى الشرك وإلى عبادة هذا الذي تسأل الله به، وكذلك إذا قال: أسألك بجاه محمد، أو بجاه رسولك، أو بجاه عيسى، أو بجاه موسى ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩]، وإذا قال مثلاً: أنت تنكر جاه الرسول؟ نقول: نحن لا ننكره، لكن جاه الرسول له مثل: صلاته وصومه، هل أنت تسأل الله بصلاته أو صيامه هذا لا يمكن؛ لأنه له.

فنقول أن هذا غير مشروع وأنه من البدع التي تضل الإنسان، وقد تكون وسيلة إلى الشرك.

فالتوسل يجب التفصيل فيه، فمنه ما هو باطل ومنه ما هو حق، فإذا كان الإنسان يتوسل بعمله هو بعمله الخاص، ومنه الإيمان بالرسول ﷺ فهذا حق وهو طريق إلى إجابة الدعاء.

أما إذا كان يتوسل بذات الرجل سواءً الرسول، أو غيره من الصالحين فهذا من البدع وهي من وسائل الشرك.

۞ قال المؤلف رحمه الله: فيه مسائل:

۞ الأولى: وهي المسألة الكبيرة: تفسير قوله: «قل: لا إله إلا الله» بخلاف ما عليه من يدعي العلم.

لأن فهم هذه الكلمة صار صعباً عند الناس، وعان منه شيخ الإسلام الشيء الكثير؛ لأن الناس عاشوا على أوضاع تواضعوا عليها وشهدوها حتى

من العلماء تنافي هذه الكلمة فصعب عليهم فهمها ولهذا قال: «المسألة الكبيرة»؛ يعني: أن الإنسان إذا فهم هذا القصة ونظر فيها صار فهم لا إله إلا الله واضحاً جلياً، ولكن أكثر الناس يظن أن هذا مجرد نطق بهذه الكلمة، وأن الإنسان إذا كان ينطق بها فإنه مسلم، وإن كان يأتي بما يناقضها من سؤال الميت والطواف بالقبور والتبرك بها وما أشبه ذلك من الشركيات؛ لأنهم يرون أن هذا ليس شركاً وإنما هذا من القربات، ويجعلونه عملاً صالحاً وهو تناقض ظاهر، ولهذا قال: «المسألة الكبيرة»، وفي الواقع أنها مسالة كبيرة جداً؛ لأن هذه الكلمة هي التي يتبين بمعناها المسلم من غيره، وبذلك يتميز التوحيد من الشرك.

۞ الثانية: أن أبا جهل ومن معه يعرفون مراد النبي ﷺ إذا قال للرجل: «قل: لا إله إلا الله» فقبح الله من أبو جهل أعلم منه بأصل الإسلام.

لأن الرسول ﷺ لما قال له قل: «**لا إله إلا الله**، قالا له: أترغب عن ملة عبد المطلب»؛ يعني: فهموا أنه إذا قال: لا إله إلا الله أنه ينتقل من دين إلى آخر، ينتقل من ملة الشرك إلى ملة الإسلام والتوحيد، فهم يعرفون معناها قطعاً وهذا ليس في هذا فقط كل السيرة معهم سيرة الرسول ﷺ تدل على ذلك، فلما شكوه مرة إلى عمه قالوا: إنه آذانا، وأنه لا يذكر اليهود والنصارى بمثل ما يذكر به ديننا وآلهتنا من السب والشتم، عندهم أنه إذا قال: أنها لا تنفع وأن من فعل ذلك يكون في النار فجعلوا هذا سباً وشتماً، أنها لا تنفع ولا تضر ولا تشفع وليس لها أي مقام عند الله يسمون هذا سباً وشتماً، عن ابن عباس قال: لما مرض أبو طالب دخل عليه رهط من قريش منهم أبو جهل، فقالوا: يا أبا طالب ابن أخيك يشتم آلهتنا يقول ويقول، ويفعل ويفعل، فأرسل إليه فانهه، قال: فأرسل إليه أبو طالب، وكان قرب أبي طالب موضع رجل فخشي إن دخل النبي ﷺ على عمه أن يكون أرق له عليه فوثب فجلس في ذلك المجلس، فلما دخل النبي ﷺ لم يجد مجلساً إلا عند الباب فجلس، فقال أبو طالب: يا ابن أخي إن قومك يشكونك يزعمون أنك تشتم آلهتهم وتقول وتقول، وتفعل وتفعل، فقال: «**يا عم إني إنما أريدهم على كلمة واحدة تدين لهم بها العرب وتؤدي إليهم بها العجم الجزية**، قالوا: وما هي

نعم وأبيك عشراً، قال: لا إله إلا الله، قال: فقاموا وهم ينفضون ثيابهم وهم يقولون: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾، قال: ثم قرأ حتى بلغ: ﴿لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ [ص: ٥ ـ ٨]»[١] يعرفون هذا جيداً؛ لأنهم أهل اللغة بخلاف من فسدت لغته وأصبح لا يعرف معنى الإله، ولا يعرف معنى العبادة فيقعون في الشرك وهم يظنون أنه ليس شركاً، بل يظنون أنه عمل صالح، هذا هو السبب.

۞ الثالثة: جده ﷺ ومبالغته في إسلام عمه.

يعني: في دعوته عمه، وهكذا ينبغي للإنسان أن يجد في الدعوة ويحرص عليها لعل الله جل وعلا أن يهدي على يديه رجلاً واحداً فيكون خير له من الدنيا.

۞ الرابعة: الرد على من زعم إسلام عبد المطلب وأسلافه.

يقصد بذلك الذين قالوا: إن الله أحيا له والديه فأسلما، كما ألف السيوطي في هذا عدة مؤلفات وفرح بها أهل الخرافة، وليس له إلا حديثاً موضوعاً، أو كلاماً يخالف النصوص التي في كتاب الله وفي الصحيحين.

۞ الخامسة: كونه ﷺ استغفر له فلم يغفر له، بل نهي عن ذلك.

يعني: أن هذا الأمر بيده جل وعلا، وأن استغفار النبي ﷺ للمشرك لا ينفعه وغيره من باب أولى، فإذا كان المشرك لا تنفعه قرابته ولا ينفعه استغفار غيره له، فالله جل وعلا ليس بينه وبين خلقه صلة إلا بطاعته واتباع أمره.

۞ السادسة: مضرة أصحاب السوء على الإنسان.

من أضر شيء على الإنسان أن يكون أصحابه وجلسائه أهل شر، وأهل سوء، ولهذا يجب على العبد أن يحذر من أصحاب السوء، وأصحاب الانحرافات، وأن يفر منهم فراره من الأسد، فالواجب أنه لا يصحب إلا من ينتفع به.

---

(١) مسند أحمد رقم ٣٤١٩.

۞ السابعة: استدلال الجاهلية بذلك.

يعني: تعظيم الآباء وتعظيم الأديان؛ يعني: المذاهب والنحل التي ينتحلها الإنسان، ولهذا نجد كثيراً من الناس، وإن كانوا مسلمين يتعصبون لمذاهبهم ولأقوال من يعظمون أشد التعصب حتى إنهم يحاولون رد النصوص أو ليّها وتحريفها التحريف الذي يكون مستكرهاً.

۞ الثامنة: التأمل في كبر هذه الشبهة في قلوب الضالين؛ لأن في القصة أنهم لم يجادلوه إلا بها، مع مبالغته ﷺ وتكريره؛ فلأجل عظمتها ووضوحها عندهم اقتصروا عليها.

يعني: أن الناس يحتجون بما كان عليه كبرائهم وعظمائهم، فإذا أمرتهم أو نهيتهم قالوا لك: الناس كلهم ما يقولون قولك، أو أن الناس على خلاف ذلك فهذه حجتهم نفسها، ولكن الأسلوب تغير فقط، وإذا نظرنا في القرآن إذا كل الأمم المشركة ترد على الرسل بأنهم خالفوا ما كان آبائهم عليه كما قال جل وعلا: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف: ٢٣]، أن كل أمة يرسل إليها رسول تقول هذه الحجة، وكذلك الآن كثيراً ما نسمع إذا نهي الإنسان عن أمر من الأمور التي يرتكبها قال الناس كلهم يفعلون هذا، هذه نفس الحجة، فالواجب على العبد أن يتعرف على الحق والناس لا ينفعونه وليس كون الناس على شيء حجة، الحجة ما جاء به الرسول ﷺ وما قاله الله جل وعلا، وقاله رسوله ﷺ.





الباب التاسع عشر

۞ قال المؤلف رحمه الله: باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين.

الأدلة في هذا كثيرة. وقد نبَّه على المسائل المهمة في الأبواب التي يعقدها وكلها مهمة، ولكن هذا من أهم الأبواب؛ لأنه إذا كان سبباً للكفر وترك الدين وجب أن يحذر أشد الحذر، ومعلوم أن سُنَّة الله لا تتخلف في خلقه.

وقوله: «أن سبب كفر بني آدم»: جعله في بني آدم عموماً وليس أناساً مخصوصين، ولا سيما أن القصة التي ذكرها قيل: إن أولئك الذين صنعوا ذلك هم أولاد آدم من صلبه.

قوله: «وتركهم دينهم»: يعني أن أصل الدين في بني آدم هو التوحيد والإخلاص وعبادة الله تعالى؛ لأن الله أقام لهم دينهم أولاً بإرسال أبيهم إليهم آدم عليه السلام فهو نبي مكلم على الحق مستقيماً، وإن كان الشيطان أصاب منه ما أصاب لحكمة أرادها الله، حتى يكون في هذه الأرض تعمرها ذريته إلى أن يأتي الأجل الذي أجَّله الله، وكذلك تنتهي المواليد التي قدر الله جل وعلا أن تكون في الجنة، أو في النار من أولاده.

وقد جاء عن ابن عباس أنه قال: كان بين آدم ونوح عشرة قرون على التوحيد[1]، والقرن المشهور أنه مائة سنة، وقد قيل: القرن ورجحه الحافظ:

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك رقم ٣٦٥٤ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق، فلما اختلفوا بعث الله النبيين والمرسلين وأنزل كتابه فكانوا أمة واحدة. وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. وعند ابن جرير ٢٣/٦٣٩، وابن كثير في التفسير ٤/ ٢٨٥ قال: كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم على الإسلام.

أنه الذي يجتمع عليه الناس على أمر من الأمور، ثم ينقرضون عن آخرهم ويأتي غيرهم[١]، واستدل عليه بقول الرسول ﷺ لما سئل عن الساعة فمر غلام فقال: «**إن آخر هذا فلن يدركه الهرم حتى تقوم الساعة**»[٢]، المقصود ساعة هذا الجيل.

وأعمار الأمم السابقة طويلة، فقد ذكر أن نوح ﷺ بقي في الدعوة ألف سنة إلا خمسين عاماً فقط في دعوة قومه، فكيف قبل الدعوة وكيف بعدها.

أما هذه الأمة فأعمارهم قصيرة، قال عليه الصلاة والسلام: «**أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين، وأقلهم من يجاوز ذلك**»[٣]، وفي رواية: «**معترك المنايا بين الستين إلى السبعين**»[٤]، والرسول ﷺ عمره ٦٣ سنة، وكذلك أبو بكر رضي الله عنه.

قوله: «الغلو»: والغلو: هو الزيادة على المشروع. ما تجد أناساً يتجهون إلى شيء من الأشياء إلا ويزيدون فيها، وكذلك إذا ذموا زادوا، والواجب أن يُتبع الحق في هذا وغيره. والزيادة والنقص كلاهما مضر، ولهذا يقول ابن الوزير: تأملت نقص الدين في هذه الأمة فوجدته يأتي من الزيادة والنقص فقط.

كل النقص يأتي من الزيادة على الحق المشروع، أو من النقص فيه وبخسه، وهذا هو المقصود هنا كون الإنسان يغلو؛ يعني: يزيد في شيء شرعه الله ويتعداه، سواءً في القول، أو في الفعل الذي هو فعل الجوارح، أو فعل القلب فقط الذي هو الحب.

---

(١) فتح الباري لابن حجر ١/ ١٧٢. (٢) رواه البخاري رقم ٦١٦٧ عن أنس.

(٣) رواه ابن ماجه رقم ٤٢٣٦، والبيهقي رقم ٦٧٥٩، وابن حبان في صحيحه رقم ٢٩٨٠، والحاكم في المستدرك رقم ٣٥٩٨ وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. ورواه الترمذي رقم ٢٣٣١ بلفظ: «**عمر أمتي**»، وقال: هذا حديث حسن غريب من حديث أبي صالح عن أبي هريرة، وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة.

(٤) البيهقي في شعب الإيمان رقم ١٠٢٥٣، وأبو يعلى في مسنده رقم ٦٥٤٣.

وإذا نظر العبد مثلاً فيما وقع فيه كثير من الناس في بلاد المسلمين من التعلق بالصالحين وعبادة القبور، يجد السبب مجاوزة الحد المشروع، فالبدوي مثلاً: لم يُعرف عنه أنه من ذي السوابق وذوي العبادات، وإنما فقط غلو في قبره وعظَّموه وبنوا عليه البناء والستور وصار له سدنة فصار من أكبر المعبودات، وكذلك الدسوقي وغيره، والبلاد مملوؤها من الصحابة والصالحين من الذين لم يُغلَ في قبورهم.

فالمقصود: أن الشرك الذي يقع فيه الناس من أفعالهم التي تجاوزوا الحق فيها، ولهذا جاء في صحيح مسلم عن أبي الهياج الأسدي قال: «قال لي علي بن أبي طالب: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ؟ أن لا تدع تمثالاً إلا طمسته ولا قبراً مشرفاً إلا سويته»[1]. معنى هذا أن الرسول ﷺ يبعث البعوث لتفادي الغلو والزيادة على الأمر المشروع؛ لأن هذا هو السبب في ترك الدين، وأعجب من هذا أنهم يعبدون إمام الملاحدة الذي يقول عنه ابن تيمية رحمه الله: أن كفره أعظم من كفر اليهود والنصارى وهو معبود عندهم - يعني: ابن عربي -.

قوله: «في الصالحين»: جعل الغلو في الصالحين؛ لأنه أسرع عند الناس من غيرهم، وإلا فقد وجد غلو في غيرهم وكونه خص الصالحين؛ لأن هذا الغالب، وإلا الغلو في كل شيء لا يجوز وممنوع.

❁ **قال المؤلف رحمه الله: وقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ﴾** [النساء: ١٧١].

أهل الكتاب المقصود بهم اليهود والنصارى، وكثيراً ما جاء في كتاب الله خطابهم في مثل هذا، ومعلوم أن المسلم منهم قليل بل في زمن الرسول ﷺ لا يتجاوزون ثلاثة أو أربعة فكيف توجه إليهم الخطابات. فالمقصود من ينتفع

---

(١) رواه مسلم رقم ٩٦٩.

بالخطاب ويستجيب ونحن المقصودون بذلك؛ يعني: لا تكون مثلهم وتسلكون مسلكهم فيصيبكم ما أصابهم أو أشد.

وأهل الكتاب غلوا في عيسى عليه السلام، وكذلك فرطوا فيه، فمنهم من جفاه، ومنهم من غلا، فاليهود جفوا فيه، وهذا من الغلو وعدم الاعتدال، فزعموا أنه ابن بغي قاتلهم الله، وحاولوا قتله وزعموا أنهم قتلوه، وقد أخبر الله أنه ألقى شبهه على رجل منهم، فقتلوا هذا الرجل، ولهذا قال عز وجل: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ [النساء: ١٥٧، ١٥٨]، وقال جل وعلا: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]، متوفيك؛ يعني: وفاة النوم، فالنوم يكون وفاة كما قال الله: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الزمر: ٤٢]؛ أي: لم تمت في منامها، ولهذا يقول العلماء النوم شبيه الموت، بل هو موت لكنه ليس موتاً كاملاً فيه مفارقة الروح.

والمقصود أن الله رفعه، وجاءت الأحاديث متواترة عن النبي ﷺ أنه ينزل في آخر هذه الأمة ويحكم بهذه الشريعة، ويقتل الخنزير ويكسر الصليب، ولا يقبل الجزية[1]، وإنما يقبل الإسلام فقط، ولهذا جاء أنه إذا فعل هذا تغضب الكفار فتأتي إليه تحاربه وهذا الذي ذكره الرسول ﷺ من خروج يأجوج ومأجوج يأتون إليه ليقتلوه؛ لأنه أصبح لا يقبل إلا الإسلام، هذا ثبت في حديث طويل عند مسلم: «**إذ أوحى الله إلى عيسى إني قد أخرجت عباداً لي لا يدان لأحد بقتالهم، فحرِّز عبادي إلى الطور ـ هو اسم لكل جبل فيه**

(١) رواه البخاري رقم ٢٢٢٢، ومسلم رقم ١٥٥ عن أبي هريرة رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد**».

نبات، وإذا لم يكن يُنبت فليس بطور، وإن كان هذا مقصوداً به جبل معيناً ـ ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون»[1]، فالمقصود أنه سينزل، ثم بعد ذلك يتوفاه الله بعد ما يقوم بهذا الشرع ويُهلك الله على يده الدجال، ثم شيعته يهلكهم الله بدعوته هذا بالنسبة لليهود.

أما النصارى فهم جعلوه إلٰهاً بل بعضهم جعلوه الله، ذكر الله في آيات عدة قولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣] وزعموا أنه ابن الله، وقد ذكر الله غلوهم في هذا ورد عليهم فأخبر الله: أنه عبدٌ عبَّده الله، وأنه خلقه بكلمته التي أرسلها إلى مريم جعله آية للناس ومثله كمثل آدم: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩﴾ [آل عمران: ٥٩]، وذكر أموراً مقنعة فأخبر أن عيسى وأمه يأكلان الطعام فكيف الذي يأكل الطعام يكون إله؛ يعني: أنه فقير يفتقر إلى الأكل، وإذا أكل يفتقر إلى إخراجه فكيف يكون هذا إلٰه.

فالمقصود أن أهل الكتاب غلوا وجفوا، وهذه الأمة سوف تسلك مسلك أهل الكتاب، ولا يلزم أن تكون الأمة كلها فقد جاء في الصحيحين عن النبي ﷺ قال: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون**»[2].

وكذلك الذين سلكوا مسلك الغلو في هذه الأمة لا يلزم أنهم قالوا مثل ما قالت النصارى: أن فلان الذي هو الولي أو النبي أنه هو الله، أو ابن الله، أو أنه ثالث ثلاثة، ولكن يكفي المعنى إذا اعتقدوا أن لهذا المخلوق شيء من

---

(١) رواه مسلم رقم ٢٩٣٧ من حديث النواس بن سمعان.

(٢) رواه البخاري رقم ٧٣١١ من حديث المغيرة بن شعبة، وعند مسلم رقم ١٠٣٧ من حديث معاوية رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس**»، وعند ابن ماجه رقم ٦: «**لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورين حتى تقوم الساعة**»، والترمذي رقم ٢١٩٢ وقال: حسن صحيح، والحاكم في المستدرك رقم ٨٦٥٣.

الألوهية أو الربوبية، فهذا يكفي وهذا وجد نثراً وشعراً في الأمة حتى في العلماء مثل قول البوصيري:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به   سواك عند حلول الحادث العمم

الحادث العمم: هو يوم القيامة الذي يعم الخلق كلهم كربه وشدته، أين الله لا يلوذ به؟ والمشكلة أنه يستغيث بالرسول ﷺ من الله يقول:

ولن يضيق رسول الله جاهك بي   إذا الكريم تجلى باسم منتقم

يعني: إذا تجلى الله بسم منتقم فإني ألوذ بجنابك من غضب الله، يعني: صار إله مع الله، ثم يقول:

فإن من جودك الدنيا وضرتها   ومن علومك علم الوحي والقلم

يعني: من جملة جود الرسول ﷺ الدنيا والآخرة، ومن جملة علومه علم اللوح والقلم، اللوح الذي سطر فيه كل شيء، والقلم الذي كتب فيه كل شيء، إذاً ماذا بقي لله جل وعلا.

ويقول في همزيته يقول: أني أنشدتها أمام القبر، وأنا واقف مكشوف الرأس خاضعاً ذالاً يعني: يعبد الرسول؛ لأن كشف الرأس عبادة تكون في الحج لله ﷻ، ثم ذكر مرضه وعذابه، ثم قال:

هذه علتي وأنت طبيبي   ليس يخفى عليك في القلب داء

يعني: معناه أنه يعلم ما في القلوب، ويعلم الغيب، وغيره كثير من الشعراء مثل البرعي فعنده من الشرك ما هو جلي.

فهذا هو الذي تقوله النصارى نفسه يقوله أهل الإفك والكذب، والذين زعموا أن مخلوقاً كان في بطن أمه، ثم خرج من فرجها أنه هو الله، تعالى الله وتقدس، فهؤلاء أخذوا المعنى فقط وتركوا الألفاظ ودعوا النصارى، وبهذا يتبين ما قاله الرسول ﷺ، كما سيأتي في الباب الذي بعد هذا الباب عن أبي سعيد الخدري: عن النبي ﷺ قال: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم**». قلنا: يا رسول الله اليهود

والنصارى؟ قال: «فمن»[١]، فلا بد من هذا الفعل الذي فعلوه بأن يقع في هذه الأمة، أما كون هذه الجزيرة لا تعود إلى الجاهلية كما قال الرسول ﷺ: **«إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم»**[٢]، فالمعنى أنها لا تعود كما كانت جاهلية سابقة، لا بد أن يكون فيها من يقوم بالحق، وإلا كانت عبادة القبور والشجر، والغيران، وعبادة الأشخاص الأحياء والأموات موجودة ومنتشرة كثيراً، ولا ينافي هذا الواقع كما أنه لا ينافي قوله ﷺ في الصحيحين، عن أبي هريرة ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: **«لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس على ذي الخلصة»**[٣]. ذو الخلصة صنم يعبد في الجاهلية فهدم وأزيل، ولكنه عاد فصارت النساء تطوف عليه فهدم فيما بعد، كما هو الواقع الذي أخبر به الرسول ﷺ.

۞ قال المؤلف رحمه الله: في الصحيح عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ [نوح: ٢٣]. **أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عُبدت**[٤].

قوله: «في الصحيح»؛ يعني: صحيح البخاري ذكره في كتاب التفسير في تفسير سورة نوح عند الآية، وذكره عن عطاء عن ابن عباس وبعض الحفاظ اعترض على البخاري في هذا، وقال عطاء: المقصود به عطاء الخراساني، وعطاء الخراساني ما لقي ابن عباس فيكون منقطع، وإنما عطاء الخراساني أخذ التفسير عن غيره، نسخة عن ابن عباس، وهذا قاله علي بن المديني وهو

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) رواه مسلم رقم ٢٨١٢، والترمذي رقم ٢١٥٩.
(٣) رواه البخاري رقم ٧١١٦، ومسلم رقم ٢٩٠٦.
(٤) رواه البخاري رقم ٤٩٢٠.

مشهور، ثم قال الحافظ: هذا نبه عليه عدد من الحفاظ لكن الحافظ اعترض على هذا وقال: هذا لا يمكن أن يخفى على البخاري وهذا أمر مشهور وهو أيضاً كان يترسم طريقة شيخه علي ابن المديني، وهو من أشد الناس في اشتراط اتصال السند، فكيف يخفى عليه، وإن كان مشهوراً أن عطاء الخراساني لم يلق ابن عباس. والقصد أنه متصل عن عطاء بن أبي رباح، وابن أبي رباح قد لقي ابن عباس، وتتلمذ عليه وهو لم يذكر هذا إلا في موضعين فقط مع أن النسخة التي رواها عطاء الخراساني كثيرة جداً كما ذكر هذا ابن جرير وغيره من المفسرين، لكن البخاري لم يذكر هذا إلا في موضعين في صحيحه كما يدل على أنه يعرف هذا الأمر، وأنه لم يخف عليه، وأن هذا متصل وليس منقطعاً.

وهذه القصة لم يتفرد بها البخاري بل لها طرق متعددة كما روى ذلك ابن جرير، وابن أبي حاتم وغيرهما من المفسرين. وبعض العلماء اعترض على هذه القصة يقول: كيف يكون في قوم نوح، ونوح ﷺ بعث في قومه لما وقع الشرك واستمروا وصاروا مشركين، ولهذا العلماء يتفقون أن الرسل يبعثون إلى الكفار، ولا يبعثون إلى قوم مسلمين، ونوح ﷺ هو أول رسول كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٣] الآية، فجعل النبيين من بعده، وهذا ليس فيه إشكال بقوله النبيين؛ لأنه بالاتفاق أنها تتعاقب الأسماء يقول: نبي الله، ورسول الله، تكون لفظاً واحداً، لكن إذا اجتمعت فيكون لكل واحد معناه.

فاعتراضهم أن هذا كيف يكون في قوم نوح والقصة تدل على أنه أول شرك وقع، ونوح لم يبعث بعد؟ والجواب: أنه لا يلزم ذلك؛ لأنه قال: رجال صالحين من قوم نوح، ولا يلزم هذا أن يكون وقع بعد إرسال نوح، بل قبل ذلك كما هو المفهوم.

وبعض العلماء يقول: هذه أسماء رجال من ولد آدم من صلبه، وود هو أبرّهم فيه وأكثرهم حباً له، ولكنهم ماتوا في وقت متقارب بعد موت أبيهم بزمن طويل، فأسف عليهم قومهم أسفاً شديداً، فأشار بعضهم بأن يصوروا

صورهم وينصبوها في المجالس التي كانوا يجلسون فيها حتى إذا رأوهم اجتهدوا مثل اجتهادهم، وتذكروا أعمالهم فصار في ذلك تشجيعاً لهم على الخير والعمل الصالح فاستحسنوا ذلك فصنعوه فبقوا وقتاً على هذا الطريق حتى مات هؤلاء وجاء من بعدهم، ونُسي السبب الذي من أجله صورت هذه الصور، فجاءهم الشيطان وقال إن الذين صوروا هذه الصور يطلبون التوسط بهم عند الله ويتوسلون بها فعُبدت.

ذكر الكلبي وغيره: أن هذه الأصنام بعدما جاء الطوفان حملها ورماها في ساحل جدة وسفا عليها التراب، فلما كان زمن عمرو بن لحي الخزاعي، وكان له تابع من الشياطين جاء شيطانه وقال له: قم أبا أمامة وذهب إلى ساحل جدة تجد فيه أصناماً معدة خذها، ولا تهب وادعوا إليها العرب تجب[1]. فدله الشيطان عليها وبثها في الناس، ودعاهم إلى عبادتها فعبدوها، وذلك أنها وجدت في زمن بعثة النبي ﷺ، فود كانت لكلب في دومة الجندل، وسواع كانت لهذيل قرب مكة، وهكذا كل واحد كان لطائفة، وغوث كان لهمدان، ويعوق كان لحِمْير كما ذكر ابن عباس وذكره غيره[2]؛ كالسهيلي في شرح السيرة، وعلى كل حال سواء كانت هي هذه السابقة، أو ليست هي فإنها أسماء سُميت بها، وإلا فالزمن بعيد جداً بين وقت العرب وآدم وبعد نوح زمن لا يعلمه إلا الله، ويجوز أن تكون هي لا سيما إذا سفت عليها السوافي، وكانت من الأحجار.

فالمقصود أن هذه في الأصل أسماء رجال من بني آدم في زمن نوح وهذا لا شك فيه ولا إشكال فيه؛ لأن الله ذكر هذا عنهم في وصية بعضهم لبعض: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾

---

(١) الأصنام ١/١٠.

(٢) رواه البخاري رقم ٤٩٢٠ قال ابن عباس: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد، أما ود كانت لكلب بدومة الجندل، وأما سواع كانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبني غطيف بالجوف عند سبأ، وأما يعوق فكانت لهمدان، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع.

﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ۝ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ۝﴾ [نوح: ٢١ ـ ٢٣]، هذا من جملة ما قالوه لنوح، يقوله بعضهم لبعض وصية وتمسكاً بالشرك خوفاً من أن يتأثروا بدعوة نوح ﷺ: ﴿لَا تَذَرُنَّ﴾؛ يعني: لا تتركوها لدعوة نوح، وكونه يقول أن هذا كفر ومن استمر عليه يكون في النار.

«﴿آلِهَتَكُمْ﴾»: مطلقاً، فهم قالوها بهذا المعنى، فالآلهة لا يجوز أن تكون مخلوقة فهو كذب وافتراء، وهي التي يقول الله عنها: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ ۝﴾ [النجم: ٢٣]، وهذا من الإلحاد في أسماء الله، مخلوق يسمى إله وخروج عن الحق، وهو كذب وافتراء فليس للمخلوق من معنى الألوهية شيء، الألوهية يجب أن تكون لله جل وعلا.

وقولهم: ﴿لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾؛ يعني: جميع ما تتألهونه من الأصنام وغيرها، ويدل على أن الآلهة عندهم كثيرة، وإنما خصُّوا هذه الأسماء المذكورة؛ لأنها متميزة عندهم، وأنها كبيرة أكبر من الآلهة الآخرى: ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾، فهذه التي كانت كبيرة عندهم فوصى بعضهم بعضاً بالتمسك بعبادتها، وبسبب ذلك أهلكهم الله بالطوفان.

والمقصود أن سبب عبادة هذه الأصنام هو تجاوز المشروع في حب الصالحين؛ لأنهم لما أحبوهم وتجاوزوا الحد في محبتهم صوروهم وإن كان المقصود أولاً صالحاً؛ لأن مقصودهم هو تذكر أعمالهم والاجتهاد في العبادة، إذا رأوهم، ولهذا أخذ المؤلف من هذا: إن البدعة كما قال كثير من السلف تؤول إلى الكفر[١]. فهي بدعة آلت إلى الكفر، فيقول: أن البدعة أحب إلى الشيطان من الذنوب[٢][٣]؛ لأن الذنب الواضح مثل: شرب الخمر، والزنا

---

(١) المسألة الثامنة.

(٢) المسألة التاسعة: معرفة الشيطان بما تؤول إليه البدعة، ولو حسن قصد الفاعل.

(٣) مسند ابن الجعد رقم ١٨٠٩ عن سفيان يقول: البدعة أحب إلى إبليس من المعصية، المعصية يتاب منها والبدعة لا يتاب منها.

وغيره يعرف الإنسان أنه حرام وجريمة فيوشك أن يتوب فيعود على نفسه باللوم ويتوب، أما البدعة فيرى أنها دين فيتمسك بها ويبقى عليها، وهذا هو معنى قول بعض السلف: «صاحب البدعة لا توبة له»[1]؛ لأنه يرى ذلك دين فكيف يتوب الإنسان من دينه؟ إلا أن يتبين له أنه ضلال.

المؤلف ﷫ استنتج من هذه القصة أشياء كثيرة، ومقصوده من ذلك إبطال ما كان عليه الذين يعظمون القبور، وأن تعظيمها هذا مأخوذ من هذا الأصل.

فيقول: كيف يتمسكون بما هم عليه ووجدوا عليه آبائهم من عبادة القبور الذي هو الطواف عليها والجلوس عندها، وتعظيمها وسؤال أصحابها تفريج الكربات وجلب المنافع والطلبات التي يطلبونها منهم، وكذلك الطواف عليها كله عبادة صريحة، مع أنهم يقرأون هذه القصة في كتب التفاسير ويعرفون أن أصل عبادة القبور مأخوذ من هذا، وهذا يدل على قدرة الباري جل وعلا على تقليب القلوب، كيف صرفت قلوبهم عن فهم ذلك، وصارت عبادة الأصنام والأوثان من أفضل الأعمال عندهم، وهذا هو الذي كانوا يواجهونه به فيقولون: كيف تكفر هؤلاء وهم يتعلقون بالصالحين، وهم قوم صالحون

---

(١) شعب الإيمان للبيهقي رقم ٩٤٥٦ عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله حجر التوبة عن كل صاحب بدعة**»، وفي رواية: «**حجب التوبة**» رقم ٩٤٥٧، والطبراني في الأوسط رقم ٤٢٠٢، والسنة لابن أبي عاصم رقم ٣٧، قال في مجمع الزوائد ١٠/ ١٨٩: رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح غير هارون بن موسى الفروي وهو ثقة.

قال شيخ الإسلام ﷺ: ولهذا قال أئمة الإسلام كسفيان الثوري وغيره: إن البدعة أحب إلى إبليس من المعصية، لأن البدعة لا يتاب منها والمعصية يتاب منها. ومعنى قولهم أن البدعة لا يتاب منها: أن المبتدع الذي يتخذ ديناً لم يشرعه الله ولا رسوله قد زين له سوء عمله فرآه حسناً فهو لا يتوب ما دام يراه حسناً؛ لأن أول التوبة العلم بأن فعله سيئ ليتوب منه أو بأنه ترك حسناً مأموراً به أمر إيجاب أو استحباب ليتوب ويفعله، فما دام يرى فعله حسناً وهو سيئ في نفس الأمر فإنه لا يتوب. ولكن التوبة منه ممكنة وواقعة بأن يهديه الله ويرشده حتى يتبين له الحق كما هدى ﷺ من هدى من الكفار والمنافقين وطوائف من أهل البدع والضلال. مجموع الفتاوى ٩/١٠.

يتوسلون بهم والوسيلة مطلوبة، وهم أيضاً يبنون المساجد ويوقفون الأوقاف عليها، وأيضاً هم يقرأون كتب العلم ويفقهونها، ثم أنت تقول: إنهم كفار ومشركون، وأنهم مثل: قوم نوح، هذا قولهم مع أن الأمر واضح وضوح الشمس؛ لأن هذا هو سبب مفارقة الإنسان دينه.

قوله: «ولم تعبد»: يدل على أن الحب الذي هو حب الصالحين يؤول إلى عبادتهم، وكذلك إذا انضم إلى ذلك التصوير، الذي فيه التعظيم ونصبها في المجالس تعظيماً لها، وإن كان الباعث على ذلك غرضاً صحيحاً كونه يتذكر فعلهم.

«ولم تعبد حتى هلك أولئك ونسي العلم»: فيه أن العلم ضروري وأن بفقده يفقد كل خير ويحل محله الشرك الذي هو أعظم الذنوب التي عُصي الله بها، ولهذا جعل صاحبه خالداً في النار إذا مات عليه. ففي هذا ضرورة العلم، والعلم هو معرفة ما أمر الله به جل وعلا وأمر به رسوله ﷺ.

۞ قال المؤلف رحمه الله: وقال ابن القيم: وقال غير واحد من السلف: كان هؤلاء قوماً صالحين في قوم نوح عليه السلام، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوَّروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم[1].

العكوف عبادة وهو الجلوس عند الشيء طلباً للمنفعة، ولهذا أخبر الله عن قوم موسى لما مروا بقوم يعكفون على أصنام لهم؛ يعني: يجلسون عندها طلباً لبركتها. والعكوف مثل: الطواف، ومثل: طلب البركة من أماكنها، أو تربتها، أو ما أشبه ذلك فهو من الشرك.

---

(١) إغاثة اللهفان ١/ ١٨٤ وقال فيه: فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين: فتنة القبور وفتنة التماثيل، وهما الفتنتان اللتان أشار إليهما رسول الله في الحديث المتفق على صحته عن عائشة رضي الله عنها: أن أم سلمة رضي الله عنها ذكرت لرسول الله كنيسة رأتها بأرض الحبشة يقال لها: مارية، فذكرت له ما رأت فيها من الصور، فقال رسول الله: **«أولئك قوم إذا مات فيهم العبد الصالح أو الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوَّروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله تعالى»**.

فالطواف لا يجوز إلا على الكعبة، وليس في الدنيا شيء يطاف عليه غير الكعبة، فمن طاف على القبر فقد عبده.

ثم قال: «ثم صوروا تماثيلهم»؛ يعني: كأن التصوير حصل بعد موتهم، فإذا كان كذلك فهو تصوير تخيل، تخيلوهم كما كانوا فصوروهم.

۞ قال المؤلف رحمه الله: وعن عمر رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم؛ إنما أنا عبدٌ. فقولوا: عبدُ الله ورسوله» أخرجاه[1].

الناس في لغتهم يقولون: فلان أطرى فلان، إذا ذكره، وهذا من الأمور التي خالفوا فيها اللغة.

الإطراء في اللغة: التجاوز في المدح والكذب فيه، والمدح فوق المشروع، أو المدح في الباطل، والمدح بالباطل يكون كذباً، ولهذا يقول: المدح بالباطل والتجاوز فيه والكذب فيه، أو تقول مثلاً: التجاوز في المدح على المشروع، وذكر الباطل في ذلك.

مع أن المدح كله مكروه، إذا كان في حضرة الممدوح كما ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ، عن أبي بكرة قال: أثنى رجل على رجل عند النبي ﷺ فقال: **«ويلك قطعت عنق صاحبك، قطعت عنق صاحبك»**. مراراً، ثم قال: **«من كان منكم مادحاً أخاه لا محالة فليقل: أحسب فلاناً والله حسيبه، ولا أزكي على الله أحداً، أحسبه كذا وكذا، إن كان يعلم ذلك منه»**[2]، ويقول عليه الصلاة والسلام: **«إذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب»**[3]؛ يعني:

---

(١) رواه البخاري رقم ٣٤٤٥.

(٢) رواه البخاري رقم ٢٦٦٢، ومسلم رقم ٣٠٠٠.

(٣) رواه مسلم رقم ٣٠٠٢ عن همام بن الحارث: أن رجلاً جعل يمدح عثمان فعمد المقداد فجثا على ركبتيه وكان رجلاً ضخماً، فجعل يحثو في وجهه الحصباء، فقال له عثمان: ما شأنك؟ فقال: إن رسول الله ﷺ قال: **«إذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب»**.

الذي يمدح الإنسان في وجهه سوف يتكلم فيه في غيبته بغير ذلك، هذا هو الغالب والمعهود عند الناس.

فقوله عليه الصلاة والسلام: **«لا تطروني»**؛ يعني: لا تمدحوني فوق ما أستحق فوق المقام الذي أقامني الله جل وعلا إياه، ولهذا قال: **«كما أطرت النصارى ابن مريم»**. النصارى جعلت ابن مريم إلٰهاً وجعلته ثالث ثلاثة، أو جعلته ابن الله، عندهم نحل ثلاث خبيثة، وإن كانت النحلة الرابعة هي من سلك طريق الحق لا تذكر مع أن الرسول ﷺ قال: **«إن بني إسرائيل تفرقت على اثنتين وسبعين ملة وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة كلها في النار إلا ملة واحدة، قالوا: ومن هي يا رسول الله قال ما أنا عليه وأصحابي»**، هذا الحديث رواه الترمذي وقال: إنه حديث حسن غريب[1]، وبدون الزيادة حديث صحيح جاء في السنن وجاء في المسند وفي غيرها[2].

بالاتفاق أن هذه الفرق، أمة الإجابة وليست أمة الدعوة؛ يعني: الذين استجابوا للنبي ﷺ؛ لأنه لا يصح أن يقال: افترقت هذه الأمة، ويقصد بها اليهود والنصارى، والوثنيون، والمجوس وغيرهم.

الأمة هي التي استجابت للنبي ﷺ فتفترق هذا الافتراق، وجاء وعيدها أنها في النار، وقد أمر الله جل وعلا بالتمسك بكتابه والاعتصام به، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران: ١٠٢، ١٠٣].

فقوله: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾: تأكيد للاعتصام؛ لأن التفرق هو خلاف الاعتصام، ثم توعد بعد ذلك من تفرق بالعذاب العظيم، ثم أخبر أنه سوف

---

(١) رواه الترمذي رقم ٢٦٤٠ و٢٦٤١.

(٢) أحمد في المسند رقم ٨٣٩٦، وأبو داود رقم ٤٥٩٦، وابن ماجه رقم ٣٩٩٢.

تسوَدُّ وجوه وتبيَض وجوه، ولهذا قال ابن عباس: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦]؛ يعني: يوم القيامة، حين تبيض وجوه أهل السُنَّة والجماعة، وتسودّ وجوه أهل البِدْعَة والفرقة[١]. وقال ابن كثير في تفسيره في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الزمر: ٦٠]، يخبر تعالى عن يوم القيامة أنه تسود فيه وجوه، وتبيض فيه وجوه، تسود وجوه أهل الفرقة والاختلاف، وتبيض وجوه أهل السُنَّة والجماعة[٢].

والإطراء والزيادة خروج عن الاعتصام بكتاب الله جل وعلا، ولكن المقصود هنا الإطراء في الفعل، وفي القول، وفي الاعتقاد، فيزيد على القدر المشروع فيه فعلاً، أو قولاً وثناء ومدحاً، أو عقيدة، يعتقد في قلبه أنه له مقام كذا، وأنه يعطى كذا، كما هو الواقع من عباد القبور، فإنه لولا هذه العقيدة ما عبدت القبور، ولولا ذلك ما عظمت القبور هذا التعظيم مثل وضعها في المساجد، ثم سترها بالستور، ثم القيام عليها، ثم الكتابات، ثم الطواف، ثم الجلوس عندها... إلخ. لماذا؟ أليس هو إنسان رجل له أعمال وعليه سيئات سجلت عليه، ثم جاءه الموت رغم أنفه وأخرج من هذه الدنيا ليس معه إلا كفنه، وأُهيل عليه التراب فلا يستطيع دفع العذاب ولا يستطيع الزيادة في الحسنات، كيف مثلاً يتجهون إليه ويطلبون منه ما يطلب من الله، أليس هذا إهدار للعقل أولاً قبل الشرع؟ إهدار للعقول ووأد لها، ولهذا لا يقال: إن هؤلاء معذورون؛ لأنهم لهم عقول يجب أن يستعملوها، هل هذا المخلوق المسكين شارك الله في خلقه، هل يستطيع أن يصرف عن نفسه ما ألزمه الله به: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المدثر: ٣٨]، فهو مرتهن، ولكن هؤلاء في الواقع يترسمون طرق الجهل والعادات التي يتربون عليها وتهدر العقول، فكيف بالشرع الذي أمر الرسول ﷺ به.

قوله ﷺ: «لا تطروني» هذا بالنسبة إليه، فكيف بغيره من الناس؟ يعني: هذه المخالفات إذا نظرت فيها فإذا هي في الواقع لو كانت تعطى حكمها

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٩٢.

(٢) تفسير ابن كثير ٧/ ١١١.

الظاهر لكان الفاعل لذلك كافراً بلا تردد؛ لأن الأمر ليس سهلاً، ولكن إذا كان معرضاً فالإعراض كما هو معروف ناقض من نواقض الدين الإسلامي، والإعراض عن دين الله وعدم تعلمه وعدم الاهتمام به، لماذا يكون ناقض؟ نقول: لأن الأمور واضحة جلية لا تحتاج إلى سبر وتقسيم وتفكير، ولهذا يقول الله جل وعلا: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر: ٥٧] لماذا يتجاهلون هذا؛ يعني: إذا كان أحد من الناس يشارك الرب جل وعلا في خلق السماوات والأرض يمكن أن يكون هناك عذر، يمكن أن يكون للإنسان تعلق، ولكن هذا ما يدعيه أحد، وكذلك الأمور التي يكررها الله جل وعلا علينا في القرآن مثل إحياء الأرض بعد موتها ومثل كون الإنسان من عدم: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾ [الإنسان: ١]، ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾﴾ [الطارق: ٥]، ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ [عبس: ١٧، ١٨]، ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾﴾ [عبس: ٢٤]، فهو جل وعلا يجمع بين هذه الأدلة الواضحة الجلية كثيراً حتى يفكر الإنسان، وكثيراً من الناس يقرأ القرآن ولا يفهمه لماذا؟ لأنه لا يعطيه الاهتمام ولا يعتني بتدبره وتفهمه، ولهذا يقعون فيما يقعون فيه.

فقوله: «لا تطروني»؛ يعني: لا تمدحوني فوق ما أستحق، لا تمدحوني بالكذب، لا تمدحوني بالباطل، وإذا عرفنا أن سبب هذا الكلام أنه لما قيل له: «أنت سيدنا»[١]، أو نحو هذا إلا أنه عليه الصلاة والسلام حرص كل الحرص على حماية التوحيد أن لا يخدش، وأن لا يدخل الشيطان عن طريق شيء مشروع في الأصل، ثم يفسد على الناس عقائدهم، مع أنه ﷺ هو سيد الناس سيد الخلق كما قال ﷺ: **«أنا سيد القوم يوم القيامة، هل تدرون**

---

(١) رواه أبو داود رقم ٤٨٠٦ عن مطرف قال: قال أبي: انطلقت في وفد بني عامر إلى رسول الله ﷺ فقلنا: أنت سيدنا، فقال: **«السيد الله تبارك وتعالى»**، قلنا: وأفضلنا فضلاً وأعظمنا طولاً، فقال: **«قولوا بقولكم أو بعض قولكم ولا يستجرينكم الشيطان»**.

بم؟..»[(١)]، فآدم ومن دونه كلهم تبع لرسول الله ﷺ، فالسيد هو المقدم في الناس، أو هو الولي الذي يتولى النعم على الناس، ولهذا يطلق السيد على الله كما في قوله جل وعلا: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ [الإخلاص: ١، ٢] قال ابن عباس: الصمد: السيد الذي كمل في سؤدده[(٢)].

وفي الحديث الآخر، لما قيل له: أنت السيد، قال: «**السيد الله**»[(٣)]؛ لأنه هو الذي يسود الخلق كلهم جل وعلا.

فالمقصود: أن هذا من حمايته ﷺ لدين الله جل وعلا وسده الذرائع التي يمكن أن يدخل الشيطان منها في إفساد العقيدة التي جاء بها ﷺ، وهي عقيدة صافية، وهي الإخلاص لله، وأن يكون الدين لله جل وعلا، أما بالنسبة للخلق، فالخلق إما إخوان لك، أو أعداء لك، فإذا كانوا من المسلمين فهم إخوانك مثلك ما يستطيعون يتعدون ما وضع لهم، كلهم فقراء، وبحاجة إلى ربهم جل وعلا.

أما إذا كان كافراً، فهو عدو يجب أن تقاطعه بكل ما تستطيع وتحاربه وتقاتله، وتتقرب إلى الله جل وعلا بعداوته، وإلا لا تكون من أولياء الله؛ يعني: ولياً يصافي العدو هذا مستحيل وممتنع.

«**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم**»: إذا نظرنا فعل النصارى في

---

(١) رواه البخاري رقم ٣٣٤٠، ومسلم رقم ١٩٤ من حديث أبي هريرة، وعند أحمد في المسند رقم ١٠٩٨٧ من حديث أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة**»، وابن ماجه رقم ٤٣٠٨، والترمذي رقم ٣١٤٨، وهو عند مسلم رقم ٢٢٧٨ دون قوله: «**ولا فخر**».

(٢) تفسير ابن كثير ٥٢٨/٨ عن ابن عباس: هو السيد الذي قد كمل في سؤدده، والشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد كمل في عظمته، والحليم الذي قد كمل في حلمه، والعليم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمته، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد، وهو الله سبحانه، هذه صفته لا تنبغي إلا له، ليس له كفء، وليس كمثله شيء، سبحان الله الواحد القهار.

(٣) أخرجه أحمد في المسند رقم ١٦٣١٦، وأبو داود رقم ٤٨٠٦، والنسائي في الكبرى رقم ١٠٠٧٤.

هذا تبين لنا ما هو الإطراء المنهي عنه، النصارى ذكر الله جل وعلا عنهم أنهم قالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧] تعالى وتقدس، ولهذا قال جل وعلا: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنعام: ١٠١]، فنفى ذلك عن جنابه جل وعلا وتقدس.

قوله: «ابن مريم»: معروف أنه ينسب إلى أمه؛ لأنه خلق منها بلا أب.

ثم حصر الواجب الذي يكون له، قال: «إنما أنا عبد»؛ يعني: لست بإلٰه ولا رب، وليس لي شيء من الألوهية والربوبية، أنا عبد، والعبد هو العبد الذي يسير في طاعة معبوده وسيده.

و**«عبد»**؛ بمعنى: عابد، عبد معبَّد قمت بالعبودية لربي جل وعلا. وإلا لا أحد يخرج عن العبودية، ولكن العبودية تنقسم إلى قسمين؛ يعني: العبد من ناحية المعنى، المعنى الذي يقوم العبد بفعله، وإلا لا يخرج عن عبودية الله جل وعلا عاقل ولا غير عاقل كل شيء عبدٌ لله.

فقوله: «عبد» بمعنى: عابد؛ لأن العبد يكون بمعنى: العابد، وبمعنى معبد، والمعبد لا يخرج عنه شيء أبداً إلا رب العالمين جل وعلا؛ لأنه هو الذي تعبد كل شيء. فمعنى معبد؛ يعني: مقهور مذلل تجري عليه أحكام الله وأقداره، ولا بد أن يموت ويرجع إلى الله، ثم هناك يتبين فقره وحاجته ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم: ٩٣].

التعبير بـ ﴿مَن﴾ ﴿إِن كُلُّ مَن﴾.. فهي لتغليب العاقل على غيره؛ لأنه هو المقصود، وإلا لا يخرج من في السماوات والأرض عن العبودية؛ أي: معبَّد لله جل وعلا ولكن غير العاقل: مطيع مثل: الحصى والشجر والنبات، والرياح والسحاب وغيرها مطيع مذلل مسخر لا يعصي الله، وإنما الذي يعصي الإنسان بنو آدم وبنو الشيطان، هؤلاء هم العصاة من الخلق، ولهذا لما ذكر الله جل وعلا السجود في آية الحج في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ

مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾ [الحج: ١٨]، قال: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ﴾، وليس كلهم ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ﴾، ثم قال: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ﴾، معنى هذا: أن الذي لا يعبد الله أنه مهان، قد أهانه الله جل وعلا، فعبادة الله جل وعلا فيها السعادة، وفيها العزة، وفيها الكرامة، ولهذا صار من نعيم الجنة منَّة الله كونه يمنّ عليهم، ليس كما تقوله المعتزلة الجفاة قساة القلوب يقولون: لا يجوز أنه تكون الجنة فيها منَّة؛ لأن الجنة جزاء العمل، والعامل يجب أن يعطى أجره بلا منَّة؛ يعني: هم يقيسون الخالق على المخلوق، ولهذا سماهم أهل السُّنَّة: مشبهة الأفعال نفاة الصفات، وهذا هو الذي أودع القسوة في قلوبهم ـ نسأل الله العافية ـ والبعد عن الله جل وعلا.

والمقصود أن النصارى الذين حذرناهم الرسول ﷺ زادوا في الواجب، وهذا هو الإطراء، والواجب هو تقديره وتوقيره واتباعه وطاعته، وهم جعلوه شريكاً لله جل وعلا إما في الربوبية، أو في الألوهية، والرسول ﷺ حذر من هذا، وأن نقع فيه فقال: «**إنما أنا عبد**»؛ يعني: أنا عبد لربي جل وعلا، والعبد لا يمكن أن يكون له شيء من العبودية.

قوله: «فقولوا: عبد الله ورسوله»؛ يعني: اسلكوا الطريق الحق الذي جئتكم به من عند الله، وهو أني عبد لله أعبده ولا أعصيه حسب الإمكان والاستطاعة، وأنا رسول كلفني ربي جل وعلا بإبلاغ رسالته لكم فاقبلوها، فمعنى هذه الكلمة: الدين كله، كل الدين في قوله: «**إنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله**»؛ لأننا إذا قلنا: عبد الله ورسوله سلكنا الطريق الحق واعتقدنا أننا نعبد الله بالشرع الذي جاء به الرسول ﷺ ويجب أن نوقره وأن نحبه أكثر من حبنا لأنفسنا، وأولادنا ووالدينا والناس أجمعين، وعلامة ذلك شيئان:

أحدهما: متابعته، أن تتابعه وتحرص على اتباعه وتبحث عن سُنَّته وعن سيرته وتترسَّمها.

الثانية: إخلاص الدين لله جل وعلا أن تخلص الدين لربك جل وعلا، هذا هو علامة محبة الرسول ﷺ.

أما أن يدعي الإنسان محبة الرسول ﷺ، وهو يخالف سُنَّته، فهذه دعوى ما تُقبل، والدليل على هذا قول الله جل وعلا: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [آل عمران: ٣١، ٣٢]، فدلت الآية على أن الذي لا يطيع الرسول ولا يتبعه أنه يكون من الكافرين ـ نسأل الله العافية ـ فمحبة الرسول ﷺ تحتاج إلى برهان ما يكفي دعوى، والبرهان واضح باتباعه ﷺ بأقواله وأفعاله.

والرسول ﷺ بشر كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠]؛ ويعني: أنه خلق من ذكر وأنثى وأنه لحم ودم، ولا يقال أنه أصل الموجودات كلها ولولاه ما وجدت الأملاك، ولا الأفلاك، ولا الليل والنهار، ولا السماء ولا الأرض، كما يقول أهل الغلو ويقولون: إنه ليس بشر أنه نور، وأنه من نور الله، ويقولون أقوال غير هذه، وهذه موجودة في كثير من الناس، وهذا هو الذي حذرنا منه رسول الله ﷺ، بل هو شيء مما حذرنا منه، فهل الذي يقول هذا القول آمن بالله ورسوله؟ نقول: لم يؤمن بالله ولا برسول؛ لأن الله جل وعلا يقول: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ ومعنى مثلنا؛ يعني: أنه خلق من ذكر وأنثى وأنه لحم ودم، فهو بشر من البشر، فقط تميز عنا بأن الله أوحى إليه رسالته وأمره وكرمه بإبلاغها هذا هو الذي تميز به عن البشرية.

ذكر شيخ الاسلام رحمه الله في كتاب «الاستغاثة» عن أحد العلماء في وقته وكان من القضاة أنه كان يقول: كل ما يُدعى الله به يدعى الرسول به يقول: كل ما طلب من الله يطلب من الرسول، وذكر عن آخر أنه يقول وهو ممن يتصدر للتدريس يقول في قوله تعالى: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح: ٩] يقول: إن الرسول هو الذي يسبَّح بكرة وأصيلاً[1].

---

(١) الرد على البكري ١/٤٢٨.

إذا كان هذا يصدر من قضاة ومن علماء يفتون ويكتبون الكتب، ويؤلفون فهل يستكثر أن يصدر مثل هذا من آحاد الناس، ولهذا كثير من الناس يعبد الرسول ﷺ يتجه إلى القبر، ويسجد أو يركع، وإذا دخل المسجد اتجه إلى قبره فصار يدعوه.

فالمقصود: أن كثيراً من الناس خالفوا هذا، خالفوا قول الرسول ﷺ الذي حذر منه هذا بالنسبة للرسول.

وكثير من الناس وقع في عبادة القبور عبادة صريحة يسجدون لها ويعكفون عندها، ويضعون عليها الأطياب والتعظيمات وغيرها، والسبب أنهم يقولون: نحن نتوسل بهم؛ لأنهم صالحون، والله يحبهم ونحن نطلب منهم وهم يطلبون من الله، والله لا يعصيهم يُعطيهم ما يطلبون منه، ولو طالبتهم بدليل على هذا لا يمكن أن يأتوا بدليل واحد، كلها تمحُّلات وادعاءات، وقُصارى ما يتعلقون به أمور ثلاثة لا تخرج عنها:

أولاً: أوضاع تواضعوا عليها، ووجدوا عليها الناس يقولون: وجدنا الناس يقولون: كذا وكذا، أو فلان يقول: كذا وكذا، وحكايات ينقلونها بعضهم عن بعض لا أصل لها.

الثاني: أحاديث مكذوبة على رسول الله ﷺ كذب صريح لا أصل له.

الثالث: منامات يتعلقون بها، ويزعمون أن فلان رأى كذا، هذه قصارى حججهم التي يحتجون بها في هذا الشيء.

فكيف مثلاً يتعلقون بهذه الأشياء التافهة ويتركون كتاب الله جل وعلا وسُنَّة رسوله ﷺ والأمور الجلية الواضحة، ذلك بأن النفوس تميل إلى الباطل أكثر، وتحب الباطل أكثر وما تريد الحق، الحق فيه ثُقل على كثير من النفوس.

قوله: «**قولوا: عبد الله ورسوله**»: هل العبودية مقدمة على الرسالة أو العكس؟

العبودية مقدمة؛ لأنها لا يمكن أن يتخلى عنها أحد أبداً، والرسول ﷺ

أكمل الناس عبودية فلا يمكن رسالة بلا عبودية أبداً؛ لأن الرسالة هي الواسطة بين المرسل والمرسل إليه، والرسالة تتطلب أمور أربعة:

الأول: رسالة «وهي الدين الأمر والنهي».

الثاني: رسول «وهو الذي يحملها».

الثالث: مرسل «الذي هو الله جل وعلا».

الرابع: مرسل إليهم «وهم الخلق».

والله جل وعلا أثنى على رسوله ﷺ بلفظ العبودية مقدماً للعبودية في الأماكن الشريفة التي يعظمها ربنا جل وعلا مثل: مقام التحدي: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [البقرة: ٢٣]، وكذلك في مقام التنزيل: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ﴿١﴾﴾ [الكهف: ١]، ومقام الإسراء: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء: ١]، ومقام الدعوة: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾ [الجن: ١٩].

فهذه المقامات الأربع من أشرف مقامات الرسالة التي يقوم بها، ذكر فيها بلفظ العبد، ولهذا الرسول ﷺ قدم لفظ العبودية حيث قال: «**قولوا: عبد الله ورسوله**»، ومعنى ذلك أنه لا يجوز أن تجفوني وتُقصروا في حقي، ولا يجوز أن تغلوا في ذلك وتتجاوزوا الحق.

فقوله: «**ورسوله**»؛ يعني اعرفوا واعلموا أني رسول الله، واعرفوا حقي، وحقه في هذا محبته ﷺ ودعوة الناس إلى سُنَّته وبذلها ونشرها حسب الإمكان، وتوقيره صلوات الله وسلامه عليه، وتقديره، ولا يكون قوله يعرض على أقوال الناس، بل لا يلتفت إلى أقوال الناس مع قوله، بل يجب أن يُنقاد لقوله ويسلم له ويُذعن له ويكون هو الحاكم لا قول غيره، هذا هو حقه عليه الصلاة والسلام في الرسالة مع محبته المحبة التي تقدم على محبة النفس فضلاً عن محبة الغير؛ كالولد والمال، وقد ثبت في الصحيح أن عمر بن

الخطاب ﷺ قال: يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي. فقال النبي ﷺ: **«لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك»**، فقال له عمر: فإنك الآن والله لأنت أحب إلي من نفسي. فقال النبي ﷺ: **«الآن يا عمر»**[1]؛ يعني: الآن وصلت إلى الواجب الذي يجب.

وليس محبته أن يُعطى ما لله جل وعلا، أو شيء منه، فإنه يبغض هذا أشد البغض، ويكرهه أشد الكراهة، وليس هذا هو طريق الحق.

۞ قال المؤلف رحمه الله: وقال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والغلو، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو»[2].

الحديث رواه الإمام أحمد في المسند، ورواه الترمذي، وابن ماجه، وأبو داود، وهو حديث صحيح. وقد جاء في السنن عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ غداة العقبة، وهو على ناقته: **«القط لي حصًى»**، فلقطت له سبع حصيات هن حصى الخذف، فجعل ينفضهن في كفه ويقول: **«أمثال هؤلاء فارموا»**، ثم قال: **«يا أيها الناس إياكم والغلو في الدين، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين»**، هذا رواه ابن ماجه.

والرواية جاءت بسبب ذكر الحصى؛ يعني: لا تظنوا أن الرمي بالحصى الكبار أبلغ، فإن هذا غلو وزيادة على المشروع، فهو عام في كل الدين، يجب أن يترسم الطريقة التي جاء بها الرسول ﷺ في الأقوال وفي الأعمال، ولا يخرج عن هذا شيء كل ما زاد، فهو غلو مثل: الغلو في الوضوء، فيدخل الشيطان ويصبح وسوسة قد تُذهب دينه وعقله في النهاية، كما يقع لبعض الناس، وكذلك في الصلاة إذا زاد عن المشروع تجده يصلي عدة مرات، وربما يعيد التكبيرة مرات، وربما يعيد قراءة الفاتحة مرات متكررة يقول ما جاءت بها كما ينبغي، وكذلك النية كل هذا غلو سببه الشيطان، والأمر الذي جاء به الرسول ﷺ سهل ميسور، وكذلك التقصير والجفاء لا يجوز أن يدخل فيه العبد فيؤول به إلى ترك الواجب.

---

(١) رواه البخاري رقم ٦٦٣٢.

(٢) أخرجه أحمد في المسند رقم ٣٢٤٨، والنسائي رقم ٣٠٥٧، وابن ماجه رقم ٣٠٢٩.

فقوله: «إياكم»: تحذير منصوب على التحذير؛ يعني: أُحذركم كذا وكذا.

قوله: «والغلو»: الغلو: هو الزيادة على المشروع.

وقوله: «إنما أهلك من كان قبلكم الغلو»: إنما هذه معروف أنها للحصر، جعل الهلاك محصور في الغلو، ومعنى ذلك أن الذين امتثلوا الأمر غلو فيه وزادوا فيه فهلكوا.

والمقصود به ليس كل من كان قبلنا؛ يعني: الهالكين، الذين هلكوا في هذا، فالذي أهلكهم هو الغلو. ومن الغلو: الغلو في حب الصالحين لا يجوز أن يغلو فيهم فإنه يُهلكه.

ومن ذلك كونه يتحرى العبادة عند قبره، أو يتحرى الدعاء عند قبره فيكون هذا مبدأ، ثم يكون في النهاية يصبح يدعوه يدعو القبر، أو المقبور نفسه فيكون في هذا هلاك محقق؛ لأنه صار مشركاً ـ نسأل الله العافية ـ وهكذا في جميع المشروعات يجب أن يتحرى الأمر الذي شرع.

۞ قال المؤلف ﵀: ولمسلم عن ابن مسعود ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «هلك المتنطعون» قالها ثلاثاً[1].

«المتنطعون»: المتكلفون فوق الأمر المشروع؛ كالذي يدخل في الدقائق من الكلام ومن النطق ومن اللغة ومن الفصاحة، كما جاء عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«ألا أنبئكم بشراركم؟ ـ فقال: ـ هم الثرثارون المتشدقون، ألا أنبئكم بخياركم؟ أحاسنكم أخلاقاً»**[2]، عن عبد الله بن عمرو: أن

---

(١) رواه مسلم: ٢٦٧٠.

(٢) أحمد في المسند رقم ٨٨٢٢، والترمذي رقم ٢٠١٨ وفيه: **«وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني مجلساً يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون، قالوا: يا رسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيهقون؟ قال: المتكبرون»**، قال الترمذي: وهذا حديث حسن غريب.

رسول الله ﷺ قال: **«إن الله يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه كما تتخلل البقرة»**[1]، وكذلك كونه يصف الناس بأنهم هلكوا، وأنه هو الذي نجا فقط، فإن هذا من التنطع؛ لأن شأن المؤمن دائماً الإزراء على نفسه، وأنه دائماً يرى أنه ما قام بما يجب عليه.

وكذلك يرى غيره أفضل منه؛ لأن العبد مهما كان فهو مسكين في الواقع ما يستطيع أن يُخلص نفسه من غوائلها، والنفس لها غوائل كثيرة، ولهذا السبب نُهي أن يُمدح الإنسان يقول: أنت فيك وأنت كذا وكذا؛ لأنه يهلك في هذا، ومعروف أن الإنسان يحب أن يكون فوق الناس وأنه يترفع عليهم، ويحب أنهم يحبونه وأنهم يثنون عليه، ولهذا منع من ذلك.

والتنطع من هذا القبيل كون الإنسان يثني على نفسه ويرى أنه فوق الناس، أو كونه يتكلف العبادة، ويأتي بالشيء الذي فوق المشروع، أو كونه يتكلف في الأفكار، أو في التشقيقات والتدقيقات التي دخل فيها المتكلمون وغيرهم. أو كونه يرمي الناس بأنهم هم أهل التقصير وهم أهل الشذوذ، وهو الذي سلم من ذلك.

أما قوله: «قالها ثلاثاً»: فهذه عادته ﷺ كان إذا تكلم الكلمة أعادها ثلاث مرات حتى تُحفظ عنه وكان كلامه ليس كثيراً، ولهذا حفظ الصحابة ما قاله ﷺ.

والشاهد في هذا أنه يدخل في التنطع المدح الزائد الذي فوق المشروع فيكون من التنطع.

وكذلك الحب الذي يكون فوق المشروع يدخل فيه فيكون من التنطع، وهذا هو وجه الاستشهاد من الحديث، وهو أنه يجب أن يكون الحب، وكذلك القول إذا قال الإنسان يجب أن يكون مشروعاً، ولا يكون فوق ما شرعه الله جل وعلا.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم ٦٧٥٨، والترمذي رقم ٢٨٥٣ وقال: هذا حديث حسن غريب.

۞ **قال المؤلف رحمه الله: فيه مسائل:**

۞ **الأولى: أن من فهم هذا الباب وبابين بعده تبين له غربة الإسلام، ورأى من قدرة الله وتقليبه للقلوب العجب.**

غربة الإسلام؛ يعني: الأمور الواضحة التي هي أصل الدين تخفى على الناس أليس هذا غريباً؟ أما قوله: «**العجب**»؛ يعني: كيف طلبة العلم وقعوا في الشرك، وهم الذين يؤلفون ويفتون ويصيرون قضاة وقعوا في عبادة القبور.

۞ **الثانية: معرفة أول شرك حدث في الأرض: أنه بشبهة الصالحين.**

شبهة حب الصالحين، مثل ما عرف أنهم كانوا يحبون هؤلاء الذين ماتوا فعظموهم فصوَّروهم ليتذكروا حالتهم فيجتهدوا كاجتهادهم.

۞ **الثالثة: معرفة أول شيء غُيِّر به دين الأنبياء، وما سبب ذلك؟ مع معرفة أن الله أرسلهم.**

سببه خلط الباطل بالحق ولبس الحق بالباطل، حب الصالحين مع الغلو الزائد، وهذا هو أصل الشر كله «**لبس الحق بالباطل**».

۞ **الرابعة: مضرة العكوف على القبر لأجل عمل صالح.**

يعني: فيما يتوهم المتوهمون، وإلا ما يكون العكوف على قبر عمل صالح أبداً بل هو فاسد؛ لأنه خلاف الشرع؛ لأن كل ما كان خلاف الشرع فليس صالحاً، الصلاح أن يكون موافقاً للسُّنَّة، وإذا كان مخالفاً للأمر الشرعي فهو فاسد.

۞ **الخامسة: معرفة النهي عن التماثيل، والحكمة في إزالتها.**

التماثيل جمع تمثال، والتمثال أصله أن يكون مثل المصور هذا أصله، فصارت الصور كلها تسمى تماثيل، والصور لم يأت في الشرع تشديد مثل ما جاء فيها من لعن فاعلها، ومن كون المصور يُجعل له في كل صورة صورها نفساً يعذب بها في النار وكونه يكلف يوم القيامة بأن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ، وكونه ملعون وكونه أشد الناس عذاباً لكونه يضاهي الله بخلقه. وإذا

كانت الصور للمعظمين كانت الفتنة فيها أعظم وأشد من الصور العادية؛ لأن هذه هي سبب الشرك وسبب ترك دين الله جل وعلا.

۞ السادسة: معرفة شأن هذه القصة، وشدة الحاجة إليها مع الغفلة عنها.

يعني: قصة الذين حدث الشرك بسببهم في قوم نوح، كونهم صوَّروا صور من كانوا يعظمونهم، ونصبوها في مجالسهم حتى يتذكروا أفعالهم، فصار بذلك الشرك في دين بني آدم، وقبل ذلك لم يكن في بني آدم شرك فهذا ينبغي أن يتفطن له ويُتأمل فيه وهي قصة يقول أنها موجودة في كتب التفسير، وكتب الحديث والذين فتنوا في القبور والصور يغفلون عنها وليس هذا، فهم يغفلون عم هو أصرح من هذا؛ لأن الهوى إذا استولى على الإنسان فإنه إما أن يصادم النصوص مصادمة بلا مبالاة، أو أنه يؤولها التأويل الذي يخرجها عن مراد المتكلم بها، وهذا أمر واضح في الناس لو تأمله العبد وجده ظاهراً جلياً، وهو في هذه المسألة من أوضح ما يكون.

۞ السابعة: وهي أعجب وأعجب: قراءتهم إياها في كتب التفسير والحديث ومعرفتهم بمعنى الكلام، وكون الله حال بينهم وبين قلوبهم، حتى اعتقدوا أن فعل قوم نوح أفضل العبادات، فاعتقدوا أن ما نهى الله ورسوله عنه فهو أفضل العبادات، وأن ما أمر الله به ورسوله هو الكفر المبيح للدم والمال.

مقصوده هذا في وقته ولا تزال القبور يبنى عليها، وصاروا يقصدونها للدعاء والشرك بها، أو أنهم يصلون عندها، أو أنهم يدعون أصحابها ويقولون: إن هذا توسل والتوسل مأمور به مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣٥﴾ [المائدة: ٣٥]، فقوله هنا: ﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ﴾ يقولون: هذا أمر، وهذا من الوسيلة فيحملون كلام الله وكلام رسوله ﷺ على الشيء الذي اصطلحوا عليه وتعارفوا عليه في وقتهم، وهذا يوجد كثيراً ولا يزال إلى الآن الناس في هذا حتى صاروا ينشرون الكتب ويجادلون في هذا الشيء ويستدلون له، فمثلاً

الفتاوى التي طبعت ونشرت وتسمى مقالات إسلامية ليوسف الدجوي المصري، وفيها الاحتجاج على عبادة القبور، وفيها المراوغة ـ بل المراغمة ـ ومثله الكوثري في مقالاته التي تسمى «مقالات الكوثري» يزعم أن السجود على القبور هو المنهي عنه، أما الصلاة عندها، والصلاة إليها فلم ينه عنه، ثم ينقل هذا الكلام عن الأئمة مغالطة ويقول: إن هذا هو قول الإمام مالك، وأنه موجود في المدونة في كذا وكذا وأشياء كثيرة.

فمقصوده: هو هذا الذي يقوم به هؤلاء دعاة القبور ودعاة الشرك ـ نسأل الله العافية ـ.

ثم يحملون كلام الرسول ﷺ على أمور بعيدة جداً عن مقصوده إن لم يردوها رأساً فيقول: إن هذا من العجب كون الإنسان يحال بينه وبين مراد الرسول ﷺ، وليس هذا عجباً؛ لأنه في الواقع له مقصد نشأ عليه وتربى عليه فألفه فأصبح يحاول أن يكون النص موافقاً لما نشأ عليه وعرفه من مشايخه ومن حالته التي كان يعملها.

والشيخ رحمه الله في موضع آخر قال: إن هذا لا يستغرب. ومثَّل بمثال مسألة فقهية قال في قضية الاستنجاء عند العلماء أنه لو اقتصر على الحجارة لكفاه، ولكن لما اعتاد الناس الاستنجاء صار عند كثير من الناس يتحرج، أو ربما لا تصح صلاته في نفسه إذا لم يستنج؛ يعني: لو اكتفى بالحجارة، فالمألوف الذي تألفه النفوس يحاول الإنسان أنه يلازمه كثيراً، وكذلك إذا ألف هذه الأشياء فإنه يصعب عليه مفارقتها.

۞ الثامنة: التصريح بأنهم لم يريدوا إلا الشفاعة.

يعني: أنهم يريدون شفاعة الذين صوروهم وطلبوا منهم الدعاء، والشفاعة هي أصل الشرك كله، ولكن في الوقت الحاضر لا يقتصرون على هذا بل يسألونهم المدد والنصر على الأعداء، ويسألونهم الشفاء من الأمراض، ويسألونهم الغنى من الفقر والأولاد، ويسألونهم كل المسائل التي تطلب من الله.

فالمسألة تعدت شرك المشركين، والمشركون الذين ذكرهم الله جل وعلا في القرآن ليس فيهم من يعبد غير الله يقصد منه تفريج الكروب وإغاثة الملهوف وأعطى الشيء الذي يقصده منه رأساً، وإنما كانوا يجعلونهم وسائط لهم فقط وسائط بينهم وبين الله يقولون لأنهم تستجاب دعوتهم ونحن نسألهم حتى يسألون الله لنا.

أما هؤلاء فهم يُقصدون من دون الله، وهذا هو الذي ذكره الشيخ في القواعد قال: إن شرك المشركين في الوقت الحاضر أعظم من شرك المشركين في الوقت الماضي؛ لأنهم كانوا إذا وقعوا في الشدائد أخلصوا الدعاء لله جل وعلا[(١)].

الشيء الثاني: أن شركهم لطلب الشفاعة، أما هؤلاء فشركهم يدعون من أشركوا به رأساً ويتجهون إليه.

۞ التاسعة: التصريح بأنها لم تعبد حتى نُسي العلم، ففيها بيان معرفة قدر وجوده، ومضرة فقده.

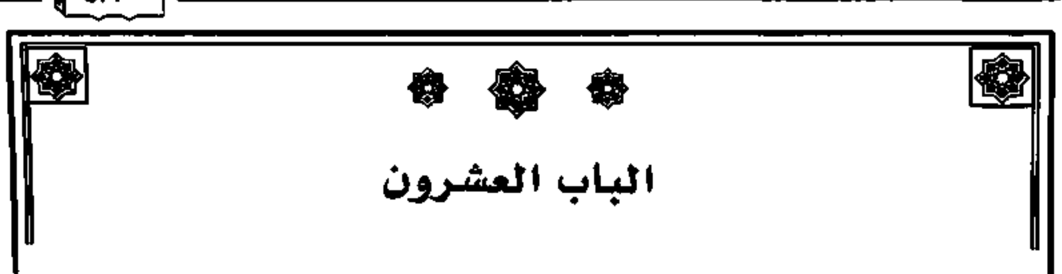
المقصود العلم الشرعي، العلم الذي جاء بالوحي، جاء به الرسول ﷺ هو الذي في فقده الهلاك، وفي وجوده السعادة، ولكن لمن عمل به، أما مجرد وجوده بلا عمل فهو يضر ولا ينفع.



---

(١) موسوعة مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب ١٣/ ٥ القاعدة الرابعة: أن مشركي زماننا أغلظ شركاً من الأولين؛ لأن الأولين يشركون في الرخاء ويخلصون في الشدة، ومشركو زماننا شركهم دائماً في الرخاء والشدة.

والدليل قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت: ٦٥].



الباب العشرون

۞ **قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: باب ما جاء من التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح؛ فكيف إذا عبده؟**

المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ يكرر هذه المسألة وينوع الاستدلال فيها لشدة الحاجة إلى ذلك لكون كثير من الناس وقع في المخالفات في هذا، واعتقد أن هذا مشروع وأنه عمل صالح، وإذا اعتقد الإنسان العمل الفاسد صالحاً، واعتقد أنه يتدين به فالأمر فيه صعوبة جداً؛ لأنه كيف يخرج منه وهو يعتقد أنه دين ولهذا السبب نوع الأدلة، وكرر ذكر هذه المسألة بأساليب مختلفة لعلها تقنع وتنفع، ومن أراد الله ضلاله فلا حيلة فيه، ولو جئته بكل دليل كما قال الله تعالى في وصف هؤلاء.

قوله: «التغليظ»: هو التشديد والتعظيم في الأمر.

قوله: «فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح»؛ يعني: إذا عبد الله مخلصاً له العبادة عند القبر، والقبر مطلق سواءً في المقبرة، أو وحده بل عند كل قبر ولو كان مفرداً، ولهذا جاء عن أنس قال: قمت يوماً أصلي وبين يدي قبر لا أشعر به، فناداني عمر: القبر القبر فظننت أنه يعني القمر، فقال لي: بعض من يليني: إنما يعني القبر؛ فتنحيت عنه[1].

مما يدل على أن الأمر عام ليس في المقبرة فقط، ثم هو خص قبر الرجل الصالح؛ لأن الرجل الصالح تكون الفتنة فيه أقرب وتعلق القلب فيه أكبر خلاف سائر القبور مع أن الأمر عام فيها لا يخص قبر دون قبر. فمن فعل ذلك فإنه يكون مرتكباً محرماً؛ لأن ذلك وسيلة من وسائل الشرك، وهذه المسألة كما قال شيخ الإسلام: أجمع العلماء الذين يعتد بهم أنها حرام، ومن قال بالكراهة من

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن رقم ٤٤٥٠ وهو عند البخاري معلقاً: ورأى عمر أنس بن مالك يصلي عند قبر فقال: القبر القبر ولم يأمره بالإعادة.

العلماء يقول: يجب أن تحمل هذه الكراهة على كراهة التحريم إحساناً بالعلماء أنهم لا يخالفون من لعن رسول الله ﷺ فاعله وحذر منه ويجعلونه من باب الكراهة التي هي كراهة التنزيه فقط، ومن قال إن العلة في النهي كما يقوله بعض من لم يفهم مراد النبي ﷺ هي النجاسة؛ لأن القبور يكون فيها صديد وتمزق الأموات وينتشر ذلك في الأرض فتكون الأرض نجسة فنهى من أجل ذلك.

فهذا كلام باطل، فالقبور مدفونة في الأرض وتصيبها الشمس، وكذلك الهواء والمطر فهي طاهرة، وقبور الأنبياء من أطهر البقاع؛ لأن الأنبياء أحياء، وقد حرم الله على الأرض أن تأكل لحومهم، فلحومهم طرية في قبورهم كما جاء في المسند والسنن من حديث أوس بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة فيه خلق آدم، وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا علي من الصلاة فيه فإن صلاتكم معروضة علي**»، فقالوا: يا رسول الله وكيف تعرض عليك صلاتنا وقد أرمت ـ يعني: بليت ـ؟ قال: «**إن الله ﷻ حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء صلوات الله عليهم**»[1]، فدل على أن هذه العلة باطلة.

وقوله: «فكيف إذا عبده؟»؛ يعني: إذا عبد صاحب القبر، والعبادة ما يفهم أنها السجود لصاحب القبر والتوجه إليه بالدعاء، وسؤاله تفريج الكروب، وكشف الخطوب، وغير ذلك، بل العبادة أعم، فالعبادة كل شيء قصد به الإنسان التقرب، أو السلامة من الإثم فهو عبادة، فإذا فعل فعلاً يقصد به ثواباً، أو يقصد به أن ينجو من العذاب فهذه هي العبادة، وإن كانت العبادة يجب أن تكون منصوصاً عليها؛ لأن العبادة توقيفية، ولكن أفعال العباد لا يمكن أن ينص عليها فهي تدخل في الكليات الشرعية التي جاءت النصوص بها.

❁ **قال رحمه الله: في الصحيح عن عائشة: أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة، وما فيها من الصور فقال: «أولئك إذا مات فيهم**

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم ١٦١٦٢، وأبو داود رقم ١٠٤٧، وابن ماجه رقم ١٠٨٥، والنسائي رقم ١٣٧٣.

الرجل الصالح، أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوَّروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله»[١].

فهؤلاء، جمعوا بين الفتنتين: فتنة القبور، وفتنة التماثيل[٢].

قوله: «في الصحيح»؛ يعني: في الحديث الصحيح، فالحديث مخرج في الصحيحين.

قوله: «أن أم سلمة»: هي هند بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشية المخزومية تزوجها النبي ﷺ بعد أبي سلمة سنة أربع، وقيل: ثلاث، وماتت سنة اثنتين وستين.

ذكرت أم سلمة هذه الكنيسة؛ لأنها كانت من المهاجرات إلى أرض الحبشة ورأتها وذكرت ذلك للنبي ﷺ في مرض موته. وجاء في الصحيحين أن أم حبيبة، وأم سلمة ذكرتا لرسول ﷺ ذلك[٣].

«كَنِيسةً»: بفتح الكاف وكسر النون: معبد النصارى. واليهود والنصارى تعبدهم في أماكن معينة لا تجوز عباداتهم إلا فيها؛ يعني: صلاتهم، في الكنائس والبيع، والبيع لليهود والكنائس للنصارى، وكانت أرض الحبشة أرض نصرانية ولا تزال، لا يزال النصارى فيها، وهم الذين يحكمونها.

قوله: «وما فيها من الصور»: الصور التي روها فيها هي صور المعظمين عندهم ديناً، وليس الملوك والكبراء، ولهذا يصورون صورة مريم، وصورة عيسى، وكذلك صور الحواريين الذين هم أصحاب عيسى فهم عندهم من المعصومين، وهم من أفضل الخلق بعد الأنبياء عندهم، ولهذا يقول بعض السلف: سئلت اليهود: من خير أهل ملتكم؟ قالوا: أصحاب موسى، وسئلت النصارى: من خير أهل ملتكم؟ قالوا: حواريي عيسى. وسئلت الرافضة: من شر أهل ملتكم؟ قالوا: أصحاب محمد[٤]. فالرافضة أشر من اليهود والنصارى، وهذا أمر واضح.

---

(١) رواه البخاري رقم ٤٣٥، ومسلم رقم ٥٢٨.

(٢) إغاثة اللهفان ١/ ١٨٤.

(٣) البخاري رقم ٤٢٧، ومسلم رقم ٥٢٨.

(٤) منهاج السنة النبوية ١/ ٢٧.

وهم كانوا يصوِّرون هؤلاء ويضعونهم في الكنائس في محل تعبدهم تعظيماً لهم، وكذلك توسلاً بزعمهم أن هذا يكون فيه بركة، وفيه نماء العمل ويكون أصلح له يقول القرطبي: إنما صور أوائلهم الصور ليأتنسوا برؤية تلك الصور، ويتذكروا أفعالهم الصالحة فيجتهدون كاجتهادهم ويعبدون الله عند قبورهم ـ يعني: كما فعل من كان في قوم نوح ـ ثم خلف من بعدهم خلوف جهلوا مرادهم ووسوس لهم الشيطان أن أسلافكم كانوا يعبدون هذه الصور ويعظمونها فعبدوها فحذر النبي عن مثل ذلك سداً للذريعة المؤدية إلى ذلك[١].

فهم ظنوا أنهم صوَّروهم لأجل الشرك بهم، ثم زاد الأمر إلى أن صاروا يسجدون لهم ويتقربون بالعبادة إليهم، وهكذا تتدرج الأمور في فعل المحرم إلى أن يصل إلى ما يريده الشيطان منهم.

قوله: «أولئك»: هذا خطاب لأم سلمة، ويجوز أن تفتح الكاف والخطاب لكل من سمع.

قوله: «إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح»: المعنى واحد، هذا شك من الراوي؛ يعني: هل قال النبي ﷺ العبد الصالح، أو الرجل الصالح؟ يقول الشارح: فيه التحري في الرواية، وجواز الرواية بالمعنى[٢].

وهذا ما عليه أكثر العلماء من المحدثين وغيرهم حتى قالوا: أنه لو كلف الإنسان بلفظ الرسول ﷺ لصعب الأمر بذلك، وسأل شعبة هل كل ما ترويه باللفظ أو بالمعنى؟ قال: لو رويته لكم باللفظ ما عدوت ثلاثة أحاديث، أو قال ثلاثين حديثاً، أما كل ما تسمعونه فهو بالمعنى. ولكن العلماء يشترطون في هذا أن يكون المعبر يفهم المعنى ويكون اللفظ المعبر به مساوياً للفظ الآخر؛ يعني: يكون مرادفاً له، فإذا وجد ذلك فلا بأس بالرواية بالمعنى، وأحاديث الرسول ﷺ تدل على هذا ففي حديث معاذ الذي مر معنا

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري ٦/٤٥٧.
(٢) تيسير العزيز الحميد ١/٢٧٨.

قال: «**إنك تأتي قوماً أهل كتاب فليكون أول ما تدعوهم إليه شهادة ألا إله إلا الله**»، وفي رواية: «**إلى أن يعبدوا الله**»، وفي رواية: «**إلى أن يوحدوا الله**»، فهذا يقطع أن الرسول ﷺ تكلم بلفظ واحد والباقي عبَّر عنه الراوي بهذه الألفاظ، وكذلك حديث عمران بن حصين الذي في البخاري فيه أنه قال: «**كان الله، ولم يكن شيء قبله**»، وفي رواية: «**ولم يكن شيئاً معه**»، وفي رواية: «**ولم يكن شيئاً غيره**»، فهذه كلها في البخاري، ومعلوم أن الرسول ﷺ لم يقل: «قبله، معه، غيره»، بل قال: واحد منها، وهذا كثير جداً في الأحاديث، وهذا الحديث الذي معنا مثلها.

والصالح هو: الذي صلح عمله بموافقة الشرع ظاهراً وباطناً، فالصلاح بموافقة الشرع والفساد يكون بمخالفة الشرع.

وكان في ذلك الوقت وقبله من اتباع عيسى عليه السلام رجال صالحون متمسكون بما كان عليه عيسى عليه السلام فكان النصارى يعظمونهم، فإذا مات أحدهم صوروا له صوراً ووضعوها على قبره، كما قال القرطبي فصار الذين يأتون بعدهم يسجدون لهذه الصور ويتجهون إليها بالعبادة ويجعلونها وسيلة لهم في دعاء رب العالمين. فإذا كان هذا وقع من النصارى، فإنه لا بد أن يقع في هذه الأمة لقول الرسول ﷺ قال: «**لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه**». قلنا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: «فمن»[(١)]، وجاء في رواية عن شداد بن أوس عن رسول الله ﷺ قال: «**ليحملن شرار هذه الأمة على سنن الذين خلوا من قبلهم أهل الكتاب حذو القذة بالقذة**»[(٢)]، وتمثيل الرسول ﷺ لهذا الشيء «**حذوا القذه بالقذه**»، وهي: ريشة السهم، وبدلها الآن الرصاصة التي تكون في البندقية ليس فيها واحدة تزيد على الآخرى، وهذا هو المقصود أنكم سوف

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد في المسند رقم ١٧١٣٥، والطبراني في الكبير رقم ٧١٤٠ قال الهيثمي في مجمع الزوائد: ورجاله مختلف فيهم.

تساوونهم تماماً فمثَّل بأصعب ما يكون، مثَّل بجحر الضب، وهو من أصعب الجحور، ومعلوم أن الضب لم يكن في أرض الحجاز ومع ذلك يمثل به، وذلك أن جحره كما هو معروف لمن يعرفه لا يكون سامتاً إلى جهة واحدة، بل يكون ملتوناً ومتجهاً إلى التحت حتى يصعب الدخول عليه، وهذا هو السبب في التمثيل بجحره؛ لأنه من أصعب الجحور، فيقول الأمر سوف يكون في هذه الأمة في اتباع النصارى، ولو كان الأمر في ذلك من أصعب الأشياء حتى جاء في بعض الروايات: «**حتى إن كان منهم من أتى أمه علانية لكان في أمتي من يصنع ذلك**»[1]، مبالغة والواقع يشهد بهذا، ويكون هذا من دلائل النبوة وصدقه في الأخبار التي يخبر بها في المستقبل فهي تقع مثل ما أخبر ﷺ.

قوله: «بنوا على قبره مسجداً»: المقصود: أنهم وضعوا على القبر موضعاً للصلاة، والكنائس هي متعبد النصارى، فهم وضعوا مكاناً للسجود والتعبد فيكون مسجداً بهذا الفعل، وهذا إما؛ لأنهم يرون أن العبادة عند القبر يكون فيها فضل، أو فيها بركة، أو أنهم يتبركون بنفس القبر، أو المقبور، وكلا الأمرين لا يجوز، وإما أن يكون وسيلة إلى الشرك، أو هو الشرك.

قوله: «وصوروا فيه تلك الصور»؛ يعني: وضعوا الصور فيها، فهم يصورون العبد الصالح، أو يصورون فيه من يتصوَّرونه ويتخيلونه مثل مريم، أو غيرها ويجعلون هذه الصور في الأماكن التي يصلون فيها، وهذا أيضاً من دواعي الشرك ومن أسبابه، وهو من الأسباب القوية القريبة كما سبق في الباب الذي قبله.

قوله: «أولئك شرار الخلق عند الله»: الأصل أشر الخلق أفعل تفضيل، ولكن لكثرة الاستعمال قيل: شرار الخلق؛ يعني: هم أكثر شراً من غيرهم،

---

(١) أخرجه الترمذي رقم ٢٦٤١ عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليأتين على أمتي ما أتى على بني إسرائيل حذو النعل بالنعل حتى إن كان منهم من أتى أمه علانية لكان في أمتي من يصنع ذلك، وإن بني إسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين ملة وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة كلهم في النار إلا ملة واحدة**»، قالوا: ومن هي يا رسول الله؟ قال: «**ما أنا عليه وأصحابي**».

مع أنهم يتعبدون ويصلون لله جل وعلا ولكنهم عملوا عملاً صار فيه تغيير دين الأنبياء، وجعل دينهم هو دين المشركين الذين بعثوا بهدم دينهم ومحاربته فانعكست القضية جعلوا دين المشركين هو دين الأنبياء، فلهذا صاروا أشرار الخلق، وزيادة على هذا عامة الناس ودهمائهم يُفتنون بهذا ويتبعونهم على أن هذا هو الدين الحق فشرهم ينتشر ويعم، وليس مقصوراً على فعلهم، فصارت الأجيال تتبعهم على ذلك كما هو الواقع، الناس ينظرون إلى العلماء ماذا يفعلون فيتبعونهم فيتغير الدين بذلك كما قال ﷺ: «**إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين**»[1]، فهذا من أشد ما يخافه الرسول ﷺ على أمته، والأئمة المضلون هم العلماء والأمراء العظماء الذين يتبعون، أما بقية الناس فلا قيمة لهم بل هم من المتبعين.

قوله: «فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين: فتنة القبور وفتنة التماثيل»: هذا الكلام من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ يعني: أنهم جمعوا بين الوسيلتين الداعيتين إلى الشرك، أو الوسيلتين اللتين هما سبب الشرك، القبر في المسجد الذي يصلون فيه، والتصاوير التي ينصبونها للمعظمين الذين يعظمونهم ويعتقدون فيهم الصلاح، فإن هذا من أعظم الوسائل إلى عبادتهم، وفتنة القبور هي أعظم من فتنة التماثيل، وفتنة التماثيل كما عرفنا أن: ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسرا، أنها أسماء رجال صالحين فعبدت وبقيت معبودة إلى أن بعث النبي ﷺ كما ذكر ذلك ابن الكلبي وغيره وذكر أسمائها، وأن كل قبيلة من قبائلِ العرب لها واحد منها وصارت من أكبر المعبودات عند العرب، وهكذا القبور مثل: قبر عبد القادر الجيلاني والبدوي، مع أن البدوي ما عرف أنه من الصالحين بل الذي ذكر السخاوي عنه: أنه جاسوس للدولة الفاطمية ـ يعني: الرافضة ـ وأنه داعية يدعو إلى مذهبه، ولكن الذي أهيل حوله من الأمور التي هي كذب صار بها فتنة، وكذلك القبور التي تنسب إلى الشافعي، وقبر زينب، وقبر الحسين، ومعروف أن أول من بنى هذه المشاهد،

---

(١) أحمد في المسند رقم ٢٢٣٩٣، والترمذي رقم ٢٢٢٩ من حديث ثوبان.

وهذه المساجد على القبور هم الرافضة فهم أشر الخلق، وأشر الخلق في هذا هم الجهمية الذين كانوا يحولون بين الناس، وبين عبادة الله جل وعلا ومعرفته، والرافضة الذين غيروا دين الرسل وبنوا المشاهد وسموها مشاهد، والمساجد التي تكون على القبور لما صارت لهم الدولة في مصر، والمغرب فهذه القبور التي تعبد إلى الآن بسببهم هم أول من فعل ذلك.

فالمقصود: أن الفتنة في القبور كبيرة جداً ولا تزال موجودة والرسول ﷺ يحذر الأمة أن تفعل كما فعل أولئك، وقال هذا في مرض موته وقصده أن يبين أن هذا من المحرمات التي لا يجوز أن تفعل، وأن ذلك من وسائل الشرك القريبة منه، فهذا التعظيم والتغليظ في عبادة الله جل وعلا في مثل هذه الأماكن؛ يعني: كون الإنسان يعبد ربه جل وعلا عند القبر، أو يعبد ربه في مكان فيه صورة من هو معظم، فإن هذا عاص لله جل وعلا ولرسوله ﷺ، لقوله ﷺ: «**أولئك شرار الخلق**»، وهذا من أعظم التحذير وأعظم التغليظ، مع أنه في ذلك يعبد الله، أما لو عبد المقبور، أو عبد الصورة، فهذا الشرك الأكبر الذي أخبر الله جل وعلا أن صاحبه إذا مات عليه يكون خالداً في النار، وأن الجنة عليه حرام، قال جل وعلا: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ [المائدة: ٧٢].

۞ قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ: ولهما عنها ـ أي: عن عائشة ﵂ ـ قالت: لما نُزل برسول الله ﷺ طفَق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتم بها كشفها فقال ـ وهو كذلك ـ: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» يحذر ما صنعوا، ولولا ذلك أبرز قبره، غير أنه خشي أن يتخذ مسجداً. أخرجاه[١].

قوله: «نُزل»؛ يعني: نزل به ملك الموت ومن معه من ملائكة الله جل وعلا يقبضون روحه ﷺ.

---

(١) رواه البخاري رقم ٤٣٥ و١٣٣٠، ومسلم رقم ٥٢٩ و٥٣١.

قوله: «طفق يطرح خميصة له على وجهه»: جعل يطرح الخميصة عن وجهه، والخميصة كساء له أعلام.

وقوله: «فإذا اغتم بها كشفها»؛ يعني: إذا احتبس نفسه لشدة جذب النفس وشدة ما نزل به صلوات الله وسلامه عليه؛ لأن الإنسان إذا اشتد عليه المرض يصير نفسه صعب الخروج، ويزداد إلى أنه يقف النفس.

قوله: «فقال وهو كذلك»؛ يعني: في هذه الحالة من معاناة ومقاساة الموت.

«لعن الله اليهود والنصارى»:

اللعن هو الطرد عن رحمة الله جل وعلا، والإبعاد عن ذلك هذا من الله، وأما من الآدميين فهو الدعوة عليه بأن الله يلعنه؛ يعني: يجعله مطروداً محروماً من الخير، والرسول ﷺ إذا لعن على شيء فأقل ما يقال فيه: أنه من كبائر الذنوب، ولهذا استدل العلماء على تمييز الكبيرة بذلك من لعن فاعلها؛ يعني: هذا منها، وليس الكبائر كلها أنها من لُعن فاعلها. وهذا فيه معتبر كيف لعن هؤلاء في حياته، ولعنهم عند مرضه، ثم في هذه الحالة عند موته في هذه الشدة؛ لأن الأمر فيه مبالغة، ولا بد لهذه المبالغة من معنى، وهو أن الأمة تقع في الأمر فهو من باب التبليغ تبليغ الدعوة والرسالة، ومن باب رحمة الأمة، والبيان لها والنصح لها، ولهذا كرر هذا الأمر؛ لأن الافتتان فيه ظاهر وشديد والخوف من وقوعه متوقع.

ولعنه لليهود والنصارى؛ لأنهم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد؛ لأن اليهود والنصارى هم الذين كانت فيهم الأنبياء، وبعد هذا ليس فيه نبي غيره ﷺ في هذه الأمة، ومعنى هذا أنه يلعن من فعل هذا الفعل، فإذا فعل في هذه الأمة فهو أشد من فعل اليهود والنصارى وأعظم، فيكون المقصود به الذين اتبعوه وأطاعوه، الذين اهتدوا بدعوته أن من فعل ذلك منهم أنه ملعون وربما تكون لعنته أشد من لعنة اليهود والنصارى بأمور ظاهرة:

أولاً: أن الرسول ﷺ بيَّن هذا بياناً واضحاً لا إشكال فيه وكرره.

ثانياً: أن الأمر هذا لم يكن فيه لبس، ولا فيه أشكال فهو للعموم ظاهر.

ثالثاً: أن رسولنا ﷺ هو أفضل الرسل ومخالفته تكون أشد من مخالفة غيره، وإن كانت المخالفة كلها شديدة ولكن بعضها يكون أشد.

قوله: «اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»: سبق أن مساجدهم هي البيع والكنائس، وأنهم لا يصلون في غيرها، ولكن المعنى أنهم يبنون عليها بناءً ويضعونها في كنائسهم، أو أنهم يبنون عليها بناءً، ثم يتحرون عندها الدعاء، فالدعاء يسمى صلاة وهذا صنيع النصارى.

قوله: «يحذر ما صنعوا»؛ يعني: يحذر أمته فعلهم الذي استحقوا به اللعنة، فليس المقصود به اليهود والنصارى، ولكن المقصود به تحذيرنا أن نقع في مثل ما وقعوا فيه.

وقوله: «ولولا ذلك أبرز قبره»: هذا من قول عائشة رضي الله عنها؛ يعني: لولا كلامه الذي سُمع منه ﷺ، وهو في هذه الحالة في مرض موته وقاله عند خروج روحه، لولا هذا وأنه فُهم منه أنه يحذر الأمة من أن تجعل قبره محلاً لتعبد.

قوله: «أبرز قبره»: البروز معناه الظهور من البيت والأماكن التي تستر، والمعنى أنه لولا ذلك لأبرز قبره مع قبور الصحابة؛ يعني: جعل في البقيع.

قوله: «غير أنه خشي أن يتخذ مسجداً»: جاء بضم الخاء «خُشي» مبني للمجهول، وجاء بفتحها «خَشي»، فيكون الضم أن الفعل وقع من الصحابة، وهم الذين خشوا هذا، وأما إذا كان بالفتح فيكون هو عليه الصلاة والسلام أمر أن لا يبرز قبره، وهذا غير صحيح؛ لأنه لو كان نص على هذا ما كان هناك خلاف بين الصحابة أين يقبر، وإنما هذا وقع من الصحابة أخذاً من هذه النصوص، ودفنوه في المكان الذي مات فيه حينما روى أبو بكر عنه ﷺ أنه قال: سمعت من رسول الله ﷺ شيئاً ما نسيته قال: **«ما قبض الله نبياً إلا في الموضع الذي يحب أن يدفن فيه، ادفنوه في موضع فراشه»**[1]، وفي رواية

---

(١) رواه الترمذي رقم ١٠١٨.

«قالت: ولولا ذلك لأبرزوا قبره غير أني أخشى أن يتخذ مسجداً»[١] عائشة هي التي تقول هذا، أن هذا الفعل منها فيكون منها، ومن غيرها من الصحابة. واتخاذ القبور مساجد كبيرة من كبائر الذنوب، وهو شرك، أو وسيلة إلى الشرك؛ يعني: أنه إما أن يكون شركاً جلياً أو شركاً خفياً، ولما كان هذا سبباً لإضلال كثير من الناس لعن رسول الله ﷺ فاعله، كما هو الواقع الآن كثير من الناس ضل في القبور وأصبح يعبدها.

۞ قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ: ولمسلم عن جندب بن عبد الله قال: سمعت النبي ﷺ قبل أن يموت بخمسٍ وهو يقول: «إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل، فإن الله اتخذني خليلاً، كما اتخذ إبراهيم خليلاً، ولو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك»[٢].

فقد نهى عنه في آخر حياته. ثم إنه لعن ـ وهو في السياق ـ من فعله. والصلاة عندها من ذلك وإن لم يبن مسجد، وهو معنى قولها: «خشي أن يتخذ مسجداً»، فإن الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجداً، وكل موضع قصدت الصلاة فيه فقد اتخذ مسجداً، بل كل موضع يصلى فيه يسمى مسجداً، كما قال ﷺ: «جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً»[٣].

جندب بن عبد الله بن سفيان البجلي، وينسب إلى جده، صحابي مشهور مات بعد الستين.

قوله: «سمعت رسول الله ﷺ قبل أن يموت بخمس»؛ يعني: بخمس ليال، وهذا يدل على أن جندب حفظ ذلك حفظاً متقناً، حيث ذكر الوقت الذي سمع به هذا الكلام وحدده بهذا التحديد.

قوله: «إني أبرأ إلى الله»؛ معنى: أبرأ: امتنع وأبتعد، فالتبرؤ من الشيء هو البعد عنه مع إنكاره.

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) رواه مسلم رقم ٥٣٢.
(٣) سبق تخريجه.

قوله: «أن يكون لي منكم خليلٌ»: وهذا الخطاب للصحابة ﵃، والخلة: هي المحبة التي تتخلل القلب كله فلا يبقى فيه موضع لغير الخليل، فهي نهاية المحبة، فالخلة هي أعلى المحبة؛ لأن المحبة درجات، فالخلة آخر درجات الحب، وهذا هو الصحيح الذي دلت عليه اللغة وكذلك النصوص، وقاله المحققون من أهل العلم بخلاف ما يقوله كثير من الفقهاء وغيرهم أن المحبة أخص من الخلة وأكمل، ولهذا يقولون: «إبراهيم خليل الله، ومحمد حبيب الله. فالمحبة عندهم أعلى من الخلة وهذا باطل بالنصوص الكثيرة كما جاء في حديث جندب السابق، فالله جل وعلا اتخذ محمداً ﷺ خليلاً كما اتخذ إبراهيم ﵇ خليلاً، فإن المحبة عامة والخلة خاصة وهي نهاية المحبة، وقد أخبر النبي ﷺ أن الله اتخذه خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً ونفى أن يكون له خليل غير ربه مع إخباره بحبه لعائشة ولأبيها ولعمر بن الخطاب وغيرهم. وأيضاً فإن الله سبحانه ﴿يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، و﴿يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، و﴿يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، و﴿يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤]، و﴿يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩]، وخلته خاصة بالخليلين عليهما الصلاة والسلام، والشاب التائب حبيب الله»[1].

ولكن جاء في الصحيحين عن أبي ذر، وكذلك أبي هريرة ﵄ كثير ما يقولان: «قال: خليلي»، فهذا لا ينافي قوله ﷺ، وتبرأه من أن يكون له خليل؛ لأن هذا قول أبي هريرة وأبي ذر، فإذا كان أبو هريرة ﵁ خليله الرسول ﷺ، فإن الرسول ﷺ لم يتخذه خليلاً، فهو قاله من نفسه.

قوله: «فإن الله قد اتخذني خليلاً»: هذا هو المانع من كونه لم يتخذ خليلاً من أمته، مما يدل على أن الخلة لا يصلح فيها المزاحمة يجب أن تكون خالصة.

قوله: «كما اتخذ إبراهيم خليلاً»: هذا تشبيه باتخاذ الخلة، فإبراهيم ﵇ خليل الرحمٰن كما ذكر ذلك الله جل وعلا في القرآن: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]، وهذان الرسولان هما اللذان اختصا بخلة الله جل وعلا

(١) الجواب الكافي ص١٣٥.

من بين خلقه، وفي هذا أن الله جل وعلا يتخذ من يشاء من عباده خليلاً وفي ضرورة ذلك أنه يحب، وقد كثرت النصوص في وصفه جل وعلا بالمحبة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾ [الصف: ٤]، ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، ومحبته جل وعلا صفة له لا يشاركه المخلوق فيها، كما أنه جل وعلا هو لا يشارك العبد في صفته، فالعبد له صفة المحبة التي تخصه، والله جل وعلا له صفة المحبة التي تخصه، والاشتراك في اللفظ والمعنى العام لا يقتضي مشابهة كما هو معلوم حتى في المخلوقات، فيكون في ذلك الرد على الأشاعرة والمعتزلة الذين يأبون أن يصفوا الله جل وعلا بمثل هذه الصفة، فإما أن يردوا النصوص؛ كالمعتزلة، ويقولون: إنها أخبار آحاد ولا نقبلها في الأصول، أو يؤولوها كما يفعله الأشاعرة والماتريدية، ونحوهم فيقولون: المحبة هي إرادة الإحسان له، أو محبة الطاعة؛ يعني: كونه يحب اتصافه بما يقتضي الطاعة، وإما أن يصفوها بمخلوق، أو يصفوها بأمر آخر؛ يعني: يؤولوها بمخلوق، أو بأمر آخر وهذا باطل.

وقوله: «ولو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لتخذت أبا بكر خليلاً»: يدل على أن أبا بكر أقرب الناس إليه ﷺ وأحبهم إليه، وأنه أولى الناس بالخلافة من غيره ولا سيما أن هذا كان في آخر حياته، ومن ذلك وهو أصرحها أنه أمر أبا بكر أن يصلي بالناس، عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما ثقل رسول الله ﷺ جاء بلال يؤذنه بالصلاة فقال: «**مروا أبا بكر أن يصلي بالناس**»، فقلت: يا رسول الله إن أبا بكر رجل أسيف، وإنه متى ما يقم مقامك لا يسمع الناس فلو أمرت عمر، فقال: «**مروا أبا بكر يصلي بالناس**». فقلت لحفصة: قولي له أن أبا بكر رجل أسيف، وإنه متى يقم مقامك لا يسمع الناس فلو أمرت عمر، قال: «**إنكن لأنتن صواحب يوسف مروا أبا بكر أن يصلي بالناس**»[1]، عن عبد الله بن زمعة قال: لما استعز برسول الله ﷺ، وأنا عنده في نفر م

(١) رواه البخاري رقم ٧١٣، ومسلم رقم ٤١٨.

المسلمين دعاه بلال إلى الصلاة فقال: «**مروا من يصلي للناس**» فخرج عبد الله بن زمعة، فإذا عمر في الناس، وكان أبو بكر غائباً فقلت: يا عمر، قم فصل بالناس، فتقدم فكبر فلما سمع رسول الله ﷺ صوته، وكان عمر رجلاً مجهراً قال: «**فأين أبو بكر؟ يأبى الله ذلك والمسلمون، يأبى الله ذلك والمسلمون**»، فبعث إلى أبي بكر فجاء بعد أن صلى عمر تلك الصلاة فصلى بالناس[1]. ومنها ما جاء في حديث محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه: أن امرأة سألت رسول الله ﷺ شيئاً فأمرها أن ترجع إليه، فقالت: «يا رسول الله أرأيت إن جئت فلم أجدك؟ ـ قال أبي كأنها تعني: الموت ـ قال: **فإن لم تجديني فأتي أبا بكر**»[2]، ومنها أنه أحب الصحابة إليه كما جاء في حديث عمرو بن العاص ﷺ: أن النبي ﷺ بعثه على جيش ذات السلاسل فأتيته فقلت: أي الناس أحب إليك؟ قال: «**عائشة**»، فقلت: من الرجال؟ قال: «**أبوها**»، قلت: ثم من؟ قال: «**عمر**»، فعد رجالاً[3].

ومنها حديث الرؤيا عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**بينا أنا نائم رأيتني على قليب عليها دلو فنزعت منها ما شاء الله، ثم أخذها ابن أبي قحافة فنزع بها ذنوباً أو ذنوبين، وفي نزعه ضعف والله يغفر له ضعفه، ثم استحالت غرباً فأخذها ابن الخطاب فلم أر عبقرياً من الناس ينزع نزع عمر حتى ضرب الناس بعطن**»[4]. الغرب: الدلو العظيم. عبقرياً من الناس: يعني: سيداً عظيماً قوياً.

ومنها أنه أمر أن تسد كل خوخة في المسجد غير خوخة أبي بكر ﷺ كما في حديث ابن عباس قال: خرج رسول الله ﷺ في مرضه الذي مات فيه عاصباً رأسه بخرقة فقعد على المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «**إنه ليس من الناس أحد أمنّ علي في نفسه وماله من أبي بكر بن أبي قحافة، ولو كنت**

(١) أحمد في المسند رقم ١٨٩٠٦، وأبو داود رقم ٤٦٦٠ واللفظ له.
(٢) رواه مسلم رقم ٢٣٨٦.
(٣) رواه البخاري رقم ٣٦٦٢، ومسلم رقم ٢٣٨٤.
(٤) رواه البخاري رقم ٣٦٦٤، ومسلم رقم ٢٣٩٢.

متخذاً من الناس خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن خلة الإسلام أفضل، سدوا عني كل خوخة في هذا المسجد غير خوخة أبي بكر»[١] قال الخطابي، وابن بطال وغيرهما: في هذا الحديث اختصاص ظاهر لأبي بكر، وفيه إشارة قوية إلى استحقاقه للخلافة، ولا سيما وقد ثبت أن ذلك كان في آخر حياة النبي ﷺ في الوقت الذي أمرهم فيه أن لا يؤمهم إلا أبو بكر[٢]. ومنها حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال لي رسول الله ﷺ في مرضه: «**ادعي لي أبا بكر، وأخاك حتى أكتب كتاباً فإني أخاف أن يتمنى متمن، ويقول قائل أنا أولى ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر**»[٣] فعدل عن الكتابة وتركها، ولو أراد أن يكتب لم يمنعه أحد، ولكنه كما قال: «**يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر**»، وعلم أن اتفاقهم بدون كتابة أبلغ وأولى.

واختلف العلماء هل خلافته بالنص، أو بالإيماء والإشارة، ولكنهم اتفقوا على أنه أفضل الصحابة، وأنه هو خليفته، وأما من جاء بعده فلم يسم خليفة رسول الله ﷺ وإنما سُمي أمير المؤمنين، ومعلوم أن خلافة النبوة كما جاء الحديث في تحديده الخلافاء الراشدون الذين تولوا الخلافة بعد، وفضلهم عند أهل السُّنَّة على ترتيب توليهم الخلافة.

أما قول الرافضة، فهو قول فرية وبهتاً، أقل ما يقال فيه: أنه بهت وفرية؛ لأنهم يزعمون أن أبا بكر أنه منافق، وأنه لم يدخل الإسلام في قلبه، ويزعمون أنه كان معه صنم يحمله هذا موجود في كتبهم الأصول؛ لأن كتبهم نوعان كتب أصول ـ عقائد ـ ما يحبون أحداً يطلع عليها، وكتب دعائية يبثونها وينشرونها وهم أصل البهت والكذب ودينهم مبني على الكذب، فهم يقولون من أصولهم: «التقية» التي يزعمون أنها تسعة أعشار الدين، ومن لم يكن له تقية فلا دين له، والتقية معناها عندهم الكذب يكذب أحدهم وهو يعلم، ولهذا يسمون أبا بكر، وعمر طاغوتي قريش، يقولون في قوله تعالى: ﴿فَمَن

---

(١) رواه البخاري رقم ٤٦٧ ومن حديث أبي سعيد الخدري رقم ٣٦٩١، ومسلم رقم ٢٣٨٢.

(٢) فتح الباري لابن حجر ٧/ ١٤.

(٣) رواه مسلم رقم ٢٣٨٧.

﴿يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]؛ يعني: أبا بكر وعمر كما أنهم يلعنون أحب الناس إلى رسول الله ﷺ عائشة ﵂ ويقولون: إنها هي المراد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗ﴾ [البقرة: ٦٧]، والشجرة الملعونة في القرآن هم بنو أمية، ويروون في هذا أحاديث موضوعة مكذوبة على رسول الله ﷺ، ويفسرون كتاب الله بأشياء غريبة وعجيبة تدل على زندقتهم، وعلى بعدهم عن الله جل وعلا وعدم الخوف منه سبحانه.

ولكن المصيبة أن ينطلي مذهبهم على بعض أهل السُّنَّة، ويريدون التعاون معهم، وهذا لا يمكن أبداً لو كان الخلاف بينهم وبين أهل السُّنَّة في الفروع مثل الخلاف بين الأئمة واجتهاداتهم لكان ممكناً، أما إذا كان في الكفر والإيمان، فهذا لا يمكن أبداً إلا بترك الدين والدخول في الكفر؛ لأن من عقائدهم أن الصحابة كفروا، وأنه لم يبق منهم إلا عدد يسير إما أربعة هم: علي، والمقداد بن الأسود، وعمار بن ياسر، وسلمان الفارسي، وأبو ذر، وبعضهم يوصلهم إلى ثمانية، وبعضهم إلى اثني عشر، والبقية كفروا وارتدوا، وإذا قيل لهم في فضائل الصحابة قالوا: هذا قبل أن يرتدوا، ولكنهم اتفقوا على كتم ما أمرهم الرسول ﷺ به وهو خلافة علي، والوصية له فكفروا بذلك وارتدوا.

فكيف الله جل وعلا يثني على من يعلم أنه يرتد، وقد أخبر أنه قد رضي عنهم في آيات كثيرة، قال جل وعلا: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝١٠٠﴾ [التوبة: ١٠٠]، وقال تعالى: ﴿لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا ۝١٨﴾ [الفتح: ١٨]، وجاء في صفاتهم قوله جل وعلا: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ﴾؛ يعني: من الخشوع وخوف الله إذا رأيتهم عرفت أنهم يخافون الله وأنهم خاشعون لله جل وعلا: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ﴾ [الفتح: ٢٩] ما أحسن ما قاله

الإمام مالك رحمه الله؛ قال ابن كثير رحمه الله: ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك رحمه الله، في رواية عنه بتكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة، قال: لأنهم يغيظونهم، ومن غاظه الصحابة فهو كافر، لهذه الآية. ووافقه طائفة من العلماء على ذلك. والأحاديث في فضائل الصحابة والنهي عن التعرض لهم بمساءة كثيرة، ويكفيهم ثناء الله عليهم، ورضاه عنهم[1]. وقال رحمه الله كذلك: إن الرافضي الذي يسبّ الصحابة ليس له في مال الفيء نصيب لعدم اتصافه بما مدح الله به هؤلاء في قولهم: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠][2].

فالمقصود أن الصحابة رضوان الله عليهم، كما قال الرسول ﷺ من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سئل النبي ﷺ؛ أي: الناس خير؟ قال: «**قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته**»[3]، قال بعض التابعين: سئلت اليهود من خير أهل ملتكم؟ قالوا: أصحاب موسى، وسئلت النصارى: من خير أهل ملتكم؟ قالوا: حواري عيسى، وسئلت الرافضة: من شر أهل ملتكم؟ قالوا: أصحاب محمد ﷺ؛ أمروا بالاستغفار لهم فسبوهم[4].

وقال الشعبي: ما رأيت أحمق من الخشبية لو كانوا من الطير لكانوا رخماً، ولو كانوا من البهائم لكانوا حُمراً، والله لو طلبت منهم أن يملئوا لي هذا البيت ذهباً على أن أكذب على علي لأعطوني، ووالله ما أكذب عليه أبداً[5]، وقال: أحذركم هذه الأهواء المضلة وشرها الرافضة لم يدخلوا في الإسلام رغبة ولا رهبة، ولكن مقتاً لأهل الإسلام وبغياً عليهم قد حرقهم علي رضي الله عنه بالنار[6].

---

(١) تفسير ابن كثير ٧/ ٣٦٢.
(٢) تفسير ابن كثير ٨/ ٧٣.
(٣) رواه البخاري رقم ٣٦٥١، ومسلم رقم ٢٥٣٣.
(٤) منهاج السنة النبوية ١/ ٢٧ عن عامر الشعبي.
(٥) منهاج السنة النبوية ١/ ٢٢ ـ ٢٣.
(٦) المصدر السابق نفس الصفحة.

يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]؛ يعني: أبا بكر وعمر كما أنهم يلعنون أحب الناس إلى رسول الله ﷺ عائشة ﵂ ويقولون: إنها هي المراد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧]، والشجرة الملعونة في القرآن هم بنو أمية، ويروون في هذا أحاديث موضوعة مكذوبة على رسول الله ﷺ، ويفسرون كتاب الله بأشياء غريبة وعجيبة تدل على زندقتهم، وعلى بعدهم عن الله جل وعلا وعدم الخوف منه سبحانه.

ولكن المصيبة أن ينطلي مذهبهم على بعض أهل السُّنَّة، ويريدون التعاون معهم، وهذا لا يمكن أبداً لو كان الخلاف بينهم وبين أهل السُّنَّة في الفروع مثل الخلاف بين الأئمة واجتهاداتهم لكان ممكناً، أما إذا كان في الكفر والإيمان، فهذا لا يمكن أبداً إلا بترك الدين والدخول في الكفر؛ لأن من عقائدهم أن الصحابة كفروا، وأنه لم يبق منهم إلا عدد يسير إما أربعة هم: علي، والمقداد بن الأسود، وعمار بن ياسر، وسلمان الفارسي، وأبو ذر، وبعضهم يوصلهم إلى ثمانية، وبعضهم إلى اثني عشر، والبقية كفروا وارتدوا، وإذا قيل لهم في فضائل الصحابة قالوا: هذا قبل أن يرتدوا، ولكنهم اتفقوا على كتم ما أمرهم الرسول ﷺ به وهو خلافة علي، والوصية له فكفروا بذلك وارتدوا.

فكيف الله جل وعلا يثني على من يعلم أنه يرتد، وقد أخبر أنه قد رضي عنهم في آيات كثيرة، قال جل وعلا: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٠]، وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح: ١٨]، وجاء في صفاتهم قوله جل وعلا: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ﴾؛ يعني: من الخشوع وخوف الله إذا رأيتهم عرفت أنهم يخافون الله وأنهم خاشعون لله جل وعلا: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ۗ﴾ [الفتح: ٢٩] ما أحسن ما قاله

الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ، في رواية عنه بتكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة، قال: لأنهم يغيظونهم، ومن غاظه الصحابة فهو كافر، لهذه الآية. ووافقه طائفة من العلماء على ذلك. والأحاديث في فضائل الصحابة والنهي عن التعرض لهم بمساءة كثيرة، ويكفيهم ثناء الله عليهم، ورضاه عنهم[١]. وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ كذلك: إن الرافضي الذي يسبّ الصحابة ليس له في مال الفيء نصيب لعدم اتصافه بما مدح الله به هؤلاء في قولهم: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠][٢].

فالمقصود أن الصحابة رضوان الله عليهم، كما قال الرسول ﷺ من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سئل النبي ﷺ؛ أي: الناس خير؟ قال: «**قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته**»[٣]، قال بعض التابعين: سئلت اليهود من خير أهل ملتكم؟ قالوا: أصحاب موسى، وسئلت النصارى: من خير أهل ملتكم؟ قالوا: حواري عيسى، وسئلت الرافضة: من شر أهل ملتكم؟ قالوا: أصحاب محمد ﷺ؛ أمروا بالاستغفار لهم فسبوهم[٤].

وقال الشعبي: ما رأيت أحمق من الخشبية لو كانوا من الطير لكانوا رخماً، ولو كانوا من البهائم لكانوا حُمراً، والله لو طلبت منهم أن يملئوا لي هذا البيت ذهباً على أن أكذب على علي لأعطوني، ووالله ما أكذب عليه أبداً[٥]، وقال: أحذركم هذه الأهواء المضلة وشرها الرافضة لم يدخلوا في الإسلام رغبة ولا رهبة، ولكن مقتاً لأهل الإسلام وبغياً عليهم قد حرقهم علي رضي الله عنه بالنار[٦].

---

(١) تفسير ابن كثير ٧/ ٣٦٢.
(٢) تفسير ابن كثير ٨/ ٧٣.
(٣) رواه البخاري رقم ٣٦٥١، ومسلم رقم ٢٥٣٣.
(٤) منهاج السنة النبوية ١/ ٢٧ عن عامر الشعبي.
(٥) منهاج السنة النبوية ١/ ٢٢ ـ ٢٣.
(٦) المصدر السابق نفس الصفحة.

فهم أسسوا مذهبهم على الطعن في الإسلام، بل الطعن في رسول الله ﷺ، ولكن ما استطاعوا فوجهوا الطعن إلى الصحابة.

ذكر ابن القيم رحمه الله قال: اجتمع ثلاثة من كبارهم في مسجد النبي ﷺ وصاروا يبكون، فقال أحدهم: ما أصل هذا البلاء الذي أصابنا؟ قال كبيرهم: أصل هذا البلاء الذي أصابنا صاحب هذا القبر، ويشير إلى قبر النبي ﷺ هو الذي قال: مروا أبا بكر فليصل بالناس.

فهم يعرفون أنهم على باطل، ولكنهم يقدمون الدنيا، وأكلت قلوبهم الأحقاد والحسد كما قال ابن حزم في كتابه الفصل: والأصل في خروج هذه الطوائف عن ديانة الإسلام أن الفرس كانوا من سعة الملك وعلو اليد على جميع الأمم، وجلالة القدر في أنفسهم، حتى أنهم كانوا يسمون أنفسهم الأحرار والأبناء، وكانوا يعدون سائر الناس عبيداً لهم، فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهم على أيدي العرب، وكانت العرب أقل الأمم عند الفرس خطراً تعاظمهم الأمر وتضاعفت لديهم المصيبة وراموا كيد الإسلام بالمحاربة في أوقات شتى، ففي كل ذلك يظهر الله ﷻ الحق.

وقال: فأظهر قوم منهم الإسلام واستمالوا أهل التشيع بإظهار محبة أهل بيت رسول الله ﷺ واستشناع ظلم علي رضي الله عنه، ثم سلكوا بهم مسالك شتى حتى أخرجوهم عن الإسلام، فقوم منهم أدخلوهم إلى القول بأن رجلاً ينتظر يدعى المهدي عنده حقيقية الدين إذ لا يجوز أن يؤخذ الدين من هؤلاء الكفار إذ نسبوا أصحاب رسول الله ﷺ إلى الكفر، وقوم خرجوا إلى نبوة من ادعوا له النبوة، وقوم سلكوا بهم المسلك الذي ذكرنا من القول بالحلول وسقوط الشرائع، وآخرون تلاعبوا فأوجبوا عليهم خمسين صلاة في كل يوم وليلة، وآخرون قالوا: بل هي سبع عشر صلاة في كل صلاة خمسة عشر ركعة، وهذا قول عبد الله بن عمرو بن الحرث الكندي قبل أن يصير خارجياً صفرياً، وقد سلك هذا المسلك أيضاً عبد الله بن سبأ الحميري اليهودي، فإنه لعنه الله أظهر الإسلام لكيد أهله، فهو كان أصل إثارة الناس على عثمان رضي الله عنه، وأحرق علي بن أبي طالب رضي الله عنه منهم طوائف أعلنوا

بإلاهيته[١]. فقاموا بالطعن فيه بالخفاء والظاهر، فلما لم يستطيعوا قاموا بالحيل واغتيال عظمائه تألبوا على الخليفة عثمان وقبله عمر، ثم صاروا يدعون علياً، وأنه هو الوصي، ثم لم يزل بهم الأمر حتى قالوا أنه إلٰه، وأن الله حل فيه، ولهذا عندهم عقيدة الرجعة أن علياً سيرجع، وأنه في السحاب، وأن الرعد هو صوته[٢]، ولا يزال الغلو في دينهم حيث يقول الخميني في كتابه «الحكومة»: إن للأئمة مقام لا يصله نبي مرسل، ولا ملك مقرب. فهم يزعمون أن أئمتهم رسل، بل أكبر من الرسل، وأنهم لا يموتون إلا بإرادتهم، وأنهم يعرفون كل شيء.

قوله: «ألا وأن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد»: المقصود بالذين قبلنا هم اليهود والنصارى، فهم الذين ذكروا في حديث عائشة رضي الله عنها، **وهذا على وجهين**:

أحدهما: أنهم يصورون الصور ويسجدون لها، وكذلك يسجدون للقبور وهذا شرك جلي ظاهر.

الثاني: أنه من باب التعظيم، فهم يجوزون الصلاة في مدافن الأنبياء، والتوجه إليها حالة الصلاة نظراً منهم بذلك إلى عبادة الله، والمبالغة في تعظيمها فدخل عليهم الشرك من هذا الباب، وهو الذي دخل على كثير من المسلمين.

---

(١) الفصل في الملل ٢/ ٩١.

(٢) الفصل في الملل ٤/ ١٣٨ وقالت السبئية: أصحاب عبد الله بن سبأ الحميري اليهودي مثل ذلك في علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وزادوا أنه في السحاب فليت شعري في أي سحابة هو من السحاب والسحاب كثير في أقطار الهواء مسخر بين السماء والأرض كما قال الله تعالى، وقال عبد الله بن سبأ إذ بلغه قتل علي رضي الله عنه: لو أتيتمونا بدماغه سبعين مرة ما صدقنا موته، ولا يموت حتى يملأ الارض عدلاً كما ملئت جوراً. وفي الملل والنحل للشهرستاني ١/ ١٧٢ السبئية أصحاب عبد الله بن سبأ: زعم أن علياً حي لم يمت ففيه الجزء الإلٰهي ولا يجوز أن يستولى عليه وهو الذي يجيء في السحاب والرعد صوته والبرق تبسمه، وأنه سينزل إلى الأرض بعد ذلك فيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً.

قوله: «مساجد»: ليس المعنى لا تبنوا عليها المساجد التي تؤدي فيها الصلاة؛ لأن هذا يعرفه الصحابة تماماً، ولكن المقصود لا تصلوا عندها؛ أي: لا تجعلوا أماكن القبور مساجد، ثم إن الصحابة لا يمكن أن يبنوا على قبر الرسول ﷺ مسجداً، ولهذا سبق أنه لما سمعوا هذا الكلام خافوا أنهم إذا دفنوه في البقيع مع أصحابه أنه يقصد بالصلاة، فلهذا دفنوه في بيته حماية له، وأن لا يأتي أحد فيتحرى الدعاء عنده أو الصلاة، وقد اتفق العلماء علماء أهل السُّنَّة الذين يعتد فيهم على تحريم اتخاذ المساجد على القبور، وأن الصلاة عند القبور لا تصح، وأنه لو بنى مسجداً على قبر أن الصلاة فيه باطلة، وأنه يجب أن يهدم المسجد، أما إذا دخل القبر في المسجد فيجب أن ينبش القبر ويخرج منه، وهذا الذي قرره شيخ الإسلام ابن تيمية كَلَلهُ وقال هو الذي يدل عليه كلام العلماء، ولم أجد فيه خلافاً والأدلة على هذا[1].

وقوله: «فإني أنهاكم عن ذلك»: هذا التكرار للمبالغة في النهي، وإبلاغ بليغ من الرسول ﷺ، وهذا يدل على أنه ﷺ قد علم بما أعلمه الله جل وعلا أن أمته تقع في المحذور، ولهذا كرره وأبدا فيه وأعاده، وقد وقع الشيء الذي خافه ﷺ.

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٧/ ١٦٠ قال: وقد نص على النهي عن بناء المساجد على القبور غير واحد من علماء المذاهب من أصحاب مالك والشافعي، وأحمد ومن فقهاء الكوفة أيضاً وصرح غير واحد منهم بتحريم ذلك وهذا لا ريب فيه بعد لعن النبي ﷺ ومبالغته في النهي عن ذلك. وإتخاذها مساجد يتناول شيئين: أن يبني عليها مسجداً أو يصلي عندها من غير بناء وهو الذي خافه هو وخافته الصحابة إذا دفنوه بارزاً خافوا أن يصلي عنده فيتخذ قبره مسجداً. وقال كَلَلهُ في شرح العمدة ٤/ ٤٦١: الصواب فإن قوله ﷺ: **«لا تتخذوا القبور مساجد»** أي: لا تتخذوها موضع سجود فمن صلى عند شيء من القبور فقد اتخذ ذلك القبر مسجداً، إذ المسجد في هذا الباب المراد به موضع السجود مطلقاً. وقال كَلَلهُ في اقتضاء الصراط ١/ ٣٣٦: وقد اختلف الفقهاء في الصلاة في المقبرة هل هي محرمة أو مكروهة، وإذا قيل محرمة فهل تصح مع التحريم أم لا؟ المشهور عندنا أنها محرمة لا تصح، ومن تأمل النصوص المتقدمة تبين له أنها محرمة بلا شك وأن صلاته عندها لا تصح.

قوله: «فقد نهى عنه في آخر حياته. ثم إنه لعن ـ وهو في السياق ـ من فعله»: فنهى عن ذلك في حياته، ونهى عن الصلاة إلى القبور، ثم ذكره أيضاً قبل وفاته؛ يعني: ذكره مكرراً له قبل أن يمرض صلوات الله وسلامه عليه، وليس في حديث جندب فقط بل وفي غيره، ثم ذكره في سياق الموت صلوات الله وسلامه عليه.

قوله: «والصلاة عندها من ذلك وإن لم يبن مسجد»؛ يعني: الصلاة عند القبور اتخاذ لها مساجد؛ لأن المقصود بالمسجد المكان الذي تسجد فيه ولو لم يبن مسجداً.

وقوله: **«وهو معنى قولها خشي أن يتخذ مسجداً»**؛ يعني: خشي أن يُصلي عنده، وينتاب للصلاة والتعبد عنده، ثم يكون ذلك وسيلة وداعياً إلى عبادته، وقد سأل ربه جل وعلا أن لا يكون قبره كذلك فاستجاب الله تعالى دعاءه فحماه من أن يكون مسجداً، أو يكون وثناً يعبد.

قوله: «فإن الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجداً»: لما علموه من نهيه ﷺ وتحذيره من هذا، وأن هذا من المحرمات، وأنه أيضاً من سُنَّة اليهود والنصارى الذين هم أهل الغضب، وأهل الضلال الذين حذرنا من أن نسلك مسلكهم.

وقوله: «وكل موضع قصدت الصلاة فيه فقد اتخذ مسجداً»؛ يعني: أن المقصود باتخاذ المسجد ليس البناء، أن يُبنى مسجد على الشكل المعلوم والصفة المعروفة، وإنما المقصود النهي عن الصلاة عند القبر، فالصلاة عند القبور من اتخاذها مساجد خلاف ما يقوله دعاة القبورية.

قوله: «بل كل موضع يصلى فيه يسمى مسجداً، كما قال ﷺ: «جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً»»: وهذا عام في الأرض كلها، ويستثنى من ذلك الحمام والمقبرة كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً: **«الأرض كلها مسجداً إلا المقبرة والحمام»**[1]، والمجزرة وقارعة الطريق كما في حديث

(١) أحمد في المسند رقم ١١٧٨٨، وأبو داود رقم ٤٩٢، والترمذي رقم ٣١٧، =

ابن عمر قال: نهى رسول الله ﷺ أن يصلى في سبع مواطن: في المزبلة، والمجزرة، والمقبرة، وقارعة الطريق، والحمام، ومعاطن الإبل، وفوق الكعبة[1].

وهذا بخلاف اليهود والنصارى، فإنهم لا يصلّون إلا في البيع والكنائس، وهذا من خصائص الرسول ﷺ حيث قال: «**أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي المغانم، ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة**»[2].

وهو ﷺ رسول لكل من كان على الأرض، ومن لم يؤمن به فهو كافر كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار**»[3]، فعلق الأمر بالسماع أنه يسمع؛ لأن الإنسان عنده عقل وفكر، فإذا سمع أن لله نبياً وجب عليه أن يبحث عن دينه، وأول شيء يجب أن يتعلمه اللغة؛ لأنه لن يعرف ما قاله وما نهى عنه، وما أمر به إلا إذا عرف لغته، ولهذا يقول العلماء: أن تعلم اللغة العربية واجب؛ لأنه لا يفهم كلام الله وكلام رسوله ﷺ إلا بها.

وقوله: «**أحلت لي الغنائم، ولم تحل لأحد قبلي ونصرت بالرعب مسيرة شهر**»، فكل من يسمع به وبينه وبين الرسول مسيرة شهر فإنه يرعب، وهذه

= وابن ماجه رقم ٧٤٥، والحاكم في المستدرك رقم ٩١٩ و٩٢٠ وقال: هذه الأسانيد كلها صحيحة على شرط البخاري، ومسلم ولم يخرجاها. ووافقه الذهبي.

(١) أخرجه ابن ماجه رقم ٧٤٦، والترمذي رقم ٣٤٧ وقال: قال أبو عيسى: وحديث ابن عمر إسناده ليس بذاك القوي، وقد تكلم في زيد بن جبيرة من قبل حفظه. وفي التلخيص الحبير لابن حجر ١/ ٤٢٢: في سند الترمذي، زيد بن جبيرة وهو ضعيف جداً، وفي سند ابن ماجه عبد الله بن صالح وعبد الله بن عمر العمري المذكور في سنده، ضعيف أيضاً.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) رواه مسلم رقم ١٥٣.

ليست خاصة بالنبي ﷺ بل له ولأمته من بعده بشرط التمسك بسُنَّته.

وقوله: «وجعلت لي الأض مسجداً وطهوراً»: وكان الذين من قبله يصلّون في بيعهم وكنائسهم.

وقوله: «وأعطيت الشفاعة»: والمقصود بها الشفاعة الكبرى.

والمقصود من الحديث قوله: **«جعلت لي الأرض مسجداً»**؛ يعني: يصلي فيها؛ أي: أي مكان أدركتك الصلاة فيه تصلي **«وطهوراً»** إذا لم تجد الماء تيمم، ومن كان قبلنا لم يكن عندهم تيمم، بل لا بد من الوضوء، وإذا وقعت النجاسة على ثوب أحدهم يقرضها بالمقراض لا يغسلها، وكل هذا من الآصار والأغلال التي كانت عليهم بسبب تعنتهم وأفعالهم.

وقد نهى الرسول ﷺ أن يجصص القبر وأن يبنى عليه، أو يجلس عليه، فعن جابر رضي الله عنه قال: نهى رسول الله ﷺ: **«أن يجصص القبر، وأن يقعد عليه، وأن يبنى عليه»**[1]، وجاء عند الترمذي بلفظ: **«نهى رسول الله ﷺ أن تجصص القبور، وأن يكتب عليها، وأن يبنى عليها وأن توطأ»**[2]، وهو كذلك عند أبي داود: **«أو يكتب عليه»**[3]، فهذه أربعة أشياء وهي: الجلوس عليها[4]. وقد فسره بعض العلماء بقضاء الحاجة[5]. ولكن الظاهر أنه الجلوس؛ يعني: العكوف عندها لطلب البركة، والبناء عليها أن يبنى عليها، وأن يجصص القبر وأن يقعد عليه، وقد جاء عن النبي ﷺ قوله: **«لأن يجلس أحدكم على جمرة فتحرق ثيابه فتخلص إلى جلده خير له من أن يجلس على قبر»**[6]، وكذلك أمر خامس هو تسويتها وعدم الزيادة عليها كما جاء عن أبي الهياج الأسدي قال:

---

(١) رواه مسلم رقم ٩٧٠.

(٢) رواه الترمذي رقم ١٠٥٢ وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) أخرجه أبو داود رقم ٣٢٢٦، والنسائي رقم ٢٠٢٧.

(٤) أخرجه أحمد رقم ٢٦٥٥٦: «أو يجلس عليه».

(٥) فتح الباري لابن حجر ٣/ ٢٢٤ قال النووي: المراد بالجلوس القعود عند الجمهور وقال مالك: المراد بالقعود الحدث وهو تأويل ضعيف أو باطل. انتهى.

(٦) رواه مسلم رقم ٩٧١ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال لي علي ﷺ: «ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ؟ أن لا تدع تمثالاً إلا طمسته ولا قبراً مشرفاً إلا سويته»[١]، وفي رواية جابر: «أو يزاد عليه»[٢].

۞ **قول المؤلف ﷺ: ولأحمد بسند جيد، عن ابن مسعود مرفوعاً: «إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء، والذين يتخذون القبور مساجد» رواه أبو حاتم، وابن حبان في صحيحه**[٣].

قوله: «شرار»: أصل شرار: أشر الناس، فجمع فقيل: شرار.

قوله: «من تدركهم الساعة وهم أحياء»: المقصود بالساعة أحد أمرين:

أحدهما: تدركهم علاماتها الكبرى مثل: طلوع الشمس من المغرب، والدابة، والدجال، فهي مقرونة بطلوع الشمس والدابة، ففي الصحيح من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل، أو كسبت في إيمانها خيراً: طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض**»[٤]؛ لأن هذا إذان بتغير الكون ونهايته؛ لأن الدجال إذا خرج يكون أول يوم له سنة والثاني شهر والثالث أسبوع، ثم تعود الأيام كما هي[٥]، وهذا إذاناً بالتغير، فهذا مثل طلوع الشمس من مغربها، فهي تقف الوقت الطويل، وليس هذا من باب التأويل بل هو على الحقيقة؛ لأن الصحابة قالوا في اليوم الذي كسنة: كيف نصنع بالصلاة؟ قال:

---

(١) رواه مسلم رقم ٩٦٩.

(٢) أخرجه أبو داود رقم ٣٢٢٦، والنسائي رقم ٢٠٢٧.

(٣) أخرجه أحمد في المسند رقم ٣٨٤٤، وابن أبي شيبة رقم ٢٧٢، وأبو يعلى رقم ٥٣١٦، وابن خزيمة رقم ٧٨٩، والطبراني في الكبير رقم ١٠٤١٣، والبزار رقم ١٧٢٤.

(٤) رواه مسلم رقم ١٥٨.

(٥) رواه مسلم رقم ٢٩٣٧ من حديث النواس بن سمعان وفيه: «قلنا: يا رسول الله وما لبثه في الأرض؟ قال: **أربعون يوماً يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامكم، قلنا: يا رسول الله فذلك اليوم الذي كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم؟ قال: لا اقدروا له قدره...**».

اقدروا لها؛ يعني: صلوا في اليوم الأول صلاة سَنَة، واليوم الثاني صلاة شهر، والثالث صلاة أسبوع، وكذلك طلوع الشمس من المغرب جاء أنها يتأخر طلوعها، حتى إن الناس يصلون وليسوا هم كفرة يقول: إن الذين يتهجدون بالليل يستبطؤون الليل، ثم يفزعون إلى المساجد ويبقون فيها طويلاً بينما هم ينتظرون إذا الشمس تطلع من المغرب، ثم تسير متجه إلى الشرق، ثم يؤمن كل من رآها، ولكن هذا لا ينفع؛ لأن هذا مثل معاينة القيامة.

الثاني: فسرها بعض المفسرين بما هو أخص من هذا وهو ما فسره الشارح قال: والمقصود بالساعة النفخ بالصور النفخة الأولى[1]. فيكون أخص من كونها علاماتها. وهذا لا يخالف قوله ﷺ في حديث ثوبان، وحديث معاوية وحديث جابر وحديث معاذ ﷺ، فعن معاوية قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم حتى يأتيهم أمر الله وهم على ذلك**»[2]، الخاذل يكون ممن هو على عقيدتهم ولكنه يقف عن نصرتهم، أما المخالف فهو يخالفهم في العقيدة، وهم لا يضرهم هؤلاء ولا هؤلاء.

وفي رواية مسلم كذلك عن جابر بن سمرة: عن النبي ﷺ أنه قال: «**لن يبرح هذا الدين قائماً يقاتل عليه عصابة من المسلمين حتى تقوم الساعة**»[3]، فهذه الأحاديث عامة في الأزمان كلها؛ يعني: في كل زمن هذه الطائفة فهي مستمرة، والمقصود بالساعة هي ساعتهم التي يموتون فيها كما في حديث عبد الرحمٰن بن شماسة المهري قال: كنت عند مسلمة بن مخلد، وعنده عبد الله بن عمرو بن العاص، فقال عبد الله: لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق هم شر من أهل الجاهلية لا يدعون الله بشيء إلا رده عليهم فبينما هم على ذلك أقبل عقبة بن عامر، فقال له: مسلمة يا عقبة اسمع ما يقول عبد الله،

---

(١) تيسير العزيز الحميد ١/ ٢٨٧ قال: أي من تقوم عليهم الساعة بحيث ينفخ في الصور وهم أحياء، وهذا كحديثه الآخر الذي في مسلم لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق.
(٢) رواه البخاري رقم ٣٦٤١، ومسلم رقم ١٠٧٣ و١٩٢٠.
(٣) رواه مسلم رقم ١٩٢٢.

فقال عقبة: هو أعلم، وأما أنا فسمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله قاهرين لعدوهم لا يضرهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك**»، فقال عبد الله: أجل، ثم يبعث الله ريحاً كريح المسك مسها مس الحرير فلا تترك نفساً في قلبه مثقال حبة من الإيمان إلا قبضته، ثم يبقى شرار الناس عليهم تقوم الساعة[1]. وفي حديث عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله يبعث ريحاً من اليمن ألين من الحرير فلا تدع أحداً في قلبه** (قال أبو علقمة: **مثقال حبة**، وقال عبد العزيز: **مثقال ذرة**) **من إيمان إلا قبضته**»[2].

فيبقى شرار الناس وعليهم تقوم الساعة كما جاء في حديث أنس ﷺ عند مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله الله**»[3]، والساعة هي النفخ في الصور، ولكن الساعة قد تطلق على وقت معين على نهاية جيل، أو نهاية إنسان تكون هذه ساعته الخاصة به في صحيح مسلم من حديث عائشة قالت: كان الأعراب إذا قدموا على رسول الله ﷺ سألوه عن الساعة متى الساعة؟ فنظر إلى أحدث إنسان منهم فقال: «**إن يعش هذا لم يدركه الهرم قامت عليكم ساعتكم**»[4]؛ يعني: ساعة هذا الجيل، هذا القرن، وفي هذا أحاديث كثيرة، وبهذا تجتمع الأحاديث يعي أن المقصود بساعة الطائفة المنصورة هي إتيان الريح التي تقبض كل مؤمن ومؤمنة، فيبقى شرار الناس وعليهم تقوم الساعة، وفي هذا دليل على أن الناس يبقون إلى قرب النفخ في الصور، ولكن الخير قد رفع منهم وبقوا شرار ليس فيهم خير، فقد جاء أن القرآن يُرفع يُسرى عليه في الليلة فلا يبقى منه حرف واحد.

وفي حديث حذيفة بن اليمان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يدرس الإسلام كما يدرس وشي الثوب حتى لا يدري ما صيام ولا صلاة ولا نسك، ولا صدقة، وليسرى على كتاب الله ﷻ في ليلة فلا يبقى في الأرض منه آية،**

(١) رواه مسلم رقم ١٩٢٤.
(٢) رواه مسلم رقم ١١٧.
(٣) رواه مسلم رقم ١٤٨.
(٤) رواه مسلم رقم ٢٩٥٢.

وتبقى طوائف من الناس والشيخ الكبير والعجوز يقولون: أدركنا آباءنا على هذه الكلمة لا إله إلا الله. فنحن نقولها»، فقال له صلة: ما تغني عنهم لا إلـه إلا الله، وهـم لا يدرون ما صلاة ولا صيام ولا نسك ولا صدقة؟ فأعرض عنه حذيفة، ثم ردها عليه ثلاثاً. كل ذلك يعرض عنه حذيفة. ثم أقبل عليه في الثالثة فقال: يا صلة تنجيهم من النار. ثلاثاً[1].

فهو لا يبقى منه حرف واحد لا في المصاحف ولا في صدور الرجال[2]، وذلك إذا ترك العمل به وهجر رفعه الله إليه[3]، وهذا يذكره العلماء في عقائدهم ويقولون في صفة القرآن منه بدأ وإليه يعود، فقولهم: منه بدأ؛ يعني: أنه تكلم به وهو كلامه خرج منه، وإليه يعود إما أن يكون المعنى يعود صفة له، أو أنه كما جاء في الأثر أنه يسرى عليه، ويرفع إلى السماء

---

(١) رواه ابن ماجه رقم ٤٠٤٩، والحاكم في المستدرك رقم ٨٦٣٦ وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي. وقال ابن حجر في فتح الباري: سنده قوي.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك عن أبي هريرة ﷺ قال: «يُسرى على كتاب الله فيرفع إلى السماء فلا يصبح في الأرض آية من القرآن ولا من التوراة والإنجيل ولا الزبور وينتزع من قلوب الرجال فيصبحون ولا يدرون ما هو»، قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. وفي الدر المنثور ٥/ ٣٣٦ وعن ابن مردويه والديلمي عن حذيفة وأبي هريرة ﷺ قالا: قال رسول الله ﷺ: **«يُسرى على كتاب الله ليلاً فيصبح الناس ليس في الأرض ولا في جوف مسلم منه آية»**، وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تقوم الساعة حتى يرفع الذكر والقرآن»**.

(٣) جاء عند السيوطي في الجامع الكبير ١/ ١٨٤٧٦ رقم ٨٩٨: «لا تقوم الساعة حتى يرجع القرآن من حيث جاء فيكون له دوي حول العرش كدوي النحل، فيقول الرب: ما لك؟ فيقول: منك خرجت وإليك أعود أتلى فلا يعمل بي فعند ذلك يرفع القرآن» (الديلمي عن ابن عمرو) أخرجه الديلمي ٥/ ٧٩ رقم ٧٥١٣. وجاء عند محمد بن نصر المروزي في مختصر قيام الليل ١/ ٢٧٧ عن عبد الله بن عمرو ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يرجع القرآن من حيث نزل، له دوي حول العرش كدوي النحل يقول: أتلى ولا يعمل بي»، وقال الليث بن سعد: «يقال: إنما يرفع القرآن حين يقبل الناس على الكتب ويكبون عليها ويتركون القرآن»، وقال مجاهد ﷺ: «إن القرآن يقول: إني معك ما تبعتني فإذا لم تعمل بي تبعتك حتى آخذك على أسوأ عملك».

فيبقى الناس لا يعرفون معروفاً، ولا ينكرون منكراً، فهؤلاء هم شرار الناس.

وقوله: «والذين يتخذون القبور مساجد»: هذا عام في كل من يتخذ القبر مسجداً سواء كان في أول الزمن، أو في آخره، فهم شرار الناس جعلهم مثل من لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً، وهذا يدل على أن هذا شديد وعظيم وغليظ أن من فعل ذلك فقد ارتكب عظيماً، وكفى بذلك تغليظاً من الرسول ﷺ، وقد يحتج محتج بقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف: ٢١] في قصة أصحاب الكهف، فالله جل وعلا ذكر ذلك عنهم وأقره فيكون ذلك دليلاً على جواز ذلك فيقال: إن مجرد ذكر ذلك عنهم لا يدل على جوازه، والرسول ﷺ وضح ما أنزل إليه من ربنا في أحاديثه التي سمعنا بعضها في هذا، فيكون هذا هو الجواب على من احتج بذلك.

۞ قال المؤلف رحمه الله: فيه مسائل:

۞ الأولى: ما ذكر الرسول ﷺ فيمن بنى مسجداً يعبد الله فيه عند قبر رجل صالح، ولو صحت نية الفاعل.

يعني: أنه يكون جاهلاً في الحكم ما أراد مخالفة الرسول ﷺ، وإنما يظن أن هذا يحبه الله، وأن ما جاء به الرسول ﷺ إما أن يبني مسجداً، وقد علم النهي وتحذير الرسول ﷺ، فهذا لا يكون عمله إلا فاسداً نية وعملاً، ومع هذا لو قدر أنه يفعل هذا جاهلاً، وأيظن أن هذا يحبه الله نقول: إن هذا عمل باطل، وهو غير مأجور على ذلك بل هو مأزور؛ لأن الواجب على المكلف أن لا يقدم على عمل من الأعمال إلا ويعرف حكم الله فيه، فإن خالف ذلك فهو آثم. فهذا وإن كانت نيته صالحة فهو لا يكون معذوراً في عمله.

۞ الثانية: النهي عن التماثيل، وغلظ الأمر في ذلك.

النهي عن الصور، فالتمثال قد تطلق على الصور المعبودة فقط، يقال: هذا تمثال، وفي اللغة هو ما كان مثلاً لمن صورت صورته فيعم التصوير كله، وقد جاءت النصوص في الوعيد على المصورين كثرة وفيها تغليظ وشدة، منها قوله ﷺ عن الله جل وعلا: **«قال الله ﷻ: ومن أظلم ممن ذهب يخلق**

كخلقي فليخلقوا ذرة، أو ليخلقوا حبة، أو شعيرة»[١]، ومنها قوله ﷺ: **«كل مصور في النار يجعل له بكل صورة صوَّرها نفساً فتعذبه في جهنم»**[٢]، ومنها قوله: **«من صوَّر صورة فإن الله معذبه حتى ينفخ فيها الروح، وليس بنافخ فيها أبداً»**[٣]. تكليف بما لا يستطاع في نصوص كثيرة في التصوير، وهذا أيضاً يدلنا على أن هذا القول من علامات نبوة رسول الله ﷺ، وأنه جاء من عند الله صلوات الله وسلامه عليه أعلمه الله ما سيكون في أمته من كثرة التصاوير فحذر من ذلك ونصح وبلغ البلاغ المبين، فهذا مما بلغه الرسول ﷺ، وأبدا فيه وأعاد، ولم يترك صلوات الله وسلامه عليه شيئاً يقربنا إلى النار إلا وحذرنا منه ولا شيئاً يقربنا إلى الجنة إلا وبينه لنا ووضحه لنا كما قال أبو ذر: لقد تركنا محمد ﷺ وما يحرك طائر جناحيه في السماء إلا أذكرنا منه علماً[٤].

وجاء في ابن ماجه وغيره أن الرسول ﷺ قال: **«قد تركتكم على البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك، من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً. فعليكم بما عرفتم من سُنَّتي وسُنَّة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ»**[٥]؛ يعني: الطريقة الواضحة الجلية التي وضَّحها الرسول ﷺ، وقد عرفنا أن التماثيل فتنة، ولا سيما إذا كانت لمن يعظم من الكبراء والعظماء، أو الصالحين.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه مسلم رقم ٢١١٠.

(٣) رواه البخاري رقم ٢٢٢٥، ومسلم رقم ٢١١٠ من حديث ابن عباس.

(٤) أخرجه أحمد في المسند رقم ٢١٣٦١.

(٥) أحمد في المسند رقم ١٧١٤٢، وابن ماجه رقم ٤٣، والطبراني في الكبير رقم ٦١٩ عن العرباض بن سارية يقول: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب. فقلنا: يا رسول الله ﷺ، إن هذه لموعظة مودع، فما تعهد إلينا؟ قال: **«قد تركتكم على البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك، من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وعليكم بالطاعة، وإن عبداً حبشياً، فإنما المؤمن كالجمل الأنف حيثما قيد انقاد»**.

۞ الثالثة: العبرة في مبالغته ﷺ في ذلك. كيف بيَّن لهم هذا أولاً، ثم قبل موته بخمس، قال ما قال، ثم لما كان في السياق لم يكتف بما تقدم.

العبرة في هذا؛ لأنه علم مما علمه الله جل وعلا من علم الغيب أن هذا سيقع في أمته، وأنهم سيخالفون ذلك، فبالغ هذه المبالغة حتى يبلغهم ويعلمهم أمر الله في ذلك فيصبح ليس لهم عذر، ثم التحذير من الوقوع في ذلك لشدة الفتنة فيه فإن الفتنة فيه كبيرة. فهذا مما أمر الله بتبليغه للأمة فبلغه صلوات الله وسلامه عليه، بل بلغ كل ما جاء به من عند الله جل وعلا، ولهذا يقول العلماء كل ما لم يبلغه الرسول ﷺ فهو ليس من الدين لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [المائدة: ٦٧].

۞ الرابعة: نهيه عن فعله عند قبره قبل أن يوجد القبر.

هذا يعني: في حياته ﷺ، ولم يعين هو مكان القبر ولكنه دعا قال: «**اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ألا فلا تتخذوا قبري عيداً**»، فهذه مبالغة أيضاً، ولهذا قال القرطبي: بالغ المسلمون في سد الذريعة في قبر النبي ﷺ فأعلوا حيطان تربته، وسدوا الداخل إليها، وجعلوها محدقة بقبره ﷺ، ثم خافوا أن يتخذ موضع قبره قبلة إذ كان مستقبل المصلين فتتصور إليه الصلاة بصورة العبادة، فبنوا جدارين من ركني القبر الشماليين، وحرفوهما حتى التقيا على زاوية مثلث من ناحية الشمال، حتى لا يتمكن أحد من استقبال قبره. ولهذا المعنى قالت عائشة: ولولا ذلك لأبرز قبره[1]. فلا يستطيع أحد أن يستقبل القبر ولو في الظاهر، ولكن هذا الآن أصبح بإمكانه أن يستقبل وذهبت هذه الزاوية، وهذا كان في زمن عمر بن عبد العزيز لما كان هو الأمير على المدينة في وقت الخليفة الذي أمر أن تدخل الغرفة في المسجد، وهو الوليد بن عبد الملك، وهذا أمر به من ذات نفسه، ولم يأخذ فيه رأي العلماء، والعلماء نهوا عن ذلك، ولكنه لم

---

(١) فتح الباري لابن رجب ٣/ ٢١٧.

يبال في ذلك، ولهذا لا يقال كما تقول المبتدعة: هذا قبره في المسجد فكيف تنهون عن بناء المساجد على القبور؟ نقول: هذا فعل الملوك وهو لا يستدل به على أحكام، ولا على شرع، ولم يقره العلماء على ذلك بل نهوا عنه وبعضهم عذب على هذا مثل سعيد بن المسيب وغيره، ثم لا يجوز أن يقاس قبر الرسول ﷺ بقبر غيره، ولا يجعل للملوك ألعوبة، ولله في ذلك حكمة في هذا، فلو كان قبر الرسول ﷺ بارزاً فماذا يكون؟ يمكن أن يشال التراب الذي عنده كله فضلاً عنه.

۞ الخامسة: أنه من سنن اليهود والنصارى في قبور أنبيائهم.

فإذا كان من سنن اليهود والنصارى فإنه لا بد أن يقع في هذا الأمة لقوله ﷺ: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم**»[1]، وهذا لا يحتاج إلى دليل، الواقع أكبر من أن يستدل عليه ولا يقصد بذلك الأمة كلها؛ يعني: أمة الإجابة يكفي أن يقع من بعضهم.

۞ السادسة: أن مراده تحذيره إيانا عن قبره.

يعني: مراده بلعن اليهود والنصارى نحن، فيكون معنى ذلك أننا إذا فعلنا ذلك استحقينا لعنته، فمن وقع في ذلك فهو ملعون بلعنة الرسول ﷺ.

وهل اللعنة دعاء أو خبر؟ هل هو دعاء على الفاعل بأنه يكون ملعوناً؟ أو خبر منه بأنه ملعون؟ هو خبر وهو أعظم من الدعاء؛ لأن الدعاء قد تتخلف الإجابة عنه، أما الخبر فلا يمكن؛ لأن الرسول ﷺ هو الصادق المصدوق الذي لا يقول إلا حقاً، ولا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

۞ السابعة: العلة في عدم إبراز قبره.

العلة في ذلك ظاهرة، وهو الخوف من أن يصلى عنده، أو يقصد بالعبادة.

---

(١) سبق تخريجه.

۞ الثامنة: في معنى اتخاذها مسجداً.

معنى اتخاذها مسجداً: التعبد عندها من الصلاة، أو قراءة القرآن أو الذكر، أو تحري الدعاء وما أشبه ذلك؛ لأن هذه العبادات فعلها في المساجد أعظم، والمسجد بني للصلاة وذكر الله جل وعلا.

۞ التاسعة: أنه قرن بين من اتخذها مسجداً وبين من تقوم عليه الساعة، فذكر الذريعة إلى الشرك قبل وقوعه مع خاتمته.

فذكر ذريعة الشرك مع خاتمته؛ يعني: خاتمة الخلق والمصير أن شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء.

۞ العاشرة: ذكره في خطبته قبل موته بخمس: الرد على الطائفتين اللتين هما شرار أهل البدع بل أخرجهم بعض أهل العلم من الثنتين والسبعين فرقة، وهم: الرافضة والجهمية. وبسبب الرافضة حدث الشرك وعبادة القبور؛ وهم أول من بنى عليها المساجد.

يعني: هم أول من بنى على القبور المساجد، يقصد بذلك العبيديين وكذلك غيرهم من الرافضة الذين بنوا المشاهد على القبور، وصاروا يدعون إلى الحج إليها، ويزعمون أن الحج إليها أفضل من الحج إلى البيت العتيق، أما الجهمية فهم الذين عطلوا الله جل وعلا عن أوصافه ونشروا مذهبهم فحدث في الأمة شر عريض طويل بسببهم، أصبحت حروب كلامية بسبب ذلك وانصرفوا عن الجهاد في سبيل الله، فصار تناحر بينهم وسرى شرهم إلى كثير من المسلمين.

وقوله: «بل أخرجهم بعض أهل العلم من اثنتين والسبعين فرقة»: الذين ذكرهم الرسول ﷺ في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره قوله: **«افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة، قالوا: من هي؟ قال: من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي»**، فالثنتان والسبعون فرقة هذه متوعدة بالنار، والثالثة هي التي نجت، وهذا ليس معناه أن

هذه الفرق الثنتين والسبعين أنها خارجة عن اتباعه وطاعته ولكنها ضالة، ضلّت في ذلك؛ لأن الأمة تكون أمة إجابة، وأمة دعوة، وهذه الفرق باتفاق العلماء أنها من أمة الإجابة وليست من أمة الدعوة، أمة الدعوة كل الخلق، فمعنى ذلك أنهم بهذا الخروج لم يخرجوا من دائرة الإسلام، ولكنهم متوعدون بالنار كأصحاب الكبائر.

أما هؤلاء؛ يعني: الرافضة والجهمية فكثير مما كتب في المقالات قالوا: ليسوا من أمة الإجابة، وكذلك طوائف الباطنية فأخرجوهم من الأمة بما اتصفوا به من الإنحراف الزائد.

۞ الحادية عشر: ما بلي به ﷺ من شدة النَّزع.

وهذا يفهم من قوله: «**إذا اغتم بها ألقاها عن وجهه**»: هذا يدل على أنه وقع له نزع شديد، فقد جاء أنه ﷺ كان عنده إناء فيه ماء كان يدخل يده فيه ويقول: «**لا إله إلا الله إن للموت سكرات**»[1]، ويقول: «**اللهم هوِّن عليَّ سكرات الموت**»[2].

۞ الثانية عشر: ما أكرم به من الخلة.

يعني: أنه خليل الله جل وعلا، وهذا خاص به مع أبيه، فالله خصَّهما بالخلة دونما سائر الخلق.

۞ الثالثة عشر: التصريح بأن الصدّيق أفضل الصحابة.

يعني في قوله: «**لو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لتخذت أبا بكر خليلاً**» هذا فرد من نصوص كثيرة تدل على فضل أبي بكر ﷺ.

۞ الرابعة عشر: الإشارة إلى خلافته.

في قوله: «**لو اتخذت من أمتي خليلاً لتخذت أبا بكر خليلاً**»؛ لأن من

---

(١) رواه البخاري رقم ٤٤٤٩ من حديث عائشة.

(٢) أخرجه أحمد في السند رقم ٢٤٣٥٦، والترمذي رقم ٩٧٨، وابن ماجه رقم ١٦٢٣، والحاكم في المستدرك رقم ٣٧٣١ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

كان أقرب من النبي ﷺ وأحب إليه فهو أولى بأن يلي الأمر من بعده، وقد جاء ما هو أصرح من ذلك كما في الصحيحين في الرؤى التي رآها الرسول ﷺ أنه قال: «**بينا أنا نائم رأيتني على قليب عليها دلو فنزعت منها ما شاء الله، ثم أخذها ابن أبي قحافة فنزع بها ذنوباً، أو ذنوبين وفي نزعه ضعف، والله يغفر له ضعفه، ثم استحالت غرباً فأخذها ابن الخطاب فلم أر عبقرياً من الناس يفري بفريه حتى ضرب الناس بعطن**»[1]؛ يعني: أنهم شربوا وتركوا الماء.



(١) سبق تخريجه.



الباب الحادي والعشرون

۞ قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ: باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثاناً تعبد من دون الله.

اتخاذ القبور مساجد، وقبلة تقصد إما لتحري الدعاء عندها، أو لدعوة أصحابها في النهاية والشرك الأكبر فيها أمر خطر، ولهذا ذكر عدة أبواب في هذا المعنى منوعاً ذلك، ويأتي بالأدلة المتنوعة حتى لا يكون لمن يتعلق بذلك أي شبهة؛ لأنه رَحِمَهُ اللَّهُ واجه في هذه المشكلة عنتاً من العلماء أنفسهم، كما هو الواقع الآن وإلى أن يرث الله جل وعلا الأرض ومن عليها.

فالآن يوجد من العلماء من يدعو إلى عبادة القبور وهم علماء ويكتبون الكتب ويستدلون بالأدلة، وإن كانت أدلتهم شبه، أو أنها واهية، أو أحاديث موضوعة، أو تعلق بقول فلان، أو ما أشبه ذلك من الحكايات؛ كالحكاية التي يذكرونها عن أحمد الرفاعي أنه أتى إلى قبر النبي ﷺ فطلب أن يخرج له يده حتى يقبلها فخرجت إليه فقبلها، وإن كان هذا الرفاعي لا يجوز أن يذكر ما يقوله؛ لأنه دجال جمع بين الرفض والتصوف المقيت الذي هو أصل ضلال كثير من الناس، ومع ذلك فله طريقة لا تزال تتبع وله أنصار، وله أعوان على هذا الباطل ـ نسأل الله العافية ـ.

قوله: «الغلو»: هو الزيادة على المشروع، والزيادة على ما شرعه الله جل وعلا يكون ضلالاً؛ لأننا عبيد يجب أن نتقيد بأمر سيدنا ولأننا أتباع يجب أن نكون متبعين لرسولنا ﷺ فإذا جئنا بزيادة فقد خرجنا عن هذين المعنيين وشرعنا من عند أنفسنا، ولم نقتنع بما جاء به الرسول ﷺ، وفي هذا خروج عن العبودية وعن الاتباع، وإن كان هذا لا يكون في كل شيء؛ لأن الغلو مبدئه قد يكون شيئاً سهلاً عند الإنسان، ولكن عند النهاية يخرج به عن دين الله جل وعلا.

والذي شُرع في القبور زيارتها لتذكر والاعتبار والإحسان إلى الميت بأن يدعو له وما زاد على ذلك فهو غلو، وسواء كانت القبور لصالحين أو لغيرهم، ولهذا قسم العلماء الزيارة إلى زيارة شرعية وزيارة بدعية فما كان فيه الإحسان إلى الزائر وإلى المزور فهو من الزيارة الشرعية، وما كان خارجاً عن ذلك فيه تحري الدعاء عند القبور، أو التوسل بأصحابها، أو دعوة أصحابها، فهو إما وسيلة إلى الشرك، أو شرك أكبر بالله جل وعلا. قوله: «**في قبور الصالحين**».

قيَّدَ الغلو في قبور الصالحين، والغلو منهي عنه مطلقاً في جميع المسائل، ولكن في هذه المسألة بخصوصها يجعل القبور، أوثاناً تعبد من دون الله، وهذا هو الواقع والغلو فيها مثل: دفنها في المساجد، وبني المساجد عليها، أو البناء مثل القباب، أو وضع الستور عليها، أو الإسراج وما أشبه ذلك من التعظيمات التي وقعت كثيراً، فهذا كله غلو، وقد جاء النهي عن ذلك صريحاً عن النبي ﷺ حتى إنه جاء أنه لا يُزاد في ترابها، وأنها تسوى بالأرض، ففي صحيح مسلم عن أبي الهياج الأسدي قال: قال لي علي بن أبي طالب: «ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ؟ أن لا تدع تمثالاً إلا طمسته، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته»[1]، فهذان الأمران من الأمور التي وقع الشرك بهما الصور والقبور، فكان يبعث البعوث صلوات الله وسلامه عليه لتسوية القبور بالأرض وكذلك طمس الصور فقوله: «**طمستها**»، هذا يدل على أنها أرقام وخطوط، وكتابة هذه هي التي تطمس وإلا لقال: «**كسرتها**»، فالصور أيضاً من الفتن التي افتتن بها كثير من الناس.

وقوله: «يصيرها أوثاناً»: الوثن هو ما عبد من دون الله، وهو على غير صورة من حجر، أو شجرة أو حائط، أو مكان، أو قبر، أو غير ذلك، والصنم ما كان مصوراً على صورة حي من آدمي، أو حيوان، أو غيره، هذا إذا ذكرا معاً، أما إذا ذكر كل واحد مفرداً فإنه يدخل فيه الآخر؛ يعني: أن الصنم يطلق على الوثن، والوثن يطلق على الصنم.

---

(١) رواه مسلم رقم ٩٦٩.

وقوله: «تعبد من دون الله»: العبادة أن يقصد بها ما كان فيه جلب منفعة، أو دفع مضرة، فإذا اعتقد فيه ذلك وطلب منه ذلك، ولو كان بواسطة فقد جعلت له العبادة.

۞ قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ: روى مالك في الموطأ أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»[1].

الدعاء من الرسول ﷺ في أمور متوقعة مخوفة، ويدل على أن هذا أمر خطير، ودعاء الرسول ﷺ في هذا خاص في قبره، ولهذا استجاب الله جل وعلا له فحمى قبره من أن يكون معبوداً، وفي هذا دليل على أنه لو عبد لصار وثناً، فالقبور التي تقصد للعبادة، وإن كانت العبادة لله جل وعلا يجعلها وثناً، وهذا دليل على أن تحري العبادة عند القبور محرم؛ لأنه وسيلة إلى الشرك الأكبر الذي هو أعظم الذنوب.

وحماية الله لقبر نبيه ﷺ استجابة لدعائه فأحيط بعدة جدران فأصبح لا أحد يستطيع الوصول إليه فهذه هي الحماية، أما كون الناس يتصورون أنهم قصدوه، وإن كانوا بعيداً عنه فهذا ليس عنده ولا تسمى تلك العبادة عند القبر أو أنها للقبر.

وكثير من الناس الذين يزعمون أنهم يتبعون الرسول ﷺ يعبدونه، وإن كانوا لو قيل لهم ذلك لغضبوا وقالوا: نحن لا نعبد ولكن إذا كانوا يستغيثون به ويدعونه ويتوجهون إليه في الضراء والسراء ويطلبون الرزق والعافية منه والنصر على العدو ويطلبون شفاء ما في الأبدان وهداية ما في القلوب من الضلال، فهذه عبادة واضحة صريحة، ولهذا يقول البوصيري في همزيته لما عدد العلل التي يطلبها من الرسول ﷺ قال:

هـذه عـلـتـي وأنـت طـبـيـبـي   ليس يخفى عليك في القلب داء

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ رقم ٥٩٣ من حديث عطاء بن يسار، وابن أبي شيبة رقم ٧٥٤٤ من حديث زيد بن أسلم.

جعله ما يخفى عليه شيء في القلوب، وهذه صفة اختص بها رب العالمين جل وعلا، وكذلك قوله في بردته التي صارت عند بعض الناس أعلى من كلام الله جل وعلا يقول:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به   سواك عند حلول الحادث العمم
إن لم تكن في معادك آخذ بيدي   فضلاً وإلا فقل: يا زلة القدم

ثم يقول:

ولن يضيق رسول الله جاهك بي   إذا الكريم تجلى باسم منتقم

(رسول الله) منصوب على النداء يعني: (ولن يضيق يا رسول الله).

فإن من جودك الدنيا وضرتها   ومن علومك علم اللوح والقلم

إلى آخره، من الشرك الصريح الواضح بل نفى عن الله جل وعلا ما هي من خصائصه كون كل شيء بيده وملك له وعلمه محيط بكل شيء، وجعل علم اللوح والقلم الذي كتب فيه كل شيء من جملة علوم النبي ﷺ، وكذلك جعل الدنيا والآخرة من جملة جود النبي ﷺ، إذاً ماذا بقي لله جل وعلا، وبعد هذا أكثر الناس يجعل هذه الأبيات من أعظم المفاخر ومن أبلغ الحقوق التي للنبي ﷺ، ويجادلون في هذا مجادلة لا يجادلون مثلها عندما تهدر شريعته أو تبطل سننه؛ لأن قلوب كثير من الناس أُشربت حب الباطل ـ نسأل الله العافية ـ فقوله: «**اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد**»، اتجه إلى ربه جل وعلا، وهذا مما يدل على أنه صلوات الله وسلامه عليه لا يملك شيئاً مع الله، وإنما هو عبد يسأل ربه ما يحتاج إليه، ومن هذا كونه يكون عبداً لله حقاً في الدنيا والآخرة حتى قبره يسأل أن لا يكون سبباً في وقوع الشرك في بعض أمته، وهذا من تبليغه صلوات الله وسلامه عليه التوحيد، ونهيه البليغ عما قد يوقع في الشرك.

وقوله: «اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»: في هذا أن الله موصوف بالغضب وهو من صفاته الفعلية التي يجب إثباتها؛ كالصفات الأخرى وهو يتعلق بمشيئته جل وعلا.

وأن من أسباب غضب الله جل وعلا مخالفة شرعه، وارتكاب ما حرمه، وقد يكون سبب الغضب اعتقاد الفاعل له أنه قربة، وهذه صفة البدع تكون بهذه الصفة، ولهذا قال العلماء: إن البدعة لا يتاب منها. والمعنى أن المبتدع يرى أن عمله مشروع، وأنه حسناً فكيف يتوب من الأمر المشروع الحسن، وليس معنى ذلك أن صاحب البدعة لا يتوب الله عليه، فإنه إذا ترك البدعة وندم على ذلك وطلب من ربه جل وعلا أن يتوب عليه تاب عليه، فإنه مثل غيره في سائر الذنوب.

وسبق أن اتخاذ القبور مساجد المقصود بها أن تقصد للعبادة وأن يصلي عندها لله تعالى، أو يقرأ القرآن، أو يذكر الله، أو يدعي وما أشبه ذلك؛ لأنها ليست محلاً للتعبد منعاً وحماية من الرسول ﷺ للتوحيد حتى ما يدخل عليه من هذا الباب؛ لأن هذا من وسائل الشرك، فإذا كان غضب الله اشتد على من كان هذه صفته فكيف بمن يتجه إلى القبر ويدعو صاحبه ويطلب منه، فهذا هو الشرك الأكبر الذي يكون صاحبه خالداً في النار إذا مات على ذلك، ولا يقبل منه عمل حتى يتوب من هذا الشرك.

وإنما اشتد غضب الله جل وعلا على من جاء بوسيلة من وسائل الشرك، وهي كونه يتحرى العبادة عند القبور ويجعلها مساجد يعني: محل للسجود، وسبق أن المسجد كل ما صُلي فيه، فهو مسجد سواء كان مبنياً، أو غير مبني، فالدعوة تدل على أن الرسول ﷺ كان خائفاً أن يكون قبره ملاذاً وعياذاً لكثير من أمته الذين يزعمون اتباعه، وسيأتي أنه عليه الصلاة والسلام نهى أن يكون قبره عيداً، وهذا أبلغ.

وقوله: «على قوم»: سبق أنهم اليهود فهم الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد؛ لأن هذه الأمة ليس فيها أنبياء، وإنما نبيها محمد ﷺ فقط ليس فيهم غيره، فالأنبياء إذن الذين قبله، وهم في اليهود أما النصارى فلا يوجد عندهم قبر نبي في أمتهم، فنبيهم عيسى عليه السلام قد رفعه الله جل وعلا إلى السماء حياً ولا يزال حياً في السماء وسينزل ويقتل الدجال الذي يكون في آخر الوقت أكبر كذاب، وأكبر مجرم سيقتله بيده وسيحكم بهذا الشرع ولا يقبل إلا

الإسلام وحتى الجزية ما يقبلها، وإذا فعل ذلك غضبت دول الكفر كلها التي في الأرض، ثم يتجهون إليه ليقتلوه، هذا هو الذي جاء النص به أن الله يوحي إليه ويقول: «**إني باعث عباداً لي لا قبل لأحد في قتالهم فأحرز عبادي إلى الطور**»، فيتحرز هو ومن معه في الطور ويحاصر فيه ويستولون على الأرض كلها ويملؤون الأرض التي حول عيسى ﷺ، وهو في الشام والطور جبل معين، وكل جبل فيه نبت، فهو طور، وإذا لم يكن فيه شجر ولا نبت فليس بطور، ولكن هذا هو الذي ذكره الله جل وعلا، وأنه مبارك بقعة مُباركة الذي أوحى الله عنده إلى موسى وكلمه، ثم بعد ذلك يرغب عيسى ويسأل ربه ويتضرع هو ومن معه أن يهلك هذه الأقوام يأجوج ومأجوج الذين ملئوا الأرض فيهلكهم الله جل وعلا هلاكاً عاماً لا يبقى منهم أحد، فهم يملئون الأرض فإذا أراد أن ينزل لا يجد مكاناً ينزل فيه من نتنهم وروائحهم وجثثهم الخبيثة، فيرغب إلى الله أن يطهر الأرض منهم فيرسل الله طيوراً عظيمة تحمل جثثهم وتلقيها في البحر، ثم يرسل السماء تغسل الأرض من نتنهم وجثثهم الخبيثة، ثم يقال للأرض: أخرجي بركاتك، ففي هذا الوقت هو الذي جاء أن الصبيان يلعبون بالحيات وأن الجماعة من الناس يستظلون بقحف الرمانة، وأن القبيلة يكفيها اللقحة من الإبل، أو من البقر، فيبقى على هذا ما شاء الله من الوقت، ثم يتوفاه الله جل وعلا فيقبر، أما قبل هذا فهو حي[1].

فالذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد هم اليهود ولكن اليهود لعبوا على النصارى وصار النصارى ألعوبة في أيديهم يصرفونهم كيف شاؤوا وأفسدوا دينهم فصاروا ضلالاً بأيدي أهل الغضب، فيعبدون كبارهم وعبادهم ومن كان معظماً عندهم، ويوجدون الصور لعيسى ﷺ ولأمه فيعبدونها، والعجب أنهم صدقوا اليهود بأن اليهود أمسكوا عيسى وصلبوه وقتلوه وسملوا عينه، وصاروا يعبدون الصليب الذي قتل عليه عيسى، فأي سخافة أعظم من هذه، الصليب الذي قتل عليه نبيهم يعبدونه، ولا يزال عباد الصليب في غيهم سادرون، ومع

---

(١) رواه مسلم رقم ٢٩٣٧.

ذلك هم الآن كما هو الواقع يريدون أن يرغموا الناس حتى يدخلوا في دينهم الخرافي الذي لا يقبله لا فطرة ولا عقل فضلاً عن كون الله يأمر به.

فالمقصود أن غضب الله على هؤلاء الذين اتخذوا القبور مساجد، سواء كانت قبور أنبياء، أو قبور رهبان مما يفعله النصارى، فإن غضب الله اشتد عليهم بخبر الرسول ﷺ، فكيف إذا كانت القبور قبور طواغيت مثل: البدوي والرفاعي، أو قبور وهمية، أوجدها الشيطان كما هو الواقع في أكثر القبور التي تعبد مثل: قبر الحسين الذي في مصر فهو وهمي لا حقيقة له دعوى جاءت بها الرافضة، وإلا كيف يكون الحسين في كربلاء، وفي الشام، وفي فلسطين، وفي مصر كلها قبور، وكذلك قبر عبد القادر الجيلاني، فإنه من أكبر المعبودات، وفي كل بلد تجدهم يعبدونه، وهكذا كثير من الدعاوى التي هي في الواقع ضلال لا برهان عليها، وكثير منهم يقول: أني قد رأيت رؤيا أن في هذا المكان رجل صالح من الأولياء فيبنون عليها قبراً، فالمصدر التي يصدرون عنها في إيجاد القباب والقبور من هذا النوع، وإلا كيف لو وجدوا قبر صحابي، أو قبر نبي ماذا يكون؟

والصحابة ﵃ يعرفون هذا الأمر بما تلقوه عن رسول الله ﷺ، فلهذا لما وجدوا دانيال على سريره في خزائن الفرس حفروا له ثلاثة عشر قبراً في النهار، فلما كان في الليل دفنوه في واحد منها وساووا القبور كلها وأجروا عليها نهراً حتى يخفى على الناس لئلا يتخذ وثناً يعبد، وهكذا قبور غيرهم فإذا مات الصحابي كانوا يسوونه بالأرض، ولا يقال هذا قبر فلان؛ لأنهم عرفوا ذلك عن نبيهم صلوات الله وسلامه عليه، وإنما الذي أوجد هذه الفتنة في قبورهم الرافضة والصوفية المنحرفة هم أول من ابتدعها وجاء بها.

وقوله: «اتخذوا قبورهم أنبيائهم مساجد»؛ يعني: جعلوها أماكن يدعون عندها ويصلون عندها، ثم بعد ذلك صارت معبودات.

لكن يقال: اليهود عُرفوا بقتل الأنبياء فكيف يتخذون قبورهم مساجد والله أخبر أن طبيعتهم في الأنبياء أنهم فريقاً يكذبونهم، وفريقاً يقتلونهم وهم أهل غضب، وأهل جفاء، وأهل عناد وكبر، ولكن فيهم من فعل هذا، فعزير

عبده، وقالوا: هو ابن الله، والنصارى ظاهرهم في هذا في عيسى كما ذكر الله جل وعلا عنهم، وبيعهم فيها قبور من يعظمونه، وقد يدعون أنه نبي، وكذلك فيها صورهم والنصارى مثلهم، فغضبُ الله جل وعلا الغالب أنه يكون على من فعل، وهو يعلم أنه مخالفاً لأمر الله جل وعلا.

❁ **قال المؤلف** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **ولابن جرير بسنده عن سفيان، عن منصور عن مجاهد: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ١٩﴾ [النجم: ١٩] قال: كان يَلُتّ السويق فمات، فعكفوا على قبره[١]. وكذا قال أبو الجوزاء عن ابن عباس، قال: كان يلتّ السويق للحاجّ[٢].**

يعني: أن اللات كان رجلاً، وكان يقدم السويق مع الزيت، أو مع السمن لمن أتى إليه حاجّاً، أو غيره من قاصد السبيل، جاء أن اسمه صرمة بن غنّم، وأنه كان إذا قدم شيئاً لمن يأكله يقولون: أنه يسمن، فافتتنوا به فلما مات دفنوه تحت صخرة ونقشوا عليها نقوشاً وكتابات، ثم صاروا يطوفون بها، ويعكفون عندها، ثم صارت معبودة من أكبر معبودات العرب، ففي هذا أن الفتنة في القبور من أعظم دواعي الشرك؛ يعني: البناء عليها وتعظيمها، وأنها طريق إلى عبادتها، وهذا على قراءة التشديد ﴿ٱللَّٰتَ﴾ أخذاً من اللت، وهو الخلط كونه يخلط الزيت، أو السمن بالسويق.

وأما على قراءة التخفيف ﴿اللَاتَ﴾، وهي القراءة السبعية ومعناها أنهم اشتقوا لهذا الوثن اسماً من أسماء الله جل وعلا فسموه اللات من الإلٰه، وهي مؤنثة، والله جل وعلا يتقدس ويتعالى عن هذا، وهذا أحد المعاني في الإلحاد في أسماء الله جل وعلا كونه يؤخذ من أسمائه أسماً للمعبودات، ومنها الإلٰه إذا سموها آلهة وهو إلحاد؛ لأنها ليست آلِهة، وإنما هو كذب ووضع على غير مسماه ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ٢٣﴾ [النجم: ٢٣]؛ يعني: لا حقيقة لها، مجرد أسماء، وإلا الإلٰه هو الله لا إلٰه إلا الله جل وعلا.

---

(١) تفسير الطبري ٢٢/٥٢٣.

(٢) المصدر السابق.

فالمقصود: أن القبر إذا قصد لأجل دعاء، أو لأجل أن يتعبد عنده فذلك غلو، وأنه يُصيره وثناً يعبد من دون الله جل وعلا، ولهذا قال النبي ﷺ كما في الحديث السابق: «**اللهم لا تجعل قبري وثناً..**».

وقوله: «فمات فعكفوا»؛ يعني: أن مبدأ الأمر هو الجلوس عند قبره تعظيماً له، أو طلباً للبركة، ثم تمادى بهم الأمر حتى عبدوه وصار من أعظم المعبودات، فالعكوف هو الجلوس، والعكوف نوع من أنواع العبادة كما أخبر الله جل وعلا عن أمره لإبراهيم وإسماعيل: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥]، العاكف الذي يجلس تعبداً، فإذا جلس الإنسان في مسجد فهو في عبادة؛ لأن المسجد بني للعبادة، فالجلوس فيه عبادة وهو عكوف، ولهذا إذا دخل الإنسان للمسجد ينبغي أن ينوي الاعتكاف لله جل وعلا ولو ساعة، وفي الصحيح أن عمر ﷺ قال: يا رسول الله إني نذرت في الجاهلية أن أعتكف ليلة في المسجد الحرام قال: «**أوف بنذرك**»[1]، فأمره بالوفاء؛ لأن العبادة إذا نذرت وجب الوفاء، فالمقصود أن الجلوس عند القبر لأجل طلب البركة، أو لأجل الدعاء عبادة له، فجلوسهم هذا من العبادة، وهو من الغلو الذي صير هذا القبر وثناً فهم جمعوا بين أشياء كثيرة من الغلو في القبر وكونهم صاروا يعكفون عنده وكانوا يطلبون منه أيضاً بركات والنصر على الأعداء ويطوفون عليه فقوله: «**فمات فعكفوا على قبره**» صريح بأنه رجل وأنه قبر.

وقوله: «كان يلت السويق للحاج»؛ يعني: لمن يقدم عليه سواءً حاج، أو غير حاج، وهو يقدم بذلك ضيافة على عادة العرب لمن أتى إليهم، فقد كان عنده غنيمة، وأنه يرعى الغنم ويشرب اللبن ويقدمه لمن قدم إليه، وقد يكون عنده سويق، ثم يخلط السويق بسمن الغنم، ثم يقدمه لمن يأتي إليه من الحجاج وغيرهم، وهذه من الأمور التي تعظم العرب من يفعلها.

والحاج؛ يعني: الذين يأتون وقت الحج، والحج كان معروفاً في موسم

---

(١) رواه البخاري رقم ٢٠٤٢، ومسلم رقم ١٦٥٦.

الحج؛ لأنه إرث ورثه العرب عن أبيهم إسماعيل ﷺ، وبقي إلى أن جاء الرسول ﷺ، وصار الحج ركن من أركان الإسلام.

والشاهد من هذا أن تعظيم القبور، والزيادة على المشروع يجعلها معبودات وطواغيت تعبد من دون الله جل وعلا؛ لأن مبدأ ذلك الحب لما يفعله من الإحسان أحبوه لأجل ذلك فزادوا في حبه فعكفوا على قبره، فهذا غلو، ثم دعاهم ذلك إلى عبادته فصار معبوداً كبيراً من معبودات العرب، فكذلك أي قبراً فعل به هذا الفعل، وهذا هو الذي يجعل القبور المشهورة في البلاد يجعلها طواغيت تقصد من دون الله جل وعلا:

أولاً: نشر أن هذا ولي.

ثانياً: تعظيم هذا القبر ورفعه بالبناء.

ثالثاً: إيجاد الستور له، وكذلك السرج التي توضع عليه.

رابعاً: السدنة الذين يقومون بالدعاية له، ونشر الأمور التي تدعوا إلى عبادته من أنه فعل كذا وكذا.. إلخ، فهذه وسائل الشرك، ولهذا صارت معبودات كبيرة بهذه الصفة.

❁ قال المؤلف رحمه الله: وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: «لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور، والمتخذين عليها المساجد والسرج»[1]، رواه أهل السنن.

أهل السنن سنن أبو داود، وابن ماجه، والترمذي، ولكنه ليس موجوداً في المجتبى، وإنما هو في السنن الكبرى، فيصدق أن أهل السنن رووه.

قوله: «لعن رسول الله ﷺ»: اللعن هو الطرد عن مظان رحمة الله جل وعلا، وإبعاد الملعون عن ذلك من الله جل وعلا، ومن الرسول ﷺ الإخبار بأن الله فعل هذا به، أو دعوته على من فعل ذلك بأن يكون ملعوناً، ومن الخلق دعائهم عليه بأن يلعنه الله جل وعلا بأن يكون ملعوناً.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم ٢٠٣٠، والبيهقي رقم ٧٤٥٧، والنسائي رقم ٢٠٤٢، وأبو داود رقم ٣٢٣٦، والترمذي رقم ٣٢٠ وقال: حديث حسن.

ومعلوم أن الرسل وأتباعهم يكون ذلك منهم تبعاً لما أمرهم الله جل وعلا به، ولهذا جاء أن الكفار عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين تبعاً للعنة الله جل وعلا، وسبق أن اللعن أقل ما يقال في مفهوم ما أوقع عليه أنه من الكبائر، وجاء في السنن المروية عن الرسول ﷺ الصحيحة أنه قال: «**كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها**[1]، **فإنها تذكر الآخرة**»[2]، وفي بعضها: «**ولا تقولوا هجراً**»[3].

فقوله: «**كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها**»، القاعدة عند العلماء أن الأمر إذا جاء بعد النهي أنه يكون للإباحة كما قال جل وعلا: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١٠]، ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ﴾ [المائدة: ٢]، وما أشبه ذلك، فهل هذا منها؟ «**كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها**»؟ فيكون قوله: «**فزوروها**» إباحة؛ لأنه أمر بعد النهي.

الثاني: قوله: «**فزوروها**» هل يدخل فيه النساء؟ أو أنه خطاب للرجال؟ هذا خلاف بين العلماء منهم من أدخل النساء فيه وقال: أنهن يأتين تبعاً للرجال؛ كالأحكام التي يشرعها رسول ﷺ، أو يأمر الله جل وعلا بها.

ومنهم من قال: أنهن لا يدخلن في ذلك، فلو كن داخلات ما قال: «**لعن الله زائرات القبور**».

ثم إن هذا مخصّص له؛ لأن القاعدة أن الخاص يقضي على العام، فعلى هذا تكون زيارة النساء للقبور ممنوعة، بالإضافة لما جبلنا عليه من الجزع والبكاء وغير ذلك، ولهذا جاء في الحديث: «**إنكن تفتن الحي، وتؤذين الميت**»[4]؛

---

(١) رواه مسلم رقم ٩٧٧ من حديث بريدة عن أبيه وفي لفظ: «**فزوروا القبور فإنها تذكر الموت**» رقم ٩٧٦ من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه أحمد في المسند رقم ٢٣٠٠٥، والترمذي رقم ١٠٥٤.

(٣) أخرجه أحمد في المسند رقم ٢٣٠٥٢، والنسائي رقم ٢٠٣٣ من حديث بريدة، والبيهقي رقم ٧٤٥٠ من حديث أبي سعيد الخدري.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه رقم ٦٢٩٩ ولفظه: عن معمر أن عمر رأى نساء مع جنازة فقال: إرجعن مأزورات غير مأجورات، فوالله ما تحملن ولا تدفن يا مؤذيات الأموات ومفتنات الأحياء.

الحج؛ لأنه إرث ورثه العرب عن أبيهم إسماعيل ﷺ، وبقي إلى أن جاء الرسول ﷺ، وصار الحج ركن من أركان الإسلام.

والشاهد من هذا أن تعظيم القبور، والزيادة على المشروع يجعلها معبودات وطواغيت تعبد من دون الله جل وعلا؛ لأن مبدأ ذلك الحب لما يفعله من الإحسان أحبوه لأجل ذلك فزادوا في حبه فعكفوا على قبره، فهذا غلو، ثم دعاهم ذلك إلى عبادته فصار معبوداً كبيراً من معبودات العرب، فكذلك أي قبراً فعل به هذا الفعل، وهذا هو الذي يجعل القبور المشهورة في البلاد يجعلها طواغيت تقصد من دون الله جل وعلا:

أولاً: نشر أن هذا ولي.

ثانياً: تعظيم هذا القبر ورفعه بالبناء.

ثالثاً: إيجاد الستور له، وكذلك السرج التي توضع عليه.

رابعاً: السدنة الذين يقومون بالدعاية له، ونشر الأمور التي تدعوا إلى عبادته من أنه فعل كذا وكذا.. إلخ، فهذه وسائل الشرك، ولهذا صارت معبودات كبيرة بهذه الصفة.

۞ قال المؤلف ﷺ: وعن ابن عباس ﷺ قال: «لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور، والمتخذين عليها المساجد والسرج»[1]، رواه أهل السنن.

أهل السنن سنن أبو داود، وابن ماجه، والترمذي، ولكنه ليس موجوداً في المجتبى، وإنما هو في السنن الكبرى، فيصدق أن أهل السنن رووه.

قوله: «لعن رسول الله ﷺ»: اللعن هو الطرد عن مظان رحمة الله جل وعلا، وإبعاد الملعون عن ذلك من الله جل وعلا، ومن الرسول ﷺ الإخبار بأن الله فعل هذا به، أو دعوته على من فعل ذلك بأن يكون ملعوناً، ومن الخلق دعائهم عليه بأن يلعنه الله جل وعلا بأن يكون ملعوناً.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم ٢٠٣٠، والبيهقي رقم ٧٤٥٧، والنسائي رقم ٢٠٤٢، وأبو داود رقم ٣٢٣٦، والترمذي رقم ٣٢٠ وقال: حديث حسن.

ومعلوم أن الرسل وأتباعهم يكون ذلك منهم تبعاً لما أمرهم الله جل وعلا به، ولهذا جاء أن الكفار عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين تبعاً للعنة الله جل وعلا، وسبق أن اللعن أقل ما يقال في مفهوم ما أوقع عليه أنه من الكبائر، وجاء في السنن المروية عن الرسول ﷺ الصحيحة أنه قال: **«كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها[١]، فإنها تذكر الآخرة»[٢]**، وفي بعضها: **«ولا تقولوا هجراً»[٣]**.

فقوله: **«كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها»**، القاعدة عند العلماء أن الأمر إذا جاء بعد النهي أنه يكون للإباحة كما قال جل وعلا: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١٠]، ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ﴾ [المائدة: ٢]، وما أشبه ذلك، فهل هذا منها؟ **«كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها»**؟ فيكون قوله: **«فزوروها»** إباحة؛ لأنه أمر بعد النهي.

الثاني: قوله: **«فزوروها»** هل يدخل فيه النساء؟ أو أنه خطاب للرجال؟ هذا خلاف بين العلماء منهم من أدخل النساء فيه وقال: أنهن يأتين تبعاً للرجال؛ كالأحكام التي يشرعها رسول ﷺ، أو يأمر الله جل وعلا بها.

ومنهم من قال: أنهن لا يدخلن في ذلك، فلو كن داخلات ما قال: **«لعن الله زائرات القبور»**.

ثم إن هذا مخصِّص له؛ لأن القاعدة أن الخاص يقضي على العام، فعلى هذا تكون زيارة النساء للقبور ممنوعة، بالإضافة لما جبلنا عليه من الجزع والبكاء وغير ذلك، ولهذا جاء في الحديث: **«إنكن تفتن الحي، وتؤذين الميت»[٤]**؛

---

(١) رواه مسلم رقم ٩٧٧ من حديث بريدة عن أبيه وفي لفظ: **«فزوروا القبور فإنها تذكر الموت»** رقم ٩٧٦ من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه أحمد في المسند رقم ٢٣٠٠٥، والترمذي رقم ١٠٥٤.

(٣) أخرجه أحمد في المسند رقم ٢٣٠٥٢، والنسائي رقم ٢٠٣٣ من حديث بريدة، والبيهقي رقم ٧٤٥٠ من حديث أبي سعيد الخدري.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه رقم ٦٢٩٩ ولفظه: عن معمر أن عمر رأى نساء مع جنازة فقال: إرجعن مأزورات غير مأجورات، فوالله ما تحملن ولا تدفن يا مؤذيات الأموات ومفتنات الأحياء.

يعني: نهاهن عن اتباع الجنائز، ويكون هذا المعنى داخل في ذلك؛ يعني: في الزيارة، وهذا هو الصحيح أن النساء ممنوعات من زيارة القبور، وأن زيارتهن معصية بل كبيرة من كبائر الذنوب، ولا فرق بين كونها قبور أو قبر، حتى يدخل في ذلك قبر النبي ﷺ فلا يجوز للمرأة أن تزوره.

وأما ما جاء عن عائشة رضي الله عنها أنها زارت قبر أخيها عبد الرحمٰن رضي الله عنه، وقالت: لو شهدتك ما زرتك[١]. ومعنى قولها: يعني: لو كنت حضرتك عند الموت لم أزرك، وقد احتج به بعض العلماء فيقال أولاً: فعل الصحابي إذا عارضه النص فالعمل بالنص الشرعي، فلا قول لأحد مع رسول الله ﷺ.

ثانياً: جاء عن عبد الله بن أبي مليكة أن عائشة رضي الله عنها أقبلت ذات يوم من المقابر فقلت لها: يا أم المؤمنين من أين أقبلت؟ قالت: من قبر أخي عبد الرحمٰن بن أبي بكر. فقلت لها: أليس كان رسول الله ﷺ نهى عن زيارة القبور؟ قالت: نعم كان نهى، ثم أمر بزيارتها[٢]. والإذن جاء للرجال فهذا يدل على أنها لم تسمع مثل هذا الحديث فلا يكون في فعلها دليل، فلا يجوز للمرأة أن تزور القبور مطلقاً لهذا الحديث ولغيره، **والزيارة نوعان:**

النوع الأول: زيارة شرعية، وهي التي يقصد بها نفع الإنسان الزائر بالتذكر؛ لأنه يتذكر أنه سيقبر، ويصير مثل صاحب هذا القبر فيزداد عملاً واجتهاداً، هذا واحد.

والثاني: أنه يدعو للميت؛ لأن الميت بحاجة إلى الدعاء؛ لأنه قد ارتهن بعمله لا يستطيع أن يزداد حسنة، ولا يستطيع أن يمحو سيئة، فإذا زرته ودعوت له واستغفرت له فقد أحسنت إليه إحساناً عظيماً، ولكن هذا لا يعرفه إلا صاحب القبر الذي عنده الحسنة الواحدة تساوي الدنيا كلها بما فيها؛ لأنه اطلع على الحقائق وعلم أن الدنيا لا تنفع، هذه هي الزيارة الشرعية يكون محسناً لنفسه ولمن زاره.

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة رقم ١١٨١١، والترمذي رقم ١٠٥٥.

(٢) سنن البيهقي رقم ٧٤٥٨، ومسند أبي يعلى رقم ٤٨٧١، والحاكم في المستدرك رقم ١٣٩٢.

النوع الثاني: الزيارة البدعية الشركية، أن يزور ليسأل عند القبر، ويتحرى إجابة الدعاء عند القبر هذه بدعة، وهي بدعة داعية إلى الشرك، فإن كان الزائر يدعو صاحب القبر فهذا شرك صريح، وكفر بالله جل وعلا، وإذا مات عليه صاحبه فهو في جهنم خالداً فيها، وهذا وقع فيه كثير من المسلمين وللأسف، حتى أصبحوا يخشعون عند القبور، ويبكون، ويذلون ويطلبون منهم كل ما يحتاجون إليه، وإذا جاء إلى المسجد فإذا هو غافل قلبه قاسي ما يذكر الله إلا قليلاً ـ نسأل الله العافية ـ.

وقوله: «**والمتخذين عليها المساجد**»: هذا تقدم عليه الكلام في الباب الذي قبله، فالمساجد يدخل فيها المساجد المبنية، وما يكون محلاً للسجود فهو يعم هذا كله.

وقوله: «**والسرج**»: فيقصد به تنويرها تعظيماً وتمييزاً لها عن غيرها، وهذا من دواعي عبادتها، وهو من الغلو الذي يجعلها أوثاناً تعبد من دون الله جل وعلا، كما أن اتخاذها مسجداً يجعلها أوثاناً والصلاة عندها، أو الدعاء عندها، أو جعل أصحابها وسائط يُدعون يُسأل الله جل وعلا بهم، أو يكون بالشرك الأكبر بأن يسألهم ويدعوهم، وكل هذا واقع، جعلها وسائط وجعلها مدعوةً تُرجى وتُخاف، كل هذا واقع في بلاد المسلمين وموجود وللأسف، ومثل السرج البناء والطيب وكذلك الكسوة، ومن ذلك الكتابة، الكتابات التي تكتب عليها تعظيماً لها ودعوة لعبادتها، أو للتوسل بها على ما يسمونه توسلاً.

مع أن هذا في الواقع عبادة، وغير ذلك من دواعي عبادتها، والرسول ﷺ بنهيه هذا، ولعنه من فعل ذلك كل ذلك صيانة للتوحيد وحماية له وتحذيراً من فعل ذلك، ومع هذا كله خُولفت هذه الأوامر وعُكست القضية ووجد من كثير ممن يزعم أنه من العارفين الدعوة إلى عبادة قبره، ومن قرأ في كتب طبقات الشعراني يرى الشيء الكثير من ذلك، حتى أنه من العجائب يذكر مناقب بعض سادته الذين يسميهم سادات أنه يقول لأصحابه: إذا مت فأتوا إلى قبري فسألوني ما شئتم فلا خير فيمن يحول بينه وبين قضاء حوائج

أصحابه ذراع من تراب، فهذه دعوة إلى عبادته، ومن دعى الناس إلى عبادة نفسه، فهو من رؤساء الطواغيت ـ نسأل الله العافية ـ.

❁ **قال المؤلف** رحمه الله: **فيه مسائل:**

❁ **الأولى: تفسير الأوثان.**

الأوثان المعبودات من دون الله، ولكن على غير صورة.

❁ **الثانية: تفسير العبادة.**

العبادة تفسيرها مهم جداً، فيجب على العبد أن يعتني بذلك؛ لأن كثيراً ممن يعبد القبور ويعبد غيرها أخطأ في تفسير العبادة، وقد عُرفت العبادة بتعريفات كثيرة كلها صحيحة كقولهم: العبادة ما أُمر به شرعاً من غير اطراد عُرفي، ولا اقتضاء عقلي. وهذا تعريف الأصوليين، وعرَّفها شيخ الإسلام بقوله: أنها اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة.

ومنهم من عرَّفها بقوله: العبادة فعل ما أمر الله جل وعلا به، والانكفاف عما نهى عنه على سبيل الخوف والرجاء.

❁ **الثالثة: أنه ﷺ لم يستعذ إلا مما يخاف وقوعه.**

يعني: كونه سأل ربه جل وعلا والتجأ إليه بأن لا يكون قبره وثناً يعبد، هو كان يخاف هذا، وفي ضمن ذلك أنه لو عبد لصح أن يسمى وثناً؛ لأنه قال: «**اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد**»، وهؤلاء عباد القبور لو قيل لهم أن هذا القبر الذي تعبدونه وثن لغضبوا واشتد غضبهم وقاتلوا من قال لهم ذلك وقالوا كيف تسميه وثناً، وهو من الأولياء، فيكون مثل ما قال الله جل وعلا: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزمر: ٤٥]؛ يعني: ذكر الولي وأنه يعبد، وأنه يستعاذ به ويلاذ به فرحوا واستبشروا كإخوانهم الذين ذكر الله عنهم.

۞ الرابعة: ذكر شدة الغضب من الله.
شدة الغضب من الله يدل على أن الفعل هذا عظيم جداً، وأنه من أكبر الذنوب.

۞ الخامسة: وهي من أهمها: صفة معرفة عبادة اللات التي هي من أكبر الأوثان.
يعني: أنه كان رجلاً فأحبوه فزادوا في حبه، فلما مات وقُبر غلوا في قبره فصاروا يعكفون عنده إلى أن صار من أكبر الأوثان، فإذا كان قبراً فهو وثناً من الأوثان.

۞ السادسة: معرفة أنه قبر رجل صالح.
يعني: في الظاهر كان صالحاً؛ لأنه كان يحسن إلى الناس، وهذا كذلك لا ينافي أنها صخرة؛ لأنه دفن تحت صخرة، والصخرة صارت علامة عليه.

۞ السابعة: أنه اسم صاحب القبر، وذكر معنى التسمية.
يعني: أنه اللَّات؛ يعني: ذكر اسمه مشتقاً من الفعل الذي كان يفعله هذا المقصود. وإن كان بعض المؤرخين ذكر أن اسمه العلم غير هذا.

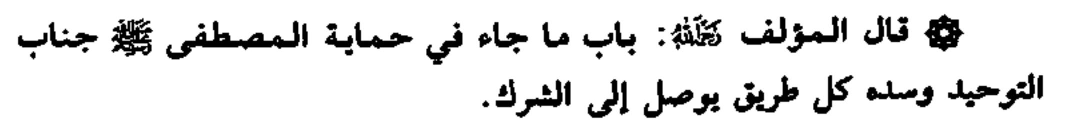
۞ الثامنة: لعنه زوارات القبور.
واللعن أقل ما يقال فيه: أنه كبيرة؛ يعني: العمل الذي لعن فاعله.

۞ التاسعة: لعنه من أسرجها.
والإسراج من كبائر الذنوب كذلك، وقد ذكر هذا ابن القيم رحمه الله في الكبائر قال: اتخاذها مساجد وإيقاد السرج عليها من الكبائر[1]. وكذلك الهيتمي صاحب الزواجر.

---

(١) إغاثة اللهفان ١/١٨٨ قال رحمه الله: إنه قرن في اللعن بين متخذي المساجد عليها وموقدي السرج عليها فهما في اللعنة قرينان، وفي ارتكاب الكبيرة صنوان، فإن كل ما لعن رسول الله فهو من الكبائر، ومعلوم أن إيقاد السرج عليها إنما لعن فاعله لكونه وسيلة إلى تعظيمها وجعلها نصباً يوفض إليه المشركون كما هو الواقع، فهكذا اتخاذ المساجد عليها ولهذا قرن بينهما فإن اتخاذ المساجد عليها تعظيم لها وتعريض للفتنة بها، ولهذا حكى الله ﷻ عن المتغلبين على أمر أصحاب الكهف أنهم قالوا: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف: ٢١].





الباب الثاني والعشرون

❁ **قال المؤلف رحمه الله: باب ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلى الشرك.**

الغالب أنه إذا ذكر الترجمة ذكرها مبهمة؛ يعني: أنه لم يذكر الحكم، فهو يريد أن يستنتج الطالب بنفسه الحكم، وهذه هي طريقة البخاري رحمه الله، وهي طريقة جيدة، وفي هذه الترجمة نص على المقصود.

قوله: «في حماية»: الحماية هي صيانة الشيء أن يدخل فيه ما ليس منه، أو يتعرض إلى ما يفسده، أو ينقصه.

قوله: «المصطفى»: الاصطفاء هو الاختيار، والله جل وعلا اصطفاه على العالمين.

وقوله: «جناب»؛ يعني: النواحي التي تكون متطرفة؛ لأن الأمور تُؤتى من جوانبها؛ يعني: النقص يأتي من الجوانب، ثم يزداد حتى يدخل في الأصل، فإذا حميت الجوانب صار مصوناً قوياً، أما إذا نيلت جوانبه فيوشك أن يذهب.

قوله: «التوحيد»: سُمي توحيداً؛ لأن العمل يكون لواحد وهو الله سبحانه، قال ابن القيم رحمه الله:

فلواحد كن واحداً في واحد ... أعني سبيل الحق والإيمان

قوله: «وسده»: السد: هو المانع والحاجز وهذا معنوياً.

وقوله: «كل طريق يوصل إلى الشرك»: والطرق التي توصل إلى الشرك كثيرة جداً، فيجب على العبد أن يتعرف عليها؛ لأن الذي لا يعرف طرق الشرك يمكن أن يسلكها ويدخل فيه وهو لا يدري، فهذا يجب الاهتمام به، والاهتمام به يدل على أن العبد مهتم بدينه وممتثل لما أمر به، ومتبع

لرسوله ﷺ، والذي لا يعرف الشر يوشك أن يقع فيه وهو لا يدري، فلا بد من معرفة الشر حتى يجتنبه ويبتعد عنه، ولهذا جاء في الصحيح أن حذيفة ﷺ قال: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني[1]. وهذا من الفقه، هكذا ينبغي للعبد أن يكون عارفاً بالشر، فمن عرف الشر أبغضه وكرهه واحترز منه بخلاف الذي لا يعرفه، فإنه قد يظنه خيراً، وقد يكون عنده سهلاً، ثم يقع فيه وهو لا يدري.

وإذا نظر المتأمل في أحاديث رسول الله ﷺ الكثيرة يجد أنها طافحة في ذلك، وكذلك ما أمر الله جل وعلا به من تقوية التوحيد وتنميته من الأمر بالخشوع والذل والخشية والرجاء والخوف كل هذا من تأصيل الأمر في قلب العبد، وجعله متعلقاً بالله وحده، وكذلك قطع الرجاء من التعلق بغير الله جل وعلا، وأن يكون العبد تعلقه بربه وحده ومن ذلك الأحاديث الكثيرة التي جاءت في النهي عن بعض الأقوال والأفعال التي قد يدخل الشيطان منها فينال من توحيد العبد ما يخدش منه، أو يكون طريقاً إلى ذهابه بكماله، وإيقاعه في الشرك كبيره وصغيره، وهي كثيرة جداً، فأراد المؤلف رحمه الله أن ينبه على شيء منها.

❁ **قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ: وقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ١٢٨﴾** [التوبة: ١٢٨].

قوله: «﴿لَقَدْ﴾»: «اللام»: لتوطئة القسم، و«قد»: للتحقيق، كأنه جل وعلا يقول: «والله لقد»، وهل نحن بحاجة إلى القسم؟

الإنسان يغفل عن الأمور المهمة، ومن الطرق في اللغة العربية في الأخبار التأكيد، ومن التوكيدات القسم، ففائدة القسم هنا حتى يتأكد الخبر، ويُهتم به ويصل إلى القلوب، ويكون العبد على يقين من ذلك، لأن كون

---

(١) سبق تخريجه.

الإنسان يغفل عن هذا، أو يكون غير مهتم يستدعي التأكيد في إخباره في ذلك.

قوله: «﴿جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾»: التنكير يدل على التعظيم، رسول عظيم، وهو كريم على الله جل وعلا، ويدل على أنه جاء بأمور مهمة يجب أن يتنبه لها.

قوله: «﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾»؛ يعني: من جنسكم ليس من الملائكة، ولا من الجن، وأنه بلغتكم وهذه نعمة، وأنتم تعرفون نسبه، وتعرفون صدقه، ومدخله ومخرجه، كما كان الصحابة يقولون ذلك كما قاله جعفر للنجاشي: فقال له: أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار يأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه»[1]، وهذا من رحمة الله جل وعلا، فهو يمتنّ علينا بإرسال هذا الرسول المعروف لنا، وهو منا نستطيع أن نأخذ عنه، ونتفاهم معه وذلك حتى نتمكن من معرفة ما جاء به.

وكثير من المفسرين يقول: إن هذا الخطاب للعرب؛ لأن المنَّة عليهم أكبر وغيرهم تبعاً لهم، ومعلوم أن الرسول من أكبر نعم الله على العبد، بل هو أكبرها، وحاجة الناس إليه أعظم من حاجتهم إلى الأكل والشرب؛ لأنهم إذا منعوا الأكل والشرب صار الأمر أنهم يموتون، ولكن إذا لم يأتهم الرسول يكون موتهم على الجهل، وعلى مخالفة أمر الله، ويكون قد خسروا أنفسهم إلى عذاب الله ـ نسأل الله العافية ـ ولهذا يجب على العبد أن يعرف منَّة الله عليه بإرسال الرسول ويشكره ويحمده.

قوله: «﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾»: العنت يدخل فيه التعب ويدخل فيه العذاب؛ يعني: أن الشيء الذي يعنتنا ويشق علينا يشق عليه؛ لأن الله جل وعلا جعله حريصاً على نفعنا وعلى هدايتنا، ولهذا قال:

«﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾»: الحرص هو الإتيان بالشيء المحبوب على

---

(١) أحمد في المسند رقم ١٧٤٠.

وجه الاستقصاء في ذلك والشح به ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾؛ يعني: على هدايتكم وإيمانكم.

قوله: «﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾»: وأيضاً هذا من أوصافه أنه ذو رأفة بالمؤمنين، وذو رحمة، ويقابل ذلك أنه شديد على الكفار، ولهذا جاء في صفته في أسمائه صلوات الله وسلامه عليه: «الضحوك القتَّال»[1]؛ يعني: ضحوك للمؤمنين، وقتَّال للكافرين.

ووجه الاستدلال بهذه الآية على كونه صلوات الله وسلامه عليه حَمَى جناب التوحيد، أن حرصه على هدايتنا ورأفته بنا يمنعانه أن لا يبين الشيء الذي يضرنا، ولهذا جاء في الحديث أنه قال ﷺ: «**ما تركت شيئاً يقربكم من الجنة، ويباعدكم عن النار إلا قد بينته لكم**»[2]، وكان يقول: «**إنما مثلي ومثل الناس كمثل رجل استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها فجعل ينزعهن ويغلبنه فيقتحمن فيها، فأنا آخذ بحُجزكم عن النار وأنتم تقحمون فيها**»[3]، وجاءت أمثال يضربها له، ولمن أتى إليه جاء أنه قال ﷺ أيضاً: «**إنما مثلي ومثلكم ومثل الدنيا كمثل قوم سلكوا مفازة** ـ المفازة، تقال للأرض المهلكة على سبيل التفاؤل أن يفوز بقطعها سالماً كما هي عادة العرب، كما سموا اللديغ سليماً تفاؤلاً بأنه يسلم ـ **غبراء لا يدرون ما قطعوا منها أكثر أو ما بقي منها** ـ يعني: توسطوا فيها ـ **فحسرت ظهورهم** ـ ماتت رواحلهم التي يركبونها، والمياه والطعام انتهى ـ

---

(١) الفصول في سيرة الرسول ﷺ ١/١١٦ قال: وروي عنه أنه قال ﷺ: «**أنا الضحوك القتال**».

(٢) مصنف ابن أبي شيبة رقم ٣٤٣٣٢، وشعب الإيمان للبيهقي رقم ١٠٣٧٦، ومصنف عبد الرزاق رقم ٢٠١٠٠ عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنه ليس شيء يقربكم من الجنة ويباعدكم من النار إلا قد أمرتكم به، وليس شيء يقربكم من النار ويباعدكم من الجنة إلا قد نهيتكم عنه، وأن الروح الأمين نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزق أن تطلبوه بمعاصي الله فإنه لا يدرك ما عند الله إلا بطاعته**».

(٣) رواه البخاري رقم ٦٤٨٣، ومسلم رقم ٢٢٨٤ من حديث أبي هريرة.

ونفد زادهم وسقطوا بين ظهراني المفازة فأيقنوا بالهلكة، فبينا هم كذلك إذ خرج عليهم رجل في حلة يقطر رأسه، فقالوا: إن هذا لحديث عهد بريف، فانتهى إليهم، فقال: يا هؤلاء ما شأنكم؟ فقالوا: ما ترى ـ يعني: ننتظر الموت ـ كيف حسرت ظهورنا؟ ونفدت أزوادنا بين ظهراني هذه المفازة لا ندري ما قطعنا منها أكثر أم ما بقي؟ فقال: ما تجعلون لي إن أوردتكم ماءً رواء، ورياضاً خضراء؟ فقالوا: حكمك، قال: تعطوني عهودكم ومواثيقكم أن لا تعصوني؟ ففعلوا، فمال بهم فأوردهم ماء رواء ورياضاً خضراء فمكث يسيراً، ثم قال: هلموا إلى رياض أعشب من رياضكم هذه، وماء أروى من مائكم هذا، فقال جل القوم: ما قدرنا على هذا حتى كدنا أن لا نقدر عليه، وقالت طائفة منهم: ألستم قد جعلتم لهذا الرجل عهودكم ومواثيقكم أن لا تعصوه وقد صدقكم في أول حديثه فآخر حديثه مثل أوله، فراح وراحوا معه، فأوردهم رياضاً خضراء وماء رواء، وأتى الآخرين العدو من ليلتهم فأصبحوا ما بين قتيل وأسير»[1] فهذا مثل أيضاً مطابق تمام المطابقة، فمن أطاعه فاز ونجى، ومن رضي بالحياة ورضي بالعيش الذي هو فيه وترك طاعته، فلا بد أن يهلكه العدو صباحاً أو مساءً.

والمقصود: أن هذه الآية تدل على أنه ﷺ حمى جناب التوحيد من أن تُنال جوانبه فيدخل الشيطان عليه من جوانبه؛ لأن حرصه على هدايتنا ورأفته بنا تمنعه من أن لا يبين لنا ذلك ويحذر منه.

۞ قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، ولا تجعلوا قبري عيداً، وصلُّوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم».

رواه أبو داود[2] بإسناد وحسن، رواته ثقات.

قوله: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً»: «لا» هذه ناهية، والقبور المقصود بها

---

(١) الأمثال للرامهرمزي رقم ٢٣.

(٢) رقم ٢٠٤٢، وأحمد في المسند رقم ٨٨٠٤.

لا تجعلوها معطلة عن العبادة، وليس المعنى أنكم لا تدفنوا فيها موتاكم هذا غير مقصود؛ لأنه متقرر عندهم أن القبور لا يتعبد عندها وليست محلاً للعبادة، فهو يقول: لا تجعلوا بيوتكم شبيهة بالمقابر لا يتعبد فيها؛ يعني: مهجورة من العبادة فصلوا فيها، واذكروا الله واتلوا القرآن، وسيأتي ما يبين هذا، ولهذا جاء في الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إن الشيطان ينفر من البيت الذي تُقرأ فيه سورة البقرة**»[1]، فدل هذا على أن المقصود ليس الصلاة فقط، أن البيوت يُتعبد بها، ومن المعلوم أنه جاء الحث على كثرة الصلاة في البيت؛ يعني: صلاة النافلة، فالنوافل في البيت فعلها أفضل من المسجد؛ لأن الإنسان كونه يصلي في بيته أقرب إلى الإخلاص، وأبعد عن مراءاة الناس الذي قد يكون من باب إفساد العمل.

قوله: «ولا تجعلوا قبري عيداً»: العيد اسم لما يعتاد من الاجتماع في مكان أو في زمان. الذي يعتاد ويتردد إليه إذا كان مكاناً فهو عيد بمجموع هذه الأعمال التي تفعل، وكذلك إذا كانت هذه تعود بعود الوقت تسمى عيداً، فإذاً العيد يكون زمانياً ويكون مكانياً.

وكان للجاهلية أعياد زمانية ومكانية، فأبدلها الله جل وعلا، أبدل المسلمين بها بعيد الفطر وعيد الأضحى للزمان، وكذلك عيد الأسبوع الذي هو الجمعة، أما المكانية فمثل: الكعبة والمشاعر منى ومزدلفة وعرفات جعلها عيداً لأهل الإسلام بدل أعياد الجاهلية.

ولهذا يقول: «**لا تجعلوا قبري عيداً**»؛ يعني: لا ترددوا إليه وتعاودوه مرة بعد أخرى، ففيه دليل واضح بأن الرسول ﷺ نهى عن الإتيان إلى قبره والتردد عليه من أجل السلام. أما أن يأتي للدعاء أو التبرك أو الاستشفاع، فهذا معلوم عند الصحابة أنه من فعل المشركين، وإنما نهاهم عن الشيء الذي يمكن أن يقعوا فيه وهو كونهم يأتون للسلام فنهاهم عن هذا، ولهذا قال:

---

(١) رواه مسلم رقم ٧٨٠.

«صلوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم»؛ يعني: ليس هناك حاجة إلى أن تأتوا إلى القبر، وهذا يفسر قوله: «ولا تجعلوا قبري عيداً»؛ يعني: أنكم لا تأتوا إليه للصلاة والسلام، فدل هذا على أننا لو قصدناه للصلاة والسلام لصار عيداً، فالصلاة والسلام علي تصلني سواء كنتم قريبين أو بعيدين، وهذا يستوي فيه من كان في المدينة، أو كان في المسجد، أو كان في المشرق، أو المغرب لا فرق.

أما ما جاء في الحديث أن الرسول ﷺ قال: «من صلى عليّ عند قبري سمعته، ومن صلى عليّ نائياً أبلغته»[1]، فيقول هذا فيه ميزة، إذا كان يسمع، فهذا ما يفرط فيه الجواب أن هذا غير ممكن؛ لأنه لا يمكن الوصول إلى قبره، والحمد لله الذي حال بين الناس وبين الوصول إليه، فقد بني ثلاثة حيطان بين الناس وبين القبر، فالفتحات التي يشاهدها الناس ويزعمون أنهم يشاهدون القبر من خلالها هذا توهم، الفتحات من خلفها جدار ومن خلف الجدار جدار، فعل هذا لا يمكن الوصول إلى قبره، فالله جل وعلا استجاب دعاء نبيه ﷺ حيث قال: «اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»[2]، ومعلوم أن إدخاله في المسجد ليس من فعل الرسول ﷺ، وليس من فعل الصحابة، وليس برضا العلماء بل هو فعل الملوك، والملوك لا ينظرون إلى الأمور الشرعية هذا أمر معروف، فالوليد بن عبد الملك هو الذي أدخل الحُجر في المسجد وقصده أمر سياسي؛ لأنه كان فيها حجرة فاطمة، وكان يجتمع فيها أولاد علي، وأهل البيت، وبني أمية يخافون منهم كثيراً، ويخشون أنهم يكونون لهم دولة فيحاربونهم، فهم

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان رقم ١٥٨٣ من حديث أبي هريرة، قال البيهقي في كتاب حياة الأنبياء بعد وفاتهم ١/ ١٠٤، بعد أن روى الحديث بإسناده: أبو عبد الرحمٰن هذا هو محمد بن مروان السدي فيما أرى وفيه نظر وقد مضى ما يؤكده. وقال ابن حجر في فتح الباري ٦/ ٤٨٨: وأخرجه أبو الشيخ في كتاب الثواب بسند جيد.

(٢) أخرجه مالك في الموطأ رقم ٤١٤ من حديث عطاء بن يسار.

أدخلوها حتى لا يكون ذلك مجتمع لهم فهم أدخلوا الحجر كلها ليس حجرة عائشة فقط، فحجرة عائشة حيث أن فيها القبر فلا يمكن أن تهدم كما هدم غيرها، وكان الأمير على المدينة في ذلك الوقت هو عمر بن عبد العزيز فأمر أن تبنى هذه الجدران وجعل البناء مثلث ينتهي من جهة الشمال بزاوية بحيث لا يمكن استقبال القبر ولا يزال هذا البناء موجوداً، ولكنه جعل خلفه شباك وغُير عن وضعه السابق فصار الآن بإمكان الإنسان أن يستقبل هذا البناء، أما القبر فبينه وبينه حيطان.

والمقصود: من هذا أن هذا ليس فعل شرعي حتى يستدل به أصحاب الضلالات التي يضعون الأموات في المساجد فيصبح المسجد محل مقبرة ويقولون: هذا قبر الرسول في المسجد والأعمال لا بد لها من دليل شرعي، وربما يكون في ذلك حكمة أرادها الله جل وعلا، وحِكم الله جل وعلا كثيراً ما تخفى على الناس.

فما الظن لو كان قبر الرسول ﷺ بارزاً كان ما يمكن أن يبقى منه شيء بل التراب الذي حوله سوف يؤخذ؛ لأن هناك أناس فتنوا بالوثنية - نسأل الله العافية - ولكن المسجد لا زال فيه من يصلي ومن يتعبد ومن يكون حارساً يحرس ليل ونهار دائماً، فجعل في هذا حفظاً للرسول الله ﷺ.

فالمقصود أن الصحابة فهموا هذا الذي قاله الرسول ﷺ، وأن ذلك صيانة له أن يتخذ مع الله إلٰهاً.

والنبي ﷺ أمرنا أن نصلي ونسلم عليه، فأخبرنا ﷺ أن صلاتنا وسلامنا عليه لا يستدعي الإتيان إليه، بل يصل إليه حيث كنا فإذاً التردد عليه، أو الذهاب إليه لا داعي له بل بدعة مخالفة لقول رسول الله ﷺ ومعصية له.

ومعلوم أنه وقع في ذلك غلو، حتى أنه يقع من بعض العلماء الكبار الشيء الذي يشم منه رائحة الوثنية، وعبادة القبور - نسأل الله العافية - حتى قالوا بتقبيل قبره ووضع الرأس عليه أو الخد والتمرغ عليه، فإذا كان هذا يقوله من يقتدى به مثل: الذهبي وغيره، فكيف بمن هو دونه؟ وإن قاله فإن هذا لا يجوز أن يفعل، فأحاديث الرسول ﷺ صريحة وواضحة، أما تعليلاتهم أن

تقبيله بمنزلة تقبيل يده، نقول: إن هذا قياس مع الفارق، أنت تقبل تراب، ولست تقبل يد الرسول ﷺ، ويقول لما قيل له: هذا لم يفعله الصحابة، ولم يفعله التابعون. قال الصحابة: قبَّلوا يده وتمعَّكوا بنخامته وأخذوا شعره، وتبركوا بعرقه وبثوبه، وما أشبه ذلك، ونحن فقدنا هذا فنتبرك بقبره، فنقول أيضاً: هذا قياس فاسد باطل؛ لأن العبادات مبناها على التوقيف على الشرع، والذي يقول هذا يلزمه أن يأتي بدليل والدليل على خلافه.

وكذلك القول في القبور الأخرى، والناس يسرعون إلى الفتنة في القبور حتى إن شيخ الإسلام ابن تيمية ذكر أن في جبل لبنان وجد عظم كبير، فوجد عنده رائحة طيبة، فقالوا: لا بد أن يكون هذا قبر نبي، ولكن العظم الكبير خارق للعادة التي نعرفها فجاءهم إنسان، فقال هذا قبر نوح هو الكبير، فبنى عليه بناء، ثم جاء من بعدهم فزاد في البناء فأصبح وثناً يعبد من دون الله مجرد أنهم وجدوا عظماً كبيراً مع أن الأدلة الشرعية تبين أن هذا باطل من الأصل، ولو قدر أنه صحيح فلا يجوز أن يتخذ مزاراً ومتبركاً، فالحديث الصحيح أن الرسول ﷺ قال: «**إن الله ﷻ حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء صلوات الله عليهم**»[1]، لا يخلو عظم النبي من لحمه فهو يبقى عليه، ولو قدر أنه صحيح نقول: أنه لا يجوز؛ لأنه كما سمعنا العبادة توقيفية.

إذا نظرت إلى واقع العالم الإسلامي تجد عبادة القبور الآن منتشرة، ما تجد بلداً من بلاد المسلمين شرقاً أو غرباً إلا وفيها قبور تعبد كثيرة، وكل ذلك بسبب الرافضة فإنهم هم الذين لما تولوا المغرب تولوا مصر صاروا هم الحكام فيها بنوا المشاهد على القبور وعظموها وجعلوا لها مزارات، وكذلك

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم ١٦١٦٢، وأبو داود رقم ١٠٤٧، وابن ماجه رقم ١٦٣٦، والنسائي رقم ١٣٧٤ من حديث أوس بن أوس ولفظه: «**من أفضل أيامكم يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه قبض وفيه النفخة وفيه الصعقة فأكثروا علي من الصلاة فيه فإن صلاتكم معروضة علي**، فقالوا: يا رسول الله وكيف تعرض عليك صلاتنا وقد أرمت - يعني: وقد بليت -؟ قال: **إن الله ﷻ حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء صلوات الله عليهم**».

في العراق وغيره، ثم انتشرت في الباكستان والهند في كل مكان، حتى في هذه البلاد، ولكن منَّ الله جل وعلا على هذه البلاد بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله تعالى ـ فطهرها من القبور، وإلا فكانت موجودة من المشهورات جداً قبر زيد بن الخطاب في الجبيلة كان وثناً يعبد كان يطاف عليه حتى أن الشيخ رحمه الله أول ما بدأ دعوته كان يأتي إليهم وهم يطوفون عليه، ويستنجدون به ويستغيثون به، ويطلبونه، يقولون: يا زيد يا زيد أعطني كذا، فيقول لهم الله خير من زيد؛ لأنه لا أحد يستطيع أن يقول أن زيداً خير من الله، وإن كان في قلوب بعض الناس أن المقبور خير من الله، يوجد هذا في كثير من الناس، يقول أستغيث بالله فلا يُغثني، فإذا استغثت بالمقبور أجابني وأعطاني كذا وكذا.

ولهذا أفتى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في كتابه المشهور بأنه لا يجوز أن تعمل المطي، وتشد الرحل إلى زيارة قبر الرسول ﷺ، ولا زيارة قبر غيره، واستدل بالحديث الذي في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد الرسول ﷺ، ومسجد الأقصى**»[1].

وفي الموطأ قال أبو هريرة: لقيت أبا بصرة الغفاري قال: من أين أقبلت؟ فقلت: من الطور. فقال: أما لو أدركتك قبل أن تخرج إليه ما خرجت إليه، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا تعمل المطي إلا إلى ثلاثة مساجد: إلى المسجد الحرام، وإلى مسجدي، وإلى مسجد إيلياء أو بيت المقدس يشك**»[2]، وكذلك قال مثل هذا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما لمن سأله أنه سيذهب إلى الطور قال: لا تذهب إلى الطور[3]. مع أن الطور ذكره الله في القرآن

---

(١) رواه البخاري رقم ١١٨٩، ومسلم رقم ١٣٩٧.

(٢) أخرجه أحمد في المسند رقم ٢٣٨٤٨، ومالك في الموطأ رقم ٣٦٤، والنسائي رقم ١٤٢٩.

(٣) أخبار مكة للفاكهي ٣/ ٢٧٩ عن قزعة قال: أردت الخروج إلى الطور، فأتيت ابن عمر رضي الله عنهما فقلت له، فقال: «إنما تشد الرحال إلى ثلاثة مساجد: إلى مسجد رسول الله ﷺ، والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى، ودع عنك الطور ولا تأته».

وذكر أنه مبارك، وأن الله كلم موسى ﷺ في تلك البقاع، واستدل ابن عمر بنفس الحديث.

سئل الإمام مالك رحمه الله عن رجل نذر أن يأتي المدينة قال في الجواب: إن كان قصد في نذره أنه يأتي للصلاة في مسجد النبي ﷺ فيفي بنذره، أما إن كان قصد القبر، أو لغيره من بقاع المدينة فلا يجوز له أن يفي بنذره، فليس هذا بنذر طاعة بل هو نذر معصية، ولهذا لما أفتى شيخ الإسلام[1] بهذا رد عليه بعض علماء وقته مثل السبكي في كتاب جمع فيه أحاديث موضوعة وواهية وجعلها أدلة له؛ كالحديث الذي فيه: «**من حج ولم يزرني فقد جفاني**»، والحديث الذي فيه: «**من زارني بعد مماتي فكأنما زارني في حياتي**»[2]، ونحو هذا من الأحاديث الموضوعة المكذوبة على النبي ﷺ،

---

(١) مجموع الفتاوى ١/ ٢٣٤ - ٢٣٥: وقد اتفق الأئمة على أنه لو نذر أن يسافر الى قبره صلوات الله وسلامه عليه أو قبر غيره من الأنبياء والصالحين لم يكن عليه أن يوفي بنذره بل ينهى عن ذلك. وقال: وأما السفر إلى بقعة غير المساجد الثلاثة فلم يوجب أحد من العلماء السفر إليه إذا نذره حتى نص العلماء على أنه لا يسافر إلى مسجد قباء لأنه ليس من المساجد الثلاثة مع أن مسجد قباء يستحب زيارته لمن كان في المدينة، لأن ذلك ليس بشد رحل كما في الحديث الصحيح: «**من تطهر في بيته ثم أتى مسجد قباء لا يريد إلا الصلاة فيه كان كعمرة**»، قالوا: ولأن السفر إلى زيارة قبور الأنبياء والصالحين بدعة لم يفعلها أحد من الصحابة ولا التابعين ولا أمر بها رسول الله ولا استحب ذلك أحد من أئمة المسلمين، فمن اعتقد ذلك عبادة وفعله فهو مخالف للسنة ولإجماع الأئمة، وهذا مما ذكره أبو عبد الله بن بطة في الإبانة الصغرى من البدع المخالفة للسُّنَّة والإجماع. مجموع الفتاوى ٢٧/ ١٨٧.

(٢) سنن الدارقطني رقم ١٩٣، وشعب الإيمان للبيهقي رقم ٤١٥١ عن حاطب قال: قال رسول الله ﷺ: «**من زارني بعد موتي فكأنما زارني في حياتي ومن مات بأحد الحرمين بعث من الآمنين يوم القيامة**»، قال ابن حجر في التلخيص الحبير: وفي إسناده رجل مجهول. قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ٦/ ٢٣١: لما ذكر هذه الأحاديث: «**من زارني وزار قبر أبي في عام واحد ضمنت له على الله الجنة**»، و«**من حج ولم يزرني فقد جفاني**»، و«**من زارني بعد مماتي فكأنما زارني في حياتي**»، فهي أحاديث ضعيفة؛ بل موضوعة لم يرو أهل الصحاح والسنن المشهورة والمسانيد منها شيئاً. وقال رحمه الله: وأجود حديث فيها ما رواه عبد الله بن عمر العمري وهو ضعيف =

وهكذا لا يزال الناس على هذا المنهج حتى سمعنا بعض الناس يقول لما سُئل عن هذا: إذا خالفنا التيميون فعندنا السبكيون؛ يعني: صارت المسألة عصبية، والمسائل هذه شرعية يجب أن نتبع الدليل فيها لا نتبع فلاناً وفلاناً فيها يجب أن يكون المقصود معرفة الحق واتباعه.

وقوله ﷺ: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً»: ليس المقصود فيه: النهي عن الدفن في البيوت، هذا شيء عرف من خطاب الرسول ﷺ، وإنما مقصوده لا تجعلوا بيوتكم معطلة من العبادة شبيهة بالقبور، يدلك على هذا الحديث الذي في صحيح مسلم حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: **«لا تجعلوا بيوتكم مقابر، فإن الشيطان يفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة»**[1]، هذا ظاهر في أن المقصود لا تعطلوها من العبادة، وظاهر في أن القبور لا يقرأ عندها القرآن ولا تعمل عندها العبادات، وهذا يظهر في حمايته ﷺ جناب التوحيد كما أراد المؤلف رحمه الله بيان ذلك.

۞ قال المؤلف رحمه الله: وعن علي بن الحسين، أنه رأى رجلاً يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي ﷺ، فيدخل فيها فيدعو، فنهاه وقال: ألا أحدثكم حديثاً سمعته من أبي عن جدِّي عن رسول ﷺ؟ قال: «لا تتخذوا قبري عيداً، ولا بيوتكم قبوراً، فإن تسليمكم يبلُغني أين كنتم» رواه في المختارة[2].

علي بن الحسين هو الذي يقال له: زين العابدين علي بن الحسين بن

= والكذب ظاهر عليه، مثل قوله: «من زارني بعد مماتي فكأنما زارني في حياتي»، فإن هذا كذبه ظاهر مخالف لدين المسلمين، فإن من زاره في حياته وكان مؤمناً به كان من أصحابه لا سيما إن كان من المهاجرين اليه المجاهدين معه، وقد ثبت عنه أنه قال: **«لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه»** أخرجاه في الصحيحين، والواحد من بعد الصحابة لا يكون مثل الصحابة بأعمال مأمور بها واجبة كالحج والجهاد والصلوات الخمس والصلاة عليه، فكيف بعمل ليس بواجب باتفاق المسلمين، بل ولا شرع السفر إليه بل هو منهي عنه.

(١) رواه مسلم رقم ٧٨٠.

(٢) مسند أبي يعلى رقم ٤٦٩، وابن أبي شيبة رقم ٧٥٤٢ وفيه: **«وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني»** وهو عند أحمد في المسند رقم ٨٨٠٤ من حديث أبي هريرة ﷺ.

علي بن أبي طالب، وهو من أفضل أهل البيت قال الزهري: ما رأيت قرشياً أفضل منه[١]. كان مشهوراً في العبادة، وفي الزهد والتقى، وفي الصدقة على المساكين، وتفقد أحوالهم حتى أنه لما مات كان في بلده بيوت كثيرة كان يأتيهم الطعام، ولا يدرون من أين يأتيهم، فلما مات فقدوا ذلك فعلموا أنه هو الذي كان يأتيهم بذلك كان يأتي إليهم في الليل خفية، وإنما لما توفي وفقدوا ذلك علموا أنه هو الذي كان يصنع ذلك.

قوله: «أنه رأى رجلاً يجيء إلى فرجة»: الفرجة هي النافذة التي تكون في الجدار، وهذه الفرجة كانت في عُرض الحائط، وليس في سقفه كما يقول القبوريون؛ لأنهم يقولون كان في سقفه فرجة إذا تأخر المطر كشفوا عنها فجاء المطر، هذا كذب، وهو من الدعايات المضللة وما أكثرها.

وهذه الفرجة كانت معروفة، ثم سدت لما صار الناس يدخلون منها وهذا كان قبل بناء الجدران الثلاثة؛ يعني: قبل الزيادة التي زادها الوليد بن عبد الملك في المسجد، وإدخاله حجر زوجات النبي ﷺ فيه، أما بعد ذلك فزالت وجددت الجدران وبني جدار الحجرة ورفع إلى السقف، سقف المسجد حتى لا يتمكن أحد من الدخول عليه، ثم بني من خلفه جدار، ثم من خلفه الجدار الذي هو مثلث حتى لا أحد يستطيع استقباله في الصلاة؛ يعني: في الصورة فقط، فأنه لا يجوز استقباله.

فكان الرجل يدخل من هذه الفرجة إلى القبر، فرآه وهو كان جالساً في بيت جدته فاطمة ﵄، فقال له: ماذا تصنع؟ قال: أسلم على النبي ﷺ، قال له: لا تصنع، ما أنت ومن بالأندلس إلا سواء، سلّم عليه أين ما كنت، ثم روى له الحديث.

قوله: «فنهاه»: يدل على أن قصد القبر والإتيان إليه أنه غير مسنون،

---

(١) تقريب التهذيب ١/ ٤٠٠ قال: علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي زين العابدين ثقة ثبت عابد فقيه فاضل مشهور، قال ابن عيينة عن الزهري: ما رأيت قرشياً أفضل منه، من الثالثة، مات سنة ثلاث وتسعين، وقيل غير ذلك.

وغير مطلوب الدعاء، أو السلام، ولهذا ما كان الصحابة مع تمكنهم من الوصول إليه ما كان أحدهم يفعل ذلك، وإنما رُوي عن عبد الله بن عمر فقط عن ابن عون، قال: سأل رجل نافعاً، فقال: هل كان ابن عمر يسلم على القبر، فقال: نعم لقد رأيته مائة، أو أكثر من مائة مرة كان يأتي القبر فيقوم عنده فيقول: السلام على النبي، السلام على أبي بكر، السلام على عمر أبي[1].

قال معمر: فذكرت ذلك لعبيد الله بن عمر فقال: ما نعلم أحداً من أصحاب النبي ﷺ فعل ذلك إلا ابن عمر[2].

لأنهم فهموا من هذا الحديث ونحوه النهي عن الإتيان إلى قبره والسلام عليه، فكان أحدهم إذا دخل المسجد صلى على النبي ﷺ، فإذا صلى إما أن يجلس، وإما أن ينصرف، ولهذا ذكروا عن الإمام مالك أنه كان يكره أن يقصد قبر النبي ﷺ، فيكره لفظ الزيارة يقول أحدهم: زرت النبي ﷺ، أو قبره عليه الصلاة والسلام ويقول: لم يرد في لفظ الزيارة شيء عن رسول الله ﷺ، وجاء ما يدل على المنع من ذلك قال: **«لا تجعلوا قبري عيداً...»**.

ومعلوم تحري الإمام مالك رحمه الله لاتباع السُّنَّة وتشديده في ذلك، وهو إمام أهل المدينة، وأعلم الناس في مثل هذه الأمور؛ لأنه كان في المدينة، ويأخذ عن علمائها والعهد كان قريباً وليس بعيداً.

قوله: «لا تتخذوا قبري عيداً»؛ يعني: لا تترددوا عليه للسلام، ومعلوم أن الصحابة لا يأتون إليه ليعبدوه، أو ليدعوه، أو يسألوه عن علم، أو عن شيء قد يشكل عليهم؛ لأن الشيطان لا يطمع فيهم في ذلك لتمكن التوحيد في قلوبهم، وكونهم تلقوا عن رسول الله ﷺ الحق وعرفوا الباطل، وإنما طمع

---

(١) اقتضاء الصراط ١/ ٣٢٧ قال: رواه ابن بطة في الإبانة بإسناد صحيح، ورواه مالك في الموطأ رقم ٩٤٧ عن عبد الله بن دينار أن ابن عمر: كان إذا أراد سفراً أو قدم من سفر جاء قبر النبي ﷺ فصلى عليه ودعا ثم انصرف. وأخرجه البيهقي رقم ١٠٥٧٠.

(٢) مصنف عبد الرزاق رقم ٦٧٢٤.

فيمن أتوا بعده فأدخل عليهم ما أدخل، وإلا الصحابة وقع لهم مشاكل وخلافات فلم يأت أحد منهم إلى القبر يقول: يا رسول الله ما هو حكم كذا؟ أو ما أشبه ذلك، بخلاف المتأخرين الذين لو تمكنوا من ذلك لصنعوا أمور عجيبة غريبة، بل يصنعون مع غيره فكيف معه، والتي يتوهمون أنها قبور صالحين مع أنها قد تكون قبور شياطين كفرة مثل: قبر أحمد البدوي الذي يسمونه السيد البدوي، مع أن هذا البدوي كما يقول السخاوي: ما عرف إلا أنه جاسوس لدولة الرفض يتصيد الأخبار حتى أنه ذكر قصة أنه حضره في بيت يوم جمعة حتى قارب وقت الصلاة، فقالوا له الصلاة، فذهب معهم إلى المسجد فجلس، يقول: حتى أنه بال في المسجد، ثم خرج بدون صلاة، لم يصل ومع ذلك يقول الناس الذي يشاهدونه يحضر عنده ما يقرب من ثلاثة ملايين عند قبره في وقت العيد، يحجون إليه واختلاط نساء ورجال ومنكرات وشرك، كيف يفعل هذا في بلاد الإسلام.

وما أكثر القبور هناك، فكل من عرف أن له قبر يشيد ويدعى مثل: الشافعي، ومثل: زينب، والدسوقي، وغيرهم كثير جداً، وكل هذا من هؤلاء الذين هم دعاة للقبور.

فقوله: **«لا تتخذوا قبري عيداً»** هو من باب سد الذرائع؛ يعني: لا ترددوا عليه للصلاة والسلام، ولهذا قال: **«فإن تسليمكم يبلغني أين كنتم»**.

يعني: ليس هناك داعي أنكم تأتون تسلمون علي فإن تسليمكم علي يبلغني؛ يعني: أن الله جعل ملائكة تبلغه السلام الذي يسلم عليه[1]، فإذا سلم عليه الإنسان في أي مكان فإنه يوصل إليه يقول: هذا فلان يصلي عليك، ومثل هذا ينبغي للإنسان أنه يكثر منه؛ لأنه يُذكر اسمه عند رسول الله ﷺ.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم ٣٦٦٦، والنسائي رقم ١٢٨١، والحاكم في المستدرك رقم ٣٥٧٦ وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي ولفظه عن عبد الله بن مسعود ﷺ، قال رسول الله ﷺ: **«إن لله ملائكة في الأرض سياحين يبلغوني من أمتي السلام»**.

فهذا من صيانته ﷺ للتوحيد ورحمته بالأمة ورأفته بهم، حيث أمرهم أن يؤدوا العبادة بعيداً عن مظنة الأمور التي تكون داعية للشرك والوقوع فيه، فنهاهم عن التردد إلى قبره وجعله عيداً.

قوله: «رواه في المختارة»: هي لمحمد بن عبد الله المقدسي الحنبلي ضياء الدين تخير فيها الأحاديث الصحاح التي لم يخرجها البخاري ومسلم فهي شبية بالمستدرك إلا أنها أفضل من المستدرك، فتصحيحه وانتقائه أحسن من انتقاء الحاكم، وأحسن من تصحيحه.

❁ قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: فيه مسائل:

۞ الأولى: تفسير آية براءة.

المقصود بقوله: تفسير الآية دلالتها على الموضوع المعين الذي يتكلم فيه، ودلالتها واضحة.

۞ الثانية: إبعاده أمته عن هذا الحِمى غاية البعد.

المقصود بالحمى: الشرك، إبعاده أمته عن الشرك الذي قد يقعون فيه بتزيين الشيطان أو غيره. فالحِمى هي جوانب الشيء، فقد حمى جوانبه، وأبعد الناس الذين يقعون في المخالفات عن هذا الحمى؛ يعني: أبعد وسائل الشرك وأسبابه أن تكون قريبة إلى جوانب التوحيد.

۞ الثالثة: ذكر حرصه علينا ورأفته ورحمته.

هذا هو وجه الاستدلال من الآية أنه حريص على هدايتنا، وأنه بنا رؤوف رحيم، ومقتضى ذلك أن يحمينا ويبعدنا عن أسباب الشرك، ووسائله التي توقع العنت فينا وتوقعنا في العذاب.

۞ الرابعة: نهيه عن زيارة قبره على وجه مخصوص، مع أن زيارته من أفضل الأعمال.

هذا يحتاج إلى دليل، يظهر أنه رَحِمَهُ اللَّهُ أخذه من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية؛ لأنه ذكر هذا الكلام في كتابه الرد على البكري؛ لأن الشيخ ابتلي بهذه

المسألة حتى سجن حتى حاول بعض قضاة وقته أنه يحكم بقتله من أجل ذلك فألف كتاباً يرد به على هؤلاء ويقول: أنه ما أنكر الزيارة، وإنما أنكر شد الرحل، وقال: إن زيارته من أفضل الأعمال، وهذا يحتاج إلى دليل كيف تكون من أفضل الأعمال والرسول ينهانا يقول: «**لا ترددوا على قبري**»، «**لا تجعلوا قبري عيداً**»، وكيف تكون من أفضل الأعمال، ولم يفعلها الصحابة.

الذين حاولوا أن يبرروا هذا الكلام، قالوا هذا دليله ما في الحديث: «**من سلم علي عند قبري سمعته، ومن سلم علي نائين بلغته**»، والحديث ضعيف فيه راويان أحدهما مجهول والآخر فيه كلام[1].

فسماعه ﷺ فيه مزية يجعل العمل فاضلاً، لكن يقال في الجواب:

هذا لو أمكن وهو الآن غير ممكن، فكيف يقال كلام عام للناس: «**زيارته من أفضل الأعمال**».

ثم قوله إذا صح الحديث: «**من سلم علي عند قبري**»، وهذا ليس خاص به ﷺ، جاء هذا في آحاد الناس، إذا أتيت إلى قبره وسلمت عليه يسمعك، ويرد عليك كما ثبت ذلك في أحاديث متعددة عن أنس ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**العبد إذا وضع في قبره وتولى أصحابه حتى إنه ليسمع قرع نعالهم..**» الحديث[2]، وجاء أيضاً من هذا.

والروح لا تموت بل هي حية، والحكم عليها، والحياة في القبر حياة غير هذه ربما تكون أكمل، وربما تكون لها أحكام أخرى، والمقصود: أن الإنسان في قبره حي، وإن كانت روحه إذا كان مؤمناً في الجنة، ولكن لها

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان رقم ١٥٨٣، قال العقيلي في الضعفاء الكبير ٨/١١٣: لا أصل له من حديث الأعمش وليس بمحفوظ ولا يتابعه إلا من هو دونه. وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى ١/٢٣٨: وهذا قد رواه محمد بن مروان السدي عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة، وهذا هو السدي الصغير وليس بثقة وليس هذا من حديث الأعمش. وقال ابن القيم في جلاء الأفهام ١/٥٤: وهذا الحديث غريب جداً.

(٢) رواه البخاري رقم ١٣٣٨، ومسلم رقم ٢٨٧٠.

صلة بالقبر، فقد ثبت في مسند أحمد حديث صحيح عظيم فيه بشاره كبيرة يفرح بها المؤمن، قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن إدريس؛ يعني: الشافعي، عن مالك، عن ابن شهاب، عن عبد الرحمٰن بن كعب بن مالك أنه أخبره أن أباه كعب بن مالك كان يحدث أن النبي ﷺ قال: **«نسمة المؤمن طائر يعلق شجر الجنة حتى يرجعه الله»**[1]؛ يعني: يوم البعث، وهذا خلاف ما جاء في الشهداء فإن أرواحهم في حواصل طير[2]؛ يعني: محمولة الطير يطير بها وتسرح في أنهار الجنة حيث شاءت فلها خاصية غير هذه، فهذا لا يخالف كون لها صلة بالبدن الذي في القبر تألم وتنعم، فقد ثبتت أحاديث عن النبي ﷺ أن العبد إذا وضع في قبره أتاه الملكان، وأنه فيما بعد يرى منزله ويفتح له باب إلى الجنة، أو إلى النار، بل إنه يفتح باب للجنة وللنار كلاهما ينظر إليهما، فإن كان مؤمناً قيل له: هذا منزلك من النار لو كفرت بالله، أما وقت آمنت فانظر إلى منزلك، فيزداد غبطة وسروراً وطمأنينة ويدعو ربه أن يقيم الساعة حتى يذهب إلى منزله، والثاني بالعكس يزداد حسرة وعذاباً يقال: هذا

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم ١٥٧٧٨.

(٢) أخرجه الدارمي رقم ٢٤١٠ عن مسروق قال: سألنا عبد الله عن أرواح الشهداء ولولا عبد الله لم يحدثنا أحد قال: «أرواح الشهداء عند الله يوم القيامة في حواصل طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح في الجنة حيث شاءت ثم ترجع إلى قناديلها فيشرف عليهم ربهم فيقول: ألكم حاجة تريدون شيئاً، فيقولون: لا إلا أن نرجع إلى الدنيا فنقتل مرة أخرى» ورواه مسلم رقم ١٨٨٧ عن مسروق قال: سألنا عبد الله «هو ابن مسعود» عن هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران: ١٦٩] قال: أما إنا سألنا عن ذلك فقال: «أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم اطلاعة فقال: هل تشتهون شيئاً؟ قالوا: أي شيء نشتهي؟ ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا، ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا: يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا»، وأخرجه الترمذي رقم ١٦٤١ ولفظه عن الزهري عن ابن كعب بن مالك عن أبيه: أن رسول الله ﷺ قال: **«إن أرواح الشهداء في طير خضر تعلق من ثمرة الجنة أو شجر الجنة»**.

منزلك في الجنة لو آمنت بالله، أما وقد كفرت فانظر إلى منزلك من النار، ثم يأتيه من حرها ولهبها في قبره، والآخر يأتيه من نعيمها ورَوحها في قبره[١].

فإذا كانت الروح إذا خرجت من البدن وذهبت إلى السماء وفتحت لها أبواب السماء إذا كانت مؤمنة حتى تصل إلى السماء السابعة، ثم ترجع إلى بدنها قبل أن يدفن كل هذا في وقت تجهيزه، فإذا دفن أعيدت روحه إليه فيأتيه الملكان فيقعدانه، المقصود أن الروح أمرها عجيب فلا يقاس عليها، ولهذا أهل السُّنَّة ينصُّون على أن نعيم القبر وعذابه على البدن والروح معاً، وليس على الروح فقط كما يقوله من يقوله من الظاهرية؛ كابن حزم ﷺ.

والجسد وإن تفتت أجزاءه وكان تراباً فهو يعذب، وإن احترق بالنار وصار رماداً، فإنه يناله العذاب في جسده وروحه كلاهما، ولكن الحكم على الروح والبدن تبع، عكس الدنيا، الدنيا الحكم على البدن والروح تبع، الروح تألم لتألم البدن.

۞ الخامسة: نهيه عن الإكثار من الزيارة.

مفهوم هذا أن الزيارة غير الكثيرة مأذون فيها، وهذا فيه نظر أيضاً، فالأصل ليس فيه زيارة بل هناك النهي عن الزيارة، فهل نفهم من هذا أن المقصود الإكثار هو فهم هذا من قوله: «**لا تجعلوا قبري عيداً**»، فهم هذا منه؛ لأن العيد الشيء الذي يعاود ويتردد إليه، فإذا وقع هذا مرة أو مرتين فليس داخل فيه، هذا وجه قوله النهي عن الإكثار من الزيارة، والله أعلم.

۞ السادسة: حثه على النافلة في البيت.

على العبادة مطلقاً في البيت ما عدا صلاة الجماعة، ولكن النافلة في البيت أفضل بالنصوص، ومفهوم حديث ابن عمر بل إن نصه واضح، «**فإن الشيطان يفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة**»[٢]، ومثل ذلك سائر القرآن كله إذا قرأ في البيت فهو مطلوب.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم ١٠٩٩٩ عن أبي سعيد الخدري.

(٢) سبق تخريجه.

۞ السابعة: أنه متقرر عندهم أنه لا يصلى في المقبرة.

متقرر عند الصحابة أن المقبرة لا يصلى فيها، وكذلك لا يتعبد فيها مطلقاً، أيضاً لا يقرأ القرآن فيها فليست محلاً للعبادة، يفهم هذا من حديث أبي هريرة ﷺ: «**لا تجعلوا بيوتكم قبوراً**»؛ يعني: تعبدوا فيها.

۞ الثامنة: تعليله ذلك بأن صلاة الرجل وسلامه عليه يبلغه وإن بعد، فلا حاجة إلى ما يتوهمه من أراد القرب.

يعني: تعليل عدم الزيارة أو تكرار الزيارة جعله عيداً.

۞ التاسعة: كونه ﷺ في البرزخ تعرض أعمال أمته في الصلاة والسلام عليه.

يعني: أن العرض خاص بالصلاة والسلام عليه ليس كل الأعمال تعرض عليه، هذا هو الذي جاء فيه الدليل، أما غيره من الأعمال مثل ما يذكرون من حديث واهي لا يثبت به حكم.







الباب الثالث والعشرون

قال المؤلف رحمه الله: باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان.

سبق أن الأوثان اسم لكل ما عُبد على غير صورة؛ يعني: صورة حيوان، أو صورة إنسان، فالشجر المعبود يكون وثناً، والأصنام تكون أوثاناً إذا لم تكن على صورة إنسان، أو حيوان مثل: الحجر، والقبر، والمكان وما أشبه ذلك.

ومعلوم أن الناس الآن يعبدون أشياء كثيرة جداً حتى الحيوانات صارت تعبد، مثل: البقر، ومثل: الحية، ومثل: القرد، ومثل: الفأر؛ يعني: من أخس المخلوقات، ومثل: الشجر والماء وغيرها.

ومن أكبر المعبودات الهوى والدنيا، وقد قال الله جل وعلا: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]، وسيأتي حديث أبي هريرة الذي في البخاري أن الرسول ﷺ سمى الإنسان عبد للدينار والدرهم، والخميلة، والخميصة وغير ذلك.

ومقصود المؤلف رحمه الله في هذا الباب الرد على الذين يقولون: إن الشرك لا يقع في هذه الأمة، وهم يقولون: لا إلـٰه إلا الله ويستدلون بمثل قوله ﷺ عن جابر قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم**»[1]، ولكنه يرضى ببعض ما يسوِّله لهم، وقوله ﷺ: «**لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا**»[2]، فأخبر أن الجزيرة العربية أنها تبقى على الإسلام،

---

(١) رواه مسلم رقم ٢٨١٢.

(٢) رواه البخاري رقم ٢٧٨٣، ومسلم رقم ١٣٥٣ من حديث ابن عباس.

وقوله ﷺ: «إن الهجرة لا تنقطع ما كان الجهاد»(١)، وقوله ﷺ: «لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها»(٢)، وأشياء عمومات يستدلون بها من هذا القبيل، وهي لا تدل على مقصودهم فأراد المؤلف رحمه الله أن يبين أن هذه الأمة يقع فيها الشرك مع قوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم، أو خالفهم حتى يأتي أمر الله، وهم ظاهرون على الناس»(٣) كما سيأتي.

قوله: «ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان»: قال: «بعض»، فالأمة لا تضل كلها، ولكن يضل بعضها، والبعض يصدق على القليل وعلى الكثير من الأمة.

وقوله: «يعبد الأوثان»: يعني: صراحة يعبدونها عبادة ظاهرة لا إشكال فيها.

❁ **ثم استدل بالآيات التي ذكرها، وهي قول جل علا:** ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [النساء: ٥١، ٥٢].

روى ابن أبي حاتم وغيره عن عكرمة قال: جاء حيي بن أخطب، وكعب بن الأشرف إلى أهل مكة، فقالوا لهم: أنتم أهل الكتاب وأهل العلم، فأخبرونا عنا وعن محمد. فقالوا: ما أنتم وما محمد؟. فقالوا: نحن نصل الأرحام وننحر الكوماء، ونسقي الماء على اللبن، ونفك العناة، ونسقي الحجيج، ومحمد صنبور قطع أرحامنا واتبعه سراق الحجيج من غفار، فنحن خير أم هو؟ قالوا: أنتم خير وأهدى سبيلاً، فأنزل الله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم ٢٣١٨٦.
(٢) رواه أبو داود رقم ٢٤٧٩ من حديث معاوية، وخرجه غيره.
(٣) سبق تخريجه.

هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾[١]. وجاء عن عكرمة عن ابن عباس قال: لما قدم كعب بن الأشرف مكة قالت له قريش: أنت خير أهل المدينة وسيدهم قال: نعم، قالوا: ألا ترى إلى هذا المنبتر من قومه يزعم أنه خير منا ونحن؛ يعني: أهل الحجيج وأهل السدانة، قال: أنتم خير منه، فنزلت: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ﴿٣﴾﴾ [الكوثر: ٣]، ونزلت: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ إلى قوله: ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٢][٢]. وهما من علماء اليهود ورؤسائهم وقدومهم إلى مكة يحثون أهل مكة على قتال رسول الله ﷺ، وكان ذلك بعد وقعة بدر.

ورواه الإمام أحمد في مسنده بغير هذا اللفظ، ورواه غيره أيضاً، وهي قصة مشهورة.

فعلى هذا قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾.

الهمزة: للاستفهام.

وقوله: «﴿أَلَمۡ تَرَ﴾»:

المقصود بها: العلم، ألم تعلم كيف صارت حالتهم، وكيف فعلوا وكيف صار نهجهم، ومعلوم أن الجاهل قد يرتكب الأشياء التي تكون كبيرة بلا علم، ولكن هؤلاء أهل علم، ولهذا قال: ﴿أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾.

﴿نَصِيبًا﴾؛ يعني: أوتوا حظاً من فهمه وعلمه. والكتاب المقصود به الكتاب المنزل، وهو التوراة التي أنزلها الله جل وعلا على موسى عليه السلام.

«﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾»: الجبت: صح عن عمر رضي الله عنه أنه قال: الجبت: الشيطان[٣]. ومرة قال: الجبت: السحر[٤].

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٤/ ١٩٧.

(٢) السنن الكبرى للنسائي رقم ١١٧٠٧.

(٣) قال قتادة: في قوله: ﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾، كنا نحدَّث أن الجبت شيطان، والطاغوت الكاهن. تفسير الطبري ٨/ ٤٦٣.

(٤) تفسير الطبري ٨/ ٤٦٢ قال: عمر رضي الله عنه: «الجبت» السحر، و«الطاغوت» الشيطان.

وكذلك جاء عن ابن عباس، وعن مجاهد، وعن أبي العالية، وعكرمة وغيرهم[١].

أما الطاغوت، فقد سبق الكلام فيه، والجبت ذكروا فيه أقوالاً متعددة منهم من قال: إنه الكاهن، ومنهم من قال: إنه الساحر، ومنهم من قال: إنه الشيطان، ومنهم من قال: إنه الأصنام، ومنهم من قال: إنه الشرك، والظاهر أنه كما قال الجوهري في الصحاح: الجبت كلمة تطلق على الشر، وعلى الصنم، وعلى الكاهن، وعلى الساحر، فهي عامة[٢]. ثم يقول أن هذه الكلمة ليست من أصل اللغة العربية لاجتماع الباء والجيم في كلمة واحدة فكأنها دخيلة على اللغة، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: إذا تكلم العرب بالكلمة وعرفت عنهم فهي عربية، ولا يقال: إنها غير عربية، ولا يقال أن القرآن فيه كلام غير عربي بل كله عربي، وإن كان الأصل قد يكون دخيلاً، ولكن العرب عرَّبوها فصارت عربية وهذا منها.

فإذا عربت الكلمة وأصبحت معروفة عندهم ويتكلمون بها عرفوا معناها فهي عربية، ولهذا ما يذكر في بعض المؤلفات أن القرآن فيه كلام حبشي، وفيه كلام رومي، وفيه كلام كذا وكذا، فهذا فيه نظر، ولا يجوز أخذه على إطلاقه؛ لأن الله سمَّاه عربياً، فهو كله يصدق عليه ذلك.

والإيمان هنا ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ الظاهر أن الإيمان هنا هو: الإقرار والرضى فقط، يقصد به إقرار ذلك والرضا به ظاهراً لا باطناً، وإلا في الباطن قد يكون مكروها مبغضاً كما هو الحال في هذه القصة، ولهذا يقول المؤلف في المسائل: وهي أهمها: ما معنى الإيمان بالجبت والطاغوت؟ هل

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٣٣٤ وفيه: وعن ابن عباس، وأبي العالية، ومجاهد، وعطاء، وعكرمة، وأبي مالك وسعيد بن جبير، والشعبي، والحسن، وعطية: «الجبت» الشيطان ـ زاد ابن عباس: بالحبشية. وعن ابن عباس أيضاً: «الجبت»: الشرك. وعنه: «الجبت»: الأصنام.

(٢) الصحاح في اللغة ١/ ٧٨ قال الجِبْتُ: كلمة تقع على الصنم والكاهن والساحر ونحو ذلك.

هو اعتقاد قلب، أو هو موافقة أصحابها مع بغضها ومعرفه بطلانها؟[١]؛ يعني: ينظر الإيمان هنا ما المقصود به هل هو الاقتناع به أو موافقة أهل الباطل مع كراهته في الباطن؟ وهو يقصد الأمر الأخير؛ يعني: أنهم وافقوهم فقط عليه مع كراهتهم له ومع ذلك سماهم مؤمنين به، فالمراد بإيمانهم هنا ليس علم القلب، وإنما هو موافقة على الباطل؛ لأنهم كرهوا الحق فدعاهم ذلك على أن يوافقوا أهل الكفر في الظاهر فقط.

ثم يدلنا على أن الكفر يكون بالقول، ويكون بالفعل، ولو لم يكن القلب عالماً بذلك وموقناً به والأدلة عليه كثيرة وهو من الردود على المرجئة.

والنظر في الآية يدل على أن الجبت هو الشرك والأصنام؛ لأن الذين سألوا هم أهل الشرك وعبادة الأصنام، وأما الطاغوت فسبق تعريف ابن القيم رحمه الله له: أنه يطلق على كل ما تجاوز به العبد حده من معبود، أو متبوع، أو مطاع. بهذه الثلاثة الأشياء: المعبود والمتبوع المتبع، والمطاع يكون طاغوتاً إذا أطيع في المعاصي، وكذلك إذا اتبع في المعاصي بالتقليد دون علم وكذلك العبادة. فهاتان الكلمتان عامتان الجبت والطاغوت تطلق على أشياء كثيرة.

والإيمان بذلك هو اتباع أصحابه وموافقتهم عليه، ولو لم يكن مقتنعاً به، ولا موافقاً لهم عليه في الظاهر إذا وافقهم عليه في الظاهر، فقد آمن به كما هو واضح من هذه الآية.

ثم قال في تمام هذا ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ يعني: للمشركين ﴿هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ فهذا تفضيل لطريقة الشرك على المسلمين، وكلام الله يأتي عاماً يقصد به البقاء إلى يوم القيامة، ويدخل فيه كل من سار على هذه الطريقة في المعنى، فإذا فضل طريقة الكافرين على طريقة المسلمين الذين يتبعون الكتاب والسُّنَّة، فهو داخل في هذا، فكيف إذا فضل القوانين على الشرع يكون أعظم، ثم يقول جل وعلا: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ اللعن

---

(١) المسألة الرابعة.

هو الطرد عن رحمة الله جل وعلا؛ يعني: أن الله طردهم وأبعدهم عن مواطن الخير والرحمة، ومن فُعل به ذلك فإنه يختار الكفر والطاغوت على الهدى والإيمان والحق بسبب ذلك، ولهذا قال: ﴿وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾ لا يمكن أن يهدى إلى حق بل يكون تولاه شيطانه، والشياطين إذا تولته تُبعده عن كل ما فيه خير ـ نسأل الله العافية ـ وهذا يدلنا على أن الجزاء من جنس العمل، إذا ارتكب الإنسان الباطل عمداً فإنه يُكره إليه الحق ويُحبب إليه الباطل، ويصبح لا يطيق أنه يتبع الحق، وإن كان يعرف أنه حق ولكنه ما يتبعه فيتعمد اجتنابه وسلوك الباطل، وإن كان يرى أن هذا باطلاً وهذا حقاً، ولهذا لا يكفي كون الإنسان يعرف أن هذا حق وهذا باطل، بل حتى يحبب الله إليه الحق بعد معرفته ويتبعه ويُكرّه إليه الباطل بعد معرفته، فالأمر بيده الله جل وعلا.

فهؤلاء جازاهم الله على هذا الأمر الفظيع العظيم الذي مآله إلى الخسارة الأبدية، بل العذاب السرمدي الذي لا نهاية له ولا سيما إذا كانوا أهل علم، فأهل العلم ضلالهم ليس هو ضلال لأنفسهم فقط، ضلال لأنفسهم ولغيرهم، فيصبح عليهم وزرهم ووزر كل من اتبعهم فتضاعف العقوبات في الدنيا والآخرة.

۞ **قال المؤلف** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **وقوله تعالى**: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾ [المائدة: ٦٠].

هذه قبلها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [المائدة: ٥٨]، فإنهم كانوا يستهزئون بأهل الإيمان وبندائهم؛ يعني: الأذان ولهذا قال: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [المائدة: ٥٩].

جاء أنهم قالوا لما سئلوا: ما رأين أشر منكم أهل دين[1] يقولونه

(١) تفسير البغوي ـ ٣/ ٧٤ قال ابن عباس: أتى النبي ﷺ نفر من اليهود، أبو ياسر بن =

للمسلمين فقال الله جل وعلا لهم: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم﴾؛ يعني: أخبركم ﴿بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ﴾؛ يعني: بالشر الذي قلتموه فينا الذي اعتقدتموه فينا بهتاناً وكذباً، وهم يعلمون أنه ليس الأمر كذلك.

قوله: «﴿مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾»؛ يعني: ثواباً عند الله وجزاء عنده يوم ترجعون إلى الله.

قوله: «﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾»: اللعن كما عرفنا: أنه الطرد عن الخير كله، والإبعاد عنه، فإذا كان مطروداً عن الخير ومبعداً عنه، فلا رجاء فيه.

وقوله: «﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾»: والغضب أشد من اللعن، فاللعن من آثاره؛ يعني: من آثار الغضب، وهذا يدل على أنه غضب لا يرجى بعده رضى، وهذه صفة اليهود هم أهل الغضب؛ يعني: أن الغضب يكون لمن فعل المخالفة عالماً.

قوله: «﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ﴾»: جعل؛ يعني: صيَّر منهم قردة.

قوله: «﴿وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾»: المفسرون اختلفوا في هذه الكلمة ﴿وَعَبَدَ﴾ إعراباً ومعنى، والصواب أنها معطوفة على ما سبق، ولكن الفاعل فيها غير الفاعل في السابق؛ لأن الفاعل هنا الأولى يكون ظاهراً، أو يكون مضمراً ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ﴾ يعين الله هو الذي جعل منهم ﴿ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾، و﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾، أو وعبد الطاغوت؛ يعني: أن هؤلاء مغضوب عليهم فهم عباد الطاغوت، والطاغوت عبادته لا تقتصر على عبادة صنم، أو عبادة شخص بل عبادة الباطل واختيار الباطل على الحق مع العلم هذه هي عبادة الطاغوت فهي عامة، وهذا كثير في اليهود، وفي أتباعهم وأشباههم.

= أخطب ورافع بن أبي رافع وغيرهما، فسألوه عمن يؤمن به من الرسل، فقال: أومن ﴿بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ إلى قوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦]، فلما ذكر عيسى ﷺ جحدوا نبوته، وقالوا: والله ما نعلم أهل دين أقل حظاً في الدنيا والآخرة منكم، ولا ديناً شراً من دينكم، فأنزل الله هذه الآية: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ﴾.

والقردة والخنازير مسخ مسخوا فيه، كما أخبر الله جل وعلا عن أهل القرية الذين تحيلوا على الحرام بالحيلة التي ظاهرها موافقة للحق وفي الباطن مخالفة، ولهذا صارت العقوبة من جنس الفعل؛ لأن القردة في الظاهر أقرب شيء للإنسان، وفي الباطن مخالفاً له ليس إنساناً بل حيوان من الحيوانات فمسخوا، يقول بعض المفسرين: إن شبابهم صاروا قردة وشيوخهم صاروا خنازير(١)، والقصة معروفة مشهورة في التفسير وفي الآثار.

وقال ابن عباس: كانوا ثلاث أمم صاروا ثلاث طوائف، طائفة أنكرت وتبرأت وزايلت، وطائفة سكتت، وطائفة فعلت، ولكن المقصود أن هؤلاء يقال أنهم: أهل إيلات وهي على البحر.

والحيلة أن الله جل وعلا أمرهم بتعظيم السبت فابتلوا وصارت الحيتان إذا جاء يوم السبت جاءت إليهم حتى صارت على الشاطئ وتخرج خراطيمها إلى البر يشاهدونها فإذا انتهى يوم السبت ذهبت فلا يرون منها شيئاً فنصبوا لها الشبابيك والحفر والشصوص: يعني: الآلة التي يصيدون بها يوم السبت وتركوها حتى غربت الشمس، وذهب يوم السبت فأخذوها، فلما فعلوا ذلك انقسموا ثلاثة أقسام: قسم أنكروا عليهم أشد الإنكار وزايلوهم لما لم يمتثلوا خرجوا من بين أظهرهم، وقسم سكتوا: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾، فقال أولئك: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤]، فلم ينتهوا واستمروا على هذا، وفي ليلة من الليال جاء الصباح، فلم يخرج من أهل البلد أحد، والناس يشاهدون، فقالوا: هؤلاء لهم شأن فذهبوا إليهم فوجدوهم ممسوخين قردة وخنازير.

وهذا ظاهر جداً أن التحايل على الحرام أنه من أكبر الذنوب؛ لأن إتيان الحرام ظاهراً بدون حيلة قد يكون أخف والله لا يخفى عليه شيء جل وعلا.

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٧٥، ورُوي عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﵄: أن الممسوخين كلاهما من أصحاب السبت، فشبّانهم مسخوا قردة ومشايخهم مسخوا خنازير.

والمقصود: ليس ذكر القصة التي وقعت وذكر المسخ الذي حدث في اليهود والنصارى، ولكن المقصود نحن.

❁ **قال المؤلف** كَلَّهُ: **وقول الله تعالى:** ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا﴾ [الكهف: ٢١].

هذه في قصة أصحاب الكهف الذين هم شباب خرجوا من قومهم هاربين بدينهم فأووا إلى الكهف وألقى الله عليهم النوم فبقوا نيام مدة طويلة كما ذكر الله جل وعلا أنهم: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ﴿٢٥﴾﴾ [الكهف: ٢٥]، ثم بعثهم الله استيقظوا ليكون آية، وليكون دليلاً على قيام الساعة وإتيان البعث، فلما قاموا أحسوا بالجوع فسأل بعضهم بعضاً كم لبثتم؟ فقالوا: يوماً أو بعض يوم، فأرسلوا أحدهم بنقود معهم يأتيهم بطعام وأمروه بالتلطف وأن لا يشعر به أحد، ولكن الله أظهر أمرهم؛ لأن العملة التي جاءوا بها فُقدت لا وجود لها، الأمم تغيرت بعدهم تغير كل شيء، فلما أخرج النقود التي معه مسكوه قالوا: من أين جئت أنت لا بد أن عندك كنز فظهر أمرهم فجاء إليهم فلما جاءوا مع صاحبهم ألقي النوم عليهم مرة أخرى، فاختلفوا فيهم ماذا يصنعون معهم ذكر الله جل وعلا أن: الذين غلبوا على أمرهم قالوا لنتخذن عليهم مسجداً، يقول ابن جرير كَلَّهُ في التفسير: وقد اختلف في قائلي هذه المقالة، أهم الرهط المسلمون، أم هم الكفار؟[١]، وعلى كلا المقصود أن هذا الفعل مذموم سواءً وقع من المسلمين، أو من غيرهم، وهو اتخاذ المسجد على الأموات، أو على القبور؛ لأن هذا مآله إلى الشرك فإنه يجر صاحبه إلى الشرك.

المقصود بهذه الآيات وجه الدلالة منها هو ما يأتي في الحديث أننا لا

---

(١) تفسير الطبري ١٧/ ٦٤٠، ثم ذكر عن عبد الله بن عبيد بن عمير، قال: عمّى الله على الذين أعثرهم على أصحاب الكهف مكانهم، فلم يهتدوا، فقال المشركون: نبني عليهم بنياناً، فإنهم أبناء آبائنا، ونعبد الله فيها، وقال المسلمون: بل نحن أحق بهم، هم منا، نبني عليهم مسجداً نصلي فيه، ونعبد الله فيه.

بد أن نسلك مسالك أهل الكتاب الذين قبلنا فما وقع فيهم سيقع في هذه الأمة وتفضيل طريقة الكافرين على المؤمنين لا بد أن يقع فيه من يقع من هذه الأمة، وهو كفر وشرك بالله جل وعلا، وفيه الرد على الذين يقولون: إن الشرك لا يقع في هذه الأمة، وكذلك الرضى بالطاغوت وبالجبت ومسلك من يسلك عبادته لا بد أن يقع من هذه الأمة، وكذلك اللعن والغضب لا بد أن تفعل أسبابه من هذه الأمة فيلعن ويغضب عليه، وكذلك عبادة الطاغوت، كما في الآية الأولى، أما القردة والخنازير، فقد ثبت في صحيح البخاري أنه يكون في هذه الأمة مسخ، فعن أبي مالك الأشعري أنه: سمع النبي ﷺ يقول: **«ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحِرَ والحرير، والخمر، والمعازف، ولينزلن أقوام إلى جنب علم يروح عليهم بسارحة لهم يأتيهم - يعني: الفقير - لحاجة فيقولوا: ارجع إلينا غداً فيبيتهم الله، ويضع العلم ويمسخ آخرين قردة وخنازير إلى يوم القيامة»**[1]، ويكون فيها كذلك **«قذف ومسخ»**[2].

والمسخ أنهم يمسخون مثل ما مسخ اليهود، وهذا جاءت فيه نصوص متعددة، ولكن يكفنا الحديث الذي في الصحيح: **«يبيت قوم على عزفهم وعلى لهوهم فيصبحون ممسوخين»**[3]، وكذلك القذف معناه أن يرموا بالحجارة كما رمي قوم لوط، ومعلوم أن سُنَّة الله لا تختلف، فهذا هو وجه الاستدلال أن هذا وقع في الأمم السابقة، وأنه سيقع في هذه الأمة، وهو دليل على أن قول الذين يقولون: إن الشرك لا يقع في هذه الأمة باطل بالنصوص التي في كتاب الله جل وعلا والتي ذكرها.

ثم ذكر الحديث الذي يعين أن المراد بهذه النصوص التي تليت علينا في صفة اليهود نحن أما هم فلا ينتفعون بذلك في شيء، ولكن تحذيراً لنا حتى ما

---

(١) رواه البخاري رقم ٥٥٩٠.

(٢) أخرجه أحمد في المسند رقم ٦٥٢١ من حديث عبد الله بن عمرو، وابن ماجه رقم ٤٠٦٢، والترمذي رقم ٢١٥٣ و٢١٨٥ و٢٢١٢ من حديث عائشة وابن عمر وعمران بن حصين ﷺ.

(٣) أخرج الحاكم في المستدرك رقم ٨٥٧٢.

نسلك مسلكهم فنقع فيما وقعوا فيه فيُفعل بنا ما فعل بهم فقال:

۞ قال المؤلف كَلَلهُ: عن أبي سعيد ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «لتتبعنَّ سَنن من كان قبلكم حَذْوَ القُذَّةِ بالقذَّة[١]، حتى لو دخلوا جُحْر ضَبٍّ لدخلتموه»، قالوا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: «فمن» أخرجاه[٢].

قوله: «لتتبعن»: التاء المفتوح والنون المشددة التي هي للتأكيد.

وقوله: «سنن»: بالضم وبالفتح أيضاً من العلماء من رجح الفتح، ومنهم من رجح الضم يقول ابن التين في صحيح البخاري: قرأناه بالضم[٣]؛ يعني: أخذه عن مشايخه بالضم.

قوله: «من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه»: قلنا: اليهود والنصارى؟ قال: **«فمن»** أخرجاه.

يعني: في الصحيحين، ولكن اللفظ فيه اختلاف لفظ الصحيحين: **«لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه...» إلخ**، فيجوز أن يكون ذكر القذة في غير الصحيحين، وقد أخرجه الإمام أحمد بألفاظ مختلفة، منها هذا اللفظ في بعض روايته.

وقوله: «لتتبعن»: تأكيداً لسلوك بعض هذه الأمة مسلك اليهود النصارى.

وقوله: «سنن»: جمع سُنَّة، وإذا قلنا: «سَنَن»؛ يعني: طريقة من كان قبلكم.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم ١٧١٣٥، والطبراني في الكبير رقم ٧١٤٠ عن شداد بن أوس عن رسول الله ﷺ: **«ليحملن شرار هذه الأمة على سنن الذين خلوا من قبلهم أهل الكتاب حذو القذة بالقذة»**.

(٢) رواه البخاري رقم ٣٤٥٦، ومسلم رقم ٢٦٦٩ ولفظه عن أبي سعيد الخدري: عن النبي ﷺ قال: **«لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم»، قلنا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: «فمن»**.

(٣) فتح الباري لابن حجر ١٣/٣٠١ قال فيه: قوله: **«لتتبعن سنن»** بفتح السين للأكثر، وقال ابن التين: قرأناه بضمها، وقال المهلب: بالفتح أولى لأنه الذي يستعمل فيه الذراع والشبر وهو الطريق، قلت: وليس اللفظ الأخير ببعيد من ذلك.

وقوله: «حذو القذة بالقذة»: القذة يقولون: أنها ريشة السهم الذي هو النبل، تكون مشابهة للأخرى بل تكون مثلها تماماً بلا زيادة ولا نقص، ولهذا جاء في بعض روايات هذا الحديث: **«حذو النعل بالنعل»**(١)؛ يعني: النعل اليمين تشبه النعل اليسار، والعكس ما تختلف عنها.

المفهوم من هذا إنكم سوف تسيرون مسيرهم تماماً تتبعونهم وتفعلون كفعلهم بلا اختلاف. وقد جاء في بعض روايات هذا الحديث مبالغة في المتابعة يقول: **«حتى لو كان فيهم من يأتي أمة علانية لكن في هذه الأمة من يفعل ذلك»**(٢) يعني هذا المبالغة والتشنيع.

ومعنى ذلك: أن هذه الأمة ستسلك مسلك اليهود والنصارى في هديها، وفي كلامها، وفي أكلها وشربها، وفي لباسها، وفي مساكنها ومراكبها، وفي كل أمورها، ولكن ليس الأمة كلها بعض هذه الأمة، ومن ذلك عبادة القبور، وعبادة الصليب، وعبادة الطاغوت فهم وقعوا فيها، ولا يلزم أن هذه الأمة تقع في عبادة الصليب، ولكن يكفي أن تقع في عبادة غير الله.

والنصارى منهم من يقول: عيسى ابن الله، ومنهم من يقول: هو الله، فهل يقع في هذه الأمة؛ لأن خبر الرسول ﷺ يدل على هذا، فقد قالوا في الرسول ﷺ مثل ما قالت النصارى: إلا أنهم جاءوا بالمعنى فقط دون اللفظ، ولهذا يقول البوصيري:

دع ما ادعته النصارى في نبيهم ... واحكم بما شئت مدحاً فيه واحتكم(٣)

---

(١) رواه الترمذي رقم ٢٦٤١ عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: **«ليأتين على أمتي ما أتى على بني إسرائيل حذو النعل بالنعل حتى إن كان منهم من أتى أمه علانية لكان في أمتي من يصنع ذلك....»**.

(٢) رواه الترمذي رقم ٢٦٤١ عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: **«ليأتين على أمتي ما أتى على بني إسرائيل حذو النعل بالنعل حتى إن كان منهم من أتى أمه علانية لكان في أمتي من يصنع ذلك، وإن بني إسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين ملة وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة كلهم في النار إلا ملة واحدة، قالوا: ومن هي يا رسول الله؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي»**.

(٣) الرد على البكري ١/٤٢٨ وجاء فيها:

يعني: في كل شيء قل فيه فقط اترك ما قالت النصارى أنه ابن الله، أو أنه الله، ولهذا أعطاه ما لله جل وعلا قال:

فإن من جودك الدنيا وضرتها ... ومن علومك علم اللوح والقلم

وقال:

ولن يضيق رسول الله جاهك بي ... إذ الكريم تجلى باسم منتقم

يعني: عبادة للرسول ﷺ وغير ذلك يقول:

هـذه علـتي وأنـت طـبيبي ... ليس يخفى عليك في القلب داء[1]

أعطاه علم الغيب، وحتى علم القلوب، وأيضاً أعطاه أنه يشفي من الأسقام، ويغني من الفقر، وينصر من العدو وغير ذلك، هذه في الحقيقة التي رضي الشيطان منها، وهي تكفي؛ لأنها هي المقصود.

على هذا نقول: إن الرسول ﷺ أخبر خبراً عن الواقع فوقع كما أخبر ﷺ فصار هذا من دلائل نبوته؛ لأنه وقع كما أخبر صلوات الله وسلامه عليه قبل أن تقع.

وقوله: «حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه»: الضب معروف فلماذا اختاره الرسول ﷺ مع أنه غير موجود في الحجاز، وهو من حيوانات نجد ومع ذلك مثَّل به الرسول ﷺ؟ وقد جيئ إليه بضب هدية، فلم يأكل منه، وقال: فالضب أختص من بين الحيوانات التي تحفر الجحور بأن جحره أشد الجحور وأصعبها دخولاً؛ لأنه إذا حفر لا يحفر سامتاً بل يحفر بالتواء متجهاً إلى التحت حتى أنه لا يستطيع الداخل أن يدخل عليه هذا مقصوده لأجل ذلك مثل به رسول الله ﷺ يقول: لو قدر أنهم يسلكون هذا المسلك الصعب الذي ما يسلك إلا بكل كلفة لكان في هذه الأمة من يسلك ذلك خلفهم، هذه مبالغة

= فإن فضل رسول الله ليس له ... حد فيعرب عنه ناطق بفم
وانسب إلى ذاته ما شئت من شرف ... وانسب إلى قدره ما شئت من عظم
لو ناسبت قدره آياته عظما ... أحيا اسمه حين يدعى دارس الرمم

(١) البردة والهمزية للبوصيري.

في اتباع اليهود والنصارى، وكذلك المجوس؛ لأنه جاء في رواية إدخالهم معهم في مسالكهم كلها.

والمتأمل إذا سبر حال المسلمين الآن يجد أن كثيراً منهم لا يختلف عن اليهود والنصارى.

قوله: «قالوا: اليهود والنصارى يا رسول الله؟»؛ يعني: تعني اليهود والنصارى؛ لأنه قال: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم**» احتاجوا إلى الاستفهام، هل هم الذين قبلنا اليهود والنصارى؟.

قال: «فمن»؛ يعني: من المتحدث عنهم إلا اليهود والنصارى؛ يعني: هم الذين قصدت.

وبهذا يتبين أن الاستدلال بهذه الآيات واضح للترجمة؛ لأن الآيات في اليهود وكذلك في الذين بنوا المساجد على القبور سواءً كانوا من اليهود، أو من النصارى، وسواءً كانوا من المسلمين أو من الكافرين المشركين فهي طريقة مذمومة، ومن سلكها يكون سالكاً طريقهم المذموم الذي ذموا عليه.

۞ قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ: ولمسلم عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة، وأن لا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال: يا محمد إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة بعامة وأن لا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم مَن بأقطارها ـ أو قال: من بين أقطارها ـ حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً»[1].

(١) رواه مسلم رقم ٢٨٨٩.

ورواه البرقاني في صحيحه وزاد: «وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين، ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين، وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان، وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة. وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي. ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى»[1].

قوله: «عن ثوبان ﷺ»: ثوبان هو مولى رسول ﷺ.

قوله: «أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله زوي لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها. وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض. وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة، وأن لا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال: يا محمد إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة، وأن لا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبي بعضهم بعض»»: إلى هنا لفظ مسلم، وهذا ليس فيه شاهد للترجمة ولكن البقية.

«رواه البرقاني في «صحيحه»»: صحيح البرقاني هو كمستدرك الحاكم جمع الأحاديث التي على شرط البخاري ومسلم، وهو أفضل من المستدرك، وهو من شيوخ الخطيب، وقد أثنى عليه كثيراً قال: إنه من علماء هذا الشأن.

وزاد: «وإنما أخاف على أمتي»؛ يعني: في رواية مسلم: **«الأئمة المضلين، وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة. ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين** ـ هذا هو الشاهد ـ **وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان، وإنه سيكون من أمتي كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي. ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى»**.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم ٢٢٣٩٥، وأبو داود رقم ٤٢٥٢.

قوله ﷺ: «إن الله زوى لي الأرض»: زوي الشيء هو جمعه؛ يعني: أن الأرض جمعت لي حتى رأيت أقصاها مثل ما أرى أدناها، وهذا الجمع قد يكون حقيقة وقد يكون تمثيلاً، ولكنه حق رآها وشاهدها، ثم ذكر المشارق والمغارب فقط، ولم يذكر الجنوب والشمال، ولهذا لم يمتد ملك أمته جنوباً، ولا شمالاً، وإنما ذهب شرقاً وغرباً فذهب غرب إلى المحيط الهادي والأندلس والمغرب، وأما الشرق فوصل ملك أمته إلى حدود الصين فهذه مشارقها ومغاربها.

قوله: «وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها»؛ يعني: الذي شاهده منها ستملكه أمته، وقد وقع هذا ولكن فيما بعد صارت تمزق الأملاك وصارت يتوازعها الكفار وغيرهم كما هو الواقع الآن.

قوله: «وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض»: «أل»: هنا لتعريف كأنه شيء معروف، الأحمر عبارة عن الذهب، والأبيض عبارة عن الفضة والجواهر.

ويقول العلماء: إن الأحمر هو كنز الروم؛ لأن الغالب عندهم الذهب، وأما الأبيض فهو كنز الفرس؛ لأن الغالب عندهم الفضة والجواهر.

وقوله: **«أعطيت الكنزين»**: معلوم أن هذا وقع بعد وفاته ﷺ لمدة ولكن ليست طويلة؛ لأن هذا وقع في خلافة عمر رضي الله عنه أنه جيء بكنوز كسرى، وكذلك قيصر إلى المدينة وأنفقت في سبيل الله حتى جيء بالتاج الذي كان يلبسه كسرى، وهو تاج يكون على مجلسه لا يحمله رأسه من ثقله، ولهذا يجعلون له حبلاً فوقه يمسكونه بشيء حتى لا يثقل رأسه، وهو في مجلسه[1]، وهو مكلل بالجواهر التي أقيامها غالية جداً، مع ذلك جيء وألبس سراقة بن مالك أعرابي من أعراب المسلمين لما جيء به قال عمر: انظروا أطول رجل فنظروا فإذا سراقة فدعا به فألبسه أياه، ثم قال: الحمد لله الذي سلب هذا

---

(١) البداية والنهاية ٧/ ٧٧: «فكان إذا جلس على كرسي مملكته ودخل تحت تاجه، وتاجه معلق بسلاسل الذهب؛ لأنه كان لا يستطيع أن يقله على رأسه لثقله، بل كان يجيء فيجلس تحته ثم يدخل رأسه تحت التاج والسلاسل الذهب تحمله عنه».

كسرى وألبسه أعرابياً من أعراب المسلمين[١]. وهذا أيضاً تصديق لقوله ﷺ في حديث الهجرة، وفيه أن رسول الله ﷺ قال لسراقة بن مالك: **«كيف بك إذا لبست سواري كسرى»**؟ قال: فلما أتى عمر بسواري كسرى ومنطقته وتاجه دعا سراقة بن مالك فألبسه إياهما، وكان سراقة رجلاً أزب كثير شعر الساعدين وقال له: ارفع يديك فقال: الله أكبر الحمد لله الذي سلبهما كسرى ابن هرمز الذي كان يقول: أنا رب الناس وألبسهما سراقة بن مالك بن جعشم أعرابي رجل من بني مدلج ورفع بها عمر صوته[٢]. في هذا الوقت الذي كان فيه الرسول ﷺ يتابع، ويطارد حتى يريدون قتله، يخبره بأنه سيلبس تاج كسرى، فوقع بعد وفاته ﷺ كما هو معروف.

والمقصود: أن إعطائه الكنزين هو أعطى أمته، أعطيت أمته هذه الكنوز فأنفقت، وجاء في رواية، عن أبي هريرة ﷺ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفس محمد بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله»**[٣]، فأنفقت في سبيل الله والحمد لله.

قوله: «وإني سألت ربي لأمتي»: هذا الذي ذكر سؤالين، وقد جاء في صحيح مسلم أنها ثلاثة أسئلة، وأعطى اثنين ومنع الثالث.

قوله: «أن لا يهلكها بسنة بعامة»: بسنة المقصود بها الجدب، الذي

---

(١) سنن البيهقي رقم ١٣٤١٧ عن الحسن: أن عمر بن الخطاب ﷺ أتي بفروة كسرى فوضعت بين يديه وفي القوم سراقة بن مالك بن جعشم قال: فألقى إليه سواري كسرى بن هرمز فجعلهما في يده فبلغا منكبيه، فلما رآهما في يدي سراقة قال: الحمد لله سواري كسرى بن هرمز في يد سراقة بن مالك بن جعشم أعرابي من بني مدلج، ثم قال: اللهم إني قد علمت أن رسولك ﷺ كان يحب أن يصيب مالاً فينفقه في سبيلك وعلى عبادك وزويت ذلك عنه نظراً منك له وخياراً، اللهم إني قد علمت أن أبا بكر ﷺ كان يحب أن يصيب مالاً فينفقه في سبيلك وعلى عبادك فزويت ذلك عنه نظراً منك له وخياراً، اللهم إني أعوذ بك أن يكون هذا مكراً منك بعمر ثم قال: بلى ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ۝٥٦﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦].

(٢) الإصابة لابن حجر ٣/ ٤١، والاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر ١/ ١٧٤.

(٣) رواه البخاري رقم ٣١٢٠، ومسلم رقم ٢٩١٨.

يكون بمنع القطر، فيصبح يهلك الماشية كلها فتهلك الأمة بسبب هلاكها، وهلاك زرعها وضرعها فأعطاه الله جل وعلا أن لا يهلكهم بسنة بعامة. والمعنى أنه لا يهلكهم بعذاب يعمّهم، ليس المقصود بالجدب فقط أنه لا يهلك هذه الأمة بعذاب يعمّهم كهلاك الأمم السابقة كعاد وثمود وقوم شعيب كذلك قوم لوط وغيرهم، هذا وعد من الله جل وعلا.

والباء في قوله: «**بعامة**» زائدة؛ لأنها وصف لسنة.

والمقصود بالسنة: المحل الذي يكون متتابعاً على الأمة فيهلك حرثها ومواشيها وأموالها كما أخبر الله جل وعلا أنه جعل ذلك عذاباً لآل فرعون بالسنين وهو الجدب[1]، وقد دعا الرسول ﷺ على مضر وقريش قال: «**اللهم اشدد وطأتك على مضر وابعث عليهم سنين كسني يوسف**»[2]، وسني يوسف قبل فرعون الذي أرسل إليه موسى ﷺ غير الذي كان في وقت يوسف ﷺ، وفرعون اسم لكل من ملك مصر كافراً، كما أن كسرى اسم لكل من ملك الفرس كافراً، وقيصر اسم لمن يملك الروم كافراً، والنجاشي اسم لمن يملك الحبشة، فهو لا يطلق على شخص بعينه بل هو اسم جنس كل من ملكهم أطلق عليه هذا الاسم.

الثاني: «**أن لا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم**»: من غيرهم؛ يعني: من غير دينهم من الكفار، هاتان مسألتان أعطيهما رسول ﷺ:

الأول: أن الله لا يهلك الأمة بعمومها بمحل يعمهم جميعاً، ولا ينافي

---

(١) قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٠] يقول الطبري في تفسيره ١٣/ ٤٥ «بالسنين»، يقول: بالجُدوب سنة بعد سنة، والقحوط. وقال ابن كثير في تفسيره ٣/ ٤٦٠: ﴿بِٱلسِّنِينَ﴾ وهي سِنِي الجوع بسبب قلة الزروع.

(٢) رواه البخاري رقم ٦٩٤٠، ومسلم رقم ٦٧٥ عن أبي هريرة: أن النبي ﷺ كان يدعو في الصلاة: «اللهم أنج عياش بن أبي ربيعة وسلمة بن هشام والوليد بن الوليد، اللهم أنج المستضعفين من المؤمنين، اللهم اشدد وطأتك على مضر وابعث عليهم سنين كسني يوسف».

أن يصيب جهة من جهاتها أمحال وأجداب فيه عقاب ولكن لا يعمهم ذلك، وهذا مثل ما كان يصيب الأمم السابقة التي تكذب رسلهم فإنها تصاب بعذاب عام يهلكهم عن آخرهم، مثل ما قص الله علينا قصص الأمم مثل ثمود وعاد وقوم لوط فلا يبقى منهم أحد. فهذه أمنة لهذه الأمة أنهم لا يصابون بالعذاب العام الذي يأخذهم عموماً.

والثانية: أنه لا يسلط عليهم كافراً **«يستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بأقطارها»** أهل الأرض كلهم.

والبيضة اختلف فيها ما هي؟ فقيل البيضة هي حوزتهم وما يملكونه من الأموال والبلاد، وقيل البيضة وسط الشيء وقلبه وما يرجع إليه أطرافه وجوانبه وهذا هو الأقرب.

فيكون مثلاً: أئمتهم، وقادتهم، وعلمائهم، وما يملكونه أصلاً لهم ومنتجاتهم لهم، هذا هو المقصود أنه لا يُستباح، ولو اجتمع عليهم أهل الأرض كلهم لذلك، ولكن هذا مغيّاً بغاية ومشروط بشرط، وهو أن لا يقاتل بعضهم بعضاً، وأن لا يحصل بينهم الخلاف الذي يؤول إلى الاقتتال، فإذا وجد ذلك فإنه يجوز أن يسلط عليهم من يسلبهم بلادهم وملكهم وأنفسهم، وهذا دل عليه الواقع، فمثلاً بلاد الأندلس كانت من أعظم بلاد المسلمين حضارة وعلماً واقتصاداً ونظاماً، وكانت يسمونها جنة الدنيا، فلما تسلط بعضهم على بعض، وصارت دويلات كل دولة صارت تغير على الأخرى سلط عليهم الإفرنج فأخذوا جميع ما يملكون، وقتلوهم وأخذوا نساءهم، وأطفالهم وأدخلوهم في دينهم وصاروا يبحثون عمن بقي على الملة الإسلامية إما يقتلوه، وإما يفتنوه عن دينه، فمحي الإسلام من هذه البلاد نهائياً لم يبق فيه إلا الآثار من القصور والمباني التي لا تزال، وكذلك في أصل بلاد المسلمين في البلاد التي كان فيها الخليفة لما حصلت الخلافات بينهم وصار كل قائد من قواد الدولة يقتطع جزء من البلاد، ويكون هو أمير عليها سلط عليهم العدو، وهم التتار فجاءوا فسلبوا بلادهم، وقتلوا الخليفة، وقتلوا العلماء وأفسدوا وعاثوا في بلادهم بأمور يقول المؤرخون: إنه ما سبق في الدنيا مثلها

حتى أنهم ذكروا أشياء عجيبة جداً يقول ابن الأثير: بقيت سنين متردداً هل أكتب هذه الواقعة، أو لا أستطيع كتابتها، كيف أكتب إزالة الدولة الإسلامية بما فيها من خليفة ومن علماء، ومن علم فكتب ذلك، وهو يقول: كتابة تفطر الأكباد وتذيب القلوب، ولكن هكذا وقع، حتى أنه قتل في بغداد وحدها ثلاثة ملايين من المسلمين، والكتب التي كتبها العلماء من القرن الثاني إلى ذلك الوقت رميت في دجلة وجعلت جسراً تمشي عليه الخيل حتى أنهم يقولون: إنه تغير ماء دجلة من الحبر؛ يعني: فساد إلى حد ما سبق؛ لأن هؤلاء همج لا يعرفون لا علم، ولا يعرفون حضارة.

والمقصود أن هذا بسبب الخلاف، فهذا دل عليه هذا الحديث: «**حتى يكون بعضهم يقتل بعضاً وبعضهم يسبي بعضاً**»، فحتى هنا للغاية إذا وجد هذا فإنه يسلط عليهم العدو، وهذه الأمور يجب أن تكون دروس للأمة تعتبر بها وتفكر فيها، وتتحاشاها أن تقع مرة ثانية، ولا خير فيمن لا يتعظ بمن سبق.

وقوله: «وإن ربي قال يا محمد: إذ قضيت قضاء فإنه لا يرد»: القضاء والقدر سواء، وقد قيل: إن القضاء هو ما فرغ منه، والقدر أعم من هذا القضاء هو الأمر المبرم، ولكن شراح الحديث بعضهم قسم القضاء إلى أمرين:

قال منه قضاء مبرم وهذا القضاء المبرم هو الذي لا يتغير، ولا يتبدل، ولا ينسخ.

وقضاء معلق بأسباب وشروط إذا وجدت تم ذلك، وإذا لم توجد لم يتم، واستدلوا على هذا بهذا الحديث بقوله: «**حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً**»، فقالوا هذا شيء مقيد، وأنه إذا وجد جاء هذا القضاء وإذا لم يوجد لم يأت، وهذا فيه نظر وإن قاله من قاله من أهل السُّنَّة، وذلك أن الله علام الغيوب ولا يخفى عليه شيء يعلم الذي يقع ما هو والذي لا يقع، أما التعليقات والأسباب فهي من القضاء الذي يقضيه، فالقضاء شيء واحد ليس فيه شيء مبرم وشيء معلق بأنه قد يقع أو لا يقع، فيكون هذا شبه الشيء الذي لا يدري هل هو يقع، أو لا يقع، وإن كانوا يقولون: إن الله يعلم الذي يقع

نقول: إن الأحاديث والمعاني، معاني الأحاديث تدل على خلاف هذا وأن قضاء الله شيء واحد، ولهذا جاء في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص في صحيح مسلم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ـ قال ـ وعرشه على الماء**»[١]. هذا شيء عام، حتى ذكر العلماء فيه حتى نبض العروق والاختلاج الذي يصيب البدن من حركة أو غيرها، مسجل في ذلك الوقت مكتوب.

أما ما جاء: «**لا يرد القضاء إلا الدعاء ولا يزيد العمر إلا البر**»[٢]، فهذا لا يدل على أن القضاء يكون معلقاً؛ لأن الدعاء من القضاء الذي أبرم، وكذلك الصلة من القضاء الذي أبرم، فقد علم الله جل وعلا أن هذا يدعو فلا يُصاب بالعذاب الذي يكون بسبب تخلف الدعاء فمكتوب ذلك شيء واحد، وكذلك علم هذا أنه يصل رحمه، وتكون صلة رحمه سبباً في زيادة عمره، وليس معناه أنه كتب له عمران عمر إن وصل كان عمره كذا، وإن قطع كان عمره كذا، بل المكتوب شيء واحد، ولكن كل شيء جعل الله له سبباً والأسباب مكتوبة في الأزل.

أما قوله جل وعلا: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر: ١١]، فالضمير في «لا ينقص» لا يعود إلى المعمر، وإنما يعود إلى آخر، فهو كقولك: عندي دينار ونصفه. الضمير في نصفه ليس عائداً إلى الدينار، فهذا نقص عمر آخر مكتوب أنه ناقص في الأزل[٣].

---

(١) رواه مسلم رقم ٦٩١٩.

(٢) رواه الترمذي رقم ٢١٣٩ وهو عند أحمد في المسند رقم ٢٢٤٣٨ عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه ولا يرد القدر إلا الدعاء ولا يزيد في العمر إلا البر**» وأخرجه الطبراني في الكبير رقم ١٤٤٢.

(٣) قال ابن كثير ﷺ: ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ الضمير عائد على الجنس، لا على العين؛ لأن العين الطويل للعمر في الكتاب وفي علم الله لا ينقص من عمره، وإنما عاد الضمير على الجنس. قال ابن جرير: وهذا كقولهم: «عندي ثوب ونصفه» أي: ونصف آخر. تفسير ابن كثير ٥٣٨/٦. وقال البغوي في تفسيره ٤١٦/٦: =

وكذلك قول الله جل وعلا: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [الرعد: ٣٩]، فإن هذا المحو اختلف فيه ما هو؟ جاء عن ابن عباس: أن الذي يمحى ما في صحيفة الملك الذي يكتبها، فإذا أمسى محي الشيء الذي لا عقاب فيه، ولا ثواب مثل: أعطني الكتاب، أعطني القلم وما أشبه ذلك، وأثبت الشيء الذي فيه العقاب، أو الثواب، **هذا قول**[(١)].

القول الثاني: وهو الذي رجحه شارح الطحاوية ابن أبي العز أن المحو في الشرائع في النسخ يمحو الله ما يشاء مما يشرعه، ويثبت ما يشاء قال: هذا هو الراجح[(٢)].

أما أن يكون الشيء الذي كتب في اللوح المحفوظ يمحى، فالذي كتب لا يتغير، ولهذا قال جل وعلا هنا: «**قال: يا محمد إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد**»، نقول هذا عام كل قضاء يقضيه ربنا جل وعلا، فإنه لا يرد، ولكن قد يرد على هذا سؤال، وهو سؤال قديم وصار فيه شبهة، وهو إذا كان كل شيء مفروغ منه فما فائدة الدعاء؟

نقول أولاً: الدعاء سبب من الأسباب، والداعي لا يدري ما الذي كُتب، وهو مأمور بالدعاء.

ثانياً: الدعاء عبادة لله جل وعلا، وهو مثاب على الدعاء على كل حال، سواء أُجيب في دعائه، أو لم يجب.

ولهذا جاء عن علي ﷺ قال: كان النبي ﷺ في جنازة فأخذ شيئاً فجعل ينكت به الأرض فقال: «**ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة**»، قالوا: يا رسول الله، أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ قال: «**اعملوا فكل ميسَّر لما خُلق له، أما من كان من أهل السعادة فييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاء فييسر لعمل أهل الشقاوة، ثم قرأ:**

= ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ لا يطول عمره، ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ يعني: من عمر آخر، كما يقال لفلان: عندي درهم ونصفه، أي: نصف درهم آخر، ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾.

(١) تفسير ابن كثير ٧/ ٣٩٩.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ١/ ١٤٢.

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦﴾ [الليل: ٥، ٦]»[1]، فالشيء الذي قضى سييسر له أسباب منها: الدعاء سواءً في الدعاء على الكفار، أو غيرهم فالله سوف ييسر الدعاء، ويثيب عليه.

فكل شيء بتدبير الله جل وعلا لا يمكن أن يقع شيء على خلاف إرادته أبداً، ولهذا سوف يأتينا النهي تعليق الدعاء بالمشيئة، أو ما أشبه ذلك: **«فإن الله لا مكره له»**[2] لا أحد يكره الله على شيء أبداً لا دعاء، ولا غيره الذي يريده سيقع فيكون الإنسان متصوراً بأنه عبد مدبر، وأنه مأمور بالدعاء فيقبل عليه بكل ما يحتاج إليه، وهو يثاب عليه وقد يعطى دعوته والله أمر بدعائه ووعد على ذلك الإجابة، والخلق كلهم لا يدرون ماذا كتب، فلهذا يجتهدوا وكل شيء مما سيقع له أسباب سييسرها الله جل وعلا ويهيؤها ويقع بها.

فقوله: «وإن ربي قال: يا محمد إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد»: هذا حديث قدسي، وقد كثرت الأحاديث القدسية وألف فيها الناس مؤلفات، ولكن ينبغي التفرقة بين الحديث القدسي، والحديث النبوي من الفروق المشهورة أنهم يقولون الحديث القدسي: ما كان لفظه ومعناه من الله، ولكن الرسول عبر عنه بلفظه وبكلامه. أما الحديث النبوي ما كان معناه من الله، ولفظه من الرسول ﷺ.

والصواب: أن الحديث القدسي ما كان لفظه ومعناه من الله، وهذا هو الظاهر وهو اختيار البخاري رحمه الله، كما هو ظاهر من صنيعه في الصحيح وغير البخاري. يبقى أن نعرف الفرق بين الحديث القدسي وبين كلام الله الذي هو القرآن، الفروق بينهما كثيرة:

---

(١) رواه البخاري رقم ٤٩٤٩، ومسلم رقم ٢٦٤٧.

(٢) رواه البخاري رقم ٦٣٣٩، ومسلم رقم ٢٦٧٩ عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: **«لا يقولن أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، ليعزم المسألة فإنه لا مكره له»**.

أولاً: القرآن تحدي بلفظه فهو معجز.

ثانياً: القرآن متعبداً بتلاوته، فلكل قارئ بحرف حسنة، والحسنة بعشر أمثالها.

ثالثاً: لا يجوز للجنب أن يقرأه وكذلك الحائض.

رابعاً: المصحف يجب أن يحترم ويعظم؛ لأن فيه كلام الله، ولا يمسه إلا طاهر، وغير ذلك من الفروق التي ذكرها العلماء.

وقوله: «وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة بعامة»: في صحيح مسلم: «سنة عامة» في الموضع الثاني ليس فيها الباء.

«وأن لا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بأقطارها»؛ يعني: من سواهم من الكفار **«بأقطارها»** جوانبها.

«حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً»: هذه هي الغاية التي غُيِّت بها، والشرط الذي قيد به هذا العطاء في هذه المسألة، وهو عدم تسليط الكفار عليهم بشرط أن لا يكون بعضهم يسبي بعضاً، أو بعضهم يقتل بعضاً، فإذا وجد ذلك فإنه يجوز أن يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم، ولذا قال: **«حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً، ويسبي بعضهم بعضاً»**، وقد وقع هذا في الشرق والغرب.

ثم يقول: «ورواه البرقاني»: البرقاني هو أحمد بن محمد بن أحمد الخوارزمي من مشائخ الخطيب البغدادي، ولد سنة ٣٣٦هـ، وتوفي سنة ٤٢٥هـ، وصحيحه هذا جمع فيه ما في الصحيحين من الأحاديث وزاد عليها الأحاديث التي على شرطهما فهو ليس على طريقة الحاكم، ولا على طريقة المقدسي صاحب المختارة؛ لأنه جمع أحاديث الصحيحين وزاد فيها ما هو نظيرها.

وقد أثنى عليه الخطيب البغدادي كثيراً قال: وكان ثقة ورعاً، متقناً ثبتاً فهماً، لم ير في شيوخنا أثبت منه، حافظاً للقرآن، عارفاً بالفقه، له حظ من

علم العربية، كثير الحديث حسن الفهم له، والبصيرة فيه[1].

فهو زاد في رواية هذا الحديث: «**إنما أخاف..**»، وهذه الزيادة قد رواها أبو داود في سننه.

قوله: «إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين»: يقول العلماء الأئمة الذين يخاف على الأمة منهم الرسول ﷺ هم قادة الناس، وهم العلماء والعباد والأمراء؛ لأن هؤلاء الذين يُقتدى بهم، وهم الذين إذا صاروا على شيء معظم الناس يتبعهم يكون معهم كما قيل: «**الناس على دين ملوكهم**»، وذلك أن أكثر الناس ليس عنده تمييز ومعرفة للحق على ما هو عليه فينظر ماذا يصنع العظماء والكبراء فيتبعهم تقليداً، فأعظم من يضل العلماء وكذلك العباد فإذا ضلت هاتان الطائفتان ضل الناس كلهم تبعاً لهم؛ لأنهم يرون أنهم هم أهل الحق وهم الذين يعرفون الكتاب والسُّنَّة، وهم الذين يميزون بين الصواب والخطأ فيسلكون طرقهم يسيرون معهم، وهؤلاء هم الذين خافهم رسول ﷺ على أمته.

وكذلك المنفذون للأوامر قد يكون مثلاً العلماء يأمرون القادة فينفذون، وقد يكون الأمر بالاتفاق يسيرون على نهج واحد، وقد يكون بالعكس فالأمور تختلف باختلاف الأحوال والزمان.

قوله: «وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة»: هذا خبر؛ يعني: الرسول ﷺ يخبر عن واقعة وقعت؛ يعني: إذا وقع السيف بأيديهم وبفعلهم، فإنه يبقى إلى قيام الساعة.

والسيف وقع بقتل خليفة المسلمين عثمان ﷺ، فلم يزل بالأمة إلى الآن، ولكنه في وقت من الأوقات يكثر ويزيد، وفي جهة من الجهات يكثر، ويزيد، ويقل، وإلا سيستمر إلى يوم القيامة. هذا خلاف ما يقوله أصحاب المقالات مثل: الشهرستاني في كتابه الملل والنحل، وهو مشهور جداً، وكثير

---

(١) علل الدارقطني ١/ ٢٧، قال ابن كثير في البداية والنهاية ١٢/ ٤٥: «كان عالماً بالقرآن والحديث والفقه والنحو، وله مصنفات في الحديث حسنة نافعة».

ما ينقل العلماء منه ويكون هو مرجعاً لهم، وقد وقع في أخطاء فظيعة في هذا كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: أنه جارى الرافضة في ذلك[١]؛ لأنه ألف هذا الكتاب لأحد ملوك بني بويه الرافضة التي اختزلت جزءًا كبيراً من الدولة الإسلامية، وهذه الدولة هي سبب وجود الرفض في إيران؛ لأنهم أرغموا الناس على اعتناق المذهب، بل وهي السبب في وجود النخاولة في المدينة، هم الذين جاءوا بهم ووضعوهم في المدينة فصارت بذرة سيئة إلى الآن.

فهو ألف هذا الكتاب لأحد ملوكهم، ولهذا لما ذكر سبب سل السيف يقول: أسباب سل السيف في هذه الأمة هو الخلاف في الخليفة ويقول: وأول سيف وأعظم سيف سل في الخلافة في طلب الخلافة[٢]، وهذا كذب ليس صحيحاً، ولم يسل سيف في طلب الخلافة، ما أحد سل سيفه حتى يكون أبي بكر هو الخليفة، بل الصحابة كلهم اتفقوا على أن أبا بكر هو الذي له الأحقية، وهو الذي يجب أن يكون هو الخليفة، وهذا هو الذي أشار إليه الرسول ﷺ، كما في الصحيحين عن ابن عباس ﭫ قال: لما حضر رسول الله ﷺ وفي البيت رجال، فقال النبي ﷺ: «**هلموا أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده**»، فقال بعضهم: إن رسول الله ﷺ قد غلبه الوجع، وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله، فاختلف أهل البيت واختصموا، فمنهم من يقول: قربوا يكتب لكم كتاباً لا تضلون بعده، ومنهم من يقول غير ذلك، فلما أكثروا اللغط

---

(١) منهاج السُّنَّة النبوية ٦/ ٣٠٥، ٣٠٦، ٣٠٧، قال رحمه الله تعالى: وبالجملة فالشهرستاني يظهر الميل إلى الشيعة إما بباطنه وإما مداهنة لهم، فإن هذا الكتاب كتاب الملل والنحل صنفه لرئيس من رؤسائهم وكانت له ولاية ديوانية، وكان للشهرستاني مقصود في استعطافه له، وكذلك صنف له كتاب المصارعة بينه وبين ابن سينا لميله إلى التشيع والفلسفة، وأحسن أحواله أن يكون من الشيعة إن لم يكن من الإسماعيلية أعني المصنف له، ولهذا تحامل فيه للشيعة تحاملاً بيناً منه وإذا كان في غير ذلك من كتبه يبطل مذهب الإمامية فهذا يدل على المداهنة لهم في هذا الكتاب لأجل من صنفه له.

(٢) الملل والنحل ١/ ٢٠ قال: لخلاف الخامس: في الإمامة وأعظم خلاف بين الأمة خلاف الإمامة، إذ ما سُلَّ سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سُلَّ على الإمامة في كل زمان.

والاختلاف قال رسول الله ﷺ: «قوموا». قال عبيد الله: فكان ابن عباس يقول: إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب لاختلافهم ولغطهم[١]. هذا الكتاب الذي أراد أن يكتبه جاء مفسراً في رواية أخرى أنه قال لعائشة في مرضه: «**ادعي لي أبا بكر، وأخاك حتى أكتب كتاباً فإني أخاف أن يتمنى متمن، ويقول قائل: أنا أولى، ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر**»[٢]، فعدل عن ذلك، وهذا مرات يهم به ثم يعدل عنه، فرأى أن تركهم بلا كتابة أحسن حتى يجتمعوا وينظروا في رأيهم، ويتفقوا على ذلك.

وهذا هو الذي يتخذه الرافضة حجة لهم بأنه أراد أن يكتب لعلي بالخلافة، ولكن عمر وإخوانه حالوا بينه وبين كتابة الرسول ﷺ، ولو أراد أن يكتب شيئاً، فلا يمكن أحد أن يحول بينه وبينه، لا عمر ولا غيره، كيف يحول بينه وبين ما يريد، والصحابة كلهم يتسابقون لطاعته في ذلك.

والمقصود أن الشهرستاني ذكر عدداً كبيراً مما سل به السيف وسبب الخلاف كله غير صحيح مثل ما وقع في السقيفة، وما وقع في موته ﷺ، فهو يقول أول خلاف وقع في موته فاختلفوا هل مات أو لم يمت، ثم الخلاف الثاني في تغسيله نغسله في ثيابه، أو نجرده، ثم الثالث في الصلاة عليه، ثم الرابع في دفنه، ثم صار يذكر هذه الأشياء التي في الواقع ليست خلافاً[٣]، وإنما الخلاف الذي صار له أثر، وصار بسببه سل السيف، ووقوع السيف بالأمة هو قتل الخليفة أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه، وقد عرف السبب أنه بسبب الدُخلاء الذين دخلوا في الإسلام وأرادوا الفتك به، فوقع السيف بهذا بقتله فاستمر، ولكنه استمر في ذلك الوقت اقتتال أمتان عظيمتان من المسلمين كما أخبر الرسول ﷺ بذلك، ثم عطل الجهاد بسبب هذا القتال في خلافة عليّ رضي الله عنه كلها أربع سنوات، فطمع العدو في بلاد المسلمين فصاروا يأخذون من

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) رواه مسلم رقم ٢٣٨٧.
(٣) الملل والنحل للشهرستاني ١/ ٢٠.

أطرافها؛ لأن القتال استمر فيهم وصار القتل فيما بينهم، بين أهل الشام، وأهل العراق إلى أن تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية، فهذا يصدق ما أخبر به الرسول ﷺ بقوله: «**ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين**»[١]، فكان الحسن كثيراً ما يعيب على والده القتال وينهه عن ذلك من الأصل، فلما صار الأمر إليه تنازل لمعاوية وسُمِّي ذلك العام بعام الجماعة، لأنهم اجتمعوا على ذلك، ولكن لم يرفع السيف بقي، فصار القتل أحياناً في باطل وأحياناً في حق.

قوله: «ولا تقوم الساعة حتى يلحق حَيٌّ من أمتي بالمشركين»: يلحق؛ يعني: يصير معهم بالارتداد واعتناق مذاهبهم. «حَيٌّ»، والحي واحد الأحياء وهي القبيلة، أو الجماعة من القبيلة.

قوله: «من أمتي»؛ يعني: المستجيبين لي الذين استجابوا، وهذا هو محل الشاهد من الحديث؛ يعني: أنه يقع الشرك في أحياء في هذه الأمة، ويدل على هذا ما ثبت في الصحيحين من أحاديث كثيرة كما في حديث أبي هريرة ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس على ذي الخلصة**»، وذو الخلصة طاغية دوس التي كانوا يعبدون في الجاهلية[٢]. وقد وقع هذا في الزمان المتأخر قبل ما يقرب من مائة سنة فقط، صاروا يطوفون عليه، وصاروا يعبدونه في ذلك الوقت حتى صارت المرأة إذا أرادت أن تصلح لبنها تذهب عنده حتى تكبر الزبدة ويحسن اللبن. وهذا معروف عندهم حتى قيض الله من هدمه وأزاله، وربما يُبعث مرة أخرى، وذكر بعض المؤرخين أن أهل الطائف لما كانوا يعبدون ابن عباس هذا أمر اشتهر فهم افتتنوا به فتنة عظيمة يعبدون قبره يقول: إن هذا القبر الذي كانوا يزعمون أنه لابن عباس ليس قبر ابن عباس، بل هو اللات التي هدمها

---

(١) رواه البخاري رقم ٣٦٢٩ من حديث أبي بكرة ﷺ قال: أخرج النبي ﷺ ذات يوم الحسن فصعد به على المنبر فقال: . . . ثم ذكر الحديث.

(٢) سبق تخريجه.

الرسول ﷺ فبُعثت مرة أخرى حتى أزيل مرة ثانية، ووجد أشياء من هذا القبيل كثيرة في جزيرة العرب من أشخاص، وقبور، وأماكن، وبنايات، وغيران، وشجر في نجد، وفي غيرها، كانوا يعبدونها ويفتتون بها. كلهم على هذا النهج، حتى ذكر ابن غنام في تاريخه أن رجلين أتيا من اليمن لطلب العلم في مكة وكان أحدهما أفقه من الآخر، فلما أقبلا على الطائف، قال أحدهما لزميله: أهل الطائف لا يعرفون الله، وإنما يعرفون ابن عباس، فقال له زميله، معرفتهم لابن عباس تكفيهم عن معرفة الله، ابن عباس يعرفهم بالله. هذا من طلبة العلم هذه فكرتهم وهذه عقيدتهم، فكيف بالعوام.

فقوله: **«حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين»**: المشركون يطلق على الكفرة عموم؛ لأنه يلزم من الكفر الشرك.

قوله: «وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان»: نقول أيضاً: هذا أمر آخر وهو دليل آخر للباب. والأوثان سبق أنها تطلق على كل معبود إذا لم يكن على صورة إنسان، أو صورة حيوان. فالقبر يكون وثناً، والشجر وثناً، وكل معبود يكون وثناً حتى المال يكون وثناً إذا كان قصد الإنسان بالعمل المال، فقد جاء ما يدل على هذا كما في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ: عن النبي ﷺ قال: **«تعس عبد الدينار، والدرهم، والقطيفة، والخميصة إن أعطي رضي، وإن لم يعط لم يرض»**[1]، فسمَّاه عبداً له؛ لأنه يعمل لأجله.

وقوله جل وعلا: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣]، يدل على أن الهوى يُعبد وهو صريح، بل هو أكبر معبود على وجه الأرض، كما هو الواقع الآن.

قوله: «وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون، كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين»: هذا أيضاً من عجائب بني آدم، فكيف المسلم يقرأ في كتاب الله جل وعلا: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝٤٠﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وغير هذه من النصوص على أنه

---

(١) سبق تخريجه.

خاتم النبيين، وأن النبيين خُتموا به، ثم يُصدق أن من ادعى أنه نبي فيتبعه، وقد بدأ هذا في حياة الرسول ﷺ فادعى الأسود العنسي في صنعاء أنه نبي واتُّبع على هذا، وصار له قوة وسلطاناً حتى قيض الله قتله في وقت النبي ﷺ قبل موته، وكذلك مسيلِمة ادعى النبوة، واتبعه بنو حنيفة على ذلك، وصار قتال عظيم بينه وبين الصحابة، حتى قتل من الصحابة عدد كبير في واقعته، وهذا في خلافة أبي بكر رضي الله عنه[1].

وكذلك طليحة الأسدي[2] أيضاً ادعى النبوة واتبعه عليه قومه، وقاتله خالد بن الوليد رضي الله عنه، ثم هزمه وهزم قومه، وهو الذي قتل عكاشة بن محصن، ولكنه كما يقول المؤرخون: تاب وقاتل في قتال الفرس حتى قتل شهيداً.

وكذلك سجاح في بني تميم امرأة ادعت النبوة، وآمن بها قومها واتبعوها، ويقال: إنها تابت، فهذه في وقت مبكر، ثم تتابع الكذابون وليس المقصود كل من يدعي النبوة، فإن هذا لا حصر له، ولكن بعضهم يكون مريضاً، وإنما المقصود الذي يكون له قوة وسلطان يُتبع عليه.

ومنهم المختار ابن أبي عبيد في وقت خلافة ابن الزبير، قام في العراق أول الأمر أحبه الناس واتبعوه؛ لأنه صار يتتبع قتلة الحسين فقتل أكثرهم، أو الذين شاركوا في قتله فأحبوه من أجل ذلك، ثم جاءه الشيطان وزين له أنه يوحى إليه فادعى النبوة، ثم قاتله مصعب بن الزبير وقتله من أجل ذلك.

---

(١) جاء في صحيح البخاري رقم ٤٣٧٩: قال عبيد الله بن عبد الله: سألت عن عبد الله بن عباس عن رؤيا رسول الله ﷺ التي ذكر فقال ابن عباس: ذكر لي أن رسول الله ﷺ قال: «**بينا أنا نائم أريت أنه وضع في يدي سواران من ذهب ففظعتهما وكرهتهما فأذن لي فنفختهما فطارا فأولتهما كذابين يخرجان**». فقال عبيد الله: أحدهما العنسي الذي قتله فيروز باليمن، والآخر مسيلمة الكذاب.

(٢) فتح الباري لابن حجر ١٣/٨٧ وفيه: وفي حديث ابن الزبير: «أن بين يدي الساعة ثلاثين كذاباً منهم الأسود العنسي صاحب صنعاء وصاحب اليمامة يعني مسيلمة، قلت: وخرج في زمن أبي بكر طليحة بالتصغير بن خويلد وادعى النبوة ثم تاب ورجع إلى الإسلام، وتنبأت أيضاً سجاح ثم تزوجها مسيلمة ثم رجعت بعده.

وقوله: «**كلهم يزعم أنه نبي**»: والمقصود: أن هذا العدد الذي ذكره الرسول ﷺ كما يقول القاضي عياض: عُدَّ من تنبأ من زمن رسول الله ﷺ إلى الآن ممن اشتهر بذلك، وعرف واتبعه جماعة على ضلالته، فوجد هذا العدد فيهم، ومن طالع كتب الأخبار والتواريخ عرف صحة هذا. قال الحافظ ابن حجر[1]: وليس المقصود كل من ادعى النبوة فهذا لا حصر له، ولكن الذين كان لهم قوة واتباع بلغوا هذا العدد، وإنما بقي الكذاب الكبير الذي سيأتي، وهو الدجال.

ولكن بعد هذا القول جاء أيضاً من ادعى النبوة وصار له أتباع عدد كبير، ومن آخرهم غلام أحمد القادياني الذي ادعى النبوة وصار له أتباع وقوة ولا يزال له أنصار، والكفر يساعده الإنجليز وغيرهم ويبذلون لهم الأموال؛ لأنهم يفسدون دين الإسلام.

وقال: «**ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة**»: ولا تزال؛ يعني: أنها ستستمر، وهذا معناه الدوام وأنها لا تُفقد؛ يعني: ما يأتي وقت تكون مفقودة هذه الطائفة بل هذا يدل على الاستمرار من وقت الرسول ﷺ إلى قيام الساعة. ولكن الكلام في الطائفة ما هي؟

يقول النووي رحمه الله: تطلق على جماعة، وقد تكون هذه الجماعة كبيرة، وقد يكون لها قوة وسلطان وجيش وراية تخفق وجهاد في سبيل الله، ويحتمل أن هذه الطائفة مفرقة بين أنواع المؤمنين منهم شجعان مقاتلون ومنهم فقهاء، ومنهم محدثون، ومنهم زهاد وآمرون بالمعروف وناهون عن المنكر، ومنهم أنواع أخرى من الخير ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين بل قد يكونون متفرقين في أقطار الأرض. وفي هذا الحديث معجزة ظاهرة، فإن هذا الوصف ما زال بحمد الله تعالى من زمن النبي ﷺ إلى الآن، ولا يزال حتى يأتي أمر الله

---

(١) فتح الباري ٦/٦١٧ قال رحمه الله: وليس المراد بالحديث من ادعى النبوة مطلقاً فإنهم لا يحصون كثرة لكون غالبهم ينشأ لهم ذلك عن جنون أو سوداء، وإنما المراد من قامت له شوكة ومن قامت له شبهة.

المذكور في الحديث، وفيه دليل لكون الإجماع حجة وهو من أصح ما استدل به من الحديث»[(١)].

وقد تقل حتى يصدق على أن تكون واحداً، ثم قال: والطائفة المنصورة في دولة المأمون هو الإمام أحمد وحده ومن كان على نهجه، فإنه هو الذي قام في وجه الباطل وصمد وصبر، ولم يقم في هذا الأمر غيره فصار هو الطائفة المنصورة، وهذا من العجب؛ لأن معنى ذلك أن الخليفة والقضاة والقواد ليسوا هم الطائفة المنصورة، بل هو هذا الرجل وحده؛ لأنه هو الذي ثبت على الحق.

فالمقصود أن هذه الطائفة لا تزال، ثم قد جاء وصف هذه الطائفة في بعض الروايات مكانها وتسميتها في حديث معاذ الذي جاء في صحيح البخاري أنه قال: «**وهم في الشام**»[(٢)]، وفي رواية: «**في بيت المقدس**»[(٣)]، بيت المقدس من الشام لا يختلف ذلك، ولكن جاء في أحاديث أخرى: «**هم العرب**»، وفي أحاديث أخرى: «**هم أهل الغرب**» الغرب ليس معناه الجهة معناه: الدول الكبيرة كما هو معروف[(٤)].

وكل هذا لا يدل على أن الطائفة تتعين في هؤلاء، ولكن تدل على أن هذه الطائفة تكون من هؤلاء في وقت من الأوقات ولا يمنع أن يكون من غيرهم.

وهذا فيه بشارة عظيمة من الرسول ﷺ أن الحق لا يزال قائم، والآية العجيبة أنه: «**لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم**».

والخذلان يكون ممن هو على عقيدتهم، ولكنه لا ينصرهم ولا يساعدهم بل يتوقف ويخذلهم.

---

(١) شرح النووي على مسلم ١٣/ ٦٧.
(٢) سبق تخريجه.
(٣) رواه أحمد في المسند رقم ٢٢٣٢٠ عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لعدوهم قاهرين لا يضرهم من خالفهم إلا ما أصابهم من لأواء حتى يأتيهم أمر الله وهم كذلك، قالوا: يا رسول الله وأين هم؟ قال: ببيت المقدس وأكناف بيت المقدس**» وأخرجه الطبراني في الكبير رقم ٧٥٤.
(٤) رواه مسلم رقم ١٩٢٥.

أما الخلاف يكون ممن يخالفهم عقيدة ومنهجاً، فذكر أنه لا يضرهم الخذلان ممن هو يعتقد صوابهم، وأنهم على الحق، ولا من يخالفهم ويقاتلهم.

واستدل العلماء بهذا على صحة إجماع الأمة؛ لأنها إذا اجتمعت الأمة ففيها هذه الطائفة، وقد شهد الرسول ﷺ لهم على أنهم على الحق فيلزم من ذلك أن يكون الإجماع حقاً وهذا فرد من أفراد الأدلة على هذا.

قوله: «حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى»: في رواية **«حتى تقوم الساعة»**: وهذه الرواية هي رواية خالد الجهني عن عبد الرحمٰن بن شماسة المهري قال: كنت عند مسلمة بن مخلد، وعنده عبد الله بن عمرو بن العاص، فقال عبد الله: لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق هم شر من أهل الجاهلية لا يدعون الله بشيء إلا رده عليهم، فبينما هم على ذلك أقبل عقبة بن عامر، فقال له مسلمة: يا عقبة اسمع ما يقول عبد الله؟ فقال عقبة: هو أعلم وأما أنا فسمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله قاهرين لعدوهم لا يضرهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك»**، فقال عبد الله: أجل، ثم يبعث الله ريحاً كريح المسك مسها مس الحرير فلا تترك نفساً في قلبه مثقال حبة من الإيمان إلا قبضته ثم يبقى شرار الناس عليهم تقوم الساعة»[(١)].

قوله: «أمر الله»: هو ما ذكره عبد الله بن عمرو وهو المقصود بالساعة في بعض روايات الحديث؛ يعني: ساعتهم التي جعلهم الله يموتون فيها.

وقوله: «تبارك وتعالى»: تبارك من البركة؛ يعني: تعاظم، والبركة نوعان: نوع هي صفة الله جل وعلا. ونوع: هي فعله. فالله جل وعلا هو المبارِك على من يشاء وإذا بارك في شيء فهو المبارَك.

وتكون من إضافة الصفة إلى الموصوف والفعل منها تبارك، أما النوع الثاني الفعل منها بارك، ولهذا لا يجوز أن يقال لأحد من الخلق تبارك، هذا خاص بالله جل وعلا، فالبركة من الله جل وعلا.

---

(١) رواه مسلم رقم ١٩٢٤.

أما «تعالى»، فهي من العلو، والله جل وعلا له العلو المطلق علو الذات، وعلو القدر، وعلو القهر.

وهذا الحديث من دلائل النبوة، فكل جملة فيه تدل دلالة واضحة على أن الرسول ﷺ جاء من عند الله. ودلائل النبوة من الأمور التي ينبغي للعبد أنه يعتني بها؛ لأنها تثبت الإيمان وتزيده.

وقد يعرض للإنسان بعض الشبه التي يلقيه أعداء الله، فهم يتلمسون مواقع الضعف في العقيدة التي يمكن أن يدخلون فيها، فيأتون بشبه يشبهون بها على الذين لم يتمكنوا من العلم.

ودراسة سيرة رسول الله ﷺ كفيلة بأن يكون العبد على ثقة تامة بصدقه، وأنه رسول من عند الله مع أن تأمل أحواله يكفي، فهل يُعقل أن يأتي عاقل إلى قوم كفار وهو وحده ليس له دولة ولا قوة يستند إليها من البشر ومن المادة، ثم يتحداهم ويقول لهم: أرسلت إليكم بذبح إن لم تستجيبوا لي وتؤمنوا بي فإن الله سيسلطني عليكم فآخذ أموالكم، وأقتل رجالكم وأستولي على بلادكم، فهل يمكن شخص عاقل يأتي للأعداء فيغريهم بهذا الكلام وهو وحده؟ معنى هذا أنهم يسرعون إلى قتله بكل ما يستطيعون، ولكن إذا وثق بربه جل وعلا وأنهم لا يصلون إليه لا بد أن يكون هذا نبي من الأنبياء الذين حماهم الله جل وعلا، فهذا من الدلائل على صدقه.

وقد سمعت في بعض أشرطة الناس التي تنشر الآن كلاماً سيئاً في الواقع، وهو قياس الرسول ﷺ على الناس فيذكر شيئاً من هذا ويقول: هذا من الشجاعة. هذه ليست من الشجاعة هذه من النبوة، هذه من الثقة بالله ووعده، مثل قصته مع أبي جهل والأعرابي، رجل جاء بجمل إلى مكة فاشتراه أبو جهل فصار يماطله بحقه فجاء إلى جمع من كبار قريش وهم جالسون عند الكعبة فشكا إليهم قال: ألا أحد ينصفني من هذا الرجل ويأخذ حقي منه، أنا غريب ولي وقت وأنا أطالبه وهو يماطلني؟ فقالوا يستهزئون به: انظر إلى ذاك الرجل الذي يصلي هو الذي يأخذ حقك ـ يعنون: رسول الله ﷺ، وهم يعرفون العداوة التي بين الرسول ﷺ وبين أبي جهل ـ فذهب إلى رسول الله ﷺ فشكا إليه، فقال: نعم اتبعني،

فذهب معه، فطرق الباب على أبي جهل فقال: أدي حق هذا إليه، فلما رآه انتقع وجهه، وقال: سمعاً وطاعة الآن آتي به، فدخل فجاء بحقه فأعطاه أياه.

وقد أرسلوا رجلاً ينظر ماذا يكون فجاء يتعجب قال: رأيت عجباً ما هو إلا أن طرق عليه الباب فكأن الرجل نزل عليه أمر ليس سهلاً حتى تغير لونه وذهب وقال: سمعاً وطاعة وجاء بحق الرجل فأعطاه إياه بدون تلكؤ وبدون إباء، فبينما هم جالسون إذ جاءهم أبو جهل، قالوا: ما شأنك؟ قال: شأني والله لو امتنعت لقضمني فحل ما رأيت أعظم منه، قد فتح فاه وأراد أن يقضمني لو امتنعت. ثم ذكر هذا صاحب الشريط وقال: هذا من الشجاعة بل هذه من الآيات.

المقصود أن هذا الحديث فيه دلائل كثيرة، وسبق قوله: «**أن الله زوى لي الأرض**» هذا أيضاً منها، والعلماء لهم في قوله: «**زوى**» قولان:

أحدهما: أن المعنى أنها مثلت لي كهيئة الشيء المجموع، أن هذا تمثيل للأرض، وهذا القول مرجوح.

الثاني: أنه على ظاهره، أن الله أزال الحواجز وأعطاه في بصره ما يستطيع أن ينظر إلى مشارقها ومغاربها فيكون على ظاهره، ولكن الزوي معناه الجمع، فهو جمعها فصارت أمامه ينظر إليها، وهذا مثل ما وقع له صلوات الله وسلامه عليه في الإسراء لما قال له لكفار: صف لنا بيت المقدس؛ لأنه ما سبق أن ذهب إلى بيت المقدس، وكان عليه الصلاة والسلام أتى إليه ليلاً ولم يتأمله، فرُفع إليه فصار ينظر إليه ويصفه لهم[1].

وكذلك قوله ﷺ كما في صحيح مسلم: «**إني لأرى قصر بصرى**» في حديث، وما أشبه ذلك، فكل هذا من الدلائل الواضحة على نبوته ﷺ، وهي آيات من آيات الله جل وعلا جعلها الله جل وعلا على صدق الرسول ﷺ دلالة وعلامة.

---

(١) رواه البخاري رقم ٣٨٨٦، ومسلم رقم ١٧٠ عن جابر بن عبد الله ﷺ: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**لما كذبني قريش قمت في الحجر فجلا الله لي بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه**».

۞ قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: فيه مسائل:

۞ الأولى: تفسير آية الكهف.

الآيات التي ذكرت كلها في أهل الكتاب، غير أن آية الكهف في الذين غلبوا على هؤلاء الذين اطلعوا على أهل الكهف بعد الاختلاف ماذا يصنعون يبنون عليهم مسجداً، وهذا من باب الذم لهم؛ لأن بناء المساجد على الأموات من دواعي الشرك وأسبابه ولا يكون فاعله إلا آثماً، فهو جاء من باب التحذير للأمة أن تفعل كفعلهم.

۞ الثانية: وهي أهمها: ما معنى الإيمان بالجبت والطاغوت؟ هل هو اعتقاد قلب، أو هو موافقة أصحابها مع بغضها ومعرفه بطلانها؟

هو الأخير؛ يعني: هو موافقة أصحابها مع بغضها ومعرفة بطلانها، والذي عين ذلك أسباب النزول والقرائن التي حُفَّت بذلك؛ لأن أهل الكتاب أهل علم ويعلمون أن الشرك باطل ويكرهونه ولا يفعلونه، ولكن دعاهم الحسد والكبر أن يتبعوا الحق، فدفعهم ذلك إلى موافقة المشركين في الظاهر عناداً وبغضاً للحق.

۞ الثالثة: قولهم: إن الكفار الذين يعرفون كفرهم أهدى سبيلاً من المؤمنين.

وهذا أيضاً من أسباب كفرهم ولعنهم كونهم فضَّلوا المشركين على المؤمنين، وقطعاً أنهم يعلمون أن المؤمنين أفضل منهم وأهدى سبيلاً، ولكن الحسد والكبر هو الذي حملهم على ذلك.

۞ الرابعة: وهي المقصودة بالترجمة: أن هذا لا بد أن يوجد في هذه الأمة، كما تقرر في حديث أبي سعيد.

«أن هذا»: إشارة إلى المتقدم كله مثل تفضيل الكفر على الإيمان؛ يعني: تفضيل أحكام الطواغيت على شرع الله جل وعلا، ولا يلزم أن يكون كلهم يعني طوائف منهم وكونهم أيضاً يبنون على القبور كما بنت اليهود عليها، وكذلك يكونون مع الكافرين طائفة منهم على المؤمنين كما كان هؤلاء

مع الكافرين على المؤمنين، وكذلك يقع في هذه الأمة من يلعنه الله ويغضب عليه، وكذلك يقع فيها من يمسخه الله جل وعلا قردة وخنازير، ومن يقذفه الله جل وعلا بالحجارة كما جاءت الأخبار بذلك عن رسول الله ﷺ؛ لأن هذا مذكور في آية المائدة، وذلك إذا تحيلوا على الحرام واستباحوه؛ لأن اليهود حُرمت عليهم الحيتان في السبت فوضعوا آلات الصيد من الحفر وغيرها مما يُمسك السمك ويبقيه في الماء حتى يخرج يوم السبت فيأخذوها من الماء ولكن قد أمسكتها الآلات، فهذه حيلة فيزعمون أنهم أخذوها ليلة الأحد؛ لأن يوم السبت ذهب، فلما تحيَّلوا على ما حرم الله جل وعلا، مسخهم الله جل وعلا إلى هذا الحيوان الذي هو أقرب شيء للإنسان، لأن عملهم هذا فيه شبه من الشيء الحلال ولكنه حيلة فصار جزاؤهم من جنس فعلهم، والمقصود أن هذه الأمة تتحيل، كما تحيل اليهود بخبر الرسول ﷺ، وأنهم يعاقبون كعقابهم ويكون ذلك لطائفة وليس هذا لكل الأمة.

۞ الخامسة: التصريح بوقوعها؛ أعني: عبادة الأوثان في هذه الأمة في جموع كثيرة.

وكذلك عبادة الطاغوت، وكذلك من يلعنه الله جل وعلا، وكذلك من ضل من العلماء فهو مشابه لهم فيكون ملعوناً ـ نسأل الله العافية ـ الضلال أن يستبدل بالحق الضلالة ويكون ذلك عن قصد وعمد وإرادة فيستحق بذلك اللعنة كما استحق اليهود بفعلهم ذلك، بل إذا فعلوا ذلك فعقابهم أشد من عقاب اليهود؛ لأن من كان دينهم أفضل ونبيهم أفضل، فالمناسب أن يكون عقابهم أشد.

۞ السادسة: العجب العجاب: خروج من يدعي النبوة، مثل المختار، مع تكلمه بالشهادتين وتصريحه بأنه من هذه الأمة، وأن الرسول حق، وأن القرآن حق. وفيه: أن محمداً خاتم النبيين، ومع هذا يصدق في هذا كله مع التضاد الواضح، وقد خرج المختار في آخر عصر الصحابة، وتبعه فئام كثيرة.

لأن الإنسان من أعجب المخلوقات، فلو مثلاً: ظهر الشيطان بصورته

الحقيقية للناس ودعا الناس، لن يعدم تابعاً، لا بد أن يتبعه من يتبعه، وهذا من العجائب.

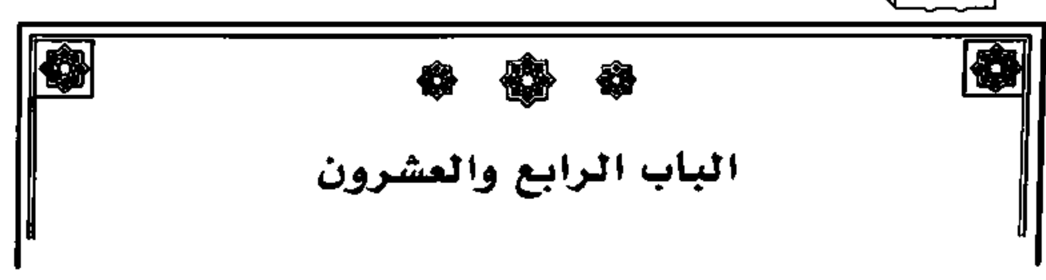
۞ السابعة: أن ذلك الشرط إلى قيام الساعة.

وعرفنا أن قيام الساعة المقصود به الريح التي تأتي وتقبض كل مؤمن، ثم لا يبقى إلا شرار الخلق فعليهم تقوم الساعة؛ يعني: النفخ في الصور.

۞ الثامنة: ما فيه من الآيات العظيمة.

منها: إخباره بأن الله زوى له المشارق والمغارب، وأخبر بمعنى ذلك، فوقع كما أخبر بخلاف الجنوب والشمال. وإخباره بأنه أعطي الكنْزين. وإخباره بإجابة دعوته لأمته في الاثنتين. وإخباره بأنه مُنع الثالثة. وإخباره بوقوع السيف، وأنه لا يرفع إذا وقع. وإخباره بظهور المتنبئين في هذه الأمة. وإخباره ببقاء الطائفة المنصورة. وكل هذا وقع كما أخبر، مع أن كل واحدة منها من أبعد ما يكون في العقول.





الباب الرابع والعشرون

❁ **قال المؤلف رحمه الله تعالى: باب ما جاء في السحر.**

سبق أن المؤلف رحمه الله بعد ما ذكر وجوب التوحيد، ووجوب الإخلاص، وكذلك الدعوة إلى التوحيد والخوف من الشرك، وذكر تفسير التوحيد، ثم قال بعد ذلك وشرح هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب يعني إلى آخر الكتاب، فكله شرح وتفسير لشهادة أن لا إله إلا الله، وهذا الباب من ذلك، والتفسير قد يكون بإيضاح الجمل لغة وكذلك اصطلاحاً وتبيين ذلك، وقد يكون بذكر ضده كما قيل: «وبضدها تتبين الأشياء».

قوله: «باب ما جاء في السحر» يعني: من النصوص، ويستنبط من ذلك حكمه.

والسحر في اللغة: هو ما خفي ولطف سببه، ولهذا يخفى على كثير من الناس، فهو لا يدرك بالأمور الظاهرة ومنه ما جاء في الحديث: «**إن من البيان لسحراً**»[(١)]؛ لأن السامع يخيل له أن الذي تكلم بهذا الكلام أنه حق فيغطي على الباطل، فيسحر من سمعه، ومنه السَّحَر الذي يكون آخر الليل لأنه يأتي خفياً.

ومعناه في الاصطلاح: عزائم وعقد وتمائم وأدهنة وأبخرة تؤثر في القلوب وفي الأبدان، وتفرق بين المرء وزوجه، وله حقيقة كما يقول أهل السُّنَّة، وهو أنواع متعددة، وبعض أنواعه يسمى سحراً من باب التغليب مثل العزائم والتدخين.

---

(١) رواه البخاري رقم ٥١٤٦ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أنه قدم رجلان من المشرق فخطبا فعجب الناس لبيانهما، فقال رسول الله ﷺ: «**إن من البيان لسحراً أو إن بعض البيان لسحر**».

والمؤلف رحمه الله فيما يظهر أنه يرى أن السحر من الشرك وأنه ينافي التوحيد وهذا يؤخذ من استدلاله بالآية: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢]، والذي ليس له في الآخرة من خلاق ـ يعني: نصيب ـ فهو في النار.

وقد اختلف العلماء في ذلك، فالشافعي رحمه الله يرى أنه من الكبائر إلا إذا اشتمل على الكفر فهو يقول: إذا تعلم السحر قلنا له: صف لنا سحرك، فإن وصف ما يوجب الكفر ـ مثل ما اعتقده أهل بابل من التقرب إلى الكواكب السبعة، وأنها تفعل ما يلتمس منها ـ فهو كافر، وإن كان لا يوجب الكفر فإن اعتقد إباحته كفر. انتهى. وكونه من الكبائر هذا أمر متفق عليه وإذا كان من الكبائر فهو منقص للتوحيد ومذهب لكماله ومعرض صاحبه لعذاب الله جل وعلا.

وذهب طائفة من السلف إلى أنه يكفر، وبه قال مالك وأبو حنيفة وأحمد، قال أصحابه: إلا أن يكون سحره بأدوية وتدخين وسقي شيء لا يضر فلا يكفر.

والصواب أنه أنواع، منها ما هو شرك وكفر، وهو ما كان بواسطة الشياطين، وهذا هو مناسبة ذكره في كتاب التوحيد، ولهذا يستهين الساحر بكتاب الله وبدينه وأسمائه وصفاته حتى يتقرب بذلك للشيطان، ثم يعمل الشيطان عمله فتتعاون النفوس الخبيثة على الشر، فيحصل الأذى للمسحور، فالسحر الحقيقي لا يكون إلا مع الشرك.

والسحر صناعة، كل من تعلمه يستطيع أن يكون ساحراً، فهو من الصناعات ومن الأمور التي تعرف وتدرك بالتعليم، لكنه من العلوم الخبيثة التي هي من علوم الشرك والكفر بالله جل وعلا، فهذا هو مناسبة ذكره في كتاب التوحيد لأنه إما أن يكون مضاداً للتوحيد، أو مُذهباً لكماله ومُنقصاً له ومعرضاً صاحبه لعذاب الله جل وعلا.

ولقد كثر السحر في الناس هذه الأيام، ولكن السحر الذي كثر من باب النفع والضر يعني ينتفع به الإنسان في أمور الدنيا، أو أنه يؤذي عدوه وقد

يقتله، وقد يفرق بينه وبين زوجته وما أشبه ذلك. وسوف يأتي في المسائل أن منه الصرف والعطف، والصرف هذا من أسهل أنواعه وهو ما يسمونه محبباً يعني يحبب الزوج إلى زوجته أو بالعكس أو غيرها، وهو نوع من أنواع السحر، وهو منتشر الآن، وقد يكون أعظم من هذا، ولا يكون هذا إلا بواسطة الشياطين، ولكن إذا احتمى الإنسان بذكر الله جل وعلا وبالمعوذات فإنه لا يضره ولا يصل إليه، لأن الشياطين لا تستطيع الذي يتحصن بذكر الله جل وعلا وهم دائماً يتحينون الفرص، ووقت الغفلة، فيأتون الإنسان في وقت غفلته عن ذكر الله جل وعلا، فقد يجدون فرصة يؤذون الإنسان ويعلق السحر في نفسه، أما إذا كان دائماً على ذكر الله متحصناً به تالياً لكتاب الله جل وعلا، فإنه لا يستطيع الشيطان أن يقربه، وقد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال: **«لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إن الشيطان يفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة»**[(١)].

وكذلك القلب فهو بيت الرب جل وعلا، فإذا احتمى بذكر الله وباللجوء إليه فإنه يكون محروساً من الشيطان، ولذلك غالباً أن السحر وملابسة الجن لا يصيب إلا الجهلة والغافلين عن ذكر الله، والمتلبسين بالأغاني والصور التي تكون مجلبة للشياطين ومطردة لملائكة الله جل وعلا، غير أن الله جل وعلا إذا أراد شيئاً وقضى أمراً فلا بد أن تهيئ الأسباب له، فلا بد أن يحصل غفلة ويحصل سهو وما أشبه ذلك حتى ينفذ أمر الله جل وعلا، وكل هذا بإذنه جل وعلا الكوني القدري.

والسحر قديم جداً في الأمم، ولهذا إذا نظرنا في كتاب الله في قصص الأنبياء فإذا هم يرمون أنبياءهم بأنهم سحرة، أنهم مسحورون من قوم نوح عليه السلام وما بعده، والله ﷻ أخبرنا أن فرعون ووزرائه وعظماء دولته جلبوا السحرة وجاؤوا بسحر عظيم كما أخبر عنهم جل وعلا: ﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ﴾ [الشعراء: ٤٤] فصارت تسعى وأنها يتخيل إليهم أنها تسعى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦]، وفيه قولان للمفسرين سواء

---

(١) رواه مسلم رقم ٧٨٠ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بالتخييل أو بالفعل، فمنهم من قال أنه يخيل للناظر أنها تسعى، فمعنى هذا أنهم سحروا أعين الناس، وهذا نوع من السحر وهو التخييل، فيخيل للإنسان أنه يدخل في الحيوان ويخرج منه مثل ما جاء في قصة جندب الذي قتل الساحر في زمن الوليد، كان عنده ساحر يلعب بين يديه، فكان يضرب رأس الرجل ثم يصيح به فيرد إليه رأسه، فقال الناس: سبحان الله! يحيي الموتى! ورآه رجل من صالحي المهاجرين، فلما كان الغد جاء مشتملاً على سيفه، فلما ذهب يلعب لعبته اخترط سيفه فضرب عنق الساحر، وقال: إن كان صادقاً فليحيي نفسه. وتلا قوله تعالى: ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣] فغضب الوليد إذ لم يستأذنه في ذلك فسجنه ثم أطلقه، والله أعلم[١]. وهذا في نظر الناس، فهو تخييل، ولا يمكن أن يقتلها ثم يحييها، وإنما هو تخييل في أعين الناس.

ورُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «**حدُّ الساحر ضربة بالسيف**» رواه الترمذي[٢]. وفي رواية: «**ضربةُ بالسيف**»[٣]، وكلاهما صحيح.

أما قلب الحقائق كونه يقلب الشيء إلى خلاف ما هو عليه، كثير من العلماء ينكر هذا ويقول أنه لا يمكن، والله جل وعلا أعطى موسى ﷺ آية من هذا النوع، ولكنه لا يمكن أن تكون مثل السحر لأنها عصا حقيقية إذا ألقاها صارت ثعبان كبير ومع هذا يسرع مثل سرعة الجان، فمع كبرها تتقلب بسرعة، وكانت تلتقط ما أمامها، فلما وقع ذلك آمن السحرة كلهم لأنهم علموا أنه ليس بسحر، إن هذه آية ولا يمكن أن يكون السحر هكذا.

---

(١) تفسير ابن كثير ١/٣٦٥، والبيهقي رقم ١٦٩٤٤.

(٢) رواه الترمذي رقم ١٤٦٠ من حديث جندب، وقال الترمذي: هذا حديث لا نعرفه إلا مرفوعاً من هذا الوجه وإسماعيل بن مسلم المكي يضعف في الحديث، وإسماعيل بن مسلم العبدي البصري، قال وكيع: هو ثقة ويروي عن الحسن أيضاً، والصحيح عن جندب موقوف، والعمل على هذا عند بعض أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم.

(٣) أخرجه البيهقي رقم ١٦٩٤٢.

وبعض المعتزلة أنكر وجود السحر وقالوا أنه مجرد تخيل في أعين الناس ولا وجود للسحر، وقالوا أيضاً أنه لا يمكن أن يُمرِض ولا يمكن أن يقتل، وأنكروا أن يكون الرسول ﷺ سُحر، مع أن الحديث في الصحيحين، والسبب في إنكارهم أنهم يقولون لو أثبتنا هذا لالتبس الأمر بآيات الرسل ومعجزاتهم، وهذا حسب عقولهم وأنظارهم، وإلا لا يمكن أن يكون الساحر ملتبساً بالنبي؛ لأن الساحر شيطان من أخبث الخلق، والنبي تقي نقي من أبر الخلق، ولهذا لما قال هرقل وهو من علماء أهل الكتاب: هل عرفتم عليه الكذب؟ هل يأمركم بشيء ويخالفه؟ ثم قال بعد ذلك: إن كنت صادقاً فوالله ليملكنَّ ما تحت قدمي، فإنه نبي فهو سأله عن أحواله.

ومثل ذلك قول خديجة ﵂ وهي كانت راجحة العقل، فلما قال: «**لقد خشيت على نفسي**». فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق[(١)]، فهي استدلت بهذه الأحوال على أنه لا يأتيه الشيء الذي يأتي من قبل الشياطين، فالمقصود أن إنكارهم له لا وجه له في الواقع، وليس هذا من الشبه التي يمكن أن تلتبس، يعني أحوال السحرة لا تلتبس بأحوال الرسل.

۞ قال المؤلف ﵀: وقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢].

يعني: علم اليهود والذين يتلون على ملك سليمان ويتَّبعون ما تتلوه الشياطين: يتبعون ما تقوله الشياطين وتكذب على الناس فيه ويزعمون أنه ساحر، وأنه بسحره استطاع أن يُسخر ملوك الجن وكبرائهم، فملوك الجن كانوا مسخرين له بأمر الله جل وعلا يعملون حسب أمره، فاليهود كذبوا، فهم يجعلون سليمان ملكاً وليس نبياً، قاتلهم الله، وفي الصحيحين أن الرسول ﷺ قال: «**إن عفريتاً من الجن تفلت عليَّ البارحة ـ أو كلمة نحوها ـ ليقطع علي الصلاة فأمكنني الله منه، فأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى**

(١) رواه البخاري رقم ٣، ومسلم رقم ١٦٠.

تصبحوا وتنظروا إليه كلكم فذكرت قول أخي سليمان: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾ [ص: ٣٥]». قال روح: فرده خاسئاً[(١)].

فالمقصود أنه رسول ملك، وقد خير الله جل وعلا نبينا ﷺ بين أن يكون نبياً ملك أو عبداً نبياً، فاختار أن يكون عبداً نبياً ﷺ، وليس هذا معناه أن سليمان ليس عبداً لله جل وعلا، بل هو عبد لله جل وعلا من عباده الكرماء على الله، ولكنه صار له ملك، سأل ربه أن يهب له ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده ولن يوهب ملكه لأحد من الخلق، فإن الله سخر له الشياطين وسخر له الريح وكذلك سخر له الأمور الطبيعية مثل النحاس: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ [سبأ: ١٢]، القطر يقولون: أنه النحاس، فصار يسيل كالماء يصرفه كيف يشاء، ومعلوم أن هذا في الوقت الحاضر وغير الحاضر لا بد من نيران توقد عليه حتى يسيل كما ذكر الله جل وعلا في قصة ذي القرنين أنه أمر بالنفخ عليه حتى سال ثم صبه على الحديد، وعلى السد الذي بناه ليتماسك.

فالمقصود أن ملك سليمان ﷺ لا ينبغي لأحد من بعده، ولهذا خشي الرسول ﷺ أن يكون خلاف دعوته فتركه، فالمقصود أن اليهود اتبعوا الكذب الذي كذبته الشياطين فإنهم كتبوا كتب السحر ودفنوها، فلما توفي سليمان ﷺ وذهبت فترة أخرجوا هذه الكتب وقالوا هذه الكتب التي كان سليمان يسخر الجن بها وهي كتب سحر، فزعم اليهود أن هذا هو الحقيقة، وهذا من الكذب الذي تعاونت عليه شياطين الإنس وشياطين الجن، ولهذا أبطله الله جل وعلا في كتابه قال: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ [البقرة: ١٠٢] تتلوا يعني تقرئه وتذكره وتخبر الناس به: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة: ١٠٢]، وهذا أيضاً يدلنا على أن السحر كفر وهذا صريح ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾، والآية فيها أدلة تدل على أن السحر كفر، ولكن المؤلف رحمه الله اقتصر على آخرها.

قوله: «﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا﴾»؛ يعني: اليهود بما عندهم من الوحي الذي نزل على موسى ﷺ علموا ذلك من كتاب الله الذي هو التوراة أن من اعتاض

(١) رواه البخاري رقم ٤٦١، ومسلم رقم ٥٤١ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بالسحر عن الإيمان أنه ﴿مَا لَهُ فِي ٱلْآخِرَةِ﴾ من نصيب هذا هو معنى الآية؛ لأن معنى ﴿ٱشْتَرَىٰهُ﴾ أخذه عوضاً عن الإيمان واتباع الرسول، أخذ السحر بدل الإيمان، وهذا يدل على أن الايمان لا يجامع السحر، إذا وجد السحر فُقد الايمان، وإذا كان الإيمان موجوداً فلا يكون هناك سحر لأنهما متضادان.

وقوله: «﴿مِنْ خَلَٰقٍ﴾»: الخلاق هو النصيب والحظ. وهذا يدل على أن الساحر كافر، والذي ليس له في الآخرة من نصيب فهو كافر ـ نسأل الله العافية ـ.

وكذلك في الآية قوله: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾، فدل هذا أيضاً على أنه كفر وأخبر الله جل وعلا أن الساحر لا يفلح حيث أتى، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩] وهذا يدل أيضاً على أنه كفر.

فهذه الآيات تدل على أن الساحر كافر وهذا الذي حققه كثير من المحققين وقالوا: إن السحر الحقيقي لا ينفك عن الشرك، ولا يقع إلا بواسطة الشياطين، والشياطين لا تطيع الإنسان إلا إذا خدموهم وجاؤوا بالشيء الذي يرضيهم، وهم لا يرضيهم إلا الكفر والشرك وترك الإيمان.

فجمهور العلماء على أنه كفر وهو قول الإمام أحمد والإمام مالك والإمام أبي حنيفة ـ رحمهم الله ـ.

وذهب الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى أنه لا بد أن يكون مشتملاً على الكفر وإلا لا يحكم بأنه كفر، وعلى ذلك يكون حكم فاعله لأن الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: نقول لساحر صف لنا سحرك، فإن وصفه بما يقضي الكفر حكمنا عليه بأنه كفر وأنه يكون بذلك كافراً، وإن وصفه بما يدل على أنه ليس كفر وليس فيه شرك لم نحكم عليه بأنه كفر.

وبهذا يتبين أن الخلاف ليس خلافاً معنوياً؛ لأن الذين يعرفون السحر يقولون: إنه لا ينفك عن الشرك، ولا يمكن لسحر أن يوجد إلا مع الشرك؛ لأنه بواسطة الشياطين، والشياطين لا يأتون بالسحر إلى الإنسان حتى يطيعهم في عبادتهم والكفر بالله جل وعلا، أما ما كان من العزائم والرقى والتدخين

والأبخرة وغير ذلك، فهذا يقولون ليس سحراً، وإنما هو سحر من باب التغليب؛ كالنميمة مثلاً، فإذا تبين هذا دل على أنه ليس فيه خلاف.

۞ قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقول الله تعالى: ﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٥١].

وهذه الآية تقدمت في الباب الذي مضى، والمقصود هنا الجبت لأنه ذكر بعد هذا أن عمر رضي الله عنه أنه فسر الجبت بالسحر، أما الطاغوت فإنه فسره بالشيطان[١]. وابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره يقول: هذا تفسير جيد[٢]؛ يعني: تفسير الطاغوت بالشيطان، ذلك أنه عام، لأن الشيطان يرضيه كل المعاصي، ولا يقنع بالمعصية القليلة، فليس معنى ذلك أن الشيطان ذاته فقط، ولكن الشيطان وما يأمر به، وما يرض به كله يدخل في هذا.

أما الجبت يقولون هذه الكلمة أصلها ليست عربية لأنهم يقولون أنه ما اجتمعت الجيم والباء في كلمة عربية، وعلى هذا يقولون أن أصلها معربة، ولكن شيخ الإسلام ينكر هذا الشيء ويقول: كل ما تكلم به العرب فهو عربي، سواء كان اشتقاقه من أشياء معينة أخذ منها أو من لغات أخرى أخذوها، فهم يتكلمون بالعربية والقرآن يقول ليس فيه شيء غير عربي، لأن الله جل وعلا وصفه بأنه عربي مبين، والمسألة فيها خلاف بين العلماء، ولكن هذا هو الظاهر الذي يقوله شيخ الاسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

---

(١) صحيح البخاري ٨٧، باب قوله: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ﴾ [المائدة: ٦] وقال جابر: كانت الطواغيت التي يتحاكمون إليها في جهينة واحد، وفي أسلم واحد، وفي كل حي واحد، كهان ينزل عليهم الشيطان. وقال عمر: الجبت السحر والطاغوت الشيطان. وقال عكرمة: الجبت بلسان الحبشة شيطان والطاغوت الكاهن. وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ١٩٨/٤ عن عمر قال: «الجبت: السحر». وروي عن أبي العالية، ومجاهد، والشعبي في إحدى الروايات، وعكرمة، وعطاء بن أبي رباح، وعطاء الخراساني، وسعيد بن جبير نحو ذلك.

(٢) تفسير ابن كثير ٦٨٣/١، ومعنى قوله في الطاغوت: إنه الشيطان قوي جداً فإنه يشمل كل شر كان عليه أهل الجاهلية، من عبادة الأوثان والتحاكم إليها والاستنصار بها.

وأهل اللغة يفسرون الجبت بأشياء عامة: يقولون: الجبت الشر كله، وكل ما لا خير فيه بل ليس فيه إلا الضر فليس مقصوراً على السحر، ولكن تفسير السلف ـ رحمهم الله ـ يفسرون الأشياء العامة بأفراد من معانيها وما دلت عليه، بحسب حاجة السامع، ولهذا تأتي التفسيرات في هذا كثيرة عن الصحابة وليس هذا من اختلاف التضاد لأن الاختلاف نوعان: اختلاف تضاد واختلاف تنوع. واختلاف التنوع كونه ينوع الكلام والعبارات حسب الحاجة، حاجة السامع حتى يفهم، وهذا كثير جداً، فالخلاف الموجود عن السلف في التفسير وغيره من هذا القبيل؛ يعني: من خلاف التنوع فإذا كان الجبت هو السحر فهذا فرد من أفراد معنى الجبت فهو داخل فيه بلا شك، ولهذا قصره عمر ﷺ عليه قال: الجبت السحر.

وهذا أيضاً في ذكر ذم أهل الكتاب: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٥١]، وسبق قول المؤلف رحمه الله: تأمل ما الإيمان هنا؟ ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ هل هو عقيدة القلب؟ أو مجرد الموافقة في الظاهر؟[1] وهذا مراده لأنه وافقوهم في الظاهر فقط مع اعتقادهم أن هذا الذي وافقوهم عليه باطل وأنه كفر، ومع ذلك أخبر الله جل وعلا عنهم أنهم يؤمنون به، فعلى هذا إذا وافق الإنسان على الشر وعلى الكفر ولو كان في عقيدته أنه لا يرضى به، فإذن يكون حكمه حكم الكافر ـ نسأل الله العافية ـ.

فهذا في ذكر أهل الكتاب، فما وجه الاستشهاد بالآية على أن السحر كفر وأنه مضاد للتوحيد؟ لأنه إذا كان في اليهود، فهذه الأمة بريئة مما تفعله اليهود، والوجه هو ما تقدم أن المؤلف يقول: إن الذي صنعته اليهود وفعلته لا بد أن تفعله هذه الأمة لقول الرسول ﷺ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو

---

(١) الباب الثاني والعشرون المسألة الرابعة: قال: وهي أهمها: ما معنى الإيمان بالجبت والطاغوت؟ هل هو اعتقاد قلب، أو هو موافقة أصحابها مع بغضها ومعرفة بطلانها؟.

القذة بالقذة»[1]، فمعنى ذلك أن هذا واقع فينا؛ يعني: في الأمة من يؤمن بالجبت والطاغوت لخبر الرسول ﷺ وللواقع، وما ذكر في القرآن عن اليهود والنصارى ليس المقصود به هم، وإنما المقصود نحن لا نفعل ما فعلوا حتى لا نكون مثلهم.

فهذا يدلنا أن الراضي بالعمل يكون كالفاعل لا فرق، لأن الله هنا نسب الاشتراء في قوله: ﴿لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ﴾ [البقرة: ١٠٢] لجميعهم، وإن كان الذي عمله بعضهم، وكذلك مع الآية الآخرى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٥١] معروف الذين نزلت فيهم الآية هما حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف، رجلان لكنهما من أحبار اليهود ورؤسائهم، فنسب العمل لجميعهم؛ لأنهم راضون بهذا.

فإذا وافق الإنسان على أمر في الظاهر وهو كفر يكون بذلك كافراً ولا يستثنى من هذا إلا المكره بشرط أن يكون قلبه مطمئن بالإيمان، وهذا من أبلغ ما يرد به على المرجئة.

۞ قال المؤلف رحمه الله: وقال جابر رضي الله عنه: الطواغيت كهان كان ينزل عليهم الشيطان في كل حي واحد. (رواه ابن أبي حاتم)[2].

الطواغيت: جمع طاغوت والطاغوت فاعول؛ يعني: أخذ من الطغيان، والطغيان هو تجاوز الحد الذي حده الله جل وعلا للمخلوق، ومعلوم أن المخلوق حده أن يكون عبداً لله جل وعلا لا يكون مشاركاً لله جل وعلا في السلطان وفي الكبرياء وفي العلو، يجب أن يكون عبداً لله جل وعلا، فإذا تجاوز هذا صار طاغوت، ولهذا عرَّف ابن القيم رحمه الله الطاغوت بقوله: الطاغوت كل ما تجاوز العبد به حده من معبود أو متبوع أو مطاع[3].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم رقم ٥٤٩٠ قال: «هم كهان تنزل عليهم شياطين»، وفي الدر المنثور ٢/ ٥٨٢ قال: وأخرج ابن أبي حاتم عن وهب بن منبه قال: سألت جابر بن عبد الله عن الطواغيت التي كانوا يتحاكمون إليها؟ قال: إن في جهينة واحداً، وفي أسلم واحداً، وفي هلال واحداً، وفي كل حي واحداً، وهم كهان تنزل عليهم الشياطين.

(٣) إعلام الموقعين ١/ ٥٠ يقول رحمه الله: والطاغوت كل ما تجاوز به العبد حده من معبود =

فجعل هذه الأقسام الثلاثة التي تدور في الناس، ثم قال بعد ذلك: وهذه طواغيت العالم إذا تأملتها ونظرت فإذا الأرض مملوء من هذه الطواغيت فلا يخلو الأمر في اتباع المخلوق الذي تجاوز حده أنه يتبع على أنه معبود، أو أن يتبع على أنه يطاع في المعصية، أو أنه يقلد فيما يفعله في ذلك يتبع، فالطاعة تكون شرك، وكذلك العمل الذي لا يكون مقيداً بكتاب الله وسُنَّة رسوله بل تجاوز الكتاب والسُّنَّة.

قوله: «كهان»: الكاهن هو الذي يكون له صلة بالجن وبالشياطين، يكلمونه ويخبرونه عن الأشياء، وكان في العرب كثيرون، كان في كل قبيلة كاهن وأكثر، وكانوا يفتخرون بذلك، ولا يزال الكهان في الناس الآن ولكن منهم من يجهل هذا الأمر، جهل طرقه، وجهل كيف يتصل بالشياطين مثل ما كان أولئك يتصلون بهم، وقد تكون صلتهم عن غير اختيار منهم في أول المبدأ، وقد ذكر العلماء أشياء من هذا كثيرة جداً في كتب السير والتاريخ ولا سيما عند مبعث الرسول ﷺ، ولكن لم يزل العرب وغيرهم يجعلون لهم حاكماً يحكم لهم كما تحكم لهم الكهان قد يسمونه السلم ـ سلمنا كذا ـ وقد يسمونه الكبير أو الريس، فإذا حصل عندهم خلاف ما ذهبوا إليه يتحاكمون عنده فما قاله وحكم به رضوا به واتبعوه، والكهان هذا شأنهم، وعندهم أمر آخر وهو إخبارهم عن الأمور المستقبلة، وسيأتي الفرق بين الكاهن والعراف والمنجم في الكلام الذي سيذكره المؤلف إن شاء الله.

وقوله: «ينزل عليهم الشيطان»: قد أخبر الرسول ﷺ بذلك كما في صحيح مسلم عن يحيى بن عروة أنه سمع عروة يقول: قالت عائشة: سأل أناس رسول الله ﷺ عن الكهان، فقال لهم رسول الله ﷺ: **«ليسوا بشيء»**. قالوا: يا رسول الله فإنهم يحدثون أحياناً بالشيء يكون حقاً؟ فقال

= أو متبوع أو مطاع، فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله، أو يعبدونه من دون الله، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله فهذه طواغيت العالم.

رسول الله ﷺ: **«تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقرها في أذن وليه قر الدجاجة، فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة»**[(١)]، فبين أن الذي يكون واقعاً ليس من صنع الشياطين، ولا من صنع الكهان، وإنما هو شيء تختطفه الشياطين من الملائكة، وقد أخبر الله جل وعلا عن ذلك في كتابه، وأخبر أن النجوم خلقت لأمور ثلاثة كما سيأتي: زينة للسماء، وعلامات يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، وفي ظلمات الليل، ورجوم للشياطين يرجمون بها حتى ما يسترقوا السمع ويُغووا عباد الله جل وعلا.

ولكن في مبعث النبي ﷺ ازداد الأمر بحيث إن الشياطين ما استطاعت أنها تستمع للملائكة بصورة من الصور كما أخبر عن ذلك الله جل وعلا عن مؤمن الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩﴾ [الجن: ٨، ٩]؛ يعني: مرصداً مُعَدّاً قوله: ﴿كُنَّا﴾؛ يعني: قبل هذا الوقت، ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ وذلك حماية للوحي حتى ما يخطفون القرآن الذي تتحدث به الملائكة بين السماء والأرض تكون آية أو كلمة وما أشبه ذلك، فيكون في ذلك فتنة للناس، وهذا من رحمة الله جل وعلا.

وكذلك تحرس السماء لغير ذلك، والشياطين قد يكونوا من الإنس، فهؤلاء الذين يطلقون الصواريخ والأقمار الصناعية ويقولون أنهم يغزون الفضاء سوف يقفون عند حد معين لا يتجاوزونه، وإلا يحدث لهم ما أخبر الله جل وعلا به: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ۝٣٣﴾ [الرحمٰن: ٣٣]، السلطان بعضهم يقول أنه العلم، الآن علموا فصاروا ينفذوا، ولكن لو نفذوا لحصل لهم ما قال الله جل وعلا: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ۝٣٥﴾ [الرحمٰن: ٣٥]، يرسل عليهم الشواظ من النار والنحاس فيهلكون بذلك، وقد بدأ شيء من هذا للإمريكان لما أُرسل على صاروخهم الذي أرسلوه شهاب من السماء فأحرقه

---

(١) رواه البخاري رقم ٦٢١٣، ومسلم رقم ٢٢٢٨.

ودمره، وبعد ذلك قالوا هذا هو النهاية، وانتكس أمرهم انتكاساً عظيماً، ولكن لا يذكرون هذا للناس ويبينونه.

فالمقصود أن السماء محروسة مطلقاً، وإنما هذا شيء محدود، ولهذا جاء في الحديث أنهم يصلون إلى العنان فقط، والعنان معناه السحاب، مسير السحاب والملائكة تكون هناك تدبر أمر الله جل وعلا(١).

وقوله: «في كل حيٍّ واحد»: هذا في الغالب. الأحياء قبائل العرب، وكانوا يفتخرون به.

وكونه طاغوت لأنهم يتحاكمون إليه ويخبر بالمغيبات، ولهذا يقول الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: رؤساء الطوغيت خمسة(٢)، ثم قال: ومنهم الذي يدعي علم الغيب هذا من رؤسائهم ليس طاغوت فقط بل من رؤسائهم، فالغيب لا يعلمه إلا الله جل وعلا، وقد يُطلع الله جل وعلا بعض رسله على شيء من ذلك ليكون آية له، أما الكهان فأمرهم محدود جداً مثل ما أخبر الرسول ﷺ أنه يخبر بالكلمة ثم يكذب معها مائة كلمة، ولكن مثل ما يقول الشيخ في المسائل يقول: النفوس تميل إلي الباطل، وإلا كيف يصدقون مائة من أجل كلمة واحدة(٣).

والآن الدول الكافرة وغيرها صارت تتخذ السحرة والكهان يستخبرونهم في الأمور التي يديرونها ويتبعونهم في ذلك، وهذا ليس غريباً لأن الكفر يجمع الشر كله.

---

(١) رواه البخاري رقم ٣١٢٠ عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ: أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن الملائكة تنزل في العنان وهو السحاب فتذكر الأمر قضي في السماء فتسترق الشياطين السمع فتسمعه فتوحيه إلى الكهان فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم»**.

(٢) ثلاثة الأصول قال رحمه الله: والطواغيت كثيرة، ورؤوسهم خمسة: إبليس لعنه الله، ومن عُبد وهو راض، ومن دعا الناس إلى عبادة نفسه، ومن ادعى شيئاً من علم الغيب، ومن حكم بغير ما أنزل الله.

(٣) الباب الخامس عشر المسألة الثامنة عشرة: قبول النفوس للباطل، كيف يتعلقون بواحدة، ولا يعتبرون بمائة؟

۞ **قال المؤلف كَلَلهُ: وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات»، قالوا: يا رسول الله! وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»**(١).

قوله: «اجتنبوا»: كونوا في جانب بعيد عن هذه الخصال، فهذا من أبلغ النهي والزجر، اجعلوكم في جانب بعيد عن الوقوع في هذه وملابساته وعملها، وهو أبلغ من قولك: (اتركوا).

قوله: «السبع»: (أل) في قوله: «السبع»، قد تأتي للتعظيم، وقد تأتي للحصر، وقد تأتي للتعريف، وقد تأتي للعهد، فهي تختلف باختلاف السياق، والتعظيم؛ كقوله جل وعلا: (القارعة) (الحاقة)؛ يعني: الأمر الهائل الذي يقرع القلوب والأسماع فيزعجها إزعاجاً هائلاً جداً.

فالسبع هنا ليست للحصر، قد تكون للعهد لأن الموبقات ليست محصورة في سبع فقط، وقد ورد أحاديث كثيرة في الزيادة على السبع، والمذكور ليس فيه العقوق، وقد جاء أن العقوق من الموبقات، وليس فيه شهادة الزور، وكذلك قول الزور، وقد جاء أن هذا من الموبقات(٢). ولهذا اختلف العلماء في معنى قوله السبع مع أن ابن عباس ﷺ سئل عن الكبائر فقال: هن إلى السبعين أقرب منهن إلى السبع(٣). وفي رواية إلى السبعمائة أقرب منهن إلى السبع(٤). وقد جاءت أحاديث كثيرة في تعداد ذنوب كثيرة أنها

---

(١) رواه البخاري رقم ٢٧٦٦، ومسلم رقم ٨٩.

(٢) رواه البخاري رقم ٢٦٥٤، ومسلم رقم ٨٧ عن أبي بكرة ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟**» ثلاثاً، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «**الإشراك بالله وعقوق الوالدين** ـ وجلس وكان متكئاً فقال: ـ **ألا وقول الزور**». قال: فما زال يكررها حتى قلنا: ليته يسكت.

(٣) مصنف عبد الرزاق رقم ١٩٧٠٢، والبيهقي في شعب الإيمان رقم ٢٩٤ عن ابن طاووس عن أبيه قيل لابن عباس: الكبائر سبع، قال: هي إلى السبعين أقرب.

(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١/١٣٣٧، وقال سعيد بن جُبير: قال رجل لابن عباس: الكبائر سبع؟ قال: هي إلى السبعمائة أقرب منها إلى السبع؛ غير أنه لا كبيرة مع استغفار ولا صغيرة مع إصرار.

من الكبائر، ولهذا حاول بعض العلماء حصرها فأوصلها إلى قرابة سبعمائة. وهي تنقسم إلى كبائر فعلية، تفعل بالجوارح، وكبائر في القلب اعتقادية مثل الكبر وبطر الحق وما أشبه ذلك، وهي أيضاً جرائم وكبائر، وعلى هذا يطلب الجواب عن قوله ﷺ: «اجتنبوا السبع»، لماذا قال السبع؟ قال بعض العلماء: ليس المقصود الحصر في هذا العدد، فالعدد غير مراد؛ يعني: ذكر العدد بأنها سبع غير مراد.

وقال بعضهم: أنه أعلم بهذا أولاً وذكر ذلك، ثم أعلم بالبقية فيؤخذ بما هو أكثر، وذكروا أجوبة غير هذين الجوابين؛ لأنه ذكر ﷺ كل ما يذكر حسب الحال التي يكون عليها السامع أو السائل، فاختلفت الأعداد لاختلاف الأحوال واختلاف السامعين، فإذا جاءت (أل) ودخلت على الاسم فإنها تدل على الحصر، ولكن هذا الحصر لا يلزم العدد قد يقصد به الشيء المعهود لكم الذي علمتموه وعرفتموه مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [المزمل: ١٥]، أولاً قال: ﴿رَسُولًا﴾ ثم قال: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾ [المزمل: ١٦] لأنه معلوم سبق معرفته وذكره فجاء بأل التي للتعريف، وهي تدل على العهد؛ يعني: عُهد وعرف.

فهنا يدل على أن الصحابة عرفوا هذه السبع قد سبق لهم العلم بها، أُعلموها من قِبل الرسول ﷺ ولهذا قال: «السبع».

قوله: «الموبقات»: هذا وصف لها، الموبق المهلك الذي يوبق إما في النار أو في الإثم، والإثم يلزم منه الإباقة في النار ـ نسأل الله العافية ـ فالموبقات؛ يعني: المهلكات التي تهلك من فعلها.

وهذا يدلنا على أن المعاصي فيها موبق، وفيها غير موبق، فمعنى ذلك أن المعاصي تنقسم إلى قسمين: كبائر وصغائر، وقد اختلف الناس في هذا اختلافاً كثيراً، والصحيح هو هذا؛ لأن القرآن دل على ذلك ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [النساء: ٣١]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢]، فلما ذكر الله جل وعلا الذين يجتنبون كبائر الإثم قال: ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾،

واللمم يقول أبو هريرة ﷺ: اللَّمة من الزنى، ثم يتوب ولا يعود، واللَّمة من السرقة، ثم يتوب ولا يعود؛ واللَّمة من شرب الخمر، ثم يتوب ولا يعود، قال: فتلك الإلمام[١].

وقد جاء التحذير من الرسول ﷺ عن الصغائر فكيف بالكبائر؟ وضرب مثلاً للصغائر عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «**إياكم ومحقرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه، وإن رسول الله ﷺ ضرب لهن مثلاً كمثل قوم نزلوا أرض فلاة فحضر صنيع القوم فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود والرجل يجيء بالعود حتى جمعوا سواداً فأججوا ناراً وأنضجوا ما قذفوا فيها**»[٢]، فكذا يقول الصغائر تجتمع حتى تهلك صاحبها، فينبغي للإنسان أن يكون منتبهاً لهذا الشيء.

فقوله: «**الموبقات**» كل هذا يدلنا على شفقة الرسول ﷺ مع أن هذا من الأمور التي أُمر أن يبلغها لنا ولكن مبالغته في هذا قال: «**اجتنبوا السبع الموبقات**»، ثم أن في هذا أن الإنسان يجب أن يعلم الشيء الذي يُنهى عنه أو يؤمر به، ولهذا قال الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ: «يا رسول الله ما هن؟»، فلا بد من المعرفة والعلم بها.

وهذا لا يدلنا على أنهم لم يعرفوا هذه الموبقات، ولكن الصحابة كانوا إذا أخبر الرسول ﷺ بخبر توقعوا أنه أمر جديد، وأنه يخبر بخبر غير السابق، ولهذا لما قال يوم النحر: «**أي شهر هذا؟**» سكتوا، وهم يعرفون أنه ذو الحجة، وكذلك قوله: «**أي بلد هذا؟**» سكتوا وهم يعرفون أنها مكة، ولكنهم ظنوا أنه سوف يسميها بغير اسمها[٣].

---

(١) تفسير الطبري ٢٢/ ٥٣٥، وجاء عن ابن عباس قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ﴾ [النجم: ٣٢] قال: كلّ شيء بين الحدّين، حدّ الدنيا وحدّ الآخرة تكفِّره الصلوات، وهو اللمم، وهو دون كل موجب؛ فأما حدّ الدنيا فكلّ حدّ فرض الله عقوبته في الدنيا؛ وأما حدّ الآخرة فكلّ شيء ختمه الله بالنار، وأخَّر عقوبته إلى الآخرة. وهو مذكور عن قتادة وعكرمة. تفسير الطبري ٢٢/ ٥٣٧.

(٢) أخرجه أحمد في المسند رقم ٣٨١٨.

(٣) رواه البخاري رقم ١٧١٤، ومسلم رقم ١٦٧٩ من حديث أبي بكرة.

قوله: «الشرك»: والشرك من أعظم الذنوب كما أخبر الله جل وعلا أنه لا يغفر لصاحبه الذي يموت عليه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء: ٤٨]، وكما جاء في حديث ابن مسعود ﷺ عندما سأل الرسول ﷺ: أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: «**أن تجعل لله نداً وهو خلقك**». قلت: إن ذلك لعظيم، قلت: ثم أي؟ قال: «**أن تقتل ولدك تخاف أن يطعم معك**». قلت: ثم أي؟ قال: «**أن تزاني بحليلة جارك**»[(١)].

فالمقصود أنه ذكر هنا أن أعظم الذنوب أن تجعل لله نداً، ومعلوم أن الله هو الخالق وحده، ولكن هذا يدل على أن الشرك لا عذر لأحد في فعله لأنه قال: «**أن تجعل لله نداً وهو خلقك**»؛ يعني: عندك البرهان واليقين أن الله هو الخالق وحده فكيف تشرك به، وذكر الذنوب، وذكر من كل نوع أكبر ما يقع منه، فذكر بعد ذلك القتل بأشد أنواعه وأبشعها وهو قتل الولد خشية الإطعام، وذكر الزنى بذكر أشد أنواعه وهو الزنى بامرأة الجار والزنى بالبعيدة أسهل من ذلك.

والشرك يكون فيه الكبير وفيه الصغير، وصغيره من الكبائر لأن الله جل وعلا قطع الرجاء عن صاحبه فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾، وأن هذه مصدرية، والمصدرية من أدوات العموم هي وما دخلت عليه، فيكون المعنى أن الشرك كله غير مغفور، وهذا يكون لمن مات عليه بدون توبة، أما التائب فإنه إذا قبل الله توبته كان كمن لا ذنب عليه.

والشرك هنا عام يدخل فيه الشرك في الربوبية، والألوهية، والشرك في توحيد الأسماء والصفات، وكلها واقعة في الأمة.

قوله: «والسحر»: هذا هو الشاهد، وهذا يدل على أن الصحابة يعرفون السحر فلو كانوا لا يعرفونه سألوا عنه، فكفى أنه قال: «**السحر**» وهو معروف مشهور في الناس من قديم، وقد يكون له أنواع متعددة وكثيرة، وبعضها يخفى على كثير من الناس، فيجب أن يجتنب السحر بأنواعه، واجتنابه بأن لا يفعله

---

(١) رواه البخاري رقم ٤٤٧٧، ومسلم رقم ٨٦.

ولا يُفعل له، ولا يرضى بفعله، ولا يكون مع الذين يفعلونه، لا بد من هذه الأمور هذا هو الاجتناب، أما إذا كان يفعله أو يشاهده ويرضى به ويتفرج عليه فهو لم يجتنبه في الواقع، فقد وقع في النهي، وإن كان فعله أعظم من هذا ولكن الراضي بالفعل كالفاعل لا فرق.

وجعل السحر يلي الشرك لأن السحر في الغالب لا ينفك عن الشرك، وضرره بالنسبة للغير أعظم من ضرر الشرك لأنه يتعدى إلى الغير، وقد يقتل الإنسان، وقد يذهب بعقله، وقد يُفرق بينه وبين أهله، وقد يُمرضه مرضاً شديداً، فعلى هذا يتبين لنا أن السحر له حقيقة وليس كما تقوله المعتزلة أنه تخيلات لا حقيقة لها لأن الله جل وعلا يقول: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦] فيقال في الجواب عن ذلك: أن هذا في بعض أنواعه يكون تخيلاً، وكثير منه ليس تخييلاً حقيقة، فقد سُحر النبي ﷺ حتى صار مثل ما قالت عائشة رضي الله عنها يخيل له أنه فعل الشيء ولم يفعله، وهذا أشد أنواعه.

جاء في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: سحر رسول الله ﷺ رجل من بني زريق يقال له لبيد بن الأعصم حتى كان رسول الله ﷺ يخيل إليه أنه يفعل الشيء وما فعله حتى إذا كان ذات يوم أو ذات ليلة وهو عندي لكنه دعا ودعا ثم قال: «**يا عائشة أشعرت أن الله أفتاني فيما استفتيته فيه، أتاني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي فقال أحدهما لصاحبه: ما وجع الرجل؟ فقال: مطبوب، قال: من طبه؟ قال: لبيد بن الأعصم، قال: في أي شيء؟ قال: في مشط ومشاطة وجف طلع نخلة ذكر. قال: وأين هو؟ قال: في بئر ذروان**». فأتاها رسول الله ﷺ في ناس من أصحابه فجاء فقال: «**يا عائشة كأن ماءها نقاعة الحناء أو كأن رؤوس نخلها رؤوس الشياطين**». قلت: يا رسول الله أفلا استخرجته؟ قال: «**قد عافاني الله فكرهت أن أثوِّر على الناس فيه شراً**». فأمر بها فدفنت[1]. فشفاه الله جل وعلا لما أبطل.

وقوله: «في مشط ومشاطة»: المشاطة هي ما يتساقط من الشعر إذا مشط.

---

(١) رواه البخاري رقم ٥٧٦٣، ومسلم رقم ٢١٨٩.

وقوله: «جف طلع نخلة ذكر»؛ يعني: كافور النخلة الفحل، وجاء فيه أنه وضع فيه إبر ومسامير وغير ذلك، وكل ذلك بواسطة الشياطين.

ولبيد بن الأعصم يهودي عرف أنه أعظم سحرتهم، وأنه أعلمهم بالسحر وليس في هذا ما يقدح في عصمة النبوة، لأن العصمة باتفاق العلماء تكون فيما يبلغه، وعقله لم يذهب وما يبلغه لم يتأثر في ذلك، ولكن الذي تأثر بدنه وبدنه ﷺ سبق أنه مثل البشر أنه تصيبه الأدواء، وتصيبه جراح العدو، وأذاهم وقد حاولوا قتله، وكذلك يصيبه الألم كغيره من البشر، ولهذا قال الله جل وعلا: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠].

قوله: «وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق»: المقصود بالنفس النفس المؤمنة، ولهذا قيدها بقوله: **«إلا بالحق»**، فليس كل النفوس محرم قتلها، فالكافر مباح القتل إلا إذا كان مسالماً غير محارب وله عهد، أما إذا كان حربي فهو مباح القتل بل مأمور بأن يُقتل سواء كان من أهل السلاح والحرب، أو من أهل الرأي، أو من أهل الإعانة والتمويل أو غير ذلك من الذين لهم يد في حرب الحق لا فرق بينهم.

وقوله: «إلا بالحق» قد جاء بيان ذلك أنها ثلاثة وهي **«النفس بالنفس»**؛ يعني: إذا قتل الإنسان آخر محرم عليه قتله فإنه يُقتل به بحق قصاصاً، أو يكون زانياً بعد الإحصان أو ترك دينه وارتد إلى دين آخر هذه التي جاء النص بها عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والمفارق لدينه التارك للجماعة»**[1]. وما عدا ذلك فلا يحل قتل المسلم بحال من الأحوال.

قوله: «وأكل الربا»؛ يعني: أن هذا أيضاً من الموبقات، وعبَّر عنه بالأكل عن سائر الانتفاعات لأنه هو الغالب وهو غالب ما يقصد من أجله،

---

(١) رواه البخاري رقم ٦٨٧٨، ومسلم رقم ١٦٧٦.

والمقصود تعاطيه بأي أمر كان أكله أو لم يأكله، لأن الشيء قد يُعبر عنه بأعظم مقاصده، والمال من أعظم مقاصده الأكل، والربا مأخوذ من الزيادة لأنه يزيد بالوقت أو يزيد بالتأجيل وما أشبه ذلك وهو يزيد بدون مقابل وهو من أعظم الذنوب، وقد جاءت النصوص بالوعيد لفاعله كما قال الله جل وعلا: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥] إلى قوله جل وعلا: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾ [البقرة: ٢٧٩]، فالأمر فيه شديد جداً يقول ابن دقيق العيد رحمه الله: إن أكل الربا مجرب لسوء الخاتمة ـ نسأل الله العافية ـ آكل الربا يختم له بخاتمة سيئة غالباً.

وقد ذكر النبي ﷺ أنه من أسباب عذاب القبر، وأنه يعذب إلى أن تقوم القيامة، بأن يلقم حجارة يكون في نهر يسبح مثل الدم، ويكون بطنه كبير جداً ويكون عنده ملك يلقمه حجارة يفغر فاه فيلقمه حجر، ثم يذهب يسبح ثم يعود فيلقمه حجراً وهكذا[(١)].

وقوله: «وأكل مال اليتيم»: وهذا أيضاً التعبير بالأكل مثل التعبير بأكل الربا، والمقصود أخذه بأي وجه كان، سواءً أكله أو لم يأكله.

واليتيم هو الصغير الذي لم يبلغ، وقد مات والده فقط، لأن الوالد هو الذي يقوم عليه وهو الذي يكتسب له.

وهذا التعظيم لأنه ضعيف لا يستطيع أن ينتصر، ولا يستطيع أن يحول بين من أراد أخذ حقه، والله جل وعلا يتولى الانتصار له ولهذا توعد صاحبه، وما يلاقيه بعد الموت عظيم، قال الله جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ

---

(١) رواه البخاري رقم ١٣٨٦ من حديث جندب الطويل في الرؤيا وفيه: «قالا: انطلق فانطلقنا حتى أتينا على نهر من دم فيه رجل قائم على وسط النهر، قال يزيد ووهب بن جرير عن جرير بن حازم: وعلى شط النهر رجل بين يديه حجارة، فأقبل الرجل الذي في النهر فإذا أراد أن يخرج رمى الرجل بحجر في فيه فرده حيث كان، فجعل كلما جاء ليخرج رمى في فيه بحجر فيرجع كما كان، فقلت: ما هذا؟ قالا: انطلق فانطلقنا»، ثم قالا له: «والذي رأيته في النهر آكلوا الربا».

ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النساء: ١٠]، والرسول ﷺ يقول: «**اللهم إني أحرِّج حق الضعيفين اليتيم والمرأة**»[(١)]، ومعنى أحرِّج: أمنع.

وقوله: «والتولي يوم الزحف»: التولي هو الإدبار والذهاب والفرار والانصراف والانهزام عن ملاقاة العدو.

و«**الزحف**»؛ يعني: كون أحد المتقاتلين يزحف بعضهم إلى الآخر، والغالب أنه عند القتال أنه ليس هناك سرعة إنما يدنوا بعضهم إلى بعض رويداً رويداً لأنهم كل واحد يستعد ويشاهد الموت، ففي هذا الموقف يجب على المؤمن أن يثبت، ويجب عليه أنه يتعرض لفضل الله الذي وعد به المؤمن الصابر المقتول في سبيل الله، فأشرف القتل هو الشهادة.

عن سعد بن أبي وقاص أن رجلاً جاء إلى الصلاة والنبي ﷺ يصلي بنا، فلما انتهى إلى الصف قال: اللهم ائتني أفضل ما تؤتي عبادك الصالحين، قال: فلما قضى النبي ﷺ الصلاة قال: «**من المتكلم آنفاً**؟ قال الرجل: أنا، قال: **إذن يعقر جوادك، وتستشهد في سبيل الله**»[(٢)].

فهذا أفضل ما أعطاه الله الصالحين من عباده، الشهادة هي أعلى المنازل، فكيف يفر الإنسان منها، مع أن المسلم موعود بإحدى الحسنيين ولا بد، إما النصر والظفر بالعدو، وإما الشهادة فلا ينفك عن الحسنى، فإذا فر وتولى فمعنى ذلك أنه يرغب في الدنيا عن الآخرة، ولهذا جُوزي بأن تُوعد بالنار، وغضب الله جل وعلا، إلا أن يكون توليه لتهيؤ للقتال، أو الانحياز إلى فئة ستقاتل، فئة تقاتل، كما أخبر الله جل وعلا بذلك، وبهذا استدل

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم ٩٦٦٦، والنسائي في الكبرى رقم ٩١٤٩، وابن ماجه رقم ٣٦٧٨، والحاكم في المستدرك رقم ٢١١ وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٢) مسند البزار رقم ١١١٣، والنسائي في الكبرى رقم ٢٩٢١، وابن حبان في صحيحه رقم ٤٦٤٠، والحاكم في المستدرك رقم ٧٤٨ وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

العلماء على أن المسلم إذا حضر الواقعة بين المؤمنين والكافرين أنه يتعين عليه أن يقاتل فيصبح في هذه الحالة القتال عليه فرض عين، وكذلك يلحق بهذا إذا داهم الكفار البلد الذي هو فيه من بلاد المسلمين يُصبح القتال عليه فرض عين، والحالة الثالثة التي يكون فيها القتال فرض عين إذا عينه الإمام وقال له أنت تقاتل، هذه الحالات الثلاث هي التي يكون القتال فيها فرض عين، وما عدا ذلك يكون من فروض الكفاية.

قوله: «وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»: القذف المعروف أنه يكون بالحجارة يقذف بالحجارة، ولكن الكلام قد يكون أبلغ وأنكى من الحجارة، ولا سيما إذا كنَّ غافلات مؤمنات.

قوله: «المحصَنات» بفتح الصاد: اللاتي أحصنهنَّ الله جل وعلا بحفظهن عن الوقوع في الزنى، وسواء كانت متزوجة أو غير متزوجة بإجماع العلماء.

والمحصِنات بالكسر اللاتي حفظن فروجهن من الزنى، سواء كانت متزوجة أو غير متزوجة.

قوله: «غافلات»؛ يعني: غافلات عن هذا الأمر لسلامة قلوبهن، وسلامة أعراضهن وبُعدهن عن التفكر في ذلك، فهذا الأمر لا يدور في نفوسهن، ولا يتحدثن به، رميهن في هذه الحالة من أعظم الذنوب لأنه بُهت لأنها إذا سمعت بهذا بهتت، شيء لم تكن تنتظره.

قوله: «المؤمنات» يخرج بذلك الكافرات فرميهنَّ ليس من الكبائر، ولكنه لا يجوز، وهذا ليس خاص بالمرأة بل حتى الرجال فقذف الرجل أو المرأة في هذا من الموبقات.

۞ قال المؤلف ﷺ: وعن جندب مرفوعاً: «حَدُّ الساحر: ضربُه بالسيف»، رواه الترمذي وقال: الصحيح أنه موقوف[1].

(١) رواه الترمذي رقم ١٤٦٠ وقال: هذا حديث لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه وإسماعيل بن مسلم المكي يضعف في الحديث من قبل حفظه، وإسماعيل بن مسلم العبدي البصري قال وكيع: هو ثقة ويروي عن الحسن أيضاً، والصحيح عن جندب =

قال: الصحيح أنه موقوف على جندب، والترمذي رواه مرفوعاً وإذا كان موقوفاً فمعناه أن هذا حكم شرعي لا بد له من مستند من كتاب الله أو سُنَّة رسوله ﷺ، وإذا قال الصحابي: الحكم كذا وكذا، فهذا له حكم المرفوع، وهذا منه.

جندب اختلف فيه هل هو جندب بن عبد الله البجلي أو جندب الخير، والشارح صحح أنه جندب الخير الذي ستأتي قصته.

هذا الأثر في حكم الساحر، أنه يُقتل، فإذا كان هذا حكمه أنه يقتل، دل على أن السحر كفر؛ لأن قتله يكون كفراً وليس حداً.

۞ قال المؤلف رحمه الله: وفي صحيح البخاري عن بَجالة بن عَبَدة قال: كتب عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه: أن اقتلوا كل ساحرٍ وساحرة، قال: فقتلنا ثلاث سواحر[(١)].

هذا جاء في كتاب عمر لما كتب إلى الذين كانوا في بلاد الفرس لما

= موقوف والعمل على هذا عند بعض أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم. وأخرجه البيهقي رقم ١٦٩٤٢ وقال: إسماعيل بن مسلم ضعيف، والحاكم في المستدرك رقم ٨٠٧٣ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد وإن كان الشيخان تركا حديث إسماعيل بن مسلم فإنه غريب صحيح وله شاهد صحيح على شرطهما جميعاً في ضد هذا. وقال الذهبي: صحيح غريب. وقال ابن حجر في الفتح ٢٣٦/١٠: في سنده ضعف.

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم ١٦٥٧ عن عمرو بن دينار سمع بجالة يقول: كنت كاتباً لجزء بن معاوية عم الأحنف بن قيس فأتانا كتاب عمر قبل موته بسنة: أن اقتلوا كل ساحر، وربما قال سفيان: وساحرة، وفرقوا بين كل ذي محرم من المجوس وانهوهم عن الزمزمة فقتلنا ثلاثة سواحر..». وأخرجه البيهقي رقم ١٦٩٤٠، والبزار رقم ١٠٦٠، وأبو يعلى رقم ٨٦٠، وابن أبي شيبة رقم ٣٢٦٥٢. وأصله عند البخاري رقم ٢٩٨٧ عن عمرو قال: كنت جالساً مع جابر بن زيد وعمرو بن أوس فحدثهما بجالة سنة سبعين عام حج مصعب بن الزبير بأهل البصرة عند درج زمزم قال: كنت كاتباً لجزء بن معاوية عن الأحنف فأتانا كتاب عمر بن الخطاب قبل موته بسنة فرقوا بين كل ذي محرم من المجوس ولم يكن عمر أخذ الجزية من المجوس حتى شهد عبد الرحمٰن بن عوف أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوس هجر.

حدث أن الرسول ﷺ أخذ من مجوس هجر الجزية فأمر أن يفرق بينهم وبين محارمهم لأنهم ينكحون الأمهات والأخوات والبنات في دينهم المجوسي فقال: «**فرقوا بينهم وبين محارمهم حتى نلحقهم بأهل الكتاب**»؛ يعني: تأخذ منهم الجزية «وأمر أن يقتل كل ساحر وساحرة»، وهذا يدل على أن السحر كفر، وأن حده القتل.

واختلف العلماء هل يستتاب قبل أن يقتل، أو أنهم لا يستتابون؟ منهم من قال لا بد من استتابتهم، فإن تابوا لم يقتلوا وإن لم يتوبوا قتلوا، ومنهم من قال: لا يستتابون؛ لأن ظاهر هذا الأثر، وكذلك ظاهر أثر جندب يدل عدم الاستتابة، ولأن السحر علم والعلم لا يُتاب منه، وهذا الخلاف في حكم قتله، أما ما بينه وبين الله فلا خلاف أنه إذا تاب صادقاً أن توبته تقبل كالمشرك.

قوله: «فقتلنا ثلاث سواحر»؛ يعني: نساء ساحرات.

۞ قال المؤلف رحمه الله: وصحَّ عن حفصة رضي الله عنها أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها فقُتلت[1]**. وكذا صح عن جندب.**

حفصه رضي الله عنها أعتقت جاريتها بعد موتها فسحرتها فأُمرت بها فقتلت والتدبير: أنها تحتقها بعد موتها، تقول: أنت مملوكة لي، فإذا مت فأنت عتيقة فاستبطأت موتها، فعملت لها سحراً حتى تقتلها حتى تعتق، فأمرت بها فقتلت.

قوله: «وكذا صح عن جندب»: هذا بلا تردد هذا جندب الخير فقد وقع له قصة في زمن الوليد شاهد ساحراً يلعب يدخل في البقرة من دبرها ويخرج من فمها والناس يتعجبون، ثم يأخذ إنسان فيقتله فيلقي رأسه، ثم يعيده فشاهده جندب، ثم لما كان من الغد جاء مشتملاً على السيف، فلما صار يلعب لعبته اخترط السيف فقتله فقال: أحيي نفسك إن كنت صادقاً،

---

(١) الموطأ رقم ٣٢٤٧ حدثني يحيى عن مالك عن محمد بن عبد الرحمٰن بن سعد بن زرارة أنه بلغه أن حفصة زوج النبي ﷺ قتلت جارية لها سحرتها وقد كانت دبَّرتها فأمرت بها فقتلت.

فأخذه الوليد فسجنه[(١)].

وجاء في أبي داود وغيره أن النبي ﷺ كان في سفر، وكان يقول: «جندب وما جندب، يضرب ضربة واحدة فيبعث أمة وحده»[(٢)]، قال العلماء: المقصود ما فعله جندب، فدل هذا على أن هذا حق، وأنه دليل على أنه مُصيب.

۞ قال المؤلف رحمه الله: قال أحمد: عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ.

يعني: صح قتل الساحر عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ عمر بن الخطاب، وجندب الخير وحفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنهم، وهم لم ينكر عليهم أحد، ولم يأت أن أحداً منهم قال لا يقتل فيكون هذا من الإجماع السكوتي لأنه لو كان باطلاً لأنكر، وهذا الإجماع هو الإجماع الذي ينضبط وهو إجماع الصحابة. وبهذا يتبين:

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ١/ ٧٧ عن الأعمش عن إبراهيم قال: كان ساحراً يلعب بين يدي الوليد يريهم أنه يدخل في فم الحمار ويخرج من ذنبه أو من دبره ويدخل في أست الحمار ويخرج من فيه، ويريهم أنه يضرب رأس نفسه فيرمي به ثم يشتد فيأخذه ثم يعيده مكانه، فانطلق جندب إلى الصقيل وسيفه عنده فقال: وجب أجرك فهاته، قال: فأخذه فاشتمل عليه ثم جاء إلى الساحر مع أصحابه وهو في بعض ما كان يصنع فضرب عنقه فتفرق أصحاب الوليد ودخل هو البيت وأخذ جندب وأصحابه فسجنوا. وفي تاريخ الإسلام للذهبي ٢/ ٨٠ قال أبو عثمان النهدي: كان ساحر يلعب عند الوليد بن عقبة بن أبي معيط، فيأخذ سيفه فيذبح نفسه ولا يضره، فقام جندب فأخذ السيف فضرب عنقه، ثم قرأ ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣]. إسناده صحيح.

(٢) مصنف عبد الرزاق رقم ١٨٧٤٨ النبي ﷺ قال لجندب: «جندب وما جندب يضرب ضربة يفرق بها بين الحق والباطل»، فإذا أبو بستان يلعب في أسفل الحصن عند الوليد بن عقبة وهو أمير الكوفة، والناس يحسبون أنه على سور القصر يعني وسط القصر، فقال جندب: ويلكم أيها الناس أما يلعب بكم والله إنه لفي أسفل القصر إنما هو في أسفل القصر، ثم انطلق واشتمل على السيف ثم ضربه فمنهم من يقول قتله ومنهم من يقول لم يقتله، وذهب عنه السحر، فقال أبو بستان: قد نفعني الله بضربتك وسجنه الوليد بن عقبة.

أولاً: أن السحر كفر.

ثانياً: أن حكم الساحر أنه يقتل.

بقي ما هي المناسبة في إدخال السحر في كتاب التوحيد؟

وقد سبق أن الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ قال بعد ما ذكر باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إلٰه إلا الله، أن ما بعد هذه الترجمة شرح لها إلى آخر الكتاب، فكيف يكون هذا شرح للتوحيد والشهادة أن لا إلٰه إلا الله؟

المناسبة: أن السحر مضاد للتوحيد، وما كان مضاداً له يكون مفسراً له؛ لأن الأشياء تتبين بأضدادها.

❁ **قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: فيه مسائل:**

❁ **الأولى: تفسير الجبت والطاغوت، والفرق بينهما.**

أن الطاغوت مأخوذ من الطغيان، وهو كل ما تجاوز الحد الذي حُد، أما الجبت فهو السحر، أو أنه الشر، فيكون بينهما فرق في العموم والخصوص.







الباب الخامس والعشرون

۞ قال المؤلف رحمه الله: باب بيان شيء من أنواع السحر.

هذا يدلنا على أن السحر أنواع متعددة، وأنه يذكر شيئاً منها ولا يذكرها كلها، وهو ذكر الشيء الذي هو بعيد عن السحر الحقيقي، وإنما ألحق به من باب القياس، والتشبيه به، لينبه على أن هناك أنواع أعظم من هذه يتعاطاها كثيرٌ من الناس، والسحر في هذا الزمن كثر لأسباب منها:

أولاً: كثرة الوافدين من بلاد بعيدة.

ثانياً: الجهل، وتهاون الناس بارتكاب المعاصي.

ثالثاً: تعلق الناس بالدنيا، فصارت أكثر عباداتهم للدنيا فهم يريدون الشيء الذي يناسبهم وإن كان الطريق محرماً.

قوله: «بيان شيء»: شيء هنا للتقليل؛ يعني: بيان شيء من أنواع السحر التي قد يتوهم الكثير أنها ليست من السحر. والسحر سمي بهذا: لخفاء سببه، ولطفه على الناس.

۞ قال المؤلف رحمه الله: قال أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا عوف، حدثنا حيّان بن العلاء، حدثنا قُطَن بن قبيصة، عن أبيه: أنه سمع النبي ﷺ قال: «إن العيافة والطَّرْق، والطيرة من الجبت»، قال عوف: العيافةُ: زجر الطير، والطَّرقُ: الخط يُخط في الأرض. والجبت: قال الحسن: رنَّة الشيطان. إسناده جيد. ولأبي داود والنسائي وابن حبان في صحيحه: المسند منه[1].

والسحر منه ما هو بواسطة الشياطين، وهذا يكون شركاً، ومنه ما هو

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم ٢٠٦٠٤، وأبو داود رقم ٣٩٠٧، والبيهقي رقم ١٦٩٥٨، وابن حبان رقم ٦١٣١.

بالعقد والنفث والأبخرة والأدوية وغير ذلك، فالمؤلف ﷺ أراد أن يبين أن ما كان مماثلاً للسحر أنه يُلحق به، وإن لم يكن حكمه حكمه لأنه سبق لنا أن الساحر كافر، وأن حده أن يضرب بالسيف حتى يموت.

وهذه الأشياء التي ذكرها هنا ليس هذا حكمها، ولكنها في العمل تكون مماثلة للسحر فتلحق به من ناحية الفساد والإفساد فيكون لها حكمه، ولهذا ذكر هذه الأنواع التي فسرها عوف «إن العيافة والطرق والطيرة من الجبت».

هذا الحديث لم ينفرد به أحمد، لكن ليس عند النسائي تفسير عوف. وعوف هو ابن أبي جميلة العبدي البصري المعروف بعوف الأعرابي ثقة، مأمون عارف باللغة يرجع إليه قومه في ذلك، وهو من أهل الاستقامة مات سنة ـ ست أو سبع ـ وأربعين وله ست وثمانون سنة.

قوله: «العيافة»: زجر الطير، تقول: عاف يعيف عيفاً إذا زجر وحدس وظن. وزجر الطير معناه أنه إذا كان ساكناً واقعاً، يُطيره حتى يسمع ماذا يقول ويرى ماذا يفعل، فهي من الطيرة لأن الطيرة للتشاؤم والشر، والعيافة في الفأل للتفاؤل وقد تستعمل بما تستعمل به الطيرة.

فهو إثارة الطير حتى يستدل بذلك على الأمور المستقبلية، فمن كان محسناً للحدس والتخمين لهذه الأشياء؛ يعني: في زجر الطير ونحوه من الحيوانات، سموه عائفاً كما سيأتي.

وقد كانت عند العرب كثيرة جداً، وقد اشتهر بنو أسد بها وغيرهم من القبائل، فمثلاً إذا رأى عقاباً طار تفاءل بأنه سيعاقب من يعاديه، وإذا رأى غراباً تفاءل بأن من يعاديه سوف يغترب ولا يرجع يموت، فهم يأخذونه من الاسم، ويأخذونه من الفعل الذي هو الطيران، وقد لا يكون مقصوراً على الطير وإنما في الحيوانات والناس وغيرها.

وعلى هذا يكون زجر الطير من السحر؛ لأنه يعمل عمله حيث أن الساحر يخبر بخبر الشياطين وإن كان يعمل عملاً من أعمالهم متعاوناً معهم حتى يضر الساحر الذي أريد ضرره.

وقوله: «والطرق»: فسره بأنه الخط الذي يُخط بالأرض، وهو من علوم الجاهلية حيث أنهم يخطون خطوطاً يستدلون بها على الغائب أو الغريب أنه سيأتي أو لا يأتي، أو أنه مات أو أنه موجود، ويستدلون بها على الأمر المستقبل هل يحصل لهم كذا أو لا، ويكون هناك رجل معين لهذا الشيء يأتون إليه يسمونه العائف ويكون عنده غلام، فإذا جاء إليه يقدم له شيء من الحلوان فيخط خطوطاً كثيرة بسرعة بحيث لا يستطيع أن يحسبها ثم يبدأ يمسح والغلام عنده يتكلم بكلام على حسب سجعهم وكهانتهم، ثم يبدأ يمسح اثنين اثنين، فإن بقي خطان تفاءل وقال: إن الأمر ناجح، وإن كان واحداً فهو دال على الخيبة وهي كلها أمور وهمية من الشيطان لا حقيقة لها، ولهم طرق أخرى أيضاً في الخط. وقد جاء في صحيح مسلم: أن النبي ﷺ سُئل عن الخط «قال: قلت: ومنا رجال يخطون، قال: كان نبي من الأنبياء يخط فمن وافق خطه فذاك»[1]، يعني أنه جائز، قال العلماء: هذا من الأمر المستحيل الممتنع لأن الله جعل لهذا النبي آية وهي الخط الذي يخطه فيخبر به عن الأمر المستقبل، أما بعد ذلك فقد عدم العلم به فلا يُصار إليه.

قوله: «فمن وافق خطه فذاك»؛ يعني: من وافق خطه أصاب، ولكن لا علم لأحد بهذا فإذا صار العلم به ممتنع صار العمل به لا يجوز.

فيبقى الخط بالأرض كالضرب بالحصى لا فرق بينها فهي من المحرمات التى يُدعى بها علم الغيب، ولهذا ألحقه بالسحر.

قوله: «والطيرة»: فسيأتي الكلام فيها إن شاء الله.

قوله: «من الجبت»: تفسير الحسن أنه رنة الشيطان، يقول الشارح: لا أدري ما معنى هذا[2]. ولكن عن الحسن وغيره أن الشيطان رن أربع رنات: رنة حين لعن، ورنة حين أهبط، ورنة حين ولد رسول الله ﷺ، ورنة حين نزلت فاتحة الكتاب[3].

---

(١) رواه مسلم رقم ٥٣٧ من حديث معاوية بن الحكم السلمي.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٣٤٩/١، قوله قال الحسن: رنة الشيطان لم أجد فيه كلاماً.

(٣) الدر المنثور ١٦/١ قال: وأخرج وكيع في تفسيره، وابن الأنباري في المصاحف، =

والرنة معناها: التصويت بحزن، الصوت المحزن.

وعن سعيد بن جبير قال: لما لعن إبليس تغيرت صورته عن صورة الملائكة فخرج لذلك فرنَّ رنة، فكل رنة في الدنيا إلى يوم القيامة منها[(١)].

قوله: «فكل رنة في الدنيا إلى يوم القيامة»؛ يعني: الرنين الخبيث الذي يكون أصله من التحزن والتسخط.

ثم يقول سعيد: لما أهبط رن رنة أخرى لما أنزل على رسول الله ﷺ وقام يصلي بمكة رن رنة اجتمعت له جنوده، فقال لهم: أيسوا من رد أمة محمد إلى الشرك ولكن زينوا لهم الكذب والمعاصي[(٢)].

فرنينه ينتج عنه أمور خبيثة من حثه جنوده واجتهاده في إغواء الناس، وإضلالهم والعمل على أن يكتسب منهم خلقاً كثيراً يكونون معه في النار، فالرنة لها أثر.

ومعنى ذلك أن الجبت من عمل الشيطان الذي يعمله ويدعو إليه يكون هذا هو المفهوم من قوله: **«رنة الشيطان»** وقد جاء عن السلف تفسيرهم الجبت بالشيطان[(٣)]، فيدخل في الجبت السحر، وعمل الشياطين وعمل

= وأبو الشيخ في العظمة، وأبو نعيم في الحلية عن مجاهد قال: رن إبليس أربعاً حين نزلت فاتحة الكتاب، وحين لعن، وحين هبط إلى الأرض، وحين بعث محمد ﷺ. قال في مجمع الزوائد ٣/ ١٣ وعن ابن عباس قال: لما افتتح رسول الله ﷺ مكة رن إبليس رنة اجتمعت إليه جنوده فقالوا: ايئسوا أن تردوا أمة محمد على الشرك بعد يومكم هذا ولكن افتنوهم في دينهم وأفشوا فيهم النوح. رواه الطبراني في الكبير ورجاله موثقون. وقال في موضع آخر: وعن أبي هريرة أن إبليس رن حين أنزلت فاتحة الكتاب وأنزلت بالمدينة. رواه الطبراني في الأوسط شبيه المرفوع ورجاله رجال الصحيح ٦/ ٣١١.

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٦١.

(٢) المعجم الكبير للطبراني رقم ١٢٣١٨ عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﷺ: قال: لما افتتح النبي ﷺ مكة رن إبليس رنة اجتمعت إليه جنوده، فقال: أيئسوا أن نريد أمة محمد على الشرك بعد يومكم هذا ولكن أفتنوهم في دينهم وافشوا فيهم النوح.

(٣) تفسير ابن كثير ٢/ ٣٣٤ قال: وعن ابن عباس، وأبي العالية، ومجاهد، وعطاء، وعكرمة، وأبي مالك، وسعيد بن جبير، والشعبي، والحسن، وعطية: «الجبت» الشيطان ـ زاد ابن عباس: بالحبشية.

الشيطان (رنته) ينتج عنها التحريش بين الناس وإغوائهم فيكون من هذا الباب كعمل الساحر أو أشد.

وأصل الجبت الخبث، الشيء الخبيث الذي لا خير فيه، قال الجوهري رحمه الله: الجبت كلمة تطلق على الشر كله، هذا لأنها تجمع الشر[١].

والسلف ـ رحمهم الله ـ كانوا يفسرون الشيء العام ببعض معانيه فتفسيرهم الجبت بالشيطان يكون تفسيراً جزئي، وهذا التفسير الجزئي يكون لحاجة السامع، ففسر عمر رضي الله عنه الجبت بالسحر، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٥١]، الجبت هنا فسر بالشرك بالله[٢] والكفر به، والطاغوت: بالشيطان[٣] الذي يدعو إليه، يدعو إلى الكفر ويزينه ويحسنه، وعطف الطاغوت على الجبت إما من عطف التغاير أو من عطف الخاص على العام، فيكون الطاغوت أخص من الجبت والجبت يكون أعم.

ووجه الاستدلال بهذا الحديث: أنه سبق أنه فسر الجبت بأنه السحر وهو تفسير عمر رضي الله عنه، وفي هذا نص على أن هذه المذكورات من السحر؛ أي: نوع من أنواع السحر هذا هو وجه الاستدلال، فالسحر يغطي على الأمور الخفية ويجعل الإنسان يتخيل أنه يحدث شيء غريب جداً، لا يعرف أصله، وقد يأتي بالمتضادات مثل أن يتخيل له أنه يقتل هذا الحيوان ثم يحييه، وهو لا يقتل ولا يحيي ولكنه سحر، وإنما هو يسحر الأعين كما قال الله تعالى: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦] وهو نوع

---

(١) الصحاح في اللغة ١/ ٧٨ قال: الجِبْتُ: كلمة تقع على الصنم والكاهن والساحر ونحو ذلك. قال في القاموس المحيط ١/ ١٩١: الجبت بالكسر: الصنم والكاهن والساحر والسحر، والذي لا خير فيه، وكل ما عبد من دون الله تعالى.

(٢) تفسير ابن كثير ٢/ ٣٣٤: وعن ابن عباس أيضاً: «الجبت»: الشرك. وعنه: «الجبت»: الأصنام.

(٣) تفسير ابن كثير ٢/ ٣٣٤ عن عمر بن الخطاب أنه قال: «الجبت»: السحر، و«الطاغوت»: الشيطان.

من السحر الحقيقي، ونوع آخر من السحر التخييلي وهو يجعل الشيء نفسه الذي تشاهده على ما تشاهده، وقد يخيل للإنسان أنه نفس الساحر يأتي له بفواكه وبأشياء يعرفها ثم إذا انجلى الأمر وانتهى السحر فإذا هي ليست بشيء وربما تكون خبيثة، يعني أنه يقلب الأشياء بعين الإنسان ربما تكون بعرة ويصورها كأنها تفاحة، أو يأتي بشيء يخيل له أنه ذهب وهو مثلاً حصى ليس ذهباً، وهذا الشيء هو الذي يقول أنه لا حقيقة له، وإنما هو تخيلٌ أمام الناس وهذا نوع منه.

ونوع آخر أعظم منه فهو ملحق به لأن الخطوط بالأرض إذا خط الإنسان بالأرض ثم وافق قدراً وقد أخبر بهذا الشيء يخيل إليه أنه يعرف من المغيبات وهو لا يعرف شيئاً وإنما هي أمور خيالية، وهذه العادة لا تزال عند الناس في بعض المدن، وقد جعلوها طريق لهم للتعيش من السذج والعوام، فالإنسان إذا فقد له شيء أو غاب له قريب أتى إليهم فخطوا له خطوطاً فقالوا له: إن قريبك كذا وكذا، وإن المسروق في كذا والسارق فلان، وهو كذاب ليس عنده من ذلك شيء وإنما هي ظنون، وبعضهم يقدم للشياطين بهذا يعبد الشيطان يقدم له شيئاً فيأتي الشيطان فيخبره بالأشياء الغائبة؛ لأن الشياطين تستطيع أن تطلع على ما لا يطلع عليه الإنسان، فهو لا يخلو إما أن يكون كذاب دجال ليس عنده من ذلك شيء أو يكون قد عبد الشياطين فهم يخبرونه هذا بالنسبة للطرق.

أما العيافة فلا يحسنها إلا من تعاطاها، والذي يتعاطها قد يبتلي بشيء من ذلك وسوف يأتي أن هذا لا يجوز، بل إن هذا واضح أنه من الجبت.

أما الطيرة فلها باب مستقل.

۞ قال المؤلف ﷺ: وعن ابن عباس ﵄ قال: قال رسول الله ﷺ «من اقتبس شعبة من النجوم، فقد اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد» رواه أبو داود[(١)] وبإسناد صحيح.

---

(١) أبو داود رقم ٣٩٠٥، وأحمد في المسند رقم ٢٨٤٠، وابن ماجه رقم ٣٧٢٦.

قوله: «اقتبس»: أخذ، اقتباس الشيء أخذه واستفاده. كاقتباس العلم.

قوله: «شعبة»: القطعة من الشيء والطائفة منه، ولهذا جاء في الحديث: **«الحياء شعبة من الإيمان»**(١).

قوله: «النجوم»: النجوم لا يؤخذ منها شيء، ولا أحد يستطيع أن يصل إليها وإنما المقصود العلم الذي يتعلق بها، الاستدلال بحركاتها وأفولها وطلوعها واقترانها ومسيرها ونحو ذلك على ما يحدث في الكون أو ما يحصل للناس من ولادة وسعادة ونحوس وغير ذلك.

فقوله: «اقتبس شعبة من النجوم» أخذ قطعة من الاستدلال من العلم الذي يدعيه وإلا ليس هناك علوم في الواقع يستدل بها وإن كان التنجيم له كتب وله علماء ولا يزال إلى الآن الناس يعملون به، ولكن كثير ما يتبين أنه كذب، وهذا مثل الكاهن يأتيه الشيطان بكلمة فيضع معها مئة كلمة كذب فالكلمة التي يسمعها من الملائكة يضع معها مائة كذبة، وهذا قد يوافق قدراً فيقع ما أخبر به فيصدق الكذب الكثير الذي لا حصر له، وهذا من جنس ما مضى فإنه دعوى باطلة، ادعاء لا علم لمدعي فيه فالذي يقتبس شيئاً من هذه النجوم؛ يعني: يستدل بطلوعها أو بأفولها أو بسيرها أو باجتماعها واقترانها على الأمور المستقبلة من خير وشر يكون كاذباً ومدعياً لعلم الغيب، ومن المعلوم أن السحرة كذبة، وأهل باطل، فهذا يشبهه فأعطي حكمه، فهذا مثل الخط والعيافة والطَّرق الذي يكون بالحصى، وقد يكون بالودع الذي يؤخذ من البحر، وقد يكون بغير ذلك مثل ما يفعله الآن المنحرفون الجدد الذين يقولون بقراءة الفنجان والكف، هذا من هذا النوع والنظر في الطالع وبعض الصحف والمجلات التي تكتب في هذا منتشرة بين الناس.

قوله: «فقد اقتبس شعبة من السحر»: يعني أنه إذا فعل ذلك يكون له حكم الساحر، وليس حكمه من كل وجه كما سبق لأن الساحر حكمه أنه

---

(١) رواه البخاري رقم ٩، ومسلم رقم ٣٥ عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: **«الإيمان بضع وستون شعبة والحياء شعبة من الإيمان»**.

كافر، السحر الحقيقي الذي مضى بيانه، الذي لا يكون إلا بواسطة الشياطين، فإن الساحر يتعاون مع الشيطان، والشيطان لا يعاونه حتى يأتيه بما يريد من عبادة غير الله جل وعلا أو الاستهانة بشيء مما له صلة بالله جل وعلا من أسمائه أو آياته، ولهذا يحدث هذا كثير من السحرة، ولا يعمل سحرهم إلا بهذا، وهذا قول على الله جل وعلا في الحكم على الأمور المستقبلة من مخلوقات مسخرة مدبرة لا علم لها بما يدعيه هذا المقتبس.

قوله: «زاد ما زاد»: هذا اختُلف فيه هل هو من كلام الرسول ﷺ أو أنه من كلام الراوي؟

والصواب أنه كلام الرسول ﷺ؛ يعني: أنه كلما زاد اقتباساً من النجوم، زاد شراً أو سحراً وكفراً بهذا.

ولا حقيقة له في الواقع وإنما هو تلبيس، والتحايل على الإحياء وأسرار الغيب، وكذلك قد يكون فيها أكل أموال الناس، ومن فعل ذلك فقد وقع في نوع من أنواع السحر المحرم.

۞ قال المؤلف رحمه الله: وللنسائي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر، ومن سحر فقد أشرك ومن تعلق شيئاً وكل إليه»[1].

عادة السحرة أنهم يأخذون معهم خيوطاً أو ما أشبه ذلك فيعقدون عنده يريدون إصابة

الإنسان بعقد العقدة في الخيط ثم ينفث فيها، حتى ينعقد ما يريده في المسحور، قال الله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤﴾ [الفلق: ٤]؛ يعني: السواحر التي يفعلن ذلك.

والنفث: هو نفخ مع الريق دون التفل. وهذا قد يكون من الراقي وقد يكون من الساحر، فيجتمع كما يقول ابن القيم رحمه الله في النفث فعل الساحر

---

(١) النسائي في السنن الكبرى رقم ٣٥٤٢، والطبراني في الأوسط رقم ١٤٦٩.

فإذا تكيفت نفسه بالخبث والشر الذي يريده بالمسحور ويستعين عليه بالأرواح الخبيثة نفخ في تلك العقد نفخاً معه ريق فيخرج من نفسه الخبيثة نفس ممازج للشر والأذى مقترن بالريق الممازج لذلك، وقد تساعد هو والروح الشيطانية على أذى المسحور فيقع فيه السحر بإذن الله الكوني القدري لا الأمر الشرعي[1].

فمن عقد عقدة ثم نفث فيها وإن كان لا يحسن السحر لأنه تشبه بالساحر، وأراد أن يحصل له ما حصل لهم، ولهذا قال: «**فقد سحر**»؛ يعني: أنه ارتكب السحر، ارتكب ما ارتكبه الساحر، فهذا الحديث يدل على أن من تشبه بالساحر في فعله فإنه يُعطى حكمه في الإثم، وهذا يدل على أنه راضياً بهذا الفعل ويعجبه، والراضي كالفاعل.

قوله: «ومن سحر فقد أشرك»: وهذا دليل على أن السحر مصاحباً للشرك، وأن الساحر يكون مشركاً، فهو لا ينفك عن الشرك وهذا هو السحر الحقيقي؛ لأن هناك سحر مجازي، السحر الحقيقي هو الذي يكون بواسطة الشياطين، والشيطان لا يمكن أن يعاون الإنسان ويخدمه إلا إذا أطاعه فيحصل الاستمتاع من الشيطان من الإنسي الذي ذكر الله جل وعلا، ثم إذا كان مطيعاً له وعابداً ولو بوجه من الوجوه فإنه يعاونه على الشر والأذى فيحصل ما يحصل.

ولهذا سن لنا رسول الله ﷺ التحرز من الشيطان وأمرنا الله جل وعلا في كتابه بذلك: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، فيلجأ الإنسان إلى ربه من الشيطان، يستعيذ به منه لأنه غير منظور وغير مشاهد وإنما يجري من ابن آدم مجرى الدم، ومن رحمته جل وعلا أن جعل ذكره حرزاً من الشيطان، وكذلك آياته التي يتحرز بها المؤمن، وقد ثبت أن من قرأ آية الكرسي حينما يأوي إلى فراشه أنه لا يقر به شيطان ولا يزال عليه من الله حافظ إلى أن يصبح، وكذلك ذكر الله جل وعلا، وهذا من فضل الله علينا.

---

(١) بدائع الفوائد ٢/٤٤٧.

ومعلوم أن من الإنس شياطين يناسبهم حالات شياطين الجن فهم يجتمعون على الشر ويتعاونون عليه ولكن لا يمكن التعاون إلا بالاستمتاع، هذا سيتمتع من هذا بما يحب، وهذا كذلك يعني: الجن يستمتع من الإنسي بعبادته وطاعته واتباعه على الباطل والكفر بالله جل وعلا، والإنسي يستمتع من الجني ببعض المنافع التي ينفعه بها إما ضرر عدوه أو ما أشبه ذلك.

والذكر يمنع من الشيطان، تجد الذين تتسلط عليهم الشياطين هم أهل الغفلة وأهل الجهل والذين لا يذكرون الله ولا سيما في أماكن الشياطين، فإن الشياطين لها أماكن تأوي إليها مثل الحمامات وأماكن القذر لأنها تليق بهم وتناسبهم، ولهذا سُن لمن أراد دخول الخلاء أن يسمي ويذكر اسم الله، وأخبر الرسول ﷺ أن ستر ما بين عوراتنا وأعين الجن ذكر الله جل وعلا[1]، فإذا ذكر الله وسمَّى كان هذا حارساً له من الشيطان، أما إذا دخل الخلاء دون أن يسمي فقد يلابسه الشيطان، وكذلك الاسم عند الدخول للمنزل وغير ذلك، وقد علمنا أن الله جل وعلا قال للشيطان: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ [الإسراء: ٦٤] فهو يشارك في الأكل، وفي المبيت وفي غير ذلك، وقد يشارك في الولد، كما في الحديث أنه ثبت عنه ﷺ قال: «**لو أن أحدهم إذا أراد أن يأتي أهله قال: باسم الله، اللَّهم جنِّبنا الشيطان وجنِّب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن قُدر بينهما ولد في ذلك لم يضره شيطان أبداً**»[2]، ولهذا تجد كثيرين من الأولاد فيهم شبه من الشياطين في أفعالهم.

فالمقصود أن الواجب على المسلم أن يحترز من الشيطان وإذا كان له ورد لا يخل به فلن يضره لا سحر ولا غيره؛ يعني: الذي بواسطة الشياطين؛ لأن الشيطان إذا أراد أن يصيب الإنسان بالسحر تحين الفرص يتحين الغفلة،

---

(١) الترمذي رقم ٦٠٦ وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وإسناده ليس بذاك القوي، وقد روي عن أنس عن النبي ﷺ أشياء في هذا. وابن ماجه رقم ٢٩٧ عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**ستر ما بين أعين الجن وعورات بني آدم إذا دخل أحدهم الخلاء أن يقول بسم الله**».

(٢) سبق تخريجه.

أما إذا كان له ورد فلن يصل له، ولا يقال على هذا أن الرسول ﷺ أصيب بالسحر وهو أفضل عباد الله جل وعلا ولم يخل بذكر الله، لأن هذا لحكمة أرادها الله جل وعلا، وإذا أراد الله جل وعلا شيئاً قيض له أسباباً.

قوله: «ومن تعلق شيئاً وكل إليه»: وهذا جاء في أحاديث أخرى، والغالب أنه يقصد بالتعلق فعل القلب، تعلق بكذا؛ يعني: قلبه به، بخلاف عَلق وعلّق هذا يكون بفعله.

ومعلوم أن العاقل لا يفعل فعلاً إلا وقد تقدم قلبه الباعث للجوارح على ذلك، ولا يمكن أن يكون هناك عمل بإرادة سابقة إلا إذا كان ساهياً أو سكراناً.

وفي هذا العموم **«من تعلق شيئاً وكل إليه»**، يدل على أن الإنسان إذا تعلق قلبه بشيء فإن الله يكله إليه ويتخل عنه، وهذا أمر مشاهد. والواجب على الإنسان أن يكون اعتماده على ربه، وتعلقه به، وأن هذه التي تجري بين الناس من الأمور أسباب جعلها الله أسباباً قد تؤدي إلى ما وضعت له وقد لا تؤدي، وقد تنعكس بإذن الله جل وعلا.

ومن تعلق قلبه بالسحرة والشياطين وكله الله جل وعلا إليهم، ومن تعلق قلبه بالله جل وعلا فإنه يكفيه ويكون هو حسبه وكافيه، أما الذي يتعلق على الأسباب الظاهرة يكون موكلاً إليه فهذا مطلق، **«من تعلق شيئاً وكل إليه»** عام مطلق، وكونه يُوكل إليه؛ يعني: أن الله يُخلي بينه وبين ما قصده وأراده وتعلق قلبه عليه، وكل من وكل إلى مخلوق فقد وكل إلى ضعة وإلى ضعف فيكون ضائعاً ولا يتحصل له من المراد الذي قصده شيء، إلا شيئاً وافق القدر الذي كتبه الله جل وعلا ولا يمكن أن يتخلف، ولكن هذا لا يفيد شيئاً.

۞ قال المؤلف رحمه الله: وعن ابن مسعود رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أنبئكم ما العضهُ؟ هي النميمة: القالة بين الناس» رواه مسلم[1].

---

(١) رواه مسلم رقم ٢٦٠٦ عن عبد الله بن مسعود قال: إن محمداً ﷺ قال: **«ألا أنبئكم ما العضه؟ هي النميمة القالة بين الناس»** وإن محمداً ﷺ قال: **«إن الرجل يصدق حتى يكتب صدّيقاً ويكذب حتى يكتب كذّاباً»**.

قوله: «ألا»: أداة تنبيه وعرض.

قوله: «هل أنبئكم»: أخبركم وأعلمكم بالشيء الذي يجب أن تجتنبوه، وتحذروه أن تقعوا فيه فيترتب على هذا الوعيد الشديد.

قوله: «ما العَضْهُ»: يقول ابن الأثير: هكذا يروى في كتب الحديث (بفتح العين)، وفي كتب الغريب بكسر العين وفتح الضاد **«العِضَهُ»**[(١)].

يقول النووي رحمه الله في شرح مسلم: هذه اللفظة رووها على وجهين: أحدهما العِضَه بكسر العين وفتح الضاد المعجمة على وزن العِدَة والزِّنة. والثاني: العَضْه بفتح العين وإسكان الضاد على وزن الوجه، وهذا الثاني هو الأشهر في روايات بلادنا والأشهر في كتب الحديث وكتب غريبه، والأول أشهر في كتب اللغة. ونقل القاضي أنه رواية أكثر شيوخهم، وتقدير الحديث والله أعلم: ألا أنبئكم ما العضه الفاحش الغليظ التحريم[(٢)].

وقد فسرها النبي ﷺ بأنها (النميمة).

والنَّم هو الزيادة والتكثير، ونمه إذا زاد فيه وكثره، أو نمه إذا ذكره، نم الحديث إذا ذكره للغير.

والنميمة: هي نقل الحديث إلى الغير على وجه الإفساد. فيخرج من هذا النصيحة فهي ليست من هذا الباب.

والنميمة شبيهة بالسحر بالفعل، وقد تكون في أثرها أبلغ من السحر كما جاء في الأثر عن يحيى بن كثير رحمه الله أنه قال: يفسد النمام في ساعة ما لا يفسد الساحر في شهر[(٣)]؛ لأن الساحر يفرق بين المرء وزوجه كما ذكر الله جل وعلا ذلك، وكذلك النمام يفرق بين الأحبة وبين المتفقين على أمر من الأمور لما ينمه من الكذب، أو من الحديث الزائد أو الذي غُير عن وجهه أو أنه ذكره ولم يغيره عن وجهه ولكن يريد بذلك الإفساد.

---

(١) النهاية في غريب الأثر ٣/٤٩٦ هكذا يروى في كتب الحديث. والذي جاء في كتب الغريب: «ألا أنبئكم ما العضه؟» بكسر العين وفتح الضاد.

(٢) شرح النووي على مسلم ١٦/١٥٩.

(٣) حلية الأولياء ٣/٧٠.

وهذا دليل واضح على أنها من المحرمات؛ لأن الإسلام جاء بالأمر بالإصلاح والصلة وربط القلوب بعضها ببعض، وإزاحة الأمور التي يكون فيها مباينة أو مقاطعة، ولا يجوز أن يكون هناك مقاطعة ولا مباغضة إلا في الله جل وعلا، فالنميمة من المحرمات بل هي من أكبر الكبائر، وقد ثبت في صحيح مسلم وغيره عن النبي ﷺ: «**لا يدخل الجنة قتات**»[1]. والقتات هو النمام، وفي رواية: «**لا يدخل الجنة نمام**»[2]، وهذا وعيد عظيم.

وقوله: «القالة بين الناس»؛ يعني: الفاشية بين الناس الكثيرة المنتشرة، التي تكثر فيما بينهم، فصار الناس يقولونها وكثرت بينهم، أو أنها التي يتقولها الناس فيما بينهم، فهذا يدل على أنها كثيرة، هذا في زمن الرسول ﷺ وهذا خبر يدل على التحريم والمنع، وهذا يدل على عموم تحريم النميمة؛ يعني: بين الناس كلهم، وقد ذكر ابن حزم رحمه الله أن هذا مجمع عليه قال: اتفقوا على تحريم الغيبة والنميمة في غير النصيحة الواجبة، فهو أمر لا خفاء فيه.

۞ قال المؤلف رحمه الله: ولهما عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «إن من البيان لسحراً»[3].

قال ابن عبد البر[4]: تأولته طائفة على الذم؛ لأن السحر مذموم وذهب أكثر أهل العلم وجماعة أهل الأدب إلى أنه على المدح؛ لأن الله تعالى مدح البيان.

يعني أن قوله: «إن من البيان لسحراً»: أنه يثني عليه ويمدحه، فكيف مثلاً يكون الشيء الممدوح المثنى عليه مشبهاً بالسحر التشبيه البليغ «**إن من البيان لسحراً**»، ثم يستدل على هذا أنه جاء رجلاً فتكلم عند أمير المؤمنين

---

(١) رواه البخاري رقم ٦٠٥٦ حذيفة: سمعت النبي ﷺ يقول: «**لا يدخل الجنة قتات**»، ومسلم رقم ١٠٥.

(٢) رواه مسلم رقم ١٠٥.

(٣) رواه البخاري رقم ٥١٤٦، ومسلم رقم ٨٦٩.

(٤) التمهيد ٥/١٧١.

عمر بن عبد العزيز وطلب حاجة فأحسن في المسألة وأبان وأفصح، ببلاغة ووجازة يقول: فقال أمير المؤمنين: هذا والله السحر الحلال. انتهى.

فهل يكون من السحر شيء حلال؟ وأكثر المحدثين يرون أن هذا من باب الذم وليس من باب المدح، وهذا هو الصواب، فهو خرج مخرج الذم، فليس هناك من السحر سحراً حلال، السحر كله شر، ولهذا ذكره الإمام مالك رحمه الله في الموطأ في باب ـ ما يذم من الكلام ـ[١] فهذا ظاهر جداً أنه يرى أنه من باب الذم، وكذلك قال أبو داود في سننه أنه من باب الذم، وقال إنك تسمع الفصيح البليغ يتكلم في الباطل فيغطي عليه من بيانه وفصاحته وبلاغته ما يجعلك تتخيل أنه حق، ثم يتكلم بالشيء الحق فمن بلاغته وفصاحته يغطي عليه ويجعله كأنه باطلاً لمراده، وهذا شبيه بالسحر تماماً، وهذا وجه إلحاقه بالسحر، وقد ذكروا سبب ورود هذا الحديث أنه جاء أُناس من قبل المشرق إلي النبي ﷺ فسئل أحدهم: ما تقول في فلان؟ وهم حاضرون: فتكلم فيه كلاماً يثني عليه فيه، فقال المتكلم فيه: إنه يعلم مني أفضل من هذا ولكنه حسدني يا رسول الله، فتكلم فيه الكلام ذمه فيه وبالغ فيه، ثم قال: والله يا رسول الله ما كذبت لا في الأولى ولا في الثانية، ولكني رضيت فقلت أحسن ما أعلم، وغضبت فقلت أسوأ ما أعلم[٢].

فدل هذا على أنه من باب الذم، وهذا هو الصواب، وهذا الذي ذكره المؤلف رحمه الله من أجله أن البيان والفصاحة الزائدة عن الحاجة قد تغطي الحق، ويلتبس الحق بالباطل فيكون الإنسان إذا كان عنده بلاغة وفصاحة شبيهاً بالساحر الذي يغطي على الحق ويستره فيكون ملحق به، وهذا واضح في مراد المؤلف، فيكون هذا هو معنى الحديث عند المؤلف رحمه الله ويكون الشاهد على ذلك واضحاً، ولهذا جاء في حديث أم سلمة الذي في الصحيح أن النبي ﷺ قال: «**إنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض**

---

(١) الموطأ ٩٨٦/٢ (٣ ـ باب: ما يكره من الكلام بغير ذكر الله).

(٢) المستدرك ٧١٠/٣ عن أبي بكرة.

فمن قضيت له بحق أخيه شيئاً بقوله فإنما أقطع له قطعة من النار فلا يأخذها»[١]، فقوله: «**ألحن**»؛ يعني: أفصح وأبين وأقدر على إظهار ما يريد، وتغطية الحق الذي يكون عند صاحبه، ولهذا جاء قول الشاعر في ذكر العسل:

في زخرف القول تزيين لباطله   والحق قد يعتريه سوء تعبير
تقول: هذا مُجاج النحل تمدحه   وإن تشأ قلت: هذا قيء الزَّنابير
مدحاً وذماً وما جاوزت وصفهما   حسن البيان يرى الظلماء كالنور[٢]

يعني: أن الفصاحة والبلاغة إذا قصد بها نصرة الباطل وإضعاف الحق أو تغطيته وستره أنها تكون ملحقة بالسحر في الحكم، وهذا هو مراد المؤلف في الحديث، فيكون الحديث واضح في إرادة في هذا الباب، ولهذا جاء ذم البليغ الذي يتخلل بلسانه كما تتخلل البقرة بلسانها كما في الحديث عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه كما تتخلل البقرة**»[٣].

وقد وصف الله المنافقين بالبلاغة والفصاحة، قال جل وعلا: ﴿وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: ٤]؛ يعني: تسمع لقولهم لفصاحتهم وبلاغتهم، فهذا من باب الذم، ليس من باب الثناء وهو واضح، فعلى هذا يكون الحديث خرج مخرج الذم وليس مخرج المدح كما قال ابن عبد البر.

والمقصود في قوله: «**إن من البيان**»؛ يعني: البيان الباطل، أما البيان الذي يقصد به نصرة الحق، وقمع الباطل، فهذا لا يكون داخلاً في ذلك، والشريعة مبنية على هذا كلها، الشرع بُني على تنمية الخير وتكثيره وعلى إذهاب الشر أو تقليله إذا لم يستطع ذلك.

وعلى هذا لا يكون من السحر سحراً حلالاً كما يقوله بعض الكُتَّاب هذا خطأ، فالسحر ليس فيه شيء حلال.

---

(١) رواه البخاري رقم ٢٦٧٨٠، ومسلم رقم ١٧١٣.
(٢) ذيل طبقات الحنابلة ١٢٨/١.
(٣) أخرجه الترمذي رقم ٢٨٥٣، وأخرجه أحمد في المسند رقم ٦٥٤٣، وأبو داود رقم ٥٠٠٥، وفيه: «الباقرة بلسانها».

وهناك أمور تلتبس على كثير من الناس قد تدخل في هذا الباب مثل ما يقع لبعض المشعوذين والدجالين وبعض خدمة الشياطين وعبدة الشياطين من الأمور التي يُخيل للإنسان أنها كرامات وأنها من الله جل وعلا، والواقع أنها إهانات، أو أنها حيل وشعوذة وكذب، فقد يدعي أو يُدعا له أنه من الأولياء والله يكرم أوليائه بأنه يُوجد على أيديهم ما يخرق به العادة التي تجري عليها سنن الله في الحياة، وعلماء أهل السُّنَّة يذكرون هذا في العقائد يقولون: إنه يجب التصديق بكرامات الأولياء؛ لأن أهل البدع ينكرون ذلك ويجعلونه من باب واحد أنه من الشيطان، وأنه كذب، زاعمين أنه لو تم الإقرار لأحد من الناس بأنه يحصل له هذه الآيات لالتبس هذا بآيات الأنبياء فلا نفرق بين النبي وبين الولي، هذا زعمهم فهم ينظرون إلى ما تهديهم إليه عقولهم فيحكمون به عموماً، والواجب اتباع كتاب الله وسُنَّة نبيه ﷺ.

وقد ذكر الله جل وعلا في كتابه شيئاً من كرامات الأولياء حتى نؤمن بها مثل ما قال عن مريم: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧]، والمحراب هو المكان الذي يُتخذ للصلاة، وليس هو الطاق الموجود الآن ويسمى محراباً، فهذا من البدع ولم يكن معروفاً، وإنما اتخذ كما يقول بعض العلماء من باب المصالح المرسلة فقط؛ لأنه يوفر على الناس صفاً، وهو مثل المنارة اتخذت لأجل المصلحة العامة التي تسمى المصالح المرسلة حتى يكون الصوت منتشراً مسموعاً في الحي كله، والآن أصبحت المنارة مجرد علامة على المسجد، والمقصود من المنارة الذي كان قديماً ذهب بوجود المكبرات.

۞ قال المؤلف رحمه الله: فيه مسائل:

۞ الأولى: أن علم النجوم من نوع السحر.

يعني: ليس علم النجوم مطلقاً وسيأتي علم النجوم أنه ينقسم إلى قسمين: علم تيسير وعلم تأثير، والذي يلحق بالسحر هو علم التأثير؛ لأن الاستدلال على الحوادث التي تحدث بما يكون للنجوم من طلوع أو أفول أو

اقتران أو مسير يكون ملحقاً بالسحر من هذا النوع، ومعلوم أن مثل هذا كذب؛ لأن النجوم مدبرة ومسخرة، وسيأتي أن الله خلقها لأمور ثلاثة التي ذكرها الله جل وعلا في القرآن، وأن من ادعى غير ذلك أنه مخطئ وضال ومضيع لنصيبه عند الله جل وعلا، فالمقصود أن الاستدلال والادعاء على أمر من أمور الغيب هو قول على الله جل وعلا وكذب، وكونه ينسب إلى مخلوق من المخلوقات هذا قد يلتبس على بعض الجهلة من الناس فيكون مثل تلبيس الساحر وتغطيته للحق فيكون ملحق به.

۞ الثانية: العقد مع النفث من ذلك.

يعني: عقد الخيوط مع النفث، والنفث هو إخراج النفس مخالطاً للريق، والنفوس تختلف منها نفوس خيرة طبعت على الخير ولا تريد إلا خيراً، ونفوس شريرة طبعت على الشر وتريد الشر بالناس، والشر يختلف عند الناس هناك نفوس حسدة يصيبون الناس بأعينهم ونظرهم، ونفوس شريرة ليس عندها هذا الأمر ولكنها تطلب الشر وتريده وتحرص عليه، فلهذا يسعون في السحر، فهم إذا نفث النافث يخرج مع نفثه ريق مخالط للشر من النفس الشريرة ثم يتعاون مع الشيطان فيعقد العقد التي يقصد بها أن ينعقد ما أراده هذا قصده من العقدة، وقد ينعقد بإذن الله الكوني لا بإذنه الشرعي؛ لأن الله جل وعلا لا يأمر بالفساد شرعاً ولا أمراً، ولكن لا يقع شيء إلا بإرادته جل وعلا؛ لأنه هو المتصرف في الكون كله جل وعلا وقد جعل لذلك أسباباً.

۞ الثالثة: أن النميمة من ذلك.

يعني: أنها في حكمه فتلحق به.

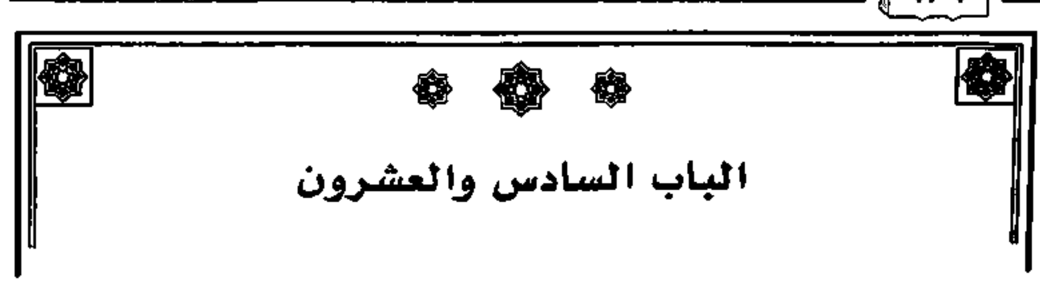
۞ الرابعة: أن من ذلك بعض الفصاحة.

قال: بعض الفصاحة؛ لأن الفصاحة إذا قصد بها نصر الحق وإظهاره وبيانه فهي مشروعة ومطلوبة، وإنما المذموم لبس الحق بالباطل، وتغطية الحق وإظهار الباطل، وإذا كان هذا المقصود فهي من هذا النوع تكون من أنواع السحر، وهذا دليل على أن المؤلف رحمه الله يرى أن الحديث خرج مخرج الذم

لا مخرج المدح، فإذن هذه الأمور التي ذكرها ملحقة بالسحر، زجر الطير، وكذلك الخطوط في الأرض، وكذلك ضرب الحصى والاستدلال بالحصى على الأمور المستقبلية أو الغائبة، وكذلك ضرب الودع والخرز، وفي ذلك ما يسمونه بقراءة الكف أو بقراءة الفنجان أو ما أشبه ذلك من الأمور التي تكون مشابهة لذلك وهي كثيرة، فكلها تكون ملحقة بهذا، وفي ذلك أيضاً النميمة ومن ذلك الفصاحة والبلاغة التي يُراد بها إظهار الباطل وتغطية الحق، فهذه أنواع من السحر؛ لأنها ملحقة به؛ لأن ضررها يكون شبيهاً بالسحر فأعطيت حكمه.

أما حكم الساحر فهو كافر وكذلك يقتل شرعاً، وهذا؛ لأن دليله خاص فخرج بخصوص الدليل عن هذه الأحكام من الأنواع التي ألحقت بالسحر.





الباب السادس والعشرون

قال المؤلف رحمه الله: باب ما جاء في الكهان ونحوهم.

«الكاهن» هو الذي يتصل بالشياطين، يأخذ الأخبار عنهم. والشياطين يسترقون السمع من الملائكة، وقد وصف الرسول ﷺ فعلهم ذلك أنه يركب بعضهم بعضاً حتى يصلوا إلى قرب السحاب ثم يتنصتوا لما تتكلم به الملائكة من الأمر الذي أمرهم الله جل وعلا به في تدبير أمور الخلق في الأرض، وإنزال المطر والريح وما أشبه ذلك مما يتصل بالناس، فيخطف الفوقاني الكلمة من الملَك، ويلقيها على من تحته إلى أن تصل إلى من في الأرض ثم يذهب بها مسرعاً إلى صاحبه من الكهان فيقرها في أذنه ويزيد معها مائة كذبة، ثم إن الكاهن قد يزيد أيضاً، هكذا جاء وصف استراق السمع.

وكانت الكهانة في العرب كثيرة، وكانت لها منزلة عندهم، ويفتخرون بها، حتى إنه إذا كان في القبيلة كاهناً صاروا يفتخرون بذلك على غيرهم ممن ليس عندهم، وكانوا يتحاكمون إليهم ويسألونهم عن الأمور التي تشكل عليهم فلما بُعث رسول الله ﷺ حُرست السماء حراسة مشددة بالشهب التي يرجم بها الشياطين، فلم يستطيعوا أن يسمعوا شيئاً لأجل ذلك، وقد ذكر الله جل وعلا ذلك عن مؤمن الجن بقوله: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ۝ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝﴾ [الجن: ٩، ١٠] ثم لما انتهى الوحي، وتوفي رسول الله ﷺ عاد الأمر إلى ما كان عليه، فالكهان لا يزالون موجودين ولكنهم ليسوا بالكثرة التي كانوا عليها بالجاهلية.

فعلى هذا نقول: الكهانة هي الأخذ عن الشياطين، والإخبار بالمستقبل، يعني ادعاء معرفة الأمور المغيبة في المستقبل والإخبار عنها.

قوله: «ونحوهم»؛ يعني: يلحق بالكاهن من كان بهذه الصفة أو قريباً منها مثل العراف، والعراف هو الذي يتعاطى معرفة الأشياء المغيبة عن الناس مثل المسروق ومكان الضالة، ومكان الغريب الذي ذهب عن أهله وما أشبه ذلك، غير أنه لا يعرف ذلك بنفسه وإنما هو بواسطة الشياطين، والشياطين لهم مقدرة على معرفة الأمور أكثر من الإنس وقد يكون مجرد حدس وظن.

وكذلك الذين يتعاطون معرفة الأشياء، بشيء مما يتوهم أنه سبب، وهو ليس سبباً مثل الضرب بالودع والحصى والخط بالرمل، وكذلك ما يسمى حديثاً بقراءة الفنجان وقراءة الكف، والنظر في الطالع وما أشبه ذلك من الخرافات، وقد تُؤكل بها أموال الناس وكل هذا داخل في الكهانة.

والأصل في هذا أن من ادعى علم الغيب أنه نازع الله جل وعلا في صفة من صفاته ومن نازع الله في شيء من خصائصه يكون كافراً، ولهذا أخبر الله جل وعلا في القرآن أنه لا يعلم غيب السماوات والأرض إلا هو جل وعلا، ومعلوم أن الإنسان ظلوم جهول وإنه لا حد لظلمه وكثير من الناس يُنازع ربه جل وعلا في أشياء كثيرة ولكن الأصل في الكهانة هو هذا.

والواجب على الإنسان أن يكون عنده بيان وفرقان، يفرق به بين الحق والباطل، ولا يكون ذلك إلا بكتاب الله جل وعلا وسُنَّة رسوله ﷺ، نعم العاقل قد يكون عنده شيء من ذلك ولكن العقل لا يستقل بمعرفة الأشياء لا بد أن يرشد، ولهذا يلتبس على كثير من الناس أشباه الكهان أنهم أولياء لله جل وعلا، وأن ما يحدث على أيديهم يكون كرامة ويكون خارقاً للعادة، فيحتاج الإنسان في هذا إلى أن يكون بصيراً.

والأصل في هذا النظر في عمل الإنسان نفسه وحالته التي يكون عليها، فإن الإنسان مثلاً إذا قال أنا صادق أو قال أنه من أولياء الله دعوى قد يدعيها الصادق مع أن الغالب أن الصادق لا يدعي هذا ولا يذكر ذلك، بل المعروف أن أولياء الله يزدرون أنفسهم ويحتقرون أعمالهم ويخافون كثيراً من ربهم جل وعلا؛ لأن الذي يقول مثل هذا القول أنه يدعو الناس إلى أن يعظموه ويُجلوه فهو يدعو إلى مراد نفسه وما يهواه، ولكن على سبيل الفرض الذي يكون

ولياً لله لا يختلط ويلتبس أمره بالفاجر الكاهن والسحرة، كما أن النبي الصادق لا يلتبس بالمتنبئ الكاذب وهذا أمر واضح، حيث إنه إذا قال قائل: إنه نبي يخبر عن خبر الله جل وعلا فلا يخلو الحال إما أن يكون هو أفضل الناس وخيرهم أو هو شر الناس وأكذبهم وأبعدهم عن الله جل وعلا، ومعلوم أن هذان لا يلتبس أحدهما بالآخر عند سبر حالهم والنظر إليهم، وكذلك في هذه الأمور، فمثلاً الذي يدعي أنه ولي لله جل وعلا ثم يدعو إلى عبادته أو إلى عبادة غيره من المقبورين أو إلى عبادة من يدعي أنه من الأولياء، فيقول مثلاً: إذا كان لك حاجة يمكن أن تأتي إلى قبر فلان أو غيره فتسأله حاجتك منه، كما يذكر ذلك كثير مما يؤلف في طبقات الأولياء على حد زعمهم ولكنهم من دعاة الشرك ـ نسأل الله العافية ـ.

وكذلك الذي يُلبس على الناس كأن يدخل في النار ويقول أنها لا تضره أو أنه يضرب نفسه بالسكين مثلاً ويقول أنها لا تدخل في جسده ولا تضره؛ لأنه ولي، أو أنه يمسك الحيات والعقارب ونحوها ويقول أنها لا تضره؛ لأنه ولي من الأولياء، فمثل هذا هو من إخوان الشياطين من الكهنة، والكهنة هم الذين يكون لهم أولياء من الشياطين.

فالمقصود أن الواجب الرجوع إلى كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ في الفرقان والبيان في أحوال الناس وأفعالهم حتى لا يلتبس الحق بالباطل، فإن كثيراً من الناس يشتبه عليه هذا الباب كثيراً فيحتاج إلى بيان.

۞ قال المؤلف رحمه الله: روى مسلم في «صحيحه» عن بعض أزواج النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال: «من أتى عرافاً فسأله عن شيء ـ فصدقه بما يقول ـ لم تقبل له صلاة أربعين يوماً»[1].

قوله: «عن بعض أزواج النبي ﷺ»: جاء في بعض طرق الحديث تسميتها وهي حفصة رضي الله عنها.

---

(١) رواه مسلم رقم ٢٢٣٠، وليس فيه: «**فصدقه بما يقول**»، وهي عند أحمد في المسند رقم ١٦٦٣٨.

قوله: «من أتى»: الإتيان يدل على أمور، يدل على أنه: إما شك في كذبه، أو أنه مصدق له وهذا أعظم، أو يريد أن يأخذ عنه ويقتبس منه، أو ينتفع بأقواله وما يذكر.

قوله: «عرافاً»: العراف هو الذي يتعاطى علم الغيب، فدخل فيه الكاهن وسيأتي الكلام عليه إن شاء الله.

قوله: «فسأله»: السؤال مرتب على الإتيان، فالغالب أنه لا يأتي إليه إلا ليسأله، وإن كان قد يأتي من باب النظر والاختبار، ولكن إذا كان مشهوراً بهذا أنه عراف، فالغالب أن الذي يأتي إليه ليسأل وينتفع بزعمه.

قوله: «فصدقه»: هذه الكلمة ليست في صحيح مسلم، الذي في الصحيح: «**من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين يوماً**»، وإنما كلمة «صدقه» في مسند الإمام أحمد في نفس سند هذا الحديث، ويجوز أن يكون هناك بعض نسخ الإمام مسلم تكون مذكورة فيه، ولكن شراح الحديث لم يذكروا ذلك والله أعلم، ولكن الجزم أن هذه الكلمة ليست في صحيح مسلم تحتاج إلى الاستقصاء والتتبع.

والمقصود في هذا أنه لا يجوز تخطية العلماء على سبيل الجزم والظن في كونك اطلعت على كتاب أو كتابين أو نسخة أو نسختين، يجب أن تتوقف في هذا وتعلم أن الشيء الذي خفي عليك أكثر مما اطلعت عليه، وهذا مجرد مثال فقط، ومثل ذلك يقال في الأحاديث التي تضعف في مثل هذا الكتاب الذي هو عمدة وأصل يرجع إليه. فكثير من الناس أغري بالتصحيح والتضعيف مع أن التضعيف والتصحيح في وقتنا هذا لا يعتبر من هؤلاء؛ لأنه كما قال ابن الصلاح وغيره والعز بن عبد السلام يقولان: التصحيح في وقتنا غير ممكن، وإنما قصار الأمر أن يجتهد في أقوال السابقين أما أن يصحح أو يضعف فهذا ممتنع؛ لأن التصحيح والتضعيف يحتاج إلى العلم بأحوال الرواة، وهذا انتهى فلا يُقدر عليه ولا يوصل إليه، فهي اجتهادات فكون الإنسان ضعَّف هذا الحديث أو صححه هذا قد يستأنس به، ولكن لا يعتمد عليه، ويجب أن تبحث عن طرق الحديث والبحث عن طرقه ورواياته قد تكون متعذرة لتفرق العلماء في البلاد والكتب وغيرها.

والغالب أن الأحاديث التي يذكرها المؤلف هنا وتنتقد أنه يجعلها من باب المعاضدات ومن باب الاستشهاد، أما الاعتماد فهو على الآيات والأحاديث الصحيحة ولكن بعضها قد يكون فيه بيان وإيضاح فيأتي به وإن كان فيه ضعف وهذا أمر مقبول ولا يجوز الاعتراض عليه.

قوله: «لم تقبل له صلاة أربعين يوماً»: القَبول قد يقصد به سقوط الفرض، وقد يقصد به الإثابة يعني أن الله رضيه وأثاب عليه، وقد اختلف في هذا القبول فجزم النووي رحمه الله في شرح مسلم فقال: وأما عدم قبول صلاته فمعناه أنه لا ثواب له فيها وإن كانت مجزئة في سقوط الفرض عنه ولا يحتاج معها إلى إعادة، ونظير هذه الصلاة في الأرض المغصوبة مجزئة مسقطة للقضاء ولكن لا ثواب فيها، كذا قاله جمهور أصحابنا، قالوا فصلاة الفرض وغيرها من الواجبات إذا أتى بها على وجهها الكامل ترتب عليها شيئان سقوط الفرض عنه وحصول الثواب، فإذا أداها في أرض مغصوبة حصل الأول دون الثاني ولا بد من هذا التأويل في هذا الحديث، فإن العلماء متفقون على أنه لا يلزم من أتى العراف إعادة صلوات أربعين ليلة فوجب تأويله والله أعلم[1].

وهذا غير صحيح؛ لأنه ليس هناك ملازمة بين القبول وبين عدم الإعادة، فقد لا يأمر الإنسان بالإعادة وهي مجزأة عقاباً وهذا كثير، ثم عدم القبول مفسر بأمور: فسِّر بعدم الاعتداد بها، وفسِّر بأنه لم يأت بما أمر الله به جل وعلا على الوجه الذي يعتبر شرعاً، ويفسر بعدم ثوابها، وهذه التفاسير ذكرها العلماء في مثل هذا.

فليس هناك تلازم بين الأمر بالقضاء وعدم القبول فيكون الحديث على ظاهره؛ يعني: صلاته لا تقبل ولا تعتبر وليس له فيها ثواب ولا يسقط عنه الفرض، ولا يلزم أنه يعيد فيكون غاية الأمر الذي حدد بأربعين يوماً أنه من باب العقاب، عقاباً له، وهذا عقاب شديد إذا كان العبد حرم من قبول الصلاة هذه المدة الطويلة فهو من أعظم العقاب ـ نسال الله العافية ـ وهذا مرتب على

(١) شرح النووي على مسلم ١٤/٢٢٧.

الإتيان والسؤال، سواء صدَّقه أو لم يصدقه؛ لأن قوله: «**فصدقه**» يقولون: أنها ليست في الصحيح وقد يقال: أن الرواية التي في المسند يكون فيها زيادة بيان فيرجع إليها فتكون مبينة لما يذكر في هذه الرواية، ولكن كونه قيد بالأربعين هذا يدلنا على أنه ليس بكافر؛ لأنه لو كان كافراً، قال لا تقبل له صلاة؛ لأنه كفر.

ولكن يأتي من الأحاديث: «**أن من أتى كاهناً فصدقه فإنه كافر**» كما في حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**من أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ**»[1]، والذي في سنن أبي داود فيه زيادة، فهو هنا اقتصر على محل الشاهد فقط وتمام الحديث: أن رسول الله ﷺ قال: «**من أتى كاهناً ـ قال موسى في حديثه ـ فصدقه بما يقول ثم اتفقا أو أتى امرأة ـ** قال مسدد: **امرأته حائضاً ـ أو أتى امرأة ـ** قال مسدد: **امرأته في دبرها ـ فقد برئ مما أنزل الله على محمد ﷺ**»، وبعض العلماء اعترض على هذا وقال: إن هذا فيه شذوذ والشذوذ في ذكر الحائض، وقد أجيب على ذلك، والمقصود هنا ذكر الكاهن.

في الظاهر أن هذا مع الحديث الذي قبله أن فيه تعارض، ولكن عرفنا أن كلمة «صدقه» في الحديث الذي قبله ليست موجودة عند مسلم فيحتمل أنها وضعت خطأً من الناقل فلا إشكال فيه، فيكون التصديق أمراً زائداً عن الإتيان والسؤال، ولهذا قيل له: «كفر بما أنزل على محمد»، والذي أنزل على محمد ﷺ هو الإسلام القرآن والسُّنَّة التي جاء بها النبي ﷺ، وهذا يأتي كثيراً في كلام الرسول ﷺ على فعل من الأفعال أنه ينافي التوحيد.

قوله: «كفر»: هل يؤخذ على ظاهره، أو نؤوله؟

المعروف أن كلام الله جل وعلا، وكلام رسوله ﷺ، يجب أن يأخذ على ظاهره، ولا يجوز تأويله إلا بدليل، ولا دليل هنا، فهل الكفر هنا يقصد به الخروج من الإسلام؛ أي: الكفر الحقيقي، أو أنه يسكت عنه كما قال

---

(١) أخرجه أبو داود رقم ٣٩٠٤، وأخرجه أحمد في المسند رقم ٩٥٣٦.

الإمام أحمد رحمه الله: لا يفسر ويسكت عنه ويكون من نصوص الوعيد التي يقول كثير من المحققين أن الواجب أن لا تأول ولا تفسر مع اعتقاد أن الفاعل لا يكون كافراً. وقصار الأمر في هذا أن الناس في مثل هذا لهم ثلاثة مذاهب:

المذهب الأول: مذهب جمهور العلماء، وهو أنه لا بد من تأولها حتى تتفق مع النصوص الأخرى، فمثلاً قول الله جل وعلا: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء: ٩٣]، مع قوله جل وعلا: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الحجرات: ٩، ١٠]، مع قوله جل وعلا: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ﴾ [البقرة: ١٧٨].

ومن المعلوم أن الأخوة هنا ليست أخوة النسب، وإنما هي أخوة الدين، فإذاً القاتل عمداً لم يكفر، فعلى هذا لا بد من تأويل ذلك، فنقول: هذا جزاؤه لو جوزي، أو هذا جزاؤه الذي يستحقه، ولكن الله يعفو لمن يشاء ونحو هذا من الكلام حتى يتفق مع النصوص الأخرى.

وكذلك قوله جل وعلا: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ﴾ إلى أن قال جل وعلا: ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، وكذلك قوله جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النساء: ١٠]، وهذا كثير، فإذاً هذه النصوص هي من نصوص الوعيد التي قصد بها الزجر ومنع الناس عن اقتراب واقتراف هذه المعاصي، ولا تدل على أن الفاعل يكون كافراً بدليل النصوص الأخرى.

المذهب الثاني: وهو أيضاً لأهل السُّنَّة، وأن هذه النصوص يجب أن يوقف معها حيث جاءت ولا تُؤول ولا تفسر مع اعتقاد أن الفاعل لا يكون كافراً وخارجاً من الدين الإسلامي، وهذا يفارق القول الأول في عدم التعيين والمقصود، **ويعلِّلون هذا بأمرين**:

الأمر الأول: يقولون أننا لا ندري مراد الله جل وعلا، ولا مراد رسوله ﷺ في ذلك على الجزم، فيكون أسلم للإنسان حتى لا يقع في القول على الله بلا علم.

الأمر الثاني: أن هذا إذا تُرك بلا تأويل أدعى للانزجار، والابتعاد عنها وهو مقصود من مقاصد الشارع، فيكون هذا أرجح من هذا القول.

المذهب الثالث: وهو مذهب باطل قطعاً وهو قول الخوارج الذين يكفرون بالكبائر، فهم يقولون أن من فعل هذا فهو كافر، هذا معلوم بطلانه من كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ.

فقوله: «فقد كفر بما أنزل على محمد»: لا يكون على ظاهره بدليل حديث مسلم السابق أنها «**لا تقبل له صلاة أربعين يوماً**»، ولكن من العلماء من قال: إنه كفر مخرج من الدين.

فإذا كان كذلك فإنه يحتاج إلى الجمع بينه وبين حديث مسلم، ومفهوم هذا أنه بعد الأربعين تقبل فهذا دليل على أنه ليس كافراً.

ومن العلماء من يقول: إن الكفر، كفر أكبر، وكفر أصغر، كما أن الشرك أكبر وأصغر، فيجوز أن نحمل هذا على الكفر الأصغر ونقول كفر دون كفر، ونقول هذا يحتاج إلى دليل؛ لأنه من المعلوم أن الله ورسوله لا يطلقان اسماً على شيء ثم يجوز لنا أن نقيده بكذا وكذا، فهذا لا يجوز إلا بدليل.

والظاهر أنه على ظاهره؛ لأن تصديقه هو تصديق بأنه يعلم الغيب والذي يدعي علم الغيب هو من رؤوس الطواغيت، فإذا صدقه فمعنى ذلك أنه وافقه وربما رضي بعمله وهو لم يأت إليه إلا وهو راض بذلك، وعنده الدافع الذي دفعه لذلك وهذا هو الراجح في قوله: «كفر» أنه يبقى على ظاهره، وأنه كفر بالله جل وعلا، وعلى هذا لا نحتاج إلى الجمع بين هذا الحديث والحديث الذي في صحيح مسلم؛ لأن الحديث الذي في صحيح مسلم ليس فيه: «**وصدقه**»، وإنما هو إتيان فقط وسؤال؛ لأن الإتيان يحتمل غير الإتيان لتصديق كاكتشاف الأمر أو التفكير أو الاعتبار.

ومعلوم أن هذا لا يدخل فيه الإتيان للإنكار والمنع من هذا ومعاقبته، وفي هذا دليل على أن الإتيان يكون أعم من التصديق، ولهذا قيل فيمن: «صدقه» أنه كفر.

۞ قال المؤلف رحمه الله: وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من أتى كاهناً فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ» رواه أبو داود[(١)].

وقال المؤلف رحمه الله: وللأربعة، والحاكم وقال: صحيح على شرطهما عن «من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ»[(٢)].

هذا مثل الذي قبله تماماً غير أنه قال: **«من أتى عرافاً أو كاهناً»** ففرق بين العراف والكاهن، والأول جعله كاهناً فقط، فهذا يدلنا على أن العراف أعم من الكاهن، وأن الكاهن يدخل في العراف كما عرَّف ذلك شيخ الإسلام، وذكر أن العراف اسم للكاهن والمنجم والرمال والزاجر وغيرهم ممن يتعاطى هذه الأمور.

۞ قال المؤلف رحمه الله: ولأبي يعلى ـ بسند جيد ـ عن أبي مسعود مثله موقوفاً.

وهذا الأثر رواه البزار أيضاً ولفظه: **«من أتى عرافاً أو ساحراً أو كاهناً فسأله فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ»[(٣)].**

---

(١) أبو داود رقم ٣٩٠٤ عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: **«من أتى كاهناً»** قال موسى في حديثه: **«فصدقه بما يقول»**، ثم اتفقا: **«أو أتى امرأة»**، قال مسدد: **«امرأته حائضاً أو أتى امرأة»**، قال مسدد: **«امرأته في دبرها فقد بريء مما أنزل الله على محمد ﷺ»**.

(٢) أخرجه أحمد في المسند رقم ٩٥٣٦، البيهقي رقم ١٦٩٣٨، والطبراني في الأوسط رقم ١٤٥٣.

(٣) رواه أبو يعلى رقم ٥٤٠٨، والبزار رقم ١٨٧٣.

وهذا الحديث هو الذي قيل أن فيه زيادة منكرة وهي «امرأته حائضاً ـ أو أتى امرأة ـ قال مسدد امرأته في دبرها»، وهذا الذي قيل أنه ضعيف وقيل إنه منكر من أجل ذلك ولا نكارة فيه؛ لأن إتيان المرأة في دبرها جاء فيه أحاديث كثيرة جاءت بهذا الوصف، وإنما تكون النكارة فيمن أتى حائضاً وقد علم أن هذه من المحرمات التي نص عليها كتاب الله جل وعلا، قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢٢٢] فأمر باجتنابهن واعتزالهن في المحيض فيكون قصده بأنه منكر وصفه بأنه كفر، والمؤلف ﷺ ترك الزيادة التي فيه واقتصر على محل الشاهد فقط.

۞ قال المؤلف رحمه الله: وعن عمران بن حصين مرفوعاً: «ليس منا من تطير أو تُطير له، أو تكهن أو تُكهن له، أو سحر أو سُحر له، ومن أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ» رواه البزار باسناد جيد[1]، ورواه الطبراني بإسناد حسن من حديث ابن عباس دون قوله: «ومن أتى كاهناً» إلى آخره.

قوله: «ليس منا»: إذا أخذنا هذا على ظاهره؛ يعني: أنه ليس من المسلمين، فإذا لم يكن من المسلمين فهو كافر، فهو من النصوص الشديدة في هذا، غير أنه سوف يأتينا في باب الطيرة قول ابن مسعود: «ليس منا إلا، ولكن الله يذهبه بالتوكل»[2]، كره أن يذكر اللفظة؛ لأنها لا تناسب المسلمين والتقدير أنه ليس منا إلا قد يقع في قلبه شيء من ذلك هذا هو الظاهر، «ولكن الله يذهبه بالتوكل» وهذا لا ينافي النصوص؛ لأنه سوف يأتينا في باب الطيرة أن الضابط في هذا أنه ما أمضى الإنسان أو رده، هذا هو حدها، ولكن الكهانة والسحر لا تقيد بمجرد الفعل يكفي فيها المشاركة في الأمر

---

(١) البزار رقم ٣٥٧٨.

(٢) رواه أبو داود رقم ٣٩١٠، والترمذي رقم ١٦١٤.

والرضا ونحوهما ولهذا جاء في الحديث الذي مضى «من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر»[١]، يعني: من تشبه وإن كان لا يحسن السحر، فيكون حكمه حكمهم، وهكذا جميع الأشياء تأخذ هذا الحكم.

وهذه من الأمور التي مُيزت فيها الكبائر بهذه اللفظة «ليس منا»، وقد يشكل كذلك قوله ﷺ: **«ليس منا من غشنا»**[٢]، وقوله: **«ليس منا من حمل السلاح علينا»**[٣]، على هذا يقال أن هذه نصوص لا يؤخذ بظاهرها المتبادر من اللفظ من ناحية اللغة وإنما يُرجع في هذا إلى قواعد الشرع وكلياته، وكذلك النصوص الأخرى التي جاءت في فعل معين يدل النص على أنه كفر، فإن هذا يكون أخص من هذه، ومعلوم أن الخاص يقضي على العام فلا يكون هناك إشكال، يقدم الخاص ويبقى العام على عمومه على القاعدة التي يذكرها العلماء.

قوله: «من تطير»؛ يعني: فعل التطير بنفسه كما هو ظاهر، والتطير هو التشاؤم بالطيور بأصواتها وأفعالها وطيرانها، وليس هذا مقصوراً على الطير، وقد ذكر الله جل وعلا التطير عن الكفار وأنه سنتهم وطريقتهم وأنهم يتطيرون بالرسل.

وقوله: «أو تطير له»؛ يعني: أنه أمر غيره أن يفعل ذلك، فقبله وصدقه واتبعه وعمل بمقتضاه، فيكون مثل الفاعل، وهكذا يقال في البقية.

قوله: «تكهن»؛ يعني: فعل الكهانة ولو لم يكن محسناً لها، كما أن التطير أيضاً ولو لم يكن من الذين يحسنون التطير فإنه إذا فعل ذلك فإنه يكون له حكم من كانت هذه صنعته.

وقوله: «أو تكهن له»: كالذى يأتي الكاهن ويصدقه ويتابعه. ومثل هذه:

قوله: «أو سحر أو سحر له»؛ يعني: كونه سحر أو سحر له؛ أي: أمر

---

(١) رواه النسائي رقم ٤٠٧٩ من حديث أبي هريرة.
(٢) رواه مسلم رقم ١٠١ من حديث أبي هريرة.
(٣) رواه البخاري رقم ٧٠٧١، ومسلم رقم ١٠٠ من حديث أبي موسى.

من يسحر له أو أمر بمن يصنع السحر له ولو كان لغيره فإنه يكون داخلاً في حكم الساحر. وكذلك الذي يتطير له أو يُتكهن له يصير مثل الفاعل؛ لأن المسلم يجب أن يكون بعيداً عن الأمور التي تنافي التوحيد وتناقضه أو تذهب بواجباته.

وقوله: «ومن أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ»: كأن هذا فيه مغايرة، الأمور الأولى قال فيها: **«ليس منا»** وهنا قال: **«ومن أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر...»**، وعند تأمل ذلك قد يظهر أن الأخير أخف من الأول وفي الواقع أنه ليس كذلك؛ لأن الكفر ليس سهلاً، بخلاف قوله: **«ليس منا»** فإنه قد يتطرق إليه احتمالات، وابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ جزم بمثل هذا فقال: ليس على سنتنا وطريقتنا[1].

ومعلوم أن العبد إذا لم يكن على سُنَّة الرسول ﷺ وطريقته فأقل أحواله أنه يكون مرتكباً لمعصية ويكفي هذا، وهذا يدلنا على أن الراضي بالفعل كالفاعل والمصدق للكاذب هو مثله في الإثم والجزاء، فالمتطير ولو لم يحسن الطيرة قد أخذ حكم من يحسن ذلك، فجزاؤه يكون مثله، وكذلك المتكهن والطالب للكهانة؛ لأنه ما طلبها إلا لأنه يريد أن يعمل بمقتضاها، ومن عمل بمقتضاها فلا فرق بينه وبين من فعل ذلك بنفسه، ومثل ذلك الذي سُحر له؛ يعني: من أمر غيره أن يسحر، والسحر الآن منتشر في الناس بكثرة منهم من يصنعه بنفسه، ومنهم من يذهب إلى الساحر يبذل له المال حتى يسحر له من يريد وحكمهما سواء كلهم إخوان الشياطين ولو أُمضي الحكم عليهم لوجب قتلهم؛ لأنهم من المفسدين في الأرض الذين يجب أن تطهر الأرض منهم.

۞ قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: قال البغوي: العراف: الذي يدَّعي معرفة الأمور بمقدِّمات يستدلُّ بها على المسروق ومكان الضالة ونحو ذلك.

وقيل: هو الكاهن. والكاهن: هو الذي يُخبر عن المغيبات في المستقبل. وقيل: الذي يُخبر عمَّا في الضمير.

---

(١) فتح الباري ١٦٣/٣ قال: «ليس منا»، أي: من أهل سنتنا وطريقتنا، وليس المراد به إخراجه عن الدين.

۞ وقال أبو العباس ابن تيمية: العرَّاف: اسم للكاهن، والمنجم، والرَّمّال ونحوهم ممن يتكلم في معرفة الأمور بهذه الطرق(١).

قوله: «العراف»: أخذ له الاسم عراف؛ لأنه يعرف الأشياء التي يحتاج إليه فيها، وهي أمور غائبة.

وقوله: «بمقدمات»: مثل زجر الطير، ومثل الخط الذي يخطه في الأرض، ومثل الضرب بالحصى، ومثل النظر في النجوم وما أشبه ذلك، ومعلوم أن هذه لا دليل فيها على الأمور المستقبلة وإنما هي دعاوى باطلة.

وقوله: «يستدل بها على مكان المسروق أو مكان الضالة..»: وأي علم بالحط على أن المسروق في كذا؟ ولكن الشيطان قد يقترن بالإنسان أو يُبتلى فيقع ذلك ثم يكون بلوى وفتنة لمن يكون عنده ريب وشك في ذلك؛ لأن الواجب تكذيب مثل هؤلاء بلا تردد، ولا يكون عند المسلم أي تردد بأنهم كذبة وأنهم إخوان الشياطين.

وقوله: «وقيل: هو الكاهن»: العراف اسم لمدعي معرفة الأشياء بواسطة الرمال والخطوط، أو بواسطة الحصى أو لمن هو متعاط الكهانة بواسطة الشياطين، أو أنه يخبر عن نظره في النجوم أو غيرها كلها يُطلق على من فعل ذلك أنه عراف، ولهذا ذكر قول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ أن العراف: اسم للكاهن والمنجم والرمال ونحوهم. يعني يدخل فيه كل من ادعى معرفة الأشياء بواسطة أشياء لا حقيقة لها في معرفة الأمور الغائبة.

وقوله: «وقيل: الذي يُخبر عما في الضمير»: وهذا قد يكون بالحدس، وقد يكون بالاستدلال والنظر في وجه الإنسان وتصرفاته، وقد يكون بالكشف، ولهذا اغتر بهذه الأمور كثير من الناس وحكموا على من هو أبعد الناس عن تحقيق التوحيد بل عن التوحيد نفسه بأنه ولي من أولياء الله، لأنه يُخبر عن الأشياء الغائبة، وبأنه قد يُخبر الإنسان عما في بيته ومقصده، وهذا من رجم الغيب، وقد يكون الشيطان الذي يعبده يُخبره عن أمور قد نظر إليها قبل أن يأتي أو أمور سمعه يتكلم بها فأخبر بها وليه من العرافين والكهنة فلا

---

(١) مجموع الفتاوى ٣٥/ ١٧٣.

يجوز أن يغتر بأخبار الناس بأن هذا اطلع على شيء مغيب أو بأنه أدعى بأنه ولي، ودعوى الإنسان بأنه ولي يكفي دليلاً على أنه ولياً للشيطان وليس ولياً للرحمٰن؛ لأن أولياء الرحمٰن لا يزكون أنفسهم بل يعودون على أنفسهم باللوم والاحتقار بل بالمقت، يمقتون أنفسهم كما قال ابن مسعود: لا يبلغ أحدكم حقيقة الإيمان حتى يمقت نفسه في ذات الله[1]؛ لأنه لا يرى أنه قام بما أوجب الله عليه، قيل لطاووس رَحِمَهُ اللَّهُ: ماذا تقول بعد تهجدك؟ قال: أقول اللهم لا تمقتني. يعني: ما يدل بشيء من عمله وهو يعرف ربه جل وعلا المعرفة التي تهدي إلى الحق وإنما يغتر بعض الجهلة ويدل على الله بأمور قد يكون فيها مسيئاً وليس محسناً.

ولهذا العلماء يقولون: لا تغتر بمن يمشي على الماء، ولا بمن يطير في الهواء، حتى تسبر أحواله، هل هو يقف أمام المحرمات، ويعمل بكتاب الله جل وعلا[2]، أو أنه على خلاف ذلك، فالأفعال لا يغتر بها؛ لأنها تحتمل أن تكون من باب الكرامة أو من باب الإهانة؛ لأنه يوجد من الناس من يأتي من بلاد بعيدة إلى الحج يوم عرفة فقط ويقف مع الناس ويرجع إلى بلده ويزعمون أن هذه كرامات يكرم بها هذا الإنسان فيطير في الهواء والواقع أن الذي يطير به شياطين، ولهذا يدخل الحرم بلا إحرام، وهذا ليس حجاً بل هذا أمر مبتدع يعاقب عليه من فعل ذلك.

وشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «الفرقان بين أولياء الرحمٰن وأولياء الشيطان» ذكر الفروق التي يفرق بها بين أولياء الرحمٰن وأولياء الشيطان وليست الأفعال، أما الأفعال فلا يفرق بها؛ لأن الأفعال تتشابه؛ لأن أفعال ولي الشيطان قد تشبه أفعال وليّ الرحمٰن، وولي الله ليس له فعل في

---

(١) الاستذكار لابن عبد البر ٥٤٩/٨ قال أبو الدرداء: لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يمقت الناس كلهم في ذات الله ﷻ ثم يعود إلى نفسه فيكون لها أشد مقتاً.

(٢) مجموع الفتاوى ٤٦٦/١١ قال رَحِمَهُ اللَّهُ: وذكرت قول أبي يزيد البسطامي: لو رأيتم الرجل يطير في الهواء ويمشي على الماء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف وقوفه عند الأوامر والنواهي، وذكرت عن يونس بن عبد الأعلى أنه قال للشافعي: أتدري ما قال صاحبنا - يعني الليث بن سعد - قال: لو رأيت صاحب هوى يمشي على الماء فلا تغتر به فقال الشافعي: لقد قصر الليث لو رأيت صاحب هوى يطير في الهواء فلا تغتر به.

الكرامة، الكرامة ليست من صنعه، وإنما تحصل الكرامة إما بدعاء أو بحاجة يحتاجها، أما كونه يدعي أنه ولي فهذا كاف بأن يكون ولياً للشيطان؛ لأن الله قال: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢].

قوله: «وقال أبو العباس ابن تيمية»: هذه كنيته، مع أنه رحمه الله لم يتزوج، فيجوز أن يُكنى ولو لم يكن له ابن وجهاده وطلبه للعلم لم يمكنه من الزواج، فوقته كله مشغول منذ وجب عليه الأمر فكانت حياته كلها جهاد، وكثيراً ما كان يودع السجون، سجن أكثر من ثمان سنوات وأخيراً مات مسجوناً حتى إنه أخذت من عنده الكتب والأقلام والأوراق وكل شيء حتى لا يكتب.

قوله: «العراف: اسم للكاهن والمنجم والرمَّال ونحوهم»: فمعنى هذا أنه اسم عام، ومن لحق بهم ممن يشبههم ممن يستنجد بالشياطين وإخوانهم يكون من ذلك، ولهذا قال: «ممن يتكلم في معرفة الأمور بهذه الطرق» يعني: يتكلم بالأمور الغيبية، أما الذي يدعي أنه يستخدم الجن ويدعي أنهم مسلمون وأنه يستعين بهم على إخراج الجن من الناس، فهذا قد يدخل في هذا ويكون حكمه حكم هؤلاء؛ لأن الجن عقلاء لا يمكن أن يأتوا للإنسان هكذا اعتباطاً، ويقولون نخدمك ونعطيك كذا وكذا، لا بد أن يقدم لهم شيئاً يرضون به، وإذا لم يرضوا لم يأتوا إليه، والغالب أن هؤلاء أعداء بل هو الأصل أنهم أعداء لبني آدم فيضلونهم ويلابسونهم، ثم كيف نصدِّق أنهم مسلمون وهم الذين يخبرون عن ذلك، لو كان مسلماً ما تلبس بالمسلم، بل هذا يدل على أنه كافر خبيث، أو أقل شيء أنه جاهل ظالم مرتكب جرماً والذي يقره على ذلك يكون مثله.

۞ قال المؤلف رحمه الله: وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوم يكتبون أبا جاد، وينظرون في النجوم: ما أرى من فعل ذلك له عند الله من خلاق[1].

---

(١) مصنف عبد الرزاق رقم ١٩٨٠٥، والبيهقي رقم ١٦٢٩١، ومصنف ابن أبي شيبة رقم ٢٥٦٤٨، ولفظه عن ابن عباس قال: إن قوماً ينظرون في النجوم وفي حروف أبي جاد قال: أرى أولئك قوماً لا خلاق لهم. وعند الطبراني في الكبير رقم ١٠٩٨٠ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«رب معلم حروف أبي جاد دارس في النجوم ليس له عند الله خلاق يوم القيامة»**، قال في مجمع الزوائد ١١٧/٥: رواه الطبراني وفيه خالد بن يزيد العمري وهو كذاب.

هذا الأثر ضعيف، وقد رُوي مرفوعاً وهو ضعيف أيضاً، ولكن جاء عن ابن عباس من طرق أخرى حسنة.

قوله: «**يكتبون أبا جاد**»: هذا ما يسمى علم الحروف والمقصود به أنه يستدل بالحروف على أمور غائبة وهذا علم قديم يسمونه علم الحروف، وهو علم فاسد، باطل لا حقيقة له بل هو دعاوي وهو الذي أراده ابن عباس ﷺ فهو من أعمال العرافين وهو داخلون فيها.

وليس المقصود كتابة أبا جاد للتهجِّي، أو معرفة الجُمل، ومعرفة الأعداد فهذا لا بأس به؛ لأنه نوع من العلم.

وقوله: «**وينظرون في النجوم**»؛ يعني: أنه يستدل بسير النجوم وطلوعها وأفولها واقترانها وافتراقها على الحوادث المستقبلة التي تكون في الأرض.

وقوله: «**ما أرى**»: يجوز فتح الهمزة بمعنى لا أعلم، ويجوز ضمها بمعنى: لا أظن.

قوله: «**من فعل ذلك له عند الله من خلاق**»: الخلاق معناه النصيب والحظ، ومن ليس له عند الله خلاق فهو هالك، وهو من أصحاب النار ـ نسأل الله العافية ـ.

۞ قال المؤلف ﷺ: فيه مسائل:

۞ الأولى: لا يجتمع تصديق الكاهن مع الإيمان بالقرآن.

هذا يدلنا على أن المؤلف ﷺ يرى أن إتيان الكاهن كفر بالله جل وعلا. كفر أكبر فإذا كانا لا يجتمعان فيكون ضده، فإذا كان ضد القرآن فهو الشرك ومناقضة الإخلاص والتوحيد وهذا وجه إدخاله في كتاب التوحيد.

والقرآن يخبر بأن الغيب من خصائص الله جل وعلا والكاهن يدعي علم الغيب فكيف يجتمع هذا مع هذا، ولا يلزم من هذا أن المؤلف ﷺ يقول: أن من أتى كاهناً أنه يكون كافراً.

۞ الثانية: ذكر من تُكهن له.

يعني: أنه حكمه حكم الكاهن؛ لأنه معلوم أن هذا يكون بإذنه ورضاه.





الباب السابع والعشرون

۞ قال المؤلف رحمه الله: باب ما جاء في النشرة.

والنُّشرة، من النشر وهي الإزالة، إزالة المرض الذي يداخل المريض، ومن الانتشار وهو حل الشيء وإذهابه.

وهي ليست خاصة بالسحر بل في كل مرض يقال له نشرة، إما بالعلاج أو بالرقية وما أشبه ذلك؛ لأنه يُزيل عنه ما كان مخامراً له في بدنه، والمقصود بها هنا حل السحر كما هو واضح، وذلك أن المؤلف رحمه الله لما ذكر السحر ذكر ما يكون حكمه حكم السحر ناسب أن يذكر النُّشرة، يعني حل السحر هل يجوز أن يكون ذلك بسحر مثله أو لا يجوز؟

والعادة التي جرى عليها رحمه الله أن الباب إذا كان فيه خلاف أنه لا يجزم في الحكم في الترجمة، كما هو واضح هنا «باب ما جاء في النُّشرة»؛ يعني: هل هي من السحر المحرم أو هي جائزة أو فيها تفصيل؟ وهذا يتبين بما ذكره.

۞ قال المؤلف رحمه الله: عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سئل عن النُّشرة؟ فقال: «هي من عمل الشيطان»، رواه أحمد بسند جيد، وأبو داود[1] وقال: سئل أحمد عنها؟

فقال: ابن مسعود يكره هذا كله[2].

«أل» في قوله: «**النشرة**» هي للعهد يعني النُّشرة المعهودة عند الجاهلية،

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم ١٤١٣٥، وأبو داود رقم ٣٨٦٨، قال ابن حجر في فتح الباري ١٠/ ٢٣٣: ووصله أحمد، وأبو داود بسند حسن عن جابر.

(٢) الآداب الشرعية ٣/ ١٨٣ قال جعفر: سمعت أبا عبد الله سئل عن النشرة، فقال ابن مسعود: يكره هذا كله.

فالمسؤول عنه شيء معلوم، ولهذا أجاب بأنها من عمل الشيطان فلا يدخل في هذا النشرة بالرقية والأدوية الجائزه فإنه غير مسئول عنه، وإنما السؤال عما هو سحر، ولهذا يكون حكم النشرة بالسحر على ما يأتي في النصوص التي ذكرها.

وقوله: «هي من عمل الشيطان»: عمل الشيطان من المعلوم أنه محرم لا يجوز أن يوافق على عمله، وقد جاء أن الرسول ﷺ قال: **«إن الله لم يجعل شفاء أمتي فيما حرم عليها»**[(١)]، وهذا خبر سواء قصد به الإخبار عن الواقع أو قصد به الحكم، والظاهر أنه أورد الحكم الذي يجب أن يتبع.

قوله: «وقال: وسئل أحمد عنها»؛ يعني: أبو داود وهذا هو الظاهر.

قوله: «فقال: ابن مسعود يكره هذا كله»: سبق أن ابن مسعود ﷺ يكره التمائم سواءً كانت من القرآن أو من غير القرآن، والكراهة كما هو معلوم كراهة التحريم؛ لأن الكراهة التي تصرف إلى التنزيه هذه كراهة اصطلاحية لم يكن السلف يعرفونها فإذا جاء لفظ الكراهة في كلام السلف فإنه محمول على المحرم كما هو أيضاً ظاهر القرآن كقوله: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ۝٣٨﴾ [الإسراء: ٣٨] ـ بعد ما ذكر جملة من المحرمات.

فعلى هذا لا يدخل فيه النشرة بالأدعية وبآيات الله جل وعلا، وبأسمائه وبالأشياء الجائزة المباحة من الأدوية وغيرها فإن هذا لا يُعلم أن أحداً من العلماء كرهه أو نهى عنه.

۞ قال المؤلف ؒ: وللبخاري عن قتادة: قلت لابن المسيب: رجل به طبٌّ أو يؤخذ عن امرأته أيُحل عنه أو يُنشر؟ قال: «لا بأس به، إنما يريدون به الإصلاح، فأما ما ينفع فلم ينه عنه»[(٢)].

---

(١) أخرجه الطبراني رقم ٧٤٩، والبيهقي رقم ٢٠١٧١ عن أم سلمة قالت: نبذت نبيذاً في كوز، فدخل رسول الله ﷺ وهو يغلي فقال: ما هذا؟ قلت: اشتكت ابنة لي فنعت لها هذا، فقال رسول الله ﷺ: **«إن الله لم يجعل شفاءكم فيما حرم عليكم»**، ورواه البخاري موقوفاً عن ابن مسعود في السكر: إن الله لم يجعل شفاءكم فيما حرم عليكم.

(٢) البخاري تعليقاً باب ٤٨ هل يستخرج السحر؟ قال في تغليق التعليق ٣/ ٢٤٣: قوله: =

المسيب: يجوز الفتح ويجوز الكسر، ولكن كان كَلَّلَهُ يقول: سيب الله من سيبني، ولهذا كثير من العلماء يرويه بالكسر «المسيِّب» حتى لا يدخل في دعائه.

قوله: «رجل به طب أو يؤخذ عن امرأته»: طِب بكسر الطاء يُقصد به السحر أنه أصيب بالسحر، وهذا يطلق على السحر كأنه من باب التفاؤل، ولهذا قال ابن الأنباري: هو من الأضداد. يقال لعلاج الداء: طب والسحر من الداء، ويقال له: طب. فهو يقال له هذا تفاؤلاً بأنه يطيب ويسلم كما قالوا للديغ سليم، وللأرض التي تكون مهلكة أو سلوكها فيه خطورة مفازة تفاؤلاً بأن من سلكها يفوز، وهذا معروف في كلام العرب.

وقوله: «أو يؤخذ عن امرأته»: الأخذ والأُخذة هو الكلام الذي يقوله الساحر. يعني أنه حيل بينه وبين الوصول إلى زوجته عن طريق السحرة الشيء الذي صنعوه له.

قوله: «لا بأس به»: فهذا ظاهره جواز حل السحر بالسحر، ولكن شُراح الحديث حملوه على غير هذا قالوا: لا يُظن بابن المسيب كَلَّلَهُ أنه يفتي بالإتيان إلى الساحر الذي أخبر الرسول ﷺ بأن الإتيان إليه كفر، وسؤاله كذلك وعمله من أعمال الشياطين، وإنما الواجب أن يحمل على نوع من حل السحر الذي يعلم أنه ليس سحراً بل هو من الأمور المباحة إحساناً للظن بالعلماء. وقالوا: وإن قدر أنه قال ذلك فالواجب اتباع الدليل، والدليل يدل على خلاف هذا كما في النصوص عن النبي ﷺ.

= باب هل يستخرج السحر، وقال قتادة: قلت لسعيد بن المسيب: رجل به طب أو يؤخذ عن امرأته أيحل عنه أو ينشر، قال: لا بأس به إنما يريدون الإصلاح، فأما ما ينفع الناس فلم ينه عنه. قال أبو جعفر بن جرير في تهذيب الآثار عن سعيد بن المسيب: أنه كان لا يرى بأساً إذا كان الرجل به سحر أن يمشي إلى من يطلق ذلك عنه، قال: هو صلاح. قال: وكان الحسن يكره ذلك ويقول لا يعلم ذلك إلا ساحر، قال: فقال سعيد بن المسيب: لا بأس بالنشرة إنما نهي عما يضر ولم ينه عما ينفع. إسناده صحيح. قال أبو عمر بن عبد البر في التمهيد عن سعيد بن المسيب: في الرجل يؤخذ عن امرأته فليلتمس من يداويه، قال: إنما نهى الله عما يضر ولم ينه عما ينفع، هكذا ذكره الأثرم في السنن وإسناده صحيح أيضاً.

وقوله: «إنما يريدون به الإصلاح»: يدل على أن ذلك يقصد به حل السحر بالسحر، ولهذا قال: «فأما ما ينفع فلم ينه عنه» يعني: أن المنهي عنه هو الذي فيه الضرر، وهذا يرجع فيه إلى أهل العلم، فهل يجوز مثلاً إذا كان الشيء فيه نفع وإن كان في الأصل محرماً أن يستعمل؟

هذه القاعدة لا يجوز العمل بها ولا طردها بالشرع؛ لأن أكثر المعاصي فيها نفع، لكن إذا كان ضرره أعظم فالقاعدة أنه محرم مثل شرب الخمر الله جل وعلا أخبر أن فيه نفعاً ولكن ضررها أعظم وأكثر، وهذا لا يخلو منه ذنب من الذنوب ومن ذلك السحر، فالأصل أنه ممنوع ومحرم، فليست القاعدة مطردة، يعني أن ما كان فيه نفع وفيه إصلاح لبعض الناس أنه يكون جائزاً، على كل حال المسألة فيها خلاف، ولكن الخلاف فيها ضعيف، فأكثر العلماء على المنع من ذلك، ولهذا قال الحسن كَلَّلهُ: «لا يحل السحر إلا ساحر»[1]، ومعنى ذلك أنه لا يجوز أن يذهب إلى الساحر ليحل السحر، وسبق قوله: «ليس منا من سحر أو سحر له»، فالذي يذهب إلى الساحر معناه أنه يسحر له يعني يدخل في هذا وإن كان يريد إزالة السحر عن نفسه ولكنه بسحر.

وهذا الأثر رواه ابن الجوزي في جامع المسانيد[2]، وذكر الحافظ أن إسناده حسن، وقال أنه رُوي مرفوعاً عن النبي ﷺ أنه قال: **«لا يحل السحر إلا بساحر»**.

۞ **وقال ابن كثير كَلَّلهُ: الصواب أنه موقوف أو الأشبه بالصواب أنه موقوف.**

۞ **قال المؤلف كَلَّلهُ: قال ابن القيم: النُشرةُ: حلُّ السحر عن**

---

(١) فتح الباري لابن حجر ١٠/ ٢٣٣ قال قتادة: وكان الحسن يكره ذلك يقول: لا يعلم ذلك إلا ساحر.

(٢) الآداب الشرعية ٣/ ١٨٣ قال كَلَّلهُ: وقال ابن الجوزي في جامع المسانيد: النشرة حل السحر عن المسحور ولا يكاد يقدر عليه إلا من يعرف السحر، وقد قال الحسن: لا يطلق السحر إلا ساحر إلا أنه لا يجوز ذلك.

المسحور وهي نوعان: أحدهما: حل السحر بسحر مثله، وهو الذي من عمل الشيطان، وعليه يحمل قول الحسن، فيتقرب الناشر والنشر إلى الشيطان بما يحب فيبطل عمله عن المسحور.

والثاني: النُّشرة بالرقية والتعوذات والأدوية والدعوات المباحه، فهذا جائز[١].

فالنشرة تنقسم إلى قسمين:

الأولى: جائزة، وهي ما كانت بأسماء الله وصفاته وآياته، أو بالعلاجات الطبيعية وقد تكون مستحبة ويؤجر الإنسان عليها مع النية.

الثانية: ونشرة **لا تجوز** على القول الصحيح الذي هو قول جمهور العلماء، وهي ما كانت بالسحر؛ لأن السحر محرم والرسول ﷺ قال: «**ما جعل الله شفاء أمتي في ما حرم عليها**»[٢]، وجاء هذا في العلاج لما قيل له إن الخمر فيه علاج وإنما حرمه الله جل وعلا لضرر الذي فيه وهو أعلم بعباده وأرحم بهم، فمن أجل ذلك حرمه عليهم.

وعلى هذا نقول أن النشرة بالسحر لا تجوز، ومعلوم أن السحر لا يحله إلا ساحر، والساحر يجب أن يقتل، ويجب أن لا يُقر على عمله الإفسادي، فإنه يفسد في الأرض ويقتل، ويفرق بين الأحبة فلا يجوز إقراره في المجتمع، بل يجب أن يُعمل على إزالته بالكلية، فكيف يُذهب إلى مثل هذا، والذهاب إليه إقرار له. وقد يقال إن الذهاب إليه من باب الضرورة، وحالات الضرورات تراعى شرعاً، فهي تباح بها المحظورات كما هي القاعدة التي يذكرها العلماء.

---

(١) إعلام الموقعين: ٤/ ٣٩٦.

(٢) سبق تخريجه. وجاء عند أبي داود رقم ٣٨٧٤ عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله ـ تعالى ـ أنزل الداء والدواء وجعل لكل داء دواء فتداووا، ولا تداووا بحرام**»، وعند الطبراني في الكبير رقم ٦٤٩ وعن أم الدرداء عن النبي ﷺ قال: «**إن الله خلق الداء والدواء فتداووا ولا تتداووا بحرام**»، قال في مجمع الزوائد ٥/ ٨٦: رجاله ثقات.

فيقال: إن هذا لا ينطبق على القاعدة التي يذكرها الفقهاء من كل وجه وإن انطبق عليها من وجه واحد ففيه مخالفة لما ذكرنا أن الساحر لا يجوز إقراره بخلاف من اضطر إلى الأكل يجوز أن يتناول الشيء الذي يسد رمقه مما هو محرم عليه، إما من مال الغير أو من ميتة أو نحو ذلك، فإن هذا يفارق الساحر من هذا الوجه، فلا يكون الحكم مطابقاً فيختلف، فقد ذكروا أشياء كثيرة من الأدوية ومن التعوذات ومن الآيات التي ذكرت في السحر أنها كافية عن الذهاب إلى السحرة، وإن كان هذا قد يختلف بالنسبة لحال كثير من الناس، فإذا كان هو لا يحسن ذلك يجوز أن يذهب إلى غيره ممن يحسن هذا فينتفع به فإن هذا مباح، وإذا فعل هذا بنفسه فهو مستحب، وأما إذا كان بالطلب فهو جائز.

ومن ذلك ما ذكره ابن وهب في جامعه كما نقله الحافظ ابن حجر رحمه الله: «وقال الشعبي لا بأس بالنشرة العربية التي لا تضر، والنشرة العربية أن يخرج الإنسان في موضع عضاه فيأخذ عن يمينه وشماله من كل ثمر يدقه ويقرأ فيه ثم يغتسل به، وفي كتب وهب أن تؤخذ سبع ورقات من سدر أخضر فيدقه بين حجرين ثم يضربه في الماء ويقرأ فيه آية الكرسي وذوات قل ثم يحسو منه ثلاث حسوات ويغتسل به فإنه يذهب عنه كل ما به إن شاء الله وهو جيد للرجل إذا حبس من أهله»[1].

القواقل: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾. وهذا جائز؛ لأنه جمع بين العلاجين، والعلاج الروحي الذي هو بآيات الله جل وعلا بالاستعاذة به واللجوء إليه أو بالعلاج الذي هو طبيعي ويجوز أن يكون في بعض النبات وغيره من الخاصية ما يكون فيه نفع وهذا لا يُدرك إلا بالتجربة، ولكن يجب أن تكون العقيدة فيه أن النفع من الله جل وعلا، وأنه لا ينفع بذاته، أما التعوذات واللجوء إلى الله فهذا من التوحيد والعبادة، وأما الورق فإن هذا قد يجعل الله فيه شفاء ونفعاً من ذلك، وجميع

(١) مصنف عبد الرزاق رقم ١٩٧٦٣.

الأدوية التي تُستعمل هي من هذا النوع، والغالب أنها لا تدرك إلا بالتجربة.

وخلاصة الأمر في هذا أن حل السحر عن المسحور إذا كان بسحر فإنه على القول الراجح أنه لا يجوز، وإن كان بغير السحر بالأمور المباحة أمره ظاهر، إما أن يكون مستحب أو يكون مباحاً.

وسبب ذكر المؤلف رحمه الله لباب النشرة في كتاب التوحيد أنه لما ذكر باب السحر، والسحر إما أن يكون منافياً للتوحيد إذا كان السحر حقيقياً؛ لأنه لا يقع إلا بواسطة الشياطين، ولا يكون إلا بالشرك فلا يجتمع التوحيد والسحر أبداً.

وهذا ظاهره مناسبته لكتاب التوحيد، فلما ذكر هذا ذكر الأشياء التي قد تُلحق بالسحر وليست منه، أو قد يطلق عليها بأنها سحر من باب القياس وإلحاق الشيء بنظيره.

فالمقصود أنه ذكر شيئاً من القياس وإلحاق الشيء بنظيره، ثم ناسب أن يذكر النشرة وهي داخلة في السحر؛ لأنها إذا كانت بالسحر فهي سحر، أما إذا كانت من غير سحر فهي من المباح أو الأمر المستحب.







الباب الثامن والعشرون

❁ **قال المؤلف رحمه الله: باب ما جاء في التطير.**

هكذا ثبت ما جاء في التطير، فالظاهر أنه من تغيير النساخ والمطابع.

والطيرة يقولون هذه اللفظة مصدراً ولم يأت في اللغة العربية على هذا الوزن إلا لفظتين فقط: الطيرة، والخيرة، ومعنى ذلك أن هذا نادر فهي مأخوذة من فعل الطير، والأصل أنهم كانوا يتطيرون بالطيور بأصواتها وأفعالها.

وقوله: «التطير»: التطير: التفعل أخذ من الطيرة، والطيرة هي التشاؤم بفعل الطيور، وكذلك الحيوانات وغيرها من السوانح والبوارح التي كانت الجاهلية تعمل بها وتتبعها وتقصدها، وذلك أن هذه أمور وهمية من وساوس الشيطان وأوهامه وتخويفاته فلا يجوز العمل بها بل ولا الالتفات إليها، فإن ذلك يكون منافياً للتوحيد، أو مُذهب لكماله، ولهذا ذكره في التوحيد؛ لأن هذا من تفسير شهادة أن لا إله إلا الله كما سبق؛ لأن الأشياء تُفسر وتُبين بأضدادها وهذا منها، وكذلك بيانها بالفعل الذي يجب أن يُفعل ويكون ذلك من مقتضاها فإنه أيضاً تفسير لها.

فالتطير هو التشاؤم، ومعنى ذلك أنهم يعتقدون أن هذا يدل على أمر مستقبل سيقع ولا سيما إذا كانت الأسماء قد تُطابق المعاني التي تقع في نفوسهم مثل لفظة غراب فإنها تدل على الغربة، أو على الكربة وما أشبه ذلك، ولهذا كانوا يتشائمون به كثيراً، وكذلك الحيوانات، ثم سرى الأمر في كل شيء في الكلمات، والأشخاص وغيرها مثل إذا سمع شيئاً تطير، وهذا من الشرك في الربوبية، والشرك في الربوبية أعظم من الشرك في الألوهية؛ لأنه أمر واضح جلي، ولأن الرب جل وعلا هو الخالق لكل شيء، المدبر لكل شيء، والمصرف لكل شيء، فهو أمر ظاهر وهو أصل توحيد العبادة مثل قوله

تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٩﴾ [الزخرف: ٩]، وقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٨٧﴾ [الزخرف: ٨٧]. فالمعنى: كيف يقرون بأن الله هو خالقهم المتصرف فيهم ثم يصرفون العبادة لغيره؟ هذا تناقض، بل هذا ضلال، فصار توحيد الربوبية يوجب توحيد العبادة، وقوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢﴾ [النمل: ٦٢] يعني: هل يوجد غير الله يفعل شيئاً مما ذكر؟ يقرون أنه الله وحده، فإذا أقررتم أنه المتفرد بذلك فيجب أن تُفردوه بالعبادة.

فالمقصود أن توحيد الربوبية أمره ظاهر جلي، وأدلته موجودة في الكون كله وفي الأنفس والمخلوقات، ولهذا ما وجد في الأمم السابقة من أشرك في توحيد الربوبية إلا بعض الطغاة الكبار، والذي حملهم على ذلك الرئاسات، والانفراد بتصريف الناس مثل فرعون الذي يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨] وهذا من التمويه والدجل، ولكن أكثر الناس غوغاء ولا سيما إذا صدر الأمر من كبير فإنهم يتبعونه ويصدقونه، وإن كان كذبه واضح أوضح من الشمس، أما الأمم التي ذكر الله مع الرسل فكلهم يقرون بأن الله هو الخالق المدبر المتصرف، ولهذا قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١﴾ [البقرة: ٢١] فلا أحد ينكر هذا؛ لأنه هو الذي خلقنا، وخلق الذين من قبلنا، ثم قال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٢﴾ [البقرة: ٢٢] يعني: تعلمون أنه هو المتفرد بما ذكر علماً يقينياً. فنهاهم أن يقعوا في الشرك مع وضوح الأدلة، وهي أدلة توحيد الربوبية.

وفي آخر هذه الأمة وقعوا في شرك الربوبية كثيراً، الشرك الذي لم يقع فيه الكفار الذين بُعث فيهم رسول الله ﷺ، فأصبح كثيراً منهم يدَّعون أن الولي يتصرف في هذا البلد وأنه لا يدخله أحد إلا بإذنه، وأنه يستطيع أن يصرف

العدو، ويستطيع أن يشفي المريض ويُنجي من النار، حتى وصل الأمر أن أصبح تدَّعى الولاية في من هو مسلوب العقل، فالذي يُطالع بعض كتبهم يعجب، فهذا الشعراني في كتابه الذي يسميه «طبقات الأولياء» يقول أن بعض سادته وشيوخه يقول إذا صار يوم القيامة ما أترك واحداً من مريدي يدخل النار. ويقول إذا صار يوم القيامة نصبت خيمتي على النار فلا أدع أحد يدخل النار، فهذه سخافات.

فالمقصود أن التطير شرك في الربوبية، وذلك أنهم يُضيفون الفعل الذي يعتقدون وقوعه إلى ما يسمعون من نعيب طير أو طيرانه، ولهذا جعلوا لها أسماء مثل السانح أو البارح، والناطح والنطيح، والقاعد والقعيد، وهي معروفة في أشعارهم.

فالسانح هو ما ولَّاك ميامنه، والبارح الذي يولِّيك مياسره، والناطح الذي ينطحك بوجهك، والقاعد الذي يأتيك من الخلف، فهم يعتنون بهذه الأشياء، وكذلك الحيوانات مثل الأرنب والثعلب، حتى تعدى الأمر إلى الأشخاص فكانوا إذا رأى أحدهم شيئاً من هذه الأشياء التي وضعوها وهم يكرهونه رجعوا وتركوا الذي قالوا أنه يدل على كذا وكذا. يعني على الشر، وقد يقع الشيء الذي يحبونه ثم يمضون ويستبشرون ويفرحون، بالإضافة إلى ما اتخذوه من الاقتسام بالأزلام وهي نوع من الشرك، وهي أشياء كتبوا فيها اِفعل وفي الأخرى لا تفعل، وواحد مغفل ليس فيه كتابة، ثم إذا أراد أحدهم أن يذهب أخرجها ثم ألقاها على الأرض ثم ينظر ماذا يخرج له، فإن خرج اِفعل مضى، وإذا كان لا أحجم، وإذا خرج المغفل الذي لم يُكتب فيه شيء أعاد الضرب مرة أخرى، فهم ينظرون في الأمور التي لا حقيقة لها، وصار هذا من الشرك؛ لأن الأمر والتدبير والتقدير كله بيد الله جل وعلا.

فعلى هذا نقول: التطير الذي هو فعل الطيرة، هو من فعل المشركين والكفار، والله ﷻ ذكره عن الكفار أنهم تطيروا بالرسل كما سيأتي فلا يجوز أن يقع من المسلم، وهو مأخوذ من فعل الطير ثم عُدي إلى غيره.

۞ **قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: وقوله تعالى:** ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١].

هذه الآية في قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أخبر الله جل وعلا أنهم إذا أصابهم بذنوبهم ما يكرهون إما قحط، أو كون الثمار لا تنتج، أو مرض، أو موت وما أشبه ذلك قالوا هذا بسبب موسى للشؤمة ﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ﴾ [الأعراف: ١٣١].

وإذا جاءهم عكس ذلك من النعم قالوا نحن لها وخليقون بها، وقالوا لموسى إنا تطيرنا بك ﴿يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ﴾ [الأعراف: ١٣١] كما قال غيرهم، فأخبر الله جل وعلا: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

قوله: «﴿طَٰٓئِرُهُمۡ﴾»: يعني: جزاؤهم على عملهم الذي عملوه من التكذيب، والشرك بالله جل وعلا، ورد دعوة الرسل عليهم، جزاؤهم ما يصيبهم في الدنيا، وما يصيبهم في الآخرة هو بسبب هذا.

قوله: «﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾»: يعني: أن الذي أصابهم من القحط، أو من الأمراض، أو من غيرها من العذاب هو بجزاء فعلهم جاءهم من الله جل وعلا جزاءً وفاقاً، وليس بسبب الرسل، الرسل يأمرونهم بالخير، يأمرونهم بامتثال أمر الله جل وعلا الذي هو الطريق إلى السعادة في الدنيا والآخرة، فتطيرهم في غير محله، مع أن التطير نفسه هو فعل المشركين كما في هذه الآية ونحوها، وفعل المشركين خاص بهم لا يجوز أن يفعله المسلم.

وقد اختلف المفسرون في معنى قوله: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ منهم من يقول أن الطائر والشؤم والشر ما وصل إليهم إلى الآن، ولكنه سيأتيهم بعد موتهم وملاقاتهم الله جل وعلا وإلقائهم في النار، وهذا أعظم مما أصابهم.

ومنهم من يقول أن هذا بتقدير الله، وليس بكون موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ هو السبب؛ لأن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ جاء من عند الله، وهو لم يأت إلا بالخير وبأسباب السعادة، فكيف يعكسون القضية فيجعلون الخير الذي هو امتثال أمر الله واجتناب نهيه، يتطيرون به إذا جاءهم.

فالمقصود إما أن يكون «**طائرهم عند الله**» يعني: عذابهم بسبب ذنوبهم الذي سوف يصيبهم، أو أن هذا الذي فعلوه أمر مقدر قدره الله جل وعلا قبل وجودهم، ولكنهم السبب وسوف يلقون جزاءهم، فدلت الآية على المنع من طريقين:

أحدهما: أن هذا أمر وهمي، وغير صحيح، وإرجاع الأمور إلى ما لا علاقة لها به، فيكون هذا من الشرك في الربوبية.

الأمر الثاني: أن هذا من أفعال المشركين الخاصة بهم فلا يجوز فعله، ولا اتباعهم على هذا، وكلا الأمرين دلت عليه الآية.

فيكون المعنى مثل ما ذكر الله جل وعلا في سورة النساء: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾ [النساء: ٧٩].

قوله: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾؛ يعني: بسبب عملك، وهذه الآية لا تخالف الأولى، وذلك أن الآية الأولى ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ يعني تقديراً، وخلقاً، وإيجاداً ولكن كونه قُدِّر، وخُلق، وأُوجد بسبب العمل، بسبب عملك الذي عملت فأنت تُجازي بما تعمل وتكون هذه الآية مثل تلك.

قوله: «﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾»: يدلنا على أن فيهم من يعلم أن الأمور كلها بيد الله ولكنه يعاند ويكابر وقد يؤمن.

قوله: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾: لا يعلمون حقيقة الأمر وأن هذا من عند الله، وأن مآلهم ومرجعهم إلى الله ثم يجازيهم بما يستحقونه، ولا يعلمون أن الرسل جاؤوا بالهدى وبالأمر بالتوبة والرجوع إلى الله تعالى وبالسعادة فهم يأمرون بتوحيد الله جل وعلا، وترك الشرك واجتنابه، ومعصية الشيطان وهذا فيه الخير في الدنيا والآخرة غير أنهم جهلوا هذا، وقلدوا كبراءهم ورؤساءهم فردوا الحق أو عمّوا عنه، فصاروا لا يعلمون، وهذا دليل على أن الإنسان لا يُعذر بعدم العلم كونه جاهلاً وإن كان لا يعلم، فهم مؤاخذون بفعله.

❁ **قال المؤلف** رحمه الله: **وقوله تعالى:** ﴿قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ [يس: ١٩].

هذا أيضاً في قصة الرسل الذين بعثوا إلى أهل القرية وعددهم ثلاثة، قال قومهم: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [يس: ١٨]، فقالت الرسل لهم: ﴿طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾ يعني: بسبب كفركم ومخالفتكم، إذا أصابكم شر أو جزاء فإنه من جزاء فعلكم، فهو معكم يعني بسبب أفعالكم، فأنتم السبب فيما أصابكم، هذا هو الظاهر في المعنى للآية.

قوله: «﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾»؛ يعني: أئن ذكركم الرسل بأمر الله جل وعلا والرجوع إليه، والتوبة مما أنتم فيه، تتطيرون بهم وتنسبون إليهم الشر الذي أصابكم بسبب ذنوبكم، فهذا هو فعل المسرف، ولهذا قال: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ أي: الذين خرجوا عن الاعتدال وعن الحق فهم ظالمون بفعلهم وبقولهم ونظيرهم وحكمهم.

فالآيتين تدلنا على أن التطير من شأن الكفار، وأنهم يتطيرون بالخير وأهله، والطيرة لا تكون إلا بالشر، والفأل يكون بالخير كما سيأتي، ولهذا أضافوها إلى الرسل وزعموا أنهم جاءوهم بالشر فهو عكس الواقع وهو دعوى باطلة، ثم هو يدلنا على أنه أمر قديم وأنهم أخذوه من الطير، وأن التطير ليس خاص بالعرب بل هو في الكفار كلهم، وأن التطير معروف في الأمم السابقة، وأنها تفعله وتقضي به، وتنسب الرسل إلى الشر وأنهم إذا أصيبوا بسبب أعمالهم أنهم ينسبوا ذلك إلى الرسل.

وعند تأمل هذا الشيء تجده في الناس بكثرة في كلماتهم وأفعالهم، فيجب على العبد أن يكون بصيراً في هذه الأشياء حتى لا يقع في الشيء الذي قد يكون سبباً في عذابه.

❁ **قال المؤلف** رحمه الله: **عن أبي هريرة** رضي الله عنه **قال: إن رسول الله** ﷺ **قال: «لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر» أخرجاه[1]. زاد مسلم: «ولا نوء، ولا غول»[2].**

---

(١) رواه البخاري رقم ٥٧٥٧، ومسلم رقم ٢٢٢٠.

(٢) مسلم رقم ٢٢٢٠ و٢٢٢٢.

هذا الحديث قد يوهم أنه معارض لأحاديث أخرى يظهر منها أنها مخالفة له مثل قوله ﷺ: «**والشؤم في ثلاث: في المرأة، والدار، والدابة**»[(١)]، وفي رواية: «**الفرس**»[(٢)]، كما في حديث يعيش الغفاري قال: «دعا رسول الله ﷺ بناقة يوماً فقال: **من يحلبها؟** فقال رجل: أنا، قال: **ما اسمك؟** قال: مُرة، قال: **اقعد**، ثم قام آخر فقال: **ما اسمك؟** قال: جمرة، قال: **اقعد**، ثم قام يعيش فقال: **ما اسمك؟** قال: يعيش، قال: **احلبها**»[(٣)].

وجاء في رواية: فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله أتكلم أم أصمت؟ فقال: «**بل اصمت وأخبرك بما أردت**»، فقال: فأخبرني يا رسول الله. قال: «**ظننت يا عمر أنها طيرة**»، قال: «**لا طير إلا طَيْرَه، ولا خير إلا خَيْرَه، ولكني أحب الفأل الحسن**»[(٤)].

والظاهر أن هذا من باب التأديب، ليس من باب الطيرة، وكراهة التسمية القبيحة مثل: حرب، ومرة، وصخر وما أشبه ذلك، وكانت العرب عادتها أنهم يتخيرون لأبنائهم الأسماء القبيحة ويسمون خدمهم بأحسن الأسماء؛ لأن الخدم لهم، وأبناءهم لعدوهم هكذا زعموا، والرسول ﷺ نهى عن هذا الشيء، وعاقب عليه، فهذا الحديث من العقاب والتأديب.

ومن ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه قوله: «**لا يورد ممرض على مصح**»[(٥)]، قالوا: هذا أيضاً معارض له، وفي حديث آخر: «**وفر من المجذوم كما تفر من الأسد**»[(٦)]، وفي حديث أسامة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «**الطاعون رجس أرسل على طائفة من بني إسرائيل أو على من كان قبلكم فإذا سمعتم به بأرض**

---

(١) رواه البخاري رقم ٥٧٥٣، ومسلم رقم ٢٢٢٥ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
(٢) البخاري رقم ٢٨٥٨، ومسلم رقم ٢٢٢٥.
(٣) أخرجه الطبراني في الكبير رقم ٧١٠، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: إسناده حسن.
(٤) الجامع لابن وهب ٢/١٥٣.
(٥) رواه مسلم رقم ٢٢٢١ أبو سلمة بن عبد الرحمٰن أنه سمع أبا هريرة يحدث أن رسول الله ﷺ قال: «**لا عدوى**» ويحدث مع ذلك: «**لا يورد الممرض على المصح**».
(٦) رواه البخاري رقم ٥٧٠٧ تعليقاً، ووصله أحمد في المسند رقم ٩٧٢٢.

فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه»[1]، ومعنى هذا أن فيه عدوى وغير ذلك، ومن هنا نشأ الإشكال، وقد زعم ابن خلدون كَلَلهُ في مقدمته المشهورة: أن ما يذكره الرسول ﷺ من أمور الطب والدنيا فإنه ليس عن وحي، وإنما هو إما ظن، وإما بما يكون عنده ﷺ خبر من خبره وما أشبه ذلك[2]. وتبعه على ذلك طوائف من الذين ألفوا ولا سيما في الوقت الحاضر وهذا ضلال.

وعلى المسلم أن يعرف أولاً: أن ما جاء به الرسول ﷺ لا يمكن أن يتناقض، ولا يكون بعضه مناقضاً لبعض، وأن كلامه ﷺ صدق وحق ولا نحتاج إلى إثبات ذلك من الأطباء أو من غيرهم، بل هو وحي عن الله جل وعلا علام الغيوب، سواء أدركه الناس أو لم يدركوه، فإن أدركوه فهو بادرة خير، وإن لم يدركوه فهو حق ولا يجوز أن يعارضه بكلام أحد من الخلق.

أما من يذكر التأبير[3] فهذا شيء أخبر به عن ظنه وليس عن أمر يخبرهم به ويقول أنكم تفعلون كذا وكذا، أو أنه سيقع كذا وكذا، فهذا لا يدخل فيما نحن فيه.

قوله ﷺ: «**لا عدوى ولا طيرة ولا هامة..**» إلخ، لا يخلو الأمر إما أن تكون «**لا**» في قوله: «**لا عدوى..**» إلخ، ناهية أو نافية.

فإذا كانت ناهية فلا إشكال في هذا، والأمر فيها واضح، فيكون نهياً عن هذه الأفعال التي كانت الجاهلية تفعلها، يعني نهي عن الطيرة، ونهي عن

---

(١) رواه البخاري رقم ٣٤٧٣، ومسلم رقم ٢٢١٨.

(٢) مقدمة ابن خلدون ١/٣٠١.

(٣) رواه مسلم رقم ٢٣٦١ عن موسى بن طلحة عن أبيه قال: مررت مع رسول الله ﷺ بقوم على رؤوس النخل فقال: «**ما يصنع هؤلاء؟** فقالوا: يلقحونه يجعلون الذكر في الأنثى فيتلقح، فقال رسول الله ﷺ: **ما أظن يغني ذلك شيئاً**، قال: فأخبروا بذلك فتركوه فأخبر رسول الله ﷺ بذلك فقال: **إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه فإني إنما ظننت ظناً فلا تؤاخذوني بالظن، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به فإني لن أكذب على الله** ﷻ».

اعتقاد الهامة واعتقاد الصفر الذي يقوله المشركون، وكذلك اعتقاد أن الأنواء عندها أثر أو خير أو عندها شيء مما يكون، كما تفعله العرب، وكذلك الغول، ولكن هذا ليس المشهور عند شرح الحديث، فالمشهور أنه نفي وليس نهي، نفي للعدوى، ونفي للطيرة، ونفى للهامة، فإذا كان نفياً فإنه يحتاج إلى بحث عن المعنى، وتكلم العلماء عليه:

فمنهم من رده، واستدلوا بحديث أبي هريرة ﷺ: **«لا يورد ممرض على مصح»** وقالوا: نأخذ بهذا دون قوله: **«لا عدوى»**؛ لأنه كما جاء أن أبا هريرة ﷺ كان يحدث بحديث **«لا عدوى»**، ويحدث عن النبي ﷺ أنه قال: **«لا يورد ممرض على مصح»**، ثم إن أبا هريرة اقتصر على حديث: **«لا يورد ممرض على مصح»** وأمسك عن حديث: **«لا عدوى»** فراجعوه، وقالوا: سمعناك تحدثه، فأبى أن يعترف به، هذا في رواية مسلم فيجوز أنه منسوخ.

ومعنى: **«لا يورد ممرض على مصح»** أن الإنسان إذا كان له مثلاً إبل مصابة بالجرب أنه لا يجوز له أن يأتي بها إلى إبل صحيحة، لئلا يصيبها ما أصابها، ويدخل في هذا كل مرض معد حتى لا يتعدى المرض إلى غيره بواسطة الهواء والإفرازات والجراثيم وما أشبه ذلك، والآن ثبت عند الأطباء وهو أمر لا يُنكر أن بعض الأمراض تسبب العدوى وانتقال المرض إذا خالطه الصحيح إما عن طريق التنفس أو غير ذلك، وهذا أمر ثابت، ومعلوم أن الرسول ﷺ لا يمكن أن يأتي بشيء يخالف الواقع هذا محال، وهو ﷺ كما قال الله جل وعلا: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣﴾ [النجم: ٣].

وقد استشكلوا أحاديث عدة منها حديث الذباب إذا وقع في الإناء[1]، قالوا هذا الذباب لا يقع إلا على القاذورات وغيرها فكيف يقال مثل هذا، والناس أكثرهم أو جلهم لا يؤمنون إلا بالواقع إذا وقع لهم الشيء وشاهدوه صدقوا، وهذا دليل على ضعف الإيمان وليس عندهم إيمان قوي بأن ما قاله الرسول ﷺ حق ويأخذونه على القبول ويصدقونه وإن كذبه الناس، ولكن كثيراً من الناس

(١) رواه البخاري رقم ٣٣٢٠ عن أبي هريرة ﷺ يقول: قال النبي ﷺ: **«إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه ثم لينزعه، فإن في إحدى جناحيه داء والأخرى شفاء»**.

يتوقف ويتردد وإن كان طالب علم ثم إذا قال له الطبيب إن الشيء هذا كذا وكذا قال هذا دليل صدق الرسول ﷺ ثم زاد إيمانه، وهذا نقص في العبد حيث جعل تصديق الرسول ﷺ متوقفاً على إخبار الأطباء أو ما أشبههم، فالواجب أن تكون من أول وهلة تصدق ما قاله الرسول ﷺ؛ لأنه كما قال الله عنه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝﴾ [النجم: ٣، ٤]، ولا يجوز أن يكون إثبات أنه حق بالاكتشاف الذي اكتشفوه، وليس عن طريق تصديق الرسول ﷺ.

والرادُّون لحديث «لا عدوى» يقولون: إن هذا إما نسي أو نسخ، والنسخ لا يكون بعد الرسول ﷺ، وإذا قدرنا أنه نسي فهذا لا يضر؛ لأن هذا رواه جماعة من الصحابة مثل أنس وعبد الله بن عمر، وجابر وغيرهم، فقد صح عنه ﷺ هذا الحديث: «لا عدوى» فلا قيمة لهذا القول.

القول الثاني: عكسه، قالت طائفة: نأخذ بهذا الحديث: «لا عدوى» ونرد قوله: «لا يورد ممرض على مصح» مع الأحاديث التي جاءت في هذا المعنى مثل: «فر من المجذوم فرارك من الأسد» وهذان القولان باطلان؛ لأنهما رد لهذا، ورد لهذا، وقد صحت الأحاديث بهذا وبهذا.

القول الثالث: الجمع بين القولين في حالتين مختلفتين، قالوا: إذا كانت حال الإنسان عنده من القوة والإيمان والتوكل واليقين، فإن هذا يقال له: «لا عدوى»، أما إذا كان الإنسان عنده ضعف في التوكل والإيمان واليقين، فهو لا يستطيع أن يدفع الشيء الذي قد يرد عليه في نفسه فهذا يستعمل معه قوله: «لا يورد ممرض على مصح» حتى لا يضعف إيمانه، وهذا أحسن من القولين السابقين وإن كان فيه نظر.

القول الرابع: ذكره الحليمي في المنهاج وأخذه تلميذه البيهقي عنه، وقال به ابن القيم[1] وابن رجب[2] وغيرهم، أن قوله: «لا عدوى» على الوجه

---

(١) مفتاح دار السعادة ٢/ ٢٦٤ قال ابن مفلح في الآداب الشرعية ٤/ ٤٠: والأولى أن حديث: «لا عدوى ولا طيرة» نفي لاعتقاد الجاهلية أن ذلك يعدي بطبعه ولم ينف حصول الضرر عند ذلك بفعل الله تعالى وقدره، فيكون قوله: «لا يورد ممرض على مصح» إرشاداً منه ﷺ إلى الاحتراز.

(٢) لطائف المعارف ١/ ٧٥ قال: والصحيح الذي عليه جمهور العلماء: أنه لا نسخ في =

الذي تعتقده أهل الجاهلية من إضافة الفعل إلى غير الله تعالى، وأن هذه الأمور تُعدي بطبعها، وإلا فقد يجعل الله بمشيئته مخالطة الصحيح للمريض سبباً لانتقال المرض إليه، ولهذا قال: «وفر من المجذوم فرارك من الأسد»، وقال: «لا يورد ممرض على مصح»، وقال في الطاعون: «من سمع به في أرض فلا يقدم عليه»، وكل ذلك بتقدير الله تعالى. انتهى[1].

فأهل الشرك كانوا يعتقدون أن المرض ينتقل بقوته وطبعه إلى الشخص الآخر، فهذا الذي نفاه الرسول ﷺ ولم ينف كون مخالطة المريض الصحيح قد تكون سبباً لمرضه، فهذا غير منفي، فبهذا تجتمع الأحاديث، ويدل لهذا أن الرسول ﷺ لما قال: «لا يعدي شيء شيئاً» فقام أعرابي فقال: يا رسول الله،

= ذلك كله ولكن اختلفوا في معنى قوله: «لا عدوى» وأظهر ما قيل في ذلك: أنه نفي لما كان يعتقده أهل الجاهلية من أن هذه الأمراض تعدي بطبعها من غير اعتقاد تقدير الله لذلك، ويدل على هذا قوله: «فمن أعدى الأول؟» يشير إلى أن الأول إنما جرب بقضاء الله وقدره فكذلك الثاني وما بعده. خرج الإمام أحمد، والترمذي من حديث ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يعدي شيء» قالها ثلاثاً، فقال أعرابي: يا رسول الله النقبة من الجرب تكون بمشفر البعير أو بذنبه في الإبل العظيمة فتجرب كلها؟ فقال رسول الله ﷺ: «فما أجرب الأول لا عدوى ولا هامة ولا صفر خلق الله كل نفس وكتب حياتها ومصابها ورزقها»، فأخبر أن ذلك كله بقضاء الله وقدره كما دل عليه قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ [الحديد: ٢٢]، فأما نهيه ﷺ عن إيراد الممرض على المصح وأمره بالفرار من المجذوم ونهيه عن الدخول إلى موضع الطاعون فإنه من باب اجتناب الأسباب التي خلقها الله تعالى وجعلها أسباباً للهلاك أو الأذى، والعبد مأمور باتقاء أسباب البلاء إذا كان في عافية منها، فكما أنه يؤمر أن لا يلقي نفسه في الماء أو في النار أو يدخل تحت الهدم ونحوه مما جرت العادة بأنه يهلك أو يؤذي فكذلك اجتناب مقاربة المريض كالمجذوم أو القدوم على بلد الطاعون، فإن هذه كلها أسباب للمرض والتلف، والله تعالى هو خالق الأسباب ومسبباتها لا خالق غيره ولا مقدر غيره...

(١) السنن الصغرى للبيهقي رقم ٢٦٣٢، وأما قوله ﷺ: «لَا عدوى» فإنه أراد والله أعلم على الوجه الذي كانوا يعتقدون في الجاهلية من إضافة العمل إلى غير الله تعالى، ثم قد يجعل الله تعالى بإرادته مخالطة الصحيح من به شيء من هذه العيوب سبباً يحدثونه به، وقد قال النَّبِيّ ﷺ: «لَا يرد ممرض على مصح».

النقبة من الجرب تكون بمشفر البعير أو بذنبه في الإبل العظيمة فتجرب كلها؟ فقال رسول الله ﷺ: **«فما أجرب الأول لا عدوى ولا هامة ولا صفر خلق الله كل نفس فكتب حياتها ومصيباتها ورزقها»**[1].

ولكن إذا نظرنا إلى قوله: **«لا عدوى»** فالأمر يحتمل أن تكون «لا» هنا ناهية أو تكون نافية، فإذا كانت نافية فالمنفي لا بد أن يكون باطلاً **«لا عدوى»** يعني كما قاله ﷺ.

فإذا كانت نافية فالأمر مثل ما قاله الحليمي والبيهقي أن المنفي هو ما كانت تعتقده الجاهلية، وليس كون المرض قد يكون سبباً؛ لانتقال مثله لصحيح عند المخالطة، وهذا قد يكون، ولا يلزم؛ لأن الإنسان إذا اعتمد على ربه، وتوكل عليه في دفع الأذى فإنه قد لا يصيبه توكلاً على الله، واعتماداً عليه، وكذلك إذا قوي توكله على ربه جل وعلا وفوض إليه أمره، وعلم أنه بيده كل شيء، وأنه لا يقع لا حركة ولا سكون ولا ضرر ولا نفع إلا بإذنه جل وعلا، فإنه قد يقدم على هذا الشيء ولا يضره.

يقول ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فأخبر ﷺ أن ذلك كله بقضاء الله وقدره: والعبد مأمور باتقاء أسباب البلاء إذا كان في عافية منها، فكما أنه يؤمر أن لا يلقي نفسه في الماء أو في النار أو يدخل تحت الهدم ونحوه مما جرت العادة بأنه يُهلك أو يُؤذي، فكذلك اجتناب مقاربة المريض كالمجذوم أو القدوم على بلد الطاعون، فإن هذه كلها أسباب للمرض والتلف، والله تعالى هو خالق الأسباب ومسبباتها لا خالق غيره ولا مقدر غيره[2].

وأما إذا قوي التوكل على الله، والإيمان بقضاء الله وقدره، فقويت النفس على مباشرة بعض هذه الأسباب، اعتماداً على الله، ورجاء منه لا

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم ٤١٩٨، والترمذي رقم ٢١٤٣ من حديث ابن مسعود وهو عند البخاري رقم ٥٤٣٩ أخصر من هذا عن أبي هريرة: إن رسول الله ﷺ قال: **«لا عدوى»**. فقام أعرابي فقال: أرأيت الإبل تكون في الرمال أمثال الظباء فيأتيها البعير الأجرب فتجرب؟ قال النبي ﷺ: **«فمن أعدى الأول»**.

(٢) لطائف المعارف ١/ ٧٥.

يحصل به ضرر، ففي هذه الحال تجوز مباشرة ذلك، لا سيما إذا كانت مصلحة عامة أو خاصة، وعلى هذا يحمل ما روي عن خالد بن الوليد ﷺ عندما حاصر حصناً من حصون الكفار ممتنع، وقالوا: لن ننزل على أمرك حتى تأكل هذا السم، وأعطوه سماً، قالوا: إذا تحسيته ننزل، فأخذه ووضعه في كفه وقال: باسم الله ثقة بالله توكلاً على الله، ثم أكله وصار يتصبب عرقاً ولم يضره[1]. وهذا اعتماداً على الله جل وعلا أنه ينصر دينه؛ لأن الكرامات إما لنصر الدين، وإما لحاجة الإنسان لنفسه ولا دخل له فيها. ولكن تكون للمؤمن المتوكل على ربه، وهذا شيء آخر ليس من هذا الباب؛ لأن هذا عام للناس كلهم ليس لطائفة معينة، وكذلك ما جاء عن سعد بن أبي وقاص، وأبي مسلم الخولاني عندما مشوا بالجيوش على البحر اعتماداً على ربهم وتوكلاً عليه، ومع التوكل ثقة بالله ﷻ أنه يهيئ لهم ذلك.

وكذلك إبراهيم التيمي كان فقيراً وكان له عيال، جاءته زوجته فجلست تؤنبه تترك أولادك يموتون من الجوع وأنت جالس للناس تعلمهم، أُخرج وأتي لنا بالطعام، فخرج وركب راحلته وذهب، وكان ليس عنده شيء، وليس في جيبه شيء فذهب يوماً أو يومين ثم رجع ليس معه شيء وقد عرف الناس الذين كان ساكناً عندهم أنه قد خرج؛ لأنه يُفقد، فلما أقبل كره أن ينظر الناس إليه وقد رجع وليس معه شيء، فأناخ بعيره عند رمل فملئ ما معه من الأوعية رملاً حتى إذا شاهده الناس قالوا أتى بالطعام فدخل في بيته وأنزل ما معه وذهب إلى مجلسه، فذهبت المرأة مسرعة فلما فتحت وجدت حباً أحمراً نقياً من أحسن ما يكون، فجعلت تشكره وتدعو له وتقول: أتيتنا بشيء لا يحتاج إلى تعب.

فالمقصود أن هذه أمور من الله جل وعلا لا يُقال أنها عامة، أما قوله: «لا عدوى» فهذا أمر عام للأمة كلها.

---

(١) مسند أبو يعلى رقم ٧١٨٦ نزل خالد بن الوليد الحيرة على أمر بني المرازبة، فقالوا له: احذر السم لا يسقيكه الأعاجم، فقال: ائتوني به فأتي به فأخذه بيده ثم اقتحمه وقال: بسم الله فلم يضره شيئاً.

فيكون المقصود النفي «**لا عدوى**»؛ يعني: بالطبع الذي تعتقده الجاهلية، ومعناه أنه لا يُعد المريض الصحيح؛ يعني: أنه لا يخالطه؛ لأن هذا من الأسباب، والإنسان مأمور بفعل السبب، ولهذا لما ذهب عمر ﷺ إلى الشام فنادى عمر في الناس إني مصبح على ظهر فأصبحوا عليه. قال أبو عبيدة بن الجراح: أفراراً من قدر الله؟ فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة؟ نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله، أرأيت لو كان لك إبل هَبطت وادياً له عدوتان إحداهما خصبة والأخرى جدبة أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟ قال فجاء عبد الرحمٰن بن عوف وكان متغيباً في بعض حاجته فقال: إن عندي في هذا علماً، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه**». قال: فحمد الله عمر ثم انصرف[1].

قوله: «ولا طِيَرَة»: فإذا كانت «لا» نافية فمعناه أنه لا حقيقة لها، فهي خيال وهو كذلك؛ لأن الطيرة لا حقيقة لها وإنما هو أمر متوهم، يتوهم الإنسان ثم يلقي الشيطان في نفسه ذلك، وقد يُعاقب بسبب كونه تطير وأطاع الشيطان في ذلك والجزاء من جنس العمل، ولهذا تكون الطير إلى المتطير أسرع من السيل في المنحدر، بخلاف الذي لا يتطير فإنه لا تضره.

والطيرة: مأخوذة من فعل الطير أو صوته، أو أنها تشاؤم بالأشياء التي يسمعها أو يراها.

وهي أوهام ووساوس من الشيطان وتخويفات يخوف بها الإنسان لا حقيقة لها، فأيُّ تأثير عند الطائر إذا كان مثلاً طار على صفة معينة، أو نعب وصوَّت، وكذلك غيره من الحيوانات، والغريب أنهم يفرقون بينها يجعلون بعضها مشؤوماً وبعضها بخلاف ذلك ولو عكس عاكس الأمر ما كان فيه خرق فهم يتشاءمون بالأرنب أشد التشاؤم ويتفاءلون بالثعلب وإذا رأوه فرحوا ومضوا لشأنهم، ما هو الفرق بين الثعلب وبين الأرنب؟ أوهام كلها من أوهام

(١) رواه البخاري رقم ٥٧٢٩، ومسلم رقم ٢٢١٩.

الشيطان فليس عندها شيء، غير أنهم يقولون: الأرانب ضعيفة تلاقي العصا، وكل يهم بها ويقتلها، أما الثعلب فهو محتال ومكار فينجو بنفسه بمكره وكيده، فيتفاءلون بذلك، ولكن أي خبر عندها عن المستقبلات والأمور التي تصيب الإنسان.

ومن ذلك الغراب فإنهم يقولون أن الغراب يدل على الغربة، فمعنى ذلك أن أحدهم إذا خرج ونعب في وجه غراب أنه سوف يموت، وأنه يغترب غربة لا يرجع بعدها، فكلها أوهام، وتعليقاً للأمور على غير أسبابها، فيكون شركاً بالربوبية، فالله جل وعلا هو الذي يدبر الأشياء ويقدرها فلا يجوز أن يُلتفت إلى مثل هذه الأشياء، ولهذه جاء التصريح بأن الطيرة شرك، فإذا كانت شرك فهي منافية للتوحيد، أو إذا كانت من الشرك الأصغر فهي منافية لكماله الواجب الذي يجب على الإنسان، وإذا لم يفعله يكون مؤاخذاً ويكون معذباً على ترك ما هو من كمال الواجب.

وكذلك الأفعال التي تجري من الطيور، فلهم عادات معروفة يسمونها السوانح والبوارح، والناطح والنطيح، والقاعد والقعيد كما تقدم، وتكون من الطيور وغيرها كما هو واقع في أفعال الجاهلية كثيراً، وقد يكون في الناس، فإذا خرج وشاهد من يظن أنه مشؤوم رجع عن فعله، إما أن يكون أعور، أو ما أشبه ذلك، وقد يكون يحدث مثلاً له من فعله شيء إما أن يعثر أو يصاب بأي حدث يحدث وإن قل فيقول هذا مسير مشؤوم أو هذا طريق مشؤوم فيرجع، هذا كله من الشرك ومن أعمال الجاهلية، فليس خاصاً بالطير الذي أُخذت الطيرة في الأصل منه، بل هو عام شامل؛ لأن المخلوقات كلها ليس لها شيء من التدبير، وليس عندها شيء من علوم الغيب، فعلم الغيب من خصائص الله جل وعلا، ولهذا تكون الطيرة شركاً من وجهين:

أحدهما: أن الإنسان يجعلها سبباً لما يقع، وهذا شرك في الربوبية.

الثاني: أن الإنسان إذا توهم فيها أنها يترتب عليها ما سيأتي أصبح عنده مرض في قلبه وظنون سيئة، فإما أن يمضيها ويعمل بها، وإما أن يصبح متردداً، وهذا الواجب أن يجزم جزماً أكيداً أن الأمور بيد الله، وهذه

المخلوقات لا تصرُّف عندها ولا علم، فإن إنضاف إلى ذلك تعاطي الأمور المستقبلية فإنه يكون شركاً على شرك حيث أنه أدعى أن هذه تُعلم بها الأمور الغيبية، وهذا من خصائص الله، وفيه تكذيب بالقرآن حيث أخبر أنه لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله جل وعلا، فكانت الطيرة شرك من هذه الوجوه.

وأما ما ذكر في حديث: «**الشؤم في ثلاث: في المرأة، والدابة، والدار**» فهذا جاء بألفاظ منها: «**إن يكن الشؤم ففي ثلاث..**»[1]، وفي رواية الجزم: «**الشؤم في ثلاث**»[2]، وجاء في حديث آخر أن امرأة أتت إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله دار سكناها والعدد كثير والمال وافر، فقلَّ العدد وذهب المال، فقال رسول الله ﷺ: **دعوها ذميمة**»[3]، فهذا يتفق مع قوله: «**الشؤم في ثلاث**» فيكون هذا بالنسبة للمتطير ـ المتشائم ـ من تشاءم في هذه الأمور وقعت له ولكن هذا لا يتأتى؛ لأنه لماذا خصت هذه الثلاث؟ إذ غيرها مثلها، فقد لا يستقيم هذا.

فأُجيب عن هذا: بأن هذه الثلاث تكون ملازمة للإنسان غالباً، المرأة تكون ملازمة لرجل، فإذا لم يرتح إليها فمن الشؤم كونه يلازمها ينبغي أن يفارقها بطلاق واستبدالها ويرتاح، أما إذا لازمها فقد فعل الشؤم، وكذلك الدار إذا كانت ضيقة ولم تكن مناسبة فينبغي أن يستبدلها ويرتاح منها، وكذلك

---

(١) الطبراني في الكبير رقم ٥٨٠٣، وعند البخاري رقم ٤٨٠٥: «**إن كان الشؤم في شيء**»، وعند مسلم: «**إن الشؤم في شيء**».

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه مالك في الموطأ رقم ٣٥٦٧، وأخرجه أبو داود رقم ٣٩٢٤ عن أنس بن مالك ولفظه: «**جاء رجل**»، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد رقم ٩١٨ وقال: في إسناده نظر. وأخرجه عبد الرزاق في مصنفه رقم ١٩٥٢٦ ولفظه عن عبد الله بن شداد بن الهاد أن امرأة من الأنصار قالت: يا رسول الله ما سكنا دارنا ونحن كثير فهلكنا وحسن ذات بيننا فساءت أخلاقنا وكثيرة أموالنا فافتقرنا قال: «**أفلا تنتقلون عنها ذميمة**» قالت: فكيف نصنع بها يا رسول الله؟ قال: «**تبيعونها أو تهبونها**»، قال ابن حجر في فتح الباري ٦/ ٦٢: وله شاهد من حديث عبد الله بن شداد بن الهاد أحد كبار التابعين، وله رواية بإسناد صحيح إليه عند عبد الرزاق.

الفرس؛ لأنها كانت بمنزلة الولد عندهم، يربونها ويتعبون عليها بل يقدمونها على أولادهم؛ لأنه به يذودون عن نفوسهم وأموالهم وأعراضهم وأبنائهم، فهم يعتنون بها كثيراً، فهم يلازمونها، وأحدهم إذا كان عنده فرس لا يفرط فيها ولا سيما ما كان منها معروفاً من سلالة عربية أصيلة، فهي عندهم أغلى من أولادهم، فإذا تشاءم الإنسان منها ولازمها هذه الملازمة الطويلة يكون هذا من الشؤم فينبغي أن يريح نفسه منها، فكأنه يقول ارتاحوا؛ لأن النفوس جُبلت على كراهة الأشياء التي يجعل له منها ضرر، فكونه يلازم الشيء الذي يحصل فيه ضرر يكون فيه تعذيب للنفس، فكونه يفارقه ويرتاح منها يكون أولى هذا معنى كلام ابن القيم في ذلك[1].

القول الثاني: أن هذا بالنسبة لما كان يعتقده الناس، وهم يعتقدون أن الشؤم في هذه الأشياء، وهذا القول جاء عن عائشة ﵂ وأنكرت أن يقول رسول الله ﷺ: «**الشؤم في ثلاث**»، ولكنه يقول: أن الناس يتشاءمون في ذلك يعني أكثر ما يتشاءمون في هذه الأشياء.

قوله: «**ولا هامة**»: الهامة بالتخفيف، واختلفت فيها على تفسيرات:

أحدها: أن هذا شيء يعتقده أهل الجاهلية، وهو أن الإنسان إذا مات

---

(١) مفتاح دار السعادة ٢/٢٥٧ قال ﵀: وبالجملة فإخباره ﷺ بالشؤم أنه يكون في هذه الثلاثة ليس فيه إثبات الطيرة التي نفاها، وإنما غايته إن الله سبحانه قد يخلق منها أعياناً مشؤومة على من قاربها وسكنها، وأعياناً مباركة لا يلحق من قاربها منها شؤم ولا شر، وهذا كما يعطي سبحانه الوالدين ولداً مباركاً يريان الخير على وجهه ويعطى غيرهما ولدا مشؤوماً نذلاً يريان الشر على وجهه، وكذلك ما يعطاه العبد ولاية أو غيرها، فكذلك الدار والمرأة والفرس، والله سبحانه خالق الخير والشر والسعود والنحوس فيخلق بعض هذه الأعيان سعوداً مباركة ويقضي سعادة من قارنها وحصول اليمن له والبركة، ويخلق بعض ذلك نحوساً يتنحس بها من قارنها، وكل ذلك بقضائه وقدره كما خلق سائر الأسباب وربطها بمسبباتها المتضادة والمختلفة، فكما خلق المسك وغيره من حامل الأرواح الطيبة ولذذ بها من قارنها من الناس وخلق ضدها وجعلها سبباً لإيذاء من قارنها من الناس والفرق بين هذين النوعين يدرك بالحس، فكذلك في الديار والنساء والخيل فهذا لون والطيرة الشركية لون آخر.

يخرج من هامته طائر يصيح يقول: اسقوني، وإذا قتل ولم يؤخذ بثأره يخرج من قبره ويصيح على القبر: اسقوني، اسقوني، حتى يؤخذ بالثأر، ولهذا جاء في أشعار بعضهم، قال:

«إنك إلا تذر شتمي ومنقصتي أضربك حتى تقول الهامة اسقوني»(١)

يعني: حتى تموت، وهذا توهم لا حقيقة له، وإذا كان هذا نفي فهو نفي للوجود، وإنما هو أمر زينه الشيطان، وهي خرافة اعتقدها أهل الجاهلية.

القول الثاني: وهو الصحيح: أن المقصود بالهامة أنها البومة، وهو الطائر المعروف الذي يكون في الليل، وهي تألف الخراب من البيوت الخربة، وكانوا يتشاءمون بها أشد التشاؤم إذا وقعت على بيت أحدهم قال: نُعِيَت إلي نفسي، ويتشاءم بها.

فنفى الرسول ﷺ ذلك عنها؛ لأنها طائر لا تدبير له وليس عنده شيء من التصرف، وليس دليلاً على كون هذا يموت أو يحيا، أو أنها تنعي له نفسه أو غيره، فتكون من نوع الطيرة، لكنها خاصة؛ لأنهم خصوها بهذا الشيء.

وقوله: «ولا صفر»: وفيه أيضاً أقوال:

أحدها: جاء عن الإمام مالك أنه فسَّرها بالشيء الذي ذكره الله جل وعلا في القرآن عن الجاهلية وأنه زيادة في الكفر، وهو أن الله حرم القتال في الأشهر الحرم، والأشهر الحرام كما هو معلوم منها ثلاثة أشهر متوالية: ذو القعده، وذو الحجة، ومحرم، فكان يطول عليهم هذا الزمن، في كونهم يمتنعون من القتال فكانوا يتحيلون فيؤخرون المحرم يجعلونه صفراً؛ يعني: يحرموا صفراً ويحلون الشهر المحرم في سنة، وفي السنة التي تليها يدعونه كما هو؛ يعني: ثلاثة أشهر محرمة، ويسمون هذا النسيء؛ يعني: ينسئون المحرم إلى صفر فأخبر الله جل وعلا أن هذه زيادة في الكفر، فالنفي هنا لما كان يفعله الجاهلية. وهذا لا حقيقة له، في كونهم يجعلون هذا حرام وهذا

---

(١) فتح الباري لابن حجر ٧/٢٥٩، والبيت منسوب لذو الإصبع العدواني كما في الروض الأنف ١/٣٥١.

حلال هذا دعوى باطلة، فلا يكون الذي حرموه محرماً، ولا الذي أحله حلالاً، بل هو على ما وضعه الله جل وعلا.

القول الثاني: أن المقصود بصفر أنه دابة تكون في البطن تصيب الماشية والناس، وهي أعدى من الجرب عند العرب على حد زعمهم، وعلى هذا يكون من العدوى داخل في قوله: «**لا عدوى**» غير أنه نص عليه؛ لأنه يعتقد به أنه هذا بخصوصه يقع ويكون له الأثر البالغ، فنفاه الرسول ﷺ وأبطله.

القول الثالث: أن المقصود بصفر أنهم يتشاءمون بشهر صفر، كما كانوا يتشاءمون في بعض الأيام وبعض الشهور، كانوا يتشاءمون بشوال فلا يتزوجون فيه وفي صفر فلا يرحلون فيه ولا يتزوجون فيه، ولا يزال هذا يوجد عند بعض الناس.

وهذا أيضاً جاهلية وكذب على الله جل وعلا، فإنه ليس عنده علم في ذلك وليس عنده شيء، فأبطل الرسول ﷺ هذا المعنى، وهذا القول هو الذي رجحه الحافظ ابن رجب رحمه الله.

قوله: وزاد مسلم: «**ولا نوء**» النَّوء: مأخوذ من الارتفاع أو الغيبوبة وهي الأنواء، وهي منازل القمر كما سيأتي إن شاء الله في بابه، وهي ثمانية وعشرون منزلاً، وهي نجوم معينة كل ليلة ينزل واحداً منها أربعة عشر تدور على القطب الشمالي، والبقية تدور على القطب اليماني، ودائماً يكون منها على سطح الأرض أربعة عشر، وتحت سطح الأرض أربعة عشر دائماً كلما غرب واحد خرج مقابله من الشرق، فهذا هو النوء وهو يطلق على الطالع والغارب، وكانوا يضيفون نزول المطر إليه، يقولون مطرنا بنوء كذا، ويقولون النوء الفلاني محمود، وهذا سعود وهذا نحوس، وهذا من الكذب والتزوير، بل من الشرك وهو مشهور عند العرب.

قوله: «**ولا غول**»: فهو من التغول وهو التغير والتلون، والذي نفي هنا ما كان يعتقده الجاهلية وهو أن الشياطين تترآى لهم وتتلون، تأتي مرة في لون كذا، ومرة في لون كذا حتى تضلهم عن الطريق، فكانوا يعتقدون هذا، ولا سيما إذا سلك الإنسان البراري وحده فإنها تظهر له.

فهل المنفي الوجود أو المنفي التلون؟

بلا شك أن الشياطين موجودة، والجن موجودون وأنهم يظهرون للإنسان وقد يتعرضون له في الشر، وقد يضلونه عن الطريق، وقد يؤدي إلى إذهاب عقله وأذاه، ولهذا جاء في حديث أبي أيوب الأنصاري ﷺ يقول: أنه كان له تمر يضعه في السهوة وكانت الغول تأتي فتأخذ منه(١).

الغول يعني: الشياطين، فالشيء إذا لم يذكر اسم الله عليه قد تأتي وتأخذ منه، مثل ما في صحيح البخاري عن أبي هريرة ﷺ قال: وكلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان فأتاني آت فجعل يحثو من الطعام فأخذته وقلت: والله لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ، قال: إني محتاج وعليَّ عيال ولي حاجة شديدة قال: فخليت عنه فأصبحت فقال النبي ﷺ: «**يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة**». قال: قلت: يا رسول الله شكا حاجة شديدة وعيالاً فرحمته فخليت سبيله، قال: «**أما إنه قد كذبك وسيعود**». فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله ﷺ: «**إنه سيعود**». فرصدته فجاء يحثو من الطعام فأخذته فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ، قال: دعني فإني محتاج وعليَّ عيال لا أعود فرحمته فخليت سبيله، فأصبحت فقال لي رسول الله ﷺ: «**يا أبا هريرة ما فعل**

---

(١) رواه الترمذي رقم ٢٨٨٠ وقال: حديث حسن غريب. ولفظه عن أبي أيوب الأنصاري: «أنه كانت له سهوة فيها تمر فكانت تجيء الغول فتأخذ منه قال: فشكا ذلك إلى النبي ﷺ قال: فاذهب فإذا رأيتها فقل بسم الله أجيبي رسول الله ﷺ، قال: فأخذها فحلفت أن لا تعود فأرسلها فجاء إلى رسول الله ﷺ فقال: **ما فعل أسيرك؟** قال: حلفت أن لا تعود، فقال: كذبت وهي معاودة للكذب، قال: فأخذها مرة أخرى فحلفت أن لا تعود فأرسلها فجاء إلى النبي ﷺ فقال: **ما فعل أسيرك؟** قال: حلفت أن لا تعود فقال: كذبت وهي معاودة للكذب، فأخذها فقال: ما أنا بتاركك حتى أذهب بك إلى النبي ﷺ فقالت: إني ذاكرة لك شيئاً آية الكرسي اقرأها في بيتك فلا يقربك شيطان ولا غيره، قال: فجاء إلى النبي ﷺ فقال: **ما فعل أسيرك؟** قال: فأخبره بما قالت: قال: **صدقت وهي كذوب**». وأخرجه أحمد في المسند رقم ٢٣٥٩٢، والطبراني في الكبير رقم ٤٠١١، وابن أبي شيبة رقم ٢٩٧٤٣، والحاكم في المستدرك رقم ٥٩٣٤ وقال: هذه الأسانيد إذا جمع بينهما صارت حديثاً مشهوراً، والله أعلم.

أسيرك». قلت: يا رسول الله شكا حاجة شديدة وعيالاً فرحمته فخليت سبيله قال: «**أما إنه كذبك وسيعود**». فرصدته الثالثة فجاء يحثو من الطعام فأخذته فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله وهذا آخر ثلاث مرات تزعم أنك لا تعود ثم تعود، قال: دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها، قلت: ما هو؟ قال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥] حتى تختم الآية فإنك لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربنك شيطان حتى تصبح فخليت سبيله، فأصبحت فقال لي رسول الله ﷺ: «**ما فعل أسيرك البارحة**». قلت: يا رسول الله زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها فخليت سبيله قال: «**ما هي**»؟ قلت: قال لي: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾، وقال لي: لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح ـ وكانوا أحرص شيء على الخير ـ فقال النبي ﷺ: «**أما إنه قد صدقك وهو كذوب، تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليال يا أبا هريرة**»؟ قال: لا قال: «**ذاك شيطان**»(١).

فالمقصود أن القول الذي نفى هنا هو ما كان يعتقده العرب أنها تتلون بألوان متعددة حتى تضل الناس، وقد جاء في الحديث: «**إذا تغولت الغيلان فبادروا بالأذان**»(٢).

فذكر الله جل وعلا يخيفهم ويطردهم، ثبت في الحديث عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا نودي للصلاة أدبر الشيطان وله ضراط حتى لا يسمع التأذين، فإذا قضي النداء أقبل حتى إذا ثوب بالصلاة أدبر حتى إذا قضي التثويب أقبل حتى يخطر بين المرء ونفسه يقول اذكر كذا اذكر كذا لما لم**

---

(١) رواه البخاري رقم ٢٣١١.

(٢) أخرجه أحمد في المسند رقم ١٤٢٧٧ ولفظه عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا سرتم في الخصب فأمكنوا الركاب أسنانها ولا تجاوزوا المنازل، وإذا سرتم في الجدب فاستجدوا وعليكم بالدلج فإن الأرض تطوى بالليل، وإذا تغولت لكم الغيلان فنادوا بالأذان، وإياكم والصلاة على جواد الطريق والنزول عليها فإنها مأوى الحيات والسباع وقضاء الحاجة فإنها الملاعن**».

يكن يذكر حتى يظل الرجل لا يدري كم صلى»[١].

فالمنفي هو ما كان تعتقده الجاهلية، وليس عدمها لحديث: «لا غول ولكن السعالي».

السعالي: هم سحرة الجن.

وهذا الحديث فيه إبطال لتعلق على غير الله جل وعلا، أو كون الأسباب تكون مرتبة على أشياء ليست أسباباً لها، فإضافة الأمور إلى غير خالقها وموجدها من باب الشرك إما أن يكون الشرك اللفظي، أو شرك اللفظ والعقيدة والفعل.

۞ قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: ولهما عن أنس بن مالك: عن النبي ﷺ قال: «لا عدوى ولا طيرة ويعجبني الفأل»، قال: قيل: وما الفأل؟ قال: «الكلمة الطيبة»[٢].

قوله: «ويعجبني»: الشيء الذي يعجب الرسول ﷺ معناه أنه مستحب، وأنه حسن، ولا يكون داخلاً في المنهي ولا في الشرك.

قوله: «الفأل»: الفأل استُثني من الطيرة، فهو ليس منها، وقد فسَّره النبي ﷺ بقوله: «**الكلمة الطيبة**»، وهي التي يسمعها الإنسان، فدل هذا على أن الفأل نوع من الطيرة ولكنه ليس مذموماً، قالوا: لأن الفأل فيه رجاء، وفيه أمل خير، فالنفس تؤمل خيراً وتفرح بذلك، وكل ما رجا الإنسان ربه، وأمل فيه خيراً فهو على خير، وإن كان السبب ضعيفاً والله ﷻ عند حسن ظن عبده به فرجاء الله، وأمل الخير منه أمر مطلوب، فإذا كان إنسان مريض ثم سمع شخصاً يقول: يا سالم، فقال: أنه يسلم، أو كان فاقداً شيئاً فسمع قائلاً يقول: يا واجد أو يا راشد، فوقع في نفسه أنه سيرشد إليها أو أنه سيجدها، فهذا هو الفأل، ومن هذا ما جاء في السيرة أن النبي ﷺ لما ذهب إلى خيبر

(١) رواه البخاري رقم ٦٠٨، ومسلم رقم ٣٨٩.

(٢) رواه البخاري رقم ٥٧٧٦، ومسلم رقم ٢٢٢٤.

ونزل المسلمون بساحة اليهود وفوجئ أهلها بهم وهم في طريقهم إلى أعمالهم ومعهم الفأس والمساحي فقالوا: «محمد والخميس»، فقال الرسول ﷺ: **«الله أكبر خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»**[1]، فهذا من الفأل؛ لأن المساحي والفأس آلات هدم.

إذاً الفأل يكون بالكلمة، ويكون بالشيء الذي يُرى بالأعين وليس من الطيرة؛ لأنه في الخير، والخير كله من الله جل وعلا، فالإنسان يرجو من الله جل وعلا، فإذا رجى الله كان على خير، فهذا هو السبب في كون الفأل خرج من الطيرة وإلا فلا يعتقد كون الشيء له تأثير فهو يرتاح إلى هذه الكلمة ويمضي في عمله، والمضي في الأعمال والعزيمة عليها أمر مطلوب وإن كان هذه ليس لها تعلق بالواقع، غير أن تفريح النفس وسرورها والعزم على الأفعال أمر مطلوب فيكون الإعجاب من هذا الوجه، ويكون هذا مفارق للطيرة فليست منها؛ لأن الطيرة كما سيأتي **«ما أمضاك أو ردَّك»**، أما كون الإنسان يُؤمل خيراً، ويستبشر بأمر مستقبل أنه سيحصل له فهو ظن حسن، ظناً بالله حسن، والظن الحسن مطلوب ومرغب فيه فيكون العبد في ذلك على خير، وعلى هذا يكون الفرق بين الفأل والطيرة واضح فليس هو منها، ولهذا كان يعجب النبي ﷺ.

۞ قال المؤلف رحمه الله: ولأبي داود بسند صحيح عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: ذُكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ فقال: «أحسنها الفأل، ولا تردُّ مسلماً، فإذا رأى أحدُكم ما يكره فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك»[2].

---

(١) رواه البخاري رقم ٦١٠، ومسلم رقم ١٣٦٥ عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ كان إذا غزا بنا قوماً لم يكن يغزو بنا حتى يصبح وينظر، فإن سمع أذاناً كف عنهم وإن لم يسمع أذاناً أغار عليهم. قال: فخرجنا إلى خيبر فانتهينا إليهم ليلاً فلما أصبح ولم يسمع أذاناً ركب وركبت خلف أبي طلحة وإن قدمي لتمس قدم النبي ﷺ، قال: فخرجوا إلينا بمكاتلهم ومساحيهم، فلما رأوا النبي ﷺ قالوا: محمد والله محمد والخميس قال: فلما رآهم رسول الله ﷺ قال: **«الله أكبر الله أكبر خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»**.

(٢) رواه أبو داود رقم ٣٩١٩، والبيهقي رقم ١٦٢٩٨، وابن أبي شيبة رقم ٢٦٣٩٢، =

الصواب أنه عن عروة بن عامر، وأكثر العلماء على أن عروة ليس صحابياً وبعضهم أثبت له صحبة، وعلى هذا يكون الحديث مرسل.

قوله: «وأحسنها الفأل»: يدلنا على أن الفأل من الطيرة، ولكنه أحسنها؛ لأنه يكون في الخير، فهو مُفارق لها والإنسان إذا رجى خيراً فإنه يكون على أجر؛ لأنه يجب عليه أن يظن بالله خيراً دائماً؛ لأنه لا يصاب بضرر أو بسوء إلا من نفسه، من جراء عمله، والشر ليس إلى الله جل وعلا، كما قال ﷺ: «والشر ليس إليك»(١)؛ يعني: لا يجوز إضافته إليك، لا خلقاً مثل أن تقول: خالق الشر. ولا فعلاً أنه يفعله، ولا وصفاً أنه يتصف به تعالى الله وتقدس. ولهذا إذا جاء الشر فإنه يكون بالنسبة إلى أفعال الله على أحد ثلاثة أوجه:

أحدها: إما أن يُحذف فاعله كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝﴾ [الجن: ١٠]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝﴾ [الشعراء: ٨٠] فأسند إبراهيم ﷺ المرض إليه.

الثاني: أن يكون مضافاً إلى المخلوق مثل قوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝﴾ [الفلق: ٢].

الثالث: أو يكون داخلاً في العموم، مثل قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ۝﴾ [الزمر: ٦٢].

أما أن ينص عليه، وإن كان يأتي في بعض كلام بعض الناس جاء عن عبد الله بن رواحة أنه كان له جارية فكان يقول لها: أنا خلقني خالق الملائكة، وأنت خلقك خالق الكلاب. فتبكي وهذا من باب المزاح فقط ولا يقال هذا مع أنه لا خالق إلا الله جل وعلا.

والفأل قد فسر بأنه الكلمة الطيبة يسمعها الإنسان، أو تقال له مثل لو كان الإنسان فاقداً مثلاً شيئاً فيسمع من يقول: يا واجد، فيتفاءل أنه سيجده،

= وقال النووي في شرح النووي على ١٤/ ٢٢٤: رواه أبو داود بإسناد صحيح.

(١) قطعة من حديث طويل عند مسلم رقم ٧٧١.

أو يكون مريضاً فسمع من يقول: يا معافى أو يا سالماً وما أشبه ذلك، فيتفاءل بأنه يسلم، فالتفاؤل مطلوب وهو حسن، ولكن ليس في كل شيء، إذا سمع الإنسان الشيء الذي في باله أما أنه يتعناه ويقصده فهذا يكون من باب الطيرة.

قوله: «ولا ترد مسلماً»: تدل على أن المسلم ليس من خُلقه ومن فعله أنه يتعلق على غير الله جل وعلا؛ لأنه معروف أن الدواب والطيور وغيرها ليس عندها خير ولا شر ولا نفع ولا ضر، وإنما هي تسرح وتذهب حسب مصلحتها التي خُلقت لها، وهي لا تعلم عما يقوله المتطير أو يفعله، ولهذا نقول: إن التطير نقص في العقل، وشرك في الفعل، فالمسلم إذا رأى شيئاً خلاف ما يزعمه المتطير لا يجوز أن ينقدح في ذهنه شيء من أنه يرجع عما خرج إليه، ولا يلتفت إلى ذلك، ولكن لو قدر أن هناك شيء من الأمور التي يفعله الجاهلية من التطير ينبغي أن ينفيها من أول الأمر، مثل ما وقع لابن عباس ﷺ، فعن عكرمة قال: كنت عند ابن عباس فمر طائر فصاح فقال رجل: خير خير، فقال ابن عباس: ما عند هذا لا خير ولا شر[1]. أي لا شيء عند هذا الغراب.

وكذلك طاووس ﷺ خرج مع صاحب له في سفر فصاح غراب، فقال الرجل: خير. فقال طاووس: وأي خير عنده، والله لا تصحبني[2].

فإذا نظر العاقل بعقله فإذا الواقع ليس عندها خير ولا شر، ولا تعلم عن شيء في المستقبل، الأمر كله بيد الله جل وعلا، ولكن العبد قد يُعاقب إذا اعتقد ذلك.

والواجب على العبد أن يتحرز من الشيطان، وأوهامه ووساوسه وشكوكه، فإن الإنسان إذا أصغى إلى الوهم الذي يلقيه الشيطان زاد فعله ونماه وربما كثر حتى صار مرضاً وعسر التخلص منه، فالواجب حسم الأمر من أول وهلة، فيعرض عنه نهائياً ولا يلتفت إليه ويعلم العلم اليقين أن الأمور كلها

---

(١) فتح الباري لابن حجر ١٠/ ٢١٥ قال: أخرجه الطبري.

(٢) مفتاح دار السعادة ٢/ ٢٣٥.

بيد الله جل وعلا، وأن ما قدره الله جل وعلا أنه لا بد من وقوعه، وما لم يقدره لا يقع وليس عند هذه المخلوقات شيء مما قضاه الله جل وعلا وقدره؛ لأنها ليست علامات على الغيب ولا تأثير لها في الحوادث فيؤمن بهذا ويعزم ولا يلتفت إلى توهيمات الشيطان ووساوسه وتخويفاته التي يريد أن يوقع الإنسان في الالتفات إلى غير الله جل وعلا، أو في الشرك وهو إذا كان العبد قوي الإيمان يرضي الشيطان بالشيء القليل منه يعني أن يصيبه منه.

قوله: «فإذا رأى أحدكم ما يكره»؛ يعني: فيما يظن أنه فيه شيء من ذلك فليبادر إلى دفع هذا الأمر عن نفسه وما يقع في قلبه، وليلجأ إلى الله جل وعلا؛ لأنه هو الذي بيده كل شيء.

قوله: «فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك»؛ يعني: أن الخير والشر، والنفع والضر كله بيد الله جل وعلا والإنسان لا يصاب إلا بما قدره الله جل وعلا، وإصابته بما يؤلم أو يؤذي لا يكون على كل حال أنه ضرر عليه بل قد يكون خيراً، فالمؤمن إذا أصيب بالمصائب في الدنيا تكون كفارات لذنوبه كما جاء في الحديث: **«من يرد الله به خيراً يصب منه»**[1] بمرض أو غيره، وإنما الشقي الذي تُؤخر سيئاته حتى يوافى بها يوم القيامة كاملة فيُجزى بها.

الأمر الثاني: أن الأمور كلها مقدرة قبل وجود الخلق بآلاف السنين كما في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة قال: وعرشه على الماء»**[2]. الأشياء عامة لا يخرج منها شيء كبر أو صغر حتى نبض العروق وحركاتها واختلاجها كله مكتوب لا يخرج منه شيء، فكيف يلتفت العبد إلى أمور مدبرة مسخرة قد قضى عليها في الأزل، وقضى كل حركة وكل سكون وكل نفع وكل ضر سبق، كيف يُنيطها بأشياء لا دخل

---

(١) رواه البخاري رقم ٥٦٤٥ من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) رواه مسلم رقم ٣٦٥٣.

لها فيها؟ فالواجب التسليم لأمر الله جل وعلا، وأنه هو الرب المتصرف في ملكه كيف يشاء فيؤمن بهذا ويسلم لربه جل وعلا، ولهذا قال: «**اللهم لا خير إلا خيرك**»؛ يعني: أي خير يقع للعباد فهو منك ومحض فضلك وكرمك وجودك من غير استحقاق منهم بل تفضلت به وتكرمت عليهم بذلك.

وقوله: «اللهم لا يأتي بالحسنات»: الحسنات يدخل فيها كل ما ينفع سواءً من أمور الدنيا أو الآخرة.

وقوله: «ولا يدفع السيئات إلا أنت»: السيئات كل ما يسوء الإنسان في نفسه أو دينه ولا يدفعها عن الإنسان إلا ربه جل وعلا فهو الذي بيده كل شيء، يتصرف فيه كيف يشاء، فهذا تفويض إلى الله واستسلام له.

وقوله: «ولا حول ولا قوة إلا بك»؛ يعني: أنه لا تحول لأحد من حالة إلى أخرى إلا بمشيئتك وإرادتك، وهذا تبري من النفس ومن كون الإنسان له قوة يمكن يحتال بها، فالتحول من حال إلى أخرى لا يكون إلا بالله جل وعلا، فالأمور كلها تحت تصرفه جل وعلا، والقوة ليس للإنسان قوة في نفسه، ولا في غيره من المخلوقات، وليس له في نفسه تصرف، وتدبير وإيجاد للأشياء إلا بعد إذن الله وإرادته جل وعلا، وإن كان الإنسان له قوة، وله مشيئة، فقوته ومشيئته بعد مشيئة الله جل وعلا، فمعنى هذا أنه تفويض لله جل وعلا، وأن الأمر كله بيده جل وعلا، وهذا من أفضل الدعاء، وهذا من توحيد الله جل وعلا والإخلاص له والتسليم له، فكان هذا من أفضل ما يلجأ إليه العبد في مثل هذا وغيره؛ لأنه من التوحيد الذي هو ضد الطيرة.

۞ قال المؤلف رحمه الله: وعن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً: «الطيرة شرك، الطيرة شرك» وما منا إلا! ولكن الله يُذهبه بالتوكل. رواه أبو داود والترمذي وصححه، وجعل آخره من قول ابن مسعود[1].

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم ٣٦٧٨، وأبو داود رقم ٣٩١٠، وابن ماجه رقم ٣٥٣٨، والترمذي رقم ١٦١٤.

هذا فيه التصريح بأن الطيرة من الشرك وذلك أن نسبة الأشياء إلى الطيور أو الحيوانات أو الأشخاص نسبة خاطئة وهي من الشرك؛ لأن التصرف كله لله ﷻ هو الذي يتصرف كيف يشاء سبحانه.

قوله: «وما منا إلا»؛ يعني: وقع في نفسه أو قلبه شيء، وهنا حذف الكلام المفهوم كراهة ذكر الأشياء المكروهة وأن تسند إلى النفس، وهو أسلوب معروف من أساليب العرب، وهو من أحسن الأساليب والمعنى مفهوم من ذلك؛ يعني: ما منا إلا ويقع في قلبه شيء من ذلك؛ يعني: أنه قد يتوهم في نفسه شيئاً من الأوهام فقط، أما أن تكون الطيرة التي يفعلها المشركون بأن يرجع أو يمضي من أجل ذلك فهذا لا يقع للمسلم كما في الحديث السابق، لكن كون الشيطان يُوقع في النفس الوهم من الوسوسة والتوهم هذا هو الذي قد لا يسلم منه العبد، ولكن هذا يذهب بالتوكل على الله واعتماد العبد على ربه وقول ما أرشد إليه الرسول ﷺ: **«اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع بالسيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك»** أذهبه الله جل وعلا.

قوله: «ولكن الله يذهبه بالتوكل»؛ يعني: هذا الذي وقع في القلب يذهب بالتوكل على الله والاعتماد عليه والتفويض إليه.

وقوله: «وجعل آخره من كلام ابن مسعود»؛ يعني: قوله: «وما منا إلا» وهو الصحيح؛ لأن الرسول ﷺ لا يقع في نفسه شيء من ذلك، وفي هذا دليل أن هذا لا يضر إذا كان هذا مجرد وهم توهمه، فإنه يكون من إلقاء الشيطان وسوسته كما سبق، فإذا توكل العبد على الله فإنه يذهب، ولا يكون لهذا أثر هذا هو معناه. والتوكل على الله: هو الاعتماد عليه وتفويض الأمر إليه.

۞ قال المؤلف رحمه الله: ولأحمد من حديث ابن عمرو: «من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك»، قالوا: فما كفارة ذلك؟ قال: «أن تقول: اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك»[1].

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم ٧٠٤٥، قال في مجمع الزوائد ٥/١٠٥: رواه أحمد، والطبراني وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن وفيه ضعف، وبقية رجاله ثقات.

وهذا الحديث من حديث ابن لهيعة ومعروف الكلام فيه، هو في نفسه ثقة ولكنه احترقت كتبه فصار إذا حدث يخطئ، ولهذا أضعفوه من هذا الوجه.

قوله: «من ردته الطيرة عن حاجاته فقد أشرك»: هذا مثل ما سبق فيه أن الطيرة شرك، ووجه كونها من الشرك أنه علق السبب على مخلوق لا صلة له فيه؛ يعني: أنه يجعل المسببات منوطة بأسبابها التي جعلها أسباباً، ولكن هذا لم يجعله سبباً جل وعلا، فإذا اعتقد ذلك فهو من الشرك والشرك في هذا يرجع إلى التدبير والتصرف ويرجع أيضاً إلى دعوى علم الغيب وعلم الغيب خاص بالله جل وعلا.

قوله: «من ردته الطيرة عن حاجاته»: جعل هذا هو الحد الذي يكون فيه الإنسان مشركاً وهو أن يرجع عن حاجاته وما قصده حينما يسمع أو يرى ما يكره، أو يلقى في نفسه من أوهام الشيطان ووسوسته الشيء الذي ينقدح في ذهنه أن مطلبه لا يتم، وأنه ينعكس عليه أمره، ومعلوم أن العبد إذا انفتح له هذا الباب باب الوسوسة وتوهيمات الشيطان أنه يتنغص عليه عيشه وتتكدر عليه حياته، وتصبح الأمور أمامه كلها مشوشة، وقد يكون هذا عقاب من الله جل وعلا؛ لأن من سُنَّة الله جل وعلا في خلقه أنه يعاقب الإنسان بنقيض قصده، أو أنه جل وعلا يُوقع فيه ما توهمه عقاباً له، عقوبة طارئة من هذا العمل، وليس ترتيباً لوجود هذه الأشياء على هذه الموهومات؛ لأنه لا دخل لها فيه وإنما ذلك عقاب لتوهماته واتباعه الشيطان، وهذا كثير في الناس الذين يتتبعون هذه الأشياء، والذي يعرض عنها يصبح مرتاحاً، والإعراض ليس لمجرد ارتياح النفس بل لأجل أنها لا علاقة لها بذلك أصلاً، وأن هذا خلاف ما أمر الله به جل وعلا وشرعه للعباد.

قوله: «قالوا: فما كفارة ذلك؟ قال: أن تقول: اللهم لا طير إلا طيرك، ولا خير إلا خيرك، ولا إله غيرك»: هذا القول لا بد أن يعتقد معناه، ويعمل به، أما مجرد قول بلا اعتقاد ما دل عليه وبلا عمل به فإنه لا يجدي، ولا ينفع، فيجب أن يلجأ إلى الله جل وعلا ويعتمد عليه في كل ما يحدث للعبد من الأمور التي يتوقعها سواءً كانت الأسباب منوطة بمسبباتها أو كانت أوهاماً

وظنوناً وشكوكاً؛ لأن العبد إذا لم يلجأ إلى ربه تخطفته الشياطين من كل جانب، واستولت عليه فتنكدت عليه حياته كلها، وتنغصت، فلا بد من اللجوء إلى الله جل وعلا، والتسليم له، والانقياد له، وأن يكون الإنسان عبداً لله جل وعلا حقاً وعبودية الإنسان لربه بفعله أن يستشعر في نفسه أنه عبد، وأن كل من سوى الله جل وعلا من عبيده المدبرة المسخرة التي لا تملك لنفسها فضلاً عن غيرها نفعاً ولا دفعاً فإذا آمن بهذا وسلم سلمت عقيدته وانقاد على الطريق المستقيم.

وهذا يدل على أن هذا الفعل الذي هو التطير من الشرك الأصغر، وليس من الأكبر؛ لأنه لو كان من الأكبر ما كان كفارته هذا القول إلا أن يُقال هذا فيه التوبة والإخلاص والرجوع إليه؛ لأنه قال: «ولا إله غيرك».

ففيه أنه يقر بالتأله لله جل وعلا وحده، ومن لازم الإله أن يكون هو المدبر هو النافع الضار؛ يعني: بيده النفع والضر وحده، وغيره لا يملك شيئاً من ذلك، فإذا اعتقد هذا وقاله تائباً وراجعاً يكون كفارة حتى من الشرك الأكبر.

قوله: «ولا خير إلا خيرك»: هذا يبطل الطيرة؛ ويعني: أن الخير الذي يأتي للإنسان منك.

وقوله: «ولا إله غيرك»؛ يعني: لا أتجه بقلبي إلا إليك، ولا أدعو وأرجو إلا أنت.

۞ قال المؤلف رحمه الله: **وله من حديث الفضل بن عباس: «إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك» رواه أحمد.**

هذا الحديث ضعيف وفيه انقطاع بين مسلمة راويه وبين الفضل.

والفضل: هو أكبر أولاد العباس قتل يوم اليرموك وكان عمره اثنتين وعشرين سنة.

قوله: «إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك»: هذا هو حد الطيرة التي تكون لها هذه الأحكام أنه الشيء الذي يحققه الإنسان بالفعل أو بالترك أم مجرد أمور تعرض له في ظنه، ووهمه ولكنه لا يعمل على مقتضى ذلك ولا يترك

فإن هذا لا يضره، ولا يكون داخلاً في الطيرة غير أنه قد يتأذى بذلك بحسه وفي عمله يعني يكون عنده شيء من التوهم، والتوهم فيه أذى فيجب عليه أن يتوب من ذلك؛ لأن هذا عمل فهو يكون داخلاً في المضي وفي الرد؛ لأن مبنى الأعمال كلها على ما في القلب غير أن هناك أموراً لا حقيقة لها وهمية، فالأمور الوهمية إذا نماها الإنسان واسترسل معها تزيد وقد تكون مستولية عليه فيجب أن يحسم المادة من أصلها ولا يلتفت إليها أصلاً، ويعلم أنه لا حقيقة لها، فإذا كان بهذه المثابة مجرد أمور عرضت ثم لم يتتبعها ولم ينمها ويسترسل معها فإنها لا تضره، وإنما الذي يضر ويكون له حكم الطيرة هو أنه عمل بمقتضى ما سمع أو ما رأى من الفعل أو من الترك يكون هذا حداً لطيرة المذمومة التي هي من الشرك، وهو أمر واضح لا إشكال فيه.

❁ قال المؤلف رحمه الله: فيه مسائل:

❁ الأولى: التنبيه على قوله: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ مع قوله: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾.

يعني: أن الآيتين ليس بينهما تعارض ﴿طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ يعني: جزاؤهم جزاء كفرهم وأعمالهم عند الله، وما عند الله أشد وأنكى مما وقع لهم من جراء تكذيبهم الرسل.

و﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ يعني: بسبب أعمالكم التي عملتموها كفركم وردكم وتكذيبكم الرسل وهذا هو الذي سيصيبكم من جرائه.

❁ الثانية: نفي العدوى.

وهذا يدل على أن الشيخ رحمه الله يرى أن «لا» للنفي وهذا هو الراجح، والمنفي هو ما يعتقده الجاهليون وهو أنه ينتقل بطبعه وقوته.

❁ الثالثة: نفي الطيرة.

الطيرة موجودة عند الناس كثيرة لا تزال، ولكن المقصود نفي الحقيقة؛ أي: ليس لذلك أي حقيقة وإنما هي أوهام وتخويفات من الشيطان، ولهذا صارت من الشرك.

۞ الرابعة: نفي الهامة.

على ما ذكر من التفسيرين لها وكلها خرافة.

۞ الخامسة: أن الفأل ليس من ذلك، بل مستحب.

يعني: ليس من الطيرة؛ لأنه استثنى قال: «**ويعجبني الفأل**» فهو ليس من الطيرة المذمومة والفرق بينهما أن الفأل من الظن الحسن والأمل الجميل، وإذا أمل الإنسان خيراً حصل له بإذن الله.

۞ السادسة: أن الواقع في القلوب من ذلك مع كراهته لا يضر، بل يذهبه الله بالتوكل.

يعني: ما يقع في قلب الإنسان من هذه الأوهام أنه لا يضره في دينه، وكذلك لا يضره في دنياه؛ لأنه مجرد وهم والوهم لا حقيقة له، فيعلم حقاً أنه لو وقع له شيء من المكروه أنه ليس بسبب ذلك بل هذا أمر مقدر، والذي وقع في وهمه من وساوس الشيطان وتخويفاته لا صلة له في هذا، يجب أن يعتقد هذا، فإذا اعتقد هذا فإنه لا يضره بخلاف ما إذا ربط هذه الوقائع أو المصائب ربطها بالشيء الذي رآه أو سمعه فإنه يضره في دينه وقد يضره في بدنه كما هو الواقع لكثير من الناس ـ نسأل الله السلامة ـ.

۞ السابعة: ذكر ما يقول من وجده.

يعنى: الدعاء الذي أرشد إليه الرسول ﷺ.

۞ الثامنة: تفسير الطيرة المذمومة.

يعني: كما في حديث الفضل ابن العباس يعني: «**ما أمضاك أو ردك**»، وإن كان هذا الحديث ضعيفاً ولكن معناه صحيح؛ لأن فيه حد الطيرة المذمومة وهو أمر معلوم في ذلك.



فهرس موضوعات
المجلد الأول

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

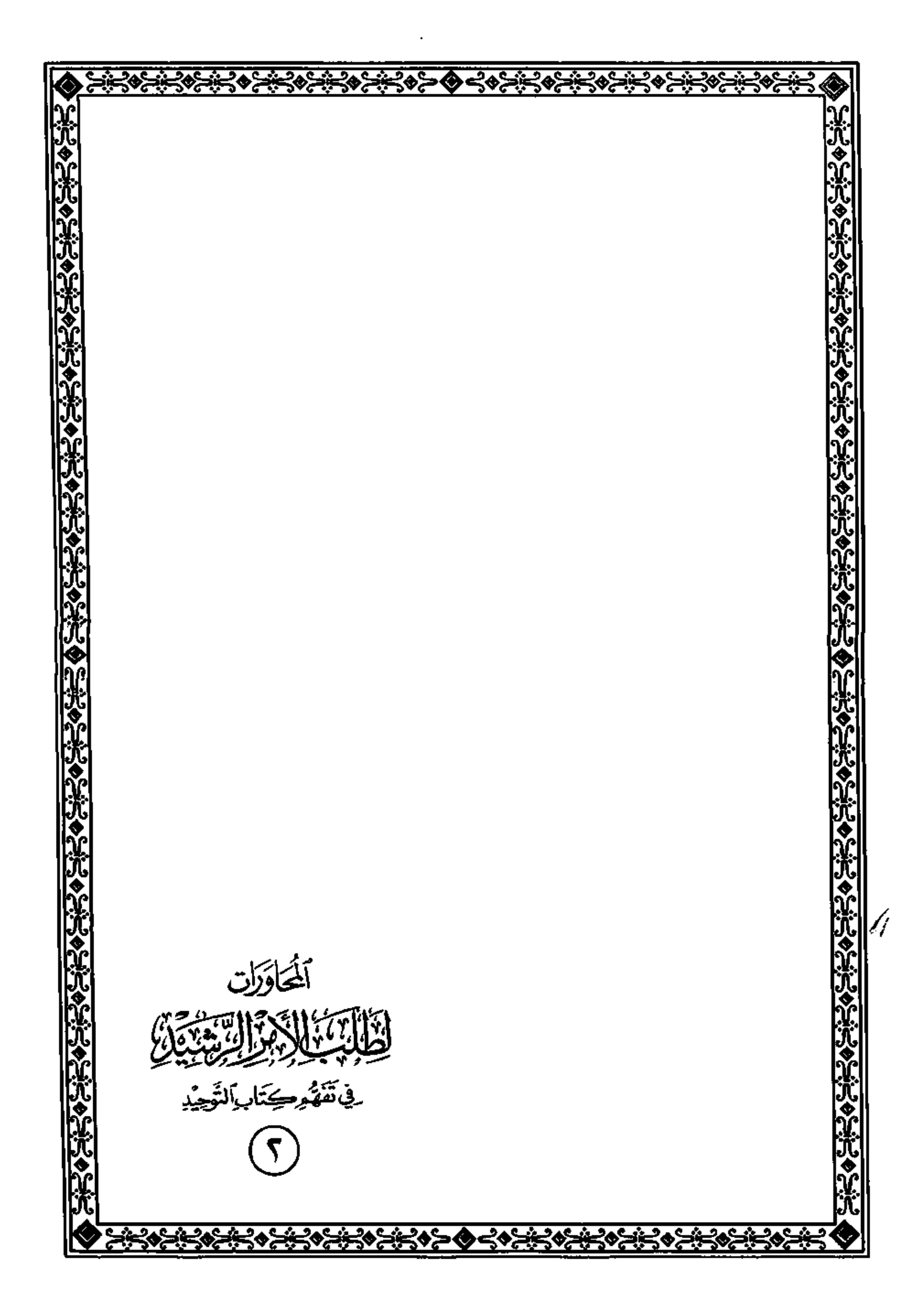
الموضوع | الصفحة

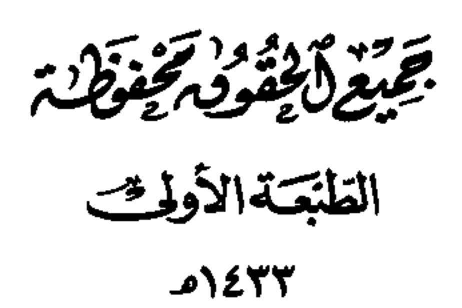
الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع **الصفحة**


المحاورات
لطلب الأمر الرشيد
في تفهم كتاب التوحيد
٢



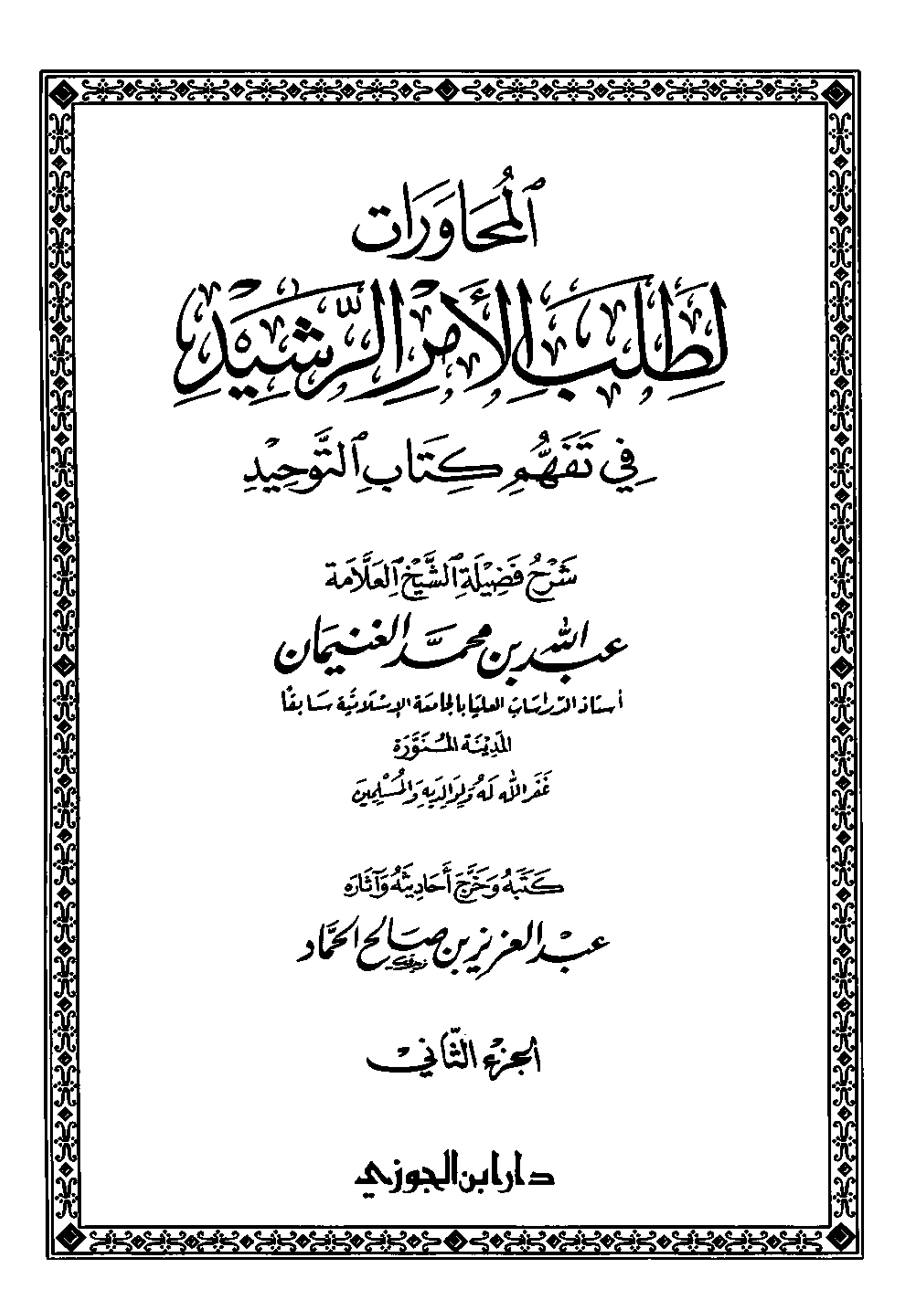


دار ابن الجوزي

للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية: الدمام - طريق الملك فهد - ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣، ص ب: ٢٩٨٢
الرمز البريدي: ٣١٤٦١ - فاكس: ٨٤١٢١٠٠ - الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨ - جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨
الإحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢ - جدة - ت: ٦٣٤١٩٧٣ - ٦٨١٣٧٠٦ - ٠٥٦٣٤٧٦٣٨٨ - بيروت - هاتف:
٠٣/٨٦٩٦٠٠ - فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١ - القاهرة - ج م ع - محمول: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٨٣ - تلفاكس:
٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠ - الإسكندرية - ٠١٠٦٩٠٥٧٥٧٣ - البريد الإلكتروني:

aljawzi@hotmail.com - www.aljawzi.com



المحاورات لطلب الأمر الرشيد

في تفهم كتاب التوحيد

شرح فضيلة الشيخ العلامة

عبد الله بن محمد الغنيمان

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

المدينة المنورة

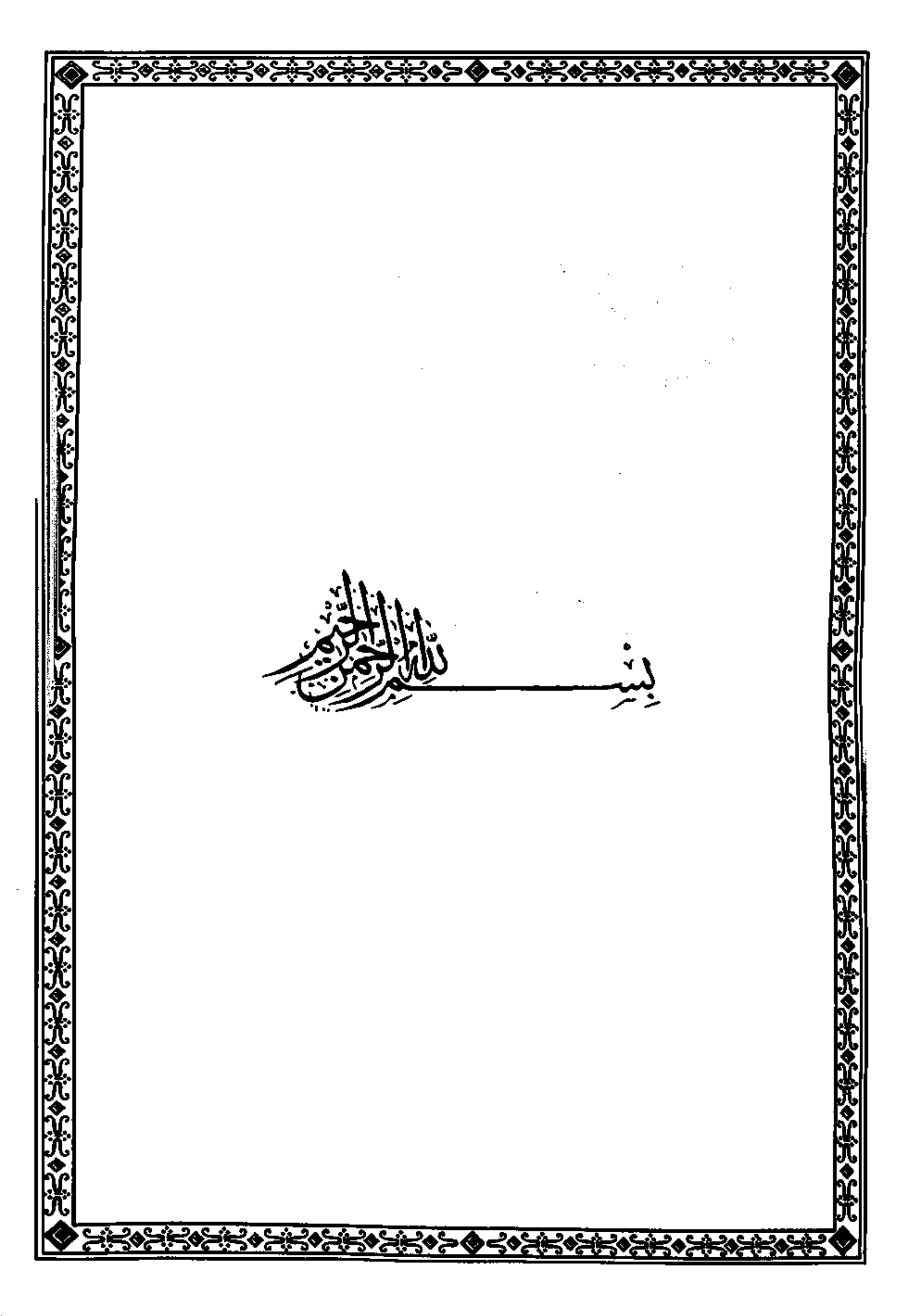
غفر الله له ولوالديه والمسلمين

كتبه وخرج أحاديثه وآثاره

عبد العزيز بن صالح الحماد

الجزء الثاني

دار ابن الجوزي


بسم الله الرحمن الرحيم




الباب التاسع والعشرون

❁ قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ: باب ما جاء في التنجيم.

يعني: ما جاء فيه من الوعيد أو في حكمه هل هو كفر أو هو جائز، أو فيه تفصيل؟

❁ **قال المؤلف ـ رحمه لله ـ: قال البخاري في صحيحه: قال قتادة: خلق الله هذه النجوم لثلاث: زينة للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلامات يهتدى بها. فمن تأول فيها غير ذلك أخطأ، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به. انتهى**[(١)].

هذا الأثر الذي ذكره عن قتادة هو بيِّن في أكثر من آية من كتاب الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥﴾ [الملك: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩﴾ [الجن: ٩]، وقال جل وعلا: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠﴾ [الصافات: ١٠]، وقال ﷻ: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ۝١٦﴾ [النحل: ١٦].

فهذه الحكمة التي بيَّنها الله لنا من النجوم، فالسماء الدنيا فيها النجوم كأنها القلائد على أتراب النساء، فهي زينة لها، فهذه من الحكم وهي أيضاً علامات يُهتدى بها، إما أنه يهتدى بها على الخالق جل وعلا فإنها من صنعه الذي يدل على وجوب عبادته، أو أنه المقصود يهتدى بها في ظلمات البر والبحر كما ذكر الله جل وعلا ذلك؛ يعني: هداية السائر في البر والبحر تكون علامات على الجهات، علامة على الجهة التي يقصدها في سيره سواء كان في البر أو في البحر.

(١) رواه البخاري في (باب في النجوم).

وكذلك تكون علامة على القبلة، ولهذا الفقهاء يذكرون العلامات وأنه ينبغي للإنسان أن يعرف علامات القبلة ويعرفها بالشمس والقمر وبالنجوم وبالرياح، الرياح أصلها أربع، تأتي من الجهات الأربع، فجعلوا النجوم من العلامات التي يهتدى بها، وعلى هذا يكون تعلمها لأجل ذلك إما أنه مباح أو أنه مستحب.

أما كونها رجوماً للشياطين فهو أمر ظاهر، وسبق أن الشياطين يركب بعضها على بعض لاستراق السمع من الملائكة الذين يكونون بالعنان؛ يعني: بالسحاب أو دونه؛ لأن الملائكة يرسلهم الله جل وعلا بأوامره التي تكون في ملكوته في الأرض وبين السماء والأرض وفي غير ذلك ويتحدثون فيما بينهم بما أرسلوا به مما يقوله الله جل وعلا فتتخطف الشياطين الكلمة حتى تأتي بها إلى الكاهن فيكذبون معها مائة كذبة ليضلون بني آدم أو لأجل أن يعتقدوا أن الكاهن يعلم الغيب فيقنعوا في الكفر والخروج من الإسلام، ومعلوم حرصهم على عداوة الإنسان، فجعل النجوم لرجمهم، فإذا صنعوا ذلك أرسل عليهم شهاب من النجوم فأحياناً يقتل الشيطان وأحياناً يتخطاه وأحياناً يذهب بعقله، ومع هذا يفعلون ذلك إمعاناً في حرصهم على إضلال الناس، وهذا يدلنا على أن هذا الأمر كان منذ خلقت الشياطين وليس أمراً حادثاً، ولكن كما سبق لما أرسل الله جل وعلا محمداً ﷺ حرست السماء فصاروا لا يستطيعون أن يسترقوا شيئاً فكثرت النجوم، ولهذا الناس فزعوا من ذلك وخافوا أن تكون الدنيا قد انتهت.

قوله: «خلق الله هذه النجوم لثلاث»؛ يعني: لثلاث حكم، وهذه الثلاث هي التي جعلها الله في خلق النجوم، فمعنى ذلك أنه يجب على العبد أن يتقيد بما ذكره الله جل وعلا في كتابه، ولا يعدو ذلك في النجوم؛ لأن النجوم مخلوقة مدبرة لله جل وعلا وليس عندها شيء من علم الغيب، وقد كثر الخوض في ذلك، والضلالات أكثر مما كان في الجاهلية كما يوجد في كثير من المجلات والصحف وغيرها أن من سافر في كذا أو ولد في نجم كذا أنه يكون له كذا وكذا وأمور كثيرة يتصيد بها هؤلاء أموال الناس، وهي كلها ضلال وتخمينات، بل ضلال بين ظاهر ليس لهم عليها أي دليل وأي أمارة،

ومعلوم أن طلوع هذا النجم مثلاً أنه يولد فيه خلق كثير أو يموت فيه خلق كثير، ويحدث حوادث كثيرة ولا صلة للنجم في هذه الأمور، فعلى هذا نقول مثلاً: التنجيم أو علم النجوم ينقسم إلى قسمين غير الأحكام الثلاثة التي ذكرت:

القسم الأول: يسمى علم التأثير: يعني: أن الحوادث التي تحدث في الأرض أو في الكون تكون أثراً من حركات النجوم، فالنجوم يكون لها صلة بالحوادث، وهذا لا يزال موجود في الناس، كثير من المنجمين يعتقدون هذا ويعملون به، وربما يحاول بعضهم أن يستدل عليه من القرآن؛ كقوله جل وعلا: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦] يزعم أنهم يهتدون على ما يحدث من الأمور التي تجد، وتكون مستقبلة، وهذا زعم باطل، فقوله: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾؛ يعني: يهتدون في الظلمات كما نص الله جل وعلا على ذلك في سورة الأنعام؛ يعني: في ظلمات البر والبحر: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الأنعام: ٩٧] تكون بها الهداية فهي من نعمه جل وعلا على عباده؛ لأنه إذا أظلم الليل لا يرى شيء إنما ترى النجوم التي إذا عرفها بأعيانها عرف أنها إلى تلك الجهة فيسير إلى الجهة التي يريدها مهتدياً بذلك.

واستدلوا بقول الله جل وعلا في قصة إبراهيم ﷺ: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾﴾ [الصافات: ٨٨] فزعموا أنه استدل في نظره بالنجوم على أنه سيمرض وسيحدث له السوء، وهذا أيضاً من جنس ما قبله ادعاء باطل، وإنما هذا من المعاريض؛ أي: الأفعال التي يُعرض بها كون الإنسان ينظر إلى النجوم لا يقتضي أنه يستدل بها على ما سيحدث، ولهذا صح في حديث الشفاعة عن النبي ﷺ حينما يأتي الناس يطلبون الشفاعة منه يعتذر ويذكر أنه كذب ثلاث كذبات هذه إحداها وليست كذب، وإنما سماها كذب من باب المجاز، وإلا فهي من باب المعاريض، مثل ما قال الرسول ﷺ للمشرك في ذهابه إلى بدر فذهب يسأل عن قريش فلقي مشركاً فقال: أخبروني ممن أنتما؟ فقالا له: إذا أخبرتنا أخبرناك. فلما أخبره سألهما: ممن أنتما؟ قال: من

ماء»[1]؛ يعني: أنهم خلقوا من ماء، فهذا من المعاريض، فالرجل ظن أنه من قرية يقال له: ماء. فالمقصود أن قوله: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ۝٨٨ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ۝٨٩﴾ [الصافات: ٨٨، ٨٩] يعرض أنه يترك الذهاب مع قومه حتى يتخلف إلى أصنامهم فيحطمها ففعل ﷺ، ولهذا جاء في الحديث: «لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات ثنتين منهن في ذات الله ﷻ. قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾. وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣]. وقال: بينا هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة فقيل له: إن هاهنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس فأرسل إليه فسأله عنها فقال: من هذه؟ قال: أختي فأتى سارة فقال: يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، وإن هذا سألني فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني، فأرسل إليها، فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأُخذ، فقال: إدعي الله ولا أضرك فدعت الله فأطلق. ثم تناولها الثانية فأُخذ مثلها أو أشد فقال: ادعي الله لي ولا أضرك فدعت فأُطلق، فدعا بعض حجبته فقال: إنكم لم تأتوني بإنسان إنما أتيتموني بشيطان فأخدمها هاجر فأتته وهو يصلي فأومأ بيده مهيأ، قالت: رد الله كيد الكافر أو الفاجر في نحره وأخدم هاجر»[2]، وكلها إذاً في المجادلة في دين الله وفي الدعوة إليه.

فالمقصود أن قوله: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ۝٨٨﴾ من الأفعال التي يعرض بها وليس كما يقول المنجم الضال في هذا، أما كون المنجم قد يصدق

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٦١٥ قال: «ثم نزل قريباً من بدر فركب هو ورجل من أصحابه قال ابن هشام: الرجل هو أبو بكر الصديق. قال ابن إسحاق كما حدثني محمد بن يحيى بن حبان: حتى وقف على شيخ من العرب، فسأله عن قريش، وعن محمد وأصحابه وما بلغه عنهم، فقال الشيخ: لا أخبركما حتى تخبراني ممن أنتما؟ فقال رسول الله ﷺ: إذا أخبرتنا أخبرناك، قال: أذاك بذاك؟ قال: نعم، قال الشيخ: فإنه بلغني أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذي أخبرني، فهم اليوم بمكان كذا وكذا، للمكان الذي به رسول الله ﷺ وبلغني أن قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان الذي أخبرني صدقني فهم اليوم بمكان كذا وكذا للمكان الذي فيه قريش. فلما فرغ من خبره قال: ممن أنتما؟ فقال رسول الله ﷺ: **نحن من ماء**، ثم انصرف عنه، قال: يقول الشيخ ما من ماء أمن ماء العراق؟».

(٢) رواه البخاري رقم ٣٣٥٨، ومسلم رقم ٢٣٧١.

فصدقه مثل صدق الكاهن الذي قد يصدق مثلاً في الكلمة ويكذب في مائة أو أكثر قد يزيد هو مائة ويزيد شيطانه مائة أخرى فيصدق في هذه الكلمة التي وافقت أنها أُخذت عن الملائكة، أما المنجم فصدقه قليل جداً، وصدقه ليس أن النجوم عندها شيء من العلم وإنما أمر وافق القدر فصار في ذلك فتنة، وإلا ليس عند النجوم أي علامة على ما يحدث، فالذي يدعي ذلك فهو ضال ضلال بيِّن.

قوله: «زينة للسماء»: قد يؤخذ من هذا أن النجوم في السماء، ولا شك أن كل ما فوقنا سماء، فيطلق على العلو سماء فهي بلا شك أنها في السماء بالنسبة إلينا، لكن هل هي في السماء المبينة أو في غيرها؟

المنجمون الذين كانوا يعتنون بالنجوم قديماً وضعوا لها مراصد جعلوها في السماوات كلها، ولهذا قالوا: أن القمر في السماء الدنيا والشمس في السماء الرابعة وكل نجم قالوا: أنه في كذا وكذا، وذلك أنهم نظروا فيها وجود بعضها يكسف بعضاً هذا هو وجه الاستدلال لديهم، ومعنى يكسف بعضها بعضاً أن بعضها فوق بعض، ثم نظروا في الأبعاد التي بينها بالتقدير، والآن خرجت مراصد كبيرة، والكفار يعتنون بها ولكنهم يقولون: أنها تسبح في الفضاء، وهذا؛ لأنهم لا يعتقدون أن هناك سماء أصلاً بل يجعلون ما فوق فضاء؛ لأنهم لا يؤمنون إلا بالمحسوس، والله ﷻ أخبرنا أن هذا المشاهد هي السماء، قال جل وعلا: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾ [ق: ٦].

والله جل وعلا أمرنا بالتفكير في السماء وآياتها، والسماء يدخل فيها كل ما فوقنا، ولكن السماوات جاءت مجموعة في غالب ورودها في القرآن، وجاء أنها سبع، أما الأرض فجاءت مفردة في جميع مواردها إلا في موضع واحد في قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢] الآية، وهذه المثلية اختُلف فيها، فأكثر العلماء على أن المثلية لا تنطبق في جميع الوجوه، وإنما هي طبقات سبع، وأما ما ذكره القرطبي في تفسيره[١]

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٨/ ١٧٥.

ورجحه وهو أن الأرضين السبع بينها فتوق وأن بين كل أرض وأخرى مسافة وأن كل أرض، فيها سكان، وفيها مثل ما على هذه الأرض، وهذا الظاهر أنه مأخوذ من عقائد زنادقة أهل الكتاب ونسبته إلى أهل السُّنَّة هذا غير صحيح.

فالمثلية أنها طبقات، أما السماوات فهي بينها مسافات شاسعة وقد جاءت النصوص بهذا حتى في تحديد المسافة بين سماء وأخرى ما بين خمسمائة سنة إلى سبعمائة سنة، وهذا الاختلاف يكون باختلاف السير السريع وغير السريع، فمن الثابت أن النبي ﷺ عرج به من بيت المقدس إلى السماء السابعة ثم رجع منه إلى مكة كل هذا في ليلة واحدة، وقد ثبت عنه ﷺ أنه عندما تقبض الروح يصعد بها إلى السماء فإن كانت صالحة فتحت لها أبواب السماوات حتى تنتهي إلى السماء التي فيها الله جل وعلا، هكذا جاء في بعض الأحاديث، وفي أحاديث أخرى إلى السماء السابعة ثم يقول الله: «**اكتبوا كتابه في عليين وأعيدوه إلى الأرض**»، وأما إن كانت خبيثة فإنها تغلق دونها أبواب السماء ثم ينادي منادي: «**أن اكتبوا كتابه في سجين وأعيدوه إلى الأرض**»، ثم يطرح طرحاً، ثم قرأ عليه الصلاة والسلام: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

والرسول ﷺ لما عرج به مع جبريل ﷺ استفتح السماء الدنيا فقالوا: من؟ قال: جبريل، قالوا: من معك؟ وفي هذا دليل أنها محكمة لها أبواب مغلقة وحفظها الله من شياطين الإنس والجن: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنبياء: ٣٢]، والله جل وعلا أخبر أن الجنة فوق السماء السابعة فقال: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الذاريات: ٢٢].

وفي البخاري عنه ﷺ: «**إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله كل درجتين ما بينهما كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمٰن، ومنه تفجر أنهار الجنة**»[1]. وهذه أوصاف ثلاث للفردوس أنها وسط وأعلاها وتفجر منه

---

(١) رواه البخاري رقم ٢٧٩٠ من حديث أبي هريرة.

أنهار الجنة، وأما الرابع فهو عام، فالعرش سقف المخلوقات كلها ليس فوقه مخلوق فكل المخلوقات تحته.

فالكواكب الذين يقولون أنها في السماء الثانية والثالثة والخامسة حتى قالوا في السماء السابعة هذا حدس وتخمين وظن كاذب والله أخبرنا بقوله: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠﴾ [الصافات: ٦ ـ ١٠].

وهذا الاستثناء للشياطين الذين يتراكب بعضهم على بعض فهم لا يصلون إلا إلى السحاب فقط، وهم لا يستطيعون الوصول إلى السماء، والسحاب فيه الملائكة هم يتكلمون بالوحي الذي يأمرهم الله به والشياطين تتراكب حتى تصل إلى السحاب ثم تخطف الكلمة من الوحي ثم يلقيها الأعلى إلى الأسفل خشية أن يُدركه الشهاب قبل أن ينقلها، حتى تصل إلى الأرض فقد يأتي الشهاب فيقتله أو يذهب عقله وقد يخطئه، وهم مع هذا كله يعرفون هذا ولكنهم يخاطرون وكل هذا من أجل إضلال بني آدم، أما أنهم يتعدون ذلك ويصلون إلى السماء فلا.

أما قول الكفار أن فوقنا فضاء أو يطلقون أقمارهم الصناعية وهي في مدارات قريبة، وهم يقولون أنهم إذا صعدوا ووصلوا إلى حد معين تكون هناك ظلمة شديدة، ويقولون أنه ليس هناك سماء وأن هذا المشاهد هو انعكاسات من الأثير ومن البحار فهي انعكاسات تعكسها الأرض هكذا يقولون، والسماء بعيدة جداً وإذا لم يكن هناك شيء يعكس النظر فلا يمكن أن يُرى شيء، وهذه المسألة عقلية مقررة عند أهل الكلام قديماً والمعتزلة جعلوها أصلاً في نفي رؤية الله جل وعلا؛ لأنهم قالو: المرء لا بد أن يصطدم بجسم ولو صح أننا نرى ربنا لصح أن يكون جسماً، وهذا باطل، قال شيخ الإسلام رحمه الله: هؤلاء أصحاب القياس جعلوا أنفسهم الأصل فقاسوا رب العالمين على أنفسهم، فأنكروا صفات الله جل وعلا على هذا الأساس.

فالمقصود أن النجوم سواء كانت في السماء أو تحت السماء أو حيث

شاء الله، فهي مخلوقات لله مسخرة تسير بنظام معين وبأوقات معينة، ولا تخرج عن طاعة الله ﷻ، وجاء أنها تسجد لله جل وعلا، فالشمس والقمر والنجوم تسجد لله جل وعلا، عن أبي ذر ﷺ قال: قال لي النبي ﷺ حين غربت الشمس: «تدري أين تذهب». قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «**فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش فتستأذن فيؤذن لها ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها وتستأذن فلا يؤذن لها يقال لها ارجعي من حيث جئت فتطلع من مغربها، فذلك قوله تعالى:** ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ [يس: ٣٨]»[1]، فهي تسجد لله جل وعلا، والعجب أن أهل الكلام يتأولون مثل هذا الحديث، فقد قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في شرحه لهذا الحديث: إن وجه استدلال البخاري به أن العرش له تحت فهو مخلوق[2].

وهذا بعيد جداً من مقصود البخاري رحمه الله، مقصود البخاري معروف: إبطال كلام الجهمية والمعتزلة ومن شابههم ممن تبعهم في ذلك، أن الله عال على كل شيء، وهو فوق كل شيء، وهو ذكر هذا في باب الاستواء على العرش، والمقصود أن النجوم من مخلوقات الله جل وعلا المدبرة المسخرة، وقد ذكر الله جل وعلا لنا شيئاً من الحكمة من هذه النجوم وإلا الحكمة التي خلق الله من أجلها المخلوقات قد لا يدرك الناس منها إلا الشيء اليسير، وأن الشيء الذي يرشدهم الله جل وعلا إليه هو الذي يجب أن يُقتصر عليه، وهذه الأمور الثلاثة التي ذكرها قتاده رحمه الله: أنها زينة للسماء وهذا بالنسبة لنا؛ لأننا نشاهدها، وكأنها في السماء كأنها قلائد على نحور الولدان في السماء، ولها عجائب لمن فكر فيها وفي سيرها وتدبير الله لها وهي لا تبدوا إلا في الليل، وهي مثل المصابيح التي تُعلق.

قوله: «ورجوماً للشياطين»: وهذا أمر مشاهد، كل يشاهده أنه يسقط منها شهب تنير لها الأرض وهي كبيرة وقد تكون صغيرة، وقد تكثر وقد تقل، وفي

---

(١) رواه البخاري رقم ٣١٩٩، ومسلم رقم ١٥٩.

(٢) فتح الباري لابن حجر ١٣/ ٤١٤ قال: والمراد منه هنا إثبات أن العرش مخلوق لأنه ثبت أن له فوقاً وتحتاً وهما من صفات المخلوقات.

زمن مبعث النبي ﷺ صارت كثيرة جداً وخاف الناس حتى قالوا: إن هذا إذان بانتهاء هذا الكون ومن فيه، وصاروا يسألون كبارهم ومن عندهم علم فقالوا انظروا إن كانت الثوابت هي التي يُرمى بها، فهذا بلا شك أنه النهاية، أما إذا كان غيرها فهو لأمر حدث، كذلك الشياطين فزعوا من هذا الأمر، وفزعوا إلى كبيرهم وأبيهم إبليس، فقال: إنه لا بد أنه حدث شيء على هذه الأرض فذهبوا فوجدوا الرسول ﷺ في وادي نخلة يقرأ القرآن فقالوا: هذا هو الأمر الذي حدث، هذا لأجل هذا.

وقد ذكر الله جل وعلا هذا عن الجن في سورة الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨﴾ [الجن: ٨]، وهذه حماية للوحي وأن لا يسترق الشياطين منه شيئاً، ويأتون به إلى كهنتهم فيلقونه على الناس فيقولون هذا الذي يقوله محمد، مثل ما تقوله الكهنة، وهذا في زمن النبي ﷺ وعند نزول الوحي، ولما توفي النبي ﷺ عاد الأمر إلى ما كان عليه، فهو من قديم، ولهذا رمي بشهاب والنبي ﷺ جالس بين أصحابه فقال لهم رسول الله ﷺ: **«ماذا كنتم تقولون في الجاهلية إذا رمي بمثل هذا؟»** قالوا: الله ورسوله أعلم كنا نقول: ولد الليلة رجل عظيم أو مات رجل عظيم، فقال رسول الله ﷺ: **«فإنها لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته، ولكن ربنا تبارك وتعالى اسمه إذا قضى أمراً سبح حملة العرش ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم حتى يبلغ التسبيح أهل هذه السماء الدنيا، ثم قال: الذين يلون حملة العرش لحملة العرش ماذا قال ربكم؟ فيخبرونهم ماذا قال: قال: فيستخبر بعض أهل السماوات بعضاً حتى يبلغ الخبر هذه السماء الدنيا فتخطف الجن السمع فيقذفون إلى أوليائهم ويرمون به فما جاءوا به على وجهه فهو حق ولكنهم يقرفون فيه ويزيدون»**[1].

وأخبر في حديث آخر أنه قد يصيبه وقد يقتله وقد يخطئه بإذن الله جل وعلا، ويخلص بالكلمة التي استرقها ويلقيها إلى الكاهن ويكذب معها مائة كذبة يُصدَّق هذا الكذب.

---

(١) رواه مسلم رقم ٢٢٢٩.

الأمر الثالث: أنها علامات يهتدى بها، وهذا شيء معروف وهو إلى الآن في سيرهم وفي اتجاه القبلة وقد جعل الله علامات معينة ثوابت، فهم نظروها عند الكعبة ثم نظروها بعيداً وعرفوا أنه على هذا المقدار، وكل بلد له علامات من هذه الكواكب معينة مثل اليمن ومثل نجد والشام والعراق، ذكر ذلك العلماء في كتب الفقة في باب وجوب استقبال القبلة واستدلوا بها، هذه التي يجب على العبد أن يعرفها من الحكمة من خلق النجوم فقط التي تنفعنا، وكذلك هي تسجد لله جل وعلا، قال جل وعلا: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝﴾ [الأعراف: ٥٤]، وذكر الله في سورة الحج المخلوقات وأنها تسجد له جل وعلا فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ﴾ وهذا أمر عجيب؛ أي: أن كثيراً منهم لا يسجد، ولهذا قال: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ﴾، ثم قال جل وعلا: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩﴾ [الحج: ١٨]؛ يعني: أن الذي لا يسجد له جل وعلا أنه مهان، فالسجود لله كرم من الله، وهو من أعظم نعم الله على عبده المؤمن بأنه جعله عارفاً له عابداً له جل وعلا.

فالمقصود أن التنجيم الذي ذكره المؤلف رحمه الله أنه منافي للتوحيد، وقد يكون قادحاً في كماله.

وقد ذكر الشارح رحمه الله أن التنجيم ثلاثة أقسام:

القسم الأول: كفر بالاتفاق، لا خلاف فيه وهو ما كان عليه الصابئة والكنعانيون ونحوهم الذين أرسل إليهم الخليل عليه السلام فكانوا يعبدون النجوم ويبنون لها الهياكل يعني المواضع التي يجعلون فيها صورها ويدعونها ويسجدون لها ويعملون الأعمال التي لا يجوز أن تُعمل إلا لرب العالمين جل وعلا، ويزعمون أن لها روحانيات تتنزل عليهم وتخاطبهم وتقضي حاجاتهم، وهذه الروحانيات شياطين وليست أرواح لها أو كما يزعمون أنها تكون صلة بينهم وبينها، فإذا خاطبوها تتنزل عليهم من ذات النجوم، وإنما هي شياطين

تضلهم كما كان المشركون يسمعون الأصوات من معبوداتهم وقد يرون شخصاً يخاطبهم كما كان ذلك في اللات وفي العزى وفي غيرها، بل يوجد هذا حتى في القبور التي تعبد من دون الله وغيرها من المعبودات، ولما فتح رسول الله ﷺ مكة أرسل خالد بن الوليد إلى نخلة ـ وكانت بها العزى فكانت على ثلاث سمرات ـ فقطع السمرات وهدم البيت الذي كان عليها، وكان عندها سدنة ثم أتى النبي ﷺ فأخبره فسأله النبي ﷺ: «**هل رأيت شيئاً؟** قال: لم أر شيئاً. فقال: **ارجع فإنك لم تصنع شيئاً**» فرجع خالد فلما أبصرته السدنة أمعنوا في الجبل وهم يقولون يا عزى يا عزى فأتاها خالد فإذا امرأة عريانة ناشرة شعرها تحثو التراب على رأسها فعمّمها بالسيف فقتلها، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره فقال: «**تلك العزى**»[1]، يعني أنها شيطانة؛ يعني: هي التي كانت تخاطبهم.

وهكذا كل من يعبد غير الله جل وعلا فإنه يعبد الشيطان؛ لأن الشيطان هو الذي يُضله، وقد يُمعن في إضلاله فيأتيه بما يطلب فيكون في ذلك فتنة، ولهذا جاء في حديث الشفاعة الطويل الذي في الصحيحين: «**ينادي مناد: ليذهب كل قوم إلى ما كانوا يعبدون، فيذهب أصحاب الصليب مع صليبهم، وأصحاب الأوثان مع أوثانهم، وأصحاب كل آلهة مع آلهتهم**»[2]، وفي رواية قال: «**ويمثَّل لمن كان يعبد عيسى شيطان عيسى، ويمثل لمن كان يعبد عزيراً شيطان عزير**»[3]، فيؤتى بكل معبود يعبد في الدنيا على هيئته وصورته، فمن كان يعبد نبياً أو صالحاً أو ملكاً يؤتى بشيطانه فيقال لهم اتبعوهم إلى جهنم كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنبياء: ٩٨] فهكذا هؤلاء. فهذا كفر بإجماع العلماء.

---

(١) رواه النسائي في الكبرى رقم ١١٥٤٧، وأبو يعلى ٩٠٢.

(٢) رواه البخاري رقم ٧٤٣٩، ومسلم رقم ١٨٢.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير رقم ٩٧٦٣، والحاكم في المستدرك رقم ٨٧٥١ من حديث ابن مسعود، وقال الحاكم ٤/ ٦٣٢: والحديث صحيح ولم يخرجاه، وأبو خالد الدالاني ممن يجمع حديثه في أئمة أهل الكوفة. وقال في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٤٣: رواه كله الطبراني من طرق ورجال أحدها رجال الصحيح غير أبي خالد الدالاني وهو ثقة.

والصابئون منهم طائفة موجودة الآن، ولهم كتب وهم يعبدونها عبادة صريحة.

القسم الثاني: وهو الاستدلال بطلوع النجوم واقترانها، وأفولها، وحركاتها على الحوادث التي تحدث في الأرض، في المطر والرياح وتغير الدول وغلاء الأسعار وما أشبه ذلك، ويزعمون أن هذه الحوادث لها صلة بالنجوم، وإن كانت النجوم مخلوقة لله ﷻ، وكذلك في معرفة الحروب، وأن الحروب سوف تكون في يوم كذا، وهذا موجود ولا يزال حتى إن بعض من ينتسب إلى الإسلام ألف فيه مؤلف ولا يزال هذا موجوداً وتبعه على ذلك من تبعه وهو في الواقع من عباد الكواكب، جاء عن عمر ﷺ لما خرج إلى الشام في بعض الغزوات، فعن الربيع بن سبرة الجهني قال: لما غزا عمر وأراد الخروج إلى الشام خرجت معه، فلما أراد أن يدلج نظرت فإذا القمر في الدبران ـ؛ لأن هذا عند العرب أنه غير محمود ـ فأردت أن أذكر ذلك لعمر فعرفت أنه يكره ذكر النجوم، فقلت له: يا أبا حفص انظر إلى القمر ما أحسن استواءه هذه الليلة، فنظر فإذا هو في الدبران فقال: قد عرفت ما تريد يا ابن سبرة، تقول: إن القمر في الدبران والله ما نخرج بشمس ولا بقمر إلا بالله الواحد القهار[1]. وهذا أمر واضح.

فالمقصود أن نسبة الحوادث التي تحدث في الأرض أو نسبة الأمور الغيبية إلى الكواكب هذا قسم من أقسام التنجيم، فقد جاء في قوله جل وعلا: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥﴾ [الواقعة: ٧٥]، وقوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ۝٨٢﴾ [الواقعة: ٨٢] أنهم يقولون: مطرنا بنوء كذا[2]، ولهذا ثبت في الصحيح عن زيد بن خالد الجهني أنه قال: صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة

---

(١) كنز العمال رقم ٢٩٤٣٣.

(٢) تفسير ابن كثير ٧/٥٤٦ ـ ٥٤٧ عن ابن عباس قال: ما مُطِرَ قوم قط إلا أصبح بعضهم كافراً يقولون: مُطِرْنَا بنوء كذا وكذا. وقرأ ابن عباس: «وتجعلون شكركم أنكم تكذبون». وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس. وقال مجاهد: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ۝٨٢﴾ قال: قولهم في الأنواء: مُطِرنا بنوء كذا، وبنوء.

الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليلة فلما انصرف أقبل على الناس فقال: «**هل تدرون ماذا قال ربكم**»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**أصبح من عبادي مؤمن كافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي وكافر بالكوكب، وأما من قال: بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي ومؤمن بالكوكب**»[(١)]. بعض العلماء يجعل هذا الكفر من كفر النعمة، وبعضهم يجعله الكفر الذي يخرج من الدين إضافة النعمة إلى غير الله كفر؛ لأن النعمة يجب أن تضاف إلى مُسديها ومُوليها، والمنعم بها، وإلا يصبح كافراً بها.

وجاء في تفسير الآية قول آخر وهو قولهم أنكم تجعلون نصيبكم من هذا القرآن الذي هو حياه القلوب أنكم تكذبون به وهو اختيار ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]، لكن الآثار تدل على المعنى الأول.

فالمقصود أن نسبة الأمطار والرياح وغلاء الأسعار أو حصول الجدب أو الخصب أو المرض أو تغير الدول، وأن هذه الحوادث لها صلة بالنجوم وإن كانت النجوم مخلوقة لله جل وعلا، فهذا أيضاً كفر من الكفر الأكبر، ويجب أن لا يكون فيه خلاف في كفره. وإضافة الأشياء إلى النجوم موجودة في الناس، وهذه من الأشياء التي قصدها المؤلف بخلاف الأول فإنه لا وجود له في المسلمين.

القسم الثالث: هو ما ذكره المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في تعلم منازل القمر، والقمر له ثمانية وعشرون منزلاً ودائماً على سطح الأرض أربعة عشر نشاهدها دائماً،

---

(١) رواه البخاري رقم ٨٤٦، ومسلم رقم ٧١.

(٢) شفاء العليل ١/ ٤٢ قال: من هذا قوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الواقعة: ٨٢] أي: تجعلونه حظكم من هذا الرزق الذي به حياتكم التكذيب به، قال الحسن: تجعلون حظكم ونصيبكم من القرآن أنكم تكذبون قال: وخسر عبد لا يكون حظه من كتاب الله إلا التكذيب به. وقال في التبيان في أقسام القرآن ١/ ١٤٦، وقال آخرون: التقدير وتجعلون بدل شكر رزقكم أنكم تكذبون فحذف مضافين معاً وهؤلاء أطالوا اللفظ وقصروا بالمعنى، ومن بعض معنى الآية قوله: مطرنا بنوء كذا وكذا، فهذا لا يصح أن تدل عليه الآية ويراد بها وإلا فمعناها أوسع منه وأعم وأعلى، والله أعلم.

كل ما غرب واحد خرج مقابله من الشرق، وليس قوله ينزل بمعنى: أن يكون ملاصقاً لها تماماً وأحياناً موازياً له من الشمال أو من الجنوب، وهذه كان العرب يعرفونها تماماً، فإذا كان الشهر تسع وعشرون يوماً فإن ليلة منها ليس له منزلة، وتسمى ليلة الاستسرار، وإذا كمل ثلاثين صار ليلتان لا منزلة له.

فالمقصود أن هذه المنازل معروفة لدى العرب وهي التي يسمونها الأنواء، ومعنى أنواء: أنها تنوء أو تغيب، ويضيفون إليها الأمطار وقد يصفونها بالنحوس أو بالسعود، ولهذا يذمون بعضها ويمدحون بعضاً، وهذا من الكفر بالله جل وعلا؛ لأنه ليس عندها سعادة ولا نحاسة، وليس عندها تدبير وإنما هي مدبرة، وقد اختلف العلماء بقول الإنسان حصل المطر في نوء كذا؛ لأنه لا يجوز إضافة المطر إلى مخلوق كما جاء في الحديث: **«مطرنا بفضل الله ورحمته»**.

الثاني: أن المطر من الأمور الغيبية التي أخبر الله أنه لا أحد يعلم وقت نزوله، وإن كان له علامات، ولكن هذه العلامات لا يلزم أنه يوجد معها المطر، فلا بد من أمر الله وتقديره، فيجب أن يلجأ إليه جل وعلا، ويسأل.

والمقصود أن تعلم المنازل حتى تعرف بها الإتجاهات، ويعرف الحساب فقط، مثل معرفة أوقات الصلوات، والحج، والصيام، وهذا نص الله جل وعلا عليه في كتابه، فمن تعلم هذا فلا بأس، ولكن اختلفوا في معرفة وقت الكسوف؛ لأن الكسوف له حكمة والرسول ﷺ بيَّن هذه الحكمة وهو أن الله يخوف بهما عباده، ويفعل هذا حتى يعلم ما يُحدث عباده من توبة، ورجوع إليه، وأما ما يقوله المنجمون اليوم والحسابون أنه في يوم كذا سوف يحصل الكسوف أو الخسوف فذهب معه الخوف من الله وصار عندهم عادياً فقد كُره هذا، وإن كانت أمور جعلها الله بهذا التقدير سُنَّة فلا ينافي أن الله يحدث عندها عقاب يعاقب به من يشاء، ولهذا لما كسفت الشمس في وقت الرسول ﷺ خرج يجر رداءه خوفاً من أن تكون الساعة ثم لما خطب قال: **«يا أمة محمد إن الله يغار أن يزني عبده أو تزني أمته»**[1] وذكر المعاصي ثم

(١) رواه البخاري رقم ١٠٤٤، ومسلم رقم ٩٠١ وفي رواية: **«إن الله يغار وغيرة الله أن** =

قال: «**تصدقوا**» وذكر التوبة والاستغفار، فمعنى هذا أنه إذا حدث الكسوف هذا فإنه بأمور تحدث منا، وإذا لم نرعوي ونتوب فإن الله قد يصيبنا بعذاب.

قوله: «**فمن تأول فيها غير ذلك أخطأ**»؛ يعني: أخطأ في التأويل، وفي الاستدلال.

وقوله: «**وأضاع نصيبه**»: لأنه ضال ناسب للأمور إلى غير موجدها، ويكون في ذلك مشركاً، وقع في الشرك وهذا من المناسب لكتاب التوحيد كون الذي يدعي أن النجوم لها تأثير بما يحدث أنه يكون مشركاً، وهذا الشرك يكون شركاً أكبر منافياً للتوحيد إذا زعم أنها تتصرف وأنها توجد الأشياء، أو أنها تؤثر في الأمور التي تحدث تأثيراً من ذاتها، أما إذا كان يعتقد أن الله جل وعلا جعلها سبباً، وأن الحوادث تحدث عندما تطلع أو تغرب أو تقترن الله جل وعلا يحدثها وجعل ذلك علامة على ذلك فهو أيضاً من الشرك؛ لأن الله جل وعلا أخبرنا أن النجوم مسخرة مدبرة بأمره، وأن الغيب من خصائص الرب جل وعلا لا يطلع عليه أحد لا في الأرض ولا في السماء ولهذا قال: «**أضاع نصيبه**» ومن أضاع نصيبه فهو ضال هالك، والنصيب معناه الحظ، والحظ لا يكون إلا بعبادة الله جل وعلا، فمن صرف عبادته إلى غير الله جل وعلا فقد ضاع نصيبه في الآخرة، ومن ضاع نصيبه صار هالكاً وخسر نفسه.

وقوله: «**وتكلف ما لا علم له به**»؛ يعني: أنه يسير في حدس وظن وتخمين ليس معه أي اهتداء، يقول الداودي رَحِمَهُ اللَّهُ: قول قتادة في النجوم حسن إلا قوله: أخطأ وأضاع نصيبه، فإنه قصر في ذلك بل قائل ذلك كافر انتهى[1]. يعني خرج عن الدين الإسلامي.

۞ قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: وكره قتادة تعلم منازل القمر، ولم يرخص ابن عيينة فيه. ذكره حرب عنهما. ورخص في تعلم المنازل أحمد وإسحاق[2].

= يأتي المؤمن ما حرم الله» البخاري رقم ٥٢٢٣، ومسلم رقم ٢٧٦١ من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) فتح الباري لابن حجر ٦/ ٢٩٥.

(٢) فتح الباري لابن رجب ٣/ ١٤٢ قال رحمه الله تعالى: وقد اختلف في تعلم منازل =

قوله: «كره»: الكراهة عند السلف يقصد بها التحريم، فمعنى ذلك أن قتادة يرى أن ذلك حرام والكراهة تنقسم إلى قسمين كراهة تحريم، وكراهة تنزيه، فكراهة التنزيه ما كانت معروفة في كلام السلف.

فعلى هذا يكون تعلم منازل القمر عند قتادة من المحرمات؛ لأنه يقود إلى ما لا يجوز فيكون وسيلة إلى الكفر، ومعلوم أن سد الذرائع قاعدة جاء بها الشرع وكثيراً ما ذكر الرسول ﷺ النهي عن أشياء سداً للذريعة لئلا يقع الناس في الشرك، وفي ما لا يجوز.

قوله: «تعلم منازل القمر»: تعلم المنازل المقصود به معرفة الوقت، ومعرفة كون القمر يكون في هذه المنزلة في اليوم الفلاني من الشهر مثلاً في كل ثلاثة عشر يوم يطلع واحد، فتطلع كلها في تمام السنة وهي الأنواء التي سيأتي ذكرها؛ لأن العرب كانوا يستسقون بها، وهذا هو القسم الثالث كما سبق الذي اختلف فيه كما هو ظاهر هنا.

وقوله: «ولم يرخص ابن عيينة فيه»: هذا أقل من قول قتادة، كأنه متردد في ذلك بين كونه محرماً أو كونه جائزاً، ومعلوم ورع السلف في التحريم والتحليل، فإنهم يهابون هذا كثيراً؛ لأن الله جل وعلا يقول: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ۝١١٦﴾ [النحل: ١١٦]، فإن هذا فيه الخطورة، لا بد أن يكون العبد متأكداً من الأمر.

قوله: «ذكره حرب عنهما»: حرب هو الإمام الحافظ حرب بن إسماعيل أبو محمد الكرماني الفقية من أجلة أصحاب الإمام أحمد ذكر هذا في كتابه «كتاب المسائل» التي رواها عن الإمام أحمد ذكر فيها أحاديث، وهو مشهور توفي سنة ثمانين ومائتين رحمه الله.

= القمر وأسماء النجوم المهتدى بها، فرخص فيه النخعي ومجاهد وأحمد، وكرهه قتادة، وابن عيينة تعلم منازل القمر.

وقوله: «ورخص في تعلم المنازل أحمد وإسحاق»: أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه.

والرخصة: هي خلاف العزيمة تفعل للحاجة هذا الأصل فيها؛ يعني: إذا كان الإنسان يحتاج إلى ذلك فهو جائز يفعله وهو مما يحتاج إليه العبد في معرفة الجهات، وكذلك معرفة فصول السنة فإن هذا ليس فيه محذور؛ لأن الله قدر القمر منازل كما أخبرنا بذلك، وكذلك جعل القمر بهذه الصفة والشمس وغيرها حتى نعلم الأوقات ونعلم حلول الآجال وهذا أمر يحتاج الناس إليه في معاملتهم وكذلك في ما أمرهم الله جل وعلا به من الأحكام التي تتعلق بالنساء وبغيرها من العُدد وغيرها، وعلى هذا يكون هذا جائزاً وربما يكون مستحباً.

وكذلك في النظر في زوال الشمس لأجل الصلاة وقد تطور الأمر فيه فاستغني عنه بالآلات التي استحدثت عن النظر فيه، وإلا فهو أمر واضح؛ لأن الله حدد أوقات الصلاة فوقت الصلاة من الأمور الواجب معرفتها، والصلاة لا تصح حتى يدخل وقتها وأوقاتها تعرف بسير الشمس، وكذلك في طلوع الفجر وغيره وقد يلتبس هذا على كثير من الناس.

أما نسبة الأمور التي تحدث إلى الأنواء كما سيأتي في الباب الذي بعد هذا فسيأتي حكمه ـ إن شاء الله ـ.

فعلى هذا يكون خلاصة الكلام أن الأمور التي تتعلق بالنجوم ويزعم كثير من المنجمين أن لها صلة بما يحدث في الأرض وفي الجو وغيره أنه أمر باطل لا حقيقة له، وإنما هو مجرد جهل ليس له أي أمارة من علم، وأما النظر في طلوع الكواكب وغروبها ومسيرها لمعرفة الأوقات أو معرفة الجهات فإنه أمر مستحب؛ لأنه يحصل به مصالح للناس وأوقات الصلاة وغيره كجهات القبلة.

❁ **قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: وعن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يدخلون الجنة: مدمن الخمر، وقاطع الرحم، ومصدق بالسحر» رواه أحمد وابن حبان في صحيحه**[1].

يعني: ثلاثة أنواع من الناس، أو ثلاثة أجناس، أو ثلاثة أصناف، وليس ثلاثة أشخاص وابتدأ بالنكرة؛ لأنها مفيدة بالوصف والإضافة.

قوله: «لا يدخلون الجنة»: هذا من نصوص الوعيد الذي يقول كثير من العلماء لا يجوز تأويله، ولا يجوز أن يصرف عن ظاهره؛ لأن في تأويله خطر القول على الله أو على رسوله ﷺ فيُترك على ما جاء وهو اختيار الإمام أحمد وهو الأظهر وهو اختيار المؤلف، وذلك لأمرين:

أحدهما: أن هذا أدعى للانزجار، والابتعاد عنها.

الثاني: أن فيه سلامة من خطر القول على الله ورسوله بلا علم.

وجمهور العلماء على تأويل ذلك.

قوله: «مدمن الخمر»: المدمن هو المداوم على الشيء الذي لا يقلع عنه، وليس معنى يداوم أنه يستمر على شربه، ولكنه يصر على شربه، ويعزم عليه، فالعزيمة والإصرار هي الإدمان عليه.

والخمر اسم لما خامر العقل وأزاله، وأزال الفكر. كما قال عمر رضي الله عنه: إنه كل ما خامر العقل وغطاه[2].

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم ١٩٥٦٩، وابن حبان في صحيحه رقم ٥٣٤٦، والحاكم في المستدرك رقم ٧٢٣٤ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. وجاء في الحديث: **«ومن مات مدمناً للخمر سقاه الله ﷻ من نهر الغوطة، قيل: وما نهر الغوطة قال: نهر يجري من فروج المومسات يؤذي أهل النار ريح فروجهم»**.

(٢) رواه البخاري رقم ٤٦١٩، ومسلم رقم ٣٠٣٢ عن ابن عمر قال: سمعت عمر رضي الله عنه على منبر النبي ﷺ يقول: أما بعد؛ أيها الناس إنه نزل تحريم الخمر وهي من خمسة: من العنب والتمر والعسل والحنطة والشعير، والخمر ما خامر العقل.

وسواء كان من العنب أو من التمر أو الشعير قليلاً أو كثيراً، وقد استحدث الناس اليوم أنواع من المسكرات كثيرة جداً، وميسرة للناس عن طريق الكفرة الذين يريدون إفساد عقول الناس، وصرفهم عن أديانهم، بل وعن دنياهم، فصارت حرب على المسلمين أكثر مما لو كانت في حرب الجيوش المقابلة بالأسلحة، ولهذا يجب أن يُحذر هذا الأمر ويتنبه له فإن الأعداء أدركوا من شباب المسلمين الشيء الكثير الذي أفسدوه بهذه المسكرات التي إذا تناوله الإنسان مجرد ما يتناولها مرة واحدة أو يشمها كما في بعض الأنواع يصبح مدمناً لا يملك نفسه من أنه يتناولها فيهلك بذلك، وليس هناك شيء مما ينهى عنه رسول الله ﷺ ويكون فيه خير أبداً، ولهذا كان من جوامع الكلم التي قالها: «**كل مسكر خمر وكل خمر حرام**»[1].

«وكل» هنا للعموم فهو لا يخص نوعاً دون نوع، وجاء في الحديث عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «**ما أسكر الفرق منه إذا شربته فملء الكف منه حرام**»[2]، والله أخبر أن في الجنة خمراً، وأنه ليس فيها غَول، والغَول هو ذهاب العقل، فهي سالمة مما في خمر الدنيا، وجاءت أحاديث كثيرة في أن من شربها في الدنيا لا يشربها في الآخرة، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**ومن شرب الخمر فمات وهو يُدمنها ولم يتب منها لم يشربها في الآخرة**»[3]، وعنه: «**من شرب الخمر في الدنيا، ثم لم يتب منها حُرمها في الآخرة**»[4].

وقوله: «وقاطع الرحم»: الرحم المراد بها النسب والقرابة، وليست

---

(١) رواه مسلم رقم ٢٠٠٣ عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**كل مسكر خمر وكل مسكر حرام، ومن شرب الخمر في الدنيا فمات وهو يدمنها لم يتب لم يشربها في الآخرة**».

(٢) أحمد في المسند رقم ٢٤٤٢٣، والترمذي رقم ١٨٦٦.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) رواه البخاري رقم ٥٥٧٥، ومسلم رقم ٢٠٠٣.

الرحم هي الصلة الزوجية فهذه لا تسمى رحم، وإنما الرحم تكون بالولادة الأبوة والبنوة، وكذلك الحواشي وصلتها تختلف باختلاف حالات الناس، وهذه ترجع إلى العادة والعرف الذي يتعارف عليه الناس، فما تعارفوا على أن هذه قطيعة أو أن هذا الصلة يكون لها هذا الحكم.

وهذه العادة والمعروف الذي يتعارف عليه يجب أن يكون بين المسلمين، وليس بين الكافرين والأمم التي تنحرف عن توجيه الوحي الذي جاء به رسول الله ﷺ فمعنى ذلك أن الصلة قد تكون بالكلام، وقد تكون بالزيارة، وقد لا يكفي ذلك لا بد من البذل والعطاء والمعاونة وما أشبه ذلك، والناس يختلفون في هذا اختلافاً كثيراً.

وقطيعتها أمر عظيم جداً، فلهذا جاء أنه لا يدخل الجنة عاق[1] ولا يدخل الجنة قاطع الرحم[2]، وهذا الحديث صريح في ذلك، وقال الله ﷻ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ [محمد: ٢٢، ٢٣]، وكل هذه نصوص وعيد عظيم يجب على الإنسان أن يبتعد عن هذه الأشياء.

قوله: «ومصدق بالسحر»: هذا هو الشاهد من الحديث؛ لأنه جاء في الباب الذي قبل هذا «أن من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد»، فالمصدق بالسحر يدخل فيه المصدق بقول المنجم، فإذا كان يصدق قوله فهو مثله، ويكون له هذا الوعيد بأنه لا يدخل الجنة، وهذا يدلنا على أن النظر في النجوم وسبر الأحوال التي تحدث يزعم بأنها تتأثر بحركات النجوم يكون هذا من الكفر والشرك بالربوبية، فالمدبر والمصرف للأمور هو الله جل وعلا وحده.

---

(١) أحمد في المسند رقم ٦٨٨٢ عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال: **«لا يدخل الجنة منان ولا عاق والديه ولا مدمن خمر»**.

(٢) رواه البخاري رقم ٥٩٨٤، ومسلم رقم ٢٥٥٦ عن جبير بن مطعم: عن النبي ﷺ قال: **«لا يدخل الجنة قاطع»**، قال ابن أبي عمر: قال سفيان: يعني قاطع رحم.

فقوله: «ومصدق بالسحر»: هو الذي يعمل به أو يتعلمه فإن وجود السحر في الدنيا لا أحد ينكره، فهو من قديم الزمان، فالأمم الكافرة من قديم ترمي الرسل بأنهم سحرة وبأنهم مسحورون، فليس المصدق بالسحر هو المصدق بوجوده هذا لا يُقصد، وإنما المقصود هو العامل به، أو الذي يذهب إلى الساحر ويطلب منه إما دفع ضرر أو طلب نفع، والسحر لا ينفك عن الشرك.

۞ قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: فيه مسائل:

۞ الأولى: الحكمة في خلق النجوم.

وهل يدخل في هذا في معرفة أحجامها وسرعتها وأبعادها؟

النظر في ذلك في الواقع يضيع الوقت، أما كونه مثلاً يكون دليلاً على عظمة الله جل وعلا، فهذا كل المخلوقات تدل على ذلك، ولكن الأمور التي لا يترتب عليها عبادة لله جل وعلا، ولا مصلحة للإنسان فوقت الإنسان وعمره قليل فلا يجوز أن يضيعه ويجب أن يصرفه في الشيء النافع، ثم ليس كل نافع يستطيعه الإنسان ويدركه يفعله، فينبغي له أن يقدم الأهم فالأهم، وهناك أمور أهم من ذلك بكثير، فإذا أضاع وقته في هذه الأشياء في النظر في أبعاد الكواكب وفي أحجامها ومسيرها ونحو ذلك فأيُّ فائدة من هذا إلا الاستدلال على ذلك بعظيم قدرة الله جل وعلا وهذا يُكتفى به بأقل من هذا، فالمقصود أن هذا يكون على حساب الأمور التي هي أهم منه فلا ينبغي للإنسان أن يضيع وقته في ذلك.

۞ الثانية: ذكر الخلاف في تعلم المنازل.

والصحيح أن هذا جائز، تعلم منازل القمر ولكن ليس للتأثير الذي يحدث في الأرض أو في غيرها، وإنما يتعلم المنازل لمعرفة أوقات الفصول والجهات.

۞ الثالثة: الوعيد فيمن صدق بشيء من السحر، ولو عرف أنه باطل.

فمعنى ذلك أن التصديق هو العمل، يعمل فيه، وإن كان باطلاً يعني في حقيقة الأمر، أما البطلان والإيمان فهما متضادان؛ لأن التصديق قد يقال أنه هو الإيمان بهذا الشيء أنه يؤمن ويقول أنه صحيح، أما أنه يعلم أن هذا باطلاً فمعنى ذلك أنه يعمل بمقتضى ما قاله الذي يزعم هذه الأشياء فيكون مثله.





الباب الثلاثون

۞ **قال المؤلف** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء.**

قوله: «باب ما جاء»؛ يعني: من الوعيد على من استسقى بالأنواء.

وقوله: «في الاستسقاء»: استسقاء يعني نسبة السقيا إليها، فالاستسقاء طلب نزول المطر.

وقوله: «بالأنواء»: الأنواء جمع نَوء، وهو الطالع الذي ناء وطلع، وقد يقال أن النوء الغائب الذي غرب، كما قال ابن قتيبة في كتابه الأنواء: أنه يطلق على الغائب والطالع.

ولكن الأنواء المقصود بها منازل القمر، وهي ثمان وعشرون منزلة، وينزل القمر كل ليلة منزلة منها، يسقط في الغرب كل ثلاث عشرة ليلة مع طلوع الفجر وتطلع أخرى مقابلتها ذلك الوقت من المشرق، فتنقضي جميعها مع انقضاء السنة، وإنما سمي نوء؛ لأنه إذا سقط الساقط منها ناء الطالعُ بالمشرق؛ أي: نهض وطلع.

هذه المنازل التي جعلها الله للقمر، وبذلك يعرف عدد السنين والحساب كما أخبر الله جل وعلا في كتابه، والعرب كان لهم عناية بها، فكلما غرب واحد وطلع آخر نسبوا المطر إليه، ويقولون أنه يأتي بالمطر، يقولون مطرنا بنوء كذا، وهذه كانت عادة العرب وكانوا يعتنون بهذا كثيراً لأن حياتهم مبنية على ذلك حيث إنهم لم يكونوا أصحاب تجارة ولا أصحاب زراعة، وإنما كانوا رعاة يرعون مواشيهم فينظرون إلى الأمطار متى تأتي، ويهتمون لهذا كثيراً.

والاستسقاء المقصود به هنا إضافة نزول المطر إلى طلوع الكوكب أو غروبه وليس معنى ذلك أنهم يطلبون من الكواكب أن تنزل عليهم المطر، فإن هذا ما كان معروفاً في الناس في الجاهلية ولا في غيرها وإنما يعلمون أن

الذي يُنزل المطر هو الله، كما قال جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٢﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢]، يعني يعلمون أن الفاعل لهذه المذكورات هو الله وحده جل وعلا، وهذا كثير في القرآن، فالله أخبر أنهم إذا سُئلوا من نزّل من السماء ماءً يقولون الله ويقرون بهذا، كما أنهم إذا سُئلوا من الذي خلقهم يقرون بأنه الله جل وعلا، كما أنهم إذا سُئلوا من الذي خلق السماوات والأرض يقرون بأنه العزيز العليم جل وعلا، فإضافة الاستسقاء إلى النجم معناه إضافته إلى طلوعه، وهذا كفر بالله جل وعلا، يعني كفر نعمته كما يأتي في الحديث الذي ذكره المؤلف، وهو من الكفر الخفي الذي يكون في هذه الأمة كما أخبر الرسول ﷺ إن الناس يُضيفون الشيء إلى سببه، فإن هذا من الشرك الخفي مثل قول: لولا فلان ما صار كذا وكذا.... إلخ، والأفعال كلها إذا أضيفت إلى مخلوق فإنها داخلة في هذا.

فإن الواجب اعتقاد أن المدبر لكل شيء هو الله تعالى، فإذا أضيفت إلى مخلوق صار ذلك من الشرك لأن الشرك يقع بالقلب، ويقع بالفعل، ويقع بالقول، وكل هذا يجب على الإنسان أن يُطهر نفسه منه، ومعلوم أن شرك القول ليس كشرك العمل والنية والإرادة ومع هذا يكون قادحاً في توحيد العبد، وهذا الذي أراد المؤلف رحمه الله أن يبينه لأن هذا من القوادح التي تقدح في التوحيد وتخدشه وتنقصه، وهذا أيضاً من تفسير التوحيد لأن الأشياء تتبين بأضدادها.

۞ قال المؤلف رحمه الله: وقول الله تعالى: ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ٨٢﴾ [الواقعة: ٨٢].

قوله: «﴿وَتَجۡعَلُونَ﴾»: الجعل هنا معناه النسبة؛ أي: أنكم تنسبونه إلى ذلك، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡۚ سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ وَيُسۡـَٔلُونَ ١٩﴾ [الزخرف: ١٩]؛ أي: قالوا إنهم بنات الله، وهذا مثله.

وقوله: «﴿رِزْقَكُمْ﴾»: والرزق هنا هو المطر كما هو ظاهر قول المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ.

قوله: «﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾»؛ يعني: أنكم نسبتم نزول المطر إلى طلوع الكوكب، فهذا كذب، فجعلتم الرزق الذي أنعم الله جل وعلا به عليكم وتفضل عليكم بدون استحقاق منكم له أنكم كذبتم وأضفتموه إلى الكوكب فهذا كفر بالنعمة. وعن علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ قال: **«شركُكم مطرنا بنوء كذا وكذا بنجم كذا وكذا»**[1].

يقول ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: وهذا أولى ما فُسّرت به الآية.

۞ قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ: وعن أبي مالك الأشعري، أن رسول الله ﷺ قال: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة»، وقال: «النائحةُ إذا لم تتب قبل موتها تُقام يوم القيامة وعليها سِربالٌ من قطران، ودرع من جرب»[2].

أبو مالك الأشعري اسمه: الحارث بن الحارث الشامي، صحابي تفرد بالرواية عن أبي سلّام، وهذا ليس هو عم عبد الله بن قيس الذي قتل في واقعة هوازن يوم حنين. يقول الحافظ: وفي الصحابة أبو مالك الأشعري اثنان غيره[3].

قوله: «أربعٌ»: نكرة ابتدي بها؛ لأنها موصوفة مفيدة.

وقوله: «أربع»؛ يعني: أربع خصال أو أربع خلال أو ما أشبه ذلك.

قوله: «في أمتي»: الإضافة في أمتي يقصد بها الإضافة الخاصة، وهي الأمة التي استجابت للرسول ﷺ، أما العامة فهم كل الخلق بعد مبعثه من الجن والإنس فهم أمته، ولكن هذا الحديث ظاهر فيه أن المقصود به أمة الإجابة لأنه لا يقال في الكفار أمتي تفعل كذا وكذا.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم ٦٧٧، والترمذي رقم ٣٢٩٥ وقال: هذا حديث حسن غريب صحيح.

(٢) رواه مسلم رقم ٩٣٤.

(٣) تقريب التهذيب ١/ ١٧٣.

قوله: «من أمر الجاهلية»: لا شك أن هذا خرج مخرج الذم، فأمر الجاهلية مذموم، والجاهلية نسبة إلى الجهل فهذا يدل على الذم لأن الجهل لا أحد يرضى به، والمقصود بالجاهلية ما كان مخالفاً لما جاء به الرسول ﷺ، وكل ما خالف أمر الله ﷻ، وأمر رسوله ﷺ فهو من الجاهلية فهو مذموم، وقد يكون كفراً أو دون ذلك.

وقد تطلق الجاهلية على فترة معينة، وهي ما كان قبل بعثة النبي ﷺ ولكن هذه هي الجاهلية الأولى كما قال الله جل وعلا: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، فالجهل ما كان خلاف الحق، سواءً عملاً أو علماً أو فعلاً فهو جهل، وذلك أن الإنسان عبد لله جل وعلا، والعبد يجب أن يكون متقيداً بأوامر سيده فلا بد من إتيان الأوامر إليه، فإذا خرج عن أمر الله جل وعلا فهو جاهل لأنه جهل في أمر نفسه وبحاله وبالواجب عليه، فعلى هذا لا تكون الجاهلية مقيدة بزمن، كل ما كان خارجاً عن الحق فهو جاهلية، ولهذا جاء عن الصحابة رضوان الله عليهم في قوله جل وعلا: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١٧﴾ [النساء: ١٧]، قولهم كل من عمل السوء فهو جاهل(١)، وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب، فإذا لم يتقيد العبد بأمر ربه جل وعلا فهو جاهل قد خرج عن العلم وعن الصراط الذي أمر باتباعه.

وفي هذا الحديث: «**أربع في أمتي من أمر الجاهلية**» قصد به التنفير والنهي عن هذا السلوك، ولكن هذا خبر معناه أن هذه الأمور موجودة في

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٢٣٥ قال مجاهد وغير واحد: كل من عصى الله خطأ أو عَمداً فهو جاهل حتى ينزع عن الذنب. وقال قتادة عن أبي العالية: أنه كان يحدث: أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يقولون: كل ذنب أصابه عبد فهو بجهالة. رواه ابن جرير. وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن قتادة قال: اجتمع أصحاب رسول الله ﷺ فرأوا أن كل شيء عُصي به فهو جهالة، عمداً كان أو غيره. وقال ابن جُرَيْج: أخبرني عبد الله بن كثير، عن مجاهد قال: كل عامل بمعصية الله فهو جاهل حين عملها. قال ابن جريج: وقال لي عطاء بن أبي رباح نحوَه. وقال أبو صالح عن ابن عباس: مِنْ جَهالته عمل السوء.

الأمة، والأمة يقصد بها أمة الإجابة لأنه قال: «**من أمر الجاهلية**»، لأنه لو كان مقصوده أمة الدعوة ما صلح هذا التعبير لأن أكثر أمة الدعوة، أكثرهم على الجاهلية، فكل من على الأرض بعد مبعث الرسول ﷺ هو من أمته، ولكن الأمة تنقسم إلى قسمين:

أحدهما: أمة إجابة.

الثانية: أمة دعوة.

فقول الرسول ﷺ: «**ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين، ثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة وهي الجماعة**»[1]، يعني: يقصد بها أمة الإجابة، فالأمة التي استجابت له صلوات الله وسلامه عليه الافتراق فيهم.

أما **قوله**: «**كلها في النار**»: فهذا من نصوص الوعيد.

قوله: «**لا يتركونهن**»؛ يعني: لا يتركونهن في المجموع، مجموع الأمة يعني أنه يستمر في الأمة، وإن كانوا يعرفون أنها محرمة ولكن لا بد من بقائها، وقد يكون الإنسان عارفاً بذلك وقد يكون جاهلاً، وهذا موجود الآن بكثرة، ولم يزل موجوداً ولا يزال، ولهذا عُد هذا من علامات نبوته ﷺ.

قوله: «**الفخر بالأحساب**»: الفخر هو التعاظم والتكبر على الغير، والحسب هو الشيء الذي يمدح به الإنسان مثل الشجاعة والعلم وغيره من الرئاسة ومن المال وغير ذلك.

فالفخر في هذه الأمور من الجاهلية، وذلك أن الإنسان ليس له إلا عمله ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النجم: ٣٩] والإنسان أصله آدم، وآدم خلق من تراب، وكلهم أبنائه ففخر واحد يفخر على الآخر هو من الجهل، ولهذا جاء في السنن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله عز وجل قد أذهب عنكم عُبِّية الجاهلية وفخرها بالآباء، مؤمن تقي وفاجر شقي، والناس بنو**

(١) أبو داود رقم ٤٥٩٧، وأحمد في المسند رقم ١٦٩٣٧ عن معاوية بن أبي سفيان، والترمذي رقم ٢٦٤ عن عبد الله بن عمرو.

آدم وآدم من تراب، لينتهين أقوام عن فخرهم برجال هم حمم جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان الذي يدهده النتن بأنفه»[1].

هذا من التنفير البليغ عن هذه الأمور، والرسول ﷺ أفصح الناس، وأبلغهم وأنصحهم للأمة، فهو يذكر الأشياء التي فيها خيرهم ويحذرهم عما فيه شرهم، والله أخبرنا في القرآن في قوله: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [سبأ: ٣٧] الإيمان والعمل الصالح هو الذي يقرب إلى الله جل وعلا، وقال في آية أخرى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ١٣].

الكريم عند الله هو التقي سواء كان من أولاد الأنبياء أو من أولاد فرعون، فمن كان أتقى لله فهو أقرب إلى الله جل وعلا، ولهذا ضرب الله مثلاً للكفار ومثلاً للمؤمنين بقوله جل وعلا: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾ [التحريم: ١٠، ١١].

فالمقصود أن العبد لا ينفعه عند الله إلا عمله، وأما الأولاد والآباء والأنساب، هذه لا تجدي شيئاً بل قد تضر.

فقوله: «الفخر بالأحساب»؛ يعني: الفخر بالمناصب التي يكتسبها الإنسان، يفخر بآبائه إذا كانوا بهذا الصفة، سواءً كان من أمور الدنيا، أو من الأمور الأخرى التي قد يكون العبد يفخر بها، فيقول مثلاً أنا ابن العالم الفلاني، أو ابن التقي الفلاني، أو ما شابه ذلك، فهذا من أمر الجاهلية لأن الإنسان ليس له إلا عمله، ليس له عمل آبائه وأجداده أو إخوانه أو غيرهم فمعنى ذلك أنه يفخر بشيء أجنبي عنه، والفخر يجب أن يكون بالعمل،

---

(١) أحمد في المسند رقم ٨٧٣٦، وأبو داود رقم ٥١١٦.

ومعلوم أن العبد مجبول على التقصير مهما عمل لا يستطيع أن يقوم بأمر الله جل وعلا على الوجه الأكمل كعمل الرسل، فيجب أن يعرف قدر نفسه، ويعرف أنه إذا حصل له خير فهو محض فضل الله جل وعلا تفضل به عليه، وإلا هو من نفسه ليس له شيء من ذلك.

قوله: «والطعن في الأنساب»: وهذا مقابل الأول كأن يقول فلان نسبه وضيع، أو فلان ليس له نسب أو ينفيه عن آبائه أو ما أشبه ذلك، فهذا من أمور الجاهلية لأن الناس مُؤتمنين على أنسابهم، فهذا من أمور الجاهلية لأننا نعلم أن الأصل واحد، وهذا الرجل خلق من تراب ثم المرجع إلى هذا الأصل سوف يعود الإنسان تراباً، يدفن في الأرض ثم يصير تراباً، وليس له إلا عمله، إن كان متقياً لربه فهو كريم عند الله، وإن كان عاصياً كافراً فهو قرين الشياطين في جهنم، والكلاب خير منه، ولهذا يقول الله جل وعلا: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝٥﴾ [التين: ٤، ٥]، رده أسفل سافلين يكون في الدنيا، وفي البرزخ، وفي الآخرة يكمل السفول ويجتمع عليه حتى يكون في أسفل شيء التي هي سقر ـ نسأل الله العافية ـ ولهذا لما عيَّر أبو ذر رضي الله عنه رجلاً بأمه قال: يابن السوداء وبلغ ذلك رسول الله ﷺ قال: **«أعيَّرته بأمه، إنك امرؤ فيك جاهلية»**[1]، وهو تعيير لغلامه يعني مملوكه الذي كان ملكاً له، فقال: **«على كبر سني؟ قال: نعم»**.

فالخروج عن أمر الله جل وعلا كله جاهلية، فالأصل في هذا أن أكرم الخلق عند الله هو التقي ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، فمن كان تقياً فبغض النظر عن آبائه، وعن نسبه فإنه هو الكريم عند الله، لما دخل عبد العزيز الكناني على مجلس المأمون وفيه الوزراء والكبراء والعظماء في ذلك الوقت وكان قد أُرهب وأخيف، فلما رآه أحدهم ووقع نظره على وجهه قال للمأمون: يكفيك من هذا يا أمير المؤمنين قبح وجهه. ولما ذهب الروع عنه وقبل البدء بالمناظرة سأل المأمون قائلاً: يا أمير المؤمنين أسالك بالله من

(١) رواه البخاري رقم ٦٠٥٠، ومسلم رقم ١٦٦١.

أحسن الناس وجهاً؟ تعجب من هذا السؤال: قال اللهم يوسف، وما تريد بهذا السؤال، قال: وماذا جلب عليه حسن وجهه؟ قال: لبث في السجن سبع سنين. فماذا تريد؟ قال: إني سمعت رجلاً ممن هاهنا يقول: يكفيك من هذا قبح وجهه، وأنا لا صنع لي في وجهي، وإنما عاب خالقي، فإذا كان الله جل وعلا قد أعطاني علماً وبياناً فما أبالي... إلخ.

فالمقصود أن عيب الإنسان في نسبه أو في خلقه أنه من أمر الجاهلية الذي لا يجوز، وإذا عابه فإن العيب يعود على الصانع وليس إلى المصنوع لأن المصنوع لا دخل له في ذلك، ولهذا يقول الرسول ﷺ أن هذا من أمور الجاهلية.

قوله: «والاستسقاء بالنجوم»؛ يعني: نسبة السقيا إليها، نسبة نزول المطر إليها، وليس طلب السقيا منها، كقولك استسقى فلان يعني طلب من يسقيه، ومنه صلاة الاستسقاء وهو دعاء الله أن يسقيهم. والاستسقاء بالنجوم ليس هو دعاؤها بأن تنزل عليهم المطر، وإنما ينسبون النزول إلى طلوعها أو أفولها، وما قصه الله عنهم يدل على هذا.

فإذا قال قائلهم: مُطرنا بنجم كذا، أو بنوء كذا، فلا يخلو إما أن يعتقد أن له تأثيراً في نزول المطر فهذا شرك وكفر، وهو الذي يعتقده أهل الجاهلية.

وإما أن يقول: مُطرنا بنوء كذا مثلاً لكن يقصد به أنه في وقت كذا، يعني مع اعتقاده أن المؤثر هو الله وحده، لكنه أجرى العادة بوجود المطر عند سقوط ذلك النجم، فهذا كفر من كفر النعمة حيث أضافها إلى النجم، وإن كان يعتقد أن الله هو المنزل له. فأما من قال: مطرنا بنوء كذا على معنى مطرنا في وقت نوء كذا فإنما ذلك كقوله مطرنا في شهر كذا، فلا يكون هذا كفراً وغيره من الكلام أحسن وأبعد عن الخطأ[(١)].

فعلى هذا إذا قال مطرنا في نوء كذا أن هذا لا يجوز لأن الناس يفهمون أن هذا نسبة إليه، ولا يجوز أن تضاف نعم الله جل وعلا إلى مخلوق، والنوء

(١) فتح الباري ٢/ ٥٢٣.

مخلوق مدبر ليس عنده أيُّ تصرف، فهو يسجد لله مطيعاً له، وقد جاء في المسند عن جابر بن سمرة قال: سمعت رسول ﷺ يقول: «**ثلاث أخاف على أمتي: الاستسقاء بالأنواء، وحيف السلطان، وتكذيب بالقدر**»[1]، وهذا جاء له طرق متعددة، وقد خرجها الخطيب البغدادي في كتاب «النجوم».

فالاستسقاء نسبة نزول المطر إليه، وهذا من أمر الجاهلية، وعرفنا أن أمر الجاهلية لا يجوز فعله فإنه خرج مخرج الذم، والتحذير من الوقوع فيه.

قوله: «والنياحة»: النياحة هي: رفع الصوت على الميت، وتعداد محاسنه، وندبه بالبكاء عليه، وتعداد النعم التي ينالها بسببه كقوله: واكسراه، وجابراه، وناصراه.

وقال بعض العلماء: إذا كان هذا قليلاً، وعن صدق فإنه لا بأس به لما جاء عن فاطمة ﵂ أنها نعت أباها وقالت: «يا أبتاه أجاب رباً دعاه، يا أبتاه مَن جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه»[2].

فاستدلوا بهذا على أن الشيء القليل لا بأس به، وإخراجه مثلاً من فعل الناس، إخراج لقول الرسول ﷺ وتقيده بذلك فيه نظر، وإن كانت فاطمة ﵂ في هذا معذورة لها عذر، ومع هذا لا يجوز الإفتاء في ذلك بل الواجب أن نأخذ ما قاله الرسول ﷺ.

ثم لا يدخل في هذا حزن القلب، ودمع العين يعني البكاء بدون تعداد المحاسن، لأنه ثبت في الصحيحين من حديث أسامة بن زيد ﵄ قال: أرسلت ابنة النبي ﷺ إليه إن ابناً لها في النزع فائتنا، فأرسل يقرأ السلام ويقول: «**إن لله ما أخذ وله ما أعطى وكل شيء عنده بأجل مسمًّى فلتصبر ولتحتسب**»، فأرسلت إليه تقسم عليه ليأتينها، فقام ومعه سعد بن عبادة

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم ٢٠٨٣٢، والطبراني في الأوسط رقم ١٨٥٢، وأبو يعلى رقم ٧٤٧٠، قال في مجمع الزوائد ٧/٢٠٣: رواه أحمد، وأبو يعلى والبزار، والطبراني في الثلاثة، وفيه محمد بن القاسم الأسدي وثقه ابن معين وكذبه أحمد وضعفه بقية الأئمة.

(٢) رواه البخاري رقم ٤٤٦٢.

ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب وزيد بن ثابت ورجال، فرفع إلى رسول الله ﷺ الصبي ونفسه تتقعقع قال: حسبته أنه قال: كأنها في شن ففاضت عيناه، فقال سعد: يا رسول الله ما هذا؟ فقال: **«هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»**[١].

دل هذا على أن البكاء على الميت لا يدخل في النياحة يعني: دمع العين وحزن القلب كما قال الرسول ﷺ عند وفاة ابنه إبراهيم عليه السلام: جعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان، فقال له عبد الرحمٰن بن عوف رضي الله عنه: وأنت يا رسول الله؟ فقال: **«يا ابن عوف إنها رحمة»**، ثم أتبعها بأخرى فقال ﷺ: **«إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون»**[٢]، وهذا أكمل من الذي يضحك إذا مات ابنه مثل الفضيل بن عياض رحمه الله لأنه لما قيل له أن ابنك مات ضحك، قيل له في ذلك فقال: هذا قدر ربي وأفرح به. فحال الرسول ﷺ أكمل منه؛ لأن الرسول ﷺ مع تسليمه لربه جل وعلا، وعدم معارضته لقدره، عنده رحمة لهذا الضعيف المسكين الذي وقع في هذا الكرب، وهذه الشدة رحمة مع تسليم لله جل وعلا، وانقياد له ورضى[٣].

---

(١) رواه البخاري رقم ١٢٨٤، ومسلم رقم ٩٢٣.

(٢) رواه البخاري رقم ١٣٠٣، ومسلم رقم ٢٣١٥ من حديث أنس بن مالك.

(٣) مجموع الفتاوى ١٠/٤٧ قال رحمه الله: لكن البكاء على الميت على وجه الرحمة حسن مستحب، وذلك لا ينافي الرضا بخلاف البكاء عليه لفوات حظه منه، وبهذا يعرف معنى قول النبي لما بكى على الميت وقال: **«إن هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»**، فإن هذا ليس كبكاء من يبكي لحظه لا لرحمة الميت، فإن الفضيل بن عياض لما مات ابنه علي فضحك وقال: رأيت أن الله قد قضى فأحببت أن أرضى بما قضى الله به، حاله حال حسن بالنسبة إلى أهل الجزع، وأما رحمة الميت مع الرضا بالقضاء وحمد الله تعالى كحال النبي فهذا أكمل كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾﴾ [البلد: ١٧]، فذكر سبحانه التواصي بالصبر والمرحمة.

والناس أربعة أقسام: منهم من يكون فيه صبر بقسوة، ومنهم من يكون فيه رحمة بجزع، ومنهم من يكون فيه القسوة والجزع، والمؤمن المحمود الذي يصبر على ما يصيبه ويرحم الناس.

قوله: «النائحة إذا لم تتب قبل موتها»: في هذا أن التوبة تمحو ما قبلها، وإنها تكون قبل الموت، والمقصود بالموت هو معاينة الملائكة الذين يقبضون الروح، والملائكة لا يُعاينهم إلا المحتضَر الذي جاءوا لقبض روحه، أما الحاضرون الذين عنده لا يشاهدونهم، وكذلك ثبت عن النبي ﷺ: «**إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر**»[1]، والغرغرة معناها أن تصل الروح إلى الحلقوم فإذا وصلت إلى الحلقوم تيقن بالموت، ويصبح في عداد الأموات فلا ينفعه ندم ولا توبة ولا عمل، ولهذا لما احتضر فرعون قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، فقيل له: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٩١﴾ [يونس: ٩٠، ٩١]، وفي قوله: «**إذا لم تتب قبل موتها**» صريح في أن التوبة مطلقة، وأنها تنفع من كل ذنب وإن كان قبولها عند الله، ولكن الله وعد أنه يقبلها مع أن العبد لا يدري هل توبته صادقة أو أنها مدخولة أو أنه أفسدها، والله جل وعلا يأمرنا بالتوبة وأنه يحب التوابين ويحب عبده التائب، فالتوبة تمحو ما قبلها، والتوبة تُقبل ما دام الإنسان فيه الحياة مستقرة قبل الموت.

وفيه دليل على أن من وقع في الذنوب لا يجوز أن يُحكم عليه بمقتضاها الظاهر لأنه قد يكون تاب مع أن هناك أمور كثيرة تكون مانعة من وقوع العذاب مثل أن يكون له حسنات كبيرة تمنع من العذاب، ومثل أن يصاب بمصائب تكفر عنه، ومثل أن تقبل دعوة المؤمنين له سواءً قبل الموت أو بعد ما يموت ويصلون عليه ويدعون له أن الله يعفو عنه، ويغفر له ويتجاوز عنه، وقد جاءت آثار وأحاديث في ذلك أن من قام على جنازته أربعون مؤمناً وشفعوا فيه أن الله يشفعهم فيه[2]، وكذلك رحمة أرحم الراحمين من وراء هذا

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم ٦١٦٠، والترمذي رقم ٣٥٣٧، وابن ماجه رقم ٤٢٥٣ من حديث ابن عمر.

(٢) رواه مسلم رقم ٩٤٨ عن عبد الله بن عباس: أنه مات ابن له بقديد أو بعسفان فقال: يا كريب انظر ما اجتمع له من الناس، قال: فخرجت فإذا ناس قد اجتمعوا له فأخبرته فقال: تقول هم أربعون؟ قال: نعم، قال: أخرجوه فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: =

كله، وكذلك الشفاعة وغيرها من الأمور التي تمنع وقوع العذاب، وهذا كله يدل على ضلال الذين يحكمون على الناس بالكفر لذنوب يقعون فيها، والله جل وعلا يحب العبد التائب كما هو معلوم في النصوص ويفرح بتوبة عبده التائب، وقد صور الرسول ﷺ فرحه بتوبة عبده التائب بأشد ما يتصور من الفرح الرجل الذي فقد حياته في أرض مهلكة، يعني فقد راحلته عليها طعامه، وشرابه فأيس من وجودها وجلس تحت الشجرة ينتظر الموت بينما هو كذلك إذا هي قائمة على رأسه فيأخذ بخطامها ثم قال: اللهم أنت عبدي وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح[١].

وهذا غاية ما يتصور من الفرح، والله أشد فرحاً بتوبة عبده أعظم من هذا، هذا مجرد تقريب إلى الأذهان، وإلا صفات الله جل وعلا ليست كصفات المخلوقين ولا قريب منها فهو ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، ولا في حقه الذي له على عباده، وليس هذا إلا من كرمه وجوده فإنه الغني بذاته عن جميع خلقه، وإنما هذا كرم منه، وفضل تعالى وتقدس.

قوله: «تقام يوم القيامة»؛ يعني: إذا قامت من قبرها.

قوله: «وعليها سربال من قطران»: السربال واحد السرابيل وهو القميص، الثوب الذي يلبس.

والقطران هو الذي يشتعل بسرعة ويكون منتن، وقيل: إن القطران هو النحاس المذاب، قاله ابن عباس رضي الله عنهما. ومعنى ذلك أن بدنها يلطخ بهذا حتى يكون أبلغ في اشتعال النار بها وأنتن، وأقبح، وأشد.

= «ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئاً إلا شفعهم الله فيه».

(١) رواه مسلم رقم ٢٧٤٧ عن أنس بن مالك وهو عمه قال: قال رسول الله ﷺ: «لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته فبينا هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح».

وقوله: «ودرع من جرب»: الدرع هو الذي يلبس فوق الجلد، فمعنى ذلك أنه يكسى جلدها جرباً حتى يكون أشد للعذاب ـ نسأل الله العافية ـ هذا دليل على شدة عذابها؛ لأنها تتسخط أمر الله وتدعو إلى التسخط، وتنهى عن الصبر، والاحتساب الذي أمر الله به، وتدعو إلى ما لا حقيقة له، فهي تكذب وتنسب الأمور إلى غير من يجب أن تنسب إليه.

والشاهد في الحديث قوله: **«الاستسقاء بالنجوم»** وأنه موجود في هذه الأمة وسيستمر وهو نسبة نزول المطر إليها، والواجب على العبد أن يبتعد عن الألفاظ التي فيها اشتباه، وقد يكون هناك ألفاظ موروثة عن الجاهلية كقولهم: «وعزاه»، وقد قال ﷺ: **«إن العبد يتكلم بالكلمة من سخط الله يزل بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب»**(١).

❁ قال المؤلف ﷺ: ولهما عن زيد بن خالد قال: صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «قال أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب»(٢).

زيد بن خالد الجهني: صحابي مشهور مات سنة ثمانٍ وستين، وقيل غير ذلك وله خمس وثمانون سنة.

قوله: «صلى لنا»: هذا فيه جواز مثل هذا الكلام؛ لأن الصلاة معروف أنها لله جل وعلا ليست لنا، لكن «صلى لنا» يعني صلى بنا لأنه هو الإمام وهذا معروف في اللغة العربية، فاللام هنا بمعنى الباء، فمثل هذا يجوز

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم ٨٩٢٣ من حديث أبي هريرة وفي رواية: **«إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأساً يهوي بها سبعين خريفاً في النار»**، وأخرجه الترمذي رقم ٢٣١٤.

(٢) رواه البخاري رقم ٨٤٦، ومسلم رقم ٧١.

إطلاقه لأن بعض الحروف تتعاقب يعني بعضها يأتي بمعنى الآخر.

قوله: «صلاة الصبح»: أُضيفت إلى الصبح لأن هذا وقتها فهي لا تصلى إلا بعد طلوع الصبح مثل صلاة الظهر وصلاة العصر... إلخ.

قوله: «بالحديبية»: والحديبيَّة بتخفيف بائها وتثقيلها وهي موضع بين مكة وجدة وهو معروف الآن بالشميسي، كان فيه بئر هناك نزله رسول الله ﷺ لما صده الكفار عن الوصول إلى البيت وتفاوض معهم حتى تم الصلح في ذلك المكان، وكان عنده شجرة سمر كان جالساً تحتها رسول الله ﷺ فأرسل عثمان ﷺ ليتفاوض مع الكفار فأشيع أنه قد قتل، عند ذلك دعا الصحابة للمبايعة على الموت أو على أن لا يفروا، فسُميت البيعة التي صارت تحت الشجرة بيعة الرضوان لأن الله جل وعلا قال: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح: ١٨]، فهذه الشجرة صار بعض الناس يقصدها للصلاة عندها لأن الله ذكرها في كتابه، ولأن البيعة التي رضي الله جل وعلا بها، ورضي عن أهلها كانت تحتها فكانوا يقصدونها للصلاة عندها لأجل هذا، فلما علم بذلك عمر ﷺ أمر بقطعها، فقطعت فأصبح مكانها غير معلوم وهذا من فضل الله جل وعلا، ومن صيانة هذا الدين الذي جاء به رسول الله ﷺ.

وقوله: «على إثر سماء»؛ يعني: على إثر مطر نزل من الليل، وسُمي سماء لأنه ينزل من العلو، فكل ما كان فوق فهو سماء.

قوله: «من الليل»؛ يعني: في تلك الليلة، إذا كانت قبل الزوال يُقال الليلة، وبعد الزوال البارحة لأنها برحت وانتهت.

قوله: «فلما انصرف أقبل على الناس»؛ يعني: من صلاته أقبل بوجهه الكريم صلوات الله وسلامه عليه، وهذا كانت عادته ﷺ أنه إذا انصرف من صلاته أقبل بوجهه على الناس واستدبر القبلة، ومن هذا أخذ سُنّية إقبال الإمام بوجهه إلى المأمومين، وأنه لا يبقى مستقبلاً القبلة بعد انقضاء الصلاة إلا بقدر أن يقول أستغفر الله ثلاث مرات.

قوله: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟»: **«هل»** هنا للاستفهام، وهذه كانت عادته ﷺ، وهو التعليم بطريقة الاستفهام.

وقد يكون بطريقة السؤال وهذا أدعى للانتباه، ويتهيئوا لهذا العلم ويهتموا به، فإذا جاء صاروا على استعداد لأخذه وقبوله وحفظه.

قوله: «تدرون»: درى إذا علم، ودرى بالشيء إذا علمه.

قوله: «ماذا قال ربكم؟».

قوله: «قال»: يدل على أن الله جل وعلا له قول غير القرآن، ومثل هذا يُقال له حديث قدسي، والحديث القدسي هو ما تكلم الله به وذكره رسول الله ﷺ عن ربه جل وعلا مضافاً إليه قولاً، والفرق بينه وبين القرآن:

أن القرآن تُعبِّد بتلاوته، وتُحُدي بأقصر سورة منه، وكذلك لا تصح الصلاة إلا به، ولا يجوز مسه للمحدث إن كان في المصحف، أو قراءته للحائض والجنب إلا بطهارة، وغير ذلك من الأحكام، بخلاف الحديث القدسي فليس له من ذلك شيء من هذه الأحكام.

أما الفرق بين الحديث القدسي، والحديث النبوي: أن الحديث النبوي قول الرسول لفظاً والمعنى وحي من الله جل وعلا.

«ماذا قال ربكم؟» فيه صفة القول لله جل وعلا، وأنه يقول ويتكلم متى يشاء والكلام لا يُعقل إلا إذا كان بلفظ وبحرف وبصوت، والكلام بغير هذا غير معقول كما تقوله الأشاعرة وقبلهم الكلّابية أن الكلام معنًى واحداً قائماً بالذات لا يتجزأ هذا من أبطل الباطل، وقد أبطله شيخ الإسلام من تسعين وجه يعني الكلام النفسي، فهذا باطل من وجوه عدَّة، وهم يجعلون الله جل وعلا بمنزلة الأخرس، والملَك هو الذي يُعبر عما في نفس الله جل وعلا عندهم، فهل الملك يعرف ما في نفس الله ـ تعالى الله وتقدس عما يقول الظالمون علواً كبيراً ـ فهم يقولون القرآن عبارة عن كلام الله جل وعلا، ولهذا بعضهم يستهين بالقرآن لأنه ليس كلام الله إنما هو كلام رسوله سواء البشري أو الملكي، وعلى كل حال الباطل بطلانه لا يخفى إلا على من طمس الله

على بصيرته فهذا من أعظم الضلال بل هو من الكفر لأنه يترتب على ذلك إنكار الشرع، وإنكار الرسل.

قوله: «الله ورسوله أعلم»: في هذا الأدب وأن الإنسان إذا سئل عن شيء لا يعلمه لا يتكلف الجواب بل يضيف العلم إلى عالمه ويقول: الله أعلم، وفي وقت الرسول ﷺ يقال: الله ورسوله أعلم، وأما بعد ذلك فيقول: الله أعلم لأنه ليس بإمكانك أن تذهب وتسأل الرسول ﷺ.

قوله: «قال: أصبح من عبادي»: أصبح بعد هذه النعمة التي نزلت، وهذا يدل على أن النعمة تكون سبباً للكفر وقد تكون سبباً للإيمان، والبر، والعمل الصالح.

قوله: «عبادي»: الإضافة يُقصد بها العموم لأن الخلق كلهم عباد لله جل وعلا؛ لأنها جاءت «من» التي للتبعيض، فالمقصود بها الناس كلهم الذين يفعلون هذا الفعل أو يقولون هذا القول.

قوله: «مؤمن بي وكافر»: الإيمان هنا يُقصد به إضافة النعمة إليه، والاعتراف بذلك وحمده والثناء عليه بما أنعم به يكون هذا هو الإيمان فيكون هذا من الأدلة الواضحة على أن الأعمال إيمان، والأدلة عليه لا حصر لها، ولهذا يقول أهل السُّنَّة: الإيمان مركب من أمور ثلاثة: من العلم ومن القول ومن العمل، يعني عقيدة وعمل وقول، فهو مركب من المجموع يعني أن الاعتقاد جزء من الإيمان، والقول جزء منه، وإذا ذهب جزء الشيء لم يكن مستقيماً.

والخلاف في هذا للمرجئة هم الذين يُخرجون العمل عن الإيمان، ومعلوم أن هذا خلاف قد يصل إلى الكفر بالإنسان لأن الرسول ﷺ جاء بالشرع، والشرع كله عمل أو أكثره عمل، فإذا قيل إن العمل ليس من الإيمان فمعنى ذلك أن الشرع يُهدر، ولو كان كما يقولون ما كان بين الرسول ﷺ وبين المشركين أي خلاف لأنهم بالإمكان أن يقولوا: نؤمن ونبقى على ما نحن عليه في عقيدتنا، وفي عملنا، فهم يُقرون له بالإيمان، هم يقرون بأن الله جل وعلا هو الخالق المتصرف، وهو الرزاق وغير ذلك، ولكن عرفوا أنه لا بد إذا كان قال الإنسان قولاً أن يعمل بمقتضاه، فلهذا سبق أن ذكر المؤلف

في ما مضى أنه لما حضرت الوفاة أبا طالب جاء إليه ﷺ فقال له: **«قل: لا إله إلا الله كلمة أحاج لك به عند الله»** وكان عنده أبو جهل، وعبد الله بن أبي أمية من الكفار، فلما قال له رسول الله ﷺ ذلك قالا له: أترغب عن ملة عبد المطلب. وكيف الكفار يعرفون أن قول لا إله إلا الله تنقل من ملة إلى ملة، فكيف يكون العمل غير داخل في مسمى الإيمان.

المقصود أن الأدلة على هذا لا حصر لها، غير أن بعضها صريح واضح، وبعضها مفهوم منه ذلك.

والمؤلف كَلَّلهُ يقول في المسائل(١): تفطن هنا ما المقصود بالإيمان وما المقصود بالكفر؟

ومراد المؤلف بهذا أن نسبة نزول المطر إلى رحمة الله وفضله أن هذا إيمان، ونسبة نزوله إلى الكوكب كفر، فالإيمان والكفر هو العمل، يعني أن العمل هنا صار إيماناً وكفراً.

قوله: «فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب»: والكفر الظاهر أنه ليس الكفر الأكبر، وإنما هو كفر النعمة وهو إضافة النعمة إلى غير مُسديها ومُوليها، نسبتها إلى المخلوق، وكل خير يحصل للعبد فهو من الله فيجب أن يُعلم ذلك ويتحلى به، ويُثني به على الله، ويشكره بالعمل بطاعته، وإذا كان على خلاف ذلك فهو كافر، وهذا الكفر يكون من الشرك الخفي الذي هو نسبة النعمة إلى غير الله جل وعلا.

بهذا يُعلم أن كل فضل يحصل لك يجب أن تعلم أنه من الله وحده وأن الذي حصل على يده أنه سبب ساقه الله جل وعلا إليك، ولا يدعو هذا كون الإنسان يغمط الناس حقوقهم، ولكن قلبه لا يتعلق بهم بل يجب أن يكون قلبه متعلق بالله جل وعلا، فالنعم من الله فالذي ينعم هو الذي يجب أن يحب الحب الذي يكون فيه تأله القلب، وسيأتي الكلام على هذا إن شاء الله.

---

(١) المسألة السادسة والسابعة.

۞ **قال المؤلف رحمه الله: ولهما من حديث ابن عباس رضي الله عنهما معناه وفيه قال بعضهم: لقد صدق نوء كذا وكذا، فأنزل الله هذه الآيات: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٍ مَّكۡنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٨٠ أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ۝٨١ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ۝٨٢﴾ [الواقعة]»[1].**

قوله: «ولهما»؛ يعني: البخاري ومسلم والصواب أنه عند مسلم فقط.

قوله: «قال بعضهم»: جاء أن الذي قال هذا أنه عبد الله بن أُبي بن سلول ولكن هذا لا يصح لأنه معروف في أن سورة الواقعة مكية.

قوله: «صدق نوء كذا وكذا»: كناية عن تسمية نوء معين، والنوء الذي في ذلك اليوم ظهر أو غاب.

قوله: «﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾»: اختلف المفسرون في اللام في قوله: ﴿فَلَآ﴾ هل هي نافية أو زائدة أو أن هذا على بابه.

فإذا كانت نافية فمعنى ذلك أنها نافية لشيء مقدر معلوم وهو كلام الكفار أن هذا القرآن سحر أو أنه شعر أو أنه كهانة وما أشبه ذلك من أقوالهم التي يقولونها أو أنه قول بشر فنفى الله جل وعلا ذلك، وأقسم على أنه قرآن كريم، فالمعنى على هذا يكون ليس الأمر كما قلتم في القرآن.

«﴿أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾»: ومواقع النجوم قيل: إنها مساقطها أو مطالعها، أو المغارب والمطالع، وقد اختار هذا القول ابن جرير رحمه الله[2] وهو قول مجاهد رحمه الله[3].

---

(١) رواه مسلم رقم ٧٣ ولفظه قال ابن عباس: مطر الناس على عهد النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: **«أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر، قالوا: هذه رحمة الله وقال: بعضهم..»** الحديث.

(٢) تفسير الطبري ١٤٨/٢٣ قال رحمه الله: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: معنى ذلك: فلا أقسم بمساقط النجوم ومغايبها في السماء، وذلك أن المواقع جمع موقع، والموقع المفعل، من وقع يقع موقعاً، فالأغلب من معانيه والأظهر من تأويله ما قلنا في ذلك، ولذلك قلنا: هو أولى معانيه به.

(٣) تفسير ابن كثير ٥٤٤/٧ وقال مجاهد أيضاً: ﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ في السماء، =

والنجوم كل نجم له موقع فهي من آيات الله الباهرة التي تدل على عظمة الله جل وعلا وقيل نزول القرآن منجماً في أوقاته قال ابن عباس ﷺ يعني: نجوم القرآن؛ فإنه نزل جملة ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا، ثم نزل مُفَرَّقاً في السنين بعد. ثم قرأ ابن عباس هذه الآية[١].

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾﴾: النجوم مخلوقة لله دالة على وحدانيته، وله جل وعلا أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، أما عباده فلا يجوز أن يقسموا إلا به تعالى أو بصفة من صفاته.

والقسم هو تأكيد الخبر، والله جل وعلا إذا أخبرنا بخبر فيجب أن نأخذ به ونصدقه، ولكن هذا يكون بحسب حال المخاطب فبعض الناس لا يصدقه حتى يُؤكد له بالأقسام وغيرها، وبعضهم يكون غافلاً فيحتاج إلى التأكيد بذلك، ولله حكم في خطابه وأسرار يُعلمها الله من يشاء، وقد أكثر الله من الإقسامات في كتابه وعند التأمل يتبين دلالتها عن عظمة الله ووحدانيته.

وقوله: «﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾»: هذه جملة اعتراضية بين القسم وجوابه يدل على أنه أمر عظيم ونحن لا نعلم عظمته أو نعلم بعضه.

قوله: «﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾»: هذا هو المقسم عليه، القرآن هو المقسم عليه يعني كلامه الذي أنزله.

قوله: ﴿كَرِيمٌ﴾: قال الأزهري ﷺ الكَرِيمُ: من صفات الله ﷻ وأسمائه، وهو الكثير الخير الجواد المنعم المتفضل. وقال: والكريم: اسم جامع لكل ما يُحمد. فالله كَريمٌ حميد الفعال. وقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٍ مَّكۡنُونٍ ﴿٧٨﴾﴾؛ أي: قرآن يحمد ما فيه من الهدى والبيان والعلم والحكمة[٢]. فهو الواسع والبهي، الحسن الجميل وغير ذلك. والله جل وعلا وصف نفسه بأنه كريم، ووصف عرشه بأنه كريم، ووصف كلامه بأنه كريم

= ويقال: مطالعها ومشارقها. وكذا قال الحسن، وقتادة.

(١) تفسير ابن كثير ٧/ ٥٤٤.

(٢) تهذيب اللغة ٣/ ٣٧٤.

لسعة ما فيه من الخير والهدى والنفع الذي يحصل لمن آمن به.

قوله: «﴿فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ٧٨﴾»: اختلف فيه ما المراد بهذا الكتاب قال ابن القيم رحمه الله: اختلف المفسرون في هذان فقيل هو اللوح المحفوظ، والصحيح أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة وهو المذكور في قوله: ﴿فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ١٣ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ١٤ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ١٦﴾ [عبس: ١٣ ـ ١٦] ويدل على أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة قوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ٧٩﴾ فهذا يدل على أنه بأيديهم يمسونه وهذا هو الصحيح في معنى الآية، ومن المفسرين من قال: إن المراد به أن المصحف لا يمسه إلا طاهر والثاني أرجح[1].

وهذه الآية اختلف فيها، فمن المفسرين من يقول أن هذه الصحف يعني القرآن لأنه لا ينتفع به، ولا يؤمن به إلا من سبقت له الحسنى من الله جل وعلا فيكون من البررة ومن أهل الخير والإسفار في الهدى.

وظاهر لمن تأمل هذه الآيات أن الكلام كله في القرآن، فعلى هذا قوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ٧٩﴾ إما أن يقصد به أنه لا ينتفع به ويستفيد من علمه إلا من تطهر قلبه بالإيمان والهدى وسبقت له من الله جل وعلا سعادة، أو يُقصد به أنه لا يجوز أن يناله إلا من تطهر من الأحداث، وكلا القولين قال بهما جماعة من العلماء، والراجح القول الثاني وعليه جمهور العلماء.

قوله: «﴿تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٠﴾»: هذا رد لما قاله الكفار، ومعلوم أن النزول يكون من أعلى إلى أسفل، فهو دليل على علو الله جل وعلا والأدلة على هذا كثيرة جداً.

وقوله: «﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ٨١﴾»: الادهان يكون ممن هو ضعيف، وليس عنده قوة وكان مقابله قوياً، والمؤمن لا يجوز له أن يكون كذلك فيجب أن يكون قوياً بالله جل وعلا، وبإيمانه معتزاً بذلك فيكون صادعاً بالحق قائلاً به، مبتعداً عن الادهان لأنه هو مخاشاة العدو ومجاراته والإغضاء عنه في بعض ما يريد، فهذا إنكار لمن يقع له مثل هذا.

---

(١) التبيان في أقسام القرآن ١/ ١٤٠.

وقوله: «﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾»: هذا هو الشاهد من الآيات، يعني تجعلون حظكم من هذا الحديث الكريم الذي هو تنزيل من رب العالمين الكذب به والكفر به، هذا على القول بأن الكتاب المكنون هو القرآن.

ويجوز أن يكون هذا استئناف، يعني تجعلون ما نزل عليكم من الرحمة والنعمة والخير من السماء تجعلون شكركم تكذيباً، وكفراً بحيث أنكم تنسبون ذلك إلى مخلوق مدبر مسخر حيث تقولون أن هذا نزل بسبب نوء كذا أو جاءنا المطر بنوء كذا، وهذا الذي أراد المؤلف ﷺ، وعليه يدل حديث زيد بن خالد، ويجوز أن يقصد المعنيين وكلام الله جل وعلا له معان كثيرة.

فإذا كان حظ الإنسان من النعمة الكبرى التي هي أعظم من نزول المطر وهي إرسال الرسول الكريم وإنزال الكتاب وكان حظه من هذا التكذيب والإعراض فهذا قد تمت خسارته، وظهرت شقاوته، ويكون أعظم ممن نسب السقيا إلى الكوكب.

وبهذا تظهر المناسبة للباب في قوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾.. أن هذا مخالف لوجوب شكر الله جل وعلا وعبادته، وهذا من الشرك فإذا كان الذي يضيف إلى النجم يعتقد له فيه تصرفاً فهو من الشرك الأكبر الذي إن مات صاحبه عليه فهو في النار.

أما إن كان جرى على لسانه أو على العادة أو أنه يقول مطرنا في هذا الوقت في نوء كذا وكذا، فهذا من شرك الألفاظ الذي يجب على العبد أن ينزه لسانه منها ويستغفر إذا وقع منه شيء من ذلك لأن إضافة النعم إلى غير موليها ومسديها هو من كفر النعمة، وهكذا يقال في جميع التصرفات، وفي جميع ما يقع للناس من نسبة الأشياء إلى أسبابها أو بعضها أن تضاف إلى الرب الكريم المدبر المسخر لكل شيء، ويشكر على النعم ويُستغفر مما يكون فيه شيء من المصائب لأن المصائب لا تقع إلا عقاب بسبب الذنوب، وهي من الله خير وفضل.

❁ قال المؤلف كَلَلهُ فيه مسائل:

❁ الأولى: ذكر الأربع التي من أمر الجاهلية.

وهي التفاخر بالأحساب، والطعن في النسب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة على الميت، وقد أخبر النبي ﷺ أنها تبقى في هذه الأمة لا يتركونها يعني أنها توجد في بعضهم، وإذا جاء ذكر الأمة في الأحاديث مثل هذا الحديث ومثل قوله: «ثلاث في أمتي هن به كفر...» الحديث، وقوله: «ستفترق هذه الأمة...» المقصود بالأمة أمة الإجابة كما سبق.

❁ الثانية: قوله: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر» بسبب نزول النعمة.

يعني أن النعمة قد تكون سبباً للكفر، وتكون سبباً للإيمان والإنعام والخير، وهكذا كل ما جدد الله للعباد نعمة من نعمه، فإن الناس يتفاوتون فيها فمنهم من يزداد بها إيماناً وقرباً من الله جل وعلا، ومنهم بالعكس، ولكن قصده هنا أن نزول النعمة قد تكون سبباً للبعد عن الله والكفر به.

❁ الثالثة: التفطن للإيمان في هذا الموضع.

يقصد به العمل سواءً قولاً أو فعلاً، مثل قوله جل وعلا: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزمر: ٤٥]، وهذا من القول الذي تتأثر به الجوارح لأنه إذا تأثر القلب تأثرت الجوارح، وكذلك ذكر بعض الأعمال تكون إيماناً: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [غافر: ٧].

فالإيمان المقصود به العمل لأنهم الذين يحفون بالعرش فهم أقرب الخلق إلى الله جل وعلا، وبعد هذا بآية قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَـٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾﴾ [غافر: ١٠]، ثم قال: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾ [غافر: ١٢]، المقصود بهذا كله العمل عمل القلوب والجوارح، وأنكم تفرحون بهذا وتطمئنون به وتتبعوا ذلك، يعني الشرك.

فالإيمان يذكر كثيراً ويقصد به العمل، وبهذا يرد على المرجئة الذين يقولون أن الإيمان عقيدة، فقط. والإيمان هو إضافة النعمة إلى موليها ومسديها.

❁ **الرابعة: التفطن للكفر في هذا الموضع.**

يعني إضافة النعمة إلى غير الله، والكفر إضافة النعمة إلى مخلوق ليس له فيها أيُّ دخل وأيُّ صلة، فيكون هذا دليل على أن العمل يكون كفراً، كما أن العمل يكون إيماناً وهو أمر واضح.

❁ **الخامسة: التفطن لقوله: «لقد صدق نوء كذا وكذا».**

يعني: أن قولهم صدق نوء كذا وكذا، لا يقصدون به أن النوء أنزل المطر، أو أن له تأثيراً بذلك، وإنما مجرد إضافة؛ يعني: أن المطر نزل عند طلوعه أو عند غروبه، وعلى هذا يقولون هذا نوء محمود، وهذا نوء منحوس، فيضيفون الخير إليها أو الشر، فيكون هذا الكفر بإضافة نعمة الله التي يجب أن يشكر عليها ويحمد، فأضافوها إلى مخلوق ليس له فيها أيُّ تصرف، وهكذا يجب على العبد إذا أنعم الله عليه نعمة على يد أحد من الخلق أن يعلم أن هذه من الله وليست من المخلوق، وإذا منع شيئاً يطلبه من مخلوق أن يعلم أن هذا مُقدر من الله، فالله هو المانع، والله هو المعطي وهو الضار وهو النافع ولكن لا يدعوه ذلك إلى أن يغمط الناس حقوقهم.

فمن حصل له خير على يد مخلوق فعليه أن يكافئه كما جاء في الحديث: **«من لا يشكر الناس لا يشكر الله»**[١]، وقوله: **«ومن صنع إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئوا به فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه»**[٢]، هذا حتى لا يكون القلب متعلقاً بمخلوق، يجب أن يكون قلب العبد سليماً لله جل وعلا، فيكون عبداً لله حقاً، ولا تتوازعه أمور الدنيا، أو

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم ١١٧٠٣، والترمذي رقم ١٩٥٤.

(٢) أخرجه في المسند رقم ٦١٠٦، وأبو داود رقم ١٦٧٢، والنسائي رقم ٢٥٦٧ من حديث ابن عمر.

العباد، فإذا أنعم عليه على يد إنسان ينبغي له أن يكافئه حتى يتخلَّص قلبه لله جل وعلا لأنه من الأمور المسلمة أن القلب يملكه الإنعام.

۞ السادسة: إخراج العالم للمتعلم المسألة بالاستفهام عنها، لقوله: «أتدرون ماذا قال ربكم؟».

وهذا يقع كثيراً منه ﷺ وهو من أبلغ التعليم.







الباب الواحد والثلاثون

❁ قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: باب قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

مقصود المؤلف بالترجمة بهذه الآية أن يبين أن الحب هو أصل التعبد، وأنه يجب أن يكون خالصاً لله جل وعلا، وأن المشركين الذين أخبر الله جل وعلا عنهم أنهم في النار، شركهم في المحبة وليس في التدبير والخلق والتصرف.

❁ وقول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾ [البقرة: ١٦٥].

قوله: «﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾»: الناس من الألفاظ العامة التي تشمل النوع كله ذكوراً أو إناثاً صغاراً وكباراً، ولهذا جاء في قواعد التفسير عند المفسرين التي فيها التمييز بين الآيات يقول: إذا جاء الخطاب النداء «بالناس» يدل هذا على أن السورة مكية في الغالب لأنه خطاب للكفار والناس عموماً بخلاف الخطاب بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فإنه يوجه لمن اتبع وآمن وغالباً يدل هذا على أن نزول الآية بعد ما صار لرسول الله ﷺ أتباع وقوة ومؤمنون به يمتثلون أمره ويجاهدون في سبيل الله، ولكن هذا في الغالب يعني لا يلزم أن يكون هذا في كل آية.

وهذه السورة مدنية وهي أول ما نزل في المدينة، وهي أعظم سورة في القرآن من ناحية كثرة الأحكام، وطول الآيات، ولهذا كان الصحابة لما كانت الكرَّة عليهم في غزوة هوازن، صاروا يتنادون: يا أصحاب سورة البقرة[1].

---

(١) الطبراني في الأوسط رقم ٢٧٥٨ عن أنس بن مالك قال: «لما كان يوم حنين انهزم =

قوله: «﴿مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾»: إذا جاءت ﴿مَن﴾ فالمقصود بها «مع» هذا الغالب يعني مع الله أو غير الله، وكل هذا شرك.

قوله: «﴿أَندَادًا﴾»: الند هو: المثل والنظير ولو بصفة من الصفات، فلا يلزم أن تكون الأنداد مساوية لله جل وعلا في كل شيء أو في أكثر الأشياء، يعني أنه إذا أعطي مخلوقاً صفة من صفات الله جل وعلا فإنه يكون قد أشرك به، واتخذ نداً، ولهذا نقول أن الشرك يقع في العبادة ويقع في العقيدة ويقع في الأسماء والصفات، فالذي يقول مثلاً إن فعل الله كفعل المخلوق يكون شركاً أشرك مع الله، بأن جعل له نداً، والذي يقول مثلاً سمع الله كسمع المخلوق يكون مشركاً؛ لأنه جعل له نداً في هذا، وهكذا في جميع ما هو من خصائص الله جل وعلا، يجب أن يعتقد المؤمن توحد الله بها وتفرده بها وحده جل وعلا.

ولهذا لما قال الرجل لرسول الله ﷺ: ما شاء الله وشئت قال: «**جعلتني لله نداً، بل ما شاء الله وحده**»[1]، حيث شرَّك مشيئته مع مشيئة الله جل وعلا بالواو قال: «**ما شاء الله وشئت**» لأن الواو تقتضي الجمع، والجمع يدل على المساواة ولو من بعيد، فنهى عن ذلك وأخبر أن هذا تنديد، وكذلك جاء في تفسير ابن عباس وغيره من الصحابة في قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢] قال: الأنداد هو الشرك، أخفى من دبيب النمل على صَفَاة سوداء في ظلمة الليل، وهو أن يقول: والله وحياتك يا فلان، وحياتي، ويقول: لولا كلبة هذا لأتانا اللصوص، ولولا البطّ في الدار لأتى اللصوص، وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئتَ، وقول الرجل: لولا الله وفلان. لا

= الناس عن النبي ﷺ إلا العباس بن عبد المطلب، وأبو سفيان بن الحارث وأمر النبي ﷺ أن ينادي يا أصحاب سورة البقرة يا معشر الأنصار، ثم استحر النداء في بني الحارث بن الخزرج فلما سمعوا النداء أقبلوا، فوالله ما شبهتهم إلا بالإبل تحن إلى أولادها، فلما التقوا التحم القتال فقال رسول الله ﷺ: **الآن حمي الوطيس وأخذ كفاً من حصى فرمى به وقال: هُزموا ورب الكعبة، وكان علي بن أبي طالب من أشد الناس قتالاً يومئذ**.

(١) الطبراني في الكبير رقم ١٣٠٠٥، الأدب المفرد رقم ٧٨٣ من حديث ابن عباس.

تجعل فيها «فلاناً». هذا كله به شرك[1]. يعني إذا جعل الفعل الذي حصل له أو الأمر الذي حصل له بسبب شيء، مضافاً إلى ذلك الشيء، يكون هذا من التنديد، فدل على أن الند يكون في شيء من الأشياء التي هي من خصوصيات الله جعل وعلا، إما من حقوقه أو من صفاته أو من أفعاله تعالى وتقدس، فيجب أن يخلص في هذه الأشياء، يعني أن يكون التوحيد لله جل وعلا في أوصافه وأسمائه، ويكون أيضاً في أفعاله التي يختص بها، كما يكون أيضاً في حقه الذي أوجبه على عباده فينفرد في هذه الأمور، أما إذا حصل اشتراك فيها ولو بوجه من الوجوه فإنه يحصل التنديد، والتنديد قد يكون كبيراً يوجب النار، بل يوجب الخلود فيها إذا مات عليه الإنسان وقد يكون موجباً للعذاب إذا كان من الشرك الأصغر ومات عليه بدون توبة على قول بعض العلماء، ولا يحصل التوحيد والإخلاص إلا بإخلاص هذه الأمور لله جل وعلا وحده، وهذا يدلنا على أن التنديد عام، ولكن في هذه الآية خاص بالمحبة.

والمؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ أراد بالترجمة بهذه الآية أن يبين أن حب الله يجب أن يكون خالصاً له، ولا يجوز أن يكون أحداً من الخلق مشتركاً مع الله جل وعلا في شيء من هذا الحب، ولهذا قال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾؛ يعني: في المحبة؛ يعني: أنهم يحبون من اتخذوهم أنداداً مثل محبتهم لله جل وعلا، فسووهم في المحبة وهذا من أعظم الشرك، ومن أكثره أيضاً في الناس، ولهذا ذكر ذلك لأنه منافياً للتوحيد، ولا يحصل العبد على الأمن من العذاب إلا إذا أخلص الحب لله جل وعلا غير أن الحب يكون عاماً ويكون خاصاً، فالعلماء قسموا المحبة إلى قسمين:

القسم الأول: محبة عبودية وذل وخضوع وتعظيم، وهذا هو حب التأله فيجب أن يكون لله وحده، وإذا جعل منه شيء للمخلوق، يعني يحبه حب ذل وتعظيم يكون عابداً له، ويكون مشركاً في ذلك الشرك الأكبر الذي إذا مات

---

(١) تفسير ابن كثير ١/١٩٦.

عليه العبد يكون خالداً في النار ـ نسأل الله العافية ـ وهذا القسم يسمونه محبة خاصة، ولكن تسميته محبة عبودية وذل وخضوع وتعظيم أوضح وأحسن من أن نقول محبة خاصة.

القسم الثاني: عام مشترك، فهو أقسام منه حب الحنو والرحمة كحب الوالد لولده الصغير مثلاً، ومنه حب الألفة والمصاحبة كحب الزميل لزميله، فالإنسان إذا ألف شيئاً وتردد معه يكون له نوع حب، فالأخ يحب أخاه، والمسافر إذا سافر مع إنسان من نوعه وجنسه يصير بينهم محبة، وكذلك الصناعة مثل صانع يشترك في صنعة مع إنسان وعامل وهذا كثير جداً وما أشبه ذلك، وهذا حب طبيعي لا ضير على العبد فيه، ولهذا يوجد هذا في الحيوانات تجد مثلاً إذا عُزل بعضها عن بعض تصيح وتحنُّ إلى الألف الذي كان بينها، فهذا دليل على أنه أمر طبيعي، طبعت عليه المخلوقات، ولكن لا يجوز أن يتمادى حتى يكون فيه ذل وتعظيم، فإذا وصلت إلى هذا الحد فقد وصلت إلى العبودية.

وفي قوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] هذا ذل التواضع، وهذا من صفات المؤمنين كونهم يخضعون جناح الذل لبعضهم.

أو يكون حب حاجة بدنية يحتاجه في بدنه كحب الأكل والشرب ويدخل فيه حب الاتصال بالزوجة، وما أشبه ذلك، فكل الشهوات دخل في هذا، ولكن يجب أن يكون هذا بقدر الحاجة ولا يزيد على ذلك، فإن تعلق به من الحب القدر الزائد فقد يكون عبادة كما قال ﷺ في الحديث الذي في البخاري: «**تعس عبد الدينار والدرهم، والقطيفة والخميصة، إن أعطي رضي، وإن لم يعط لم يرض**»[1]، فجعله عبداً لهذه الأشياء التي يستعملها، إما ذهب أو فضة أو لباس أو فراش، فدل على أن العبد إذا كان يعمل لأجلها أنها تتعبد قلبه، ولهذا يجب أن تكون هذه الأشياء حبها بقدر الحاجة، الشيء الذي يحتاجه ولا يتعلق قلبه بها أكثر من ذلك، أما إذا شغلته عن عبادة الله أو منعته عن العبادة فإنه يؤاخذ على هذا، ويعاقب عليه وربما صار عابداً لها.

(١) رواه البخاري رقم ٦٤٣٥.

وكذلك محبة التقدير مثل محبة الولد لوالده، ومثل محبة التلميذ لمعلمه وإذا كان ذلك من أجل العلم ومن أجل الانتفاع فهذا محمود، فهذا يثاب عليه، وأما إن كان عادة فالعادة لا تكون عبادة، بل تكون من أفعال البهائم.

فالمقصود أن هذه الأنواع لا تدخل في الآية، وإنما الذي يدخل فيها محبة العبودية التي تتضمن الذل والتعظيم.

فالحب الذي يكون فيه الخوف والرجاء والتعظيم والتذلل فإنه يجب أن يخلص لله جل وعلا، فهذا هو أصل العبودية أصل عبادة الله جل وعلا، وهو معنى التأله، فمعنى الإله هو المحبوب المعبود، قوله: لا إله إلا الله، يعني لا معبود بالحب الذي فيه الذل والخضوع إلا الله جل وعلا، ولهذا جاء في تفسير قوله فيما ذكره الله جل وعلا عن قول الكفار بعضهم لبعض حينما يخاطبون معبوداتهم التي يحبونها وهم في النار: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨]، أن التسوية هي في هذا الحب وليست التسوية لهم في الخلق والتدبير والتصرف[1]، إذ لا يعلم أن أحداً من الناس جعل مع الله خالقاً متصرفاً إلا في أمور معنوية أو أمور ثانوية جاءت ربما غير مقصودة مثل ما يقع من أهل البدع مثل الجهمية والمعتزلة، وهم لا ينفكون عن الشرك لأنهم جعلوا المخلوق مساوياً لله جل وعلا في بعض الأمور كما هو معروف في كتبهم وفي ردود العلماء عليهم.

فمثلاً حينما يقولون أن الإنسان يخلق أفعاله، فهذا شرك في الربوبية وليس شركاً في المحبة، حيث جعلوا الإنسان مشاركاً لله في الخلق، وحينما يقولون أن العبد حر يفعل بمشيئته وإرادته ما يريد ويشاء ولا دخل لمشيئة الله جل وعلا في ذلك، فهو إذا أراد أن يؤمن آمن، وإذا أراد أن يكفر كفر، فهذا أيضاً شرك في الخلق والتدبير وصفات الله جل وعلا حيث جعلوا المخلوقين

---

(١) مدارج السالكين ٣/ ٢١ قال ﷺ: وهذه التسوية المذكورة في قوله تعالى حكاية عنهم وهم في النار يقولون لآلهتهم وأندادهم وهي محضرة معهم في العذاب تالله إن كنا لفي ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين، ومعلوم أنهم لم يسووهم برب العالمين في الخلق والربوبية وإنما سووهم به في المحبة والتعظيم.

مساويين في ذلك، *بل جعلوا المخلوق يفعل الشيء* الذي لا يفعله الله جل وعلا، أو لا يقدر عليه ـ تعالى الله وتقدس ـ وكذلك في غير هذين الأمرين، وهم أيضاً ينكرون هذا الشيء يعني المحبة التي هي محبة التأله ويتبعهم في ذلك الأشاعرة، وهذا عجيب لأن هذا هو أصل الدين الإسلامي كيف ينكر، فإذا كان الإنسان ليس عنده حب التأله فهو ليس عنده إسلام أصلاً، ومبدأ الإسلام والدخول فيه، قول العبد: لا إله إلا الله.

وقد عرفنا أن المقصود ما تضمنه هذه الكلمة مع القول، فهم ينكرون أن تكون المحبة واقعة من الجانبين من الرب جل وعلا ومن العبد لله جل وعلا، ويفسرونها تفسيرات باطلة كالأشاعرة مثلاً فإنهم ينكرون أن يكون العبد يحب الله؛ لأنهم يقولون المحبة لا تكون إلا بين متجانسين ومتوافقين، ولا توافق وتجانس بين الرب وبين العبد، وهذا لأنهم ابتعدوا عن كتاب الله جل وعلا وصاروا يأخذون دينهم من قواعد المتكلمين التي يسمونها براهين وهي في الواقع شكوك وضلالات.

فكيف ينكر أن يكون الرب جل وعلا يحب معناه أنه ما عرف الإسلام أصلاً؛ لأن مبنى الدين الإسلامي على محبة الله جل وعلا محبة الذل والتعظيم والخضوع والتأله، فالإله هو المألوه الذي تألهه القلوب حباً وخوفاً ورجاء، أما محبة الله لعبده فهي صفة تليق بجلاله، ولا يجوز أن نأولها، بأن نقول: هي محبة الطاعة، أو الإثابة. والمتكلمون يفسرونها بهذا أو بهذا، إما أن يفسرونها بمخلوق، أو يفسرونها بأمر آخر من الأمور التي تتعلق بالله جل وعلا مثل طاعته وامتثال أمره، فهم إما أن يفسروها بالثواب، والثواب مخلوق، أو يفسروها بامتثال الأمر وهذا تجده كثيراً جداً في شروح الحديث الذي يتولاها هؤلاء مثل النووي رحمه الله وابن بطال وكثير من العلماء لأنهم اتخذوا دينهم عن من يثقون به وألفوا هذا من الصغر فاستبعدوا أن يكون هؤلاء الذين تلقوا منهم دينهم أنهم خالفوا كتاب الله جل وعلا، واجتهدوا أن يوفقوا كلامهم مع كلام الله جل وعلا وقول رسوله ﷺ وكثيراً لا يتفق لهم ذلك، وهم مجتهدون في طلب الحق، وليس قصدهم مخالفة الله ولا مخالفة رسوله ﷺ، ولذلك

يكونون معذورون ولهم أجر الاجتهاد، وليس كل مجتهد مصيب، ولكن إذا اجتهد عفي عن خطئه وله أجر الاجتهاد كما في حديث النبي ﷺ.

فإذاً الحب الذي يقصده المؤلف في الآية ويكون من التوحيد هو حب التأله، الذي يتضمن الذل والتعظيم، ومن لوازم ذلك طاعة الأمر واجتناب النهي، ولهذا قال سبحانه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: ٣١] فبين أن دليل المحبة هو اتباع الأمر وطاعته، أما أن يدعي الحب وهو مخالف لأمره فهذا كذب، وجاءت الآثار بأن هذه الآية: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ تسمى آية المحنة[1]، لأن قوماً قالوا: إنا نحب ربنا حباً شديداً فأنزل هذه الآية: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾ الآية؛ يعني: إن كنتم تحبون الله صادقين فاتبعوا أمر الرسول ﷺ، فهذا هو الدليل على صدق القول، أما إذا كان مجرد دعوى، فالدعوى لا تقبل إلا بدليل، والحب في الواقع هو أصل الدين الإسلامي لأن أصل الدين شهادة أن لا إله إلا الله، والإله هو المألوه الذي تألهه القلوب حباً وخوفاً ورجاءً وتعظيماً.

قوله: «﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾»: الكاف هنا للتشبيه، جعلوا حبهم مساوياً لحب الله جل وعلا، ثم لا يلزم التسوية، المهم أنهم إذا جعلوا لهم حباً من الحب الذي يجب أن يخلص له جل وعلا حب التأله والتذلل والتعظيم فإنهم يكونون واقعين في الشرك.

والمفسرون لهم تقديران في هذا التشبيه:

منهم من يقول: يحبون أندادهم كما يحب المؤمنون الله.

---

(١) مدارج السالكين ٣/ ٢١ قال ﷺ: وهي تسمى آية المحنة، قال أبو سليمان الداراني: لما ادعت القلوب محبة الله أنزل الله لها محنة: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ قال بعض السلف: ادعى قوم محبة الله فأنزل الله آية المحنة: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾، وقال: يحببكم الله إشارة إلى دليل المحبة وثمرتها وفائدتها فدليلها وعلامتها اتباع الرسول وفائدتها وثمرتها محبة المرسل لكم فما لم تحصل المتابعة فليست محبتكم له حاصلة ومحبته لكم منتفية.

التقدير الثاني: يحبون أندادهم كما يحبون الله، فهم ساووا محبتهم لأندادهم بحبهم لله، فدل على أنهم يحبون الله حباً شديداً ولكنهم لم يخلصوا هذا الحب فوقعوا في الشرك.

بخلاف المؤمنين فأنهم أخلصوا حبهم لله فصاروا أشد حباً منهم لله، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ وهذا هو الصواب، وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1].

وبقية الآية وهي مبنية على هذا ففيها الخلاف في مثل الخلاف في قوله: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾، وإذا عرف أن الصحيح هو القول الثاني، يتبين أيضاً معنى آخر الآية.

❁ **قال المؤلف رحمه الله: وقول الله تعالى**: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ اللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٤].

هذه ثمانية أشياء ذكرها الله جل وعلا تشمل أمور الدنيا كلها، فإذا كانت الدنيا أحب إليكم من أمر الله، وما جاء به الرسول ﷺ، فأنتم فسّاق انتظروا

---

(١) مجموع الفتاوى ٣٥٧/٨ قال رحمه الله: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ وفيه قولان: **أحدهما**: يحبونهم كحب المؤمنين لله. **والثاني**: يحبونهم كما يحبون الله لأنه قد قال: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ فلم يمكن أن يقال: إن المشركين يعبدون آلهتهم كما يعبد الموحدون الله بل كما يحبون هم الله، فإنهم يعدلون آلهتهم برب العالمين كما قال: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]، وقال: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء: ٩٧ ـ ٩٨].
وقد قال بعض من نصر القول الأول في الجواب عن حجة القول الثاني: قال المفسرون: قوله: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ أي: أشد حباً لله من المشركين لآلهتهم فيقال له ما قاله هؤلاء المفسرون مناقض لقولك، فإنك تقول: إنهم يحبون الأنداد كحب المؤمنين لله، وهذا يناقض أن يكون المؤمنون أشد حباً لله من المشركين لأربابهم، فتبين ضعف هذا القول وثبت أن المؤمنين يحبون الله أكثر من محبة المشركين لله ولآلهتهم، لأن أولئك أشركوا في المحبة والمؤمنون أخلصوها كلها لله.

ماذا يحل بكم لفسقكم وخروجكم عن طاعة الله جل وعلا وطاعة رسوله ﷺ من العمل الصالح ومن الجهاد في سبيله.

قوله: «﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ﴾»: هذه أعظم ما في الدنيا مما يتعلق به الإنسان، الآباء والأبناء وكذلك الإخوان والأزواج والقبائل والقوم، والبلد ومن له صلة بهم من الناس، وكل ذلك يدخل في قوله: «﴿وَعَشِيرَتُكُمْ﴾».

والأموال بعد هذا «﴿وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾»؛ يعني: اكتسبتموها وحصلتموها واستوليتم عليها وصرتم تتصرفون فيها.

وقوله: «﴿وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾»: من تجارة الدنيا تنتظرون ربحها، وتخافون ﴿كَسَادَهَا﴾؛ يعني: ألا تربح.

قوله: «﴿وَمَسَٰكِنُ﴾»: من الدنيا «﴿تَرْضَوْنَهَآ﴾» على أهوائكم وما تحبونه، فماذا بقي بعد هذا من أمور الدنيا، هذه هي الدنيا كلها، إن كانت هذه الأشياء أحب إلى الإنسان من طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ وجهاد في سبيل الله جل وعلا «﴿فَتَرَبَّصُوا۟﴾»؛ يعني: فلينتظر ماذا يحل به «﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾» الذي سيأتيه يعني عقابه «﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾» فختمها بأن من كانت هذه صفته فهو فاسق، والفاسق هو الخارج عن الطاعة، وكذلك إذا كان ما يهديه الله فهذا أيضاً من العقاب الشديد وهو عدم الهداية لأن الإنسان لا يمكن أن يهتدي بنفسه، إن لم يهديه الله فلا هادي له، لا من نفسه ولا من غيره من الخلق، فلا يجوز أن تكون هذه الأشياء إذا اعترضت للإنسان أن تقدم على محبة الله، وتكون مانعة من المُضي في هذا السبيل في امتثال أمر الله جل وعلا، وتقديم أمره على هذه الأشياء، وإلا يكون الإنسان معرضاً لعقاب الله جل وعلا، ويدل على أنه فاسق، وأنه ما قام بالتوحيد الواجب عليه، ومعلوم أن أكثر الناس بهذه الصفة فلو طلب منهم مثلاً تقديم طاعة الله ورسوله والجهاد في سبيله على محبة هذه الأشياء فأكثرهم لن يفعل، ولكن إذا لم يقع الطلب منهم وعوفوا فهم من المؤمنين في الظاهر وقد ستر الله عليهم، أما إذا جاءت المحنة وجاءت الفتن فيجوز أنهم يخرجوا من الدين الإسلامي أو كثيرون منهم ـ نسأل الله العافية ـ، ولهذا إذا جاءت المحن والبلايا التي

يُبتلى بها الناس يظهر النفاق والكفر في كثير من الناس وتجد الذي يستقيم على الحق قليلاً وقد يكون محارب وهذا لا يضر.

فالمقصود أن العبد يجب أن يكون تمسكه واستدلاله بكلام الله جل وعلا وكلام رسوله ﷺ لا بكلام الناس، وكلام الله جل وعلا إذا تأمله العبد فإذا هو ظاهر لا خفاء فيه وكلما ردده يزيد ظهوراً وجلاءً فإذا مثلاً مررت بآية ولم تفهمها ترددها ثم ترددها ولكن مع التأمل فلا بد أن يظهر لك المعنى، فهذا أمر مجرب، فالآية تدل على وجوب تقديم محبة الله ومحبة رسوله ﷺ ومحبة طاعته وطاعة رسوله على أمور الدنيا كلها، وأن من لم يكن كذلك فهو فاسق، وهو متوعد بالعذاب.

والحب في هذه الآية وفي الآية التي قبلها هو حب القلب الحب الحقيقي، وليس كما يقول بعض الجهمية أنه الحب العقلي، يعني أنك إذا نظرت في عقلك وإذا العاقبة في طاعة الله وطاعة رسوله أحمد وأولى، فعقلك يدعو إلى أن تقدم ذلك، يعني تقدم طاعة الله وطاعة رسوله على آثار الدنيا وأمورها لأنهم ينكرون الحب الحقيقي ويقولون إن الحب هو الميل إلى الملائم، والميل إلى الملائم يجب أن يكون منزه عنه الله جل وعلا لأن هذا يدل على الحاجة، هكذا يزعمون فينكرون صفات الله جل وعلا على القياس الذي يقيسونه على أنفسهم يجعلون ذلك دليلاً؛ لأنهم لا يعرفون من الحب إلا ما يعرفون من أنفسهم فلهذا نفوه عن الله جل وعلا، والغريب أنهم ينكرون أن الحب من الجانبين يعني ينكر أن يحب الله جل وعلا وذلك أنهم يقولون أن الحب يكون بين متجانسين متوافقين فلا يجوز أن يكون بين خالق ومخلوق للفروق العظيمة فالله ليس كمثله شيء، فعلى هذا فهم ينكرون التأله، ينكرون أصل الإسلام ومعنى ذلك أيضاً أنهم لا يعرفون لا إله إلا الله، ولهذا لو نظرت في كتبهم من أولها إلى آخرها ما تجد فيها شيئاً من ذلك، بل كثيرون منهم يقول الإله القادر على الاختراع، فيجعل الإله بمعنى الرب يعني المتصرف وهذا ضلال بعيد.

❁ قال المؤلف رحمه الله: **وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين» أخرجاه**[١].

هذا في محبة الرسول ﷺ، ومحبة الرسول ﷺ تابعه لمحبة الله جل وعلا، فمحبة الله جل وعلا محبة تأله وذل وتعبد، وهذه المحبة تكون كاملة، وتكون ناقصة، فإذا أراد العبد أن يكملها فلا بد أن يأتي على أصولها وفروعها، وفروع محبة الله جل وعلا أن يحب ما يحبه الله جل وعلا، ويبغض ما يبغضه الله جل وعلا؛ لأنه لا يمكن اجتماع محبة ما يبغضه الله جل وعلا مع محبة الله جل وعلا فإن هذا ينافي هذا، فلا بد من موافقة المحب على ما يحب، توافقه في المحبة، وفي البغض والكراهة، فعل هذا تكون محبة الرسول ﷺ محبة لله وفي الله، وليست محبة مع الله لأن محبة المعية محبة مشاركة، والله جل وعلا لا يشاركه في المحبة أحد من الخلق، فإذا كانت المحبة يقصد منها النفع والطلب بالخضوع والذل فإنها محبة شرك إذا كانت لمخلوق، أما إذا كانت المحبة ليست إلا لأن الله يحب هذا الشيء أو يأمرك بحبه أو لأنه مطيع لله جل وعلا، فأنت تحب من يطيع ربك تكون هذه من فروع محبة الله جل وعلا يعني مما يتفرع عليها.

قوله: «لا يؤمن»: هنا «لا» للنفي يعني لا يحصل الإيمان لأحد حتى تكون محبة الرسول ﷺ مقدمة على محبة الخلق كلهم، حتى محبة نفسه يعني نفس الإنسان كما في حديث عمر رضي الله عنه لما قال للنبي ﷺ: يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي. فقال النبي ﷺ: **«لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك»**، فقال له عمر: فإنه الآن والله لأنت أحب إلي من نفسي. فقال النبي ﷺ: **«الآن يا عمر»**[٢]، يعني الآن وصلت إلى الواجب الذي يجب.

فالمنفي هنا الإيمان الذي تحصل به السلامة من العذاب، فإذا جاء نفي

---

(١) رواه البخاري رقم ١٥، ومسلم رقم ٤٤.

(٢) سبق تخريجه.

الشيء الواجب لأمر من الأمور التي لا يفعلها، فلا يمكن أن يكون نُفي من أجل أمر مستحب؛ لأن أمر الاستحباب لا ضابط له عند الناس، يعني في أفعالهم لا يمكن أن يكون أحداً من الناس مثلاً يأتي بالأمور على ما كان يأتي بها رسول الله ﷺ وكل ما أحسن العبد من العمل الزائد فهو يكون مستحباً، فلا بد أن يكون المنفي أمراً واجباً يُعاقب العبد بتركه، نقول هذا لأن كثيراً من الشراح يقولون: «لا يؤمن» الإيمان المستحب، الإيمان الكامل، فإذا كان الكمال المقصود به كمال الاستحباب فهذا باطل لأن المستحب لا يُعاقب العبد بتركه، ثم كما يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فمن قال أن المنفي هو الكمال فإن أراد أنه نفي الكمال الواجب الذي يذم تاركه ويتعرض للعقوبة فقد صدق، وإن أراد أنه نفي الكمال المستحب فهذا لم يقع قط في كلام الله ورسوله ولا يجوز أن يقع[1].

فلم يُعهد في كلام الله جل وعلا، وكلام رسوله ﷺ أنه ينفي شيئاً واجباً لانتفاء أمر مستحب فهذا لا وجود له، وذلك أن المستحب لا حد له، ولا يمكن أن العبد مثلاً يأتي بأعمال البر كما أتى بها رسول الله ﷺ بل لا يمكن أن يأتي بها كما أتى بها الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ، فعلى هذا الاستحباب بحسب ما يقوم في قلوب الناس فمنهم من يكون الإيمان عنده مثل الجبل، ومنهم من يكون ضعيفاً، والعمل تباعاً لذلك، ولهذا قالوا: ما فضلكم أبو بكر بكثرة صومٍ ولا صلاةٍ، ولكن بشيءٍ وقرّ في قلبه.

---

(١) مجموع الفتاوى ٧/ ١٥ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فأما إذا كان الفعل مستحباً في العبادة لم ينفها لانتفاء المستحب فإن هذا لو جاز لجاز أن ينفي عن جمهور المؤمنين اسم الإيمان والصلاة والزكاة والحج لأنه ما من عمل إلا وغيره أفضل منه وليس أحد يفعل أفعال البر مثل ما فعلها النبي، بل ولا أبو بكر ولا عمر، فلو كان من لم يأت بكمالها المستحب يجوز نفيها عنه لجاز أن ينفي عن جمهور المسلمين من الأولين والآخرين وهذا لا يقوله عاقل، فمن قال: أن المنفي هو الكمال فإن أراد أنه نفي الكمال الواجب الذي يذم تاركه ويتعرض للعقوبة فقد صدق وإن أراد أنه نفي الكمال المستحب فهذا لم يقع قط في كلام الله ورسوله ولا يجوز أن يقع فإن من فعل الواجب كما وجب عليه ولم ينتقص من واجبه شيئاً لم يجز أن يقال ما فعله لا حقيقة ولا مجازاً...

فالمقصود من «لا يؤمن» أن المنفي هو الواجب الذي إذا تركه العبد يكون معاقباً على تركه يعني أنه لم يؤمن الإيمان الذي ينجيه من العذاب، الإيمان الذي كلف به، ووجب عليه، وهذا يجب أن يكون مطرداً في كل نص يأتي عن الله وعن رسوله، فإذا صح الحديث: **«لا صلاة بغير طهور»**[(١)]، فهل يمكن أن يقال أنه نفي أمراً مستحباً لا يمكن، ومثل حديث: **«ولا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه»**[(٢)]، إذا صح الحديث هذا معناه أنه واجب وهكذا، أما أنه يقال أنه المستحب الذي لا يأثم العبد بتركه، فهذا لا يتأتى مع النفي الذي يُنفى به الأصل؛ لأن الأصل لا يُنفى لانتفاء مستحب، ويصح أن ينفي الشيء لانتفاء لوازمه أو انتفاء واجباته أو مقتضياته.

مع أن الظاهر نفي الإيمان جملة، أن العبد لا يوجد له إيمان حتى يكون الرسول ﷺ أحب إليه من الدنيا، ومن نفسه، وهذا الحب كما عرفنا تابع لمحبة الله جل وعلا وفرع عليها، فكيف بمحبة الله جل وعلا التي هي محبة التأله لا تقاس بهذا لأن هذه محبة لله وفي الله، والمخلوق لا يمكن أن يُحب لذاته، إنما يُحب لما يتصف به، ولا يوجد شيء يُحب لذاته إلا الله جل وعلا وحده، هو الذي يُحب لذاته، أما الخلق فهم يحبون لما يقوم بهم من الطاعات، ومن الصفات التي يتصفون بها، وإلا لا فرق بينهم، ولهذا يقول الله جل وعلا: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠].

وعلامة حب الله جل وعلا امتثال أمره، واتباع رسوله ﷺ كما قال

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم ٢٠٧١٤، وأبو داود رقم ٥٩ عن أبي المليح عن أبيه عن النبي ﷺ قال: **«لا يقبل الله ﷻ صدقة من غلول ولا صلاة بغير طهور»**، قال ابن حجر في فتح الباري ٣/ ٢٧٨: وإسناده صحيح. وهو عند مسلم رقم ٢٢٤ من حديث ابن عمر ولفظه: **«لا تقبل صلاة بغير طهور ولا صدقة من غلول»**.

(٢) أخرجه أحمد في المسند رقم ٩٤١٨، وأبو داود رقم ١٠١، وابن ماجه رقم ٣٩٩ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا صلاة لمن لا وضوء له، ولا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه»**.

جل وعلا: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝﴾ [آل عمران: ٣١]، وهذه هي آية المحنة كما جاء في حديث أنس ﷺ: أن أناساً ادعوا أنهم يحبون ربهم حباً شديداً فأنزل الله جل وعلا هذه الآية، امتحاناً واختباراً لهم.

وذكر ابن القيم كَلَلهُ أن محبة الله لها **أسباب منها:**

قراءة القرآن بالتدبر والتفهم، فإنها جالبة لمحبه الله جل وعلا بهذا الشرط بتدبر المعاني وتفهمها.

ومنها تأمل معاني أسماء الله جل وعلا وصفاته، والتفقه فيها، ومنها استشعار القلب بنعم الله جل وعلا وبفضله، فإن كل فضل من الله جل وعلا، وأعظم ذلك تفضله على العبد بأن جعله مسلماً. وكذلك كونه خلقه من لا شيء وجعل له السمع والبصر إلى غير ذلك، فنعمه جل وعلا كثيرة جداً، فيستشعر القلب بهذا لأن النعم تدعوا إلى المحبة.

ومنها انكسار القلب بين يدي الله جل وعلا ويقول: إن هذه أعجبها.

ومنها الخلوة وقت النزول الإلٰهي، وتلاوة القرآن، ثم ختم ذلك بالاستغفار، كما ذكر ذلك الله جل وعلا وذكره رسوله ﷺ.

ومنها مجالسة أهل المحبة الذين يُعينون على ذلك، ويدعون إليه.

ومنها مجانبة الأسباب التي تمنع المحبة وهي كثيرة مثل كثرة الكلام، وكثرة النوم، وكثرة الأكل، وكثرة مخالطة الناس، وكذلك كثرة النظر في الدنيا وتسريح الأنظار فيها والإعجاب بها وما أشبه ذلك.

منها التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض.

ومنها دوام ذكره على كل حال باللسان والقلب والعمل والحال فنصيبه من المحبة على قدر هذا[1].

---

(١) مدارج السالكين ٣/ ١٧ قال كلله: فصل في الأسباب الجالبة للمحبة والموجبة لها وهي عشرة: =

قوله: «أحب»: أفعل تفضيل، يعني أن يكون حب الرسول ﷺ زائداً على محبة هذه الأشياء كلها ومقدماً عليها وفي ذلك النفس.

قوله: «من ولده ووالده»: ذكر الوالد والولد لأن الغالب أن هؤلاء من الأعيان، وهم من أعظم المحبوبين وهم من الأعيان الموجودين ويتبع ذلك غيرهم من الأعيان، وكذلك من المعاني.

وقوله: «والناس أجمعين»: هذا فيه عطف العام على الخاص، وهذا كثير جداً، فقوله: «**الناس أجمعين**» يدخل فيه الولد والوالد وغيرهم.

= **أحدها**: قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به، كتدبر الكتاب الذي يحفظه العبد ويشرحه ليتفهم مراد صاحبه منه.

الثاني: التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض فإنها توصله إلى درجة المحبوبية بعد المحبة.

الثالث: دوام ذكره على كل حال باللسان والقلب والعمل والحال، فنصيبه من المحبة على قدر نصيبه من هذا الذكر.

الرابع: إيثار محابه على محابك عند غلبات الهوى والتسنم إلى محابه وإن صعب المرتقى.

الخامس: مطالعة القلب لأسمائه وصفاته ومشاهدتها ومعرفتها وتقلبه في رياض هذه المعرفة ومباديها، فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله أحبه لا محالة، ولهذا كانت المعطلة والفرعونية والجهمية قطاع الطريق على القلوب بينها وبين الوصول إلى المحبوب.

السادس: مشاهدة بره وإحسانه وآلائه ونعمه الباطنة والظاهرة فإنها داعية إلى محبته.

السابع: وهو من أعجبها، انكسار القلب بكليته بين يدي الله تعالى وليس في التعبير عن هذا المعنى غير الأسماء والعبارات.

الثامن: الخلوة به وقت النزول الإلهي لمناجاته وتلاوة كلامه والوقوف بالقلب والتأدب بأدب العبودية بين يديه، ثم ختمُ ذلك بالاستغفار والتوبة.

التاسع: مجالسة المحبين الصادقين والتقاط أطايب ثمرات كلامهم كما ينتقى أطايب الثمر ولا تتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام وعلمت أن فيه مزيداً لحالك ومنفعة لغيرك.

العاشر: مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله ﷻ.

فمن هذه الأسباب العشرة وصل المحبون إلى منازل المحبة ودخلوا على الحبيب وملاك ذلك كله أمران: ١ ـ استعداد الروح لهذا الشأن. ٢ ـ وانفتاح عين البصيرة وبالله التوفيق.

۞ قال المؤلف رحمه الله: ولهما عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار»(١).

قوله: «لهما»؛ يعني: البخاري ومسلم ـ رحمهما الله ـ.

قوله: «عنه»؛ يعني: أنس بن مالك رضي الله عنه.

قوله: «ثلاث»: من المعروف في النحو وفي اللغة، أن النكرة لا يُبدأ بها إلا بشروط: أن تكون موصوفة أو تكون مقيدة. والوصف يقيدها.

وهنا **«ثلاث»** هذه نكرة ولكنها على نية الإضافة يعني: ثلال خصال أو ثلاث خلال أو ثلاث معان، وما أشبه ذلك. فتكون موصوفة.

قوله: «من كنَّ»: هذه كان التامة التي لا تحتاج إلى اسم ولا إلى خبر؛ لأن كان الناقصة التي تدخل على المبتدأ والخبر فيكون الأول اسمها والثاني خبرها فلا بد لها من اسم وخبر، أما هذه التامة ومعناها وجُدن، ثلاث من وجدت فيه أو صرنا فيه.

وقوله: «وجد»: الوجود هنا يدل على أنه شيء يحس، وليس معنا من المعاني كما يقول أهل التأويلات الباطلة التي ينفون بها كلام رسول الله ﷺ وكلام الله جل وعلا، وذلك أن أصلهم في هذا نفي الصفات التي يتصف الله بها جل وعلا، التي يعرفونها هم من أنفسهم لأنهم تصوروا أن الصفات التي يوصف الله بها وهم يعرفونها من أنفسهم أن هذا تشبيه إذا أثبته لله صار الإنسان مشبهاً، ولهذا نفوا الحب لأنهم يقولون الحب هو الميل إلى الملائم تميل إلى ما يلائمك، ويناسبك وهذا يقتضي شيئين:

أحدهما: الحاجة.

الثاني: مماثلة الآخرين. وكلاهما لا يجوز أن يوصف الله جل وعلا

---

(١) رواه البخاري رقم ١٦، ومسلم رقم ٤٣.

بهما، هذا هو تعليلهم، وهو اعتمادهم على النفي وهذا باطل، وهو ظاهر البطلان لمن تأمله وذلك لأنهم جعلوا أنفسهم الأصل في هذا وبنوا على هذا الأصل الفرع الذي هو اتصاف الله جل وعلا بهذا فنفوها فهذا يدل:

أولاً: على أن التشبيه ارتسم في أذهانهم، ثم جاء التعطيل بناء على ذلك، تعطيل الله تعالى من صفاته.

والغريب أنهم نفوا عن الله جل وعلا الحب وصفاً له، وكونه أيضاً يُحب، وهذا أعجب من الأول كونهم ينفون أن العبد يحب الله، فإذا جاءت النصوص في الأعمال التي يُحبها الله قالوا أنها الطاعة يعني أن الله يحب الطاعة، أما بالنسبة للمخلوق فهم يفسرونها بالإثابة أنه يثيبه، يُحبه يعني يثيبه، ويعطيه ما يريد، أما حب ذاتي فهذا لا يثبتونه لأنه عندهم يقتضي المشابهة والتشبيه، وكل هذا ضلال بيِّن ظاهر، والمعنى أن هذا نفي لأصل الإسلام فكيف يكون العبد مؤمناً وهو لا يعرف هذا، وذلك أن أصل الإسلام هو التأله أن يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، ومعنى الإله هو المعبود، والعبادة هي الحب الذي يتضمن الذل والخضوع والتعظيم، فيُحبه خاضعاً ذالّاً معظماً له، ولهذا صار خاصاً بالله جل وعلا لا يجوز أن يكون لمخلوق من المخلوقين، فإن وجد بأن صُرف منه شيء للمخلوق فقد وقع في الشرك الأكبر، ولهذا يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ أن المتكلمين لا ينفكون عن الشرك. يعني أن الشرك ملازم لهم ما داموا ملازمين لأقوالهم.

قوله: «حلاوة الإيمان»: يدل دلالة ظاهرة على أن الإنسان يحس هذه الأشياء، يعني أنه يجد للإيمان حلاوة حقيقية.

والإيمان شبه بالشجرة الطيبة التي يكون أصلها ثابت ولها فرع يتجه إلى السماء، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥]، وهذه الكلمة كما قال المفسرون هي كلمه الإخلاص: لا إله إلا الله. وسواءً قلت كلمة الإخلاص، أو قلت الإيمان لا فرق، وهذه الشجرة لها ثمر فلا بد أن

يكون للإيمان ثمرة، والثمرة لها حلاوة، ولكن هذه الحلاوة قد يجدها العبد، وقد لا يجدها، فإن كان متحلياً بالإيمان الكامل وجد الحلاوة ولا بد، وأما إذا كان قلبه مشغولاً بأمور الدنيا وغيرها من محابها وملاذها فقد لا يجد هذه الحلاوة، ولا بد إذا كان الإيمان مستقراً أن يجد شيئاً منه ولو في فترة من الفترات، أما الاستمرار في وجوده وهذا لا يكون إلا للكمّل من المؤمنين، والعبد يُحس بهذا كثيراً، يجده في وقت من الأوقات عنده من المحبة لله جل وعلا، ومن الرغبة في الطاعة الشيء الذي ليس عنده قبل هذا، وقد لا يكون فيما بعد يعني يخرج من هذا الشيء، فالمقصود أن هذا أمر محسوس.

أما تفسير بعض شراح الحديث بأن هذه الحلاوة حلاوة عقلية بمعنى أنه يقدم في عقله طاعه الله على معصيته؛ لأنه يعرف بعقله أن ثمرة الطاعة الإثابة، والجزاء العظيم وترك الطاعة يترتب عليه العقاب، فهو مثل المريض الذي يقدم على الدواء وإن كان مكروهاً له، لما يعرف من عاقبته، وهذا تفسيرهم لهذا وهذا باطل، والرسول ﷺ يجب أن نعتقد عقيدة جازمة بأنه ﷺ أفصح الناس، وأبلغ الناس وأنصح الناس وأعلم الناس بالله جل وعلا، فإذا عبَّر بشيء يجب أن نقبله، ولا نذهب نؤوله بالأمور التي تخرج المعاني الظاهرة التي يخاطب الرسول ﷺ بها الناس، ومعلوم أن هذا معروف في اللغة وهو خاطبهم بلغتهم التي يعرفونها، وأما أن نقول أنه أراد الأمور العقلية فهذا خروج عن مقتضى الخطاب، والقرائن تدل على هذا.

فهذا الحديث يدل على أن الإيمان له حلاوة، وهي حلاوة حقيقية، ويدل على أنه ليس كل مؤمن يجد هذه الحلاوة وإنما يجدها من تحلى واتصف بهذه الصفات الثلاث وهي:

كون الله جل وعلا ورسوله ﷺ أحب إليه مما سواهما، وقوله: «**سواهما**» يدخل فيه كل المخلوقات، وهذا لا يقتضي التسوية بين حب الله، وحب رسوله وإنما يدل على أن محبة الله محبة تأله، وأن هذه المحبة يكون لها توابع وفروع فكون أن الرسول ﷺ أحب الخلق إليك وهو أنقذك الله جل وعلا به فضلاً من الله، فمحبة الرسول ﷺ تابعة لمحبة الله جل وعلا، فالمحبة مع الله شرك.

فمحبة الله جل وعلا، ومحبة رسوله ﷺ تكون مقدمة على جميع الأشياء مطلقاً، هذا إذا وصل الإنسان إلى الإيمان الذي فيه الحلاوة،أما إذا كان عنده مجمل الإيمان فإنه لا يجد الحلاوة.

قوله: «مما سواهما»: وفي هذا فيه إشكال أورده الشراح، وهو جمع الضمير ضمير الرسول ﷺ وضمير الله جل علا **«سواهما»**، لأنه جاء في صحيح مسلم عن عدي بن حاتم ﷺ: أن رجلاً خطب عند النبي ﷺ فقال: من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى. فقال رسول الله ﷺ: **«بئس الخطيب أنت قل ومن يعص الله ورسوله»**(١).

فأنكر عليه جمع الضميرين، وفي هذا الحديث وقع جمع الضميربن بين ضميره وضمير ربه جل وعلا، أجاب العلماء عن هذا **بثلاثة أجوبة**:

أحدها: أن هذا الحديث لا يساوي الحديث الذي في مسلم حديث عدي، وليس لا يساويه في الصحة، لكن لا يساويه في المعنى، لأن هذا في الشيء الواجب، ومحبة الله جل وعلا داعية لمحبة الرسول ﷺ فهي فرع عليها.

يعني محبة الرسول ﷺ، أما المعصية فكل واحدة منها مستقلة بالهلاك يعني معصية الله كافية في كون الإنسان هالك، ومعصية الرسول ﷺ كافية في كون الإنسان هالك، فالجمع بينهما في الضمير في مثل هذا لا لزوم له، وأنه يشعر أنه إذا وقعت المعصية لأحدهما أن هذا لا يكفي وهذا باطل، وقد يكون هذا هو وجه الإنكار.

الجواب الثاني: قيل أن هذا من باب الأدب، يعني الإنكار عليه من باب الأدب تعظيماً لله جل وعلا يعني حديث الخطيب، وأن هذا الحديث يدل على الجواز.

الجواب الثالث: أن هذا على الأصل يعني أن الجمع على الأصل وما في حديث مسلم حديث الخطيب ناقل عنه فيجب أن يُصار إليه فلا يجمع بين

---

(١) رواه مسلم رقم ٨٧٠.

قوله: «بعد إذ أنقذه الله منه»: يدل على أنه عرف الكفر، وأبغضه بعد المعرفة، فهو يبغضه أشد البغض لأنه أنقذه منه ودخل فيه الإيمان الذي هو ضده، وفي ضمن هذا معاداة للكافرين، وبغضهم وجهادهم لأنه إذا كان الكفر مبغض فمن تحلى به فيجب أن يبغض ويكره ويعادي كما قال الله جل وعلا عن خليله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤]، ثم استثنى الله جل وعلا من التأسي: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [الممتحنة: ٤]؛ يعني: لا تتأسون به وهو كونكم تدعون للمشركين فهذا لا يجوز، وقد بين الله جل وعلا أن هذا وقع من إبراهيم ﷺ وفاءً للوعد الذي وعده إياه: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة: ١١٤].

فالبراءة من الكفر، ومعاداته أمر لا بد منه للمؤمن، أما إذا فُقد، فُقد الإيمان، وقد قال الله جل وعلا: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة: ٢٢]، فأثنى على الصحابة الذين بعضهم قتل أباه وبعضهم حاول قتله، وفي الآية الأخرى يقول جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة: ٥١]، وقال في الآية الأخرى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [المائدة: ٥٧]، فهذا شرط يدل على انتفاء الإيمان إذا كان العبد يتولهم، والتولي هو النصرة والمساعدة والمحبة، كونه يحبهم أو يساعدهم، أو يحب أفعالهم، فإذا وقع العبد في شيء من ذلك، فقد وقع في الكفر ـ نسأل الله العافية ـ.

وقوله: «كما يكره أن يقذف في النار»: وهذا من أشد المكاره لأن ألم النار لا يشابهه الآلام الأخرى، فهو صعب جداً، وهذا غاية ما يُمثل به لنا، من الشيء الموجود لنا، وإلا فالأمر فوق هذا فالمؤمن إذا تحلى بالإيمان حقيقة يستحلي قذفه في النار مقابل كونه يكون كافراً، ولا يبالي في ذلك ولهذا لو منع من عبادة الله جل وعلا ربما يموت لأنه عنده حب الله وحب طاعته أعظم من ذلك.

فإذا تحلى العبد بهذه الخصال يكون علامة على أنه يجد حلاوة الإيمان، وحلاوة الإيمان هل هي حلاوة الطاعة أو هي أمر زائد على هذا؟

بلا شك أن المؤمن أنه يستحلي طاعة الله جل وعلا ويتلذذ بها، فلو منع مثلاً من الصلاة يمكن أن يموت حسرة على ذلك يعني لو منع قهراً، وهكذا يكون حبه لله جل وعلا، وهذا لأن الله جل وعلا أوجب عليه ذلك فهو يحب ما أوجبه الله جل وعلا عليه، كما في أسباب الحب، فإن من أسباب الحب ما جاء في الحديث الصحيح: **«وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه»**[1]، فهو يتقرب إلى الله جل وعلا بالنوافل بعد أداء الفرائض، فيكون هذا سبباً لحب الله جل وعلا، والسبب أنه أحب هذا أولاً، والتحبيب الذي يكون في قلبه نعمة من الله جل وعلا، فهو دائماً يستشعر في قلبه أنه عبد لله جل وعلا مملوك تفضل الله جل وعلا بكل شيء، وأنه ليس له على الله أيُّ استحقاق أو أيُّ فضل، بل الفضل لله جل وعلا كله، فإذا شكر فهي نعمة، وإذا أطاع فهي نعمة، فإذا وجد في قلبه حب الخير فهي نعمة، وكل نعمة تقوده إلى شكر وإلى نعمة أخرى.

❁ **قال المؤلف رحمه الله: وفي رواية: «لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى...» إلى آخره**[2].

---

(١) رواه البخاري رقم ٦٥٠٢ من حديث أبي هريرة.

(٢) رواه البخاري رقم ٦٠٤١.

قوله: «وفي رواية»: هذه الرواية أخرجها البخاري في كتاب الأدب من صحيحه.

المقصود في ذكر هذه الرواية أنها تفسر الرواية التي قبلها لأنه قال في الأولى: «من كن فيه وجد» وهنا قال: «لا يجد» نفي لوجود حلاوة الإيمان، فالأولى فيها إثبات والثانية فيها النفي، فالعبد لا يجد حلاوة الإيمان إلا بهذه الأشياء، فهذا ليس لكل أحد، فكثير من المسلمين ليست عنده هذه الصفات، فمعنى ذلك أنهم لا يجدون حلاوة الإيمان ليس عندهم للإيمان حلاوة، وبهذا يتبين تفاوت المؤمنين بالإيمان.

وعليه يتبين أن الإيمان يزيد وينقص، فقد ينقص حتى لا يبقى منه إلا قليلاً فيضعف، وإذا كان يزيد وينقص فزيادته ونقصانه بالأعمال، وأعمال القلوب، وأعمال الجوارح، وأعمال الجوارح يدخل فيها القول، النطق بشهادة أن لا إله إلا الله وغير ذلك من تلاوة القرآن وذكر الله واستدامته، وهذا أيضاً من دواعي حب الله جل وعلا، وزيادة الإيمان، كما أن كثرة الأعمال أيضاً من دواعي حب الله جل وعلا كما سمعنا في الحديث الذي في الصحيح: «**لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه**»، وهذا أصل عظيم اتفق عليه أهل السُّنَّة وإنما خالفهم المبتدعة قديماً وحديثاً الذين تبنوا الإرجاء ففصلوا العمل عن الإيمان وهو أمر ظاهر البطلان، ولكن النفوس إذا كان لها هوى فإنها لا ترى إلا ما تريد ولو جاءتها كل آية ما قبلت، وربما يرمون الناس الذين يأتون بالأدلة بأنهم إما جهلة أو لا يفهمون، أو أن لهم أغراض، مع أن الأغراض لهؤلاء أصحاب الأهواء الذين لا يقبلون إلا ما يرون أنه طريقهم وأنه مذهبهم.

وقوله: «لا يجد»: هذا لا يدل على أن كون الحلاوة منفية عن العبد أنه ليس بمؤمن، ولكن يدل على أنه واقع في معصية وناقص الإيمان، وأنه مستحق للعقاب إلا أن يتوب الله عليه ويعفو عنه.

۞ قال المؤلف رحمه الله: وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: من أحب في الله وأبغض في الله، ووالى في الله، وعادى في الله، فإنما تنال ولاية الله بذلك. ولن

يجد عبد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك، وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا، وذلك لا يجدي على أهله شيئاً. (رواه ابن جرير)[(١)].

قوله: «من أحب في الله»؛ يعني: صار حبه من أجل محبة الله، ومن أجل أنه مطيعاً لله جل وعلا، والمحبة تقتضي الموالاة والنصرة، وكونه معه يساعده، ويدعو له، ومعلوم أن المسلمين هذه صفتهم، المسلم يحب أخاه المسلم ويدعو له ويناصره ويساعده.

قوله: «وأبغض في الله»: يبغض الكفر، ثم المعاصي ومن اتصف بهما، مهما كان هذا الشخص وقربه منه يبغض، وهذا بحسب ما يكون في الإنسان من ذلك، فبغض الكفر بغض أعظم وأشد والمعصية تكون أقل، وكل ما كانت المعصية أقل صار بغضه أقل، وذلك لأن بغضه يكون تبعاً لطاعة الله جل وعلا، ولا يمكن أن يكون العبد محباً لربه جل وعلا ثم يحب من يعادي ربه هذا لا يمكن، ولهذا نُفي الإيمان عن الذين يتولون الكافرين، فلا يمكن أن يجتمع هذا أصلاً.

فهو يحب الناس لأنهم يحبون الله، ويبغض الناس سواءً أقرباء أو بُعداء عنه، لأنهم يعصون الله جل وعلا.

قوله: «ووالى في الله»: الموالاة هي النصرة، والإكرام، والتقدير، أن ينصره ويكرمه، ويكون معه، وفي ضمن ذلك المحبة، يعني يحبه. وتكون الموالاة لله جل وعلا، يعني نصرته وإكرامه وتقديره من أجل أنه مطيع لله جل وعلا.

وقوله: «وعادى في الله»: المعاداة ضد الموالاة، فهي بغضه وكراهيته وجهاده باللسان وباليد، وهذا يختلف باختلاف المعصية فقد يكون فاسقاً، وقد يكون كافراً، وكل واحد يُعادي على قدر ما عنده، والمقصود أن معاداته

---

(١) تعظيم قدر الصلاة للمروزي رقم ٣٩٦، والطبراني في الكبير رقم ١٣٥٣٧ عن ابن عمر، قال في مجمع الزوائد ١/ ٩٠: رواه الطبراني في الكبير، وفيه ليث بن أبي سليم والأكثر على ضعفه.

تكون لله جل وعلا لا تكون لدنيا ولا لأهواء النفس ولا لأنه على مذهبه وإنه يناصره في قوله، أما هذا فكله يكون من الشيطان وهو من الذين أخبر الله جل وعلا أن مؤاخاتهم ومودتهم تنقلب عليهم عذاباً وعداوة: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: ٦٧]، المتقون هم الذين يتآخون في الله، ويتناصرون فيه على طاعته، وقد يتوهم العبد أنه هو المطيع، وأن من عداه عاص لله جل وعلا، فإذا كان ذلك عن جهل فيمكن علاجه، أما إذا كان عن هوى فهذا علاجه بعيد جداً؛ لأنه يصبح عابداً لهواه ـ نسأل الله العافية ـ وعبادة الهوى من أكبر ما يصد عن طاعة الله جل وعلا وعن عبادته: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية: ٢٣].

هذه من أعظم المصائب، والغالب أن العبد إذا كان بهذه الصفة فإنه لا يهتدي بل ينتقل من ضلالة إلى أخرى، لأن الله يقول: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠]؛ يعني: جزاء أنهم ردوا الحق أول مرة قلبت أفئدتهم، يعني قلوبهم وأبصارهم فيرون الحق باطلاً والباطل حقاً، يقول الله جل وعلا: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ﴾ [الصف: ٥]، فالأمر خطير جداً يعني كون العبد يرد الحق فيه خطورة عظيمة أن يعاقب بتقليب القلب وإزاغة البصر.

والمقصود أن الموالاة والمعاداة يجب أن تكون لله جل وعلا ليس لأجل الدنيا أو لأجل المذاهب والمناصرات من كون الإنسان يقدم له نفعاً أو يقدم له نصرةً على باطل أو على غيره.

ولهذا قال: «**فإنما تنال ولاية الله بذلك**»: ولاية: بفتح الواو، وإذا كسرت الواو صارت الإمارة وتولية الشيء.

يعني: لا يصير العبد ولياً لله جل وعلا إلا إذا كان بهذه الصفة، وأولياء الله هم المتقون الذين آمنوا واتقوا، وهؤلاء هم أولياء الله كما قال الله جل وعلا: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣].

وقوله: «ولن يجد عبد طعم الإيمان»: يدل على أن الإيمان له طعم، كما سبق في الحديث أن له حلاوة، وأنها توجد وقد لا توجد، وهذا الطعم هو طعم الحلاوة وذلك استمرائه طاعه الله جل وعلا والتلذذ بها تبعاً لمحبة الله جل وعلا، وكذلك يتحمل الأذى في طاعة الله كما حدث لحارس رسول الله ﷺ عند مرجعه ﷺ من غزوة ذات الرقاع، في حديث جابر بن عبد الله: أنه قام يصلي وأتى المشرك فلما رأى شخص الرجل عرف أنه ربيئة القوم فرماه بعدة أسهم وهو ثابت لأنه كان يقرأ آيات كره أن يقطعها، فقال صاحبه: سبحان الله ألا أهببتني؟ قال: كنت في سورة أقرؤها فلم أحب أن أقطعها حتى أنفذها، وأيم الله لولا أن أضيع ثغراً أمرني رسول الله ﷺ بحفظه لقطع نفسي قبل أن أقطعها أو أنفذها»[1]، فانظر كيف تحمل الآلام الشديدة استلذاذاً لخطاب الله جل وعلا وتلاوة كلامه.

قوله: «وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك»؛ يعني: أن كثرة العمل ليس دليلاً على المحبة، وليس دليلاً على ذوق الإيمان، وإنما هذا شيء يقع بهذه الأمور أن يكون قلب العبد محباً لله، وتكون هذه المحبة لها فروعها ولها أصولها، فأصلها حب الله جل وعلا ثم الموالاة على ذلك والمعاداة عليه.

قوله: «وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على الدنيا وذلك لا يجدي على أهله شيئاً»: هذا بعد ذهاب وقت الخلفاء الراشدين، وابن عباس لما توفي رسول الله ﷺ لم يبلغ الحلم فهو قد قارب الخمسة عشر سنة، وإنما عاش في زمن الخلفاء عيشة الرجال، يعني أن الأمور تغيرت بعد زمن الخلفاء الراشدين فكيف بزمن الرسول ﷺ الذي يقول الله فيه عن ذلك المجتمع: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝﴾ [الحشر: ٩]، وفي حديث ابن عمر يقول: لقد رأيتنا وما

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم ١٤٧٠٤.

صاحب الدينار والدرهم بأحق من أخيه المسلم[١]. هذا في عهد النبوة.

ابن عباس يقول: «صارت المؤاخاة على أمور الدنيا» مؤاخاتهم؛ يعني: نصرتهم ومساعدتهم.

قوله: «وهذا لا يجدي على أهله شيئاً»؛ يعني: لا ينفع عند الله.

واليوم صارت مؤاخاة الناس على المعاصي والخناء والفجور وما أشبه ذلك، ليس على أمر الدنيا فقط على معاصي الله جل وعلا، انعكست الأمور تماماً، فهذا من أكبر أسباب العذاب ـ نسأل الله العافية ـ وهذا كله يدل على غربة الإسلام، وقد وقع ما أخبر به الرسول ﷺ: **«بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ»**[٢].

فالعبد يجب ألا يغتر بكثرة الناس وكونهم يُجمعون على شيء، يجب أن يحذر ويسبر الأحوال، وينظر في الأدلة، ولا يتعجب من كون فلان ضل أو ترك الأمر وقال كذا وكذا؛ لأن الأمر بيد الله جل وعلا.

❁ **قال المؤلف رحمه الله: وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾** [البقرة: ١٦٦]**، قال: المودَّة**[٣].

يعني يوم القيامة؛ يعني: الأسباب التي كانت بينهم الصلة والتناصر والتعاون؛ لأنها ليست لله جل وعلا، وكل ما هو لغير الله فهو باطل ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]، والشيء الذي يراد به وجه الله هو الذي يبقى ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ۝٦٧﴾ [الزخرف: ٦٧]، فبدل المودة والتناصر تصبح بغض ولعن، كل يلعن الآخر، فكل واحد يرى أن

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم ٥٥٦٢، والطبراني في الكبير رقم ١٣٥٨٣، وابن أبي شيبة رقم ٢٦٧٠٥، والبخاري في الأدب المفرد رقم ١١١. قال في مجمع الزوائد ٢٨٥/١٠: رواه الطبراني بأسانيد وبعضها حسن.

(٢) رواه مسلم رقم ١٤٥ من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ غريباً فطوبى للغرباء»**.

(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره رقم ٢٤٢٣، والحاكم في المستدرك رقم ٣٠٧٦ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

الآخر هو السبب في إضلاله، وهذا من تمام العذاب لأنهم يجتمعون في النار، وكلٌّ يلعن الآخر كما قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [العنكبوت: ٢٥].

هذه الحقيقة تكون هكذا، والأوثان هنا ليست مجرد الأصنام التي يصنعها الإنسان بنفسه ثم يعبدها، بل قد تكون بعضهم لبعض، الرجل قد يكون وثناً للآخر بحيث يطيعه في معصية الله جل وعلا، أو يترك ما هو طاعة الله جل وعلا اتباعاً له فيكون يتخذه معبوداً من دون الله جل وعلا، فإذا كان يوم القيامة تنقلب هذه الأمور حسرات على أصحابها وعذاب، لأن العذاب والشر كله يجمع في جهنم ـ نسأل الله العافية ـ.

وإذا كان الحب مثلاً في هذا الأمر يعني في أمور الدنيا وغيرها كل ما هو خارج عن طاعة الله جل وعلا ينقلب على الإنسان حسرات وعذاب، فيجب على العبد أن لا يضيع وقته في الأمور التي تجلب له عذاب الله جل وعلا، يجب أن يتفقد حاله لأنه إذا لم يهتم هو بنفسه فغيره لن يهتم به.

۞ قال المؤلف رحمه الله: فيه مسائل:

۞ الأولى: تفسير آية البقرة.

التفسير المقصود به هو ما دل على المراد الذي أراده، أن هذا دليل على هذا الشيء، يعني أن آية البقرة تدل على وجوب محبة الله وحده، وأن يخلص له بالعبادة فيكون هذا هو تفسيرها.

۞ الثانية: تفسير آية براءة.

وكذلك آية براءة تدل على أنه يجب أن تقدم طاعة الله على كل أمر من أمور الدنيا.

فالمقصود بالتفسير هو المناسبة من هذه الآية وليس المقصود تفسير مفردات وتفسير كل ما يتعلق بالآية. وهذا يقال في كل ما يذكره في قوله تفسير الآية.

❁ الثالثة: وجوب تقديم محبته ﷺ على النفس والأهل والمال.

يعني أن هذا أمر فرض، من أمور الإيمان لا بد منه، ولهذا نفى رسول الله ﷺ الإيمان لمن لم يكن كذلك.

❁ الرابعة: نفي الإيمان لا يدل على الخروج من الإسلام.

ولكنه يكون دالاً على ترك واجب يعذب عليه العبد، ولا يجوز أن يكون دالاً على نفي مستحب لا يعاقب عليه.

❁ الخامسة: أن للإيمان حلاوة قد يجدها العبد وقد لا يجدها.

إذا عمل الإنسان على مقتضى ذلك وجدها ولا بد، وإذا كان مقصراً لا يجدها هذا هو المقصود، فالمؤمن قد يجدها وقد لا يجدها ليس الإنسان مطلقاً يعني أهل الإيمان، وهذا يدل على التفاوت العظيم بينهم، ولذلك تتفاوت منازلهم في الآخرة.

❁ السادسة: أعمال القلب الأربع التي لا تنال ولاية الله إلا بها، ولا يجد أحد طعم الإيمان إلا بها.

أعمال القلب، هذا يبين لنا أن الأعمال من الإيمان لأن الحب عمل قلبي، وكذلك المعاداة والموالاة، وكذلك حب الإيمان عمل قلبي، فالأعمال القلبية كثيرة جداً فهي داخلة مع الإيمان الذي هو العقيدة عقيدة القلب، ولهذا بعض العلماء يقسم أعمال القلب إلى أقوال وأعمال، يقول: أقوال القلب، وأعمال القلب. فأقواله هي الأشياء التي يعقد عليها العزم ويصمم عليها وتكون مستقرة عنده. والأعمال التي قد تزيد وتنقص مثل الخوف والخشية والرجاء... إلخ.

❁ السابعة: فهم الصحابي للواقع: أن عامة المؤاخاة على أمر الدنيا.

يعني: الواقع في زمانهم، أما في ما بعد وفي هذا الزمن صارت الأمور أعظم بكثير مما ذكر ابن العباس رضي الله عنهما، صارت الموالاة والمؤاخاة على الكفر والمعاصي والفسوق ـ نسأل الله العافية ـ.

۞ **الثامنة: تفسير: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾.**

يعني: أن الأسباب هي المودة، هذا المقصود، وإلا قد يكون أمور أخرى تدل عليها الآية أكثر من هذا، لكن المقصود أن الأسباب هي المودة التي بينهم يتعلقون بها في الدنيا تتحصل لهم المنافع بأسبابها «تقطعت» يعني انتهت فهي لا تجدي شيئاً، والواقع أنها انقلبت عداوة، فبعضهم يكفر ببعض وبعضهن يلعن بعضاً.

۞ **التاسعة: أن من المشركين من يحب الله حباً شديداً.**

لأنه قال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] فأثبت أن المشركين يحبون الله ولكنهم يحبون أندادهم مثل حب الله، ومحبتهم لأندادهم أنهم يُقاتلون دونها، وأنهم يقدمون لها القرابين ويعكفون عندها ويستغيثون بها ويزعمون أنها تتوسط لهم عند الله جل وعلا، فهذا حب عظيم ولكنه حب تأله، وحبهم لله لا يجدي شيئاً لأنه شرك، والشرك معناه أن يشرك الخالق مع المخلوق فيما هو واجب له، حقه يوزع بينه وبين المخلوقين، وهذا أعظم الذنوب ـ نسأل الله العافية ـ وصاحبه إذا مات عليه يكون خالداً في النار.

۞ **العاشرة: الوعيد على من كانت الثمانية أحب إليه من دينه.**

التي ذُكرت في سورة براءة، من الدنيا كلها، إذا كانت أحب إليه من الجهاد في سبيل الله ومن طاعة الله فمعنى ذلك أنه ظالم بل فاسق، والفاسق هو الذي خرج عن طاعة الله جل وعلا، وقد يقول قائل: أكثر المسلمين على هذه الصفة هل كلهم يكونون فسقة؟

نقول: إن معنى هذا ليس الأصل، يعني أكثر المسلمين بهذه الصفة، ولكنهم ما داموا في عافية وفي ستر من الله جل وعلا وماتوا على ذلك فيُرجى لهم خير، ولكن لو ابتلوا ـ الذين هذه صفتهم ـ ابتلوا بمن يشككهم، أو ابتلوا بوجوب القتال أو ما أشبه ذلك ما فعلوا، فوقعوا إما في الكفر أو وقعوا أيضاً في الانتكاس حتى ينتقلوا من حالة إلى أسوء منها، وربما يُخشى أنهم ينتقلوا

إلى نفاق أو ينتقلوا إلى ارتداد لضعف الإيمان عندهم فهذه أكثر حالة الناس على هذا المنوال ـ نسأل الله العافية ـ يعني ما تجد الذي يقدم القتال وحب القتال والجهاد في سبيله على أمور الدنيا إلا قلة من الناس، ومعنى ذلك أن الدنيا صارت أحب إليهم مما ذُكر في هذه الآية، هذا أمر فظيع في الواقع ومخيف، غير أنهم إذا لم يحصل لهم فتنة وماتوا على ستر الله جل وعلا فيرجى لهم خير لأنهم ماتوا مسلمين، ومن مات مسلماً فمآله إلى الجنة وإن حصل له ما حصل.

۞ الحادية عشرة: أن من اتخذ نداً تساوي محبته محبة الله فهو الشرك الأكبر.

وهذا مطلق، في أيّ ند اتخذه.







الباب الثاني والثلاثون

قال المؤلف رحمه الله: باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٧٥﴾ [آل عمران: ١٧٥].

لما ذكر المحبة في الباب السابق، ناسب أن يذكر الخوف هنا لأن هذين الأمرين من أركان الإيمان؛ لأنه مبني على الحب والخوف ولا بد منهما، فهو أراد أن يبين أن الخوف عبادة يجب أن يخلص لله جل وعلا، فهو من أفضل العبادات؛ ولهذا ترجم بهذه الآية التي تدل على المقصود، ومفهوم الآية أنه إذا لم يحصل من العبد خوف الله جل وعلا أن الإيمان منتف.

جاء في سبب نزول هذه الآية، أنه لما انقضت غزوة أُحد وانصرف المشركون، فظن المسلمون أنهم قصدوا المدينة لإحراز الذراري والأموال، فشق ذلك عليهم، فقال النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «**اخرج في آثار القوم فانظر ماذا يصنعون وماذا يريدون، فإن هم جنبوا الخيل وامتطوا الإبل، فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة، فوالذي نفسي بيده لئن أرادوها، لأسيرن إليهم ثم لأناجزهم فيها**».

قال علي: فخرجت في آثارهم، انظر ماذا يصنعون، فجنبوا الخيل، وامتطوا الإبل ووجهوا إلى مكة، ولما عزموا على الرجوع إلى مكة أشرف على المسلمين أبو سفيان ثم ناداهم: موعدكم الموسم ببدر، فقال النبي ﷺ: «**قولوا: نعم قد فعلنا**»، قال أبو سفيان: «فذلكم الموعد»، ثم انصرف هو وأصحابه، فلما كان في بعض الطريق، تلاوموا فيما بينهم، وقال بعضهم لبعض: لم تصنعوا شيئاً، أصبتم شوكتهم وحدَّهم، ثم تركتموهم وقد بقي منهم رؤوس يجمعون لكم، فارجعوا حتى نستأصل شأفتهم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فنادى في الناس وندبهم إلى المسير إلى لقاء عدوهم وقال: «**لا يخرج معنا إلا من شهد القتال**»، فقال له عبد الله بن أبي: أركب معك؟ قال: «**لا**»، فاستجاب

له المسلمون على ما بهم من القرح الشديد والخوف، وقالوا: سمعاً وطاعةً. واستأذنه جابر بن عبد الله، وقال: يا رسول الله إني أحب ألا تشهد مشهداً إلا كنت معك وإنما خلَّفني أبي على بناته، فأْذن لي أن أسير معك، فأذن له، فسار رسول الله ﷺ والمسلمون معه حتى بلغوا حمراء الأسد، وأقبل معبد بن أبي معبد الخزاعي إلى رسول الله ﷺ فأسلم، فأمره أن يلحق بأبي سفيان، فيخذِّله، فلحقه بالروحاء، ولم يعلم بإسلامه. فقال: ما وراءك يا معبد؟ فقال: محمد وأصحابه قد تحرفوا عليكم، وخرجوا في جمع لم يخرجوا في مثله. وقد ندم من كان تخلف عنهم من أصحابه، فقال: ما تقول؟ فقال: ما أرى أن ترتحل حتى يطلع أول الجيش من وراء هذه الأكمة. فقال أبو سفيان: والله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصلهم. قال: فلا تفعل، فإني لك ناصح، فرجعوا على أعقابهم إلى مكة، ولقي أبو سفيان بعض المشركين «ركب من عبد القيس» يريد المدينة فقال: هل لك أن تبلغ محمداً رسالة، وأوقر لك راحلتك زبيباً إذا أتيت إلى مكة؟ قال: نعم. قال: أبلغ محمداً أنا قد أجمعنا الكرة لنستأصله ونستأصل أصحابه، فلما بلغهم قوله قالوا: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[1].

فأنزل الله قوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣ ـ ١٧٥].

قوله: «﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾»؛ يعني: يخوفكم بأوليائه، فيخوف تتعدى إلى مفعولين، المفعول الأول محذوف تقديره «يخوفكم» والثاني «من أولياءه»، والمعنى: أن الخبر الذي جاءهم، أو التوعد الذي جاءهم من الشيطان الذي يرسل به الكفار الذين هم أولياءه، فهو يُعظمهم في صدوركم ويقول إنهم عندهم قوة، وقد جمعوا الجموع، وأنهم عندهم كثرة وهذا عام في كل باطل يكون أمام الحق، ولا يزال هذا في الأمة منتشراً، ولا سيما في

(١) زاد المعاد ٣/ ٢١٦ ـ ٢١٧.

هذه الأوقات، فتجد مثلاً المسلمين يخافون من الكفار كثيراً بمجرد كلام يرسلونه، فتجدهم يقولون عندهم القوات، وعندهم، وعندهم، فيرجعون عن أشياء كثيرة واجبة من أجل قول الكافرين، وهذا يدل على ضعف الإيمان أو كون الإيمان مفقوداً ـ نسأل الله العافية ـ، ولهذا جاء النهي قال: «فلا تخافوهم» وهذا أمر حتم على المسلم أنه لا يخاف من هؤلاء.

وقوله: «﴿وَخَافُونِ﴾»؛ يعني: ليكن خوفكم من الله، فاجعلوا الخوف كله لله جل وعلا، فإذا خفتم من الله فإن المخلوقين كلهم يتصرف فيهم، نواصيهم بيده جل وعلا، فمن كان خائفاً لله، فإنه لا يخاف المخلوق، وإذا خاف الإنسان من الله فإنه لا بد أن يتمثل أمره ويجتنب نهيه، فهذه ثمرة الخوف، ونتيجته، أن يفعل ما أمر به ويجتنب ما نهى عنه.

والذي أمر به هو محاربة الشيطان وحزبه، فلا بد أن يحاربهم ويعاديهم ويظهر لهم أنه عدو لهم، وحرباً عليهم.

ولكون هذا أمر حتمي بيَّن ذلك بقوله جل وعلا: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ هذه شرطية، يعني إن كان عندكم إيمان فلا بد أن تكونوا على هذه الصفة يعني: تخافون الله ولا تخافونهم، وبهذا يتبين أن الخوف ركن في الإيمان ويجب إخلاصه لله جل وعلا.

وإذا لم تكن هذه العبادة مخلصة لله جل وعلا يكون التوحيد إما منتفياً كما تدل الآية عليه هنا ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، وإما أن يكون ناقصاً، النقص الذي يعذب الإنسان عليه.

والخوف يقسمه العلماء إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: خوف السر يعني خوف الذل والتعظيم، وإن شئت تقول خوف العبادة. والسر معناه: أن تخافه خوفاً غيبياً، كما يخاف الإنسان ممن هو غائب عنه من ميت أو بعيد أو ما أشبه ذلك، بأن يوقعه في محذور، فهو يخافه أن يصيبه بشيء ليس بمجرد مقابلة بضرب أو سلاح، ولكن بأمر معنوي غائباً عنك الآن، تقول أنه من الأولياء مثلاً وله قوة وله إرادة، أو أن الله أعطاه هذا الشيء، فإذا خالفه مخالف أصابه إما بمرض أو بعذاب لا يكون

سببه ظاهراً، ولهذا سموه خوف السر، يعني أمر خفي، وهذا لا يجوز أن يقع إلا من الله جل وعلا، وإذا صُرف إلى مخلوق فهو شرك أكبر، فإنه يجب أن يكون لله خالصاً.

مع أن هذا هو الموجود في المشركين قديماً وحديثاً، فقديماً كان المشركون يُخوفون الرسل بمعبوداتهم، كما قال الله جل وعلا عن هود عليه السلام: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝﴾؛ يعني: بخبل في عقلك فصرت تتكلم هذا الكلام الذي فيه مخالفة الجميع، ولهذا قال: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [هود: ٥٤] فتحداهم أن يصيبوه بشيء، وهكذا قالوا لخاتم الرسل: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [الزمر: ٣٦]؛ يعني: بالمعبودات التي يعبدونها من دون الله.

وأمره أيضاً أن يتحداهم مثل ما تحدتهم الرسل الذين من قبله، قال الله جل وعلا: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۝﴾ [الزمر: ٣٦]، ثم قال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ۝﴾ [الزمر: ٣٨]؛ يعني: أنها لا تملك شيئاً ولا تستطيع أن تضر، ولا تستطيع أن تنفع لأنها أموات أو إنها جمادات، أو إنها مرتهنة في قبورها بأعمالها مدفونة بالتراب والأحياء أقدر على الأذى والنفع منها، وإنما هي دعاوى.

فهذا الخوف ينافي التوحيد، إذا وقع من مخلوق لمخلوق فقد ذهب بالتوحيد من أصله ويكون صاحبه مشركاً الشرك الذي لا يغفر إلا بالتوبة منه، ومن مات عليه فهو في النار ـ نسأل الله العافية ـ، فهذا القسم يجب أن يخلص لله جل وعلا، فلا يخاف الإنسان إلا ربه جل وعلا، هو الذي على كل شيء قدير، وهو الذي قلوب العباد بين إصبعين من أصابعه يقلبهما كيف يشاء، وهو الذي إذا أراد شيئاً يقول له كن فيكون ـ جل وعلا ـ أما المخلوق

فلا يملك من ذلك شيئاً، مهما كان سواء كان نبياً أو ولياً أو حتى ملكاً من الملائكة، لا يملك شيئاً من دون الله، فإذا توكل الإنسان على ربه جل وعلا وخافه وحده، لو كادته السماوات ومن فيها، والأراضون ومن فيها ما وصلوا إلى أذاه إذا توكل على الله حق توكله ولهذا الأنبياء يتبرؤون من ذلك.

القسم الثاني: من ثمرات هذا الخوف، وهو الخوف من عذاب الله جل وعلا: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۝٤٦﴾ [الرحمٰن: ٤٦]، وقوله جل وعلا: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠﴾ [النازعات: ٤٠]، وذكر هذا النوع في كتاب الله كثير، ذكر الخوف من عذاب الله جل وعلا والثناء على من تحلى به، وهو تبع للخوف من الله جل وعلا ومن ثمراته، وجزاء أهله عظيم عند الله جل وعلا.

فهذان القسمان يجب أن يكونا لله وحده جل وعلا، لا يجوز أن يكونا لمخلوق.

القسم الثالث: يترتب على ضعف هذا الخوف، وهو أن يخاف الإنسان من المخلوق أن يأمره بالمعروف أو ينهاه عن المنكر، بأن يؤذيه أو يسبه أو يتكلم فيه وما أشبه ذلك فلا يأمره بمعروف ولا ينهاه عن منكر ولا يقوم بما وجب عليه، وهذا هو سبب نزول هذه الآية، وهذا من نقص التوحيد، وهو من الشرك الأصغر، وهذا الذي جاء فيه الحديث: «**لا يحقرن أحدكم نفسه أن يرى أمراً لله عليه فيه مقالاً ثم لا يقوله، فيقول الله: ما منعك أن تقول فيه؟ فيقول: رب خشيت الناس فيقول: أنا أحق أن يخشى**»[1]، فهو يُسأل عن هذا وهذا يجب أيضاً أن يكون الخوف من الله ليس من المخلوق؛ لأن معنى ذلك إذا حصل ذلك من المخلوق فالإيمان لم يكمل فهو ناقص، ولكن هذا لا يصل إلى القسم الأول.

وقسم رابع غير الأقسام الثلاثة وهو: الخوف الطبيعي؛ يعني: خوف جِبِلَّة وطبيعة، كأن يخاف الإنسان مثلاً أن يسقط عليه حائطاً يراه مائلاً فيذهب

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم ١١٢٥٥.

عنه ويسرع، أو يخاف من حية يشاهدها، أو يخاف من سبع أو من يتسلط عليه بالقوة، ولكن هذا الخوف في ضمنه بغض هذا المخوف وعداوته، وهذا الخوف لا ضير على الإنسان فيه وهو الذي ذكره الله جل وعلا عن موسى ﷺ: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ٢١]، وكذلك عن غيره، فهذا لا ضير على الإنسان فيه، غير أن الأسباب الظاهرة قد رتب الله عليها مسبباتها، ولا يلزم أنها توجد مع وجود السبب فقد يتغير ويختلف الوجود.

مسألة: وهل الأكمل أن الإنسان لا يخاف من هذه الأشياء؟

الرسول ﷺ في غزوة ذات الرقاع لما قفل ﷺ أدركتهم القائلة في وادٍ كثير العضاه فنزل رسول الله ﷺ وتفرق الناس في العضاه يستظلون بالشجر ونزل رسول الله ﷺ تحت سمرة فعلق بها سيفه. قال جابر: فنمنا نومة، ثم إذا رسول الله ﷺ يدعونا فجئناه، فإذا عنده أعرابي جالس، فقال رسول الله ﷺ: «**إن هذا اخترط سيفي وأنا نائم، فاستيقظت وهو في يده صلتاً، فقال لي: من يمنعك مني؟ قلت: الله، فها هو ذا جالس**» ثم لم يعاقبه رسول الله ﷺ[(١)].

فتمام التوكل على الله جل وعلا في الأمور الظاهرة الجلية التي تشاهد، فإذا كمُل إيمان الإنسان، وكمُل توكله فلن يضره شيء، ولكن أكثر الناس ما يصل إلى هذا ولا إلى قريب من هذا الشيء، فينظر إلى الأسباب وإذا مثلاً فعل السبب الذي يقابله لا يكون عليه في ذلك لوم.

فهذه الآية تدل على وجوب الخوف من الله جل وعلا، وتحريم الخوف من المخلوقين لأنه قال: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ فالنهي للتحريم، ثم قال: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، فجعل من شرط الإيمان خوف الله جل وعلا، وهذا يدل على أن الخوف يجب أن يكون مقصوراً على الله جل وعلا، فلا يتعداه، ومعلوم أن هذا المعنى أنه شيء وراء الذي يلاقونه، يعني خوف هؤلاء مجرد ما يَعِدون وما يتكلمون به ويظهرونه فيخافونهم بهذه الأشياء، وهذا لا يجوز أن يقع في المسلمين، إذا أخافهم الكفار، وقالوا: إن

(١) رواه البخاري رقم ٤١٣٥ من حديث جابر بن عبد الله ﷺ.

عندهم قوات وطائرات، وعندهم كذا وكذا لا يجوز أن يخافوهم بأن يتركوا جهادهم، بل يجب أن يخافوا الله جل وعلا، فإذا تركوا جهادهم من أجل ذلك فإنهم خافوا أولياء الشيطان، وخافوا الشيطان وعصوا الله جل وعلا في ذلك لأن الآية نص في هذا، فإذا نظرنا إلى سبب النزول ولما وقع لرسول الله ﷺ والصحابة الذين تبعوه تبين معنى الآية، ولهذا ألقى في قلوبهم الرعب أعني الكفار، مع أن الذين خرجوا خلفهم قلة قرابة ثمانين مع الرسول ﷺ، وهؤلاء جيش كبير، ومع ذلك خافوا أشد الخوف، وأُلقي الرعب في قلوبهم فصاروا يُجفون ركابهم، بل صاروا يتخففون ويتركون بعض ما معهم، يُلقونه خوفاً من أن يلحقهم الرسول ﷺ، وهذا لأنهم حققوا خوفهم من الله، ولم يكترثوا بما قال لهم هؤلاء بل قالوا: حسبنا الله، وحسبنا معناها: كافينا، هو الذي يكفينا، وهو الذي ينصرنا وهو الذي نعتمد عليه جل وعلا: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾، ولهذا جاء أن هذه الكلمة قالها إبراهيم عليه السلام حينما أُلقي في النار، وقالها محمد ﷺ حينما: ﴿قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣، ١٧٤].

۞ **قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ: وقوله:** ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ [التوبة: ١٨].

ومعروف سبب نزول الآية، وسبب النزول يعين على فهم المعنى، وإن كان الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب في كل النصوص التي تأتي؛ لأن كلام الله جل وعلا عام شامل، وهو نازل للخلق كلهم، وسبب النزول أن الكفار افتخروا على المسلمين، فقال العباس بن عبد المطلب حين أسر يوم بدر: لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد، لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونسقي الحاج ونفك العاني، قال: فأنزل الله: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ

اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾﴾ [التوبة: ١٩][1]، فرد الله عليهم أن عمارتكم هذه لا تجدي شيئاً، وإنما يستفيد المؤمن بإيمانه، وعمله بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ.

قوله: «﴿إِنَّمَا﴾»: أداة حصر، حصر للعمارة المفيدة النافعة أنها في المؤمن.

قوله: «﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾»: العمارة في الواقع هي العبادة، عمارة المسجد العبادة فيه من الصلاة والقراءة والذكر وما أشبه ذلك، وتطلق العمارة أيضاً على البناء ولكن البناء يجب أن يكون من مخلص يرجو ثواب الله، أما إذا كان يدخله الرياء أو كان مشركاً فلا يفيده شيئاً، وليست عمارة في الواقع، ما يستفيد من ذلك شيئاً، فلا تسمى هذه عمارة لأن الله يقول: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣]، وأخبر أن أعمال الكفار ﴿كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [إبراهيم: ١٨] أو أنها ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور: ٣٩]، والسراب انعكاسات أشعة الشمس في وسط النهار في الصحراء، إذا طالعها الإنسان يرى كأنها ماء، فإذا وصل إليه إذا هو ليس بشيء، فهذا مثل الكافر مع أعماله، وإذا وقف بين يدي الله جل وعلا وجد أن أعماله هباء منثوراً ليست بشيء ثم «وفاه الله حسابه»؛ يعني: جازاه على كفره، وعلى معاصيه وصارت النتيجة عذاب الله جل وعلا. وإذا كانت له أعمالاً حسنة نافعة للناس، فإنه يجازي بها في الدنيا، أما في الآخرة فلا جزاء له.

فإذاً العمارة الحقيقية تكون بطاعة الله جل وعلا بالإيمان به وباتباع رسوله ﷺ.

والمساجد أضافها إلى الله ﴿مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ وهذا من التشريف والتعظيم، فأحب البقاع إلى الله المساجد لأنها محل عبادته، فأضافها إلى نفسه جل وعلا فعلى هذا يجب أن تعظم لأن الله أضافها إلى نفسه.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان، وابن المنذر، وابن أبي حاتم في تفسيره عن ابن عباس.

قوله: «﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾»: الإيمان بالله يلزم منه الإيمان بوجوده، وأنه رقيب مشاهد لخلقه، والإيمان بصفاته والإيمان بأمره، والإيمان بكل ما يخبر به وكل ما يأمر به ويدخل في هذا الإيمان برسله لا بد من هذه الأمور، وهي مرتبطة فإذا فقد منها واحد، فلا ينفع الإيمان، ولأهمية هذه الأشياء ولكون كثير من الناس أنكر اليوم الآخر، فكثيراً ما يقرن الله جل وعلا الإيمان باليوم الآخر بالإيمان به جل وعلا.

قوله: «﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾»: اليوم الآخر: اسم لما بعد الموت، كل ما يكون بعد هذه الحياة فهو من اليوم الآخر مثل نزول الملائكة إليه وقبضها لروحه، وتبشيرها إياه إذا كان مؤمناً متقياً بالسعادة وكونها تطمئنه وتقول له: لا تخف ولا تحزن، لا تخف مما أمامك، ولا تحزن على شيء تتركه من هذه الدنيا، ويقولون له: نحن أولياءك، ثم إذا وضع في قبره كذلك، يكون مبشراً بالسعادة ويفتح له باب إلى الجنة ويقال هذا منزلك، ثم يأتيه من روحها ونعيمها ما شاء الله.

وإن كان بالعكس فإنه في عذاب لا يشبه عذاب الدنيا ـ نسأل الله العافية ـ لأن الموت في الواقع انتقال من حياة إلى حياة أخرى وليس الموت عدم ونهاية، ولكن هذه الحياة غيب ولا تعرف حقيقتها، وقد تكون أكمل من حياة الدنيا لبعض من يشاء الله جل وعلا، ولهذا نهانا ربنا أن نقول للشهداء أنهم أموات، وأخبر أنهم أحياء: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [البقرة: ١٥٤]؛ يعني: لا تدرك حياتهم ولا نعرفها لأنها على خلاف الحياة التي نتعارف عليها، وفي الآية الأخرى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران: ١٦٩] معنى ذلك أنهم يأكلون ويشربون ويتنعمون، وإن كانت الأبدان قد تكون تراباً ولكن الأرواح تنعم أكثر من نعيم الدنيا ولا نسبة لها، مع أن النعيم والعذاب على الروح والبدن معاً، وإن كان البدن قد يتفتت ويكون تراباً ومع ذلك فإنه ينعم ويألم، وما بعد القبر أمر ظاهر وبين من اليوم الآخر.

وهذا اليوم لا نهاية له، فهو يكون عامّاً ويكون خاصاً، عاماً إذا وصل

الحد الذي حده الله جل وعلا لنهاية هذه الدنيا، فهذا يعم الخلق كلهم، ويكون خاصاً إذا حضر الأجل أجل الإنسان، حضور أجله وانقطاع عمله وخروج روحه من جسده، هذا هو اليوم الآخر ويلاقي عمله، فأوله نزوله في القبر، فبنزوله للقبر يبدأ اليوم الآخر له سواء كان نزوله في القبر في الليل أو النهار أو غيره، فقد انتهت أيام الدنيا بالنسبة إليه ولاقى عمله وشاهده، فلا بد من الإيمان بما ذكر في القبر وما بعده، كل ما ذكر في القبر من عذاب ونعيم وسؤال ومحاسبة، وكذلك البعث من القبر والمحشر والوقوف بين يدي الله جل وعلا، ثم تطاير الصحف ووزن الأعمال ونصب الصراط ومشاهدة النار ثم الجنة أو النار وما فيها من الدوام الأبدي الذي لا ينقطع فيه، هذا في نعيم وهذا في جحيم ـ نسأل الله العافية ـ، فاليوم الآخر يشمل كل ما جاء في النصوص المفصلة لهذا الأمر.

ومن كان عنده إيمان بهذه؛ لا بد أن يعمل من أجل ذلك إذا كان مؤمناً بالله جل وعلا لا بد أن يخافه، ولا يخاف المشرك الكافر عدو الله وعدو رسوله ودينه، وولي الشيطان فإن كيد الشيطان كان ضعيفاً. وعطف على هذه الأمور التي لا بد منها فقال:

«﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾»: الملاحظ في جميع ذكر الصلاة في القرآن أنها تأتي بلفظ الإقامة سواءً قصد به الخبر «إقام الصلاة» أو الأمر «أقيموا» فالإقامة غير الأداء، غير كون الإنسان يصلي، فالإقامة أن يكون الشيء قائماً تاماً ليس فيه نقص، فإقامتها: إتمامها وتكميلها بشروطها وواجباتها وما يلزم لها.

وهذا يدلنا على الاهتمام بالصلاة، وأنه يجب أن يكون العبد مهتماً بها، حريصاً على إقامتها أفضل إقامة، فهي صلة بين العبد وبين ربه، فإقامتها أداء ما يجب لها، ومن أعظم ما يجب لها حضور القلب والخشوع والتذلل بين يدي الله جل وعلا، هذا أمر مهم جداً يجب على العبد أن يجاهد نفسه فيه؛ لأنه إذا لم يجاهد نفسه ويطرد الشيطان يسرح ويلهو عما هو فيه، ثم يخرج مثل ما دخل فيكون تأثير الصلاة عليه قليلاً، ولا يكون هذا إقامة في الواقع، فإقامتها أن يأتي بها على الوجه المطلوب شرعاً.

قوله: «﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾»: وإيتاء الزكاة قريب من إقام الصلاة، يعني يخرجها راضياً مغتبطاً بهذا الأمر راجياً رحمة ربه جل وعلا خائفاً من عذابه لو منعها، ثم يضعها في الوجه الذي أمره الله جل وعلا به. والزكاة هنا مفعول ولها مفعول ثاني وهو مستحقها، وإيتاء الزكاة مستحقيها لا بد منه. وكل هذا يفعله، إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة رجاءً وخوفاً، والرجاء لا بد أن يكون فيه الحب، والخوف لا بد أن يكون فيه التعظيم والإجلال والذل والخضوع، هذه هي العبادة التي أمر الله بها.

قوله: «﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾»: هذا هو الشاهد، والخشية والخوف متقاربان، وقد يقال أن الخشية أخص من الخوف فالخوف أعم؛ لأن الخشية قد تكون لمن كان عالماً، وقد لا تكون، ولكنهما يتعاقبان.

﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾؛ يعني: لم يخف أحداً غير الله جل وعلا في هذه الأفعال التي يفعلها، وكذلك الشيء الذي يتحلى به قلبه من الإيمان، وكذلك العمارة، عمارة المساجد سواءً كانت العمارة بالبناء الحسي أو العمارة المعنوية الذي هو عبادة الله فيها.

فهو يجعل خشيته لله وحده، فيقصر ذلك عليه، فيكون هذا من أعظم العبادات حيث قرن بالصلاة والزكاة، فدل على أنه واجب ويجب إخلاصه لله جل وعلا، فهو واجب في كل فعل يفعله العبد.

۞ **قال المؤلف** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **وقوله:** ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠].

الإنسان في هذه الحياة لا يسلم من المنكدات والمكدرات ومن المؤلمات لأنه لا يمكن أن تكون صافية لأحد، لا بد أن يتنكد في حياته وفي عيشه مهما كان.

وإذا جاء من يدعو الناس للإيمان، فلا يخلو الأمر إما أن يقولوا: آمنا أو يقولوا: كفرنا فلم يقبلوا.

فمن كفر فأمره واضح، ولكن الذي يقول: آمنت ويجيب داعي الله جل

وعلا وقال: اتبعتك وآمنت بك، فإنه لا بد من الامتحان والابتلاء حتى يظهر جلياً صدقه من كذبه، وإلا فالله جل وعلا علام الغيوب لا يخفى عليه شيء، يعلم الأشياء التي لم تكن أنها ستكون على الصفة التي ستكون عليها قبل وجودها، ولكن من تمام عدله أنه لا يأخذ إلا بالشيء الظاهر الذي تحلى به الإنسان وفعله، فإذا امتحن وابتلي بأذى الكفار الذين يخالفهم في العقيدة؛ لأن الناس لهم تصورات ولهم إرادات، ويريدون من كل إنسان أن يكون موافقاً لهم في إراداتهم وتصوراتهم وأعمالهم وإذا خالفهم لا بد أن يؤذوه، فإن صبر على أذاهم وتحمل أذاهم ولم يلتفت إلى هذا، فإنه سوف يُعان وسوف تعود مخاوفه أماناً ويستحلي كل أذًى في سبيل طاعة الله جل وعلا فتصبح حياته سعيدة وأعماله ملتذاً بها فيكون داخلاً في قوله جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ [الانفطار: ١٣] يعني في الحياة الدنيا وما بعدها ثم يزداد خيراً بعد خير، وأنساً بعد أنس بالله جل وعلا، وكلما زادت الأيام زاد في الخير والإيمان والتقى والعمل الصالح، وكل هذا توفيق من الله جل وعلا.

أما إذا انتكس، ورأى أن مخالفة الناس وأذاهم أنه أمر لا يحتمل فإنه لن يعجز الله لا هو ولا الذي كذب، ويكون ممن فر من الرمضاء إلى النار، اعتاض بالنار من عذاب الناس وأذيتهم التي لم يتحملها في سبيل الإيمان بالله جل وعلا، وهذا أمر مشاهد، ولكن قد يكون لبعض الناس تاماً كاملاً، وبعض الناس يكون أقل والله رحيم رحمٰن جل وعلا يبتلي عبده على قدر ما عنده من الإيمان، وقد يُبتلى فيظهر إما أن يكون منافقاً أو يكون مرتداً ـ نسأل الله العافية ـ ولهذا قال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾؛ يعني: أنه يترك طاعة الله واتباع الرسول ﷺ موافقة للناس في كونهم لا يرضون مسلكه الذي سلك فيصبحون يؤذونه فلا يتحمل فيوافقهم على ما هم عليه ويترك الإيمان بالله، هذا معنى قوله: ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ أنه لم يتحمل بل قدم موافقته للناس على كونه يطيع الله ويتابع رسوله ﷺ، فهذا معناه أنه خاف الناس أكثر من خوفه لله جل وعلا، وهذا شرك من الشرك الأكبر وقد ينتقل بذلك إلى النفاق الخالص ـ نسأل الله العافية ـ أو الكفر والارتداد.

فالآية دليل على وجوب الخوف من الله وحده، والتحمل في سبيل طاعة الله جل وعلا، وفعل ما أمر به، وتحمل ما يمكن أن يحصل له من الناس سواءً الأقارب أو البعداء.

وقوله: «﴿فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ﴾»: الأذى: هو الشيء الذي يخف أثره ويضعف، بخلاف الضر، ولهذا أثبت الله جل وعلا أن بني آدم يؤذونه، ونفى أن يضروه: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٧٦]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾ [الأحزاب: ٥٧].

وأذيته بأن يضاف إليه ما يتعالى ويتقدس عنه، أو مثلاً يضاف إلى المخلوق شيء من خصائص الله جل وعلا، مثل المصورين الذين يؤذون الله لأنهم ينازعونه في خصائصه، لأن المصور هو الله جل وعلا، ولهذا عذابهم أشد العذاب لأنهم يوم القيامة يكلفون ما لا يطاق، يجعل لهم في كل صورة صوروها نفساً يعذبون بها في النار، ويقال لهم: أحيوا ما خلقتم، يعني انفخوا فيهم الروح، فالمقصود أن الأذى هو الشيء الخفيف، يقول الأصمعي لامرأة في البادية: ألا يضركم البرد والحر؟ فقالت: لا سواء. فقال: كيف؟ قالت: الحر يؤذي، والبرد: يضر.

في لغة العرب يفرقون بين الأذى والضر، فالحر يؤذيك مثلاً بالعرق، ولكن لا يقتلك بخلاف البرد فإنه يقتل.

ففي هذه الآية بيان واضح في أن الخوف يجب أن يخلص لله جل وعلا، ولا يكون منه شيء للمخلوق، فدل على أن الخوف فريضة على العبد فرضها الله جل وعلا وأنه لا بد منه يعني خوف الله ولا يجوز أن يكون من هذا الخوف شيء للمخلوق، فإن وقع للمخلوق شيء منه، فإما أن يكون مرتكباً لكبيرة من كبائر الذنوب متوعد عليها أو أنه ليس عنده توحيد، وهذا من تفسير التوحيد الذي يقول المؤلف رحمه الله في أول الكتاب أن تفسير هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب فهذا منها، فكلمة التوحيد لا إله إلا الله تقتضي أن يكون الخوف لله وحده لأن الخوف من التأله والعبادة.

۞ قال المؤلف كَلَلهُ: وعن أبي سعيد مرفوعاً: «إن من ضعف اليقين أن ترضي الناس بسخط الله، وأن تحمدهم على رزق الله، وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله، إن رزق الله لا يجره حرص حريص ولا يرده كره كاره، إن الله بحكمه وجلاله جعل الروح والفرح في الرضا واليقين، وجعل الغم والحزن في الشك والسخط»[1].

الحديث ضعيف لأن فيه ثلاثة من رواته كلهم ضعفاء: عطية العوفي، والسُدي، وموسى بن بلال، ولكن معناه صحيح معناه دلت عليه الآيات، وكذلك الأحاديث الأخرى، والمؤلف كَلَلهُ لا يعتمد على مثل هذا، وإنما عُمدته الآيات المذكورة، فلما كان الحديث بمعناها يعني جاء الحديث موافقاً لمعنى هذه الآيات ذكره من باب الاعتضاد والبيان فقط، بيان المعنى وليس الحديث معتمداً عليه بهذا لأنه لو لم يذكر الحديث أصلاً لكفى بالآيات.

من أركان الإيمان، الإيمان بأن الله جل وعلا قدر كل شيء، وأنه لا يقع شيء في الكون إلا وقد سبق العلم به وكتابته وأنه لا يقع إلا بمشيئة الله جل وعلا وخلقه له.

فالرزق الذي يحصل للإنسان مكتوب قبل وجوده، قبل أن يوجد الإنسان ولكن الله جل وعلا رتب الأمور على أسباب جعلها الله جل وعلا ظاهرة، فالواجب على المؤمن أن يعلم أن كل شيء بتصريف الله وتقديره وإرادته، فإذا حصل له أمر من الأمور المحمودة أو المذمومة يعلم يقيناً أنه سبق علم الله به وأن الله جل وعلا هو الذي ساقه له جعل له أسباباً فلا يلتفت إلى الأسباب ليذمها أو ليحمدها على ذلك؛ لأن هذا من ضعف اليقين، واليقين المقصود به الإيمان بالله جل وعلا الذي يدخل فيه الإيمان بالقدر، ولهذا قال: «**إن من ضعف اليقين**».

فاليقين هو الإيمان، والضعف كون الشيء لا يكون تاماً بل ناقصاً، ولكن هذا الضعف ليس له حد.

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان رقم ٢٠٧.

قوله: «ضعف»: ضَعف، وضُعف بالضم والتحريك كلها صحيحة كلها لغات من لغات العرب، ولهذا جاءت القراءة بضَعف وضُعف.

قوله: «أن ترضي الناس بسخط الله»: كان يتصور الإنسان أن الناس هم الذين ينفعونه أو هم الذين يضرونه فيطيعهم في معصية الله جل وعلا ليتحصل على النفع الذي يرجوه، أو ليتحصل على دفع الضرر الذي يتصور أنهم يدفعونه عنه فهو يفعل المعصية لأجل أمرهم أو يترك الواجب لأجل نهيهم، أو لأجل شيء أعظم من هذا، وهو أنك تعرف أنهم يكرهون هذا، فإذا كانت طاعة تتركها ولو لم يقولوا لك، أو تعرف أنهم يحبون هذه المعصية فتفعلها ولو لم يقولوا لك افعلها، فهذا إما أن يكون إيمانه ذاهباً، أو يكون ضعيفاً وإذا كان ضعيفاً فقد يزول نهائياً.

فمن أرضى الناس بسخط الله فلا يكون ناجياً من أذاهم ومن عذابهم لا بد أن يسلطهم الله جل وعلا عليه سواءً كان آجلاً أو عاجلاً، هذا أمر من سُنَّة الله، وسُنَّة الله لا تتبدل ولا تتغير في خلقه، ولهذا أخبر جل وعلا أن الكفار وإن قدمتم لهم التنازلات وأعطيتموهم الشيء الذي يطلبونه فلا يكفيهم هذا حتى تتركوا دينكم، قال جل وعلا: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠]، أما أن توافقهم في شيء وأنت باقياً على دينك، فلن يرضيهم فالحزم أن يصادموا من أول وهلة، ويحاربوا ويقاتلوا ويظهر لهم أننا أعداء لكم لا نوافقكم في شيء، فهذا هو الواجب على المسلمين أن يفعلوا هذا.

قوله: «إن من ضعف اليقين أن ترضي الناس بسخط الله»: لأن الناس كلهم عبيد لله جل وعلا وتحت تصرفه ونواصيهم بيده، فإذا أرضى العبد ربه فإنه يرضي عنه الناس، ثم لو قدر أن الناس لا يرضون عنه لا يضيره شيء؛ لأن المهم أن يرضي ربه جل وعلا وما فوق التراب تراب فلا يجوز أن يُقدم على رضا رب العالمين جل وعلا أحداً، وإنما يحصل ذلك من ضعف الإيمان.

وقوله: «وأن تحمدَهم على رزق الله»: الحمد المقصود به المدح، وليس الحمد الشرعي؛ لأن الحمد هو الثناء بالجميل الاختياري مع الحب، أما إذا كان مجرد ثناء بلا حب فهذا يسمى مدحاً.

فمثلاً إذا جعل الله على يد إنسان من الناس نفعاً لك أو رزقاً لك لا يجوز أنك تحمده على هذا الشيء أنه هو جاء به لك غير أنك تشكره على أنه سبب مع العلم أن الله جل وعلا هو الذي جعله سبباً، فالأمر إليه كله، فلا بأس بذلك لأنه جاء: «من لا يشكر الناس لا يشكر الله»[(١)]، وجاء قوله ﷺ: **«من صنع إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه»**[(٢)].

والسبب في هذا أن يكون قلب المؤمن سالماً من تعبد مخلوق لأن المحسن الذي يحسن إليك قد يأخذ شعبة من قلبك، فأمر أن تخرج هذا الشيء تكافئه على ذلك فيسلم قلبك لله جل وعلا وحده، والإنسان مجبول على حب من أحسن إليه جبلّة وخلقة فأمروا بهذا، ومن الخطأ أن يقول الإنسان في دعائه: «ولا نشكر إلا إياك» هذا لم يرد، فهو من كلام الناس، ولا يمكن أن يأتي مثل هذا عن الرسول ﷺ مع أنك تسمعه كثيراً من الناس في الصلاة.

فإذا كان الرزق على أيديهم بأن جعلوا سبباً من الأسباب فلا تلتفت إليهم بقلبك وتحمدهم على هذا وتجعل حمدك لهم بدل أن يكون لله جل وعلا أنه هو الذي ساقه إليك على أيديهم وأنهم لا يستطيعون منع هذا، الذي قدره الله جل وعلا لك لا يستطيع أحد أن يرده كما قال ﷺ: **«واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف»**[(٣)].

معلوم أن الإنسان إذا تصور أن الخلق كلهم يصرفهم الله جل وعلا كيف يشاء لأنهم عبيده، العبيد الذين تجري عليهم أقداره وهو القهار لهم جل وعلا، لا يخرجون عن عبوديته العبودية الكونية لأن العبد ينقسم إلى قسمين:

---

(١) رواه الترمذي رقم ١٩٥٤، وأبو داود رقم ٤٨١١، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه أبو داود رقم ١٦٧٢، والنسائي في المجتبى، وأحمد في المسند من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
(٣) أخرجه الترمذي رقم ٢٥١٦ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما وقال: هذا حديث حسن صحيح.

عبد بمعنى معبَّد مذلل مقهور تجري عليه أحكام الله جل وعلا راغباً أو راهباً، راضياً أو ساخطاً، وهذا لا يخرج عنه أحد في الكون كله.

وعبدٌ بمعنى عابد الذي يكون عابداً لله جل وعلا وهذا هو الذي يحمد ويثاب، أما الأول فلا إثابة ولا حمد، ولهذا قال الله جل وعلا: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝﴾ [مريم: ٩٣]؛ يعني: ذليلاً خاضعاً مقهوراً ليس له أي تصرف، بل لا يملك لنفسه أي نفع، ولا يستطيع أن يدفع عنها أي ضر.

وهذا في الواقع عام شامل في الأوقات وفي الأشخاص، فإذا نظر الإنسان إلى هذا الأمر يعلم أن كل ما يحدث من خير أو شر، فهو من الله جل وعلا، مع أن الشر له أسباب والخير له أسباب، فلا يحمد الناس على رزق الله الذي قاده الله جل وعلا إليه على أيديهم، ومع ذلك لا يجوز أن يغمطهم حقهم، بل يشكرهم على كونهم صاروا سبباً غير أن قلبه يجب أن يكون خالصاً لربه جل وعلا ولا يتعلق إلا برب العالمين وإنما يجازيهم على كونهم سبباً.

وقوله: «وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله»؛ يعني: إذا قدر أن إنساناً تطلب منه مثلاً أنه سيأتي على يده شيء ثم لم يأت، فلا يجوز أنك تذمه أو تسبه فهذا لم يقدره الله، فلو قدره الله لكان، فالأمر إلى الله جل وعلا ويجب عليك أن تؤمن بقدر الله وترضى بذلك، ولكن الإنسان يُلام على الشيء الذي يُقصر فيه إذا كان من الأسباب أنه قصر فيها فإنه يلام على ذلك ويعاقب ومع ذلك ما تذمه لأن الله لو قدره لكان بلا شك، غير أن الفعل الاختياري للإنسان مسئول عنه فكل إنسان مسئول عن فعله، فإذا طلب إنسان من الناس شيئاً فلم يعطوه فلا يجوز له أن يذمهم ويقدح فيهم ويشتمهم ويلعن أو يسب أو يتكلم، فليعلم أن هذا ما قدره له وأن المعطي والمانع هو الله جل وعلا، وأن القلوب بين إصبعين من أصابعه، إذا أراد الله لك شيئاً فسوف يأتيك وإن كان الناس كارهين، وإن كان لم يردك بشيء فلن ينفعك الناس بشيء ولن يوصلوه إليك، فيجب أن يكون على هذه الصفة فيصبح حمده لله وذمه لمن

عصى الله جل وعلا، ويعلم أن قدر الله نافذ ولا بد، وإن كانت الأمور أجراها الله على سنن كما يتعاط الناس، ولكن الأسباب ما تستقل بالمسبب أبداً وكل سبب قد يكون له مانع أو موانع ولا يستقل السبب الواحد في رزق الله ولا ما يريده الإنسان، فلهذا إذا طلبت شيئاً فلم يحصل لك يجب أن تؤمن أن الله لم يقدره لك وأن الذين ظهروا أمامك في المنع إنما هم بتقدير الله جل وعلا فلا أحد يستطيع أن يمنع ما قدره الله، أو أن يأت بالشيء الذي أراد الله أن لا يأتي، فالله جل وعلا لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، وهذا دعاء يقوله المسلم في كل صلاة فيجب أن يؤمن به ويعمل به.

وقوله: «إن رزق الله لا يجره حرص حريص»؛ يعني: الشيء الذي كتبه الله لك من الرزق لا بد أن يأتيك وقد كُتب وأنت في بطن أمك، فلا يمكن أن يرده الخلق لو اجتمعوا على ذلك، وكذلك لو مثلاً فعلت كل الأسباب لطلب الشيء الذي لم يكتبه الله لك لن تتحصل عليه، فالأمور كلها مفروغ منها غير أن العبد مأمور بفعل السبب، وإذا تخلف المطلوب في طلبك يجب أن تؤمن بأن هذا أمر قد قدره الله ولا يمنع كونك تلوم المقصر في هذه الأسباب، ولهذا جاء في الحديث الصحيح قوله ﷺ: **«المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان»**[1].

والمقصود بالضعيف هنا ضعيف العمل، ضعيف السبب وليس ضعيف الإيمان، يعني أن قوة البدن محمودة في الأفعال، وإن كانت من الله جل وعلا فضل ثم قال: **«احرص على ما ينفعك ولا تعجز»**؛ يعني: احرص على العمل الذي ينفعك ولا تتكاسل، **«فإن أصابك ما تكره فلا تقل: لو أني فعلت كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله ما شاء فعل»**؛ يعني: هذا قدر الله وهو يفعل ما شاء فارجع إلى ذلك وقف عنده.

---

(١) رواه مسلم رقم ٢٦٦٤ من حديث أبي هريرة ؓ.

فكون الإنسان يكون عنده الحرص وشدة السعي والعمل والكد، فلن يأتيه إلا ما قدر له مع أن الله جل وعلا قد أمر بفعل الأسباب كما سيأتي، لا بد أن تفعل السبب الذي به يحصل لأن الرزق كتب مع سببه الذي يحصل به، ولا يقول الإنسان إذا كان مكتوباً لي رزقي فما فيه داعي للعمل نقول: لا، لا بد من العمل لأن العمل السبب والله أمر به، ولكن السبب مثل ما مضى ينقسم إلى سبب شرعي مأمور به وسبب محرم ممنوع منه، ومع ذلك لو حصل له شيء بالسبب المحرم مثل تعاطي الربا، والكذب والتزوير والغش وما أشبه ذلك فإن هذا رزق الله لكنه جاء بهذا السبب المحرم، ويعذب عليه الإنسان لأنه أقدم على ذلك عن علم، والله يرزق الحلال والحرام كله رزقه، غير أنه بيّن أن الحرام لا يجوز أن تتناوله، ولا يجوز أن تتعاطى أسبابه، وإذا خالفت فأنت مستحق للعقاب إن لم يعفو ربك جل وعلا.

قوله: «ولا يرده كراهية كاره»: كون الناس يكرهون أنه يحصل لك، لا يؤثر ذلك في المنع أبداً كما جاء في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره: **«ولو أن الخلق اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك»**، غير أن هذه الأمور والتخيلات التي قد تحصل في قلب الإنسان، وفكره قد تؤثر عليه، وهي لا أثر لها في الواقع، وإنما له أثر في نفس الإنسان وعدم كونه يعزم التوكل على الله، فإذا عزم التوكل على الله أصبح لا أثر لها، لا تؤثر أبداً، فالرزق الذي كتبه الله لك لا بد أن يأتيك، ثم نعلم أن الرزق رزقان:

رزق هو من أكبر النعم وأعظمها وهو رزق الإيمان والعمل الصالح والهداية والاستقامة على الصراط المستقيم، وهذا لا يأت به إلا الله جل وعلا، ومن رزقه الله جل وعلا ذلك فقد كملت نعمة الله عليه.

ورزق هو ما يتمتع به في البدن من الأكل والشرب وغيره وكل هذا مقدر، كله مفروغ منه وكل شيء يحدث للإنسان فهو من الله جل وعلا، فيجب أن يتحلى بالصبر إذا حُرم الشيء الذي يرجوه ويؤمله ويعلم أن هذا لم يقدر له فيحمد الله جل وعلا على كل حال، ولا يلتفت إلى الناس ويعلق رجاءه أو

أنهم هم السبب في المنع أو ما أشبه ذلك فيصبح معتمداً على الأسباب ملتفتاً إليها، فيجب أن يكون اعتماده والتفاته إلى ربه جل وعلا.

۞ قال المؤلف رحمه الله: وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «من التمس رضى الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن التمس رضى الناس بسخط الله، سَخِط الله عليه وأسخط عليه الناس» رواه ابن حبان في صحيحه[1].

جاء هذا الحديث بألفاظ متعددة، وجاء موقوفاً، وجاء مرفوعاً، وكلها صحيحة.

رواه الترمذي عن رجل من أهل المدينة قال: كتب معاوية إلى عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن اكتبي إلي كتاباً توصيني فيه ولا تكثري علي، فكتبت عائشة رضي الله عنها إلى معاوية: سلام عليك أما بعد فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من التمس رضاء الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس، ومن التمس رضاء الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس»** والسلام عليك[2].

وهذا من فقهها، وبلوغها في العلم رضي الله عنها، وقد تربت في بيت رسول الله ﷺ وهي ابنة تسع، وكان ﷺ يحبها أكثر من غيرها، وهي كذلك ابنة صديق الأمة رضي الله عنه، ولهذا الذين خذلهم الله عباد الشيطان جعلوها هدفاً بالسب والشتم واللعن كما جعلوا والدها هدفاً للعنهم وسبه مع رفيقه عمر رضي الله عنهما وهذا عنوان الخذلان وإلا ما الذي صنعه أبو بكر أو عائشة لا شيء إلا اتباع الحق، ومثل هؤلاء لا يريدون الحق.

قوله: «من التمس»؛ يعني: تحراه وطلبه بلا مبالاة في الناس.

قوله: «رضى الله بسخط الناس»؛ يعني: همه ومقصوده هو طلب رضى الله جل وعلا، رضي الناس أو لم يرضوا، وهذا يدل على قوة الإيمان، وصدق العزيمة وكذلك كونه أجمع الطلب والقصد إلى الله جل وعلا فصار يطلب رضى الله جل وعلا وإن سخط الناس.

---

(١) رقم ٢٧٦.

(٢) أخرجه الترمذي رقم ٢٤١٤.

قوله: «رضي الله عنه وأرضى عنه الناس»: لأن الله جل وعلا جعل من سُنَّته أن الجزاء من جنس العمل، والجزاء يكون عاجلاً ويكون آجلاً بلا شك، ولا سيما الأمور التي مثل هذا، فإن الله يعجل لعبده فيها الجزاء الذي يكون جزاء قليلاً من الجزاء وإلا جزاءه يوم يلقاه، لا يكون ما حصل له في الدنيا هو أجره على عمله الصالح في أمور الدين، ولهذا قال: «**رضي الله عنه، وأرضى الناس عنه**»، هذا هو الجزاء العاجل يرضى الله عنه، ويرضي عنه الناس وإن كان أسخطهم؛ لأن مقصوده رضا الله جل وعلا، والناس كلهم بل الخلق كلهم نواصيهم بيده جل وعلا يصرفهم كيف يشاء، فإذا أطاعه عبده فإنه يكفيه كل شيء ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، ومن كان الله حسبه فلا يمكن أن يضره شيء، ولكن الشأن كله هو الصدق مع الله والإخلاص في هذا، كون الإنسان ما يفعل هذا من باب التجربة يقول أجرب هذا هل يحصل لي شيء بهذا لا يحصل له شيء؛ لأنه يختبر الله جل وعلا هل يحصل له ذلك أو لا يحصل وهذا لا يمكن، وقد ينتكس ـ نسأل الله العافية ـ وإنما يكون هذا للمؤمن الصادق من أول وهلة يُقدم على هذا الشيء جزماً بلا تردد، وإذا أصابه شيء من المكروه استحلاه في رضا الله جل وعلا وصار عنده محبوباً ومطلوباً هذا هو الذي يرضى الله عنه، ويُرضي عنه الناس، مع أن هذه الدنيا لا بد فيها من الأذى، ولهذا لم تسلم الرسل الذين هم خلاصة الخلق الذين خلصهم الله واصطفاهم، لم يسلموا من أذية الناس وأفضلهم خاتمهم صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

قالت له عائشة ﵂: «هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أُحد؟»، قال: «**لقيت من قومك ما لقيت**»؛ يعني: أشد من يوم أُحد «**وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت فانطلقت ـ وأنا مهموم ـ على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا بجبريل، فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم**» فناداني ملك الجبال، فسلم

علي ثم قال: «يا محمد إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين»، فقال النبي ﷺ: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً»[١].

وكذلك ما حصل له يوم كان ساجداً يصلي عند الكعبة، فقد روى ابن مسعود ﷺ قال: «بينما رسول الله ﷺ يصلي عند البيت وأبو جهل وأصحابه له جلوس، وقد نحرت جزور بالأمس، فقال أبو جهل: أيكم يقوم إلى سلا جزور بني فلان فيأخذه فيضعه في كتفي محمد إذا سجد، فانبعث أشقى القوم «هو عقبة بن أبي معيط» فأخذه، فلما سجد النبي ﷺ وضعه بين كتفيه، قال: فاستضحكوا، وجعل بعضهم يميل على بعض وأنا قائم أنظر، لو كان لي منعة طرحته عن ظهر رسول الله ﷺ والنبي ﷺ ساجد ما يرفع رأسه حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة فجاءت وهي جويرية فطرحته عنه، ثم أقبلت عليهم تشتمهم. فلما قضى النبي ﷺ صلاته رفع صوته ثم دعا عليهم، فوالذي بعث محمداً ﷺ بالحق لقد رأيت الذين سمى صرعى يوم بدر ثم سحبوا إلى القليب، قليب بدر»[٢].

فالمقصود أن الأذى الذي حصل له مع أنه أفضل خلق الله جل وعلا، يبين أن الدنيا لا بد فيها من الأذى، وإذا كان العبد إيمانه قوي فإنه يؤذى أكثر من غيره حكمة من الله جل وعلا ورحمة، ولهذا لما سأل سعد بن أبي وقاص ﷺ رسول الله ﷺ: أي الناس أشد بلاء؟ قال: «الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صُلْباً اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على قدر دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة»[٣]، وهذا من فضل الله جل وعلا، وإذا أراد الله جل وعلا بإنسان عدم الخير ينتكس من جراء ذلك، وهذا يقع كثيراً ـ نسأل الله العافية ـ.

---

(١) رواه البخاري رقم ٣٢٣١، ومسلم رقم ١٧٩٥.

(٢) رواه البخاري رقم ٢٤٠، ومسلم رقم ١٧٩٤ واللفظ له.

(٣) رواه الترمذي رقم ٢٤٠٠، وابن ماجه رقم ٤٠٢٣.

فالمقصود أن قوله ﷺ: **«من التمس رضا الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى الناس عنه»**، هذا رتب غليه الجزاء في الدنيا والآخرة، ولا يلزم من هذا أن يقال: لماذا أصاب الرسل ما أصابهم؟ لأن الله يبتلي من يشاء من خلقه حتى ترتفع درجاتهم في الآخرة، وحتى يتبين الصابر الصادق من الذي ليس عنده عزم وقوة وصبر يتحمل المكاره في رضا الله جل وعلا وفي طلب السعادة الأبدية. عكس الأول تماماً، يصبح الإنسان يوافق الناس أو يريد منهم ما يريد فلا بد أن يسخطهم عليه، وإن سلم من جزء منهم فلا بد من أن البقية ينالونه، ولهذا لما كان الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ يعرفون هذا ـ تماماً ـ ما كانوا يرهبون كافراً مهما كانت قوته، فنصرهم الله ﷻ نصراً مؤزراً، ولم تقف أمامهم أي قوة، مع أن سيوفهم رثة وثيابهم وخيولهم، السيوف موسورة بقدر. ومقابلهم؛ سيوفهم محلاة بالذهب والجواهر وعندهم من العدة والاستعداد، الكثير كانوا يحملون على الفيلة ويقاتلون عليها، ومع ذلك كله لم يرهبوهم ولم يخافوهم، بل كان خوفهم من الله جل وعلا، فنصرهم وأيدهم.

فقوله: «من التمس رضى الله...» الحديث، فهذا حديث عرف صدق مخبره بالواقع إذا نظر الإنسان إلى الواقع فإذا هو مطابق لهذا الخبر الذي أخبر به رسول الله ﷺ، فكل من كان قصده رضا الله جل وعلا فإنه سوف يحمد تصرفاته، وسوف تكون تصرفاته عليه خيراً، ثم الخلق رضاهم مثل ما يقال في المثل: رضا الناس غاية لا تدرك. ولكن الذين يرضون بأمر الله سوف يرضون عنه، أما الذين يرضون بأمر الشياطين فإنهم لن يرضوا عنك مهما عملت حتى تتبعوهم على مراداتهم وأهوائهم ثم يسخطهم الله عليك فلا يجوز أن يلتفت الإنسان إليهم أو يرتب هذه الأمور على الأخبار التي جاءت عن الله جل وعلا وعن رسوله ﷺ لأن الله بتقديره ومشيئته جل وعلا قسم الناس قبل وجودهم إلى مؤمن وكافر، إلى متبع لرسله، طالباً لرضاه، وإلى متبع للشيطان طالباً لرضا الشيطان، ولا بد أن يكون بين القبيلتين خصام وقتال ومعاداة إلى يوم القيامة، فلا يمكن أن يكون الإنسان يريد أن يتحصل على رضا الناس عموماً فهذا من الأمور الممتنعة، ولكن إذا كان الإنسان متقياً لله جل وعلا في كل تصرفاته فسوف تعود عليه المخاوف أمناً، أما إذا كان ناقص المتابعة والطاعة

فلا بد أن يناله بحسب ما عنده من المعاصي من الأذى، ولكن أكثر الناس لا يستشعر بهذا لكثرة الذنوب وكثرة الجراحات التي تصيب القلوب وقد تموت وإلا لو كانت القلوب حية لعلم في أي تصرف كما قال بعض السلف: إني لأفعل الذنب ثم أرى أثر ذلك في خُلُق دابتي وزوجتي وولدي. يعني مباشرة لأن عندهم الحياة والإيمان يكاد يكمل بخلاف الإنسان الذي كثرت ذنوبه وكثرت مخالفاته فإنه يصاب بالمصائب ولا شعور له في ذلك ولا سيما إذا كانت المصائب مصائب دين.

وهذا أمر مجرب إذا كان الإنسان طلب رضا الله في كل شيء، فإن الله جل وعلا يرضى عنه ويجعل الأشياء مطيعة له حتى الأشياء التي طبيعتها الأذى موافقة له مسالمة له، ولهذا كان عبد الله بن الشخير رَحِمَهُ اللهُ يشترط على أصحابه إذا سافر أنه هو الذي يتولى رعي إبلهم وهذه من أعظم المشاق لأنهم إذا نزلوا للراحة يذهب هو يتابعها، وفيه تعب ومشقة، فكان إذا غاب عنهم صار يصلي وأتى الأسد فتولى رعايتها وحمايتها فأراد أحدهم مرة أن ينظر ماذا يصنع فرأى العجب كيف الأسد هو الذي يتولى حماية الإبل ورعايتها؟ ذلك لأنه أطاع الله جل وعلا، واتبع أمره.

فهكذا، الأمور التي طبيعتها الأذى تصبح مطيعة له لأنه مطيع لله جل وعلا، ثم بالعكس إذا كان الإنسان مراده وغايته رضا الناس ولو كان في سخط الله فإنه الغالب أنه يعذب بأيدي هؤلاء الذين طلب رضاهم ولو كانوا من أقرب الناس إليه، ولو سبر الإنسان هذا الأمر في حالة الناس لوجد هذا ظاهراً بيناً وهي سُنَّة الله لا تختلف، ولهذا قال: «**من التمس رضا الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس**» نقول: لا يلزم رضا الناس كلهم عموماً بهذا؛ لأن الناس أكثرهم يبغض الحق ويكرهه ويعاديه ورضا هؤلاء لا عبرة فيه، «**ومن التمس رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط الناس**» الذين طلب رضاهم جزاء وفاقاً، والجزاء من جنس العمل، الإنسان إذا اعتبر سُنَّة الله جل وعلا في الخلق وجد هذا ظاهراً جلياً، وهذا لا يكمل للإنسان إلا إذا كان إيمانه كاملاً ثم هو يضعف على حسب ضعف الإيمان، فكل له

نصيب من هذا التقسيم إما أن يكون رضا الله جل وعلا هو مقصوده وهو الذي يعمل من أجله فسوف يجعل الله له من كل ضيق فرجاً، ويجعل له جل وعلا مَخلصاً من كل ضائقة ولا يضره الناس مهما أرادوا ضره، ثم لا يتصور الإنسان أن هذه الدنيا يمكن أن يعيش فيها الإنسان منعماً من أول حياته إلى نهايتها هذا ممتنع، لو كان هذا ممكناً لحصل لرسل الله ولأولياء الله جل وعلا، ولكن العبد إذا سلم دينه وسلم تعلقه بالله جل وعلا وازداد إيماناً بعد إيمان وإن ناله ما ناله فهو في نعيم، يعني أن الأمور التي قد تكون أذية لبدنه من كلام الناس أو نحو ذلك فهذا أمر لا بد منه، مثل الحر ومثل البرد وما أشبه ذلك فهذا لا بد أن يحصل أما أن يضروه الضرر الذي يكون عقاباً من العدو وتشفياً منه بهذا فلن يحصل له إذا كان يريد رضا الله جل وعلا، وهذا هو المقصود بالنفي أنه لا يحصل له ذلك وليس المعنى أنه لا يحصل له أي ضرر لأن الدنيا طُبعت على خلاف ذلك، فلن تسلم لأحد.

۞ قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فيه مسائل:

۞ الأولى: تفسير آية آل عمران.

يعني التفسير الذي يناسب الباب، وهو الخوف من الله.

۞ الثانية: تفسير آية براءة.

العمارة: هي طاعة الله فيها، وعمارة مسجد النبي ﷺ في وقته لما كانت أعمدته من جذوع النخل وسقفه من جريد النخل، وإذا جاء المطر خر وكان يسجد في ماء وطين عمارته في ذلك الوقت أعظم من عمارته اليوم؛ لأن فيه الرسول ﷺ وفيه صحابته الذين يخشون ربهم، فالعمارة ليست بالتزويق والتحسين والبناء، وإن كانت داخلة في مسمى العمارة، مع أنه جاء أن من أشراط الساعة زخرفة المساجد، وكذلك من آثار اتباع اليهود والنصارى زخرفة المساجد، قال ابن عباس: لتزخرفنها كما زخرفت اليهود والنصارى[1]. فهذا

(١) صحيح البخاري، باب بنيان المساجد.

من اتباع اليهود والنصارى، وهو مذموم على هذا وليس من المدح.

فالمقصود أن العمارة هي الطاعة ويدخل فيه البناء بدون تزويق وزخرفة، فالزخرفة منهي عنها، فلا تجوز أن تزخرف لأنها تشغل المصلين وهذا أقل ما فيه، وفيه تضييع الأموال فهي تهدر بلا فائدة، فعن عائشة ﵂ أن رسول الله ﷺ صلى في خميصة لها أعلام، فنظر إلى أعلامها نظرة، فلما انصرف قال: «**اذهبوا بخميصتي هذه إلى أبي جهم وائتوني بأنبجانية أبي جهم، فإنها ألهتني آنفاً عن صلاتي**»، وقال: «**كنت أنظر إلى عَلَمها وأنا في الصلاة، فأخاف أن تفتنني**»[1]، فكل ما فيه شيء يشغل المصلي يجب أن لا يكون في المسجد، ولا يكون في وقت الصلاة وهذا منه.

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [التوبة: ١٨]، معروف أن الكافر لم يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، فإذا بنى المسجد فلا قيمة لبنائه ولا عبرة له لأن عمله يتوقف اعتباره على الإيمان بالله واليوم الآخر، فإذا لم يؤمن فعمله كعدمه وكذلك قوله: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [التوبة: ١٨]، وقوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [التوبة: ١٨]، فالخشية خوف مع علم، يعلم صفات الله جل وعلا وما يستحق.

۞ الثالثة: إن اليقين يضعف ويقوى.

اليقين: هو الإيمان يقوى ويضعف، ابن مسعود يقول: اليقين هو الإيمان كله، والصبر نصف الإيمان، والإيمان يزيد وينقص كما هو مذهب أهل السُّنَّة، والأدلة على هذا كثيرة جداً، والزيادة منصوص عليها في آيات كثيرة، ولكن النقص هو الذي اشتبه على بعض الناس، ولهذا بعض السلف توقف في مسألة النقص لأنه لم يأت في النصوص والواقع أن الشيء الذي يقبل الزيادة لا بد من نقصه لأنه قبل الزيادة ناقص، ولهذا استدل البخاري ﵀ في صحيحه في كتاب الإيمان على نقص الإيمان بقوله جل وعلا: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ

(١) رواه البخاري رقم ٣٧٣.

﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة: ٣] لأنه قبل الكمال ناقص، فكل شيء يقبل الزيادة ضرورة أنه ينقص ويقبل النقصان، فلا إشكال في هذا مع أنه جاءت نصوص في النقص مثل قوله ﷺ: **«لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن»**[1] وقوله ﷺ في النساء: **«ما رأيت ناقصات عقل ودين أسلب للب الرجل منكن»**[2]، فسئل ما هو نقصان العقل والدين؟ قال: **«نقصان العقل شهادة امرأتين برجل، وأما نقصان الدين فتبقى إحداكن وقتاً لا تصلي»**، وإنما كان هذا أمر قدره الله جل وعلا عليهن، ولكن المقصود أن كثرة العمل فيه الزيادة، فالذي يعمل أكثر من غيره يكون إيمانه زائداً على غيره.

۞ الرابعة: علامة ضعفه، ومن ذلك هذه الثلاث.

لأنه قال من ضعف اليقين، وهذا أمر واضح، واليقين المقصود به الإيمان، وإن كان اليقين يعبر عنه بالكمال، ولهذا جاء عن ابن مسعود ﷺ أنه قال: اليقين الإيمان كله[3]. يعني الإيمان الكامل، وهنا قصد به الإيمان فقط.

فعلامة ضعف الإيمان منها كونه يحمد الناس على رزق الله، ويذمهم على ما لم يقدره الله له، وكونه يطلب رضاهم بسخط الله جل وعلا.

۞ الخامسة: أن إخلاص الخوف لله من الفرائض.

وهذا هو المقصود بالباب، أن الخوف فريضة، فرضها الله جل وعلا على المؤمنين يجب أن يخافوا من الله ولا يخافوا من عدوهم، والشيطان يعظم الأعداء في قلوب الناس وفي أنظارهم كما قال الله جل وعلا: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، فلا يجوز أن المؤمنين يرهبون العدو لكثرتهم أو لعدتهم أو لغير ذلك، إذا كانوا مؤمنين حقاً

(١) رواه البخاري رقم ٢٤٧٥ و٥٥٧٨، ومسلم رقم ٥٧.
(٢) رواه البخاري رقم ٣٠٤، ومسلم رقم ٧٩ و٨٠.
(٣) رواه البخاري في باب الإيمان وقول الرسول ﷺ: **«بني الإسلام على خمس»**.

من اتباع اليهود والنصارى، وهو مذموم على هذا وليس من المدح.

فالمقصود أن العمارة هي الطاعة ويدخل فيه البناء بدون تزويق وزخرفة، فالزخرفة منهي عنها، فلا تجوز أن تزخرف لأنها تشغل المصلين وهذا أقل ما فيه، وفيه تضييع الأموال فهي تهدر بلا فائدة، فعن عائشة ﵂ أن رسول الله ﷺ صلى في خميصة لها أعلام، فنظر إلى أعلامها نظرة، فلما انصرف قال: **«اذهبوا بخميصتي هذه إلى أبي جهم وائتوني بأنبجانية أبي جهم، فإنها ألهتني آنفاً عن صلاتي»**، وقال: **«كنت أنظر إلى عَلَمها وأنا في الصلاة، فأخاف أن تفتنني»**[1]، فكل ما فيه شيء يشغل المصلي يجب أن لا يكون في المسجد، ولا يكون في وقت الصلاة وهذا منه.

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾ [التوبة: ١٨]، معروف أن الكافر لم يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، فإذا بنى المسجد فلا قيمة لبنائه ولا عبرة له لأن عمله يتوقف اعتباره على الإيمان بالله واليوم الآخر، فإذا لم يؤمن فعمله كعدمه وكذلك قوله: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [التوبة: ١٨]، وقوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [التوبة: ١٨]، فالخشية خوف مع علم، يعلم صفات الله جل وعلا وما يستحق.

۞ الثالثة: إن اليقين يضعف ويقوى.

اليقين: هو الإيمان يقوى ويضعف، ابن مسعود يقول: اليقين هو الإيمان كله، والصبر نصف الإيمان، والإيمان يزيد وينقص كما هو مذهب أهل السُّنَّة، والأدلة على هذا كثيرة جداً، والزيادة منصوص عليها في آيات كثيرة، ولكن النقص هو الذي اشتبه على بعض الناس، ولهذا بعض السلف توقف في مسألة النقص لأنه لم يأت في النصوص والواقع أن الشيء الذي يقبل الزيادة لا بد من نقصه لأنه قبل الزيادة ناقص، ولهذا استدل البخاري ﵀ في صحيحه في كتاب الإيمان على نقص الإيمان بقوله جل وعلا: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ

---

(١) رواه البخاري رقم ٣٧٣.

﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة: ٣] لأنه قبل الكمال ناقص، فكل شيء يقبل الزيادة ضرورة أنه ينقص ويقبل النقصان، فلا إشكال في هذا مع أنه جاءت نصوص في النقص مثل قوله ﷺ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن**»(١) وقوله ﷺ في النساء: «**ما رأيت ناقصات عقل ودين أسلب للب الرجل منكن**»(٢)، فسئل ما هو نقصان العقل والدين؟ قال: «**نقصان العقل شهادة امرأتين برجل، وأما نقصان الدين فتبقى إحداكن وقتاً لا تصلي**»، وإنما كان هذا أمر قدره الله جل وعلا عليهن، ولكن المقصود أن كثرة العمل فيه الزيادة، فالذي يعمل أكثر من غيره يكون إيمانه زائداً على غيره.

❁ **الرابعة: علامة ضعفه، ومن ذلك هذه الثلاث.**

لأنه قال من ضعف اليقين، وهذا أمر واضح، واليقين المقصود به الإيمان، وإن كان اليقين يعبر عنه بالكمال، ولهذا جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: اليقين الإيمان كله(٣). يعني الإيمان الكامل، وهنا قصد به الإيمان فقط.

فعلامة ضعف الإيمان منها كونه يحمد الناس على رزق الله، ويذمهم على ما لم يقدره الله له، وكونه يطلب رضاهم بسخط الله جل وعلا.

❁ **الخامسة: أن إخلاص الخوف لله من الفرائض.**

وهذا هو المقصود بالباب، أن الخوف فريضة، فرضها الله جل وعلا على المؤمنين يجب أن يخافوا من الله ولا يخافوا من عدوهم، والشيطان يعظم الأعداء في قلوب الناس وفي أنظارهم كما قال الله جل وعلا: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، فلا يجوز أن المؤمنين يرهبون العدو لكثرتهم أو لعدتهم أو لغير ذلك، إذا كانوا مؤمنين حقاً

---

(١) رواه البخاري رقم ٢٤٧٥ و٥٥٧٨، ومسلم رقم ٥٧.

(٢) رواه البخاري رقم ٣٠٤، ومسلم رقم ٧٩ و٨٠.

(٣) رواه البخاري في باب الإيمان وقول الرسول ﷺ: «**بني الإسلام على خمس**».

متبعين رسولهم ومطيعين لأمر ربهم جل وعلا، فالله يلقي في قلوبهم الخوف كما أخبر الرسول ﷺ: **«نصرت بالرعب مسيرة شهر»**(١)، وليس هذا من خصائص الرسول ﷺ، بل هذا له ولأمته ولكن بشرط أن يكونوا متبعين له مطيعين له، أما إذا خالفوا ذلك فيكونون مثل ما قال فيهم ﷺ: **«إذا تبايعتم بالعينة واتبعتم أذناب البقر - يعني رضيتم بالدنيا - ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم»**(٢)، وقال: **«وليقذفن الله في قلوبكم الوهن»**، فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال: **«حب الدنيا وكراهية الموت»**(٣).

يكرهون الموت ويحبون الدنيا، وهذه أضداد، فإذا كره الموت فالسبب أنه يحب الدنيا، وهذا خلاف ما كان عليه السلف من الصحابة وأتباعهم فكانوا يتسابقون إلى الشهادة في سبيل الله، وكانوا إذا قتل أحدهم في سبيل الله هنَّأوه وقالوا هنيئاً لك الشهادة، وقد قال خالد بن الوليد رضي الله عنه: «والله لقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون أنتم الحياة».

۞ السادسة: ذكر ثواب من فعله.

يعني: إخلاص الخوف.



---

(١) رواه البخاري رقم ٣٣٥، ومسلم رقم ٥٢١.

(٢) رواه أبو داود رقم ٣٤٦٢.

(٣) أخرجه أحمد في المسند رقم ٢٢٣٩٧، وأبو داود رقم ٤٢٩٧ من حديث ثوبان قال رسول الله ﷺ: **«يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة على قصعتها»**، قال: قلنا: يا رسول الله أمن قلة بنا يومئذ؟ قال: **«أنتم يومئذ كثير ولكن تكونون غثاء كغثاء السيل ينتزع المهابة من قلوب عدوكم ويجعل في قلوبكم الوهن»** قال: قلنا: وما الوهن؟ قال: **«حب الحياة وكراهية الموت»**.





الباب الثالث والثلاثون

❁ قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: باب قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

هذا الباب أيضاً أراد أن يبين أن التوكل فرض على العبد، يجب أن يكون توكله كله على الله جل وعلا، وأن يخلصه له وأن لا يكون للمخلوق منه شيء، ولهذا قال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾ فقدم المعمول على العامل ليدل على الاختصاص، أن التوكل خاص بالله جل وعلا: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾؛ يعني: لا على غيره، فهو يدل على وجوب إخلاص التوكل على الله وحده، فالآية نص في هذا، ولا يقال توكلت على فلان، أو توكلت على كذا وكذا، هذا لا يجوز أصلاً أن يقع من المسلم، ولكن تقول: وكلت فلان في كذا وكذا، وكلته يعني أنك تكتفي به في أمر من الأمور العادية التي يعملها وتسنده إليه.

قوله: «﴿فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾»: التوكل: مأخوذ من الاعتماد على الشيء، والاكتفاء به، توكلت عليه اكتفيت به واعتمدت عليه في أمر من الأمور. فالتوكل هو تفويض الأمر إلى من بيده أزمة الأمور تفوض أمرك وتكله إليه.

وحقيقته فعل السبب مع اعتماد الإنسان على حصول المراد على الله جل وعلا، وليس التوكل ترك الأسباب؛ لأن الله جل وعلا رتب الأمور على الأسباب، ولا يجوز أن يكون العبد معطلاً للسبب ويقول أنا متوكل على الله، هذا نقص في العقل وقدح في الشرع، ومخالفة لأمر الله جل وعلا، فالاعتماد على السبب شرك وتعطيل السبب قدح في الشرع والعقل.

أما كونه نقص في العقل فهو أمر ظاهر، فلا يمكن أن يقول الإنسان أنا أجلس في بيتي فإن كان قدر لي أن أكون طالب علم سوف يحصل، أنا متوكل على الله في ذلك، أو مثلاً يقول: أنا لا أتزوج إذا كان الله قدر لي أن يكون

لي ولد سوف يحصل، فهذا جهل، الله جل وعلا جعل لكل شيء سبباً، وأمرنا بفعل السبب، والعمل، ولهذا يقول الرسول ﷺ: «**اعملوا فكل ميسر لما خلق له**»[١]، فلا بد من العمل، والقدر لا ينافي هذا لأن الأسباب نفسها من القدر، فهي مقدرة، فالمقدور قُدر مع أسبابه، ولا يقال جاء الحديث: «**لا يرد القضاء إلا الدعاء ولا يزيد في العمر إلا البر**»[٢] فهذا من القدر، فهو مقدر مع المقدور الذي سيحصل لك أنه مرتب على هذا، والله يعلم أنه سيقع هذا فالله ﷻ أمرنا بفعل السبب، ولكن لا يجوز أن نعتمد على الأسباب يجب أن يكون اعتمادنا على الله جل وعلا لا على هذه الأمور التي أمرنا بفعلها، وهي أيضاً لا يمكن أن تستقل بالمراد أو تأتي به وإنما الذي يأتي به هو الله جل وعلا، فعلى هذا يكون اعتمادنا على الله، فإن من التوكل أن تفعل السبب، ولكن لا تعتمد على السبب.

والسبب له موانع وله أسباب أخرى إذا شاء الله جل وعلا صرف هذه الموانع وإذا شاء لم يصرفها، ولهذا ثبت في حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**قال سليمان: لأطوفن الليلة على تسعين امرأة كل واحدة منهن تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، فقال له صاحبه: قل إن شاء الله، فلم يقل إن شاء الله فطاف عليهن جميعاً فلم تحمل منهن إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل، وأيم الذي نفس محمد بيده لو قال: إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون**»[٣]. فالأمر كله بيد الله جل وعلا والأسباب لا تنتج شيئاً إذا أراد الله جل وعلا أمراً من الأمور فلا تنفع الأسباب.

---

(١) رواه البخاري رقم ٤٩٤٩، ومسلم رقم ٢٦٤٧ عن علي بن أبي طالب قال: كنا مع رسول الله ﷺ في بقيع الغرقد في جنازة، فقال: «**ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار**»، فقالوا: يا رسول الله، أفلا نتكل؟ فقال: «**اعملوا فكل ميسر لما خلق له**»، قال: ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝﴾ إلى قوله: ﴿لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ - ١٠] وهذا لفظ البخاري.

(٢) رواه الترمذي رقم ٢١٣٩ عن سلمان ﷺ، وابن ماجه رقم ٤٠٢٠.

(٣) رواه البخاري رقم ٢٨١٩، ومسلم رقم ١٦٥٤.

فالمقصود أن السبب يفعل، ولكن يفعل من باب أنه سبب جعله الله سبباً، فإن شاء نفذه وأدى دوره، وإن شاء لم يفعل شيئاً، وذلك أن الله جل وعلا هو مالك الملك وهو الرب المتصرف في كل شيء، وكل شي ملك له تحت تصرفه، وهو الفعال لما يريد، ما يمكن أن يوجد مخلوق يفعل ما يريد أبداً، الفعال لما يريد هو الله جل وعلا فقط، إذا أراد شيئاً فعله، أما الخلق كلهم فهم يريدون الأشياء ولا يستطيعونها.

ولهذا أمرنا الله جل وعلا بالتوكل عليه، وجاء بالمعمول يعني الجار والمجرور وقدمه على عامله الذي يعمل فيه وهو الفعل ﴿فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾ ليبين لنا أنه يجب أن يكون التوكل خاص بالله جل وعلا وخالص له، ولا يجوز أن يكون توكل الإنسان على مخلوق، ولا يجوز أن تقول: توكلت على فلان، وإن كان الفعل الذي أسندته إليه يمكن أن يفعله لأن نفس التوكل لا يجوز أن يكون على مخلوق أصلاً، وإنما المخلوق يُوكل بفعل شيء، تقول له: افعل لي كذا وكذا، وكلتك أن تفعل كذا وكالة وليس توكل، أما التوكل فهو عمل القلب وأعمال القلوب يجب أن تكون خالصة لله جل وعلا، ولا يجوز أن يكون لمخلوق فيها شيء، ولهذا قال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾؛ يعني: وحده، ليس على أحد معه شيء، فتوكل يعني فوض أمره إلى الله جل وعلا، فأصبح عبداً لله مؤتمراً بأمره مجتنباً نهيه غير معتمدٍ على عمله ولا على نفسه ولا على أي مخلوق.

ومن الأخطاء الشائعة الآن حتى أصبحت تُعَلَّم الأطفال يقال: اعتمد على نفسك وهذا خطأ، الواجب أن يقال: اعتمد على ربك، والنفس إذا اعتمد عليها فهي ضيعة، فمن اعتمد على غير الله لم يفلح، فالاعتماد يجب أن يكون على رب العالمين، وهذا هو حقيقة التوكل وهو ركن من أركان الإيمان لا يصح الإيمان بدونه، كما أن الخوف والرجاء من أركان الإيمان ولهذا جمع بينهما المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ومعلوم أن كثيراً من الناس يتوكلون على مخلوقين ضعفاء مثلهم في حصول رزق أو أمر من الأمور مثل تجارة أو نحو ذلك، فهم يتوكلون على هذه الأشياء يقول أحدهم: أؤمن حياتي بهذه الأشياء، والله جل وعلا تكفل بالأرزاق كلها وهو الذي أقدرك على هذا الشيء، ولو شاء لعطلك عن جميع

الأشياء، بل يصرف القلب عن هذه الأشياء بل يميت القلب، فالواجب أن يكون العبد اعتماده على ربه جل وعلا ثم يفعل السبب على أنه سبب جعله الله سبباً فقط؛ لأن الله أمر به قال سبحانه: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الجمعة: ١٠]، هذا من فعل الأسباب التي أمر الله بفعلها، وأما أن نقول وكلت الأمر إلى الله، لا بد أن يكون مع هذا اعتماد قلبك على ربك وتفعل السبب، ثم بعد ذلك حصول المراد تكله إلى ربك، من هنا يأتي وكلت الأمر إلى الله بعد هذا، يعني بعد فعل السبب وبعد اعتمادك على ربك جل وعلا وقطع النظر عن السبب بأنه يأتي بشيء، وإنما هو سبب، فالاعتماد على السبب شرك وترك السبب وعدم الالتفات إليه قدح في الشرع والعقل، فلا بد من الجمع بين هذه الأمور، ولا يجوز أن يجعل العبد عجزه توكلاً، ويقول: أنا أترك الأعمال وأتوكل على الله وسوف يأتيني كذا وكذا، ثم يصبح ينظر إلى الأسباب من الخلق ونحوهم متى يأتونه بشيء يريده، فهذا عجز ملوم عليه، بل ويعاقب على ذلك.

وقوله: «﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾»: فعلق وجود الإيمان على وجود التوكل، ﴿فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، كما جاء أيضاً أنه يعلق على وجود الإسلام أو نفيه، وهذه الآية في سياق قصة موسى مع قومه لما أمرهم بأمر الله جل وعلا أن يدخلوا على القوم الجبارين: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [المائدة: ٢٣].

فإن في قوله: ﴿إِن كُنتُم﴾ هذه شرطية، ومعروف أن الشرط إذا فقد، فقد المشروط، والمشروط هنا الإيمان والشرط التوكل، فإذا لم يوجد التوكل فالإيمان مفقود، هذا ظاهر من الآية. وبهذا يتبين أن التوكل فريضة على العبد، ومعروف أن الناس يتفاوتون فيه تفاوتاً كبيراً، منهم من يكون توكله ضعيفاً.

قوله: ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾: الإيمان: هل هو مأخوذ من التصديق أو من الأمن؟

المشهور أنه من التصديق، والتصديق إنما يكون بالقلب واللسان أو

بالقلب، فالأعمال ليست من الإيمان على هذا، ثم عمدتهم في أن الإيمان هو التصديق قوله تعالى عن إخوة يوسف عليه السلام: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧]؛ يعني: بمصدق، وهل نقول آمنت به يعني صدقته؟ أو كذبته وكفرت به؟

فالإيمان يقابل الكفر فيقال: هو مؤمن به أو كافر به، والإيمان في اللغة لم يقابل بالتكذيب بل بالكفر، والكفر لا يختص بالتكذيب، بل لو قال له: أنا أعلم أنك صادق ولكن لا أتبعك بل أعاديك وأبغضك وأخالفك، لكان كفره أعظم من كفر المكذب، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، فهم لا يكذبون الرسول ويعرفون أنه صادق تماماً ولكنهم يجحدون ويتكبرون ويعاندون في هذا، فتأمل مثلاً قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة: ٣٤] فهل كفره هذا تكذيب، فقد كان عالماً بالأمور كلها، وهكذا أولياءه غالباً كفرهم من هذا الباب، فكفر التكذيب أقل من كفر الجحود والاستكبار، فأكثر الكفر من الجحود والاستكبار والإباء، ولهذا أخبر الله جل وعلا عن الكفار بقوله: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل: ١٤]، وقال موسى لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، فإذا كان الكفر المقابل للإيمان ليس هو التكذيب فقط، علم أن الإيمان ليس هو التصديق فقط، فالكفر يكون تكذيباً، ويكون مخالفة ومعاداة وامتناعاً بلا تكذيب وعناد.

فكذلك الإيمان يكون تصديقاً مع الموافقة والموالاة والطاعة والمحبة والنصرة والانقياد والتسليم والرضا والفرح والاغتباط، فيكون الإسلام جزء من مسمى الإيمان كما كان الامتناع من الانقياد مع التصديق جزء من مسمى الكفر، فالإيمان إذاً يتضمن أموراً كثيرة، فليس مجرد تصديق فقط.

ومن العلماء من قال: إن الإيمان أصله في اللغة من الأمن الذي هو ضد الخوف، كما قرر ذلك الحليمي في المنهاج وغيره.

وإلى الآن كثير من الناس يلتبس عليه معرفة الإيمان، فأحياناً يقولون

الإيمان هو ما يقر في القلب، أما الأعمال فهي إما شرط صحة أو شرط كمال، كما يكتب الآن وينشر من بعض الذين يدَّعون أنهم علماء، فكيف يكون العمل شرطاً للإيمان مع أن الشرط كما هو مصطلح عليه أن الشروط قبل الأشياء، شرط الشيء قبله، مثل شروط الصلاة: دخول الوقت والطهارة والسترة واستقبال القبلة، فهل هذه من صميم الصلاة أو أنها قبل الصلاة؟ وكذلك الإسلام والنية ولهذا يقول الفقهاء أن شروطها قبلها، فالشرط معناه أنه غير الماهية، فلا يصح أن نقول: أن العمل شرط، وبهذا يتبين لنا دقة تعريف السلف للإيمان، فهو دقيق ولكنه يحتاج إلى تأمل، فهم يقولون أن الإيمان: قول وعقيدة وعمل. يعني أن مجموع هذه الثلاثة هي الإيمان، فإذا فقد واحد منها فُقد الإيمان، فيشتمل على العلم الذي هو العقيدة وليس مجرد علم فقط، لا بد أن يتحلى القلب به، وكذلك القول يقول: آمنت بالله، أو يقول: لا إله إلا الله كما قال عليه الصلاة والسلام: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله**»[1].

وكذلك العمل، فلو أن الكفار مثلاً قالوا للرسول ﷺ نؤمن بك ولكن لا نصلي ولا نزكي ولا نصدق الحديث وتركوا العمل كله، فهل يمكن أن يقول أنكم آمنتم، أو يقال أنكم أكفر من إبليس، فلا يوجد إيمان بلا عمل؛ لأن العمل هو ثمرته بل هذه دلائله، فأما مجرد علم يكون في القلب، وتصديق فهذا لا يكفي ولا يكون الإنسان بذلك مؤمناً، لأن الشيطان يعلم ذلك ويعرفه، والكفار يعرفون ذلك، ولهذا من تأمل ما ذكره الله جل وعلا في قصص الأنبياء مع أممهم يتبين له أن غالب كفرهم كان من باب الجحود والعناد والتكبر والإباء، وأن كفر التكذيب قليل؛ لأن الله جل وعلا أيد الأنبياء بآيات كما قال عليه الصلاة والسلام: «**ما من الأنبياء نبي إلا أعطي على ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة**»[2]، فكتاب الله جل وعلا الذي أعطيه آية من آيات الله،

---

(١) رواه البخاري رقم ١٣٩٩، ومسلم رقم ٢٠ من حديث أبي هريرة.
(٢) رواه البخاري رقم ٤٩٨١، ومسلم رقم ١٥٢ من حديث أبي هريرة ﷺ.

ولكن هذه الآية لا يعرفها إلا من يعرف اللغة العربية، وكل ما تمعن الإنسان باللغة تبين له أن هذا الكتاب آية عظيمة وهو كما يقول الله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ٨٨﴾ [الإسراء: ٨٨]، وقد تحدى أن يأتوا بسورة واحدة منه وإن كانت من أقصر السور مثل سورة الكوثر، وقد حاول بعض الزنادقة أنه يأتي بشيء من ذلك فصار أضحوكة وعبرة للمعتبرين كما وقع لمسيلمة الكذاب وغيره.

فالقرآن آية عظيمة، ولهذا الكفار الآن وقبل الآن فهموا هذا الشيء فحاولوا كل المحاولات وهم لا يزالون يحاولون أن يبعدوا المسلمين عن لغتهم التي يعرفون بها كتابهم ويتبين لهم آية رسوله ﷺ ويتمسكون بهذا الكتاب إذا عرفوه بدينهم، فقد قال أحد كبار قوادهم في زمن سابق لما عقد مؤتمر عن كيف يصدون المسلمين عن دينهم وهو يخطب في هذا المؤتمر أخرج مصحفاً وقال: ما دام هذا المصحف عندهم لن تصدوهم عن دينهم حاولوا أنكم تصدونهم عن هذا فصاروا مرة يدعون إلى اللغة العامية إنها هي التي يجب أن تنتشر وأنها هي لغة الناس كلهم، واللغة الفصحى صعب تعلمها، ومرة يأمرونهم أن يتعلموا لغاتهم ويتركوا لغتهم لأن لغتهم ميتة ليس فيها علوم الطب وعلوم الصناعات، وليس فيها كذا وكذا إلى آخره، وقد حصَّلوا بعض مرادهم، ولا يزالون في هذا الشأن.

فالآية التي أنزلها الله جل وعلا حفظها الله جل وعلا، فكتاب الله جل وعلا محفوظ: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر: ٩]، فالله ﷻ تولى حفظه، وقد نشر في أمريكا كتاب سموه القرآن الحق يحاولون أن يصير هو القرآن للمسلمين، فلا يزال الكفر يعمل عمله بهذا، ولكن لو جاءوا به إلى بلاد المسلمين لظهر بطلانه حتى عند الصبيان الذين في الحلق يعرفون أن هذا باطل؛ لأن القرآن في صدور كثير من الناس ليس في كتاب موضوع في مكتبة، أو يعرفه الخاصة وعدد محدود مثل التوراة، فهذا من حفظ الله له أن جعل القرآن يعرفه كبارهم وصغارهم رجالهم ونساؤهم، فالأمة تنقله عن آخرها ليس رجلاً ولا عشرة ولا مئة كلها تتوارثه من عهد الصحابة، فهذا من حفظ الله جل وعلا له وقد يسَّره للذكر.

واللغة محفوظة، فهي محفوظة بالقرآن، فالقرآن هو مصدر اللغة الآن وفيه من اللغة الشيء الكثير، ولهذا يستشهد به أهل اللغة وإن كانت اللغة واسعة يجب أن يُحافظ عليها لأن الإنسان لا يفهم ما قاله الرسول ﷺ إلا إذا فهم لغته، ولهذا يقول العلماء: يجب على كل مسلم أن يتعلم اللغة العربية لأنه لن يفهم عن رسول الله ﷺ إلا إذا عرف لغته، فاللغة دين يدان الله به، وحفظها والمثابرة على ذلك يؤجر العبد عليه.

والإيمان بالله جل وعلا يتضمن الإيمان بوجود الله وبأسمائه وصفاته، وامتثال أمره واجتناب نهيه، وتصديق خبره الذي يخبر به جل وعلا، فلا بد من هذه الأشياء فكلها داخلة بالإيمان بالله.

وكذلك يتضمن الإيمان باليوم الآخر ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ [البقرة: ٦٢]، واليوم الآخر يدخل فيه كل ما أخبر الله به جل وعلا بعد الموت فهو داخل في هذا.

وكذلك الإيمان بالملائكة وبالرسل وبالكتب، فكلها داخلة بالإيمان بالله جل وعلا فلا بد منها.

❁ قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ الآية [الأنفال: ٢].

قوله: «الآية»: قصد تمام الآيات التي فيها صفات المؤمنين ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ ذكر فيها خمس صفات للمؤمنين بعدما حصر الإيمان فيهم، فمن كانت هذه صفاته حصل له كمال الإيمان، ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ هذه واحدة، ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ وهذه الثانية، والثالثة قوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، والرابعة: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، والخامسة: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾، وهي أمور عظيمة، وما عداها من الأمور التي يجب أن يتحلى بها المؤمن ويتصف بها داخلة فيها، فالإيمان محصور في هذه الأشياء المذكورة لأنها تستدعي ما عداها من أمور الإيمان إذا حصلت هذه للإنسان تامة فلا بد أن يأتي بالبقية.

قوله: «﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾»: ﴿وَجِلَتْ﴾؛ يعني: خافت وارتعدت من خوف الله جل علا، فالوجل من الخوف، فوجل القلب خوفه وخشيته، إما أن يكون قصر في حقه جل وعلا، أو كونه خاف وعيده أو أنه اقترف شيئاً مما نهاه الله عنه، قال السدي: هو الرجل يريد أن يظلم أو قال: يهم بمعصية، فيقال له: اتق الله، فيجل قلبه[١]. فيقف ويمتنع وهذا مجرد مثال، وإلا فالآية أوسع من هذا وأعظم، والسلف كانوا يذكرون الأمثلة للتقريب، تقريب المعنى إلى الإفهام.

وهناك سبب آخر وهو الحب، حب الله جل وعلا إذا ذكر المحبوب لا بد أن يتحرك القلب، ووجله تحركه إما خوفاً من الفوات أو خوفاً من التقصير فترجع إلى هذه الأشياء، فالمقصود أن المؤمن إذا ذكِّر بربه لا بد أن يخاف، فإذا خاف لا بد أن يقف عن المعاصي ويفعل الطاعات وهذا هو زيادة الإيمان.

قوله: «﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾»: ﴿تُلِيَتْ﴾؛ يعني: قرأت، والمقصود بالآيات هنا الآيات السمعية يعني الآيات القولية، آيات القرآن، فمعنى ذلك أن المؤمن إذا سمع آيات القرآن لا بد أن يزداد إيماناً ومن الأمور، التي إذا سبر الإنسان حاله فيها وجدها أن استماع القرآن من غيره أبلغ وأكثر تأثيراً في نفسه بشرط أن ينصت ويستمع ويجمع قلبه على ذلك، ولهذا قال رسول الله ﷺ لابن مسعود رضي الله عنه: «**اقرأ علي، قال: أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: نعم، أحب أن أسمعه من غيري**» قال: فقرأ فافتتح سورة النساء، حتى بلغ قوله: «**فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً**» قال: حسبك، فرفعت رأسي، فإذا عيناه تذرفان[٢]، صلوات الله وسلامه عليه.

قوله: ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾: إما أنهم خافوا أو رجوا، أو أنهم علموا وتفكروا بها فزادوا علماً، وهذا من مقتضيات زيادة الإيمان، فمن زيادة الإيمان التأثر بالقرآن.

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ١٢.

(٢) سبق تخريجه في الباب الثاني والثلاثون.

وزيادة الإيمان إما أن يكون عنده رغبة في العمل الصالح وإما عنده وجل في قلبه ورجاء لثواب ربه أو خوفاً من عقابه وكل هذا من زيادة الإيمان، يعني أنه لا بد أن يحصل له أثر عندما يسمع كلام الله جل وعلا، فإذا كان العبد ممن يحب الصوت فقط ويستمع إلى الصوت ولا يلتفت إلى المعنى فلن يتأثر بشيء، يصبح مثلاً يريد الموسيقى والصوت الحسن الجميل الذي يرتاح إليه ويميل إليه وهذا لا يوجد شيئاً من الإيمان، بل هذا يضر أكثر مما ينفع، ولا يقال مثلاً أن الصوت الحسن غير مطلوب في القرآن، بل مطلوب ومستحب، ولكن الغناء فيه لا يجوز، يعني كون الإنسان يتخذه شبه الأغاني وإنما يحسن صوته به كما قال الرسول ﷺ: «**زينوا القرآن بأصواتكم**»[1]؛ يعني: يجتهد أن يكون صوته حسناً، ولكن لا يخرجه عن كونه كلام عربي على وضع معين فيجعله على مقاطع معينة كمقاطع الموسيقى كأنه شعر، هذا لا يجوز.

والرسول ﷺ كان يحب الصوت الحسن الجميل ويستمع إليه، ولهذا لما مر على بيت أبي موسى الأشعري رضي الله عنه وهو يقرأ في الليل وقف يستمع، ثم لما غدا عليه في الصباح قال له: «**لو رأيتني البارحة وأنا أستمع لك وقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود**»[2]، لأن أبا موسى الأشعري رضي الله عنه كان حسن الصوت، فقال له أبو موسى: والله لو علمت بك لحبَّرته لك تحبيراً[3]. يعني: لحسنته وزينته فترتاح إليه أكثر، فدل على أن تحسين الصوت بالقرآن أنه أمر مطلوب لأنه قد يرقق القلب ويجذب النفس إلى التأثر باستماعه بخلاف إذا جعل على شبه الأغاني وشبه مقاطع الموسيقى والشعر، فإن هذا لا يجوز، وقد جاء التحذير من ذلك، وأنه يخرج في آخر الزمان قوم هذه صفتهم يقدمون أحدهم يقرأ لهم ليس هو أعلمهم ولا أتقاهم وإنما يغنيهم، وهؤلاء: «**لا يجاوز**

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم ١٨٤٩٤، وأبو داود رقم ١٤٦٨، وابن ماجه ١٣٤٢، والنسائي رقم ١٠١٥ من حديث البراء بن عازب.

(٢) رواه مسلم رقم ٧٩٣.

(٣) رواه البيهقي رقم ٤٨٩٥، والبزار رقم ٣١٦٠، والحاكم في المستدرك رقم ٥٩٦٦ وصححه ووافقه الذهبي.

القرآن حناجرهم»؛ يعني: لا يصل إلى قلوبهم وإنما مقصودهم استماع الصوت فقط.

فالمقصود أن المؤمن إذا سمع كلام الله لا بد أن يزداد خيراً، إما وجل القلب وخوفه، أو رجاءه ورغبته، أو زيادة العمل، أو الانزجار عن أمر من الأمور التي هو فيها.

قوله: «﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾»: فجعل التوكل هو الجامع، وتقديم المعمول ليفيد قصر التوكل على الله، وأن التوكل فريضة لا يجوز أن يشرك فيه مع الله غيره، والتوكل من مقامات الإيمان العظيمة، وأنه إذا فقد فالإيمان مفقود لا وجود له.

فعلى ذلك لا يحصل التوحيد إلا بالتوكل على الله جل وعلا كما دلت عليه هذه الآية وغيرها.

والتوكل على المخلوق شرك، وهو على قسمين:

يكون توكل على من هو غائب أو ميت بأنه يشفع له أو ينفعه أو يدفع عنه من أمور الدنيا والآخرة، فهذا شرك أكبر لا يغفره الله جل وعلا إلا بالتوبة منه والإقلاع عنه.

وتوكل على وظيفة أو سلطان أو عمل من أعمال الدنيا أو ما أشبه ليتحصل منه على شيء من الدنيا، فهذا من الشرك الأصغر، وقد يترقى بالإنسان إلى أن يكون معتمداً عليه قاطعاً النظر عن ربه جل وعلا، فالتوكل على المخلوق إما أن يكون شركاً أكبر أو شركاً أصغر، أما الوكالة الجائزة فهي أن يفوض الإنسان في عمل ما أن يقوم مقامه يقول: وكلتك أن تعمل كذا وكذا ولكن لا يعتمد عليه قلبه وإنما يعتمد على ربه في حصول المراد إنما يكل إليه الشيء الذي يفعله وباستطاعته نائباً عنه قائماً مقامه في ذلك، فهذا أمر جائز لا لوم على الإنسان فيه، أما أن يعتمد على مخلوق في أن يحصل له رزقه من قبله سواء كان أمراً معنوياً أو شيئاً حسياً، فالمعنوي كان يعتمد على صنعته أو على معرفته، وكونه يقول أنا أعرف كيف أتصرف، أعرف كيف أتجر، أعرف كيف آتي بالبضائع وما أشبه ذلك، فيضيف الأمور إلى معرفته

وإلى نفسه، ولهذا حصل لي كذا وحصل لي كذا، فهذا نوع من الشرك الأصغر، الشرك الخفي، وما أكثره، ولا يسلم من هذا إلا من سلَّمه الله جل وعلا.

وأما إذا اعتمد على ميت أو غائب بأنه سوف يحصل له شفاء قلبه، أو شفاء مرضه، أو أنه يحصل له رزقه بسببه، أو أنه يكون قد وكل إليه النصر في ذلك، وكل الله إليه التصرف في ذلك من باب الكرامة أو ما أشبه ذلك كما يعتقده بعض الضلال، أو أنه يعتمد على شفاعته في القيامة ونجاته من النار في شفاعته فيه وما أشبه ذلك، فهذا من الشرك الأكبر الذي لا يجوز أن يقع من المؤمن.

أما كون الإنسان يكل غيره بأن يقوم ببعض الأمور نيابة عنه فهذا يسمى وكالة ولا يجوز أن نقول توكل عليه في كذا، بل نقول: وكله في كذا، الشيء الذي يكون محدداً أو معروفاً ويقوم به مقامه، مع أنه لا يعتمد قلبه عليه بل يعتمد على ربه جل وعلا في حصول المراد فهذا أمر جائز.

وقوله: «﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾»: إقامة الصلاة ورد بهذا اللفظ في جميع ذكر الصلاة في القرآن بلفظ الإقامة ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يعني: يأتون بها كاملة بأركانها وواجباتها، ومن أعظم ما ينبغي أن يعتبر في إقامتها الخشوع وحضور القلب، أما حضور القلب فهو متعين واجب على الإنسان ويعاقب بعدمه.

أما الخشوع فسُنَّة وفضل إذا حصل فهو خير والله جل وعلا أثنى على الذين يخشعون في صلاتهم، وإذا لم يحصل فإن العبد لا يأثم فيه، أما حضور القلب فإنه يأثم، وحضور القلب أن تحضر قلبك وتتأمل ما أنت فيه وما تسمع وأين أنت ،فأنت قائم بين يدي الله جل وعلا كما قال عليه الصلاة والسلام: «**فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده ما لم يلتفت**»[1]، فكيف يقابله ثم يلتفت عنه ويُعرِض، هذا من استيلاء الشيطان عليه والغفلة واللهو في هذا، وحديث القلب في أمور الدنيا فهذا معصية، ولهذا جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «أنه لا يكتب للإنسان من صلاته إلا ما حضر» يعني: حضرها قلبه كما جاء في

(١) المسند رقم ١٧١٧٠، والترمذي رقم ٢٨٦٣ من حديث الحارث الأشعري.

الحديث: «إن الرجل لينصرف وما كتب له إلا عشر صلاته تسعها ثُمُنها سُبعها سدسها خُمسها ربعها ثلثها نصفها»[1] أو كاملة، وقد لا يكتب له إلا عُشرها، وقد لا يكتب له شيء، فإذا انتهى من صلاته تُلَفُّ كما يلف الثوب الخلِق ويرمى بها وجهه وتقول: ضيَّعك الله كما ضيعتني، وإلا تصعد ولها نور إلى السماء، يقبلها الله جل وعلا، فالشيطان حريص على أن يصرف العبد عن صلاته، ولهذا يذكره بالشيء الذي ينساه في صلاته، ويأتيه يحدثه بالشيء الذي يهمه أو يفرحه حتى يشغله، فمجاهدته في مثل هذا المقام أمر متعين يجب أن يجاهد الشيطان ويجاهد نفسه في ذلك، ويجتهد في حضور قلبه وتأمُّل كلام الله، وتأمل موقفه، وإذا كبَّر قال: الله أكبر، علم أن الله أكبر من كل شيء، وكذلك إذا ركع يتأمل أنه يخضع لرب العالمين، لأن الركوع خضوع وذل واستكانة، فهو نوع من السجود، وإذا سجد كذلك ذل وخضع، ويتأمل أنه وضع أشرف ما في بدنه وضعه على الأرض، خاضعاً لربه جل وعلا وذالاً وأقرب ما يكون الرب من عبده وهو ساجد.

وقوله: «﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾»: هذا عام يدخل فيه الزكاة والصدقة وصدقة التطوع والزكاة الفرض لا بد منها، فلا بد أن يؤديها الإنسان فرحاً بها مغتبطاً بها مسروراً أنه أعطي مالاً وطلب منه القليل يؤديه وهو يؤجر على هذا القليل، ومن المعلوم المقرر في الشرع أن أداء الواجبات أفضل من التطوع بالأشياء التي لم تجب، فهو يؤجر عليها أكثر.

۞ قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **وقوله**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝﴾ [الأنفال: ٦٤].

حسبك يعني: كافيك الله، كافيك ما يهمك، وكافيك أعدائك.

وقوله: «﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾»؛ يعني: وكافي من اتبعك. وقد ذكر شيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم ـ رحمهما الله ـ أن من المفسرين من أخطأ في هذا

---

(١) رواه أبو داود رقم ٧٩٦ من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنه.

فقال: إن العطف في قوله: ﴿حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ أن العطف على قوله: ﴿حَسْبُكَ﴾ يعني: أن حسبك الله وحسبك المؤمنون، فهذا خطأ فظيع، والمعنى الصحيح: حسبك الله وحسب أتباعك من المؤمنين.

والحسب هو الكافي، يعني أنه يكفيك فلا تطلب شيئاً من غيره، فهذا معنى التوكل ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ يعني: كافيه.

۞ قال المؤلف رحمه الله: وقوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

قوله: «﴿فَهُوَ﴾»: يعني الله «﴿حَسْبُهُۥٓ﴾» الحسب هو الكافي، وهذا فضل عظيم، التوكل جزاءه عظيم جداً حيث جعل جزاء المتوكل أنه هو حسبه جل وعلا، ومن كان الله حسبه فلن يأتيه ما يضره فمن توكل على الله، فالله يكون كافيه كل ما أهمه، فلو كادته السماوات ومن فيها، والأرض ومن فيها، لم يضره ذلك، لأن الله جل وعلا كافيه كل شيء، وإذا كافى الله عبده فكل الأشياء نواصيها بيد الله يتحكم فيها كيف يشاء تعالى وتقدس.

والتوكل ليس معناه تعطيل الأسباب، فهذا يسمى تواكلاً وعجزاً، فتعطيل الأسباب قدح في الشرع والعقل، ولهذا جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون، ويقولون: نحن المتوكلون، فإذا قدموا مكة سألوا الناس فأنزل الله: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧](١)، فقيل لهم: بل أنتم المتأكلون من الناس، يجب أن تستعدوا وتأخذوا قوتكم، ولا تطمعوا بما في أيدي الناس فلا بد من فعل السبب.

۞ قال المؤلف رحمه الله: وعن ابن عباس، قال: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا له: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]. **رواه البخاري(٢).**

---

(١) رواه البخاري رقم ١٥٢٣.　　(٢) رقم ٤٥٦٣.

يعني أن الخليلين إبراهيم وابنه محمد عليهما الصلاة والسلام قالا هذه الكلمة في أحرج المواقف وأعظم ما وقع لهما، فإبراهيم ﷺ لما حطم الأصنام، وهو وحده وكان تحطيمه لها دعوة إلى عبادة الله وحده وتوحيده ولكن الكفار لا يفيد فيهم لا عقل ولا حجج، فمن يضلل الله فلن تجد له هادياً وفي النهاية قالوا: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنبياء: ٦٨] فصاروا يجمعون حطباً عظيماً ثم أضرموا ناراً عظيمة فقذفوه فيها. فقال عند ذلك: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ يعني: هو كافيني من كل شيء، فقال الله جل وعلا للنار: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]، فهذا من أعظم الآيات وهو يجادلهم ويناظرهم، ولم يكن له قوة يقاتلهم بها فقال: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ فصار كافيه، وفي لحظة قال للنار: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا﴾ فصارت روضة من رياض الدنيا فقام يصلي فيها، فأين كيد الكفار؟ وأين جمعهم؟ وهو رجل وحده حيث كفاه الله جل وعلا لأنه قائم لله جل وعلا غير ملتفت للخلق وكلهم عليه، فصار النصر حليفه.

وكذلك قصة أبي مسلم الخولاني، دعاه الأسود العنسي إلى أن يشهد أنه رسول الله فقال: أتشهد أني رسول الله؟ فقال: لا أسمع، أشهد أن محمداً رسول الله. فألقاه في النار فلم تضره[1]. فإذا صدق الإنسان ربه جل وعلا فهو حسبه.

وكذلك ما حصل لمحمد ﷺ حينما تألب عليه الكفار وحصل، فقال ﷺ: «حسبي الله ونعم الوكيل»، وأمر أصحابه أن يقولوها فكفاه الله جل وعلا مع أصحابه، ونزل عليه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣، ١٧٤].

فالمقصود أن التوكل والاعتماد على الله في أحلك الأمور وأشدها يكون

---

(١) البداية والنهاية ٤/ ٥٤٢.

من أعظم الفرج وأقرب النصر لأن الله جل وعلا بيده كل شيء وهو الذي يتصرف في الخلق كيف يشاء وهو الذي ينصر عبده المؤمن، فهو مع المؤمنين بالنصر والتأييد.

نسأل الله جل وعلا أن يجعلنا من المؤمنين الذين يتوكلون على ربهم ويعتمدون عليه ويتبعون سُنَّة نبيهم محمد ﷺ.

۞ قال المؤلف رحمه الله: فيه مسائل:

۞ الأولى: أن التوكل من الفرائض.

يعني: أنه لا بد من فعله لكل فرد، ومن أخلَّ به فهو آثم، أما من لم يأت به فإنه لم يأت بالتوحيد.

۞ الثانية: أنه من شروط الإيمان.

يعني أنه قال: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فإن هذه شرطية، فإذا انتفى التوكل انتفى الإيمان.

۞ الثالثة: تفسير آية الأنفال.

قوله جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ فالمعنى: يا أيها النبي الله كافيك وكافي أتباعك، أما قول من قال: الله كافيك وأتباعك يكفونك، فهذا لا يجوز لأن الحسب يجب أن يخلص لله جل وعلا، فهو حسبك وحسب أتباعك، يعني الله هو الذي يكفيك فيجب أن تعتمد عليه وتتوكل عليه جل وعلا، وكذلك أتباعك يجب أن يعتمدوا عليه، فإذا توكلوا عليه فهو حسبهم.

۞ الرابعة: عظم شأن هذه الكلمة، وأنها قول إبراهيم عليه السلام ومحمد ﷺ في الشدائد.

ولكن مجرد قول بلا تحلي القلب فيها، وصدق مع الله ما يكفي، وإن نفع فإنه لا يكفي.



الباب الرابع والثلاثون

❁ قال المؤلف رحمه الله: باب قول الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف: ٩٩].

المقصود بالباب أن يكون العبد خائفاً راجياً، وأن يكون خائفاً من ذنوبه ومن عقاب الله جل وعلا، وأن يكون راجياً لرحمة الله جل وعلا، وذلك أن بواعث الخوف محققة وهي أن العبد لا ينفك عن الذنوب، وعذاب الله شديد، وأما أعماله التي يعملها فهو لا يدري هل هو أتى بها على الوجه الذي يمكن قبولها أولاً والمؤثرات فيها قد تكون كثيرة، ولا يدري هل قبلت توبته من الذنوب أو لم تقبل؟ فإذاً يكون الذنب محقق وأما الموانع من العذاب فهي مرجوة وهذا معناه أنه يكون خائفاً ولكن مثل ما سبق يجب أن لا يخرجه الخوف إلى حد القنوط، يكون معتدلاً في خوفه والخوف المعتدل هو الذي يمنعه من ارتكاب المعاصي أو من ترك الواجبات، ولا يزيد على ذلك، كما أنه أيضاً يجب أن يكون محسناً الظن بربه جل وعلا، فالله جل وعلا عند ظن عبده به، ولكن إحسان الظن يكون مع العمل كما قال الله جل وعلا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾ [البقرة: ٢١٨]، أما الرجاء مع الإقامة على المعاصي فهو غرور من الشيطان، وهذه حالات المؤمن التي لا ينفك عنها، ولهذا أثنى الله جل وعلا على عباده المصطفين أنهم يدعون ربهم رغباً ورهباً، يرغبون في رحمته ويطمعون في إحسانه وبره، ويرهبون عذابه، وكذلك أفعال الإنسان فإنها لا تكون مستقيمة كما ينبغي وكما أمر الله تعالى.

وفي هذه الآية ذكر حالة المعذبين، وأن العذاب جاءهم بغتة والله جل وعلا يعطي الإنسان بالابتلاء فإن شكر وعرف المنعم وأثنى عليه وعمل بطاعته زاده نعمة، وإن كفر النعمة فربما زيد في نعمته حتى يظن أنه مرضي عنه أو

ينسى أمر الله جل وعلا وعقابه فيأتيه العذاب بغتة، هذا إذا كان العذاب عاماً، أما إذا كان العذاب خاصاً بالإنسان نفسه فهذا أمره لا ينضبط في شيء معين، فإن العذاب قد يكون ظاهره الخير فيما يتصوره الإنسان، وهو في الواقع عذاب، كأن مثلاً يكون مذنباً ويقيم على الذنوب ثم تزداد صحته وعافيته ودنياه، ثم يزداد بعداً عن ربه جل وعلا كل يوم أو كل وقت، وهو يظن أنه على خير حتى تتراكم أعماله وذنوبه على قلبه، فيصبح قلبه مغطى عن معرفة نفسه ومعرفة حق ربه فيكون قد ران على قلبه ما كان يكسبه كما قال الله جل وعلا: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين: ١٤].

والران هو آثار الذنوب وعقوباتها فالعقوبة الحقيقية هي العقوبة في الدين، وليست العقوبة في النفس أو في المال، فإن هذا قد يكون تكفيراً وتمحيصاً، فيكون خيراً للعبد.

قوله: «﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾»: هذه الآية، جاءت بعد ما ذكر الله تعالى قصص الأنبياء، وأخذه للأمم الكافرة، قال الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ إلى قوله: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف: ٩٧، ٩٩] هذا يدل على أن أخذ الله يأتي بغفلة، إما أن يكون نائماً والنوم إما يراد به نوم البدن، وقد يراد به نوم القلب، غافل عن هذا الشيء، أو أنهم في لهو وطرب، يأتيهم البأس وهم في اللعب، ولكن هذا الغالب أنه لا يكون إلا بعد النعم وبعد ما تغدق عليهم النعم، وتكثر عليهم فضائل الله الدنيوية، ولهذا السلف يقولون: إذا رأيت الرجل ينعم عليه وهو في معاصي الله فاعلم أن ذلك مكر من الله يمكر به، وفي الحديث: «**إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج**»[1].

قوله: ﴿أَفَأَمِنُوا﴾: الهمزة هنا للإنكار، كيف يأمن العبد مكر الله جل وعلا.

وقوله: ﴿مَكْرَ اللَّهِ﴾: المكر هو أن يأتيه العذاب من حيث أنه يظن

---

(١) أحمد في المسند رقم ١٧٣١١ من حديث عقبة بن عامر.

أنه رحمة أو خير، وقد يكون ذلك بغتة كأن يُمنع الإنسان من الاستعتاب والتوبة، ومنعه إما بصرف قلبه عن طاعة الله جل وعلا فإن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمٰن جل وعلا يقلبها كيف يشاء، فيجب أن يخاف العبد من جراء ذنوبه أن يحال بينه وبين معرفة الحق ومطالعة الذنوب ومعرفة نفسه أو يكون ذلك بأخذه بغتة، يعني يأتيه الموت بغتة، وما أكثر ما يأتي الموت في هذه الأوقات بغتة، إما حوادث، وإما موت مفاجئ، فلا يتمكن الإنسان لا من توبة ولا من عمل، فيؤخذ على ما هو عليه، وقد جاء أن موت الفجأة أخذ للفاجر وراحة للمؤمن[١].

والرسول ﷺ استعاذ من موت الفجاءة وأخبر أنه يكون في آخر الزمان كثير، وعلى كل حال العبد لا يخلو من الذنوب، وعذاب الله شديد ولا يجوز أن يكون متهاوناً بأمر ربه جل وعلا ومستبعداً عقاب الله تعالى، وهو أنواع شتى، منها خوف الخاتمة ما يدري ما يكون في عاقبة الأمر، وهذا أمر كان السلف يخافون منه كثيراً، فهذا سفيان الثوري رحمه الله: بات ليلة يبكي بكاءً شديداً، فعاتبه بعض أهله، فقال له: أكل هذا خوفاً من الذنوب؟ فأخذ عوداً من الأرض فقال: الذنوب لا تساوي عندي هذا، ولكن ما أدري ماذا أموت عليه؛ لأن القلوب تقلب والله جل وعلا كتب كل شيء في الأزل.

قال معاذ بن جبل رضي الله عنه الذي قال له رسول الله ﷺ لما أخذ بيده: «والله إني لأحبك فقال: **أوصيك يا معاذ لا تدعن في دبر كل صلاة تقـ[illegible] أعنِّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**»[٢]، لما حضرته الوفاة [illegible] يبكي: قيل له: ما الذي يبكيك؟ قال: إني سمعت رسول الله ﷺ [illegible] «**إن الله قبض قبضتين فقال: هؤلاء في النار وهؤلاء في الجنة**»، فلا أدري أي القبضتين أنا[٣]. وهذا كثير جداً في حالاتهم من تتبعها تعجب أشد العجـ[illegible]

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة رقم ١٢٠٠٥ عن ابن مسعود قال: موت الفجاءة راحة على المؤمنين وأسف على الكفار.

(٢) رواه أبو داود رقم ١٥٢٢.

(٣) أخرجه أحمد في المسند رقم ١٧٥٩٣.

ينسى أمر الله جل وعلا وعقابه فيأتيه العذاب بغتة، هذا إذا كان العذاب عاماً، أما إذا كان العذاب خاصاً بالإنسان نفسه فهذا أمره لا ينضبط في شيء معين، فإن العذاب قد يكون ظاهره الخير فيما يتصوره الإنسان، وهو في الواقع عذاب، كأن مثلاً يكون مذنباً ويقيم على الذنوب ثم تزداد صحته وعافيته ودنياه، ثم يزداد بعداً عن ربه جل وعلا كل يوم أو كل وقت، وهو يظن أنه على خير حتى تتراكم أعماله وذنوبه على قلبه، فيصبح قلبه مغطى عن معرفة نفسه ومعرفة حق ربه فيكون قد ران على قلبه ما كان يكسبه كما قال الله جل وعلا: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين: ١٤].

والران هو آثار الذنوب وعقوباتها فالعقوبة الحقيقية هي العقوبة في الدين، وليست العقوبة في النفس أو في المال، فإن هذا قد يكون تكفيراً وتمحيصاً، فيكون خيراً للعبد.

قوله: «﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾»: هذه الآية، جاءت بعد ما ذكر الله تعالى قصص الأنبياء، وأخذه للأمم الكافرة، قال الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ إلى قوله: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف: ٩٧، ٩٩] هذا يدل على أن أخذ الله يأتي بغفلة، إما أن يكون نائماً والنوم إما يراد به نوم البدن، وقد يراد به نوم القلب، غافل عن هذا الشيء، أو أنهم في لهو وطرب، يأتيهم البأس وهم في اللعب، ولكن هذا الغالب أنه لا يكون إلا بعد النعم وبعد ما تغدق عليهم النعم، وتكثر عليهم فضائل الله الدنيوية، ولهذا السلف يقولون: إذا رأيت الرجل ينعم عليه وهو في معاصي الله فاعلم أن ذلك مكر من الله يمكر به، وفي الحديث: «**إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج**»(١).

قوله: ﴿أَفَأَمِنُوا﴾: الهمزة هنا للإنكار، كيف يأمن العبد مكر الله جل وعلا.

وقوله: ﴿مَكْرَ اللَّهِ﴾: المكر هو أن يأتيه العذاب من حيث أنه يظن

---

(١) أحمد في المسند رقم ١٧٣١١ من حديث عقبة بن عامر.

أنه رحمة أو خير، وقد يكون ذلك بغتة كأن يُمنع الإنسان من الاستعتاب والتوبة، ومنعه إما بصرف قلبه عن طاعة الله جل وعلا فإن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمٰن جل وعلا يقلبها كيف يشاء، فيجب أن يخاف العبد من جراء ذنوبه أن يحال بينه وبين معرفة الحق ومطالعة الذنوب ومعرفة نفسه أو يكون ذلك بأخذه بغتة، يعني يأتيه الموت بغتة، وما أكثر ما يأتي الموت في هذه الأوقات بغتة، إما حوادث، وإما موت مفاجئ، فلا يتمكن الإنسان لا من توبة ولا من عمل، فيؤخذ على ما هو عليه، وقد جاء أن موت الفجأة أخذ للفاجر وراحة للمؤمن[(١)].

والرسول ﷺ استعاذ من موت الفجاءة وأخبر أنه يكون في آخر الزمان كثير، وعلى كل حال العبد لا يخلو من الذنوب، وعذاب الله شديد ولا يجوز أن يكون متهاوناً بأمر ربه جل وعلا ومستبعداً عقاب الله تعالى، وهو أنواع شتى، منها خوف الخاتمة ما يدري ما يكون في عاقبة الأمر، وهذا أمر كان السلف يخافون منه كثيراً، فهذا سفيان الثوري رحمه الله: بات ليلة يبكي بكاءً شديداً، فعاتبه بعض أهله، فقال له: أكل هذا خوفاً من الذنوب؟ فأخذ عوداً من الأرض فقال: الذنوب لا تساوي عندي هذا، ولكن ما أدري ماذا أموت عليه؛ لأن القلوب تقلب والله جل وعلا كتب كل شيء في الأزل.

قال معاذ بن جبل رضي الله عنه الذي قال له رسول الله ﷺ لما أخذ بيده: «**والله إني لأحبك فقال: أوصيك يا معاذ لا تدعن في دبر كل صلاة تقول: اللهم أعنِّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**»[(٢)]، لما حضرته الوفاة رضي الله عنه صار يبكي: قيل له: ما الذي يبكيك؟ قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله قبض قبضتين فقال: هؤلاء في النار وهؤلاء في الجنة**»، فلا أدري في أي القبضتين أنا[(٣)]. وهذا كثير جداً في حالاتهم من تتبعها تعجب أشد العجب

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة رقم ١٢٠٠٥ عن ابن مسعود قال: موت الفجاءة راحة على المؤمنين وأسف على الكفار.

(٢) رواه أبو داود رقم ١٥٢٢.

(٣) أخرجه أحمد في المسند رقم ١٧٥٩٣.

في المقارنة بين حالاتنا وحالاتهم، فعلى هذا يجب على العبد أن يكون خائفاً.

أحد العلماء رأى تلميذاً له يضحك فقال له: هل فكرت في عاقبة أمرك؟ فقال له: والله تركتني لا يهنأ لي عيش. يعني إذا فكر الإنسان في عاقبة الأمر ما يدري ماذا يكون له، ولا سيما إذا كان الإنسان يتحقق أن رأس ماله في عمره القصير، فلا بد أن يخاف على رأس المال أن يكون بلا فائدة، والحقيقة أن اكتساب الخير والفضل والسعادة في هذا العمر القصير، أو اكتساب الشر الطويل والعذاب العريض الذي لا ينقضي هو في هذا، فحقيق بالعاقل أن يخاف، وخوفه بأن يلجأ إلى ربه جل وعلا دائماً ويفتقر إليه ويسأله الثبات، ولعظيم هذا الأمر ولرحمة الله جل وعلا وإحسانه إلينا أوجب علينا أن نسأله هداية الصراط المستقيم في كل ركعة من ركعات الصلاة وهذا لشدة الحاجة، فالعبد في أعظم الحاجة لهذا الأمر، ولهذا يقول الله جل وعلا: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝١٧﴾ [الحديد: ١٧]، يقول ابن كثير رحمه الله: فيه إشارة إلى أنه تعالى، يلين القلوب بعد قسوتها، ويهدي الحيارى بعد ضلتها، ويفرِّج الكروب بعد شدتها، فكما يحيي الأرض الميتة المجدبة الهامدة بالغيث الهتَّان الوابل، كذلك يهدي القلوب القاسية ببراهين القرآن والدلائل ويولج إليها النور بعدما كانت مقفلة لا يصل إليها الواصل، فسبحان الهادي لمن يشاء بعد الإضلال، والمضل لمن أراد بعد الكمال الذي هو لما يشاء فعال، وهو الحكم العدل في جميع الفِعال، اللطيف الخبير الكبير المتعال[1].

فأخبر الله جل وعلا في هذه الآية أن عذابه لا يأتي إلا عند الأمن إذا أمنوا: ﴿أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ ۝٩٧﴾ [الأعراف: ٩٧] يعني: لاهون غافلون في غيهم ولعبهم، أو ﴿نَآئِمُونَ﴾، وكلها سواء، فالنائم غافل أيضاً ولاه.

واللعب يدخل فيه الدنيا كلها، كل أمور الدنيا لعب في الواقع كما قال

(١) تفسير ابن كثير ٥/٢١.

سبحانه: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد: ٢٠]، ثم تنتهي كأنها مثل السحاب الذي جاء فأمطر ثم مر كأن لم يأت فجاء بعد وقت قليل الصيف والشمس والهواء فأطارته فصار حطاماً تذروه الرياح، هذه حقيقة الدنيا، ولهذا كان بعض العلماء يأخذ تلامذته ويذهب بهم إلى المزابل فيقول: انظروا هذه حقيقة الدنيا. الدنيا لباس ومأكول ومنكوح عاقبتها هذه المزابل فقط.

فيجب أن يكون الإنسان مترفعاً بنفسه عن هذه الحالات التي هي حالات البهائم والإنسان إذا غفل صار أسوأ من البهيمة، ولهذا يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾﴾ [التين: ٤، ٥]، والإنسان هنا اسم جنس، فهو عام كل الناس خلقهم في أحسن تقويم، ثم رددناهم أسفل سافلين، واستثنى من ذلك الذين آمنوا وعملوا الصالحات فقط، وأسفل سافلين يكون في الدنيا وفي الآخرة، في الدنيا في أخلاقه وأفعاله فهو في الواقع أخبث من الحيوانات المفترسة، انظر كيف يصنعون في الناس والحيوانات لا تعمل هذا، وكل هذا حتى يتراكم عليهم العذاب ـ نسأل الله العافية ـ ويعظم عذابهم، ثم في الآخرة أسفل سافلين يعني في جهنم، فهي أسفل سافلين.

وفي الآية الأخرى قال جل وعلا: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾﴾ [العصر: ١، ٢]، أقسم الله جل وعلا ثم جاء الجواب: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾﴾ ويفهم من قوله: ﴿لَفِي﴾ أن هذا خسار يستمر ويتجدد ويزيد لأنه مستمر فيه، ثم استثنى ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر: ٣]، هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات الأربع هم الذين استثنوا من كون الإنسان في خسارة مستديمة، وإذا كان مستمراً فهو يزداد كل ما تمادى صار أعظم.

فقوله: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ يعني: أن هذا من باب الإنكار كيف يأمنوا مكر الله. وقد فسر مكر الله بأنه إغداق النعم على من يتمادى في

المعاصي مثل صحة البدن وكثرة الرزق وكثرة الأولاد ثم يزاد الخير وأهل الغرور يقولون ما أعطين هذا إلا أن الله قد رضي عنا، فيكون هذا من باب المكر ومن باب الأمن من مكر الله، فالأمن الداعي له شيئان:

أحدهما: التهاون في أمر الله وعدم المبالاة، فتجده مثلاً غارقاً في المعاصي موغلاً فيها غافلاً عن الآخرة وعما يراد به، مع أنه يشاهد الحوادث، يشاهد الموت، ولكنه مثل البهائم لا يتعظ، فقلبه غطى عليه حب الشهوات وحب الدنيا وعليه الران فلا يبالي بترك طاعة الله جل وعلا وبفعل معاصي الله فهذا أمن مكر الله.

الأمر الثاني: الجهل بالله جل وعلا والاغترار به جاهلاً بأسمائه وصفاته وعظمته وتقليبه للقلوب وأخذه الأليم، فإنه إذا أخذ سبحانه فإنه لا يفلت: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢] فيتمادى لهذين الأمرين، وبعض الناس يعد الحسنات ويجزم بأنها مقبولة ويقول: أنا ما لي سيئات، وبعضهم يغتر بعظم مغفرة الله وسعة رحمته، حتى إن بعضهم يقول في شعره:

فاستكثر ما استطعت من الخطايا ... إذا كان القدوم على كريم[1]

نعوذ بالله يتزود من المعاصي ما شاء، والله جل وعلا يقول: ﴿ٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٩٨]، فيجب أن نعلم كما أمرنا الله، والشيطان يريد من الإنسان مثل هذا حتى يوقعه في غضب الله وسخطه، ومعلوم أن الله جل وعلا عاقب آدم ﷺ بإخراجه من الجنة وإبعاده بذنب واحد فقط، وإن كان الله جل وعلا له حِكم وآيات محمودة في كل فعل، ولهذا ما يكون في أهل الجنة إلا منه أهل لذلك؛ لأن الإنسان في تصرفه وفي فكره وقوته ونظره لا يستطيع أن يهتدي، فإذا لم يهده الله جل وعلا فلا يستطيع أن يهتدي من نفسه وإن كان عنده فكر وعنده علم، فيجب أن يكون خائفاً من ربه جل وعلا، والخوف يجب أن يكون بقدر، لا يكون مطلقاً كما أشار المؤلف إليه

---

(١) الجواب الكافي ١/ ١٢.

بالآية التي بعدها فهو جمع بين هاتين الآيتين، يعني لا يأمن من مكر الله ولا يقنط من رحمته جل وعلا يجب أن يكون خائفاً راجياً، يعني يخاف من ذنوبه، ويطالع مثلاً عدل الله فهو الحكم العدل إذا أخذ عبده بعدله عذبه، وكذلك يطالع رحمة الله وأنه جل وعلا رحمته واسعة ما وسع علمه تعالى وتقدس، فيرجو ويخاف دائماً يرجو ربه ويخاف ذنوبه وتقصيره، فإن الإنسان بين مخافتين دائماً: مخافة سابقة بأعمال سابقة، عمل سيئات لا يدري هل عفي عنه فيها أو لا، وعمل عمله لله لا يدري هل قبل منه أو لا؟

ومخافة مستقبلية ما يدري ماذا يختم له، يعني لا يدري كيف تكون حالته عند الموت وحالات المحتضرين أحياناً مواعظ لمن يتعظ، وكثير منهم يلقن الشهادة فيأبى يقول: لا أستطيع وهذه عبر يجعلها الله لمن يشاء أن يعتبر، وإلا كثير من الناس لا يعتبر بهذا، ولهذا كان السلف ـ رحمهم الله ـ يخافون كثيراً من الخاتمة.

فالمقصود أن المؤلف رحمه الله أراد أن الموحد الكامل التوحيد يكون خائفاً من ذنوبه، وخائفاً من مكر الله جل وعلا فإنه إذا أنعم عليه وصح بدنه ورزق مالاً وأهلاً وبيتاً، فإن هذا من نعم الله وقد لا يؤدي شكرها، وقد يكون هذا داعياً لغفلته ولتماديه بالمعاصي فيخاف لأن النعم يجب أن تشكر، وشكرها طاعة الله فيها، وقد جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المائدة: ٢٠]، قال ابن عباس: كان الرجل من بني إسرائيل إذا كان له زوجة وخادم ودار سمي ملكاً.

وعن عبد الرحمٰن الحبلي يقول: سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص، وسأله رجل فقال: ألسنا من فقراء المهاجرين؟ فقال عبد الله: ألك امرأة تأوي إليها؟ قال: نعم. قال: ألك مسكن تسكنه؟ قال: نعم. قال: فأنت من الأغنياء. فقال: إن لي خادماً. قال: فأنت من الملوك[1]. وبهذا يعني قوله: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ يعني كلهم.

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٧٣.

فأنعم الله على العبد عظيمة وكثيرة جداً، ولكن الله جل وعلا جواد كريم فضله واسع، وشكور حليم تعالى وتقدس، ولهذا يقول رسول الله ﷺ: «**يصبح على كل سلامى من أحدكم صدقة فكل تسبيحة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، ويجزئ من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى**»[(١)].

سلامى: يعني مفصل، فإذا أصبح سليماً وجب أن يشكر ربه على كل عضو من أعضاء بدنه، فهذا يدلنا على فضل الله جل وعلا وأنه حليم شكور، ومع هذا يجب أن يكون العبد خائفاً من ذنوبه راجياً لثواب ربه، وإن تاب العبد فيخشى أن لا تكون التوبة صادقة مقبولة لأن الله جل وعلا يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨]، وقد تكون التوبة لم تقبل لموانع، فهو يخاف عدم القبول إذا كان تائباً، فهو يجب عليه أن يتوب، وإذا لم يتب فهذا ذنب على ذنب ولهذا يقول الله جل وعلا: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١].

فالمقصود أن المكر الذي ذكر هنا يدخل فيه صحة البدن ويدخل فيه الرزق ويدخل فيه النعم التي يعطاها الإنسان ويدخل فيه الإيمان الذي يعرفه ثم لا يقوم به كما ينبغي ويكفر ذلك، فإذا كان لا يستعمل ذلك ويرى أن هذا ليس من المكر فهو لا رأي له ولهذا صح عن الحسن رحمه الله وغيره أنه قال: إذا رأيت الله يعطي الإنسان النعم وهو مقيم على المعاصي فهو المكر. يعطيه من النعم وهو مقيم على معصيته، والنعم منها نعمة البدن، ونعمة المال، ونعمة الصحة من أفضل النعم.

قوله: ﴿مَكْرَ ٱللَّهِ﴾: بالإضافة، والإضافة معروف أنها على نوعين:

أحدهما: إضافة عين إلى معين وهذه لا تكون إلا مخلوقة كبيت الله، رسول الله، وما أشبه ذلك.

الثانية: إضافة معنى إليه جل وعلا، وهذه تكون صفة، إذا أضيف المعنى إليه فهو يوصف بذلك، ولكن مثل هذا لا يجوز أن يطلق إلا كما جاء

---

(١) رواه مسلم رقم ٧٢٠ من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

يقال: ﴿مَكْرَ اللَّهِ﴾ إن الله يمكر بالكافرين، ومثله الخداع ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]، وكذلك الكيد: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥، ١٦]، وما أشبه ذلك من الأمور التي تحتمل مدحاً وذماً، كل فعل أو وصف يحتمل مدحاً وذماً لا يجوز أن يطلق على الله إلا كما جاء فقط.

ولا يجوز أن يؤخذ منه اسم أو وصف؛ لأن صفات الله جل وعلا وأسمائه حسنى وما احتمل الحسن أو ضده فلا يدخل في صفات الله، ومعنى الحسنى أنه لا يلحقها نقص بوجه من الوجوه، فإذا أضيفت هذه مثلاً على ما جاءت صارت حسنى، ويلحق بذلك الطبع والختم وما أشبه ذلك ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]، وكذلك الاستهزاء: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٥]، فكل ما كان من هذا الباب فإنه يكون على ما ورد.

أما قول من يقول أن هذا من باب المقابلة، فمعنى المقابلة عندهم أنه لفظ يقابل لفظاً فقط، ولا معنى تحته، فهذا غير صحيح، لأن الله جل وعلا لا يخاطبنا بشيء لا معنى له تعالى الله وتقدس، ولا يتكلم بشيء لا معنى له، وبعضهم يفهم أن المقابلة عندهم مقابلة الفعل بالفعل، فإذا قوبل الفعل بالفعل لزم من ذلك الوصف، وهم لا يقولون بهذا وإنما يقولون مقابلة لفظ بلفظ.

قوله: ﴿الْخَاسِرُونَ﴾: الخسارة هنا خسارة تامة، وأعظم الخسران خسارة النفس كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥]، قوله: ﴿وَأَهْلِيهِمْ﴾: ليس زوجته وأمه وأبوه وأولاده، لأن هؤلاء لهم أعمال سوف يجازون بها إن كانوا محسنين فمع المحسنين، وإن كانوا مسيئين فمع المسيئين. ولكن كما جاء أن كل إنسان له أهل في الجنة وله منزلة في الجنة فإذا صار في النار خسر منزله وأهله وورثه المؤمنون الذين يرثون الفردوس.

فالمقصود أن الخسارة التامة هي خسارة النفس ثم خسارة المنازل التي أعدها الله جل وعلا، فكل شخص له منزلتان منزلة في النار ومنزلة في الجنة، ولهذا جاء في الصحيح أنه إذا كان يوم القيامة يؤتى لكل مؤمن بكافر يقال له هذا فكاك من النار.

فالخاسرون هم الذين خسروا أعمارهم وأنفسهم وهذه هي الخسارة الحقيقية، فالأمن من مكر الله من أعظم الذنوب لأن الله رتب عليه الخسارة الكاملة في قوله: ﴿إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ تقتضي أن تكون خسارة تامة، وهؤلاء يكونون من أهل النار ـ نسأل الله العافية ـ.

❁ قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: وقوله: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

من المشهور عن اللغويين الذين يتكلمون في المفردات: أن القنوط هو أشد اليأس. فيكون هذا معناه أن القنوط من اليأس، فيكون نسبته إلى اليأس كنسبة الاستغاثة إلى الدعاء الذي تقدم لنا؛ لأن الاستغاثة دعاء لكنها في حالة الشدة والكرب، فهي أخص من الدعاء، والدعاء أعم، والقنوط على هذا يكون من هذا القبيل، فهو داخل في اليأس ولكنه أشده.

وهذه الآية في قصة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لما جاءته الملائكة الذين أرسلوا لإهلاك قوم لوط جاءوا بصورة ضيوف إلى إبراهيم، فاستنكرهم فسألهم فبشروه بالولد، وهو إسحاق، فقال مستبعداً ذلك في العادة: ﴿قَالُوا۟ بَشَّرْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ ۝٥٥ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ۝٥٦﴾ [الحجر: ٥٥، ٥٦]، لأن العادة التي جرت أن الإنسان إذا كبر وكبرت زوجته لا يولد له، فهذا الذي تعجب منه، كيف يأتي الولد بعدما بلغ السن الذي لا يولد له في العادة لا هو ولا زوجته، ولهذا الزوجة لما بشرت تعجبت: ﴿قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٧٢﴾ [هود: ٧٢]، فالعجب من هذه الناحية؛ لأنها على خلاف العادة التي جعلها الله جل وعلا في خلقه في الولادة، وربما يكون هذا من باب القنوط، ولكن هذا بعيد، فالملائكة فهموا من كلامه هذا ما يدل على القنوط من رحمة الله ولهذا قالوا: ﴿بَشَّرْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾، والحق هو الثابت الذي لا مرية فيه ولا يتخلف، ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ﴾، ولكن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أخبر أنه ما قنط: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾، وأنه يعلم من الله جل وعلا أعظم من هذا وأبلغ.

وقد جاء في كتاب الله جل وعلا وصف القانط بالضلال كما في هذه الآية، ووصف الآيس بالكفر كما في قصة يعقوب ﷺ عندما قال: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف: ٨٧].

ففي هذه الآية وصف اليأس بالكفر، وفي تلك وصف القنوط بأنه ضلال، ومعلوم أن الضلال داخل في الكفر، كل كفر ضلال بلا شك؛ لأن الضلال هو أن يضل عن الحق ويضيع ويترك طريق الحق، ويجوز أن يكون الكافر موصوف بهذا بلا شك فهل يدل على أن اليأس أشد من القنوط؟ إذا تأملنا الآيتين تبين أنه لا خلاف بينهما؛ لأنه إذا كان القنوط هو أشد اليأس والكفر ضلال، يقال إذاً اليأس أشد الكفر فلا يكون هناك مخالفة.

والشارح يقول: وظاهر القرآن أن اليأس أشد لأنه حكم لأهله بالكفر، ولأهل القنوط بالضلال[1]. والقنوط يدل على الضيق على أنه ضاقت عليه المخارج نهائياً فأصبح في ضنك شديد وأمر لا مخرج له منه، ولهذا قالوا هذا أشد اليأس ـ نسأل الله العافية ـ وهذا لا يقع من مؤمن موحد لأنه يعلم من الله جل وعلا الرحمة والمغفرة والكرم والجود الشيء العظيم، ولهذا لما قال الحسن البصري للفرزدق وهم يدفنون زوجة الفرزدق وشاهد القبر، قال: ماذا أعددت لهذا؟ قال الفرزدق: أعددت له شهادة أن لا إله إلا الله منذ أربعين سنة فقال: نعم الإعداد، ولكن إياك وقذف المحصنات.

فالمقصود أن الإنسان إذا كان يشهد أن لا إله إلا الله حقاً وأن محمداً رسول الله، فهذا خير كبير جداً، ولكن يجب أن تكون شهادته غير مقدوح فيها، ولهذا قال له: إياك وقذف المحصنات لأن هذا يقدح، فالمعاصي والكبائر إما أن تضعفها أو تذهب بها.

وكلا الأمرين اليأس والقنوط من الأمور المحرمة، بل من الأمور المهلكة التي لا يجوز للعبد أن يرتكب واحداً منها، فإنها سوء ظن بالله جل

---

(١) تيسير العزيز شرح كتاب التوحيد ١٦٩/٥.

وعلا وجهل به وبما تدل عليه أسمائه وصفاته جل وعلا، فإن من أسمائه الغفور والرحيم والتواب والكريم وغير ذلك. وهذه الأسماء لها آثار لا بد أن تظهر على خلقه جل وعلا فيجب أن يعرف العبد ذلك، ولهذا ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم**»(١)، لأن من أسمائه الغفور الرحيم التواب فلا بد من ظهور آثار هذه الأسماء وكذلك صفاته جل وعلا، فرحمته تغلب غضبه، ومع ذلك يجب أن يكون الإنسان معتدلاً، يكون دائماً خائفاً راجياً، يكون كما سبق لديه المحبة التي تبعثه على الطاعة وعلى كثرة اكتساب الخير، محبة الله التي هي محبة تأله وعبادة ولديه الخوف من عذاب الله جل وعلا ومن كونه مذنباً لأنه لا أحد يسلم من الذنب ولا يمكن، ولكن بنو آدم كلهم خطاء، «**وخير الخطائين التوابون**»(٢) الذين يكثرون التوبة، ولهذا كان الرسول ﷺ كثيراً ما يستغفر ويتوب، وآخر سورة أنزلت عليه قوله جل وعلا: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾ [النصر].

وفي صحيح مسلم أن عائشة رضي الله عنها قالت: أن رسول الله ﷺ كان يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «**سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي**» يتأول القرآن. يعني: يعمل بالقرآن(٣). وفي رواية: «**سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه**»، فإذا كان سيد الخلق يؤمر بالتوبة في آخر عمره وبالاستغفار فكيف بالمفرطين، فالمفرط يجب أن تكون توبته واستغفاره أكثر، ولكن الأمور بيد الله جل وعلا.

المهم أنه لا يجوز للعبد أن يكون أمره فرطاً فمثلاً يضيع أيامه ويضيع أوقاته ثم يصحب من يعينه على الضياع لأن عنده عقل وعنده فكر وقد عرف طريق الهدى من طريق الردى، فإنه إذا كان بهذه المثابة فالأمر فيه واضح.

---

(١) رواه مسلم رقم ٢٧٤٩ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) رواه الترمذي رقم ٢٤٩٩ من حديث أنس رضي الله عنه.
(٣) رواه مسلم رقم ٤٨٤.

قوله: «﴿مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦ﴾»: الله جل وعلا موصوف بالرحمة وهذا كثير جداً، والرحمة التي هي وصف لله جل وعلا يجب أن تفهم على ما يليق بالله جل وعلا، ولا يجوز أن نفهمها كفهمنا للشيء الموجود عندنا الذي يفعله المتكلمون يقولون: الرحمة رقة في القلب تدعو هذا الراحم إلى العطف والميل إلى المرحوم، وهذا إما يكون من باب الضعف والرقة، أو من باب الإحسان ولكنه يتأثر، ولهذا أبوا أن يصفوا الله جل وعلا بها لهذا السبب، فيقال لهم هذا الذي تقولونه هو رحمة المخلوق، والله جل وعلا ليس كمثله شيء، لا في ذاته ولا في أوصافه، ويقولون: نحن خوطبنا بالشيء الذي نعرفه، وهذا الذي نعرف من الرحمة، وهذا ليس جواباً لأنه مخالفة لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، فقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ هذا عام في ذاته وفي وصفه وفي فعله وفي حقه، يجب أن يكون غير مماثل للمخلوق، ويقول جل وعلا: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، وقوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ٢٢]، والند هو المثل والنظير والشبيه ولو بصفة من صفاته، وأنتم في الواقع وقعتم في التنديد والشرك؛ لأنكم جعلتم وصف الله مثل وصف المخلوق أو قريباً منه أو أنه مشارك له وهذا هو الشرك، ولهذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: المتكلمون لا ينفكون عن الشرك. إما شرك ربوبية وهو الغالب والكثير لأنهم أشركوا في أسمائه وصفاته أو شرك في عبادته جل وعلا، فرحمة الله جل وعلا على ما يليق به وعظمته وذكرها كثير في كتاب الله.

قوله: «﴿إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾»: والضال هو الذي أضاع الطريق وأصبح يتخبط بلا هدى، فمعنى هذا أن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يشير لنا في ذكر هاتين الآيتين بأن العبد يجب أن يكون جامعاً بين الخوف والرجاء وخوفه من ذنوبه، يخاف من المخالفات، يخاف أنه ما قام بالواجب الذي وجب عليه ولا بد من المخالفة، وكذلك يكون راجياً لرحمة ربه، وهم يمثلونه بالطائر الذي له جناحان، فلا بد أن يكونا متساويان، فإن رجح أحدهما على الآخر سقط، واختلفوا هل هذا يعني أن الخوف يجب أن يكون مثل الرجاء دائماً؛ لأن الله جل وعلا وصف عباده بذلك: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]،

فوصفهم بالرغبة والرهبة وأمر بذلك: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ [الأعراف: ٢٠٥] فالتضرع يتضمن الرجاء، وقال بعض العلماء أنه ينبغي ما دام صحيحاً أن يُرجح جانب الخوف، ويقول ما يصلح القلب إلا هذا. وإذا وقع في المرض يرجح جانب الرجاء، ولهذا كانوا يستحبون أن يذكر الإنسان وهو مريض بسعة رحمة الله وعظيم فضله ويرغب في هذا حتى يموت وهو يحسن الظن بربه وإن كان له ذنوب.

❁ **قال المؤلف** رحمه الله: **وعن ابن عباس** رضي الله عنهما: **أن رسول الله** ﷺ **سُئل عن الكبائر؟ فقال: «الشرك بالله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله»**[(١)].

هذا الحديث لم يذكر المؤلف من الذي خرجه، وهو صحيح.

قوله: «سئل عن الكبائر»: «أل» في قوله: الكبائر، إما أن يقال أنها للعهد أو أنها للاستغراق، ولكن واضح أن الأمر الثاني أنه ليس مقصوداً، وهذا يدلنا على أن الذنوب فيها كبير وصغير، وقد أنكر بعض العلماء أن يكون الأمر هكذا، وقال: إذا نظرنا إلى من يبارز بالمعصية فالأمر سواء ليس فيه فرق. الأمر سواء بالنسبة للمعصية سواء كانت كبيرة أو صغيرة لأن الذي بُورز بالمعصية وعصي كبير عظيم جليل، فالمعصية تدل على الاستهانة، والاستهانة تكون كبيرة من كبائر الذنوب، وكبائر القلوب أعظم وأكبر من كبائر الجوارح، على هذا المعنى يقول أن الذنوب كلها كبائر، ولكن كتاب الله فرق بين هذا وهذا، فقال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [النساء: ٣١]، فاجتناب الكبائر جزاءه تكفير الصغائر بشرط أن لا يكون مصرّاً على الصغيرة، والكبائر لا بد من اجتنابها فإن لم يجتنبها فيجب أن يبادر بالتوبة منها، ثم هي غير محصورة ليست ثلاث ولا سبع ولا سبعين، ولهذا جاء عن ابن عباس أنه قال: هي إلى السبعمائة أقرب منها إلى السبع.

وإذا كان الإنسان يستغفر ويتوب فإن الله يتوب عليه، ولهذا جاء عنه

(١) قال في الدر المنثور ٢/ ٥٠٢: أخرج البزار، وابن أبي حاتم، والطبراني في الأوسط، وابن أبي حاتم بسند حسن.

قوله: لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار؛ لأن الاستمرار على الصغيرة يجعلها كبيرة.

قوله: «عن الكبائر»؛ يعني: الذنوب الكبيرة التي توعد عليها بالنار أو بالعذاب أو غير ذلك، وقد اختلف في الضابط الذي تضبط فيه الكبيرة. قال المحققون من العلماء: كل ذنب ترتب عليه حد في الدنيا، أو لعن فاعله، أو توعد بالعذاب المهين أو الأليم، أو ختمه الله بنار أو غضب. زاد شيخ الإسلام ابن تيمية: أو نفي الإيمان، أو قيل: ليس منا. كقوله ﷺ: **«من غشنا فليس منا»**(١)، فهو كبيرة.

قوله: «الشرك بالله»: وبدأ بالشرك بالله لأن الشرك هو أقبح الذنوب وأعظمها، لأن فيه تنقص لله جل وعلا وفيه هضم لحق الربوبية، لأن الرب هو المالك المتصرف الذي يتصرف في خلقه ويملكهم ويدبرهم فإذا جعل حقه لمخلوق مدبر مسخر مقهور ليس في يديه نفع ولا ضر هذا استهانة في الواقع ولهذا صار من أعظم الذنوب، فالشرك عدل بالله جل وعلا كما قال ﷻ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١﴾ [الأنعام: ١]، ومعنى يعدلون: يعني يجعلون له عدلاً، نظراء وشبهاء تعالى الله وتقدس أنهم يدعونهم ويزعمون أنهم وسائط لهم إلى الله هذا هو العدل بالله وهو التنديد الذي ذكر في الآيات الأخرى، فهو أكبر الكبائر وأعظمها، ولهذا لا يغفره الله جل وعلا إلا بالتوبة منه، أما إذا مات عليه يعني الشرك الأكبر فهو في النار غير مغفور له لقوله جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ۝٤٨﴾ [النساء: ٤٨]، ولهذا بدأ به الرسول ﷺ وقال: **«الشرك بالله»**.

والشرك يدخل فيه الشرك في الربوبية، ومنه الشرك في الأسماء والصفات، إذا وصف الله جل وعلا بما وصف به المخلوق أو اعتقد هذا، فهذا شرك. وكذلك إذا عطل عن أوصافه فإنه يوقع في الشرك لأنه يلحق بالمعدومات أو الناقصات، تعالى الله وتقدس.

---

(١) رواه مسلم رقم ١٠١ من حديث أبي هريرة.

وكذلك الشرك في كون الإنسان مثلاً يكون منازعاً لرب العالمين والمنازعة كثيرة جداً إذا جعل مثلاً القانون الذي يؤلفه الإنسان ويوجدوه هو الحاكم بين الناس، فهذا شرك بالله جل وعلا؛ لأن هذا الحكم خاص برب العالمين هو الذي يحكم بين عباده، وهو الذي يأمر وينهى فإذا اتخذ مثلاً أقوال الناس وقوانينهم هي الحاكمة صار هذا منازعة لله في حكمه الذي يخصه.

وكذلك إذا جعل حقه سبحانه شبيهاً بحق الإنسان، الحق الذي أوجبه على عباده وهو تألهه ودعائه والاستغاثة به وغير ذلك من العبادات جعل شيئاً منها للمخلوق فصار هذا شركاً من الشرك الأكبر، وعلى هذا يكون الشرك أقسام، وقد قسمه العلماء إلى كبير وصغير، وهذا معروف لأنه جاء أن الحلف بغير الله شرك، وقول الإنسان لولا الله وأنت أن هذا من التنديد يعني من الشرك، لما قال الرجل للنبي ﷺ: «**ما شاء الله وشئت**» قال: «**أجعلتني لله نداً**»[1]، والند هو الشريك، فهذا يدل على أن الشرك يكون كبيراً ويكون صغيراً.

ثم عطف عليه وقال: «**واليأس من روح الله**».

رَوح الله؛ يعني: رحمة الله، يعني أن يستبعد أن الله يرحمه أو يغفر له، فاليأس هو القنوط، يقنط وييأس ويصبح قد أغلق الباب على نفسه، وهذا قد يكون له أسباب بأن يتمادى في المعاصي، ويكثر منها ثم يتصور أنه لا خير فيه وأنه لا فائدة في كونه يرجع أو يترك هذا ويقول أنا أكثرت من الذنوب وذنوبي يمكن لا تغفر، فيفرح الشيطان بذلك ويفتح له هذا الباب ويُوصد عليه باب الرجاء وطلب الاستعتاب وطلب التوبة، فيكون هذا أعظم من ذنوبه، فيكون مكتسباً ذنباً بعد ذنب وهذا من الكبائر العظيمة، ولكن على العبد إذا كان وصل إلى هذه المثابة والغالب أنه لا يكون بهذا التصور إلا إذا كان جاهلاً بأمر الله جل وعلا، وجاهلاً أيضاً بصفاته، هذا هو الذي يحدوه إلى

---

(١) سبق تخريجه.

ذلك، فعليه النظر في غنى رب العالمين وهو يدعو المجرمين إلى التوبة ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ [البروج: ١٠] فإذا قيض له من يبين له ويدعوه إلى الهدى قد يهتدي ويترك هذا الأمر، أما إذا تُرك على ما هو عليه فإنه سوف يزداد يأساً بعد يأس فيهلك، وهذا مطلب الشيطان الذي يريد منه، فهذا ما يحصل إلا من جاهل، الذي يجهل أمر الله يعني حكم الله في خلقه الذي يؤخذ من كتابه ومن سُنَّة رسوله ﷺ، والله جل وعلا ذكر ذنوباً كثيرة وتوعَّد عليها بالغضب واللعنة، ولكن رسول الله ﷺ ذكر أشياء من هذا وبيّن فضله وسعة كرمه وجوده.

من أعظم الذنوب وأكبرها الشرك، والشرك تقبل توبة التائب منه إذا تاب، والآيات في هذا كثيرة جداً كما قال الله جل وعلا: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: ٥٣]، فقوله: ﴿جَمِيعًا﴾ عام شامل ما يترك شيئاً، ومن عظائم الذنوب الجرائم الكبيرة جداً قتل النفس بلا حق، نفس المؤمن كما قال الله جل وعلا: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء: ٩٣].

وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ قال: **«كان في بني إسرائيل رجل قتل تسعة وتسعين نفساً، ثم خرج يسأل فأتى راهباً فسأله فقال له: هل من توبة؟ قال: لا. فقتله فكمل به مائة. ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدُلَّ على رجل عالم. فقال: إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة؟ فقال: نعم ومن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناساً يعبدون الله فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء. فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت. فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائباً مقبلاً على الله، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط. فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم فقال: قيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيتهما كان أدنى فهو منهم، فقاسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد؛**

فقبضته ملائكة الرحمة»[1]، وعند البخاري: «**فأوحى الله إلى هذه أن تقاربي، وأوحى الله إلى هذه أن تباعدي، وقال: قيسوا ما بينهما فوجد إلى الخيرية أقرب بشبر، فغفر له**»، ولكن هذا كان صادقاً ولهذا لما حضره الموت «ناء بصدره نحوها» يريد أن يذهب يقرب لما في قلبه وإرادته من الصدق والإخلاص.

فعلى كل حال، الله جل وعلا يفرح بتوبة عبده التائب الفرح الذي صوَّره لنا رسولنا ﷺ أشد ما يمكن أن ندركه من الفرح، وهذا الفرح فرح كرم وجود ورحمة وإلا فهو الغني جل وعلا عن كل ما سواه، فهو أرحم الراحمين تعالى وتقدس، فالواجب أن يكون العبد ما دام صحيحاً نشيطاً عنده من الخوف الذي يحمله على العمل الصالح والانتهاء عن المحرمات، وإذا صار بالعكس ضعف وصار مقبلاً على الله يرجح جانب الرجاء والرحمة ولهذا السلف يستحبون أن يذكروا نصوص الرحمة، عند المرضى ويذكرون أعمالهم الحسنة وأحسن الأعمال الإيمان بالله جل وعلا وكون العبد مؤمناً ومتبعاً لرسوله ﷺ.

فاليأس مفارقة للصراط الذي أمر الله جل وعلا عباده أن يسلكوه وهو عبادته ورجاؤه، مع أن الإنسان لا ينفك عن التقصير فهو عبد لربه جل وعلا، والرب جل وعلا واسع المغفرة وأخبرنا أن رحمته غلبت عذابه تعالى وتقدس، ولهذا لما حدث للصحابي قدامة بن مظعون رضي الله عنه ومن معه حيث أنهم فهموا من قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَّءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَّءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَّأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [المائدة: ٩٣] فقالوا: نحن بهذه الصفة، فنشرب الخمر ليس علينا جناح في ذلك فشربوها، ثم استشار عمر رضي الله عنه الصحابة فيهم فقال الصحابة: إذا كانوا استحلوها يقتلون، أما إذا كانوا أخطئوا بالتأويل هذا ذنب، فلما استدعاهم عمر قالوا: نحن متقون ومحسنون، فقال: لقد أخطأت أستك الحفرة، ليس المتقي والمحسن هو الذي يشرب الخمر. وفي الآية التي قبلها يقول الله جل وعلا:

---

(١) رواه البخاري رقم ٣٤٧٠، ومسلم رقم ٢٧٦٦ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [المائدة: ٩٠]، فالاجتناب معناه أنه لا يقع فيه الإنسان. وبعد هذا لما تبين له ذلك اشتد خوفه كثيراً وصار يبكي، فكتب إليه عمر رضي الله عنه: ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾ [غافر: ١ ـ ٣] لا أدري أي ذنبيك أعظم الأول أو الأخير، يعني كونك وقعت في الخمر أو وقوعك في اليأس، فقد يكون هذا أعظم.

فالمقصود أن الإنسان يكون واثقاً من ربه، ولكنه خائفاً من ذنوبه إذا لم يكن مشركاً ولم يكن مبارزاً لربه جل وعلا بالاستهتار وعدم المبالاة، فإن الله رحيم تواب جل وعلا، وأما المستهتر الذي لا يبالي بما صنع فهذا يُخشى عليه أنه يتمادى على هذا الشيء ثم يموت عليه ـ نسأل الله العافية ـ.

وقوله: «والأمن من مكر الله»: اليأس يقابل الأمن، فاليأس من روح الله يقابله الأمن من مكر الله، فإذاً يكون الإنسان بين الخوف والرجاء، لا يأمن أن الله يعاقبه ويأخذه بسبب ذنوبه، ولا ييأس من رحمة الله جل وعلا الواسعة التي وسعت كل شيء، فهو يكون كما وصف الله جل وعلا عباده الذين يدعونه رغباً ورهباً وهم له خاشعون.

فدل الحديث على أن اليأس من رحمة الله من أشد الذنوب وأعظمها التي تقدح في التوحيد، وكذلك الأمن من مكر الله من أعظم الذنوب القادحة في التوحيد.

وليست الكبائر هذه الثلاث المذكورة، الكبائر كثيرة جداً، ولهذا لما سُئل عنها ابن عباس رضي الله عنهما قال: هي إلى سبعمائة أقرب إلى سبع غير أنه لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار. قد حاول بعض العلماء إحصاءها فمنهم من أبلغها إلى سبعين ومنهم من زاد إلى قرابة السبعمائة مثل ابن حجر الهيتمي في كتاب الزواجر الذي تبع فيه ابن القيم وغيره، ولهذا صير إلى الضابط فيها لأنها غير محصورة في عدد.

۞ قال المؤلف كَلَّلهُ: وعن ابن مسعود ﷺ قال: أكبر الكبائر: الإشراك بالله والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله. (رواه عبد الرزاق في المصنف ١٠/ ١٥٩)[١].

هذا الحديث فيه التصريح بأن هذه المذكورة هي أكبر الكبائر، وبدأ بالشرك لأنه أعظمها كما تقدم، ثم الأمن من مكر الله والقنوط من رحمة الله، ولكن هنا ذكر القنوط واليأس ودلت المغايرة على أن القنوط غير اليأس، ولهذا اختلفت أقوال العلماء في هذا منهم من جعل القنوط أشد ومنهم من عكس، وظاهر القرآن أن اليأس أشد كما مر قريباً.

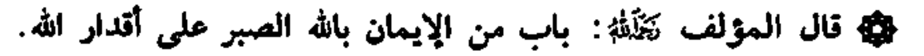
وفسر القنوط بأنه أشد اليأس ونهايته، ولهذا جعله بعد المكر، واليأس كونه يستبعد أن الله يغفر له كما يقع لبعض الناس فإنه يكون هذا من دوام الجهل والجهل بالله والجهل بصفاته، فالواجب على الإنسان أن يكون عارفاً بربه جل وعلا وعارفاً حقه، وعارفاً بضعفه ولكن رحمة الله واسعة، وقد ذكر في النصوص كثيراً كما قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ۝٧﴾ [غافر: ٧]، في هذه الآية قدم الرحمة، فإذا كانت رحمته وسعت كل شيء، فكيف الإنسان الذي يؤمن بالله ويؤمن برسوله ﷺ، ويؤمن بوعده بأنه سوف يلاقي ربه، كيف يستبعد رحمته وييأس منها، فيجب أن يكون واثقاً من رحمة الله وإن كان لا بد من أن يخاف من ذنوبه.



(١) مصنف عبد الرزاق رقم ١٩٧٠١، والطبراني في الكبير رقم ٨٧٨٤.



الباب الخامس والثلاثون



۞ قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: باب من الإيمان بالله الصبر على أقدار الله.

صنيع المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا الباب يدل على أن الأعمال من الإيمان بالله، وهذا أمر واضح وهو مذهب أهل السُّنَّة أن الأعمال نفسها إيمان بالله وهو معنى قولهم: إن الأعمال داخلة في مسمى الإيمان، ومسمى الشيء ما تضمَّنه، وليس ما استلزمه، والخلاف في هذا للمرجئة وهم أقسام متعددة.

والصبر مأخوذ من صَبَرَ إذا حبس، فهو مأخوذ من الحبس. أصله حبس الشيء، ولهذا يقال: قتل فلاناً صبراً بعدما أمسك وحبس وقتل مكتوفاً ممسكاً، وصبرت الشمس؛ يعني: إذا تصوروا أنها وقفت فوق رؤوسهم. وسمي الصوم صبراً لأنه إمساك عن المفطرات. هذا معناه في اللغة.

ومعناه في الشرع: الصبر حبس النفس عن الجزع، وحبس اللسان عن التشكي والتسخط والجوارح عن لطم الخدود وشق الجيوب ونحوها. قاله ابن القيم.

والصبر ثلاثة أقسام: صبر على الشرع «على الأمر»، وصبر عن النهي، وصبر على القدر.

وهي لا بد منها فهي واجبة، وكلها إيمان بالله جل وعلا، ولكن الناس يتفاوتون فيها تفاوتاً عظيماً حسب قوة إيمانهم وضعفه وحسب علمهم بالله جل وعلا وعلمهم بشرعه، فكلما كان العبد عالماً بالله يعني بأسمائه وصفاته وما يستحقه وما يمتنع عليه، عالماً بأمره ونهيه، فإن إيمانه يكون أكمل وأتم إذا منَّ الله عليه. والنقص كثيراً ما يأتي من الجهل ومن العناد والتكبر والمخالفة.

وقوله في الترجمة: «على أقدار الله».

القدر هو: علم الله الأزلي في الشيء ثم كتابته له ومشيئته إياه وخلقه

للأشياء، ولهذا عبر الإمام أحمد رحمه الله عن القدر بقوله: القدر قدرة الله؛ لأن قدرة الله يدخل فيها خلقه، ويدخل فيها مشيئته، ويدخل فيها كتابته للأشياء.

وهو لم يذكر في الترجمة غير القدر، وقد ذكر في النصوص غير القدر.

❁ **قال المؤلف رحمه الله: وقول الله تعالى:** ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١١].

أول الآية: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ ﴿مَآ﴾ هنا نافية ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ﴾ يعني: ما وقع من مصيبة في الخلق وفي الوجود إلا بإذن الله يعني بأمره وإرادته وقدرته لأن الكون كله ملك لله ﷻ يتصرف فيه كيف يشاء، فلا يمكن أن يقع فيه شيء بغير إرادته وبغير علمه تعالى وتقدس.

قوله: «﴿مِن مُّصِيبَةٍ﴾»: جاءت نكرة لتعم كل المصائب سواءً كانت صغيرة أو كبيرة. والمصيبة هي التي يكون فيها ألم سواءً كان ألماً بدنياً أو ألماً نفسياً والغالب أنها تكون هكذا. فتكون المصيبة في البدن مثلاً، وتكون في الولد والأهل والأقارب والإخوان؛ لأن المؤمن إذا أصيب إخوان له وإن كان في أقصى الدنيا فإنه يتألم ولا بد؛ لأنه كما قال عليه الصلاة والسلام: **«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»** وشبك بين أصابعه[(١)].

أو تكون بالمال، فهي لا تخلو المصائب من هذه الأشياء، أما إذا كانت في النفس فهي تؤلمه بدنياً ونفسياً، وإذا كانت في الولد والأقارب فهي تؤلمه نفسياً، وكذلك في المال.

وقد يتحمل الإنسان ألم البدن ولا يتحمل ألم النفس لأن ألم النفس أصعب.

والله جل وعلا لما خلق الخلق وقدر الأقدار وجعل هذه الدنيا دار امتحان وابتلاء فهي لا تصفو لأحد أبداً حتى إنه جل وعلا لم يرض أن تكون محلاً لعقاب أعدائه، فأعداؤه في الغالب لا يعاقبون فيها لأنها عند الله لا

---

(١) رواه البخاري رقم ٤٨١، ومسلم رقم ٢٥٨٥ من حديث عن أبي موسى رضي الله عنه.

تساوي شيئاً فهي تنتهي بسرعة، فجعل عقاب أعدائه في الآخرة، وهو كذلك لم يرضاها جزاءً لأوليائه.

فلا بد من المصائب، فمن رحمته وإحسانه وجوده وكرمه جل وعلا أن أمر بالصبر ووعد عليه الأجر، فهذه رحمة منه جل وعلا، رحمة للمؤمن فإنه إذا صبر واحتسب أثيب على ذلك. وأيضا يجد في الصبر متسلى ومخرج مما يقع فيه غيره، ولهذا الكافر إذا وقع في كرب ما يتخلص منه، فيزداد سوءاً إلى سوء بخلاف المؤمن.

ولهذا قال: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

فإذنه الذي هو أمره ومشيئته، يعني كل شيء يقع فهو قد أذن الله جل وعلا به وكتبه وقدره وشاءه، ولا يمكن رده ولا يمكن تغييره لو اجتمع الخلق كلهم على أن يغيروا شيئاً من ذلك ما استطاعوا، وهذا مما يسلي المؤمن، وهذا أمر لا بد منه، فالحيلة فيه الصبر أن يصبر، ولهذا قال: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ وجاء تفسير علقمة قال: هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله فيسلم لها ويرضى[1].

فتفسير علقمة جاء لهذه الجملة ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ وعلقمة هو ابن قيس ولد في حياة الرسول ﷺ وأخذ العلم عن كبار الصحابة مثل أبي وعمر وابن مسعود وعلي وعثمان وغيرهم، وكذلك أخذ عن عائشة كثيراً، فهو من كبار التابعين وأئمتهم وثقاتهم وعلمائهم. توفي قرابة الستين رحمه الله.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾.

جعل جزاء الصبر والعلم بأن المصيبة من عند الله ثم قبولها وعدم الاعتراض عليها وعدم التسخط، جعل جزاءه هداية القلب، الذي هو أصل السعادة، فمن هُدي قلبه فقد حصلت السعادة له في الدنيا والآخرة، وهذا يدلنا على أن القلب هو الملك الذي يتصرف بالبدن فإذا هُدي القلب وصلح صلح البدن كله كما قال الرسول ﷺ في حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما: «ألا إن

(١) تفسير الطبري ٢٣/ ٤٢١.

في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد سائر الجسد ألا وهي القلب»[1].

والمقصود بذلك العقل الذي يحصل به الامتناع من ما لا يليق ولا يرضي الله ﷻ والإقدام على الشيء النافع وحبس النفس عليه وإن كان فيه ألم، فإن الألم قد ينقلب نعمة ونعيماً إذا كان العبد يفعل ذلك رضاً لله ﷻ، وإذا كان الرضا مثلاً عن الله جل وعلا وعن أقداره، وكذلك عن أوامره وامتثالها، والصبر عن المناهي التي نهى عنها يحصل بها هداية القلب، فهذا أمر يجب أن لا يفرط فيه لأن هداية القلب فيها السعادة الأبدية.

ومن سُنَّة الله جل وعلا في خلقه التي إذا نظر العبد للناس وإذا هي مطردة، أن من كان على هدى أن الله يزيده هدى وخير بشرط أن يكون مريداً له ويعمل به إخلاصاً لله جل وعلا ومتابعة للرسول ﷺ.

وأن من كان يحب المعاصي ويفعلها أنه ينتقل من معصية إلى أخرى حتى يهلك إلا أن يستدركه الله ﷻ بتوبة أو أمر يرجعه إلى الصواب، وهذا فضل من الله إذا تفضل به على إنسان فإنه يهيئ له أسبابه.

أما الغالب فإن الناس على ما عاشوا عليه، ولهذا جاء في الحديث: **«من عاش على شيء مات عليه وبعث عليه»**[2]، والله جل وعلا يقول: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ۝١٨﴾ [المجادلة: ١٨]، فكيف المنافقين إذا بعثوا يوم القيامة يحلفون لله كذباً لأنهم ماتوا على هذا الشيء، ماتوا على النفاق الذي ظاهره خلاف باطنه فهم يقابلون الله بما يقابلون به خلقه.

وأخبر الله جل وعلا أن من قَبِلَ هداه الذي بعث به الرسل أنه لا يشقى لا في الدنيا ولا في الآخرة فإنه يسعد، بخلاف الذي يتعامى عنه فإنه يحشر

---

(١) رواه البخاري رقم ٥٢، ومسلم رقم ١٥٩٩.

(٢) روى مسلم في صحيحه رقم ٢٧٨٧ عن جابر قال: سمعت النبي ﷺ يقول: **«يبعث كل عبد على ما مات عليه»**.

يوم القيامة أعمى جزاء وفاقاً، وهذا على ظاهره، كما أن بعضهم يحشر على رأسه يمشي على رأسه ورجلاه فوق لأنه انتكس في الواقع واستحب الباطل واختاره على الحق، فصار منكوساً.

ويوم القيامة تظهر الأعمال جليةً، فمن قبل من الله وصبر على أمره وصبر عن نهيه وصبر على قدره، فإن الله يجازيه في الدنيا قبل الآخرة بهداية القلب الذي فيه سعادته وفيه الزيادة من كل خير وهدى، فمعنى ذلك أنه يزداد هدى ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ۝١٧﴾ [محمد: ١٧]، وهذا هو معنى هذه الآية.

وبهذا استدل علماء أهل السُّنَّة بهذه الآية ونحوها على أن الأعمال إيمان، فالأعمال التي يعملها الإنسان تقرباً إلى الله ﷻ إنها إيمان، وهذا الذي يخالف فيه المرجئة والمرجئة درجات وأنواع يبلغون أكثر من أربع وعشرين طائفة، وكل طائفة تخالف الأخرى في قولها واعتقادها، ولكن المشهور منهم إخراج الأعمال عن الإيمان والاكتفاء بما في القلب حسب قولهم ويجعلون الناس بالإيمان سواء الفاسق والتقي النقي الذي لا يترك حسب استطاعته أمراً ولا يرتكب نهياً يجعلونهما سواء، والعجيب أنهم يجعلون الفاسق بمنزلة أعلى الأمة مثل أبي بكر بل مثل الرسول ﷺ بل مثل جبريل ؑ ليس هناك فرق عندهم، ولهذا صاروا من أضل الناس في هذا عقلاً وشرعاً، ضلت عقولهم كما ضلوا في فكرهم وفي قولهم فالله ﷻ يقول: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ۝٣٥﴾ [القلم: ٣٥] فهذا ليس في قدره ولا في شرعه، وهذا من الظن السيئ بالله ﷻ.

ومن أقلهم وأقربهم إلى أهل السُّنَّة الذين يخرجون الأعمال عن مسمى الإيمان، ولكن يقول أن الأعمال من مقتضى الإيمان ولا بد منها، فمن تركها فهو معاقب، ولهذا قال بعض الناس أن هؤلاء الخلاف بينهم وبين أهل السُّنَّة خلاف لفظي.

والمرجئة الجدد زادوا على أولئك بأنهم أهل جهل في الواقع ليسوا أهل علم وإنما عندهم التعصب البغيض، الذين يجعلون مثلاً رجلاً أو نحلة أو

القول هو الميزان في الناس، فمن وافقهم عليه فهو صاحبهم ويوالى، ومن خالفهم فهو العدو، يعني من خالفهم فيه فهو عدوهم وهو الذي ينسبون له العداء، وهذه من مصيبة المسلمين.

۞ قال المؤلف ﷺ: وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «اثنتان في الناس هما بهم كفر الطعن في النسب والنياحة على الميت»[1].

قوله: «في الناس»: هذا يدل على أنها وقعت في عموم الخلق، وقوله: **«في الناس»** يعني أنها ثابتة لا تتغير موجودة وستستمر فيهم أبداً.

وقوله: «هما بهم كفر»؛ يعني: أن اثنتان كفر، ولا يلزم أن من كانت فيه يكون كافراً لأنهما من خصال الكفر، ومن كان عنده خصلة من خصال الكفر لا يلزم أن يكون كافراً، كما أن من كان عنده خصلة من خصال الإيمان لا يلزم أن يكون مؤمناً، فقد يكون كافراً وعنده مثلاً الصدق وعنده الأمانة وعنده عمل خير ومع ذلك فهو كافر.

وكذلك هنا الطعن في النسب وهو عيبه وهو من أمر الجاهلية التي بقيت في الناس ولا تزال، ومن ذلك أيضاً رمي الإنسان بما ليس فيه كأن يقال مثلاً: هذا الإنسان ليس ولداً لأبيه، وهذا أيضاً أعظم من الأول فهو طعن في نسبه أنه غير صحيح، وهذا في الواقع يتضمن الطعن فيه والطعن في والده ووالدته، وإذا صرح الإنسان في ذلك فهو قذف، والقذف من الكبائر ومما يجب فيه الحد.

وعلى هذا يكون الطعن في النسب أيضاً كبيرة من الكبائر ولكنها ليست كالطعن في ثبوت النسب، وإذا كان الطعن في نسب الإنسان أنه ليس من أهل الشرف وأهل الفخر وأهل الخيلاء وأهل البذخ، فهذا لا يضر الإنسان إذا كان الطعن فيه من هذه الناحية لأنه ليس له إلا عمله، عمل آبائه لا ينتفع فيه

---

(١) رواه مسلم رقم ٦٧.

بشيء، ولم تزل الجاهلية تفتخر بآبائها حتى قال عليه الصلاة والسلام كما في سنن أبي داود: «**إن الله ﷻ قد أذهب عنكم عُبِّيَّة الجاهلية وفخرها بالآباء، مؤمن تقي وفاجر شقي، أنتم بنو آدم وآدم من تراب، ليدعنَّ رجال فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم أو ليكونُنَّ أهون على الله من الجعلان التي تدهده بأنفها النتن**»[١]، تفخر بأي شيء تفخر بناس في النار.

الثانية: النياحة على الميت، والنياحة معناها: رفع الصوت بالبكاء ولو كان كاذباً مع تعديد حسناته التي ينالها منه. وعُرف بالجاهلية أنهم يقولون: واعضداه واناصراه واكذا واكذا، يرفعون أصواتهم بهذا، هذه هي النياحة.

وليس من النياحة البكاء رحمة للميت، بكاء العين وحزن القلب هذه ليست من النياحة، لأن الرسول ﷺ لما توفي ابنه إبراهيم قال عليه الصلاة والسلام: «**إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزنون**»[٢].

وفي الصحيحين عن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: أرسلت ابنة النبي ﷺ إليه إن ابناً لي قبض فائتنا، فأرسل يقرأ السلام ويقول: «**إن لله ما أخذ وله ما أعطى وكل عنده بأجل مسمى فلتصبر ولتحتسب**»، فأرسلت إليه تقسم عليه ليأتينها فقام ومعه سعد بن عبادة ومعاذ بن جبل وأُبي بن كعب وزيد بن ثابت ورجال فرفع إلى رسول الله ﷺ الصبي ونفسه تتقعقع قال: حسبته أنه قال كأنها شن ففاضت عيناه فقال سعد: يا رسول الله ما هذا؟ ـ لأن سعداً سمع أن رسول الله ﷺ قال: «**البكاء على الميت مما يعذب به**» فقال: «**هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء**»[٣]، فالذي ليس في قلبه رحمة لا يرحمه الله جل وعلا، فدل على أن البكاء على الميت رحمة له أنه ربما يكون مستحباً.

وشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول: ويستحب البكاء على الميت رحمة

---

(١) رواه أبو داود رقم ٥١١٦ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) رواه البخاري رقم ١٣٠٣، ومسلم رقم ٢٣١٥ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.
(٣) رواه البخاري رقم ١٢٨٤، ومسلم رقم ٩٢٣.

له وهو أكمل من الفرح لقوله ﷺ هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده متفق عليه[١].

فإذا كان حسن فإنه يثاب عليه، فلا يدخل في هذا، وإنما يدخل فيه فعل الجاهلية الذي فعلهم يدل على التسخط للقضاء والقدر، أنه يصاب بمصيبة لا جبر لها، وكانت عادتهم إذا كان فعلهم غير كاف حسب زعمهم استأجروا من ينوح فهذه عادة كانت معروفة يستأجرون النائحة، ولهذا جاء أن النائحة يوم القيامة تكسى من جرب ومن قطران وتلتهب بها النار لأنها تأمر بالجزع بخلاف ما أمر الله به وهي تنوح على غيرها وإنما تنوح للدراهم التي تعطاها.

وبعض العلماء جعل من النياحة الإعلانات التي تعلن في الصحف وغيرها: إنا فقدنا فلاناً. ولهذا كان بعض السلف ينهى أن يخبر بأنه مات يقول: لا تُعلموا أحداً بأنني قد مت خوفاً بأن يكون هذا الإعلام من النياحة.

ويقول شارح الحديث: إذا كان الشيء اليسير الذي يقع بصدق من النياحة فإنه يغتفر بدليل أن أبا بكر ﷺ لما توفي رسول الله ﷺ وكان في العالية في منزل له، والرسول ﷺ توفي ضحى فجاء وهو مسجى فكشف عن وجهه وقبّل بين عينيه ووضع يديه على خديه وقال: وا نبياه، وا صفياه، وا خليلاه[٢]. وكذلك قالت مثل هذا فاطمة.

فيقولون: إذا كان بصدق وقليل فإنه يعفى عنه. ولكن كون العبد يصبر ولا يقول شيئاً أفضل وأولى وأحسن ولا أحد يمكن في الدنيا أن يلحق بنبي الله ﷺ، فإذا قيل: إن هذا فعلته فاطمة وفعله أبو بكر فهذا خاص بالنبي ﷺ أما غيره فلا يجوز أن يفعل فيه مثل هذا، فيجب أن يصبر الإنسان ويحتسب.

ووجه الاستدلال بالحديث قوله: «**والنياحة على الميت**»، وكذلك: «**الطعن في النسب**» فإنه قدح في خلق الله وانتقاص لعباد الله.

---

(١) الفتاوى الكبرى ٥/ ٣٥٩.

(٢) أخرجه أحمد في المسند رقم ٢٤٠٢٩.

۞ **قال المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ: **ولهما عن ابن مسعود ﷺ مرفوعاً: «ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية»[(1)].**

قوله: «ليس منا»: معروف أنه ليس منا يعني من المسلمين، فمن فعل ذلك فليس منا، فإذا أخذ على ظاهره فمعنى ذلك أنه خارج عن المسلمين، وسفيان الثوري رَحِمَهُ اللَّهُ والإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ وغيرهما من كبار العلماء يقولون: لا يجوز أن نتأول هذا، يجب أن نتركه على ظاهره حتى يكون أردع للمجرم وأبلغ في الزجر، ولسنا أعلم من رسول الله ﷺ، ولكن لا يجوز أن يعتقد بأن من فعل ذلك أنه خرج من دين الإسلام وصار كافراً؛ لأن هذا مذهب الخوارج، **فصرنا بين شيئين**:

الأول: أمرٌ فيه الخطورة وهو القول على الرسول ﷺ بلا علم، فلا نأوله فنقع في أمر ما أراده الله ورسوله ﷺ، وهو الذي دعا كثيراً منهم لعدم التأويل.

الثاني: إذا لم نأوله ونبقيه على ظاهره، وظاهره أن من فعل هذا فهو كافر وهذا لا يجوز.

ولهذا نقول: أنه لا يجوز أن نتخذ طريقاً لا يمكن أن نخالفه أبداً، وهو عدم التأويل لا في نصوص الشرع ـ في الأمر والنهي ـ مثل هذا، ولا في أسماء الله وصفاته، بل يجب أن نتعرف على مراد المتكلم ومقصوده، وهذا يتبين لنا من القرائن، ومن كذلك الأحوال وسياق الكلام وما أشبه ذلك، فإذا تبين لنا مراد المتكلم ومقصوده فنقول به ولا يكون تأويلاً.

مثل هذه النصوص الكثيرة تدل على أن الذنوب لا تكون مكفرات للإنسان ومخرجة له من الدين الإسلامي، وكوننا نبقيها على ظاهرها فيه إشكال في الواقع، وكثير ما يقولون اتركه على ظاهره، ومعنى ظاهره أنه يكون كافراً، وهذا لا يمكن ولا يجوز، فنقطع أن الرسول ﷺ ما أراد أن يكون الذي يشق جيبه عند المصيبة أو يلطم خده أنه كافر وخرج من الدين

---

(١) رواه البخاري رقم ١٢٩٧، ومسلم رقم ١٠٣.

الإسلامي، لأنه عُرف من سُنَّته ﷺ أن الذنوب متوعد عليها وقد تكون أكبر من هذا ويقام الحد على صاحبها ويصلي عليه النبي ﷺ مثل الزاني المحصن والمرأة الزانية المحصنة رجمها ثم صلى عليها، وقال عليه الصلاة والسلام: «لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم»[1]، وفي رواية: «فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له»، ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت، المكس: هو أخذ المال الذي يسمى الجُمرك وما أشبه ذلك؛ لأنه أخذ مال بلا حق.

فالمقصود أن تأويل مثل هذا حتى يتفق مع النصوص الأخرى لا يكون منكراً، بل يكون هو الصواب، هذا من ناحية الأوامر، أما من ناحية الصفات فهو كذلك أيضاً، فالله جل وعلا يقول لنا في كتابه: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾ [البقرة: ٢١٠]، يقال هذا مثل ما أخبر الله جل وعلا لا يجوز لنا أن نقول: هل ينظرون إلى أن يأت أمره أو يأت عذابه أو تأتي ملائكته كما يقوله المتأولة فيؤولون صفات الله ﷻ بمخلوقات، بل نقول: إن هذا يجب أن نأخذه على ظاهره، ولكن هل نسلك هذا المسلك دائماً في كل نص يأتي في مثل هذا مثل قوله تعالى: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾ [الحشر: ٢] فهل نقول أن هذا إتيان ربنا جل وعلا بنفسه، ومثلها الآية الأخرى: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٢٦] نقول ليس كذلك، لأن القرائن تدل على خلاف ذلك، وكذلك السياق.

الآية الأولى في بني النضير اليهود الذين حاصرهم الرسول ﷺ وقد كانوا متحصنين في بلادهم، وكانوا يزعمون أنهم أصحاب قوة وأن أحداً لا يستطيع أن يقهرهم، فجاءتهم جنود الله جل وعلا يقودها الرسول ﷺ فتزلزلوا وقذف في قلوبهم الرعب.

فإذا قلنا: هنا «أتاهم الله» يعني: جنده وبأسه، نقول: هذا لا يكون

---

(١) رواه مسلم رقم ١٦٩٥.

تأويلاً، نقول هذا هو الظاهر؛ لأن السياق يدل على هذا، ومراد المتكلم هو هذا، فيكون هذا هو الظاهر وليس تأويلاً.

وكذلك الآية الأخرى: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ فالله لا يأتي من سيسان الحيطان تعالى الله وتقدس، فهو على عرشه فوق خلقه كلهم، وإنما يأت عذابه، وقلنا هذا هو الظاهر.

فالمقصود: أنه إذا قال أهل السُّنَّة مثل هذا ما يقال أنكم تتناقضون، فهنا ليس فيه تناقض وإنما نتبع مراد ربنا جل وعلا، ونتعرف على مراده، فإذا تبين لنا مراده قلنا به وهو ظاهر.

وعلى هذا نقول في قوله: «**ليس منا**» نقول: ليس على طريقتنا التي يجب أن يكون الإنسان عليها، وإذا لم يكن عليها فهو معاقب مأخوذ بذنبه.

قوله: «من ضرب الخدود»: نص على الخدود لأن العادة كانت هكذا، عادة الجاهلية كانت إذا وقع للإنسان مصيبة صار يلطم خده ولا سيما النساء، ولا تزال إلى الآن على هذا النهج.

ولكن هذا لا يختص بالخد، فلو ضرب صدره أو رأسه أو ضرب فخذه عند المصيبة فإنه داخل في ذلك، فإنه عاصٍ ومرتكب كبيرة من كبائر الذنوب.

وقوله: «وشق الجيوب»: الجيب هو الفتحة التي في القميص يدخل معها الرأس. وكانت عادة الجاهلية أنهم كانوا يشقونها، ولا يزالون إلى الآن. والحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: إذا شق الجيب ولم يكمل الشق فإنه لا يدخل في هذا[1]. وهذا غير صحيح، بل إذا فعل ولو قليلاً فإنه داخل في ذلك؛ لأن هذا يدل على التسخط، كذلك فيه إتلاف المال الذي لا يجوز إتلافه وأهم شيء هو سخط القضاء وتقدير الله جل وعلا، ولكن بعض الناس ينتف الشعر من حر المصيبة ويضرب نفسه، فأي فعل يفعله الإنسان عند المصيبة يدل على التسخط وعدم التسليم لله جل وعلا فهو داخل في هذا وهو من كبائر الذنوب.

---

(١) فتح الباري لابن حجر ٣/ ١٦٤ قال: والمراد بشقه إكمال فتحه إلى آخره وهو من علامات التسخط.

وقوله: «ودعا بدعوى الجاهلية»: دعوى الجاهلية هي: الدعوى بالويل والثبور، يقول: يا ويلاه ويا ثبوراه عند المصيبة. ودعوى الجاهلية أعم من هذا، فيدخل فيها الدعوة إلى العصبيات وإلى الاعتزاز بالقبائل والاعتزاز بالأوطان والدعوة لها والولاء لها، أو لطائفة معينة، حتى ولو كان عالماً من العلماء، يصبح يوالي عليه ويعادي عليه، فهذا من دعوى الجاهلية.

ويدخل فيها أيضاً كل دعوة يخالف فيها شرع الله ﷻ فهي من الجاهلية لأن الجاهلية خلاف العلم، والعلم هو الذي جاء به الرسول ﷺ.

ويدخل فيها أيضاً التعصب للمذاهب، كما هو الواقع لكثير من الناس، حتى أن بعض الناس إذا ذكرت له الدليل من كتاب الله أو سُنَّة رسوله ﷺ قال: «المذهب خلاف هذا».

ففي هذه الأمور دليل على عدم التسليم لقضاء الله ﷻ ولقدره والاعتراض عليه.

وقد يكون الإنسان مثلاً إذا أصيب بالمصيبة في نفسه أو في غيره يكون هذا سبباً في كفره وخروجه من الدين الإسلامي، قد يكون هذا كما يسمع من بعض الناس إذا وقع في مرض أو مصيبة وجدته يشكو الله إلى الضعفاء، يقول: أنا ما عملت شيئاً ما أدري ما هذه المصيبة التي أصابتني، فهل أنت طاهر مطهر ليس عندك أي مخالفة، الله ظلمك وأوقع بك هذا ظلماً! وهذا لا يجرؤ أن يقوله ولكن هذا في قلبه والكلام يدل على هذا.

فقد يخرج الإنسان ـ نسأل الله العافية ـ إذا وقع في مصيبة من الدين الإسلامي ويصبح يتهم ربه جل وعلا بأنه ظلمه مع إن المصائب رحمة من الله جل وعلا يكفر بها الذنوب.

وبعضهم يعترض على حالات الناس، يقول هذه ليست حكمة، لماذا فلان يصير فقيراً وفلان يكون غنياً، وفلان عنده كذا وفلان عنده كذا، فهم يعترضون على الله جل وعلا في تصرفه في خلقه تعالى الله وتقدس، وبعضهم يجعل غضبه ومسبته على الدهر يقول الدهر هو الذي فعل كذا، الدهر يغدق على الضعة ويضيق على أهل الأدب وأهل المروءة.

والدهر الذي هو الليل والنهار زمن مدبر ليس عنده تصرف، وإنما المسبة في الواقع تعود إلى الفاعل لهذه الأفعال وهو الله ﷻ، ولكنهم لا يجرؤون أن يقولون أنه الله.

۞ قال المؤلف رحمه الله: وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أراد الله بعبده الخير عجَّل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة»[1].

الإرادة هنا «أراد» هي إرادة قدرية كونية، والإرادة القدرية الكونية لا بد منها في كل شيء، لا يمكن أن يوجد شيء من الأشياء إلا بإرادة الله جل وعلا الكونية، ولكن الإرادة الدينية الشرعية أخص من هذا، وهي تتعلق بالأمر والنهي فقط، ولهذا صار فيها التيسير: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

فاليسر في الشرع حيث خفف عن المسلمين ما كان من الآصار والأغلال التي كانت على اليهود والنصارى وغيرهم، ولهذا تذكر في الأمور الشرعية بخلاف الكونية مثل قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥] وهذا الحديث مثل هذه الآية والله جل وعلا لا يقع شيء سواء من فعل الإنسان العاقل الذي عنده القدرة وعنده الاختيار أو من فعل غيره، لا يقع شيء إلا بإذنه وإرادته؛ لأن الكل ملكه ولا يقع في ملكه إلا ما شاء. وإن كان العبد يفعل الأفعال عن اختيار وعن قدرة، ولكن الاختيار والقدرة مخلوقة له، خلقها الله جل وعلا له، ثم هو جل وعلا يصرِّف الأشياء حسب إرادته، يجعل الإنسان مختاراً لهذا الشيء ويجعله منصرفاً عن هذا الشيء، ولهذا إذا سمع العلماء كلمة الجبر قالوا يتعالى الله ويتقدس أن يجبر أحداً؛ لأن الجبر يدل على الضعف، فالقوي يجبر الضعيف من الناس، ولكن الله يجعل الأشياء حسب إرادته بخلقه تعالى وتقدس مع أن الاختيار يكون للإنسان، ولهذا تجد الإنسان يكفر باختياره

(١) رواه الترمذي رقم ٢٣٩٦.

وبفعله ولو قاتلته لقاتلك، ويقول أنا حر ما تصرفني عن إرادتي، نقول له هذا كفر ومأواك النار، يقول: ما لك ولي اتركني، فهو باختياره وفعله.

وكذلك المؤمن اختار الإيمان والطاعة، ولكن هذا يجعل الله له هذا الشيء جعله مختاراً لذلك، فالله ﷻ يقول: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾ [التكوير: ٢٩] فمشيئة الإنسان بعد مشيئة الله، ولا يقع شيء إلا بإرادته.

فمعنى قوله: «إذا أراد الله بعبده» يعني الإرادة القدرية التي قدرها قدراً، أراد بعبده الخير فإنه يهيئ الأسباب، ثم يقدر له العقوبة وسواءً كانت العقوبة في بدنه أو في ماله أو في أهله أو في أقاربه فإن هذا يكون فيه كفارة لذنوبه.

وقوله: «عجل له العقوبة في الدنيا»: حتى يصبح ليس عليه ذنب، وإلا ليس أحد يخلو من الذنب أبداً، ولهذا تكون العقوبة نعمة من الله على العبد، حتى يكفر ذنوبه؛ لأنه لا يمكن أن يكون العبد سالماً من الذنوب، وبعض الناس يتصور أنه طاهر وأنه ما عمل ذنباً، وهذا من الجهل جهله بنفسه وجهله بربه جل وعلا.

والعبد خلق لعبادة الله جل وعلا، وعبادة الله على العبد دائماً وعلى جوارحه وقلبه ولسانه وقد أمره الله جل وعلا بأوامر ميسرة ومع ذلك لا يستطيع أن يقوم بها على الوجه الشرعي، ولا يمكن أحداً أن يقوم بها على الوجه المطلوب سواء الصلاة التي هي تتكرر في اليوم خمس مرات فتجده يقوم في الصف ثم تجده يسرح في كل مكان قلبه، فهذا ذنب يجب أن يستغفر منه، وهو أيضاً لا يأتي بها كما يأتي بها الصالحون فضلاً عن الصحابة وعن الرسول ﷺ، والصالحون الذين يخلصون أمرهم لله جل وعلا، فإذا كانت الصلاة التي هي من أفضل الأعمال يمكن أن العبد يكون مذنباً فيها لأنه ما أتى بها على الوجه المطلوب، فكيف بالبقية فيقيس الإنسان نفسه على هذا، ولهذا إذا عجل الله لعبده العقوبة في الدنيا فهذا من رحمته، وقوله: «**إذا أراد الله بعبده**» هذا مطلق لكل أحد «**عجل له بالعقوبة في الدنيا**» يعني أصابه مرض أو مصيبة في أهله أو في ولده أو في ماله وما أشبه ذلك، فهذه

العقوبات التي يصاب بها الإنسان كفارة لذنوبه كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ۝٣٠﴾ [الشورى: ٣٠] وهو سبحانه يعفو عن كثير، لو أخَذَنا بكل ما نستحق ما يمكن أن يبق على وجه الأرض أحد ولكنه رحيم حليم.

وقوله: «وإذا أراد بعبده الشر»: الشر بالنسبة للعبد، وإلا الله جل وعلا ليس إليه شر، كل فعله جل وعلا خير عقابه لمستحق العقاب خير، ولكنه بالنسبة للمعاقب شر.

قوله: «أمسك عنه بذنبه»: أمسك؛ يعني: العقوبة لا يعاقبه بذنبه، يعافيه.

قوله: «حتى يوافي به يوم القيامة»؛ يعني: حتى يوافي بذنبه يوم القيامة يأتي بذنبه كاملاً يوم القيامة فيلقى جزاءه في ذلك اليوم، ولهذا أخبرنا الله جل وعلا أنه يملي للكافر حتى يزداد شراً: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ۝١٧٨﴾ [آل عمران: ١٧٨]، فإذا رأيت الظالم يمد له في أيامه ويمد أيضاً في أعماله فلا تحسبن الله غافلاً عما يعمل، ولكن هذا لشدة العذاب، والذي يصاب في هذه الدنيا بمصيبة تمر هذه المصيبة كأن لم تكن لأن الدنيا ماضية وتنتهي بخلاف الآخرة فإنها باقية.

۞ قال المؤلف رحمه الله: وقال النبي ﷺ: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط» حسنه الترمذي[1].

قوله: «قال النبي ﷺ»: قال الترمذي: حدثنا قتيبة، حدثنا الليث عن يزيد بن حبيب، عن سعد بن سينان عن أنس بن مالك، ثم قال: وبهذا السند قال عليه الصلاة والسلام: **«إن عظم الجزاء مع عظم البلاء»**.

وهذا يدلنا على أن البلاء يكون عليه جزاء، وقد اختلف العلماء في هذه

(١) رواه الترمذي رقم ١٢٣٢، وابن ماجه رقم ٤٠٣١.

المسألة هل المصائب كفارات فقط أو أنها كفارات وحسنات يزداد الإنسان فيها خيراً؟

فقالت طائفة: إنها تكفِّر فقط[1]؛ لأن الإنسان لا يسلم من الذنوب، وكل ما أصيب به فهو كفارة، ولهذا أخبر الرسول ﷺ بقوله: **«ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفر الله بها عنه حتى الشوكة يشاكها»**[2]، ولما قال الله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ﴾ [النساء: ٧٨]، حتى قال الله تعالى: ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ الآية [النساء: ٧٩]. وقول الله تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾ [النساء: ١٢٣]، فهذه لما نزلت شق ذلك على الصحابة، قالوا: هذا شيء شديد إذا كان كل سوء نعمله سنجزى به فمعنى ذلك أنه لا يسلم أحد، فأخبرهم الرسول ﷺ أن الجزاء هذا يكفر بالمصائب حتى الشوكة إذا أصابت الإنسان تكفر عنه مما أصاب، وهذا من رحمة الله تعالى، وهذا مثل الحديث الذي معنا.

وقالت طائفة أخرى: أن المصائب تكون مكفرة، وفيها رفع درجات لما دل عليه الحديث وغيره فقوله ﷺ: **«إن عظم الجزاء مع عظم البلاء»**.

الجزاء معروف أنه الحسنات، فإذا كان على البلاء جزاء فمعنى ذلك أنه يكفر وزيادة على ذلك يكون فيه حسنات، ورفع لدرجات، ولهذا جاء في الحديث أن الإنسان قد يكون له عند الله درجة عالية لا يبلغها بعمله فيبتليه بمصائب حتى يصل إلى هذه الدرجة، وهذا يدل على أن البلاء والمصائب

---

(١) عِدّة الصابرين ١/ ٧٠ قال: وأما الأسقام والمصائب فإن ثوابها تكفير الخطايا، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾، والنبي ﷺ إنما قال في المصائب كفر الله بها من خطاياه كما تقدم ذكر ألفاظه وكذا قوله: المرض حطة، فالطاعات ترفع الدرجات والمصائب تحط السيئات، ولهذا قال: **«من يرد الله به خيراً يصب منه»**، وقال: **«من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»**، فهذا يرفعه وهذا يحط خطاياه.

(٢) رواه البخاري رقم ٥٦٤٠، ومسلم رقم ٢٥٧٢ من حديث عائشة.

يكون فيها رفع لدرجاته، يعني أنه لا يكتفي بأنها تكفِّر. ابن القيم رحمه الله ذكر هذا ولكنه قال: هذا ليس على نفس المصيبة وإنما هو على الرضا والاحتساب والصبر، إذا رضي وصبر واحتسب فلدرجاته على هذا، أما نفس المصيبة فهي مكفرة فقط، والله أعلم.

وقول الله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان: ٧٠]، قيل: إن السيئات تبدل حسنات كما في نص الآية، وقيل أن معنى ذلك أن العبد يتغير فبدل ما كان يعمل السيئات بدأ يعمل الحسنات وهو تبديل بالفعل، يعمل الإنسان بتوفيق من الله جل وعلا. قد يؤيد القول الأول أن السيئات نفسها تجعل حسنات ما جاء في الحديث أن الله جل وعلا يأتي بالعبد وتعرض عليه سيئاته الخفيفة وتبعد عنه السيئات الكبيرة ثم يقال له إن لك بكل سيئة حسنة أو قال درجة، فيقول يا رب لي سيئات ما أراها طمع لما قيل له هذا، فقد يكون هذا لبعض عباد الله وليس للكل، ولا ينافي كونه برضاه وصبره واحتسابه.

وهذا الحديث يدل على أنه ليس تكفير فقط لأنه قال: «**إن عظم الجزاء مع عظم البلاء**»، فالله ﷻ يجزي على المصائب حسنات ودرجات، وأن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم بالفقر وبالمصائب، وبالشيء الذي قد يراه الناس أنه إهانة وأنه بسبب ذنوب ارتكبها وهو في الواقع لأن الله أحبهم، ويرفع درجاتهم في الآخرة.

قوله: «فمن رضي فله الرضا»: هذا هو الذي استدل به ابن القيم رحمه الله على أن الرضا والصبر والاحتساب هو الذي عليه الجزاء، وليس على نفس المصيبة، فالمصيبة تكفر ولكن الرضا عن الله جل وعلا والصبر عل المصيبة والاحتساب، وطلب الثواب على ذلك هو الذي عليه الثواب. والظاهر والله أعلم أن المصيبة يكون فيها تكفير وثواب، ولكن ليس لكل أحد إذا كان العبد قابل المصيبة بالسخط على الله وما قدره فتكون عذاباً عاجلاً وليس له عليها لا تكفير لذنوبه ولا ثواب، وإذا استقبل هذا بالرضا عن ربه جل وعلا والحمد والصبر والاحتساب فإنها تكون مكفرة ورافعة لدرجته.

قوله: «إذا أحب قوماً ابتلاهم»: فيه إثبات المحبة لله جل وعلا وأن الله يحب بعض الناس وبعضهم لا يحبهم ويقابله البغض وكذلك فيه إثبات الرضا والسخط، فكل هذه الصفات لا يؤمن بها الأشاعرة ونحوهم ممن هم على طريقة أهل الضلال كالمعتزلة والجهمية وغيرهم، وقد ورث هؤلاء الرافضة الآن والزيدية والإباضية وغيرهم، ورثوا هذا المذهب الضال، فكلهم على هذا المذهب الخبيث لا يؤمنون بصفات الله جل وعلا بل يرون هذا من التشبيه، فهم يعطلون الله عن المحبة وعن الرضا والسخط بل يعطلونه عن الكلام ويعطلونه عن الاستواء وكذلك الرؤيا وغيرها مما ثبت بالنصوص وصف الله تعالى به.

فهذا صريح بأن الله يحب وقد كثرت النصوص في هذا، وهم لا يعرفون من المحبة إلا ما يعرفون من أنفسهم، يقولون المحبة هي الميل إلى الملائم وهذا فيه نقص حسب زعمهم وهذه محبة المخلوق، ومحبة المخلوق مخلوقة مثله ضعيفة مثله، أما محبة الله جل وعلا فلا يجوز أن يكون هذا معناها، محبة الله هي صفة تقوم به جل وعلا وهي حقيقية ولكن لا يجوز أن نشبهها بصفة المخلوق، فالمخلوق ضعيف ويليق به الضعف، وفقير ويليق به الفقر، والله غني كامل ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في أوصافه، ومثل ذلك يقال في الرضا.

قال: **«فمن رضي فله الرضا»**؛ يعني: من الله، أن الله يرضى عنه **«ومن سخط فله السخط»** يعني: أن الله يسخط عليه.

فإذاً هذه صفات يتصف الله جل وعلا بها يجب أن يؤمن بها على ما جاء عن الله وما جاء عن الرسول ﷺ على ما يليق بالله كما قال جل وعلا: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، بل ولا في حقه الذي هو عبادته على عباده، فهذه أمور أربعة يجب أن تكون من خصائص الله، فحقه يجب أن لا يكون مثل حق المخلوق يكون عبادة خالصة له جل وعلا، والسخط كذلك، والله يسخط على من يشاء من عباده.

والحب والرضا والسخط والبغض والكراهة كلها يعرفها المخاطب، ولكن حقيقتها لا يعرفها أحد، وإنما على العبد أن يعلم يقيناً أن الله يحب ويرضى ويغضب ويكره كما يليق به تعالى وتقدس.

والشاهد من هذا أن كل ما يصاب الإنسان به أنه بتقدير الله فيجب أن يؤمن به، ثم يصبر ويحتسب على الله أنه يثيبه، وكل هذه الأمور داخلة في قوله من الإيمان بالله الصبر على أقدار الله، وهذا ليس خاصاً بأقدار الله، فالصبر أيضاً على أمر الله وطاعته والصبر عن المعصية كله يدخل في هذا.

❁ قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيه مسائل:

❁ الأولى: تفسير آية التغابن.

يعني: فيها الدلالة على أنه ما يقع شيء إلا بقدر الله، وأن العلم بذلك والصبر والاحتساب أنه من الإيمان بالله.

❁ الثانية: الطعن في النسب.

يعني: أن هذا يقدح في الإيمان بالله.







الباب السادس والثلاثون

❁ قال المؤلف رحمه الله: باب ما جاء في الرياء.

يعني من الوعيد، وأنه من الشرك، وأن الإنسان إذا وقع فيه فإن عمله مردود، وهو ممقوت عند الله، وأنه يستحق المقت من الله تعالى.

والرياء خطير جداً فيقع فيه العلماء ويقع فيه الصالحون، والعلماء والصالحون اجتهدوا وكبحوا نفوسهم عن الحرام وعن ترك الواجب، ولكن الثناء وتعظيم الإنسان والتبرك به والقيام بخدمته وما أشبه ذلك أمور خفية تحبها النفس وتميل إليها وتجد فيها راحة فصارت خطرة من هذا الوجه وغيره.

والرياء مأخوذ من المراءاة أو من الرؤية. رياء مصدر: راءه، يُرائيه، رياءً. فالرياء مشتق من الرؤية، رؤية الناس، لأنه يُريهم يعني أنه يُريهم عمله ويظهر لهم أنه حسن وأنه على صفة معينة حتى يثنوا عليه ويمدحوه، أو يحصل له مراده منهم لخدمة أو ما أشبه ذلك من أغراض النفس. فيكون المعنى أن الذي يفعل هذا أنه يعمل لهواه يعمل لنفسه لما يشتهيه ويريده لما يحبه من أمور الدنيا التي هي إما ترفُّع على الناس أو حصول منزلة في قلوبهم أو حصول شيء من أمور الدنيا يرتفع بها من الثناء والمدح، أو أن يقدم في المجالس وما أشبه ذلك من شهوات النفس إذا عمل العمل الذي هو لله ثم حسنه وزينه وزاد فيه من أجل ذلك فهذا العمل حابط.

أما أن يكون العمل أصله ومبعثه لأجل مراءاة الناس فهذا لا يكاد يصدر من مسلم في الأعمال التي يكون نفعها قاصراً على العبد نفسه مثل: الصلاة والصوم وما أشبه ذلك، أما الأمور المتعدي نفعها مثل: الصدقة وما أشبه ذلك، فهذا قد يبذل هذه الأموال حتى يثنى عليه من الأصل ويكون هو الباعث له، ومثل كذلك بناء المساجد كما قال السلف: الإخلاص فيها عزيز. يعني قليل، وإنما يكون الإخلاص من المؤمنين الخلَّص.

والرياء يتعلق بحاسة النظر، والسمعة تتعلق بحاسة السمع بالكلام أو التحدث فقد يعمل أعمالاً وحده ثم يُحدث الناس بها يقول: عملت كذا، وعملت كذا، فيكون قد دخل في السمعة، وفي الشرك ـ نسأل الله العافية ـ.

فإذا كان الرسول ﷺ يخاف هذا الشيء على الصحابة الكمَّل خير الناس بعد الرسل فمساكين الذين قلَّت علومهم وتقواهم وإدراكهم وقلَّ عقلهم فلا بد أن يخاف عليهم. ولما كان من شرط العمل وقبوله أن يكون خالصاً لله، وأن يكون صالحاً يعني على السُّنَّة أراد المؤلف رحمه الله أن يبين أن الرياء يبطل العمل، وأنه منافياً للتوحيد، أو منافياً لكماله الواجب لأن الرياء ثلاثة أقسام:

القسم الأول: أن يكون رياءً محضاً، ويكون هو الباعث على أصل العمل كما ذكر الله ذلك عن المنافقين ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء: ١٤٢] يعني في صلاتهم، إذ الباعث على الصلاة مراءاة الناس، وكذلك ذكر الله ذلك عن الكفار: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنفال: ٤٧] فخرجوا مراءاة للناس، وهذا الرياء المحض لا يكاد يصدر من مؤمن في الأعمال التي تكون محصورة عليه مثل: الصلاة والصيام.

أما الأعمال التي يتعدى نفعها وتكون ظاهرة مثل: الصدقة أو الحج، فإن الإخلاص فيها عزيز، وهذا العمل لا يشك مسلم أنه حابط، وأن صاحبه يستحق المقت من الله والعقوبة والخطر في النوعين الآخرين.

القسم الثاني: أن يكون العمل لله، ويشاركه الرياء، فإن شاركه من أصله فالنصوص الصحيحة تدل على بطلانه وحبوطه أيضاً منها هذا الحديث الذي معنا.

القسم الثالث: أن يكون العمل لله، ويطرأ عليه نية الرياء، يعني في أثنائه مثل ما جاء في الحديث: «لما يرى من نظر رجل» وهذا معناه أنه يزيد صفة ما كان يعملها مثل تحسين الصلاة وإطالتها من أجل نظر رجل فهذا لا يخلو من حالتين:

الحالة الأولى: أن يكون خاطراً ثم يدفعه ويزيله عن عمله ويجتهد في الإخلاص ويبتعد عن الرياء فهذا لا يضره.

الحالة الثانية: أن يسترسل معه فإن كان العمل مرتبطاً أوله بآخره كالصلاة والصيام والحج، فظاهر النصوص أن عمله باطل وأنه معاقب أيضاً على هذا العمل منها هذا الحديث.

وإن كان العمل لا يرتبط أوله بآخره مثل القراءة والذكر وإنفاق المال ونشر العلم فما كان فيه رياء فهو حابط ويحتاج إلى تجديد نية.

وقد جاء عن الفضيل بن عياض وغيره من السلف: إن ترك العمل من أجل الناس رياء والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما[1]. والناس لا ينفعون ولا يضرون فيجب أن لا يكون لرؤيتهم أثر عند الإنسان، ويكون العمل لله جل وعلا والعافية أن يعافيك الله منهما.

❁ **قال المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ: **وقول الله تعالى**: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠].

قوله: «﴿قُلْ﴾»: هذا أمر للرسول ﷺ أن يقول، فقال لنا مثل ما قيل له، وقد سُئل عن هذا فقال: «**قيل لي فقلت لكم**»[2]، وهذا يدلنا أن الرسول ﷺ جاء إلينا بكل ما أوحي إليه بالحرف ما نقص حرفاً واحداً ولا زاد شيئاً، فهذا كلام الله جل وعلا فأمره بالقول فقال كما أمر.

وقوله: «﴿إِنَّمَآ﴾»: إنما تدل على الحصر؛ يعني: أنه محصور فيما ذكر.

قوله: «﴿أَنَا۠ بَشَرٌ﴾»؛ يعني: مخلوق من ذكر وأنثى من بني آدم.

قوله: «﴿مِّثْلُكُمْ﴾»: بشر مثلكم لست إله ولا رب ولا ملك، إنما أنا بشر مثلكم ولكن الله منَّ عليّ وخصني بأن أوحى إلي أمره ونهيه لأبلغكم إياه ففضله بذلك.

---

(١) مدارج السالكين ٢/ ٩١.

(٢) سبق تخريجه.

قوله: «﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾»: الوحي هو: الإعلام بالخفية، وقد يكون بواسطة الملك، وقد يكون بغير ذلك، وهذا دليل واضح أن الرسول ﷺ مثل الناس بالخلق ليس مخلوقاً من النور مثل ما تقوله المتصوفة وغيرهم وأنه نور وأنه هو أصل الوجود أو ما أشبه ذلك، هذا كله غلو ومجانب للحق.

قوله: «﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ﴾»: إنما أيضاً هذه دليل على الحصر.

قوله: «﴿إِلَٰهُكُمْ﴾»؛ يعني: معبودكم، فالإله هو المعبود الذي تألهه القلوب وتعبده.

قوله: «﴿إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾»: معبود واحد هو الله جل وعلا ليس معه إله، كما أنه سبحانه ليس معه متصرف وخالق وموجد: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [فاطر: ٤٠]، هل هناك أحدٌ خلق شيئاً من الأرض أو من السماء أو من الشجر أو من البشر أو من الدواب أو من غير ذلك لا وجود لشيء من ذلك.

وهذه الآية تدل على أن الرسول ﷺ أُمر ببيان وإبلاغ توحيد العبادة ـ الألوهية ـ وأنه أرسل بهذا، أما توحيد الربوبية فهو أمر معلوم للناس لا يخالف فيه أحد لكونه معلوماً جعله الله دليلاً على وجوب توحيد العبادة كما قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة: ٢١]، انظر كيف استدل: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ يعني: يجب أن تعبدوه لأنه هو الذي خلقكم وخلق الذين من قبلكم وخلق كل شيء: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢٢]؛ يعني: لا تعبدوا غيره وأنتم تعلمون أنه هو الواحد المتفرد في إيجاد هذه الأشياء، فهذا دليل على وجوب عبادته وهذا كثير جداً في القرآن.

وقوله: ﴿إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾؛ يعني: ليس له شريك في التوجه والدعاء وغير ذلك من أنواع العبادة فيجب أن تكون كلها له وحده.

وقوله: «﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾»: اللقاء هنا تعلقت بما قبلها، مفرَّعة على ما قبلها؛ يعني: من كان يؤمن بأنه سوف يموت ويبعث فيقوم بين يدي الله

فليعمل عملاً صالحاً والعمل الصالح هو الذي جاء به الرسول ﷺ على سُنَّته فهذا شرط.

وقوله: «﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾»: هذا هو الشرط الثاني.

وقوله: ﴿أَحَدًا﴾: هذا نكرة في سياق النهي، والنكرة إذا جاءت بعد النهي أو بعد النفي فهي تعم يعني: أحداً مطلقاً سواء كان نبياً أو كان شجرة، أو حجراً أو ملكاً أو غير ذلك، فهذا عموم مطلق يدل على أن كل أحد لو اتجه إليه بالعبادة أن ذلك، يكون مشركاً، ويكون محبطاً للعمل وجاعلاً العمل غير مقبول.

ولكن يبقى معنى الإله ومعنى العبادة ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ ﴿بِعِبَادَةِ﴾ قد يتصور الإنسان أن الإله هو الذي يحيي ويميت ويخلق ويرزق ويتصرف في الكون كله ويقول أنا مؤمن بهذا، ويتصور أن العبادة هي الصلاة والصوم وما أشبه ذلك فقط، أما الدعاء والذبح ما يلزم أن تكون عبادة كما هو الواقع لكثير من المسلمين، والذي عاش في هذه البلاد قد يستغرب هذا، وكانت هذه البلاد مثل البلاد الأخرى لا فرق بينها، فهذه الأشياء موجودة فيها؛ لأن أهل هذه البلاد كانوا يذهبون إلى مصر وإلى الشام والعراق ويتعلمون فيأتون من هناك بالشيء الذي تعلموه، ولهذا كانت القبور تعبد وتقصد ويذبح لها وينذر ويستغاث بها، ولكن الله جل وعلا منَّ على هذه البلاد بدعوة شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله فطهَّرها من هذا الشرك.

فالمقصود أن الآية تدل أولاً أن الرسول ﷺ مثلنا في البشرية غير أن الله منَّ عليه وفضله بالوحي أوحى إليه وأنه بلغ ما أوحي إليه إلى الناس، وأن شرعه الذي جاء به يجب أن يقبل وأن يتعبد الله به وأن يكون هذا التعبد خالصاً لله جل وعلا.

وأن الإله هو المألوه الذي تألهه القلوب خوفاً ورجاءً وإنابة وحباً وذلاً وخضوعاً غاية الذل والخضوع، وهذا لا يجوز أن يكون إلا لله جل وعلا.

وأما العبادة: فهي كل ما يتقرب به إلى الله جل وعلا من عمل يرجى أن

يثاب عليه بعد ما أمر به، فكل ما أمر الله به ويتقرب به إليه رجاء الإثابة وخوف العقاب إذا لم يفعله، والأمر سواء كان أمر إيجاب أو أمر استحباب، أما المباح فليس من العبادة لأنه ليس فيه أمر ولا نهي. وبهذا يتبين لنا أن العبادة تتوقف على أمر الله جل وعلا.

العبادة: كل ما أمر به شرعاً من غير اطراد عرفي ولا اقتضاء عقلي.
العرف هو: الذي يتعارف عليه الناس، والعرف لا دخل له في العبادة، وكذلك العقل ليس له دخل في هذا، وإنما تتوقف العبادة على الشرع، فالعبادة ما أمر الله به جل وعلا أمر إيجاب أو أمر استحباب فتفعل تقرباً إلى الله رجاء ثوابه وخوفاً من عقابه لو لم يفعل العبد ذلك فيدخل فيه النهي.

عرَّفها شيخ الإسلام بقوله: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة. ثم الأمثلة كثيرة مثل الصلاة والسجود والطواف. فالطواف عبادة لا يجوز إلا أن يكون على الكعبة فقط، ومن طاف على القبر فقد عبد القبر وأشرك بالله، وكذلك من العبادة النذر والذبح والدعاء والحلف للتعظيم وكشف الرأس تعظيماً، وهذا لا يجوز فعله إلا لله جل وعلا وهو يكشف عند الإحرام تعظيماً لله جل وعلا، أما أن يكشف عند القبر تعظيماً لصاحب القبر فهذا شرك بالله.

۞ قال المؤلف رحمه الله: وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»[١].

قوله مرفوعاً يعني إلى النبي ﷺ، وهذا يسمى حديث قدسي لأنه يرويه النبي ﷺ عن ربه قولاً: **«قال الله تعالى»**. والحديث القدسي هو ما أضيف إلى الله قولاً أنه قاله لكنه ليس من القرآن، لأن القرآن متعبداً بتلاوته ومتَحَدّاً بأقصر سورة منه ويشتمل على الإعجاز، أما الحديث القدسي فلا يلزم هذا كله فيه.

(١) رواه مسلم رقم ٧٦٦٦.

وكذلك لا يجوز أن يمس الإنسان المصحف يعني كتابة القرآن إلا وهو طاهر كما صح ذلك عن رسول الله ﷺ، وقد اختلف العلماء في تعريف الحديث القدسي فقالوا: هو ما أضيف إلى الله قولاً والمعنى من الرسول ﷺ، يعني أن المعنى عبَّر عنه الرسول ﷺ، قال الله ﷻ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٣، ٤] يعني: أنه كل ما تكلم به الرسول ﷺ فهو عن الله فيكون القول والمعنى كلاهما من الله.

أما الذين يقولون أن القول من الله والمعنى من الرسول فيطلب الفرق بينه وبين الحديث النبوي؛ لأن الله أخبر أنه لا ينطق عن الهوى. ويقولون الفرق أن الله تلفظ بهذا، هذا هو الفرق، أما الحديث النبوي فإن الرسول ﷺ هو الذي تلفظ به، وعبر عن المعنى الذي أوحاه الله إليه.

وظاهر صنيع البخاري رحمه الله أنه يرى أن الحديث القدسي هو ما أضيف إلى الله لفظاً ومعنى، وهذا هو الصواب، والله أعلم.

قوله: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك»: «أغنى» من أفعال التفضيل، مثل قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] ولا خالق غير الله تعالى. ومثل قوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ۝٢٤﴾ [الفرقان: ٢٤] يعني: من أهل النار، فهل أهل النار ليس عندهم حسن مقيل وحسن مستقر أبداً. فكثير ما يأت أفعل التفضيل وليس له مقابل في التفضيل وهذا منها.

قال: **«أنا أغنى الشركاء عن الشرك»** والمعنى: أنه غني وغناه كامل، فلا يقبل العمل الذي فيه شرك، وهذا يدلك على أن الشرك هو كونه يجعل العمل مقسوماً بين الله وبين غيره، يجعل لغيره منه نصيب هذا هو الشرك.

«أنا أغنى الشركاء» هو غني عن كل شيء جل وعلا، ولكن العمل الذي يقصد الرب جل وعلا به ويقصد غيره فإنه يتركه، ولهذا قال: **«من عمل عملاً أشرك معي فيه»**.

يعني: في هذا العمل «غيري» مطلقاً من أي نوع كان سواءً كان عاقلاً أو

غير عاقل، سواءً كان نبياً أو ملكاً أو ولياً أو غير ذلك، فالله غني عن العمل الذي يكون فيه اشتراك فيتركه لهذا الشريك.

قوله: «من عمل عملاً»: هذا نكرة يدخل فيه كل عمل سواءً كان ظاهراً أو خفياً، قليلاً أو كثيراً.

قوله: «تركته»: الضمير هنا مفعول به وهو يعود إلى العمل.

وقوله: «وشركه»: هذا يعود على الشريك، يعني تركته وشريكه. ولهذا جاء **«هو لشريكه»**[1]، يحتمل هذا، ويحتمل أن قوله: **«تركته»** يعود على العامل، وقوله: **«وشركه»** يعني العمل.

فقوله: «تركته وشركه»؛ يعني: الذي أشرك به مع الله، وهذا ظاهر في أن العمل لا يقبله الله جل وعلا بل يتركه لذلك الشريك.

وجه الاستدلال بالحديث على أن الرياء محبط للعمل:

أن العمل إذا وقع فيه شيء من الرياء أن الله لا يقبله بل يمقت عليه، وهذا الذي ساق المؤلف الحديث من أجله، أن العمل إذا وقع فيه رياء، فالرياء شرك، ثبت تسميته شرك، أن الله يتركه لذلك الشريك، ولهذا جاءت النصوص الكثيرة في هذا، أنه يقول للمرائين: **«اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء»**[2].

وفي الحديث أن الله جل وعلا يقول، وعبر عنه بـ«قال» بالماضي يعني أنه قد وقع والله جل وعلا يتكلم إذا شاء بما شاء، فكلامه يتعلق بمشيئته تعالى وتقدس ولا يجوز أن يكون كلامه حدث بعد أن لم يكن، بل لم يزل متكلماً يعني بمشيئته، ولا يوصف بأنه متكلم، يعني نقول من صفاته المتكلم، لأن

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم ١٧١٤٠ عن شداد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن الله ﷻ يقول: أنا خير قسيم لمن أشرك بي، من أشرك بي شيئاً، فإن حشده عمله قليله وكثيره لشريكه الذي أشرك به، وأنا عنه غني»**، وجاء بلفظ عن أبي هريرة: **«فأنا بريء منه وهو للذي أشرك»** وهو عند ابن ماجه رقم ٤٢٠٢.

(٢) أحمد في المسند رقم ٢٣٦٣٠ من حديث محمود بن لبيد.

هذا لم يأت لا في الكتاب ولا في السُّنَّة وإنما جاء أن الله قال ويقول، وتكلم ويتكلم ويُكلم وهذا كثير وجوده في الكتب.

وقد أنكر الكلام كثير من أهل البدع وبعض الناس يقول ما ينبغي لنا أن نشتغل في ذكر مذاهب البدع التي مضت وانتهت وانقرضت فنصبح نبعث شيئاً مات، ويعيب على الناس الذين يذكرون هذا الشيء، وهذا دليل على أنه لم يعرف ما الناس عليه الآن، أكثر الناس اليوم على هذا المذهب الخبيث، وأقصد بالناس العلماء وليس عامتهم، أما عامة الناس فقد فطرهم الله على الحق إذا سمعوا أن الله قال ويقول ويتكلم اعتقدوا هذا على ظاهره.

ولكن المصيبة الذين تغيرت فطرهم بالتعلم وتلقوا عن علمائهم أن الله لا يتكلم ولا يقول ولا قال، وأكثر العالم اليوم علمائه من الأشاعرة والماتريدية وهم لا يثبتون كلاماً لله جل وعلا حقيقة، وإنما يثبتون شيئاً خيالياً لا وجود له فهم يقولون الكلام ينقسم إلى قسمين:

الأول: كلام يتلفظ به ويسمع ويشتمل على حرف وصوت، وهذا ممتنع عندهم على الله جل وعلا.

الثاني: وهو الذي يثبتونه وهو المعنى القائم بالنفس يسمونه الكلام النفسي ويستدلون عليه بقوله ﷺ: «**إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم**»[1]، فأثبت حديث النفس.

وفي قول عمر ﷺ في قصة السقيفة: «أردت أن أتكلم وكنت قد زورت في نفسي مقالة أعجبتني»[2]، يعني: هيئته وأعددته، وما أشبه ذلك من الأدلة التي يستدلون بها ويتركون الأدلة الواضحة الجلية، وهذا شأن أهل البدع يأخذون الأمور التي فيها اشتباه، وليس فيها وضوح ولا فيها احتمال، ويتركون الواضح الجلي الذي لا إشكال فيه، اتباعاً لما قال الله تعالى: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ

(١) رواه البخاري رقم ٥٢٦٩، ومسلم رقم ١٢٧ من حديث أبي هريرة.

(٢) رواه البخاري رقم ٦٨٣٠.

مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ الآية [آل عمران: ٧]. فيرجعون المتشابه إلى المحكم الجلي الواضح فيتبين ويزول التشابه؛ لأن التشابه أمر نسبي يعني قد يكون متشابهاً عند إنسان وليس متشابه عند آخر.

فعندهم أن كلام الله معنًى واحداً قائماً بالنفس بهذه القيود: معنًى واحداً قائماً بالنفس والقرآن عبارة عن هذا المعنى الواحد، والتوراة والإنجيل والزبور والفرقان وكل كتاب نزل من السماء فهو عبارة عن المعنى القائم بذات الرب، فيقال من الذي عبر عما في ذات الرب تعالى الله وتقدس؟ كأنهم نزلوه منزلة الأخرس الذي لا يستطيع أن يتكلم فعرف أحد ما في نفسه فعبر عنه، وهذا نقص ـ نسأل الله العافية ـ فكيف الله جل وعلا يتحدى الجن والإنس أن يأتوا بمثل هذا القرآن فهل يتحداهم على شيء في نفسه؟

وإذا كان عبارة فهو كلام المعبر ليس كلام رب العالمين جل وعلا، فإنما هذا عبارة عن كلامه، وسلفهم يقولون حكاية عن كلامه، وهم الكلابية، ولكن هؤلاء استبشعوا الحكاية وقالوا: الحكاية تحاكي المحكي، وتكون نظيره فنقول عبارة أحسن، وزعموا أن هذا يدل عليه قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾ [الحاقة: ٣٨ ـ ٤٠]، فإضافة القول إليه: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾ تدل على أنه هو المعبر عن الله تعالى، والله أخبر أنه قول رسول.

فيقال لهم: إن هذا باطل وهو قول الله، أما إضافته للرسول فلأنه مبلغ وهو الذي بلغه وليس كما يزعم الكفار أنه قول شاعر أو قول كاهن أو قول شيطان، بل هو رسول كريم، أرسله الله، والرسول لا بد أن يأتي برسالة، وهذا القول هو الرسالة التي جاء بها، والرسالة تكون من مرسل، والمرسل هو الله ﷻ، ولهذا قال بعد ذلك: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [الحاقة: ٤١ ـ ٤٣]، وهو نزل من الله جل وعلا قولاً منه، ثم قال: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٦]، والوتين هو العرق المتصل بالقلب الذي إذا قطع مات الإنسان، يدل هذا على أن المقصود بهذا هو الرسول البشري محمد ﷺ.

وفي الآية الأخرى قال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۝٢١﴾ [التكوير: ١٩ ـ ٢١] هذا هو جبريل عليه السلام. فيمتنع أنه لو كان قول جبريل عليه السلام أن يكون هو قول محمد ﷺ، وإنما أضيف إليه لأنه بلغه، لأنهم يزعمون أنه أخذه من بشر كما قال سبحانه: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣]، يقولون أنه أخذه عن أعجمي تعلم هذا، فرد الله ذلك عليهم، ولهذا قال عن الوحيد مقدمهم الوليد الذي فكر ونظر: ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ۝٢٣ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝٢٤ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ۝٢٥﴾ فقال الله جل وعلا: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝٢٦﴾ [المدثر: ٢٢ ـ ٢٦] على هذا القول فهو ليس قول بشر وإنما هو قول رب البشر جل وعلا، فهذا من الباطل البين الواضح قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]، وقال سبحانه: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٠﴾ [الواقعة: ٨٠]، وقال: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ١] في آيات كثيرة، وقال ﷻ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] وهو يسمع كلام الله من المبلغ الذي يبلغه فهذا القرآن هو كلام الله.

وهذا في الحديث يقول: «**قال الله**»، والقول معروف أنه الكلام الذي يشتمل على النطق وعلى الحروف والصوت ولا بد، ولا يسمى كلاماً بدون هذا.

أما اللوازم التي يذكرونها ويريدون أن يبطلوا كلام الله بها، فهي لوازم باطلة؛ لأنها لوازم تلزم المخلوق، منها قولهم: إن الكلام يحتاج إلى لسان وإلى شفتين وإلى حنجرة وحبال صوتية وما أشبه ذلك فهم يذكرون الشيء المعروف لهم، فقالوا: لو قلنا أن الله يتكلم لزم أن نثبت هذه الأشياء وهذا تشبيه فلا يجوز، فنقول لهم: إن هذا هو كلام المخلوق هو الذي يلزم له هذه الأشياء، وقد أخبرنا ربنا جل وعلا في أشياء تتكلم وليس لها هذه الأدوات وهي مخلوقة ومع هذا تتكلم، قال سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢٠ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓا۟

﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت: ٢٠، ٢١] فإذا الجلود تتكلم والأرجل والأيدي والأسماع والأبصار، وقال سبحانه: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] كل شيء يسبح بحمد الله بالنطق ولكن ما نفقه، والطيور أمم أمثالنا تسبح وتقدس وتعمل.

وصح عن النبي ﷺ أنه قال: «**إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن**»[1]، ومن الأمور المشهورة قصة الجذع «جذع النخلة» الذي كان يستند إليه ويخطب عليه الصلاة والسلام، فلما اتخذ المنبر وصعد المنبر وترك الجذع صار الجذع يحنُّ حنين الناقة إذا فقدت ولدها، سمعه أهل المسجد كلهم حتى نزل عليه الصلاة والسلام والتزمه وهدأ، وقال: «**لو تركته لبقي يحنَّ**».

وكانوا يسمعون تسبيح الطعام وهم يأكلونه مع رسول ﷺ. وكل هذه الأشياء ليس لها لسان ولا حنجرة ولا حبال صوتية، فبطل هذا القول للمخلوق نفسه.

أما تعليل عبَّاد العقول المعتزلة الذين عبدوا عقولهم في الواقع فهو تعليل غير هذا، فهم جاءوا بقواعد من عند أنفسهم قالوا: إن الله جل وعلا واجب الوجود في نفسه وواجب الوجود معناه عندهم: الغني بذاته عن كل شيء، قالوا إن الدليل الذي عرفنا به ربنا هي الحوادث، التي تحدث مثل طلوع الشمس والقمر، ووجود السماء والأرض والجبال والشجر وغيرها، فهذه تتغير ويعتريها أشياء، فهذا دليل على أنها مخلوقة فلو كانت غنية ما حصل لها شيء من ذلك فهي مخلوقة والمخلوق لا بد له من خالق، والخالق ما هو إلا الله جل وعلا، وهذا الذي يسمونه أعراض أمور تعرض لشيء ثم تختفي وتنتهي، والعرض جاء بعد أن لم يكن، سواءً كان لون من بياض أو سواد أو غير ذلك، أو مرض أو تغير حال، علمٌ بعد جهل، قوة بعد ضعف، ضعف بعد قوة، وما أشبه ذلك، فكل هذه تدل على أنها فقيرة وأنها مخلوقة، وأن لها من يتصرف فيها.

---

(١) رواه مسلم رقم ٢٢٧٧ من حديث جابر بن سمرة.

فإذاً الوجود كله لا يخلو: إما أن يكون غني بذاته وواجب الوجود أو جائز الوجود ممكن، ولا يخرج عن هذا الشيء، يقولون هذا هو المعقول فقط ليس فيه أكثر من كذا واجب الوجود وجائز الوجود، وكل شيء نشاهده هو جائز الوجود فقد سبق بالعدم، والدليل على أنه سيعدم أنه تحل فيه الحوادث، فكل ما حلت فيه الحوادث فهو حادث وسينتهي، يقولون هذا برهان قاطع.

فإذا قلنا أن الله يتكلم لكان محلاً للحوادث، وما كان محلاً للحوادث فهو حادث فلا يجوز هذا، هذا دليلهم.

والدليل الثاني: أن الكلام له مبدأ ومنتهى ووسط، فإذا قلت: بسم الله الرحمٰن الرحيم، فالباء قبل السين، والسين قبل الميم، وكل واحدة منها يحتاج إلى زمن، فهذا معناه أنها حوادث، وإذا تكلم بها المتكلم حلت به الحوادث فيكون حادثاً، هذا كلامهم الذي ردوا به صفات الله جل وعلا وأسمائه.

فيقال لهم أولاً: كل هذا استدلال بالمخلوق مثل إخوانكم أو تلامذتكم، فالواقع أنهم تلامذة لهم الذين استدلوا بإبطال الكلام فأنتم تستدلون بالأمور المشاهدة التي تشاهدونها، والله جل وعلا ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في أوصافه، وقد أخبرنا وتعرف إلينا بوصفه وبأسمائه، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

أما حلول الحوادث وغيرها تلزم في المخلوق فقط، وكل شيء لا بد له من وصف والصفة تقوم بالموصوف حتى الجمادات وغيرها، فلا تكون هذه الحوادث، فمثلاً: الحصى فيه القساوة وفيه اليبوسة، فهل نقول: حلت القساوة واليبوسة فيه، أو هذه ملازمة له فهي من صفاته وهذا مع أنه مخلوق، والرب جل وعلا غني بذاته عن كل من سواه، وهو الله جل وعلا بأسمائه وصفاته، ولا يجوز أن نقيسه على شيء من المخلوقات، أو أننا نستعمل عقولنا في الاستدلال على أنه يتصف بكذا، أو أنه لا يتصف بكذا، فإن هذا ضلال وهو من التشبيه، ولهذا تشبيه المعطل ملازم له، فالمعطلة شبهوا أولاً ثم عطلوا ثانياً، كما أن المشبه معطل.

ثم ما يسمونه حوادث وحلول أمر اخترعوه من قياسهم رب العالمين

على المخلوق فلا يجوز أن نسمي صفات ربنا حوادث ثم نقول حلت فيه تعالى الله وتقدس.

۞ قال المؤلف ﷺ: عن أبي سعيد مرفوعاً: «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟»، قالوا: بلى. فقال: «الشرك الخفي أن يقوم الرجل يصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل»[1].

هذا الحديث كما يظهر أن له تكملة وله مبدأ، وذلك أنه ذكر الدجال وأكثر من ذكره، وذكر الفتن التي تكون معه، وصار الصحابة يتخوفون ويتحدثون فيما بينهم، وقد يطلعون يرون هل هو جاء، فقال لهم وهم يتحدثون في هذا الخبر: «**ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟**»، مع أن المسيح الدجال فتنته مخوفة، يدلك على هذا أن الرسول ﷺ أمرنا أن نستعيذ منه في كل صلاة وذكر أنه إذا جاء ينبغي للإنسان أن ينأى عنه ويبتعد عنه، وفي الحديث: «**من سمع به فلينأى عنه**»[2] لا يذهب ينظر، فإن الرجل يأتيه واثق من دينه فلا يزال حتى يتبعه، فهو مخوف على الناس ولا سيما مع ضعف الإيمان، وضعف العلم فيصير الاتباع أكثر.

فأخبرهم أن الشرك الخفي أنه أخوف عليهم عند الرسول ﷺ من هذه الفتنة العظيمة.

وقوله: «أخوف عليكم»: معناه أنه يخاف علينا من فتنة الدجال، ولكن هذا أخوف، ولكن ينبغي أن تعرف أن هذا الخطاب للصحابة، والصحابة عندهم من العلم ومن التقى والإيمان الشيء الذي لا نصل إلى عشر معشاره ولا قريباً، ومعنى ذلك أن الخوف علينا أشد وأكثر يعني من الرياء فلا بد أن يفكر الإنسان في هذا.

وفيه أنه سمى هذا شركاً، يعني الرياء لأنه فسره بقوله: «**يقوم الرجل**

---

(١) أحمد في المسند رقم ١١٢٥٢، وابن ماجه رقم ٤٢٠٤.

(٢) أحمد في المسند رقم ١٩٨٧٥، وأبو داود رقم ٤٣١٩ من حديث عمران بن حصين.

يصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل»، فنأخذ من هذا تعريف الرياء وأن الرياء شرك، وأنه خفي.

فتعريف الرياء: تحسين العمل وزيادة صفة فيه من أجل النظر، والغرض المدح والثناء وحظ النفس فيه.

وقد قسم بعض العلماء الشرك إلى ثلاثة أقسام بناءً على ذلك قالوا:

شرك أكبر، وشرك أصغر، وشرك خفي، وهذا فيه نظر، يعني هذا التقسيم، لأن الخفي قد يكون أكبر وقد يكون أصغر، فهو دائر بين الكبير والصغير وليس قسماً ثالثاً.

فالشرك قسمان: أكبر وأصغر. والأكبر قد يكون خفياً وقد يكون جلياً، والأصغر كذلك. فإذا كان التقسيم لأجل الصفة فليس فيه بأس، ولكنه لا يكون قسماً ثالثاً.

وهو خفي على الناس لأنه مثل النية، لا ندري هذا الذي يصلي وأطال السجود والركوع والقيام وأظهر من نفسه أنه عنده طمأنينة وعنده خشوع وأبدى من نفسه أنه عنده أدب الصلاة من يدري أن هذه الأوصاف لأجل نظر الناس، هذا في نفسه هو خفي فهو في نيته والناس ليس لهم إلا الظاهر، ولهذا صار مصيدة يصيد به بعض الناس حتى يثنوا عليه بقولهم فلان تقي وفلان فيه كذا وكذا، فهذا حظه ما يمدحونه لأن هذا في الواقع من حظوظ النفس، والنفس تحب هذا الشيء ولهذا نهينا عن المدح في الوجه كما قال عليه الصلاة والسلام: «**إذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب**»[1]، والغالب أن الذي يمدح في الوجه يذم في القفا، فإذا ذهب ذم، ومعروف أن الإنسان إذا نظر في أقوال الناس وجدهم غير معتدلين إذا أثنوا أسرفوا، وإذا ذموا أسرفوا، هذا هو أكثر حالة الناس، والواجب أن الإنسان يقول الحق.

والمدح في الوجه فتنة والنفس ضعيفة وتحب أنها يثنى عليها، حتى ولو كان الإنسان يعلم من نفسه أكثر من غيره، ومع ذلك يستأنس وينبسط إلى

---

(١) رواه مسلم رقم ٣٠٠٢.

المدح ويقول لعلِّي كما يقول وربما يترتب على هذا أضرار عظيمة وظلم، فربما هذا الممدوح يتولى أمراً من أمور المسلمين فيصبح الذي لا يمدحه لا يعطيه حقه ويظلمه، لا بد أن تمدح أو لا أقضي حاجتك، فلو سُد الباب لسلم الناس من هذا الداء الوبيل، ولهذا قال: «**من كان منكم مادحاً أخاه لا محالة فليقل أحسب فلاناً والله حسيبه ولا أزكي على الله أحداً، أحسبه كذا وكذا إن كان يعلم ذلك منه**»[1]، فربما يظهر لنا شيء ويخفي علينا أشياء، وهذا هو الواقع، الإنسان يظهر أشياء ويخفي أشياء والأمور المخفية عظائم.

قال: «يقوم الرجل فيصلي»: هذا إذا كانت صلاة مشاهدة، ولهذا السبب حث الرسول ﷺ على الصلاة في البيت يعني صلاة النافلة، فهي أفضل ما تكون في البيوت حيث لا يشاهدك أحد وحتى تسلم من وسوسة الشيطان أنه يأتيك يقول لك: زين صلاتك ترى الناس يحبونك ويثنون عليك ويدعون لك ويخدمونك، فربما ضحك الشيطان على الإنسان وغلبه، وإذا صار في بيته سلم من هذا الشيء، ويكون عمله خالصاً لله جل وعلا ولا ينفع إلا ما كان خالصاً لوجه الله جل وعلا.

فعلى هذه نقول أن الرياء الذي ذكره الشيخ هنا أنه شرك، إما أن يكون مضاداً للتوحيد إذا كان أصل العمل الباعث عليه هو الرياء يكون شركاً أكبر.

وقد يكون ذاهباً بكماله الواجب الذي ينجو الإنسان به وإذا لم يأت به يكون معاقباً ويكون أيضاً مبطلاً لعمله، فهذه كلها محاذير يجب أن يكون العبد على علم بها وأن يحذر أن يقع في شيء منها.

۞ قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ فيه مسائل:

۞ الأولى: الأمر العظيم في رد العمل الصالح إذا دخله شيء لغير الله.

يعني: الحكم في الظاهر، يعني تسميته عملاً صالحاً، والصالح من العمل الذي يكون على السُّنَّة وخالصاً لوجه الله جل وعلا، وإذا لم يشتمل

(١) رواه البخاري رقم ٢٦٦٢، ومسلم رقم ٣٠٠٠ من حديث أبي بكرة.

على هذين الشرطين فليس صالحاً، فقوله الصالح، حسب الظاهر فقط.

۞ **الثانية: ذكر السبب الموجب لذلك، وهو كمال الغنى.**

السبب يعني أنه قال: «**أنا أغنى الشركاء**» فكمال غناه أنه يأبى شيئاً فيه اشتراك يعني هذا الذي ظهر لنا والله جل وعلا هو الحاكم الذي يحكم بين خلقه وهو الرب الذي يأمر وينهى، فإذا أمر بشيء وجب امتثاله وقد أوجب علينا الإخلاص.

۞ **الثالثة: أن من الأسباب أنه تعالى خير الشركاء.**

الأسباب التي ذكرها جل وعلا أنه أغنى الشركاء عن الشرك وأنه غني وغناه يأبى أن يقبل شيئاً فيه شرك هذه الأمور التي يظهرها لنا حتى نفهم المقصود وإلا إذا أمر بشيء وجب أن نمتثل وليس لازم أن نفهم العلة، وإذا فهمنا العلة فهو خير وفضل، وإذا لم نفهمها وجب أن نمتثل، والله أمرنا بعبادته وبالإخلاص.






الباب السابع والثلاثون

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: باب من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا.

قال الشارح رَحِمَهُ اللهُ: قد ظن بعض الناس أن هذا الباب داخل في الرياء وأن هذا مجرد تكرار فأخطأ، بل المراد بهذا أن يعمل الإنسان عملاً صالحاً يريد به الدنيا كالذي يجاهد للقطيفة والخميلة ونحو ذلك، ولهذا سمَّاه النبي ﷺ عبداً لذلك، بخلاف المرائي فإنه إنما يعمل ليراه الناس ويعظموه، والذي يعمل لأجل الدراهم والقطيفة ونحو ذلك أعقل من المرائي، لأن ذلك عمل لدنيا يصيبها والمرائي عمل لأجل المدح والجلالة في أعين الناس، وكلاهما خاسر نعوذ بالله من موجبات غضبه وأليم عقابه[1].

فهذا معناه أن الإنسان قد يعمل العمل الخالص الموافق للسُّنَّة ولكنه ليس له رغبة في الآخرة، رغبته في الدنيا يُريد أن يثاب على هذا العمل في الدنيا، إما في حفظ صحته أو حفظ أهله وماله وولده، أو زيادة خير يعطاه، فهذا خاسر ولكنه أعقل من المرائي؛ لأن المرائي لا يحصل له شيء، أما هذا فيحصل له شيء من الدنيا.

وهذا جاء تفسيره عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ أي: ثوابها قال: ﴿وَزِينَتَهَا﴾ أي: مالها ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا﴾ أي: نوفر لهم ثواب أعمالهم بالصحة والسرور في المال والأهل والولد ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ [هود: ١٥] قال: لا ينقصون. قال: ثم نسختها: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨][2]، يعني: ليس لكل أحد الذي يُعجل، بل يعجل شيء يشاءه الله ولمن يُريده، وهذا معناه تقييد، والسلف يسمون التقييد نسخاً، والآية التي ذكرها في الباب مطلقة ﴿مَن كَانَ

(١) تيسير العزيز الحميد ١/ ٤٧٣.

(٢) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٤٧٢.

﴿يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ﴾... والآية التي في سورة الإسراء قيدت هذا بأن الذي يُعطاه شيء يُريده الله، ولمن يريده الله وليس لكل أحد، هذا الذي سماه ابن عباس رضي الله عنه نسخاً.

فقوله: «من الشرك إرادة»: الإرادة هي أساس الأعمال ولا يمكن أن يوجد عمل بلا إرادة، إلا من سكران أو نائم أو ما أشبه ذلك، أما إنسان عاقل فإن الباعث على العمل هو ما في قلبه وما أراده، وبهذا يظهر كون الإنسان مثلاً يقول: أنوي كذا، وسأنوي كذا، أنه عبث لا قيمة له لأنه لما قام إلى العمل فإن النية سبقت هذا، إذا قام مثلاً يتوضأ النية سبقت الوضوء هي التي قومته وبعثته على الوضوء، ولهذا يقول العلماء محلها القلب والتلفظ بها بدعة.

ويدلك على سخافة بعض الناس الموسوسين تجده يعيد الوضوء أكثر من مرة ويقول إني لم أنو، فيقال: الذي أقامك وجعلك تستعمل الماء هي النية نفسها، وكذلك يصف في الصف ثم يكبر ثم يقول ما نويت، سوف أنوي من جديد وهكذا، يضحك عليهم الشيطان ـ نسأل الله العافية ـ.

وهذه الوسوسة مرض، قد تأتي الإنسان وهو يعرف هذا، ولكنه لا يتخلص منه، يضرب عليه الشيطان ويعيد ويكرر وهذا كله قدح في العقل.

فإرادة العبد هي التي تبعثه على العمل، ثم هذه الإرادة هي التي يجب أن يعتني بها الإنسان ويجعلها خالصة لله جل وعلا؛ لأنها هي مبنى كل شيء، وهي التي يؤخذ عليها الإنسان أو يثاب عليها، والعمل يتبع ذلك.

قوله: «بعمله الدنيا»؛ يعني: ما يُريد به إلا الدنيا العاجلة يعمل عملاً صالحاً ولكنه يُريد به الدنيا العاجلة ليس له همة في الآخرة ولا رغبة فيها.

❁ **ثم استدل المؤلف رحمه الله بهذه الآية**: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود: ١٥، ١٦].

هذا شيء عظيم جداً، يعني كون الإنسان يريد بعمله الذي هو طاعة الله، وليس كل عمل، العمل الذي هو مأمور به شرعاً سواءً من الفعل أو من الترك.

الفعل ظاهر كونه مثلاً يتصدق أو يصوم أو يأتي بالنوافل من صلاة وصيام وصدقة وحج يريد بذلك الدنيا، يُريد سعة الرزق وصحة البدن، ويريد مثلاً زيادة المال وليس له همة في الآخرة، يعني لا يُريد الجنة ولا يخاف من النار، فهذا هو الذي يكون حابطاً عمله.

أما الأعمال العادية التي يعملها الإنسان عادة فهذه لا تدخل في هذا.

أما التروك فمثل أن يترك الظلم ظلم الناس أو يترك المعاصي من أجل أن يُحفظ في صحته أو في ماله أو أهله، والعبادة مبناها على الفعل والترك كلاهما عبادة، فعل الأمر وترك النهي، والله جل وعلا أمر بالإخلاص بإخلاص النيات والأعمال.

قوله: «﴿وَزِينَتَهَا﴾»: عطف على الدنيا، فهذا من عطف الخاص على العام لأن الدنيا يدخل فيها الزينة.

والزينة هي: المال والولد وما أشبه ذلك: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الآية [الكهف: ٤٦].

وقد ذكر الله جل وعلا كل ما في الدنيا قال: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ يعني: التي تعملون لها وتجمعونها وتتنافسونها، وقد تتقاتلون من أجلها هذه حقيقتها لعب ولهو، وكل شيء من الدنيا ما يراد به الله فهو ملعون وباطل، ولا خير فيه بل هو شر، وعلى هذا يحمل الحديث: «**الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه، وعالم أو متعلم**»[(1)]، ﴿وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾، قيل الكفار هنا: الزراع لأنهم يغطون البذور، والتغطية هي الكفر، وأعجبهم لأنهم يعرفون النبات الجيد من غير الجيد ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾ يعني: يتغير عن بهائه وجماله فيستحيل لونه، ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

ثم أخبر الله جل وعلا أنها لا تنتهي عند هذا، الآخرة فيها عذاب شديد

---

(١) رواه الترمذي رقم ٢٣٢٢، وابن ماجه رقم ٤١١٢ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وفيها مغفرة ورحمة، والناس ما خلقوا لهذه ولكنهم يبتلون فيها ليتميز الصالح من الفاسد بالفعل.

وهذه الآية مثل قوله جل وعلا: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤] فهذه زينة الدنيا.

وقوله: «﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾»؛ يعني: كانت هي غايته وهي مقصوده بالعمل، وكذلك زينتها ويدخل في الزينة كل شيء تحبه النفس من رئاسة ومن أموال وجاه وغير ذلك.

وقوله: «﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا﴾»؛ يعني: العمل الذي عملوه يعطون أجرهم فيها هذا معنا ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ﴾ مع أن هذا مقيد بالآية الأخرى التي في سورة الإسراء ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ فهذه قيدت هذه، ولهذا يقول ابن عباس: نسختها. والنسخ عند السلف يطلق على التقييد وعلى الإزالة وعلى التخصيص كله يسمونه نسخاً.

ثم قال بعد هذا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾.

لأن أعمالهم قد بطلت وهي حابطة، وليس لهم في الآخرة نصيب.

وقوله: «﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾»: الحبوط هو: الذهاب.

وقوله: «﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾»: البطلان هو: كونه فاسد في نفسه غير معتبر، وكلاهما لا ثواب له الحابط والباطل بل عليهما عقاب.

فتبين من الآية أن من عمل أعمالاً من الطاعات أو التروك ترك المنهيات من أجل الدنيا أنه داخل في عموم هذه الآية.

وقد سُئل عنها المؤلف رحمه الله فذكر في الجواب عنها أربعة أشياء موجودة في الناس وهم لا يعرفونها وقد يعرفها من يعرفها منهم:

أولاً: العمل الصالح الذي يفعله كثير من الناس ابتغاء وجه الله من صدقة وصلاة وصلة وإحسان إلى الناس، وترك ظلم ونحو ذلك مما يفعله

الإنسان أو يتركه خالصاً لله، لكنه لا يريد ثوابه في الآخرة وليس له رغبة فيها، لا يرغب في الجنة ولا يهرب من النار إنما يريد أن يجازيه الله بحفظ ماله وتنميته أو حفظ أهله وعياله أو إدامة النعم عليه ولا همة له في طلب الجنة والهروب من النار، فهذا يعطي ثواب عمله في الدنيا، وليس له في الآخرة نصيب، وهذا النوع ذكره ابن عباس.

الثاني: وهو أكبر من الأول وأخوف، وهو الذي ذكره مجاهد في الآية: أنها نزلت فيه وهو أن يعمل أعمالاً صالحة ونيته رياء الناس لا طلب ثواب الآخرة.

وكونه أخطر وأخوف لأنه أكثر من الأول ويبتلى به كثير من الناس حتى طلبة العلم، فالإنسان يجب أن يكون على حذر من ذلك.

الثالث: أن يعمل أعمالاً صالحة يقصد بها مالاً، مثل أن يحج لمال يأخذه لا لله، أو يهاجر لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها، أو يجاهد لأجل المغنم، أو يتعلم العلم من أجل الوظيفة، أو يقرأ القرآن من أجل إمامة المسجد، ويواظب على الصلاة لأجل وظيفة المسجد، كما هو واقع لبعض الناس.

وقد ذكر أيضاً هذا النوع في تفسير هذه الآية، وكما يتعلم الرجل لأجل مدرسة أهله أو مكسبهم أو رياستهم.

يقول: وهذا أعقل من الذي قبله، والأول أعقل منهما وكلهم خاسر بلا شك.

الرابع: أن يعمل بطاعة الله، مخلصاً في ذلك لله وحده لا شريك له، لكنه على عمل يُكفره كفراً يخرجه عن الإسلام مثل: اليهود والنصارى، إذا عبدوا الله أو تصدقوا أو صاموا ابتغاء وجه الله والدار الآخرة، ومثل كثير من هذه الأمة الذين فيهم كفر أو شرك أكبر يخرجهم من الإسلام بالكلية إذا أطاعوا الله طاعة خالصة يريدون بها ثواب الله في الدار الآخرة، لكنهم على أعمال تخرجهم من الإسلام وتمنع قبول أعمالهم، فهؤلاء حابط عملهم، وباطل ولكنهم يعطون جزاءه في الدنيا إذا شاء الله.

وهذا التفسير للآية جاء عن أنس ﷺ، فهذه أربعة أشياء ذكرها أن السلف فسروا الآية بها وأنها كلها داخلة فيها، انتهى ملخصاً.

وبهذا يتبين أن هذا الباب أعم من الرياء، فالرياء أخص من هذا، وبذلك يكون الفرق بين هذا الباب والذي قبله ظاهر[1].

۞ قال المؤلف ﷺ: في الصحيح عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «تعس عبد الدينار، وعبد الدرهم، وعبد الخميصة، وعبد الخميلة، إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله أشعث رأسه مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع»[2].

قوله: «في الصحيح»؛ يعني: في الحديث الصحيح، والحديث رواه البخاري في صحيحه، وكذلك هو عند الإمام أحمد بأكثر من هذا اللفظ وأطول وعند غيرهما أيضاً.

كلمة «تعس» بكسر العين ويجوز الفتح أيضاً تعَس، ولكن الكسر أفصح.

والتعاسة هي ضد السعادة، فنقول أن معنى تعس: شقي. فالتعاسة هي الشقاوة، نسأل الله العافية.

وهنا يحتمل أن يكون خبر ويحتمل أن يكون دعاء بلفظ الخبر، وكثير ما يأتي الدعاء بلفظ الخبر، وهذا هو الذي عليه أكثر الشراح أنه دعاء يعني أن الرسول ﷺ يدعو عليه بذلك، فإذا كان يدعو فهو يستحق أن يُدعى عليه.

قوله: «عبد الدينار»: الدينار قطعة ذهب سواءً كانت مضروبة على صفة معينة، أو غير مضروبة، والدنانير الإسلامية معروفة وسمَّاه عبداً للدينار، ومعلوم أنه لا يسجد ولا يصلي ولا يدعوه ولا يتجه إليه بالدعاء، وإنما يعمل لأجله.

---

(١) تيسير العزيز الحميد ص٤٧٤.
(٢) رواه البخاري رقم ٢٨٨٧.

فمعنى هذا أن الإنسان إذا عمل لشيء يكون عبداً له، ولهذا يكون الإنسان عبداً إذا طلب وافتقر فهو عبد، وإذا استغنى فهو حر.

ثم **قال:** «**تعس عبد الدرهم**»: هذا أقل من الأول، فالدرهم أقل قيمة من الدينار، والثالث أقل قيمة من الثاني الذي هو الخميصة، والخميصة: كساء من الأكسية، قد يكون من الخز، والخز هو الحرير، ولا يلزم أن يكون منه، فقد يكون من غيره.

أما «**الخميلة**»: فهي كساء معلم، له أعلام وخمل، يعني أهداب من باب الزينة، والخميلة الغالب أنها تكون سوداء، وسواء كانت من هذا أو من غيرها المهم أنها مما يلبس.

قوله: «**إن أعطي رضي**»: هذا يبين أنه عبد، يعني أنه يعمل لأجل ذلك فإن حصل له رضي، وإن منع سخط، فصار سخطه تبع للعطاء والمنع وليس لله، لأن الإنسان إذا كان يعبد الله لا يهمه أن يعطى فهو لا يقصد هذا أمره لله جل وعلا.

ذكر الله هذا النوع في القرآن: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [التوبة: ٥٨]، إذا أعطوا من الصدقة حصل رضاهم وإلا سخطوا، وليس سخطهم ورضاهم لله والعبد يجب أن يكون عبداً لله، يكون خالص العبودية لله جل وعلا، وأن يكون رضاه لرضا الله جل وعلا، وسخطه لسخط الله وولائه لأولياء الله، ومعاداته لأعداء الله هذا الذي يجب أن يكون العبد عليه، وإن كان على خلاف ذلك فهو من عبَّاد الدنيا.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الكلام على هذا الحديث: وهكذا طالب المال، فإن ذلك يستعبده ويسترقه، **وهذه الأمور نوعان:**

فمنها: ما يحتاج إليه العبد كما يحتاج إلى طعامه وشرابه ومنكحه ومسكنه ونحو ذلك، فهذا يطلبه من الله، ويرغب إليه فيه، فيكون المال عنده الذي يستعمله في حاجته: بمنزلة حماره الذي يركبه، وبساطه الذي يجلس عليه، بل مثل الكنيف الذي يقضي فيه حاجته، من غير أن يستعبده فيكون

هلوعاً به، وإذا حصلت له يشكر ربه عليها ويحمده عليها، وإن لم تحصل يجب أن يرضى عن ربه، ويعلم أن حالته التي هو عليها أنها أحسن لأن الله أعلم به وأعلم بحاله.

ومنها: ما لا يحتاج إليه العبد، فهذا ينبغي أن لا يعلق قلبه بها، فإذا تعلق قلبه بها صار مُستعبداً لها، وربما صار مستعبداً ومعتمداً على غير الله فيها، فهذه تشغله عن ربه وتلهيه عن عبادته، فلا يبقى معه حقيقة العبودية لله، ولا حقيقة التوكل عليه، بل فيه شعبةٌ من العبادة لغير الله، وشعبة من التوكل على غير الله[١].

وقوله: «تعس وانتكس»: هذا تكرار للدعاء، ففيه أنه يكرر الدعاء على من يستحقه، والتعاسة من العلماء من فسرها بالسقوط، يقول أنه سقط على وجهه، وتنكس يعني انقلب، سقط على وجهه ثم انقلب على قفاه من شدة السقوط، وهو إشارة إلى انعكاس الأمور عليه ووقوعه في ضد ما يريد.

وقوله: «فإذا شيك فلا انتقش»: شيك؛ يعني: أصابته الشوكة؛ يعني: دخلت الشوكة في رجله أو في غيرها.

و**«انتقش»**؛ يعني: أُخرجت الشوكة بالمنقاش، يعني أنه إذا وقع في مكروه، فإنه لا يخرج منه ولا يتخلص منه بل يزاد كرهاً ووقوعاً في شدة جزاء وفاقاً؛ لأنه لم يعمل لله جل وعلا فيجازى على وفق عمله.

فهذا يدل على أن من عَبَدَ الدنيا أنه لا بد أن يقع في المشاكل، ولا بد أن يقع في الكروب، وأنه إذا وقع فيها لا يتخلص، بل ربما ينتقل من شدة إلى ما هو أشد، وقد يكون هذا أمراً ظاهراً، وقد يكون غير ظاهر له، قد يكون هذا في قلبه، يعني تنقلب الحقائق عنده ويصبح الحق باطلاً، والباطل عنده حقاً، فينتقل من باطل إلى ما هو أبطل منه وأشد، وهذا أكبر مصيبة مما لو أصيب بمصيبة ظاهرة في بدنه أو في ماله أو غيرها، وهذا يشاهد كثيراً في

---

(١) الفتاوى ١٠/١٨٩.

الناس يصبح يرضى بالكفر ويدعو إليه ويكره الحق وينفر منه، ويصبح في مصاف الكفار ـ نسأل الله العافية ـ ولو بالقول، وهذه مصيبة كبرى لأنه انتكس قلبه وانتكس فكره.

ثم قال: «طوبى لعبد أخذ بعنان فرسه»: طوبى اختلف في تفسيرها، وقد جاء فيها حديث رواه الإمام أحمد أنها شجرة في الجنة يسير الراكب في ظلها مائة سنة. ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها[1].

واللغويون يقولون: **«طوبى»** وزن فعلى، يعني: الحياة الطيبة السعيدة، والحياة لا تطيب إلا بالجنة فيكون هذا داخل في هذا، وكونها شجرة أخص من هذا فلا يكون فيه تنافي.

وقوله: «لعبد»: وصفه بمثل ما وصف الأول أنه عبد؛ لأن العبودية ملازمة للمخلوق ولا يمكن أن يخرج عنها، **والعبد ينقسم إلى قسمين**:

عبد بمعنى مذللاً مقهوراً تجري عليه أقدار الله وأحكامه القدرية، وهذا يدخل فيه البر والفاجر والمؤمن والكافر.

وعبد بمعنى عابد، فهذا يدخل فيه العابد للدنيا والعابدُ لهواه، والعابد لله جل وعلا.

وقوله: «عنان»: هو الحبل الذي يوضع في رأس الفرس حتى يتحكم فيها ويمسكها به، ولا بد أن يمسكها وإلا تهرب.

وقوله: «في سبيل الله»؛ يعني: أنه آخذٌ به في سبيل الله ليس في غير ذلك، وسبيل الله هو مقاتلة الكفار والدفاع عن الحق.

وقوله: «أشعث رأسه»: أشعث؛ يعني: أنه غير مسرح، بل متشعث وفيه غبار، لأنه مشغول عن تسريح رأسه وغسله بالجهاد في سبيل الله.

وكذلك **قوله: «مغبرةٌ قدماه»**؛ يعني: أن الغبار يعلو على قدميه في سبيل الله، وهذا يدلنا على أن إصابة الغبار أمر مطلوب في سبيل الله، وقد

---

(١) أحمد في المسند رقم ١١٦٧٣ من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

جاءت فيه أحاديث في فضل هذا، وأن الغبار يكون مثل المسك يوم القيامة كما أن الدم كذلك.

وقوله: «إن كان في الساقة كان في الساقة»: هذا كأنه كلام مكرر، وإذا كان كان، ولكنه ليس كذلك، يعني أنه يقوم في أي موضع يوضع فيه أتم قيام، فذكر أشد المواضع التي تكون في سبيل الله، وهي الحراسة وساقة الجيش، لأن العدو يأتي من الخلف كثيراً ويقتطع الضعفة؛ لأن الغالب أن الساقة ضعفاء وحمايتهم شديدة، فهذا إذا كان فيها يحميهم لئلا يأتيهم العدو فإذا وضع في هذا قام فيه أتم قيام لا يؤت من قبله، وأما الحراسة فتكون في الليل غالباً، يحرس وهم غافلون أو نيام أو يشتغلون في الأمور التي لا بد منها من طعام وغيرها، فيحرس فهذا أيضاً من أشد المواقف.

فالمعنى أنه إذا وضع في مكان يقوم به أتم القيام وليس له مقصد في وجود الناس أو التقرب إليهم، يدل على هذا أنه قال: **«إذا استأذن لم يؤذن له»**؛ يعني: لا يعرف وليس له تقرب عند الأمراء والكبراء بل هو من آحاد الناس، ليس معروفاً، ولهذا إذا استأذن لم يؤذن له لأن الغالب أن الإذن تكون لمن له وجاهه وله أعمال ظاهرة هو الذي يؤذن له.

وكذلك الشفاعة **«إن شفع لم يشفع»** إذا قدر أنه يشفع، وإلا مثله لا يشفع لأنه يعرف أنه لا يُشفع، وهذا مثل ما جاء في الحديث الذي في الصحيح أن رجلاً مر على رسول الله ﷺ فقال: **«ما تقولون في هذا»**؟ قالوا: حري إن خطب أن ينكح، وإن شفع أن يشفَّع، وإن قال أن يسمع. قال: ثم سكت، فمر رجل من فقراء المسلمين فقال: **«ما تقولون في هذا»**؟ قالوا: حري إن خطب أن لا ينكح، وإن شفع أن لا يشفع، وإن قال أن لا يسمع. فقال رسول الله ﷺ: **«هذا خير من ملء الأرض مثل هذا»**[1]، يعني ليست المسألة مسألة كونه له وجاهة عند الناس، المسألة هي ما في القلب من تقوى الله وطاعته، فهذا مثله.

---

(١) رواه البخاري رقم ٥٠٩١.

ففي هذا الحديث دليل على أن الإنسان إذا عمل من أجل الدنيا أنه حابط عمله، وأنه ليس له إلا الدنيا، وليس له في الآخرة من نصيب، ولكن يقال إذا كان الإنسان مسلم وعمل هذه الأعمال مثلاً جاهد لأجل الغنيمة، أو حج لأجل الدراهم التي يعطاها، فهذا ليس له إلا المال وعمله باطل، ولكن إذا كان له أعمال غيرها قصد بها وجه الله فهو على حسب ما يكون أرجح عنده يعني في أعماله، وإذا لم يكن له إلا مثل هذا العمل فظاهر الحديث أنه يكون في النار، كما في الآية، وليس هذا مثل مذهب الخوارج، هذا إذا كان الرجل أعماله بطلت وحبطت فبما يدخل الجنة، أما إذا كان له أعمال غيرها باقية خالصة لله فهو إذا عذب أو أُدخل النار تحت مشيئة الله بهذه الأعمال التي تكون خالصة، أما أن الإنسان يدخل الجنة وهو ليس عنده إيمان فهذا لا يكون لأن الرسول ﷺ قال: «**أنه لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة**»[1]، والناس ليس لهم إلا الظاهر، فإذا صلى الرجل وحج وتصدق ونحو ذلك، فإنه يحمل على الظاهر على أنه قصد الخير، ويحكم له بذلك، ولكن الذي يُحاسِب على ما في القلوب والنيات هو الله جل وعلا وهو رب العالمين، وقد جاءت نصوص عن النبي ﷺ أنه يؤتى يوم القيامة برجال لهم أعمال فيأمر بهم إلى النار فتقول الملائكة: يا رب ما رئينا إلا خيراً. فيقول: أنا أعلم، عملوا هذه الأعمال رياء فليذهبوا إلى من كانوا يرائون فيطلبوا أجورهم منهم»[2]، فمثل هؤلاء ليس لهم إلا التعب. فمثل هذا، إذا كان ليس له إلا هذا العمل فإذا حبط عمله فبما يدخل الجنة.

والله جل وعلا يمقت على هذا ويعذب عليه، لأن هذا داخل في

---

(١) رواه البخاري رقم ١٦٠٦، ومسلم رقم ١١٤، وأحمد رقم ٥٩٤.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص ص٤٥ و٤٦ رقم ١٧ و١٨، وأخرجه الطبراني في الأوسط رقم ٢٦٠٣، والدارقطني رقم ٢ من حديث أنس ولفظه: «يؤتى يوم القيامة بصحف مختمة فتنصب بين يدي الله تبارك وتعالى، فيقول تبارك وتعالى: «**ألقوا هذه واقبلوا هذه، فتقول الملائكة: وعزتك ما رأينا إلا خيراً، فيقول ﷻ: إن هذا كان لغير وجهي وإني لا أقبل اليوم من العمل إلا ما ابتغي به وجهي**»، قال في مجمع الزوائد: رواه الطبراني في الأوسط بإسنادين ورجال أحدهما رجال الصحيح، ورواه البزار.

الشرك، والله جل وعلا يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ الآية [النساء: ٤٨]. والذنوب كلها إذا لم تكن شرك، فهي تحت مشيئة الله جل وعلا، ولهذا جعل المؤلف هذا الباب والذي قبله من نواقض التوحيد، وإن كان على التفصيل السابق في باب الرياء؛ لأن الرياء إذا كان يسيراً فهو شرك أصغر، والشرك الأصغر لا يجعل الإنسان كافراً ولا خارجاً عن الدين الإسلامي بل هو مسلم، ولكنه على خطر وهل شركه هذا الأصغر حكمه حكم الكبائر مثل السرقة والزنا وما أشبه ذلك، أو أن حكمه حكم الشرك لا يغفر إذا مات عليه فيعذب عليه؟

الظاهر هذا، وهو ظاهر النصوص ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ وأن المصدرية تعم.

والشرك الأصغر خرج من بين الذنوب أنه غير مغفور له فيعذب عليه ثم يخرج من النار إلى الجنة.

۞ قال المؤلف رحمه الله فيه مسائل:

۞ الأولى: تفسير آية هود.

المقصود بالتفسير أن الآية دلت على أن من عمل لدنيا من أعمال الآخرة وهو لا يُريد الآخرة أنه عابدٌ لتلك الأعمال، وأنه من عباد الدنيا وأنه ليس له في الآخرة نصيب.

۞ الثانية: تسمية الإنسان المسلم عبد الدينار، والدرهم، والخميصة.

أما كون الإنسان يسمى عبداً لدينار، فالإنسان إذا عمل لشيء تعبد قلبه فهو عبده، والعبودية هي عبودية القلب، ومعلوم أن بواعث العمل تكون من القلب، وإذا كان الباعث على العمل هو إرادة شيء معين سواءٌ كان ديناراً أو درهماً أو خميصة أو وظيفة أو أي شيء من الأشياء فهو ليس له إلى ذلك، كما قال عليه الصلاة والسلام: «**إنما الإعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى**»[1].

---

(١) رواه البخاري رقم ١، ومسلم رقم ١٩٠٧ من حديث عمر رضي الله عنه.

❁ **الثالثة: قوله: «تعس وانتكس».**

يعني: أن هذا دعاء من النبي ﷺ، ودعاء النبي ﷺ مستجاب، وقد يكون خبر، خبر عما سيقع فيه من التعاسة والانتكاس، وسواءً كان دعاء أو خبراً فهو يدل على الخسارة التي لا تشابهها خسارة لمن فعل هذه الأفعال، ومعنى ذلك أنه يعاقب بمقتضى قصده.

❁ **الرابعة: الثناء على المجاهد الموصوف بتلك الصفات.**

يعني: كونه مهتماً بالجهاد، أخذ بعنان فرسه وبين ذلك بقوله: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١٩] وليس كل من أخذ بعنان فرسه يكون محموداً وممدوحاً وإنما يكون إذا كان في سبيل الله، ومعلوم أن المقصود بالفرس الآخذ بالقوة والاستعداد والتهيؤ، ولا يلزم أن يكون فرساً فقد يكون دبابة أو طائرة أو غير ذلك من آلات الحرب التي تكون في الوقت المناسب.

وكذلك قوله: **«أشعث رأسه مغبرة قدماه»**؛ يعني: أنه مشغول عن تسريح شعره وإصلاح حاله، مشغول بما هو أهم وأعظم خوف الفوات، أن تذهب نفسه قبل أن يتحصل على ما هو الغاية التي يطلبها المؤمن، ولما دعا رجل عند رسول الله ﷺ بقوله: «**اللهم آتني أفضل ما تؤتي عبادك الصالحين، قال رسول الله ﷺ: إذا يعقر جوادك، وتستشهد في سبيل الله**»(1)، جعل هذا أفضل ما يعطي المؤمن، وهذا هو السبب في كونه مشغول عن إصلاح حاله.

أما قوله: **«إن كان في الحراسة»**: هذا معناه أنه يقوم بالعمل على خير وجه في أي عمل أُسند إليه، وذكر الحراسة والساقة لأن هذين الموقعين من أشد المواقف وأعظمها، ومعنى إذا كان فيها كان يعني قام فيها أتم القيام وحفظ ما قام به فلا يؤت من قبله.

وقوله: **«إذا استأذن لم يؤذن له»**: يدل على أنه لا يُريد الدنيا ولا يهتم لإظهار نفسه في التقدم عند أمراء الجهاد، وغيرهم بل يخفي أمره، فلهذا

---

(1) ابن حبان في صحيحه رقم ٤٦٤٠، والبزار رقم ١١١٣، والحاكم في المستدرك رقم ٧٤٨ وصححه ووافقه الذهبي.

يكون مجهولاً، فإذا استأذن لم يؤذن له لأنه غير معلوم ومجهول، وهذا يدل على الإخلاص.

وكذلك قوله: **«وإذا شفع لم يشفع»** لأنه مجهول وليس له عندهم لا خوف ولا رجاء، لأن أصحاب الدنيا الغالب أنهم لا يقدمون شيئاً إلا لمن كان عنده شيء لهم رجاء أو خوفاً أو ما أشبه ذلك.





الباب الثامن والثلاثون

۞ قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ: باب من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله، فقد اتخذهم أرباباً من دون الله.

لما كانت العبادة هي الطاعة طاعة الله بامتثال أمره وطاعته باجتناب نهيه، نبَّه المؤلف ﷺ على أنها يجب أن تكون لله جل وعلا، أو تكون تبعاً لطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، وأنه لا يطاع المخلوق استقلالاً أصلاً أيَّ مخلوق كان حتى والديك لا تطيعهما إلا في طاعة الله جل وعلا وطاعة رسوله ﷺ، لأن الإنسان عبدٌ لله جل وعلا والعبودية ملازمة له لا ينفك عنها، فعبوديته لله جل وعلا لا يخلو منها حال من أحواله، ولا جارحة من جوارحه في وقت من الأوقات، ولكن الطاعة الشركية الكفرية التي تكون شرك وكفر طاعة خاصة وهي في تحريم الحلال وتحليل الحرام، فمن فعل ذلك طاعة لمخلوق فقد اتخذه رباً. وأما الطاعة فيما ليس بحرام ولا حلال فلا بأس بها.

قوله: «العلماء والأمراء»: وهو خص العلماء والأمراء؛ لأنهم هم الذين يطاعون في الغالب وإلا فطاعة المخلوق في مثل هذا تجعله إلهاً معبوداً من دون الله، ومعنى هذا أنه من الشرك الأكبر الذي إذا فعله الإنسان ومات عليه يكون من أهل النار ـ نسأل الله العافية ـ.

قوله: «في تحريم ما أحل الله أو تحريم ما حرم الله»؛ يعني: في هذا الشيء خاصة، يعني في تحليل المحرم وتحريم الحلال اتباعاً له مع علمه بذلك، وأما إذا وقع شيء من هذا وهو غير عالم وقد اجتهد في أن يكون مطيعاً لله، فإن هذا له حكم أمثاله من أهل المعاصي، ولا يكون هذا كفراً مخرجاً له عن دين الإسلام، وهذا الذي ذكر من الطاعة ينافي شهادة أن لا إله إلا الله فهو تفسير لها بما يضادها.

قوله: «أرباباً»: ذكر الرب دون الإله؛ لأن المعبود يؤله ويعبد.

السر في هذا أن الأمر في التحليل والتحريم من خصائص الرب، لا يجوز أن يحلل ويحرم إلا الله جل وعلا، والرب هو المالك المتصرف، والمالك المتصرف هو الذي يأمر وينهى ويحل ويحرم، أما غيره فمن ليس له تصرف ولا ملك فلا يجوز أن يكون ذلك إليه، فإن فعل ذلك فقد نازع الله جل وعلا في شيء من خصائصه، ومن نازع الله أهلكه وأخذه غير أن الله حليم لا يعجل ولا يفوته المجرم، ولهذا إذا ذكر أفعال الكفار كثيراً ما يقول: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ [المجادلة: ٨] يعني: افعلوا ما تفعلون ثم مصيركم إلى جهنم الأمر سهل، يعني: الوقت قريب جداً، متاع الدنيا قليل ثم مأواهم جهنم، ومن كان مصيره جهنم فيكفيه ذلك. وحسبه من العذاب، بخلاف المؤمن، فالمؤمن قد يؤخذ وقد يعاقب في الدنيا ولهذا غالباً ما تكون العقوبات الدنيوية الظاهرة للمؤمنين، فالمؤمن يعاقب قبل المجرم الكافر؛ لأن الله أراد به خيراً، فعجل له العقوبات حتى إذا وافى يوم القيامة وإذا هو قد كُفر إجرامه الذي كان عليه، بخلاف المجرم فإنه يتراكم عليه جرمه فإذا وافى يوم القيامة صار إلى جهنم.

فالمقصود أن التعبير بالرب هنا له مناسبة، ومناسبته أن الأمر والنهي بيد الرب جل وعلا، فالذي يأمر وينهى قد نازع رب العالمين بالربوبية، والشرك بالربوبية أعظم من الشرك بالألوهية، لأن أدلته ظاهرة جداً وأمره لا يخفى على أحد.

۞ والمؤلف رحمه الله: اقتبس هذه الترجمة من الآية قوله جلا وعلا: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣١].

قوله: «﴿اتَّخَذُوا﴾»: الضمير ضمير الفاعل لليهود والنصارى.

قوله: «﴿أَحْبَارَهُمْ﴾»: هم العلماء.

وقوله: «﴿وَرُهْبَانَهُمْ﴾»: الرهبان هم العباد. فما دخل الأمراء إذاً؟

نقول: لأن الطاعة غالباً لهم، والرسول ﷺ هو الذي يجب أن يُطاع في

كل ما يأمر به وينهى عنه، ومع هذا الله جل وعلا قيد طاعته بالمعروف، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الممتحنة: ١٢]، فهذا القيد يبين لنا جل وعلا أنه لا يجوز طاعة الأمر مطلقاً بدون طاعة الله، لا بد أن تكون طاعته بالمعروف، ولهذا جاءت أحاديث كثيرة عن الرسول ﷺ تقيد الطاعة بالمعروف.

ففي صحيح مسلم من حديث علي رضي الله عنه قال: «بعث رسول الله ﷺ سرية، واستعمل عليهم رجلاً من الأنصار، وأمرهم أن يسمعوا له ويطيعوا، فأغضبوه في شيء فقال: اجمعوا لي حطباً، فجمعوا له ثم قال: أوقدوا ناراً، فأوقدوا، ثم قال: ألم يأمركم رسول الله ﷺ أن تسمعوا وتطيعوا؟ قالوا: بلى. قال: فادخلوها، قال: فنظر بعضهم إلى بعض فقالوا: إنما فررنا إلى رسول الله ﷺ من النار. فكانوا كذلك وسكن غضبه وطفئت النار». فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: «**لو دخلوها ما خرجوا منها، إنما الطاعة في المعروف**»، وفي لفظ: «**لا طاعة في معصية الله، إنما الطاعة في المعروف**»[1].

فلا يجوز أن يطاع الإنسان في معصية الله جل وعلا، وكثير ما جاء أن الطاعة مقيدة بالمعروف، والمعروف هو الشرع الذي جاء به الرسول ﷺ، ولا يطاع الإنسان إلا إذا أمر بحق، ومعنى ذلك أن طاعة المخلوق تبعاً لطاعة الله جل وعلا، إذا أمر بطاعة الله فسمعاً وطاعة، كما قال الرسول ﷺ: «**على المرء المسلم السمع والطاعة، فيما أحب وكره، إلا أن يؤمر بمعصية، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة**»[2].

فالعلماء والأمراء ذكرهم لأنهم هم الذين يطاعون غالباً، ولكن العلماء يطاعون إذا كانوا يأمرون بأمر الله ويبينونه فهم يطاعون في هذا. والأمراء

---

(١) رواه مسلم ١٨٤٠.

(٢) رواه البخاري رقم ٧١٤٤، ومسلم رقم ١٨٣٩ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

كذلك ينفذون أمر الله ويقومون به فيطاعون في ذلك، أما غير ذلك فلا بد أن تعرض أوامرهم ونواهيهم على أمر الله ونهيه، فإذا وافق ذلك قُبل وإلا يرد فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، أما إذا لم يكن معصية فلا بأس بطاعتهم.

والتعبير بمخلوق يدل على أن هذا أمر عام حتى أمك التي هي ألزم من تطيعه بعد الله ورسوله ﷺ الذي قرن حقها بحقه، فحق الوالدين مقرون بحق الله جل وعلا في آيات كثيرة: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [النساء: ٣٦]، ومع ذلك إذا أمراك بأمر فيه معصية لا تطعهما لأنك عبد لله جل وعلا ولا يجوز أن تخرج من عبوديته وطاعتك لها أو لأبيك لأن الله أمر بهذا.

والتحليل والتحريم لا يعلم إلا من أمر الله فهو متوقف على مجيء الأمر من الله جل وعلا أن هذا حلال وهذا حرام، قال الله جل وعلا: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [النحل: ١١٦]، والذي يقول هذا حرام وهذا حلال وليس عنده دليل من الكتاب والسُّنَّة فهو كاذب على الله جل وعلا، والكذب على الله من أعظم الإجرام حتى عده من عده من العلماء أعظم من الشرك لأنه يتضمن الشرك وزيادة.

والعبادة عرفت بأنها طاعة الأمر يعني طاعة الله بامتثال أمره واجتناب نهيه، فإذا كانت العبادة هي طاعة الله فمن ذلك أن العبادة لا تجوز لغير الله جل وعلا.

قوله: «﴿أَرْبَابًا﴾»: جمع رب، والفرق بين الرب وبين الإله أن الإله هو الذي يتجه إليه بفعل القلب يأله القلب ويحبه وينيب إليه ويتعلق به ويدعوه خوفاً ورجاء، فالإله يكون متعلق العبادة والرب متعلق تصرف الأمر والنهي وهذا هو السبب في كونه قيل أرباباً كما سبق.

وإلا المخلوق ليس رباً ولا يجوز إطلاق الرب عليه إلا بالقيد يقال: رب الكتاب، رب الدار، رب الدابة، أما أن يقال فلان رب فهذا لا يجوز، فهو لا يطلق إلا على الله جل وعلا، ومن نازع الله في شيء من خصائصه فإنه يعذبه.

❁ **قال المؤلف** رحمه الله: **وقال ابن عباس** رضي الله عنهما: **يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء؛ أقول: قال رسول الله ﷺ، وتقولون: قال أبو بكر وعمر؟**[١].

هذا قول مختصر ذكر محل الشاهد منه، وهذا القول من ابن عباس رضي الله عنهما قاله في من ناظره في متعة الحج، فإنه كان يأمر بها اتباعاً لسُنَّة رسول الله ﷺ حيث ألزم أصحابه كل من لم يسق الهدي أن يجعل طوافه بالبيت لما قدم مكة وسعيه بين الصفا والمروة عمرة ويحل إلا من معه الهدي، ولم يفرق بين كونه مفرداً أو قارناً أو غير ذلك، فأوجب ذلك عليهم وألزمهم بهذا.

وقد اتفق العلماء كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيميه رحمه الله على جواز المناسك الثلاثة، وإنما الخلاف في الأفضل منها. يعني أنه يجوز للمرء أن يأتي بأحدها وهي التمتع والإفراد والقران، وهي معروفة وجعل هذا متفق عليه. وإيجاب التمتع يكون خلاف هذا يعني أن غيره لا يجوز.

والمقصود أن ابن عباس يأمر بمتابعة الرسول ﷺ، فعارضه من عارض بأن أبا بكر وعمر يريان غير هذا، فقال رضي الله عنه: «يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء» لأنكم خالفتم أمر رسول الله ﷺ لأنه لا ينطق عن الهوى، بل ما تكلم به هو وحي من الله، ووحي الله يجب أن يمتثل بالطاعة ولا يتساهل به.

قوله: «أقول لكم قال رسول الله، وتقولون: قال أبو بكر وعمر»؛ يعني: أن أبا بكر وعمر عرضة للخطأ، يجوز الخطأ عليهما ليسا معصومين، وأبو بكر وعمر من الخلفاء الراشدين الذين أمر الرسول ﷺ باتباع سُنَّتهم كما في حديث العرباض وغيره أنه قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون، فقلنا: يا رسول الله، كأنها موعظة مودع فأوصنا. قال:

---

(١) أحمد في المسند رقم ٣١٢١ عن ابن عباس قال: تمتع النبي ﷺ، فقال عروة بن الزبير: نهى أبو بكر وعمر عن المتعة، فقال ابن عباس ما يقول عروة قال: يقول: نهى أبو بكر وعمر عن المتعة، فقال ابن عباس: أراهم سيهلكون، أقول: قال النبي ﷺ: ويقول: نهى أبو بكر وعمر.

«أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة، وإن تأمَّر عليكم عبد، وإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسُنَّتي وسُنَّة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة»(١).

وفي هذا التحذير من طاعة من يخالف أمر الله جل وعلا أو أمر رسوله ﷺ فيما شرعه، وأن من فعل ذلك فإنه خليق بالعذاب العاجل الذي يكون في الدنيا قبل الآخرة، ويكون هذا من أسباب زيغ القلب لأن الله جل وعلا يقول: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]؛ يعني: صارت قلوبهم تميل إلى الباطل ولا تريد الحق، ويقول جل وعلا: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠]؛ يعني: جزاء أنهم لم يتبعوا الحق أول وهلة جاءهم، فإذا ردوا الحق أول مرة عوقبوا بأن تكون قلوبهم منحرفة عن الحق غير مريدة له بل تكون كارهة له مريدة للباطل مُحبة له، فهذا معنى زيغ القلب.

فقوله: «يوشك»؛ يعني: يقرب ويسرع؛ لأنكم محل للعذاب، فالعذاب قرب منكم، وهذا يقوله العلماء الذين يعلمون صفات الله جل وعلا وما يترتب عليها لأن مخالفة الله جل وعلا ومعارضته بقول مخلوق ليس سهلاً فهو أمر عظيم، ولهذا ذكر السبب في كون الحجارة قريبة النزول منهم وهو قوله: «أقول قال الرسول ﷺ وتقولون: قال أبو بكر وعمر» هذا هو السبب.

وقارن بين قول أبي بكر رضي الله عنه الذي عرفنا علته أنه يقصد به أن لا يخلو البيت من طائف ومن زائر ومن متعبد، وبين من يأمر بالمعاصي فيطاع وهو يعلمُ أنها معصية ويُتبع، فهذا أولى أن تنزل عليه الحجارة، ولكن أكثر الناس لا يقدِّرون الله قدره ولا يعرفون أمره ومع ذلك حلمه واسع؛ لأنهم لن يفوتوه ورجوعهم إليه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ ﴿٦﴾﴾ [الانشقاق: ٦]، فرتب اللقاء على الكدح بالفاء المقارنة للعمل والكدح العمل،

---

(١) رواه أبو داود رقم ٤٦٠٧، والترمذي رقم ٢٦٧٦.

تعمل سواءً خيراً أو شراً فإنك تكدح ثم تلاقي ربك، فإذا كان مثلاً كدحه في طاعة الله فسوف يكون اللقاء محاسبة يسيرة ثم ينقلب إلى أهله مسروراً. أما إن كان الكدح في طاعة الشيطان من الجن أو الإنس، فسوف يصلى سعيراً ويدعوا ثبوراً، ولكن لا ينفعه دعوته بالثبور، وإنما يبقى صليه السعير.

فهذا يدل دلالة واضحة على تحريم طاعة المخلوق في معصية الله جل وعلا، ومهما كان مجتهداً في أنه يطيع الله، فمثلاً إذا جاء أمر من الله أو الرسول ﷺ لا يجوز أن يعارض بقول أحد من الناس كما يفعله كثير من طلبة العلم المقلدة إذا قلت له: قال الله وقال الرسول ﷺ، قال: المذهب كذا وكذا، والإمام يقول كذا وكذا، والإمام أعلم مني ومنك، ويعرف هذا الحديث أو الآية، لو أنه يعلم مثلاً أنها منسوخة أو أنها كذا وكذا ما خالفها، هكذا يقولون ويتركون أمر الله جل وعلا، وأمر رسوله ﷺ من أجل أمور يأتون بها يتأولونها تأويلات بعيدة باطلة.

فهذا القول من ابن عباس يدل دلالة واضحة على وجوب امتثال أمر الله جل وعلا وطاعته، وامتثال أمر رسوله ﷺ وعدم معارضته بقول أحد من الناس كائناً من كان، وليس في الأمة أتقى وأبر من أبي بكر وعمر ﵄، ومع ذلك يقول ابن عباس هذا القول فكيف بمن دونهما.

۞ قال المؤلف ﵀: وقال الإمام أحمد: عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته يذهبون إلى رأي سفيان، والله تعالى يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، أتدري ما الفتنة؟ الفتنة: الشرك؛ لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك.

الإمام أحمد بن حنبل من كبار الأئمة وهو معروف.

وأول هذا الأثر أن الإمام أحمد ﵀ قال: نظرت في المصحف فوجدت طاعة الرسول ﷺ في ثلاثين موضعاً ثم جعل يتلو: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

قوله: «عجبت»: العجب هنا عجبٌ ممن يعلم، كيف يتعرض للعذاب لأن الأمر ليس سهلاً.

قوله: «القوم عرفوا الإسناد وصحته»؛ يعني: يعلم صحته بحال ناقله، وهذه المعرفة لا تكون عن التقليد، بل لا بد أن يتحلى هو بمعرفة ذلك، وهذا هو العلم المعرفة الحقيقية، وإنما هذا فيمن كان يعايش أولئك أو يطلع على أحوالهم اطلاعاً مباشراً، أو يطلع على أحوالهم بالنقل الثابت عن الأئمة العدول، أما أن يأخذ ذلك عن الناس فهذا لا يعد معرفة، ولهذا قال ابن الصلاح وغيره من العلماء المتأخرين: إن التصحيح والتضعيف قد انتهى ولا أحد يقدر على تصحيح الحديث وتضعيفه في هذه الأزمنة، وإنما قصار جهدهم أن يجتهدوا في أقوال متقدمة فيكون مقلداً لهم.

والإمام أحمد كَلَلهُ في وقته بالإمكان إدراك ذلك ولهذا قال: **«عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته»**، لأن معرفة الإسناد ومعرفة صحته يترتب عليه صحة ما نقل به، فيكون الأمر في هذا واضح ولا عذر للمخالف في ذلك، فإذا ثبت الحديث وجب القول به والعمل به وإن خالفه الناس كلهم.

قوله: «يذهبون إلى رأي سفيان»: هذا مثال، وسفيان هو سفيان الثوري الإمام الزاهد العابد الثقة الفقيه، من كبار الأئمة، وكان له مذهب وله أصحاب، ولكنه ذهب مذهبه لأنه لم يكن له أصحاب يكتبون كما كان لغيره من العلماء مثل مالك والشافعي وأبي حنيفة، وما أكثر العلماء في ذلك الوقت على هذا المنهج لأنهم ما كان بعضهم يُقلد بعضاً، بل يجتهدون ويخالف بعضهم بعضاً في الأمور المفهومة، والحوادث التي تحدث للناس وينزلونها على الآيات والأحاديث فيختلفون في إنزالها عليها لاختلاف فهومهم، وأن بعضهم يبلغه نصاً ما بلغ الآخر فصار لهم مذاهب مختلفة في هذا ومنهم سفيان الثوري كَلَلهُ.

والمعنى أنهم يذهبون إلى أقوال العلماء ويتركون الأدلة من كتاب الله وأحاديث رسوله ﷺ، ولكنه نص على الإسناد لأن القرآن ثابت ثبوتاً قطعياً بنقل الأمة النقل المتواتر وحفظها لكتاب الله جل وعلا فلا يحتاج إلى نظر في إسناده، وإنما النظر في أقوال النبي ﷺ، غير أن هذا يدلنا على أنه لا يكتفي بكتاب الله جل وعلا عن أحاديث رسوله ﷺ.

ثم هذا يُفهم منه أن من ذهب إلى آراء العلماء واجتهاداتهم في ما لم يظهر الدليل فيه أن هذا سائغ وجائز لأنه قال: **«عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته»**، فالذي لا يعرف الإسناد وصحته يفهم منه أنه لا بأس من كونه يذهب إلى رأي سفيان ونحوه من أقوالهم التي اجتهدوا فيها؛ ولكن إذا تبين للإنسان أن هذا القول خلاف الدليل فإنه لا يجوز له أن يذهب إليه ويأخذ به، ولهذا يقول الله جل وعلا: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣] فأمر بسؤال أهل الذكر، وأهل الذكر هم العلماء الذين عرفوا الإسناد وصحته وكذلك فهموا مراد الرسول ﷺ وعرفوا مدلولات أقواله، وكذلك عرفوا معنى قول الله جل وعلا، فهؤلاء هم الذين يسألون.

أما إذا كان الإنسان بمقدوره أن يستدل ويعرف الدليل فهو مكلف بذلك ولا يجوز له أن يأخذ بآراء الرجال، وهذا جاء متواتراً عن الأئمة كالإمام أبي حنيفة والإمام مالك والشافعي وأحمد وغيرهم، الذين يعرفون أن الواجب على العبد هو اتباع كلام الله جل وعلا وكلام رسوله ﷺ لأن العصمة في ذلك، أما العلماء مهما كانوا فليسوا معصومين والخطأ جائز عليهم، ثم الإنسان ليس مكلفاً باتباعهم، وبهذا يتبين أن العبد إذا ترك الأمر الظاهر الجلي الواضح مثل عبادة الله أو وقع فيما يخالفه مثل الوقوع في الشرك أنه غير معذور مهما كان لأنه قصر في الأمر وترك ما يجب عليه فيكون ملوماً، فاللوم عليه فلا عذر إن خالف كلام الله وكلام رسوله ﷺ، فالله جل وعلا قد وضح أمر العبادة وكذلك ما يضادها فلا يجوز للمسلم أن يجهل قول الله جل وعلا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١] وقوله جلا وعلا: ﴿أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الأنعام: ٧٢]، وقوله: ﴿وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [التوبة: ٥]، وقوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٩] وما أشبه ذلك من الأمور الواضحة، وقوله جل وعلا: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣] الأمور الواضحة الجلية لا يجوز للمسلم أن يجهلها أو يقلد فيها.

وسيأتي أن كل مسلم سيسأل عن دينه عن معبوده، وما يعبد به معبوده، ومن أين أخذ هذه العبادة؟ يُسأل في قبره عن هذه الأمور ولا فرق بين المكلفين في ذلك، لا عالم ولا غيره، فدل هذا على أن الأمور الظاهرة الجلية لا يجوز

التقليد فيها ولا يجوز جهلها، وإذا كان هذا في بلاد المسلمين فهو أعظم وأطم، ومعناه أنه أعرض عن أمر الله وأنه لم يهتم به، أو أنه قلد العامة والدهماء الذين لا يفرقون بين حق وباطل وهذا لا يمكن أن يكون مستساغاً أصلاً.

فقول الإمام أحمد: **«والله يقول»**؛ يعني: أن هذا من الأدلة على وجوب ترك آراء الناس عند ورود النص سواءً من الله أو من رسوله ﷺ وإن كانوا مجتهدين، والمجتهد يكون أما متحصلاً على أجرين أو أنه متحصلاً على أجر واحد والخطأ يكون معفواً عنه إذا اجتهد فأصاب فله أجران أجر الاجتهاد وأجر الإصابة، وإن أخطأ فله أجر واحد وخطأه معفواً عنه، ولكن هذا إذا كان أهلاً للاجتهاد، وأما إذا كان ليس أهلاً للاجتهاد فهو آثم على كل حال وإن أصاب. وإن أخطأ فهو ظالم مستحقاً للعقوبة كالذي يقول بالقرآن برأيه فإن هذا جاء النص فيه، وكذلك في أي حكم من الأحكام، لأن كل حكم أو كل حدث يحدث فللَّه فيه حكم، والله جل وعلا ما فرط في الكتاب من شيء، والكتاب إذا أرجعت الحوادث إليه كلها حكمها موجود فيه، ولكن تحتاج إلى فهم، وإذا أعطى الله عبده الفهم فإنه لا بد أن يدرك ذلك من القرآن، ولهذا كان الشافعي رحمه الله يقول: كل حكم حكمه الصحابة أخذوه من القرآن ولكنه يخفى علينا.

فيجتهد في إصابة الحق أخذاً من كتاب الله أو من القواعد الكلية التي دلَّ عليها كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، لأن كلام الله جل وعلا كليات وقواعد وجوامع، الرسول ﷺ يقول: **«بعثت بجوامع الكلم»**[1]، وهذا من خصائصه ﷺ. وجوامع الكلم معناه مثل قوله ﷺ: **«إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى»**[2]، وكذلك قوله: **«الحلال بيِّن والحرام بيِّن وبينهما أمور مشتبهات»**[3] وغير ذلك.

---

(١) رواه البخاري رقم ٢٩٧٧، ومسلم رقم ٥٢٣ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) سبق تخريجه.
(٣) رواه البخاري رقم ٥٢، ومسلم رقم ١٥٩٩ من حديث النعمان بن بشير.

فالمقصود أن الأحكام التي يجب أن يفصل بها بين الناس مرجعها إلى شرع الله وإلى سُنَّة رسوله ﷺ ولا يجوز أن نرجع إلى قوانين وأوضاع يتواضعها الناس. فإن هذا نبذ لكتاب الله جل وعلا وترك له ومن فعل ذلك فقد وقع في الفتنة.

قوله: «﴿فَلْيَحْذَرِ﴾»: هذا تحذير من الله بالعذاب العاجل يعني أن الأمر قريب، فالعذاب الذي يقع على المخالف قريب، فالحذر يكون من شيء متوقع، قريب الوقوع.

قوله: «﴿يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾»؛ يعني: أمر الرسول ﷺ لأنهم يعرفون أمره ثم يخالفونه إلى غيره، فأمره هو الذي يخبر به عن ربه جل وعلا أنه أمر أو نهي، الأوامر التي فيها تكريم عباد الله من الله جل وعلا ومعلوم أنه صلوات الله وسلامه عليه لا ينطق عن الهوى وإنما أمره بأمر الله جل وعلا، وهذا يدل على أن هذا التحذير يكون في العاجل يعني في الدنيا أعني ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ وهذا من أعظم العقوبات.

والفتنة فسَّرها الإمام أحمد بالشرك لقوله تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧]؛ لأن المعنى أن فتن الإنسان وصده عن توحيد الله؛ لأن عبادة الأصنام ودين المشركين أعظم من القتل لو قتلوه، فهذا في الموت الذي لا يرجى معه حياة وهو الخسارة الأبدية، بخلاف إزهاق النفوس فإن إزهاقها هو من هذه الحياة الدنيا فقط، فإذا كانت النفوس مؤمنة بالله فهي تنتقل من حياة إلى حياة أحسن وأفضل وفيها السعادة، فهي ولادة جديدة يولدها العبد بعد موته بل هي انتقال من هذه الدنيا وضيقها إلى الآخرة وفضلها وسعتها ونعيمها، بخلاف الانتقال من دين الله جل وعلا إلى دين الكفار فإنه موت حقيقي، بل هو العذاب الأبدي، ولهذا يقول الله جل وعلا: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

هذا في الظاهر فيمن يقتل نفساً بلا حق كأنه قتل الناس كلهم، فكيف بالذي يضل الإنسان عن دينه، ويصده عن عبادة ربه إلى عبادة الشيطان، هذا أعظم بكثير من قتله، فمثل هذا يقال أضل الناس جميعاً كأنه أضل جميع

الناس إذا أضل نفساً واحدة كما أنه إذا اهتدى بسببه إنسان واحد كأنه اهتدى بسببه الخلق كلهم، فهذا يدلنا على عظم كون العبد ينحرف عن دين الله جل وعلا وما يتسبب على ذلك.

وقد قال الله جل وعلا في سوء الأدب مع رسول الله ﷺ ورفع الصوت عنده: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٢﴾ [الحجرات: ٢]، إذا كان هذا يستوجب حبوط العمل والعبد لا يشعر ولا قصد، فكيف بمخالفة الأمر عن عمد وعلم ماذا يكون؟ الأمر فيه أعظم بكثير، ولهذا قال: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ﴾ يعني يصدون عنه ويتركونه ولا يبالون به ﴿أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ﴾ يعني: أن تفتتن قلوبهم وتصبح مريدة للشرك والكفر محبة له كارهة لضده من طاعة الله والإيمان فتنقلب الأمور يصبح الحق في نظره وذوقه وفي اتجاهه وميوله باطلاً مكروهاً عنده وثقيلاً لا يحبه ويصبح الباطل بعكس ذلك يميل إليه ويحبه، فهذا أعظم الفتنة لأن من كانت هذه صفته فقد استحكم عذابه.

قوله: «﴿أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾»: وهذا أسهل من الذي قبله، فقد ينزل عليهم مع ذلك العذاب العاجل فيموتون على هذه الصفة ـ نسأل الله العافية ـ فالعذاب الأليم الذي يؤلم ويوجع، ومعلوم أن عذاب الله لا يقاس بعذاب الخلق، عذابه هو العذاب الأليم، كما أن رحمته وإنعامه وإفضاله لا يقاس بما يكون بين الناس. وإذا فعل الإنسان هذا فهو لا يخلو من أمرين:

إما أن يكون كفراً، وإما أن يكون معصية. فإن كانت مخالفته لأمر الله أو أمر رسوله ﷺ لأجل المعصية وهو يعرف أنه محرم وأنه مذنب فهذا أسهل فلا يكون كافراً في هذه الصفة.

أما إذا كانت مخالفته من باب عدم المبالاة ومن باب تصغير الأمر واحتقاره، فهذا كفر بالله جل وعلا، فالأول هو الذي يصيبه العذاب الأليم، أما الثاني فهو الذي تصيبه الفتنة، ولهذا قال: «أتدري ما الفتنة؟» الفتنة الشرك، وفي رواية: «الفتنة الكفر».

وقوله: «لعله إذا رد بعض قوله»: بعض قوله وليس كله، ويدل على أنه

لو فعل ذلك من غير قصد وإرادة وعلم أنه قد يقع في هذا المحذور أنه تصيبه الفتنة، فلهذا قال: ﴿فَلْيَحْذَرِ﴾. والحذر معناه: التنبه لذلك والتفطن، وأن يكون عنده علم مسبق وحذر يستعمل فيما هو خفي، وهذا يدلنا على أن العبد لو كان غير قاصد ووقع في هذا أنه على خطر.

قوله: «أن يقع في قلبه شيء من الزيغ»؛ يعني: أنه خالف ذلك احتقاراً للأمر وتصغيراً له كما فعل إبليس فيكون بذلك هلاكه لأنه بذلك يخرج عن الدين الإسلامي.

وقوله: «لعله»: لأنه ليست لكل أحد؛ لأن بعضهم تكون المخالفة لأجل حظ هواه وشهوته فقط مع اعترافه بأنه ظالم، فمثل هذا وإن كان متوقعاً أن يصيبه العذاب ولكنه أسهل من الذي قبله.

وقوله: «فيهلك»؛ يعني: الهلاك الوقوع في الشرك ـ نسأل الله العافية ـ ومن وقع في الشرك ومات عليه فهو الهالك الحقيقي لأن مصيره النار.

۞ قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ عن عدي بن حاتم: أنه سمع النبي ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿اتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣١]، فقلت: إنا لسنا نعبدهم، قال: «أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتحلونه»، فقلت: بلى. قال: «فتلك عبادتهم» رواه أحمد والترمذي وحسنه[(١)].

عدي بن حاتم الطائي كان نصرانياً، وحاتم هو ابن عبد الله بن سعد بن الحشرج المشهور بالسخاء والكرم، ولكنه مات مشركاً في الجاهلية فهو من أهل النار، ولهذا لما سأل عدي الرسول ﷺ عن أبيه، قال: **«إن أباك سعى لشيء أدركه»** يعني: المدح والثناء، وكان يضرب به المثل في الكرم، وعدي بن حاتم كان في طي، وكان له أموال ورثها عن أبيه، وكان يكره الإسلام أشد

(١) أخرجه الطبراني رقم ٢١٨، والترمذي رقم ٣٠٩٥.

الكراهية، ويقول لغلامه: إذا رأيتم خيل محمد فأعلموني، وقد أعد ركائب عنده لا تبرح بيته، فأرسل الرسول ﷺ سرية بقيادة علي بن أبي طالب إلى طيء فجاءه غلامه ذات غداة فقال: يا عدي ما كنت صانعاً إذا غشيتك خيل محمد فاصنعه الآن، فإني رأيت رايات فسألت عنها فقالوا: هذه جيوش محمد، قال: فقلت: فقرب إليَّ أجمالي فقربها، فاحتملت بأهلي وولدي ثم قلت: ألحق بأهل ديني من النصارى بالشام. وخلف بنتاً لحاتم في الحاضرة، أخته كبيرة، فأُخذت وذُهب بها إلى المدينة وكانت مع السبي، فمر بها رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله غاب الوافد وانقطع الرافد، وأنا عجوز كبيرة، ما بي من خدمة، فَمُنَّ علي مَنَّ الله عليك. قال: «**من وافدك؟**»، قالت: عدي بن حاتم، قال: «**الذي فرَّ من الله ورسوله**»، قلت: فمُنَّ عليَّ. قال: فلما رجع ورجلٌ إلى جنبه فقال لي: سليه الحملان فأعطاني فذهبت إلى عدي. فقالت: لقد فعل فعلاً ما كان أبوك يفعله، ائته راغباً أو راهباً، فقد أتاه فلان فأصاب منه وأتاه فلان فأصاب منه، قال عدي: فأتيته وهو جالس في المسجد فقال القوم: هذا عديُّ بن حاتم وجئت بغير أمان ولا كتاب. فلما دفعت إليه أخذ بيدي وقد كان قبل ذلك قال: «**إني أرجو أن يجعل الله يده في يدي**»، فقال لي: «**ما يفرُّك، أيفرك أن تقول: لا إله إلا الله، فهل تعلم إله سوى الله؟**»، قلت: لا. ثم قال: «**إنما تفرُّ أن يقال الله أكبر وهل تعلم شيئاً أكبر من الله؟**»، قال: قلت: لا. قال: «**فإن اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون**»، قال: قلت: إني حنيفاً مسلماً. قال: فرأيت وجهه ينبسط فرحاً[1].

فسمع عدي رضي الله عنه الرسول ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، وهذه الآية في سورة التوبة، وهي نزلت في السنة التاسعة، يعني بعد غزوة تبوك وإسلام عدي بعد ذلك.

قوله: «﴿أَحْبَارَهُمْ﴾»: الأحبار هم العلماء. أخذاً من الحبر الذي يكتب به لأنهم هم الذين يستعملونه، والغالب أن هؤلاء من اليهود؛ لأن اليهود أهل

(١) زاد المعاد ص٤٥٣.

علم ولكنهم أهل عناد وتكبر، ومن كان عالماً معانداً فهو أهل لغضب الله جل وعلا ومقته.

وقوله: «﴿وَرُهْبَٰنَهُمْ﴾»: والرهبان مأخوذة من الرهبنة وهي التخلي عن الدنيا، فالرهبان هم العباد، والغالب أنهم من النصارى؛ لأن النصارى غلبت عليهم العبادة، ولكنها عبادة بجهل، فهم أهل جهل يتعبدون بضلالة، فلهذا سموا ضلال، واليهود أهل غضب، ولهذا فسر العلماء قوله جل وعلا: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝﴾ [الفاتحة] أن المغضوب عليهم هم اليهود، والضالين النصارى، وكذلك من تشبه بهم من هذه الأمة، الذي يضل من العلماء يكون شبيهاً باليهود، والذي يضل من العباد يكون شبيهاً بالنصارى.

والرسول ﷺ كان يفرح بإسلام رؤساء القوم وكبارهم لأن بإسلام الرجل من هؤلاء يسلم خلق كثير، وهؤلاء هم الذين كانوا يتألفهم صلوات الله وسلامه عليه ويبذل لهم المال يعني يعطيهم الدنيا حتى يرغبهم في الآخرة في دين الله جل وعلا، فقد ثبت في الصحيحين عن عدي ﷺ قال: بينما أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكا قطع السبيل فقال: «**يا عدي: هل رأيت الحيرة؟**»، قلت: لم أرها وقد أنبئت عنها، قال: «**فإن طالت بك الحياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلا الله ـ قلت فيما بيني وبين نفسي: فأين دُعارُ طيء الذين قد سعروا البلاد ـ ولئن طالت بك الحياة لتفتحن كنوز كسرى**» قلت: كسرى بن هُرمز؟ قال: «**كسرى بن هرمز، ولئن طالت بك الحياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه، فلا يجد أحداً يقبله منه، وليلقين الله أحدكم يوم يلقاه وليس بينه وبينه ترجمان يترجم له، فيقولن: ألم أبعث إليك رسولاً فيبلغك؟ فيقول: بلى، فيقول: ألم أعطك مالاً وأفضل عليك؟ فيقول: بلى، فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم، وينظر عن يساره فلا يرى إلا جهنم**»، قال عدي: سمعت النبي ﷺ يقول: «**اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد شق تمرة فبكلمة طيبة**»، قال عدي: فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى

تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم حياة لترون ما قال النبي ﷺ: «**يخرج ملء كفه**»[١].

والمقصود أن عدي بن حاتم رضي الله عنه أسلم وحسن إسلامه وفرح بإسلامه رسول الله ﷺ وفسَّر له رسول الله ﷺ عبادة الأحبار والرهبان، أن عبادة العلماء هي طاعتهم في مخالفة شرع الله، وكذلك عبادة العباد، وهؤلاء هم الذين يطاعون في العادة، بخلاف دهماء الناس لأن هؤلاء هم الذين يرأسون الناس ويتقدمونهم.

قوله: «﴿أَرْبَابًا﴾»: جمع رب، ومعنى ذلك أن الرب قد يستعمل بمعنى المألوه المعبود ﴿أَرْبَابًا﴾ يعني: آلهة تعبد من دون الله، لأن الرب الذي يربُّ الشيء ويقوم على مصالحه، والله جل وعلا هو الذي يربي عباده بما ينفعهم، وما يحتاجون إليه ويدفع عنهم ما يضرهم أو يؤلمهم، وهذا عام في الخلق كلهم، فالذي يكون بهذه الصفة هو الذي يستحق أن يعبد، فلهذا عبر عن العبادة عن الإله بالرب في بعض مواقع الخطاب، ومن ذلك ما جاء في سؤال القبر يقال: من ربك؟ ومعلوم أن الخلق كلهم مشركهم ومؤمنهم يعلمون أن ربهم الله فهذا ليس هو المقصود، وإنما المقصود من الذي كنت تعبده؟ فيكون عبَّر عنه بمعنى المعبود المألوه الذي يأله، ولهذا يرد على عباد القبور الذين يقولون: إن الإله الذي يخلق ويحيي ويميت، أما إذا اعتقدت أن المخلوقات واسطة ووسيلة لك عند الله تدعوا لك وتتوسط لك، تدعوها لأجل هذا، فهذا لا يدخل في الشرك، فهم غالطون في هذا أعظم الغلط، لأن هذا في هو شرك المشركين، ما كان المشركون يرون أن أحداً من الخلق يشارك الله جل وعلا في خصائص الربوبية من الخلق والإحياء والإماتة، بل يؤمنون بأن هذه لله وحده، وإنما شركهم في كونهم جعلوا وسائط لهم تتوسط عند الله بسؤال الشفاعة وإصال الطلبات التي يجعلونها من باب التعظيم، قياساً على المخلوق لأنهم قالوا نشاهد العظماء من بني آدم أنه لا يوصل إليهم رأساً بدون واسطة

---

(١) رواه البخاري رقم ٣٥٩٥.

وإنما الوصول إليهم بالوسائط وهذا يكون أدعى إلى قبول الطلب فهم فعلوا الشرك من باب القياس على المخلوق.فهو خطأ واضح وظاهر وجلي، لأن الله جل وعلا عليم بكل شيء، سميع لكل شيء، ولا يحتاج جل وعلا إلى وساطة أو من يبلغه أو من يجعله عاطفاً على خلقه ـ تعالى وتقدس ـ.

قوله: «فقلت: إنا لسنا نعبدهم»: ظن عدي أن المقصود باتخاذهم أرباباً دعوتهم والاتجاه إليهم، وتقديم العبادة لهم من السجود والذبح والنذر وما أشبه ذلك، فقال: «**إنا لسنا نعبدهم**»، فبين له الرسول ﷺ ما هي العبادة المقصودة في الآية قال: «**أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتحلونه**»، فقلت: بلى. قال: «**فتلك عبادتهم**»؛ يعني: طاعتهم في تحليل الحرام، وتحريم الحلال هي عبادتهم، وكذلك تغيير دين الله، وهذا أمر واضح أن من اتبع غيره من الناس في مخالفة شرع الله جل وعلا أنه يكون عابداً له.

ففي هذا الإيضاح التام الذي هو نص من الرسول ﷺ، بأن كون الإنسان يحلل حراماً أو يحرم حلالاً فيتبع أنه يكون معبوداً ورباً لهذا الذي اتبعه.

وقد يقول قائل: إن الله جل وعلا يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء: ٥٩]، فعطف طاعة أولي الأمر على طاعة رسوله نقول هذه الآية لا تخالف هذه الآية، كلاهما يدل على الحق، فالتي فيها الأمر بطاعة ولي الأمر يعني إذا أطاعوا الله وأطاعوا الرسول ﷺ فطاعتهم تبع لطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، وليست استقلالاً في تحليل الحرام وتحريم الحلال، فإن هذا لا يمكن أن تدل عليه الآية، ولهذا ذكر في آخرها: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩] فعند النزاع يجب أن نرد النزاع إلى الله وإلى الرسول ﷺ، ورده إلى الله رده إلى كتابه، ورده إلى الرسول رده إلى سُنَّته، وأما في وقت حياته فإنه إليه نفسه ولكن بعد وفاته ترد إلى سُنَّته، فبهذا تبين أن الآية لا تخالف الأخرى.

وقوله: «فتلك عبادتهم»؛ يعني: أن طاعة المخلوق في تحريم الحلال، وتحليل الحرام أنها عبادة له، وهذا يدلنا كما سبق على أنها طاعة خالصة

يعني في هذا الشيء. أما الطاعة في الأمور التي لا يظهر فيها المخالفة فإنه لا يخلو الأمر: إما أن يكون الإنسان مجتهداً يعني المطاع ولكنه أخطأ فإن كان مجتهداً يريد الحق وأخطأ فيه فإنه في ذلك غير ملوم وخطئه معفو عنه.

وإن كان خلاف النص فهذا لا يجوز أن يقع، فإذا فعل ذلك فهو مجرم ويستحق ما يستحق غيره من المجرمين.

فتبين أن طاعة المخلوق عبادة له، ولكن هل يكون هذا مطلقاً أو أنه لا بد من العلم في ذلك؟

نقول: إذا كان الأمر فيه واضح ظاهر فإن هذا يكون مطلقاً، أما إذا كان فيه خفاء والإنسان مجتهد ويرى أن هذا طاعة لله جل وعلا فهذا يكون معصية لأنه مقصر في ذلك؛ لأن الواجب أن يعرف العبادة التي أمر الله جل وعلا بها، ويعرف الحلال والحرام غير أنه لا يكون الناس كلهم في هذا سواء، فيكون مثلاً باب الاجتهاد الذي يقول العلماء أنه لا إنكار في مسائل الاجتهاد يعني ما ليس فيه نص، وإنما هي مفاهيم تفهم إما من الكليات من الشرع أو من الجزئيات فهذا هو الذي يسوغ فيه الاجتهاد والتقليد، أما إذا كانت نصوص قد بينها الله جل وعلا وبينها رسوله ﷺ فلا عذر لمن خالفها.

۞ قال المؤلف رحمه الله: فيه مسائل:

۞ الأولى: التنبيه على معنى العبادة التي أنكرها عدي.

يعني أنها عبادة خاصة وهي في تحليل المحرم، وتحريم الحلال، أما طاعتهم فيما عدا ذلك ليس فيه تحليلاً ولا تحريماً فلا تدخل في هذا، هذا مقصوده.

۞ الثانية: تمثيل ابن عباس بأبي بكر وعمر، وتمثيل أحمد بسفيان.

يعني أن أبا بكر وعمر لا يقاسان بغيرهما من العلماء، ولا سيما العلماء المتأخرين الذين جعلت أقوالهم واتباعهم في أقوالهم صارفة عن كلام الله وكلام رسوله هذا مقصوده.

يقول: لا سواء، قول أبي بكر وعمر لا يستوي مع أقوال الفقهاء

المتأخرين الذي تركوا الأدلة من كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ ثم اتبعوا على هذا، فمتبعهم ملوماً ولا يكون له أي عذر في ذلك، وكذلك سفيان رَحِمَهُ اللَّهُ فهو من الأئمة الكبار ومعروف بالزهد والورع وتقوى الله جل وعلا هو الذي كان يبكي طوال الليل فيلام على بكائه فيقال له: أكل هذا خوف من النار؟ أو خوف من الذنوب؟ فيأخذ عوداً من الأرض يقول: والله إن الذنوب لا تساوي عندي هذا، ولكن ما أدري ماذا أموت عليه؟ لأن القلوب بين أصابع الرحمٰن يقلبها كيف يشاء.

۞ الثالثة: تغير الأحوال إلى هذه الغاية حتى صارت عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال وتسمى الولاية، وعبادة الأحبار هي العلم والفقه ثم تغيرت الأحوال إلى أن عبد من دون الله من ليس من الصالحين، وعبد بالمعنى الثاني من هو من الجاهلين.

هذا الكلام معناه «**تغيرت الأحوال**»؛ يعني: عما ذكره ابن عباس وما ذكره الإمام أحمد لأن ابن عباس رضي الله عنهما يحذر من ترك قول رسول الله ﷺ إلى الأخذ بقول أبي بكر وعمر والإمام أحمد يحذر من ترك الحديث الصحيح والأخذ برأي سفيان، وسفيان من كبار الأئمة، فتغيرت الأحوال يقول حتى صارت عبادة الرهبان التي يسمونها الولاية عبادة شياطين يدعون الولاية وهم لا يصلون ولا يتطهرون ولا يتورعون أو يتركون الفواحش الكبيرة والصغيرة، ويسميهم كثير ممن يتبعهم على تحريم الحلال وتحليل الحرام أولياء ويتبعونهم على ذلك، يعني فرق كبير جداً بين هذا وهذا، وكذلك يقول عبادة الأحبار تغيرت الأحوال فيها فاتبع من هو من الجاهلين وليس من العلماء بعيداً جداً أن يقاس بسفيان ونحوه، فجعل اتباعهم هو الفقه والعلم.

ومقصوده التقليد الأعمى الذي يفعله كثير من الناس، وإذا احتج عليه بآية من كتاب الله أو بحديث عن رسول الله ﷺ قال فلان أعلم منك وأعرف بمعنى الآية ومعنى الحديث منك، فأنا لا أترك قوله، يتمسك بقوله ويترك قول الله جل وعلا وقول رسوله ﷺ، فيكون هذا معناه أنه ترك قول الله وقول

رسوله لمن لا يدان أو يقارب سفيان الثوري ونحوه من العلماء.

ويقول صاحب فتح المجيد على هذا: وأما طاعة الأمراء ومتابعتهم فيما يخالف ما شرعه الله ورسوله، فقد عمَّت به البلوى قديماً وحديثاً، في أكثر الولاة بعد الخلفاء الراشدين وهلُمَّ جرّاً. وقد قال الله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝﴾ [القصص: ٥٠].

وعن زيادة بن حُدير قال: قال لي عمر ﷺ: هل تعرف ما يهدمُ الإسلام؟ قلت: لا. قال: يهدمه زلة العالم، وجدال المنافق بالكتاب، وحكم الأئمة الضالين. رواه الدارمي(١).

فالمؤلف ﷺ يقول في المسائل التي استنبطها من الأدلة: إن الله جل وعلا يبين أن من أطاع المخلوق في تحليل الحرام أو تحريم الحلال فإنه يكون متخذاً له إلهاً ورباً دون الله جل وعلا؛ ومعنى ذلك أن تحليل الحلال وتحريم الحرام من خصائص الله جل وعلا لا يجوز لمخلوق أن يقول هذا حرام وهذا حلال إلا إذا كان مخبراً عن حكم الله جل وعلا. ومعلوم أن الرسول ﷺ يبين حكم الله، فإذا أخبر أن هذا حرام وهذا حلال فمعنى ذلك أن هذا قول الله جل وعلا الذي أرسله به، ولكن المقصود غير الرسول ﷺ، ومعلوم أن جميع أفعال الناس والوقائع التي تقع لهم أنها يجب أن تكون محكومة بحكم الله جل وعلا وأن يرجع فيها إلى الله، هذا بالنسبة لأفعالهم.

أما بالنسبة للعلم والعقيدة فكذلك إذا حصل فيه اختلاف بين أناس فإنه يرجع فيه إلى ما قاله الله وقاله الرسول ﷺ كالاختلاف مثلاً في أسماء الله وصفاته والمؤمن والفاسق والمنافق والكافر وما أشبه ذلك، لا يجوز أن تحكم رجلاً من الناس في هذا، بل يجب أن يكون الحاكم في ذلك هو الله جل وعلا ورسوله ﷺ، وهذا، أعظم من الأول لأنه إما خبر عن الله جل وعلا والإخبار عن الله جل وعلا يجب أن تكون عن يقين وعلم ولا يقين في ذلك ولا علم

(١) فتح المجيد ص٤٥٩.

إلا ما قاله الله وقاله رسوله ﷺ فيصفه وهو لا شبيه له ولا مثيل له حتى يقاس على غيره تعالى وتقدس، فإذاً ليس فيه طريق إلا الرجوع إلى قوله جل وعلا وقول رسوله ﷺ.

ومعلوم أن الله تعرف إلى عباده بكتابه وبأوصافه وأسمائه وكذلك أفعاله التي يفعلها في خلقه، فإنها تعرف به جل وعلا وتدل على عظمته. ومعلوم أن الناس في هذا صاروا في الواقع بين طرفي نقيض ووسط، والوسط هو الخير فالمقصود أنه لا يمكن أن يهتدي الإنسان في هذا الباب إلا إذا رجع إلى كلام الله وكلام رسوله ﷺ، أو يكون حكماً من الله في عبادة وأمراً يأمرهم به أو نهياً يلزمهم به فيجب أن يطاع في ذلك كله.

وقد كثر في الناس الاختلاف في هذا حتى وضعوا قوانين من الفلسفة وعلم الكلام التي ترجع إلى الآراء والعقول وسموها براهين، وسموا الأدلة التي يقولها الله في قوله سموها أدلة سمعية مظنونة، لا تدل على اليقين ولا على علم، وهذا كذب على الله وعلى رسول الله ﷺ، حتى قال بعض الذين يفسرون كلام الله يقول لا يجوز أن تتعدى المذاهب الأربعة في الأحكام، ولو قال الصحابة خلاف ذلك، بل ولو كان في الحديث والقرآن خلاف ذلك، فلا يجوز الخروج عنها؛ لأن الأخذ بظواهر الكتاب والسُّنَّة كفر من أصول الكفر فهل يقول مسلم مثل هذا الكلام ـ نسأل الله العافية ـ ولكن هذه الأشياء انتشرت وبُلي بها الناس، وهذا هو الذي قصده المؤلف هنا بقوله: «تغيرت الأحوال إلى هذه الغاية حتى صار عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال وتسمى الولاية» يعني: الذهاب إلى قبورهم والاستنجاد بهم وطلب تفريج الكربات وإنالة الرغبات منهم، وما أشبه ذلك من أمور الدنيا والآخرة، يجعلون هذا من أفضل أعمالهم، وهؤلاء مُتَبَّرٌ ما هم فيه، وباطل ما كانوا يعملون بلا شك.

هذا مقصوده بقوله: «**صارت أفضل الأعمال**» يعني: عنده هؤلاء الضلال اعتقدوا أنها أفضل الأعمال، ولهذا قال: «**وتسمى الولاية**» يعني الأولياء. ثم قال: «**وعبادة الأحبار هي العلم والفقه**»، والعبادة معناها أنها اتباعهم وطاعتهم

فيما يقولون، ومقصوده بالأحبار العلماء أنهم إذا قالوا شيئاً اتبعوا مثل ما يقول هذا الرجل أنه يجب اتباع المذاهب الأربعة ولا يجوز الخروج عليها بحال، وإن قال الصحابة خلاف ذلك بل وإن كان في الحديث والقرآن خلاف ذلك، ثم يقول: لأن الأخذ بظواهر الكتاب والسُّنَّة من أصول الكفر ـ نسأل الله العافية ـ هذا يقوله الصاوي في حاشيته على الجلالين في تفسير سورة الكهف عند قوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣﴾ [الكهف: ٢٣]، وكذلك غيره يقول مثل هذا الكلام، ثم يقول ما وقف الأمر إلى هنا يعني كون الناس يقولون لا بد من الأخذ بأقوال الفقهاء، ولا يجوز أن تؤخذ الأحكام من الكتاب والسُّنَّة، وقد وضع الشيطان لهم في هذا حواجز تحجزهم عن النظر في الكتاب والسُّنَّة وقالوا في تضليل من استنبط من الكتاب والسُّنَّة، قالوا: إنه لا يأخذ من الكتاب والسُّنَّة إلا المجتهد، والاجتهاد قد انتهى وأغلق بابه منذ أزمان، والمجتهد يجب أن يكون عالماً بالكتاب وأسباب النزول والناسخ والمنسوخ وبالعام والخاص، وكذلك بالمتقدم والمتأخر وعالم بالسُّنَّة وباللغة وبالنحو والبلاغة، يذكرون اثنين وأربعين شرطاً للمجتهد.

ولهذا يقول المؤلف: لعل هذه الشروط لا تجتمع في أبي بكر وعمر، فجعلوا هذا سداً وحائلاً بين الناس وبين تأمل كلام الله، وهذا شيء فرح به الشيطان كثيراً لأن العبد إذا استشعر أنه ليس باستطاعته الاستنباط فإنه لن يتأمل حتى صارت المسألة مجرد تلاوة كما قال الله جل وعلا: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ [البقرة: ٧٨] يعني: إلا تلاوة يتلونه فقط، وكذلك كانوا لا يقرءون صحيح البخاري إلا لتبرك فقط قال: «ثم تغيرت الأحوال أن عبد من دون الله من ليس من الصالحين» بل عبد من الفسقة بل من الكفرة الذين لا يصلون ولا يتورعون عن الزنا ولا عن اللواط، وعن شرب الخمر ولا يتطهرون، ومع ذلك يعتقدون أنهم أولياء يسمونهم مجاذيب، على أنهم وصلوا إلى الحقيقة فأصبحوا قد رفعت عنهم التكاليف، انظر كيف يزين الشيطان.

وقوله: «وعبد بالمعنى الثاني من هو من الجاهلين»: صاروا مثلاً يفتون على حسب أهوائهم ورغباتهم فيتبعون على ذلك بقوله في وقته ﷫ ولو أنه

رأى الأحوال التي نحن فيها لرأى العجب، وأعظم مما كان، فأصبحت القوانين تسن تجعل شرعاً وتوضع للناس ويحكمون بها، ونبذ كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ لا ينظرون إليها إلا إذا وافقت أهوائهم ومراداتهم، هذا من ناحية الأحبار مع أن الذي يضع هذه القوانين كفار في الغالب أو يستوردونها من بلاد الكفر. وأما الذي هو عبادة الصالحين فهذا قد يكون أخف وقد يكون أعظم.

فالمقصود أن الإنسان لا يتم توحيده بل لا يحصل له إيمان حتى يتبع قول الله جل وعلا ويسلم له وينقاد له ويصبح ليس عنده فيه إشكال أو تحرج فيكون الحاكم هو الله ورسوله ﷺ في أحواله كلها سواءً أحواله الخاصة التي تخصه من الاعتقاد من ما تنطوي عليه القلوب، أو من الأعمال التي يعملها أو من الأمور التي يحصل بينه وبين غيره فيها شجار أو نزاع.

نبَّه على قوله هذا لأن كثيراً من الناس تعجب من هذا الكلام، والواقع أنه هو الفقه وخلاصة ما ذكره من الأدلة، وطبق ذلك على الواقع الذي كان يعيشه رَحِمَهُ اللَّهُ.






الباب التاسع والثلاثون

❁ قال المؤلف رحمه الله: باب قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٦٠].

في هذا الباب أراد المؤلف رحمه الله أن يبين تمام التوحيد الذي لا يتم إلا به، وذلك أنه من أول الكتاب إلى هنا يذكر الحق الواجب لله جل وعلا على العباد ويبينه ويوضحه وهو معنى لا إله إلا الله. ومعلوم أن كلمة لا إله إلا الله مرتبطة بكلمة شهادة أن محمداً رسول الله؛ لأنهما ركن واحد ولا يقبل أحدهما دون الآخر، ولهذا جعلهما الرسول ﷺ ركناً واحداً كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما وغيره: «**بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله...**» الحديث[1]، ثم قال: «**وإقام الصلاة**».

فأراد المؤلف رحمه الله في هذا الباب أن يبين معنى شهادة أن محمداً رسول الله هذا مقصوده، وذلك أنه ﷺ رسول مبلغ شرع الله يجب أن يصدق ويتبع وليس له من الألوهية شيء، وأنه عبد تعبده الله بعبادته وأكرمه برسالته وكلفه إبلاغها، فهو رسول لا يعبد وإنما يطاع ويتبع، وكذلك لا يجوز أن يتعبد الله جل وعلا إلا بما جاء به، ولا يجوز أن يتحاكم ويتخاصم ويزال الخصام والخلاف إلا بما جاء به صلوات الله وسلامه عليه، وكذلك تقديم محبته ﷺ، على محبة النفس والولد والوالد والمال وغير ذلك من المحاب التي يحبها الإنسان؛ لأن الله جل وعلا يحبه وأمر بحبه ولأنه جعله الله سبباً لإنقاذ الناس من الهلكة ومن العذاب، فلا هناك طريق يمكن أن يسلم الإنسان فيه من العذاب إلا الطريق الذي جاء به الرسول ﷺ، فيتبعه على ذلك وهذا أمر مهم جداً ولا إيمان إلا بهذا، ولا يتم التوحيد إلا بهذا، فلهذا أراد أن

---

(١) رواه البخاري رقم ٨، ومسلم رقم ١٦.

ينبه على هذا في هذا الباب، فهو ذكر هذا الباب لأجل هذا الشيء فقط فهو واضح عند تأمل الأدلة التي وضعها.

❁ **قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: باب قول الله تعالى:** ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ [النساء: ٦٠].

هكذا كانت عادته رَحِمَهُ ٱللَّهُ يترجم بالآية لأنها تدل على المقصود.

قوله: «﴿أَلَمْ تَرَ﴾»: ﴿أَلَمْ﴾ هنا استفهام، والاستفهام يدل على الإنكار، فهو استفهام إنكاري.

قوله: ﴿تَرَ﴾: تنظر وتعلم وتبصر هؤلاء. وهذا يدل على أن هذا أمر عجيب، وهو زعم هؤلاء أنهم آمنوا برسول الله ﷺ وبالرسل الذين قبله.

قوله: «﴿يَزْعُمُونَ﴾»: هذه تتضمن أن قول هؤلاء أنه كذب، أو أنه يتضمن الكذب لأنهم يفعلون أفعالاً تخالف أقوالهم، فإذا كان الإنسان يفعل فعلاً يخالف قوله، صح أن نقول أنه كاذب أو أنه زعم كذا وهو ليس كذلك.

فالمقصود أن كلمة ﴿يَزْعُمُونَ﴾ وكذلك زعم وضعت للكذب، فتطلق على الكذب غالباً، ولهذا يقول الله جل وعلا: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾﴾ [التغابن: ٧]، فعبَّر عن ذلك بقوله: ﴿زَعَمَ﴾، وفي الحديث: «**بئس مطية الرجل زعموا**»[1]، فإن الزعم لا يدل إلا على شيء غير موثوق إن لم يكن كذباً صريحاً واضحاً.

وهنا يقول الله جل وعلا: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾، فهذا يدل على أن هذا أمر عجيب، وهو زعم هؤلاء أنهم آمنوا بما أنزل إلى رسول الله ﷺ وما أنزل على الرسل من قبله، مع إرادتهم التحاكم إلى غير ما أنزل الله جل وعلا، ولهذا قال: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ فهذا دليل على أنهم لم يؤمنوا بما أنزل الله على

---

(١) أحمد في المسند رقم ١٧٠٧٥، وأبو داود رقم ٤٩٧٢ من حديث أبي مسعود الأنصاري.

رسوله ﷺ ولا على الرسل السابقين، وفي ضمن هذا تكذيبهم فهم كاذبون في دعواهم الإيمان، والإيمان الكاذب هو الذي لا يصدقه العمل لأن العمل يدل على ما في القلب، فإذا كان العمل خلاف القول، فالقول كذب وهذا أمر معروف بين الناس، حتى لو أن إنساناً معروف بالطب أو بغيره من الصناعات والأمور التي يتعارف عليها الناس، حذرنا عن أمر من الأمور مثلاً، لو قال لنا إياكم وأكل هذا الطعام فإنه مسموم ومن أكله سوف يموت ثم يقدم يده فيأكل منه، كل من نظره أو سمعه يعده كاذباً في قوله، وكذلك في الدعوى إذا قال أنه مؤمن وهو يخالف أمر الرسول ﷺ وما جاء به، بل يتعمد ذلك، ويكون هذا الباعث على عمله؛ لأنه قال: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ فالإرادة هي التي تبعث على العمل، فهذا يدل على أن الدعوى كاذبة وهو إيمان كاذب، وهذا حال المنافقين يقولون قولاً يخالف ما يعتقدونه وما يفعلونه، فالإرادة هنا لا بد أن يظهر لها أدلة من العمل الذي يعملونه على ذلك، ولهذا ذكر السبب في نزولها في آخر الباب في قول الشعبي، والمقصود ليس الاعتبار بخصوص السبب وإنما الاعتبار بعموم اللفظ، أما السبب فيكون عوناً على فهم المعنى لأن كلام الله جل وعلا نزل لعموم الخلق إلى قيام الساعة، ما داموا يعملون به فلا بد أن يسعهم، ولا بد أن يجدوا فيه الحكم الذي يفصل بينهم إذا صدقوا واتبعوه، فلا اعتبار بكونها نزلت في معين، وإنما هذا يعين فقط على الفهم؛ أي: فهم المراد فقط.

فالمقصود أنهم كاذبون بقولهم آمنا، بل هم لم يؤمنوا بما أنزل إليك ولا ما أنزل من قبلك، والإيمان الصادق ضد هذا، الصادق هو الذي يصدقه العمل، فالعمل يسمى إيماناً، وكذلك القول، ولا بد من اجتماع القول مع العمل، وإلا لا يكون صدق بل يكون كذباً.

فقوله: ﴿ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ﴾ دل ما قبله وما بعده على أن هذا زعم كاذب وأنها دعوى باطلة، لأن الفعل خالفه، إذا خالف فعل القائل قوله فإنه يكون كاذباً.

قوله: «﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾»: يشمل كل ما أنزله الله جل وعلا، من كلامه

ووحيه إلى نبيه ﷺ، ويدل هذا على أن التحاكم وفض النزاع ليس له طريق إلا ما أنزله الله جل وعلا، وأن من لم يتحاكم إلى ما أنزل الله جل وعلا فإنه غير مؤمن.

وهذا التحاكم عام لأنه جل وعلا قال: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ وليس التحاكم في مسألة معينة، بل التحاكم يكون في مسائل الأصول والفروع، بل وفيما يصدر بين الناس مما يفض نزاعهم وينهيه، لا بد أن يكون الحاكم فيه هو الله جل وعلا بما أنزله على رسوله ﷺ؛ لأن هذا من خصائص الربوبية، فمن نازع الله جل وعلا في خصائص ربوبيته فإنه يكون ناصباً نفسه شريكاً لله جل وعلا.

وبهذا يتبين أن التحاكم إلى ما ينصب حاكماً بين الناس أنه يكون شريكاً في الربوبية يكون هذا شبه الرب؛ لأن من خصائص الرب الحكم بين خلقه، فهو الحاكم جل وعلا بين خلقه في الدنيا والآخرة، ولكن في الدنيا حكمه أمره الشرعي الذي أنزله على رسله وهذا جعل إلى الخلق حتى يفعلوا بإرادتهم ومقدورهم فيستحقوا على ذلك الثواب أو العقاب إذا أبوا وامتنعوا؛ لأنهم بإرادتهم ومقدورهم وقد جعل إليهم.

أما الحكم في الآخرة فهو مرتب على ذلك؛ لأنه جزاء هذا التحاكم.
وهذا يدلنا على أن المقصود بالتحاكم عام شامل بما يقع من الخلاف بين الناس في العقائد وفي الفروع وفي ما يلزم لبعضهم على بعض، فيتعين إرجاع أي خلاف يحدث بين المسلمين إلى ما أنزله الله جل وعلا على رسوله ﷺ ومن رغب عن ذلك فإما أن يكون فاقد الإيمان، بل فاقد الإسلام، وإما أن يكون ذهب جزء من إيمانه الذي به النجاة، فيكون مستحقاً للعقاب إن لم يعف الله جل وعلا حسب ما يقوم في نفسه، وما يفعله لأنه إما أن تكون قضية معينة، أو تكون قضايا، ومعلوم أن هذا أيضاً يعتبر فيه الرضا أو السخط يعني ما يقوم في القلوب؛ لأن الواجب على المسلم أن يرضى بحكم الله جل وعلا ويسلم وينقاد ولا يكون لديه اعتراض أو تضجر منه، أو أنه يتمنى أن لا يكون كذلك وأن يكون الحكم على خلاف هذا كما سيأتي.

فالآية تدل على وجوب التحاكم إلى ما أنزل الله جل وعلا وما جاء به الرسول ﷺ والتحاكم يكون في نفسك أولاً تحكم في نفسك الوحي تؤمن به وتجعله حاكماً على أفعالك وتصرفاتك وعلى اتجاهك وتعلقك في قلبك، لا بد من هذا ثم ما يكون بعد ذلك فرعاً على ذلك من الأعمال التي تعملها، أو الأعمال التي تجد للناس أو لك تكون بينك وبينهم شيء من ذلك من المنازعات سواءً كانت المنازعات في حقوق أو كانت في مسائل العلم لا بد أن يكون التحاكم والمرجع إلى كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ.

قوله: «﴿يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾»: أما الطاغوت، فقد تقدم الكلام عليه ولكن لا بأس من الكلام فيه لأنه أمر مهم حيث جعل الله الكفر به شرطاً لحصول الإيمان عند العبد، قال ﷻ: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، والطاغوت كل ما صد عن شرع الله جل وعلا، سواءً كان معنى من المعاني أو كان شخصاً من بني آدم أو من الشياطين من الجن أو من غيرهم، ولهذا جاء عن الإمام مالك قوله: الطاغوت كل ما عبد من دون الله. وهذا التعريف جعل في العبادة، شاملاً لأن التحاكم نوع من العبادة وفض النزاع نوع منها لأن الواجب أن يكون هذا قول الله جل وعلا وشرعه الذي يوحيه إلى رسله.

أما الأفراد التي جاءت في تفسيره عن السلف كقول عمر ﷺ: الطاغوت: الشيطان. وقول جابر بن عبد الله ﷺ: الطاغوت: كهان تنزل عليهم الشياطين.

وقول بعض الصحابة: الطاغوت: كعب بن الأشرف. فهذه أمثلة يفسرون بها معنى الطاغوت حسب ما يقوم في قلب الإنسان الذي يسأل عن ذلك حتى يفهم، وليس المقصود بها العموم. ولهذا عرَّفه ابن القيم ﷺ بقوله: الطاغوت كل ما تجاوز به العبد حده، من معبود أو متبوع أو مطاع، فجعله ثلاثة أشياء: المعبود، والمتبوع، والمطاع.

ومجاوزة الإنسان بالشيء حده، يعني جعله فوق ما وضع له خلقاً وأمراً من الله جل وعلا، فالمخلوق حده أن يكون عبداً من عباد الله جل وعلا لا

يكون معبوداً، فالمعبود هو الله وحده فإذا جعل مخلوق من الخلق سواءً كان من الملائكة أو من الرسل أو من الجن أو من الجمادات جعل معبوداً فيكون طاغوتاً لأنه تعدى الحد وطغى وإن كان تعدي الحد من العابد هو الذي عداه حده ورفعه إلى مقام الربوبية والألوهية فتجاوز به الحد الذي وضع له وهو كونه مخلوقاً لله جل وعلا مسخراً.

أما إذا كان متبوعاً فحد المتبوع أن يكون متبوعاً في طاعة الله وأمره، فإذا اتبع بمعصية الله وفي مخالفة شرعه فقد تجاوز المتبع به حده الذي حد له وهو اتباع الشرع، فإذا خرج عن ذلك فقد تجاوز حده.

وإن كان مطاعاً فكذلك، الطاعة يجب أن تكون تبعاً لطاعة الله جل وعلا كما مر معنا في الباب السابق أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. فهذا معنى قول ابن القيم: الطاغوت كل ما تجاوز به العبد حده، فحده مفعول لتجاوز من معبود يعني غير الله جل وعلا، أو متبوع، لأن الاتباع يجب أن يكون لرسول الله ﷺ، وحده ولمن أمر بأمره وبين حكمه تبعاً لطاعة الرسول ﷺ، وليس طاعته هي الأصل المقصود وإنما يطاع تبعاً، وكذلك الاتباع والطاعة، وبهذا يتبين لنا أن الشرك أنواع، شرك يكون في العبادة رأساً، وشرك يكون بالاتباع، وشرك يكون بالطاعة.

وواضح جداً أن الطاغوت هو الذي يحكم بخلاف ما أنزل الله، وما جاء به الرسول ﷺ، فالآية تدل على هذا دلالة واضحة كل من حكم بغير ما أنزل الله جل وعلا وما جاء به الرسول ﷺ فهو طاغوت، وهذا الحكم يدخل فيه فض المنازعات، ويدخل فيه الحكم العلمي فيجب أن يكون المرجع هو فلا يحكم غير ذلك، وعلى هذا كل من حكم بغير ما أنزل الله سواءً كان عقلاً أو كان شخصاً من الأشخاص أو نظاماً من وضع البشر فهو طاغوت، ثم قال ابن القيم بعد أن عرَّف الطاغوت بأنه يشمل كل ما تجاوز العبد به حده من معبود أو متبوع أو مطاع: فهذه طواغيت العالم إذا تأملنا فإذا هي قد ملئت الأرض، فهذا يطاع بالمعصية، وهذا يتبع بالمعصية، وهذا يأمر بمعصية الله فيتبع من دون تفكير.

ولكن كما سبق أن الذي يتبع الذين يحللون ويحرمون ويشرعون وما أشبه ذلك يختلفون، فمنهم من يعرف أنهم قالوا غير الحق، فمن عرف أنهم قالوا غير الحق واتبعهم على ذلك فهو مثلهم، حكمه حكمهم، لأنه عبد الطاغوت، ومنهم من يحسن الظن بهم، ولكنه لا يستطيع أن يميز بين الحق والباطل فيجتهد في طلب الحق، وهذا ليس عليه شيء إذا اتقى الله فيما يستطيعه.

ومنهم من يعرف ولو بعض الحق ولكنه يتعصب لرجل بعينه أو طائفة بعينها فيتبعهم، فهذا ظالم وإن كان مصيباً، فهو ظالم لأنه اتبع هواه وإن كان مخطئاً فله حكم أمثاله من أهل المعاصي، وقد يكون ذلك كفراً، إذا علم أنهم قالوا: خلاف حكم الله وحكم رسوله ﷺ وتبعهم على ذلك.

وقوله: «﴿وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ﴾»: ﴿أُمِرُوٓاْ﴾ هنا تدل على العموم، أن هذا أمر جاءت به الرسل كلها أن يكفروا بالطاغوت وأنه لا يحصل إيمان إلا بالكفر به. فإذا لا بد من معرفة الكفر بالطاغوت الذي يجب علينا أن نمتثله، وقد قال الله جل وعلا: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥٦] فبدأ بالكفر بالطاغوت.

والكفر به هو اعتقاد بطلانه، واجتنابه وأن تكون في جانب وهو في جانب بعيداً عنك ثم بغضه أشد البغض ومحاربته، فلا يصح الكفر إلا بهذا، فأنت تتبرأ منه ومن أهله هذا هو الكفر، ولهذا قال الله جل وعلا عن إبراهيم ﷺ ومن معه من المؤمنين: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤]، هذا هو معنى الكفر بالطاغوت، هذا الذي ذكره الله جل وعلا عن إبراهيم الخليل ﷺ. وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ هم الرسل لأن إبراهيم لم يؤمن من قومه إلا رجل واحد وهو لوط ﷺ: ﴿إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤] فلا بد من هذا الذي جعله الله جل وعلا لنا أسوة نتأسى به ونتبعه في الكفر بالطاغوت وهو التبري والبغض والمعاداة الأبدية والمحاربة.

وقوله في هذه الآية: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ يعني: ليس لكم فيه أسوة، هذا لا تتأسوا به، فإنه قاله إبراهيم مجرد وفاء بوعدٍ وعده إياه، ثم بعد ذلك تبرأ

منه: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤]، فمعناه أن الإنسان يجب أن يتبرأ من والده إذا كان مخالفاً للحق.

وقوله: «﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ﴾»: الإرادة المقصود بها أفعال الشيطان التي يزينها ويظهرها للناس ويدعوهم إليها فهو يريد أن يصدهم عن متابعة الرسول ﷺ، يعني يريد أن يصدهم عن طاعة الله جل وعلا وعن الإيمان بشرعة واتباعه حتى يكونوا معه في النار، هذا هو المقصود وهذه إرادة الشيطان.

فإرادته بالوسوسة والتزيين، ولكن الله جل وعلا جعل له المقدرة على معرفة ميل النفس فلهذا صار أتباعه كثير، وقد أقسم لربه جل وعلا أنه سوف يستحوذ على بني آدم وإن كان استثنى قليلاً، أنه سوف يحتنكهم يعني يجعلهم تحت طاعته، تحت حنكه يتصرف فيهم، وقال جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ [سبأ: ٢٠] يعني: ظنه الذي ظنَّ فيهم صدق فاتبعه أكثرهم، فهذه إرادته التي يريدها وقع كثير منهم، فهم اتبعوه وأطاعوه في هذا وكل من اتبع الشيطان فإنه يلقيه في جهنم ولا بد، وما نجا منها إلا قلة ممن سبقت لهم عند الله الحسنى.

وقوله: «﴿أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾»: يعني: بعيداً عن الحق، بعيداً عن الهدى الذي هو سبب الرشد والسعادة.

فالآية فيها أربعة أشياء ذكرها الله جل وعلا:

الأول: أن التحاكم من إرادة الشيطان فهو يحض عليها ويأمر بها.

الثاني: أنه ضلال.

الثالث: أنه وصف بالبعد، فيكون البعد عن الحق والهدى.

الرابع: أن الله أكده مما يدل على أن التأكيد بمنزلة التكرار، فيعطي وجوب الاهتمام بذلك والتنبه.

وقوله: «﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾»؛ يعني: إذا طلب منهم أن أتوا إلى الحكم، حكم ما أنزل الله، وأول واجب الإيمان بالله جل وعلا

وبما أنزل، فيظهر عند الأمر فعل الذين يكرهون ما أنزله الله جل وعلا ويبغضون خلافه وهو أنهم يعرضون عنه، فهم يعتذرون ويبدون المعاذير والتمنع.

قوله: «﴿رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١]»: يصدون هنا لازم؛ لأن مصدره جاء صدوداً، إذ لو كان يصدون بمعنى يردون غيرهم ويمنعون لكان المصدر صداً؛ لأن هذا مصدر المتعدي، فهذا الصدود يكون في أنفسهم يعني أنفسهم، ومعناه أنهم يعرضون عن قول الرسول ﷺ إذا دعاهم إلى امتثال أمر الله جل وعلا، فمن امتنع عن امتثال أمر الله يكون له نصيب من ذلك فمقل ومستكثر.

وقوله جل وعلا: «﴿إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [النساء: ٦٢]»: هذه من صفاتهم أنهم إذا أصابتهم المصائب ورمتهم المقادير التي تلجئهم إلى المجيء إلى رسول الله ﷺ أنهم يأتون يحلفون على خلاف ما تنطوي عليه قلوبهم وخلاف ما فعلوا وهم أصحاب ألسن، وأصحاب كذب وتلفيقات، فيزعمون أن فعلهم للتوفيق وللمداراة ومراعاة المصالح. ولهذا سيأتي أنهم إذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون، وقد ذكر الله جل وعلا من صفاتهم أنهم يعجبون الناظر: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ [المنافقون: ٤]؛ يعني: أن لهم هيئات وأبهات ومناظر، ومن صفاتهم البلاغة والفصاحة: ﴿وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: ٤] ولكنهم لا نفع فيهم، بل هم ضرر محض، ولهذا وصفهم بأنهم كالخشب المسندة والخشب المسندة لا خير فيها ولا تنفع، بل هي عبء على غيرها، وهذه صفة المنافقين، وقد أكثر الله جل وعلا لنا من صفاتهم لأن ضررهم بليغ وأمرهم ظاهر الفساد جداً فهم مع المسلمين، ويعرفون مداخل الضعف فيهم ومكامنها فيرمونهم من داخلهم.

فضررهم أشد من ضرر الكفار الذين ينصبون العدى ظاهراً وهم مع الكفار دائماً، غير أنهم يزعمون أنهم عقلاء، وأنهم يتكلمون مع هذا ومع هذا حسب ما تمليه عليهم إراداتهم ونظرياتهم أن هذا مصالح لهم.

قوله: «﴿ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ [النساء: ٦٢]»:

وهذا من الصفات التي تنطبق على كثير من الناس الذين يصدون عن الوحي وما جاء به الرسول ﷺ ويزعمون أنهم يوفقون بين الأدلة، الأدلة الظنية حسب زعمهم والأدلة البرهانية القطعية التي هي ما يسمونه أدلة عقلية، وهي التي يجب أن تتبع عندهم وهذا كثير في كتبهم وفي أقوالهم، فهم يعتذرون بقولهم ما نريد إلا الإحسان، يعني أن نوفق بين الأدلة، وبين أقوالنا وأقوالكم، وأن هؤلاء مثل ما يسمونه بالعقل المعيشي، فيصبح حتى مع الكافر ومع المؤمن فهو معايش لهؤلاء وهؤلاء إذا ظهر سلطان الكفر يبوحوا بما في أنفسهم، ويفرحوا، وهؤلاء خطرهم شديد على المسلمين والإسلام، ولهذا لما بيَّن الله جل وعلا أصناف الناس بيَّن أنهم ثلاثة أصناف كما في أول سورة البقرة فذكر المؤمنين في ثلاث آيات، ثم ذكر الكافرين في آيتين فقط، ثم المنافقين وذكرهم في ثلاثة عشر آية لأن الناس بحاجة إلى من يُبين حالهم وأوصافهم.

وكذلك جاء ما هو أعظم من هذا وأكثر كما في سورة التوبة أنه بيَّن أحوالهم في أشياء كثيرة، ولهذا سمَّاها بعض العلماء بالفاضحة، فهي فضحت المنافقين.

فالمقصود أن هذا شامل، فكل من خالف كتاب الله وكلام رسوله ﷺ فهو داخل في هذه سواءً كان الخلاف من أجل أمور دنيوية أو من أجل أمور عقائدية أو غير ذلك، والظاهر أن المقصود في هذا أن الإنسان لا يكون مسلماً حتى يحكم كتاب الله جل وعلا ويكون منقاداً لذلك ليس عنده به حرج ولا تضجر من القيام به فضلاً عن الاعتراض والمنازعة، ولهذا قال في آخر الآيات: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥]، وهل نحن بحاجة إلى أن يقسم ربنا جل وعلا هذا القسم العظيم ﴿فَلَا وَرَبِّكَ﴾ ولا يكفي كونهم يحكمونك فقط بل مع التحكيم يجب أن لا يكون في نفوسهم حرج من هذا القضاء وهذا الحكم، والحرج هو ضيق النفس، كأن يقول يا ليته لم يكن كذا وكذا، ليت هذا الحكم خلاف هذا، وهذا ليس في الحكم الذي يحكم فيه في النزاع فقط في جميع ما يأتي به كأن يقول الإنسان مثلاً: ليت الله

ما حرم الربا ليته لم يحرم الزنا، ليته كذا وكذا، هذا معناه أنه لم يرض بحكم الله، ولم ينقد له ولم يسلم له، بل يجب عليه أن يرضى به ويغتبط به ويحمد الله عليه، لأن الله هو علام الغيوب، ويعلم ما هي مصالح العباد.

وقوله جل وعلا آمراً لرسوله ﷺ: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾.

ليس معنى الإعراض عنهم تركهم وما هم فيه يعملون ما يريدون، بل الإعراض هنا يدل على تحقيرهم وإهانتهم، وإلا فقد جاء الأمر بجهادهم وهم كما قال الله جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ [التوبة: ٧٣]، فأمر جل وعلا بجهادهم والغلظة عليهم، وكتاب الله جل وعلا لا يتضارب ولا يخالف بعضه بعضاً، بل بعضه يصدق بعضاً ويجب أن يوفق بين نصوص كتاب الله جل وعلا وكذلك أحاديث رسول الله ﷺ.

فإذاً يكون الأمر بالإعراض عنهم أمر إهانة لهم واحتقار لهم وإلا فإنهم يجاهدون وجهادهم يكون بالقول وبالفعل أيضاً اتباعاً لسُنَّة المصطفى صلوات الله وسلامه عليه.

ثم أخبر الله جل وعلا بعد ذلك بأن الحكمة من إرسال الرسل وإنزال الكتب عليهم أن يطاعوا ويتبعوا، وأن هذا الذي أمر الله جل وعلا به، وأرسل به الرسل، يتبع ويطاع لأنه بدون طاعة واتباع لا فائدة في الأمر الذي يجيء به الرسول ﷺ فلا بد من طاعته في كل ما يأمر به، واتباعه في ذلك.

وقوله في هذه الآية: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤].

فهذا من العلاج الذي أمر الله جل وعلا به لمن وقع في شيء من المخالفة، أنه يسرع الإقلاع عنه، والاستغفار منه والإنابة إلى الله جل وعلا والرجوع إليه، وأنه جل وعلا يقبل من حصل ذلك منه يقبل توبته ويكون ربه رحيماً جل وعلا. فهي دعوة من الله جل وعلا إلى عباده المذنبين بأن يتركوا ما هم فيه وأن يرجعوا إلى رشدهم الذي جاء به الرسول ﷺ ويخبرهم جل وعلا أنه يقبل منهم توبتهم وأنه سيرحمهم ويرأف بهم وهو فضل منه جل وعلا وكرم.

أما استغفار الرسول ﷺ فهذا في حياته صلوات الله وسلامه عليه، وأما بعد وفاته فلم يأت لا من كتاب الله ولا من سُنَّة رسوله ﷺ ولا من أفعال الصحابة ولا أقوالهم ولا من أفعال التابعين وأقوالهم ما يدل على أنهم يأتون إلى قبره ويطلبون منه أن يستغفر لهم وإنما تعلق كثيرون من الناس بحكاية لا سند لها عن أعرابي مجهول، وهذا من أعجب الأشياء. إذا كان حديث عن رسول الله ﷺ فيه رأوا مجهول لا يجوز العمل به فكيف بحكاية يحكيها العتبي وتروى بلا سند معروف، وإن كانت مشهورة ولكن شهرتها لا تدل على صحتها ولا على قَبولها، وهي أن العتبي كان في مسجد الرسول ﷺ فجاء أعرابي فقال: يا رسول الله إني سمعت الله يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤] وإني أستغفر الله وأسألك أن تشفع لي، ثم قال الأبيات التي ذكروها، بيتين ذكر أنه قالهما، ثم يقول أنه غلبته عيناه، فرأى رسول الله ﷺ جاءه وقال له: يا عتبي أدرك الأعرابي وأخبره أنه الله قد غفر له. كثير من الناس يتعلق بهذه الحكاية المكذوبة التي لا سند لها، ولو كانت صحيحة السند لا يجوز اتباعها ولا العمل بها، ولا يجوز الاغترار بها، فكيف وهي يظهر عليها الكذب.

فالمقصود أن الأمر بالمجيء إليه، المجيء إليه في حياته لأن المجيء في حياته ﷺ وفي حياته الأخذ عنه والتعلم منه والإئتمار بأمره وطاعته، أما بعد وفاته صلوات الله وسلامه عليه فالمجيء إليه هو المجيء إلى سُنَّته وإلى شرعه الذي شرعه وجعله الله باقياً إلى قيام الساعة. ولا أحد يحول بين من أراد ذلك، فهو ميسور سهل الوصول إليه.

أما قوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ﴾.

الله جل وعلا يقسم بنفسه أنه لا يحصل لأحد الإيمان بالله جل وعلا إلا إذا كان محكماً الرسول ﷺ في كل شيء ولا يكفي تحكيمه بل لا بد مع تحكيمه من الرضا بحكمه والتسليم له والتسليم بأن لا يكون فيه منازعة لا في ضميره، ولا في فعله بل ينقاد لذلك ويرضى.

وقوله: ﴿فِيمَا﴾: عام شامل كل ما يحدث بين الناس من خلاف يجب

أن يكون الحاكم فيه هو شرع الله جل وعلا: ﴿فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾، وفي أنفسهم يعني في ضمائرهم وقلوبهم وإرادتهم، ﴿حَرَجًا﴾ والحرج هو الضيق من الشيء والتضجر منه، أي لا يكون عنده في ذلك ضيق أو تضجر أو تمن خلافه بل لا بد من الرضى به أن يرضا ويسلم، وأكد هذا بالمصدر ﴿تَسْلِيمًا﴾ ليدل على كمال الانقياد وأنه لا يكون عند الإنسان فيه أي تردد أو أي انزعاج منه بل لا بد أن توافق إرادته هذا ويكون محباً له كما سيأتي في الحديث.

❁ **قال المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ: **وقوله:** ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾﴾ [البقرة: ١١].

هذه من صفات المنافقين، فإن الله جل وعلا في أول سورة البقرة ذكر المؤمنين في ثلاث آيات، وذكر الكافرين في آيتين، ثم ذكر المنافقين في ثلاث عشر آية؛ لأن شرهم عظيم، والناس بحاجة إلى أوصافهم وظهورها حتى يحذروهم، فبدأ ذلك بقوله جل وعلا: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ إلى آخر الآيات، وفيها: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾، والمقصود هنا الإصلاح في الأرض، والإفساد قوله: ﴿لَا تُفْسِدُوا﴾ إفساد الأرض بالمعاصي، كل معصية مفسدة، ولهذا في قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ مع إخوته لما احتال على إمساك أخيه ووضع الصواع في متاعه ففي قولهم: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٧٣] يعني: لا تعصوا رسول الله، ولا تخالفوا شرع الله بالمعاصي والمخالفات.

زعموا أن الشرع ليس فيه مصلحة، ولا يناسب الوضع، ولا يليق بكرم الإنسان وتقدمه، وإنما هذا لزمن مضى، أما في الوقت الحاضر فلا يليق بالإنسان إلا آرائهم وما يتعارفون عليه من أوضاعهم، وما تمليه عليه ضمائرهم وشياطينهم هو الذي يكون فيه الإصلاح، وهذا هو الذي يزعمون أنه هو الإصلاح والإفساد اتباع الشرع، وهذا عام في كل أحد، سواء كان يعتمد في قرارة نفسه بطلان الشرع وبطلان ما أخبر الله جل وعلا به أو أنه يعتقد أعظم

من هذا، أنه لا وجود لله ولا حياة بعد هذه الحياة والإفساد درجات بعضها أعظم من بعض.

والمقصود أن كل معصية هي إفساد في الأرض، وصلاح الأرض لا يكون إلا بالرسل وباتباعهم، فالأرض تصلحها الرسل يرسلهم الله جل وعلا لإصلاح الأرض لأن إصلاحها بطاعة الله، بل إن الأرض والسماء لا تصلح إلا بطاعة الله جل وعلا وإفسادها بالمعاصي.

فقوله: «﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾﴾»: يعني: لا تفسدوا في الأرض بالمعاصي والمخالفات، مخالفاتهم لما جاء عن الله وجاء به الرسول ﷺ ينكرون هذا ويكابرون ويقولون: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ يعني: في أعمالنا فيزعمون أنهم هم المصلحون، وغيرهم سفيه كما قال جل وعلا: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ [البقرة: ١٣]، ولهذا تسمعهم يسمون أهل التقى وأهل الإيمان يسمونهم المتأخرين، وأنهم لا يفهمون شيئاً، ولا يعرفون ما في الدنيا، فهؤلاء لا يجوز النظر إليهم ويحتقرونهم غاية الاحتقار، ويزدرونهم بالأقوال والأفعال وغيرها كل هذا لأنهم راضون عن أفعالهم، ويرون أن أفعالهم هي الحسنة والجميلة وهي التي تصلح وغيرها لا تصلح فزين لهم سوء أعمالهم، وقد يكون كثيراً منهم على خلاف هذا، ولكنه يكره الحق ويبغضه ويزدري أهله، وهذا إذا نظرت في كل مخالف خالف الحق وإذا هو يدعي هذا.

فالمتكلمون يقولون: نحن نقول بمقتضى الأدلة العقلية والبراهين ويخالفون كتاب الله جل وعلا وسُنَّة رسوله ﷺ، والمقلدة إذا قلت له مثلاً كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ على خلاف قولك، وخلاف ما تدعيه، قال: الإمام الذي قلدته أعلم مني ومنك، وأنا أعرف أنه لا يخالف كتاب الله ولا سُنَّة رسوله، فجعل شخصاً معيناً هو الذي يتبعه، والواجب أن يكون الاتباع لقول الله وقول رسوله ﷺ، وقد يدعي أن هذا لا يجوز ثم يرمي الذي يدعو إلى كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ ويعمل به بأنه خارج عن المسلمين، وربما رماه بالكفر، كما هو الواقع في كثير من الأحوال.

۞ قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: وقوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦].

فإصلاح الأرض بالرسل الذين أرسلهم الله جل وعلا هم الذين يصلحون الأرض بالطاعة وإفسادها بمخالفتهم، فإذاً مخالفة كتاب الله ومخالفة الرسول ﷺ هو الإفساد وهو ظاهر من الآية كالآية الأولى، يعني أن الشاهد منهما للترجمة ظاهر لأن المعاصي إفساد والمعاصي لا تكون إلا بمخالفة أمر الله وأمر رسوله ﷺ.

۞ قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: وقول: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾ [المائدة: ٥٠].

لما ذكر اليهود وأنهم ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾ وذكر أنهم إذا تحاكموا إلى النبي ﷺ فله أن يحكم بينهم أو يعرض عنهم، وإذا أعرض عنهم فلا يضرونه شيئاً ثم أمره إذا حكم بينهم أن يحكم بالقسط، ثم قال: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ﴾ ثم بيَّن أنهم ليسوا بمؤمنين من أجل هذا.

ثم بيَّن أنه أنزل التوراة فيها حكمه، وأن النبيين الذين قاموا بالقسط أنهم يحكمون بها ويتبعونها، وأن من لم يحكم بما أنزل الله فهو كافر، ثم بيَّن أن بعضهم يكون فاسقاً ويكون ظالماً.

ثم أخبر أنه أنزل الإنجيل على عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ثم أخبر أنه أنزل الكتاب على نبيه ﷺ وجعله مهيمناً على الكتب وأمره بالحكم به، ونهاه أن يصده عن ذلك صاد منهم، ثم بعد ذلك قال: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾.

قوله: «﴿يَبْغُونَ﴾»؛ يعني: يريدون، كما في الآية الأولى. والجاهلية مأخوذة من الجهل، والجهل خلاف العلم، والعلم الحقيقي لا يكون إلا بالوحي، فهو العلم الشرعي الذي جاء به الرسول ﷺ وهو كتاب الله جل وعلا.

والجاهلية صارت صفة لزمن معين وأناس يتصفون بذلك، يعني صفة في

العرف في تعاريف الناس، والزمن الذي كان قبل مبعث الرسول ﷺ، إذ الجهل أغلب، بل هو السائد في الأرض كما في النصوص التي جاءت عن النبي ﷺ فيها قوله ﷺ: «**إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب**»[١].

وفي صحيح مسلم عن عمرو بن عبسة قال: كنت وأنا في الجاهلية أظن أن الناس على ضلالة وأنهم ليسوا على شيء وهم يعبدون الأوثان، فسمعت برجل بمكة يخبر أخباراً فقعدت على راحلتي فقدمت عليه، فإذا رسول الله ﷺ مستخفياً والناس جرأء عليه ـ يعني على رسول الله ﷺ ـ يعني أنهم يؤذنه ويتسلطون عليه ـ فتلطفت ـ لأن الرسول ﷺ كان مختفياً ومعنى تلطفت بحثت عنه بالخفاء والسر؛ لأنه لو أنه بحث عنه بالعلانية والسؤال لأوذي أو قتل ـ حتى دخلت عليه، فقلت له: ما أنت؟ قال: **أنا نبي**، فقلت: وما نبي؟ ـ لأنه لا يعرف معناها ـ قال: **أرسلني الله**، فقلت: وبأي شيء أرسلك؟ قال: **أرسلني بصلة الأرحام وكسر الأوثان وأن يوحد الله لا يشرك به شيء**، قلت له: فمن معك على هذا؟ قال: **حر وعبد** «قال: ومعه يومئذ أبو بكر وبلال ممن آمن به»، فقلت: إني متبعك، قال: **إنك لا تستطيع ذلك يومك هذا ألا ترى حالي وحال الناس؟** ـ يعني من الشدة ومحاربة الناس له ومعاداته ـ **ولكن ارجع إلى أهلك فإذا سمعت بي قد ظهرت فأتني**، قال: فذهبت إلى أهلي وقدم رسول الله ﷺ المدينة وكنت في أهلي فجعلت أتخبر الأخبار وأسأل الناس حين قدم المدينة حتى قدم عليَّ نفر من أهل يثرب من أهل المدينة فقلت: ما فعل هذا الرجل الذي قدم المدينة؟ فقالوا: الناس إليه سراع وقد أراد قومه قتله فلم يستطيعوا ذلك، فقدمت المدينة فدخلت عليه فقلت: يا رسول الله أتعرفني؟ قال: **نعم أنت الذي لقيتني بمكة؟** قال: فقلت: بلى.. إلخ[٢].

المقصود هنا أن الذي على الحق رسول الله ﷺ ورجلان معه فقط أبو بكر وبلال، والباقي في جاهلية، فهذه الجاهلية العامة المطلقة التي أطلق

---

(١) رواه مسلم رقم ٢٨٦٥.
(٢) رواه مسلم رقم ٨٣٢.

عليها بالعرف جاهلية أنها عمَّت الجهل في العقائد وفي الأحكام، وفي كل شئون الناس، جهل خلاف الحق وخلاف العلم، ثم جاء النور والهدى، جاء به رسول الله ﷺ، فأصبحت الجاهلية وصفاً لمن قام به الجهل ولمن فقد نور النبوة فيكون فيه، وهذا الذي يبغيه من لم يرض بما جاء به الرسول ﷺ يبغون ظلمات الجهل التي يزينها الشيطان من الأحكام التي هي خلاف الشرع فهو يتحاكم ويحكمون بالجاهلية مع أن حكم الله هو الأحسن مع وجوبه فهو أحسن يعني أرفق بالناس وأعدل لأنه من أحكم الحاكمين، العليم بمصالح عباده جل وعلا الذي يعلم كل شيء.

قوله: «﴿أَحْسَنُ﴾»: سبق أن أفعل التفضيل قد يأتي فيما لا مقابل له وهذا منه، فلا يمكن أن يكون حكم الجاهلية مقابلاً بحكم الله جل وعلا في شيء من الحسن، بل هو سيئ كله.

قوله: «﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾»: يؤمنون ويعلمون أن الله جل وعلا هو الحكم العدل، وأن أحكام الناس كلها جَور وظلم إلا ما شاء الله.

أما ما ذكر من أسباب النزول فهي كما قال السلف: الاعتبار بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب، ولكن الأسباب تعين على فهم المعنى، فسواء كانت الآية نزلت بسبب ترافع المنافق إلى النبي ﷺ يوم كون اليهودي طلبه أن يكون الترافع إلى النبي ﷺ والمنافق أبى لأنه يعرف أن الترافع إلى الطواغيت هو الذي يمكن أن ينجح فيه لأخذهم الرشا وأكلهم الباطل، وحكمهم بخلاف الحق، واليهودي يعلم أن رسول الله ﷺ حق وأنه لا يحكم إلا بالعدل والهدى، وإن كان لا يتبعه ولكن يعلم هذا يقيناً كما أخبر الله جل وعلا أنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، أو كان السبب كون المنافق لم يرض بحكم الرسول ﷺ وكون عمر رضي الله عنه قتله، وهذا الأثر جاء من طرق متعددة، فقد جاء أن الله جل وعلا أنزل على رسوله ﷺ ما يدل على كفر هذا المنافق والمنافق الذي يظهر الوفاق ويبطن الكفر والمخالفة والعداء.

وقد جاء في صحيح مسلم عن عروة بن الزبير عن عبد الله بن الزبير عن الزبير أنه خاصم رجلاً من الأنصار في شراج الحرة ـ والشراج هو مجرى

السيل ـ وكان الزبير له نخل في الحرة يصب فيه هذا الشراج ثم بعده نخل لأنصاري، فقال له الأنصاري: سرِّح الماء إلي ولا تحبسه، فقال: حتى أسقي، فترافعا إلى رسول الله ﷺ. فقال له رسول الله ﷺ: «اسقي يا زبير، ثم أرسل الماء إلى جارك». فقال الأنصاري: أن كان ابن عمتك! فغضب رسول الله ﷺ. فقال للزبير: «احبس الماء حتى يصل إلى الجدر». ثم أرسله، وحبسه يكون أكثر من كونه يسقي أولاً.

فأولاً كان الرسول ﷺ أصلح بينهم صلحاً، وجعل النقص على الزبير حتى يتساويا ويرضى الآخر، ولكن لما لم يرض الأنصاري بحكم رسول الله ﷺ وبصلحه بقول: «**لأن كان ابن عمتك**»، وهذا لا يصدر من مؤمن؛ لأنه اتهام للرسول ﷺ بعد الحكم بالحق والعدل. فقال: «احبس الماء حتى يصل إلى الجدر». يقول الزبير: فأحسب أن هذه الآية نزلت في ذلك: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [النساء: ٦٥] وهذا في صحيح مسلم وهو من أسباب النزول، وأسباب النزول قد تتعدد كما هو معلوم.

ولكن في هذا أن من صفات المنافقين وهي كثيرة الكذب وتبديل الحقائق وكثرة ترديد الباطل والحلف عليه، وبذلك لا يجوز الاغترار بما يزينه المنافقون وإخوانهم الكفرة من الادعاءات الباطلة، وقد يغتر كثير من الناس بما يسمعه وما يقرأه عن هؤلاء الذين يُريدون الفساد في الأرض ويجعلون الفساد صلاحاً، وهذا شأن كل مبطل كما قال فرعون ـ لعنه الله ـ: ﴿ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦] فرعون يخاف من موسى أنه يظهر الفساد، وهكذا إخوانه من المنافقين والكفرة هذا شأنهم فهم يتكلمون بالباطل يجعلونه حقاً ويجعلون الحق مكروهاً مبغضاً في كلامهم وأوصافهم فيقلبون الحقائق فلا يجوز الاغترار بما يقولونه وإخوانهم المنافقون مثلهم تماماً أو أشد ضرراً.

۞ قال المؤلف رحمه الله: عن عبد الله بن عمرو: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»، قال النووي: حديث صحيح رُوِّيناه في كتاب «الحجة» بإسناد صحيح.

وكذلك شارح الكتاب صححه، ولكن الحافظ ابن رجب في شرحه لهذا الحديث قال: إن تصحيحه بعيد جداً، وذكر فيه ثلاث علل[1]. وسواءٌ كان الحديث ضعيفاً أو صحيحاً، فالحديث معناه صحيح دل عليه كتاب الله جل وعلا كقوله جل وعلا: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وكذلك هذه الآية وهي قوله جل وعلا: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥] وغيرها من الآيات كثير، كلها تدل على هذا.

قوله: «لا يؤمن»: وهل المنفي هنا الإيمان مطلقاً، أو مطلق الإيمان؟ والفرق بين الإيمان المطلق ومطلق الإيمان، أنه إذا كان مطلق الإيمان فمعنى ذلك أنه لا يكون مؤمناً أصلاً ليس عنده شيء من الإيمان، بل ولا يكون مسلماً لأنه إذا انتهى الإيمان لا يكون مسلماً لأن المسلم لا بد أن يكون عنده إيمان يصحح إسلامه.

وإن كان المنفي كما يقول بعض الشراح الإيمان الكامل، وهذا يجب أن يفصل فيه لأنه ما عهد في خطاب الله جل وعلا ولا في خطاب الرسول ﷺ أنه ينفي الإيمان أو الشيء الواجب مثل الصلاة أو الزكاة أو الصوم أو الحج أو غيرها من الواجبات لانتفاء أمر مستحب، وإن كان المقصود بالكمال، الكمال الذي هو واجب على العبد، وبتركه يكون معذباً إن لم يعف الله جل وعلا هذا حق.

إذا الأمر يتردد بين أن يكون المنفي هو الإيمان مطلقاً، أو الإيمان الكامل الذي يجب على الإنسان، وإذا ترك شيء منه يكون معرضاً للعقاب، فلا بد أن يكون المنفي هنا الأمر المتحتم الواجب الذي إذا انتفى عن الإنسان يكون معاقباً ومعرضاً لعذاب الله جل وعلا، وهذا يقال

---

(١) جامع العلوم والحكم ٢/ ٤١.

في جميع ما جاء فيه النفي لشيء واجب على الإنسان من كلام الله وكلام رسوله ﷺ.

قوله: «حتى يكون هواه»: الهوى يطلق ويراد به ما يميل إليه الإنسان ويهواه، والمقصود به المحبة محبته وإرادته، أن يكون يحب طاعة الله، ويحب أمره ولا يبغض ذلك ويكرهه، فإن الله يخبر جل وعلا أن الذي يكره ما أنزله الله أنه معذب بل هو من الكافرين الذين يتسخطون ويكرهون ويبغضون شرع الله جل وعلا.

فمعنى هذا أن الإنسان لا يحصل له الإيمان حتى يكون محباً لطاعة الله مريداً لها، وهذا يكون عاماً في أمر الله جل وعلا، وفي الأشخاص، والمتبوعين وغيرهم يكون الحب تبعاً لأمر الله جل وعلا وشرعه، فلا يحب الإنسان إلا لأن الله يحبه أو لأنه يقوم بطاعة الله جل وعلا فيكون الحب لله وكذلك الكراهية، يكره الشخص أو الأمر لأنه خلاف أمر الله أو أن هذا يعصي الله جل وعلا، فيكون الدين كله لله الطاعة والحب والكراهة، وكذلك الموالاة والمعاداة تكون تبعاً لذلك.

فلا بد أن يكون راضياً بحكم الله ويكون خالياً من الاعتراض والمنازعات لما حكم الله جل وعلا به، فيكون راضياً ومغتبطاً به، ويكون من يخالف ذلك مبغضاً لديه ومكروهاً له. هذا هو الهوى الذي ينبغي أن يهواه، وليس الهوى الشهوات ميل الإنسان في طبعه إلى ما يشتهيه في أمور قد تكون مخالفة للحق، وكذلك ليس الهوى كما يقول أهل التأويل أنه النظر العقلي ينظر بعقله، ويقدم الحق على الباطل لأنه يعلم بعقله أنه يترتب على عدم تقديم الحق على الباطل عذاب إما في الدنيا أو في الآخرة، وهذا باطل لا يجوز أن معنى الحديث هذا.

۞ قال المؤلف رحمه الله: وقال الشعبي: كان بين رجل من المنافقين ورجل من اليهود خصومة، فقال اليهودي: نتحاكم إلى محمد، عرف أنه لا يأخذ الرشوة. وقال المنافق: نتحاكم إلى اليهود لعلمه أنهم يأخذون الرشوة.

فاتفقا أن يأتيا كاهناً في جهينة فيتحاكما إليه. فنزلت: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ الآية [النساء: ٦٠][(١)].

وقيل: نزلت في رجلين اختصما، فقال أحدهما: نترافع إلى النبي ﷺ، وقال الآخر: إلى كعب بن الأشرف، ثم ترافعا إلى عمر بن الخطاب، فذكر له أحدهما القصة، فقال للذي لم يرض برسول الله ﷺ: أكذلك؟ قال: نعم، فضربه بالسيف فقتله[(٢)].

وكذلك ما ذكره المؤلف بصيغة التمريض بقوله: «وقيل»، هذا من أسباب النزول وأسباب النزول تعين على فهم المعنى، ولكن لا يقصر معنى الآية عليه هو مما يعين على الفهم، وإلا فهي عامة في كل من خالف التنزيل الذي جاء به الرسول ﷺ في التحاكم إليه.

والتحاكم في الأمور التي بين الناس خصومات واختلافات في أموال وغيرها هذا يجب أن يكون الذي يفض الخلاف هو الشرع، بواسطة الحاكم الشرعي الذي يعينه الإمام يجعله نائباً عنه؛ لأن الأصل فيه أن الإمام هو الذي يفض هذه الأمور، وأبو بكر رضي الله عنه عين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قاضياً، ولكنه مرَّت عليه سنة لم يجلس عنده أحد، ثم عمر عين قاضياً فكانوا لا يحتاجون إليه لأنهم إذا صار فيه خلاف بينهم حلوه بأنفسهم إما أن يتنازل الإنسان عن ما يرى أنه له حق، أو يتنازل عن بعضه لأن أخوة الإيمان كانت متأصلة عندهم، وكذلك إذا حصل الخلاف في مسائل العلم الذي يقضي على الخلاف بين المتخالفين هو الشرع، ولهذا جعل الله تحكيم الشرع شرطاً في الإيمان كما قال الله جل وعلا: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥]، وكذلك قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ٨/٥٠٨. وقال ابن حجر في فتح الباري ٥/٣٧: فروى إسحاق بن راهويه في تفسيره بإسناد صحيح عن الشعبي.

(٢) الثعلبي في تفسيره ٣/٤٥٦. قال ابن حجر في فتح الباري ٥/٣٧: وقد روى الكلبي في تفسيره عن أبي صالح عن ابن عباس. ثم قال: وهذا الإسناد وإن كان ضعيفاً لكن تقوى بطريق مجاهد ولا يضره الاختلاف لإمكان التعدد.

مِنكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ [النساء: ٥٩].

فقوله: «﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾»: هذا شرط بأنه إذا حصل النزاع والاختلاف أنه لا بد من رده إلى الكتاب والسُّنَّة، فرده إلى الله يعني إلى كتاب الله، وإلى رسوله يعني سُنَّته.

ثم لا يكفي رده في حصول الإيمان، لا بد أن يرضى الإنسان بهذا ثم يسلِّم، والتسليم معناه عدم المنازعة، والمنازعة قد تكون باللسان وقد تكون بالقلب ينازع القلب بكونه لا يرضى بهذا، فهذا كله إذا حصل للإنسان فمعنى ذلك أن إيمانه غير الإيمان الواجب الذي ينجو به.

ومعلوم أن تحاكم الناس في هذا الوقت صار إلى الأوضاع التي يضعونها بينهم، مثل القوانين الوضعية التي يخترعها الإنسان، ومن نصب نفسه حاكماً في هذا أو جعل نفسه يضع قانوناً للناس يتحاكمون إليه فقد نازع رب العالمين جل وعلا في ربوبيته وفي ملكه وفي قهره لعباده فيكون من رؤساء الطواغيت الكبار الذين ينازعون الله جل وعلا، وكذلك الذي يحكم بهذا القانون يصبح حاكماً يحكم بين الناس فيه، فإنه يكون في الواقع منازعاً لرب العالمين بحكمه.

والمقصود أن التحاكم لكتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ شرط لحصول الإيمان، ثم التحاكم في كل شيء يصير فيه نزاع سواءً من مسائل العلم مثل مسائل الصفات ومسائل الفقه وغيرها أو في الأمور المالية أو في الأمور التي تكون من أمور الدنيا، فلا بد أن يكون الذي يفض النزاع ويقضي فيه هو الوحي الذي أوحاه الله جل وعلا إلى رسوله ﷺ، ومعلوم أن حوادث الناس لا تنتهي، يعني الأمور التي تجد عندهم المخاصمات وغيرها كثيرة جداً ولا يمكن أن يقال أن كل حادثة تحدث للناس منصوص عليها في كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، ولكن إذا أرجعت إليه تبين الحكم منها لأن كلام الله جل وعلا جوامع، وكذلك كلام رسول ﷺ، ولهذا قال: «**أوتيت جوامع الكلم**»[1]،

---

(١) سبق تخريجه.

يعني: أنه يتكلم الكلمة المختصرة قليلة الحروف ولكن تحتها من الأحكام ما لا حصر له، ولهذا قال: «**البينة على المدعي، واليمين على من أنكر**»[١]، هذه قاعدة من قواعد القضاء تحتها أحكام كثيرة جداً، كذلك قوله: «**لا ضرر ولا ضرار**»[٢]، وما أشبه ذلك من كلامه ﷺ الذي يُحتاج إليه في فض النزاع بين الناس.

۞ قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ فيه مسائل:

۞ الأولى: تفسير آية النساء وما فيها من الإعانة على فهم الطاغوت.

فهم الطاغوت؛ لأنه أمر مهم، لأن معرفته والكفر به ركن من أركان الإيمان بالله، إذا لم يعرفه الإنسان لا يعرف التوحيد، فهو أمر مهم جداً فلا بد من معرفته. وقد عرفنا أن الطاغوت كل ما صد عن دين الله وشرعه سواءً بالفعل والقول أو كان لا فعل له ولا قول وإنما نصب من الناس، نصبوه ووضعوه، ومن ذلك التحاكم إلى غير شرع الله جل وعلا، فإنه إذا جعل شرعاً أو قانوناً قائماً يتحاكم إليه فإن هذا القانون يكون طاغوت. والتحاكم إليه كفر بالله جلا وعلا.

ولا يجوز أن تكون الدنيا تحمل الإنسان على ذلك، ومن الأمور التي لا ينبغي أن يحصل من المسلم ما يحدث كثيراً من الناس يقال له نذهب إلى الشرع فيقول: لا ما أذهب، هذا لا يجوز لأنه يطلب منك أن يحاكمك عند شرع الله، هذا يجب أن تقول: سمعاً وطاعة إذا كان الحكم لشرع الله ولا يأبى الإنسان، فإن أبى فهذا دليل إما على جهله أو على عدم إيمانه، ولا بد أن يكون الجهل قادحاً في الإيمان ضار به، أما أن يكون الإنسان همه الدنيا والحصول عليها بأي طريق وإذا كان هناك أمور يمكن أن تقدح في دنياه

---

(١) أخرجه البيهقي رقم ١٦٨٨٢، والدارقطني رقم ٩٩ من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

(٢) أخرجه أحمد في المسند رقم ٢٨٦٥ من حديث عبادة بن الصامت، وابن ماجه رقم ٢٣٤١ من حديث ابن عباس.

وتنقصها وإن كانت أمور شرعية فإنه لا يرضاها، وهذا معناه إما أنه ناقص الإيمان، الإيمان الواجب، أو أنه غير مؤمن أصلاً.

❁ الثانية: تفسير آية البقرة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾.

يعني: أن المعصية إفساد في الأرض وهذه في المنافقين، ومعنى أنهم يصلحون أنهم يجمعون بين الحق والباطل، وهذا معناه عندهم يعني يجمع بين كونه يتولى الكافرين ويكون مع المؤمنين، فيعايش هؤلاء وهؤلاء هذا عندهم إصلاح وهو غاية الفساد لأنه إفساد لدين الله جل وعلا، ولهذا لما ذكر الله في آخر سورة الأنفال كون المؤمن يوالي المؤمن يكون ولياً له، ذكر أن الكافرين بعضهم أولياء بعض ثم قال: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣] يعني: إن لم تفعلوا هذا يعني تمتثلوه، وأنتم إن لم تعادوا الكفار تحصل فتنة وفساد كبير عظيم، فساد الدين وفساد الأرض كلها.
وهؤلاء تصوروا الفساد إصلاحاً لأنهم في الواقع منكوسي التفكير ومنكوسي العقول عقولهم منكوسة، ولهذا تجدهم يسخرون من المؤمنين ويرون أنهم سخفاء العقول وسخفاء الأفكار وأنهم ليس عندهم وزن للواقع ولا عندهم تفكير ولا تقدير للدنيا وهم دائماً يزدرونهم ويحتقرونهم لأن عقولهم منكوسة في الواقع فصار الباطل حقاً والحق باطلاً عندهم وهذه هي عقيدة النفاق.

❁ الثالثة: تفسير قوله: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾.

الجاهلية هي كل ما هو خلاف الشرع فهو جاهلية سواءً كانت قديمة أو حديثة، وقد تكون الجاهلية الحديثة أخبث من الجاهلية القديمة كما هو الواقع الآن لمن شاهد ونظر.

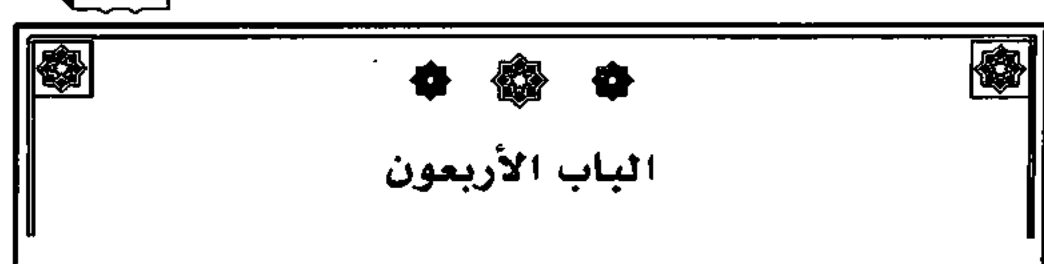
❁ الرابعة: تفسير الإيمان الصادق والكاذب.

يعني: أخذاً من الحديث أن الإيمان الصادق إذا كان يرضى بحكم الله ويغتبط به، وإذا كان عنده تضجر من ذلك وضيق في نفسه فإيمانه كاذب فمعنى ذلك أنه يطلق على الفعل صدق ويطلق عليه الكذب.

❁ **الخامسة: كون الإيمان لا يحصل لأحد حتى يكون هواه تبعاً لما جاء به الرسول ﷺ.**

وهذا نفي للإيمان المعهود الذي جاء به الرسول ﷺ، والإيمان الذي جاء به الرسول ﷺ جاء متواتراً، ولا يحتاج أننا نستشهد عليه ببيت شعر أو كلمة من اللغة أو قول رجل من الناس أو ما أشبه ذلك، لأنه نقل إلينا نقلاً متواتراً بالفعل، بل أعظم تواتر.





الباب الأربعون

۞ **قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: باب من جحد شيئاً من الأسماء والصفات.**

لما كان هذا الكتاب في توحيد العبادة، أراد المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ أن لا يُخليه من ذكر حكم الأسماء والصفات، فذكر هذا الباب ليبين أن الإيمان بالله يدخل فيه الإيمان بأسمائه وصفاته وأنه لا بد منه، ومن لم يفعل ذلك فليس بمؤمن.

وقد سبق أن التوحيد أقسام ثلاثة: توحيد الربوبية والألوهية، والأسماء، والصفات.

وهذا التقسيم أُخذ بالاستقراء من كتاب الله، وكذلك من سُنَّة رسوله ﷺ، وهو أمر واضح من الأدلة؛ لأن الله جل وعلا يقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ [الفاتحة]، ويقول ﷻ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾ [الناس: ١ ـ ٣] في آيات كثيرة، ومعلوم أن كتاب الله جل وعلا لا يمكن أن نقول أنه مكرر، معناه واحد.

وفي اللغة العربية التفرقة معروفة بين معنى الله ومعنى الرب، وكذلك معنى كونه يملك ويتصرف ويأمر وينهى غير معنى كونك أنت تمتثل للأمر والنهي، وتخضع لذلك وتذل له، فالمعاني واضحة في ذلك، ولكن كثيراً من الناس الذين لا يفهمون هذه المعاني، بل لا يعتنون بها ولا يلقون لها بالاً، وإلا لو اعتنوا بها لفهموها، ينكرون هذا التقسيم ويقولون هذا مبتدع؛ لأنه ليس في كتاب الله ولا في حديث الرسول ﷺ ولم يأت عن الصحابة، يعني أن الله ما نص عليه، ما قال أن التوحيد ثلاثة أقسام هذا مقصودهم، وكذلك الرسول ﷺ والصحابة.

فيقال لهؤلاء: إن هذا القول منكر؛ لأن الله جل وعلا أمرنا أن نتدبر

كلامه وأن نعمل به وأن نفهمه، وهذا فهمه، ومن الأمور الواضحة الجلية أن الكفار الذين قص الله علينا قصصهم مع رسلهم، من نوح إلى آخرهم ما ذكر الله جل وعلا أن أحداً منهم ينكر وجود الله، كلهم يؤمنون أن الله هو الخالق المدبر، الذي يخلقهم إنما كانوا يعبدون معه غيره، هذا هو الخلاف بينهم وبين الرسل، الرسل تقول لهم أخلصوا العبادة لله وحده وهم يقولون وجدنا آبائنا هكذا يفعلون ولا نترك ما وجدنا عليه آبائنا.

ولهذا أخبر الله جل وعلا في آيات عدة عن قولهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، ويقول: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ۝﴾ [الزخرف: ٩]، ويقول: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ [الزمر: ٣٨].

الرسول ﷺ سألهم هذه الأسئلة، فلم يجيبوا بشيء لأنهم يعرفون أنهم على خطأ؛ لأن الله يقول: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم﴾؛ يعني: أخبروني معبوداتكم هذه إذا أرادني الله جل وعلا بضر فهل يمكن أن تكشف الضر أو تزيله، لا يمكن.

﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ﴾ هل يمكن أن تمنعه وتحول بينها وبيني، فلما علموا أن هذا باطل سكتوا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ۝﴾ [يوسف: ١٠٦] إيمانهم كما قال مجاهد[1]: إذا سألتهم من خلقهم؟ قالوا: الله. هذا إيمانهم وإذا سألتهم من أنزل من السماء ماء؟ قالوا: الله، ولئن سألتهم من يحيي ويميت؟ قالوا: الله، ولئن سألتهم من بيده ملكوت السماوات والأرض؟ يقولون: الله، كما جاءت الأسئلة في القرآن، يسألهم الله جل وعلا عن ذلك، مع ذلك إذا جاءت العبادة التي هي توحيد الأفعال، توحيد أفعال العباد التي مبناها على الأمر والنهي، يشركون فيها، وشركهم أن يجعلوا

(١) تفسير الطبري ١٦/٢٨٧ قال ﷺ: إيمانهم قولهم: الله خالقُنا، ويرزقنا ويميتنا.

مخلوقين بينهم وبين ربهم يطلبون منهم أن يشفعوا لهم عند الله، كما قال الله عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

هذه الأمور يجب أن يفهمها المسلمون، واليوم هم بأمس الحاجة إلى فهمها؛ لأنك تجد في بلاد كثيرة من بلاد المسلمين، الذين يقصدون القبور ويتعلقون بها ويقدمون لها القرابين والنذور ويدعونها في الكربات والرخاء، وفي غير ذلك، يدعون أصحابها ويزعمون أن هذا توسل، وأن التوسل جائز مع أن هذا في الواقع هو عين الشرك الأكبر، وهم يقولون لا إله إلا الله ويصلون، وإذا قلت لهم هذا قالوا: لا نحن مسلمون أنت تذكر لنا الآيات التي نزلت في الكفار، فلا تنزلنا منزلة المشركين، والسبب في هذا الجهل جهلهم بالمعاني التي كلفوا بفهمها وبمعرفتها، وهي معنى لا إله إلا الله معنى الإله ومعنى العبادة، ومعنى ما جاء به الرسول ﷺ من وجوب الإخلاص لله جل وعلا، فهذا الكتاب لهذه المعاني، ولهذا لما ذكر المؤلف رحمه الله الباب الخامس قال: باب تفسير شهادة أن لا إله إلا الله، وذكر التفسير من كتاب الله جل وعلا ومن أحاديث الرسول ﷺ، ثم قال بعد ذلك وشرح هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب يعني إلى آخر الكتاب كله شرح لهذا، فهو كله مبني على شهادة أن لا إله إلا الله.

وأما الباب الذي قبل هذا فهو أراد أن يبين معنى شهادة أن محمداً رسول الله لأنها مع شهادة لا إله إلا الله شيء واحد، ولهذا جعلها الرسول ﷺ ركناً واحداً من أركان الإسلام، وذكر هذا الباب ليضيف القسم الثالث من أقسام التوحيد وكلها مترابطة لا يمكن أن ينفك واحد عن الثاني، بحيث أن الإنسان إذا جاء باثنين ولم يأت بالثالث فهو هالك ولا يكون مسلماً أصلاً فلا بد أن يأتي بها كلها.

وقد حصل الخلل الكبير في الإيمان بالأسماء والصفات، حتى من بعض العلماء وصارت الخصومات والنزاع العظيم الذي ربما يكون سببه اليهود والمجوس الذين حسدوا المسلمين على دينهم وعقيدتهم، فأوجدوا فيهم المؤسسات السرية التي تبث الفساد في عقيدتهم وتنخر فيها فبدؤوا في صميم العقيدة التي هي العقيدة في الله في أسمائه وصفاته.

وأسانيدهم معروفة، مرجعها إلى اليهود، وهم أهل كل فساد، وكل ما يحدث في الأمة من الخلل في دينها وأخلاقها هم أصله.

۞ قول المؤلف في الترجمة: «من جحد شيئاً من الأسماء والصفات».

لم يذكر الحكم لم يقل فهو كافر أو أنه هالك، وهذا لأجل أن يكون طالب العلم يستنتج بنفسه ويتدرب على الاستنتاج والاستخراج بنفسه من الآيات ومن الأحاديث التي يذكرها.

قوله: «جحد»: الجحود هو إنكاره أن يكون موجوداً.

وقوله: «شيئاً»: يدلنا على أنه لو جحد اسماً واحداً كفى في كونه كافراً أو صفة واحدة، ولا يلزم من أن يكون الجحود أنه لا يعتقد وجوده يكفي أن ينكر ذلك بلسانه.

۞ ولهذا قال المؤلف ﷺ: وقول الله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد: ٣٠].

ذكر السبب في آخر الباب، سبب النزول، والأسماء والصفات كلها يجب أن يكونا مأخوذان بدليل من كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ لأن التسمية من الله، وكذلك الوصف من الله ليس من المخلوقين، الخلق لا يسمون الله، ولا يصفون الله، وإنما يذكرونه ويدعونه بأسمائه ويعبدونه بها، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

قوله: «﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾»؛ يعني: اعبدوه بها، فالدعاء من أفضل العبادة.

والأصل في هذا الصفات، والأسماء مشتقة منها يجب أن يُعلم هذا، وليس كما يقوله أنصاف المتعلمين يقعون في خطأ عظيم في مثل هذا ويعكسون القضية يقولون: الأصل الأسماء والصفات مأخوذة منها، هذا يقوله من لا يفهم لأن الأسماء، أسماء الله ﷻ ليست مجرد أعلام كأسماء المخلوقين، فمثلاً عندنا: عبد الله، وعبد الرحمٰن، وعبد الكريم، وعبد الجبار، وما أشبه ذلك، هذا أعلام تميز أحدهم عن الآخر، وإنما وضعت عليهم هذه الأسماء ليتميزوا فقط، فمُيز هذا عن هذا.

أما مسألة العبودية فكلهم عبيد، ما فيه فرق بين هذا وهذا كلهم عبيد لله جل وعلا.

خلافاً لأسماء الله جل وعلا لا يمكن أن تكون مجرد أعلام كما تقوله الضلال من الجهمية والمعتزلة، الذين يجعلونها مجرد أسماء ويبادرون إلى نفي المعاني، فيقولون مثلاً: عزيز بلا عزة، عليم بلا علم، رحمٰن بلا رحمة، وهكذا، وهذا من الكفر بل هو نفس كفر هؤلاء الكفار لأنهم نفوا المعنى الذي أخذ منه الاسم.

فالمقصود: أنه إذا قلنا: الله فهو من التأله، أصله إله حصل فيه الإبدال كما هو معروف.

وكذلك الرحمٰن أُخذ من الرحمة، وكذلك العزيز أُخذ من العزة، وهكذا العليم من العلم، فلهذا لا يمكن اسم بلا صفة أبداً لأن الصفة هي أصله والاسم مشتق منها.

وهذا هو معنى الاشتقاق الذي يقوله العلماء، وليس معنى الاشتقاق أنها أُخذت من أصل مثل الكلمات اللغوية، أن أصلها كذا ثم صار هذا فرع عليها.

ومعنى الصفة: الوصف هو النعت كونك تنعته بكذا وكذا، ولا يمكن أن أحداً من الناس يسمى الله جل وعلا أو يصفه من اختراعه ومن فكره وعقله، ولهذا من القواعد في هذا: قول أهل السُّنَّة والجماعة أن أسماء الله وصفاته توقيفية يعني يوقف مع النص.

وهذا التوحيد يدخل فيه الشرك (يعني توحيد الأسماء والصفات) وفيه شرك كبير وكثير في الواقع.

ففيه التنديد، فالناس ما بين مشبه وما بين معطل، كلاهما مشرك في أسماء الله وصفاته.

أما الوسط الذي تبع كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ فلا بد أن يضيف إلى هذا التوحيد توحيد العبادة فيكون موحداً لله جل وعلا.

وتقديمه الأسماء على الصفات قد يشعر أن الأسماء هي الأصل وليس كذلك؛ لأن الأصل هي الصفات.

والصفة: هي المعنى القائم بذات الرب جل وعلا، والاسم هو الذي تتميز به الذات وتعرف به، وهذا هو الفرق بين الأسماء والصفات، فالأسماء هي التي تدل على المسمى والصفة هي المعنى القائم بالموصوف وهذا من أظهر الفروق.

ثم الأصل الصفات والأسماء مأخوذة منها، وهذا هو معنى قول أهل السُّنَّة وأسماء الله مشتقة، يعني أنها مأخوذة من الصفات، وأسماء الله جل وعلا غير محدودة في تسع وتسعين اسماً كما جاء في الحديث في الصحيحين: **«إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة»**[1].

فالمراد بذكر التسع والتسعين هذا الحكم؛ يعني: أن من أحصى هذه الأسماء التسع والتسعين دخل الجنة، وليس المراد حصر أسماء الله، فإن أسماء الله لا حصر لها، ولكن الشيء الذي يخبرنا به نتوقف عليه، والدليل على هذا الحديث الذي في المسند وغيره أن النبي ﷺ قال: **«ما أصاب عبداً قط هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك ناصيتي بيدك ماض فيَّ حكمك عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو علمته أحداً من خلقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي، إلا أذهب الله همه وحزنه وأبدله مكانه فرحاً قال: فقيل: يا رسول الله ألا نتعلمها فقال: بلى ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها»**[2].

فجعل الأسماء أقساماً ثلاثة: قسم أنزله في كتابه، والمقصود بالكتاب هو جنس الكتاب يعني كتبه التي أنزلها من السماء.

وقسم علمه من يشاء من عباده، ولم ينزله في الكتاب، والمقصود بالعباد

---

(١) رواه البخاري رقم ٢٧٣٦، ومسلم رقم ٢٦٧٧ من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه أحمد في المسند رقم ٣٧١٢.

أوليائه وأقر بأنه من المرسلين، والأنبياء، ومن كان له ولاية، كما وقع للذي عنده علم من الكتاب الذي عند سليمان ﷺ فإنه دعا الله باسمه الأعظم، فجاء الله بالعرش في لحظة، عرش بلقيس.

وقسم استأثر به في علم الغيب عنده، لم ينزله في كتاب ولم يعلمه أحداً من خلقه.

فدل هذا على أن أسماء الله لا تنحصر، وكذلك في حديث الشفاعة: **«فأثني على ربي بثناء وتحميد يعلمنيه»**[1]، والمحامد والثناء تكون بأسمائه وصفاته تعالى وتقدس، فهذا دليل على أنه لم ينزله في الكتاب ولم يعلمه النبي ﷺ وإنما يعلمه إياه في ذلك الموقف.

وقوله: «﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾»: هذه الآية في سورة الرعد، وسورة الرعد مكية، وذكر في التفسير أنها نزلت في صلح الحديبية، لما حصل الصلح بين الرسول ﷺ وبين كفار قريش بأنه يرجع تلك السنة ومن القابل يأتي ويعتمر ويبقى ثلاثة أيام في مكة ولا يدخل مكة إلا بسلاح الراكب... إلخ الشروط التي شرطوها، فقيل ذلك لرسول الله ﷺ وأمر علي بن أبي طالب أن يكتب فقال له: اكتب **«بسم الله الرحمٰن الرحيم»**، وكان الذي يفاوض معه من قبل المشركين سُهيل بن عمرو، فقال: لا تكتب «بسم الله الرحمٰن الرحيم» ما نعرف الرحمٰن، إلا رحمٰن اليمامة، ورحمان اليمامة هو مسليمة الكذاب سمى نفسه رحمٰن وهو شيطان في الواقع، ولكن هكذا يكون في الإنس شياطين أخبث من شياطين الجن. قال: اكتب كما كنا نكتب «بسمك اللهم»، فقال عليه الصلاة والسلام لعلي: اكتب كما يقول: بسمك اللهم»، ثم قال: **هذا ما صالح عليه محمد رسول الله كفار قريش**. قال: لا تكتب إذا كنت رسول فكذبناك لكنا ظالمين، وهم يعرفون أنه رسول الله حقاً ولكن عناد وكبر.

فالمقصود قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ ليس معناه أنهم يكفرون بالله، ولكن معناه أنهم ينكرون هذا الاسم الذي هو الرحمٰن وإلا هم يؤمنون

---

(١) رواه البخاري رقم ٧٤٤٠، ومسلم رقم ١٩٣ من حديث أنس ﷺ.

بالله جل وعلا، وبهذا يكون دليلاً على أن من أنكر اسماً من أسماء الله أو صفة من صفاته سبحانه يكون كافراً كما هو نص الآية.

أما الذهاب إلى التأويلات فهو خلاف الظاهر، وإذا كان الإنسان يسلك خلاف الظاهر فهو على خطر كبير، إما مخالفة الأمر أو وقوعاً في الكذب على الله في القول على الله أو على رسوله ﷺ بلا علم.

بخلاف الذي يتمسك بظاهر النص فإنه يكون معه الحجة ومعه الدليل ويكون مطمئناً بذلك.

والمقصود في هذا أن كثيراً من الناس يقول أن هذا كفر دون كفر، أو يقول أن هذا كفره بالقول وليس بالعمل، ويأتون بأقوال باطلة ما دل عليها النص، وإنما هي من اختراعهم حتى تتفق مع المذهب الذي يقررونه ويريدون أن يكون هو الذي يتفق مع النصوص، فيسخرون النصوص حتى تتفق مع المذهب، والواجب العكس.

في آخر الباب يقول: ولما سمعت قريش رسول الله ﷺ يذكر الرحمٰن أنكروا، ذلك فأنزل الله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ الأسباب التي ذكرت في التفسير تدل على أن هذا غير ما كان في صلح الحديبية وأن الرسول ﷺ كان يصلي في الحجر ويقول: «يا الله يا رحمٰن» فسمعه أبو جهل وقال: محمد يدعو إلى عبادة إله واحد، وهو يدعو إلهين يقول: يا الله، يا رحمٰن، فنزلت هذه الآية: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾، وكذلك قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ﴾ [الإسراء: ١١٠] فيسمع الكفار ما يقول ثم يستهزئون به ويسخرون منه فالمعنى واحد، والآية معروف أنها مكية فيكون الأخير أقرب للصواب.

وذكر الرحمٰن موجود في أشعارهم وفي أشعار العرب، فإذا معناه ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ طائفة منهم أو بعضهم، وقد عُلم من كتاب الله جل وعلا أنه يطلق الشيء إذا قاله واحد من الجماعة، يطلقه عليهم لأنهم يكونون راضون بذلك، والراضي كالفاعل، كما قال سبحانه: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤] الذي قال هذا رجل ولكنهم راضون بهذا، وقال سبحانه: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١] أيضاً هذا

الذي قاله رجل واحد منهم ولكنهم راضون بهذا فنسب القول إليهم فهذا مثله لأنهم رضوا بهذا، سمعوه وسكتوا عليه، فيكون طائفة منهم.

وتسمية الخبيث مسيلمة نفسه الرحمٰن هذا تعدياً منه وخروجاً عن وضع الإنسان تعدياً على الله جل وعلا، وإلا فلا يوجد أحد من الخلق تسمى بهذا الاسم سوى هذا الخبيث الذي علم أنه تسمى بذلك.

بخلاف الوصف فإن الوصف يوصف به الإنسان ولكن يكون وصفه يليق به كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨]، فسماه رؤوفاً ورحيماً، والله جل وعلا يسمى رؤوف رحيم فهذا وصف، فهو يطلق على هذا وهذا ويكون إذا أطلق على المخلوق فهو يليق به ويناسبه والله لا يشاركه في هذا الوصف، وإذا اطلق على الرب جل وعلا فهو على ما يليق به ويناسبه، والمخلوق لا يشاركه في ذلك، وهذا يجب أن يفهم، ولا يكون فيه إشكال وإن كان هذا الإشكال حدث للجهمية والمعتزلة فبنوا عليه نفي الصفات حتى لا يكونوا مشبهين، بل عندهم أن إثبات الصفات من الشرك لأنهم يقولون أنك أثبت مع الله غيره.

والعاقل لا يقول أن الصفات غير الله، يعني صفات الله غير الله، ولكنه الضلال إذا وقع فيه الإنسان فإنه لا حيلة فيه.

فعلى هذا نقول: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾؛ يعني: وهم يجحدون هذا الاسم، وليس المعنى أنهم يكفرون بالله جل وعلا، فإن الآيات الكثيرة تدل على أنهم يؤمنون بالله جل وعلا فهم جحدوا هذا الاسم فصار دليلاً واضحاً في أن من جحد اسماً من أسماء الله أو صفة من صفاته أنه داخل في هذه الآية.

فالمقصود بهذا: أنهم يكفرون بهذا الاسم يعني يجحدونه وهو الرحمٰن، وليس المعنى أنهم يكفرون بالله، فإنهم يؤمنون بالله، فإذا سئلوا من خلقهم قالوا: الله. وأسئلتهم كثيرة جاءت في القرآن كقوله: ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [المؤمنون: ٨٨]، وسألهم من نزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات ما يأكلون وترعاه أنعامهم، فأقروا بأنه الله، بل كانوا إذا وقع أحدهم

في ضائقة يتجه إلى الله يدعوه ويترك الأوثان والأصنام التي كان يعبدها، وقد جعل الله ذلك حجة عليهم، وقال: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل: ٦٢] كل هذا يؤمنون به، يقرون بأنه الله جل وعلا، فتعين بهذا أن المراد بقوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾؛ يعني: بهذا الاسم، والكفر المقصود به الجحود، إما إنه على سبيل الاستكبار والغطرسة أو على سبيل الجهل، جهلوا ذلك فأنكروه والإنسان إذا جهل شيئاً عاداه كما هو معلوم.

❁ **قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وفي «صحيح البخاري»: قال علي: حدِّثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله[1].**

والظاهر أنه جعله موقوفاً، قال في صحيح البخاري «قال علي»، وهذه طريقة البخاري في الموقوفات المعلقة التي يعلقها بدون إسناد، وقد رواه بإسناد متصل، ولكنه في موضع علقه، وفي موضع أسنده، وهذا معروف عند البخاري.

قوله: «قال علي: حدثوا الناس بما يعرفون».

لأن الإنسان إذا حدث بما لا يحتمله عقله فإنه ينكره، وربما يكون حقاً فيقع في الكفر.

فالمقصود: «**حدثوا الناس بما يعرفونه**» يعني: حدثوهم بما تتحمله عقولهم، ولا تحدثوهم بشيء لا تتحمله عقولهم فيكذبون به وهو حق فيدخلون في التكذيب ولهذا قال: «**أتريدون أن يكذب الله ورسوله**».

ولكن قد يقول قائل: ما شاهده لهذا الباب، وكيف أورده المؤلف في هذا الباب؛ لأن الباب باب من جحد شيئاً من الأسماء والصفات هل معنى هذا أن بعض الأسماء والصفات أنها تنكر وأنه لا ينبغي أن يحدث بها الناس حتى لا يقعوا في الكفر، أو أن له مراد آخر؟

---

(١) رواه البخاري، باب من خص بالعلم رقم ١٢٧.

نقول: إن هذا هو الظاهر من مقصوده، وقد يعضد هذا بما ذكره الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ في شرح هذا الكلام لقول علي رضي الله عنه أن العلماء يرون أنه لا يحدث بكل شيء، ثم قال: وأول من رأى هذا حذيفة رضي الله عنه فقد امتنع عن التحديث بذكر أسماء المنافقين، ثم أبو هريرة رضي الله عنه كما في الصحيح يقول: حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين، فأما أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم(١).

ثم قال: وكذلك عن أبي يوسف في حديث الغرائب، فإنه منع من أن يحدث بها، الغرائب الشيء الذي يُستغرب بأن يكون عند الناس غير معروف.

ثم قال: وكذلك عند الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ فإنه منع من التحديث بالأحاديث التي ظاهرها الخروج على الإمام، حتى لا يتخذها الخارجون لهم ذريعة فمنع من ذلك.

ثم قال: وكذلك عند الإمام مالك، فإنه منع من التحديث بالأسماء والصفات عند العامة، وهذا فيه نظر أعني الذي ذكره عن الإمام مالك لا يجوز إطلاقه لأن الصفات في القرآن ليس في الأحاديث أكثر مما في الآيات من أسماء الله وصفاته، ولا أحد يقول: لا يجوز قراءة القرآن عند العامة، والظاهر أن هذا القول ملصق بالإمام مالك ألصقه الجهمية من أتباعه الذين تجهموا، وصاروا أتباعاً للجهم بن صفوان، وصاروا ينكرون الأسماء والصفات حتى لا يفتضحوا يقولون: إن الإمام ينكر ذلك؛ لأنها إذا ذكرت عند الناس وهم يجحدونها ويردونها، افتضحوا وتبين أنهم على ضلال.

أما ما ذكره عن الإمام أحمد وكذلك أبي يوسف، فهذا صحيح ولهذا أنكر الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ على أنس بن مالك تحديثه الحجاج بحديث العرنيين الذين قتلهم رسول الله ﷺ وسمل أعينهم وتركهم في الحرة حتى ماتوا لا يسقون لأن الحجاج يتخذ هذا له حجة في تأويلاته الواهية في إزهاق النفوس وإسرافه في القتل، فإذا كان مثل هذا فلا يجوز أن يحدث به لأنه يتخذ ذلك

---

(١) رواه البخاري، باب حفظ العلم رقم ١٢٠.

ذريعة إلى الباطل، ولكن بعض الناس يرى أن صفات الله جل وعلا من المتشابه وأنه لا ينبغي أن يحدث بها كل أحد، وهذا باطل، فصفات الله جل وعلا ليست من المتشابه، بل هي من الواضح الجلي المحكم، ولكن حينما يقول السلف: إنه يؤمن بها على ظاهرها، ويوكل معناها إلى الله تعالى وبعضهم يقول: أمرُّوها كما جاءت بلا تأويل، وبعضهم يقول بلا تفسير، وكل هذا صحيح عن السلف، فمقصدهم التأويل الباطل الذي هو تأويل المعتزلة والأشاعرة الذين أوَّلوها وأخرجوها عن ما دلت عليه حتى صار إلحاداً، وإلا فمعناها ظاهر.

وقول مالك بالاستواء: الاستواء معلوم، والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة. يدل على هذا لأن الكيفية مجهولة للناس.

نقول: هذا لا نعلمه، هذا إلى الله جل وعلا، وليس معنى ذلك أنه لا كيفية له، المراد أن الكيفية لا طريق للخلق إلى معرفتها وعلمها لأن الكيفية هي الحالة التي يكون عليها المتصف وهذه تتطلب المشاهدة وهي غير ممكنة، ولهذا قال: الكيف مجهول، ولم يقل ليس له وجود.

فكيفية الصفات مجهولة للناس، أما معانيها فهي ظاهرة وواضحة، وقد طلب منا العبادة بها، فلا يمكن أن نتعبد بشيء لا نعرفه، والله جل وعلا يقول: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

فنقول: إن معنى الحديث الذي قاله علي ﷺ أنه في الشيء الذي يكون عند الإنسان غريباً ولا يتحمله عقله، وهذا قد يكون في الأمور المخلوقة التي تكون يوم القيامة، أو تكون في الجنة أو النار وما أشبه ذلك، إذا قيل للناس مثلاً: إن في الجنة شجرة يسير في ظلها الراكب مائة عام، أكثر الناس لا يصدق مثل هذا، ولا يتحمله عقله.

وكذلك إذا قيل له في النار شجرة تنبت وتطلع الزقوم الذي يأكله أهل النار يتقوتونها قد يقول: كيف الشجرة تنبت في النار.

وليس معناه أنه يترك التحديث به، ولكن يجب أن يذكر بالأسلوب الذي فيه الرفق والتعليم بأن الله على كل شيء قدير حتى يصدق ذلك، ويقال له أنه

لا يلزم أن يكون الأمور على ما تعرف أنت أمور الآخرة على خلاف ذلك.

وعليه أن يذكر الشيء الصحيح الثابت عن الله وعن الرسول ﷺ، والله يهدي من يشاء ويضل من يشاء، فالأمر إلى الله جل وعلا، ولكن لا يجوز أن يكون الإنسان سبباً في إضلال الناس فعليه أن يرفق بهم ويحدثهم بالشيء الذي تتحمله عقولهم هذا هو المراد.

أما أسماء الله وصفاته فليست من هذا؛ لأن الله جل وعلا أكثر ذكرها في كتابه وأمرنا بتدبره وتفهمه، وهو طريقة الرسول ﷺ فإنه يتلو كتاب الله عند كل أحد عند العالم وعند الجاهل وعند الأعرابي وعند النساء وعند الصبيان وغيرهم.

وكذلك يذكر صفات الله وأسمائه، فيذكر أن الله يضحك وأن الله يعجب ولا أحد ينكر هذا، جاء في المسند وغيره أنه ﷺ قال في حديث ذكره: «**إن الله ينظر إليكم أزلين قنطين فيضل يضحك يعلم أن فرجكم قريب**»، فقال أعرابي من الحاضرين: أويضحك ربنا يا رسول الله؟ قال: «نعم». قال: لا يعدمنا خيراً إذا ضحك[1].

فهذا دليل على أن صفات الله على ظاهرها، وأنه لا يجوز تأويلها ودليل على أنها تذكر عند الناس عامة، وليست هي المراد من قول علي رضي الله عنه، مراده أن المعلم مثلاً ينبغي أن ينظر إلى ما تحتمله عقول من يحدثهم فيحدثهم بذلك، وإذا كان الحديث لا تحتمله عقولهم فإنه يكون سبباً في تكذيبهم الحق ولهذا قال: «**أتريدون أن يكذب الله ورسوله**»، وهذا دليل على أنه يقصد بهذا الشيء الذي فوق عقول المحدثين وإن كان حقاً لأنه جاء عن الله وعن رسوله ﷺ فإذا أنكروه وقعوا في التكذيب في تكذيب الله وتكذيب رسوله ﷺ.

وإن كان كثير من المتأخرين يرى أن الصفات من المتشابه وهذه طريقة الأشاعرة الحدثاء فإنهم اعتمدوا على التأويل، بل أوجبوه لأن الصفات ظاهرها التشبيه عندهم، فيجب أن تأول أو تفوض.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم ١٦١٨٧، وابن ماجه رقم ١٨١ من حديث أبي رزين.

والتأويل معناه عندهم: صرف ظاهرها إلى ما لا يحتمله اللفظ إلا بدليل خارجي، والدليل قد يكون عندهم العقل، والعقل لا ضابط له، كل واحد له عقل يخالف عقل الآخر فلا يمكن أن يكون هذا ضابط.

ويستشهدون على هذا بقوله جل وعلا: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ﴾ الآية [آل عمران: ٧].

وأكثر العلماء يقفون عند قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾ ثم يبدأ الكلام ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ وبعضهم يقف عند قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ [آل عمران: ٧] يعني: أن الراسخين في العلم يعلمون تأويله، وقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: أنا من الراسخين في العلم. فهو يعرف تأويله.

وقد ثبت في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم**»[1].

المتشابه ليس من المحكم الجلي، فعلى هذا يكون التشابه نسبي، ولكن إذا رد الذي فيه تشابه إلى المحكم زال التشابه، والتشابه معناه: أن معناه يحتمل أن يكون موافقاً للمحكم ويحتمل أنه يدل على شيء آخر.

فالذي في قلبه زيغ يفرح في مثل هذا، ويأخذ هذا الاحتمال الثاني ويستدل به، وهذا من الابتلاء حتى يتبين الذي يريد الحق من الذي يريد الباطل.

وعلى كل حال نقول أن المتشابه لا يدل على باطل لأنه كله كلام الله، وكلام الله حق ولا يمكن أن يدل على باطل، فإذا وقع مثلاً للإنسان من الباطل فيجب أن يتهم فهمه ويتهم نظره ولا يتهم كلام الله جل علا ولا كلام رسوله ﷺ، ثم يسأل ربه أن يهديه الحق، فإذا كان صادقاً هداه الله جل وعلا.

(١) رواه مسلم رقم ٢٦٦٥.

۞ قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: وروى عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاووس عن أبيه، عن ابن عباس: أنه رأى رجلاً انتفض لما سمع حديثاً عن النبي ﷺ في الصفات، استنكاراً لذلك! فقال: ما فَرَقُ هؤلاء؟ يجدون رِقَّةً عند محكمه، ويهلكون عند متشابهه. انتهى[1].

هذا سنده صحيح ثابت ومعمر بن راشد ثبت ثقة وهو بصري ثم ذهب إلى اليمن فنزل فيها وتوفي هناك وله من العمر سبع وخمسون سنة، أو ثمان وخمسون سنة. وابن طاووس عابد مأمون وأبوه من تلامذة ابن عباس، وهو من التابعين المعروفين الكبار.

عن ابن عباس: أنه رأى رجلاً انتفض لما سمع حديثاً عن النبي ﷺ في الصفات استنكاراً لذلك.

جاء في بعض الروايات أنه سمع حديث: «**إذا جلس الله على العرش**» هكذا فانتفض الرجل فأنكر عليه ابن عباس قال: ما فرق هؤلاء يجدون رقة عند محكمه ويهلكون عند متشابهه.

قوله: «استنكاراً»: أن انتفاضته استنكاراً لهذا الحديث الذي سمعه. يكفينا أنه قال في الصفات، سواءً هذا الذي ذكر وهو الظاهر أو غيره.

وقوله: «ما فرق هؤلاء»: هذا يحتمل ضبطين، أحدهما: التخفيف «ما فَرَقُ» وفرق يعني الخوف، ما خوفهم عندما يحدثون بالشيء الذي يتشابه عليهم، يشتبه عليهم هم هؤلاء، ولهذا قال: «يجدون رقة عند محكمه، ويهلكون عند متشابهه» يعني: ينكرونه، وإنكاره هو الهلكة.

ويحتمل أنها مشددة «ما فَرَّق» يعني: ما فرقوا بين الحق وبين الباطل وتكون ما نافية، ما عرفوا العلم الذي فيه الفرقان والهدى، وإنما أخذوا طريقاً من العلم وهذه هي العادة الذي يأخذ طرفاً من العلم يهلك غالباً إذا لم يتثبت.

وإذا سمع الشيء يبنيه على فهمه، ويذهب ينشره على الناس، وهو خطأ

(١) مصنف عبد الرزاق رقم ٢٠٨٩٥.

سواءً من كلام الله جل وعلا، أو من كلام رسوله ﷺ، أو من كلام الناس، وهذا يحدث كثيراً، فيجب على الإنسان أن يتثبت إذا أراد أن يذكر حكماً من الأحكام لأنه قد يسبق إلى فهمه الشيء الذي فهمه.

وقوله: «**يجدون رقة عند محكمه**»؛ يعني: أنهم يجدون عند المحكم إيمان وانقياد وتسليم له، وأما عند الشيء الذي فيه اشتباه عليهم فإنهم ينكرونه ويردونه، وهذه طريقة الهالكين الذين يأخذون قسماً ويرد قسماً آخر، وقد أخبر الله جل وعلا أن الذي يؤمن ببعض ويكفر ببعض مما جاء عن الله أنه كافر حقاً: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١] الإسلام الذي جاء به الرسول ﷺ لا يقبل التجزئة يجب أن يؤخذ كله عموماً، فالمجزئين له الذين يقولون مثلاً: إن الأصول يجب أن تثبت باليقين، وأما الفروع فلا بأس بالظنون هذا من الباطل، فكل ما جاء به الرسول ﷺ حق سواءً من الفروع أو من الأصول يجب أن يقبل ولا يفرق بين هذا وهذا كما تقوله المعتزلة ومن سلك مسلكهم، الذين يقولون ما كان من الأصول فلا بد من إثباته باليقين والبراهين، وما كان من الفروع يثبت بالظنون والأمور مثل نقل الأفراد.

والصحيح أنه لا فرق بين هذا وهذا إذا صح السند عن رسول الله ﷺ وإن كان فرداً وجب قَبوله والإيمان به والعمل به، سواءً كان في الصفات أو في الفروع والأحكام.

❁ **قال المؤلف** رحمه الله: **ولما سمعت قريش رسول الله ﷺ يذكر الرحمٰن أنكروا ذلك. فأنزل الله فيهم: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾**[1].

سبق أن هذا كان في صلح الحديبية، ومعلوم أن صلح الحديبية كان في

---

(١) ابن جرير في تفسيره ١٦/ ٤٤٥.

السنة السادسة من الهجرة، ومعنى ذلك أن هذا في المدينة، وقد اختلف في سورة الرعد هل هي مدنية أو مكية، فإذا كانت في صلح الحديبية فهي مدنية لأن المدني هو الذي نزل بعد الهجرة وإن كان في مكة أو من آخر ما نزل على رسول الله ﷺ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] في حجة الوداع في عرفات نزلت وهو واقف في عرفات فلا يقال أنها مكية بل مدنية لأن الفارق بين المكي والمدني هو الهجرة، وأكثر السور مكي، والسور التي نزلت في المدينة جعلوا لها ضوابطاً حسب السبر والتتبع قالوا: الآيات الطويلة الغالب أنها في المدينة والآيات التي فيها الأحكام الغالب أنها في المدينة، والآيات القصيرة التي فيها تحدي الغالب أنها في مكة والأصول الغالب أنها في مكة.

ولكن هذه كلها أغلبية ليست هي العمدة، والعمدة على النقل في هذا عن الصحابة الذين شاهدوا الوحي.

والآية ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد: ٣٠] التي ذكرها في أول الباب وقد جاء غيرها من القرآن مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٦٠] فقولهم: وما الرحمٰن، هذا إنكار.

وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ [الإسراء: ١١٠] وقد ذكر أن نزول هذه الآية بسبب إنكارهم للرحمٰن وجاء في سبب نزولها يعني آية الإسراء أن الرسول ﷺ كان يصلي عند الكعبة فسمعه أبو جهل يقول: يا الله يا رحمٰن فقال: هذا يأمرنا أن ندعو واحداً وهو يعبد إلهين. يقول: يا الله يا رحمٰن، فراح ينشر هذا، ويقول للكفار: انظروا إلى محمد فإنه يدعو إلٰهين يقول: يا الله، يا رحمٰن. فأنزل الله: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ وتمام الآية يدل على ذلك ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠]؛ يعني: لا تجهر فيسمعك الكفار، فيسبون القرآن ويسبون من أنزله ويكفرون به، ولا تخافت المخافتة التي لا يسمعها من خلفك ممن يقتدي بك ويتعلم منك، ولهذا قال: ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠].

ثم إن هذا الكفر معناه هو جحد هذا الاسم الكريم الرحمٰن، فقط وإلا فإنه قد علم أنهم يقرون بالله جل وعلا.

وثبت في الصحاح والمسانيد في قصة الحديبية أن النبي ﷺ قال لعلي: اكتب «بسم الله الرحمٰن الرحيم» فقال سهيل بن عمرو وهو المفاوض ومن معه قال: لا تكتب «بسم الله الرحمٰن الرحيم» لا نعرف الرحمٰن، ولكن اكتب كما كنا نكتب: بسمك اللهم. قال الرسول ﷺ: اكتب بسمك اللهم. لأن المعنى واحد.

فلما قال: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ﷺ قريشاً قال: لا تكتب، وعلي ﷺ قد كتبها قال: لا ما نقر بهذا لو علمنا أنك رسول الله ومنعناك صرنا ظالمين. «وهذا في الواقع ليس صحيح فهم يعلمون»، عند ذلك قال الرسول ﷺ لعلي: **امحها**، فقال علي: لا والله لا أمحاها «يعني أبى أن يمحي كلمة رسول الله»، قال عليه الصلاة والسلام: **أرينيها** فأخذ إصبعه فوضعها عليها فمحاها بإصبعه صلوات الله وسلامه عليه لأنه كان لا يكتب ولا يقرأ، وهذا من الأمور التي ابتلي بها الصحابة ﷺ وإلا إذا أمر الرسول ﷺ بشيء يجب أن يُمتثل، لا يقال: لا ما نفعل، ومن ذلك ما وقع لعمر ﷺ لأنهم رأوا أن عليهم غضاضة في كونهم يخضعون للكفار، ولهذا قال عمر بعد ما حصل الصلح قال لرسول الله ﷺ: ألسنا على الحق؟ قال: **بلى**، قال: ألست رسول الله؟ قال: **بلى**، قال: لماذا نعطي الدنية في ديننا؟ فقال: **إني رسول الله لا أخالف أمر الله**، فما اقتنع، وذهب لأبي بكر، فقال له: ألسنا المسلمون، قال: **بلى**، قال: أليس هؤلاء هم الكفار؟ قال: **بلى**، قال: أليس هذا رسول الله؟ قال: **بلى**، ولكنه رسول فاستمسك بغرزه، فصار الصلح ورجع رسول الله ﷺ. ونزل عليه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ [الفتح: ١] فدعا عمر ﷺ فقرأها عليه، قال: أو فتح هو يا رسول الله؟ قال: «**نعم**».

وهو أن العرب لما صار الصلح، ووضع الحرب، عرفوا أن قريشاً ضعيفة لا تستطيع المقاومة، وتمكنوا من التفهم والمجيء إلى الرسول ﷺ، فصار فتح، أقبلوا على الإسلام ودخلوا فيه.

فالمقصود أن إنكارهم هذا اسم الرحمٰن إما من باب العناد والكبر،

وهذا هو الظاهر لأن هذا الاسم موجود في كلامهم وأشعارهم الجاهلية، وكذلك في كلامهم وخطاباتهم، وأما أن يكون من باب الجهل.

وهذا كله يدلنا على أن من أنكر اسماً من أسماء الله أو صفة من صفاته أنه يكون كافراً لأن الله سماه كافراً ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ﴾ [الرعد: ٣٠] ولا يجوز لنا إذا سمى الله شيئاً من الأفعال المعينة كفراً أن لا نسميه، بل يجب علينا أن نطلق عليه كما أطلق الله عليه جل وعلا ذلك.






الباب الواحد والأربعون

۞ قال المؤلف رحمه الله: باب قول الله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [النحل: ٨٣].

المقصود بهذه الترجمة أن يبين أن إضافة النعم إلى غير موليها ومسديها أنه من الكفر الظاهر، وقد يكون كفراً دون كفر، يعني كفر نعمة، وقد يتعدى ذلك إلى ما هو أعظم على حسب ما يقوم في قلب الإنسان، أما إذا جرى على اللسان بدون قصد، فهذا من كفر النعمة، ومن الألفاظ الشركية التي يجب على العبد أن ينزه لسانه منها، ويبتعد عنها لأنه لا يكمل توحيد الإنسان ويتم إلا إذا استقام قلبه طاعة لله جل وعلا وتوحيداً له، واستقام لسانه تبعاً لذلك في الألفاظ التي يقولها؛ لأن اللسان من خدم القلب، فإذا استقام القلب استقام اللسان، وهذا شيء مشاهد ومجرب.

فالمقصود بهذا الباب وجوب شكر الله جل وعلا على نعمه، وشكر النعمة أمر واجب لا بد منه، وشكرها يتطلب ثلاثة أمور لا بد منها:

أولاً: ذكر الله جل وعلا بها، وحمده عليها.

ثانياً: أن يقوم بحقها الذي أوجبه الله جل وعلا.

ثالثاً: أن تكون عوناً على طاعة الله جل وعلا، يعني أن يستعملها في طاعة الله.

فإن ترك واحداً من هذه الأمور الثلاثة فإنه لم يقم بشكرها، ومعلوم أن هذا يكون ظاهراً على الجوارح ولكن يجب أن يكون متحلياً به أولاً، وقد عرفنا فيما سبق أنه لا يمكن أن تستقيم الجوارح إلا باستقامة القلب ولا يمكن أن يقول مثلاً هذا العمل عمل القلب مستقلاً عن عمل الجوارح لأن الارتباط

به غير منفك، ولا يمكن أن ينفك إلا إذا كان الإنسان إما مجنوناً أو ذاهلاً ناسياً، أما من إنسان عاقل يعرف ما يأتي فإن الباعث على العمل هو القلب، وهو ما يعبر عنه بالإرادات والإخلاص في النيات والمقاصد، فالنيات هي أساس الأعمال وهي عمل القلب.

۞ قوله جل وعلا: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾.

اختلف المفسرون في هذه المعرفة، وما هي النعمة، منهم من قال النعمة: محمد ﷺ يعرفون صدقه وقد عرفوا نسبه ومخرجه، وأنه جاء بالوحي بلا تعلم، لم يتصل بمن يأخذ عنه، ثم جاء بأمر لا يمكن أن يتعلمه لأنه معهم عمراً على غير علم، فجاءه بعد ما بلغ أربعين سنة فهو واضح أنه وحي من الله جل وعلا.

قوله: «﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾»؛ يعني: يجحدون نبوءته ويأبون اتباعه ولا شك أن هذا من أعظم النعم، أعني بعثه ﷺ، ومنهم من جعل هذا عاماً في كل ما ينعمه الله جل وعلا لأن المفرد المضاف يعم كل ما أنعم الله جل وعلا به على عبده.

وأما ما ذكره عن بعض السلف فهذه أمثلة لأفراد تبين المعنى المقصود، وكون الإنسان يضيف الأشياء إلى أسبابها أو يضيفها إلى نفسه هذا من الكفر ومعنى ذلك أن الموحد يجب أن يكون مبتعداً عن الكفر الأكبر والكفر الأصغر؛ لأن هذا من الكفر الأصغر ولا يكون محققاً للتوحيد سالماً من نقص الإيمان إلا إذا سلم من كفر النعمة، أما الكفر الأكبر فهو ينافي التوحيد من أصله.

فإنكارها أن يضيفها إلى غير موليها ومسديها أو أنهم لا يشكرونه عليها ولا يعبدونه بها لأنها أوجدت لذلك؛ لأن يشكروا، والشكر هو الثناء على الله جل وعلا وإضافتها إليه والاعتراف بالنعمة أنه هو المنعم جل وعلا بلا استحقاق.

۞ قال المؤلف رحمه الله: قال مجاهد رحمه الله ما معناه: هو قول الرجل: هذا مالي ورثته عن آبائي[(١)].

يعني: يضيف المال إلى نفسه كأن يقول مثلاً اكتسبته بعملي، ويقول أنا أعرف وجوه التجارة واكتسب وأتصرف، فيضيف الأمر إلى نفسه، فهذا كفر بالله جل وعلا، يجب أن يحمد الله الذي يسر له الأمور وهيأها وجعله مستعداً لذلك وسبباً لذلك.

فقوله: «هذا مالي» يعني: إما اكتسبه بكسبه وعمله أو أنه ورثه ومع ذلك قوله: «مالي» هذا كفر بالنعمة، يجب أن يضيفه إلى ربه جل وعلا يقول: هذه نعمة الله علي، أنعم بها علي فله الشكر وله الحمد، ويثني عليه، فإذا أضاف الشيء إلى سببه أو بعض سببه صار من هذا الباب، وقد يقول الإنسان أنا أعرف كيف أتصرف، أعرف مثلاً كيف أكتسب المال، وفلان لا يعرف وما أشبه ذلك، فهذا مثل قول قارون تماماً كما سيأتي وهو من كفر النعمة.

وكذلك بقية الأمور التي ينعم الله بها عليه وإن كانت لها أسباب ظاهرة فالأسباب الله جل وعلا هو الذي سببها، فمثلاً لو أنه قدر أنه يسافر يقول أنا وصلت إلى المكان بسرعة لأن السيارة جديدة وأيضاً السياقة بحكمة وبصر، وما أشبه ذلك.

نقول: هذا من هذا النوع، يجب أن يشكر ربه جل وعلا على ذلك لأن هذه نعمة منه فيضيف ذلك إلى ربه جل وعلا ويشكره عليها.

أما إضافة الأمور إلى الأسباب أو بعض الأسباب فهو المقصود هنا بالكفر، بكفر النعمة.

فقوله: «مالي» من أين مالك؟ خلقته أنت؟ الله خلقك فقيراً وهو الذي

---

(١) تفسير الطبري ١٧/٢٧٣ عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل: ٨٣] قال: هي المساكن والأنعام وما يرزقون منها، والسرابيل من الحديد والثياب، تعرف هذا كفار قريش، ثم تنكره بأن تقول: هذا كان لآبائنا، فروّحونا إياه. وفي رواية: فورّثونا إياها.

أقدرك على الكسب وبصرك بذلك ويسر لك، وهيأ الأسباب لذلك، فكونه يضيفه إلى نفسه معناه أنه نسي المنعم حقيقة، والمسدي له والموجد له.

وكونه ورثه هو أبلغ في النعمة، فالله أنعم به على آبائك وأنعم به عليك، فيجب أن تشكر ربك أكثر، فإذا نسي المسدي والموجد والمنعم فهذا كفر، يعني كفر النعمة في الظاهر، فإن قام في القلب غير ذلك فهو أعظم من هذا فليس كفراً للنعمة فقط ومعلوم أن الكفر الأكبر يدخل فيه الكفر الأصغر.

۞ وقال عون بن عبد الله رحمه الله يقولون: لولا فلان لم يكن كذا[1].

يعني: أنه أضاف الشيء إلى بعض السبب، أو إلى السبب فإضافته إلى السبب يدل على كفر النعمة، أنه لم يشكر ربه جل وعلا ويثني بهذه النعمة عليه ويبقى أمر آخر وهو التقوي بها على عبادة الله جل وعلا وهو واجب.

وقوله: «لم يكن كذا»: يقصد أن هذا عام في كل شيء، في كل ما يقال في مثل هذا القول، وأن الواجب أن يضاف ذلك إلى الله جل وعلا، فهذا القول يتضمن شيئين:

الأول: أنهم يضيفون العمل ويسندونه إلى السبب الذي نصبه الله عليه، وهذا لا يجوز.

الثاني: أن هذا يتضمن أنه يمكن أن يتغير تقدير الله وما أحدثه الله جل وعلا، لولا فلان كذا ما كان كذا، وكل هذا من المحاذير التي تقدح في التوحيد وتجعله إما باطلاً لا أثر له، وإما ذاهب كماله الواجب الذي يعاقب الإنسان بتركه.

فقوله: «لولا فلان لم يكن كذا» يعني: لم يقع هذا الشيء أو ما صار كذا أو ما كان كذا يعني بالعكس، إما بالإثبات أو بالنفي كله باطل لا يجوز؛

---

(١) تفسير الطبري ١٧/ ٢٧٣ قال: إنكارهم إياها، أن يقول الرجل: لولا فلان ما كان كذا وكذا، ولولا فلان ما أصبت كذا وكذا.

لأن الذي وقع هو الذي شاءه الله ولا يمكن أن يتغير أو يتبدل والأسباب التي رتبها عليه هي من القدر.

وقال ابن قتيبة: يقولون: هذا بشفاعة آلهتنا.

يعني: هذا يتضمن الشرك، والكفر بالنعمة، يعني أنهم يجعلون الشيء الذي يحصل لهم من السعادة ومن النعم والتوفيق يجعلونه بسبب شفاعة آلهتهم وهي أصغر وأحقر من أن تشفع لأنها دعوى لا أساس لها ولا وقوع لها أصلاً فهو يتضمن:

أولاً: الكذب على الله، وهذا أمر كبير جداً، قد عده بعض العلماء أكبر من الشرك.

ثانياً: أنهم جعلوها بسببها ونسوا نعمة الله جل وعلا عليهم، فأضافوا النعم إلى الأصنام والآلهة الباطلة.

۞ قال المؤلف رحمه الله: وقال أبو العباس بعد حديث زيد بن خالد الذي فيه: «إن الله ـ تعالى ـ قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر...» الحديث، وقد تقدم: وهذا كثير في الكتاب والسُّنَّة، يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلى غيره، ويشرك به[1].

أبو العباس كنية شيخ الإسلام ابن تيمية مع أنه رحمه الله لم يتزوج، وليس له ولد، ولكنه قد عرف أنه يجوز التكني وإن لم يكن للإنسان ولد؛ لأنه رحمه الله لم يفرغ للزواج، كانت حياته أولاً طلب العلم بالجد والاجتهاد والعبادة، ثم صار في الجهاد لا يفتر عن ذلك، يجاهد في نشر العلم ومجادلة أهل الباطل وبيان لحق إلى أن توفاه الله جل وعلا وهو كذلك.

قوله: «بعد حديث زيد بن خالد»: وفيه: قال: صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية في إثر سماء كانت من الليل فلما انصرف أقبل على الناس فقال: «**هل تدرون ماذا قال ربكم؟**»، قالوا: الله ورسوله أعلم. «**قال:**

---

(١) مجموع الفتاوى ٨/ ٣٣.

قال أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال مُطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب»(١). وهذا ظاهر كما سبق أنه من كفر النعمة الذي لا يجوز أن يقوم في المسلم بل يجب أن ينزه نفسه عن ذلك، ويجعل توحيده خالصاً محققاً لله جل وعلا.

فقوله: «مطرنا بنوء كذا وكذا»: ليس الأمر في هذا أنهم يعتقدون أن الكوكب ينزل المطر هذا لا أحد يقوله، وإنما أضافوا نزول المطر إلى طلوعه، وقالوا: إن وقته وقت محمود لأنه يأتي فيه المطر، جعلوه للوقت، وأضافوه إلى الكوكب، وإلا هم يعلمون أن الله هو المنزل للمطر؛ لأن الله أخبرنا في كتابه أنهم إذا سئلوا من الذي ينزل المطر يقولون الله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٦٣﴾ [العنكبوت: ٦٣] وكذلك غيره، ولم يعرف أن أحداً من بني آدم أنه يجعل الكواكب مؤثرة بنفسها يعني أنها تتصرف مع الله في تصريف الكون مثل إنشاء السحاب وهبوب الرياح وسقوط الأمطار، وما أشبه ذلك، ولكنهم يضيفون هذه الأشياء إلى طلوعه أو غروبه الذي يسمونه النوء، والنَّوء مأخوذ من ناء ينوء إذا ظهر أو غرب، ولهذا يطلق على الطالع وعلى الغارب، وقد يكون عند الناس الآن من بقية هذه الجاهلية شيء من الألفاظ التي تعلق في أذهانهم من دون أن يتفطنوا لها كما يقول بعضهم إذا حدث شيء مما قد يكون فيه تحزن له وتأسف يقول: يا عزاه، والعزى معروف أنه صنم من أصنام الكفار، وقد يكون هذا الكلام باقياً عندهم لا يزال موروث عن الجاهلية.

والمقصود في هذا أن الإنسان يجب أن يتفطن للكلام الذي يتكلم به، فلا يتكلم إلا بالشيء الذي يكون ظاهره صحيح يعرف معناه. وقد عرفنا أن الشرك يكون ولو بالألفاظ التي لم يقصد معناها، يعني لا تقصد حقيقته لأن العبد يقع في الشرك اللفظي بدون قصد وهو من الشرك الأصغر، والشرك

(١) رواه البخاري رقم ٨٤٦، ومسلم رقم ٧١.

الأصغر لا يجوز التساهل به وإن كان لا يخرج العبد من الدين الإسلامي ولكنه يقدح في توحيده، وعند كثير من العلماء أن الشرك الأصغر لا يغفر إلا بالتوبة يعني لو مات العبد عليه بدون توبة عوقب لدخوله في قوله جل وعلا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فكلمه ﴿إِنَّ﴾ المصدرية هذه تدل على العموم ﴿أَن يُشْرَكَ﴾ كما أنه يدخل في قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

وكذلك في قوله ﷺ: «أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً»[(١)]، فشيئاً هنا نكرة تعم الشرك الأكبر، والأصغر، وشرك اللفظ وشرك النية، وشرك المقصد مثل الرياء وغيره.

فالمقصود قوله في الحديث هنا: «مؤمن بي» يعني: أنه نسب الخير والفضل إليه في الظاهر فجعل العمل إيمان الذي هو القول، وكذلك قوله: «وكافر بالكوكب»، وكذلك قوله: «مؤمن بالكوكب وكافر بي»، وهذا ظاهر جداً في أن الأعمال داخلة في الإيمان وأنها تسمى إيمان، والأدلة على هذا لا حصر لها، ولكن نقول فيه التنبيه على رد قول المرجئة الذين يجعلون الإيمان ما يقوم في القلب فقط، وأما الأعمال فإنها لا تدخل في مسماه وهو قول باطل، وهو خلاف ما تعارف عليه أهل السُّنَّة، بل اتفقوا عليه، ولهذا عرَّفوا الإيمان تعريفاً دقيقاً فقالوا: الإيمان قول باللسان وعمل بالجوارح وعقد بالقلب، وبعضهم يقول: وعلم لأن العلم يسبق العمل، فيكون في القلب أولاً، والقلب هو الذي يبعث على الأعمال وهذه كلها مجتمعة في الإيمان.

ولا يجوز أن نقول أن العمل شرط للإيمان، أو أنه مكمل للإيمان، أو ما أشبه ذلك كما يقوله من يقوله من بعض طلبة العلم الذين لم يحققوا المسألة كما ينبغي، ويتسرعون في إطلاق الأمور التي لا يجوز إطلاقها.

---

(١) رواه البخاري رقم ٥٠، ومسلم رقم ٩ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قوله: «وهذا كثيرٌ في الكتاب والسُّنَّة، يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلى غيره، ويشرك به»؛ يعني: ذكر الكفر، وكونه يضيف الكفر إلى الناس يقول: **«هو كثير في الكتاب والسُّنَّة يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلى غيره ويشرك به»**، والمعنى أن هذا من الشرك يعني: إضافة النعمة إلى سببها أو جزء سببها أو إضافتها إلى شيء كذب كما قال الكفار أنه بشفاعة آلهتهم، كل هذا من الشرك، وبهذا يتبين مناسبة الباب إلى كتاب التوحيد أنه ظاهر في هذا. فالله جل وعلا إذا أراد عطل الأسباب، فهو جل وعلا الذي سبب الأسباب وهيأها ويسَّرها فحصلت.

❁ **قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال بعض السلف: «هو كقولهم: كانت الريح طيبة والملَّاح حاذقاً، ونحو ذلك مما هو جار على ألسنة كثير» انتهى.**

يعني: هذا من تمام كلام شيخ الإسلام، وكانت السفن سابقاً سفن شراعية ليس فيها محركات وإنما الرياح التي تديرها وهي التي تحملها بأمر الله تعالى، والملاح هو الذي يصرف السفينة يعني: بمن معه يجعلها تذهب يميناً أو شمالاً بهذه الطريقة، فإذا جاءت الريح مستدبرة لها قالوا هذه ريح طيبة ساقتهم سوقاً حسناً، والله جعل ذلك آية، أما إذا انعكست: فهي تعاكسهم فلا يتأتى سيرهم، ومثل هذا أن يقال مثلاً: السيارة جديدة أو أن السائق جيد وحاذق، والطريق واسع وسريع، وما أشبه ذلك، كل هذا لا يجوز للعبد أن يضيف النعمة التي تحصل له إليه، بل يحمد الله ويضيف هذا إليه جل وعلا وكل هذا بتوفيق الله، وإذا أراد الله كانت هذه الأمور من العقاب أو من أسباب الهلاك، فينظر الإنسان مثلاً كم يقع من الحوادث التي تزهق فيها النفوس من هذه السيارات.

فالمقصود أن الإنسان يجب أن يكون تعلقه بربه جل وعلا وكل ما حصل له خيرٌ يحمد الله ويضيفه إليه ويشكره على ذلك، وإذا حصل خلاف ذلك يعلم أنه أصيب من جراء ذنوبه كما قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ۝٣٠﴾ [الشورى: ٣٠]، فلو أنه أخذنا

جل وعلا بكل ما نستحق ما ترك على ظهر الأرض من دابة كما قال جل وعلا: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ۝٤٥﴾ [فاطر: ٤٥].

والمقصود أن إضافة النعمة لغير الله جل وعلا الذي هو منعم بها على عبده من الكفر والكفر ينافي كمال التوحيد هذا هو المقصود بالباب، ثم نفهم من هذا الباب ومن هذه الأدلة أن العبد يجب أن يعرف ربه جل وعلا، وأن كل خير يناله أو يناله غيره مما في العالم كله العلوي والسفلي أنه من الله جل وعلا، وأنه يجب أن يضاف ذلك له ويشكر عليه، ثم تكون هذه النعم مستعملة في طاعته جل وعلا وهذا لا يخرج منه شيء، ومن أعظم ذلك كون الإنسان أنعم الله عليه وجعله مسلماً هذه أكبر النعم، وإذا مات على الإسلام فقد تمت عليه نعمة الله جل وعلا، ويجب أن يعلم يقيناً أنه ليس له يد في ذلك الأمر كله لله جل وعلا، كله من الله تعالى وتقدس، فإذا حصل له النعمة وجب أن يُشكر الله، وإذا حصل أيضاً أنك عرفت ربك وتعلمت العلم الذي يوصلك إلى الله وعملت به فهو من نعم الله، يعني قُصار القول: أنه لا يحصل للعبد شيء من الخير إلا من الله جل وعلا، وأنه لا يجوز أن يضيف شيئاً منها لا لنفسه ولا لغيره من الخلق، إما على سبيل أنه سبب جعله الله جل وعلا سبباً من الأسباب أو جزء سبب، والأسباب قد تتعطل، وقد تؤدي المسببات التي رتبت عليها إذا أراد الله جل وعلا عُدم ذلك.

وبهذا يعرف العبد أنه إذا وكِّل إلى نفسه يوكل إلى ضيعة وإلى عورة وإلى خسارة وأنه ضائع، فلا يجوز أن يعتمد الإنسان إلا على ربه ـ تعالى وتقدس ـ ففي دعاء الرسول ﷺ يقول: «**اللهم لا تكلني إلى نفسي إن تكلني إلى نفسي تكلني إلى ضيعة وعورة وذنب وخطيئة**»[1]، فكل هذا يدل على وجوب التعلق بالله ظاهراً وباطناً، وأن كل خير منه وأن كل شر يحدث

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم ٢١٦٦٦ من حديث زيد بن ثابت.

للإنسان من نفسه من جراء ذنوبه، وكونه لم يقم بشكر الله عليه الذي هو واجب، فالشكر واجب يجب أن يكون الشكر له جل وعلا، وإضافة النعم إليه وعدم إضافتها إليه يكون كفراً به جل وعلا، وظاهر هذا أن يكون المسلم صائناً ألفاظه عن ألفاظ الشرك، أو ألفاظ الكفر، فيحقق توحيده بعقيدته وعمله بعلمه فيكون حامياً وصائناً لتوحيده من هذه الجوانب، هذا هو مراد المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ.

❁ قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: فيه مسائل:

❁ الأولى: تفسير معرفة النعمة وإنكارها.

ليس معرفة النعمة يعني أن المخلوق هو الذي ينعم بها أو يوجدها ويخلقها، وإنما معناها أن تضاف إليه لأنه سبب أو بعض السبب، وهذا لا يدل على أنه لا يشكر من حصلت النعمة على يده، وكذلك لا يدل أن الإنسان يحتقر الناس ويزدريهم، بل يجب أن يراعي حقوقهم وأن يسعى جهده في نفعهم وإرشادهم، وأن يستشعر في نفسه أخوتهم، وكذلك العطف عليهم ورحمتهم حتى يكون متحققاً بالتوحيد، فهو أولاً يقوم بحق الله جل وعلا، وثانياً يقوم بحق عباد الله. فإضافتها إلى الله جل وعلا هو معرفة النعمة.

وأما إضافتها إلى نفسك أو غيرك مثل الأيادي أو الحذق أو معرفة الصنعة أو معرفة كيف التصرف، فإن هذا هو كفرها ـ نسأل الله العافية ـ والمقصود بالإنكار هنا هو الكفر.

❁ الثانية: معرفة أن هذا جارٍ على ألسنة كثيرة.

يعني: أن التحرز من هذا الكفر قليل، فيجب على العبد أن ينتبه لهذا الشيء، وليس معناه أنه جارياً على ألسنة الكثير من الناس وهم يُجرون ذلك من دون تفكر فيه، فقد يكون عادة، ولو قلت مثلاً لأحدهم لا يجوز أن تقول كذا أنكر عليك لأنهم يسيرون على هذا الشيء، وقد تكون العادات تملك الإنسان الذي يعتادها فلا يستطيع التخلي عنها.

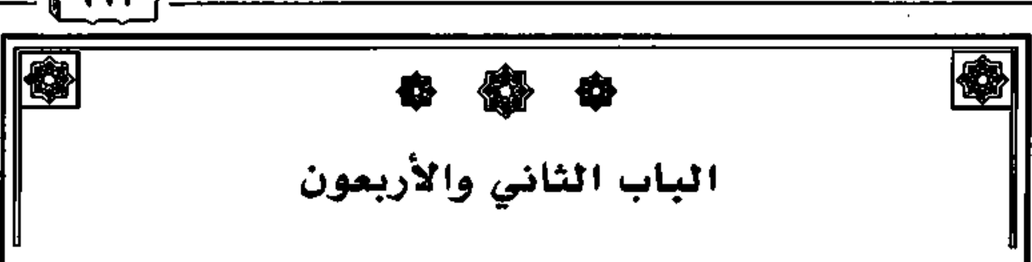
❁ الثالثة: تسمية هذا الكلام إنكاراً للنعمة.

يعني: كونه يُضاف إلى السبب أو بعض السبب، إنكار لنعمة الله جل وعلا، وهذا المقصود به الكفر.

❁ الرابعة: اجتماع الضدين في القلب.

يعني: اجتماع المعرفة والإنكار لأنه قال: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل: ٨٣]، فدلت الآية على أنه يجتمع فيه المعرفة والإنكار، وفي هذا دليل على صحة مذهب أهل السُّنَّة الذين يقولون أن العبد يجتمع فيه إيمان وكفر وصدق ونفاق، وخير وشر، وهو لما غلب عليه، خلافاً لمذهب الخوارج والمعتزلة والمرجئة وما أشبههم من أهل البدع.





الباب الثاني والأربعون

۞ قال المؤلف رحمه الله: باب قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

المقصود به الشرك في الألفاظ وتطهير اللسان من الوقوع في الشيء الذي فيه مخالفة ولو في الظاهر؛ لأن من حقق التوحيد استقام لسانه ولا بد، ومن لم يحققه ولو بالألفاظ فإنه لا يستحق أن يكون من الذين يسبقون إلى الجنة بلا حساب.

ومعلوم أن الأمور الظاهرة التي تكون باللسان وتكون بالجوارح دلائل على ما في القلوب، فإذا حصل الإخلاص في القلب وحصل التوحيد الكامل فيه استقامة حالة الإنسان في تصرفاته كلها وهذا لا يمكن إلا بعد العلم، العلم الموروث عن الرسول ﷺ، أما الأمور التي يُكثر الناس من الاهتمام بها مثل الآداب، فهذه أمور ثانوية يجب أن تكون تبعاً لما هو أهم منها.

فإذاً المرجع في هذا هو ما جاء عن النبي ﷺ وما قاله الله جل وعلا في كتابه، وبهذا تعرف أنه لا يمكن أن يستغني العبد عن كتاب الله جل وعلا وأحاديث رسوله ﷺ، وأن كثيراً من الناس لم يهتم الاهتمام الواجب في هذين الأمرين الذين لا يمكن أن يكون الإنسان مستقيمة حاله ومستقيماً لسانه ومستقيمة جوارحه إلا إذا تأدب بما جاء به الرسول ﷺ، وما قاله الله جل وعلا.

وهذه الآية التي ذكرها المؤلف قد تقدم ذكرها في ذكر الشرك، كقوله تعالى في باب المحبة السابق: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وعرفنا أن هذه الأنداد التي يتخذونها أنها في المحبة، وأن الأنداد في التصرف والخلق والإيجاد قليل وإن كان الآن يوجد

في الناس بكثرة، ولكن لفشو الجهل وكونه هو الغالب الآن ظهر ذلك جلياً.

وعبادة المشركين لغير الله ليس معناه أن غير الله خلق شيئاً من السماوات أو شيئاً من الأرض أو أنه ينزل المطر أو ينبت النبات أو نحو ذلك، ولهذا جاء تقرير هذا الأمر للاحتجاج عليهم بأن يخلصوا العبادة لله ما دام أنهم يعلمون أن الله هو الخالق لهذه الأشياء الذي خلقهم وخلق من قبلهم وخلق السماء وجعلها بناء، وكذلك خلق الأرض وجعلها شبه الفراش الذي يتمكنون من الانتفاع به، وكذلك أنزل من السماء ماء فأنبت به من النبات ما يأكلون وتأكله أنعامهم، وغير ذلك من الأمور التي يعلمون أن الله هو المتفرد بها، يعلمون هذا يقيناً، ولهذا قال جل وعلا: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أن هذا من خصائص الله، وأن أحداً من الخلق لم يشاركه في هذا، فما دام أنكم علمتم هذا وتحققتموه ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ فإن هذا يمنعه، ولهذا صار هذا دليلاً واضحاً على وجوب عبادة الله جل وعلا.

والأنداد التي يجعلونها لله هي طلب الشفاعة وكونهم وسطاء يتوسطون لهم فيقربونهم إلى الله، ودعائهم بأن ينفعونهم بشيء عند الله وإن اعتلوا بأن هؤلاء إما صالحون أو ملائكة لا ذنوب لهم، ونحن لنا ذنوب فنريد منهم التوسط كما يقوله عباد القبور اليوم، الذين يقولون إننا ندعو الأولياء ونناديهم لأننا مذنبون وهم عباد فضلاء فهم يتوسطون لنا عند الله، فهذا هو شرك المشركين بعينه.

ولكن هؤلاء يعتقدون أن المشركين القدماء كانوا يعتقدون أن أصنامهم تشارك الله جل وعلا في التدبير والخلق والإيجاد وهذا خطأ، فلا وجود لهذا أصلاً ولا أحد اعتقده، فإنما أتوا من جهلهم في حقيقة الشرك الذي كان عليه المشركون، وهذا تقدم في أماكن متعددة من الكتاب.

والأنداد تكون أيضاً في الألفاظ كما في هذا الباب، وتكون الأنداد أيضاً في الأوصاف والأسماء، فمن وصف الله بغير صفاته فإنه يكون قد اتخذ أنداداً لله جل وعلا، أو زعم أن له شريكاً بذلك؛ يعني: في الاسم أو في الصفة، فإنه يكون قد اتخذ لله أنداداً.

وهذا يعطيك أن كلمة أنداد تعم الشرك الأكبر الذي يكون عبادة لغير الله وكذلك في الألفاظ، وكذلك في الأوصاف وفي الأسماء وغير ذلك.

والند: هو المثيل والنظير والشبيه ولو بوجه من الوجوه، فلا يلزم أن يكون من كل وجه، ولهذا لما قال الرجل لرسول الله ﷺ: «ما شاء الله وشئت»، قال: «أجعلتني لله نداً»؛ يعني: نداً في المشيئة؛ لأنه شَرَكَ بين مشيئة الله جل وعلا ومشيئة النبي ﷺ؛ يعني: جمعها بالواو «ما شاء الله وشئت» وهذا تشريك.

فقوله: «﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟﴾»: هذا مرتب على ما سبق، وهو قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾، فبين لهم وجوب العبادة بقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ لأنهم يقرون بأن الله هو الذي خلقهم وهو الذي خلق من قبلهم لا أحد ينكر هذا، هذا شيء علموه.

ثم قال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾، يعلمون أن هذا من خصائص الله وأن أحداً لم يشاركه جل وعلا في هذا الأمر.

وكذلك قوله: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾، يعلمون أن هذا أيضاً من خصائص الله، ولهذا قال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، أي: ما دام أنكم علمتم هذه الأشياء وتحققتموها فإن هذا يمنعه، ولهذا صار هذا دليلاً واضحاً على وجوب عبادة الله جل وعلا.

وقد يقول قائل: هذا الذي ذكر هنا ظاهراً أنه في الشرك الأكبر، فكيف يجعل في الألفاظ والأسماء وفي إضافة الأشياء إلى أسبابها أو جزء أسبابها أو ما أشبه ذلك؟

نقول أولاً، هذا لأمرين:

الأول: أن كلام الله جل وعلا يعم، فهو عام يعم الكبير ويدخل فيه الصغير من المخالفات.

الثاني: أن السلف من الصحابة وغيرهم كثيراً ما يستدلون على شرك الألفاظ أو الشرك الأصغر في الأقوال وغيرها بما نزل في الشرك الأكبر من الآيات كما مر معنى ذلك في حديث حذيفة وغيره. فلا ينكر كونهم يستدلون بهذا فهو دليل واضح.

والمؤلف كَلَّلَهُ أراد هنا أن يبين أن تحقيق التوحيد والإخلاص يجب أن يكون سالماً في العقيدة «يعني: في العلم»، والاعتقاد الذي ينطوي عليه القلب وفي العمل والعمل يدخل فيه قول اللسان بالألفاظ التي قد يعتادها الإنسان وهو غير قاصد لها، فيجب أن ينزه ألفاظه ويحفظ لسانه من الوقوع مما فيه قدح في التوحيد حتى يكون مخلصاً ويكون محققاً للتوحيد، هذا هو مراده في هذا الباب؛ لأن تحقيق التوحيد يكون بالفعل؛ يعني: بالعمل وبالعقيدة بالعلم، وبالألفاظ والأقوال التي لا يُتفطن لها، ولهذا ذكر قول ابن عباس في الآية.

۞ قال المؤلف كَلَّلَهُ: قال ابن عباس في الآية: الأنداد هو الشرك، أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل، وهو أن يقول: والله، وحياتك يا فلانة، وحياتي ويقول: لولا كلبة هذا لأتانا اللصوص، ولولا البط في الدار لأتى اللصوص، وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت، وقول الرجل: لولا الله وفلان، لا تجعل فيها فلاناً؛ فإن هذا كله به شرك[١].

قوله: «قال ابن عباس في الآية»؛ يعني: في تفسير الآية.

قوله: «الأنداد: هو الشرك»: ففسر الأنداد بالشرك، والشرك يدخل فيه الشرك الفعلي الذي يفعله الإنسان؛ يعني: يعبد الله ويعبد غيره، وهذا هو الشرك الأكبر، ولكن لو كان الإنسان لا يعبد إلا الأصنام فهل يقال أنه مشرك؟ أو أنه مخلص للأصنام؟

الشرك يدل لفظه على أنهم يعبدون الله ولكنهم عبدوا معه غيره؛ لأن عبادة الله أمر اضطراري، والمقصود بالعبادة العبادة الظاهرة، من كونه يعرف أنه هو الذي خلقه، وأنه هو الذي ينعم بالنعم من إنزال المطر وإيجاد الأشياء التي لا دخل للإنسان فيها، ولكن التوحيد الذي يترتب عليه دخول الجنة والسلامة من العذاب، لا بد أن يأت به الرسول ﷺ؛ يعني: العقل لا يكفي في هذا، وذلك أن العبادة لا يستطيع الإنسان بعقله أن يقوم بها على الوجه

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ١/٥٨.

المطلوب لأنها هي امتثال الأمر واجتناب النهي، والأمر والنهي لا يعرف إلا عن طريق الرسول ﷺ، وهذا هو معنى قول العلماء العبادة توقيفية؛ يعني: موقوفة على مجيء النص عن الله وعن رسوله ﷺ فإذاً تفسير ابن عباس للأنداد بأنه الشرك أمر ظاهر، فالأنداد هي الشرك.

ولكن الذي قد يكون فيه غرابة قوله: «أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل»، هل فيه شيء أخفى من هذا؛ يعني: ظلام الليل، ونملة صغيرة تمشي على صفاة ما يكون لها أثر ولا صوت؛ يعني: هذا مبالغة في الخفي، إذا كان الشرك أخفى من هذا فكيف يُعرف؟ يعني: معرفته فيها صعوبة كبيرة، وهذا يقوله من يعرف الشرك ويعرف التوحيد، فكيف الذي يقول التوحيد عرفناه هل فهم كلام ابن عباس هذا؟

ومقصود ابن عباس ليس عبادة الأصنام والسجود للقبور والاستنجاد بها والطواف حولها والعكوف عندها والتبرك، هذا أمر ظاهر ما يخفى على المسلم أنه الشرك الظاهر الجلي وليس هو بهذا الخفي، بل هو ظاهر ظهوراً جلياً لا خفي فيه، لكنه يقصد أن من الشرك ما هو بهذه المثابة من الخفي، فعل هذا ينبغي الاعتناء بهذا الباب والاهتمام به لعله يتخلص من هذا الشرك الخفي وبين أن هذا يكون بالألفاظ وإذا كان يكون بالألفاظ فالنيات أعظم لأن النيات في الواقع بحر لا ساحل له.

والنيات والمقاصد يجب أن تكون مقيدة بما جاء عن الله وعن رسوله ﷺ ويكون الإنسان حذراً دائماً، ولهذا يقول الإمام سفيان الثوري رحمه الله: ما عالجت شيئاً أشد عليَّ من نيتي؛ لأنها تتقلب علي؛ يعني: أن النية تتجدد وتتغير دائماً فيحتاج الإنسان إلى تعاهدها.

۞ قال المؤلف رحمه الله: وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك»، رواه الترمذي وحسنه، وصححه الحاكم[1].

---

(١) رواه الترمذي رقم ١٥٣٥، وأبو داود رقم ٣٢٥١، والحاكم رقم ٧٨١٤ وصححه ووافقه الذهبي من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

والحديث الذي ذكره عن عمر، هو عن ابن عمر، لكنه هكذا ثبت في كتاب المؤلف رحمه الله

قوله: «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك»: الحلف هو: ذكر المعظم عند الخبر الذي يعلم أنه اطلع على ما في قلبه، فيثيبه إن كان صادقاً أو يعاقبه إن كان كاذباً، هذا إن كان مقصوده.

وقد يكون الحلف هو ذكر المعظم لتأكيد الكلام فقط، ذكر العظيم أي ذكر اسم العظيم تأكيداً للكلام الذي يقوله بغض النظر عن اعتقاده أنه مطلع على ما في قلبه أو أنه يثيبه أو يعاقبه، لأن هذا قدر زائد إذا وجد فقد يجعل الإنسان واقعاً في الشرك الأكبر وليس في الشرك الأصغر.

أما إذا كان التعريف: هو ذكر اسم المعظم تأكيداً للخبر مطلقاً فيكون شركاً أصغراً، ولهذا لا يجوز للمسلم أن يحلف إلا بالله أو بصفة من صفاته لأنه قال: **«ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت»**(١).

ولا يقال: إن الله قد ذكر كثيراً في كتابه من الأقسام بالمخلوق كما قال جل وعلا: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١﴾، وقال سبحانه: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ۝١﴾، وقال جل وعلا: ﴿وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا ۝١﴾، وما أشبه ذلك، وهو كثير جداً في القرآن، فالله جل وعلا يقسم ببعض مخلوقاته التي تدل على عظمته وعلى تدبيره وعلى صنعه وتفرده بالخلق والملك، والتي تدل على توحيده بأنه يجب أن يوحد.

هذا بالنسبة إلى الله جل وعلا يقسم بما هو دليل على وجوب توحيده، ما هو دال على وجوب توحيده، والله جل وعلا يفعل ما يشاء ويذكر ما يريد، أما نحن عبيد مقيدون بالعبودية والله نهانا أن نحلف بغيره، ونحن مقيدون بأن نحلف بالله، أو باسم من أسمائه، أو صفة من صفاته، هذا هو الجواب عن الأقسام التي في القرآن.

ثم الحلف له صفة معينة، فهل إذا جاء الإنسان مثلاً بغير هذه الصيغة، ومقصوده تأكيد الخبر فهل يكون حلفاً أو لا؟

---

(١) رواه البخاري رقم ٦١٠٨، ومسلم رقم ١٦٤٦ من حديث ابن عمر.

أهل اللغة قالوا: أن الحلف يكون بالصيغة المعينة التي لها ثلاثة أحرف: الواو، والباء والتاء. تقول: والله، وبالله، وتالله. فإذا قلت ـ في كذا ـ فهل يكون هذا حلفاً أو لا؟ ذلك والله أعلم يرجع إلى العرف، المتعارف عند الناس، ولا يلزم أن يكون مطابقاً لما جاء في اللغة العربية، لأن الناس صاروا لا يتقيدون باللغة العربية، بل كثيرون منهم لا يعرفون اللغة العربية وإنما لغته وقصده ومراده، فإذا كان قصده الحلف وإن كان بغير هذه الأحرف فله مقصوده، وله نيته ولا يجوز أن يُقدم على ذلك فيكون له حكم الحلف بغير الله جل وعلا، كما يقول: في ذمتي أو بكذا وما أشبه ذلك، فهذا يدخل في النهي ويدخل في الشرك الذي دل عليه الحديث: «**من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك**».

قوله: «**أو**»: هذه الظاهرة أنها للشك من الراوي هل قال الرسول ﷺ: كفر أو أشرك «**فقد كفر أو أشرك**» مع أن الكفر أعم من الشرك؛ يعني: يدخل فيه الشرك مطلقاً، كما أن الشرك يشمل على الكفر لا سيما إذا كان أكبر، أما إذا كان صغيراً فلا يلزم، ولكن مثل ما عرفنا أن الكفر ينقسم إلى قسمين: كفر أكبر، وكفر نعمة.

وقد يشكل على هذا ما جاء في الصحيحين عن طلحة بن عبيد الله: أن أعرابياً جاء إلى رسول الله ﷺ ثائر الرأس فقال: يا رسول الله أخبرني ماذا فرض الله علي من الصلاة؟ فقال: «**الصلوات الخمس إلا أن تطوع شيئاً**». فقال: أخبرني بما فرض الله عليَّ من الصيام؟ قال: «**شهر رمضان إلا أن تطوع شيئاً**». قال: أخبرني بما فرض الله علي من الزكاة؟ قال: فأخبره رسول الله ﷺ بشرائع الإسلام. قال: والذي أكرمك لا أتطوع شيئاً ولا أنقص مما فرض الله عليَّ شيئاً. فقال رسول الله ﷺ: «**أفلح إن صدق، أو أدخل الجنة إن صدق**»[1] وفي رواية: «**أفلح وأبيه إن صدق، أو دخل الجنة وأبيه إن صدق**»[2]، فقول الرسول ﷺ: «**أفلح وأبيه**» هذا حلف بالأب فكيف يقع هذا من النبي ﷺ، فلا

---

(١) رواه البخاري رقم ١٨٩١، ومسلم رقم ١١.

(٢) رواه مسلم رقم ١١.

بد من جواب لهذا. وكذلك جاء في صحيح مسلم أيضاً عن أبي هريرة ﷺ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أي الصدقة أعظم أجراً؟ فقال: «**أما وأبيك لتنبأنه، أن تصدَّقَ وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل البقاء، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا، وقد كان لفلان**»[1]، وفيه أحاديث أخرى غير هذه.

وهذا إشكال يجب أن نعرف الجواب عنه؛ لأنه قد يورد على الإنسان أو يحتج به من لا يعرف الحقيقة، فيجب أن يهتم بهذا، **وقد اختلفت أجوبة العلماء على هذا:**

فابن عبد البر كَلَلهُ أجاب جواباً غير شامل لأنه قال: هذا الحديث غلط من الراوي أنه قال: «**أفلح والله**»، وإن كان ابن عبد البر استدل فقال: إنه جاء في نفس رواية الراوي الذي هو إسماعيل بن جعفر كما في البخاري: «**قد أفلح والله إن صدق**»، فهذا دليل على أن ما في صحيح مسلم غلط لأن الراوي واحد[2]. وهذا الجواب غير كاف **لوجهين:**

الوجه الأول: أن هذا يرفع الثقة بالرواة، فكل من أراد أن يتكلم بشيء أو أراد أن يرد شيئاً يقول: هذا الراوي غلط، فهذا لا يجوز، والرواة عرفوا أنهم ثقات وأنهم متقنون، فلا يجوز أن نتهمهم بشيء من ذلك.

الوجه الثاني: أن هذا يمكن أن يقال لو كان الحديث واحداً، وأما إذا تعددت الأحاديث وجاءت روايات متعددة، فهذا الجواب لا يكفي.

وأجاب النووي[3] كَلَلهُ كما في شرحه على مسلم بقوله: أن هذا جرى مجرى تأكيد الخبر فقط لا يقصد به القسم، وهذا جواب لا يصح لأن الحلف يقصد به تأكيد الخبر، فهو ذكر المعظم لتأكيد الخبر.

---

(١) رواه مسلم رقم ١٠٣٢. (٢) التمهيد لابن عبد البر ١٤/٣٦٧.

(٣) شرح النووي على مسلم ١/١٦٨ قال: وجوابه أن قوله ﷺ: «**أفلح وأبيه**» ليس هو حلفاً إنما هو كلمة جرت عادة العرب أن تدخلها في كلامها غير قاصدة بها حقيقة الحلف والنهي، إنما ورد فيمن قصد حقيقة الحلف لما فيه من إعظام المحلوف به ومضاهاته به الله ﷻ، فهذا هو الجواب المرضي.

وجواب ثالث قالوا: أن هذا جرى على ألسنتهم فقط بدون قصد، وهذا أفسد من الذي قبله.

فهذه أجوبة ثلاثة كلها غير صحيحة، يبقى الجواب الرابع، وقد ذكر السهيلي وغيره من العلماء قالوا[1]: إن هذا منسوخ لأنهم كانوا في أول الأمر يحلفون بآبائهم كما جاء في الصحيح أن النبي ﷺ أدرك عمر ﷺ يسير في ركب يحلف بأبيه فقال: «**ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت**»[2]، وهذا هو الصحيح، أن هذا كان أولاً جائز، ثم نسخ لكمال التوحيد وإخلاص الأمر، والله ينسخ ما يشاء وبعد ذلك جاء النهي.

فكل ما جاء فيه الحلف بالأب أو بغيره في الأحاديث التي جاءت نقول: إن هذا كان قبل النهي، فجاء النهي فنسخها، وهذا هو الذي يسلم من الاعتراضات ويكون هو الصحيح إن شاء الله.

وعلى هذا لا يجوز الحلف بغير الله مطلقاً، لا كون الإنسان جرى هذا على لسانه بغير قصد أو كونه قصد مجرد تأكيد الخبر أو ما أشبه ذلك؛ لأن هذا كما عرفنا لا يجوز، كما ثبت أن سعداً قال في أثناء كلام له: «والعزى» فقال له رسول الله ﷺ: «**قل: لا إله إلا الله ولا تعد**»[3]، فبعيد جداً أن سعداً قصد الحلف.

۞ قال المؤلف رحمه الله: وعن ابن مسعود ﷺ: لئن أحلف بالله كاذباً أحبُّ إلي من أن أحلف بغيره صادقاً[4].

هذا أمرٌ ظاهر؛ لأن الحلف بالله كاذباً هو اليمين الغموس الذي جاء أنه

(١) فتح الباري لابن حجر ١١/ ٥٣٤ ثم قال بعضهم: وهو الجواب الثالث أن هذا كان جائزاً ثم نسخ، قاله الماوردي وحكاه البيهقي، وقال السبكي: أكثر الشراح عليه.
(٢) متفق عليه، وسبق تخريجه.
(٣) أخرجه أحمد في المسند رقم ١٥٩٠.
(٤) أخرجه الطبراني في الكبير رقم ٨٩٠٢، وابن أبي شيبة رقم ١٢٢٨١.

يغمس صاحبه بالإثم، ولكن الحلف بغير الله وإن كان صادقاً، من الشرك، والشرك أكبر الذنوب وأعظمها، أما الكذب فهو كبيرة من كبائر الذنوب، وكبائر الذنوب داخلة تحت المشيئة لقوله جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [النساء: ٤٨].

أما الشرك إذا مات عليه الإنسان فهو غير مغفور وإن كان صغيراً، إن كان صغيراً يعاقب عليه ثم مآله إلى الجنة، بخلاف الذنوب الأخرى، فإن الله إذا شاء أن يغفرها بدون عقاب، وهذا يدلنا على عظم الشرك عند الصحابة، وأنهم يعرفون قدر الشرك وأنه عظيم وإن كان باللفظ فقط.

الشرك لا يتخلص الإنسان من تبعاته وإثمه وعقابه إلا بالتوبة النصوح فيموت تائباً بخلاف غيره كما سبق.

مع أن الكذب جاء التوعد عليه كثيراً، وأنه ليس من أخلاق المؤمنين، وأخبر جل وعلا أن الكاذب الذي يكذب على الله هم المجرمون الذين لا يؤمنون بآيات الله، وإن كان الكذب يتفاوت فمجرد نقل خبر عادي، مثلاً قد يُتساهل، أما القول على الله جل وعلا فهو أعظم الذنوب، والقول على الله بلا علم يدخل في الكذب، وهذا يكون في الأحكام ويكون في الصفات، والأحكام يدخل فيها التوحيد وفعل المكلفين عموماً، وأما الصفات فيذكر صفات الله جل وعلا بأنها كذا وكذا، وأن الله يوصف بكذا وكذا، وهذا يجب أن يكون عن وحي وأن يكون عن فهم حتى لا يقع بالكذب، كل هذا يدلنا على أن الكذب عظيم وليس سهلاً.

أما اليمين الغموس التي يحلف الإنسان على شيء وهو يعلم أنه كاذب وهي في حقوق الناس؛ يعني: إما أنه يريده لنفسه أو أنه يريده لغيره هذا هو الذي جاء أنه اليمين الغموس الذي يغمس صاحبه في النار أو في الإثم - نسأل الله العافية -.

ومع ذلك ابن مسعود ﷺ يرى أن الحلف بغير الله صادقاً أعظم من هذا؛ لأن حسنة التوحيد تمحو السيئات، بخلاف الشرك فإنه إذا مات الإنسان عليه يؤخذ به، فإن كان صغيراً عوقب على حسب شركه، على أحد قولي

العلماء، وإن كان أكبر فالأمر فيه أعظم، فإن الله لا يغفره وصاحبه يكون خالداً في النار ـ نسأل الله العافية ـ.

والمقصود: أن كلام ابن مسعود بهذا واضح وهو يدل على أن الشرك وإن كان في الألفاظ أعظم من الكبائر وأكبر منها، وليس معنى ذلك أنه يتساهل في الحلف بالله وهو كاذب؛ يعني: أن الكذب عظيم ولكن ليبين لنا أن الكذب وإن كان عظيماً، فالشرك أعظم منه وإن كان الشرك من النوع الأصغر، الذي يكون بالحلف بغير الله ويجري على اللسان وما أشبه ذلك.

۞ قال المؤلف ﷺ: وعن حذيفة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «لا تقولوا: ما شاء الله وفلان، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان»، رواه أبو داود بسند صحيح[1].

هذا مثل ما سبق في أول الباب عن ابن عباس، ولكن هذا نص عن النبي ﷺ، وقد جاءت أحاديث كثيرة في هذا كما في الحديث في النهي عن ذلك أن رجلاً قال للنبي ﷺ لما كلمه في شيء: «ما شاء الله وشئت» ـ فقال: **«أجعلتني لله نداً، قل ما شاء الله وحده»**[2]، وجاء كما في الحديث الذي رواه ابن ماجه وغيره حديث الرؤيا عن حذيفة بن اليمان: أن رجلاً من المسلمين رأى في النوم أنه لقي رجلاً من أهل الكتاب فقال: نعم القوم أنتم لولا أنكم تشركون، تقولون ما شاء الله وشاء محمد. وذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: **«أما والله إن كنت لأعرفها لكم، قولوا ما شاء الله ثم شاء محمد»**[3].

فيجوز أن تقول: ما شاء الله ثم شاء فلان، وإن كانت ثم من حروف العطف ولكنها عطف مع التراخي والترتيب، والترتيب هو الذي أجاز ذلك، وأما الواو فهي تدل على مطلق الجمع فقط، ولهذا جاء النهي عن ذلك لأنه يدل على المشاركة، والسبب في النهي دلالته على الجمع بخلاف قول: «ما

(١) رواه أبو داود رقم ٤٩٨٠، وأحمد في المسند رقم ٢٣٣٤٧.
(٢) أخرجه الطبراني في الكبير رقم ١٣٠٠٥، والبخاري في الأدب المفرد رقم ٧٨٣.
(٣) رواه ابن ماجه رقم ٢١١٨.

شاء الله فشاء فلان» بالفاء لأن الفاء أيضاً للترتيب، ولكنه ترتيب مع التعقيب بدون فاصل فهي ليست كالواو في هذا لأنها تدل على الجمع فقط.

وحروف العطف كثيرة، ولكن الذي جاء النهي فيه هي الواو لأنها تدل على الجمع فقط، ولا تدل على كون المعطوف متأخر عن المعطوف عليه، بل يجوز أن يكون متقدماً ومشاركاً له ومساوياً له، فهي تدل على مطلق الجمع فيكون هذا من نوع الشرك اللفظي الذي لا يجوز.

وإلا فالإنسان له مشيئة كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٩]، وقوله سبحانه: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، فله مشيئة، ومشيئته هي إرادته، فإذا وجدت القدرة مع الإرادة حصل الفعل، هذا على حسب الظاهر فقط، وإلا فالأمر إلى الله، ولهذا قال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، وقوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾ [التكوير: ٢٨] فالأمر كله لله جل وعلا.

فلا يجوز أن يشترك المخلوق مع الله في شيء من الأشياء لا مشيئة ولا غيرها، ولكن هذا له حكم الحلف بغير الله؛ لأن الحلف دل على تعظيم المحلوف عليه والتعظيم يجب أن يكون لله جل وعلا مطلقاً في مثل هذا، وهو الذي يذكر اسمه تأكيداً للخبر، ويكون هذا من باب التعظيم لله جل وعلا وإذا جعل المخلوق بهذه المنزلة صار مثل لو قلت: ما شاء الله وشاء فلان.

كل هذا يقصد به مثل ما سبق أن يطهر العبد ألفاظه ولسانه من الوقوع في المخالفات التي فيها قدح في التوحيد والإخلاص، ولا يصل الإنسان إلى حقيقة التوحيد والإخلاص حتى يستقيم لسانه بعد استقامة جوارحه على أمر الله جل وعلا، وقبل هذا استقامة القلب، أن يستقيم القلب وأن يكون تعلقه بربه وحده وأنه هو المعبود الذي يذل له ويخضع ويعظم، ثم يتبع هذا بالعمل ومن العمل الألفاظ التي يتلفظ بها، فيجب أن يحفظ لسانه من الوقوع في المخالفات التي تقدح في التوحيد، ومعلوم أننا مقيدون بمثل هذا بالنصوص التي في كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ وليست هذه آراء وأقيسة وعقول بل هي دين ندين الله جل وعلا به، وهو الذي نأخذه عن ربنا جل وعلا الذي يبلغه لنا رسولنا ﷺ فلا بد من هذا.

۞ قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: وجاء عن إبراهيم النخعي: أنه يكره أن يقول الرجل: أعوذ بالله وبك، ويجوز أن يقول: بالله ثم بك»، قال: «ويقول: لولا الله ثم فلان، ولا تقولوا: لولا الله وفلان»[١].

هذه الكراهة المقصود بها التحريم، وأنه يكرهه؛ لأن غالب ما جاءت الكراهة فيه يدل على التحريم مثل قول ابن مسعود، ومثله قول إبراهيم النخعي وهو من تلامذة ابن مسعود وهو تابعي، والكراهة تنقسم إلى قسمين: كراهة تنزيه وهذه فعلها ليس فيه إثم وتركه فيه أجر لأنه من باب التحرز، وباب الكمال.

وكراهة تحريم وقد جاء في القرآن: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ۝٣٨﴾ [الإسراء: ٣٨] يعني: أنه محرم وقبيح.

۞ قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: فيه مسائل:

۞ الأولى: تفسير آية البقرة في الأنداد.

والتفسير معناه أن الشرك الأصغر الذي يكون في الألفاظ يقول ابن عباس أن الآية تدل عليها، لكن قد يعترض معترض يقول أنها نزلت في الشرك الأكبر كما هو واضح من سياق الآية، نقول: إن ابن عباس ونحوه من السلف الذين شاهدوا نزول الوحي وأخذوا ذلك عن رسول الله ﷺ بينوا هذا، أن الشرك الأصغر داخل في الأكبر فما نزل في الأكبر يكون دليلاً على المنع من الأصغر وأنه من المحرمات، وهذا هو الذي يقصد من التفسير، وليس التفسير محصور في هذا فهو أعم من هذا، فأول ما تدل عليه أن الشرك الأكبر مناف للتوحيد ومناف للأمر والعبادة التي خلق الله جل وعلا لها خلقه، لكن الشرك الأصغر الذي لا يخرج الإنسان من الدين الإسلامي يكون داخلاً في مدلول الآية التي نزلت في الشرك الأكبر الذي هذا وصفه.

(١) مصنف عبد الرزاق رقم ١٩٨١١.

۞ الثانية: أن الصحابة ﷺ يفسرون الآية النازلة في الشرك الأكبر أنها تعم الأصغر.

هذا تفسير لقوله الأول، فهي إيضاح لقوله تفسير الآية.

۞ الثالثة: أن الحلف بغير الله شرك.

كما في نص الحديث: «**من حلف بغير الله فقد أشرك**»، فهو شرك لأن الشرك هو مجرد التشريك في شيء ومنه الحلف، ولهذا لا يجوز الحلف إلا بالله، فإذا حلف إنسان بغير الله فقد جعل ذلك المخلوق شريكاً لله جل وعلا في خصيصة من خصائص الله التي هي أن الحلف يجب أن يكون باسم من أسماء الله أو بصفة من صفاته جل وعلا.

۞ الرابعة: أنه إذا حلف بغير الله صادقاً فهو أكبر من اليمين الغموس.

يعني: أنه أشرك، فالشرك أكبر من الكذب المتعمد الذي فيه قطع حق إنسان، قد جاء في هذا حديث كما في صحيح مسلم: «**من حلف على يمين صبر يقتطع بها مال امرئ مسلم هو فيها فاجر، لقي الله وهو عليه غضبان**»[1]، وهذا أمر ليس سهلاً.

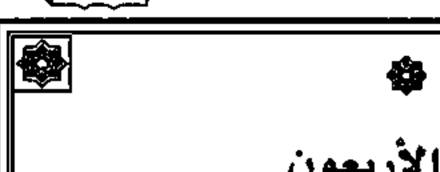
۞ الخامسة: الفرق بين الواو وثُم في الوضع.

يعني: في اللفظ، فهذا لمن يفهم اللغة، يعرف الفرق، ولكن الذي لا يفهم فحكمه كذلك يجب أن يجتنب ذلك، وإن كان لا يفهم العطف مع التراخي، والمعطوف قد يأخذ حكم المعطوف عليه، وقد لا يأخذه.



---

(١) رواه مسلم رقم ١٣٨ من حديث ابن مسعود ﷺ.

الباب الثالث والأربعون

❁ **قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: باب ما جاء في من لم يقنع بالحلف بالله.**

يعني: من الوعيد فإذا لم يقنع بالحلف بالله يعني أنه ليس عنده تقدير لله جل وعلا، وليس في قلبه عظمة الله. والواجب على الإنسان المسلم أن يقدر الله جل وعلا حق قدره حسب إمكانه لأنه لا يمكن لمخلوق أن يقدر الله على ما يستحقه، ولكن الله عفو كريم، إذا قام الإنسان بما يستطيع فإن الله يعفو عن الكثير.

قوله: «يقنع»؛ يعني: أنه إذا حلف له بالله يكتفي بذلك لأن المفروض أن يكون المسلم صادقاً فإذا أكد خبره، فهذا يكون أعظم وأكبر من كون الإنسان مثلاً يظن أن هذا كذباً وإن كان كثير من الناس يستخف بالأمر؛ لأنه ليس عنده تقدير لله جل وعلا، فمثل هذا لا عبرة فيه. وقد جاء في البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: **«رأى عيسى ابن مريم رجلاً يسرق فقال له: أسرقت؟ قال: كلا والله الذي لا إله إلا هو، فقال عيسى: آمنت بالله وكذبت عيني»**[1]، فسر هذا بتفسيرين:

أحدهما: أن عيسى عليه السلام رأى ظاهراً يسرق، فلما قال: كلا والله لم أسرق، صدقه واحتمل أنه له حق في هذا المال الذي أخذه أو أنه أذن له فيه أو ما أشبه ذلك.

التفسير الثاني: أنه لما رأى بعينه هذا السارق ثم حلف له أنه لم يسرق دار الأمر بين أن يصدق بالله جل وعلا لأنه يعلم عظمته وأنه لا يقدم إنسان على الحلف به وهو كاذب وبين أن يصدق ما رأى، فصار تصديقه بالله جل وعلا أولى فقال: صدقت بالله أو رضيت بالله وكذبت عيني.

---

(١) رواه البخاري رقم ٣٤٤٤، ومسلم رقم ٢٣٦٨.

ويقال أن هذا مثل ما وقع لآدم عليه السلام لأنه لما حلف له الشيطان وأقسم أنه ناصح له وأنه يدله على الخلد صدق حلفه وما ظن أحداً يحلف بالله وهو كاذب فوقع ما وقع.

۞ قال المؤلف رحمه الله: عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لا تحلفوا بآبائكم، من حلف بالله فليصدق، ومن حلف له بالله فليرض، ومن لم يرض فليس من الله»، رواه ابن ماجه بسند حسن(١).

وقوله ﷺ: «لا تحلفوا بآبائكم»: تقدم النهي عن الحلف بالآباء وأن هذا من الشرك، شرك الألفاظ التي يقتضي تحقيق التوحيد أن ينزه العبد ألفاظه منها، ويطهر لسانه أن يقع فيها، وإلا يكون توحيده ناقصاً؛ لأنه وقع في شيء من الشرك، وإن كان من الأصغر.

وقوله: «ومن حلف بالله فليصدق»: فهذا أمر أن العبد إذا حلف بالله أن يكون صادقاً، وأن لا يقدم على الحلف بالله وهو مرتاب فيه لا بد أن يكون على يقين وعلى علم فيصدق في ذلك؛ لأن ذكر الله جل وعلا مؤكد به الخبر أمر عظيم لأن الصدق واجب ولو لم يؤكد بذكر الله عليه والكذب حرام، لا يجوز للإنسان أن يقدم على الكذب.

وقوله: «ومن حلف له بالله فليرضى»؛ يعني: إذا حلف له على شيء من الأمور فليرضى بهذا ويصدق.

وقوله: «ومن لم يرض فليس من الله»: هذا وعيد شديد الذي لا يرضى بالحلف؛ يعني: أنه بريئاً من الله، فهذا كقوله جل وعلا: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَىْءٍ﴾ [آل عمران: ٢٨] فهو وعيد شديد.

يقول الشارح رحمه الله حُدثت عن المؤلف أنه حمل هذا في الخصومات والقضايا التي تقع بين الناس في القضاء أنه إذا توجه على خصمه اليمين أنه

---

(١) رواه ابن ماجه رقم ٢١٠١.

يجب عليه أن يرضى[١]. ومعنى ذلك أن الحديث يكون خاصاً، وليس في كل شيء لأنه قد يظهر أن الحالف كاذب.

وكذلك إذا عارض الحلف البينة مثلاً شهد شهود على إنسان ثم حلف أن الشهود كذبه وأنه لم يقع، فهذا لا ينظر إلى حلفه ولا يصدق لأن في ذلك تبطل الدعاوى والبينات.

والظاهر أن الحديث عام، ليس في قضايا الخصومات فقط بل هو عام، فإذا حُلف للإنسان بالله جل وعلا، فإذا لم يكن عنده يقين وعلم بأن هذا الحالف كاذب فإنه يجب عليه أن يرضى بذلك ويصدق.

ووجه إدخال هذا الباب في كتاب التوحيد، أن من لم يرض بالحلف بالله لم يعظم الله جل وعلا ولم يقم بالتوحيد الواجب الذي يسلم الإنسان به من التعرض للعقاب.

❁ **قال المؤلف رحمه الله فيه مسائل:**

الأولى: وعيد من لم يرض.

يعني: أن الذي حلف له بالله يجب أن يرضى، ومن لم يرض فهو متوعد بوعيد شديد.



(١) تيسير العزيز الحميد ١/٥٣٣ قال رحمه الله: وحدثت عن المصنف أنه حمل حديث الباب على اليمين في الدعاوى كمن يتحاكم عند الحاكم فيحكم على خصمه باليمين فيحلف فيجيب عليه أن يرضى.





الباب الرابع والأربعون

❁ **قال المؤلف رحمه الله: باب قول: ما شاء الله وشئت.**

يعني: ما حكم ذلك؟ هل هو من الشرك أو أنه من الألفاظ التي يُتأدب بتركها واجتنابها؟

وسوف يأتي في الحديث التصريح أنه من التنديد؛ يعني: أنه من الشرك، فيكون داخلاً في الألفاظ الشركية التي يجب على العبد أن يحترز منها ويبتعد عنها حتى يسلم توحيده ويكون من الذين يسبقون إلى الجنة بلا حساب؛ لأن الذين يسبقون إلى الجنة بلا حساب هم الذين أخلصوا التوحيد لله جل وعلا وسلموا من الوقوع بشيء من الشرك صغيره وكبيره، أما إذا لم يسلم فقد سبق أن الشرك غير مغفور لصاحبه وإن كان صغيراً إلا بالتوبة، أما إذا مات عليه بلا توبة فإنه على أصح أقوال العلماء غير مغفور؛ يعني: يؤخذ به، ويعاقب عليه ثم يكون مآله إلى الجنة.

وسبق أن الشرك وإن كان صغيراً أنه أكبر من الكبائر، فلهذا يجب أن يكون العبد حذراً من الوقوع بشيء من ذلك ولو باللفظ.

وعلى هذا فقول: ما شاء الله وشئت من المحرمات، فلا يجوز أن يقول الإنسان ذلك لأن الواو تقتضي الجمع إذا عطف بها، والمساواة ولو في مجرد الفعل أو الأمر الذي عطف عليه.

❁ **قال المؤلف رحمه الله: عن قتيلة: أن يهودياً أتى النبي ﷺ فقال: إنكم تشركون تقولون: ما شاء الله وشئت، وتقولون: والكعبة، فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: «ورب الكعبة، وأن يقولوا: ما شاء ثم شئت» رواه النسائي وصححه[1].**

---

(١) رواه النسائي رقم ٣٧٧٣.

قوله: «عن قتيلة»: هذا اسم امرأة وهي جهنية أو أنها أنصارية ولكنها صحابية، ويقولون أنه ليس لها من الأحاديث إلا هذا الحديث، وجاء أنها روت هذا عن عائشة وأنها كانت عند عائشة، وأن اليهودية كلمت عائشة بهذا.

قوله: «أن يهودياً أتى النبي ﷺ فقال: إنكم تشركون»: فيه: أن اليهود يعرفون التوحيد ويعرفون الشرك، وأن الإنسان قد يكون عارفاً للحق ولكنه غير عامل به وغير منتفع به، وأن الحق إذا أتى به من أتى يجب أنه يقبل منه وإن كان عدواً، ولهذا الرسول ﷺ قبل قول اليهودي.

وفيه: أن الإنسان إذا كان له هوى أنه يفهم الدقائق التي توافق هواه وإن كان غير عامل بذلك؛ لأن هذا اليهودي انتقد على المسلمين شيئاً دقيقاً، وإن كانوا يقولون عزير ابن الله، ويقولون أيضاً على الله الكذب ويضيفون إلى الله النقائص، فهم معروفون بهذا ولكنهم أعداء للمسلمين فيتصيدون الشيء الدقيق حتى ينتقدوا المسلمين هذا هو السبب في كونه أتى إلى النبي ﷺ يقول له ذلك، وليس ذلك نصحاً للمسلمين.

وفي هذا: أن هذا القول أنه من الشرك الأصغر إذ لو كان من الأكبر لا يمكن أن يترك الرسول ﷺ أحداً يقوله أو يقره عليه. وقد يكون هذا لم يبلغ الرسول ﷺ فيكون فيه دليل على أن الرسول ﷺ لا يعلم الغيب وإنما يعلم ما علمه الله جل وعلا.

وفيه: أن الرسول ﷺ، ليس له حُجابٌ يحجبونه وليس له أبواب تحول دونه، كل من أراد أن يأتي إليه وصل إليه، ولهذا اليهودي أتى إليه بسهولة وكذلك غيره.

قوله: «إنكم تشركون»؛ يعني: أمتك وليس هو ﷺ، فالخطاب يكون لرسول ﷺ والمقصود به قومه.

قوله: «تقولون: ما شاء الله وشئت»؛ يعني: في خطابهم للنبي ﷺ، أو لغيره، والظاهر أنه لغيره لأنه أنكر ﷺ لما قيل له ذلك كما سيأتي في حديث ابن عباس فيكون اليهودي قد سمع ذلك من المسلمين بعضهم أنه يقول ذلك لبعض، وهذا يؤيد ما سبق في الباب الذي قبل هذا، أن هذه الأشياء كانت ثم

نسخت، ومنها الحلف بالآباء لأنه كان شائعاً في أول الأمر، كانوا يحلفون بآبائهم ثم نسخ بعد ذلك وجاء النهي، فكل الأحاديث التي فيها شيء من ذكر الحلف بغير الله محمولة على هذا، وقد سبقت أجوبة العلماء على هذا، وذكرنا أربعة أجوبة وذكرنا أن الصحيح أنها منسوخة.

قوله: «فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا، أن يقولوا: ورب الكعبة»؛ يعني: أن يحلفوا بالله جل وعلا؛ لأن قوله: **«ورب الكعبة»** حلف بالله جل وعلا والكعبة مربوبة، والمربوب مخلوق لأن معنى الرب المالك المتصرف الذي يَرُبُّ عبده بما يصلحه ويقوم عليه بذلك، فإذاً الكعبة مخلوقة مربوبة، ومعروف أنها بيت الله جل وعلا وأمر الله بتعظيمها بالطواف عليها وبالتوجه إليها في الصلاة وبالحج إليها، وفعل ذلك طاعة لله جل وعلا، فإذا طاف الإنسان عليها فإنه يعبد الله امتثالاً لأمر الله، وليس ذلك عبادة للكعبة فالكعبة لا تعبد، وإنما يُعبد ربها الذي أمر بذلك.

وكذلك الحجر الأسود الذي يقبل، ويستلم باليد لأن الله أمرنا بهذا، ونحن نفعل ذلك امتثالاً لأمر الله، ولهذا لا يجوز أن نتمسح بشيء من الكعبة غير ما أمرنا به مثل الركن اليماني والحجر الأسود، وما عدا ذلك فلا يجوز التمسح به لا بحيطان الكعبة وجدرانها ولا في مقام إبراهيم ولا بغيره فمن فعل ذلك فقد ارتكب بدعة، وأتى بمخالفة يجب أن يتوب منها ويستغفر ربه.

ولهذا لا يجوز أن يقال: ربُّ القرآن أو رب المصحف، وسمع ابن عباس ﷺ وهم في جنازة في البقيع رجلاً يقول: اللهم رب القرآن اغفر لي. فقال: مه القرآن كلام الله غير مربوب[1]. والمربوب هو المخلوق.

وقوله: «رب الكعبة»؛ يعني: الحلف بالله جل وعلا، سواءً قلت رب الكعبة أو رب السماوات والأرض، أو رب العالمين، أو رب محمد أو رب جبريل، أو ما أشبه ذلك، ومعروف أن الإضافة إلى الله جل وعلا على نوعين:

---

(١) شعب الإيمان ١/ ١٨٨ عن ابن عباس: أنه صلى على جنازة فقال رجل: اللهم رب القرآن العظيم اغفر له، فقال ابن عباس: ثكلتك أمك! إن القرآن منه، إن القرآن منه.

النوع الأول: إما أن تكون الإضافة إضافة عين قائمة، والعين القائمة هي التي تشاهد وترى وتشغل مكاناً مثل: ناقة الله، بيت الله، رسول الله.

النوع الثاني: أو تكون الإضافة إلى معنى غير قائم بنفسه مثل رحمة الله، علم الله، حلم الله.

فإذا كانت الإضافة عيناً قائمة، فهذا من باب التشريف، وباب الخصوصية أضيف لخصوصية فيه، إما لأنه فعل يفعل فيه ما هو أمر الله جل وعلا، أو أنه آية من آيات الله مثل: ناقة الله، أو أنه رسول الله قائم بأمره يبلغه ويدعو إليه، فله خصوصية في هذا.

أما إذا كان عاماً مثل: رب السماوات والأرض، فهذا يدخل فيه الخاص والعام، فهو يدل على الربوبية العامة المطلقة، والله رب كل شيء تعالى وتقدس.

أما إذا كانت الإضافة معنى مثل: الرحمة والقوة والعزة والإرادة، وما أشبه ذلك، فهذا إضافة موصوف إلى صفة لأن المعنى لا يقوم بنفسه لا بد أن يقوم بمن أضيف إليه.

قوله: «وأن يقولوا: ما شاء الله ثم شئت»؛ يعني: يأتون بثم والفرق بين الواو وثم: أن ثم تدل على الترتيب مع التراخي وإذا جاء الترتيب زال المحذور؛ لأن المحذور هو الجمع بين ما هو لله وما هو للعبد، أو الجمع بين الأمر المشترك فيه بين الله وبين العبد، الأمر المشترك كما في هذا الحديث.

وقد زعم بعض العلماء أن هذا لا بأس به، وهذا شيء عجيب، كيف يأتي الحديث عن الرسول ﷺ ثم يقول أنه لا بأس بفعل ذلك، واستدل بمثل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وبمثل قوله جل وعلا: ﴿سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ [التوبة: ٥٩] يقول: فجمع بين الله وبين رسوله بالإنعام وبالفضل، فهذا يدل على الجواز والجواب عن هذا من وجهين:

أحدهما: أن الله جل وعلا له أن يقول ويفعل ما يشاء مثل ما سبق في الإقسام، فالله يقسم بما يشاء من مخلوقاته، ولا حجر عليه تعالى وتقدس بخلاف العبيد فإنه يجب أن يمتثلوا أمر ربهم.

الجواب الثاني: أن ما ذكر في الآيتين مختلف الفعل، وليس متحداً، ففعل الله يخصه وفعل الرسول ﷺ يخصه، فالله أنعم على زيد بالإسلام وبالخلق وبالإحياء، وغير ذلك.

والرسول ﷺ أنعم عليه بالعتق، اعتقه فيكون الأمر مختلفاً، ليس كما في هذا الحديث: «**ما شاء الله وشئت**» فجمع بين مشيئة الله ومشيئة عبده.

وكذلك الآية الأخرى ففضل الله بأنه رزقهم ويسر لهم الأسباب، أما تفضل الرسول ﷺ فهو سبب وإن كان يفعله حقيقة، ولكنه بإذن الله وبأمر الله والأول هو المعتمد.

ويبقى أن هذا ممنوع لا يجوز أن يقول الإنسان مثل هذا، ومثل هذا العطف على فعل الرب جل وعلا في غير المشيئة، مثل: لولا الله وأنت، وأنا معتمد على الله وعليك، وأنت لي في الأرض والله لي في السماء، كما في الألفاظ الكثيرة التي نسمعها من الناس، فإن هذا أعظم من قول ما شاء الله وشئت.

فالواجب أن تضاف الأمور إلى الله جل وعلا، وإذا ذكر السبب يعطف على ما أضيف إلى الله بـ «ثم»، وإذا لم يعطف ويترك لله وحده فهو أولى كما جاء في الحديث: «**بل ما شاء الله وحده**»[1].

❁ **قال المؤلف** رحمه الله: **وله أيضاً عن ابن عباس أن رجلاً قال للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت. فقال: «أجعلتني لله نداً؟ ما شاء الله وحده»**[2].

قال: «وله أيضاً»؛ يعني: للنسائي.

---

(١) رواه أحمد في المسند رقم ١٩٦٤.

(٢) رواه النسائي رقم ١٠٨٢٥، وأحمد في المسند رقم ٢٥٦١ بلفظ: «**اجعلتني لله عدلاً**» وهذا اللفظ أخرجه البخاري في الأدب المفرد رقم ٧٨٣.

قوله: «أن رجلاً قال للنبي ﷺ»: جاء أنه طلب من النبي ﷺ شيئاً فقضاه له، فقال له: ما شاء الله وشئت، فأنكر ﷺ عليه هذا القول، وقال: **«أجعلتني لله نداً»**، والند سبق معناه: أنه المثل والنظير ولو بصفة من الصفات، وهذا يدلنا على أنه ولو بفعل من الأفعال ولا يلزم أن يكون الند مماثلاً لما يناده من كل وجه، وهذا ظاهر لمن تأمل هذا الحديث وغيره.

وقوله: «أجعلتني»: الاستفهام استفهام إنكاري، وهو من الكلام البليغ.

«أجعلتني لله نداً» فهل مثلاً الذين يزعمون أنهم يحبون الرسول ﷺ فيجعلون له ما لله جل وعلا، فنوازن مثلاً بين ما يقولونه وبين هذا الذي أنكره ﷺ أشد الإنكار، فيتبين الفرق الشاسع كما في قول القائل:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به ... سواك عند حلول الحادث العمم
إن لم تكن في معادي آخذاً بيدي ... فضلاً وإلّا قل يا زلّة القدم
فإنّ من جودك الدنيا وضرّتها ... ومن علومك علم اللوح والقلم[1]

فجعل الدنيا والآخرة في ضمن جود الرسول ﷺ، ومن جملة علومه علم اللوح والقلم هذه مبالغة ما وصل إليها شرك النصارى وهم الذين قالوا المسيح ابن الله نسأل الله العافية ثم يقول:

ولن يضيق رسول الله جاهك بي ... إذا الكريم تجلى باسم منتقم.

ورسول هنا منصوب على النداء، تقديره: لا يضيق يا رسول الله جاهك بي، فهو يقصد يوم القيامة، إذا غضب الله جل وعلا غضباً لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله يقول في مثل هذا المقام: لا يضيق بي، جاهك يحميني من غضب الله.

فكأنه جعل الرسول فوق الله تعالى وتقدس، ولهم أشياء كثيرة في هذا

---

(١) قصيدة للبوصيري، شرف الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد بن حماد بن عبد الله الصنهاجي البوصيري المصري (٦٠٨ ـ ٦٩٦هـ) نسبة إلى بوصير من قرى بني سويف بمصر، شاعر. أغلب شعره في مديح النبي ﷺ على طريقة الصوفية. من أشهر قصائده البردة والهمزية والرائية.

المجال بأشعارهم ومبالغاتهم ـ نسأل الله العافية ـ فيجب على الإنسان أن يتنبه لمثل هذا.

وقوله: «بل ما شاء الله وحده»؛ يعني: قل ما شاء الله وحده، فهو أمرٌ بالتوحيد، نهاه عن الشرك وأمره بالتوحيد، وهذا يدلنا على أن توحيد الله جل وعلا يجب أن يكون في كل شيء، في أفعاله وفي صفاته وفي أمره الذي يأمرنا به، ونهيه الذي ينهانا عنه، ومعنى ذلك أننا عبيد لله جل وعلا يجب أن نمتثل أمره ونعرف قدره ونعظمه حق تعظيمه، ويلزم من هذا تعظيم أمره إذا أمر بشيء يجب أن نعظمه، ويلزم على هذا أن نعظم رسوله ﷺ فإذا أمرنا بشيء امتثلنا ونحرص على طاعته واتباعه، وكذلك يلزم منه تعظيم كتابه تعظيم القرآن، وتكريم حملته إكراماً لكتاب الله، ويلزم منه أيضاً تعظيم المصحف ومن المؤسف أنك تشاهد كثيراً من الناس يصدر منهم أشياء تدل على عدم تعظيم المصحف، تجده يضعه أمامه على الأرض، وإن كانت الأرض طاهرة فليست المسألة مسألة طهارة ونجاسة المسألة مسألة تعظيم، ما وضعه على ما يدوسه بقدميه فهذا ليس تعظيماً، يجب أن يكون المصحف معظماً مقدراً، ومن ذلك كون بعض الناس يمد رجله إليه، فقد اعتاد الناس أن يضعوه في المساجد في الطاولات التي تكون فيها المصاحف بعضها تكون واطئة، ثم يمدون أرجلهم إليها، ولو كان أمامه مثلاً رجل استحى أن يمد رجله إليه، أما المصحف فلا فهذا يدل على عدم تعظيم الله جل وعلا وتوقيره، هذه الأمور يجب أن يتنبه لها وإذا ذهبت إلى المدارس مدارس الصبيان تجد الأمور التي يندى لها الجبين من تمزيق المصاحف والكتابة فيها ورميها، وكل ذلك يدل على أنه ليس عندنا تعظيم للقرآن، وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: أجمع المسلمون على وجوب تعظيم المصحف، وهذا أمر معلوم، والتساهل فيه لا يجوز، وهو تابع لتعظيم الله جل وعلا.

۞ قال المؤلف رحمه الله: ولابن ماجه عن الطفيل أخي عائشة لأمها قال: رأيت كأني أتيت على نفر من اليهود قلت: إنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون عزير ابن الله. قالوا: وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون ما شاء الله

وشاء محمد. ثم مررت بنفر من النصارى فقلت: إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: المسيح ابن الله. قالوا: وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد. فلما أصبحت أخبرت بها من أخبرت ثم أتيت النبي ﷺ فأخبرته، قال: «هل أخبرت بها أحداً؟»، قلت: نعم، قال: فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد، فإن طفيلاً رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم وإنكم قلتم كلمة كان يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها، فلا تقولوا: ما شاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا: ما شاء الله وحده»[1].

الطفيل: هو ابن الحارث بن سخبرة، والحارث هذا قدم إلى مكة، فحالف أبي بكر ثم توفي وكانت زوجته أم رومان، فلما توفي تزوجها أبو بكر وولدت له عائشة وعبد الرحمٰن، فهذا معنى قوله: أخي عائشة لأمها.

والذي عند ابن ماجه عن حذيفة ابن اليمان، وليس عن الطفيل، فلا يكون هذا فيه قدح على شيخ الإسلام رحمه الله، بل هنا يدل على إتقانه وقوة ذاكرته وعلمه رحمه الله، وقد علم أن العصمة لكتاب الله جل وعلا، أما الكتب التي يكتبها الناس فلا بد أن يقع فيها الخطأ، ولو صححه مائة مرة لا بد أن يقع خطأ.

قال: «رأيت كأني أتيت على نفر من اليهود»؛ يعني: في الرؤى هذه رؤيا منام.

قوله: «قلت: إنكم لأنتم القوم»؛ يعني: القوم الكاملون.

قوله: «لولا أنكم تقولون: عزير ابن الله، وقالوا: وأنتم لأنتم القوم، ولولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد»: وهذه العجائب، حتى في الرؤيا تقع هذه الأشياء، فهي دليل على أن هذا واقع في اليقظة، أنهم يقولون ذلك، فهي رؤى حق.

قوله: «ثم مررت بنفر من النصارى، فقلت: إنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: المسيح ابن الله، قالوا: وأنتم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد»: اتفق اليهود والنصارى على هذا الانتقاد الذي يقوله

(١) رواه ابن ماجه رقم ٢١١٨، وأحمد في المسند رقم ٢٠٦٩٤، والطبراني رقم ٨٢١٤.

المسلمون؛ يعني: أنه ليس عندهم إلا هذا وجعلوه مقابل ما قالوه أن الله جل وعلا له ابن ـ تعالى الله وتقدس ـ فمعنى ذلك أن العدو يبحث عن العيب وإن كان قليلاً فيقابل به العيب الكبير العظيم، والمقابلة يجب أن تكون مماثلة بمثل هذا، البون في هذا شاسع جداً، ولكن هذا الذي أدركوه، ما وجدوا غيره.

وفيه: أن مشيئة الله جل وعلا يجب أن تكون عامة شاملة، وهي خاصة به تعالى وتقدس، والمخلوق لا يشاركه فيها، وكذلك سائر الصفات مثل العلم، علم الله خاص به والسمع والبصر والقدرة والرحمة والغضب والرضا والسخط وغير ذلك؛ يعني: جميع صفاته تكون خاصة به، وإن كان المخلوق يشارك في الاسم وفي المعنى أيضاً، ولكن عند الإضافة تزول هذه المشاركة سواء كانت الإضافة لله كغضب الله، ورحمة الله ورضى الله، أو للمخلوق كغضب زيد، أو عمرو ورضاه ورحمته، فالله لا يشارك زيداً وعمراً وبكراً في خصائصه؛ يعني: خصائص المخلوقين، كما أن المخلوقين لا يشاركون الله جل وعلا في أوصافه وخصائصه، فهذا يجب أن تكون قاعدة نسلكها في جميع الصفات.

وبهذا استدل العلماء على أن تعطيل الله من أوصافه الكاملة التي وصف بها نفسه أو تعطيله عن بعضها أنه شرك، وكذلك إلحاق المخلوق به أنه شرك ولهذا تجد أهل الكلام لا ينفكون عن الشرك؛ يعني: أن الشرك ملازم لهم ـ نسأل الله العافية ـ وهذا أمر عظيم وقد يكون من الشرك الأكبر، ومعنى ذلك أن الشرك الأكبر يقع في العبادة ويقع في الصفات ويقع في الأفعال، أفعال الله جل وعلا كما في هذا الحديث: **«تقولون: ما شاء الله وشاء محمد»** هذا شرك.

قوله: «فلما أصبحت، أخبرت بها من أخبرت»: جاء أنه أخبر بعض أهله.

قوله: «ثم أتيت النبي ﷺ فأخبرته»: مثل هنا يقال مثل ما مر معنا في إتيان اليهود إلى النبي ﷺ يدل على أنه ليس هنا كلفة أو موانع تمنع الإنسان إذا أراد أن يأتي للنبي ﷺ فالأمر سهل، ليس هناك بواب وحجاب ولا غيرهم، بل هو قريب منهم، من أراد أن يأتي إليه أتى، ولأنه رسول الله وليس

من الملوك الذين يتكبرون ويمنعون الناس أن يأتوا إليهم ولا يأتي إليهم إلا الكبراء ومن له قدر عندهم.

قوله: «قال: هل أخبرت بها أحداً؟ قلت: نعم»: قد يكون سبب السؤال هنا أنه إذا كان أخبر بها أحداً يكون قد فسرها بشيء؛ لأن الرؤيا إذا فسرت غالباً أنها تقع مع أن الرؤيا في الواقع تنقسم إلى قسمين:

رؤيا ظاهرة لا تحتاج إلى تفسير، وهذه منها.

ورؤيا هي أمثال يضربها الملك الموكل بالرؤيا فقد تكون بعيدة، وقد تكون قريبة تحتاج إلى التفسير والتأمل، والتفسير يجب أن يكون عن علم ليس فيه تخبط.

قوله: «قال: فحمد الله وأثنى عليه»: الحمد: ذكره تعالى بما هو أهله، والثناء إعادة ذلك وتكراره من الجميل والنعم والفضل الذي يتفضل به أو يتصف به جل وعلا، وكل أفعال الله جميلة، ولكن الحمد يكون بأوصافه وأسمائه الحسنى، ولكن إذا جاء مقروناً بالثناء: «**حمد الله وأثنى عليه**» فمعنى ذلك أنه كرر ذلك، بدأ به وكرره وذكره بهذا، ففي هذا مشروعية الحمد والثناء، يحمد ثم يثني بذكر الحمد والله يحمد بأفعاله وبصفاته، والناس لا يستطيعون أن يقوموا بما يستحقه من الحمد بل الخلق كلهم، ولهذا هو جل وعلا حمد نفسه جل وعلا في المبدأ وفي المنتهى وفي ما بينهما، قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١] هذا في مبدأ الأشياء، وقال في النهاية: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الزمر: ٧٥].

فهنا يلاحظ التعبير في قوله: «وقيل»؛ يعني: أن الحمد جاء عاماً لله جل وعلا من خلقه عموماً حتى من أهل النار، أما بين ذلك فهو كثير جداً، وحمد الله واجب وكذلك الثناء عليه، وقد جعل الله حمده والثناء عليه والصلاة على نبيه ﷺ من أسباب قبول العمل وقبول الدعاء، إذا أراد الإنسان أن يدعو ويقبل دعائه فليحمد الله أولاً ويثني عليه بما هو أهله بصفاته وأسمائه الحسنى ثم يصلي على نبيه ﷺ ثم يدعو، إذا دعا بعد هذا يكون هذا من أسباب الإجابة.

وقوله: «ثم قال: أما بعد»: أما بعد: هذه الكلمة مشروعة في الخطب، وهذه خطبة، وفي هذا أن الرسول ﷺ كان إذا أراد أن يأمر بشيء، أو يعلم أحداً بشيء هام أنه يخطب ويحمد الله ويثني عليه ثم يقول: أما بعد، إن الأمر كذا وكذا.

فهكذا ينبغي للإنسان أن يستن به ﷺ سواءً في ذكر العلم أو غيره في الأمور التي تشرع وتعمل لأن هذه سُنَّته ﷺ.

قوله: «فإن طفيلاً رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم، وإنكم قلتم كلمة كان يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها»: جاء في المسند: **«كان يمنعني الحياء»**[1]، نقول: إن الحياء يمنعه لأن الله ما أمره بهذا، أما لو أمره الله بهذا فإنه لا يمنعه لا حياء ولا غيره، فهو ﷺ ينفذ أمر الله على كل حال. ولهذا كان إذا غضب لله لا يقوم لغضبه أحد، ولا أحد يجرئ أن يكلمه، ولهذا لما سرقت المرأة الشريفة «المخزومية» في مكة، شق ذلك على الناس مشقة كبيرة، قالوا: كيف هذه امرأة شريفة تقطع يدها فتشاوروا فيما بينهم أن يكلموا الرسول ﷺ، فكلهم أجمعوا فقالوا: لا يمكن أن يجري على هذا إلا حِبُّه ابن حِبه أسامة بن زيد، فذهبوا إلى أسامة فقالوا لو تكلَّم الرسول ﷺ، فلما كلمه غضب عليه، قال له: **«أتشفع في حد من حدود الله»**، ثم قام فخطب ثم قال: **«إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»**[2]، فالرسول ﷺ إذا تبين أمر الله له لا يمكن أن يمنعه لا حياء ولا غيره.

فلا بد أن نقول أن الحياء الذي يمنعه لأنه لم يأته وحي في هذا، وكان يكرهه ولكنه استحى أن ينهى عنه بلا أمر.

ثم قال: «فلا تقولوا: ما شاء الله وشاء محمد».

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم ٢٠٦٩٤.

(٢) رواه البخاري رقم ٣٤٧٥، ومسلم رقم ١٦٨٨.

وهذا دليل على أن الرؤيا تكون سبباً للتشريع لأنها نوع من الوحي فيكون شرعاً بسببها مثل ما وقع في الأذان وغيره، وهذا من هذا.

«فلا تقولوا: ما شاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا: ما شاء الله وحده».

ولم تأت «ثم» قال: **«ما شاء الله وحده»** وهذا أكمل من قول: «ما شاء الله ثم شئت»، وأبعد من الوقوع في المشاركة، فهذا فيه النهي عن الجمع بين مشيئة الله وبين مشيئة العبد بالواو، وكذلك في سائر الصفات، وفي سائر الأعمال التي تضاف إلى الله جل وعلا.

يبقى إشكال، وهو ما الفرق بين أن تقول: ما شاء الله وشئت، أو تقول: ما شاء الله ثم شئت؟

والفرق الذي ذكره النحاة وأهل اللغة أن ثم للعطف ولكنه عطف متراخي مع الترتيب الذي يكون ما بعدها مرتب على ما قبلها، ولهذا جاء في القرآن مطرداً في ذكر خلق السمٰوات والأرض، ثم ذكر الاستواء بعدها بكلمة ثم ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فهذه عاطفة ولكنها عاطفة بالترتيب مع التراخي.

وتدل على التشريك، لكنه تشريك بعد التراخي والترتيب، فإذا كان الترتيب انتفى المحذور؛ لأن هذا رتب على مشيئة الله، فينتفي المحذور، وذلك أن الواو لمجرد الجمع ولهذا لو قال إنسان: ما شاء الله ثم شئت وهو يقصد تشريكه في مشيئته، فهذا لا يجوز بل هو أعظم مما لو قال: ما شاء الله وشئت.

فالمقصود: ترتيب الكلام، والكلام يجب أن يكون مفهوماً على نحو ما كان يتكلم به أهل اللغة.

وكان الرسول ﷺ يعتني بالرؤيا، وكان ﷺ كثيراً إذا صلى الصبح وسلم يقول لأصحابه: **«هل رأى أحد منكم رؤيا»**، ثم يقصون عليه ويفسرها لهم.

واليوم الناس فتنوا بالمرائي، والمعروف أن الرؤيا تنقسم إلى ثلاثة أقسام كما جاء في الحديث:

القسم الأول: رؤيا هي أضغاث أحلام، الأمور التي يزاولها الإنسان في حياته، إذا كثر ملابسته لشيء وتردده فيه، فإذا نام تجده يفعل هذا فتجد الذي يلعب الكرة إذا نام يلعب الكرة والذي يقرأ القرآن تجده إذا نام يقرأ القرآن، وهكذا وهذا هو الذي خاف منه السلف يقولون النوم شبيه الموت، فالموت قريب منه، فإذا كان الإنسان مشغولاً في شيء وحضره الموت اشتغل بذلك الشيء، وهذا أمر شوهد في المحتضرين، تجد كثيراً إذا احتضر يقال له قل لا إله إلا الله، فتجده يشتغل بما يزاوله، ولا يقول هذا، وقد ذكر ابن القيم أشياء من هذا كثيرة، وكذلك عبد الحق الإشبيلي في كتابه «العاقبة».

القسم الثاني: تخويف من الشيطان، يخوف العبد به وهذه ظاهرة، ومثل هذه لا تقص على أحد إذا رآها الإنسان يجب أن ينفث عن يساره ثلاثاً ويستعيذ بالله من الشيطان ويتحول عن الحالة التي كان عليها، إذا كان نائماً على يساره ينام على جنبه الأيمن وهكذا.

القسم الثالث: رؤيا الحق التي هي أمثال يضربها الموكل، ولكن إذا كان الإنسان يصدق الحديث صدقت رؤياه، أما إذا كان يكذب في حديثه وأخباره للناس فرؤياه لا تصدق.

فالواجب أن العبد ينزه لسانه من الكلام الذي يكون فيه مؤاخذة ويكون فيه نقص في توحيده ولو لم يقصد المعنى، وإن كان شيء يجري على لسانه بدون إرادة فقول بعضهم مثلاً إذا أنكر عليه: لا تقل والنبي، لا تقل والأمانة وما أشبه ذلك، يقول هذا من لغو اليمين، هذا جهل؛ لأن الصحابة ما كانوا يعتقدون المشاركة وإنما هو شيء يجري على ألسنتهم لأنه سبق أن اعتادوا هذا فجرى على ألسنتهم بلا قصد، فكذلك إذا كان لا يقصد الحقيقة فإنه يكون مؤاخذاً على ذلك.

فالمؤلف ﷺ كرر هذه الأمور التي هي شرك لفظي أو هي نوع من الشرك اللفظي حتى يبين أن تحقيق التوحيد ليس مجرد عبادة فقط وإخلاص فتحقيق التوحيد يجب أن يكون من جميع جوانبه يكون في القلب ويكون في العمل ويكون في اللفظ، فيصبح الإنسان عبداً لله حقيقة في كل تصرفاته وفي

كلامه وفي نياته ومقاصده، ولهذا يقول العلماء المحققون منهم: إن تحقيق التوحيد عزيز وصعب عند كثير من الناس. فلا بد أن يكون الإنسان على حذر.

وبهذا يتبين أيضاً أن الذي يقوم بهذا ليس غريباً أنه يسبق إلى الجنة بلا حساب ولا عذاب كما سبق في الأبواب الأولى.

۞ قال المؤلف رحمه الله: فيه مسائل:

۞ الأولى: فهم الإنسان إذا كان له هوى.

يعني أنه يفهم ما لم يفهمه إذا لم يكن له هوى، هذا شيء معروف في أصحاب الأهواء فهم يستدلون بدقائق يدركونها بهواهم لأن أهوائهم تميل إلى ذلك، بخلاف إذا تجردوا عن الهوى فإنه قد لا يدركون هذه الدقائق.

فالمقصود أن الإنسان إذا كان له ميل إلى شيء أنه يستدل عليه بأمور خفية وهذا منها.

۞ الثانية: قوله ﷺ: «أجعلتني لله نداً» فكيف بمن قال: «يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك...» والبيتين بعده.

الشيخ يشير بهذا إلى أن قول القائل: ما شاء الله وشئت، هذا من الشرك اللفظي الصغير فهل يقارن هذا بقول البوصيري:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به ... سواك عند حلول الحادث العمم
إن لم تكن في معادي آخذاً بيدي ... فضلاً وإلّا قل يا زلّة القدم
فإنّ من جودك الدنيا وضرّتها ... ومن علومك علم اللوح والقلم

(سواك) يقال له: أين الله؟ وكذلك قوله: «عند حلول الحادث العمم»؛ يعني: يوم القيامة إذا نفخ في الصور، فأصبح يعم الخلق كلهم يقول: «ما لي من ألوذ به سواك» بعضهم يزعم أنه يقصد بهذا الشفاعة، فإذا تنزل معه وأنه يقصد الشفاعة، هل الشفاعة تطلب من النبي ﷺ؟ الشفاعة لا تطلب منه ﷺ وإنما تطلب من الله جل وعلا كما قال تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الزمر: ٤٣]، أم هنا يقول

العلماء: إذا جاءت فالمعنى (بل) بل اتخذوا، ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٤٤﴾ [الزمر: ٤٤]، فالشفاعة لله جل وعلا ولهذا كما سبق أن العلماء عرفوا الشفاعة أنها: إرادة رحمة المشفوع له وإظهار كرامة الشافع فقط هذه حقيقتها. وإلا فالأمر كله بيد الله.

ثم ينظر الإنسان إلى هذا الكلام الذي يقوله هو وغيره وهم كثير جداً فهذا مثال فقط، فهل يقارن بقول النبي ﷺ لابنته وأقرب الناس إليه: «**يا فاطمة أنقذي نفسك من النار لا أغني عنك من الله شيئاً**»، وهكذا قال لعمته ولعمه وقال هذا لقرابته كلهم وقبيلته صلوات الله وسلامه عليه عندما أنزل الله عليه ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾ [الشعراء: ٢١٤] كما في صحيح مسلم، وتقدم كلام الشيخ فيه: لو إنساناً صنع ما صنع ذلك اليوم لعده الناس مجنوناً[1]، وهذا صحيح، لو قام إنسان وقال: يا صباحاه فإذا اجتمع عليه الناس قال لهم: أنقذوا أنفسكم من النار فإنكم على خطر عظيم يوشك أن ينزل عليكم العذاب لأنكم عصيتم الله جل وعلا على علم وارتكبتم المناهي ماذا يقول له الناس؟ هذا مسكين، هذا ما عنده فكر.

وليس هذا المقصود، المقصود أن هذه المقارنة بعيدة جداً، والعجب أن هذا الرجل الذي يقول هذا القول يكتب الكتب في شروح الحديث والتفسير وغيرها ويعد من العلماء، فكيف إذا كان من آحاد الناس!! هذا من أغرب ما يكون، ولهذا نقول أن دراسة التوحيد والاعتناء به أمر مهم جداً، ولا يجوز أن يتساهل به كما يقوله كثير من الناس، قد فهمنا التوحيد لماذا الترداد؟ والتكثيف؟ التوحيد قد فهم وبعضهم يقول: الناس خلقوا موحدين، عجائب خلقوا موحدين، نعم صحيح الناس فطروا على الحق ومعرفته، ولكن لا بد من التعلم، ولا بد من الاعتناء بما جاء به الرسول ﷺ ولا بد عن التحفظ من الوقوع فيما وقع فيه هؤلاء، حتى قال بعضهم في قوله: ﴿لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ

(١) القاعدة الثانية عشرة من الباب الرابع عشر: جده ﷺ في هذا الأمر بحيث فعل ما نسب بسببه إلى الجنون، وكذلك لو يفعله مسلم الآن.

﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٩﴾ [الفتح: ٩]؛ يعني: الرسول الرسول يسبح، وبعضهم يقول: يالله يا رسول الله، يجعل الرسول مع الله جل وعلا. وهذا كثير جداً وموجود إلى الآن، ربما يكون في بعض الأماكن أكثر من بعض كما هو الواقع، وعلى كل حال نحن لا نقول أن هذا الرجل ونحوه كافر أو مشرك كما قد يفهم من هذا الكلام، ولكن نقول أن هذا الكلام شرك بالله لا يجوز أن يغتر به لأن الرجل بعينه لا يدري ماذا مات عليه، يجوز أنه تبين له الحق وأنه تاب وغير ذلك.

والحكم لله يحكم بين عباده تعالى وتقدس، وإنما علينا أن لا نغتر بكلام الناس ولا نغتر بمن خالف الحق، يجب أن نتنبه لذلك بقطع النظر من القائل سواء من العلماء أو من المداحين الذين يكون حظهم من رسول الله ﷺ مجرد المدح بالباطل، وقد قال ﷺ: **«لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله»**[1]، وفي رواية قال: **«أنا محمد بن عبد الله، عبد الله ورسوله، والله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله ﷻ»**[2]، فمنزلته التي أنزله إياها أنه عبده ورسوله فهذه أعلى المنازل وأرفعها، أما كونه يدعى مع الله فهذا طريق إلى بغضه إلى أن يكون هذا الفاعل عدواً لرسول الله ﷺ، والله جل وعلا يقول: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣١﴾ [آل عمران: ٣١]، فعلامة حب الله وحب رسوله ﷺ اتباعه صلوات الله وسلامه عليه، وامتثال قوله والحرص على الهداية بهديه والاقتداء به صلوات الله وسلامه عليه ونشر سُنَّته هذا هو عنوان المحبة، أما المدح والإطراء بالكذب والباطل بما يخص الله جل وعلا فهو يسخطه وهو يكرهه أشد الكراهة بل يعادي من فعل ذلك.

۞ **الثالثة: أن هذا ليس من الشرك الأكبر لقوله: «يمنعني كذا وكذا».**

سبق أن الذي يمنعه الحياء، وتبين لنا أن الحياء؛ يعني: أنه يستحيي أن

---

(١) رواه البخاري رقم ٣٤٤٥.

(٢) أخرجه أحمد في المسند رقم ١٢٥٥١.

ينهاهم عن شيء لم يأته الوحي به، ولهذا لما جاءه جزء من أجزاء الوحي مثل هذه الرؤيا نهاهم بل بادر إلى نهيهم.

۞ الرابعة: أن الرؤيا الصالحة من أقسام الوحي.

الرؤيا الصالحة، وكيف نعرف الصالحة؟ لأن الرؤيا قسمها العلماء إلى أقسام ثلاثة كما سبق، وهذا التقسيم في الواقع جاء مرفوع إلى النبي ﷺ.

۞ الخامسة: أنها قد تكون سبباً لشرع بعض الأحكام.

كما كانت سبباً لشرع الأذان كما في الحديث الصحيح، وكما في هذا الحديث وغيره، ولكن هذا في زمن النبي ﷺ، أما بعد وفاته ﷺ فلا يعتمد على الرؤيا في حكم من الأحكام، ولم يذكر العلماء أن شيئاً من الأحكام اعتمد من أجل رؤيا، ولكن قد يكون فيها ما يستأنس به وتكون من الشواهد فقط، وإنما ذكروا رؤيا ثابت بن قيس بن شماس هي التي عمل به أبو بكر رضي الله عنه ورؤياه أنه لما كانت وقعة اليمامة حصل ما حصل فيها وقتل ثابت بن قيس رضي الله عنه في تلك المعركة رآه أحد الصحابة لما قتل فقال له: قل لخالد بن الوليد أن درعي أخذها فلان وعلامة ذلك أنه ألقى عليها برمة عند خبائه، وخبائه عنده فرس تستن وقل له إذا ذهب إلى أبي بكر أن عبدي فلان عتيق وفلان له علي كذا وإياك أن تقول هذه أضغاث أحلام، فلما أصبح ذهب إلى خالد بن الوليد ووجد الدرع كما وصف، ثم لما أتى أبا بكر أخبره فقال: إنها رؤيا حق فأعتق عبده الذي قال أنه عتق وأداء الحق الذي ذكر عليه.

فهذه قرينة، أما كونها مثلاً يعمل بالرؤيا في الأحكام فلا يعمل بها بعد الرسول ﷺ؛ يعني: تكون حكماً مستقل لأن الدين واجب القضاء ولكن لا بد من البينة إذا كان له ورثة فهذه قرينة من القرائن.





الباب الخامس والأربعون

❁ قال المؤلف رحمه الله: باب من سب الدهر فقد آذى الله كما في الحديث.

السب هو: الشتم واللعن وتوجيه اللوم الذي لا يليق أو وصفه بما لا يليق بعظمته.

والدهر: هو الليل والنهار، هو الزمن.

الأذى: في اللغة: ما خف أثره وضعف.

فبنو آدم يؤذون الله ولكنهم لا يضرونه شيئاً، الضرر لا يلحق الله أصلاً بخلاف الأذى وهذا واحد من استعمالاته الذي ينظر في كتاب الله جل وعلا يتبين له ذلك، أن الله أخبر أن المنافقين والكافرين الذين قهرهم الإسلام وصاروا تحت حكمه أنهم لا يضرون المسلمين ولكنهم يؤذونهم بالكلام الذي يكون بينهم أو الأشياء التي يتعاطونها.

ثم أنه في الترجمة لم يذكر الحكم رحمه الله، والحكم المقصود به الحكم الذي يتعلق بالتوحيد لأن السب قد يكون كفراً، وقد لا يكون كفراً، وقد يكون ردة عن الإسلام.

والمفروض أن يكون كل ما في هذا الكتاب يتعلق بالتوحيد كما قال رحمه الله في الباب الخامس الذي قال في نهايته أن كل ما يأت فهو شرح للا إله إلا الله وبيان لها، وإذا تأملنا هذا فإذا هو داخل في ذلك بلا شك، لأن مسبة الله إما أن تكون من كافر خبيث يعرف هذا ويتأمله، أو تكون من جاهل لا يعرف قدر الله ولا يعرف ما أوجب الله عليه فلا عذر له في ذلك، أو تكون من أحمق يغضب من كل شيء فيوجه اللوم حتى للأشياء التي لا لوم عليها، فيكون آثماً إثماً عظيماً ناقص التوحيد.

والأذى قد يكون بالقول وقد يكون بالفعل، وقد لا يسلم العبد من ذلك الأذى، ولهذا جاء المؤلف بهذا الباب حتى يأخذ العبد حذره لا يقع فيه فيقدح في توحيده أو يذهبه.

۞ **قال المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ: **وقول الله تعالى:** ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الجاثية: ٢٤].

هذا قول بعض أهل الجاهلية وليس كلهم، يعتقدون هذه العقيدة الخبيثة التي ذكرها الله جل وعلا، ومعنى ذلك أنهم ينكرون الله وينكرون المبدأ والإعادة، ويقولون أنه يحيا قوم ويموت آخرون، يموت من طال عمره وهرم، ويحيا من يولد، وإذا جاءت عليهم السنين فنوا بمر السنين والأعوام والأيام هذه هي التي تفنيهم، ثم يولد آخرون غيرهم وهكذا، وهذه أيضاً عقيدة الفلاسفة، والفلاسفة يقسمونهم إلى قسمين:

فلاسفة إلٰهيون؛ يعني: أنهم يتألهون ويتعبدون. وفلاسفة ملاحدة لا يؤمنون لا بمبدأ ولا معاد، ولا بـ إلٰه ولا بدين ويقولون أن الطبيعة هذه التي أوجدت هذا الخلق، وأنه كل ستة وثلاثين ألف سنة تعود الأشياء كما كانت كما بدأت، ويزعمون أن هذا تكرر مئات المرات بل ملايين المرات، وهذا مكابرة للعقول والحس والخلق كله، فهم من أكذب خلق الله جل وعلا، وكلهم شر لا خير فيهم، وقد ورثهم قوم، قد تغيرت أفكارهم عن شيء من ذلك ولكنهم على طريقتهم ونحلتهم.

وقوله جل وعلا: «﴿وَقَالُوا۟﴾»؛ يعني: هؤلاء الذين خاطبوا الرسول ﷺ، وقالوا له كيف تحيي الأموات وكان أحدهم يأت بالعظم الرفات ويفته ويقول: تزعم أنه يحيا، استبعاداً لحياة تكون بعد الموت.

أما الفلاسفة فهم يعللون، بقولهم: الموت يبوسة، وهذا لا يمكن أن تدخلها الحياة، فهم ينظرون في أفكارهم فقط.

وهناك من العرب من يؤمن بالمبدأ وبالمعاد ولكنهم وقعوا في الشرك وهم أكثرهم.

وقوله: «﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾»؛ يعني: ما وراء هذه الحياة حياة أخرى إنما هي الحياة الدنيا فقط، ولكن تسميتهم إياها دنيا لأنهم يعيشون فيها فهم يعيشونها، وتباعاً لما جاء عن الأمم السابقة ولا يصح هذا، فتسميتها لأن هناك حياة أخرى وإلا لا يصلح تسميتها دنيا، يقال الحياة فقط حياتنا هذه، ولكنهم لكثرة الإرث وكثرة ما جاء عن الأمم السابقة وغيرهم علقت هذه في أفواههم وفي أخبارهم ومكالماتهم وقالوا هذا، وهذا مما يكذبهم، وفسر هذا بقولهم: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾؛ يعني: يموت قوم ويحيا آخرون هذا معناه؛ يعني: يموت قوم فنيت أعمارهم ويولد غيرهم يخلفونهم.

وقوله: «﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾»؛ يعني: مرور الأيام والليالي وطول العمر هو الذي يهلكون فيه، وليس لهم على هذا أي دليل، ولهذا قال: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾؛ يعني: أنه ليس عندهم أي علم يستندون إليه وإنما هي ظنون كاذبة ومخالفات للواقع لأن الواقع المحسوس المشاهد يكذب هذا، فخلق السماوات والأرض بل خلق أنفسهم يكذب ذلك، ولهذا قال: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾؛ يعني: ليس عندهم إلا ظناً كاذباً، وهذا من قصور العلم وقصور التفكير وقصور النظر فهم لم يستعملوا عقولهم وأفكارهم وإلا لهدوا، إلا أن هذه الحياة بعدها حياة لا تفنى.

وفي الآية الرد على هؤلاء وتكذيبهم وأن هذا كفر بالله جل وعلا، وقد يكون هذا من الشرك لأنهم جعلوا المصرف للدهر وهذا لا يخلو من شيئين:

إما أنهم يعتقدون أن الدهر هو الفاعل وهذا بعيد، ولكن يوجد من يعتقد ذلك، وهذا لا شك أنه كفر بالله جل وعلا وإلحاد، بل وعبادة لذلك الفاعل، فيكون شرك بالربوبية ظاهر كشرك المجوس الذين يعبدون إله الخير وإله الشر، أو إله النور وإله الظلمة أو النار والظلام، فهم يعبدون النار لأن فيها مصدر النور فهؤلاء شاركوهم في شيء.

الثاني: أن يعتقد أن الفاعل هو الله، ولكن وجه اللوم على الظرف الذي تقع فيه الحوادث، وهذا هو الذي عليه أكثر الشعراء والأدباء فإنهم كثرت أشعارهم وكلامهم في سب الدهر ولومه وزعموا أنه يكرم الجهال والمنحطين

ويهين أهل العلم وأهل الأدب وهذا لا يخلو منه كتاب أدب.

وقد قال ابن الجوزي: إن هذا من أعظم الذنوب، ويقول: لم أر ذنباً أعظم من هذا الذنب، فإنه كفر بالله حيث أنهم يوجهون السب إلى الله جل وعلا، ولكنهم يستترون بكونهم يضيفونه إلى الدهر، وهم يعلمون علم اليقين أن الدهر الليل والنهار لا يفعل شيئاً ولا يتصرف، ولا شك أن هذا من أعظم المحرمات ويتضمن الشرك.

فعلى هذا تكون الآية دليلاً على أن هذا داخل في الشرك سواءً الفريق الأول أو الفريق الثاني كلاهما فعله يدخل فيه الشرك.

۞ قال المؤلف ﷺ: وفي الصحيح عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ: «قال الله تعالى: يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر أقلب الليل والنهار»[(١)]، وفي رواية: «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر»[(٢)].

قوله: «وفي الصحيح»؛ يعني: الحديث الصحيح، وإلا فالحديث في الصحيحين، وهذا الحديث من الأحاديث القدسية، والحديث القدسي لفظه ومعناه من الله هذا هو الصحيح، وقال بعض العلماء أن لفظه من الله ومعناه من الرسول ﷺ وهو الذي يعبر، ولكن الصحيح الأول لأنه أضيف إلى الله قولاً: «قال الله» وهذا كثير ما يذكره الرسول ﷺ عن ربه جل وعلا، وهذا يدل على أن قول الله جل وعلا ليس منحصراً في الكتب التي نزلها بل أنزل أقوالاً غير ما في الكتب؛ يعني: غير ما في القرآن وغير ما في التوراة والإنجيل وغيرها من الكتب التي أنزلها على أنبيائه قولاً له.

وقد عرف مذاهب الناس في هذا، أن هذا مما يبين بطلان المذاهب التي خالفت الحق في هذا، مذهب المعتزلة واضح، أنهم ينفون القول عن الله جل وعلا والكلام أصلاً، ويقولون أن القرآن مخلوق، والقول مخلوق، ولكن الذي قد يغتر به كثير من الناس هو مذهب الأشاعرة الذين يزعمون ولا يزالون

---

(١) رواه البخاري رقم ٤٨٢٦، ومسلم رقم ٢٢٤٦ واللفظ له.

(٢) رواه مسلم رقم ٢٢٤٦.

يؤلفون الكتب ويقررون هذا المذهب بأن الله يتكلم كلاماً معنوياً وليس كلاماً لفظياً، وأن الكلام الذي يضاف إليه يكون معنى قائم بالذات، ولهذا إذا جاء ذكر القرآن في كتبهم تجدهم يقولون كلام الله القديم، معنى قولهم كلام الله القديم؛ يعني: أن الله يتكلم كلاماً معنوياً أزلياً قائماً بذاته، أما أن يتكلم كلاماً يتعلق بمشيئته، يتكلم حيث شاء فهذا عندهم ممتنع وهذا من أبطل الباطل، وقد ملئوا الدنيا في كتاباتهم وصاروا يرمون الذين يقول أن القرآن كلام الله حقيقة بأنه مجسم ومشبه وأنه حشوي في سباب طويل عريض.

ومعلوم أن الله جل وعلا يحاسب خلقه، وأن الله أرسل الرسل، وأن الله شرع الشرائع، فكيف يرسل الرسول وهو لا يتكلم، وكيف يأمر وينهى وهو لا يتكلم، فمعنى نفي الكلام أنه يبطل الرسالات ويبطل الشرع ويبطل الدين كله، وإن تأولوا وحاولوا أنهم يغطون هذه الأشياء فإنهم لا يستطيعون ذلك إلا على من لا يفهم ذلك، فأنزلوا الله ﷻ بمنزلة الناقص الذي لا يستطيع أن يتكلم، فيفهم قريبه مثلاً ما في نفسه فيعبر عنه يعبر عما في نفسه، ولهذا يقولون القرآن عبارة عن كلام الله هذا مقصودهم، فإذاً القرآن مخلوق على هذا، ولهذا يقول الجويني وغيره: الخلاف بيننا وبين المعتزلة في خلق القرآن لفظي، ومنهم الآن من يصرح بأن القرآن مخلوق.

قوله: «يؤذيني ابن آدم»: هذا من أعظم الذنوب، كون ابن آدم يؤذي رب العالمين، وقد أخبر الله جل وعلا عن الذين يؤذون الله ورسوله أنهم ملعونون.

والأذية تقع في إضافة ما لا يليق بالله جل وعلا إليه ولو لم يحصل السب والشتم، ولهذا جاء أن من أعظم الأذية دعوى أن لله ولداً ـ تعالى الله وتقدس ـ وكذلك الذين يزعمون أن الله فقير، أو أنه تعب لما خلق السماوات أو أنه بخيل قالوا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤] وهذا صدر من اليهود ولكن لهم إخوان في هذه الأمة كثيرون ينتحلون مذهبهم ويتابعونهم على ذلك.

ومن الأذى كون الإنسان يتجه إلى ميت أو حي أو جماد أو غيره فيطلب منه النصر والظفر، ويطلب منه النجاة أو المساعدة على ذلك فهذا لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً.

ولهذا ابن أبي جمرة لما تكلم على هذا الحديث قال: هذا تنبيه على جميع الذنوب؛ يعني: أن الذنوب تدخل في المسبة؛ لأن فيها استهانة لأمر الله تعالى، والذنوب تختلف اختلافاً كبيراً.

وقوله: «يؤذيني ابن آدم»: وجه الأذى لابن آدم وليس المقصود الحصر بأذية ابن آدم، ولكن لأنهم هم الذين نسمع كلامهم ونشاهد أفعالهم، وإلا فالجن كذلك يؤذون الله جل وعلا، وكل كافر يؤذي الله جل وعلا.

وقوله: «يسب الدهر»؛ يعني: ابن آدم، وعرفنا أن الدهر هو الليل والنهار ومسبتهم إياه، هذا ظاهر جداً لمن يعرف كلام العرب وأحوالهم وما كانوا عليه، والكلام موجه إليهم ذلك أنه إذا أصيب أحدهم بمصيبة إما أنه يعتقد أن الدهر يفعل وهذا لا يأت من عاقل، أو أنه يعرف أن الفاعل الله ولكن وجَّه اللوم إلى الدهر لأنه هو ظرف الحوادث ومحلها التي تقع لهم وهذا نسمعه كثيراً من الجهلة وأشباههم الذين يسبون الأيام والساعات ويلعنونها، يقول بعضهم: الله يلعن الساعة التي عرفتك فيها، واليوم الذي شاهدتك فيه، وهذا لا شك أنه من أخبث الكلام وأخبث المعاصي التي يقعون فيها، وقد جاء في الحديث: **«أنه يأت قوم في آخر الزمن تكون تحيتهم بينهم اللعن»**(١)؛ يعني: إذا لقي أخاه لعنه بدل السلام.

ومن ذلك مسبة أولياء الله، فقد جاء في الحديث: **«لا تقوم الساعة حتى يسبُّ آخر هذه الأمة أولها»**(٢)، والآن السب واضح من الرافضة الذين يلعنون

---

(١) مسند أحمد رقم ١٥٦٢٨ عن سهل عن أبيه عن رسول الله ﷺ: **«لا تزال الأمة على الشريعة ما لم يظهر فيها ثلاث: ما لم يقبض العلم منهم، ويكثر فيهم ولد الحنث، ويظهر فيهم الصقارون**، قال: وما الصقارون أو الصقلاوون يا رسول الله؟ قال: **بشر يكون في آخر الزمان تحيتهم بينهم التلاعن»**.

(٢) حلية الأولياء ٢/٨٧ عن أويس القرني يقول: قال النبي ﷺ: **«احفظوني في أصحابي فإن من أشراط الساعة أن يلعن آخر هذه الأمة أولها، وعند ذلك يقع المقت على الأرض وأهلها فمن أدرك ذلك فليضع سيفه على عاتقه ثم ليلق ربه تعالى شهيداً، فإن لم يفعل فلا يلومن إلا نفسه»**.

الصحابة ويوجهون اللعن إليهم وهم أولى باللعن بلا شك، وهم بهذا الفعل يؤذون رسول الله ﷺ وهم يريدون توجيه اللوم إلى رسول الله ﷺ، ولكنهم لا يستطيعون ذلك فوجهوا ذلك إلى صحابته، ومعنى ذلك على قولهم أن دعوة الرسول ﷺ فاشلة؛ يعني: إذا كان مثلاً ما آمن به إلا رجل هو الذي استقام على طريقته فأي دعوة هذه، وبعضهم يقول أربعة: علي، وأبو ذر، والمقداد بن الأسود، وسلمان الفارسي.

قوله: «يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر»: قوله: **«وأنا الدهر»** فسَّره بقوله: «**أقلب الليل والنهار**»؛ يعني: أنا الذي أصرفه وأنا الذي خلقته، ومعنى هذا أن من سب الشيء الذي صدر من فاعل فعل أو ما أشبه ذلك فإن السب يرجع إليه، فمثلاً إذا سب البناء يقول هذا البناء مائل ويريد أن يسقط وهذا كذا وكذا وأخذ يشتم، فإن السب يرجع إلى من صنعه بلا شك، وبهذا يتبين لنا خطأ ابن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ فإنه عدَّ الدهر من أسماء الله جل وعلا لهذا الحديث فهو خطأ فاحش، فالله ﷻ لا يسمى الدهر؛ لأن أسماء الله كلها حسنى.

والأخبار التي تطلق على الله بابها واسع لا تدخل في الأسماء لأن الله يخبر أنه هو الفاعل وأنه هو المتصرف وأن كل شيء بيده، فهو الخالق وحده وليس معه أحد، ليس معه من يتصرف في الكون غيره - تعالى وتقدس - فمثلاً يقول الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝٦٣ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝٦٤﴾ [الواقعة: ٦٣، ٦٤]، فلا يقال أن الله هو الزارع فيسمى زارعاً أو يؤخذ له اسم من هذا، ولهذا يقول أهل السُّنَّة: يجب أن يعلم أن باب الأخبار أوسع من باب الأسماء. ومعنى أوسع: أي أنها تضاف إلى الله لا على سبيل التسمية، فأسماء الله - تعالى وتقدس - كلها حسنى، ومنها هذا الحديث وقد فسره بقوله: «**أقلب ليله ونهاره**» ولكن قد يقصر الإنسان في التأمل فيقع الإشكال، فمثلاً الحديث المشهور الذي في الصحيح وفيه: «**من تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً، ومن تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً، ومن أتاني يمشي أتيته**

هرولة»[1]، فهل المقصود أن الله يقرب بالأشبار والأذرع والمسافات، يجب أن يقابل الأول بالثاني، فالعبد لا يتقرب إلى الله بالشبر والذراع والركض والهرولة هذا لا أحد يقوله، وإذا جاء ما يتعلق بالله قالوا يجب أن نأخذه على ظاهره، فكيف هذا يؤخذ على ظاهره والأول لا يأخذه على ظاهره، فإذا كان الأول ليس على ظاهره فذلك يليق بهذا، إذا كان العبد يتقرب بالطاعة والإنابة، فكذلك ما يتعلق بالرب جل وعلا فإنه يتقرب إليهم بالإثابة والإجابة والقبول والمغفرة وغير ذلك، فلا يكون من باب الصفات يكون من هذا القبيل، ونقول أن هذا واضح من كلام الرسول ﷺ، فإذاً ليس هناك داع إلى كلام من يقول أن هذا فيه مشكلة ويجب أن نأخذه على ظاهره... إلخ.

والمقصود أن قوله: «**أقلب الليل والنهار**» تفسير لقوله: «**أنا الدهر**»؛ يعني: أني أخلقه وأتصرف فيه وأجعل فيه من الحوادث التي تقع للناس الشيء الذي يتعلق بمشيئة الله وإرادته ـ تعالى وتقدس ـ فالأمور كلها بتصرف الله جل وعلا.

أما قوله: «وفي رواية: لا تسبوا الدهر»؛ يعني: أن هذه الرواية فيها النهي، «فإن الله هو الدهر» فهذه مما أوهم ابن حزم رحمه الله وجزم بأن الدهر هو من أسماء الله، وأن الله يسمى الدهر، والعجب منه أنه ينفي صفات الله جل وعلا يقول: لا يجوز أن تقول أن الله له صفات، وإنما هذا أمر مخترع اخترعه المتكلمون، ثم يثبت مثل هذا الشيء. وزعم أن الصفة ما ثبتت إلا فيما جاء في الصحيح في قصة الذي أمر على السرية، أمره الرسول ﷺ وكان يصلي بأصحابه ويختم بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ①﴾ [الإخلاص: ١]، فقال له أصحابه: إما أن تقتصر عليها وإما أن لا تقرأها قال: لست بفاعل لا بد من ذلك، فسكتوا عنه وتركوه، فلما رجعوا إلى النبي ﷺ أخبروه بذلك، فقال عليه الصلاة والسلام: «**سلوه لأي شيء يصنع ذلك؟**» لما سئل قال: لأنها صفة الرحمٰن وأنا أحبها.

---

(١) رواه البخاري رقم ٧٤٠٥، ومسلم رقم ٢٦٧٥ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «**يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة**».

هذا هو الذي أثبت ابن حزم قال: هذه صفة الرحمٰن فقط ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ أما أن نقول أن لله صفات فلا.

فلا ندري ماذا يقول في مثل قوله جل وعلا: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧] فكيف يقول برحمته، وهذا كثير في القرآن، وعلى كل هو مجتهد يريد الحق فالله يأجره ويعف عنه.

وبهذا يتبين لنا أن هذا الباب له صلة قوية بكتاب التوحيد وأن سب الدهر قد ينافي التوحيد كلية، وقد يذهب بما يجب أو يستحب.

❁ قال المؤلف ﷺ: فيه مسائل:

❁ الأولى: النهي عن سب الدهر.

وهذا للتحريم كما هو ظاهر، وقد يصل إلى الكفر.

❁ الثانية: تسميته أذى لله.

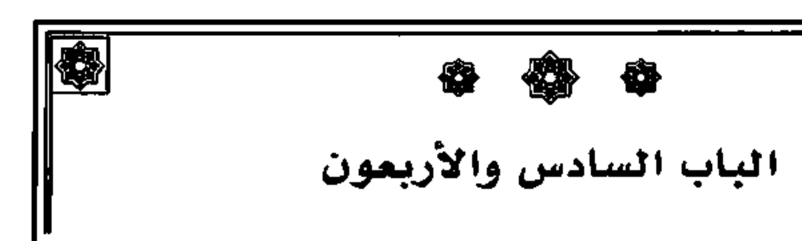
والإنسان يؤذي الله جل وعلا.

❁ الثالثة: التأمل في قوله: «فإن الله هو الدهر».

يعني: تأمل أن الله هو الدهر؛ يعني: أن الله هو الذي يصرف الدهر وهو الذي خلقه وصرفه وأن هذا ليس من أسمائه؛ يعني: تأمل حتى تدرك أن الله هو الخالق للدهر وهو الموجد له وهو الآمر له المتصرف فيه، فالدهر مخلوق مطيع لله جل وعلا، وكذلكم ما يقع فيه من الحوادث.

❁ الرابعة: أنه قد يكون ساباً ولو لم يقصد بقلبه.

يعني: بلفظه دون قلبه، ولهذا يجب على العبد أن يجتنب هذا، وليس هذا خاص بالدهر بل هو عام كما سبق في الباب السابق في قوله: **«ما شاء الله وشئت»**، و**«لولا الله وفلان»**، وما أشبه ذلك، هذا ولو تكلم به بدون اعتقاد فإنه وقع في المخالفة. ومعلوم أن الذي يجري على لسانه مجرد لفظ لا يقصد معناه لا يكون كمن يقصد معناه، ولكنه هو محرم لا يجوز، فالمقصود أن هذا ليس خاصاً بهذا الباب.



الباب السادس والأربعون

❁ **قال المؤلف** رَحِمَهُ اللهُ: **باب التسمي بقاضي القضاة ونحوه.**

يعني: ما حكمه؟

وهل هذا يدخل في منقصات التوحيد؟ المؤلف رَحِمَهُ اللهُ يأتي بالأشياء التي تكون إما قادحة في التوحيد، أو تكون مضادة له، فالقادح يكون منقصاً والمضاد يكون منافياً له، ويكون هذا من باب تفسير الشيء بضده.

قوله: «التسمي»؛ يعني: في العبد يسمي نفسه أو يقر ذلك ويرضى به.

وقوله: «ونحوه»؛ يعني: أن هذا ليس خاصاً بهذا الاسم، مع أن الحديث ليس فيه قاضي القضاة، فيه (**ملك الإملاك**)، وهو بوّب بقاضي القضاة، فمعنى هذا أن كل ما دل على هذا المعنى فهو داخل في ذلك، فمثل ذلك أن يقول مثلاً: «حاكم الحكام» وهذه أولى بالتحريم من قاضي القضاة، وكذلك ما يتعلق بالكذب مثل أن يقول: إنه سيد الناس فهذا كذب واضح، وإن كان هذا أقل من الأول ولكنه لا يجوز أن يطلق إلا على رسول الله ﷺ، ففي الصحيح يقول: «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**»[1]، وذكر السبب في ذلك، وهذه مزية له من الله جل وعلا، وهي فضل من الله وليست من الإنسان؛ يعني: أنه هو الذي أوجدها بل هي فضل الله الذي أعطاه الشفاعة فصار بذلك، والسيد هو المقدم في القوم.

وقاضي القضاة هذا انتشر في كثير من البلاد الشرقية لأن الأسماء التي فيها خنوع وفيها تعدي جاءت أصلاً من العجم، فدخلت على العرب، والعرب ما كانوا يعرفون مثل هذه، فهذه جاءت بعد الإسلام، لما دخل كثير من الأمم الأعجمية في الإسلام فصاروا يسمون قاضي القضاة وإن كانوا يقصدون به كبير القضاة، فلو قالوا كبير القضاة لكان أولى.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم ٢٦٩٢، وهو عند مسلم رقم ٢٢٧٨.

وأهل المغرب سلموا من هذا فإنهم يسمون كبير القضاة عندهم قاضي الجماعة، وهذا لا يدخل في هذا بخلاف ما عندنا فقد يوجد قاضي القضاة فهو من الأمور التي لا تجوز لأن هذا المعنى لا يصح إلا لله جل وعلا، هو الذي يقضي بين كل الخلق ويقضي بين القضاة، كل حكومة سوف تعاد عند الله جل وعلا فيقضي فيها ـ تعالى وتقدس ـ فهو الحاكم الذي يحكم بين خلقه.

ومعنى هذا أن الموحد يجب أن ينزه ألفاظه عما فيه قدح في توحيده، وكذلك أن يبتعد عن الأمور التي فيها دليل على التعدي على حق الله أو سوء الأدب مع الله، يجب أن يكون متأدباً مع ربه وأن لا يكون متعدياً على حقه ـ تعالى وتقدس ـ فحقه جل وعلا أنه الحاكم في كل شيء، وأنه هو المشرع الذي يجب أن يتبع شرعه، وهو الناهي والآمر، فيدخل في هذا تسمية الإنسان مشرع، هذا يشرع الشرع الذي يجب على الخلق اتباعه هو شرع الله، أما ما يشرعه المخلوق فهو إن كان مخالفاً لشرع الله فهو طاغوت ملعون يجب أن يكفر به ويبتعد عنه.

ومثل ذلك ما ذكره سفيان بن عيينة رحمه الله (شاهان شاه)، ومعناه ملك الملوك، ومعروف أنهم يقصدون بهذا ملوك الأرض أو ملوك الدنيا الذين في وقتهم فقط ليس هو عام، ومع ذلك لا يجوز ذلك، لما يوهمه هذا الاسم من تعدي الإنسان وتطاوله، وكذلك سوء أدبه مع ربه جل وعلا، وهذا المعنى لا يصلح إلا لله عز وجل فقط، فهو الحاكم الذي يحكم بين خلقه.

وفي التسمي بقاضي القضاة ونحوه الترفع والتكبر على الناس وهذا نقص في التوحيد، فالترفع والتكبر على الخلق ينافي الذل لله عز وجل، وإذا كان الإنسان لا يطلبه ولا يقره فإنه لا يدخل في هذا الوعيد، وقاضي القضاة داخل في معنى الحديث.

۞ قال المؤلف رحمه الله: وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إن أخنع اسم عند الله رجل تسمى ملك الأملاك،

لا مالك إلا الله»(١).

قوله: «في الصحيح» الحديث في الصحيحين فربما يقصد رواية أحد الصحيحين، فإنه إذا ذكر اللفظ قال في الصحيح، أما المعنى فهو متفق عليه.

وقد فسر قوله: أخنع، يعني: أوضع، هذا تفسير المؤلف، وقد جاء هذا التفسير مروياً عن الإمام أحمد رحمه الله وأحمد أخذه عن ابن الأعرابي وهو معروف باللغة فهو تفسير مروي، وذلك في اللغة وإلا هو أعظم من هذا.

قوله: «أخنع اسم عند الله»: فإذا كان الاسم وضيع عند الله فكيف بالمسمى، المسمى يكون أشد من كون الاسم أخنع، ومعنى هذا أن الاسم من أقبح الأسماء وأصغرها عند الله، فهو مهان ومعذب من تسمى به، وهذا يدل على شدة عذابه.

قوله: «رجل تسمَّى ملك الملوك»؛ يعني: أنه يملك الملوك، ولهذا فسره قال: **«لا مالك إلا الله»**؛ يعني: أن الذي يملك الملوك وغير الملوك هو الله جل وعلا، أما هذا فملكه ورثه عن غيره وسوف يرثه غيره عنه: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٢٦] والأمر بيده جل وعلا وهو الذي يتصرف في خلقه، هذا هو الواجب على العباد أنه يقولوا ذلك ويفهموه ويتبعوه، أما إذا تطاولوا على الله جل وعلا فإنه يذلهم ولهذا عرف رجل مما كان له شيء من الملك أنه سمى نفسه هذا الاسم، فظهرت إهانته للخلق فأهين واحتقر هذا لأنه مسلم فعوقب بذلك، وإلا فقد يقع هذا من الكافر فلا يعاقب لأن الدنيا ليست محلاً لعقاب الكفار، وإن كانوا قد يصابون بالعقاب، ولكن الغالب أنه يؤخر عقابهم إلى الآخرة كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨].

فالعقاب بعد الموت هو عقاب حقيقي، وعقاب الدنيا وإن وقع فإنه ينتهي بالموت، والموت قريب، ولهذا لم يجعل الله الدنيا محلاً لعذاب المجرمين، الذي يتأمل ما عليه المجرمون يجد هذا ظاهراً، ولهذا قال في

---

(١) رواه البخاري رقم ٦٢٠٦، ومسلم رقم ٢١٤٣.

الحديث: «**إن أخنع اسم عند الله**» وهذه العندية تدل على أن الله جل وعلا عالياً فوق خلقه لأنه لا يجوز أن يقول عند كذا إلا إذا كان له مكان والله فوق خلقه مستوياً على عرشه، ولكنه رقيب عليهم لا يخفى عليه شيء، كما أنه محيط بهم وهم في قبضته ـ تعالى وتقدس ـ ولهذا قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: ١]، ختم هذه الآية بهذا اللفظ؛ يعني: أنه مراقب ولا يخفى عليه شيء من أفعالكم ولا أقوالكم ولا مما في قلوبكم، فهو يحصيها وسوف يحاسبكم عليها، وكفى بهذا زاجراً للإنسان الذي يعقل، هذا الذي خالف أمر الله جل وعلا.

وهذا مثله؛ لأن الله لا يخفى عليه شيء، ولكن هذا المتسمي سوف يرجع إلى الله وحده فيجزيه بما يستحق.

وقول سفيان فيه التنبيه أنه ليس المقصود هذا الاسم فقط؛ يعني: أن كل ما جاء في اللغات معناه هذا أنه داخل في ذلك؛ لأن (شاهان شاه) هذا في اللغة الفارسية ومعناه ملك الملوك، وهم لا يزالون يسمون ذلك.

۞ وقوله وفي رواية: «أغيظ رجل على الله يوم القيامة، وأخبثه»[1]؛ يعني: أنه صرح بأن الغيظ لرجل وليس للاسم.

ومعنى «**أغيظ**»؛ يعني: الذي يغيظ الله جل وعلا، ويغضبه، وقيد هذا بيوم القيامة لأنه هو الوقت الذي يجاز به العباد بأعمالهم وأقوالهم وأفعالهم، فيظهر ذلك جلياً، وهذا يعطينا أنه قد لا يعاقب الإنسان في الدنيا بما يستحق بل يملي للعبد ويترك يموت مثل ما يموت الناس وإن توهم بعض الناس أنه لم يعاقب.

ففي هذا منازعة لله جل وعلا في ما هو له؛ لأنه الذي يقضي بين خلقه وهو قاضي كل خصومة تقع، وكذلك ملك الملوك، فالذي يستسلم لربه جل وعلا لا يجوز أن يتسمى بهذا، مع أنه جاء في بعض المتأخرين من العلماء

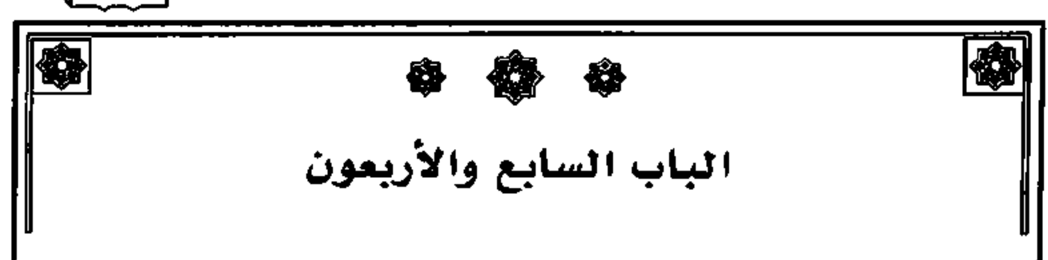
---

(١) رواه مسلم رقم ٢١٤٣: «أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه وأغيظه عليه رجل كان يسمى ملك الأملاك لا ملك إلا الله».

من نازع في هذا وقال: أنه يجوز لأن الرسول ﷺ قال: «**أقضاكم علي**» والحديث ضعيف، فهم يقولون أن هذا فيه دليل على أنه يجوز أن يقول قاضي القضاة لأن أقضى أفعل تفضيل، وقد رد عليه العراقي رَحِمَهُ اللَّهُ ولكنه لم يسمه، قال بعض المتأخرين: الذين تسموا بهذا الاسم وأطلق عليهم وصاروا يتحلونه، وصاروا يتحيلون لجوازه في ذكر بعض الأشياء.

فالمقصود أن هذا لا يجوز، وهو كما هي عادة المؤلف يذكر الأشياء التي فيها قوادح للتوحيد وهذا منها فهو مما ينقصه، وسواء أريد بقاضي القضاة الإطلاق أو التقيد، والإطلاق معناه أنه يطلقه والتقيد يقول: قاضي هذه البلاد، قاضي قضاة هذه البلاد مثلاً، فكله سواء، ومثله كذلك ما قال سفيان بن عيينة: شاهان شاه، وهي ملك الملوك، وسفيان رَحِمَهُ اللَّهُ ينبه على أن المعنى الذي أريد به هذا أنه داخل فيه، وإن اختلفت اللغات وإن عبر عنه بأي لغة كانت فهو لا يجوز، وأما قول رئيس القضاة فهذا ليس فيه مانع، المقصود قاضي القضاة؛ لأن القضاء مرجعه إلى الله ﷻ فهو الذي يقضي بين القضاة، كل قضية حدثت سوف تعاد عند الله ﷻ، والله تعالى هو الذي يقضي بين خلقه.





الباب السابع والأربعون

۞ قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: باب احترام أسماء الله تعالى، وتغيير الاسم لأجل ذلك.

يعني: لأجل احترام الأسماء.

ومعنى احترام الاسم؛ يعني: تعظيمها، أن تعظم، ويعرف قدرها، وأسماء الله جل وعلا يجب أن تكون ثابتة بالنصوص؛ يعني: ليست من باب القياس، ولا من باب الاختراع والنظر، وإنما هي ما سمى الله به نفسه أو سماه به رسوله ﷺ، ومع هذا فهي حسنى لأن الله ذكر هذا في عدة مواضع من كتابه ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، فإذا لم يكن الاسم من الأسماء الحسنى فليس هو من أسماء الله.

ومعنى الحسنى: أي التي بلغت بالحسنى الغاية، ولا يلحقها نقص بوجه من الوجوه لا في لفظها ولا في معناها.

فإذا كان يلحق الاسم شيء من النقص فليست من الحسنى، ولهذا لا يجوز ما أوهم نقصاً أن يطلق بإفراده كالضار أو النافع فقط، بل لا بد أن يقترن وباقترانه يكون من الحسنى.

وقوله: «وتغيير الاسم لأجل ذلك»؛ يعني: لأجل الاحترام وهذا التغيير؛ يعني: أنه واجب ويتعين. ومثل ذلك التسمي بها أن يتسمى الإنسان باسم من أسماء الله التي يختص به، فإن هذا من الإجرام فيكون منافياً لتوحيده ومن ذلك الانتساب كونه ينتسب إلى اسم من أسماء الله جل وعلا، وسواء أفهم الانتساب معنًى باطلاً أو لم يفهم، وهذا يقع لبعض العجم الذين لا يعرفون اللغة العربية كالرحماني، وما أشبه ذلك، فهذا إجرام نسأل الله العافية.

وقد يشارك المخلوق الخالق في الاسم مثل: الرؤوف، الرحيم، لكن

الذي ليس فيه اشتراك فلا يجوز، والشيء الذي فيه اشتراك لا يجوز أن يكنى به كما سيأتي.

۞ قال المؤلف ﷺ: وعن أبي شُريح: أنه كان يُكنى أبا الحكم، فقال له النبي ﷺ: «إن الله هو الحكم وإليه الحُكم»، فقال: إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني فحكمت بينهم فرضي كلا الفريقين. فقال: «ما أحسن هذا، فما لك من الولد؟» قلت: شريح ومسلم وعبد الله. قال: «فمن أكبرهم؟»، قلت: شريح، قال: «فأنت أبو شريح»[(١)]، رواه أبو داود وغيره.

وهو صحيح.

أبو شريح: هو هاني بن الحارث الكندي، وليس النخعي كما قال بعضهم الذي هو والد شريح القاضي، فإن هذا من الخطأ الفاحش.

وجاء أنه وفد مع وفد قومه لما جاؤوا مسلمين، ومعنى هذا أنه في آخر الأمر سنة الوفود، ويترتب على هذا أن هذا الحكم كان قبل أن يسلم، فإذا كان قبل أن يسلم فمعنى هذا أن العرب كلهم عندهم حكام، وأنهم كانوا لا يقتنعون بالقضايا التي يكون فيها تخرصاً أو تكون بدون مبرر، فكانوا لا يورثون البنات لأنهم يقولون أن البنت لا تحمي المال ولا تدافع عن الأعراض، فالذي يرث عندهم الأولاد الذين يركبون الخيل ويدافعون.

وقوله: «ما أحسن هذا»؛ يعني: رضا الفريقين، كون كل واحد يرضى؛ يعني: أن الرضا هو المحسن وليس الحكم.

والشارح ﷺ[(٢)] حاول أن يجعل هذا بعد إسلامه، يقول لا بد أن يكون هذا بعد إسلامه، وفيه بُعد لأنه جاء مع الوفد، وإن قيل أنه أسلم قبل هذا فكونه يجعل حكماً في هذه المدة القصيرة بعيد أيضاً، فالأحسن أن يقال: أن

---

(١) رواه أبو داود رقم ٤٩٥٥.

(٢) تيسير العزيز الحميد ١/٥٥٢ قال ﷺ: لأن هذه القصة كانت بعد إسلامه بقليل لأنه كان مع وفد قومه حين أسلموا وقدموا على رسول الله ﷺ، ولا يظن أن رسول الله ﷺ يحسن أمر حكام الجاهلية.

قوله: «ما أحسن هذا»؛ يعني: رضا الفريقين لأن رضى الناس واصطلاحهم أمر مطلوب وهو حسن كما قاله ﷺ.

والكنية ما أفهمت مدحاً واحتراماً بخلاف اللقب فإنه يدل على العيب والنقص، فإذا أكرم الرجل كُني، وإذا أريد إهانته لقب، فاللقب غالباً يكون في العيب والنقص، ولهذا نهى الله ﷻ عن التنابز بالألقاب وجعل هذا من الفسوق، والذي لم يتب من ذلك يكون ظالماً.

وكثيراً من الناس الآن يلقبون، وقد لا يعرف الإنسان إلا بلقبه، وهذا من المنكر الذي لا يجوز.

والكنية قد تكون بالنسبة إلى الأبناء وقد تكون بالفضائل وبالمحاسن وما أشبه ذلك، وقد تكون بالعَلَمية المحضة مثل أبي بكر.

وقوله: «كان يُكنى»: هذا يدل على أنه شيء مستمر عندهم تعارفوا عليه هذا هو الغالب، ولا يلزم أن يكون هذا دائماً في لفظة «كان»، ولكنها إذا جاءت في أسماء الله جل وعلا فمعناها الدوام والاستمرار، الدوام في الماضي والاستمرار في المستقبل ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ١٣٤]، لأن لفظة كان فعل ناقص من الأفعال التي تدل على الماضي، وهذا لا يجوز في أسماء الله، بل كان ولا يزال، كان في الماضي ولا يزال على ذلك جل وعلا.

وفي الحديث أن الرسول ﷺ كان يغير الأسماء لأجل احترام أسماء الله جل وعلا، لأن التكني بأبا الحكم فيه امتهان لاسم الله جل وعلا، فهذا هو وجه النهي ووجه المحذور، وهم قصدوا بذلك أنه يرضى لحكمه فنسبوه للحكم، فدعاه الرسول ﷺ فسأله، فبين أنه لم يكني نفسه هو في هذا، وإنما كناه قومه، وقال: إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني فحكمت بينهم، فرضي كلا الفريقين، فكنوه بهذا.

ففي هذا دليل على أن الناس إذا نصبوا لهم قاضياً يقضي بينهم أنه ماض قضاءه، ولكن اشتراط العلماء في هذا: صلاحيته للقضاء ولو في مسألة من المسائل؛ يعني: في المسألة التي يتحاكم إليه ويتقاضى إليه فيها يكون صالحاً للقضاء فيها.

أما إذا كان جاهلاً فيها فلا يجوز، ولكن يجوز الإصلاح بين الناس، إلا إذا كان يحل حراماً أو يحرم حلالاً، ومن ذلك ما يتعارف عليه بعض القبائل، إذا حدث خلاف عندهم اجتمعوا وألزموا هذا الذي صار عليه قضية بأموال أو بذبائح وما أشبه ذلك، فهذا لا يجوز لأن هذا إلزام لا يكون من باب الإصلاح، ولكنه قد يلتزم خوفاً مما قد يترتب على ذلك من عاقبتهم أو غير ذلك، وبعضهم يلتزم ما كانوا عليه من عادات الجاهلية ويحترمونها، وهذا أيضاً لا يجوز وهو من المحرمات؛ لأن الالتزام يجب أن يكون لشرع الله جل وعلا، وليس لعادات الناس وأعرافهم، ولا سيما إذا كان فيه إيجاب شيء، أما الصلح الذي هو جائز بين المسلمين فهو مطلق بشرط أنه لا يترتب عليه تحريم حلال ولا تحليل حرام، فإذا لم يكن بهذه الصفة فهو جائز.

أما القضاء بأن يجعلوا إنساناً يقضي بينهم في قضية فهذا جائز بشرط أن يكون هذا الإنسان يصلح لأن يكون قاضياً؛ يعني: يعرف الحكم الشرعي هذا معناه، فإذا كان لا يعرف الحكم الشرعي فلا يجوز أن يجعل قاضياً بينهم، فإن المؤمن إذا دُعي إلى الحكم بما أنزل الله يقول سمعاً وطاعة، أما ما يفعله بعض الناس أنه إذا كان عليه قضية ودعاه خصمه إلى الشرع، يقول: لا أذهب واحضر لي شرطي، فهذا لا يجوز وهو خطر عظيم لأنه دعاه إلى الحكم بالشرع، ومن دُعي إلى الشرع يجب أن يُجيب يقول: سمعاً وطاعة.

وقوله ﷺ: «**إن الله هو الحكم وإليه الحكم**»؛ يعني: أن اسمه الحكم، وقد جاء هذا في أسماء الله جل وعلا في الأحاديث.

وقوله: «وإليه الحكم»؛ يعني: مرجع الخلق إليه فيحكم بينهم سواءً فيما وقع بينهم من خلاف أو فيما يفعلونه من أفعالهم التي كلفوا بها، أو غيرها، فكل الحكم يرجع إليه تعالى وتقدس، ولهذا يثني عليه بذلك قال الله تعالى: ﴿مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢]. واعتذار أبو شريح في قوله هذا يقول: «إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني فحكمت».

يدل على أن الإنسان إذا وضع عليه شيء مما لا يستحقه وهو لا يرضى لا يكون ملوماً، ولكن يجب أن ينهى عنه من الأسماء والكنى وغيرها.

وفي هذا أن الباطل إذا علم ورضي به، أن الإثم مشترك بين الكل، ومثل ذلك الحق وهذه قاعدة في الشرع، ولهذا جاء أن المنكر إذا خفي لا يضر إلا صاحبه، وإذا أعلن ولم ينكَر عمَّ الإثم الجميع، فلا بد من الإنكار، إذا تبين ذلك ومراتب الإنكار معروفة جاء تحديدها في حديث أبي سعيد ﷺ.

وقوله: «أتوني»: يظهر أنهم وضعوه لهذا الشيء، كان لا بد لهم من حل خصوماتهم ومنازعاتهم، وهذا أمر ضروري وهم في الجاهلية يفعلون هذه الأشياء ولكن كثير منهم يتحاكمون إلى الكهان لأن كل قبيلة فيها كهان يتحاكمون إليه، فالحكومة إلى الكهان من الحكم بالطاغوت، ولهذا مر معنا تفسير الصحابة رضوان الله عليهم الطاغوت بالكاهن، ومرادهم هذا لأنهم كانوا يحكمون بين الناس بالباطل فهم طواغيت والصحابة رضوان الله عليهم قد يفسرون الأشياء ببعض معانيها حسب ما ينفع السامع، وهذه من الأمور التي يجب أن تلاحظ في قضاياهم وفي أفعالهم، مثل التفسير تجد مثلاً في تفسير الآية، أن فيها اختلافاً كثيراً، والواقع أنه ليس اختلاف وإنما هو اختلاف الألفاظ فقط، أو بالأمثلة كل واحد يذكر الشيء الذي يليق بالسائل وينتفع به وهذا يدل على عمق علمهم ﷺ.

وقوله: «فحكمت بينهم»: الحكم معناه الإلزام بالشيء، ولولا أنهم رضوا هذا ما التزموا.

ويؤخذ من هذا أنه إذا اجتمع قوم واصطلحوا على أن يكون لهم قاضياً يتحاكمون عليه أن هذا القاضي ينفذ حكمه ويجب أن يرضى بذلك بالشروط الماضية، وهي أن يكون عارفاً لأمور الشرع، وإذا كان يصلح بينهم إصلاحاً فلا بد أن يكون هذا الإصلاح لا يتضمن تحريم الحلال ولا تحليل الحرام، وكذلك لا يكون فيه الحيف والظلم وهذا من الحرام؛ لأن كثيراً من الناس إذا كان الذي يحكم عليه ضعيف فهم لا يبالون به، وإذا كان قوياً فهم يراعونه، وهذا من أخلاق اليهود.

وقوله: «فرضي كلا الفريقين»: هذا هو الذي يظهر أن الحسن وجه إليه في قول الرسول ﷺ ما أحسن هذا؛ يعني: رضي الفريقين؛ لأن رضا

المتنازعين أمر مطلوب شرعاً، فيجب أن يحمل قوله ﷺ: **«ما أحسن هذا»** على ذلك، وليس على الحكم الذي يُحكم به في الجاهلية لأن أحكام الجاهلية كلها باطلة.

قوله: «فما لك من الولد»: يدل على أن التكني بالأولاد هو المطلوب، ولكن إذا لم يكن له أولاد وكان له بنات تكنى بالكبرى ولا بأس بذلك، وإن كان كثير من الناس يغضب لو تكنيه بابنته، ولكن هذا من أمور الجاهلية.

ثم «قال: شريح، ومسلم، وعبد الله» فسأله عليه الصلاة والسلام قال: **«فمن أكبرهم؟»**، قلت: «شريح». قال: **«أنت أبو شريح»**، وليس هذا هو الاسم إنما هذه الكنية، وإلا فاسمه هاني، وفي هذا تقديم الكبير في التكني، فينبغي أن يتكنى الرجل بأكبر أبنائه.

وفيه دليل على أن الواو لا تدل على الترتيب لأنه قال: «شريح ومسلم وعبد الله»، فلو كانت تدل على الترتيب لكفى هذا الكلام، لكن سأل الرسول ﷺ فمن أكبرهم؟ قالوا: وتأتي لمطلق الجمع، فهذا مثل ما مضى في الحلف قول: «ما شاء وشئت» جمع بين المشيئتين بالواو؛ لأن الواو لا تدل على الترتيب بخلاف «ثم» فلو قال: «شريح ثم مسلم ثم عبد الله» مثلاً لدل على الترتيب.

ففي هذا الباب: أن من تمام التوحيد احترام أسماء الله جل وعلا وتعظيمها وتنزيهها أن تكون أسماء لمخلوقين أو أن يتكنى بها أحد من الناس، فيكون هذا من تحقيق التوحيد وعكسه من نقص التوحيد، وهذا هو وجه إدخال هذا الباب في كتاب التوحيد؛ يعني: أن احترام أسماء الله وتعظيمها وإجلالها أن يتكنى بها مخلوق أو يكنى أن هذا من تحقيق التوحيد، وعدم ذلك من القدح في التوحيد، إما أن يكون القادح منافياً أو يكون منقصاً على حسب ما يقوم بالقلب.

❁ قال المؤلف رحمه الله: فيه مسائل:

❁ الأولى: احترام أسماء الله وصفاته ولو لم يقصد معناها.

ولو لم يقصد معناه؛ يعني: أنه مجرد تسمية فقط، أما إذا قصد المعنى فهذا كفر لأنه منازعة لله جل وعلا.

❁ **الثانية: تغير الاسم لأجل ذلك.**

يعني: وجوب تغيير الاسم لأنه يجب أن يغير الاسم من أجل هذا.

❁ **الثالثة: اختيار أكبر الأبناء للكُنية.**

هذا من باب الاستحباب، وإعطاء كل ذي حق حقه، فإنه لو تكنى بالأصغر نقول أن هذا جائز ولكنه خلاف الأولى، وقد يكون في هذا حيف على الكبير، فإذا أشعر بذلك فإن هذا يدخل في المحرمات لأن هذا يدعو إلى قطيعة الرحم، وإلى التعدي، وهذا أمر يجب أن يراعى كثيراً لأن الإنسان قد يميل إلى أحد أبنائه فيكون هذا سبباً لما قد يقع بينهم من الأمور العظيمة من مقاطعة أو تعدي، أو أيضاً كون أحدهم يبتعد عن الحق فينظر مثلاً إلى قصة يعقوب ﷺ لما كان حبه ليوسف أكثر ماذا حصل بينهم، هداهم هذا إلى أنهم يعتدوا عليه ويحاولوا قتله، فوضعوه بالبئر وباعوه بدارهم بخسة، وإن كانت هذه أمور قضاها الله جل وعلا، ولكن الإنسان مسئول عن أفعاله يجب أن يعدل بين أبنائه بالتقدير وبالحب وبالمال، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «**فاتقوا الله واعدلوا بين أولادكم**»(١).

ولهذا لما سئل الرجل: «أليس يسرك أن يكونوا لك في البر واللطف سواء»(٢)؛ يعني: أنهم إذا عدل بينهم يبرون، وقد يتحمل بعضهم ولكن هذا قليل.

المقصود: أن هذه من الأمور التي يترتب عليها أمور قد توقع إما بالتحريم، وإما بالكراهة.

وفي هذا أيضاً من المسائل التي لم يذكرها:

الأولى: أن الواو لا تدل على الترتيب.

الثانية: أن الكنية جائزة وإن كانت زائدة على الاسم لكنها للتقدير.

---

(١) رواه البخاري رقم ٢٥٨٦، ومسلم رقم ١٦٢٣.

(٢) رواه مسلم رقم ١٦٢٣، وأخرجه أحمد في المسند رقم ١٨٣٧٨، وأبو داود ٣٥٤٢ واللفظ لهما، وابن ماجه رقم ٢٣٧٥.

أكـنـيـه حـيـن أنـاديـه لأكـرمـه ولا ألـقـبـه والـسـوأة الـلـقـب

فهذا شيء معروف أن اللقب لا يجوز.

الثالثة: جواز الحكم بين الناس إذا كانوا يرضون بذلك وإن لم يكن الإنسان قاضياً، وإذا اصطلحوا على هذا فإنه جائز إذا كان الذي يحكم يصلح للقضاء.







الباب الثامن والأربعين

۞ قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ: باب من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول.

قال: «بشيء فيه»: يدل على أن الذي يهزل بالله أو بالرسول أو بالقرآن أن أمره مفروغ منه، ولكن هذا قد يهزل بشيء يظن أنه لا يشتمل على التنقص، وسواءً كان هذا من باب اللعب والضحك والمزح أو كان من باب الجد لا فرق بينهما؛ يعني: لا فرق بينها في الحكم، أما في الإثم ففيها فرق كبير لأن الآثام تتفاوت حسب ما يقوم في القلوب من ارتكاب المعاصي وعدم احترام رب العالمين جل وعلا، أو كلامه، أو رسوله، أو حكمه الذي يحكم به جل وعلا.

والهزل معناه: ضد الجد؛ يعني: اللعب والمزاح، هذا الغالب أنه لا يقصد به الجد.

فأحكام الله جل وعلا وخصوصاً التي هي كلامه أو حكمه أو رسوله لا يجوز أن يكون فيها شيء من ذلك، حتى الأحكام التي حكم بها بين خلقه، ولهذا لما طلق رجل امرأته ثلاثاً بلفظة واحدة قال عليه الصلاة والسلام: «**أيلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم**»[1]، جعل هذا من اللعب؛ لأن هذا في ما قصد اللعب، ولكنه تكلم بهذا من باب الجهل.

وجاء في الحديث أيضاً: «**ثلاث جدهن جد وهزلهن جد: النكاح، والطلاق، والرجعة**»[2]؛ يعني: لو أن الإنسان مثلاً تكلم بهذا ولو بالهزل ألزم بذلك، يجب أن يلتزم بهذا، وإلا يكون آثماً.

---

(١) رواه النسائي رقم ٣٤٠١ من حديث محمود بن لبيد.

(٢) رواه أبو داود رقم ٢١٩٤، والترمذي رقم ١١٨٤، وابن ماجه رقم ٢٠٣٩ من حديث أبي هريرة ﷺ.

ولكن هذا الذي ذكر هنا ليس من هذا الباب، هذا من باب السخرية وهو كفر بالله جل وعلا وردة إذا كان الإنسان مسلماً يرتد بذلك.

وفي هذه القصة والآيات التي ذكرت يريد بذلك التنبيه على أن السخرية والاستهزاء بشيء من كتاب الله أو في دين الله أو رسوله أنه يخرج العبد من دين الله ويجعله مرتداً، وهذا قد يتساهل فيه كثير من الناس؛ لأنه يحدث كثيراً على وجه اللعب والمزاح، وهذا من الخطورة بمكان، لأن الإنسان يخرج من الدين بشيء لا يعرفه ولا يعلم أنه يخرجه من الدين ثم يحكم عليه ولا يقبل عذره أيضاً، فهذا الواجب أن يكون العبد على حذر منه.

وهذه القصة وقعت في غزوة تبوك، وهي آخر غزواته صلوات الله وسلامه عليه، كانت في السنة التاسعة من الهجرة، ولما رجع أرسل معاذاً إلى اليمن، ثم جاءت حجة الوداع وبعد ما حج بقي ثلاث وثمانين يوماً ثم توفي صلوات الله وسلامه عليه، وسورة التوبة معظمها نزل في غزوة تبوك.

وهذه القصة وقعت مرتين؛ يعني: في قضيتين، وليست قضية واحدة، ولهذا جاء في الآية الأخرى قوله تعالى: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٦]، وهذه فيها: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ [التوبة: ٧٤]، فرق بين هذا وهذا وكلها في المنافقين، ومعظم هذه السورة في صفات المنافقين، ولهذا سماها بعض العلماء (الفاضحة)؛ يعني: أنها فضحت المنافقين، يقول: لم يزل الله جل وعلا يقول: ومنهم ومنهم حتى فضحهم وبيَّن حالهم[1]. ومع هذا جاء فيها أن من المنافقين من لا يعلمهم رسول الله ﷺ، وأخبر ﷺ أنه هو الذي يعلمهم.

وفي هذه الغزوة همَّ المنافقون بقتل رسول الله ﷺ فإنه في رجوعه ﷺ

(١) رواه البخاري رقم ٤٨٨٢، ومسلم رقم ٣٠٣١ عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: سورة التوبة، قال: التوبة هي الفاضحة ما زالت تنزل ومنهم ومنهم حتى ظنوا أنها لن تبقي أحداً منهم إلا ذكر فيها، قال: قلت: سورة الأنفال، قال: نزلت في بدر، قال: قلت: سورة الحشر، قال: نزلت في بني النضير.

كان في طريقه عقبة ما يسلكها إلا بعير واحد، فقال عليه الصلاة والسلام: «**إني سالك هذا الطريق فلا يسلكه أحد**[1]»، فسمع المنافقون ذلك فترصدوا له، وقالوا: هذه فرصة. فذهبوا وكمنوا في أثنائه، فأمر رسول الله ﷺ حذيفة أن يقود ناقته وعمار أن يسوقها، فلما صار في أثنائه ثاروا في وجه ناقته يريدون أن يسقطوه من عليها فيهلك، فصاح بهم حذيفة وصار يضرب ركابهم فخافوا أن يعرفوا فهربوا. فسأله الرسول ﷺ: **هل عرفت منهم أحداً؟** قال: القوم متلثمون فلم أعرف منهم أحداً، ولكن عرفت راحلة فلان وفلان فأخبره الرسول ﷺ بأسمائهم وأسماء غيرهم من المنافقين، وقال له: **لا تخبر أحداً**»، ولهذا سُمي حذيفة صاحب سر رسول الله ﷺ، وليس كما تزعم الصوفية أنه أسرَّ إليه أحكاماً وأموراً من أمور السلوك، وأمور التعبد، فإن هذا باطل.

والرسول ﷺ بيَّن الأحكام والسلوك وأمور الشرع لا يسرها إلى أحد وإنما يعلنها للناس عموماً، وفي سورة الأحزاب يقول الله جل وعلا: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ [الأحزاب: ٦٠]، ولهذا كان شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: إن المنافقين تابوا لأنهم لو لم يتوبوا لأغرى الله جل وعلا بهم رسوله ﷺ وقتلهم، وهذا لم يحدث أخذاً من هذه الآية.

وإن كانوا تابوا فليس كلهم، وإنما يتوب بعضهم، والله جل وعلا يتوعد على الأفعال وقد يؤخر الجزاء وهو كثير جداً، لأن الدنيا ليست أهلاً ولا محلاً ولا قيمة لها حتى في عقاب المجرمين؛ لأنهم لو عوقبوا فيها صار عقابهم قصير، وإن كان فيه عظة وفيه شفاء لما في قلوب المؤمنين، ولكن الله حكيم عليم.

ولهذا تجد الظالم يظلم ظلماً عظيماً ثم يعيش كما يعيش الناس ويموت كما يموت الناس ولا يحدث له شيء، والله جل وعلا يقول: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾﴾ [إبراهيم: ٤٢]، هذا الذي يكون فيه النكال في ذلك اليوم يلاقون جزاءهم، فالمقصود: أن المنافقين لم يتوبوا كلهم، وإن تاب منهم من تاب فإن أكثرهم بقي على نفاقه.

---

(١) رواه أحمد في المسند رقم ٢٣٨٤٣.

والمنافقون وقائعهم كثيرة، والعبرة بما حكم الله جل وعلا، وحكم فيه رسوله ﷺ على هؤلاء، ومن المعلوم أن القواعد التي عرفها العلماء وقرروها: أن الاعتبار لعموم الكتاب والسُّنَّة، وليست الأسباب أو الأمور الخاصة التي نزلت مثلاً فيها الآية أو وقعت فيها القصة؛ لأن الله أنزل كتابه ليبقى للناس إلى قيام الساعة، الشيء يكون في الرجل الواحد، ويعم الأمة كلها، كل من شابهه أو جاء بشيء منه فله هذا الحكم.

والسخرية والاستهزاء هذه لا حد لها، وهي تختلف باختلاف أساليب الناس وأوضاعهم، فقد تكون بالكلام أو بالهمز، وقد تكون مثلاً بالضحك أو تكون بأشياء اصطلاحية جديدة يأتون بها، والحكم لا يختلف فيها.

قوله: «من هزل»: الهزل ضد الجد، والمقصود بالهزل اللعب.

قال: «بشيء» ليس في آيات الله أو رسوله ﷺ ومقصوده بالشيء؛ يعني: أنه مثلاً سخر من إنسان متدين لدينه أنه واقع في ذلك، فلو أنه مثلاً يقول أنه طويل اللحية أو ما أشبه ذلك إذا كان يسخر من اللحية وبأنه يتبع بذلك رسول الله ﷺ، أو أنه طويل السواك مما نسمعه كثيراً من الناس، فهذا يدخل في هذا الحكم لأنه قال: **«في شيء فيه ذكر الله»**، والمقصود بذكر الله؛ يعني: دينه وشرعه الذي يتدين به الإنسان، ولهذا عطف عليه بقوله: **«أو القرآن أو الرسول»**. الرسول المقصود به اسم جنس فليس خاصاً برسولنا ﷺ، فهو يعم كل رسول، فصار عاماً، فالترجمة عامة، كل من استهزء بشيء من أجل ديانته فهذا حكمه ثم ذكر الآية. والحكم أنه يكون كافراً مرتداً إن كان مسلماً.

❁ **قال المؤلف** رحمه الله: **وقول الله تعالى**: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [التوبة: ٦٥].

والقصة في هذا يقول عوف بن مالك وكان معهم، وقد جاءت ألفاظ كثيرة ولكن المعنى واحد، وابن إسحاق رحمه الله ذكر هذا، وعادته وغيره من المفسرين يجمعون الروايات ويذكرونها بالمعنى، وإلا فقد روى ابن أبي حاتم في هذا ألفاظ متعددة وغيره كذلك، وكل من ذكر هذه القصة رواها بألفاظ

مختلفة، مما يدل على أنه ليست كلمة واحدة، وإنما هو مجلس قالوا فيه ما قالوا، ولكن الذي سمعه عوف بن مالك بادر لإنكاره، وقال: «كذبت ولكنك منافق»، ففي بعضها أنهم قالوا: «ترون أصحابكم هؤلاء كأننا بهم غداً مقرنين بالحبال»، ومنهم من قال: «تحسبون جلاد بني الأصفر كجلاد العرب»؟ وبني الأصفر هم الروم، وجاءت روايات أخرى بغير هذا، مما يدل على أنه حديث جرى بينهم وأنهم تبادلوا الحديث فيما بينهم في هذه القصة، وأنها ليست كلمة عابرة فقط بل طارحوها، وفي بعض الروايات أن بعضهم قال: والله لوددت أني أقاضي على أن يضرب كل رجل منا مائة جلدة وإنا نتفلت أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه. وهذه عادة المنافقين يرجفون بالناس، ويخوفونهم لأنهم هم أهل الخوف وأهل الجبن، وأما كونهم مع المسلمين فهم يُوهنونهم، وقد يكون فيهم كما قال جل وعلا: ﴿سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٧] وهذا كثير، وفي بعض هذه الروايات غير هذه الألفاظ ولكن المعنى واحد. يقول:

عن ابن عمر ومحمد بن كعب وزيد بن أسلم وقتادة ـ دخل حديث بعضهم في بعض ـ أنه قال رجل في غزوة تبوك: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطوناً، ولا أكذب ألسناً، ولا أجبن عند اللقاء؛ يعني: رسول الله ﷺ وأصحابه القراء، فقال له عوف بن مالك: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ، فذهب عوف إلى رسول الله ﷺ ليخبره، فوجد القرآن قد سبقه، فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله ﷺ وقد ارتحل وركب ناقته. فقال: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونتحدث حديث الركب نقطع به عناء الطريق، قال ابن عمر: كأني أنظر إليه متعلقاً بنسعة ناقة رسول الله ﷺ وإن الحجارة تنكب رجليه، وهو يقول: إنما كنا نخوض ونلعب، فيقول له رسول الله ﷺ: ﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦] ما يلتفت إليه وما يزيده عليه[١].

---

(١) رواه ابن جرير في تفسيره متفرقاً ١٤/ ٣٣٣.

قوله: «عن ابن عمر ومحمد بن كعب وزيد بن أسلم وقتادة»: هؤلاء كلهم رووا هذه القصة.

قوله: «دخل حديث بعضهم في بعض»؛ يعني: هو أدخل حديث بعضهم ببعض وجمعه.

قوله: «أنه قال رجل في غزوة تبوك»: هم كانوا جالسين فقالوا هذا القول فضحكوا، فالضحك الذي جرى منهم يدل على أنهم عجبوا من هذا وأنهم موافقون له وراضون به، ولهذا عمَّهم هذا كلهم، ولم يعين الرجل مع أنهم يعرفونه، وفي هذا الستر على الإنسان أولى لأنه لو سمي لاشتهر بين الناس وعرفوا أن هذا من المنافقين، وقد جاء في بعض الروايات تسميته وهو ليس وحده، والذي جاء يعتذر رجل واحد، أما البقية لم يعتذروا مما يدل على أنهم منافقون، ولكن قول الله جل وعلا: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ يدلنا على أنهم كانوا مؤمنين قبل هذا، وأنهم كفروا بهذا القول وخرجوا من الدين.

وإذا قال الله لمن وقع في أمر من الأمور أو جاء بشيء منه أنه كفر، فلا يجوز لأحد أن يقول: ليس كفر، فالشيء الذي سماه الله كفر يجب أن يسمى كفراً.

وأصل الكفر: أنه مأخوذ من التغطية والستر، ولهذا يسمى الذي يغطي البذر كافراً كما قال الله تعالى: ﴿أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ [الحديد: ٢٠] يقولون: الكفار هم الزراع؛ لأنهم يعرفون النبات الجيد من غيره.

والأصل أن الإنسان خُلق عارفاً لربه جل وعلا عابداً له، وإذا أنكر ذلك فقد كفر.

ولكن المصطلح عليه عند العلماء علماء الشرع أن الكفر ضد الإيمان وهو عدم قَبول ما جاء به الرسول ﷺ والإقرار به، وسواءً كان جزئياً أو كلياً لأن دين الله جل وعلا لا يقبل التجزئة، ولا يمكن أن الإنسان يأخذ البعض ويترك البعض وقد أخبر جل وعلا أن الذي يؤمن ببعض ويكفر ببعض أنهم كفار حقاً.

وغزوة تبوك هي آخر غزوات الرسول ﷺ، وسُميت تبوك لأنه نزل في تبوك وكان مارداً وليس بلداً في ذلك الوقت، نزل وبقي فيها عشرين يوماً ينتظر الروم فلم يأتوا بل أحجموا عن مواجهته فرجع ﷺ بلا قتال، ولكنه حصل أشياء في دومة الجندل وغيرها لأنه أرسل السرايا وحصل فيها قتال وحصل فيها ما حصل.

وسورة التوبة نزلت في هذه الغزوة وفيها كثير من صفات المنافقين كما أن فيها أيضاً البراءة من الكفار والحذر من الركون إليهم، وكذلك النهي عن الاستغفار لهم ولو كانوا ذوي قربى، كما فيها أن الله أثنى على أهل السوابق من الصحابة وأخبر أنه رضي عنهم ورضوا عنه من الأنصار والمهاجرين وفضل بينهم، الأولين الذين سبقوا إلى الإسلام فضلهم، وكذلك فيها أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله، وفي هذه الآية قدم الأنفس في الشراء والبيع على الأموال وكل ما جاء في القرآن من أوله إلى آخره عند الأمر بالجهاد بالمال والنفس فإنه يقدم المال إلا في هذه الآية لأن فيها الشراء والمبايعة، والنفس أهم وأعظم من المال بلا شك، وهذا هو السبب في كونها قدمت في هذا، وإلا فالمال أهم من النفس في الجهاد؛ لأن المال يحصل به ما لا يحصل بجهاد الفرد أو الأفراد، ولهذا كان كل الآيات في الجهاد بالمال أو النفس يقدم المال.

وفي السورة منَّة الله على المؤمنين أولها في نبذ العهود إلى المشركين.

وفيها آية السيف التي يقول العلماء أنها نسخت كثير من الآيات حسب كلامهم، ولكن النسخ في اصطلاحهم هو التخصيص، وليس النسخ الإزالة؛ لأن الآيات التي في السور المكية خصوص فيه الصبر والتحمل والمدافعة بالتي هي أحسن، أما في هذه قال تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ﴾ [التوبة: ١٢٣]، ومعلوم أن هذا لا نهاية له الذين يلونكم من الكفار فكل ما توسعت بلاد المسلمين فيليها كفار، فمعنى ذلك أن هذا لا نهاية له في القتال في الجهاد.

وكذلك في أولها يقاتلوا حتى يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، وكذلك فيها

أن برئ جل وعلا ورسوله من المشركين والمؤمن يجب أن يبرأ مما برئ منه ربه ورسوله، وكذلك فيها قصة المنافقين الذين بنوا المسجد ويلبسون على الناس بأنهم بنوه للضعيف وهم يجعلونه معقل لهم ليحاربوا الله ورسوله، فأمر الرسول ﷺ بإحراقه على من فيه لأنهم أتوا إليه وهو يتجهز وهم قد بنوه فطلبوا منه أن يصلي فيه ليكون ذلك حجة لهم فقال: «**نحن على سفر ولكن إذا رجعنا إن شاء الله**»، وقبل أن يصل إلى المدينة نزلت عليه الآيات في قصته فأمر بعض أصحابه أن يذهبوا ويحرقوه، فذهبوا فأحرقوه، ففي هذه القصة الغلظة على المنافقين أنهم يغلظ عليهم.

وقولهم: «**ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء**» القراء في لسان السلف هم العلماء؛ لأن من يقرأ الشيء يفهمه لهذا جاء في تابع التابعين سؤال أنه يوجد عندنا مما يقرأ القرآن ولا يفهمه؟ قال هذه بدعة؛ يعني: أن هذا شيء جاء جديد ما كان معروفاً، فالذين كانوا يقرؤون القرآن كانوا يفهمونه؛ لأنهم يعرفون اللغة فهم يعرفونه. والصحابة كانوا ما يتجاوزوا عشر آيات حتى يعرفوا معانيها ويعملوا بها، ولهذا ابن عمر بقي يتعلم سورة البقرة سبع سنوات، وابن عمر ﷺ ذكي، ولكنهم قصدوا العمل ولهذا قال: فتعلمنا العلم والعمل معاً.

والأمر اليوم وصل إلى حد كبير، صار الإنسان يقرأ ولا يعرف ما يقرأ وهذا لا ينبغي لأن الله أنزل القرآن ليتفهم ويتدبر، قال جل وعلا: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩]، والتدبر هو العلم والتفقه، وهذا أمر بأن يتدبروا آياته والتذكر هو العلم والتقوى، فلا بد من المعرفة ثم العمل.

فقوله: «**قرائنا**» يقصدون الصحابة، وهذا يدل على المزح والسخرية «**قرائنا هؤلاء**» فنفس الكلام يدل على أنهم ليس على نهجهم وأنهم يسخرون منهم. والكلام إذا أفهم سخرية فله حكم الظاهر، ولهذا لما قال رجل لخالد بن الوليد: كما يقول صاحبكم. قال: صاحبنا فأمر بقتله، اعتبر هذا استهزاء بالرسول ﷺ؛ يعني: أنه ليس صاحب له هو!! وهذا مثل هذا القول.

وقوله: «**أرغب بطوناً**»؛ يعني: البطون كبيرة، هذا كذب ظاهر، ما كان الصحابة يأكلون كثيراً، ولا كانت لهم بطون كبيرة، بل كانوا خماص البطون

وكان أحدهم يطوي اليوم واليومين والثلاثة لا يأكل شيئاً، وقصتهم في هذه الغزوة خصوصاً مشهورة أنهم جاعوا ونفدت أزوادهم، واستأذنوا رسول الله ﷺ في نحر رواحلهم ليس معهم شيء، فمن أين تكون بطونهم كبيرة، فأذن لهم لما يرى فيهم من الجوع، ولكن عمر رضي الله عنه كان ملهماً، وهو من المحدثين كما قال عليه الصلاة والسلام: «**إنه قد كان فيما مضى قبلكم من الأمم محدَّثون وإن كان في أمتي هذه فمنهم عمر بن الخطاب**»[1]. والمحدَّث: هو الذي يحدثه الملك يلقي على لسانه الشيء الذي يكون حقاً.

فجاء إليه عمر فقال له: يا رسول الله أذنت لهم أن ينحروا رواحلهم فعلى ماذا يركبون، ولكن لو أمرت أن تجمع أزوادهم ثم تدعو لعل الله أن يبارك فيها. قال: نعم. فوضع نطع ـ وهو الجلد الذي دبغ فيكون إما فراش أو يجلس عليه أو يكون سفرة ـ فصاروا يأتون أحدهم يأتي بالتمرتين وأحدهم يأتي بالدقيق في كفه، وهذا يبحث عن الشيء الذي بقي من زاده فيأتي به، وهم كما قال كعب بن مالك لا يحصيهم عدد في هذا الجيش، فبعضهم ذكر أنهم ثلاثون ألفاً؛ يعني: بعض المؤرخين، وليس كثيراً أيضاً؛ لأن الرسول ﷺ لم يأذن لأحد بالتخلف في هذه الغزوة.

يقول: فاجتمع مثل البهمة إذا ربضت، فتصور كثرة هذا الجيش، هذا هو الذي بقي معهم نعم هذا شيء صغير جداً فدعا الرسول ﷺ وتفل به ودعا ربه بالبركة، فقال: احملوا فملئوا كل وعاء معهم وبقي كما هو، وهذا من الآيات التي وقعت في هذه الغزوة، وكذلك وقع فيها آيات أخر، فلما فقدوا الماء والطريق ليس فيه ماء، فأمر الرسول ﷺ بعضهم أن يبحث عن الماء فذهبوا يبحثون عن الماء، فوجدوا امرأة معها راويتين على بعير فقالوا لها: أين الماء؟ قالت: عهدي به قبل يومين[2]؛ يعني: مسيرة يومين ليست قريبة بل بعيدة جداً، قالا لها إذاً اذهبي معنا، فذهبا بها إلى رسول الله ﷺ، فأمر النبي ﷺ

(١) رواه البخاري رقم ٣٤٦٩، ومسلم رقم ٢٣٩٨ من حديث عائشة.
(٢) رواه البخاري رقم ٣٤٤، وأحمد في المسند رقم ١٩٩١٢.

من راويتيها بإناء فدعى به ثم قال: اشربوا وتوضؤا واملئوا ما معكم من الأواني، وقيل لها: هل نقص ماؤك؟ قالت: لا. فأعطوها الشيء الذي رضيت به، وذهبت إلى قومها فقالت: جئتكم من أسحر الناس أو أنه نبي.

فالمقصود أنه وقع أشياء كثيرة في هذه الغزوة، ولكن مقصودنا هنا قولهم: «**ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطوناً**»، أرغب؛ يعني: أوسع، يعنون أن بطونهم واسعة وهذا من الكذب الظاهر.

وقوله كذلك: «ولا أكذب ألسناً»: قاتلهم الله، والرسول ﷺ والصحابة الكذب عندهم من الموبقات.

قوله: «ولا أجبن عند اللقاء»: كل هذه الكلمات الثلاثة كلها كذب ظاهر، فالرسول ﷺ هو أشجع الناس وهو ﷺ يحرم الكذب ويقول: أنه لا يصلح لشيء[1]، وإن كان في الحرب أذن به، وكذلك ما بين الرجل وزوجته للإصلاح وما أشبه ذلك، ولكن ليس الكذب الصريح.

قوله: «فضحكوا عند هذا القول»: وضحكهم يدل على رضاهم بهذا؛ لأن الإنسان إذا سمع هذا الشيء يجب أن يغضب وينكر إذا كان عنده إيمان، أما أنه يوافق ويضحك فهو كالقائل لا فرق بينه وبين من قال هذا القول، ولهذا أنكر عوف بن مالك ﷺ قال: «**كذبت ولكنك منافق**»؛ يعني: وكذلك الذين ضحكوا، ثم قال: «**لأخبرن رسول الله ﷺ**»، وهذا يدل على وجوب النصح لله ولرسوله ﷺ، ويدل على وجوب إنكار المنكر، إذا كان الإنسان حاضراً في مجلس فوقع منكراً فيجب أن ينكر لا يجوز أن يبقى معهم وهم في هذا المنكر، وإلا يكون مثلهم كما قال جل وعلا في الذين يجلسون مع من يأتون بالمنكر وينطقون به، قال سبحانه: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠]؛ يعني: إذا جلس الإنسان في مجلس ولم ينكر فهو مثلهم وإن كان كارهاً في نفسه.

قوله: «ولكنك منافق»: المنافق هو: الذي يظهر الموافقة ويبطن المخالفة، والصحيح أنه يظهر الإيمان ويبطن الكفر، فذهب يخبر الرسول ﷺ

---

(١) رواه أحمد في المسند رقم ٣٨٩٦، وابن ماجه رقم ٤٦.

فوجد القرآن قد سبقه؛ يعني: أن الوحي نزل عليه قبل أن يأتي عوف بن مالك من المكان الذي هو فيه.

يقول: «فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله ﷺ» كان عادة الرسول ﷺ أنه إذا كان نازلاً ثم حدث من الأمور التي يكون فيها خلاف، وقد يكون فيها ما يدعو إلى شجار أو قتال أنه يرتحل، وهذا وقع مراراً منه صلوات الله وسلامه عليه، وذلك أنه إذا ارتحل وسار اشتغل الناس بمسيرهم وعملهم عما وقع، ثم فيما بعد الحُكم إلى الله جل وعلا وإلى رسول الله ﷺ.

قوله: «وقد ارتحل وركب ناقته»: الرحل هو: وضع الرحل على الناقة.

قوله: «فقال: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونتحدث حديث الركب»؛ يعني: نمزح ونضحك، وما نقصد الجد في حديثنا هذا، ولكن هذا خطأ واضح ليس هذا محل المزاح والضحك. وجاء أنه قال: **«كنا نقطع به وعثاء الطريق»** وعثاء الطريق يعني: الكآبة والتعب لأن الإنسان إذا ضحك يصير عنده شيء من النشاط، وهذا معنى قوله: **«كنا نتحدث حديث الركب»**؛ يعني: حديثاً ما نقصد معناه.

وقوله: «وعثاء»: وفي رواية «عناء»، وهذا لا يصلح أيضاً.

قوله: «قال ابن عمر: كأني أنظر إليه متعلقاً بنسعة ناقة رسول الله ﷺ»: النسعة: الحبل خلف الرحل، والرحل له ثلاثة حبال، واحد من الأمام يسمى لباب، لأنه مع لبة الناقة حتى إذا صعدت مرتفعاً لا يسقط الرحل فيمسكه. والثاني: يوضع إما برسغ الناقة أو بذنبها ويسمى حقب. والثالث: يوضع في وسط الرحل ويشد على بطن الناقة ويسمى بطان.

والنسعة هذه هي حقب الناقة الذي يكون في مؤخر الرحل ويتعلق به، لأن الرسول ﷺ يسوق الناقة بسرعة، فإذا مشى لا يستطيع أنه يلحقه، فيتعلق ليستعين به على سير الناقة حتى يسمع الرسول ﷺ خطابه.

ومعنى ذلك أن الرسول ﷺ تعنّا ذلك، ولم يلتفت إليه مع أنه ما كان يزيده على قوله: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦]، وهذا معناه كما قال المؤلف: أنه لا يجوز أن يقبل كل عذر، إذا جاءك من يعتذر بعض الأعذار لا يجوز قبولها.

وكذلك مثل ما فعل عوف بن مالك كونه جاء يخبر، فهذا لا يدل على أن هذا نميمة بل هذا نصيحة وإنكار للمنكر وهذا أمر واجب.

وقوله: «﴿نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾» [التوبة: ٦٥]: الخوض: هو كونهم يتكلمون الكلام الذي ليس له ضابط فهو لا ينتهي.

أما اللعب: فمعناه عدم الجد، يقولون نتكلم كلاماً نروِّح به عن أنفسنا، ومع ذلك كله لم يقبل الرسول ﷺ منه ولم يلتفت إليه.

وقوله: «﴿نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾»: المجرم هو الذي فعل الإجرام، والإجرام هو المبارزة بالمعاصي مع العلم في ذلك ـ نسأل الله العافية ـ؛ يعني: أنه فيه مع ارتكابه معاندة.

قد يقال مثلاً: ما دام هذا يدل على الكفر، فلماذا ما قتلهم الرسول ﷺ؟ لأن حكم المرتد القتل كما قال ﷺ: «**من بدل دينه فاقتلوه**»[1]؟

الجواب: أولاً: أن هذا جاء معتذراً، والاعتذار يدل على الندم في الظاهر، مع أنه لم يقبل هذا، فهو يقول: أنا أتوب من هذا الشيء، وقد جاء ذلك صريحاً بأنه تاب، وهذا يقال له: مخشي بن حمير. ولكن ذكر ابن جرير وغيره، أنه كان يقول: اللهم إني أسمع آية في كتابك أنا المعني بها تقشعر منها الجلود، اللهم اجعل موتي قتلاً في سبيلك[2]، ولا يعلم أحد أين أنا حتى لا يقول إنسان: أنا كفنت أنا غسلت، أنا دفنت، وهذا يدل على أنه صادق في توبته، ويقول أنه قتل في اليمامة وكل القتلى وجدوا إلا هو لم يوجد ولم يوقف له على أثر، فلعل الله تاب عليه.

أما البقية لم يأتوا ولم يعتذروا، ولهذا قال جل وعلا: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً﴾ [التوبة: ٦٦] يقال أن الذي عفي عنه هو هذا الرجل وهو الطائفة التي عفا الله عنها، والله أعلم.

الشيء الثاني: من كون الرسول ﷺ ما قتلهم: أن هؤلاء البقية لم يأتوا

---

(١) رواه البخاري رقم ٣٠١٧.

(٢) رواه الطبري في تفسيره ١١/ ٥٤٤.

ولم يدعي أحد أنهم تكلموا يقولون ما تكلمنا وإن كان قد تكلموا؛ يعني: ليس فيه تعيين لهم وهم جماعة جالسون لم يأت تعيينهم فلان وفلان مثل هذا.

الأمر الثالث: أن الرسول ﷺ كان يترك هؤلاء وإن كانوا يستحقون القتل خوفاً من السمعة، وقد صرح بذلك ﷺ قال لئلا: «**يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه**»(١)، ومعنى ذلك لو مثلاً حصل هذا فإن الحديث الذي يأخذه الناس والكلام الذي يتناقله الناس يكون على غير وجهه دائماً، بل أحياناً يكون على خلاف الواقع، فإذا نقل الكلام إلى الناس سمع أن هذا يقال، يقولون ما نريد أن ندخل في هذا الدين لئلا يقتلنا، «**يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه**» فيمنعهم ذلك من الدخول في الإسلام، هذا هو السبب في عدم قتلهم، وقد جاء هذا صريحاً؛ يعني: هذا القول منه ﷺ في قصة المعترض الذي اعترض عليه ﷺ الذي قال: «**اعدل فإنك لم تعدل**» لما قال عمر: يا رسول الله ألا أقوم فأقتل هذا المنافق؟ قال: «**معاذ الله أن تتسامع الأمم أن محمداً يقتل أصحابه**»(٢)، فهذا هو الجواب عن سبب ترك هؤلاء وعدم قتلهم.

وحكم الاستهزاء بالله وبالرسول عند العلماء الذي قرره شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه «الصارم المسلول»: أنه لا يجوز أن تقبل توبته وإن تاب؛ يعني: لا بد من قتله وإن تاب، وسواءً كان مسلماً أو كافراً أو غير ذلك.

أما كون الرسول ﷺ لم يقتل الذي استهزأ به نقول فهذا حقه، وحقه له أن يعفو عنه هو، ولهذا لما دخل مكة الذين كانوا يسخرون به أمر بقتلهم وقال: اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة، ووجدوا ابن خطل متعلقاً بأستار الكعبة وقتلوه لأنه من الذين كانوا يستهزئون بالرسول ﷺ، وعفا عن بعضهم وهذا حقه ﷺ في حياته له أن يعفو عنه، أما بعد وفاته ﷺ فلا يجوز لأحد أن يعف عنه، بل يجب أن يقتل، أما كونه تقبل توبته أو لا تقبل فهذا إذا كان صادقاً في توبته فهو إلى الله، ولكن لنا الظاهر.

وكذلك بالنسبة للاستهزاء بالله جل وعلا أو سبه تعالى وتقدس على كل حال.

---

(١) رواه البخاري رقم ٤٩٠٥، ومسلم رقم ٢٥٨٤.

(٢) أخرجه أحمد في المسند رقم ١٤٨٢٠ وأصله في الصحيحين.

وهذا صار ـ نسأل الله العافية ـ في البلاد التي يقال أنه بلاد إسلامية وإن كان الحكم حكم كفر مثل تركيا والجزائر وغيرها ومثل مصر، الإنسان يسمع مسبة الله في الشارع كثيراً في كل مناسبة واللعن والشتم، وأما كونه يلعن الدين فهذا شيء كثير على ألسنتهم. فكأن هذه أمور عادية ـ نسأل الله العافية ـ مع أنه في تركيا وغيرها لو سُب أتاتورك المجرم الخبيث كان جزائه ثقيل جداً، إما أن يسجن سجناً طويل، وإما أن يغرم ويضرب فهذا من العجائب.

المقصود أن هذه المسألة معرض عنها وليس وحدها؛ لأنه لا يحكم كتاب الله جل وعلا، ولهذا تجرأ الناس على مسبة الله جل وعلا، ومسبة رسوله ﷺ، ومسبة دينه، وأكثر الناس لا دين عنده، ودينه دين وراثي وجد أباه وأمه يصليان فصار مثلهم، وإلا قلبه خالياً من ذلك، هذا أكثر الناس، وهذا هو الذي لا ينفع ـ نسأل الله العافية ـ ولهذا تجد الغش بين الناس في كل شيء، السبب أنه ليس هناك وازع ديني يمنع ذلك عن تحصيل الفلوس، الظاهر أنه لو حصلت الفتن والدعوة إلى الأمور الظاهرة من الكفر وغيرها يسارعون إليها ولا يبالون ـ نسأل الله العافية ـ.

وكذلك كونه لا يهتم بدينه ولا يهتم بآيات الله، فتجد مثلاً المصحف يمزق ويرمى وتجد الأوراق مرمية في زبالة أو غيرها، إما مصحف أو آيات من كتاب الله أو أحاديث رسوله ﷺ، كيف إنسان يخاف ربه فهذا يدخل في الهزل والسخرية.

مناسبة الباب أن المؤلف رحمه الله يذكر أضداد التوحيد ويذكر المكملات والمنقصات وهذا من ضده؛ يعني: أن من فعل هذا فلا توحيد عنده.

❁ قال المؤلف رحمه الله فيه مسائل:

❁ الأولى: وهي العظيمة، أن من هزل بهذا فإنه كفر.

الهزل؛ يعني: أنه لم يقل الجد فيه بل قال اللعب فيه والضحك والمزاح، أما إذا قصد الاستهزاء صريحاً فهذا لا كلام فيه، ولكن هو يقول هذا من باب عدم القصد، يقوله يلعب فقط. وليس هذا مراده، هذا مقصوده.

۞ الثاني: أن هذا تفسير الآية فيمن فعل ذلك كائناً من كان.

مقصوده في حكم الآية؛ يعني: أن من وقع في شيء من ذلك أنه يكون له هذا الحكم كائناً من كان، سواءٌ كان قاصداً أو غير قاصد، أو عالماً أو غير عالم.

۞ الثالث: الفرق بين النميمة، وبين النصيحة لله ولرسوله ﷺ.

النميمة نقل الكلام على وجه الإفساد، وأما النصيحة فهي إنكار المنكر نقله إلى من يعاقب صاحب المنكر في ذلك، هذا أخذاً من فعل عوف بن مالك حيث أنه ذهب يخبر الرسول ﷺ وليس هذا من النميمة بل هذه نصيحة.

۞ الرابعة: الفرق بين العفو الذي يحبه الله، وبين الغلظة على أعداء الله.

أن الرسول لم يعف عن هذا، ولم يقبل عذره بل أغلظ عليه.

۞ الخامسة: أن من الاعتذار ما لا ينبغي أن يقبل.

يعني: ليس كل عذر يقبل، العذر عن الخوض في كلام الله ودين الله ورسوله وجاء يعتذر نقول لا يقبل عذره.







الباب التاسع والأربعون

❁ **قال المؤلف** رحمه الله: **باب قول الله تعالى:** ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾﴾ [فصلت: ٥٠].

هذه الآية جاءت في عدة سور، وإن كان آخرها يختلف، ولكنها تدل على أن هذه هي صفة الإنسان.

ومقصود المؤلف في هذا الباب أن يبين وجوب شكر النعم وإضافتها إلى الله جل وعلا والثناء عليه واستعمالها في طاعته، فإذا لم يكن الإنسان كذلك فإنه لم يقم بالتوحيد الذي يلزمه، وقد أخل بتوحيده، وهذا الدلائل عليه كثيرة في كتاب الله جل وعلا وفي أحاديث رسول ﷺ.

قوله: «﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ﴾»؛ يعني: الإنسان الذي تقدم ذكره قبل هذه الآية.

قوله: «﴿رَحْمَةً﴾»: رحمة يقصد بها والله أعلم الإنعام الذي يعطاه من ولد ومن مال ومن صحة وما أشبه ذلك.

وقوله: «﴿مِّنَّا﴾»: يدل على أن كل ما يحصل للإنسان من خير فهو من الله، وهذا أمر ظاهر فيجب أن يعتقد ذلك ويعمل على أساس هذه العقيدة، أن كل ما حصل له من محبوب له أو من نعم أكبر من ذلك كنعمة الدين والطاعة والعقيدة الحسنة فإنها فضل من الله يجب أن يشكره.

ولكن هنا يقصد بها شيء أخص من هذا لأنه قال: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ﴾ لأن طبيعة الإنسان وجِبِلَّته أنه إذا وقع في الشدة أنه يرجع إلى الله ويهرع إليه ويدعوه ويتضرع بين يديه، ثم إذا كشف عنه هذا الأمر نسي ذلك، وربما تمادى به الأمر وقال: أنا أهل لهذا الذي أعطيته كما

جاء في تفاسير السلف التي ذكرها المؤلف فيقول: الله أعلم أني أهل لهذا الشيء فأعطاني هذا الشيء.

أما إذا كانت الشدائد إما فقر وإعواز من المال فإنه ربما أضاف ذلك إلى نفسه وقال: أنا أعرف كيف أتصرف أعرف كيف أكتسب المال، أو يقول هذا بتعلمي أو بكوني ترددت في الشيء وعرفته، وأحوال الناس في هذا كثيرة ولكنها كلها يضيفونها إلى أنفسهم، وهذا كفر بالنعمة وكذلك بالمنعم الذي أنعم بهذه النعم، وهذه طبيعة الإنسان ولهذا يجب أن يجتنب أن يقول هذا لي وهذا مني أو هذا أنا حقيق به، أو أنا أهل له، أو هذا بعملي أنا أعمل كذا وما أشبه ذلك.

وقد قصَّ الله جل وعلا قصة قارون: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨]؛ يعني: علم من الله أني أهل له، وهكذا يقول غيره؛ لأن النفوس عندها ما عند قارون كلها، كل نفوس بني آدم، غير أن التخلق بالأخلاق الإسلامية والتهذب بذلك يخلف هذه العقيدة ويغيرها حسب ما يقوم بالإنسان من خلق.

وقوله: «﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾»: التعبير يبين أن الخير كله من الله جل وعلا وليس من الإنسان شيء.

وقوله: «﴿مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾»؛ يعني: قد مس بالضر والضراء غالباً يقصد بها الفقر كما قال تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ [البقرة: ١٧٧]؛ يعني: إذا أصابهم الفقر يصبرون.

ويقصد بها أيضاً الإضرار مطلقاً، كون الإنسان ضر في بدنه أو في ماله أو في أهله فالآية تعم هذا كله سواءً كان في بدنه أو كان في حاجته وإعوازه أو كان في ماله وأهله وولده وغير ذلك، ومعلوم أن هذا إذا حصل للإنسان أنه يخضع لله ويذل ويستكين له ويطلبه ذلك، ولكن سريعاً ما ينسى ذلك إذا حصل له مراده.

قوله: «﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾»؛ يعني: هذا إشارة إلى الرحمة التي حصلت، الرحمة التي أذاقه الله إياها.

وقوله: «﴿لِي﴾»: جاء اختلاف المفسرين فيها، ولكن المعنى واحد فمنهم من قال: بعملي ثم قال أنا محقوق به؛ يعني: أنه أحق به، ومنهم من قال: من عندي؛ يعني: أنا الذي اكتسبته وعرفته بصنعتي أو بعلمي، ومنهم من قال: أنا أعرف وجوه المكاسب ووجوه التجارة وحصل لي ذلك بعلمي بهذه الأشياء، ومنهم من قال: المقصود أنه على علم من الله أني أهل له؛ يعني: أنا محظوظ عند الله والله يحبني فرزقني هذا وأعطاني كذا، وكلها معناها واحد وإن اختلفت التعابير، لأن المعنى كله أن الإنسان يضيف النعمة له، بأنه مستحقها وأن الله أعلم أنه أهل له، وأنه أعطاه ذلك لأنه ذو حظ عند الله، وذو محبة أن الله يحبه، وكل هذا كفر بالنعمة وهو قدح في توحيد العبد إذا كان موحداً، أما إذا كان الإنسان من الأصل كافراً فهذا لا كلام فيه لأن هذا شيء ظاهر جداً في أفعال الناس وتصرفاتهم الآن والإنسان لا يخلو من هذا الأمر، ولهذا ينبغي للعبد أن يتنبه لهذه الأشياء ويكون على حذر وقد مر معنا في الأبواب السابقة أن إضافة النعم إلى أسبابها من الكفر، والكفر وإن كان كفر نعمة فإنه قادح في التوحيد، وقد يجر كفر النعمة إلى الكفر الأكبر.

وقد عرف أن المعصية إذا استقرت عند العبد ولم يعترف بها، وأصر عليها وإن كانت صغيرة فإنها تكون كبيرة بهذا الصفة، وهذا الذي يقول هذا القول يكون مصراً على هذا الشيء ومستمراً عليه ولا يأمل أن يرجع عنه إلا إذا تغير حاله بالعلم بالله جل وعلا وبما هو عليه هو نفسه؛ لأن النفس ليس لها أي خير، فأي خير يحصل لها فهو من الله جل وعلا، أما هي فهي أهل للشر، فهذا هو معنى الآية التي ذكرها، وإن كانت الآيات في هذا متعددة، فقد ذكرت في سورة القصص وسورة الزمر وسورة السجدة وغيرها كثير فقد ذكر الله أن هذا من صفة الإنسان.

وأما أقوال السلف التي ذكرها المؤلف فمعناها واحد، غير أن التعبير اختلف فكل واحد يعبر بجزء من المعنى وليس بالمعنى كله.

۞ قال المؤلف رحمه الله: وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن ثلاثة في بني إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى فأراد الله أن يبتليهم فبعث إليهم ملكاً فأتى الأبرص فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: لون حسن وجلد حسن ويذهب عني الذي قد قذرني الناس، قال: فمسحه فذهب عنه قذره وأعطي لوناً حسناً وجلداً حسناً، قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الإبل «أو قال البقر شك إسحاق» إلا أن الأبرص أو الأقرع قال أحدهما الإبل وقال الآخر البقر ـ قال: فأعطي ناقة عُشراء فقال: بارك الله لك فيها.

قال: فأتى الأقرع فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: شعر حسن ويذهب عني هذا الذي قذرني الناس، قال: فمسحه فذهب عنه وأعطي شعراً حسناً، قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: البقر فأعطي بقرة حاملاً فقال: بارك الله لك فيها.

قال: فأتى الأعمى فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: أن يرد الله إلي بصري فأبصر به الناس، قال: فمسحه فرد الله إليه بصره، قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الغنم فأعطي شاة والداً فأنتج هذان وولد هذا، قال: فكان لهذا واد من الإبل ولهذا واد من البقر ولهذا واد من الغنم.

قال: ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته فقال: رجل مسكين قد انقطعت بي الحبال في سفري فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال بعيراً أتبلغ عليه في سفري، فقال: الحقوق كثيرة، فقال له: كأني أعرفك ألم تكن أبرص يقذرك الناس؟ فقيراً فأعطاك الله؟ فقال: إنما ورثت هذا المال كابراً عن كابر فقال: إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت.

قال: وأتى الأقرع في صورته فقال له مثل ما قال لهذا، ورد عليه مثل ما رد على هذا، فقال: إن كنت كاذباً فصيَّرك الله إلى ما كنت، قال: وأتى الأعمى في صورته وهيئته فقال: رجل مسكين وابن سبيل انقطعت بي الحبال في سفري فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها في سفري، فقال: قد كنت أعمى فرد الله إلي بصري فخذ ما شئت ودع ما شئت، فوالله لا أجهدك اليوم شيئاً أخذته لله، فقال: أمسك مالك فإنما

ابتليتم، فقد رضي عنك وسخط على صاحبيك»[١].

هذا الحديث من أحاديث بني إسرائيل وفيه هذه القصة العجيبة، وذكرها البخاري في أحاديث بني إسرائيل، والمؤلف رحمه الله الظاهر أنه ذكر لفظ مسلم؛ لأن الحديث متفق عليه لأن لفظ البخاري: «**إن ثلاث من بني إسرائيل، أبرص وأقرع وأعمى، بدا لله أن يبتليهم**»[٢]، هكذا في البخاري وقد أشكلت هذه الكلمة «بدا» على كثير من الناس الذين يشرحون الحديث، وبعضهم تركها واجتنبها نهائياً ولم يتكلم عليها، وقد قدح الشيخ الألباني رحمه الله بالبخاري بسبب هذه الكلمة وقال: ينبغي للإنسان أن يكون على بينة من عقيدته، فالبخاري فيه شيء يخالف العقيدة، فالبدء يكون من طريقة اليهود وهو من عقيدتهم، فلا يجوز أن يكون هذا مضاف إلى الله قاله في كتابه مختصر البخاري، وكل هذا خطأ لأن معنى بدا معنى أراد، والله جل وعلا يعلم الأشياء قبل وجودها هذا أمر لا إشكال فيه ولا يشك فيه أحد من أهل العلم وأهل الإسلام، فلا يجوز أن يقدح في هذه الكلمة فمن ظهر له أنها خطأ يجب إما أن يبحث عن الرواية الأخرى التي فيها بيان لها أو أقل شيء أن يسكت حتى يتبين له الحق.

قوله: «إن ثلاثة من بني إسرائيل»: أحاديث بني إسرائيل جاءت على ثلاثة أقسام:

- قسم منها ثابت صحيح وهو الذي دل عليه ما جاء به رسول الله ﷺ سواءً في القرآن أو في أحاديثه مثل هذا الحديث، فهذا يجب أن يؤمن به ويصدق ويعلم أنه حق وأنه ثابت لا مرية فيه.

- وقسم عكس هذا جاء ما يخالفه مما جاء به الرسول ﷺ ويكذبه، فهذا يجب أن يرد ويكذب وهذا أيضاً موجود عندهم بكثرة.

- وقسم مسكوت عنه ليس فيه لا رده ولا تصديقه وهذا الذي قال فيه ﷺ: «**إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالله**

---

(١) رواه البخاري رقم ٣٤٦٤ و٦٦٥٣، ومسلم رقم ٢٩٦٤.

(٢) رواه البخاري رقم ٣٤٦٤.

وكتبه ورسله، فإن كان حقاً لم تكذبوهم، وإن كان باطلاً لم تصدقوهم»[1]، وعلى هذا تكون أخبار بني إسرائيل وما عندهم على هذه الثلاثة الأقسام:

ـ قسم يجب الإيمان به وتصديقه، وهذا اختلف فيه العلماء هل هو شرع لنا، وفيه كلام كثير وتفصيل ذكره العلماء في الأصول وغيرها. فما قرره الرسول ﷺ وذكره فهو شرع لنا، وكذلك ما ذكره الله جل وعلا في القرآن مبيناً ذلك وقاصه علينا.

ـ والقسم الثاني: ما هو كذب بإضافاتهم الأشياء التي يضيفونها إلى الأنبياء وغيرها ودعاويهم التي يدعونها.

ـ وقسم ليس عندنا ما يصدقه ولا يكذبه، فهذا نتوقف فيه حتى يتبين لنا أنه حق أو أنه كذب، فإذا تبين أنه حق قبلناه وآمنا به، وإذا تبين أنه كذب رددناه وتبرأنا منه.

والبخاري ﷺ ذكر في هذا الكتاب أحاديث كثيرة عن بني إسرائيل، وقد جاء أنه قال عليه الصلاة والسلام: **«حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»**[2]، وجاء في رواية: **«حدثوا عن بني إسرائيل، فإنه كانت منهم عجائب الأعاجيب»**[3]، فالتحديث عنهم مقيد بهذا أن يكون ليس فيه مخالفة لما عندنا. وهذا الحديث من العجائب. والرسول ﷺ حدث عنهم كثيراً في أحاديث ثابتة يذكرها عنهم كثيراً.

قوله: «أبرص»: البرص معروف وهو مرض تتغير معه البشرة، وكذلك «القرع» يكون في الرأس مرض يزيل الشعر ويكون له قروح وله رائحة كريهة.

أما «الأعمى» فهو فقد البصر، فهذه أمراض ثلاثة من الأمراض المعيبة

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم ١٧٢٢٥، وأبو داود رقم ٣٦٤٤ من حديث أبي نملة الأنصاري، ورواه البخاري رقم ٤٤٨٥ من حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: **«لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾»** [البقرة: ١٣٦]».

(٢) رواه البخاري رقم ٣٤٦١ من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ.

(٣) الأدب لابن أبي شيبة ١/ ٢٥٦.

التي عجز عنها الأطباء، وهذا من قديم الزمان، وهذه آية من آيات الله، كون الملَك جاءهم في صورة رجل وخاطبهم ثم مسح هذا بيده فصار له جلد حسن وزال عنه البرص، فلو كان عنده مثلاً شكر لله جل وعلا وتوحيد له لاعتبر بهذا وعرف أن هذا من الله وأنه نعمة منه وآية من الله.

وكذلك القرع، هو مسح رأسه فزال عنه ذلك، وصار له شعر حسن وذهب عنه الشيء الذي كان يقذره الناس من الرائحة والمنظر الكريه، وكذلك إرجاع البصر كلها آيات ما يمكن أن تكون بصنع المخلوق كلها من الله جل وعلا، فهي من المبدأ تدعوهم إلى أن يشكروا الله جل وعلا.

والله جل وعلا علام الغيوب يعلم ما سيكون قبل كونه وقد كتبه عنده، ولكنه جل وعلا لا يأخذ الإنسان إلا بعمله، فالكتابة التي هي كتابة عمله قد علم جل وعلا أنه يتبين له هذا الأمر ولكنه لا يعمل به بل يعمل بضده، ومع هذا الله جل وعلا يأخذه بعمله، بل لا بد أن يبرز عمله ظاهراً وهذا هو الابتلاء والابتلاء معناه الاختبار حتى يتبين ويبرز، فهذا معنى قوله: «**أن يبتليهم**»، هذه رواية مسلم: «**فأراد الله أن يبتليهم**»، فهذه الإرادة هل هي إرادة تتجدد كانت بعد أن لم تكن؟ هذا عندهم ممتنع عند الأشاعرة وغيرهم لأن عندهم الإرادة صفة أزلية ولا تتجدد وعندهم الإرادة إرادة واحدة للمرادات كلها. وهذا باطل بلا شك، فالله جل وعلا إرادته بالفعل تتعلق بمشيئته وهي تختلف باختلاف المرادات كل مراد له إرادة.

والإرادة دل الاستقراء في كتاب الله جل وعلا، وحديث رسوله ﷺ أنها تنقسم إلى قسمين:

إرادة كونية قدرية أزلية، وهذه هي التي كوَّن بها الأشياء في الأزل، فإنه إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون كما قال جل وعلا: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٤٠﴾ [النحل: ٤٠] وإرادة دينية أمرية شرعية؛ يعني: أن الإرادة الثانية هي في الشرع فقط في الدين، وهذه التي ذكرت في مثل قوله جل وعلا: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [النساء: ٢٦] فالتبيين هو شرعه.

وكذلك تيسير التكليف هذا ليس لكل أحد، هذا لمن قبل ذلك، أما الذين لم يقبلوه لم يرفعوا به رأساً فلم يرد بهم يسرى، فلم يرد بهم إلا أن يكونوا كافرين ـ نسأل الله العافية ـ.

والإرادة الكونية القدرية لا بد من وجود مرادها لا يمكن أن يتخلف، إذا أراد شيئاً كوناً لا بد من وقوعه، أما الإرادة الدينية فلا يلزم أن يوجد لأنه جل وعلا أراد من العصاة أنهم يطيعوه وأمرهم أمراً شرعياً ولكنهم عصوا وكذلك الكفار كفروا فيتخلف مراد الإرادة الدينية كثيراً، فإذا وجد مرادها فقد اتفقت مع الإرادة الكونية.

والفرق بينهما أيضاً أن الله يحب مراد الإرادة الدينية ويأمر به، أما الكونية فلا يلزم قد يحبه وقد يكرهه، ويبغضه كما في وجود المعاصي ووجود الكفر ووجود الشياطين ووجود الظلمة فهذا قد أراده كوناً وخلقاً ولكنه يكرهه ويبغضه تعالى وتقدس.

وكذلك يريد من عباده أن يطيعوه، وأن يكونوا محسنين ومتقين ولكن هذا يتخلف كثيراً.

فبهذا يتبين أنها تنقسم إلى قسمين، والذي لا يقسمها مثل المتكلمين والأشاعرة والمعتزلة وغيرهم اضطربوا في هذا اضطراباً كثيراً، وصاروا على غير بينة وحدثت لهم إشكالات بسبب ذلك كثيرة بخلاف أهل السُّنَّة فإنه لا إشكال عندهم في ذلك.

قوله: «فبعث إليهم ملكاً»: هذا من الرسل الذين يصطفيهم الله؛ لأن الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن البشر، ولكن هذه الرسالة خاصة، جاءت إلى هؤلاء الثلاثة وقد تكون لغيرهم أيضاً، المهم أنه رسول من الله إليهم ولكنه جاء بالابتلاء، وهذا يدلنا على أن النعم أنها بلوى وأن الإنسان يختبر بها، فإن شكر كانت نعمة ظاهراً وباطناً، وإن كفر كانت بالنسبة إليه سبباً في خذلانه، ولهذا يقول الحسن البصري ﷺ: إذا رأيت الرجل ينعم عليه وهو مقيم على معاصي الله فهو يمكر به؛ يعني: أنه يخفى عليه ذلك ويظن أنه خير وهو ليس كذلك بل هو شر.

ويجب أن يكون العبد على حذر في هذا فيشكر ربه على الصحة وعلى الهداية والمعرفة وعلى كل ما حصل له من خير يجب أن يضيفه إلى الله ويشكره عليه، وأن يكون ذلك عوناً على طاعة الله وأن يستعمله في طاعة الله، وإذا لم يفعل ذلك فإنه لم يقم بشكر النعمة التي أنعمت عليه.

قوله: «فأتى الأبرص»: وخاطبه وهو بشر ما جاءه بصورة الملَك، جاءه بصورة بشر يخاطبه بلسانه وبلغته وبما يعرفه، ولكنه يجب أن يعترف لأن هذا ليس بإمكان البشر ليس بإمكان الأطباء ولا غيرهم، غير أن لكثافة الضلال عنده لم يتنبه لذلك.

قال له: «أي شيء أحب إليك»؛ يعني: يأتيك إنسان مثلاً على صورتك وهيئتك ويقول لك هذا القول: «**أي شيء أحب إليك**» ماذا تفكر فيه؟ هل يستطيع أن يعطيك كل ما تريده؟ هذا لا يمكن إلا أن يكون رسولاً من الله أرسله إليك.

قال: «لوناً حسناً، وجلداً حسناً» اللون الحسن يتضمن كونه يعطي جلداً حسناً لأن لون البرص لوناً ليس حسناً.

وقوله: «ويذهب عني الذي قد قذرني الناس به»: هذا كله تأكيد لشيء واحد وهو أن يذهب هذا المرض ويعطى جلداً حسناً ويذهب ما فيه من المرض.

قال: «فمسحه» يعني: مسح جلده فزال، وهذا معناه أنه في الحال مسحه بيده فزال البرص وصار له جلداً حسناً وذهب الشيء الذي يقذره الناس. فهل هذا بإمكان أحد من الأطباء؟ أو من غيرهم؟ هذا لا يمكن، فهي آية ولكنه الكفر عنده متأصل ـ نسأل الله العافية ـ.

وقد قال بعض الشراح كلاماً سيئاً في هذا، قال: إن الأبرص والأقرع المرض الذي فيهما يدل على أن أمزجتهما سيئة، وليس عندهما اعتدال طبيعة، فلهذا كفرا، وهذا كلامهم ولا يجوز أن يقال؛ لأن العقل موجود عندهم ولكنهما لم يستعملاه لما خلق له، وليست الطبيعة هي التي تجعل الناس كافراً وشاكراً!! بل هو فضل الله جل وعلا إذا تفضل الله على إنسان

وهداه يكون شاكراً، أما إذا منعه فضله فلا بد أن يكفر لأنه لا يستطيع أن يشكر ويكون متقياً مستقيماً بقوته وبعلمه وبإرادته إن لم يهده الله فلا هادي له.

وهذا أمر ظاهر كونه مسحه وزال عنه هذا المرض الذي أعيا الأطباء من قديم الزمان إلى الآن لم يوجد له علاج، وصار الأمر الآن أنهم يجتهدون في إيقافه إذا استطاعوا إذا بدأ أو ظهر، وقد مثلاً يوجد له علاج بأنه يوقفه شيئاً ما، إما أن يزيله فهذا لا يجدونه ويعترفون بأنه لا علاج له، وإن كان داخل في قوله ﷺ: **«ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء علمه من علمه وجهله من جهله»**[1]، ولكن أمور الطب والعلاج أكثرها يأتي من باب الصدفة، صحيح أنه إذا كان هناك أشياء واضحة السبب فهذا يوجد له العلاج غالباً، ولهذا نقول هذا المرض كثير من الناس يشفى منه بالعسل إذا استعمل عسلاً وداوم عليه وقتاً طويلاً أقل شيء ستة أشهر فإنه يشفى بإذن الله، وقد شفي ناس بهذه كثير وبعض الناس استعمله كثيراً فلم يؤثر فيه، والأمر بيد الله جل وعلا.

وعندما زال عنه المرض وصار في هذا المجلس الواحد، نقول: هذه آية يجب أن يعتبر بها ثم قال له بعد ذلك آية أخرى، ماذا تريد من المال **«أي المال أحب إليك، فقال: الإبل أو قال البقر»** شك الراوي. فأعطاه ناقة، من أين أتي بالناقة (فأعطى ناقة عشراء) العشراء: هي التي ولدها في بطنها، وهذا خاص بالإبل.

قوله: «فقال: بارك الله لك فيها»: هذا دعاء، أو خبر يجوز أن يكون خبراً؛ يعني: أن الله بارك فيها، ويجوز أنه يكون دعاء من الملك.

ثم أتى صاحبه **«فأتى الأقرع»** والظاهر أنه يعرف بعضهم بعضاً، الثلاثة كل واحد منهم، ولهذا قال في آخره: **«قد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك»**.

«فأتى الأقرع فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: شعر حسن، ويذهب عني

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم ٣٥٧٨ من حديث ابن مسعود والجملة الأولى عند البخاري رقم ٥٦٧٨ من حديث أبي هريرة.

الذي قد قذرني الناس به، فمسحه»؛ يعني: مسح رأسه، فذهب عنه هذا المرض ونبت شعره وصار حسناً، فهو مثل ما مضى في الأبرص، فهذا لا يمكن أن يكون بمقدور البشر فهو من آيات الله التي يجب أن يعتبر هو بها، ويحمد الله على هذا ويشكره، ثم زيادة على ذلك قال له: «**أي المال أحب إليك؟ فقال: البقر أو الإبل**»، هذا الشك مثل ما مضى من الراوي، «**فأعطي بقرة حاملاً**» وهنا قال حاملاً ولم يقل عشراء ويقال للبقر أيضاً عشراء. «**فقال: بارك الله لك فيها**» ثم «**أتى الأعمى قال: أي شيء أحب إليك؟ قال: أن يرد الله إلي بصري**» هذا معترف من الأصل؛ يعني: خطابه وكلامه خالف صاحبيه؛ لأن الأول لم يقل: أن يزيل الله عني الذي قذرني الناس به، قال ليذهب عني كذا، وكذلك الثاني أن يذهب عني الذي قد قذرني الناس به، أما الأعمى فقال: أن يرد الله علي بصري، فدل على أنه في أصله وطبعه مخالفاً لهما وأن عنده شكر لله وعنده إيمان بالله على خلاف صاحبيه.

«**فمسحه**»؛ يعني: مسح عينيه «**فرد الله إليه بصره**»، ثم قال له: «**أي المال أحب إليك؟ قال: الغنم**» الغنم من الغُنم، وهي لها أثر في صاحبها في خلقها، ولبنها بخلاف الإبل ولهذا ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**الفخر والخيلاء في أصحاب الإبل، والسكينة والوقار في أهل الغنم**»[1]، الغنم عندها سكينة وصاحبها يكتسب منها، وهكذا الناس يكتسبون أخلاقاً من البهائم بل يكتسبون ممن يخالطونه، أما إذا كان مثلاً فيها مأكل مثل الألبان واللحوم فهذه تكسب أيضاً أخلاقاً ولهذا علل الفقهاء وجوب الوضوء من أكل لحوم الإبل بهذا، بخلاف الغنم فإنه لا يتوضأ منها. وقد ثبت في صحيح مسلم أن النبي ﷺ سئل: «أأتوضأ من لحوم الغنم؟ قال: **إن شئت فتوضأ وإن شئت فلا تتوضأ**، قال: أتوضأ من لحوم الإبل؟ قال: **نعم؛ فتوضأ من لحوم الإبل**»[2]، وكذلك في السنن وثبت حديث نظير هذا أنه قال توضؤوا من الإبل ولا توضؤوا من الغنم.

---

(١) رواه البخاري رقم ٤٣٨٨، ومسلم رقم ٥٢ من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) رواه مسلم رقم ٣٦٠.

ولهذا نقول أن أكل لحم الإبل ينقض الوضوء، فمن أكل لحم بعير وجب أن يتوضأ لهذين الحديثين الصحيحين.

وجاء حديث أن الإبل خلقت من الشياطين، ولهذا فيها الكبر والخيلاء ومن خالطها كان كذلك، وهذا تجده ظاهراً فيمن يكون مخالطاً مثل رعاة الإبل تجد عندهم من الكبر والغطرسة والخيلاء ما ليس عند أصحاب الغنم، ولهذا الرجل وفق واختار الغنم والغنم من خير المال في الصحيح أن الرسول ﷺ قال: «**يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن**»[(١)].

«**فأعطي شاة والداً**»؛ يعني: معها ولدها.

«**فأنتج هذان**» فأُنْتِجَ وليس أنتج؛ يعني: أنه تولى الإنتاج وهذا مثل القابلة وهي المرأة التي تتولى ولادة المرأة أما هذا فقال: أُنتج.

«**وولد هذا**» الثاني ولد؛ يعني: ولد الشاة «**فكان لهذا وادٍ من الإبل، ولهذا وادٍ من البقر، ولهذا وادٍ من الغنم**»؛ يعني: أن هذا صار له من الإبل ما ملأ واد، والوادي معروف الغالب أنه يكون بين جبلين أو يكون بين مرتفعين، وقد يطلق على المكان المتسع؛ يعني: أنه كان له إبل كثيرة، وكذلك الثاني له بقر كثير، والثالث له غنم كثيرة.

ومعنى ذلك أنهم تركوا حتى تكاثرت أموالهم وصار فيه فترة كثيرة ولا بد على إعطائهم هذه الأشياء وإزالة هذه الآفات التي كانت فيهم.

ثم بعد ذلك «**إنه أتى الأبرص في صورته**»؛ يعني: في صورة رجل أبرص حتى يعتبر وصورته هنا الضمير يعود على الأبرص؛ يعني: هو الملك الذي آتاهم جاءهم بهذه الصفة وهذا تذكير لهم ففيه مبالغة في التذكير، حتى يُذكره ما كان عليه، وكذلك في الصورة الثانية التي هي الفقر أبرص فقير، وكان هكذا هو أبرص وفقير فجاءه في صورته؛ يعني: حالته التي كان عليها، وهذا من أبلغ التذكير لو كان عنده تأهل لذلك، ولكنه ـ نسأل الله العافية ـ

---

(١) رواه البخاري رقم ١٩ من حديث أبي سعيد الخدري.

كُفر متأصل، ومع هذا جاءه «**في صورته وهيئته**» هيئة الرجل نفسه، ومع هذا ما كفى هذا طلب منه «**فقال: رجل مسكين وابن سبيل، قد انقطعت بي الحبال في سفري هذا**»، الحبال: معناها الأسباب التي يمكن التوصل بها، وأتبلغ بها؛ يعني: ما عندي شيء ثم بالغ في التذكير: «**فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك**»؛ يعني: أني مضطر، ثم بالغ في ذلك فقال: «**أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال**»، ذكَّره أولاً جاءه في صفته ثم سأله ثم ذكره وسأله بالله، وهذه كلها مبالغات، ولو كان عنده إيمان أو شيء من الإيمان لبادر إلى هذا، ولكنه كفره متأصل.

وهو لم يسأله كثيراً: سأله بعيراً، وعنده واد من الإبل «**بعيراً أتبلغ به في سفري**» فقال: «**الحقوق كثيرة**»؛ يعني: لو أعطيتك لأتاني رجل آخر يطلب وآخر غيره ثم تنفد إبلي، وهذا كفر معناه ردٌّ له، ولهذا دعا عليه.

«**فقال له كأني أعرفك، ألم تكن أبرصاً يقذرك الناس، فقيراً فأعطاك الله**» فأنكر هذه النعمة وهذا الفضل الذي أعطاه الله «**فقال: إنما ورثت هذا المال كابراً عن كابر**»؛ يعني: هذا المال ورثته عن آبائي وهذا هو الشاهد فيه، هذا الكفر بالله جل وعلا كفر النعمة جحدها وأنكرها وأضافها إلى نفسه، وهذا كفر بالله جل وعلا يقتضي العقاب ـ نسأل الله العافية ـ.

وقوله: «كابراً عن كابر»: أنه ورثه عن آبائه المتقدمين الكبار ليس الأب الأقرب.

فدعا عليه «**قال: إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت**»؛ يعني: جعلك أبرص فقيراً يقذرك الناس، فهل صار إلى ذلك؟ لا يلزم ذلك، ولكنه كفر بالله جل وعلا ويكفي عذاب الله جل وعلا له، والغالب أنه رجع إلى ما كان عليه وأن الله عذبه لأنه كفر بنعم الله الظاهرة، ولم يرعوِ ولم تنفع فيه العلامات الكثيرة والتذكير وما جاءه به الملك من الأمور البليغة، ما نفعت فيه، ولهذا دعا عليه.

ولو كان قوله واقعاً أنه ورثه عن آبائه لكان ذلك أبلغ في النعمة حيث أنعم الله على آبائه ثم عليه فيجب أن يشكر الله على ذلك كثيراً.

قال: «**وأتى الأقرع في صورته وهيئته**»؛ يعني: في صورة أقرع وفقير مثل ما كان عليه «**فقال له مثل ما قال لهذا**»؛ يعني: للأبرص، سأله أنه رجل فقير عابر سبيل انقطعت بي الحبال ولا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك أسألك بالذي.. إلخ فقال له مثل ما قال الأول «**الحقوق كثيرة**» وأبى أن يعطيه، فقال له مثل ما قال: «**كأني أعرفك ألم تكن أقرع يقذرك الناس.. إلخ**» فقال: «**لا. هذا المال ورثته كابراً عن كابر**» فكفر مثل كفر زميله ـ نسأل الله العافية ـ وهذا كفر ظاهر، وكفر النعمة يدل على أنه ليس أهلاً لذلك، ولكن الله جل وعلا يعطي المال من يحب ومن لا يحب، ولهذا تجد الكفار عندهم من الأموال والنعم الشيء الكثير، ولكن ما هي حقيقة ذلك؟ حقيقة ذلك كما قال جل وعلا: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ [محمد: ١٢] مثل ما تأكل الأنعام، وقد تكون الأنعام أكثر حظاً منهم، وكلها تذهب كأن لم تكن ـ نسأل الله العافية ـ.

ولهذا نقول أن هذا الحديث وهذه القصة تدل على أن المال نعمة من الله يجب أن تكون عند المؤمن، وليس الوجوب هو الوجوب العقلي، فإذا لم تكن عند المؤمن فهي عند الكافر زيادة عذاب له وليس هو أهل لها، وليس هذا هو محلها، ولكن الله جل وعلا أعطاه ذلك تعجيلاً لعذابه أو زيادة في عذابه لأنه إذا لم يشكر فهو كافر ويزاد في عذابه.

ولأن الدنيا لا تساوي شيئاً، ولهذا جاء في الحديث: «**أن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا من يحب**»[1].

ثم أتى إلى الثالث الذي هو الأعمى، أتاه في صورته أعمى، وصورة فقير، فقال له مثل ما قال لصاحبيه، فتذكر حاله وشكر ربه فقال: «**قد كنت أعمى فرد الله عليّ بصري فخذ ما شئت، ودع ما شئت، فوالله لا أجهدك بشيء أخذته لله**»؛ يعني: لا أمنعك من شيء أخذته لو أخذت المال كله، فأخبره أنه لا حاجة له في المال وإنما هو ابتلي من الله جل وعلا ليظهر ذلك جلياً في

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم ٣٦٧٢ من حديث ابن مسعود.

أعمالهم وأقوالهم وأفعالهم حتى يستحقوا على ذلك العذاب أو الثواب «**فقال: أمسك مالك**»؛ يعني: لا حاجة لي فيه، وإنما ابتلاكم الله جل وعلا فرضي عنك وسخط على صاحبيك. فالظاهر أنه يعرف صاحباه، وقد لا يلزم من ذلك، لأن قوله صاحباك؛ يعني: الذي عرفهما الملك.

قد يستدل بهذا على جواز التمثيل الذي يصنعه الناس اليوم؛ لأنه جاء في صورة رجل وليست هذه صورة الملك، والثاني أنه جاء في صورة أبرص فقير، ثم جاء في أقرع فقير ثم جاء في صورة أعمى، وكل هذا لا يدل على جواز التمثيل لأن هذه هي ليست صورة الملك حقيقة فهو باستطاعته أن يتمثل، ولا يخرج بهذا عن صورته، ولهذا لما جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ في صورة دحية الكلبي قال هذا جبريل، وهو كذلك في هذا في الصورة التي خلق عليها ولكنه يظهر للناس في هذا؛ لأنه لا يمكن مشاهدته على صورته الحقيقية، ولهذا لما اقترح الكفار أن يأتيهم ملك على صورته الحقيقية قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩﴾ [الأنعام: ٩]؛ يعني: يلتبس عليهم الأمر فيقولون هذا رجل وليس ملك، فلا بد أن يكون على صورة البشر حتى يمكن أن يتخاطبون معه، ولهذا إذا جاء جبريل على صورته يكون الوحي شديد على الرسول ﷺ بخلاف ما إذا جاء في صورة بشر فإنه يخاطبه كما في حديث عمر ﷺ فيكون هذا ليس فيه دليل على جواز التمثيل، التمثيل كذب وفيه استهزاء وسخرية في الناس الذين يتمثل فيهم، فمثل هذا لا يجوز أن يكون حكمه الإباحة، أو كما يقول بعض الناس أنه واجب لأنه فيه الدعوة وفيه كذا وكذا.

فهذه القصة العجيبة فيها تذكير أن الإنسان يجب عليه أن يشكر ربه على كل ما يناله من محبوبات ومرادات، سواءً كانت من المال أو الصحة أو الولد أو من غيرها، وأعظم من ذلك كله أن يوفقه الله جل وعلا لطاعته، فهذا يجب أن يكون شكره أعظم من شكره على المال، والإنسان لن يقوم بشكر الله لكنه إذا قام بما يستطيع واعتراف بالتقصير فإن الله جل وعلا يثيبه على ذلك، ولهذا يقول الرسول ﷺ: «**سيد الاستغفار أن تقول: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت**

خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي وأبوء لك بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»[١]. فأبوء: معناه أعترف وأقر بنعمك، وكذلك أعترف بذنوبي وأقر بها، وصار سيد الاستغفار من أجل ذلك. فإن اعتراف الإنسان بتقصيره، اعتراف لله بفضله ونعمه، فإن الله جل وعلا يشكره على هذا ويثيبه.

فالمقصود بهذا الباب وجوب إضافة النعمة إلى مسديها ومموليها، ووجوب القيام بشكرها، والثناء على من أنعم بها، فهذه أركان الشكر من لم يقم بها فإنه يكون ناقص التوحيد أو ذاهب توحيده فهذا مقصود الباب.

وفيه كذلك أنه لا يجوز إضافة النعم إلى أسبابها أو بعض أسبابها، وإنما تضاف الأمور إلى الله الذي سبب الأسباب، وأن هذا من شكر النعمة.

❁ **قال المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ: **فيه مسائل:**

❁ **الأولى: ما معنى ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾.**

يعني مثل ما يقول: أنا شاطر أعرف وجوه التجارة، ولأني متعلم أعرف كيف أستورد وكيف أتصرف، وكيف أعامل الناس، فيضيف الأمور إلى نفسه وهذا من الكفر والواجب أن يشكر ربه، ويضيف ذلك إلى ربه جل وعلا الذي هيأ له الأسباب وجعله قادراً، ولو شاء لم يحصل له شيء مع وجود السبب، هذا معنى لي وعندي الإضافة إلى الإنسان إضافة كفر، وإنما الواجب أن تكون الإضافة إلى ربه جل وعلا.

❁ **الثاني: ما معنى ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾؟**

هذا مثل ما سبق، كما يقول أنا أعرف كيف أتصرف، وأنا اعتمد على نفسي، ومعلوم أن الاعتماد على النفس اعتماد على عورة وضيعة وضلال، والرسول ﷺ الذي هو أكمل الخلق يقول: **«وأشهد أنك إن تكلني إلى نفسي**

---

(١) رواه البخاري رقم ٦٣٠٦ من حديث شداد بن أوس.

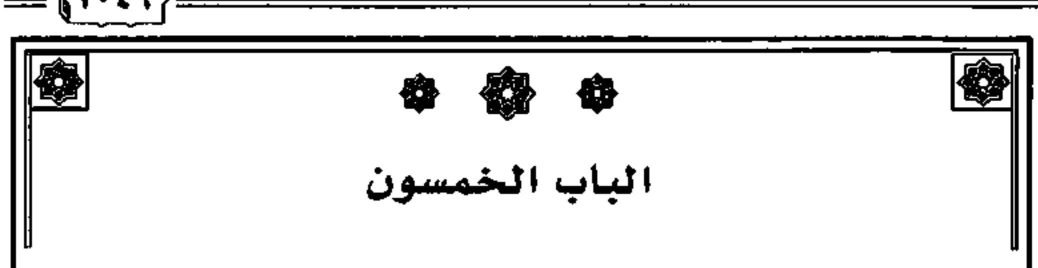
تكلني إلى ضيعة وعورة وذنب وخطيئة»[١]، وكثير من الناس أيضاً يوصي إخوانه وأولاده يقول اعتمدوا على أنفسكم، فهذا من الغرور في الواقع، الواجب أن يكون اعتماده على ربه في كل شيء، والنفس ضعيفة ولا يمكن أن يعتمد عليها، ولكن من سُنَّة الله في خلقه أنه جعل أسباباً ظاهرة حتى يتبين الشاكر من الكافر، الكافر ينظر إلى السبب نفسه ويعتمد عليه، معلوم أن الاعتماد على السبب شرك، وتعطيل السبب قدح في الشرع وفي العقل، يجب أن تفعل السبب الشرعي، **والأسباب تنقسم إلى قسمين:**

سبب شرعي، وسبب غير شرعي، بل هو ممنوع محرم، فيجب أن يعتمد على ربه ويفعل السبب الشرعي؛ يعني: تفعل السبب أولاً، وتعتمد على الله جل وعلا في حصول المراد، فإن حصل تشكر الله جل وعلا بإضافة هذه النعمة إليه، وليس إليك أو إلى صنعتك أو إلى كسبك كما في هذه الآية.

فمراد المؤلف أن يبين أن التوحيد يقتضي وجوب الشكر، وإضافة النعم إلى موليها ومسديها هذا أولاً، ويثني بها على الله ثانياً، وأن تكون عوناً له على الطاعة، ويعمل بها في طاعة الله ثالثاً، فهذه الأمور الثلاثة لازمة لا بد منها، وإن تخلف واحد منها فإن العبد لا يكون قائماً بشكر النعمة، فيكون فيه قدح في توحيده، ومستحق لعذاب الله إن لم يعفُ عنه.



(١) أخرجه أحمد في المسند رقم ٢١٦٦٦.



الباب الخمسون

❁ قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ: باب قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝١٩٠﴾ الآية [الأعراف: ١٩٠].

قبلها: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝١٨٩ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝١٩٠ أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ۝١٩١﴾ [الأعراف: ١٨٩ ـ ١٩١] القراءة للآيات وتأملها يتبين المعنى.

فقوله جل وعلا: «﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾» هذا لا إشكال فيه أن المقصود به آدم عليه السلام.

وقوله: «﴿وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾»: أن الله خلق زوجة آدم من بعض بدنه.

وقوله فيما بعد الظاهر أن المقصود في ذلك الجنس وليس العين؛ يعني: المؤلف رحمه الله يريد بذلك أن آدم عليه السلام هو الذي وقع منه هذا الأمر هو وزوجته، فقول الله جل وعلا: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ لا إشكال أنه آدم ﴿وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾.

وبعد ذلك جاءت التثنية، والتثنية يصح أن تكون لآدم ويصح أن تكون للجنس؛ يعني: الزوج وزوجته من جميع الذين يقع منهم ذلك.

وقوله: «﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾»: هكذا جاء في القرآن التعبير عما يستحيى منه بالكناية، كما قال جل وعلا: ﴿أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [النساء: ٤٣]، وقوله: ﴿وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ﴾ [النساء: ٢١]، وما أشبه ذلك من الآيات فيها أن الله يكني عن الأمر الذي يُستحيى منه، وكذلك جاء في السُّنَّة، فإن الرسول ﷺ ما كان يصرح إلا في وقت الحاجة التي لا بد منها، فلما جاء ماعز مقراً على

نفسه بالزنا قال له: «**قبَّلت أو لمست**»[1]، ثم قال له تصريحاً لا بد منه لأن الحدود تُدرأ بالشبهات، وأيضاً مثل هذا ينبغي أن لا يُتسرع فيه، ففي هذه الآية مثل ذلك، فالله كريم جل وعلا يشرع لنا الشيء الذي نسلكه حتى في ألفاظنا من الأمور التي يؤدبنا بها جل وعلا، ولهذا قال: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾، والتغشي: عبارة عن وطء المرأة، وطء الزوج زوجته.

ولهذا قال: ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ مرت به يعني: استمرت به خفيفاً لم تشعر به الآن، أول مبدأ الحمل يكون خفيفاً لا يُشعر به.

وقوله: «﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾»؛ يعني: أنه كبر في بطنها وصار ثقيلاً حمله، وهذا أمر معلوم عند الناس.

وقوله: «﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾»؛ يعني: الزوج وزوجته.

وعلى التفسير الذي أراده المؤلف: آدم وحواء، ولكن هذا سيأتي إن شاء الله.

وقوله: «﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾»: هذا فيه شرط وفيه قسم.

قوله: «﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾»: هذا هو الجواب، ولكن جاء خلاف هذا.

والظاهر أن الصالح هنا المقصود به: صلاح البدن أن لا يكون معيباً، أو أن لا يكون نوعاً آخر غير البشر لأن الله قادر أن يخلق ما يشاء ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٦] جل وعلا.

ولهذا كانت عائشة رضي الله عنها إذا ولدت المرأة تسأل: لعله سوياً، فإذا قيل لها أنه سوياً حمدت الله، بغض النظر عن كونه ذكراً أو أنثى.

وهذا الظاهر هو المقصود ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾؛ يعني: صالحاً في خلقته، يكون آدمياً سوياً.

وقد يدخل فيه الصلاح الذي هو صلاح العبادة والتوجه والعقيدة، ولكن

(١) أحمد في المسند رقم ٢١٢٩، والبخاري رقم ٦٨٢٤.

هذا لا يتبين من المولود وإنما يتبين بعد ما يعرب عنه لسانه؛ يعني: يكون عاقلاً.

وقوله: «﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾»: هذا وعد، بل هو شبه النذر، ولكنه لم يقع؛ يعني: أن الجواب لم يقع بل خولف ولهذا قال: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾.

اختلف العلماء في المراد في هذه الآية، وكثير من العلماء يقولون أن هذا في آدم، وابن حزم رحمه الله يقول هذه خرافة وهذه حكاية باطلة لا يمكن أن تكون لآدم عليه السلام. وكذلك قال الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله قال أنها باطلة ولا يجوز أن تنسب لآدم، وهذا هو الظاهر؛ يعني: بطلانه.

والشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله استدل على بطلانها بعدة أشياء(١)، ولكن بعضها فيه نظر مثل قوله: إن الأنبياء معصومون. العصمة لا تنافي وقوع الخطأ على القول الصحيح عند أهل السُّنَّة؛ لأن حتى العصمة في وقوع الشرك فيه خلاف بينهم، ولهذا اختلفوا في قوله تعالى في قصة شعيب عليه السلام وغيره: ﴿إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ٨٩] فهل كان على ملتهم؟ فيه خلاف بين العلماء، وشيخ الإسلام رحمه الله(٢) يقول: لا مانع من ذلك قبل أن يوحى إليه، وكذلك قوله الله جل وعلا: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾﴾ [الضحى: ٧] وما أشبه ذلك.

فالمقصود: أن ذلك غير متفق عليه، وإنما العصمة للأنبياء فيما يبلغونه عن الله جل وعلا، هذا اتفقوا على أنهم معصومين فيه، أما وقوع الخطايا والسيئات فالله جل وعلا قل أن يذكر نبياً إلا ويذكر له شيئاً من ذلك، ولكن الله جل وعلا لا يقرهم على الذنوب بل يوفقهم فيتوبون وتكون حالتهم بعد الذنب

---

(١) القول المفيد شرح كتاب الوحيد ٢/٢١٣ ـ ٢١٥.

(٢) مجموع الفتاوى ١٥/٢٩ قال رحمه الله: ظاهره دليل على أن شعيباً والذين آمنوا معه كانوا على ملة قومهم لقولهم: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨]، ولقول شعيب: «أنعود فيها ولو كنا كارهين»، ولقوله: ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم﴾ [الأعراف: ٨٩]، فدل على أنهم كانوا فيها ولقوله: ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ٨٩]، فدل على أن الله أنجاهم منها بعد التلوث بها.

نفسه بالزنا قال له: «قبَّلت أو لمست»[1]، ثم قال له تصريحاً لا بد منه لأن الحدود تُدرأ بالشبهات، وأيضاً مثل هذا ينبغي أن لا يُتسرع فيه، ففي هذه الآية مثل ذلك، فالله كريم جل وعلا يشرع لنا الشيء الذي نسلكه حتى في ألفاظنا من الأمور التي يؤدبنا بها جل وعلا، ولهذا قال: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّنهَا﴾، والتغشي: عبارة عن وطء المرأة، وطء الزوج زوجته.

ولهذا قال: ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ مرت به يعني: استمرت به خفيفاً لم تشعر به الآن، أول مبدأ الحمل يكون خفيفاً لا يُشعر به.

وقوله: «﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾»؛ يعني: أنه كبر في بطنها وصار ثقيلاً حمله، وهذا أمر معلوم عند الناس.

وقوله: «﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾»؛ يعني: الزوج وزوجته.

وعلى التفسير الذي أراده المؤلف: آدم وحواء، ولكن هذا سيأتي إن شاء الله.

وقوله: «﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾»: هذا فيه شرط وفيه قسم.

قوله: «﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾»: هذا هو الجواب، ولكن جاء خلاف هذا.

والظاهر أن الصالح هنا المقصود به: صلاح البدن أن لا يكون معيباً، أو أن لا يكون نوعاً آخر غير البشر لأن الله قادر أن يخلق ما يشاء ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٦] جل وعلا.

ولهذا كانت عائشة ﵂ إذا ولدت المرأة تسأل: لعله سوياً، فإذا قيل لها أنه سوياً حمدت الله، بغض النظر عن كونه ذكراً أو أنثى.

وهذا الظاهر هو المقصود ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾؛ يعني: صالحاً في خلقته، يكون آدمياً سوياً.

وقد يدخل فيه الصلاح الذي هو صلاح العبادة والتوجه والعقيدة، ولكن

(١) أحمد في المسند رقم ٢١٢٩، والبخاري رقم ٦٨٢٤.

هذا لا يتبين من المولود وإنما يتبين بعد ما يعرب عنه لسانه؛ يعني: يكون عاقلاً.

وقوله: «﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾»: هذا وعد، بل هو شبه النذر، ولكنه لم يقع؛ يعني: أن الجواب لم يقع بل خولف ولهذا قال: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾.

اختلف العلماء في المراد في هذه الآية، وكثير من العلماء يقولون أن هذا في آدم، وابن حزم رَحِمَهُ اللهُ يقول هذه خرافة وهذه حكاية باطلة لا يمكن أن تكون لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ. وكذلك قال الشيخ محمد بن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ قال أنها باطلة ولا يجوز أن تنسب لآدم، وهذا هو الظاهر؛ يعني: بطلانه.

والشيخ محمد بن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ استدل على بطلانها بعدة أشياء[١]، ولكن بعضها فيه نظر مثل قوله: إن الأنبياء معصومون. العصمة لا تنافي وقوع الخطأ على القول الصحيح عند أهل السُّنَّة؛ لأن حتى العصمة في وقوع الشرك فيه خلاف بينهم، ولهذا اختلفوا في قوله تعالى في قصة شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ وغيره: ﴿إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ﴾ [الأعراف: ٨٩] فهل كان على ملتهم؟ فيه خلاف بين العلماء، وشيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ[٢] يقول: لا مانع من ذلك قبل أن يوحى إليه، وكذلك قوله الله جل وعلا: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾﴾ [الضحى: ٧] وما أشبه ذلك.

فالمقصود: أن ذلك غير متفق عليه، وإنما العصمة للأنبياء فيما يبلغونه عن الله جل وعلا، هذا اتفقوا على أنهم معصومين فيه، أما وقوع الخطايا والسيئات فالله جل وعلا قل أن يذكر نبياً إلا ويذكر له شيئاً من ذلك، ولكن الله جل وعلا لا يقرهم على الذنوب بل يوفقهم فيتوبون وتكون حالتهم بعد الذنب

---

(١) القول المفيد شرح كتاب الوحيد ٢/ ٢١٣ ـ ٢١٥.

(٢) مجموع الفتاوى ١٥/ ٢٩ قال رَحِمَهُ اللهُ: ظاهره دليل على أن شعيباً والذين آمنوا معه كانوا على ملة قومهم لقولهم: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ﴾ [الأعراف: ٨٨]، ولقول شعيب: «أنعود فيها ولو كنا كارهين»، ولقوله: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم﴾ [الأعراف: ٨٩]، فدل على أنهم كانوا فيها ولقوله: ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ﴾ [الأعراف: ٨٩]، فدل على أن الله أنجاهم منها بعد التلوث بها.

أحسن منها قبل، والله جل وعلا: ﴿يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ ولا يمكن أن يمنع سادات أوليائه عن هذه المحبة التي يحبها الله جل وعلا فيوقعهم في الشيء الذي يكتسبون فيه محبة الله جل وعلا والرجوع إليه والتضرع بين يديه والافتقار له، وهذا من أفضل العبادات التي يحبها الله فتكون حالتهم بعد ذلك أحسن منها من قبل، وكذلك التائب إذا وقع في ذنب ثم تاب صادقاً فإن الله جل وعلا يبدل سيئاته حسنات، وهو ﴿يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] والمتطهرين يدخل فيه المتطهر من الذنوب من باب أولى، وقد اختلفوا في مسألة في التبليغ؛ يعني: هل يمكن أن يقع فيما يبلغونه شيء من إلقاء الشيطان؟ وعلى هذا جاءت القصة المشهورة «قصة الغرانيق» والخلاف فيها مشهور، ذلك أن النبي ﷺ لما قرأ سورة النجم ووصل إلى قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ [النجم: ١٩، ٢٠] يقولون: إن الشيطان أوقع في مسامع الكافرين: «تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى»، فقال المشركون: هذا الذي نريد نحن لا نريد إلا هذا، وهو الشفاعة فقط. ولهذا لما استمر في قراءة السورة ووصل إلى السجدة وسجد سجدوا كلهم معه[1].

وأصل القصة في الصحيحين[2] أنهم سجدوا في آخر سورة النجم وأنه فشا فيهم أنهم أسلموا حتى وصل ذلك إلى الحبشة إلى من كان فيها من المسلمين مهاجرين فرجع بعضهم، ولما رجعوا وجدوا الأمر أشد مما كان، وذلك أنهم لما قالوا للنبي ﷺ: إنك قلت كذا وكذا، فأنكر وقال: لم أقله. فأنزل الله جل وعلا: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ الآية [الحج: ٥٢، ٥٣]. فرجعوا إلى ما كانوا عليه من أذى المسلمين وأشد.

---

(١) الطبراني في الكبير رقم ٨٣١٦، والبيهقي في دلائل النبوة رقم ٥٩١، وابن أبي حاتم في تفسيره رقم ١٣٧٢٩.
(٢) رواه البخاري رقم ١٠٧١، ومسلم رقم ٥٧٦.

هذا يقوله كثير من الناس أنها باطلة، ولكن أول من شنع في هذا وعظم الأمر القاضي عياض ثم تبعه بعض العلماء، ومن آخرهم الشيخ الألباني رحمه الله فإنه كتب كتاباً سمَّاه: «نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق»، وقال أنها باطلة من أصلها، والعصمة تنافيه، وذكر أشياء وكذلك من قلده واتبعه.

أما المحققون مثل شيخ الإسلام وغيره فيقول: لا مانع من ذلك، ولكن فرق بين أن يكون الرسول ﷺ تكلم أو يكون الشيطان ألقى على مسامع الكفار، فإلقاء الشيطان في مسامع الكفار ممكن، أما أن يكون الرسول ﷺ تكلم فلا، فنسبة الكلام إليه باطلة فلم يتكلم، ويجوز أن الشيطان يقلد صوته فيلقي في مسامع أوليائه الشيء الذي يفتنهم فيه.

ولهذا الذين قالوا: إنها باطلة اضطربوا في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾، ما هو المراد بهذا وأتوا بأشياء فيها تكلف ولم يأتوا بالشيء الذي يمكن أنه يطمئن إليه، بخلاف الذين قالوا أن هذا لا مانع منه لأن الله ينسخ ذلك ويبطله، فما دام أنه ينسخ ما يلقيه ويحكم آياته فلا مانع، فلا ينافي العصمة، ثم فوق هذا قال شيخ الإسلام: إن هذا دليل من دلائل النبوة؛ لأن الكاذب ما يمكن أنه مثلاً يخاف أو يقول أني ما قلت هذا أو يقول ما أشبه هذا، ثم يخاف الخوف الشديد أنه جرى على لسانه شيء لم يريده، وإنما الكاذب يؤيد ما نسب إليه ولو كان كذباً.

فالمقصود أن العصمة التي اتفق عليها أهل السُّنَّة أنها فيما يبلغونه عن الله، أما الذنوب فلا يتفقون عليها بل القرآن يرد ذلك والتطرف في المسائل في مثل هذا لا يجوز لأن من الناس من بالغ في نفي ذلك وقال: من قال أن الرسل يذنبون ويقعون في الذنوب أنه كافر، هذا تطرف ـ نسأل الله العافية ـ.

والله جل وعلا يقول لنبيه وهو أفضل الأنبياء: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ [الفتح: ١، ٢]، ويقول جل وعلا: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣﴾ [النصر: ١ ـ ٣] فإذا لم يكن له ذنوب فكيف يستغفره.

الشيطان الذي هو الحارث، كما في الآثار التي ذكر، ولكن هنا قال: ﴿شُرَكَآءَ﴾ وهذا من المواضع التي تدل على أن الآية ليست في آدم وحواء، وإنما هي في بنيه في بعضهم المشركين.

أما التثنية فهي بالنسبة للزوج والزوجة ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا﴾؛ يعني: المولود الذي آتاهم، ثم ذكر قول ابن حزم.

۞ قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: قال ابن حزم: «اتفقوا على تحريم كل اسم معبَّد لغير الله جل وعلا كعبد عمرو، وعبد الكعبة وما أشبه ذلك حاشا عبد المطلب»[1].

قوله: «حاشا عبد المطلب»؛ يعني: أنهم لم يتفقوا على تحريم ذلك، وأن هذا جائز، وهذا لا وجه له، والصحيح: أن التعبيد محرم مطلقاً لا عبد المطلب ولا غيره.

أما استدلالهم بقوله ﷺ: **«أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب»**[2] في وقعة حنين لما انهزم المسلمون وبقي عليه الصلاة والسلام وحده، ترجل من على بغلته وصار يقول: **«أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب هلم إلي»**، هذا غاية الشجاعة والطمأنينة في المواقف الحرجة والمخيفة جداً.

فيقولون لو كان ممنوعاً ما قال: **«أنا ابن عبد المطلب»**؛ يعني: أن هذا إقرار له والرسول ﷺ لا يقر على الشرك.

والواقع أنه ليس إقراراً وإنما هو ذكر الواقع، وفرق بين ذكر الواقع وبين التسمية فهو معروف بأنه ابن عبد المطلب؛ يعني: جده اسمه عبد المطلب.

أما تعليلهم بقولهم: أن هذا ليس من العبادة، وإنما هو من عبودية الرق، وذلك أنهم يقولون: أنه لما كان عبد المطلب عند أخواله في المدينة بني النجار كانت أمه منهم فبقي عندهم وقتاً فمر عليه والده فحمله معه على رحله خلفه،

(١) مراتب الإجماع ص١٥٤.

(٢) رواه البخاري رقم ٢٨٦٤، ومسلم رقم ١٧٧٦.

فأصابته الشمس فتغير لونه فلما دخل مكة، وهو معه، قالوا: إنه جاء بعبد فسموه عبد المطلب؛ يعني: المطلب جاء بعبد، فقيل له ذلك من عبودية الرق، وليس من عبودية العبادة، فيقولون هذا هو وجه الاستثناء، ولكن هذا غير صحيح لأن الرسول ﷺ ذكر عبد الدار وعبد مناف وبني عبد شمس وغيرهم.

فهذا من باب ذكر الواقع وليس من إقرار الشرك، فلا يجوز أن يعبَّد لغير الله جل وعلا، فلا يقال عبد الحسين أو عبد علي أو عبد النبي أو عبد الكعبة، بل الواجب أن يقال: عبد الله، عبد الرحمٰن، عبد العزيز، وما أشبه ذلك يعبَّد لله جل وعلا وحده.

فاستثناء ابن حزم لا وجه له، وليس صحيحاً، فالواجب الإطلاق، والمقصود هنا أن هذا إجماع، فقوله: «اتفقوا»؛ يعني: أجمعوا على تحريم الاسم المعبد لغير الله تعالى.

وهل هذا هو مستند التحريم، الإجماع؟ والإجماع أحد الأدلة الشرعية وهي أربعة عند أهل السنة: الكتاب، والسنة، والإجماع، والقياس الصحيح. هذه هي الأصول التي يرجع إليها، وإن كان القياس فيه خلاف، ولكن الشأن في ثبوت الإجماع، أما دعوى الإنسان الإجماع فالدعاوى لا تقبل مما ادعى إلا بدليل.

وقد أنكر الإمام أحمد رحمه الله الإجماع لما قيل له أن فلان يقول أنهم أجمعوا قال: وما يدريه أنهم أجمعوا، الناس متفرقون في كل مكان والبلاد واسعة هل أحاط بهم حتى يعرف أنهم أجمعوا.

والإجماع الذي يمكن أن ينضبط هو إجماع الصحابة رضي الله عنهم، أما من بعدهم لما تفرقوا في البلاد واتسعت رقعة الإسلام وانتشر المسلمون وكثر العلماء فهذا دعوى الإجماع فيه أنه لا يمكن أن تنضبط والإجماع لا بد أن يكون له مستند من الكتاب أو السُّنَّة لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء: ١١٥].

وكذلك قول ابن مسعود في الحديث الذي يرويه: «فما رآه المسلمون

حسناً فهو عند الله حسن، وما رأوه سيئاً فهو عند الله سيئ»[١]، وقوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك»[٢].

فهذا فيه أن الأمة لا تكون متفقة إلا على حق، وغير ذلك مما يستند عليه الإجماع فهو يستند إلى أمر شرعي، وابن حزم رحمه الله له كتاب سماه مراتب الإجماع وهو مطبوع ولشيخ الإسلام عليه تعليق ونقد له.

فتبين لنا أن الاستثناء الذي جاء به أنه لا وجه له، أما ما ذكره بعضهم أن الصحابة فيهم من اسمه عبد المطلب فهذا غير صحيح، وقد نفاه الحفاظ مثل الحافظ ابن حجر وغيره، فإذا جاء في خبر ضعيف فلا يلتفت إليه.

والرسول ﷺ ما كان يقر التعبيد لغير الله جل وعلا، بل كان يغير الأسماء القبيحة، فكيف بالشيء الذي يعبد لغير الله، الذي ينافي التوحيد أو ينافي كماله، بل ينافي أصله لأن العبودية يجب أن تكون لله جل وعلا.

۞ قال المؤلف رحمه الله: وعن ابن عباس ـ في معنى الآية ـ قال: لما تغشاها آدم حملت، فأتاهما إبليس فقال: إني صاحبكما الذي أخرجكما من الجنة لتطيعانني أو لأجعلن له قرني أيل فيخرج من بطنك فيشقه، ولأفعلن ولأفعلن يخوفهما، سمياه عبد الحارث، فأبيا أن يطيعاه، فخرج ميتاً، ثم حملت، فأتاهما فقال مثل قوله فأبيا أن يطيعاه، فخرج ميتاً، ثم حملت، فأتاهما فذكر لهما فأدركهما حب الولد، فسمَّياه عبد الحارث، فذلك قوله: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾. رواه ابن أبي حاتم[٣].

قوله: «وعن ابن عباس في معنى الآية»؛ يعني: في تفسيرها.

قوله: «لما تغشاها آدم»: والمقصود في قوله: **«تغشاها»**؛ يعني: كناية عن الجماع لأن الرجل يعلو المرأة، والتغشي هنا يدل على المعالجة.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم ٣٦٠٠.
(٢) سبق تخريجه.
(٣) ابن أبي حاتم في تفسيره رقم ٩٤٢١.

قوله: «حملت»: ذكر الله أنه بحكمته أنه جعل الخلق بواسطة الماء، ماء الرجل والمرأة ولا بد من ذلك، وبدون ذلك لا يمكن، وهذا في الحيوانات كلها، والله يخلق ما يشاء غير أنه جل وعلا بيّن قدرته أنها صالحة لكل شيء وأنه لا يعجزه شيء، فأخبرنا أنه خلق آدم من طين فهذا من أعجب الأشياء مخلوق حي سميع بصير يُخلق من جماد من طين لازب، ثم خلق أنثى من ذكر وهذا أيضاً عجيب كما جاء في الحديث: «**نام آدم نومة فخلق الله من ضلعه الأقصر الأيسر حواء**»[1]، ولهذا صار الرجل يميل إلى المرأة لأنها جزء منه وكذلك المرأة تميل للرجل.

ولكن بحكمته جل وعلا ركب فيهما الشهوة التي أودعها فيهما، فكل واحد منهما يسعى لهذا جهده بغير إرادة، وإلا لو كان الأمر موكولاً إليهما انقطع النسل لأنها كشف عورات ومناظر سيئة، وأمور لا يمكن ذو العقول أن يميل إلى هذا.

ولكن لما صار الداعي قوي جداً حتى يبقي النسل إلى إرادة الله جل وعلا، وهذا من قدرة الله جل وعلا ومن عجائب صنعه تعالى وتقدس.

ثم كذلك خلق ذكر من أنثى وهو عيسى ﷺ بلا أب، فهذا هي أنواع خلق بني آدم وهو جل وعلا قادر على كل شيء، ولهذا يقول جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الواقعة: ٦٢]؛ يعني: نشأة آدم كما أخبرنا الله جل وعلا بها. وأخبرنا جل وعلا أنه قادر على أن يجعلنا على أشياء غير هذه التي نحن عليها، فهو قادر على أن يبدل أمثالنا وينشئنا فيما لا نعلم تعالى وتقدس ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الواقعة: ٦١].

فالمقصود أن ربنا جل وعلا أخبرنا أنه خلق أصلنا ذكر من طين، ولهذا جاء في الحديث أن بني آدم كلهم أصلهم من الطين، وإن الإنسان إذا افتخر بآبائه فإنه جاهلي ويحتز بالجاهلية، ولهذا قال: «**إن الله ﷻ قد أذهب عنكم عُبِّية الجاهلية وفخرها بالآباء، مؤمن تقي وفاجر شقي، والناس بنو آدم وآدم من**

---

(١) رواه ابن ماجه رقم ٥٢٥، والطبري في تفسيره ١/ ٥١٣.

تراب، ليتهين أقوام عن فخرهم برجال أو ليكونن أهون على الله من عدتهم من الجعلان التي تدفع بأنفها النتن»(١).

وأخبرنا في آية أخرى أن أكرمنا عند الله التقي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ١٣]، فمن كان أتقى لله فهو الكريم عند الله، أما من كان فاجراً ملحداً ولو كان ابن نبي فهو في جهنم، لا ينفعه نسبه، انظر كيف حكمة الله جل وعلا ذكر الله عبده الشكور نوحاً ﷺ وبيَّن أن ابنه وزوجته في النار ما استطاع أنه يغني عنهما شيئاً وهما من أهل النار ـ نسأل الله العافية ـ.

وذكر أشر خلق الله وهو فرعون أخبر أن زوجته في الجنة أن الله نجاها: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾ [التحريم: ١١]، إذا لم يكن الإنسان مطيعاً لله تعالى فلا قيمة له.

قوله: «فأتاهما إبليس فقال: إني صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة لتطيعاني أو لأجعلن له قرني أيل فيخرج من بطنك فيشقه ولأفعلن ولأفعلن، يخوفهما سمِّياه عبد الحارث»، ويقولون أن إبليس اسمه الحارث، وهذا من العجب فهل يعقل أن آدم الذي هو أكمل الخلق عقلاً، وعقول أبنائه بالنسبة إليه ضعيفة، أنه يأتيه الشيطان ويقول له أنا صاحبك الذي أخرجتكما من الجنة وأنا سأفعل وأفعل ويطيعه ويصدقه، هذه من الأمور الممتنعة.

ثم هل آدم يصدق الشيطان أنه يخلق للمولود قرن أيل في البطن، إذاً الشيطان يخلق يوجد خلقاً هذا لا يصدقه عاقل من الناس، فكيف يقال أن آدم خاف أنه يكون كذا وكذا.

آحاد العوام من الناس لو قيل له أن الشيطان سيجعل في إنسان قرون بقرة في البطن أو في غير البطن يقول: هذا كذب، الشيطان لا يستطيع أن يفعل شيئاً الشيطان لا يخلق، فالخالق هو الله وحده جل وعلا، فهذا مثل ما قال ابن حزم

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم ٨٧٣٦.

كلها باطلة، وهذه الحكاية يظهر أنها مأخوذة عن أهل الكتاب، عن زنادقتهم.

وكون الشيطان يأتي لأحد الناس الأغبياء ويصور له أنه يستطيع أنه يفعل ويفعل، يمكن قد يكون أما أنه يأتي لمن اصطفاه الله جل وعلا وعلمه أسماء كل شيء فيقول له هذا الشيء، ومعلوم أنه إذا قال هذا الشيء أنه لا يخلو الأمر من شيئين:

أحدهما: أن لا يصدقه، وإذا كان لا يصدقه فهو لا يطيعه فيبطل هذا.

الثاني: أنه يصدقه أنه يستطيع ذلك وهذا شرك في الربوبية، فهل يمكن أن يقع هذا؟ نقول لا يمكن أن يقع من آدم ﷺ، والشيطان لا يستطيع أن يفعل شيئاً من ذلك.

والأيل: يقولون هو تيس الجبل؛ يعني: الذكر من الظبي، وهو نوع من الظبي لأن الظبي أنواع متعددة.

وقوله: «فأبيا أن يطيعاه فخرج ميتاً»: كونه خرج ميتاً لا يدل على أن الشيطان تصرف فيه؛ لأن الإنسان يبتلى حتى تتبين طاعته وإيمانه، من اهتزازه وانتكاسه كما قال الله تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝﴾ [العنكبوت: ٢]، لا بد من الفتنة، والله علام الغيوب لا يخفى عليه شيء في المستقبل، ولا في الماضي، ولا في الحال، ولكن من رحمته أنه لا يأخذ إلا بالفعل البارز الظاهر الذي يفعله الإنسان فيخرج ما في نفسه بالابتلاء فيكون فعلاً واقعاً، فهنا إما أن يكرم أو يهان كما قيل: عند الامتحان يكرم المرء أو يهان. لأنه إما أن يثبت، وإما أن ينتكس ويهان.

قوله: «ثم حملت»؛ يعني: مرة أخرى «فأتاهما فقال لهما مثل قوله: فأبيا أن يطيعاه فخرج ميتاً، ثم حملت» المرة الثالثة «فأتاهما فذكر لهما»؛ يعني: ما ذكر قوله: «فأدركهما حب الولد، فسمياه عبد الحارث فذلك قوله: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾.

قال المؤلف: «رواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس»: فنقول أنه لا يصح وإن رواه ابن أبي حاتم، وقد جاء فيه حديث مسند إلى النبي ﷺ، ولكن جعل ذلك من فعل حواء هي سمته عبد الحارث، فرده الحافظ ابن كثير من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن أحد رواته عمر بن إبراهيم البصري قال أبو حاتم الرازي: لا يحتج به، ولكن لم ينفرد به.

الثاني: أن الحسن راوي الحديث خالفه، وقال أن ذلك في الأمم وليس في آدم.

الثالث: أنه روي من قول سمرة غير مرفوع، وسمرة هو راوي الحديث، ومخالفته له دليل على علته أنه غير ثابت[١]. وهو أيضاً مخالف لما عرف أن آدم ﷺ أنه تام العقل مطيع لله جل وعلا.

آدم أكمل من بنيه عقلاً وطاعة لله، ثم من القواعد التي يجب أن نعرفها وهي تدل على بطلان هذه القصة: أن الله ما ذكر ذنب نبي من الأنبياء إلا ويذكر توبته ليبين أنهم على الهدى وعلى الحق وأنهم تابوا، هذه لم يذكر أنه تاب منها، أيذكر أنه وقع في الشرك ولا يذكر أنه خرج منه هذا لا يجوز.

والحسن البصري هو راوي الحديث يقول: إن هذا في بني آدم وليس في آدم[٢]، ثم قال الحافظ ابن كثير ونحن على مذهب الحسن، وقد خرجنا من عهدة الحديث المرفوع بضعفه، أما الآثار فلا تشكل؛ لأن الآثار يجوز أنها أخذت من أهل الكتاب أو عن غيرهم، فلسنا مكلفين بمتابعتها.

أما تأييد الشارح لهذه القصة وقوله: كيف ينسى ما وقع لآدم قبل ذلك[٣]؟

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم ٢٠١١٧، والترمذي رقم ٣٠٧٧ عن سمرة عن النبي ﷺ قال: **«لما حملت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال سميه عبد الحارث فإنه يعيش، فسموه عبد الحارث فعاش، وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره»**، قال ابن كثير ﷺ في تفسيره ٥٢٦/٢: والغرض أن هذا الحديث معلول من ثلاثة أوجه.

(٢) تفسير الطبري ٣١٤/١٣ عن الحسن: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ قال: كان هذا في بعض أهل الملل، ولم يكن بآدم.

(٣) تيسير العزيز الحميد ٥٦٥/١ ـ ٥٦٦ قال ﷺ: وإذا تأملت سياق الكلام من أوله إلى آخره مع ما فسره به السلف تبين قطعاً أن ذلك في آدم وحواء ﷺ، فإن فيه غير موضع يدل على ذلك، والعجب ممن يكذب بهذه القصة وينسى ما جرى أول مرة.

نقول: ما ينسى، ولكن هذه أعظم من تلك، وتلك نسي آدم كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ﴾ [طه: ١١٥]، وجاءه الشيطان بصورة الناصح وأقسم لهما بالله أنه لهما لمن الناصحين، واستبعد أن أحداً يجرأ على الحلف بالله كاذباً فاغتر بهذا وغيره وليس بهذه الصورة أنا صاحبكما وأنا أجعل وأجعل فرق بين هذه وهذه.

❁ **قال المؤلف** رَحِمَهُ اللهُ: **وله بسند صحيح عن قتادة، قال: شركاء في طاعته، ولم يكن في عبادته**(١).

❁ **وله بسند صحيح عن مجاهد في قوله: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ قال: أشفقا أن لا يكون إنساناً**(٢)**، وذكر معناه عن الحسن وسعيد وغيرهما.**

قوله: «أشفقا أن لا يكون إنساناً»: فلا دخل لها في هذه القصة؛ يعني: خاف أن يكون آخر وأن يكون غير سوي، فهذا الخوف موجوداً دائماً في جميع الناس، والعاقل يخاف أن يكون مثلاً مشوهاً أو تكون خلقته غير سوية أو يكون ليس له عقل، كما يحدث كثيراً، وإن كان زنادقة الناس الآن ينسبون ذلك للطبيعة ولهذا يقولون: هذا خلقته خلقة طبيعية، أو طبيعة، والطبيعة مسخرة لله جل وعلا هو الذي سخرها.

وأما الفرق بين الطاعة والعبادة هذه هي التي ينبغي أن نعرفها، سبق أن من أطاع المخلوق في معصية الله يكون عابداً له، سبق قول الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤]، وفي حديث عدي بن حاتم قال: أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب فقال: «**يا عدي اطرح هذا الوثن من عنقك**» فطرحته، فانتهيت إليه وهو يقرأ سورة براءة فقرأ هذه الآية: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]

---

(١) ابن جرير في تفسيره ١٣/ ٣١١ رقم ١٥٥٢١.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٦/ ٣٠٧ رقم ٩٤١٥ عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، قال: «أشفقنا أن لا يكون إنساناً».

حتى فرغ منها فقلت: إنا لسنا نعبدهم فقال: «**أليس يحرمون ما أحل الله فتحرِّمونه، ويحلون ما حرم الله فتستحلونه؟**»، قلت: بلى، قال: «**فتلك عبادتهم**»[1]، ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] الرهبان هم العباد، والأحبار هم العلماء فقوله: ﴿أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أرباباً جمع رب، فمعنى هذا أنهم أطاعوهم في المعاصي أطاعوهم في التحليل والتحريم، فإذا أطاعوهم في هذا فقد عبدوهم، وهذه طاعة في المعصية، فدل ذلك أن الطاعة في مثل ذلك عبادة بل هذا نص في المسألة، ولا فرق بين العبادة في الطاعة والعبادة في التعبيد إلا من جهة العِظم هذه أعظم من هذه.

فإذا أطاع العبد مخلوقاً فلا يخلو الأمر: إما أن تكون طاعته في شيء لا يعلم أنه معصية فهذا لا يدخل في هذا.

أما إذا عرف أنه أطاعه في معصية الله فهي عبادة، ومعلوم أن العبادات تتفاوت منها ما هو عبادة صريحة ودليلها ظاهر، ومنه ما هو ليس كذلك، ولهذا نحتاج إلى الفرق بين هذا وهذا.

والمقصود أن قول قتادة غير مسلم، فالطاعة فيما ذكر شرك فلا يجوز على من اصطفاه الله أن يشرك في هذا الأمر الظاهر.

وقوله: شركاء في الطاعة وليس شركاء في العبادة. والفرق بين هذا وبين قوله ﷺ: «**تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم**»[2]، فسماه عبداً للدينار والدرهم، فهل هو يطيع الدينار والدرهم، أو يسجد لهما؟ لا، ولكن صار عمله وفعله في تحصيل ذلك، وإن عصى الله كما هو واقع أكثر الناس في هذا الشيء فهذه هي عبادة الدنيا بهذا المعنى. ولهذا يكون الإنسان عابداً لهواه كما قال تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ﴾ [الفرقان: ٤٣] يقول العلماء: إذا هوى شيئاً فعله، وهذا عبادة لهواه إذا أحب شيئاً وهويه فعله، وجاء أن أعظم معبود في الأرض الهوى، فالناس أكثرهم يعبدون أهواءهم، يعني: شهواته ومراداته.

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير رقم ٢١٨. (٢) سبق تخريجه.

والمقصود أن الفرق بين الشرك في الطاعة والشرك في العبادة قد يكون في الشيء الذي لا يصل إلى التحليل والتحريم، أما إذا وصل إلى التحريم والتحليل فلا فرق.

وهل هذا ينطبق على هذه القصة؟ لأن الشيطان ما يستطيع أن يغير خلق الله جل وعلا إلا بأفعالهم، كقوله جل وعلا: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١١٩] ويعني: بأفعالهم مثل ما نرى بالأصباغ والوشم والوشر والشعور التي يأتون بها غير ما خلق الله، هذا هو تغيير خلق الله، أما خلق؛ يعني: يأتي خلق جديد فهذا لا يمكن، أما في هذه القصة فهو خلق جديد.

فالمقصود هنا: أن الفرق بين شرك الطاعة وشرك العبادة أن الطاعة إذا كانت في الأمر والنهي في التحليل والتحريم فلا فرق كله شرك، وإذا كان المقصود به أنه يطيعه تخلصاً من شره للقادر على إيقاع الشر وليس في معصية الله فهذا فيه أنه يكرهه ويبغضه، وإنما أراد بذلك تخليص نفسه فقط، وهذا لا يكون عبادة مع أن هذه القصة فيها تعبيد الولد لغير الله، وهذا ظاهر أنه شرك، وعلى هذا يكون معنى الآية والله أعلم أن الله تعالى ذكر خلق آدم وأنه خلق منه زوجه ثم انتقل إلى ما وقع لجنس بني آدم، وأن منهم من يعلم أن الله هو الذي يهب الولد السوي الخلقة ثم يجعلون لله شركاء في هذا الموهوب إما أن يربوه على عبادة غير الله، أو يسموه عبد اللات أو عبد العزى أو عبد الدار أو غير ذلك مما هو واقع في الناس كثيراً.

فخلاصة هذا أن الإنسان طبيعته التي لا يخرج عنها إلا بتهذيب أخلاقه، وتوفيق الله له باتباع الوحي أنه يكفر النعم ويضيفها إلى نفسه، وأنه غير شاكر، وأن هذا قدح في التوحيد أو مناف له، هذا هو وجه إدخال هذا الباب في كتاب التوحيد، وأما أن تكون هذه الأقوال وهذه القصة في آدم فهذا باطل، والظاهر والله أعلم أنها في ذريته وهذا الذي يدل عليه سياق الآية، وتدل عليه الضمائر التي ذكرت لا كما زعم الشارح.

وليس من المعقول أن الشيطان يأتي إلى آدم وحواء ويهددهما يقول سأجعل له قرن أيل، فهذا لا ينطلي على آحاد الناس فكيف يغتر به أكملهم وهو أبوهم.

❁ قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيه مسائل:

❁ الأولى: تحريم كل اسم معبد لغير الله.

المعبَّد؛ يعني: أن يبدأ بعبد، كل ما بدأ بعبد فهو معبَّد، مثل أن يقول: عبد الحسين عبد النبي، عبد علي، فهذا نوع من الشرك.

❁ الثانية: أن هذا الشرك في مجرد التسمية لم يقصد حقيقتها.

نقول أن هذا لم يثبت، ثم هذا ليس معناه أنه يكون شركاً؛ يعني: أنه لا بد من يقصد معناه، فالمعنى واللفظ كله باطل؛ لأن الإنسان لو قال: «واللات» فقال أنا ما قصدت معناها، وهذا شيء جرى على لساني، نقول: أنت وقعت في الشرك ولو لم تقصد معناه يجب أن تتوب منه، وهذا يجب أن ينزه آدم منه.

❁ الثالثة: أن هبة الله للرجل البنت السوية من النعم.

نص على البنت لأن بعضهم يكره البنت، وهذا كثير وهي سُنَّة جاهلية كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩]؛ يعني: يفكر في نفسه ﴿أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ﴾؛ يعني: مهان محتقر ﴿أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾ [النحل: ٥٩]؛ يعني: حياً موءوداً يقتلها للتخلص منها.

فهو قصد بهذا أن بعض الناس يتسخط من البنت، إذا جاءه بنت أتاه أمر عظيم يقول المؤلف: هذه نعمة يجب أن يشكر الله عليها، إذا جاءت سوية؛ يعني: في قوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا﴾ الصلاح هنا صلاح البدن، أنه سوي، أن يشكر ربه عليها بغض النظر عن كونه ذكراً أو أنثى.

❁ الرابعة: ذكر السلف الفرق بين الشرك في الطاعة والشرك في العبادة.

وسبق أنه من الشرك الأكبر لقوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، والرسول ﷺ أخبر أنهم أطاعوهم في

المعصية فقط، لما قال له عدي: لم نعبدهم قال: «**ألم يحرموا الحلال فتتبعوهم، ويحل الحرام فتتبعوهم؟**»، قال: بلى، قال: «**تلك عبادتهم**». وهذا قاله قتادة ونسبته إلى السلف فيها نظر.

وليس عبادتهم السجود لهم ودعاءهم، بل عبادتهم طاعتهم في معصية الله جل وعلا، إذا أطيع المخلوق في معصية الله فقد اتُّخذ إلهاً.

معنى قوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، ومعنى قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤]، اتخاذ البعض أرباباً أن يطيعه في معاصي الله جل وعلا، وسبق تعريف الطاغوت: أنه ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع، فإذا أطيع في الشيء الذي لا يجوز أن يكون إلا لله فهو طاغوت، فالمؤلف رحمه الله عقد باباً في شرك الطاعة وجعل ذلك من الشرك الأكبر، وفي هذا خالف ذلك حتى يكون ذلك مبرراً لأن تكون القصة في آدم، والواجب أن لا نبت في ذلك إلا بدليل صريح لا مطعن فيه ولا وجود لذلك.







الباب الحادي والخمسون

❁ قال المؤلف رحمه الله: باب قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ الآية [الأعراف: ١٨٠].

لم يذكر مع هذه الآية حديثاً، وإنما ذكر معنى الإلحاد وذكر له ثلاثة أقسام عن بعض السلف، بعضها عن ابن عباس، وبعضها عن الأعمش والمفروض أن يذكر أحاديث من أحاديث الرسول ﷺ مع الآية كعادته في الأبواب السابقة ومن الأحاديث المناسبة قوله ﷺ: **«وأن لله تسعة وتسعون اسماً مائة إلا واحد من أحصاها دخل الجنة»**(١) وفيه أحاديث أخرى.

ومعنى قوله «﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾»: يدل على أن الاسم للمسمى، وهذا هو القول الصحيح وليس الاسم هو المسمى، أو هو غيره، بل الاسم للمسمَّى.

والاسم ما دل على الذات، يعني ذات المسمَّى، وضع ليدل على هذه الذات.

والصفة هي المعنى الذي يقوم بالمسمى.

والله جل وعلا سمَّى نفسه بأسماء تعرَّف بها إلى عباده، وكذلك رسوله ﷺ سمَّاه بأسماء بالوحي الذي أوحاه إليه، فلا يجوز للخلق أن يسموا الله بغير ما سمى به نفسه، وهذا من العبادة.

فمعنى أنه لا يجوز لنا أن نسمي الله إلا بأسمائه التي سمى بها نفسه أو سماه بها رسوله ﷺ فنعبد الله بهذا ونطيعه، وهذه عبادة ظاهرة، ولكن العبادة بالأسماء هي أن ندعوه بها ونعبده بها، بأن نذكره ونثني عليه بها.

---

(١) رواه البخاري رقم ٢٧٣٦، ومسلم رقم ٢٦٧٧ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فذكره بها وثنائه عليه بها عبادة، وسؤاله بها عبادة، والمقصود في كوننا نعبده بها أمران:

أحدهما: الذِّكر والثناء.

الثاني: السؤال أن نسأله بها، نتضرع إليه بها، وهذا يفهم من قوله: ﴿فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ فهذا أمر يدل على الوجوب.

وقوله: «﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ﴾»: يدل على الجمع؛ يعني: أن أسماء الله كثيرة، وليست محصورة في عدد معين، ولهذا قال: ﴿ٱلْأَسْمَآءُ﴾ ثم وصفها بأنها حسنى، وخرج من هذا أن تكون كأسماء المخلوقات التي لا تدل إلا على مجرد العلمية فقط.

معنى العلمية أنها تعين هذا المسمى عن غيره من المسميات فإذا وضعت مثلاً على هذا الشخص قلت هذا عبد الرحمٰن، وهذا عبد الله ليس فيه فرق بين هذا وهذا، إلا أن هذا الاسم يكون معيناً لهذا عن هذا، وهذا الذي يسمى العلم؛ يعني: حتى يعين هذا المسمى بخلاف ما إذا دل الاسم نفسه على معنى، فهذا يسمى مشتق وليس علماً.

وأسماء الله جل وعلا مشتقة، واشتقاقها من الصفات؛ يعني: المعاني التي قامت بالله جل وعلا أُخذت منها الأسماء وبعض الناس يعكس القضية وهو يدل على عدم الفهم وعدم معرفة الأسماء والصفات، يقولون: إن الصفات اشتقت من الأسماء وهذا خطأ محض لا يدل عليه لا كتاب الله ولا لغة العرب، بل يدل على عكسه، منه هذه الآية: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ فجعل أسمائه حسنى، والحسنى معناها أنها لا يلحقها نقص ولا عيب لا منفردة ولا مجتمعة؛ يعني: أنها كاملة تامة لا يمكن أن يلحقها شيء مما يلحق المسميات التي توضع على المخلوقات.

فقوله: «﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾» هذا خبر يقصد منه أن نعلمه ونتيقنه، ثم جاء الحكم بعد ذلك فقال:

«﴿فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾»؛ يعني: اعبدوه بها، وعبادته بها أنواع كثيرة، والمسلم لا يخلو منها دائماً سواءً فيما يخصه في نفسه أو في غير ذلك، وتفصيلها

يحتاج إلى طول، ولكن إذا دخل إلى البيت يقول: بسم الله فهذا من دعائها بها، وعندما يأكل يقول: بسم الله وعندما ينام، وكذلك عند الذبح، وكذلك في الأمور التي أمر بالابتداء بها، فالمقصود أنه يتلبس بها دائماً ويجب أن يكون ذلك مناسباً للشيء الذي يفعله في الدعاء وفي العبادة، فإذا دعا فإن كان دعاء ثناء فهو عام، وإن كان دعاؤه دعاء مسألة فهذا يجب أن يكون خاص ينتقي الأسماء المناسبة لمسألته.

فقوله: «﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾»: هذا أمر من الله جل وعلا أن ندعوه بها، ومفهوم هذا عند الذين يقولون بدلالة المفهوم: أنه لا يجوز أن ندعو الله بغير أسمائه، يجب أن يكون دعاؤه بأسمائه الحسنى لأنه قال: ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾، فجعل دعاء، بهذه الأسماء الحسنى، وهكذا جاءت أدعية الرسل بأسمائه جل وعلا.

ثم إذا أطلقت الأسماء دخل فيه الصفة.

وقوله: «﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾»: ذر يعني: اترك. كأنهم وقع في أمر عظيم يستحقون به العذاب؛ يعني: أن الله سيكفيكهم بما فعلوا، فسوف يعذبهم بذلك فكفاهم هذا هلاكاً، وهذا يفهم من قوله: ﴿وَذَرُوا﴾.

وقوله: «﴿الَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾»: المؤلف ﷺ ذكر معنى الإلحاد.

الإلحاد معناه: الميل والعدول عن المعنى المقصود، فإذا كان الإنسان يمشي في الطريق فهو يمشي على طريق سامت، فإذا حاد عن الطريق فقد ألحد.

والطريق التي يُلحد فيها طرق حسية، وطرق معنوية، ولكن المقصود هنا قوله: ﴿الَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾؛ يعني: يميلون بها عن ما أراد الله جل وعلا، وأراده رسوله ﷺ بها هذا هو المقصود.

فهم يميلون بها أو بمعانيها عما أراده الله بها وأراده رسوله ﷺ، ولهذا قال في آخر الآية: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، وهذا يدل على أنهم وقعوا في إثم عظيم فتولى الله عقابهم بذلك، فكأن الذين وقعوا فيه كافياً بالهلاك، فلا تسأل عن حالهم بعد هذا.

واللحد أصله مأخوذ من الميل، ولهذا سمّي لحد القبر؛ لأنه حفرة في جانب القبر ليس في سمته بل في جانبه من جهة القبلة، فسُمي لحداً.

وكذلك يسمى الميل عن المقصود لحداً، والفاعل لذلك ملحد، ولكن صار الآن يطلق الإلحاد على جحد وجود الله جل وعلا، أو جحد دينه والكفر به أو إنكار اليوم الآخر وما أخبر الله جل وعلا به، وهذا اصطلاح فقط ليس مأخوذاً لا من اللغة ولا من غيرها، وإلا فالإلحاد أعم من هذا بكثير؛ يعني: الإلحاد في اللغة وفي الشرع أعم من هذا.

ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله: ﴿يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ ثلاثة معاني: ذكر عن ابن أبي حاتم عن ابن عباس قوله: ﴿يُلْحِدُونَ﴾ يشركون.

هذا معنى، والشرك هذا يجوز أنه يكون في العبادة؛ يعني: أنهم لم يعطوا أسماء الله حقها ويعبدوه بها، وأشركوا بعض المخلوقات فيها، فيكفي في هذا أنهم سموا الأصنام آلهة، هذا إلحاد لأن الإله يجب أن يكون الله وحده، فإذا جعل معه مخلوقاً ضعيفاً أو قوي فإنه إلحاد عظيم يستحق صاحبها عقاب الله جل وعلا إن لم يتداركه الله جل وعلا بالتوبة.

وكذلك يدخل فيه الشرك في الربوبية، وذلك أن الله جل وعلا هو المالك لكل شيء المتصرف فيه، وهو جل وعلا الذي خلق الخلق لعبادته، فإذا خولف هذا المقصود فقد وقعوا في الشرك، وفي الإلحاد في الربوبية وهذا كثير جداً.

وكذلك يكون إلحاداً في الأسماء؛ يعني: شركاً في الأسماء في أسماء الله جل وعلا، فإذا مثلاً سمّوا اللات الحصاة مثلاً لات، والشجرة عزى أخذاً من الله ومن العزيز، فهذا من أعظم الإلحاد.

۞ ولهذا قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: وعنه: «سموا اللات من الإله، والعزى من العزيز».

قوله: «عنه»؛ يعني: عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قوله: «سموا اللات من الإله، والعزى من العزيز»؛ يعني: اشتقوا لها أسماءً من أسماء الله تعالى وتقدس، وهذا إلحاد عظيم لا يجوز أن يشارك الرب جل وعلا في شيء من أسمائه ولا من معانيها فهذا أخص من الأول؛ يعني: القول الثاني أخص من الأول.

۞ **وقوله عن الأعمش: «يدخلون فيها ما ليس منها».**

هذا غير الأول، هذا معنًى ثالث: يدخلون فيها ما ليس منها؛ يعني: أنهم يصفون الله بما لم يصف به نفسه، ومثال ذلك قول اليهود قبحهم الله أو بعضهم: إن الله بخيل، وقولهم: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤] قالوا: إن الله لما خلق السماوات والأرض تعب فاستراح.

فكل هذا من أعظم الإلحاد في أسمائه جل وعلا لأنه على كل شيء قدير، وهو القوي العزيز الذي لا يضره شيء، ولا شيء يستعصي عليه تعالى وتقدس، فهو إذا أراد شيئاً قال له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [الأنعام: ٧٣].

ومن ذلك أيضاً التشبيه وهذا قسم رابع، هذا إلحاد. ومن ذلك أيضاً تعطيله عن أسمائه وصفاته، فهذه تكون خمسة أقسام، من أقسام الإلحاد:

الأول: أن يشتق منها أسماء للمخلوقات أو لبعض المخلوقات.

الثاني: أن تسمى المعبودات إله وهذا من أعظم الإلحاد.

الثالث: أن يسمى بما لم يسم به نفسه أو يوصف بما لم يصف به نفسه تعالى وتقدس كما مثلنا في فعل اليهود، وكذلك الفلاسفة الذين يقولون أنه علة موجبة.

الرابع: تعطيل معانيها التي أراد الله جل وعلا أن يعرفها عباده.

الخامس: أن يلحق بعض المخلوقات؛ يعني: أن يسمى بها بعض المخلوقات؛ يعني: التشبيه أن يشبه المخلوق بالخالق.

وعباد القبور ألحقوا الأموات الرفات ألحقوهم برب العالمين، فهذا من أعظم التشبيه، وهذا تشبيه المخلوق بالخالق والذي يتكلم به الناس العكس، أما هذا فلا أحد يتكلم فيه مع أن هذا هو الكبير الواقع بكثرة، وأما الذي يتكلمون فيها هو تشبيه الله بالمخلوق وهذا عند المتكلمين يذكرونه بكثرة في كتبهم فتجدهم يقولون المشبهة، المجسمة ولو بحثت عن مشبهة ومجسمة ما وجدتهم؛ يعني: تريد أن يكون لهم مثلاً كتب ولهم منهج ولهم مذهب ولهم أئمة مثل المعتزلة أو الأشاعرة أو الماتريدية أو غيرهم من أصحاب المذاهب.

إذاً لماذا يكثرون التشبيه وذكره؛ لأنه صار التشبيه أمر نسبي، لا ضابط له، ومعنى أنه نسبي أن كل من أثبت ما نفاه هذا رماه بالتشبيه قال له أنت مشبه.

فمثلاً المعتزلة يقولون: إنه سميع بلا سمع، بصير بلا بصر، عليم بلا علم، فإذا قال إنسان: بل لله علم وله سمع حقيقة وبصر حقيقة، قالوا: أنت مشبه.

وفريق آخر أقرب من هؤلاء، إذا قلت مثلاً إن الله استوى على عرشه، وإن لله وجه وله يدان قالوا: إنك مشبه كما تقوله الأشاعرة.

ولهذا يقولون المشبهة أهل الحديث والحنابلة، بعضهم يصرح بهذا، وهكذا الناس بهذه الطريقة بعضهم يرمي بعضاً بالتشبيه.

والواجب في هذا أن يكون الميزان الذي يرجع إليه ويسلك طريقه كتاب الله وسُنَّة رسول ﷺ، سواءٌ شنع الناس أو لم يشنعوا، وتشنيع الناس لا يضر الإنسان لأنك إذا سبرت أحوال الناس وجدتهم لا يريدون اتباع الرسل، بل بعضهم ينتقد الرسل حتى قال بعضهم: ثلاثة من الرسل مشبهة، قال: موسى حين قال: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وعيسى حين قال: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦]، ومحمد حين قال: «إن الله خلق آدم على صورته»[1]، والأنبياء ﷺ كلهم على هذه الطريقة ﴿قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠].

فهذه نتيجة تحكيم العقول، عقولهم وأفكارهم، لأن الإنسان ما يمكن أن يستقل بمعرفة الحق بفكره وعقله، وذلك أن الحق غيب ليس مشاهداً، جاءت أخبار عنه وهو **أولاً**: الله جل وعلا أخبر عنه ووصف نفسه بصفات يجب أن تقبل وتفهم حسب مراده جل وعلا، ولكن هؤلاء يقولون الأخبار التي جاءت أكثرها من باب الامتحان والابتلاء وإلا لو أخذنا بظاهرها لكنا مشبهة، ولكنه امتحن حتى يكون لنا أجر عظيم إذا صرفناها عن ظاهرها وبحثنا عن الوجوه المستكرهة لها أو الغريبة التي إذا سمعها الإنسان قال: هذه غير معروفة،

---

(١) رواه البخاري رقم ٦٢٢٧، ومسلم رقم ٢٨٤١ من حديث أبي هريرة ﷺ.

يقولون: نفعل هذا حتى يكثر أجرنا، ولكن هذه دعوى بل حتى يكثر الوزر - نسأل الله العافية -.

ثانياً: القدوة في هذا؛ يعني: في الفهم الصحابة وقد فهموا عنه الظاهر، حتى أنهم يصرحون في بعض الأشياء مثل ما قال ﷺ: «**إن الله ينظر إليكم أزلين قنطين فيظل يضحك يعلم أن فرجكم قريب**»، فقام رجل من الحاضرين فقال: أو يضحك ربنا يا رسول الله؟ قال: «**نعم**»، قال: إذاً لا نعدم خيراً من ربنا إذا ضحك؛ يعني: استدل بالضحك على أنه سيعطينا الخير لأن الضحك يدل على الرضى. وفي رواية لما قال: أو يضحك ربنا يا رسول الله؟ قال: «**إي والله أنه يضحك**»[1].

فكيف يقول الإنسان في مثل هذا، وكذلك إذا قال الله جل وعلا: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] ليس فيه أصرح من هذا، وكذلك قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: ٦٧]؛ يعني: صرف هذا عن ظاهره إلحاد، وليس يقال أنه تكلف لطلب المعنى، بل هو إلحاد وضلال؛ لأنه من الأمور الظاهرة التي لا يجوز أن يعدل عن ظهورها عرف مراد المتكلم بها، وقد عرف هذا وظهر.

على هذا نقول أن هذه الأوجه التي ذكرت في الإلحاد كلها كفر بالله جل وعلا تجعل الإنسان ليس مسلماً، فهذا هو وجه إدخال هذا الباب في هذا الكتاب حتى يكون الإنسان موحداً يقبل ما جاء عن الله ويصف ربه بما وصف به نفسه، ويدعو الله ويعبده بأسمائه وصفاته، وبذلك يكون موحداً، وبدون هذا يكون مشركاً.

أما كون أسماء الله محصورة معينة أو غير معينة يكفينا ما عينه لنا ربنا فقط؛ يعني: يجب على العبد أن يكتفي بما سمى به نفسه في كتابه جل وعلا، أو سماه به رسوله ﷺ ولا يتجاوز ذلك.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم ١٦١٨٧، وابن ماجه رقم ١٨١ عن أبي رزين قال: قال رسول الله ﷺ: «ضحك ربنا من قنوط عبده وقرب غيره»، قال: قلت: يا رسول الله أو يضحك الرب ﷻ؟ قال: «نعم»، قال: لن نعدم من رب يضحك خيراً.

هل يجوز للعبد أن يدعو الله بغير ما أثبت لنفسه مثل ما يدعو به بعض العوام يقول: يا معروف بالمعروف، يا طويل اليد، يا كثير الخير، هكذا يقولون، أو واجب أنهم يُعلمون هذا يقال لهم أنه لا يجوز لك أن تعدل ما سمي به نفسه جل وعلا وأمرك أن تدعوه بها لأن الله تعالى قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] هذا القدر أمر ملزم، يقول: يا رب، يا الله، يا كريم، يا رحمٰن يا رحيم، هذه ما يعجز أحد أن يعرفها، وهل أنت مكلف بأن تبحث عن شيء لا تعرفه؟ لست مكلفاً بهذا.

فهذا أمر ميسور جداً لا أحد يخفى عليه، ومن سُنَّة الله جل وعلا أن الناس إذا كانوا إلى شيء حاجتهم إليه كثيرة، أنه يكون تيسيره وسهولته وكثرته أمر واضح، وليس هناك أعظم ضرورة من دعائهم لربهم جل وعلا، ولهذا لا تجد إنساناً يقول: أنا ما أعرف أن أقول: يا الله، أو أقول: يا رب أبداً.

وهذا من أعظم الدعاء، يا الله، يا رب، حتى قيل أن الرب هو الاسم الأعظم، وإذا تأملنا أدعية الرسل في القرآن وجدناها كلها بهذا اللفظ إلا ما شاء الله، قال آدم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣]، وهكذا قال إبراهيم وقال موسى وقال عيسى، كل الأنبياء يدعون بهذا الاسم، ولهذا قال بعض العلماء أن هذا هو اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب.

ولكن كون العبد يدعوا بظهر قلبه وهو غافل هذا ما يستجاب له إلا أن يشاء الله، ولكن الغالب كما جاء في الحديث: «**ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه**»[1].

أسماء الله جاء في الحديث: «**أن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحد، من أحصاها دخل الجنة**»[2]، **نقول أولاً**: أن مراتب الإحصاء ثلاثة التي ينبغي أن يعتني بها:

---

(١) أخرجه الترمذي رقم ٣٤٧٩ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه**».

(٢) سبق تخريجه.

المرتبة الأولى: حفظها، حفظ عددها.

المرتبة الثانية: معرفة المعنى، أن نعرف معناها، وأن العبد يتعلق بشيء لا يعرف معناه لا ينفعه.

المرتبة الثالثة: عبادة الله بها، أن يعبده بها يتجه إليه بها، فهذا الذي إذا فعل ذلك دخل الجنة.

ثانياً: أن هذا لا يدل على حصر الأسماء في التسع والتسعين، ولكن هذه الأسماء التسع وتسعين موجودة في القرآن، ولهذا الذين تتبعوها أوجدوا هذا العدد، وبعضهم زاد إلى حوالي الضعف وكله مأخوذ من القرآن، ولكن فيه خلاف، لأن بعضهم أخذها من الإخبارات وهذا لا يجوز، لأنه يجب أن يكون الاسم صريح وهذا هو معنى قول أهل السُّنَّة أسماء الله توقيفية؛ يعني: أننا نقف مع النص فيها، لا يجوز أن نشتق لها من عندنا أو نأتي بشيء من عندنا.

فهي غير محصورة بهذا العدد، بدليل الحديث الذي في المسند عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما أصاب عبد هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك ناصيتي بيدك ماضٍ في حكمك عدل في قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو علمته أحداً من خلقك أو أنزلته في كتابك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي، إلا أذهب الله همه وحزنه، وأبدله مكانه فرحاً**»، فقيل: يا رسول الله ألا نتعلمها؟ فقال: «**بلى ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها**»[1]، فجعل الرسول ﷺ الأسماء أقساماً ثلاثة في هذا الحديث:

قسم أنزله في كتابه، والمقصود بالكتاب هنا الجنس؛ يعني: أنزله في كتبه التي أنزلها إلى الأرض على رسله.

القسم الثاني: لم ينزلها في كتابه، ولكن اعلمها بعض من يشاء من خلقه مثل الملائكة والرسل، ومثل الرجل الذي عند سليمان، لما قال

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم ٤٣١٨ من حديث ابن مسعود.

للحاضرين عنده: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٤٠].

هذا الذي عنده علم من الكتاب يعرف اسم الله الأعظم فدعاه به فحضر في اللحظة وليس هذا لقوته، هو علم شيئاً لم يعلمه سليمان، وهو رجل من عباد الله جل وعلا.

القسم الثالث: لم ينزله في كتابه، ولم يعلمه أحداً من خلقه بل استأثر به عنده تعالى وتقدس.

وثبت في الصحيح في ثناء الرسول ﷺ على ربه قوله: «**لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك**»[1]، ومعلوم أن الثناء يكون بالأسماء والصفات، فإذا كان لا يحصي الثناء عليه فهو له أسماء غير هذه التي عرفها الناس.

وكذلك قوله في حديث الشفاعة: «**فيفتح الله علي من المحامد والثناء ما لا أحسنه الآن**»[2]، والمحامد والثناء بأسمائه وصفاته ـ تعالى وتقدس ـ وفيه غير هذا من الأدلة، ولكن هذه من الأدلة على أن أسماء الله جل وعلا غير محصورة في عدد.

وهناك من الأسماء ما لا يجوز أن تفرد لا في الدعاء ولا في الخبر مثل الضار النافع المعطي المانع، وما أشبه ذلك، فيجب أن يؤتي بمقابله، فهو ومقابله بمنزلة الاسم الواحد؛ يعني: الاسم الذي يحتمل المدح والذم لا يجوز أن يطلق على الله مفرداً، وهذا مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠] لأن أسماء الله حسنى لا يلحقها نقص فلا بد أن تأتي بالمقابل، ومن ذلك قوله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣] لا يجوز أن تقول: الباطن ثم تسكت؛ لأنك إذا قلت الأول قد يفهم أنه ليس بآخر تعالى الله وتقدس فلا بد أن تأتي بمقابله، وهذا كله مأخوذ من الوصف به ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

---

(١) رواه مسلم رقم ٤٨٦ من حديث عائشة.

(٢) سبق تخريجه.

يبقي ما معنى الإحصاء في قوله: «**من أحصاها دخل الجنة**»؟ قد اختُلف فيه، فبعض العلماء يقول: إحصاؤها حفظها، وهذا هو الذي أراده البخاري لأنه لما ذكر هذا الحديث قال: أحصيتها: حفظتها. ولكن هذا غير مقصود لأنه يجوز أن يكون الكافر يحصيها بهذا المعنى، وكذلك المنافق يحفظها، إذا كان مجرد الحفظ فالأمر سهل، كل واحد يستطيع أنه يحفظ، فهذا لا يكفي فلا بد مع الإحصاء العبادة، أن يُعبد الله بها وأن يفهم معناها، فإذاً يكون معنى إحصاؤها هي: المراتب التي ذكرنا.

والإحصاء يطلق على الإطاقة للشيء كما قال تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ [المزمل: ٢٠] لما أمر بقيام الليل، فمعنى لن تحصوه؛ يعني: لا تطيقونه؛ لأنه يكون منكم المرضى ومنكم من يطلب الرزق يضرب في الأرض للمعاش، وفيكم من يقاتل وفيكم من يحتاج إلى نوم وغير ذلك.

۞ قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ فيه مسائل:

۞ الأولى: إثبات الأسماء.

يعني: خلافاً للذين لا يثبتونها، ولكن هل من الطوائف من أنكر الأسماء؟ المعتزلة يثبتونها والجهمية هم الذين أنكروها والقرامطة، ولكن إثبات المعتزلة لها إثبات لا معنى له لأنهم يثبتون ألفاظاً بلا معاني، ولهذا يسارعون إلى نفي المعنى قبل أن يطلب منهم فيقولون: عليم بلا علم، ولهذا لما ناظر عبد العزيز الكناني رئيسهم بشر المريسي، قال له: كيف تقول: عليم بل علم، قال: أخبرني، قال: لا يجهل، قال: الأسطوانة هذه لا تجهل، قال له: الله جل وعلا وصف نفسه بمعاني، فإذا قلت لك أن هذا لا يجهل لا يعني هذا أني أثبت له العلم.

۞ الثانية: كونها حسنى.

مثل ما عرفنا في معنى الأسماء أنها لا يلحقها نقص ولا عيب بل هي كاملة تامة، ولا يمكن أن تأتي بشيء يمكن أن يرادفها أبداً، ولكن بعضها مع بعض؛ يعني: قد يكون بعضها يفسر بعضاً ولو بالتقريب.

❁ الثالثة: الأمر بدعائه بها.

يعني: أن هذا واجب، أنه لازم لا بد منه، ومن لم يفعل ذلك لا يكون مؤمناً، فهو من الواجبات التي تتحتم ولا يجوز للإنسان أن يدعو ربه إلا بها جل وعلا لأن الله جل وعلا أمر بذلك: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

❁ الرابعة: ترك من عارض من الجاهلين الملحدين.

معناه أنك لا تهتم بهم، ولا يعلق ذهنك شيء مما يقولونه، يجب أن تبتعد عنهم كل البعد، فقد كفاك الله إياهم بأنه سوف يتولى تعذيبهم فلا يهمك أمرهم، والأمر بالاجتناب والترك أبلغ من أن يقال: أنه باطل أو ضلال.

❁ الخامسة: تفسير الإلحاد فيها.

الإلحاد أولاً يحتاج إلى تفسير لغوي وتفسير معنوي، فاللغوي عرفنا أنه: الميل بها عن مراد المتكلم، وهذا واضح في اللغة.

وأما المعنوي: أنه ينفي معناها عن الله جل وعلا أو يجعلها يشتق منها أسماء للمخلوقات، أو يجعل المخلوقات تشارك الرب فيها تعالى الله وتقدس، وهذا يدخل فيه الاشتقاق والترك ويدخل فيه التشبيه.

❁ السادسة: وعيد من ألحد.

بقوله: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠] هذا وعيد شديد ـ نسأل الله العافية ـ مع أن قوله: ﴿وَذَرُوا﴾ فيه وعيد أيضاً يفهم منه وعيد أشد.







الباب الثاني والخمسون

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ: باب لا يقال: السلام على الله.

هذا فيه الأدب مع الله جل وعلا، وذكر الألفاظ التي يجب أن لا تقال لله جل وعلا وأن يعرف العبد ما يجوز لله وما لا يجوز، وما يجب له جل وعلا.

قال المؤلف ﷺ: عن ابن مسعود ﷺ قال: كنا إذا كنا مع النبي ﷺ في صلاة قلنا: السلام على الله من عباده، السلام على فلان وفلان. فقال النبي ﷺ: «لا تقولوا السلام على الله فإن الله هو السلام»[1].

قوله: «في الصحيح»؛ يعني: في الحديث الصحيح والحديث في الصحيحين.

قوله: «كنَّا»؛ يعني: وقع منا ذلك كثيراً.

قوله: «إذا كنا مع النبي ﷺ في الصلاة»؛ يعني: في التشهد الأخير كما جاء مصرحاً به في الرواية الأخرى.

قوله: «السلام على الله من عباده. السلام على فلان وفلان، فقال النبي ﷺ: «لا تقول: السلام على الله، فإن الله هو السلام»، الله جل وعلا هو السلام المؤمن، والسلام اختلف فيه ما المراد به على قولين للعلماء:

أحدهما: أن السلام اسم من أسماء الله وأن المسلم يقول لمن سلم عليه: اذكر عليك اسم ربي لتحل عليك بركته ولتسلم من الكوارث والفتن، مع إعلامه أنه سلم لمن سلم عليه وأنه لا يناله أذى منه، هذا هو المقصود بالسلام.

القول الثاني: أن السلام تحية وهو مصدر لأنه يأتي منكراً، ولو كان

---

(١) رواه البخاري رقم ٨٣٥، ومسلم رقم ٤٠٢.

اسماً من أسماء الله لم يأت منكراً، فالتنكير لا يعين الاسم فضلاً أن يكون لله، فقوله: سلام عليكم. فهذا يدل على أنه ليس اسماً من أسماء الله. قال ابن القيم: الصواب في مجموع القولين.

أن السلام اسم من أسماء الله، وأنه في ضمنه التحية والأخبار بأن المسلم سلم لمن سلم عليه.

ثبت أن النبي ﷺ لما سُلم عليه وهو على حاجته لم يرد السلام، حتى ذهب وتيمَّم ثم رد السلام وقال: «**إني كرهت أن اذكر الله على غير طهارة**»[1]. فهذا صريح في أنه اسم من أسماء الله تعالى، فيكون المعنى على هذا أنه لا يصلح أن يقول السلام على الله لأن الله هو السلام مثل ما قال الرسول ﷺ، وهو الذي تطلب منه السلامة بذكر اسمه المناسب لذلك، وإنما السلامة تطلب للمخلوق الذي يتعرض للحوادث، وهو أيضاً لا يستطيع أن يخلص نفسه من المكاره، بل المكاره تعترضه من كل جانب من الداخل والخارج، فإذا لم يسلمه الله جل وعلا فلا سلامة له أصلاً، فطلب السلامة له أمراً ضرورياً أعظم من ضرورته للأكل والشرب.

إذا قيل له: «السلام عليكم» يعني: أنا أطلب من الله بهذا الاسم الكريم الذي هو اسمه أن تحل عليك بركته وأن تسلم من المكاره التي يتوقع أن تصيبك، والمكاره قسمان:

مكاره تكون بالبدن في الدنيا، ومكاره في الدين في الخلق، فإذا سلم الإنسان من الثاني فالأمر جلل في الأولى، يعني أنه سهل، فالمهم أن يسلم من الثاني.

أما الأول فإنه لا بد له منه؛ لأن هذه الدنيا بُنيت على ذلك، ولا سلامة لأحدٍ فيها سلامة مطلقاً، وإنما السلامة أن يسلم دينه، فإذا سلم دينه سلم في آخرته من العذاب الذي يلحق غيره.

---

(١) رواه أبو داود رقم ٣٣١، وابن ماجه ٣٥٠.

فالمقصود أن السلام لا يجوز أن يقال السلام على الله لأن الذي يلقي السلام يطلب لمن سلم عليه السلامة، والله يطلب منه ولا يطلب له، يُطلب منه السلامة، وهو أيضاً السلام من كل نقص وعيب فلا يحتاج إلى أن يقال هذا مع أن السلام تحية، وقد جاء في الصحيح أن لله لما خلق آدم قال له: **«اذهب فسلم على أولئك النفر من الملائكة واستمع ما يحيونك فإنها تحيتك وتحية أبنائك»**، فذهب إليهم **«فقال: السلام عليكم، فقالوا: وعليك السلام ورحمة الله»**[1]، فهذا نص على أنها تحية.

وفي ضمن التحية الطلب والدعاء، أما تحية بلا طلب ولا دعاء فهي لا تفيد شيئاً مثل: مرحباً، أهلاً، وما أشبه ذلك.

والسلام من شعائر الإسلام العامة التي لا يجوز الإخلال بها، وإفشائه في الناس وإظهاره يدعو إلى الالتحام والاتفاق والمحبة كما قال عليه الصلاة والسلام: **«لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أو لا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»**[2]، وإفشائه: هو إظهاره وإكثاره.

وهذا الحديث كان في التشهد الأخير، ولكن هذا كان في أول الأمر فأعلمهم الرسول ﷺ كيف يتشهدون، والمؤلف اقتصر على أول الحديث ولم يذكر بقيته وهي: **«ولكن قولوا: التحيات لله والصلوات والطيبات، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، فإنكم إذا قلتم ذلك أصاب كل عبد في السماء أو بين السماء والأرض»**، ثم يأتي التشهد بعد هذا.

---

(١) رواه البخاري رقم ٦٢٢٧، ومسلم رقم ٢٨٤١ من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«خلق الله آدم وطوله ستون ذراعاً ثم قال: اذهب فسلم على أولئك من الملائكة فاستمع ما يحيونك تحيتك وتحية ذريتك، فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليك ورحمة الله، فزادوه ورحمة الله، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن»**.

(٢) رواه مسلم ٥٤ من حديث أبي هريرة.

ومعنى التحيات كما يقول الجوهري وغيره[١]: التحية هي البقاء والتعظيم، يعني: البقاء والتعظيم والعبادة والإجلال لله وحده؛ لأن التحيات جمع أدخل عليه (أل) حتى يأتي بالكمال؛ لأن الناس إذا دخلوا على العظماء حيوهم بالتحيات التي وضعت لهم بالجاهلية يقولون: عم صباحاً أو البقاء لك، وهذا ليس صحيحاً. وكل هذا منافسة لله جل وعلا، وجاء الرسول ﷺ بالشيء المناسب الذي يصلح لأنه هو معلم الخير، قال: «**قولوا: التحيات لله**» يعني أنها مستحقة له وهي التعظيمات والتقديسات والبقاء والكمال والإجلال كله يكون لله جل وعلا.

وقال: «**والصلوات**»؛ يعني: الدعاء؛ يعني: دعواتي كلها يجب أن تخلص لله جل وعلا وأن تكون مطلوبة من الله وأن يكون الداعي خاضعاً مفتقراً طالباً من الله جل وعلا ما يناسبه.

وقوله: «الطيبات»؛ يعني: الأعمال الطيبة الخالصة لله جل وعلا لأنه طيب لا يقبل إلا طيباً، وما كان غير طيب فإنه غير مقبول.

والطيب معناه عام «الطيبات» في الأعمال، والأعمال يبني بعضها على بعض، فإذا لم يكن العبد بنى عمله على طيب فإن عمله غير مقبول كما في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال ﷺ: «**إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً**»[٢]، فهذا شيء عام: «وأن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١]، فأمرهم أولاً بالأكل من الطيبات، والطيبات هي الحلال الأمور التي أحلها الله جل وعلا ثم أمرهم بالعمل الصالح، فهذا يدل على أن الأعمال مبنية على المأكل والمشارب والملابس، هذا بالنسبة للرسل.

ثم ذكر أمر المؤمنين قال: وقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٢]، فهذا مثل ما أمر به المرسلون:

---

(١) تهذيب اللغة ٢/ ٢١١، وقال ابن المظفر في قول المصلي في التشهد: التحيَّات لله، قال: معناه: البقاء لله، ويقال: المُلْك لله.

(٢) رواه مسلم رقم ١٠١٥.

﴿كُلُوا مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ والرزق كله من الله، ولكن بعضه طيب وبعضه خبيث، وإلا فكله رزق الله جل وعلا، هكذا قد قدر، فالإنسان الذي يطلب ما أحله ربه جل وعلا، وأمر به لا يقع في المحرم، ولكن هذا يبنى على العلم أولاً.

ثم قال: ﴿وَٱشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ هذه هي العبادة، وهذا الذي قيل للمرسلين: ﴿وَٱعْمَلُوا صَٰلِحًا﴾، ﴿وَٱشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢] الآيتان معناهما واحد كما قال الرسول ﷺ.

ثم ذكر الرجل الذي يطيل السفر يمد يديه إلى السماء يقول: **«يا رب يا رب، ومطعمه حرام، وملبسه حرام، ومشربه حرام، أنى يستجاب له»**.

«أنى»؛ يعني: بعيد أن يستجاب له؛ لأن مطعمه حرام ومشربه حرام وغذي بالحرام مع هذه الموجبات التي تستوجب إجابة الدعاء، كونه مسافر فقد جاء في الحديث أن دعوة المسافر مستجابة(١)، ولكن إذا كان بهذه الصفة فهو بعيد عن الاستجابة.

وكونه أيضاً كما جاء في هذا الحديث: **«أشعث رأسه مغبرة قدماه»**؛ يعني: أنه مبتذل وأنه مفتقر، فهذا مع الافتقار والابتذال وإظهار الحاجة لا يستجاب له.

ومع ذلك فهو يمد يديه إلى السماء، فقد جاء في الترمذي في حديث أن الرسول ﷺ قال: **«إن الله حيي كريم يستحيي من عبده المؤمن يرفع إليه يديه فيردهما صفراً»**(٢).

ولهذا قال العلماء: أن رفع اليدين من أسباب الإجابة؛ لأن معنى رفع اليدين افتقار واستجداء، يمد يده ويطلب من ربه جل وعلا، الإنسان إذا مد

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم ٧٥١٠، وأبو داود رقم ١٥٣٦، والترمذي رقم ١٩٠٥ عن أبي هريرة: أن النبي ﷺ قال: **«ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن: دعوة الوالد، ودعوة المسافر، ودعوة المظلوم»**.

(٢) رواه الترمذي رقم ٣٥٥٦، وأبو داود رقم ١٤٨٨، وابن ماجه رقم ٣٨٦٥ من حديث سلمان الفارسي.

يده لمخلوق يستحي المخلوق أن لا يعطيه، فكيف إذا مدهما إلى كريم جواد رب العالمين جل وعلا.

الثالث من أسباب الإجابة: تعلقه بهذا الاسم الكريم وترديده له: «**يا رب يا رب**»، وقد قيل أن هذا هو الاسم الأعظم، وقد جاء في الحديث أن العبد إذا قال: «**يا رب يا رب قال الله: لبيك**»[١] فيعطيه ما أراد، ومع هذا لما كان مطعمه حرام ومشربه صار بعيداً أن يستجاب له، وقوله: «**أنَّى**» يعني بعيد أن يستجاب له، ولكن قد يستجاب له مع هذه الأشياء لأن إجابة السائل من مقتضيات الربوبية، فقد يجيبه وهو ظالم وهو كافر ثم يعذبه، ولهذا قال الله تعالى في الكفار: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [النمل: ٦٢] هذا بالنسبة لهم، إذا اضطر أحدهم وسأل ربه أجابه كما هو معروف في سُنتهم وأعمالهم كان أحدهم إذا ركب في البحر أخلص الدعاء لله ثم إذا نجا عاد إلى شركه.

فالمقصود أن الطيبات «الأعمال الطيبة»، ولا تكون طيبة إلا إذا كانت مبنية على طيب؛ يعني: الجسد نفسه طيب؛ لأنه غذي بالطيب ولبس الطيب وقال الطيب، فإذا خرج عن الطيب فإنه يكون على غير هذا المنهج فلا يكون لله فالله ليس له إلا الطيب جل وعلا.

والمقصود هنا ذكر السلام، فدل على أنه لا يجوز أن تقول السلام على الله، ومعنى هذا أنه يجب أن تعرف الشيء الذي لا يجوز أن يقال لله جل وعلا ويوصف به وهذا منها، وهذا لا يمكن معرفته إلا بطلب العلم الذي جاء به الرسول ﷺ.

فأراد المؤلف أن ينبه على أنه يجب على المسلم أن يتعلم الشيء الذي يعبد الله به فإنه إذا لم يعرف ذلك قد يقع في المخالفات، وقد يقع في الشرك وفي الشيء الذي لا يجوز أن يعبد الله به ومنه هذا؛ لأن العبادة تكون بالقول

---

(١) رواه البزار رقم ٣١٤٥ من حديث عائشة مرفوعاً: «**إذا قال العبد: يا رب أربعاً، قال الله: لبيك عبدي، سل تعطه**».

وتكون بالمقصد والنيات والإرادات، وتكون بالأفعال، فهي لا تخرج عن هذا، فيجب أن تكون كلها مبنية على المعرفة والدليل الذي جاء عن الرسول ﷺ في كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، هذا هو المقصود من الباب.

أما المعنى معنى السلام: فقد ذكر أن السلام اسم من أسماء الله جل وعلا، والذي يقول: «السلام عليكم» يلقي هذا الاسم على من يلاقيه وفي ضمنه الدعاء له بالسلامة وإخباره بأنه سلم له مسالم له فهو أخ له، ففيه ذكر الله، وفي هذا الذكر؛ يعني: في ضمن هذا الذكر الدعاء يقول: اذكر هذا الاسم الكريم أطلب من الكريم جل وعلا أن يحل عليك بركة هذا الاسم وأن تسلم مما يؤذيك في دينك ويصدك أو في بدنك، وأنا أخبرك بذلك أني سلم لك مسالم لك، لا ينالك مني أذى، هذا هو حقيقة السلام.

وإن كان هذا المعنى أكثر الناس لا يعرفه؛ لأنها صارت عادة فقط، ولكن أهل العلم يعرفون هذا يعرفون المعنى في هذا ومن طلبه عرفه وإذا لم يعرفه فهو يقول هذا تقليداً واتباعاً لمن يفعل ذلك، فيكون عاملاً بالشيء الذي يعرفه فقط.

۞ قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فيه مسائل:

۞ الأولى: تفسير السلام.

يعني: تفسير السلام الذي يلقى على المسلم عليه.

۞ الثانية: أنه تحية.

أن التحية فيها معنى كما قلنا، يعني أنك تذكر اسم الله وفي ضمنه الطلب من الله، والإخبار طلب من الله وإخبار المسلم عليه بأنك مسالم له وأنك تدعو له، وأنك تريد له ما تريد لنفسك.

الفرق بين التحية والسلام: التحية أعم من السلام، فالتحية هي التي تكون عند اللقاء وهي كثيرة منها مثلاً أهلاً، وهناك تحيه كفرية، وكذلك تحية

اللعنة كما جاء في الحديث: «**يأت في آخر الزمان تحيتهم بينهم اللعنة**»[1].

۞ الثالثة: أنها لا تصلح لله.

يعني السلام، لأن السلام إذا قلت السلام أنك تطلب لمن تسلم عليه السلامة، والله لا يُطلب له السلامة، لأن الله هو المسلِّم، قال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ۝﴾ [يس: ٥٨]، ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۝﴾ [النمل: ٥٩]، ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ۝﴾ [الأحزاب: ٤٤]، فهو المسلم جل وعلا على عباده، وهو السالم من كل عيب ونقص، وهو الذي يطلب منه، فلا يصلح أنه يقال السلام على الله.

۞ الرابعة: تعليمهم التحية التي تصلح لله.

هذا في بقية الحديث، والإنسان يجب أن يعرف معنى التحيات التي يرددها في صلاته، والتحيات التي تلقى بين الناس لا تصلح لله جل وعلا، فقد كانوا إذا دخلوا على الملوك وعلى الكبراء يقولون: لك البقاء، عم صباحاً، أو أنت الكبير، وما أشبه ذلك، فكل هذه تحيات ليس لها أصل ولا تصلح لله جل وعلا، ولهذا جاء الرسول ﷺ بالشيء الذي يصلح فقال قولوا: «**التحيات**» أدخل (أل)؛ يعني: التعظيمات والبقاء والكمالات لله جل وعلا كلها مستحقة لله ثم عطف عليها «**والصلوات**» الدعاء كله والدعاء يدخل فيه دعاء العبادة ودعاء المسألة، إذا قلنا دعاء العبادة فإنه لا يخرج عنه شيء من صلاة وصوم وصدقة كلها تسمى دعاء عبادة، فمعنى ذلك أن العمل الطيب الزاكي لله جل وعلا.

وقال: «**الطيبات**» هذا وصف للتحيات التي يقبلها جل وعلا، وصف لما يقبل الله جل وعلا، لأن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وأعظم الطيب بهذا أن تكون خالصة لله جل وعلا، تكون لله وحده، ثم يجب أن يكون الذي صدرت منه طيب؛ يعني: أن عمله طيب كما سبق أن هذا مبني بعضه على بعض، فإن

---

(١) سبق تخريجه.

الإنسان الذي مطعمه ليس طيب ومشربه وملبسه كذلك، فإنه لا يقبل منه كما جاء في الحديث.

والصحابة كانوا يفهمون ذلك، عن زيد بن أرقم قال: كان لأبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه مملوك يغل عليه فأتاه ليلة بطعام فتناول منه لقمة فقال له المملوك: ما لك كنت تسألني كل ليلة ولم تسألني الليلة؟ قال: حملني على ذلك الجوع من أين جئت بهذا؟ قال: مررت بقوم في الجاهلية فرقيت لهم فوعدوني، فلما أن كان اليوم مررت بهم فإذا عرس لهم فأعطوني قال إن كدت أن تهلكني فأدخل يده في حلقه فجعل يتقيأ وجعلت لا تخرج، فقيل له: إن هذه لا تخرج إلا بالماء، فدعا بطست من ماء فجعل يشرب ويتقيأ حتى رمى بها، فقيل له: يرحمك الله كل هذا من أجل هذه اللقمة قال: لو لم تخرج إلا مع نفسي لأخرجتها، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كل جسد نبت من سحت فالنار أولى به**»، فخشيت أن ينبت شيء من جسدي من هذه اللقمة[(١)]. فهذا شيء معروف عندهم.

ولما قال سعد بن أبي وقاص: يا رسول الله، ادعوا الله أن يجعلني مستجاب الدعوة، قال: «**يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة**»[(٢)].

وأنت تشاهد الآن دعاتنا ما يستجاب؛ لأنه فسد طعامنا وشرابنا.

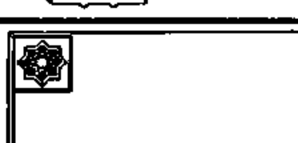
فالمقصود أن الطيبات تشمل العمل، ومن صدر عنه العمل كله، وأعظم ذلك أن تكون خالصة لله جل وعلا.



---

(١) حلية الأولياء ١/ ٣١.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط رقم ٦٤٩٥.





الباب الثالث والخمسون

❁ قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: **باب قول: اللهم اغفر لي أن شئت.**

هذا الباب مثل الباب الذي قبله، باب لا يقال السلام على الله، ولم ينص على الحكم هل هو حرام أو مكروه؟ إنما جاء بالنهي فقط. وهنا جاء مجملاً أكثر إجمالاً من الأول. والحكم فيه حرام، لا يجوز أن تقول السلام على الله. وهذا يقول: **باب قول: اللهم اغفر لي إن شئت.**

المطلوب في هذا أن يبين لنا الحكم. والقول في هذا أن هذا حرام، من المحرمات التي لا يجوز أن يقولها العبد وعلة ذلك شيئان:

أحدهما: أن هذا التعليق يوهم على أن الله يفعل الشيء وهو كاره، وهذا لا يجوز أن يعتقد، فهو من المحرمات بل من سوء الظن بالله فهو لا يليق به.

المعنى الثاني: أنه يوهم أيضاً أن القائل لهذا لا يعرف ضعفه وعجزه وفقره، فكأنه يقول: إن حصل لي ذلك وإلا فليس لازماً، وكلا الأمرين من أعظم المحرمات أن يقولها العبد أو يعتقدها.

أما أولاً: فالله جل وعلا هو المتصرف في الكون كله ولا يفعل شيئاً لا يريده، ولهذا قال: «فإنه لا مكره له» لأن دعاء العباد ولو اجتمعوا كلهم لا يمكن أن تقع الإجابة والله كاره لها.

فالله لا يفعل إلا ما يريد، فهو فعال لما يريد، ولهذا لما ذكر الدعاء علق الإجابة والعطاء بمشيئته كذلك فلا يقع شيء إلا إذا شاء الله كما يقوله المسلمون: ما شاء الله كان وما لم يشأ لا يكون، ومنه الدعاء، فهذا أمرٌ عام، عقيدة يجب أن تعلم.

الثاني: أن الله جل وعلا هو الغني وحده والعباد كلهم فقراء، فيجب أن يعرف العبد فقره ويظهره لربه ويدعوه به، فافتقاره وحاجته إلى ربه أعظم من

حاجته إلى النفس وإلى ما فيه حياته، فإذا علق الدعاء بالمشيئة فإن معناه أنه لم يعرف هذا الشيء، وهذا أمر أساسي لا يجوز أن يجهل، ولهذا جاء النهي عن ذلك.

۞ قال المؤلف رحمه الله: في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقولن أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، ليعزم المسألة فإنه لا مكره له»[(١)]، ولمسلم: «ولكن ليعزم المسألة وليعظم الرغبة، فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه»[(٢)].

قوله: «اغفر لي»: المغفرة: مغفرة الذنوب التي وقعت للعبد والتي ستقع يطلب العبد أن يغفر له ربه لأنه لا ينفك عنها أبداً، وإذا لم يغفر الله جل وعلا له فهو خاسر.

وكذلك الرحمة: **«اللهم ارحمني إن شئت»**، فالرحمة إحسان من الله جل وعلا، فإذا رحمه ربه يسَّره لليسرى وجنَّبه العسرى؛ يعني: يسَّر له العمل الذي يكون سبباً لأن يغفر له، فقول الملائكة في دعائها: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧]، فمعنى الرحمة: أنك تُيسر للعمل الصالح وتجنب السيئات.

وعلى هذا يجب أن يكون العبد إذا دعا ربه أولاً: أن يدعوه برغبة وإلحاح، يُعظم الرغبة في الدعاء لله جل وعلا، وأيضاً يوقن بالإجابة لأن الله كريم، وقد جاء الأمر بهذا: **«ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة»**[(٣)]، ولكن لا بد من فعل الأسباب.

الثاني: أنه يأتي بالدعاء بقلب حاضر لأن الله لا يستجيب من قلب ساه

---

(١) رواه البخاري رقم ٦٣٣٩، ومسلم رقم ٢٦٧٩.

(٢) رواه مسلم رقم ٢٦٧٩.

(٣) أخرجه أحمد في المسند رقم ٦٦٥٥، والترمذي رقم ٣٤٧٩ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه»**.

لاهي وحضور القلب؛ يعني: يتأمل الشيء الذي يقوله، ويتأمل حاله هو فما فيه أفقر من الإنسان إلى ربه جل وعلا، ففقره صفة له ملازمة؛ يعني: صفة للعبد لا ينفك عنها أبداً كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝١٥﴾ [فاطر: ١٥]؛ يعني: أننا فقراء والفقر ملازم لنا ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾، فيجب أن يكون الداعي بهذه الصفة، أن يستشعر بل يتيقن يقيناً لا شك فيه أنه فقير فقر ذاتي وأنه إذا لم يغنه الله جل وعلا فهو الخاسر، ثم هو كذلك هو بأمس الحاجة إلى مغفرة ربه ورحمته، فلا بد أن تكون رغبته في هذا وإلحاحه وعزمه على ذلك عزماً مؤكداً.

أما رواية مسلم: **«وليعظم الرغبة فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه»**.

فهذه أعطت معنًى آخر، معنى هذا أنك إذا طلبت من الله، لا تطلب الشيء اليسير، الله عظيم فهو يعطي العظيم ولا يتعاظمه شيء يكون عنده سهل ميسور، ولهذا يعطي الجنة فهل الجنة لها ثمن؟ لا يمكن أن يكون العمل ثمناً، الأمور كلها رحمة من الله جل وعلا يتأمل العبد حاله مع ربه، نحن عباد خلقنا ولم يكن لنا اختيار من أنفسنا ولا نستطيع أن نجلب لأنفسنا خيراً ولا أن ندفع عن أنفسنا شراً.

وخلقنا وهيأ لنا الأمور وسخر لنا ما في السمٰوات والأرض، وجعلنا عباداً له، ثم صار يطلب منا أن نعمل حتى يعطينا الأجر، فهل يمكن مثلاً أن يشتري الرجل خادماً بماله ثم يقول له اعمل وأعطيك أجراً أعطيك مثلاً في الشهر عشرة آلاف أو سبعمائة ألف، لا يمكن هذا في المخلوقين.

والله جل وعلا نحن عباده ثم يعطيني الأجر إذا عبدناه، خلقنا لعبادته ثم يأجرنا أجراً عظيماً.

الشيء الثاني: انظر مثلاً قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ [البقرة: ٢٥٤] يرزقنا ثم يطلب منا أن ننفق حتى يُثيبنا، فكرم الله جل وعلا وعظمته وعطائه شيء أعظم من أن نحده، ولهذا ينبغي للعبد إذا سأل ربه أن يسأله الشيء العظيم ويعظم رغبته في الله ولا ينظر إلى قدره هو، لو أعطاه على قدره هو لم يعطه شيئاً، ولكن العطية على قدر المعطي جل وعلا، ولهذا

قال الرسول ﷺ: **«فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمٰن، ومنه تفجر أنهار الجنة»**[١]، فكل هذا في باب الأدب مع الله جل وعلا، الذي يجب أن يتأدب العبد به عند العبادة عندما يعبد ربه جل وعلا.

وبهذا يتبين لنا أن العبد إذا عبد ربه مطلقاً سواءً بالدعاء أو بغيره أن تكون عبادته عن رغبة، وكذلك يكون مظهراً فقره وحاجته، وإلحاحه إلى قبول هذا العمل ويعلم حاجته الشديدة، ثم يظن بربه الظن الحسن ويقول أن الله غني كريم وأنا فقير مسكين وكرمه صفة له، وكذلك العبد فقره صفة له.

ثم طلبه العام المطلق الذي هو الرحمة يجب أن يطلب وهو على يقين من ربه جل وعلا أنه يعطيه، وليس معناه أنه يترك الأوامر التي أمر بها ويرتكب النواهي، لأن الإنسان إذا بارز ربه بالشيء الذي نهاه عنه إذا كان عن علم فإن الله قد يعاقبه.

فصار في هذا القول محاذير، وهو قادح في التوحيد، فوجب أن لا يقال ذلك وإنما يعزم بلا تردد ويعظم الرغبة، ويعلم أن الله جل وعلا له الملك يتصرف فيه كيف يشاء وأنه لا يعطي وهو كاره، ولا يمنع وهو كاره بل كل ما يقع فهو بمشيئته وإرادته التي لا يمكن أن يحول بينها وبين مراده شيء فصار هذا ظاهر لكونه منافياً للتوحيد والتسليم لله جل وعلا وإظهار العبودية والفقر له جل وعلا.

ولا يعني هذا أنه قد يأتي شيء من مطالب الإنسان يعلق ذلك على علم الله، وهذا في الأمور التي تخفى على العبد، فإن الأمور التي تخفى عليه يفوضها إلى ربه، مثل ما جاء في الحديث: **«اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني ما علمت الحياة خيراً لي وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي»**[٢]، وهذا ما يقوله إلا إذا رأى الفتن، ورأى الأمور التي يخاف أن يفتتن

---

(١) رواه البخاري رقم ٧٤٢٣ من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه أحمد في المسند رقم ١٨٣٢٥.

فيها في دينه، وهذا ليس فيه تعليق الدعاء فإن هذا يتعلق بفعل العبد وما يؤول إليه.

ومثله دعاء الاستخارة: **«اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب. اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خيراً لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري ـ أو قال عاجل أمري وآجله ـ فاقدره لي ويسره لي ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري ـ أو قال في عاجل أمري وآجله ـ فاصرفه عني واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان، ثم رضني به. قال: ويسمي حاجته»**[1]، لأن العبد لا يعرف المستقبل هل هو خير أو شر؟ أما إذا علم أن المطلوب خير فلا يجوز أن يعلق بالمشيئة بل عليه أن يجزم بلا تردد، فإن تعلقه بالمشيئة تكون فيه المحاذير السابقة.

وكذلك قوله في الحديث: **«طهور إن شاء الله»**[2]، هذا ليس تعليق لأنه قد يكون غير طهور، قد يكون زيادة عذاب، ولهذا لما قال الرسول ﷺ للأعرابي: **«لا بأس طهور إن شاء الله»**. فقال: بل هي حمى تفور أو تثور على شيخ كبير تزيره القبور، فقال النبي ﷺ: **«فنعم إذاً»** فمات.

وهذا يتعلق بفعل الإنسان، وهل الإنسان يتطهر بالمرض؟ قد لا يتطهر، وقد لا يكفيه عن إجرامه، فيقال: طهور إن شاء الله. إن شاء يطهرك مما سبق؛ لأن هذا لا يكون لكل أحد، فإذا رضي الله يطهره بهذا، فهذا عفا الله عنه.

❁ **قال المؤلف رحمه الله: فيه مسائل:**

❁ **الأولى: النهي عن الاستثناء في الدعاء.**

النهي للتحريم.

---

(١) رواه البخاري رقم ١١٦٢ من حديث جابر رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري رقم ٣٦١٦ من حديث ابن عباس.

۞ **الثانية: بيان العلة في ذلك.**

والعلة: لأن التعليق بالمشيئة يدل على أن المعلق كأنه يقول: إن أعطيتني وإلا فإني مستغني، وهذا لا يجوز إلا إذا سألت المخلوق.

الأمر الثاني: أنه يدل على أن الله يعني في ضمنه يعطي الشيء وهو كاره هذه علة أخرى.

۞ **الثالثة: قوله: ليعزم المسألة.**

هذا أمر آخر، وهو أيضاً يدل على الوجوب، والعزم معناه: إعظام الرغبة، يعني أنه يطلب من ربه جل وعلا بلا تعليق، بل بيقين ورغبة عظيمة بأن الله يعطيه الشيء المطلوب، ولهذا الرسل يقولون: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧]، فالعبد لا بد أن يكون بهذه المثابة.





الباب الرابع والخمسون

❁ **قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ: باب لا يقول: عبدي وأمتي.**

فترجمة الباب بلفظ الحديث، فهذا من الأدب مع الله جل وعلا في الألفاظ التي يجب على العبد أن يجتنب الشيء الموهم الذي فيه إيهام الاشتراك مع الله، أو التسوية في ذلك، وهذا أيضاً من مكملات التوحيد، فإن العبد إذا كان توحيده كاملاً صار متأدباً مع الله في الألفاظ، وكذلك في الأفعال.

وفي هذا كون الرسول ﷺ يبيّن كل ما فيه خير للأمة، ويحذرهم الشيء الذي يدخل عليهم منه النقص في دينهم، ومعاملتهم مع ربهم جل وعلا.

فالعبودية أصلها كلها لله، أما عبودية الرق فهي أمر عارض لسبب وهو لا يستمر؛ يعني: هذا الحكم.

فالمقصود أنه يجب التأدب مع الله في الألفاظ حتى لا يكون فيه لفظ يوهم المشاركة مشاركة الرب جل وعلا ولو باللفظ، وهذا هو السبب في إدخال هذا الباب في كتاب التوحيد، حتى يكون العبد محققاً لتوحيده، مخلصاً لله جل وعلا في أعماله وفي أقواله.

قوله: «لا يقول: عبدي وأمتي»: وهذا النهي الصحيح أنه للتحريم، وقد قيل أنه للكراهة، لكن لا دليل عليه لأن الأصل إذا جاء النهي من الله أو من رسوله ﷺ فيجب أن يجتنب، والوجوب هنا متحتم إلا أن يأتي دليل يدل على أن هذا للتنزه والتأدب وطلب الرفعة وطلب الأجر، وهذا لا دليل عليه.

فعلى هذا يكون الصحيح أن هذا محرماً، وإذا كان محرماً يكون العبد آثماً على ذلك ويكون مرتكباً حراماً، والمحرم قد يكون كبيراً وقد يكون أقل من ذلك، ومعلوم أن الذنوب تتفاوت، ولكن بالنظر إلى الناهي يكون الأمر

عظيماً لأن رب العالمين جل وعلا يجب أن يعظم، فيعظم نهيه، وكذلك الأمر، يعظم أمره لتعظيمه ولأنه جل وعلا هو الرب الذي يتصرف في خلقه كيف يشاء، فيجوز أن الإنسان يتساهل بأمر الله أو في نهيه فيكون ذلك سبباً لهلاكه، ولهذا يقول بعض العلماء: إن آدم ﷺ ارتكب ذنباً واحداً فأخرج من الجنة بذلك. وإن شرع الله أوجب أن يقطع من الإنسان عضواً بخمسة دراهم إذا أخذها بلا حق فليقس الإنسان على هذا.

وهذا التحريم في المقابلة في خطاب الرجل، أو خطابه لمن هو رقيق له، أو خطاب غيره بالمقابلة، أما الإخبار بالغيبة فإن هذا فيما يظهر أنه لا بأس به، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾ [النور: ٣٢]، فدل أن الخطاب الذي ليس في المقابلة أنه جائز.

وفي هذا كذلك أنه لا يجوز الترفع والتكبر على أحد حتى وإن كان مملوكاً له يجب أن يعلم أنه قد يكون أفضل منه، جاء في الحديث: «**إذا نصح العبد سيده وأحسن عبادة ربه كان له أجره مرتين**»[1]، وكم عبد يكون خيراً ممن تعبَّده.

قوله: «عبدي»: العبد هو المعبَّد المذلل الخاضع.

قوله: «أمتي»: والأمة: بمعناه، غير أن هذا يقال للذكر وهذه تقال للأنثى.

وهذه المسألة من المسائل العظام التي ارتكب الناس فيها جرم عظيم، يعني العبودية، وذلك أنهم حرموها، وهذا من تحريم الحلال الذي أحله الله جل وعلا، فمن ارتكب ذلك عالماً عارفاً فإنه يكون كافراً خارجاً من الدين الإسلامي، أقصد تحريم العبودية كون العبيد يمتلكون ويباعون ويشترون.

ولكن أصل العبودية الكفر، فإذا وجود الجهاد من المسلمين وجدت العبودية، وإذا لم يوجد الجهاد فلا عبودية إلا بالظلم والتعدي.

---

(١) رواه البخاري رقم ٢٥٥٠، ومسلم رقم ١٦٦٤ من حديث ابن عمر.

والظلم قد يحمل على الظالم ويعمل بالأمر الظاهر، كما جاءت السُّنَّة بذلك، فهذا سلمان ﷺ بيع ظلماً وعدواناً على أنه رقيق وهو ليس برقيق هو حر، فجَرَت عليه العبودية، فقال له رسول الله ﷺ: كاتب، والمكاتبة هي: أن يشتري نفسه بأنجم محدودة وأموال محددة.

❁ **قال المؤلف** رحمه الله: **عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يقل أحدكم: أطعم ربك، وضِّئ ربك، وليقل: سيدي مولاي، ولا يقل أحدكم: عبدي وأمتي، وليقل: فتاي وفتاتي وغلامي»**(١).

قوله: «**في الصحيح**»: ومقصوده في الصحيح: إما أن يكون قصده في الحديث الصحيح فلا يكون مقيداً بكتاب وهذا هو الظاهر، أو أن يكون قصده أحد الصحيحين.

والحديث هذا في الصحيحين، فيتعين حمله على المعنى الأول، أنه يقصد في الحديث الثابت الصحيح السند عن رسول الله ﷺ، فقوله في الصحيح يفيدنا أن هذا حكم ملزم لأن الحديث ثابت لا شك فيه، فيبدأ به في أول الأمر يقول: أنه يجب أن تلتزم لأنه لا إشكال في ثبوته فهو صحيح. فيكون هذا هو فائدة قوله في الصحيح لأن ما خص كتاباً بعينه.

قوله: «**عن أبي هريرة** ﷺ»: أبو هريرة اختلف في اسمه كما قال الحافظ على أربعين قولاً، ولكن صحح النووي رحمه الله أن اسمه عبد الرحمٰن بن صخر فاعتمد ذلك.

والرسول ﷺ هو الذي كناه بهذه الكنية، كل اسم بدأ بأب أو أم فأنه يكون كنية بخلاف اللقب، فإن اللقب يدل على التنقص، ولهذا نهى الله جل وعلا عن التنابز بالألقاب؛ لأنها تغضب الناس وتسوؤهم.

وأبو هريرة ﷺ هو أكثر الصحابة حديثاً عن رسول الله ﷺ، ولهذا توجهت إليه الطعون من أهل البدع والكفر، ولا سيما الرافضة فإنهم كثيراً ما

---

(١) رواه البخاري رقم ٢٥٥٢، ومسلم رقم ٢٢٤٩.

يطعنون فيه ويلعنونه ويقدحون في أحاديثه وأنه كذب، ويقولون: كيف مثلاً أسلم في السنة السابعة من الهجرة وروى كل هذه الأحاديث؟

وقد وجد في وقته ﷺ من يطعن عليه من المنافقين، وذكر ذلك كما في صحيح البخاري يقول: إن الناس كانوا يقولون أكثر أبو هريرة وإني كنت ألزم رسول الله ﷺ بشبع بطني حين لا آكل الخمير ولا ألبس الحبير ولا يخدمني فلان ولا فلانة، وكنت ألصق بطني بالحصباء من الجوع، وإن كنت لأستقرئ الرجل الآية هي معي كي ينقلب بي فيطعمني، وكان خير الناس للمسكين جعفر بن أبي طالب كان ينقلب بنا فيطعمنا ما كان في بيته، حتى إن كان ليخرج إلينا العكة التي ليس فيها شيء فنشقها فنلعق ما فيها[1]. وفي رواية: قلت: يا رسول الله إني أسمع منك حديثاً كثيراً أنساه؟ قال: «**أبسط رداءك**»، فبسطته، قال: فغرف بيديه ثم قال: «**ضمه**»، فضممته فما نسيت شيئاً بعده[2]. ثم يقول أيضاً: حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين، فأما أحدهما فبثثته. وأما الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم[3].

يقول بعض العلماء: المقصود بذلك الذي لو بثه أحاديث الفتن التي فيها أسماء بعض الناس من الأمراء، وأنه لو صرح بذلك قتلوه.

وسئل بعض العلماء عن هذا فقال: لو حدثكم أنكم تقتلون خليفة رسول الله ﷺ لقتلتموه، هذا ثابت من أحاديثه وغيرها.

وفي صحيح مسلم أنه قال لرسول الله ﷺ: ادع الله أن يحببني أنا وأمي إلى عباده المؤمنين ويحببهم إلينا، قال: فقال رسول الله ﷺ: «**اللهم حبب عُبيدك هذا ـ؛ يعني: أبا هريرة ـ وأمه إلى عبادك المؤمنين وحبب إليهما المؤمنين**»، فما خُلق مؤمن يسمع بي ولا يراني إلا أحبني»[4]، فليس في الأرض مؤمن إلا وهو يحبه بدعوة رسول الله ﷺ، وله فضائل كثيرة ﷺ وهو من سائر الصحابة، وكل الصحابة قد اختارهم الله لصحبة رسوله ﷺ فهم كما

---

(١) رواه البخاري رقم ٣٧٠٨.
(٢) رواه البخاري رقم ١١٩.
(٣) رواه البخاري رقم ١٢٠.
(٤) رواه مسلم رقم ٢٤٩١.

قال ﷺ: «**خير الناس قرني**»[1]، خير الناس بعد الأنبياء فمن الخذلان والخسارة وعلامة الشقاء كون الإنسان يبغض صحابة رسول الله ﷺ ويطعن فيهم، وهذا لا يكون إلا من أهل الكفر وأهل العداوة لرسول الله ﷺ ولدين الله، لأنهم هم الذين نقلوا الدين عن رسول الله ﷺ، فهم الواسطة بين الأمة وبين رسول الله ﷺ، فإذا كانت الواسطة مطعون فيها فالدين غير صحيح، فهم يعرفون هذا تماماً، ولهذا كان مذهب الرافضة ملجأ لكل مبتدع وكل زنديق وكل كافر مثل: النصيرية والدروز والإسماعيلية وغيرهم الذين يقول فيهم شيخ الإسلام: هم أكفر من اليهود والنصارى.

والذين ألفوا في النحل أخرجوهم من الثنتين والسبعين قالوا: ليس هؤلاء من الأمة الذين قال فيهم الرسول ﷺ: «**وستفترق الأمة على ثلاث وسبعين فرقة**»، لأن هذه الثلاث والسبعين فرقة هي أمة الإجابة التي استجابت لرسول ﷺ فهم مسلمون وإن كانوا من أهل الوعيد، ولهذا قال في رواية الترمذي: «**كلها في النار إلا واحدة**»، قيل: من هي؟ قال: «**من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي**»[2].

فقوله: «**كلها في النار**»؛ يعني: اثنتين والسبعين كلها في النار ويبقى واحدة فقط، ومن العجائب أن بعض من لم يعرف الحديث أنه أثبته في كتبه العكس فقال: «**كلها في الجنة إلا واحدة**».

قوله في الحديث: «**لا يقل أحدكم**».

الرسول ﷺ هو أكمل ناصح، فإذا نهى عن شيء أرشد إلى ما يقوم مقامه، كذلك إذا ذكر شيئاً يحتاج إليه أرشد إلى ما هو أكمل كما قال عليه الصلاة والسلام لما سئل عن ماء البحر، قال: «**هو الطهور ماؤه الحل ميتته**»[3]، فأضاف أن ميتته حلال لأنها قد يحتاج إليها وهذا كثير في كلامه ﷺ.

---

(١) رواه البخاري رقم ٢٦٥٢، ومسلم رقم ٢٥٣٣.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه أحمد في المسند رقم ٨٧٣٥، والترمذي رقم ٦٩ وغيرهما من حديث أبي هريرة ﷺ.

وهذا النهي قال: «**لا يقل أحدكم**» أحدكم: يعم الأمة كلها، الخطاب إذا كان موجه إلى واحد من الأمة فهو للأمة كلها سواءً كان المخاطب هو الله جل وعلا أو الرسول ﷺ، لا فرق في هذا.

وهذا الذي ذكره على سبيل المثال، وإلا المقصود أنه لا يقول لفظ العبد ولا لفظ الرب، يعني: السيد الذي يملك المملوك لا يقل عبدي، وذلك أن العبودية يجب أن تكون لله وحده ولا يجوز أن يشارَك فيها، ولهذا لا يجوز أن يسمى الإنسان عبداً لمخلوق التعبيد بالاسم فقط، فإن هذا من المحرمات، لأن هذا من حق الله جل وعلا، فهو المعبود وحده ولا يجوز أن يُعبد غيره.

وهذا يدخل في صيانة التوحيد وحماية حماه، لأن المعنى ليس مقصوداً لأن الإنسان إذا قال العبد فهو يقصد عبودية الرق، وليس عبودية الذل والخضوع والسجود، والعبادة هذا لا أحد يقوله، ومع ذلك نهى حتى لا يحصل الإشتراك ولو باللفظ؛ يعني: يكون هذا صيانة للتوحيد ويكون تأدباً مع الله جل وعلا كما مر معنا فيما هو نظير هذا في الأبواب السابقة.

فهذا مثال لقوله: «**اطعم ربك وضئ ربك**»، وفي زيادة: «**اسق ربك**» كأنه اختصر لأن هذا مفهوم من ذلك.

ولكن هذا المثال، فلو قال له مثلاً: أجب ربك، أو اذهب إلى ربك وما أشبه ذلك فالحكم واحد، والمقصود أنه لا يقول ربك هذا للمخاطب الذي يخاطب المملوك أو السيد الذي يخاطب مملوكه، والواجب أن يقول: فتاي أو غلامي، هذا هو الذي أرشد إليه الرسول ﷺ.

وإذا كانت أنثى يقول: فتاتي وأُمتي، مع أنه جاء أن لفظ الأمة أيضاً يكون يقصد به العبد، كما في دعاء النبي ﷺ يقول: «**ما أصاب أحداً قط هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك**»[1].

فهي تضاف إليه.

أما ما جاء في صحيح مسلم في هذا الحديث في رواية أنه قال:

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم ٣٧١٢ من حديث ابن مسعود.

«ولا يقل: مولاي فكلكم مولاكم الله»[1]، فهذه بيَّن مسلم كَلَلهُ أنه اختلف فيها على الزهري فمنهم من أثبتها ومنهم من نفاها، والصحيح أن هذه الرواية مرجوحة لأنه لا يمكن الجمع بينهما، وبيَّن هذا حيث أن النسخ غير معلوم في هذا؛ يعني: تقدم التاريخ فلا بد من الترجيح والراجح أنها مرجوحة.

قال: «وليقل: مولاي» وهو معارض له، وهذا أرجح لأنه متفق عليه ولا خلاف فيه، وذلك كما بيَّن مسلم أنه مختلف فيه، أما ما جاء في حديث عمر ﷺ حديث جبريل ﷺ في أشراط الساعة: «**وأن تلد الأمة ربتها**»[2]، فهنا قال: «**ربتها**» فهل يكون هذا معارض لقوله: «**أطعم ربك**»، نقول: لا معارضه لأمرين:

أحدهما: أنه مؤنثة وفرق بين التأنيث والتذكير، وإن كانت آلهة الكفار كلها مؤنثة كما ذكر الله جل وعلا ذلك عائباً عليهم، فأخبر أنها أسماء لا حقيقة لها.

الثاني: أن الإضافة للعموم، وهذا يكون خاصاً بالمكلف أما غيره من الأموال والحيوانات وغيرها فليس هذا وارداً فيها؛ يعني: تقول: رب الدار، رب الكتاب، رب الدابة كما قال عليه الصلاة والسلام في ضالة الإبل: «**ما لك ولها معها سقاؤها وحذاؤها ترد الماء وتأكل الشجر دعها حتى يجدها ربها**»[3]، فيكون هذا خاص بالمكلفين، والنهي لأنهم هم أهل العبودية الذين تعبدهم الله جل وعلا، أما الحيوانات وغيرها فهي غير مكلفة فليست مأمورة بالعبادة.

وقوله: «**وضئ ربك**»: وضئ: من الوضوء، والوضوء يطلق على التنظيف وتغسيل اليدين وما أشبه ذلك من التنظيف، فنهى ﷺ أن يخاطب المخلوق بأنه رب، وإن كان هذا بالإضافة؛ لأن الإضافة لا تدل على التخصيص في مثل هذا.

---

(١) رواه مسلم رقم ٢٢٤٩، ولا يقل العبد لسيده مولاي، وزاد في حديث أبي معاوية: فإن مولاكم الله ﷻ.

(٢) رواه مسلم رقم ٨.

(٣) رواه البخاري رقم ٢٤٣٨، ومسلم رقم ١٧٢٢ من حديث زيد بن خالد ﷺ.

قوله: «وليقل: سيدي ومولاي»: هذا بالنسبة للعبد، وفي هذا دليل على جواز إطلاق السيد على الإنسان، وهذا فرد من أفراد الأدلة، وسوف يأتينا في حديث عبد الله بن الشخير أن الرسول ﷺ: **«نهى عن إطلاق السيد»** لما قالوا: **«أنت سيدنا وابن سيدنا»** نهاهم قال: **«قولوا بقولكم أو بعض قولكم أنا عبد الله ورسوله، فقولوا: عبد الله ورسوله، لا أحب أن ترفعوني فوق منزلي»** الحديث[(١)].

فلا بد من الجمع بين هذا وهذا، والجمع أنه إذا دل هذا الإطلاق على الترفع والاستعلاء والكبر وازدراء الآخرين فإنه محرم لا يجوز إطلاقه كما قال ﷺ: **«لا تقولوا للمنافق: سيد فإنه إن يك سيداً فقد أسخطتم ربكم ﷻ»**[(٢)]. والسيد يطلق على معاني عدة: على الرئيس المقدم في قومه، وعلى الكريم، وعلى الحليم الذي لا يستنفره الغضب، وعلى الزوج وغير ذلك، وقد ثبت أنه ﷺ صعد بالحسن بن علي ابن بنته فاطمة ﵂ المنبر فقال: **«ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين»**[(٣)]، فوقع كما أخبر ﷺ والمقصود هنا قوله: **«سيد»**.

وفي الصحيحين في غزوة بني قريظة لما نزلوا على حكم سعد: فأرسل النبي ﷺ إليه فجاء فقال: **«قوموا إلى سيدكم ـ أو قال: خيركم ـ»**[(٤)]، هذا دليل على إطلاق السيد على الكبير المطاع المتقدم، وفي القرآن يقول الله جل وعلا في قصه زكريا: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩]، على هذا يكون السيد على حسب المعاني التي يراد بها، فإطلاقه يكون جائزاً ويأتي الكلام على هذا إن شاء الله.

وهناك فرق بين أن يأتي السيد بالألف واللام أو «سيد»، وقد جاء في

---

(١) يأتي تخريجه إن شاء الله تعالى.

(٢) رواه أبو داود رقم ٤٩٧٧ من حديث بريدة ﵁.

(٣) رواه البخاري رقم ٣٦٢٩ من حديث أبي بكرة ﵁.

(٤) رواه البخاري رقم ٤١٢١، ومسلم رقم ١٧٦٨ من حديث أبي سعيد الخدري ﵁.

تفسير ابن عباس رضي الله عنهما على قوله جل وعلا: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ [الإخلاص: ٢] قال: هو السيد الذي قد كمل في سؤدده[1]. مع قول الرسول ﷺ: «**السيد الله**»؛ يعني: الكامل في السؤدد.

لكن هل يجوز أن يطلق هذا الاسم على الله، تقول: الله السيد؟ لا بد من ثبوته اسماً لله جل وعلا لا وصفاً.

أما: المولى، فله إطلاقات كثيرة، كما قال النووي: يطلق على ستة عشر معنًى، وقد يكون أكثر منها: الناصر، والمالك، وابن العم القريب، وغير ذلك من الإطلاقات التي جاءت بها اللغة.

قوله: «**ولا يقول أحدكم: عبدي وأمتي**»؛ يعني: المالك لا يقول: هذا عبدي وهذا يدخل فيه المالك وغيره من الناس، فلا يقال: هذا عبد فلان فهذا لا يجوز لنهي الرسول ﷺ، فالعبودية لله جل وعلا يجب أن تخلص لله جل وعلا ولا يشاركه فيها مخلوق هذا هو السبب كما سبق.

وكذلك الأمة «أمتي»، لأن الأمة بمعني العبد. فكل النساء إماء الله، ولهذا جاء في الحديث الصحيح: «**لا تمنعوا إماء الله مساجد الله**»[2]؛ يعني: النساء إذا أردنا أن يصلينا في المسجد فلا يمنعن.

قال: «**وليقل: فتاي وفتاتي**»: الفتى هو: الشاب سواء كان مملوكاً أو غير مملوك، والفتاة كذلك الشابة. وهذا لأن الغالب أن المملوك يكون بهذه الصفة أنه فتى أو فتاة؛ لأن الكبير خدمته ضعيفة فلا يصلح أن يكون خادماً.

وكذلك قوله: «**غلامي**» بدل عبدي. فهذا إرشاد رسول الله ﷺ.

والمناسبة في هذا ظاهرة وهي: صيانة حق الله جل وعلا أن يشاركه المخلوق فيه، وهذا حق الله على عباده، يجب أن يكون خالصاً له في المعنى والاسم، وإن كان المعنى غير مقصود للمخِاطب في هذا أو المخَاطب، ولكن كل هذا صيانة للتوحيد وحماية أن يدخل من جوانبه فيه شيء يقدح فيه.

---

(١) تفسير ابن كثير ٨/٥٢٨.

(٢) رواه البخاري رقم ٩٠٠، ومسلم رقم ٤٤٢ من حديث ابن عمر.

❁ **قال المؤلف** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **فيه مسائل:**

❁ **الأولى: النهي عن قول: عبدي وأمتي.**

النهي هنا للتحريم، ويجب أن يعرف أن النهي الذي كان في صدر الإسلام أنه ليس فيه نهي للكراهة لا يعرف فهذا اصطلاح حادث، فالغالب أنه إذا جاء أنه يراد به التحريم، ولهذا جاء في القرآن بعد ذكر عدد من المحرمات والكبائر قوله تعالى: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾ [الإسراء: ٣٨]، وهذا المكروه من أعظم المحرمات. ولكن الاصطلاح لا مانع منه وهو اصطلاح قيد بالأدلة فهم يقولون: لا يصار إلى الكراهة إلا بدليل شرعي، فإذا كان مقيد فلا مانع من ذلك.

❁ **الثانية: لا يقول العبد لسيده: ربي، ولا يقال له: أطعم ربك.**

هذا قد يرد عليه إشكال كما في قصة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [يوسف: ٤٢]، فكيف يجاب عن هذا؟ لأنه مقصوده سيده؟

الجواب على هذا من ثلاثة وجوه:

أحدها: أن هذا في شرع من قبلنا فيكون شرعنا ناسخ لهذا، لأن هذا حكاية عن قصة واقعة سابقة.

الثاني: وقد يتعلق به الذي يقول أن النهي للكراهة فيقول هذا يحمل على التنزه يعني النهي هنا، والآية تدل على الجواز، ولكن الأول هو الراجح.

الثالث: قد يقال أن الخطاب بما يعرفه الإنسان قد يضطر الإنسان إليه فيلجأ إلى هذا ويخاطب وإن كان غيره هو المتعين.

❁ **الثالثة: تعليم الثاني قول: سيدي ومولاي.**

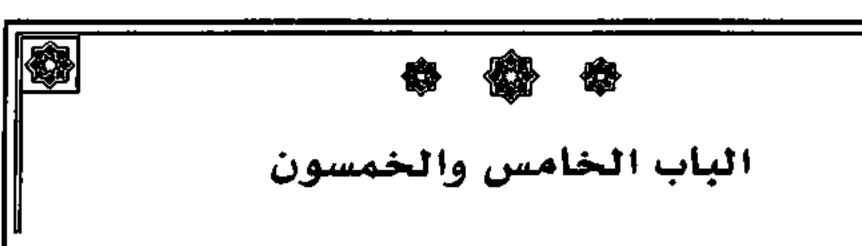
يعني: المملوك، وهذا ليس بخاص بالمملوك ولا بالمالك، فهو لعامة الناس كلهم، فلا يقال: هذا عبد فلان، أو يقال: هذا رب فلان، فهو داخل في النهي.

۞ **الرابعة: التنبيه للمراد، وهو تحقيق التوحيد حتى في الألفاظ.**

بالألفاظ يعني أن المعاني غير مقصودة، وإنما قصد أن تطهر الألفاظ وتنزه عن مجرد المشاركة في اللفظ فقط. فمعنى هذا أنه لو قصد المعنى فإن الأمر يكون كبير.

وفي هذا كذلك أنه يؤتى بالعوض الذي ليس فيه محذوراً، وهذه عادة الرسول ﷺ إذا نهى عن أمر من الأمور يخبرهم في الشيء الذي لا محذور فيه ويكون بديلاً عن ذلك.





الباب الخامس والخمسون

❁ **قال المؤلف رحمه الله: باب لا يرد من سأل بالله.**

هذا مطلق، وهذا الإطلاق لا بد من تقييده، والتقييد بشرط أن لا يسأل منكراً، ولا قطيعة رحم، ولا ما يضر المسئول، يعني يسأل ماله أو شيئاً لا يستطيع أن يعطيه، فهذا يرد للأدلة الأخرى التي جاءت في هذا.

والسبب في هذا التعظيم لله جل وعلا، وأنه يجب أن يكون لله توقير في قلب العبد، وكذلك السائل يجب أن يجتنب هذا لأن هذا قد يوقع في الإثم. فإذا سأل السائل بالله سواءً كان سأل مالاً أو سأل غير ذلك من الأمور التي يملكها المسئول ولا تضره ولا يترتب على فعلها محرم، فإنه يجاب ويبقى الجواب هل هو واجب أو أنه مستحب؟ الظاهر أنه يجب بشرطه، فإن كان المسئول يضره ذلك ثم أقدم على ذلك يكون السائل آثماً.

❁ **قال المؤلف رحمه الله: عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من سأل بالله فأعطوه، ومن استعاذ بالله فأعيذوه، ومن دعاكم فأجيبوه، ومن صنع إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه»، رواه أبو داود والنسائي بسند صحيح[1].**

قوله: «من سأل بالله فأعطوه»: هذا أمرٌ بأن يعطى السائل. وقد جرت العادة أن السائل يسأل شيئاً يليق به أو يطلق المسألة؛ يعني: مجرد الشيء فقط، فقد يسأل شيئاً معيناً ولكنه شيء يسير، أما إذا سأل الشيء الذي يجحف بالمسئول أو يضره في ماله أو في غير ذلك، فإن هذا لا يجوز ويكون السائل نفسه واقعاً في الحرام.

(١) رواه أبو داود رقم ١٦٧٢، والنسائي رقم ٢٥٦٧.

مع أن السؤال في الأصل محرم سؤال المخلوق، ولهذا جاء الوعيد على من يسأل الناس تكثراً. وقد جاء تقييد جواز المسألة في ثلاث حالات فقط كما في حديث قبيصة قال: تحملت حمالة فأتيت رسول الله ﷺ أسأله فيها فقال: **أقم حتى تأتينا الصدقة فنأمر لك بها**، قال: ثم قال: **يا قبيصة إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمل حمالة فحلَّت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلَّت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش ـ أو قال: سداداً من عيش ـ، ورجل أصابته فاقة حتى يقوم ثلاثة من ذوي الحجا من قومه لقد أصابت فلاناً فاقة فحلت له المسألة، فما سواهن من المسألة يا قبيصة سحتاً يأكلها صاحبها سحتاً»**[1].

فإذا تحمل الإنسان حملات في سبيل الإصلاح بين الناس، كأن تتخاصم طائفتان أو رجلان فيصلح بينهما ويتحمل مالاً يصلح بينهما، فمثل هذا يجوز أن يسأل وإن كان غنياً، والحكمة في هذا حتى لا ينسد باب الإصلاح لو أنه ترك الناس في مثل هذا يبذلون أموالهم يوشك أنه لا يقدم أحد على الإصلاح فإذا عرفوا أن المال الذي يتحملونه يكون مشتركاً بين المسلمين كثر فعل الإصلاح، أو يصاب بفاقة أو جائحة كما مر في الحديث.

وما عدا ذلك فالمسألة سحت، فهي نار يتكثر به الإنسان أو يقلل، ومن سأل الناس تكثراً فإنه يأتي يوم القيامة وليس على وجه مزعة لحم[2]، قد ذهبت المسألة بلحم وجهه، وجاء أنه يسأل ناراً ويأكل ناراً.

ومعنى ذلك أن مسألة الناس محرمة، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: الحكمة في هذا صيانة المسلم أن يذل ويخضع قلبه ويتعلق بغير الله، لأن المعطي إذا أعطى المال وبذله فإنه يأخذ شعبة من القلب، من عبودية القلب.

القلوب جُبلت على حب من أحسن إليها، ولهذا يقال: تفضل على من

(١) رواه مسلم رقم ١٠٤٤.

(٢) رواه البخاري رقم ١٤٧٤، ومسلم رقم ١٠٤٠ عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ: «ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة ليس في وجهه مزعة لحم».

شئت تكون سيده، وافتقر إلى من شئت تكون عبده، فالفقير قد يستعبد. وهذا من حكمة الشرع وصيانته للمسلم.

قوله: «ومن استعاذ بالله فأعيذوه»: أما الاستعاذة: فكأن يتعوذ بالله من شرِّك يقول: أعوذ بالله من شر فلان، وأنت تستطيع أن تمنع فلان مثل ابنك أو أخوك وما أشبه ذلك، فهذا يجب عليك أن تعيذه، ولهذا لما قالت الجوينية التي تزوجها الرسول ﷺ ودخل عليها قالت: أعوذ بالله منك. قال: **«عذت بعظيم إلحقي بأهلك»**[1]، فتركها صلوات الله وسلامه عليه، وكانت جاهلة في هذا، ولهذا كانت تقول: أنا أشقى الناس[2]. فالرسول ﷺ عاذها.

والعياذ معناه: هو الملجأ إلى من يكون عاصماً، ولهذا يسمى الحصن المنيع: مَعاذ، والجبل يسمى: معاذ، وليس فيه أعظم من العياذ بالله جل وعلا، فمن استعاذ به فقد استعاذ بعظيم.

ويجب أن يكون الله جل وعلا في قلب العبد عظيماً ويقدره حق قدره فإذا استعيذ عنده بالله يجب أن يعيذ المستعيذ، ولهذا قال: **«فمن استعاذ بالله فأعيذوه»**.

قوله: «ومن دعاكم فأجيبوه»: والدعوة هنا مطلقة، سواءً لطعام أو لغير طعام، ولا فرق بين كونه لطعام وليمة عرس أو غيرها، وهذا أيضاً ليس على إطلاقه، إذا كان الإنسان يعرف أن الدعوة تشتمل على منكر فإنه لا يجب إلا إذا كان يستطيع إزالته، أو كانت الدعوة تضره في أمره الذي لا بد منه، ولكن يجب أن يبين هذا حتى لا يكون في نفس الداعي شيء.

أما إذا لم يكن شيء من ذلك، فإن إجابة الدعوة على الصحيح من أقوال العلماء أنها واجبة، وسواءً كانت إجابة الدعوة لطعام جعل مثلاً للإكرام أو أنها وليمة عرس وإن كانت وليمة عرس فهي آكد؛ يعني: الإجابة لأنه جاء فيها أن من امتنع فقد عصى أبا القاسم ﷺ مع أنها شر الطعام لأنه يقول ﷺ:

---

(١) رواه البخاري رقم ٥٢٥٤ من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) رواه البخاري رقم ٥٦٣٧، ومسلم ٢٠٠٧.

«شر الطعام طعام الوليمة يمنعها من يأتيها ويدعى إليها من يأباها، ومن لم يجب الدعوة فقد عصى الله ورسوله»(١).

ومثل هذا الإقسام، كون الإنسان يقسم على الآخر فإنه يجب أن يبر قسمه، غير أن هذا كما ذكر شيخ الإسلام في التفصيل يقول: إن كان لأجل الإلزام فهذا يجب، أما إذا كان لأجل الإكرام يقسم عليه ليكرمه فهذا ليس واجباً والأدلة على هذا كثيرة، فأبو بكر لما ذكر الرسول ﷺ الرؤى قال: دعني أفسرها، قال: فسِّرها ففسرها، ثم قال: فأخبرني يا رسول الله بأبي أنت أصبت أم أخطأت؟ قال النبي ﷺ: **«أصبت بعضاً وأخطأت بعضاً»**. قال: فوالله لتحدثني بالذي أخطأت، قال: **«لا تقسم»**(٢) فلم يجبه. فإذا كان هناك مصلحة لا يجيبه.

على هذا يكون **«من دعاكم فأجيبوه»**؛ يعني: أن الدعوة يجب أن تجاب، ولكن إذا عرف من حال الداعي أنه ليس جاداً وأنه ليست دعوته إلا من باب المجاملة فهذا لا يجب، إذا عرف ذلك فلا تجبه.

أما إذا كان في دعوته صادقاً فإنه يجب أن يجاب، وهذا كثيراً ما يدعو من باب المجاملة إتباعاً للعادة التي جرى عليها الناس، فإذا عرف الإنسان ذلك فإنه لا يجبه.

وقوله: «ومن صنع إليكم معروفاً فكافئوه»: كل هذه الأوامر تدل على الوجوب، فقوله: «معروفاً» هذا مطلقاً؛ يعني: أي معروف، والمعروف هو ما فيه نفع، سواءً كلام أو شفاعة أو مال أو تقديم أي شيء يكون فيه نفع، فيكافأ.

والمكافئة الظاهر أنها مثله، كافئوه يعني: أعطوه شيئاً مثلما ما صنع، فإن كان معنًى تعطيه مثل ذلك، وإن كان مالاً تعطيه مثل ذلك، والسنة أن يكون أفضل كما كان الرسول ﷺ يقبل الهدية ولكنه يكافئ عليها أفضل منها.

---

(١) رواه مسلم رقم ١٤٣٢ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري رقم ٧٠٤٦، ومسلم رقم ٢٢٦٩.

قوله: «فإن لم تجدوا ما تكافئونه»: وهذا هو الذي ثبت بخط المؤلف **«ما تكافئوه»** وهذا ثابت في الأصول، أصول الحديث.

يقول الطيبي في شرحه المشكاة على هذا: سقطت النون بلا ناصب ولا جازم، إما للتخفيف وإما سهواً من الكاتب، فإثباتها هنا خطأ؛ لأن إثباتها هنا زيادة من الطابع.

«فإن لم تجدوا ما تكافئوه فادعوا له، حتى تروا».

يجوز أن تقول: تُروا بالضم بمعنى تظنوا، أو «تروا» بالفتح بمعنى تيقنوا وتعلموا أنكم قد كافتموه.

إذا كان بالدعاء، فليس فيه حد معين، ولكن هذا يرجع إلى الحال غير أنه جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال: **«من صنع إليه معروف فقال لفاعله: جزاك الله خيراً فقد أبلغ في الثناء»**[1]، ولا بد أن يكون الدعاء من القلب وبصدق ويرجى أن يكون مجاباً.

وهذا إرشاد من الرسول ﷺ للطريق الواسع الذي لا يعجز أحد من الناس عنه، أما المكافئة بالمال فقد يعجز عنها بعض الناس، فإذا عجز عنه فليلجأ إلى ربه جل وعلا ويسأله أن يتولى مكافئة هذا المحسن، ويدعو له حتى يرى أنه قد كافئه.

المناسبة في ذكر هذا في كتاب التوحيد، هو مثل ما مضى:

أولاً: تعظيم الله جل وعلا وتقديره حق قدره بحيث أنه إذا استعيذ به أعيذ، وإذا سأل به يعطى تعظيماً لله جل وعلا وإكباراً له ـ تعالى وتقدس ـ وليس للسائل فقط، وصيانة لتوحيد الإنسان في هذا.

ثانياً: أن المكافئة على المعروف فيها صيانة لتوحيد العبد حيث أن قلب المؤمن يجب أن يكون متعلقاً بالله جل وعلا، وأن لا يكون في قلبه شعباً يأخذها بعض المخلوقين، لأن صنيعة المعروف تجعل القلب يميل إلى من صنع المعروف، والمكافئة تزيل ذلك.

---

(١) رواه الترمذي رقم ٢٠٣٥ من حديث أسامة بن زيد.

ثالثاً: أن المعروف مطلوب ومرغب فيه، فلا بد أنه ينوي بذلك كسب الحسنات.

رابعاً: إغناء السائل عن الغير، وإحسان له، وامتثال لأمر الله، وطلب الزلفى عنده سبحانه.

خامساً: أن إجابة الدعوة فيها قيام بحق أوجبه الله جل وعلا ففيه تكميل للتوحيد.

❁ قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فيه مسائل:

❁ الأولى: إعاذة من استعاذ بالله.

يعني: وجوباً، فمن استعاذ بالله وجب أن تعيذه، فإن لم تفعل تكون قد ارتكبت ذنباً وكذلك ما بعده، ولكن هذا يكون مقيداً بما يكون وفق الشرع.

❁ الثانية: إجابة الدعوة.

فإجابة الدعوة واجبة سواءً كانت وليمة عرس أو لا على التفصيل السابق وإذا كان في ماله شبهة إما رباً أو غير ذلك فإنك تجيبه.

❁ الثالثة: المكافأة على الصنيعة.

والحكمة في المكافئة وهي مما يتعلق بالتوحيد: المعروف الذي يقدم للإنسان يبعث حب القلب وتعلقه بالذي أحسن إليه، والقلب يجب أن يكون خالصاً لله بتعلقه بالله فينبغي تخليص القلب من هذا، تكافئه حتى ما يكون قلبك له شعبة من العبادة لهذا الذي أحسن إليك، لأنه كما هو معروف: القلوب جُبلت على حب من أحسن إليها، ولهذا شرعت المكافئة، وإذا كانت المكافئة بأكثر فهو أفضل كما كان الرسول ﷺ يفعل يقبل الهدية ولكنه يهدي أفضل منها. وإذا عجز الإنسان عن المكافئة المالية أو المعنوية فإنه يلجأ إلى الدعاء.

❁ الرابعة: أن الدعاء مكافأة لمن لم يقدر إلا عليه.

يعني بهذا الشرط لمن لم يقدر إلا عليه، أما إذا كان يقدر بالمكافئة بالمثل فإن الدعاء لا يكفي، وليس مكافئة وإنما هو مكافئة للعاجز الذي عجز عن المكافئة بالمثل.





الباب السادس والخمسون

قال المؤلف رحمه الله: باب لا يسأل بوجه الله إلا الجنة.

لأن الله عظيم ووجهه عظيم، فلا يجوز أن تسأل به الأمور الحقيرة مثل أمور الدنيا، وإنما يسأل بوجهه الشيء العظيم مثل الجنة وما يكون وسيلة إليها كما في الحديث الذي رواه ابن إسحاق وغيره، ورواه البيهقي أيضاً في دعاء الرسول ﷺ في منصرفه من الطائف حين لقي ما لقي، فسأل بنور وجه الله أن لا يحل عليه غضبه، ولا ينزل به سخطه[1]. فهذا من الوسائل إلى الجنة، وكذلك جاء في أدعية الرسول ﷺ الاستعاذة بوجه الله، والسؤال بوجه الله أمور تكون وسائل إلى الجنة.

فالمقصود سؤال الجنة أو ما كان وسيلة إليها، فالجنة عظيمة وهي السعادة التي لا يشبهها سعادة في الدنيا ولا قريب منها، أما أمور الدنيا التافهة فسؤال الله به يدل على أن هذا السائل لم يعرف الله ولم يقدره قدره فيستحق أن يكون حقيراً لأنه ما عرف التوحيد، وتوحيد الله لا بد فيه من تعظيمه جل وعلا والتأدب معه واجتناب القادح الذي يقدح في معرفته، وفي معاملته، وهذا منها، فكان بذلك مناسبة واضحة لكتاب التوحيد.

قوله: «لا يسأل»: لا هذه إما أن تكون للنفي أو للنهي، فإذا كانت للنفي فهو أبلغ لأن النفي معناه النهي؛ يعني: أن هذا لا يقع، ولا يجوز أن يقع من مسلم.

---

(١) الدعاء للطبراني رقم ١٠٣٦ من حديث عبد الله بن جعفر وفيه: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، أنت أرحم الراحمين إلى من تكلني؟ إلى عدو يتجهَّمني أو إلى قريب ملكته أمري، إن لم تكن غضبان علي فلا أبالي، غير أن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن تنزل بي غضبك، أو تحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك».

وهذا النهي هل هو للتحريم أو للتنزيه؟

الظاهر أنه محرم؛ لأن هذا هو الأصل، ثم ذكر الحديث.

۞ قال المؤلف رحمه الله: عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يسأل بوجه الله إلا الجنة» رواه أبو داود[1].

هذا الحديث فيه راو ضعيف، وضعفه ظاهر، ومع هذا اعتمده المؤلف رحمه الله، وهذا من النوادر في هذا الكتاب، لأنه لم يأت معه بشيء ثان، كانت عادته أنه إذا كان الحديث فيه ضعف يضم إليه ما يقويه، إما آية أو حديث آخر.

وقد جاءت أحاديث كثيرة جداً في أدعية الرسول ﷺ فيها الاستعاذة بوجه الله جل وعلا، ولكن قبل هذا نقول المقصود من هذا أن وجه الله جل وعلا عظيم جداً فلا يجوز أن يسأل به أمور الدنيا وحطامها والأمور التافهة والأمور التي تكون بين الناس، فإن هذا فيه ابتذال وفيه عدم تقدير لله جل وعلا حق قدره، فإذا وقع الإنسان في ذلك فإن هذا قدح في توحيده لأنه لم يقدر الله حق قدره، ولم يكرم وجهه أن يسأله به الشيء التافه وأمور الدنيا كلها تافهة.

أما الأمور التي تكون وسيلة إلى الجنة ومقربة إليها، أو تكون مثلاً الاستعاذة بوجهه من النار أو ما أشبه ذلك، فإنه داخل في سؤاله بوجهه جل وعلا، لأنه لما نزل قول الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥]، قال رسول الله ﷺ: **«أعوذ بوجهك»**. قال: ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال: **«أعوذ بوجهك»**، ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾. قال رسول الله ﷺ: **«هذا أهون أو هذا أيسر»**[2].

وكذلك أدعية الرسول ﷺ الكثيرة التي فيها الاستعاذة بوجه الله جل وعلا أو بنور وجهه، وقد ذكر ذلك الطبراني رحمه الله في كتابه الأدعية بأسانيدها

(١) رواه أبو داود رقم ١٦٧١.

(٢) رواه البخاري رقم ٤٦٢٨ من حديث جابر رضي الله عنه.

وكذلك غيره مثل ابن السني والنسائي وغيرهم من الذين ألفوا في عمل اليوم والليلة وفي الأدعية.

وما مر في حديث قصة الطائف ليس فيه مخالفة لأن حلول الغضب ونزول السخط مما يمنع من دخول الجنة، فهذا مثل قوله ﷺ: «**أسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل**»(١)، فالشيء الذي يقرب إلى الجنة يسأل بوجه الله، وكذلك يستعاذ به الشيء الذي يحول بينه وبين النار.

ووجه إدخال هذا الباب في كتاب التوحيد: أن الذي يسأل بوجه الله الأمور التافهة يدل على أنه لم يعرف الله المعرفة التي يحصل بها تحقيق التوحيد، ولم يقدره ويعظمه عظمته التي يحصل فيها حب الله واتباع أمره، وتحقيق توحيده كذلك.

أما إثبات الوجه فهو أمر زائد على هذا؛ يعني: إثبات الصفة لأنه قال في المسألة الثانية: فيه إثبات صفة الوجه. وهذا لأن كثيراً من أهل البدع خالفوا هذا الأمر وفسَّروا الوجه بالذات، وقالوا: المقصود بوجهه ذاته، وهذا مخالف للغة ومخالف لمقصود الحديث، فلا يسمى الشيء ذاتاً، يعني ما يقال: وجه الرجل ذاته، أو يده ذاته، أو رجله ذاته، وما أشبه ذلك، فهذا تقوّل على اللغة وتأويل باطل.

وقد جاءت نصوص كثيرة في إثبات الوجه لله جل وعلا، ومن أبلغ الأشياء التي تثبت ذلك، ما ثبت في حديث الرسول ﷺ ودعائه كما قال في الدعاء المشهور: «**وأسألك لذة النظر إلى وجهك**»(٢)، فهل يقال وأسألك لذة النظر إلى ذاتك هذا غير صحيح.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢﴾ [القيامة: ٢٢] من البهاء والحسن والجمال والنعيم ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ [القيامة: ٢٣]؛ يعني: تنظر إليه.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم ٢٥٠٦٣، وابن ماجه رقم ٣٨٤٦ من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه أحمد في المسند رقم ١٨٣٢٥، والنسائي رقم ١٣٠٥ من حديث عمار بن ياسر.

والنظر يكون لوجهه جل وعلا، وليس له، لأنه لا يحاط به جل وعلا.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمٰن: ٢٧]، فهذا نص صريح في إثبات الوجه؛ لأنه جاء وصفه؛ يعني: وصف وجه الرب ﷻ بـ(ذو) لأنه لو كان وصفاً للرب لقيل (ذي)، ولكن لما قال: (ذو) صار وصفاً للوجه، لأن ربك مضاف فلا يصح أن يقال أن (ذو) أنه وصف للرب، فلا بد أن يكون وصفاً للوجه.

فيكون هذا الحديث معناه أنه لا يسأل بوجهه إلا الباقي، الذي هو غاية المطالب أو يستعاذ بوجهه من الشيء الذي يحول بينه وبين هذا العظيم الذي هو الجنة، والذي يسأل بوجه ربه أمور الدنيا، أو يسأل الناس؛ يعني: هذين المعنيين كلاهما منهي عنه، مثل أن يقول: أسألك بوجه الله أن تعطيني كذا أو كذا أو تفعل كذا وكذا.

وقد جاء في الحديث[1] أن الذي يسأل بوجه الله ولا يعطي أنه ملعون ـ نسأل الله العافية ـ.

والمقصود أن كلا المسألتين داخل في هذا؛ يعني: أن يسأل أمراً من أمور الدنيا أو يسأل الناس بوجه الله جل وعلا، والنهي هنا للتحريم وهذا هو المناسب، ويكون قادحاً في التوحيد إذا وقع الإنسان فيه.

۞ قال المؤلف رحمه الله: فيه مسائل:

۞ الأولى: إثبات صفة الوجه.

مقصوده في هذا الرد على منكري صفات الله جل وعلا كالأشاعرة مثلاً الذين يزعمون أنهم هم أهل السُّنَّة، ومن عداهم مشبهة أو ملاحدة، وهكذا أهل البدع شأنهم يعتقدون أنهم هم الذين حازوا الخير فقط وغيرهم ضال

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير رقم ٩٤٣ عن أبي عبيد مولى رفاعة بن رافع: أن رسول الله ﷺ قال: «ملعون من سأل بوجه الله، وملعون من سئل بوجه الله فمنع سائله»، وفي رواية في الدعاء للطبراني رقم ١٩٩٣: «ملعون من سأل بوجه الله ﷻ، وملعون من سئل بوجه الله ﷻ، ثم منع سائله ما لم يسأل هجراً».

هالك، وكل صاحب بدعة يكون هذا نهجه غالباً، وهذا اعتقاده مع أنه يكون هو الضال، وهو الذي ابتعد عن الحق، وهؤلاء على هذا من أثبت صفات الله جل وعلا على ظاهر النص الذي دلت عليه اللغة ودلت عليه النصوص الأخرى والأحوال يجعلونه مشبهاً، والمشبه عندهم كافر، ولهذا أوجبوا التأويل أو التفويض، قالوا أن نصوص الصفات ظاهرها التشبيه فيجب أن تؤول أو تفوض والتفويض معناه الجهل، وأنه لا يعرف لها معنى؛ يعني: أنها مجرد ألفاظ لا معاني لها، وهذا لا يمكن أن يكون، فالتفويض أشر من التأويل.

وعلى كل حال إثبات الصفات لله جل وعلا كما سبق أنه توحيد لا بد منه، ومن لم يفعل ذلك فهو معرض لعقاب الله، ولم يقم بالتوحيد، فتوحيد الله جل وعلا يكون بأفعاله وبأوصافه وبأسمائه، ويكون كذلك في حقه الذي أوجبه على عباده، فإن لم يقم العبد في هذه الأمور فهو إما معرض لعقاب الله، أو أنه لم يأت بما وجب عليه فيستحق النار، ولا بد من التوحيد ولا يمكن دخول الجنة إلا بالتوحيد، والتوحيد هو الذي جاءت به الرسل من أولهم إلى آخرهم، ولكن كثيراً من الناس يجهل التوحيد، فمن جهل التوحيد فإنه لم يقم بما وجب عليه.







الباب السابع والخمسون

❁ قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ: **باب ما جاء في الـ(لو)**.

وأدخل (أل) على لو وهي لا تفيد تعريفاً في هذا، لأن لو من حروف المعاني، والحرف لا تدخل عليه علامات الأسماء.

وقوله: «ما جاء»؛ يعني: ما حكم ذلك، هل هذا من الأمور القادحة في عبادة العبد وتوحيده؟ أو أن هذا يكون من باب التنزيه، وتطهير الكلام والألفاظ أن يكون فيها شيء مما يخالف أمر الله أو أمر رسوله ﷺ وليس من القوادح؟

فالأول هو الصحيح، ولكن هذا ليس على إطلاقه، وإنما المقصود فيمن يقول لو معترضاً على الواقع الذي وقع بأن يعتقد أنه يمكن تغييره، أو لأنه يتوجع من ذلك ويتضجر منه، فيكون عنده شيء من الاعتراض، فهذا يكون قدحاً في التوحيد بل قد يكون ذاهباً بالتوحيد بالكلية، وذلك أن الإيمان بالقدر أحد أركان الإيمان التي لا يمكن أن يقوم إلا بها؛ لأن ركن الشيء إذا سقط سقط لا قوام له مع سقوط ركنه.

والأمور التي تقع لا يشك أنها مقدرة، وأنها لا يمكن تغييرها، فقول الإنسان مثلاً: لو فعلت كذا أو لو صار كذا لكان كذا وكذا، فهذا من الأمور التي تكون مخالفة مخالفة ظاهرة بلا شك، وقادحة في دين الإنسان واستقامته.

ولا يدخل في هذا ما يخبر به الإنسان عن عقيدته في المستقبل في الأمور المستقبلة، أو أنه سوف يفعل كذا وكذا في المستقبل مثل قوله ﷺ: **«لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما سُقت الهدي ولحللت مع الناس حين حلوا»**[1]، فهذا يخبر عن الأمور المستقبلة أن هذا الحكم فيه؛ يعني: إذا أخبر

(١) رواه البخاري رقم ٧٢٢٩، ومسلم رقم ١٢١١ من حديث عائشة.

عن حكم من أحكام الله أو عما سيفعله فيما يستقبل فلا يدخل في هذا، وكذلك قوله ﷺ: «**لو رجمت أحداً بغير بينة لرجمت هذه**»[(١)]. هذا في المرأة التي وقع بينها وبين زوجها الملاعنة لما جاءت في الولد على الوصف المكروه، وغير هذه من الأحاديث التي ذكرها البخاري رحمه الله في صحيحه، كلها من هذا الباب؛ يعني: إخباراً عن الأمور المستقبلة؛ يعني: الأحكام التي يفعلها فيما يستقبل إما أنه سيفعل كذا أو أن الحكم فيها كذا بخلاف ما في هاتين الآيتين وما في الحديث، لأن هذا لشيء وقع لا يمكن تغييره وهم يقولون: «لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا»؛ يعني: أنه ما حصل القتل ولا وقع القتل، وكذلك الآية الأخرى فهم اعتقدوا أنه بإمكانهم تغيير الواقع، تغيير القدر مع ما فيه عما هو ظاهر من الاعتراض على ما قدره الله والسخط، لذلك فإذا قال الإنسان ذلك فهو لا يخلو من هاتين الحالتين: إما أنه يعتقد أنه يمكن تغيير القدر، أو أنه يتسخط الواقع ولا يرضاه.

والتسليم للأقدار أمر لا بد منه، أن يسلم العبد لأقدار الله جل وعلا والرضا بها إذا أمكن، فإذا لم يمكن الرضا فلا بد من التسليم والانقياد وعدم الاعتراض أو التسخط لذلك.

وقد جاء في حديث «**إياك واللَّو**»؛ يعني: في هذا الحديث الذي ذكره في رواية النسائي: «**وإياك واللَّو، فإن لو تفتح عمل الشيطان**»[(٢)]، والظاهر أن هذا من تصرف الرواة وليس من لفظ النبي ﷺ.

وهنا الترجمة جاءت مطلقة لم يذكر الحكم (ما جاء في اللو)، وهذا الغالب إذا كان الحكم فيه تفصيل، أو فيه خلاف فإنه لا ينص على الحكم.

وهذا فيه تفصيل لأنه جاء في أحاديث كثيرة، وكذلك في آيات الله جل وعلا استعمال ذلك، فذكر جل وعلا في قصه لوط قوله: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٖ شَدِيدٖ ۝٨٠﴾ [هود: ٨٠]، وهذا يدل على أن الإنسان إذا

---

(١) رواه البخاري رقم ٥٣١٠ من حديث ابن عباس.

(٢) أخرجه أحمد في المسند رقم ٨٧٩١، والنسائي في الكبرى رقم ١٠٤٥٩.

رأى منكراً لا يستطيع تغييره أنه إذا مثلاً تأسف على ذلك وقال مثل هذا القول أنه لا بأس به.

ولهذا نقول أن النهي الذي جاء يكون عند الأمور المكروهة يعني قول: لو عند وقوع الأمور المكروهة للإنسان فإذا كان في ذلك اعتراض على القدر أو عدم رضا وتوجع لهذا الشيء فإن هذا من المحرمات التي تقدح في التوحيد، وهذا هو المقصود للمؤلف ﷺ، ولهذا ذكر الآيات التي ذكرها المنافقون معترضين بذلك على أن الأمر لو كان على رأيهم أو مشورتهم ما وقع ذلك، وهذا ممتنع لا يمكن؛ لأن الشيء الذي وقع لا يمكن أن يغير بحال من الأحوال، فإنه واقع بإذن الله وأمره الذي هو علام الغيوب، وهو الذي خلق الأشياء كلها وقدرها قبل وجودها، فلا يمكن تغيير الواقع.

أما إذا قال ذلك إما لبيان حكم أو لبيان شيء واقع يخبر عنه، فبيان الحكم مثل قوله ﷺ: «**ولو استقبلت من أمري ما استدبرت لجعلتها عمرة**»[1]، والشيء الواقع مثل ما جاء عن عائشة ﵂ قالت: سألت النبي ﷺ عن الجدر أمن البيت هو؟ قال: «**نعم**»، قلت: فما لهم لم يدخلوه في البيت؟ قال: «**إن قومك قصرت بهم النفقة**»، قلت: فما شأن بابه مرتفعاً؟ قال: «**فعل ذلك قومك ليدخلوا من شاؤوا ويمنعوا من شاؤوا، ولولا أن قومك حديث عهدهم بالجاهلية فأخاف أن تنكر قلوبهم أن أدخل الجدر في البيت وأن ألصق بابه بالأرض**»[2] فقوله: «**لولا**» هذه مثل «لو» هذا بيان شيء واقع.

وقد ذكر البخاري ﷺ أحاديث عدة في صحيحه حيث ترجم بمثل هذه الترجمة قال: «باب قول لو» هذا في كتاب التمني في آخر صحيحه، وذكر تقريباً تسعة أحاديث أو أكثر، وذكر الآية التي في قصة لوط ﵇.

وعلى هذا لا بد من التفصيل، وهذا هو السبب من كونه لم يذكر الحكم

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم ١٢٥٠٢ وهو في الصحيحين.
(٢) رواه البخاري رقم ١٥٨٤، ومسلم رقم ١٣٣٣.

في الترجمة جعله مطلقاً؛ يعني: يجب عليك أن تبحث عن الحكم في هذا وتميز بين الجائز والممنوع، هذا هو مقصوده.

ثم ذكر الآيتين وهما في قصة أُحد، وقصة أُحد كما هو معلوم لما حضر الكفار كان الرسول ﷺ يرى أنهم يبقون في المدينة، فإن جاؤوا إليهم قاتلوهم في السكك وفي السطوح، ولن ينالوا خيراً، فكان الأنصار ولا سيما الشباب الذين عندهم تحمس شباب الأنصار الذين لم يحضروا واقعة بدر ألحوا على رسول الله ﷺ في الخروج قالوا: أخرج بنا إلى عدونا لعلنا ننال الشهادة، والرسول ﷺ سهل ليِّن، فلما ألحوا عليه دخل منزله ليلبس سلاحه فلبس السلاح وتهيأ، فلام بعضهم بعضاً قالوا: أكرهتم رسول الله ﷺ في أمر ليس لكم، فلما خرج، قالوا: يا رسول الله إن رأيت أن نبقى، قال: «**لا ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه**».

فخرج بهم وهم ألف، فلما صاروا في أثناء الطريق انخذل رأس المنافقين بثلاث مائة عبد الله ابن أبي سلول، وقال: علام نقتل أنفسنا، خالف رأينا وكان رأيه موافقاً لرسول الله ﷺ في أن يبقوا في المدينة، وهو رجل مطاع له شعبية عندهم حتى أنه كان قبل أن يأت الرسول ﷺ ينتظر أن يرأسوه عليهم، فلما جاء الرسول ﷺ وكان يرى أن هذا من الأسباب التي منعته من الرئاسة فصار رأس المنافقين ـ نسأل الله العافية ـ فلما رجعوا تبعهم عبد الله بن حرام والد جابر بن عبد الله، صار يلومهم ويحثهم على القتال، فقالوا له: إن أطعتنا اتبعنا لو نعلم قتالاً ما رجعنا، ولكن ليس فيه قتال، وهذا هو شأن المنافقين هكذا يبررون أفعالهم بالشيء الذي يُوهنون به آراء الآخرين.

وذكر ابن إسحاق عن عبد الله بن الزبير عن أبيه قال: حين وقعة أُحد ألقي عليّ النوم فصار سيفي يسقط وآخذه يسقط وآخذه ما ترى رجلاً منا إلا وذقنه في صدره من النوم ـ؛ يعني: أن العدو أمامهم ويلقى عليهم النوم وهذا علامة النصر، وعدم الاكتراث بالعدو والاهتمام به خلاف الذين تهمهم أنفسهم فهؤلاء لا يتقرب إليهم النعاس من الخوف والهلع ـ يقول: بين أنا كذلك إذا سمعت معتب بن قشير يقول: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا.

فحفظتها وهذا واحد من هؤلاء المنافقين، والظاهر أن هذا اعتراض يعني الذين قتلوا ممن قتل، «لو كان لنا» يعني لو أننا وكل إلينا التدبير والتخطيط والقيادة ما وقع هذا الشيء، فهو يقوله من باب التحسر ومن باب أنه يمكن أن هذا لا يقع، بل هذا هو الذي يرى أنه هو الممكن، وهذا كذب، ولهذا قال جل وعلا: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤] فلا بد من الشيء الذي قدره الله من وقوعه والأمور التي يتخذها الناس ما تحول بين هذا وذاك ولا ينفي هذا كون الإنسان يجب عليه أن يفعل الأسباب في الأمور التي فيها احتياط ما يمنع ذلك، ولكن الأسباب من الأقدار فقد تترك الأسباب فيقع، وقد تفعل ويكون هذا من القدر أيضاً أن الله قدر هذا ومن ذلك الدعاء الذي جاء أنه «**لا يرد القضاء إلا الدعاء**»[١]، فالدعاء من المقدر، قدره الله فإذا دعا الإنسان بدعاء فقد قدر الله جل وعلا أن هذا الدعاء يمنع وقوع الشيء الذي قد يقع، وإذا لم يدعو فسيقع.

وكذلك صلة الرحم الذي جاء أنها تزيد في العمر يدخل في هذا لأن صلة الرحم معناها أنها مقدرة وعلم الله جل وعلا ما سيفعل هذا الإنسان قبل خروجه من بطن أمه كما في حديث ابن مسعود الذي هو أصل كبير من أصول الدين الإسلامي فيه أنه إذا مضى عليه الوقت المحدد يرسل إليه ملك فينفخ فيه الروح وهو في بطن أمه ويكتب أربعة أشياء يكتب أجله، وعمله، ورزقه، وهل هو شقي أم سعيد[٢]، وهو في بطن أمه وليس هذا معناه أنه ينافي العمل، يعني هذه الأشياء التي كتبت سوف تظهر آثارها من أعمالهم يعملون بها باختيارهم وبقدرتهم لا أحد يجبرهم على هذا فهو علم الله الذي علم في هذا المخلوق أنه سيفعل كذا وكذا سبق وجوده فأمر الله جل وعلا بكتابته فالمكتوب علم الله وليس شيء يرغم الإنسان كما يتصور الجاهل ويقول: أنا ما دام أنه مكتوب عليّ فما الحيلة، نقول: الحيلة أنك لا تدري ماذا كتب عليك، الذي كتب عليك العلم فيك. ولهذا الصحابة صار هذا يحثهم على

---

(١) رواه الترمذي رقم ٢١٣٩ من حديث سلمان ﷺ.

(٢) رواه البخاري رقم ٣٢٠٨، ومسلم رقم ٢٦٤٣.

الاجتهاد، وهذا هو الواقع إذا فهم العبد، فإن هذا يحثه على الاجتهاد.

وقد اختلف في قوله جل وعلا: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [الرعد: ٣٩] ما هو الممحو، رجح صاحب شرح الطحاوية ابن أبي العز على أن الممحو في الأمور التي تنسخ في الشرائع ليس هذا من الأمور المقدرة(١).

وبعض المفسرين يقول: الذي يمحى الشيء الذي لا عقاب عليه ولا ثواب، مثل قولك: أعطني الكتاب، أعطني القلم وما أشبه ذلك، يقول أن الملائكة تكتب كل ما يتلفظ به الإنسان، فإذا كان في المساء محوا الذي لا ثواب عليه ولا عقاب فيه مثل هذه الأشياء فهذا هو الذي يمحى، أما ما فيه ثوب وعقاب فهو يثبت.

أما قوله جل وعلا: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر: ١١]، يقول العلماء هذا ليس من عمر المعمر يعني هذا المنقوص، وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمر معمر آخر. فقوله: ﴿وَلَا يُنقَصُ﴾ هذا رجل آخر، فهذا يقولون مثل قولك: معي دينار ونصفه، فالنصف ليس هو نصف الدينار الذي معك هذا نصف دينار آخر، قالوا: وهذا مثله، فلا يعترض على هذا. فالواقع أن الأمور المقدرة أنها لا بد من وقوعها، فعلى هذا يجب على العبد إذا وقع شيء أن يستسلم لربه جل وعلا، ويلجأ إليه ويرضى به رباً، وهو عبد يتصرف الله جل وعلا فيه كيف شاء، سواءً سلَّم ورضي أو جزع

---

(١) شرح الطحاوية في العقيدة السلفية ١/ ٢٥٠، قال ﷺ: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ [الرعد: ٣٩] أي: من ذلك الكتاب، ﴿وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩] أي: أصله، وهو اللوح المحفوظ. وقيل: يمحو الله ما يشاء من الشرائع وينسخه ويثبت ما يشاء فلا ينسخه، والسياق أدل على هذا الوجه من الوجه الأول، وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨]، فأخبر تعالى أن الرسول لا يأتي بالآيات من قبل نفسه، بل من عند الله، ثم قال: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾، ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ [الرعد: ٣٩] أي: إن الشرائع لها أجل وغاية تنتهي إليها، ثم تنسخ بالشريعة الأخرى، فينسخ الله ما يشاء من الشرائع عند انقضاء الأجل، ويثبت ما يشاء. وفي الآية أقوال أخرى، والله أعلم بالصواب.

وسخط، فإن سلَّم ورضي صار له الجزاء وله الرضا، وإن سخط فعليه السخط، وأمر الله جار ولا بد في خلقه، هذا هو خلاصة ما في هذا الباب.

۞ قال المؤلف رحمه الله: **وقول الله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾** [آل عمران: ١٥٤] **الآية.**

هذا جزء من الآية أولها: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾.

وقوله: «﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾»: الظن غير الحق الذي هو ظن الجاهلية فسر بشيئين كما سيأتي:

فسر بأن الله لا ينصر دينه ويعز نبيه ويظهره، وأن هذه الواقعة هي الفيصل وأنها سوف تقضي على المسلمين، ظنوا هذا كما ظن غيرهم في أماكن أخرى.

وفسر بأن هذه الأمور لم تقع بعلم الله الأزلي المكتوب الذي لا يمكن أن يتغير أو يتبدل. والواقع أنه يشمل هذا وهذا.

قوله: «﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾» إلى آخر الآية.

فهي ظاهرة أن هؤلاء قالوا هذه المقولة أمران:

أحدهما: أنهم يظنون أنه يمكن تغيير هذا الواقع.

الثاني: يدل على أنهم سخطوا هذا الواقع، وحزنوا على ذلك، ولهذا ذمهم الله جل وعلا وأخبر أنهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية.

۞ قال المؤلف رحمه الله: **وقوله ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ۗ قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾** [آل عمران: ١٦٨].

هذا في قصة عبد الله بن حرام والد جابر حينما قال لهم: لا تخذلونا اتقوا الله وقاتلوا، فقالوا: لو نعلم قتالاً لقاتلنا.

الاجتهاد، وهذا هو الواقع إذا فهم العبد، فإن هذا يحثه على الاجتهاد.

وقد اختلف في قوله جل وعلا: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [الرعد: ٣٩] ما هو الممحو، رجح صاحب شرح الطحاوية ابن أبي العز على أن الممحو في الأمور التي تنسخ في الشرائع ليس هذا من الأمور المقدرة[1].

وبعض المفسرين يقول: الذي يمحى الشيء الذي لا عقاب عليه ولا ثواب، مثل قولك: أعطني الكتاب، أعطني القلم وما أشبه ذلك، يقول أن الملائكة تكتب كل ما يتلفظ به الإنسان، فإذا كان في المساء محوا الذي لا ثواب عليه ولا عقاب فيه مثل هذه الأشياء فهذا هو الذي يمحى، أما ما فيه ثوب وعقاب فهو يثبت.

أما قوله جل وعلا: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر: ١١]، يقول العلماء هذا ليس من عمر المعمر يعني هذا المنقوص، وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمر معمر آخر. فقوله: ﴿وَلَا يُنقَصُ﴾ هذا رجل آخر، فهذا يقولون مثل قولك: معي دينار ونصفه، فالنصف ليس هو نصف الدينار الذي معك هذا نصف دينار آخر، قالوا: وهذا مثله، فلا يعترض على هذا. فالواقع أن الأمور المقدرة أنها لا بد من وقوعها، فعلى هذا يجب على العبد إذا وقع شيء أن يستسلم لربه جل وعلا، ويلجأ إليه ويرضى به رباً، وهو عبد يتصرف الله جل وعلا فيه كيف شاء، سواءٌ سلَّم ورضي أو جزع

---

(١) شرح الطحاوية في العقيدة السلفية ١/ ٢٥٠، قال رحمه الله: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ [الرعد: ٣٩] أي: من ذلك الكتاب، ﴿وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩] أي: أصله، وهو اللوح المحفوظ. وقيل: يمحو الله ما يشاء من الشرائع وينسخه ويثبت ما يشاء فلا ينسخه، والسياق أدل على هذا الوجه من الوجه الأول، وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨]، فأخبر تعالى أن الرسول لا يأتي بالآيات من قبل نفسه، بل من عند الله، ثم قال: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾، ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ [الرعد: ٣٩] أي: إن الشرائع لها أجل وغاية تنتهي إليها، ثم تنسخ بالشريعة الأخرى، فينسخ الله ما يشاء من الشرائع عند انقضاء الأجل، ويثبت ما يشاء. وفي الآية أقوال أخرى، والله أعلم بالصواب.

وسخط، فإن سلَّم ورضي صار له الجزاء وله الرضا، وإن سخط فعليه السخط، وأمر الله جار ولا بد في خلقه، هذا هو خلاصة ما في هذا الباب.

❁ **قال المؤلف** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **وقول الله تعالى:** ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ [آل عمران: ١٥٤] **الآية.**

هذا جزء من الآية أولها: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾.

وقوله: «﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾»: الظن غير الحق الذي هو ظن الجاهلية فسر بشيئين كما سيأتي:

فسر بأن الله لا ينصر دينه ويعز نبيه ويظهره، وأن هذه الواقعة هي الفيصل وأنها سوف تقضي على المسلمين، ظنوا هذا كما ظن غيرهم في أماكن أخرى.

وفسر بأن هذه الأمور لم تقع بعلم الله الأزلي المكتوب الذي لا يمكن أن يتغير أو يتبدل. والواقع أنه يشمل هذا وهذا.

قوله: «﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾» إلى آخر الآية.

فهي ظاهرة أن هؤلاء قالوا هذه المقولة أمران:

أحدهما: أنهم يظنون أنه يمكن تغيير هذا الواقع.

الثاني: يدل على أنهم سخطوا هذا الواقع، وحزنوا على ذلك، ولهذا ذمهم الله جل وعلا وأخبر أنهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية.

❁ **قال المؤلف** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **وقوله** ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ [آل عمران: ١٦٨].

هذا في قصة عبد الله بن حرام والد جابر حينما قال لهم: لا تخذلونا اتقوا الله وقاتلوا، فقالوا: لو نعلم قتالاً لقاتلنا.

قوله: «﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ﴾»: إما أن يكونوا إخوانهم في النسب أو كون الأمر في ظاهره فقط، إخوانهم كونهم معهم فقط، وإلا ليسوا إخواناً لهم في الدين لأنهم منافقون.

وربما يكون مع هؤلاء الذين رجعوا من لُبس عليه، وغلب عليه التقليد وتعظيم الكبراء وذوي الأمر.

وقوله: «﴿وَقَعَدُواْ﴾»: يعني وقعدوا عن الجهاد وعن مناصرة الرسول ﷺ.

قوله: «﴿لَوۡ أَطَاعُونَا﴾»؛ يعني: هؤلاء الذين قتلوا، لو أطاعونا ورجعوا ما قتلوا، هذا في نفس المعنى السابق يعني أنه يمكن أن يتغير الواقع، لو أنهم اتبعونا ما حدث لهم قتل، ولهذا رد الله جل وعلا عليهم بقوله: ﴿قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ﴾ [آل عمران: ١٥٤]؛ يعني: إلى الأماكن التي قتلوا فيها لأنه شيء محدد مقدر لا بد منه، فالمكان الذي يموت فيه العبد أو يقتل فيه لا يمكن أن يتغير، وكذلك الساعات والصفات والأنواع التي تقع، فمثلاً إذا اعتقد الإنسان أنه يمكن تغييره فمعنى ذلك أنه لم يؤمن بقدر الله جل وعلا، وكذلك هو اعترض على أمر الله ولم يسلم له، هذا في الأمور التي وقعت.

أما الأمور المستقبلة فالعبد عليه أن يجتهد وأن يحرص كل الحرص على الأمر النافع وأن يستعد، ولهذا يقول جل وعلا: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ﴾ [الأنفال: ٦٠]، والقوة كما قال عليه الصلاة والسلام: «**ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي، ألا أن القوة الرمي**»[١]، وليست القوة بالنبال فقط، الرمي بكل شيء مثل: الصواريخ والقنابل مطلقاً. وإذا ترك المسلمون هذه القوه فقد خالفوا أمر الله وإذا خالفوه يجوز أن ينتصر عليهم الأعداء ولا يجوز للمسلمين أن يستمدوا ما بأيديهم من أسلحة وقوات من أعدائهم هذا حرام، إذا وقع ذلك فهم واقعون في المخالفات بل واقعون في المعصية التي تقتضي عدم نصرهم لأنهم خالفوا

(١) رواه مسلم رقم ١٩١٧ من حديث عقبة بن عامر.

أمر الله جل وعلا فإذا تبين لهم ذلك يجب أن يتلافوه، ولا يمكن أن تستقيم أحوالهم إلا باتباع أمر الله وطاعته في هذا وفي غيره.

فعلى هذا نقول أن قوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ﴾ [آل عمران: ١٦٨] معروف أن القول هنا صدر من القاعد وليس من الخارج المجاهد، فمن هو القاعد؟ هم المنافقون، فإذاً ما وجه تسميتهم إخواناً للمجاهدين المدافعين عن دين الله ورسوله ﷺ؟

وجه التسمية أمرين:

أحدهما: إما أن يقصد بالأخوة إخوان النسب؛ لأنه وجد من هو في أول المؤمنين ومن أقواهم، وأخوه منافق.

ثانياً: أن يكون المقصود كونهم معهم في المكان، وفي البلد فليست أخوة الدين لا يجوز أن يكون المنافق أخو للمؤمن، كما أنه لا يجوز أن يكون الكافر أخاً للمؤمن، وسوف يأتي أن الرسول ﷺ: «**نهى أن يقال للمنافق سيد لأنه إن كان سيداً فقد أغضبتم ربكم**»[1]، والسيد هو المقدم، الذي ينظر إلى قوله وفعله ويقتدى به.

ولهذا قال: ﴿وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا﴾ [آل عمران: ١٦٨] يعني الذين خرجوا للقتال وقتلوا فهذا فيه الأمران: فيه أنهم يرون أنه يمكن تغيير الذي وقع، وكذلك في ضمنه أن هذا مسخوط ومكروه لهم، فهذا يدل على ما عندهم من التضجر والتأسف والحزن والتسخط فهذا من قوادح التوحيد، بل من مذهباته التي تذهب به ويصبح الإنسان خارج من الدين لأنه ترك ركناً من أركان الإيمان، والإيمان لا بد أن يقوم على أركان.

۞ قال المؤلف رحمه الله: **و«في الصحيح» عن أبي هريرة** رضي الله عنه **قال: قال رسول الله** ﷺ: **«احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان»**[2].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه مسلم رقم ٢٦٦٤.

قوله: و«**في الصحيح**»: يعني في صحيح مسلم. والمؤلف رحمه الله اختصر الحديث لأن أول الحديث قوله ﷺ: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير، احرص على ما ينفعك ولا تعجزن**، وفي رواية: **ولا تعجز**، **وإن أصابك شيء** «يعني مما تكره» **فلا تقل: لو أني فعلت لكان كذا وكذا، ولكن قل: قَدَّرَ الله وما شاء فعل** ـ أو تقول: قدر الله: يعني هذا قدر الله، وما شاء فعل ـ **فإن لو تفتح عمل الشيطان**»، يقول ابن القيم رحمه الله: فلهذا كان هذا الحديث مما لا يستغني عنه العبد، بل هو أشد شيء إليه ضرورة وهو يتضمن إثبات القدر والكسب والاختيار والقيام بالعبودية ظاهراً وباطناً في حالتي حصول المطلوب وعدمه، وبالله التوفيق[1].

وفيه قوله: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف».

الظاهر أن المقصود القوي في أمر الله، كما قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾﴾ [ص: ٤٥]، والأيدي معناها القوة في أمر الله، القوة في فعل أمر الله، والانكفاف عما نهى، وكذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك، وإن كانت القوة في البدن نعمة من الله، ولكنها ليست هي المقصود.

وقوله: «خير وأحب»؛ يعني: أكثر خير وأكثر اكتساباً، وكذلك في الآخرة أرفع درجة.

قوله: «وأحب إلى الله»؛ يعني: أكثر حباً إلى الله من الآخر، فهذا فيه دليل واضح على تفاوت الحب تفاوت حب الله جل وعلا بين المؤمنين، بعضهم يحبه أكثر من بعض.

كما أن فيه إثبات الحب لله جل وعلا وأنه يحب بعض عباده كما أنه يبغض بعض عباده ويكرههم ويسخطهم، كما أنه يرحم ويلعن، هذا يرحمه وهذا يلعنه، وهذا مثل ما مضى في صفة الوجه، يجب أن تثبت لله على ما جاءت من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تأويل ولا تشبيه أو تمثيل كما

---

(١) شفاء العليل ١/١٩.

يقوله أهل الباطل، بل تثبت على ما يليق بالله جل وعلا مع العلم بعدم المشابهة والمماثلة لخلقه في ذلك وفي غيره، يعني على ما يليق بعظمته تعالى وتقدس؛ لأنه كما هو معلوم ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ومن العجائب أن جميع أهل البدع الذين ابتدعوا في هذا يتفقون مع أهل السُّنَّة في أن الله في ذاته لا مثيل له، فهذا أمر متفق عليه لا يخالف فيه أحد، فإذا كان هذا فيجب أن تكون الصفات كذلك، ما دام أنه في ذاته لا شبيه له ولا مثيل له، كذلك صفاته لا مثيل لها ولا شبيه لها؛ لأن الصفة تتبع الموصوف.

والذين يثبتون صفة المحبة هم الذين يتبعون نصوص الكتاب والسُّنَّة فهم الذين يؤمنون بأن الله يحب عباده.

والذي منع القول بأن الله يحب من هؤلاء الذين يقولون بأن الله لا يحب أمور قدروها بأنفسهم، قالوا: إن الحب لا يكون إلا بين متناسبين كالمخلوقين مثلاً.

وهو أيضاً الميل إلى ما ينفع ويلائم، أن تميل إلى شيء يلائمك، ويقولون: نحن ننزه الله من هذين الأمرين، لأن هذا نقص، هكذا يقولون.

والرد على هؤلاء نقول: إن هذا الذي تقولونه هو حب المخلوق هو الذي يميل إلى ما يلائمه، أما الله جل وعلا فحبه على خلاف ذلك لأنه جل وعلا: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ فهم حصل عندهم التشبيه أولاً ثم جاء التعطيل ثانياً. وهم وإن كانوا يقولون: إننا نفر من التشبيه لكنه شيء وقع في أذهانهم وقع في نفوسهم هذا الشيء ولم يتكلموا به فتفوا الصفات على أساس هذا الذي وقع في نفوسهم؛ لأنهم لم يعرفوا من صفات الله إلا ما عرفوه من أنفسهم.

والعجيب أنهم ينفون الحب من الجانبين، حتى حب العبد، بعضهم ينفيه ويقول: إن العبد لا يحب الله. فهو ليس يناسبه، وإنما يحب الذي يناسبه. فهل يكون هذا مؤمن؟ لأن الإيمان هو التأله، والتأله هو: حب القلب الذي فيه الذل والخضوع والتعظيم. فلا يمكن أن يكون مؤمناً إلا بهذا، ولهذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: هؤلاء أهل الكلام لا ينفكون عن الشرك. فإذا كانوا لا ينفكون عن الشرك فأمرهم عظيم.

والمقصود أن قوله: «خير وأحب إلى الله وفي كل خير»، فيه التفاوت بين الخيرين، يعني أن هذا يدل على تفاوت الحب، محبة الله جل وعلا بين عباده وكل من كان أعلم بالله ولأمره أقوم به وعن نهيه أبعد فهو أحب إلى الله، فمن لم يكن كذلك أو كان دونه في هذا الأمر فهو دونه في محبة الله تعالى.

وهذا كله أيضاً يتبع العلم بصفات الله جل وعلا؛ لأن الله قال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]، ولهذا يقول الصحابة: كل من عصى الله فهو جاهل، كما أنهم قالوا أيضاً: كل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب.

وفيه أن الله يحب مقتضى أسمائه وصفاته فهو قوي يحب القوي، وكذلك هو مؤمن يحب المؤمن، وجميل يحب الجمال، وهكذا بما يتفق مع صفاته فهو يحب من اتصف بذلك، وليس من هذا الحديث الذي يذكره الفلاسفة: «تشبهوا بالله فإن الله يحب من تشبه بصفاته» هذا ليس حديثاً، ولا أصل له.

ثم حرَّض ﷺ على الشيء النافع فقال: **«احرص على ما ينفعك»**.

والحرص هو: بذل الجهد والوسع والطاقة في تحصيل المطلوب، سواءً ما ينفع أو ما يضر تحصيل الأمر الذي تريده، فإذا كان الحرص على أمر نافع فهذا من عنوان السعادة، أما إذا كان الإنسان يسعى في أمر نافع ولكنه ما عنده حرص فلا بد أن يفوته ما يفوته.

وإذا كان الحرص على أمر تافه من أمور الدنيا فهذا أيضاً يفوته الخير، ولهذا قال: **«احرص على ما ينفعك»**، وهذا يدخل فيه أمر الدنيا والآخرة، ولكن أمر الدنيا يجب أن يكون تبعاً للآخرة؛ لأن الحرص على أمر الدنيا يضر بالآخرة ولا بد، والحرص على ما ينفع هو الحرص على العمل الصالح وطاعة الله واتباع أمره واقتفاء أمر الرسول ﷺ، وكذلك اجتناب المناهي.

وقوله: «واستعن بالله»: يعني أن قوة الإنسان وفكره وعلمه ونظره لا يكفي إن لم يعنه الله جل وعلا على تحصيل المطلوب، فلا بد من الاستعانة بالله على تحصيل المقصود وإلا فإذا لم يعن الله جل وعلا عبده فهو فاشل ولا

يمكن أن يتحصل على مراده إلا بعون الله، وبهذا تجد كل الذين يسعون يستعينون بالله حتى السراق الذين يسرقون الأموال وينهبون لا بد أن يستعينوا بالله على أفعالهم وإن كانت محرمة، فكيف بالمؤمن التقي.

ولهذا حصر الخير كله والعبادة كلها في قوله جل وعلا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ [الفاتحة]، فحرص بلا استعانة لا ينفع، فإذا لم يعبد الإنسان ربه ويستعين على عبادته فهو من الخاسرين المعذبين.

فقوله: «واستعن بالله»؛ يعني: لتكن استعانتك واعتمادك بعد تحصيل الأسباب وفعلها على الله وحده، وهذا يعتمد عليه القلب، يعتمد على ربه جل وعلا وإذا اعتمد القلب على شيء فالبدن تبعاً له، تجده قوياً وماضي في الشيء ومحصلاً له بإذن الله جل وعلا بخلاف إذا كانت الاستعانة ضعيفة فإنه يضعف تبعاً لذلك وإن كانت الأسباب حاصلة.

وقوله: «ولا تعجزن»: والعجز ضد الحرص. العجز هو: عدم تحصيل المراد إما لكسل أو لأن الرغبة ضعيفة وليس عنده دافع قوي ولا عنده ما يحمله على هذا من الإيمان بالله جل وعلا والرغبة في ما عنده، فإذا كان بهذه الصفة فلا بد أن يعجز، فالعجز معناه ترك شيء يستطيع أن يفعله، هذا هو خلاصته، فهو يترك الشيء أو سبب الشيء الذي بإمكانه تحصيله وليس العجز معناه أنه لا استطاعة له بذلك، فهذا لا ينهى عنه لأن الله جل وعلا لا يكلف نفساً إلا وسعها، ولكن الشيء الذي يستطيعه هو الذي ينهى أن يعجز عنه.

ثم إذا حصل مثلاً الحرص على النافع، وانتفى العجز والكسل والخمول، لا يلزم أن يحصل المراد، والله علام الغيوب لأنه قد يكون في تفويته عليه خير له كثير.

فإذا فاته ذلك لا يجوز له أن يأسف ويتضجَّر ويحزن، بل يجب أن يرض ويسلِّم لربه جل وعلا، ويقول مثل ما أرشد إليه الرسول ﷺ: **«هذا قدر الله»**؛ يعني: هكذا قدر الله لا يمكن تغييره.

فإذا ترك الإنسان الأمر الذي يقدر عليه فهو عجز والله يلوم على هذا، الذي بإمكان الإنسان أن يفعله، كما جاء أن رسول الله ﷺ قضى بين رجلين

فقال المقضي عليه لما أدبر: حسبي الله ونعم الوكيل، فقال رسول الله ﷺ: «ردوا عليَّ الرجل»، فقال: ما قلت؟ قال: قلت: حسبي الله ونعم الوكيل، فقال رسول الله ﷺ: «**إن الله يلوم على العجز ولكن عليك بالكيس، فإذا غلبك أمر فقل: حسبي الله ونعم الوكيل**»[1]؛ يعني: حصل حقك في الأمور التي شرعت لك، أما إذا تركت الأمر وقلت: حسبنا الله فهذا لا يجوز.

وقد مدح الله الذين ينتصرون إذا ظلموا. إذا وجدت هذه الثلاثة الأمور فهذا عنوان سعادة الإنسان، الأول: الحرص على العمل. الثانية: أن يكون هذا العمل نافعاً. الثالثة: الاستعانة بالله جل وعلا. فإذا وجدت هذه الأمور الثلاثة فهي دليل على توفيق الله للعبد. والرسول ﷺ استعاذ من الكسل.

وقوله: «وإن أصابك شيء»؛ يعني: إذا حرصت على النافع واستعنت بالله وتجنبت العجز، فإذا وقع الشيء الذي لا تريده ولا ترغب فيه فلك حالتان:

إما أن يلوم الإنسان نفسه، ويتأسف على ما فاته، أو أنه يلجأ إلى ربه ويؤمن بأقداره ويصبر، وهذا هو الذي طلب منه، ولهذا قال: «**وإن أصابك شيء**»؛ يعني: على خلاف ما تريد أمر مكروه «**فلا تقل: لو أني فعلت لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل**»؛ يعني: قدر الله هذا الشيء فهذا أمر لا بد منه وأنا مؤمن به ومسلم لذلك وراض به لأنه تقدير ربي، وقد آمنت بقدره ولا اعتراض عندي على ذلك، بل أصبر على أمر الله وأرجو بذلك ثوابه، فقد وعد الله الصابرين أن يوفيهم أجرهم بغير حساب.

ولا بد من الصبر؛ لأنه لا يمكن في هذه الدنيا أن تأتي الأمور كلها على المراد، هذا ممتنع في هذه الدنيا لا بد فيه من المكدرات والمصائب ولا بد فيها من الأمور التي تكون على خلاف ما يريده الإنسان، وسبيله في هذا الصبر والتسليم بقدر الله جل وعلا والرضا بذلك، فيكون بذلك في عيشة راضية وفي خير كثير.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم ٢٣٩٨٣، وأبو داود رقم ٣٦٢٧ من حديث مالك بن عوف.

بخلاف المتأسف والمتحزن فإنه لا يزيده ذلك إلا سوءاً ويذهب أجره ويبوء بسخط الله جل وعلا، ولهذا مر معنا الحديث السابق: «**عظم الجزاء مع عظم البلاء. وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط**»[١]. وفي الحديث: «**من يرد الله به خيراً يصب منه**»[٢]، وهذا أمر معلوم في شرع الله وسُنَّة رسوله ﷺ، فلا بد للإنسان أن يعلم هذا الشيء ويجعله دائماً عدته لأنه لا يخلو وقته دائماً من المكدرات.

وقوله: «لا تقل: لو أني فعلت لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان»: عمل الشيطان كله شر، وكله يريد به إحزان الإنسان وهلاكه، فإذا كانت هذه الكلمة تفتح عمل الشيطان، فإذا فتح الشيء دخل فيه، فيجب أن يكون بينه وبينه باب مغلق، ومعنى ذلك أنه يجتنب هذه الكلمة أصلاً، لا يقولها.

ومن الظاهر أن من عمل الشيطان التأسف والحزن ولوم القدر وما أشبه ذلك من الأمور التي فيها الاعتراض، وفيها ضعف النفس.

وهذا الحديث والأحاديث التي ذُكر بعضها قد أشكلت على بعض العلماء، فالقاضي عياض يقول: أرى أن هذا من باب التنزه وأن النهي للتنزيه. وقال: يدل على هذا قوله: «**فإن لو تفتح عمل الشيطان**».

وقد اعترض عليه النووي رحمه الله وقال: هذا غير صحيح، بل هذه أمور محرمة لأنها توقع في المحرمات[٣]، ولكن يجب أن يفرق بين الجائز وبين الممنوع، فمثل الذي يقوله إخباراً عن الواقع وبيان للحكم، وليس فيه اعتراض على قدر قدره الله ولا تأسف ولا تحزن ولا تسخط لما يصيبه فلا بأس بذلك.

أما أن يقول ذلك من أجل أنه يعتقد أنه يمكن أن يتغير الواقع أو أنه يكون بذلك متأسفاً وعنده من الحزن والتضجر ما يكون من عمل الشيطان، فهذا يكون من المحرمات وهذا هو الصحيح، وهذا القول يكون عند الأمور المكروهة.

---

(١) رواه الترمذي رقم ٢٣٩٦، وابن ماجه رقم ٤٠٣١ من حديث أنس بن مالك.
(٢) رواه البخاري رقم ٥٦٤٥ من حديث أبي هريرة.
(٣) شرح النووي على مسلم ١٦/ ٢١٥.

وقد جاءت لو في الكلام كثيراً، فيجب أن يكون الإنسان منزلاً ذلك على هذين الأمرين.

۞ قال المؤلف ﷺ: فيه مسائل:

۞ الأولى: تفسير الآيتين في آل عمران.

المقصود بتفسير الآيتين أن نعرف هذا الحكم الذي ترجم عليه في قوله: باب ما جاء في اللو، وأن معنى الآيتين أنه محرم وأنه قد يدخل الإنسان في النفاق، وعبَّر عن هذا بالتفسير، يعني أنه جزئية من التفسير، والتفسير مأخوذ من الفسر وهو البيان والإيضاح؛ يعني: أن الآية واضحة في هذا الأمر.

۞ الثانية: النهي الصريح عن قول: «لو» إذا أصابك شيء.

والنهي الصريح ومعنى الصريح أنه لا يحتمل إلا معنًى واحداً فقط، والنهي يأخذ من الحديث من قوله: **«فلا تقل: لو»**.

۞ الثالثة: الإرشاد إلى الكلام الحسن.

«قدر الله وما شاء فعل» على الإضافة، يعني هذا قدر الله الذي وقع، أما إذا شددت **«قدَّر الله»** يكون الله فاعل يعني أن هذا تقدير الله، والمعنى واحد.

۞ الرابعة: الأمر بالحرص على ما ينفع مع الاستعانة بالله.

الإنسان حريص على أشياء كثيرة، لكن قد يكون الحرص لا ينفع، يفنى العمر في أشياء غيرها أنفع منها، فكون الإنسان يختار النافع، ويحرص عليه عنوان السعادة ثم لا يكفي هذا لا بد من الاستعانة بالله جل وعلا، ومن لم يعنه الله فلا يمكن أن يتحصل على مقصوده، فالاستعانة بالله عبادة مأمور بها، ومن استعان بالله أعانه الله.

۞ الخامسة: النهي عن ضد ذلك وهو العجز.

يعني: ضد الحرص على النافع وهو العجز، فإن عجز فهو ملوم على ذلك ومعاقب عليه.





الباب الثامن والخمسون

۞ قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ: باب النهي عن سب الريح.

النهي في هذا للتحريم ومرتكبه آثماً، ومعنى ذلك أن المنهيات التي جاء النص عليها في كتاب الله أو في سُنَّة رسوله ﷺ إذا ارتكبت كانت قوادح في التوحيد ومنقصات له وهي تختلف باختلاف درجة التحريم.

والسب كأن يلعن ويشتم يقول: هذه ريح شر وما أشبه ذلك؛ لأنها مطيعة لله جل وعلا مأمورة وليس لها تصرف بنفسها.

ومثل ذلك كل مخلوق خلقه الله جل وعلا لا اختيار له، أما إذا كان له اختيار وفعل المكروه عن اختياره، فهذا يتوجه إليه اللوم على ذلك، ولكن يجب أن يكون على وفق الشرع، فهذا النهي عام ليس في الريح فقط، وذكر الريح مثال.

فلو أن إنساناً واجه آخر مثله، وصار بينهما خلاف فقال له على وجه السب: أنت أسود أو أنت وجهك كذا وما أشبه ذلك، فهذا وقع في المحرم لأنه في الواقع اعترض على ربه جل وعلا، وهذا الذي وجه إليه الكلام لا تصرف له في ذلك وليس ذلك عن اختياره.

فالمقصود أن سب الريح، وسب غيرها مما هو مأمور ومخلوق ومسخر كله يدخل في هذا النهي.

والريح مفرد رياح وهي من آيات الله التي تدل على وحدانيته في التصرف، وكذلك تدل على وجوب عبادته.

والريح جعلها الله رحمة، وجعلها عذاباً، فقد عذب وأهلك بها عاد سخرها عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوماً، فصارت تنزع الرجل ثم تنكسه على رأسه حتى ماتوا عن آخرهم، وكذلك يرسلها على من يشاء عذاباً.

وكذلك هي من الرحمة، يجعلها الله جل وعلا سبباً للخير والرحمة، وقد امتن على عباده في كونه يسخر لهم الريح في البحار فتحمل لهم السفن لما كانت السفن تجري على الريح فقط.

وكلا الأمرين يحمد الرب جل وعلا عليهما لأنه يضع الأمور في مواضعها، فيجب على العبد أن يرضى بذلك ويسلم ويشكر لله نعمه.

۞ قال المؤلف رحمه الله: عن أبي بن كعب أن رسول الله ﷺ قال: «لا تسبوا الريح فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا: اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح، وخير ما فيها، وخير ما أمرت به، ونعوذ بك من شر هذه الريح، وشر ما فيها، وشر ما أمرت به» صححه الترمذي[1].

وقد أرشدنا النبي ﷺ في هذا الحديث إلى ما فيه مصلحتنا، وكذلك ما فيه رضا ربنا جل وعلا فقال:

«لا تسبوا الريح»؛ لأنها مأمورة بأمر الله ومطيعة.

قوله: «فإذا رأيتم ما تكرهون منها»: يعني رأيتم الشيء الذي تكرهونه منها يعني إما أن تكون شديدة أو باردة أو فيها غبار أو ما أشبه ذلك من الأمور التي يكرهها الناس، فهنا تلجئون إلى من أمرها وتسألونه.

قوله: «اللهم أنا نسألك من خير هذه الريح»: لأنها مدبرة بأمر الله جل وعلا ومطيعة له، وهو المالك لها، وهو الذي يلجأ إليه عند كل شدة، وهي ليس لها تدبير من نفسها.

«وخير ما فيها، وخير ما أمرت به، ونعوذ بك من شر هذه الريح، وشر ما فيها، وشر ما أمرت به»، وفي رواية: **«وخير ما أرسلت به»**[2]، وهو نفس المعنى.

فهي مأمورة مسخرة، وإذا لجأ الإنسان إلى من بعثها وسخرها فإن هذا هو النافع وهو العبادة، ولا يكون ذلك إلا من المؤمنين الذين يعرفون الأحوال

---

(١) أخرجه الترمذي رقم ٢٢٥٢، وأحمد في المسند رقم ٢١١٣٨ وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه أحمد في المسند رقم ٢١١٣٩.

والأمور التي تجري في الكون كله أنها كلها من تدبير العزيز العليم جل وعلا.

فالريح مدبرة مسخرة لله جل وعلا مطيعة وهي جند من جنود الله، والذي يسب مثلاً الريح أو يسب غيرها مما هو مدبر مسخر بأمر الله لا يكون هذا محلاً للسب فيعود سبه إليه؛ لأن من لعن شيئاً وهو لا يستحقه عادت اللعنة إليه.

وفي هذا أن العبد إذا رأى الريح ورأى فيها ما يكره أنه يجب عليه أن يتوب ويلجأ إلى الله، وذلك أنه لا يأتيه السوء إلا من ذنبه، والعلاج في هذا هو التوبة واللجوء إلى الله واستعتابه وأن يعفو عنه، فإذا فعل ذلك، فربما استجاب الله له وصرف عنه المكروه أو يجعل المكروه محبوباً، وهذا من التوحيد؛ يعني: كونه يلجأ إلى الله ويدعوه عند الأمور المكروهة يعلم أنه هو وحده المتفرد بالتدبير والتصريف لما في السماء وما في الأرض، وهو الذي بيده ملكوت كل شيء، فإذا لجأ إليه وسأله الخير فإنه يكون موحداً عابداً، وهذا في ضمنه توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، وهذا هو العلاج الناجع الذي أرشد إليه الرسول ﷺ، لا كما يفعله الجهال حيث يوجهون السب إلى المخلوقات المسخرة المدبرة التي لا تملك لنفسها شيئاً فضلاً عن غيرها، وإنما هي مطيعة لله جل وعلا.

وهذا معناه إذا صنع هذا الشيء فإنه إما أن يكون جاهلاً ولم يعرف الله جل وعلا، أو أنه يكون يتعلق بالمخلوقات ويعبد غير الله، وكلاهما شر هذا وهذا.

وهذا هو السبب الذي جعل المؤلف يدخل هذا الباب في كتاب التوحيد، يعني المفروض أن العبد الموحد يكون لجوءه إلى الله دائماً، وأنه يعلم أن الله هو المدبر لكل شيء وهو الذي يملك ما في السماوات وما في الأرض، سواءً كان شيئاً له عقل ونظر، أو مثل الريح التي لا عقل لها ولا نظر، وإنما هي مسخرة بأمر الله.

ومثل ذلك المطر والسحاب وغيرها من مخلوقات الله جل وعلا، يعني هذا حكمها أنه لا يجوز سبها، وأن من سبها فقد ظلم نفسه، إذا تعدى فهو مستحق لعقاب الله جل وعلا.

❁ **قال المؤلف رحمه الله: فيه مسائل:**

❁ **الأولى: النهي عن سب الريح.**

والنهي للتحريم، كما سبق.

❁ **الثانية: الإرشاد إلى الكلام النافع إذا رأى الإنسان ما يكره.**

يعني اللجوء إلى الله وسؤاله، هذا هو المعنى وليس مجرد كلام، وإنما هو انقياد إلى الله بالقلب واللسان، صادقاً، فإذا فعل ذلك فإن الله جل وعلا يكشف ما به من ضر.

❁ **الثالثة: الإرشاد إلى أنها مأمورة.**

يعني أنها مطيعة، فكيف يسب المطيع لله جل وعلا.

❁ **الرابعة: أنها قد تؤمر بخير، وقد تؤمر بشر.**

«**أسألك من خيرها وخير ما فيها وخير ما أمرت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أمرت به**»، فهي تأمر بهذا وهذا، وقد جاء في الحديث الذي في المسند أن الرسول ﷺ قال: «**لا تسبوا الريح فإنها من روح الله تبارك وتعالى، وسلوا الله خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به، وتعوذوا بالله من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به**»[1].

وهذا يدل على أنها تأتي بالخير وإن كان فيها شر لبعض العباد فهو عقاب فيما يستحقونه، وقد عرف أنه يأتي أعاصير وأمور فيها التدمير للمباني وغيرها وكل هذا من عقاب الله وجنوده وهو خير لأن هذا فيه تأديب لهم لعلهم يرعون ويرجعون إلى الله، فإن لم يتأدبوا ويعتبروا فإن العذاب من ورائهم أشد ـ نسأل الله العافية ـ، فالمقصود أن فيها خير، سواءً كان فيها ضرر أو نفع فهي خير من الله.



(١) سبق تخريجه.





الباب التاسع والخمسون

❁ قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ: باب قول الله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

مقصوده رَحِمَهُ اللهُ بهذا الباب أن يبين وجوب حسن الظن بالله جل وعلا، وأن هذا من مقتضى التوحيد، ومن خالف ذلك يكون توحيده إما ذاهب، وإما ناقص نقصاً عظيماً، يجوز أنه يذهب ويضمحل.

وقد جاءت نصوص كثيرة في وجوب إحسان الظن بالله جل وعلا، ففي الحديث قال عليه الصلاة والسلام: «**لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عَزَّ وَجَلَّ**»[١]، وفي الحديث الآخر الصحيح: «**يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي**»[٢]، فمن ظن بالله خيراً ألحقه الله بالخير، ومن ظن السوء فله السوء ـ نسأل الله العافية ـ.

وظن الخير بالله، والظن الحسن يدعو العبد أن يعمل بطاعة الله، ويتبع أمر رسوله ﷺ، وليس أن يعمل المعاصي ويقول أنا أظن بالله الخير، لأن الله حكم عدل يضع الأمور في مواضعها.

وقد أخبر جل وعلا أنه لا يجعل المحسنين كالمجرمين، ولا المسلمين كالكافرين، لكل واحد عند الله مقاماً غير الآخر.

والمؤلف رَحِمَهُ اللهُ ترجم بالآية ولم يذكر حديثاً، وهذا كاف.

---

(١) رواه مسلم رقم ٢٨٧٧ من حديث جابر رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري رقم ٧٤٠٥، ومسلم رقم ٢٦٧٥ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وذكر أن هذا الظن غير الحق أنه فسر بتفسيرين كلاهما حق وقد دلت عليهما الآية.

وهذه الآية كما سبق في قصة أحد، فإنه وعد المسلمين أنهم إذا صبروا أنه سيمدهم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين، وقال: ﴿وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥].

ولكن هذا بشرط الصبر والطاعة، فلم تحصل الطاعة ولم يحصل الصبر، بل حصلت معصية فتخلف هذا الوعد من أجل ذلك، ثم حصلت الهزيمة على المسلمين وانهزم كثيرون منهم مولين إلى المدينة، وثبت ثلة مع رسول الله ﷺ وأصيب من أصيب منهم وقتل سبعون رجلاً منهم، ومن ضمنهم عم رسول الله ﷺ حمزة ﷺ. وقد أثر ذلك في رسول الله ﷺ تأثيراً بالغاً وحزن عليه حزناً كثيراً، وكل هذا لله فيه حكمة بالغة، وهو مقدر قبل وجود الدنيا ومكتوب ولا بد منه، فلا بد من الإيمان به وإن كانت الأسباب التي قد تبدو للإنسان في الظاهر أنه يمكن أن يتحاشى بعض هذه الأشياء على حسب ما يتخيل وينظر، وهذا مجرد تخيل فقط.

فإن ظن الإنسان أنه يمكن أنه يغير الواقع بالتدبير والنظر والعمل الذي يعمله فهو مما يظن بالله ظن السوء وغير الحق، وهذا بعد الوقوع، أما قبل وقوع الشيء يجب أن يحتاط الإنسان ويعمل كل ما يستطيع من الأسباب، فإن فرَّط في الأسباب فالأمر واللوم عليه مع أنه لا يقع إلا ما أراد الله جل وعلا وقضاه، ولكن الله جل وعلا رتب الأمور على أسباب، والأسباب مقدرة مع مسبباتها.

فلما حصل ما حصل أجرى الله آياته لما فيها من تأديب المؤمنين وذكر الحكمة في ذلك، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ [آل عمران: ١٥٢].

فيها حكم وأمور ذكر الله فيها التمحيص وإظهار ما هو مكنون، وفيها التمييز بين المؤمنين والمنافقين، وفي هذا أبلغ المنَّة من الله على المؤمنين فيعرفوا أن معهم في بيوتهم وفي مساجدهم أعداء لهم، فقد مثلاً تكون هذه العداوة أبلغ من عداوة الكفار المحاربين بيَّن هذا وأظهره جلياً، فبدل ما كانوا يخفون الأمور، وقد يلوحون بشيء منها قليلاً ولا يفهمها إلا قلة، صاروا يصرِّحون قالوا: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ [آل عمران: ١٥٤]؛ يعني: أنهم يقولون نستطيع أن نغير هذا الواقع، لو كان التدبير إلينا لم يقع، ولهذا قال: ﴿مَّا قُتِلْنَا﴾ فهذا كله من الظن السوء بقدر الله وتدبيره وحكمته، وكذلك ذكر أنهم قالوا: انتهى الأمر وبطل سحر محمد، وهكذا يقولون عند المضائق والمصائب، يخرج المنافقون نفاقهم ويصرحون به ويعرف المؤمنون بهذا وإلا فإن الله عليم بهم، ولهذا قال جل وعلا في نهاية القصة: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩] يقول: إنكم لا تطلعون على ما في نفوس هؤلاء، فهذا غيب عند الله، والله يعلمه وإنما يبرز ويظهر إذا حصل مثل هذا الشيء، فيتميز المنافق من المؤمن، وهؤلاء لا يدركون هذه الأمور، فقال بعد ما ذكر ما حصل: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤] يعني لا يتطرق إليهم النعاس من الخوف والهلع والقلق الذي أصابهم لأنهم ليس في قلوبهم الإيمان الذي يجعلهم يطمئنون بوعد الله وأنه سيُمضي أمر رسول الله ﷺ ويعليه ويتمه، هذا ليس عندهم فظنوا أن هذه هي الفيصل وخافوا على أنفسهم القتل.

قوله: «﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾»: الجاهلية: نسبة للجهل، فهم جهلة. والجهل هو الجهل بالله وبأحكامه الشرعية والقدرية وبأسمائه وصفاته ومقتضياتها، هذا هو الجهل الحقيقي الذي هو داءٌ قاتل وهؤلاء جهلوا هذا تماماً.

قوله: «﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ﴾»: هل للاستفهام من باب الإنكار التلهفي، يتلهفون ويتحسرون يقولون لو كان لنا شيء من ذلك ما حصل ما حصل، يتأسفون على من قتل من إخوانهم في النسب وليس في

الدين، وهؤلاء قد أكرمهم الله جل وعلا حيث اتخذهم شهداء، وقد ذكر هذا من الحكم ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، فلولا القتال وعداوة العدو ما حصلت الشهادة التي هي أحب إلى الله من عدمها، ويرفع الله بها من يشاء من عباده ويكرمهم بها ما حصلت الكرامة بالشهادة، وقد أدرك الصحابة ذلك وكانوا يفرحون به، وكان إذا سقط أحدهم هنَّؤوه يقولون هنيئاً لك الشهادة، كل واحد يود أنه هو الذي قتل، وإذا حصل لأحدهم شيء قال: فزت ورب الكعبة؛ يعني: فاز بوعد الله جل وعلا؛ لأن هذه الحياة لا تساوي شيئاً، وكونه يقتل في سبيل الله مقبلاً ناصراً لرسوله ولدينه هذا هو أعلى المقامات، ولهذا لما قال رجل في دعائه عند الرسول ﷺ: «اللهم ائتني أفضل ما تؤتي عبادك الصالحين، قال: فلما قضى النبي ﷺ قال: **من المتكلم آنفاً؟** قال الرجل: أنا، قال: **إذن يعقر جوادك، وتستشهد في سبيل الله**»[(١)]، لأن هذا أفضل ما يعطي الله جل وعلا عبداً من عباده، فهذا من الحكم التي ذكرها الله والحكم التي فيها لا يدرك استقصاءها، وإنما ندرك الأمور البارزه الظاهرة التي نبهنا الله جل وعلا عليها.

فيجب على العبد أن يظن بربه الظن الحسن الجميل في كل أمر من أموره، سواءً ما يتعلق بخاصته يعني خاصة العبد، أو ما يتعلق بشرع الله أو بقضائه وقدره، إذا أدرك شيئاً من الحكم والأمور ظاهرة المصلحة فهذا خير وفضل من الله، وإن لم يدركها يجب أن يكون عنده متأصل في قبله، يعلم أن الله حكيم عليم يضع الأمور في مواضعها لحكم عظيمة ويميز الحق من الباطل.

وكثير من الناس يظن ظن السوء، سواءً فيما يتعلق في نفسه أو يتعلق بالناس، أو يتعلق بشرع الله أو بقدر الله وقضائه، وهذا وقع فيه حتى بعض

---

(١) أخرجه البزار رقم ١١١٣، وابن خزيمة رقم ٤٥٣، والنسائي في الكبرى رقم ٩٩٢١، وابن حبان في صحيحه رقم ٤٦٤٠، والحاكم في المستدرك رقم ٧٤٨ وقال: حديث صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

العلماء، وأما الأدباء فحدث ولا حرج، لأن الأدباء في الواقع كثير ما يكونون زنادقة، ولهذا يقول المعري:

إذا كان لا يحظى برزقك عاقل ... وترزق مجنوناً وترزق أحمقا
فلا ذنب يا رب السماء على امرئ ... رأى منك ما لا يشتهي فتزندقا[1]

يعني: كأنه وضع نفسه فوق الله تعالى الله وتقدس، وأول من سلك هذا المسلك إبليس حيث امتنع من السجود عندما أمره الله: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢] يعني أنك ما وضعت الأمور في مواضعها، فلو أنك وضعت الأمور في مواضعها لوجب أن يسجد لي هو، فهو ما رضي أن يكون شريكاً لله تعالى وتقدس بل رفع نفسه فوق ذلك، منتقداً أمر الله راداً عليه.

وهكذا كثير ممن يسلك هذا المسلك يكون كذلك، ولهذا يقول مثلاً إذا أعطي الفاسق شيئاً من أمور الدنيا مراكب ومساكن وأموال، فلان مسكين فقير فهذا اعتراض على الله جل وعلا وعلى تقديره تعالى وتقدس. وتجد بعضهم مثلاً يقول إذا أصيب بمرض أو مصيبة أنا أصلي وأصوم ولكن ما أدري ما هذا الذي أصابني، فمعنى هذا أن الله ظلمني وأنا لا أستحق هذا الشيء وهذا كثير وهذا من ظن السوء الذي يقول: فتش نفسك فربما تجد نفسك هكذا.

الواجب أن يكون ظن السوء بنفسه لأنها هي محل السوء، والله هو أهل الحسن والكرم والجود، فنعم الله لا تحصى على العبد.

ولكن الأمور الظاهرة مثل ما ذكر هنا في موضعين من القرآن في قصة أحد وقصة الحديبية، لما ظهر علو الكافرين وصدهم المؤمنين فدعوا أن المؤمنين ضعفاء وأن أمر المؤمنين سينتهي، والكافرون هم الذين بيدهم الأمر فأخبر الله جل وعلا أنه أنزل السكينة على المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم لأنه كان عليماً حكيماً يعلم الأمور وحكيماً يضع الأمور في مواضعها ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ

---

(١) الآداب الشرعية لابن مفلح ٢/ ٢٨٩.

ٱلسَّوْءِۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾﴾ [الفتح: ٦] إذا كانت هذه هي النهاية، وهذا بعض ما نالهم في هذه الدنيا فهو ليس شيء، ولهذا يقول جل وعلا: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾﴾ [آل عمران: ١٩٦].

وبعض الناس إذا شاهد أمريكا أو غيرها وأن عندها قوة وأنها استضعفت كثيراً من المسلمين واستولت على أراضيهم ومدخراتهم، يظن أنه فضل وعندهم حظوة والواقع أنها إهانة، وهذا سوف يزول بقرب ولن يستمر أبداً، وسوف ينقلب عليهم، وإذا قدر أنه يحصل مرادهم في هذه الدنيا فليس شيء؛ لأن الله لا يرضى الدنيا أن تكون عقاباً للمجرمين؛ يعني: محلاً لعقاب المجرمين.

وكثير من الناس إذا كان هناك ظالم تجدهم يقولون لماذا لم يمت هذا؟ أمر الدنيا قليل لو أكل عمره كله إلى آخره فسوف يموت ولا يفوت الله جل وعلا: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾﴾ [إبراهيم: ٤٢] فالأمر قريب.

فالمقصود أن الواجب أن يعلم العبد الحكمة في هذا وهي بالغة، فأخبر الله أنه يمهلهم ليزدادوا إثماً على إثم ليضاعف عذابهم يوم القيامة: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [آل عمران: ١٧٨]، هكذا في جميع أحكام الله جل وعلا يجب أن يعرف العبد أنه حكيم في جميع تدبيراته الشرعية ويظن الإنسان أن بفعله في عباده المؤمنين أسرار وحكم عظيمة في أمره القدري والشرعي وغير ذلك حتى يتبين الصالح من الفاسد والمؤمن من المجرم ولا سيما الذين يخالطون المؤمنين، فهؤلاء عند النكبات يتكلمون ويخرجون ما في نفوسهم فيتبين هذا للمؤمنين فيأخذوا حذرهم، وإذا تأمل الوقائع التي وقعت منهم يعرفهم العاقل.

وقد يظن بعض الناس أن عدم النصر أنه خذلان، والله وعد عباده المؤمنين ووعده حق ولا بد أن يقع.

والنصر أصبح عند بعض الناس على تفسيره الحقيقي، ولا يلزم أن يكون

المؤمن القائم بأمر الله له جيوش يسيطر بها على الأرض أو بعضها، إذا أظهر الله أمره وبان فهذا هو النصر.

الثاني: أنه إذا مات مقتولاً أو غير مقتول متمسكاً بأمر ربه فهو منصور قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١]، فالنصر واحد والوعد واحد، فالمقصود معرفة الميزان في هذا وهو طاعة الله والتمسك بالسُّنَّة والموت على ذلك، فإذا كان بهذه الصفة فهو في الواقع منصور.

❁ **قال المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ **-: وقوله:** ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ [الفتح: ٦].

هذه الآية ذكرها بعد أن أخبر بإرساله جنوده من الملائكة ومن المؤمنين أنه سوف يعذب المنافقين والمشركين: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾، فأخبر أن ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾؛ يعني: أنهم سوف يغلبون ويهزمون ويقتلون، وتكون عاقبتهم إلى جهنم فقال: ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾، وإن كان كثيراً ما ينبهنا ربنا جل وعلا على هذا الأمر ويقول: لا تغتروا في كون الكفار قد يظهرون وقد يكون لهم تقلب في البلاد، فإن حسبهم جهنم؛ يعني: هذا أمر سهل وقليل جداً، ولهذا يقول العلماء: حسب سُنَّة الله جل وعلا أن الله جل وعلا لم يرض الدنيا أن تكون عذاباً لأعدائه؛ يعني: أنه لا يعذبهم بها، وهذا ليس على إطلاقه، ولكن كثيراً ما تشاهد الظالمين والكافرين وغيرهم يعيشون في الأرض فساداً يأكلون ويعملون لا ينزل عليهم عذاب عاجل، بل يعيشون كما يعيش الناس، ويموتون كما يموت الناس، وهذا لا يمكن أن يذهب هكذا فلا بد من العقاب، ولكن العقاب في الدنيا ينتهي بالموت، فتكون المدة قليلة وإنما العذاب الذي هو عذاب عذاب الآخرة، لا يموت ولا يحيا دائماً فيها عذاب مقيم: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا

فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠] و﴿كُلَّمَآ﴾ في لغة العرب للشيء الذي لا نهاية له، كلما صار هذا، تجدد بعده شيء، فهذا هو العذاب الأكبر، ومع ذلك فإنه يصيبهم في الدنيا ما يصيبهم ولا بد، ولكن هذا في الأمور التي تعم، أما الأمور الخاصة؛ يعني: خاصة في وقت وفي قوم، دون قوم فهذه لا بد من نصر الله جل وعلا لعباده المؤمنين، فهذا في أمر الحكمة أن لله حكم في كونه قد يديل الكافر على المؤمن إدالة غير مستمرة بل مرة ثم تزول، ومن الحكم كذلك ما ذكر الله في هذه الآية التمحيص، والتمحيص معناه تكفير الذنوب، والتأديب، تأديب المؤمنين وكذلك زيادة الحسنات وكذلك اتخاذ الشهداء، وكل هذا ذكره الله جل وعلا ونص عليه في الآية، وهو جل وعلا يحب هذه الأشياء، كما أنها في مصلحة المؤمنين، فمن ظن أن هذه أمور على حسب القوة وليست بتصريف الله وبحكمته فإنه يظن بالله ظن السوء.

وكذلك كونه ينكر أن تكون بقدر الله وتدبيره وعلمه السابق، والكتابة الأزلية، فإن هذا ظن غير ما يليق بالله وأسمائه وصفاته.

ويتبع هذا أن يظن أن هذا هو الواقع الذي سيستمر الناس عليه؛ يعني: أن الكفر هو الذي يغلب، فهذا ظن خلاف وعده جل وعلا، وخلاف سُنَّته في عباده.

فهذه أمور ثلاثة فسر بها ظن السوء في الآية:

الأول: إنكار أن يكون هذا وقع بتقدير الله جل وعلا، وتدبيره، وأنه بالإمكان تغييره لو كان للمنافقين الأمر، وهذا ظن كاذب، وظن سيئ بالله

الأمر الثاني: إنكار الحكمة، أن هذه مجرد مشيئة فقط لا حكمة في ذلك، وقد أخبر الله أن له حكماً أدرك بعضها أهل العلم وكثير منها لا يدركونه، وإنما هو على مقتضى أسماء الله وصفاته فقد يدرك وقد لا يدرك، منها ما سمعنا من الحكم تمحيص المؤمنين واتخاذ الشهداء منهم وإظهار ما في الصدور، وإن كان عليماً بذات الصدور، ومنها التمييز بين المؤمنين والكافرين ليتبين بالفعل الظاهر الجلي وغير ذلك من الحكم التي إذا تبينها الإنسان وجد الكثير منها.

الأمر الثالث: الظن بأن الكفر سيكون هو المسيطر وهو المهيمن، وأن الإسلام سينتهي ويضمحل كما صرح بذلك بعضهم قالوا هذه هي النهاية وهذا من ظن السوء، وهكذا إلى أن تقوم الساعة يجب أن يكون العبد حذراً ومتبعاً لما دل عليه الله جل وعلا بآياته وصفاته؛ لأن الأمر كله لله جل وعلا، ينصر من يشاء وكذلك يهدي من يشاء ويضل من يشاء، لو حصل مثلاً أن الكفار ظهروا وقتلوا المؤمنين، هل يكون هذا إهلاك لهم واضمحلال لأمرهم؟

كلا ما دام أنه ظهر أمر الله وبان وبلغ الناس لا يكون ذلك وسيظهر، ولكن الله جل وعلا جعل هذه الأيام دول، مرة يديل المؤمنين على أعدائهم وينصرهم، ومرة يبتليهم ليمحص ما في قلوبهم ويمحص ذنوبهم أيضاً؛ لأن الذي يقع بسبب الذنوب كما ذكر ذلك صريحاً في هذه القصة.

وكذلك هو جل وعلا علام الغيوب يعلم ما في القلوب فيظهر عمله جلياً الذي يعلمه ويبين بالعمل يعني: بالقول والفعل هذا من الحكم.

وإذا ظن الإنسان أن أمر الله الذي وعد أنه سيظهر ويتم أنه ينتهي وأنه يُقضى عليه فهذا ظن سوء بالله جل وعلا وهذا مجرد تمثيل فقط، وإلا فالأمر لا يقف عند هذا، كل ظن خلاف أمر الله فإنه ظن سوء وأمر الله يدخل فيه أمره الشرعي ويدخل فيه أمره القدري ويدخل فيه وعده وجزائه.

فمن ظن مثلاً أن المؤمن الذي عمل الصالحات واستقام على أمر الله مخلصاً له الدين ووقع في كبيرة من كبائر الذنوب ثم مات أنه مخلد في النار وأن عمله سيبطل كله فهذا ظن سوء بالله جل وعلا؛ لأن الله جل وعلا يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨]، وجعل الكبائر ما عدا الشرك تحت مشيئته.

وكذلك الذي يظن أن المجرمين كالمسلمين يمكن أنهم يكرمون ويدخلون الجنة فإنه ظن ظن السوء ﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٣٥﴾ [القلم: ٣٥]، وأخبر جل وعلا أنه خلق السمٰوات والأرض بالحق ولتجزي كل نفس بما كسبت، فمن ظن أنها خلقت باطلاً فقد ظن بالله ظن السوء، فمثل هؤلاء الذين يقولون العالم الذين على الأرض ليس معقولاً أن كلهم يعذبون إذا كانوا

لا يصلون ولا يزكون ولا يصومون، فهل الأمر مثلاً لحكمك الذي يترك أمر الله ثم يأتي هو يحكم هو أيضاً على الله في ذلك، معنى ذلك أنه رفع نفسه فوق مقام الله تعالى وتقدس؛ لأن الخلق كلهم عباد الله إذا لم يعبدوه ويطيعوه عذبهم ولا يبالي جل وعلا وما أهونهم عليه، إن يشاء يذهبهم ويأتي بغيرهم: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾﴾ [النساء: ١٣٣].

والمقصود أن الإنسان عبد، وعبوديته يجب أن تكون على وفق أمر الله له، وبمقتضى أسمائه وصفاته، فهو شديد العقاب وهو غفور رحيم جل وعلا، كل هذا في موقعه حكمة بالغة ورحمة من الله جل وعلا.

وسوف يتبين للناس يوم يجزيهم كلاً بما يستحق أن هذا هو الحق الذي لا يجوز غيره، يتبين لهم جميعاً حتى أهل النار، ولما كان الناس لا يستطيعون أنهم يصلون إلى حقيقة ذلك بعقولهم أخبرنا الله بهذا، فأخبرنا بالمبدأ أن له الحمد في كل شيء: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنعام: ١] (أل) في قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ جاءت للاستغراق يعني أن الحمد كله له، وكل حمد يصدر ويقال ويفعل فهو لله على فعله وحكمه وخلقه وجزائه، هذا في المبدأ.

وفي المنتهى كذلك قال: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الزمر: ٧٥]، فالتعبير بـ(وقيل) حتى يكون هذا عام كل قائل المعذب والمنعم، كلهم قالوا الحمد لله رب العالمين فهو محمود على جزائه وعلى كونه وضع كل في موضعه اللائق به.

كل ما يفعله جل وعلا فهو عدل في ذلك وله حكمة بالغة قد يدرك بعضاً منها بعض الناس وقد لا يدركون شيئاً منها.

فكيف يليق بالإنسان الضعيف قاصر العقل وقاصر النظر وقاصر الفكر أن يظن بنفسه أنه يمكن أن يستدرك على الله، أو يرى أن ما فعله الله أو يفعله أنه ليس حسناً وليس في موقعه، إذا كان مثلاً هذه صفته فقد ظن بالله ظن السوء.

وكذلك الذي يتصور أن الله لا يطلع على أسراره ولا يطلع على أعماله وتقلباته ويعلم حاله في كل شيء فهو ظان بالله ظن السوء.

وكذلك الذي يظن أن الخلق بالنسبة إليه سواء المجرم والمؤمن والملائكة والشياطين لا بالقرب ولا بالجزاء ولا بالعمل فإنه يظن بالله ظن السوء. وكذلك الذي يظن بأن الله في كل مكان، وأن ذاته جل وعلا كما تكون في أعلا عليين تكون في أسفل سافلين قد ظن بالله ظن السوء ـ تعالى الله وتقدس ـ.

وكذلك الذي يظن أنه يمكن أن يضيع عليه شيء من أعماله وأنه لا يجازى بذلك فإنه يظن بالله ظن السوء، وهذا لا حصر له إذا فكر الإنسان في ذلك، ومقتضى ذلك أن كل ما خالف أمر الله أو خالف مقتضى أسمائه وصفاته أو خالف جزائه وشرعه فإنه ظن سوء بالله جل وعلا، فيجب على العبد أنه يعتني في هذا ويبحث عن نفسه، إذا كان الله جل وعلا أخبرنا أن من لم يرض بحكم الرسول ﷺ ويسلم له أنه ليس بمؤمن كما قال جل وعلا: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥]، فكيف يكون حال من اعترض على أمر الله جل وعلا، سواءً كان أمراً شرعياً أو قدرياً لم يرض بتدبير الله، ولا بتقديره، ولا بخلقه، يعني أنه رأى غيره أحسن منه، وأنه يمكن أنه لو كان كذا وكذا يكون أحسن فهل يكون هذا مؤمن؟ هذا بعيد عن الإيمان.

والمقصود أن الإنسان يجب أن يتعرف على معاني أسماء الله وصفاته، وكذلك يعرف أن حكم الله أنه هو الحق وأنه العدل وأن غيره ضلال.

فمن ظن أن هذه الأزمان التي يسمونها زمن المدنية أو التقدم أنه لا يصلح لها شرع الله أن يحكم وإنما تصلح آراء الناس وأوضاعهم التي يتواضعون عليها والقوانين التي يضعونها، أما الشرع فكان لوقت محدد لبدو كانوا لا يعرفون التقدم، أما الآن فلا يصلح أن الإنسان تقطع يده إذا سرق ولا يصلح أنه إذا زنا وهو محصن أنه يرجم حتى يموت، ولا يصلح مثلاً أنه

يملك الكافر ويكون عبداً له وما أشبه ذلك من الأمور التي صاروا يصرحون بها صراحة بأنها لا تناسب الوضع الحالي، فهؤلاء لا يكونون مؤمنين وقد ظنوا بالله ظن السوء ـ تعالى الله وتقدس ـ عن قولهم وظنونهم.

فالمقصود أن هذا كثير ولا يمكن استقصائه وإنما ينبغي للعبد أن ينتبه لنفسه ما الذي يتسخط من الأقدار ومن الأمور التي تقع مقدر لها ربنا جل وعلا تجد عنده شيء من الاعتراض على ذلك والتسخط له وأن هذا ما يليق، فمثل هذا يحتاج أنه يتوب ويجدد إيمانه من جديد، ويؤمن من جديد ويعرف أن الله جل وعلا حكيم عليم وأنه يضع الأمور في مواضعها.

فالمؤلف رحمه الله تعالى أراد بذلك أن ينبه على هذه الأشياء، وأنه يجب أن يحسن الإنسان ظنه بشرع الله جل وعلا وأنه لا يمكن أن يكون شيء أحسن منه، وفي ضمن شرعه عبادته التي يجب أن تكون خالصة له، أما أنه يظن أنه يمكن أن يكون هناك وساطة بينه وبين ربه، يدعو هذه الوساطة ويجعلها شافعة له وأن هذا يكون أحظى وأقرب إلى الله وأسرع للإجابة، فهذا من أخبث الظن وأفسده لأنه على خلاف مقتضى أسمائه جل وعلا وأنه الأحد الصمد الذي لا يكون له شريك ولا نظير لا في حقه، ولا في ذاته، ولا في وصفه، ولا في حكمه تعالى وتقدس.

وكذلك كونه يظن أنه إذا اتجه إلى مخلوق من المخلوقات يدعوه أنه يستجيب له ذلك المخلوق وأنه يتوسط له عند الله ويقربه إليه، هذا من أسوء الظن وأخبثه، وهو خلاف شرع الله جل وعلا تعالى الله وتقدس.

فالمقصود أن الواجب على العبد أن يظن بربه الظن الحسن وظنه بربه ظن الحسن يدعوه إلى أن يحسن عبادة ربه وأن يتبع شرعه وأن يحرص على متابعه رسوله ﷺ.

ثم بعد هذا يكون ظاناً بربه أنه يثيبه أفضل الثواب ويرفع درجته مع عباده المقربين إذا تمسك بذلك، ومن أبى ذلك فإنه قد سلك سبيل الضلال، نسأل الله العافية.

۞ قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: فيه مسائل:

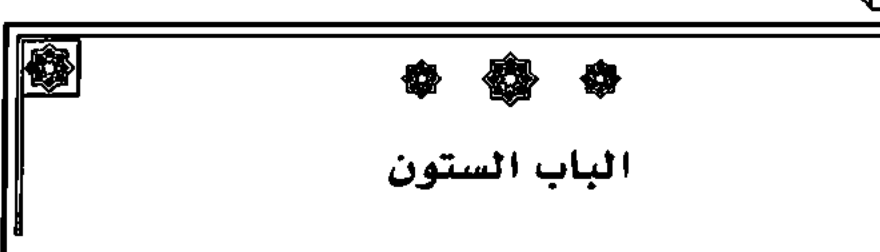
۞ الأولى: الإخبار بأن ذلك أنواع لا تحصر.

يعني ظن السوء أنه أنواع كثيرة جداً، وإنما نبه على شيء منها.

۞ الثانية: أنه لا يسلم من ذلك إلا من عرف الأسماء والصفات، وعرف نفسه.

لأن الإنسان ظلوم جهول وإذا كان ظلم جهل فهو محل السوء ـ نسأل الله العافية ـ.





الباب الستون

❁ قال المؤلف رحمه الله: باب ما جاء في منكري القدر.

يعني: من الوعيد ومن كونهم غير مؤمنين، بل خرجوا من دائرة الإيمان لأن الإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان.

قوله: «في منكري القدر»: منكري مضاف والقدر مضاف إليه. والإنكار هو عدم الإقرار، ضد الإقرار والإيمان.

قوله: «القدر»: القدر يجوز أن يكون بفتح الدال، وتسكينها. القدَر والقدْر.

والقدر مأخوذ من القدرة، وقد فسره الإمام أحمد: بقدرة الله؛ يعني: أنه من صفات الله من قدر الشيء يقدره، والله جل وعلا قدر الأشياء قبل وجودها؛ يعني: أنه علمها وعلم صفاتها وأوقاتها ثم كتب ذلك، ثم شاء ذلك وخلقه.

فالإيمان بالقدر يتضمن الإيمان بمراتبه الأربع: مرتبة العلم، ومرتبة الكتابة، ومرتبة الخلق، ومرتبة المشيئة.

وذلك أن الله علام الغيوب، يعلم كل شيء ولا يفوت علمه شيء من الأشياء، وأن الله كتب علمه كما أخبر بذلك بهذه النصوص وغيره.

وهو جل وعلا الخالق وحده ليس معه شريك في ذلك، وهو جل وعلا المتصرف في الكون كله كيف يشاء، فما شاء كان وما لم يشأ لا يكون، هذا هو الإيمان بالقدر.

فالدرجة الأولى وجد من ينكرها في عهد الصحابة، فلما علموا أن من أنكرها أنه كافر وأخبرهم الصحابة بذلك تراجعوا لظهور كفر من قال به، ولهذا قال الشافعي رحمه الله: ناظروهم بالعلم فإن أقروا به خصموا وإن أنكروه كفروا.

وإنما حصل الخلاف ولا يزال في الدرجتين الأخيرتين عموم الخلق وعموم المشيئة، فالقدرية يرون أن الإنسان هو الذي يخلق فعله، فجعلوا مع الله خالقين كثيرين وبذلك وقعوا في الشرك في الربوبية لأنهم جعلوا مع الله من يخلق، فالإنسان يخلق فعله عندهم هو الذي يخلق إيمانه أو كفره، وعمله كذلك، وزعموا أن الذي حداهم إلى القول به تنزيه الله عن الظلم، قالوا: كيف تقولون أن الله قدر على الكافر الكفر ثم عذبه عليه هل يعذبه بفعله؟ وقد يسيئ الإنسان استخدام الحق، أو قد لا يحسن أن يجيب عن الباطل فيتصور السامع ويظن أن صاحب الباطل قد غلب وليس كذلك.

فالمقصود أن هؤلاء أنكروا أن تكون مشيئة الله عامة شاملة، كما أنكروا أن تكون المخلوقات كلها لله جل وعلا، بل زعموا أن الإنسان يخلق مع الله.

المجوس يعتقدون أن المدبر إلٰهان: إله الخير وإله الشر، وإله الخير يتمثل بالنور وهو الغالب عندهم، وإله الشر يتمثل بالظلمة.

أما هؤلاء فهم يجعلون الفاعلين كثيرين جداً، والعجب أنه يجري الخلاف في ما بينهم هل يقدر الله جل وعلا أن يخلق مثل فعل الإنسان «وعمله الذي يعمله»؟ وكل هذا ضلال ظاهر.

فالمقصود أن الإيمان بالقدر حتم لا بد منه، ومن لا يؤمن به فإيمانه غير صحيح وهو ليس من المؤمنين، ولهذا تبرأ الصحابة منهم كما ذكر المؤلف.

أما البحث عن أسراره وحقائقه التي أخفى الله كثيراً منها وقد يعسر على الإنسان معرفتها، فهذا لا ينبغي البحث فيه؛ لأنه قد يؤول بالإنسان إلى إنكار شرع الله أو قدر الله أو أن ذلك يتعارض بعضه مع بعض كما وقع من كثير من الناس؛ يعني: أنه يكفي العبد أن يؤمن بالنصوص التي جاءت مع الإيمان بعموم مشيئة الله، وبعموم خلقه وعموم علمه جل وعلا، وأنه جل وعلا كتب هذه الأشياء في كتاب لا يغادر شيئاً منها، حتى أوصافها وأوقاتها وغير ذلك، هذا يكفي في الإيمان به.

أما لماذا فعل، ولماذا كتب كذا أو عمل كذلك أو فعل كذا؟ فهذا قد يؤول بقائله والباحث عنه إلى إنكار القدر فيكون مما توعده الله.

والمؤلف ـ رحمه ـ لم يذكر الحكم هنا، قال: باب ما جاء في منكر القدر. ذكر شيئاً مما جاء والذي ذكره يدل على أنه كافر؛ لأن الإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان وركن الشيء لا يمكن أن يتم إلا بوجوده كركن البيت مثلاً، البيت يعتمد على أركان يعني أعمدة إذا سقط واحد منها لا ينتفع به ولا أحد يدخل تحته لأنه سيسقط فيهلك من تحته، فهكذا الإيمان إذا ذهب ركنه فقد ذهب كله والباقي منه لا ينفع، ولا يستفاد منه هذا معنى قوله ذهب كله؛ لأن باقيه يصبح غير نافع.

فلا بد من وجود الأركان كلها حتى يكون تاماً منتفعاً به، وقد جاءت نصوص كثيرة في كتاب الله وكذلك في سُنَّة رسوله ﷺ تثبت أنه لا بد من الإيمان به، والله جل وعلا ابتلى خلقه في إخباره بذلك حتى يعلم الذي يؤمن من الذي يعترض وينصب نفسه شريكاً لله جل وعلا باعتراضه عليه، والقدر يؤول إلى صفات الله، فهو من صفاته، فالإيمان بصفاته يجب أن يؤمن بها حسب ما جاءت به النصوص.

ولكن لما كان الإيمان بتوحيد الربوبية أمر لازم أراد المؤلف أن ينبه على وجوب الإيمان بالقدر لأنه يتعلق بذلك، فهو يتعلق بربوبيته جل وعلا لأنه جل وعلا هو الذي يعلمها تعالى وتقدس، فهذا وجه إدخال القدر في كتاب التوحيد. فيلزم من الإيمان بتوحيد الربوبية الإيمان بالقدر فهو من لوازمه التي لا بد منها.

والإيمان بالقدر فيه مشكلات عند كثير من الناس، وقد ضل طوائف فيه من الناس وهم في هذا انقسموا ثلاثة أقسام كما هو معروف في المناهج وفي السلوك والاعتقادات الناس يكونون طرفاً ووسط، وفي هذه المسألة كذلك، فهناك من يسمون القدرية، **والقدرية قسمان:**

ـ قسم غلوا في إثبات القدر حتى جعلوا الإنسان كالآلة التي تدار ليس له خيار ولا قدرة وإنما الأفعال كلها تضاف إلى الله، وإذا أضيفت إلى المخلوق فهي على سبيل المجاز مثل إذا قلت: أمطرت السماء، وطلعت الشمس، ومثل قولك: هبت الريح وقولك: مات فلان. فلان لا يموت باختياره ولكن يُمات، وهكذا يجعلون الأفعال على هذا المنوال.

ثم لهم شبه منها قول الله جل وعلا: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] يقولون: إن الله نفى عنه الرمي، وأثبت الرمي لنفسه، وهذه الآية لها نظائر.

وكذلك من أعظم الشبه التي تعلقوا بها الحديث الذي في الصحيحين حديث محاجة موسى لآدم، فقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**احتج آدم وموسى فقال له موسى: أنت آدم الذي أخرجتنا ونفسك من الجنة؟ فقال له آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه ثم تلومني على أمر قدر علي قبل أن أخلق، فقال رسول الله ﷺ: فحج آدم موسى مرتين**»[1]؛ يعني: غلبه بالحجة.

فقالوا: هذا معناه أن الإنسان يحتج بالقدر، وليس له اختيار وهذا ضلال، الرسول ﷺ ما أراد هذا، وكذلك موسى ﷺ لأنه قد علم أن آدم تاب من الذنب والتائب من الذنب ليس له تبعة في ذلك، ولكن **أولاً**:

نقول أن الله جل وعلا خلق الإنسان مفكراً مختاراً له قدرة وأمره بما يستطيع فعله، ونهاه عما يستطيع الانكفاف عنه، وكل الأوامر التي أمر بها باستطاعته بسهولة، وقد يسر الله جل وعلا العبادة، ما أراد بهم العسر وإنما أراد بهم اليسر.

فالأمر في هذا سهل، إذا آمن العبد فهو يفعل الأشياء باختياره، فإذا صلى فهو يصلي باختياره وإذا كفر فكذلك، فإذاً يكون هو المؤاخذ بالأفعال، وأفعاله يفعلها هو حقيقة يباشرها حقيقة، ولهذا أضيفت إليه ونسبت إليه وقيل: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠] وبما اجترحته نفسك واكتسبه قلبك وهو كذلك وهذا أمر واضح لمن تأمله.

الثاني: عقلي وفطري ووضعي: أننا نجدنا نفعل الأشياء باختيارنا وبقدرتنا، فهل أحد منا أجبر على المجيء إلى هذا المكان وأرغم؟ الجواب: لا، بل جئنا باختيارنا وبقدرتنا، وهذا شيء مكتوب علينا مقدر قبل وجودنا، فعلى هذا نقول:

---

(١) رواه البخاري رقم ٣٤٠٩، ومسلم رقم ٢٦٥٢ واللفظ له من حديث أبي هريرة ﷺ.

الكتابة والتقدير هي علم الله في الأشياء، علم الله جل وعلا أن هذا الخلق سيوجد وأنه سيفعل كذا وكذا فكتب علمه، فعلمه لا يرغمنا ويجبرنا على هذا الفعل بل نفعل ذلك باختيارنا، ومع ذلك قدرتنا واختيارنا لا تخرج عن مشيئته ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [التكوير: ٢٩] لا بد من هذا التوسط.

ثم الجواب على ما تعلقوا به من الآية، فالآية فيها إثبات ونفي، وهم أخذوا النفي فقط، فالآية فيها إثبات أن الله جل وعلا أثبت له الرمي قال: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ فإذاً المثبت غير المنفي، فالمثبت له أخذه الحصباء من الأرض وتحريك يده بها نحو المشركين. أما إيصال التراب والحصباء إلى أعينهم ومناخرهم فهذا إلى الله، فالذي نفى عنه إيصال ذلك إلى مناخرهم وأعينهم فإنه لما رمى بالحصباء وصلت إلى مناخرهم وأعينهم، فهذا ليس بمقدور الرسول ﷺ ولا في مقدور أحد من الخلق، وإنما هو بقدرة الله جل وعلا، فهذا هو الذي نفي عنه، فإذاً استدلالهم بالآية خطأ؛ لأنهم أخذوا جانباً وتركوا الجانب الثاني.

أما الحديث فالجواب عن تعلقهم فيه **فأقول أولاً**:

عندنا قاعدة يجب أننا نعرفها وهي: أن كلام الله وكلام رسوله ﷺ لا يمكن أن يتعارض أو يتضارب، لا بد أن يتفق، إلا في النسخ، كما أنه لا يمكن أن يدل على باطل.

الأمر الثاني: أن الإنسان إذا أعياه الجمع بين نصَّين سواءً آيات أو أحاديث فيجب أن يتهم رأيه وفكره، ولا يتهم النصوص؛ لأن الآراء والأفكار والفقه يكون قاصراً والأمر إلى الله يفتح جل وعلا على من يشاء ويفهمه ويعلمه، والناس يتفاوتون في هذا.

وعلى هذا نقول: الجواب عن الحديث أولاً: نعلم قطعاً أن موسى عليه السلام لا يمكن أن يلوم آدم على ذنب قد تاب منه، وهذا لا يجوز شرعاً، التائب لا يلام على الذنوب لأن التائب ليس له ذنب ولو كان كذلك لقال آدم: أنت قتلت نفساً، لماذا تقتل النفس؟ ولكن ليس هذا هو المقصود.

وإنما المقصود أن موسى عليه السلام لامه على المصيبة، والمصيبة هي أثر

الذنب وليست هي الذنب، وهو الخروج من الجنة، ولهذا قال: **«لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة»**، والمصائب إذا وقعت لا حيلة فيها، فالإنسان يحتج بالقدر في هذا، ولهذا يقول العلماء: الاحتجاج بالقدر على المصائب لا على الذنوب والمعائب، لأن العبد إذا أذنب يجب أن يتوب هذا هو الطريق والخروج منه يجب أن يتوب ويستغفر ويعود على نفسه باللوم، ولهذا صار من شروط التوبة الندم، والندم هو: تألم القلب على الوقوع في هذا الشيء، يألم ويقول لماذا استولى عليَّ الشيطان ونفسي وفعلت هذا الشيء؟

ثم من شروط التوبة: الإقلاع عن الذنب يعني تركه. أما أن يقيم عليه ويقول هذا قدر فهذا عناد ومحادة لله جل وعلا، فلا يمكن أن يكون تائباً وهو مقيم على الذنب لا بد أن يقلع ويندم ويترك الذنب.

فإذاً لوم موسى ﷺ لآدم على الخروج من الجنة وهي المصيبة التي وقعت له وبنيه، ولهذا قال آدم: **«هذا شيء مقدر لا حيلة فيه»**، فنحن نؤمن بتقدير الله والمصائب التي كتبت علينا نرضى بذلك ونسلم، فالمصيبة تكون بعد وقوع ذلك، أما قبل ذلك فهي ذنب والذنب يستغفر منه، وهذا هو الجواب الصحيح عن الحديث.

وقول بعضهم غلبه لأنه أبوه وموسى ابنه، فالحق يجب أن يكون هو الغالب سواء من الأب أو من الابن، فقولهم غير صحيح.

والمقصود: أنه ليس لهم حجة في هذا، ولو كان مثلاً هذا حجة لبطلت الشرائع بل بطلت الدنيا كلها، يمكن أن كل واحد يعمل ما يروق له ويقول هذا قدر لا تلوموني عليه يمكن يزني ويسرق ويقتل ويقول: هذا مكتوب لا تلوموني، فلا تستقيم على هذا دنيا ولا دين.

حتى الذين يقولون: إن الإنسان مجبور ليس له قدرة ولا اختيار لا يرضون بهذا المذهب بالفعل، فلو أحرقت ماله أو ضربته وقلت له لا تلومني هذا مقدر علي، هل يرضى ويسلم ويقول: نعم؟ بل يشتد غضبه ويزداد ويقاتل، ويقول: هذا فعلك أنت الذي فعلت هذا الشيء، فلا بد من معاقبة الفاعل، ولا بد من محاسبته على فعله. ولهذا صار من شرط ذلك أن يكون

عاقلاً مختاراً، أما غير العاقل فلا يؤخذ بذلك، ولهذا رفع القلم عن المجنون وكذلك البهائم كما قال الرسول ﷺ: «**العجماء جبار**»[(١)]، ومعنى جُبار: ما تتلفه ليس مضموناً؛ لأنه لا عقل لها. فالمقصود أنه لا حجة لهم بهذا.

يبقى القسم الثاني الذين هم القدرية، الذين ينفون القدر، القسم الأول يثبتونه ويغلون فيه، ولكن يجعلون الإنسان مسلوب القدرة والاختيار، وهذا تطرف.

- **القسم الثاني** قابلوهم تماماً قالوا: الإنسان هو الذي يخلق أفعاله، وهو الذي يستقل بها ولا دخل لله في ذلك: فيؤمن باختياره، ويكفر باختياره، كما أنه يصلي ويأكل ويصوم وغير ذلك، هذا فعله حقيقة.

ولكن كونهم غلوا في هذا وقالوا: إن الله لا يخلق أفعال العباد، هذا ضلال لأن الله هو الخالق لكل شيء، وهو المليك لكل شيء، الذي يملكه ويتصرف فيه، فهو خلق هؤلاء المخلوقين وجعل بقدرته ومشيئته لهم قدرة واختياراً لا تخرج عن قدرته واختياره، وبهذه القدرة يستطيعون أن يفعلوا الشيء عن اختيارهم ويكون فعلهم ويستحقون بذلك الثواب أو العقاب على هذا، وشبهتهم في هذا أنهم لم يستطيعوا الجمع بين قدر الله وشرعه وجزائه؛ لأن العقول قاصرة في الواقع وهم يحكمون عقولهم، فقالوا: لا يمكن أن نقول أن الله قدر على الناس الكفر والمعاصي وخلقها فيهم ثم يعاقبهم عليها إلا أن يكون ذلك ظلم والله منزه عن الظلم، فهم بزعمهم أنهم أثبتوا أن الإنسان خالق لفعله من باب التنزيه لله جل وعلا، ولكن هذا قصور لأنهم في الواقع لم يتأملوا كلام الله، وكلام رسوله ﷺ حق تأمله، ولم يسترشدوا به ويستهدوا الله جل وعلا ومن لم يهده الله فإنه يضل وهم يزعمون أن عقولهم هي التي تهديهم وتدلهم، فعوقبوا على ذلك عوقبوا على أن جهلوا هذا الأمر، ووقعوا في الشرك لأن قولهم إن الإنسان يخلق فعله هذا مشاركة لله جل وعلا، والخالق هو الله وحده وليس معه أحد يخلق تعالى وتقدس.

---

(١) رواه البخاري رقم ١٤٩٩.

ثم إن الحجة عليهم كثيرة جداً من كتاب الله والوضع ومن العقل ومن غير ذلك. الله جل وعلا أخبر أنه خلق كل شيء فقدره تقديراً، وأنه الخالق لكل شيء، ولهذا قال لنا رسول الله ﷺ كما سمعتم: «**أن تؤمن بالقدر خير وشره**»؛ يعني: لا يكون مؤمناً إلا بهذا.

فجوابهم عن قولهم أنه إذا كان قدره عليهم أنه ظلم مثل ما سبق أن الذي قدره الله جل وعلا وكتبه هو علمه فيهم فإنه علم أنهم سيوجدون، وأنهم سيفعلون المعاصي باختيارهم، أو الطاعات باختيارهم وقدرتهم لا أحد يرغمهم على هذا وهذا هو معنى التكذيب، ولهذا قال الله جل وعلا: ﴿ءَامِنُوا بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ﴾ [الإسراء: ١٠٧]؛ يعني: الأمر إليكم إن أمنتم تحصَّلتم على الجزاء والخير الكثير، وإن كفرتم فلن تعجزوا الله وسوف تلقون جزاءكم، هذا هو خلاصة الأمر في هذا.

القسم الثالث الوسط في هذا نقول: إنه لا بد من الإيمان بأن الله هو الخالق لكل شيء، وهو جل وعلا الذي كتب علمه في الأشياء كله قبل وجودها لتمام علمه ولأنه لا يخرج عن علمه شيء جل وعلا، وهو الذي مشيئته تنفذ، وهو جل وعلا إذا أراد شيئاً فلا بد منه، وأما مشيئة الخلق فهي داخلة في هذا ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ ما شاء الله جل وعلا هو الذي سيقع ثم هو جل وعلا خلق الإنسان وجعله مختاراً بما يسر له، فإن كان الله جل وعلا أراد به الخير زين في قلبه الإيمان وحسنه وحببه إليه، وهذا فضل الله، وإلا منعه هذا الفضل ووكله إلى نظره وإلى عقله، ومن وكل إلى نظره وعقله ضل ولا بد.

❁ **قال المؤلف** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **وقال ابن عمر: والذي نفس ابن عمر بيده لو كان لأحدهم مثل أُحد ذهباً، ثم أنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر، ثم استدل بقول النبي ﷺ: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته، وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره» رواه مسلم[1].**

فهذا الحديث فيه قصة اختصرها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهي كما في صحيح

(١) رواه مسلم رقم ٨.

مسلم عن يحيى بن معمر قال: كان أول من تكلم في القدر بالبصرة معبد الجهني فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمٰن الحميري حاجين أو معتمرين فقلنا: لو لقينا أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر؟ فوفق الله لنا عبد الله بن عمر داخلاً المسجد فاكتنفته أنا وصاحبي فظننت أن صاحبي سيكل الكلام إليّ، فقلت: أبا عبد الرحمٰن إنه قد ظهر قِبَلنا أناس يقرؤون القرآن ويتقفرون العلم، يزعمون أن الأمر أُنُف، فقال: فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم، وأنهم برآء مني، والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أُحد ذهباً فأنفقه ما قبله الله منه، حتى يؤمن بالقدر، ثم قال: حدثني عمر قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر. . . إلخ، وفيه لما سأله عن الإيمان قال: «**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره**» وهذا هو الشاهد الذي أراده عبد الله بن عمر، فبين أن الإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان وأنه لا يتم للعبد إيمانه إلا به.

فقوله: «والذي نفس ابن عمر بيده»: هذا قَسَم، وكثير ما كان رسول الله ﷺ يقسم بهذا القسم يقول: والذي نفسي بيده، أو يقول: والذي نفس محمد بيده.

والمعنى أن الذي يملك حياتي وموتي هو الله، فهو يقسم بربه جل وعلا، والنفس هي التي بها الحياة؛ يعني: إذا شاء أن يقبضها قبضها، وإن شاء أن يتركها تركها مع أن الأمر مقدر في هذا، ولكنه العلم موكول إليه جل وعلا.

وفيه إثبات اليد لله جل وعلا كما هو موصوف بأنه جل وعلا له يمين وشمال كما جاء في صحيح مسلم، وهذا لا مانع منه لأن هذه نسبة فقط، ولهذا قال: «**وكلتا يدي ربي يمين**» يعني كلتاهما كاملة تامة لا يلحقها نقص كما يلحق شمال المخلوق، فالمخلوق يمينه أكمل من شماله، والله جل وعلا لا يجوز أن يوصف بشيء من النقص.

أما إفرادها هنا ما يدل على أن الله ليس له إلا يد واحدة، كما أن جمعها لا يدل على الجمع، وقد جاءت مفردة في كتاب الله وجاءت

مجموعة، وجاءت مثناة، كما قال جل وعلا: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٦٤] تعالى وتقدس، وقال تعالى في خطابه لإبليس: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] فثناهما، خلق آدم بهما.

وجاء في الحديث أن الله باشر ثلاثة أشياء بيده: خلق آدم بيده، وغرس جنة عدن بيده. وكتب التوراة لموسى بيده[1]، تعالى وتقدس.

ومعنى هذا يقول الله جل وعلا أنا الكبير المتعال جبار السماوات والأرض لم أتكبر من مباشرة خلق آدم بيدي وأنت تتكبر عن السجود، ولكن هذا الغرور ـ نسأل الله العافية ـ.

فالمقصود أن إثبات اليد لله جل وعلا أمر لا بد من الإيمان به على ظاهره حقيقة.

وقد جاء في القرآن أن الله يقبض السمٰوات كلها بيده تعالى وتقدس، قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: ٦٧].

فقوله: «﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ﴾» القبضة هي التي تكون في الكف، الكف قد جاء عليها كلها، تقول: قبض الشيء إذا أحاطت كفه بها.

وقد جاء إثبات الكف لله جل وعلا، وإثبات الأصابع وأنها خمسة تعالى وتقدس.

ولهذا قال: «﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ﴾» بما فيها، يقبضها وتكون صغيرة في كفه.

ثم قال: «﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾» فالأرض قبضة بيد والسماوات باليد الأخرى، ولهذا جاء في حديث مسلم عن النبي ﷺ قال: «يطوي الله ﷻ

---

(١) الأسماء والصفات للبيهقي رقم ٦٧٦ عن عبد الله بن الحارث عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله ﷻ خلق ثلاثة أشياء بيده: خلق آدم بيده، وكتب التوراة بيده، وغرس الفردوس بيده، ثم قال: وعزتي لا يسكنها مدمن خمر ولا ديوث».

السماوات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين بشماله ثم يقول أنا الملك أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟»(١)، فهذا موافق للقرآن، فتسميتها شمالاً لا محذور فيه لأنها نسبة فقط؛ لأن يمين الشيء الذي عن يمينه وشماله الذي عن شماله وكل ما هو متشخص قائم بنفسه له شمال وله يمين، ولهذا جاء في الحديث: «**إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمٰن ﷻ وكلتا يديه يمين الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا**»(٢)، المعنى: يجلسون قربه تعالى الله وتقدس.

فالمقصود أن إثبات الصفات من الإيمان بالله الذي لا بد منه، ولهذا أكثر جل وعلا من ذكر أوصافه في كتابه، كما أكثر الرسول ﷺ من ذلك حتى يعرف العبد ربه بأوصافه التي يتعرف بها إلى عباده لأن الله لا يطلع عليه أحد ولا يراه أحد جل وعلا إلا في الجنة أو في عرصات القيامة، ومع ذلك لا يحيطون به، وإنما يرون وجهه جل وعلا كما جاء في حديث الشفاعة الطويل الذي اتفق عليه الشيخان وغيرهما من العلماء، علماء الأحاديث مثل حديث أبي سعيد وأبي هريرة، فإن فيه إذا وقعت الشفاعة، يعني إذا أراد الله جل وعلا أن يريح الناس من الموقف، ألهمهم أن يطلبوا الشفاعة، فيطلبون من الأنبياء وهم معهم واقفون في الموقف أنهم يشفعوا إلى الله حتى يأتي يفصل بينهم، فإذا جاء إلى فصل القضاء يخاطبهم يقول: «**أليس عدلاً مني أن أولي كل واحد منكم ما كان يتوله في الدنيا**»، فيمثل لكل عابد معبوده ويقال له اتبعه فيذهبون إلى النار، ويبقى المؤمنون في الموقف وفيهم المنافقون؛ لأن المنافقين كانوا معهم في الظاهر ولم يتميزوا بعد فيأتيهم الله جل وعلا في صورة لا يعرفونه بها فيقول: ما الذي أبقاكم وقد ذهب الناس؟ فيقولون: تركناهم أحوج ما كنا إليهم، أما اليوم فلا نحتاج إليهم، يقولون: إن لنا رباً

---

(١) رواه مسلم رقم ٢٧٨٨ من حديث ابن عمر.

(٢) رواه مسلم رقم ١٨٢٧.

ننتظره. فيقول الله جل وعلا: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ﴾ فيقولون: نعوذ بالله منك، هذا مكاننا حتى يأتي ربنا، فإذا جاء ربنا عرفناه. فيقول: هل بينكم وبينه علامة؟ فيقولون: نعم الساق. فيكشف عن ساقه فيخرون سجداً له، ويبقى المنافق إذا أراد أن يسجد خر على قفاه ظهره طبقة واحدة، وقد كانوا في الدنيا ﴿يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ [القلم: ٤٣] فيأبون السجود لله جل وعلا، وإن سجدوا فهم يسجدون لأنفسهم يعني مداراة ومخاشات ونفاقاً حتى يعيشوا مع الناس، فهم مرة مع الكافر ومرة مع القوي، يرون الدولة لمن فيكونون مع صاحب الدولة، هكذا شأنهم.

عند ذلك فهم يرونه، ثم يتميزون، ويعطون أنوارهم على قدر إيمانهم، وكل واحد لا يستطيع أن يهتدي إلا بنوره فقط وإن كان الآخر بجانبه له نور، فيصبح المنافقون في ظلام دامس فيصبحون ينادون المؤمنين: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣].

فالمقصود أن إثبات الصفات لله جل وعلا أمر لازم لا بد منه، ولهذا كثر ذكره.

فقول ابن عمر: «والذي نفس ابن عمر بيده» اقتداء بالرسول ﷺ، فإنه كثيراً ما كان يقسم بمثل هذا.

قوله: «لو كان لأحد هم مثل أحد ذهباً»؛ يعني: لو قدر، أن أحدهم يملك هذا المقدار من الذهب ثم أنفقه في أفضل ما ينفق فيه المال وهو في سبيل الله، فإن الله لا يقبله لأنه ما آمن بالقدر، فلا يقبله الله منه حتى يؤمن بالقدر، فهو غير مؤمن لأن الله ما يقبل إلا من المؤمنين، أما الكافر فلا يقبل عمله، سواءً كان مثل أحد أو مثل الدنيا كلها.

لا بد أن نعرف كيفية الإيمان بالقدر، والله كتب الأشياء قبل الخلق بخمسين ألف سنة، وأنه جل وعلا على كل شيء قدير، وأنه هو الذي يحيي ويميت وغيره لا يحيي ولا يميت، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لا يكون، فهذا هو الإيمان بالقدر، وهذه الدرجات كل درجة جاء عليها أدلة في كتاب الله جل وعلا ومن أحاديث رسوله ﷺ.

وسمي قدراً لأنه مقدر محدد بوقته وصفته وبعمله وما يكون له أو عليه؛ يعني: كل شيء حتى نبض العروق التي في البدن مكتوبة مقدرة فلا يوجد أي حركة وأي سكون في الكون إلا وقد علمه الله جل وعلا وشاءه وقدره وكتبه، وهذا من تمام ملكه ـ تعالى وتقدس ـ فلا يمكن أن يكون في ملكه شيء ما شاءه أو ما علمه أو ما كتبه أو ما قدره، وبهذا يتبين معنى القدر أنه من صفات الله، ولهذا لما سئل الإمام أحمد عن القدر، قال القدر: قدرة الله.

قال ابن عقيل: لقد شفى الإمام بهذه الكلمة مع وجازتها فإنها واضحة وبليغة في المعنى؛ يعني: أن القدر صفات الله جل وعلا، وقدرته جل وعلا على كل شيء ولا يفوته شيء كتب الأشياء، وهو العليم بكل شيء، وقد أخبرنا بعلمه أنه وسع كل شيء علماً.

ثم استدل بقول النبي ﷺ: «**الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره**»، الإيمان الذي خوطبنا به لا بد أن يكون معناه معلوم لنا محدد وظاهر للخلق، فمعنى الإيمان هو: القبول والإقرار؛ يعني: قبول الخبر والأمر ويسبقه العلم ثم الإقرار به والاقتناع به والانقياد لذلك والتسليم. أما مجرد تصديق بأن يقال: الإيمان هو التصديق. هذا لا يكفي؛ لأن الإنسان قد يصدق ولا يعمل، والشيطان علم أن الله هو الخالق لكل شيء وعلم أنه الرب ولكنه لم ينقد للسجود فباء بالخسران.

أما الإيمان بالملائكة فهو كذلك قبول خبر الله عنهم وتصديقه وتيقنه في ذلك أنهم عباد مكرمون وأنهم يفعلون ما يؤمرون ولا يعصون الله ما أمرهم وأنهم كثيرون، وكذلك ما عطف عليه اليوم الآخر المقصود به ما يكون بعد الموت إلى ما علمنا بالأخبار من استقرار أهل الجنة إلى ما لا نهاية له واستقرار أهل النار فيها إلى ما لا نهاية له بلا انقطاع، فقد جاء في الأحاديث الصحيحة: «**يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار فيقال: يا أهل الجنة هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون وينظرون ويقولون نعم هذا الموت، قال: ويقال: يا أهل النار هل تعرفون هذا؟ قال: فيشرئبون وينظرون ويقولون: نعم هذا الموت، قال: فيؤمر به فيذبح، قال: ثم يقال: يا أهل**

الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت، قال: ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٣٩﴾ [مريم: ٣٩] وأشار بيده إلى الدنيا»(١)، فهم خالدون فيها أبداً، هذا هو اليوم الآخر الذي لا نهاية له، وهذا اليوم الذي نحن فيه الدنيا هي المزرعة لليوم الآخر من زرع خيراً؛ يعني: اتبع رسل الله وعمل بكتابه فإنه يكون من أهل الجنة ومن عصى فهو من أهل النار، وليس هذا لا بالعقل ولا بالشرف ولا بالنسب، وإنما هو فضل الله يعطيه من يشاء، من شاء الله أن يتفضل عليه ويخصه بالإيمان فإنه يختص برحمته من يشاء ـ تعالى وتقدس ـ فمن كان بهذه المثابة فليحمد الله، وليعلم أن هذا ليس بقوته ولا بنظره وإنما هو فضل تفضل الله به عليه.

ولهذا نقول: تأمل أهل الأرض اليوم ما أكثرهم قد ملئوا الأرض وأكثرهم يسعى إلى جهنم، أكثرهم يتقربون كل دقيقة إلى النار، إذا جاء الأجل بدؤوا يصلونها في القبور قبل يوم النشور، ثم يضاعف لهم العذاب يوم القيامة ولكن لا بد من جمعهم وإحيائهم يعني: إحياء أبدانهم وإخراجها، ثم تقريرهم بكفرهم فيعترفوا أنهم كفار، ثم يقرنون مع الشياطين في جهنم أبداً، وفي جهنم العذاب يتضاعف، المجرم الكبير القائد للكفر ليس كآحاد الكفار والله حكيم عليم، ولهذا قال ﷺ: **«إن أهون أهل النار عذاباً من له نعلان وشراكان من نار يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل ما يرى أن أحداً أشد منه عذاباً وإنه لأهونهم عذاباً»**(٢)، فكيف الذين في الطبقات جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ۝١٤٥﴾ [النساء: ١٤٥]: أن النار دركات، الدركات هي درجات تحت إلى أسفل، بخلاف الدرجات فإنها تصعد إلى العلو، والدركات تهبط إلى أسفل، وكل ما كانت أسفل كان العذاب أشد، حتى إن بعضهم يجعل في تابوت يغلق عليه في جهنم ـ نسأل الله العافية ـ وقد قال الله جل وعلا: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨﴾ [الهمزة: ٨] مؤصدة؛

---

(١) رواه مسلم رقم ٢٨٤٩ من حديث أبي سعيد.

(٢) رواه البخاري رقم ٦٥٦١، ومسلم رقم ٢١٣، واللفظ له من حديث النعمان بن بشير.

يعني: مغلقة عليه ﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ۝٩﴾ [الهمزة: ٩]؛ يعني: أنها مؤصدة عليهم مغلقة ومجعول على الأبواب عمدة من حديد ممددة، فهم لا يستطيعون أن يخرجوا منها ولن يستطيعوا ولكن هذا إمعاناً في نكالهم.

فالمقصود أن اليوم الآخر هو الذي لا نهاية له، ولهذا يجب على الإنسان أن يكون هذا اليوم بين عينيه دائماً لا ينساه.

ويؤمن بالقدر خيره وشره، خيره؛ يعني: بالنسبة له، وشره كذلك بالنسبة له، فالقدر يكون فيه خير وفيه شر بالنسبة للمخلوق، أما بالنسبة لله جل وعلا فكله خير، فكل ما قدره وشاءه فهو خير؛ لأنه عدل. وهو جل وعلا يضع الأشياء في أماكنها، من كان مستحقاً للخير أعطاه خيراً، ومن كان مستحقاً للشر أعطاه ذلك عدلاً منه، ووضعه في الشر عدل من الله جل وعلا وهو خير، ومع ذلك لا يضاف الشر إلى الله تأدباً مع الله جل وعلا كما قال ﷺ في دعاء التهجد والاستفتاح: «**لبيك وسعديك والخير كله في يديك والشر ليس إليك**»[(١)]؛ يعني: لا نسبة ولا خلقاً، ولهذا إذا تأملنا القرآن وإذا الشر يأتي على ثلاثة أوجه فيه:

الوجه الأول: إما أن يدخل في العموم كقوله جل وعلا: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۝٦٢﴾ [الزمر: ٦٢] هذا عموم مطلق.

الوجه الثاني: أو يحذف فاعله كما قال إبراهيم ﷺ: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠﴾ [الشعراء: ٨٠] أو يضاف إلى المخلوق، كما قال مؤمن الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠﴾ [الجن: ١٠] فحذفوا الفاعل.

الوجه الثالث: أن يكون مضافاً إلى المخلوق مثل قول إبراهيم ﷺ: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠﴾، وقوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ [الفلق: ٢] فجعل الشر في المخلوق، فدل هذا على أن الشر لا يضاف إلى الله جل وعلا تنزيهاً وتأدباً، وإلا فهو خالق كل شيء، فمعنى قوله: «خيره وشره»؛

---

(١) رواه مسلم رقم ٧٧١ من حديث علي بن أبي طالب ﷺ.

يعني: الخير الذي يكون من الله يصيب الإنسان من العافية والصحة والمال والولد وأفضلها الإيمان، أن يوهب له ويستمر عليه إلى أن يموت، هذا من الله وهو أيضاً مقدر وإن كان الإنسان يكتسبه بفعله، ففعله مخلوق لله جل وعلا، أما الشر فمثل المصائب المرض والفقر وما أشبه ذلك من الأمور المؤلمة التي تؤلم النفوس فكلها مقدرة، ولكن هذه لا يصيب الإنسان شيء إلا من جراء فعله؛ يعني: بما كسبت أيديكم كما قال جل وعلا: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ۝٣٠﴾ [الشورى: ٣٠]، وقوله: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ۝١١﴾ [التغابن: ١١]، وقوله: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝٢٢﴾ [الحديد: ٢٢].

فالمصائب التي تصيب الإنسان بسبب ذنوبه، ولو أخذ الله الناس بذنوبهم ما بقي على الأرض أحد، ولكنه حليم لا يعجل، وكريم جواد، ولهذا تجد الناس يعصون الله ويقابلون نعمه بالكفر، ويسبونه، ويشتمون رسله ويقتلون أولياءه، ثم يعافيهم ويرزقهم، ويعطيهم الدنيا، وهذا يدلنا على حلم الله، وهم لا يفوتونه، ولهذا قال الرسول ﷺ: «**ما أحد أصبر على أذى سمعه من الله يدعون له الولد ثم يعافيهم ويرزقهم**»[1].

فالمقصود أن الشر الذي يصيب الإنسان فهو من ذنوبه وقد جعله للمؤمن رحمة لأنه يكفر به سيئاته.

أما المجرم فقد لا يصاب، حتى يكمل عذابه ويتم: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ۝١٧٨﴾ [آل عمران: ١٧٨]؛ يعني: مد العمر لهم ومد الرزق وهذا ليزدادوا به إثماً فيعظم عذابهم: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝١٩٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ۝١٩٧﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧]، هذا معنى خيره وشره، ومعنى ذلك أن كل شيء مقدر.

---

(١) رواه البخاري رقم ٧٣٧٨، ومسلم رقم ٢٨٠٤ من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

۞ قال المؤلف رحمه الله: وعن عبادة بن الصامت: أنه قال لابنه: يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، فقال: رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة»، يا بني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من مات على غير هذا فليس مني»(١).

وفي رواية لأحمد: «إن أول ما خلق الله تعالى القلم، فقال له: اكتب، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة»(٢).

وفي رواية لابن وهب قال رسول الله ﷺ: «فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره أحرقه الله بالنار»(٣).

عبادة بن الصامت من أفاضل الصحابة، وأكابرهم وعلمائهم وهو أحد النقباء يوم العقبة؛ لأن الرسول ﷺ عين على كل جماعة من الأنصار نقيباً، والنقيب هو الذي يخبر عن قومه ويبلغهم الأوامر.

قوله: «قال لابنه»: ابنه دخل عليه وهو مريض، لما شاهده تخايل به الموت.

قال: «يا أبتاه أوصني واجتهد لي»، عند ذلك قال رضي الله عنه: «أجلسوني» فأجلسوه، فقال هذا الكلام: «**يا بني**» فهذه وصيته لابنه، ومعلوم أن الإنسان يجتهد لابنه، حتى أنه يود لابنه أن يكون أفضل منه.

قوله: «يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان»: «تجد» و«طعم» فمعنى ذلك أن الإيمان له طعم وأنه يوجد وقد لا يوجد، فبعض الناس يجده، وبعضهم لا يجده، وهذا الطعم حقيقي طعم حقيقي، وهو حلو مثل العسل وأحلى منه ولكن هذا؛ يعني: حلاوة الإيمان، وحلاوة طاعة الله والأنس به واللجوء إليه؛

---

(١) رواه أبو داود رقم ٤٧٠٠.

(٢) أخرجه أحمد في المسند رقم ٢٢٧٠٥.

(٣) أخرجه ابن وهب في القدر رقم ١٧.

فيكون الإنسان مطمئناً وفرحاً بذلك، يفرح بفضل الله وبرحمته، وقد أمر الله جل وعلا بهذا، هذا هو الإيمان، ولهذا يقول بعض العلماء: إن الدنيا فيها جنة من لا يدخلها لا يدخل جنة الآخرة. وليست الجنة الأكل والشرب، والتمتع بملذات الدنيا هذه يشترك فيها الكافر والمؤمن والبهيمة والكلاب وغيرهم كلهم يشتركون في هذا.

لكن هذا خاص بالمؤمن فقط، ولهذا كان يقول بعضهم إذا قام يتهجد ويخلو بربه إذا تبين الصبح إن فجع، يود أنه لا يتبين، وأنه يستمر، ولهذا كانوا يقولون: أحلى ما في الدنيا طول الليالي والتعبد فيها، وصوم الهواجر؛ يعني: إذا صار النهار حر شديد وطويل صاموا، وفي الليل يقومون يتهجدون وتجدهم أيضاً في أنس وطمأنينة وفي صحة ونور يعلوهم، فهذه هي الحياة الطيبة التي أخبر الله جل وعلا بها: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧]، هذه الحياة الطيبة السابقة، الحياة الأخرى، فهذا هو الذي يقصده عبادة.

وقوله: «لن تجد طعم الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك»؛ يعني: أن الذي وقع لا بد من وقوعه، سواءً فعلت أسباب أو لم تفعل.

قوله كذلك «وما أخطأك لم يكن ليصيبك»: كم يمشي الإنسان ويقول كدت أهلك لم يقدر لك ذلك، إذا قدر سوف يأتي بأقل الأسباب، ولهذا يقولون: كفى بالأجل حارساً.

ومع هذا كله يجب على الإنسان أن يعمل الأسباب التي أمر بها، ويحتاط بها كما قال الرسول ﷺ لصحابته وهو ذاهب إلى المقبرة فوجد القبر لم يلحد، فجلس وجلس الصحابة فقال: «**ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار**»، فقالوا: يا رسول الله أفلا نتكل؟ فقال: «**اعملوا فكل ميسر**»، من كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة: ﴿فَأَمَّا مَنْ

أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾﴾ إلى قوله: ﴿لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ ـ ١٠]»[(١)].

فيجب على العبد أن يجتهد ويفعل السبب الذي به ينجو والأمر مخبوء؛ يعني: مخفي عليه ما يدري، ولهذا من الخطأ أن يقول الإنسان أنا لن أعمل، إذا كان مقدر علي كذا ما يمكن أن أعمل كما يقول بعض الجهال، إذا كان مقدر علي أني ما أصلي فليس فيه فائدة فلن أصلي.

نقول: الصلاة بإمكانك أن تصلي وأنت أمرت بهذا، فلا يجوز أن تقول مقدر علي كذا وكذا، اجتهد وصلِّ واطلب ربك التوفيق. أما إذا قلت هذا فمعنى ذلك أنك تجعل اللوم على القدر، وتبرأ نفسك وهذا من الخطأ بل من الكفر ـ نسأل الله العافية ـ.

فقوله: «لن تجد طعم الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك»؛ يعني: تعلم أن الأمور مقدرة، والواقع لا بد أن يقع على هذه الصفة وبهذا الوقت، وبهذا المقدار، ولا يمكن يتأخر ولا يتقدم، وكذلك الذي لا يقع، لا يمكن أن يقع، ولهذا قال: **«وما أخطأك لم يكن ليصيبك»** ومقصوده بهذا العموم أن كل ما وقع فهو مقدر من الله جل وعلا قد علمه قبل وجوده وكتبه فلا بد أن يقع في الوقت المحدد على هذه الصفة، وأما الذي ما وقع فهذا غير مقدر، والذي ما قدر لا يقع.

ثم قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب فقال: يا رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة»، يا بني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من مات على غير هذا، فليس مني»، وفي رواية لأحمد: «إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة»، وفي رواية لابن وهب، قال رسول الله ﷺ: «فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره أحرقه الله بالنار»، هذه كلها روايات حديث عبادة».

فقوله: «إن أول ما خلق الله القلم»: يقول بعض الناس: إن المقصود أن القلم هو أول المخلوقات، ويحتج بهذا الحديث.

---

(١) رواه البخاري رقم ٤٩٤٩، ومسلم رقم ٢٦٤٧.

ولكن حديث عبد الله بن عمرو الذي في صحيح مسلم حيث يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة قال: وعرشه على الماء**»[(١)]، فالعرش والماء موجودان وقت الكتابة، فمعنى ذلك أنهما قبل القلم.

فعلى هذا لا يكون المقصود هنا الإخبار بأن القلم هو أول المخلوقات ويكون المعنى كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: المقصود الإخبار بأن الكتابة حصلت بعد خلق القلم مباشرة بدون فاصل[(٢)].

فتكون الجملة واحدة: «**أول ما خلق الله القلم قال له: اكتب فجرى في تلك الساعة ما هو كائن**»، فمعنى ذلك أن القلم تكلم، وأنه جرى بأمر الله، بأن الله إذا أراد الشيء قال له كن فيكون، فكتب ما أراده الله، وهذه الكتابة عامة شاملة.

وقوله في الرواية الثانية: «**إلى يوم القيامة**»، وفي رواية أخرى: «**إلى قيام الساعة**» لا يفهم من هذا التحديد إلى هذا الوقت، وأن ما بعد ذلك ما كتب، ولكن المقصود الإخبار بأن ما يتعلق بالناس كله مكتوب حتى الجنة

---

(١) رواه مسلم رقم ٢٦٥٣.

(٢) منهاج السُّنَّة النبوية ١/٣٦١ قال رحمه الله: وقد تكلم علماء المسلمين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم في أول هذه المخلوقات على قولين حكاهما الحافظ أبو العلاء الهمداني وغيره؛ **أحدهما**: أنه هو العرش، **والثاني**: أنه هو القلم، ورجحوا القول الأول لما دل عليه الكتاب والسُّنَّة أن الله تعالى لما قدر مقادير الخلائق بالقلم الذي أمره أن يكتب في اللوح كان عرشه على الماء فكان العرش مخلوقاً قبل القلم، وقالوا: والآثار المروية أن أول ما خلق الله القلم معناها: من هذا العالم.

وقال ابن القيم رحمه الله في التبيان في أقسام القرآن ١/١٢٨: ولا يخلو قوله: «**إن أول ما خلق الله القلم**» إلى آخره، إما أن يكون جملة أو جملتين فإن كل جملة - وهو الصحيح - كان معناه أنه عند أول خلقه قال له: أكتب كما في لفظ: «**أول ما خلق الله القلم قال له: اكتب**» بنصب أول والقلم، فإن كانا جملتين وهو مروي برفع أول والقلم فيتعين حمله على أنه أول المخلوقات من هذا العالم ليتفق الحديثان إذ حديث عبد الله بن عمرو صريح في أن العرش سابق على التقدير، والتقدير مقارن لخلق القلم، وفي اللفظ الآخر: «**لما خلق الله القلم قال له: اكتب**».

والنار مكتوبة ومقدرة ومعروف أهلها علم الله جل وعلا من فيها ودوامهم.. إلخ. فهذا يجب أن نفهمه؛ لأنه قد يأتي مثلاً من أهل الباطل من يلبس في مثل هذا، وكثيرون منهم يحب الإشكالات، وأن يثير الشبهُ التي قد تزعزع العقائد.

فقوله: «كل شيء حتى تقوم الساعة»؛ لأن الساعة إذا قامت انقطعت الأعمال التي تتعلق بالناس وطويت الصحف نهائياً، فلا عمل ينفع، وهذا الوقت المحدد للإيمان والعمل.

ثم قال: «يا بني سمعت رسول الله ﷺ يقول: من مات على غير هذا فليس مني» الذي ليس من الرسول ﷺ يكون من الشياطين ومن الكفار، فهذا ظاهره الكفر الذي ليس من الرسول ﷺ فهو من الكافرين ـ نسأل الله العافية ـ لأن هذا من أركان الإيمان.

۞ وقول ـ المؤلف رحمه الله ـ: في رواية لابن وهب قال: قال رسول الله ﷺ: «فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره، أحرقه الله بالنار».

هذا على ظاهره؛ يعني: أنه لم يكن مؤمناً، ويحكم بأنه خرج من الدين الإسلامي أو أنه لم يدخل فيه.

۞ وقول المؤلف رحمه الله: وفي المسند والسنن عن ابن الديلمي قال: «أتيت أبي بن كعب، فقلت: في نفسي شيء من القدر، فحدثني بشيء، لعل الله أن يذهبه من قلبي، فقال: لو أنفقت مثل أحد ذهباً، ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو مت على غير هذا، لكنت من أهل النار. قال: فأتيت عبد الله بن مسعود وحذيفة بن اليمان وزيد بن ثابت فكلهم حدثني بمثل ذلك عن النبي ﷺ»[1].

فهو لما وقع عنده هذا الشك ذهب إلى العلماء يسألهم، والعلماء أجابوه بما في كتاب الله وبما في أحاديث رسول الله ﷺ، مما يدلك على أن المرجع في إزالة الشبه وعلاج الجهل أنه بالنصوص، وليس بما يقوله أهل الكلام

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم ٢١٥٨٩، وأبو داود رقم ٤٦٩٩، وابن ماجه رقم ٧٧.

بالبراهين العقلية التي يزعمونها، وهي شكوك وليست براهين، والبرهان لا يجوز أن يقال أنه برهان إلا إذا كان دليلاً واضحاً مثل الشمس، أما أنه يدعى أنه دليل وهو ليس بدليل فهذا من التلبيس ومن التعمية، وكذلك من الخيانة خيانة العلم والناس.

فالمقصود أن هذا الفعل الذي فعله الصحابة يدلنا على وجوب الرجوع في المشكلات وفيما يزيل الشبه إلى كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، ولا ينافي ذلك كون الإنسان يستعمل فكره، وعقله، ولكن العقل عقلان، عقل يسمونه متحرراً يفكر ويجول في كل شيء، وعقل يجب أن يكون مرشَدٌ، يرشده كتاب الله، وسُنَّة رسوله ﷺ كما يقول الله جل وعلا: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ١٢]، فهو يرشدهم إلى التدبر والتأمل فيعقلوا ذلك العقل الذي يكون متقيداً، يكون عقلاً صحيحاً لا يخالف النصوص الصحيحة الصريحة بل يكون موافقاً لها، أما الزعم بأنه يخالف، وأنه الأصل فهذه دعوى غير صحيحة.

❁ قال المؤلف رحمه الله فيه مسائل:

❁ الأولى: بيان كيفية الإيمان به.

يعني: على الدرجات التي ذكرت؛ يعني: الإيمان بعلم الله الأزلي وكتابته وأنه الخالق لكل شيء، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. ولكن قصده هو ما جاء في الحديث؛ يعني: أن تؤمن بالقدر خيره وشره؛ يعني: يشمل هذا كل ما وقع فيجب أن تسلم له وتؤمن به، والإيمان معناه أن تكون مأموناً على هذا الخبر، وعلى هذا الشيء، لا ترده ولا تعترض عليه، أما إذا رد أو صار في نفس والقلب منه حرج وضيق وتضجر فهذا ليس إيماناً.

❁ الثانية: إحباط عمل من لم يؤمن به.

يعني: هذا يدل على أن من لم يؤمن به لا يكون مؤمناً. والإحباط كونه لا يكون له أثر فلا يجزئ به، ومعلوم أن هذا يكون للكافر، أما المؤمن فيجزئ بعمله وإن نقص الجزاء لأجل مخالفة وما أشبه ذلك.

۞ **الثالثة: الإخبار أن أحداً لا يجد طعم الإيمان حتى يؤمن به.**

يعني: أنه لا يكون متحققاً بالإيمان وعابداً لله جل وعلا على ما أمر الله به ورسوله وعبادة الله جل وعلا فيها طعم وفيها لذة، ولا يكون كذلك إلا إذا آمن بالقدر.

۞ **الرابعة: ذكر أول ما خلق الله.**

ولا يجب أنه يكون أول المخلوقات على الإطلاق، ولكن أول المخلوقات بالنسبة لعلمنا المحدود، وقد قال الله جل وعلا: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝﴾ [النجم: ٤٢]، قال بعض العلماء: يعني: إذا بلغ التفكير إلى الله يجب أن ينتهي؛ لأنه لن يصل إلى شيء.

ومثل هذا حقائق الصفات، ومن حقائق صفاته أنه فعال لما يريد، فلا يقال مثلاً أن هذه المخلوقات المشاهدة هي أول المخلوقات؛ لأن الله جل وعلا ما كان معطلاً في وقت من الأوقات عن الفعل فهو فعال لما يريد، وهذا هو الذي يسمى التسلسل؛ يعني: تسلسل الحوادث، والتسلسل قد يصعب على الإنسان فهمه والوصول إلى الحقيقة فيه، ولكن خلاصته أنه ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: تسلسل في المحدثين، والتسلسل معناه مأخوذ من السلسلة، السلسلة لها حلقات كل ما جاءت واحدة جاءت بعدها الأخرى، وهكذا؛ يعني: شيء لا نهاية له يستمر ـ بشكل دائري ـ فأخذ من هذا.

فالتسلسل في الفاعلين بمعنى أن كل فاعل له فاعل هذا باطل بإجماع العقلاء، ولا يمكن.

القسم الثاني: التسلسل في الحوادث في المخلوقات، في الخلق هذا هو الذي فيه الكلام وفيه الخلاف، وكثير من الناس أساء الفهم في هذا، حتى كفَّروا بعض الأئمة الكبار ظناً منهم أن هذا باطل، وهم في هذا انقسموا إلى ثلاثة أقسام:

الأول: قوم قالوا: إن التسلسل في المستقبل جائز وفي الماضي ممنوع،

وظنوا أن هذا هو مذهب السلف، وليس كذلك، وإنما هو مذهب بعض المتكلمين.

الثاني: عكسه قالوا التسلسل في الماضي، أما في المستقبل فلا، وهذا أبطل من الأول.

والقسم الثالث: أنه جائز في الماضي والمستقبل، أما في الماضي فهو الذي فيه الإشكال وهو الذي قالوا: من قال فيه فإنه يقول بقدم العالم ورموا شيخ الإسلام ابن تيمية بهذا وكفروه على ذلك الذين لم يفهموا.

ولكن الذي يقول بهذا مقصوده بأفعال الله أن الله لم يزل يفعل ولم يكن معطلاً في وقت من الأوقات تعالى وتقدس، فإنه ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ [البروج: ١٦]، ومعلوم أن هذا الكون مثل العرش والماء والسماوات والأرض وغير أنها وجدت بعد أن لم تكن موجودة فهل كان قبلها شيء أو ما كان الله يخلق قبلها؟

قالوا: إذا قلنا أنه ما كان قبلها شيء معناه أن الله ما كان يخلق ولا يفعل شيئاً حتى صار فعالاً، وفي العقل يمتنع أن يكون يفعل بعد أن لم يكن يفعل؛ يعني: يكون قادراً بعد أن لم يكن قادراً ومن الذي جعله قادراً تعالى وتقدس. ولهذا صار كبار أهل العلم يقولون أن التسلسل في الماضي والمستقبل، أما في الماضي فهو هذا كما فهمنا في أفعال الله أنه لم يزل يفعل إذا شاء.

قلنا سابقاً أن عقولنا قاصرة؛ لأننا لو فكرنا بعقولنا ما الذي قبل هذه المخلوقات لم تصل إليه العقول، والله أعلم، وقد قال الله جل وعلا: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: ٥٤]؛ يعني: هذا قبل وجود الأيام وقبل وجود الشمس وقبل وجود السماء والأرض، إما أن يكون هذا تقدير أو أيام حقيقية، ويجوز أن تكون أيام في حركات أجرام أخرى الله أعلم ما هي.

أما في المستقبل فهو أسهل لأن الله أخبرنا عن دوام الجنة والنار ما دامت السماوات والأرض، وإن كان الذين قالوا أنه ينتهي فهؤلاء شرذمة من المعتزلة مثل أبي الهذيل العلاف وغيره، وبعضهم قال: إن الحركات هي التي تفنى أما ذواتهم لا تفنى، وهذا من أبطل الأشياء، ولهذا قال ابن القيم معناه:

إن الرجل يأخذ العنقود من العنب ويفتح فاه فيبقى فاه مفتوحاً أبداً ويده واقفة ما تصل إلى فيه، وهذا عذاب ليس نعيم، وهكذا أهل النار.

فالمقصود أن التسلسل في الماضي والمستقبل هو في أفعال الله التي يفعلها والحوادث التي يحدثها ويوجدها، وهو الذي يقول به البخاري والدارمي والإمام أحمد ويقول به كبار العلماء، ولكن بعض الناس لا يفهم هذا، حسبوا أنهم اهتدوا إلى القول الذي ظنوا أنه الحق فرموا من قال بخلاف ذلك بالعظائم، ولهذا يقول الحافظ ابن حجر ﷺ في فتح الباري ليس عند ابن تيمية أسوأ من هذا القول.

وهذا في الواقع من حسناته وليس من السيئات، غير أن الإنسان يعذر بكونه لم يفهم الشيء، وقد يكون فهمه زل عن ذلك وإن كان فيه وضوح.

والمقصود أن أول الخلق هنا بالنسبة لنا، لما أخبرنا الله جل وعلا به، أما بالنسبة إلى الله فهذا شيء لا يعلم.

۞ الخامسة: أنه جرى بالمقادير في تلك الساعة إلى قيام الساعة.

وقوله: «تلك الساعة»: الإشارة إلى الساعة التي خلق فيها القلم، وقد عُلم أن خلقه للقلم بعد خلق العرش والماء لأنه قال: «وعرشه على الماء».

۞ السادسة: براءته ﷺ ممن لم يؤمن به.

معنى من لم يؤمن بالقدر، والبراءة معناه: أنه ليس منه ومن لم يكن من الرسول ﷺ فهو من الكفار ـ نسأل الله العافية ـ.

۞ السابعة: عادة السلف في إزالة الشبهة بسؤال العلماء.

يعني: عادتهم أنهم يسألون العلماء والعلماء يُزيلونها بالكتاب والسُّنَّة، لا بالمناظرات والمجادلات التي قد تزيد في الإشكال، فيزيلونها بما في كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ كما قال الصحابة في حديث الديلمي.

۞ الثامنة: أن العلماء أجابوه بما يزيل شبهته، وذلك أنهم نسبوا الكلام إلى رسول الله ﷺ فقط.

يعني: إذا نسب إلى الله أو رسوله ﷺ كفى، ووجب الاقتناع به.



الباب الواحد والستون

❁ **قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: باب ما جاء في المصورين.**

يعني: من الوعيد الشديد وقد ابتلي الناس في التصوير ـ نسأل الله العافية ـ وكثر، ولهذا كثرت النصوص فيه عن الرسول ﷺ مما يدل على نبوته ﷺ وأن هذا سيقع في أمته، ولهذا أنذرهم وحذرهم وبلغهم ذلك، حتى يكون ذلك حجة عليهم لأن الرسول ﷺ بلغ ما أمره الله جل وعلا على وجه البيان والإيضاح، ولم يترك شيئاً إلا وضحه ومنه هذه المسألة.

والصورة معروفة وهي تمثيل الشيء الذي سبقه، ولو بالتقدير ثم بالفعل، وهذا من الإنسان، يقدر الشيء ثم يفعله بالتخطيط أو بالآلة أو بغير ذلك.

والخلق في اللغة ينقسم إلى قسمين: خلق بالتقدير، كما في قول القائل:

ولأنت تفري ما خلقت ... وبعض الناس يخلق ثم لا يفري[1]

تفري: أي تفعل الشيء، إذا قدرته فعلته، فهو يمدحه بهذا، وغيرك يقدر الشيء ثم يتقاعس عنه، وقد قيل في قوله جل وعلا: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [البقرة: ٢٩] أن هذا خلق بالعلم والتقدير لا بالفعل، لقول الله جل وعلا: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾﴾ [النازعات: ٣٠، ٣١] هذا قول لبعض العلماء، ومعلوم أن الله جل وعلا أخبرنا أنه خلق الأرض قبل السماء فلا يكون فيه إشكال.

أما دحوها فقد فسر بما ذكر، بأنه أخرج منها ماءها ومرعاها وأنه أرساها بالجبال لأنها كانت مضطربة؛ يعني: مثل السفينة التي في الأمواج، فثبتها بالجبال حتى تستقر بأهلها ولهذا قال: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾

---

(١) مجموع الفتاوى ٧/ ٣٨١.

ففسَّر دحوها بما ذكر بعد ذلك بإخراج الماء والمرعى وترسيتها بالجبال.

فالمقصود أن الخلق في اللغة ينقسم إلى قسمين: تقديري، وفعلي.

والله جل وعلا إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون، وعلمه تام وكامل ما يحتاج أنه يفكر وينظر مثل ما يكون للمخلوق الذي يحتاج إلى مقدمات قبل الفعل، فهو جل وعلا الخالق وحده وهو المصور وحده فمن أسمائه المصور، ومن أسمائه الخالق فلا يجوز أن يشاركه مخلوق في هذا، أن يكون المخلوق يخلق، إلا ما هو في حدوده وأذن له فيه مثل البناء وما أشبه ذلك من الصناعات التي وكلت إليه، أما أن يحاول أن يخلق مخلوقاً حياً فيه حياة ولو كان حبة فليس هذا له؛ لأن الحبة فيها نمو وحياة تنبت، ولهذا تحدى الله جل وعلا الخلق أن يخلقوا حبة لو اجتمعوا من أقطار الأرض مع ما أوتوا من الإمكانيات ما يستطيعون أن يوجدوا حبة تنبت، أو شعيرة، والشعيرة أقل قيمة من الحبة التي هي حبة الحنطة مثلاً لا يستطيعون أن يوجدوا هذا ولا هذا، ولا يستطيعون أن يوجدوا ذرة؛ يعني: متحركة التي هي صغار النمل.

ولهذا نقول أن هذا من خصائص الرب جل وعلا، فمن وضع نفسه في هذا الموضع فإنه يكون منازعاً لله جل وعلا، وهي المضاهاة التي ذكرت في الحديث: «**أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله**»[1]، فهذه هي المضاهاة.

لم يأت وعيد على ذنب مثل ما أتى على المصورين ـ نسأل الله العافية ـ ومع هذا تجد كثرة المصورين والتصوير، وإن كان قد حصل خلاف في بعض المعاني من التصوير.

۞ قال المؤلف ﷺ: عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا ذرة، أو ليخلقوا حبة، أو ليخلقوا شعيرة»[2] أخرجاه.

---

(١) يأتي تخريجه.

(٢) رواه البخاري رقم ٧٥٥٩، ومسلم رقم ٢١١١.

قوله: «**قال الله تعالى**»: سبق أن القول الذي يضاف إلى الله يسمى حديثاً قدسياً، وأن الصحيح في هذا أنه يضاف إلى الله قولاً ومعنى، وأنه كلام الله تكلم به، ولكنه لا يلحق بالقرآن؛ لأن القرآن له خصوصيات ليست لهذا، مثل التحدي، والتعبد بالتلاوة، ومثل وجوب الطهارة المَسِّ الكتاب الذي فيه كلام الله، هذا هو الصواب الذي يجب أن يعمل به، أنه لا يمس المصحف إلا طاهر لقوله تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩﴾، قال الله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧﴾ [الواقعة: ٧٥ ـ ٧٧] فهو يقسم بأن هذا قرآن كريم، ثم قال: ﴿فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٠﴾ [الواقعة: ٧٨ ـ ٨٠] فهو خبر بمعنى الأمر، أنه لا يمسه إلا الطاهر، والمسألة فيها خلاف ولكن جمهور العلماء على هذا، ولا يجوز للإنسان أنه يتتبع الرخص وما شذ من المسائل.

قوله: «**ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي**»: «**من أظلم**»؛ يعني: أنه لا أحد أظلم من هذا، ولا يشكل علينا أنه جاء هذا الأسلوب في غير ذلك كما قال جل وعلا: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ﴾ [البقرة: ١١٤] وغير ذلك من النصوص، لأنه يقول إن المعنى أن من فعل ذلك فقد بلغ من الظلم ما هو في مكان عظيم فاق كثير من الظلمة في هذا، فيكون مشاركاً لغيره في الظلم ولا يلزم أن يكون هذا هو أظلم الظلم على الإطلاق؛ لأن الشرك أعظم من هذا؛ ولهذا المشرك تحرم عليه الجنة ومأواه النار خالداً فيها أبداً.

وبهذه النصوص استدل الخوارج والمعتزلة على خلود أصحاب الكبائر في النار ـ نسأل الله العافية ـ لأن هذا هو ظاهر النصوص، فهم أخذوا بذلك، وقد أخطاؤا فلا يجوز أن يحكم على المسلم بالكفر والخلود في النار بكونه فعل الكبائر أو شيئاً منها.

فقوله: «**فمن أظلم**»: «**من**» استفهامية بمعنى الإنكار والخبر بأنه أظلم الناس، أن من ذهب يفعل ذلك فإنه الظالم، والظلم هو: وضع الشيء في غير

موضعه؛ وهذا وضع الأمر في غير موضعه بل إنه جعل نفسه يخلق يصور مثل الله جل وعلا، وهذا هو وضع الشيء في غير موضعه.

وقد عرفنا في ما مضى أن أعظم الذنوب هو الشرك، وهذا يدخل فيه لأنه صار مضاهئاً لله وهذا نوع من الشرك، ولهذا ما يشكل علينا أنه قال: «أظلم الظلم» لأنه تضمن الشرك بالله جل وعلا، وإن كان الإنسان لا يعرف هذا ولا يدور هذا في باله وهذا قد يستغرب لكثرة التصوير واشتهاره، وخفة الأمر عند كثير من الناس في هذا الشأن صار التصوير أمر سهل وآلات التصوير منتشرة ومتيسرة، فصار التصوير مألوفاً عند أكثر الناس.

نقول: إن هذا مما بلغه الرسول ﷺ وهو من الآيات الدالة على كونه رسول الله ﷺ لأنه ذكر هذه الأحاديث الكثيرة، وهذا التهديد العظيم والوعيد ولم يكن ذلك موجوداً في وقته إلا نادراً، وليس بهذه الصور لما أعلمه الله جل وعلا من الأمور التي ستقع في الأمة وفيه الخلل الاعتقادي.

وقوله: «يخلق كخلقي»: فيه أنه أضاف إليه الخلق، أنه يخلق، والمقصود بقوله: «يخلق» أنه يفعل الشيء.

وقوله: «**كخلقي**»؛ يعني: كخلق الله جل وعلا الذي يقول للشيء كن فيكون، والمقصود بذلك الإحياء التي يصورها الله جل وعلا، ولا يلزم المماثلة مطابقة من كل وجه ولكن في الصورة فقط، فصار هذا خلقاً ولهذا تحداهم جل وعلا.

ثم جاء الأمر بالتحدي للإعجاز، فهو أمر إعجازي وتحدي. «**فليخلقوا ذرة**»؛ يعني: نملة صغيرة وهي أقل قدراً من غيرها، فإذا كان عندهم مقدرة لحياة وحركة فليفعلوا ولن يستطيعوا ذلك؛ لأن هذا من خصائص الله.

وقوله: «أو ليخلقوا حبة»؛ يعني: هذا تدني مما هو أعلى منه، وهو الحبة، والحبة المقصود بها الحبة التي تنبت ويصير لها حياة فهم لا يستطيعون ذلك أيضاً.

وقوله: «أو ليخلقوا شعيرة»: هذا للتنوع، قيل أن الشعيرة بمعنى الحبة

وقد تكون «أو» للشك من الراوي وقد لا يكون لأن الشعيرة أقل قيمة من الحبة، وهو كله من باب التعجيز، ليدل على عجزهم فكيف ينصبوا أنفسهم أنهم شبهاء لله جل وعلا في الفعل وهذا الذي جعلهم أظلم الظالمين، فهم الظلمة في ذلك، فهذا يدل على أن الأمر عظيم، وأنه كبير جداً.

وفي قوله: **«فليخلقوا ذرة، أو ليخلقوا حبة، أو ليخلقوا شعيرة»**، استدل بهذا بعض العلماء على تحريم التصوير مطلقاً لكل ما فيه روح، حتى الشجر لأنه هو الذي فيه التحدي، والظاهر أن هذا غير مقصود والله أعلم، وإنما هذا من باب التعجيز، ولهذا جاء عن ابن عباس لما جاءه رجل يستفتيه بأنه يعمل الصور فصار يقول له: ادنو حتى جلس عند ركبتيه فروى له هذا الحديث: **«كل مصور في النار، يجعل له بكل صورة صورها نفساً يعذب بها في جهنم»**، ثم قال له: إن كنت فاعلاً ولا بد ففي الجبال وفي الشجر، في الأشياء التي لا حياة فيها. فأفتاه بجواز ذلك، وهذا مذهب مجاهد رحمه الله أن التصوير محرم مطلقاً لكل ما فيه حياة، سواءً كان شجر أو نبات أو حيوانات مستدلاً بهذا النص.

❁ **قال المؤلف رحمه الله: ولهما: عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله»**[1].

قوله: «أشد»: أفعل تفضيل مما يدل على أنهم فضلوا الناس في العذاب، وأن عذابهم شديد ويقال فيه مثل ما قيل في «أظلم»؛ يعني: أنهم لهم عذاب شديد يشاركهم من هو أعلى منهم في الفعل، ولكن نقول هذا ظاهر جداً في أن هذا الأمر كبير، وأن صاحبه يكون عذابه عظيم.

وقوله: «عذاباً يوم القيامة»؛ يعني: أن عذابهم يتم، وقد يكون يقصد بالقيامة نهاية الدنيا بالنسبة لكل واحد فيدخل فيه عذاب القبر إلى أن يدخل النار ـ نسأل الله العافية ـ فيكمل العذاب، هذا إذا كان من أهل النار.

---

(١) رواه البخاري رقم ٥٩٥٤، ومسلم رقم ٢١٠٧.

وقوله: «الناس»: يدل على الإطلاق، فهذا يدل على عظم هذا الفعل؛ لأنه عمَّم قال: «**أشد الناس عذاباً يوم القيامة**» فدخل في هذا العموم أهل الكفر، فعليه يكون المصور أشد عذاباً من الكفار، والله أعلم، لأن كلام الرسول ﷺ في هذا واضح، ولا يجوز لنا أن نتأول بتأويلات تخرجه عن ظاهره، ويجب أن يبقى على ما هو عليه، نقول الأمر كما قال عليه الصلاة والسلام، وكذلك الذي قبله يقال فيه ذلك.

ثم هذه النصوص وأشباهها، عند أهل السُّنَّة أنها نصوص وعيد وأنها تترك على ما جاءت عليه مع اعتقاد أن الذي يفعل هذا الفعل لا يكون كافراً وخارجاً من الدين الإسلامي، ولكنه معرضاً لهذا الوعيد الشديد إن لم يتب ويعفو الله عنه.

وهم من أشد الناس عذاباً يوم القيامة، ولا يقال أن هذا يتعارض مع ما ذكر الله جل وعلا مثل: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦] لأنهم داخلون في الناس، ولا يعارض بأن يقال إن هذا من نوع وذاك من نوع آخر، فهذا كله على خلاف الظاهر، والواجب أن يجرى هذا على ظاهره، وسوف يلاقون جزاءهم يوم يبعثهم الله جل وعلا ويشاهدون الأمر على ما هو عليه.

قوله: «يضاهئون»: المضاهة هي المشابهة، «يضاهئون»؛ يعني: يشابهون الله جل وعلا، ومعلوم أن المشابهة لا تأتي من كل وجه، ولكنها في الصورة الظاهرة فقط.

قوله: «بخلق الله»: هذا يدل على العموم؛ لأنه خص في هذا الشيء؛ يعني: التصوير.

❁ **قال المؤلف** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **ولهما عن ابن عباس سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل مصور في النار، يجعل له بكل صورة صوَّرها نفس يعذب بها في جهنم»**[١].

---

(١) رواه مسلم رقم ٢١١٠.

وقوله: «كل مصور في النار»: كل هذه من العمومات المطلقة التي لا يخرج عنها شيء، وهي مأخوذة من الإكليل؛ يعني: الإحاطة، ولهذا قال: **«كل مصور»** فلا يخرج من هذا من يسمى مصوراً، فهو أتى بالحكم؛ يعني: هذا حكمه.

قوله: «في النار»: ثم بيَّن وجه العذاب، وكيفيته أنه **«يجعل له بكل صورة صورها نفس يعذب بها في جهنم»**، هذا صريح وواضح في كونه يكون في النار ـ نسأل الله العافية ـ وهو صريح في أنه يدخل فيه عموم التصوير، سواء كان التصوير باليد أو بغيرها سواء كان مجسداً وله ظل أو كان مخططاً أو غير ذلك.

وقوله أيضاً **«يجعل له بكل صورة صورها»**؛ يعني: هذا عموم أيضاً، أن كل صورة يصورها يجعل له نفس يعذب بها.

وقوله: «يعذب بها في جهنم»: وهذا صريح في أن عذابه يكون في جهنم، ولهذا يكون هذا أشد الذنوب.

۞ قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: ولهما عنه مرفوعاً: «من صوَّر صورة في الدنيا كُلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ»[1].

قوله: «كلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ»؛ يعني: يوم القيامة، فهذا نوع آخر من العذاب ليس من النوع الأول، ولهذا جاء أنه يقال لهم: **«أحيوا ما خلقتم»**[2] يكلفون بذلك، والذي يكلف بشيء لا يمكنه ولا يستطيعه يكون من أشد الناس عذاباً.

فهذه نصوص كلها صحيحة عن النبي ﷺ ثابتة، وهناك نصوص كثيرة غير هذه ثابتة في الصحيحين وغيرها، ولكن المعنى واحد.

۞ قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: ولمسلم عن أبي الهياج قال: قال لي علي: ألا

---

(١) رواه البخاري رقم ٥٩٦٣، ومسلم رقم ٢١١٠.

(٢) رواه البخاري رقم ٥٩٥١، ومسلم رقم ٢١٠٨ من حديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الذين يصنعون هذه الصور يعذبون يوم القيامة يقال لهم: أحيوا ما خلقتم»**.

أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ: «أن لا تدع صورة إلا طمستها ولا قبراً مشرفاً إلا سويته»[١].

قوله: «عن أبي الهياج»: الأسدي، حيان بن حصين، وهو تابعي وهو من أصحاب علي ﷺ.

قوله: «قال لي علي»: وهو علي بن أبي طالب ﷺ.

قوله: «ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ: أن لا تدع صورة إلا طمستها ولا قبراً مشرفاً إلا سويته»: المقصود إبطال الصور وإعدامها إما بالطمس وإما بالإزالة.

وفيه أن الرسول ﷺ كان يبعث البعوث لهذا.

هذان الأمران من أعظم الأشياء فتنة وهما السبب في عبادة غير الله جل وعلا؛ يعني: الصور والقبور، فأمر الرسول ﷺ بطمس الصور، وطمسها إذا كانت مخططة أو كانت مثلاً بالألوان أنها تطمس؛ يعني: تكون شيء واحد كالشجرة مثلاً، ما يكون لها معالم.

وقد يكون الطمس يقصد به الحك والإزالة كما جاء في غزوة الفتح، أن النبي ﷺ لما رأى الصور في البيت لم يدخله حتى أمر بها فمحيت ورأى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بأيديهما الأزلام فقال: **«قاتلهم الله والله ما استقسما بالأزلام قط»**[٢]، فأمر بشيء يُبل نحو الخيش فمسحت قبل أن يدخل، فلما مسحت دخل.

كما أنه أزال الأصنام التي حول الكعبة، لما دخل مكة يوم الفتح فجعل يطعنها بعود في يده ويقول: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الإسراء: ٨١]، ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٩][٣].

فصارت تتهاوى ثم أزيلت نهائياً وأحرقت.

فكذلك الصور كان يبعث من يزيلها، ومن المعروف أن الفتنة فيها سريعة

---

(١) رواه مسلم رقم ٩٦٩. (٢) رواه البخاري رقم ٣٣٥٢.

(٣) رواه البخاري رقم ٤٢٨٧، ومسلم رقم ١٧٨١ من حديث ابن مسعود ﷺ.

كما هو واقع في الناس، والقبور الفتنة فيها أعظم فكان يأمر بتسويتها، والتسوية كما هو مفهوم من الكلام: أن تسوى بالأرض، وليست التسوية بأن تكون متساوية كل واحد مثل الآخر هذا بعيد من المقصود؛ لأنه قد تكون مثلاً مبني عليها فهل نقول أنها كلها يبنى عليها.

وقد جاءت أحاديث كثيرة فيها، مثل النهي عن الكتابة عليها، أو إضافة شيء إليها، أو وضع مثلاً علامات عليها، أو تجصيصها أو الإسراج عليها وغيرها مما هو منصوص عليه في السنن عن المصطفى ﷺ.

فالرسول ﷺ كان يبعث البعوث لإزالة ذلك، فعرف الصحابة ذلك، ولهذا جاء في صحيح مسلم: أن فضالة لما كانوا في الغزو مات صاحب لهم فأمر أن تسوى عليه الأرض وقال: إن الرسول ﷺ أمرنا بهذا[1].

قوله: «ألا أبعثك»: البعث: هو الإرسال، يرسله بالشيء ويأمره. وعلي بُعث إلى اليمن، ولكن الظاهر أن هذا بعث غيره.

قوله: «ألا تدع صورة إلا طمستها ولا قبراً مشرفاً إلا سويته»: وهذا يدل على أنه يجب على الإمام أنه يفعل ذلك كما فعل ذلك علي وأمر به لأنه فعل الرسول ﷺ. فهذه النصوص ظاهرة في تحريم الصور، وأنه من أعظم المحرمات.

والصور أنواع: منها ما هو مجمع على تحريمه ولا خلاف فيه وهو الصورة المجسدة التي لها ظل، ولها جسد هذا لا خلاف فيه أنه من أعظم المحرمات.

ومنها كذلك الصور التي تخطط باليد أو بالقلم أو بغير ذلك للحديث الذي في الصحيح عن عائشة: أنها اشترت نمرقة فيها تصاوير فلما رآها رسول الله ﷺ قام على الباب فلم يدخله فعرفت في وجهه الكراهية فقلت: يا

---

(١) رواه مسلم رقم ٩٦٨ عن ثمامة بن شفي قال: كنا مع فضالة بن عبيد بأرض الروم برودس فتوفي صاحب لنا فأمر فضالة بن عبيد بقبره فسوي ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يأمر بتسويتها.

رسول الله أتوب إلى الله وإلى رسوله ﷺ ماذا أذنبت؟. فقال رسول الله ﷺ: «**ما بال هذه النمرقة**». قلت: اشتريتها لك لتقعد عليها وتوسدها، فقال رسول الله ﷺ: «**إن أصحاب هذه الصور يوم القيامة يعذبون فيقال لهم أحيوا ما خلقتم**». وقال: «**إن البيت الذي فيه الصور لا تدخله الملائكة**»[1]، وهذا معروف أنه في الكساء والكساء لا تكون الصورة فيه مجسدة، بل تكون مخططة، فهذا يدل على أنه من المحرمات.

والتصوير بالآلة مثل التصوير الفوتوغرافي هذا بإجماع الناس أنه يسمى صورة والفاعل يسمى مصور، فهل يخرج هذا عن كونه مصوراً أو أن هذه صور؟ بل الفعل بهذا أدق من الفعل باليد، والعلة هي المضاهاة؛ يعني: المشابهة فهي موجودة تماماً بذلك.

فالآلة تحتاج إلى من يديرها ويوجهها، وهذا الذي يديرها ويوجهها هو المصور، فهو مثل التخطيط بالقلم، لا فرق بين هذا وهذا، فهي صور على كل حال.

❁ **قال المؤلف** رحمه الله: **فيه مسائل:**

❁ **الأولى: التنبيه على العلة وهو ترك الأدب مع الله لقوله: «ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي».**

يعني: طلب التشبه بالله جل وعلا.

❁ **الثانية: أنه يكلف أن ينفخ فيه الروح.**

هذا أيضاً من العذاب؛ لأن هذا ليس بإمكان أحد، هذا خاص بالله جل وعلا، والمقصود بأن ينفخ فيها الروح؛ يعني: أن يحييها يجعلها حية.

❁ **الثالثة: الأمر بطمسها إذا وجدت.**

يعني: إذا كان بالتخطيط، أما إذا كانت بالتجسيم ولها ظل فإنه لا يكفي الطمس، لا بد من إزالة معالم الصورة، والمعالم هو الرأس.

---

(١) رواه البخاري رقم ٢١٠٤، ومسلم رقم ٢١٠٧.

۞ **الرابعة: أن الله يخلق بعدد كل صورة نفساً يعذب بها المصور في جهنم.**

وفي ضمن هذا الحكم الذي يصير إليه المصور، أنه يكون في النار، وهذا شيء شديد جداً.

۞ **الخامسة: الأمر بطمسها إذا وجدت.**

يعني: إزالة ما يجعلها متميزة، ويجعلها صورة، والطمس معروف كأن تجعل كالشجرة مثلاً أو كالحجر، حيث لا يكون فيها علامات تميزها ويكون هذا في الشيء الذي يزيل هذه العلامات.

وكذلك جاء الأمر بقطع الرأس، إذا قطع الرأس أصبحت الحياة غير مستقرة فيه فإنه يزول الحكم عنه، ومعروف أن الأحاديث جاءت بأن الملائكة لا تدخل البيت الذي فيه صورة أو كلب، والملائكة ليست الملائكة المكلفون بحصر أعمال الإنسان هؤلاء يدخلون مع الإنسان مع كراهيتهم ويصبح الإنسان يرتكب آثاماً في هذا الأمر لأن هؤلاء ملزمين بهذا، ولكن الملائكة الذين لا يدخلون هم الملائكة السيارة الذين يتتبعون محل الرحمة ومحل نزولها وما فيه من الذكر من الحلق وغيرها، ولكن عرفنا أن الحفظة لا يفارقون الإنسان دائماً. كما جاء في الحديث: «**إياكم والتعري فإن معكم من لا يفارقكم إلا عند الغائط، وحين يفضي الرجل إلى أهله فاستحيوهم وأكرموهم**»[1].

ولهذا صارت بيوت أكثر الناس مأوى للشياطين، والملائكة تفر منها لوجود الصور ووجود الأغاني وهي التي تألفها الشياطين وتأنس بها، فالأغاني هي قرآن الشيطان، ولهذا لا تجتمع الأغاني مع كلام الله جل وعلا في قلب عبد لا بد أن يخرج أحدهما.

وكذلك الأماكن إذا كانت مستقر الأغاني والصور فهي مألف الشياطين والملائكة تفر منها لا تقربها، ولهذا كثرة ملابسة الجن للناس لهذا السبب والناس يشتكون هذا بكثرة واللوم عليهم في ذلك.

---

(١) رواه الترمذي رقم ٢٨٠٠ من حديث ابن عمر.





الباب الثاني والستون

❁ قال المؤلف رحمه الله: **باب ما جاء في كثرة الحلف.**

يعني أنه يدل على خفة الدين وعدم المبالاة بأوامر الله جل وعلا، فيكون دليلاً على نقص التوحيد يعني ضعفه، وقد يكون دليلاً على ذهابه وأنه لا وجود له، وهذا هو وجه إدخال هذا الباب في كتاب التوحيد.

وجميع الذنوب تدخل في هذا، فالعبد إذا فعل الذنب وكان مستخفاً به فمعنى ذلك أنه لم يُراقب الله جل وعلا ولم يخف منه، وهذا من نقص توحيده.

أما ما كان عن غفلة وسهو فهذا أيضاً يكون قد اختلس الشيطان من دينه ودخل عليه في ذلك لأنه فيه مداخل وضعف.

وهو رحمه الله لم يعين الجزاء قال: «**ما جاء في كثرة الحلف**»؛ يعني: أنه جاء فيه وعيد من الله جل وعلا أو من رسوله ﷺ.

وعبر بكثرة الحلف لأنه إذا كثر الحلف فإنه لا بد أن تقع المخالفة؛ يعني: يقع في الحنث وذلك خلاف ما أمر الله به في قوله: ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ﴾ [المائدة: ٨٩]، هذه من الأمور التي أمر الله جل وعلا بحفظها فقد نص جل وعلا على عدد من الأشياء التي أمر عباده بأن يحفظوها مثل الصلاة والفروج وغيرها.

وحفظ الإيمان فُسر بشيئين:

ـ فسر بعدم الحلف، وهذا هو الذي أراده المؤلف رحمه الله أن لا يحلف لأنه إذا حلف يجوز أنه يخالف حلفه فيقع في الحنث، وهذا روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لا تحلفوا، واحفظوا إيمانكم. لأن الإنسان إذا حلف لا بد أن يقع في المخالفة، ويكون النهي هنا «لا تحلفوا» وينصرف إلى الكثرة؛ لأن هناك حالات يتعين على الإنسان أن يحلف، أن يتوجه اليمين إليه، وما

أشبه ذلك فيكون مثل ما قال المؤلف رحمه الله ما جاء في كثرة الحلف.

والرسول ﷺ كان يحلف في بعض الأشياء ولكن في الأمور الظاهرة وفيما يخبر بها عن الله جل وعلا، في أمور الحق.

والله جل وعلا أكثر في كتابه من الإقسام وهو الحلف وهذا من تقوية الخبر، والله إذا أخبر عن شيء فهو حق، ولكن المُخْبَرُ قد يكون عنده تردد أو عنده عدم قبول للخبر فيقسم له حتى يكون له موقع من نفسه وداع إلى التصديق.

ـ القول الثاني في الآية: لا تتركوا أيمانكم إذا حلفتم بلا كفارة؛ يعني: كفِّروا عن أيمانكم التي خالفتم فيها وحنثتم.

والحنث هو: المخالفة؛ يعني: أن يحلف على شيء ثم يفعله. ويسمى حنث لأنه مأخوذ من الإثم، والحنث هو الإثم، أن يقع في الإثم إن لم يكفِّر.

ومن رحمة الله جل وعلا أن جعل للحلف الكفارة، والكفارة جاءت على التخيير والترتيب، جاء فيها عتق رقبة أو إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم، هذا على التخيير بين هذه الثلاثة، فأي واحدة من هذه فعلها الإنسان يكفيه.

فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام، وهذه على الترتيب لا بد، فلا ينتقل إلى الصيام إلا إذا عجز عن الإطعام أو الكسوة أو العتق.

فيكون معنى ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾؛ يعني: احفظوها أن تقع بلا كفارة.

والقول الأول هو الذي أراده المؤلف رحمه الله لأنه قال: كثرة الأيمان، وكثرتها داع إلى الوقوع في الإثم.

ومعلوم أن اليمين لا تجوز أن تكون إلا بالله أو بصفة من صفاته، أما إذا صارت اليمين بغير الله فهو شرك، واليمين إذا كانت شركاً أو كانت غموساً؛ يعني: كذباً فلا كفارة لها وقد سبق في النذر أن من نذر معصية أنه يحرم عليه الوفاء به.

واختلف هل يجب عليه الكفارة، سبق في ذلك الباب، وأن الصحيح أنه

عليه كفارة يمين لحديث ورد في هذا عن النبي ﷺ[١].

وعلى هذا نقول أن الحلف أقسام، الحلف الذي يذكر لتأكيد الأخبار، ويكون بالله أو بصفة من صفاته ـ تعالى وتقدس ـ فهذا هو الذي أمر بحفظه.

أما إذا كان كذباً فهذا يسمى اليمين الغموس لأنه يغمس صاحبه بالإثم ومنه شهادة الزور ـ نسأل الله العافية ـ.

وأما إن كان بغير الله أو صفة من صفاته فهذا شرك، والشرك هو من أعظم المحرمات بل هو أعظمها على ما جاءت به النصوص.

۞ قال المؤلف رحمه الله: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحلف منفقة للسلعة، ممحقة للكسب» أخرجاه[٢].

قوله: «منفقة»؛ يعني: أنه طريق لإنفاق السلعة؛ يعني: لترغيب الناس فيها، فإذا حلف أنه أعطي بها كذا أو أنه اشتراها بكذا، فهذا يجعل المشتري يقدم عليها يظن أنه صادق، فهو يحلف لأجل الزيادة التي يريدها فيكون هذا أيضاً سبباً لمحق البركة. وإذا محقت البركة فلا خير فيها، فيكون قد تحصل على الإثم وذهب ما أراده، وهذا يدل على رجحان الدنيا عنده على الدين، ولا بد أنه إما فاقد للتوحيد، أو أن توحيده ضعيف ضعفاً شديداً، فهذا هو وجه الدلالة من هذا.

وقد جاءت أحاديث في هذا المعنى، وجاء فيه شيء عام وشيء خاص، الخاص الذي يكون بعد صلاة العصر لأن هذا الوقت وقت فضيل استقبال الليل وختم العمل، فمن حلف في هذا الوقت وهو كاذب فقد وقع في أمر عظيم كما جاء في الحديث.

وكذلك إذا كان بعد الصلاة، ولهذا أمر الله ﷻ بالشهود الذين يشهدون على الوصية، إذا اتهموا أنه يؤتى بهم بعد الصلاة فيستشهدون، وهذا مظنة بأن العقوبة تعجل لهم إذا كذبوا.

---

(١) باب من الشرك النذر لغير الله ص٣٣٥.

(٢) رواه البخاري رقم ٢٠٨٧، ومسلم رقم ١٦٠٦، والنسائي رقم ٤٤٦١ واللفظ له.

فقوله: «الحلف منفقة»؛ يعني: أنها تنفق عند الناس، ومعنى النفاق: يعني الرغبة أن الناس يرغبون فيها، ورغبتهم لأجل أنهم صدقوا هذا الكاذب الذي حلف. فهل يدخل في هذا الحلف وهو صادق؟

ولا ينبغي للإنسان أن يحلف على السلعة وإن كان صادقاً، بل الرزق عند الله جل وعلا فيعرضها وإذا سئل عنها يخبر، إذا قيل بكم اشتريتها؟ أو هل ترى أنها جيدة أو رديئة؟ يجب أنه يبين ويخبر بالواقع حتى يبارك له فيها، وهذا لا يمنع أن الناس يرغبون فيها إذا كان للمشتري فيها رغبة أخذها وإن كانت فيها زيادة بلا إشكال، وإذا صدق بورك له في ذلك وتكون الدنيا تبعاً لدينه وهذا هو الواجب.

ولهذا أحد السلف لما جلب حماراً سأله الذي يُريد أنه يشتريه قال: أترضه لي؟ قال: لو رضيته لم أبعه[(١)]. ومع الأسف كثير من مبيعات المسلمين على خلاف الحق وبعضهم يعمي على الإنسان، ويكتم ولا سيما في الأشياء التي لا تكون معروفة، وبعضهم يمنع حتى النظر فيها يقول: تشتريها على ما هي عليه، وهذا لا يجوز وهو بيع باطل؛ لأن البيع لا بد أن يكون فيه التراضي وفيه معرفة الثمن والمثمن.

قوله: «ممحقة للكسب»: ممحقة مثل منفقة جاءت منكَّرة، فهي تدل على العموم، أن الإنسان إذا فعل ذلك محق كسبه، والمحق هو الإزالة والإبطال ـ نسأل الله العافية ـ فمن محق كسبه فهو خاسر.

ثم يلزم على هذا أمر آخر هو أنه أخذ مالاً بلا حق فيكون من أكل الحرام، ومن أكل مال أخيه بلا حق فيكون هذا سبباً لعدم قبول عمله كله ـ نسأل الله العافية ـ لأن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، فمن أكل طيباً ودعا وعمل قبل، ومن أكل حراماً فإنه لا يقبل منه كما جاء في الحديث الذي في صحيح مسلم[(٢)] وغيره وكذلك الآيات.

---

(١) جامع العلوم والحكم ١/ ١٢١ وهو محمد بن واسع ﷺ.

(٢) رواه مسلم رقم ١٠١٥ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أيها الناس إن الله =

على المشركين أنهم يعبدون ما لا يرد عليهم كلاماً، وأخبر أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً، وأصحاب العجل الذين عبدوا العجل وكذلك غيرهم الذين يعبدون الأحجار والأشجار والأموات وغيرهم فقد عيروا بذلك، فعدم الكلام أو القدرة عليه نقص يتقدس الله عنه.

أما قولهم أنا إذا أثبتنا الكلام لزم من ذلك أننا نشبه الله، فهذا كلام باطل هذا كقولك مثلاً: إذا أثبتنا كلام الله لزم أننا نشبه الله بالموجودات، وهذا باطل وهو من حجج الشيطان التي يضل الناس بها.

وقوله: «ولا يزكيهم»: التزكية أخذت من النماء والزيادة والكثرة. والتزكية بالأعمال، إذا زكى عمله وزُكيت نفسه انفتح أمامه كل خير، وأعظم الأشياء الإيمان بالله جل وعلا، وأن يتحلى بالتقوى ثم يزداد من العمل، وقد نهى الله عباده أن يزكوا أنفسهم ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢] وتزكية النفس أن يثني الإنسان على نفسه يقول: أنا أفعل وأنا فيَّ كذا وكذا، فالتزكية إلى الله من زكاه الله فهو الزاكي ومن منع الله بركته عنه وفضله فهو ضال هالك.

وقوله: «ولهم عذاب أليم»: أليم؛ يعني: مؤلم موجع شديد الألم؛ لأن أليم صيغة مبالغة فعيل، وهذا وعيد شديد كونه لا يكلم ولا يزكى وله عذاب أليم، فهذا من أشد الأشياء ـ نسأل الله العافية ـ.

وهذا لا ينفي كونه يدخل في قوله: ﴿قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ١٠٨﴾ [المؤمنون: ١٠٨] وما أشبه ذلك من كلام العذاب، وهو دليل واضح أن الله يكلم خلقه يوم القيامة، وهذا أدلته كثيرة كما سبق.

ثم بدأ بذكرهم تفصيلاً **قال: «أشيمط زان»**: أشيمط: تصغير أشمط، وصُغر لتحقيره وإهانته. والأشمط: هو الذي اختلط شيب شعره بسواده؛ يعني: أن من كان بهذه الصفة فقد ضعفت عنده الشهوة التي قد تحمله على ارتكاب المعصية، فإذا ارتكب ذلك دل على أن هذا شيء متأصل عنده حب الفاحشة، فيكون ممن يرغب بالفاحشة ويحبها، لا لدافع يدفعه بالقوة، بخلاف الشاب فإنه قد يدفع قوة الشهوة ثم بعد ذلك إذا وقع في هذا الشيء يندم

ويرجع، أما هذا فالغالب أنه يتمادى في شره لأن هذا خُلقه، محبة الفاحشة.

«**أشيمط زان**» فكيف إذا كان شعره كله أبيض هذا يكون أعظم وأطم - نسأل الله العافية - لأن الشهوة ضعفت عنده.

فهذا يدلنا على أن الإنسان إذا كان يفعل المعاصي لرغبة فيها أنه فاقد للإيمان، وأن عذابه يُضاعف أكثر من غيره.

ثم قال: «**وعائل مستكبر**»: العائل هو: الفقير؛ لأن الفقر ليس مدعاة للكبر، وإنما الذي قد يدعو إلى الكبر الغنى والمناصب والرفعة، فالمال هو الذي يدعو الإنسان إلى الكبر كما قال الله جل وعلا: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق: ٦، ٧]، أما إذا كان عائلاً فقيراً واستكبر فهذا دليل على أن الكبر خُلق له، ومن كان الكبر خلق له فهو من البعيدين عن الخير من أتباع الشيطان، وهذا الذي قيل فيه: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر**»[(١)].

والثالث: «**رجل جعل الله بضاعته**».

الله اسم الجلالة منصوب على أنه مفعول.

قوله: «**جعل الله بضاعته**»؛ يعني: بالحلف.

قوله: «**لا يشتري إلا بيمينه ولا يبيع إلا بيمينه**»: وهذا دليل على عبادته الدنيا، وتقديمها على دينه وأنه يجعل دينه وسيلة لكسب الدنيا ومن كان بهذه الصفة فهو من الهالكين ولا توحيد عند مثل هذا، إما أن يكون ضعيفاً جداً بحيث أنه لا يمنعه من المعاصي وارتكاب الجرائم، أو أنه لا توحيد له أصلاً فهو مفقود.

ووجه الدليل من هذا الحديث واضح قوله: «**جعل الله بضاعته**» لأنه لا قَدْرَ لله عنده، وإنما القدر عنده للمال، وقد يكون الذي يشتريه أو يبيعه أمر ضئيل ومع ذلك يحلف، وبهذا استحق أن يكون له هذا العذاب الذي ذُكر أنه

---

(١) رواه مسلم رقم ٩١، وأحمد في المسند رقم ٣٩١٣ من حديث ابن مسعود ﷺ.

لا يكلمه الله ولا يزكيه ويعد له عذاباً أليماً هذا من أعظم الوعيد.

والسبب في هذا أنه لم يقدر الله حق قدره، ولم يقم بحقه الذي أوجبه عليه، بل إما أن يكون حق الله عنده مفقود أو أنه ضعيف.

۞ قال المؤلف ﷺ: وفي الصحيح عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: «خير أمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم ـ قال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثاً ـ ثم إن بعدكم قوم يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السِّمَن»[١].

قوله: «وفي الصحيح»؛ يعني: في الحديث الصحيح، وهذا الحديث في الصحيحين. وهذا اللفظ الذي ذكره لفظ مسلم.

عمران بن حصين مر معنا مراراً وهو من أفاضل الصحابة، والصحابة ليس فيهم دني ولكن بعضهم برز في الفضل ومنهم عمران بن حصين الخزاعي، وهو وأبوه صحابيان حصين جاء أن رسول الله ﷺ سأله قال: كم تعبد؟ قال: أعبد سبعة. ستة في الأرض وواحد في السماء. فقال له: **ما الذي تعده لرغبتك ورهبتك؟** قال: الذي في السماء. فقال: **يا حصين أما إنك لو أسلمت، علمتك كلمتين تنفعانك**، فلما أسلم حصين أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، علمني الذي وعدتني، قال: قل: «**اللهم ألهمني رشدي وأعذني من شر نفسي**»[٢].

وعمران كانت تسلم عليه الملائكة، يعني كفاحاً، فصار به بواسير فاكتوى فذهبت الملائكة، ثم تاب وندم على ذلك فعادت لما أخبر من أخبر وقال له: لا تخبر أحداً بذلك حتى أموت، فلم يخبر حتى مات ﷺ.

قوله: «خير أمتي قرني»: الأمة سبق الكلام فيها في أول الكتاب؛ يعني: إطلاقاتها أنها تطلق على الجماعة وعلى الزمن، وتطلق على القدوة الإمام

---

(١) رواه البخاري رقم ٣٦٥٠، ومسلم رقم ٢٥٣٥، وهذا لفظ البخاري.

(٢) رواه الترمذي رقم ٣٤٨٣.

الذي يقتدي به: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٢٠﴾ [النحل: ١٢٠]، وتطلق على الدين: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢] يعني على ملة ودين، ولها إطلاقات غير هذه.

قوله: «**أمتي**»: بالإضافة، والإضافة تدلنا على الاستجابة والاتباع؛ يعني: أمتي التي اتبعتني واستجابت لدعوتي، فهي أمة الإجابة؛ لأن الأمة تنقسم إلى قسمين:

أمة الدعوة وهذه يدخل فيها كل من على وجه الأرض من الجن والإنس كلهم أمته يهود ونصارى ومشركون وعرب وعجم وغيرهم، كلهم أمة له، لأنه ﷺ بعث إلى الخلق كافة، وليس الخلق المقصود أنه يدخل فيهم الملائكة كما يقول السبكي وغيره، الملائكة ليسوا بحاجة إلى أن يرسل إليهم رسولاً بشرياً، ولكن المقصود من على الأرض من الجن والإنس المكلفون، والمكلفون هم بني آدم وبنو الشيطان هؤلاء هم أهل التكليف، وهم الذين خلقت لهم الجنة والنار كما قال جل وعلا في النار: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]، فهي تملء من الجن ومن الناس فقط لأنهم هم العصاة الذين خالفوا أمر الله.

فختم الرسل به ﷺ فلا رسول بعده جعلت رسالته الخاتمة للرسالات كما قال عليه الصلاة والسلام: «**وأنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله تبارك وتعالى**»[1]، ولكن هذه الخيرة والكرم لمن استجاب لرسول الله ﷺ واتبعه.

فقوله: «**خير أمتي**» ظاهر بأنه يقصد بالأمة الذين آمنوا به واتبعوه، وهذا يدخل فيه كل من آمن به واتبعه إلى يوم القيامة.

والخطاب للصحابة، قال: «**خير أمتي قرني**» قد اختلف في القرن ما المراد به، والمشهور أنه مئة سنة وفيه كلام، وقد صحح بعض المحققين أن القرن هو ما اجتمع قوم عليه في أمر مهم، فإذا انقرض أولئك القوم فهذا

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم ٢٠٠١٥، والترمذي رقم ٣٠٠١.

القرن مثل: اجتماع الصحابة على الرسول ﷺ فيبدأ القرن في بعثته صلوات الله وسلامه عليه، وينتهي بآخر من مات من الصحابة سواء بلغ مائة سنة أو أكثر أو أقل، ثم هكذا الذي بعده كذلك، وقد أخبر الله جل وعلا أنه بعث في كل قرن نبياً فيما سبقنا: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَـٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾﴾ [الفرقان: ٣٨]، فالظاهر أن القرن لا يحدد بمائة سنة، وإنما يحدد باجتماع الناس على أمر مهم يجتمعون عليه، فإذا انتهى أمرهم هذا انتهى قرنهم.

وقوله: «خير أمتي»: هذا فيه عموم، والخيرية معلوم أنها تكون في الدين أما الدنيا فلا يوصف الإنسان بها إذا كثر ماله أنه خير الناس، بل قد يكون شر الناس، فهي طريق إلى الطغيان.

ثم قوله: «ثم الذين يلونهم» في الخيرية.

قوله: «ثم الذين يلونهم»: هذا ترتيب، فالصحابة هم أهل الخير الكثير، ثم من يليهم من التابعين فيهم خير ولكنهم أقل من الصحابة، ثم أتباع التابعين أهل خير ولكنهم أقل من التابعين، وهذا الظاهر أنه مطرد يستمر إلى أن يفقد الخير ويصبح لا وجود له، ولكن الرسول ﷺ حدد قروناً ثلاثة، ثم بعد ذلك وصف الذين يأتون بأوصاف أربعة وكلها أوصاف ذم، ولا يعترض على هذا بأنه قد يوجد في القرن الرابع أو الخامس من أهل الفضل والعلم والدعوة إلى الله والقيام بأمر الله لأن الأفراد لا حكم لهم، وإنما النظر إلى المجموع، وكذلك لا يعترض على هذا فيما جاء في سنن أبي داود والترمذي في ذكر أيام الصبر التي يقول فيها الرسول ﷺ: «**فإن من ورائكم أيام الصبر القابض فيهن على دينه مثل القبض على الجمر، للعامل فيهن أجر خمسين**»، قيل: يا رسول الله أجر خمسين منا أو منهم؟ قال: «**بل أجر خمسين منكم**»[1]، فكون الإنسان له أجر خمسين رجل هذا لا يلزم أن يكون أفضل منهم، وإن كان أجره كثيراً فهو أقل منهم بكثير في الفضل، والتفاضل ليس بكثرة الأجر،

---

(١) رواه أبو داود رقم ٤٣٤١، والترمذي رقم ٣٠٥٨ من حديث أبي ثعلبة الخشني، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

التفاضل بالعلم بالله وخوف الله وتوقير الله كما قالوا إن أبي بكر لم يسبق الصحابة بكثرة صلاة أو صوم وإنما سبقهم بشيء وقر في قلبه، وهذا الشيء الذي وقر في قلبه هو معرفة الله وتعظيمه وفقه صفاته وأسمائه تعالى وتقدس.

وهذا نص في أن الصحابة هم أفضل الأمة، وهذا لا خلاف فيه إلا الفرقة الضالة التي هي أضل من اليهود والنصارى وهم الرافضة، فإن اليهود يرون أفضل أمتهم أصحاب موسى ﷺ، والنصارى يرون أفضل أمتهم حواري عيسى ﷺ، وهؤلاء يقولون إن شر الأمة أصحاب رسول الله ﷺ، ولهذا يكفرونهم ويسبونهم والعجب أنهم أيضاً يرمون بعض زوجات الرسول ﷺ بالفجور أيُّ أذية أبلغ من هذه لرسول الله ﷺ، ولهذا لما رميت عائشة رضي الله عنها من قبل المنافقين بسبب وقع، أنها اتهمت برجل شق ذلك على رسول الله ﷺ مشقة عظيمة، حتى قام في الناس وقال: **«من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهلي فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً، وقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلا معي»**[1]، حتى نزل الوحي بتبرئتها أنها طاهرة ولا يليق بالطاهرين إلا الطاهرات الطيبات، فكيف بعد نزول الوحي يجرؤ من عنده شيء من العقل على أن يرميها، والعجيب أنهم يقولون: المبرأة ليست عائشة، إنما هي مارية القبطية، فهم يتعمدون الكذب والزور والبهتان.

المقصود أن ثناء الله، وثناء رسوله ﷺ على الصحابة أمر ظاهر، وكتاب الله مملوء من الثناء عليهم، ولكن مع الأسف أن كثيراً من الشباب المسلم يجهلون هذا الفضل، وقد ينطلي عليهم ما يتكلم به أهل الباطل.

ثم قال: **«ثم إن بعدكم قوماً يشهدون ولا يستشهدون»**.

هذه هي الصفة الأولى، وهي ظاهرة أنها على وجه الذم **«يشهدون»**؛ يعني: أنهم يكذبون يشهدون شهادة الزور هذا هو معناه. فلا يعترض بحديث خالد بن زيد الذي في صحيح مسلم: **«ألا أخبركم بخير الشهداء الذي يأتي**

---

(١) رواه البخاري رقم ٢٦٦١، ومسلم رقم ٢٧٧٠.

بشهادته قبل أن يسألها»[1]، هذا لأنه تحمل شهادة، ثم صاحبها قد يكون جاهلاً بذلك فيأتي ويؤديها إظهاراً للحق وبراءة لذمته، وقيل أنه الذي يتحمل الشهادة لله لأن أمور الدين ليس لها من يدافع عنها والأولى أظهر.

قوله: «يشهدون ولا يستشهدون»؛ يعني: لا يطلب منهم أداء الشهادة. فالأول لا يطلب منهم تحمله؛ يعني: لا يتحملونه، والثاني: لا يطلب منهم الأداء، فيأتون بذلك وهو يدل على استخفافهم بالشهادة وأنها لا قيمة لها عندهم، والقول الأول أولى.

الصفة الثانية: «ويخونون ولا يؤتمنون»؛ يعني: أنهم تكون الخيانة عندهم ظاهرة.

وقوله: «ولا يؤتمنون»: لا يؤدون الأمانة ولا يقومون بها، والأمانة تكون بالنسبة للمخلوق وبالنسبة للخالق، أما الخالق فالدين كله أمانة عنده إيمانه، وما اؤتمن عليه. فهم لا يراعون ذلك، هذه أيضاً من أقبح الصفات.

الصفة الثالثة: «وينذرون ولا يوفون»، والنذر هو: التزام شيء لم يلزمه؛ يعني: أن يوجب على نفسه طاعة ليست بواجبة عليه.

فإذا أوجب على نفسه الطاعة وجب أن يقوم بها: **«من نذر أن يطيع الله فليطعه»**؛[2] يعني يجب أن يطيعه، وهؤلاء لا يوفون، ينذرون ولا يوفون؛ لأنهم لا يهتمون بأمر دينهم ولا يراقبون ربهم، ولا لأمره ونهيه عندهم قدر.

وقوله: «يخونون ولا يؤتمنون»: والخيانة من أقبح الأعمال، ولا يوصف بها إلا من هو مجانب للحق وللتوحيد.

وقول بعض الناس: من خان الناس خانه الله، هذا كلام قبيح لا يجوز أن يقال، الله لا يخون ـ تعالى وتقدس ـ.

وقوله: «ويظهر فيهم السمن»: المعنى أنهم يرغبون في الدنيا ويطلبون الملذات التي تكون سبباً للسِّمن.

---

(١) رواه مسلم رقم ١٧١٩ من حديث زيد بن خالد الجهني.

(٢) رواه البخاري رقم ٦٦٩٦ من حديث عائشة.

ولا يدخل في هذا من حصل له هذا خلقة بدون قصد وإرادة وإنما يدخل في هذا من كان سبباً في ذلك، طلباً لسمن كملء البطون والحرص على ذلك.

على كل حال يدل هذا على رغبتهم في الدنيا أكثر، وأنهم من عباد الدنيا، ومعروف أن من كان عنده خوف من الله ومراقبة أن ذلك يمنعه من السمن الغالب، وليس هذا مطرد قد يكون الرجل سمين وهو خائف من الله جل وعلا.

وعلى هذا نقول أن هذا لمن طلب الملذات لأجل ذلك، وكان ذلك سبباً بفعله، ولا يدخل فيه من وقع في ذلك وهو غير مريد له ولا طالباً له ومحصلاً له لأن السمن قد يكون خلقة.

❁ **قال المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ: **وفيه عن ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته»، قال إبراهيم: كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار**[١].

قوله: «وفيه»؛ يعني: في الصحيح.

قوله: «خير الناس قرني»: وهذا فيه عموم ظاهر؛ لأن الناس يعم جميع من أطلق عليه هذا اللفظ.

قوله: «ثم الذين يلونهم»: ولكن يخرج من هذا العموم الأنبياء والرسل بالنصوص التي جاءت بفضلهم؛ لأنه معلوم أن الرسول لا يكون أدنى من المرسل إليهم، بل هم الذين اصطفاهم الله جل وعلا لرسالته، الاصطفاء هو الاختيار.

قوله: «ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته»؛ يعني: أنه لا يبالي بأن يشهد، أو يقسم، فهذا من باب الاستخفاف؛ يعني: ليس عنده وازع ديني وخوف من الله يمنعه من ذلك، هو دليل على فقد التوحيد أو ضعفه.

---

(١) رواه البخاري رقم ٣٦٥١، ومسلم رقم ٢٥٣٣.

قوله: «قال: إبراهيم»: هو النخعي، وهو من التابعين، من أصحاب ابن مسعود.

قوله: «كانوا يضربوننا»؛ يعني: أهليهم، وهم صغار يؤدبونهم على الشهادة والعهد.

قوله: «ونحن صغار»؛ يعني: يربونهم على تعظيم اليمين وتعظيم الشهادة، وهذا معروف أنهم كانوا صبياناً؛ يعني: لم يصلوا إلى سن التمييز.

ففيه تأديب الأطفال يجب أن يؤدبوا ويعلموا قدر الشهادة وقدر اليمين، وإذا حلفوا يضربون حتى يعرفوا ذلك.

۞ قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ فيه مسائل:

۞ الأولى: الوصية بحفظ الأيمان.

الوصية: هي التأكيد على أمر مهم؛ يعني: الوصية بحفظ الأيمان هي التأكد وليس مجرد الأمر.

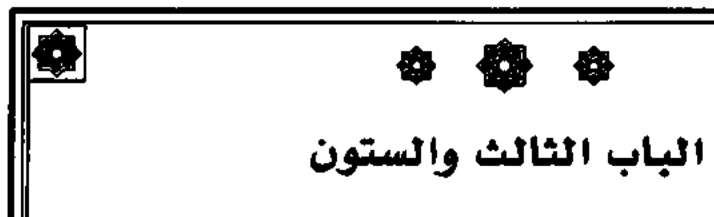
۞ الثانية: الإخبار بأن الحلف منفقة للسلعة، ممحقة للبركة.

معنى كون الحلف منفقة لسلعة يعني: أن الناس يرغبون فيها إذا حلف أن السلعة اشتراها بكذا أو أنه أعطي بها كذا صدقه الناس وأخذوها.

ومعنى **«ممحقة للبركة»** المحق؛ يعني: ذهاب الشيء بلا أثر له ـ نسأل الله العافية ـ؛ يعني: لا يكون له أثر.

۞ الثالثة: الوعيد الشديد فيمن لا يبيع إلا بيمينه، ولا يشتري إلا بيمينه.

وهذا يدل على أنه لا ينبغي أن يحلف وإن كان صادقاً على البيع والشراء لأن هذا ليس فيه أنه يكون كاذباً، فالذي يبيع ويشتري بيمينه يدل على رغبته بالدنيا أكثر من رغبته في الآخرة، ويدل على عدم تعظيم اليمين لأن من أكثر الحلف لا بد أن يخالف.

الباب الثالث والستون

۞ **قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: باب ما جاء في ذمة الله وذمة رسوله.**

يعني: من تعظيم ذلك ووجوب الوفاء به؛ لأن التهاون في هذا تهاون في حق الله جل وعلا وعدم تقديره، وهو دليل على قلة معرفته بالله تعالى وتقدس، وهذا يكون من القوادح في التوحيد، أو من مذهباته.

قوله: «في ذمة الله»: الذمة هي العهد، والميثاق الذي يؤخذ لأنه يكون دين، فهو يكون مثل الدين الذي يكون في ذمة الإنسان، والدين الذي يتحمله، وهذا أعظم.

وذمة الله معناها: أنه يخبر أن هذه ذمة الله، أو هذه ذمة نبيه ﷺ، فهذا يجب أن يكون عن علم، لا يجوز أن يكون محتملاً أن يكون هذا أو غيره.

والسبب في هذا أن الحكم على الشيء بأن هذا عهد الله أو هذا دينه، أو هذا الذي أحله الله، وهذا الذي حرمه الله لا يجوز أن يكون بالرأي والاجتهاد، يجب أن يكون بدليل شرعي، وإذا لم يكن ذلك فيأتي الشيء المحتمل، وهذا يقع كثيراً لكثير من الناس وسواءً بالخبر أو الاستفتاء أو غير ذلك.

وبعض الناس الذين يستفتون يقولون: ما هو حكم الإسلام في كذا؟ فهذا لا يجوز أن يخبر بأن يقال: حكم الإسلام كذا وكذا، ولكن يقول: أرى، أو الذي أراه أنه كذا وكذا حتى لا يدخل في هذا، إلا أن يكون عنده علم يقيني في ذلك مثل أن يقول: ما حكم الصلاة؟ يقول: حكمها واجب وفرض. أو حكم الربا؟؛ يعني: الشيء الظاهر الجلي بنص عليه، أما شيء لا نص فيه فيجب أن يتوقى العبد، وإلا فله هذا الحكم.

ومقصود المؤلف في هذا: أن المسلم الذي يفترض أنه يعرف الله جل وعلا ويعرف أسمائه وصفاته ويعبده بذلك أنه لا يقدم على الشيء الذي يضيفه

إلى الله حكماً إلا بدليل قاطع يدله على ذلك، وإلا دل ذلك على خفة دينه وعلى أن توحيده غير كامل.

۞ **قال المؤلف** رحمه الله: **وقوله تعالى**: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾ [النحل: ٩١].

هذا أمر من الله يقتضي الوجوب. والعهد الذي هو عهد الله يدخل فيه ما يخص الإنسان وما يكون بينه وبين الآخرين، مثل أن يقول: بيني وبينك حكم الله في هذا أو مثلاً يعطيه شيئاً خاصاً، لك العهد فيقسم له بالله أني سوف أفعل كذا أو أعطيك كذا أو أمتنع من كذا.

وسواءً كان هذا العهد بين أفراد أو بين أمم، ولكن الذي يكون بين الجماعات يكون أعظم، ولهذا وجب على الجميع الوفاء بذلك وعدم التعرض لنقضه وإن كان الذي يعطي العهد واحد، فإن أعطى العهد واحد من المسلمين فإنهم يجب عليهم كلهم أن يراعوا هذا العهد.

وهذه العهود تكون بين المسلمين والكافرين، أما عهود بين المسلمين فلا يجوز لأن الإسلام يكفي عن المعاهدة، ولهذا جاء الحديث عن الرسول ﷺ: «**لا حلف في الإسلام وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة**»(١)، وذلك أن المسلم أخو المسلم يجب أن يناصره وأن يكون عوناً في كلِ ما يعن له، فقد أمر الله جل وعلا بذلك.

ومعروف أن العهود تكون لولاة الأمر في مثل هذا، أو الذين يؤمّرونهم، وهذا هو المقصود الذي سيق له الحديث، ولكن الآية تدل على أكثر من هذا تدل على أن العبد يجب عليه أن يوفي بما التزمه لله عموماً سواءً ما يخصه أو ما يشترك فيه مع الناس مثل الصلاة والصوم والوضوء والغسل من الجنابة وأداء الأمانة وكذلك الأيمان التي يحلفها يجب أن يوفي بها، فالمقصود أنه عام.

---

(١) رواه مسلم رقم ٢٥٣٠ من حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه.

ويؤخذ من الآية من باب الظهور الجلي العهود الخاصة لأنها نص في هذا، ولهذا قال: «إذا عاهدتم» وعاهدتم تقتضي المشاركة، والمشاركة هذه حاصلة سواءً كانوا جماعة أو كانوا أفراداً لأنك عاهدت ربك على ألسنة الرسل بل بما أخذ عليك جل وعلا من الميثاق الذي خلقه فيك وكذلك ما خلقه حولك أنك لا تعبد إلا إياه، وأنك لا تعبد الشيطان وأنك تطيعه وتتبع رسله هذا عهد، وهذا الذي يقول جل وعلا فيه: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾ [يس: ٦٠] فعهده هو هذا تعالى وتقدس.

وقد أخذ علينا عهداً ثقيلاً وميثاقاً غليظاً أن تكون عبادتنا لله وحده، فإن خالفنا فإننا معرضون لعذاب الله جل وعلا فيجب أن يراعى هذا، وهذا لا يراعيه إلا من عرف الله جل وعلا وعرف حقه عليه، وهذا هو مناسبة ذكره في كتاب التوحيد، أنه يجب على العبد أنه يعرف ربه جل وعلا حتى يعبده بأسمائه وصفاته ويعرف حقه عليه، أما أن يقال أن العهد يقتضي الوفاء من الجانبين فيكون مثلاً الرب جل وعلا بينه وبين عباده عهد أن يوفيهم عهده فهذا من باب الفضول، ونحن عبيده جل وعلا وقد أخبرنا جل وعلا أننا إذا أطعناه لا يعاقبنا ولا يعذبنا، أما شيء فوق هذا فهو من فضل الله ولهذا ما يقال: إن الإنسان له جزاء الجنة، فالجنة بيد الله يتفضل بها، فهي فضل منه، وفضل الله عظيم جداً، فإذا أعطاك الشيء فهو فوق ما تستحق، وهو يليق به لأنه عظيم جل وعلا وعطائه عظيم تعالى وتقدس، ولهذا يقول لنا رسول الله ﷺ: «**فإذا سألتم الله الجنة فسلوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمٰن ومنه تفجر أنهار الجنة**»[1].

فليس هذا معناه أن يقول الإنسان أن هذا شيء أستحقه، ولكن هذا فضل الله، ولا تقتصر وتسأل الداني تقول: أسأل الله أن يدخلني الجنة فقط. فضل الله كبير عظيم وليس عطائه مقابل العمل، وإنما تقول هذا الطائفة الضالة

(١) رواه البخاري رقم ٢٧٩٠ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

التي صار دينها قياس فأصبحت تقيس أفعال الله جل وعلا بأفعالها وهم المعتزلة الذين يقولون يجب على الله أن يثيب الطائع ويجب عليه أن يعاقب العاصي.

فالمقصود أن عهد الله الذي يجب أن يراعى ويوفى به يكون خاصاً ويكون عاماً كما دلت عليه الآية.

وقوله: «﴿وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾»: هذا تأكيداً للأمر الذي في أول الآية، والنقض هو إبطال العهد والخيانة فيه، وكأن العهد أبرم وأحكم وأتقن ونقضه نقض ذلك المبرم والمتقن، وهذا شيء عظيم لا يجوز أن يتعرض له وإلا يكون الإنسان عرضة لعقاب الله جل وعلا.

والأيمان: جمع يمين وهو القسم، وأخذ من اليد اليمنى لأنهم في العادة يمدون أيديهم لتأكيد العهد، كل واحد يمسك بيمين الآخر تأكيداً للعهد.

وقوله: «﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾»؛ يعني: بذكر الله جل وعلا، وإذا أعطى الإنسان ذمة الله وعهده فهذا توكيد عظيم فلا يجوز أن ينقض.

وقوله: «﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾»؛ يعني: بهذا العهد، والكفيل هو الذي يكفل الشيء فيقول: الله وكيل، أو الله كفيل، أو الله مطلع، أو الله يعلم أنه يكون فيه، وكل هذا تأكيدات تؤكد الأمر وتزيده شدة.

وقوله: «﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾»: أيضاً هذا فيه تهديد لأن الله علام للغيوب لا يغيب عنه شيء لا في الضمير ولا في الصدور، ولا شيء يفعل؛ فمعنى ذلك أنه يجازي الإنسان بما فعل.

قلنا أن المناسبة لكتاب التوحيد: أن من عرف الله جل وعلا ووقر في قلبه تعظيمه والإخلاص له أنه يعظم ما يضاف إليه ولا سيما الحكم الذي يحكمه.

وذمة الله معناها: عهده الذي يعطيه الخلق، فإذا أقدم الإنسان على أن يقول هذا عهد الله بيني وبينك ثم تعرض إلى نقضه فإن هذا إما ينافي التوحيد بالكلية أو يكون توحيد صاحبه ناقصاً، النقص الذي يترتب عليه المعاقبة،

وليس النقص الذي لا يترتب عليه عذاب؛ لأن النقص نوعان:

النوع الأول: نقص للكمال المستحب، وهذا لا يؤاخذ الإنسان به.

النوع الثاني: النقص الذي يترتب عليه الإثم بتركه وهو أن يكون واجباً عليه، وهذا لأن كل أمر من أوامر الله جل وعلا وشريعة من شرائعه فيها الواجب وفيها الإحسان، والإحسان هو أن يأتي الإنسان بغاية ما يكون من العمل وهذا ليس واجباً على كل أحد وهو ظاهر من هذا النص.

وفي هذا النص الدليل الجلي الواضح لمشروعية قتال الكفار فإنهم يقاتلون لكفرهم وليس كما يقوله من يريد أن يعايش الكافرين ويكون مسالماً لهم أن القتال لأجل الدفاع والمدافعة إذا اعتدوا وإلا لا يقاتلون، وقد صدرت رسالة في هذا منسوبة إلى شيخ الإسلام ابن تيمية حديثاً، وهي مكذوبة عليه وقد أساء الذي حققها حيث أنه حرف كلام شيخ الإسلام الذي في كتبه؛ يعني: أنه يأتي بالنص مبتوراً حتى يكون دليلاً لما فيها وقد كتب على هذه الرسالة علماء بينوا أنها باطلة وأن شيخ الإسلام لم يقلها منهم سليمان بن سحمان رَحِمَهُ ٱللَّهُ له رد عليها ولكنه لم يطبع، وكذلك سليمان بن حمدان فإنه بينها ورد ما ادعاه هذا المدعي، وكثيراً ما كان بعض الناس إذا كان مغموراً أو كان له باطل يكتب كتاباً ثم ينسبه إلى المشهورين من العلماء حتى يروج على الناس.

فالمقصود أن هذه المسألة واضحة من كتاب الله، الله جل وعلا يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٢٣﴾ [التوبة: ١٢٣]، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في زاد المعاد أن الجهاد له مراحل[(١)]:

فأولاً: كان الرسول ﷺ والمسلمون ممنوعون قد نهاهم الله جل وعلا عن المقاتلة، هذا لما كانوا في مكة وليس لهم قوة وبلد يؤوون إليه وتأتي المناصرة إليهم ويكون الانطلاق منه، فكانوا منهيين ومأمورين بالصبر

---

(١) زاد المعاد ٣/ ٦٢ ـ ٦٣.

والمصابرة: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧]، وقال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [المؤمنون: ٩٦] وما أشبه ذلك، وهذا تجده في السور المكية كثيراً الأمر بالصبر والمدافعة.

المرحلة الثانية: الإذن فيمن يقاتل، كما قال جل وعلا: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الحج: ٣٩]؛ يعني: بأن يقاتلون من قاتلهم.

المرحلة الثالثة: الأمر بالجهاد عامة: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ [التوبة: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾ [البقرة: ١٩٣] والفتنة في هذا الشرك، يعني: ما دام الشرك موجود فالقتال مشروع مأمور به.

وهذا لا يحتاج استدلال لظهوره ووضوحه وجلائه حتى لو قدر من باب الفرض أن شيخ الإسلام أو غيره من العلماء المعتبرين الكبار أنه قال خلاف ذلك فإنه لا يقبل لأنه خلاف كتاب الله جل وعلا وخلاف سُنَّة رسوله ﷺ، وخلاف سُنَّة الصحابة ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ فالصحابة لما انتهوا من قتال المرتدين الذين ارتدوا بعد رسول الله ﷺ وأصبحت جزيرة العرب كلها سيطر عليها الإسلام اتجهوا إلى من يليهم امتثالاً لأمر الله بالقتال ذهبوا إلى الشام والفرس، والعراق فاستمروا بالقتال إلى أن أفنوا حياتهم في هذا حتى أن بعض الصحابة قبورهم في أقصى بقعة من بقاع الأرض التي كانوا يجاهدون فيها مثل سمرقند، ففيها بعض القبور للصحابة قتلوا هناك وفي غيرها، هذا كما مر معنا أن الرسول ﷺ قال: «**إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها**»[1].

وأما قولهم أن المسلمين دخلوا فيه عن طريق التجار وعن طريق الدعوة هذا غير صحيح وإنما عن طريق القتال، لما كانت مجرد دعوة كانت الدعوة محصورة في أماكن معينة، ولهذا أخبر الله جل وعلا أنه أنزل الكتاب ومعه

(١) رواه مسلم رقم ٢٨٨٩ من حديث ثوبان.

الحديد الذي فيه البأس الشديد فلا بد من القتال من المسلمين.

والذي يحاول أن يبطل فريضة الجهاد، إما أن يكون جاهلاً أو يكون متجاهلاً فالأمر واضح، والحمد لله.

وفي هذا الحديث وضوح ذلك وجلائه، وهذا فرد من الأفراد الكثيرة من النصوص التي تدل على هذا، ولهذا يقول الرسول ﷺ: **«اغزوا باسم الله وفي سبيل الله قاتلوا من كفر بالله»**[1]، ليس الذين يقاتلونكم بل كل من كفر بالله يجب أن يقاتل.

نعم نهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء وقتل الصبيان؛ لأنهم ليسوا من أهل القتال، وقد استدل بهذا يقول: ما دام أنه نهى عن قتل النساء والصبيان فمعنى ذلك أنه لا يقاتل إلا من يحمل السلاح، نقول: ليست هذه العلة، حمل السلاح، ولكن كل من كان متأهلاً لذلك فإنه يقاتل، والنساء المفروض أنها لا تحمل السلاح، ولكن إذا أصبحت تقاتل فإنها تقتل مثل غيرها، وكذلك الشيخ الفاني فإنه لا يقتل إلا إذا كان له رأي، وقد قتل دريد بن الصمة وهو رجل كبير وأعمى ولكنه له رأي، قد ينفع به الكفار فقتل من أجل ذلك.

والمفسرون إذا جاؤوا إلى الأوامر التي جاءت في السور المكية بالأمر بالصبر والمدافعة قالوا: هذه منسوخة بآية السيف، وهذا كثير إذا تتبعته تجده فيما يقرب من خمسمائة آية كلها زعموا أنها منسوخة بآية السيف وهذا غير صحيح، لكن عند بعض العلماء يتوسع في كلمة النسخ فيجعل التخصيص نسخاً، وهو نوع من النسخ وليس النسخ معناه إزالة الحكم بالكلية.

فالمسلمون إذا كان عندهم ضعف يشابهون ما كان عليه الصحابة في مكة يكون لهم هذا الحكم يدافعون ويصبرون حتى يتمكنوا من القوة ومن الإعداد فإن الله جل وعلا يقول: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]، فهذا أمر لا يجوز مخالفته أمر ربنا يجب أن يمتثل، أن نستعد ونعد القوة، ولهذا يقول بعض العلماء:

---

(١) رواه مسلم رقم ١٧٣١ من حديث بريدة.

دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله تعالى ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فاسألهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم. وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك؛ فإنكم إن تخفروا ذممكم وذمة أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيه، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله، فلا تنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدري أتصيب فيهم حكم الله أم لا» رواه مسلم[١].

قوله: «كان رسول الله ﷺ»: كان هذا فعل ماضي وهو يدل على أن الشيء يتكرر يفعل مراراً واستمراراً (كان يفعل كذا) هذا هو الغالب، وهذا هو الظاهر من هذا النص وأن هذه سُنَّته ﷺ.

قوله: «إذا أمَّر أميراً على جيش»: وهذه سُنَّته ﷺ أنه يؤمر واحداً. وكان يأمر الجماعة إذا سافروا أن يؤمروا عليهم أميراً منهم، ولا يؤمرنه على وجه المزح والضحك كما يقع كثيراً من الناس يقولون أنت أميرنا ثم يخالفونه، يجب أن يطيعوه ويمتثلوا أمره ما دام أمّروه وهذا فيه امتثال للسُّنَّة فيجب، فقد أمر ﷺ بطاعة الأمراء، والمشورة واردة ولكن المخالفة لا تجوز، وكثير من الناس يتساهلون في هذا تساهلاً عظيماً ويزعمون أنهم يعملون بالسُّنَّة وهم في الواقع يقعون في الخطأ الفظيع يؤمرون شخصاً ثم يخالفونه في كل شيء ولا يطيعونه أي معنى لذلك هذا لعب، فإذا كان مثلاً يعلمون أن هذا من باب المزح والضحك فيخشى أن يكون هذا من الإجرام والأمور الكبيرة فيجب أن يتحاشى مثل هذه الأمور ويتأمل ما يأمر به الرسول ﷺ ويعظمه فلا يكون عنده أهون شيء.

---

(١) رقم ١٧٣١.

قوله: «على جيش» أما الجيش فيطلق على العدد الكبير وأقل ما يكون أكثر من أربع مائة وما كان أقل من أربع مائة فليس بجيش فهو سرية، ولكن هذا حسب الاصطلاح وإلا ما فيه مانع أن يكون حتى العشرة جيش، ولهذا كان عدد الصحابة مع الرسول ﷺ في غزوة بدر ثلاث مائة وبضعة عشر فقط، ويسمى جيش فنصرهم الله جل وعلا على ضعفهم، ولكن هذا اصطلاح في الجيوش التي جرى عليها الصحابة فما بعد ويقال هذا للفرد لأنه جمع بين الجيش والسرية، فالسرية سميت سرية لأنها تسير في الليل لإخفاء الأمر حتى تدهم العدو وهو غافل على غرة وهذا أمر مطلوب، فكان الرسول ﷺ يباغت المشركين وإذا سمع أن أحداً من الكفار يستعد لقتاله فإنه يبغته في بلده ولا ينتظر حتى يأتي.

وإذا أراد أن يذهب إلى مكان فإنه يوري بغيره، والتورية معناها أن يفعل شيئاً ولا يتكلم، مثل أن يقول اذهب إلى كذا، كما يعتقد الآن كثير من أن الكذب في هذا سائغ ويقول الحرب خدعة، والكذب الصريح لا يجوز حتى في هذا، ولكن المخادعة، كما إذا أراد أن يذهب إلى جهة الشرق سأل عن الطرق التي في الغرب فإذا سمعه السامع مثلاً يتخيل إليه أنه يذهب إلى تلك الجهة كما فعل في غزوة الفتح فإنه صار يسأل عن الطرق التي تسلك في جهة الشمال، ثم لما خرج من المدينة خرج شمالاً حتى دخل في الجبال وأوغل فيها حتى دخل في الجبال أخذ جهة اليسار واتجه إلى مكة وسأل ربه جل وعلا أن يعمي على قريش خبره، ولهذا لما كتب حاطب الكتاب جاءه الخبر من السماء فهكذا كانت سُنَّته ﷺ.

والسرية قسمها العلماء إلى قسمين من حيث ما يحصل لها وما تعطى من المغنم لا من حيث العدد، فقالوا: السرية إما أن تكون في أول بعث الجيش وإما أن تكون في آخره، فإن كانت في أوله فالأمر أسهل لأن الجيش يكون سنداً لها والخوف عليها أسهل، أما إذا كانت بعد رجوع الجيش فالخطر أشد ويكون الحكم مختلفاً وهذا من الغنيمة.

ويجب أن تكون المقاصد كلها لرفع كلمة الله وإعلائها ودحر كلمة

الشيطان وحزبه سواء من الجيش أو السرية، وقد بيّن الرسول ﷺ ذلك فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله ﷻ»[1]، أما القتال لأجل الوطن أو لأجل المال أو غير ذلك من الأغراض فهذا في سبيل الشيطان، إلا أن يكون يقاتل دون بلاد المسلمين وأعراضهم وأموالهم فهذا في سبيل الله، أما لأجل الأمكنة كما هو الحال في كثير من الناس، القتال لدنيا.

قوله: «أوصاه في خاصته بتقوى الله»: هذه الوصية؛ يعني: أنه يتقدم إليه بأمر مهم يؤكد ذلك عليه.

وتقوى الله أمر مهم جداً، وهي فعل ما أمر به واجتناب ما نهى عنه مع الرجاء والخوف لأن هذين ركنا العمل، فهذه هي حقيقة التقوى.

فالرسول ﷺ يوصيه بالتقوى في نفسه أولاً يقول: اتق الله في نفسك وراقب الله في أفعالك لأن الأمير إذا كان متقياً فإنه يقتدى به.

قوله: «ومن معه من المسلمين خيراً»؛ يعني: وأوصاه بالمسلمين خيراً، والخير كلمة عامة؛ يعني: أنه يراعي مصلحتهم أكثر من مراعاته نفسه، أما نفسه فإنه يجب عليه فعل الواجب ويحرم عليه فعل المحرم، أما هذا فإنه يجب عليه أن يفعل الأصلح لهم في كل شيء، وكان الصحابة يراعون هذا كثيراً.

وقوله: «اغزوا بسم الله»: الغزو هو طلب الكفار في بلادهم، أما قتالهم إذا جاءوا فهذا أمر يتعين على كل واحد ولا يسمى غزواً وإنما يسمى مدافعة عن أنفسهم وعن دينهم وعن أعراضهم.

قوله: «بسم الله»: إما أن يكون ابتدائكم باسم الله أو استعانتكم بالله وهذا لا بد منه، وهذا يدلنا على وجوب قتال الكفار.

فقوله: «اغزوا» هذا أمر، وهذا جاءت به نصوص كثيرة في القرآن قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ [التوبة: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣]، والفتنة جاء تفسيرها أنها الشرك؛ يعني: حتى لا يوجد الشرك، والنصوص في هذا كثيرة، ولكن

---

(١) رواه البخاري رقم ١٢٣، ومسلم رقم ١٩٠٤ من حديث أبي موسى ﷺ.

الأمر بمقاتلة المشركين كافة وكذلك الذين يلوننا إذا قتلنا الذين يلينا وأسلموا أو قضينا عليهم يجب أن نقاتل الذين يلونهم وهكذا ما دامت لنا قوة، ولهذا الصحابة لم يقفوا في مكان حتى ردتهم البحار.

وقوله: «قاتلوا من كفر بالله»: يدل على أن علة القتال الكفر، من كفر بالله يُقاتل، وقد اعترض على هذا بعض العلماء وبعض الناس في الوقت الحاضر يريدون أن يصطلحوا مع الكفار ويسالموهم ويكفوا عن القتال، قالوا هذا القتال للمدافعة، وهذا لا يتأتى في هذا الخطاب: **«قاتلوا من كفر بالله»** وكذلك الخطابات التي في القرآن.

قوله: «اغزوا ولا تغلوا»: هذا تأكيد للأمر الأول، وإعادة ليبين ما يأمر به.

والغلول هو أخذ شيء من المغنم قبل القسمة له خاصة فيكتمه ويخفيه وهو من كبائر الذنوب التي توعد عليها في النار ومن فعل ذلك فإنه يمنعه ذلك من الشهادة، ثبت أن النبي ﷺ لما رجع من خيبر وصار في وادي القرى نزل وكان معه غلام فصار يحل رحله فجاءه سهم فقتله، قال الصحابة: هنيئاً له الشهادة يا رسول الله، قال: **«كلا والذي نفسي بيده إن الشملة التي أخذها يوم خيبر من المغانم لم تصبها المقاسم لتشتعل عليه ناراً»**.

والشملة كساء يساوي خمسة دراهم ـ نسأل الله العافية ـ فجاء رجل حين سمع ذلك من النبي ﷺ بشراك أو بشراكين فقال: هذا شيء كنت أصبته، فقال رسول الله ﷺ: **«شراك ـ أو شراكان ـ من نار»**[1]. وإذا فعل الإنسان ذلك يعزر وتعزيره أن يحرق متاعه ورحله إلا المصحف لا يحرق إكراماً له، وكذلك الحيوانات لا تحرق وإنما يحرق ماله الذي يخصه، وهذا عقاب له، وما عند الله أعظم ـ نسأل الله العافية ـ.

فالغلول هو إخفاء شيء من الغنيمة قبل القسمة، يجب إذا تحصل على شيء ولو كان قليلاً أن يأتي به إلى أمير الجيش ويسلمه إياه، ثم بعد ذلك تقسم الغنائم فيأتيه نصيبه.

---

(١) رواه البخاري رقم ٦٧٠٧، ومسلم رقم ١١٥ من حديث أبي هريرة ﷺ.

قوله: «ولا تغدروا»: هذا هو الشاهد، فالغدر هو أن ينقض العهد الذي أعطاه، وهذا يعم الجيش كله أميره ومأموره كلهم لا يجوز أن يتعرضوا لنقضه.

قوله: «ولا تمثلوا»: التمثيل هو تشويه القتيل، والأسير إما أن يسلم وإما أن يستعبدوه يكون عبداً؛ يعني: يكون في المغانم، أو يقتلوه، هم مخيرون بين هذه الأمور الثلاثة، فهو يقتل ولا يعذب وكذلك الفداء إن كان للمسلمين حاجة.

ولكن التمثيل هو في القتلى كأن تقطع أذنه أو أنفه وما أشبه ذلك، وهذا لا فائدة فيه.

وإذا مثلوا في المسلمين فهل يجوز أن نمثل بهم؟ المسألة خلافية، والذي يقتضيه الدليل أنه لا يجوز لقوله ﷺ هنا: «**ولا تمثلوا**»، أما الاستدلال بقوله جل وعلا: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل: ١٢٦] فهذا عام، والأدلة العامة ما تقضي على الأدلة الخاصة، يجب أن يعمل بالدليل، نعم نعاقبهم بمثل ما عاقبونا به من دون تمثيل لأنه خارج بالدليل الآخر فنكون عملنا بالدليلين، أما إذا قلنا أن هذا يدخل فيه التمثيل فإننا نلغي الدليل الخاص وهذا لا يجوز.

قوله: «ولا تقتلوا وليداً»: الوليد هو الصغير، والصغير هو الذي لم يبلغ، فإذا لم يبلغ فإنه لا يقتل، ولهذا لما نزل بنو قريظة على حكم الله، عندما حكم فيهم سعد وصدقه الرسول ﷺ وهو أن تقتل مقاتلتهم وتسبى ذراريهم، فصار رسول الله ﷺ يأمر بأن ينظر الذي أنبت يقتل؛ يعني: الذي أنبت الشعر الذي حول العورة فهو دليل على البلوغ. وجاء فيه أحاديث أخرى: «**ولا امرأة، ولا شيخ فاني، ولا راهب في صومعته**»[١]، فقد جاء النهي عن قتل هؤلاء. وقد رأى مرة في أحد مغازيه امرأة مقتولة فأنكر ذلك ﷺ[٢].

---

(١) رواه أبو داود رقم ٢٦١٤، والبيهقي رقم ١٨٦١٩.

(٢) رواه البخاري رقم ٣٠١٥، ومسلم رقم ١٧٤٤ عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: وجدت امرأة مقتولة في بعض مغازي رسول الله ﷺ، فنهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان.

وهذا إذا لم يكونوا يقاتلون، فإن كانت النساء تقاتل فإنها تقتل، وكذلك إذا كان الشيخ الفاني ذا رأي ومشورة يمدهم بالآراء فإنه يقتل كما قتل دريد بن الصمة في غزوة حنين وكان شيخاً كبيراً كفيفاً ولكنه ذا خبرة فأخذوه لخبرته ومشورته، ولهذا لما سئل قال: ما الأرض التي نحن فيها؟ قالوا: أوطاس. قال: نعم المكان للجول والصول هذا مكان قتال، ثم قال: ما لي أسمع رغاء الشاة وصياح الصغير، قالوا: هذا الأمير جاء بالناس وأهلهم حتى لا يفروا، قال: هذا ليس برأي، الفار لا يلوي على أحد؛ لا يرجعه لا ماله ولا أهله إذا فر، فهو كان ذا رأي ولهذا قتله المسلمون لأجل ذلك.

وكذلك إذا كان مثله في الكفار فإنه يقتل وإن كان كفيفاً وإن كان كبيراً وكذلك المرأة.

قوله: «لا تقتلوا وليداً ولا تقتلوا امرأة، ولا تقتلوا متعبداً في صومعته ولا شيخاً فانياً»: استدلوا بهذه على أن القتال ليس لأجل الكفر وإنما هو لأجل الامتناع والمدافعة، وقالوا: لو كان لأجل الكفر فهؤلاء كفار فلماذا لم يقتلوا؟

الجواب عن هذا يقال: قتال الكفار لكفرهم ومدافعتهم فإذا ضعفوا ضعفاً يقتضي أنهم يقبلوا الإسلام يكف عنهم، ولهذا فرضت الجزية عليهم ولكن بشرط أن يعطوها بصغار؛ يعني: وهم صاغرون، ولهذا يقول العلماء: لا يجوز أن تقبل منه إذا أرسل خادمه أو رجلاً آخر يجب أن يأتي بها هو بنفسه ثم لا تؤخذ منه مباشرة بل يوقف ويترك ويهان فيكون صاغراً في هذا، وهذا من أجل أن يدعوه هذا إلى ترك دينه ويدخل في الإسلام.

وكذلك المرأة، فالمرأة ضعيفة إذا دعيت وسلمت ممن يمنعها استجابت، وكذلك الصغار.

فليس هذه علة في كون القتال ليس من أجل الكفر، بل لأجل هذه المعاني التي قد وجدت فيهم منعوا من القتل خلاف الذين يُقاتلون فإنهم يقتلون على كل حال، إلا إذا كانوا على هذه الصفة؛ يعني: دفعوا الجزية.

قوله: «وإذا لقيت عدوك»؛ يعني: عدوك هذا يدخل فيه كل كافر فهو عدو للمسلم، والمشرك عبد غير الله، وهذا يدخل فيه اليهود والنصارى فهم

من المشركين إما أن يعبدوا المسيح ابن مريم أو يعبدوا سادتهم.

فقوله: «عدوك» هذا للإغراء، وأخذ الاحتياط، كون الإنسان يكون دائماً ولا سيما الأمير مستعداً ومحتاطاً لئلا يصيبه العدو بغرة وغفلة، والعدو يبحث عن مواطن الضعف ويتحين الفرص، فيجب اليقظة والاستعداد.

قوله: «فادعهم إلى ثلاث خصال»؛ يعني: إلى واحدة من الثلاث، فأيتها أجابوا إليها فإنه يكف عنهم، ولهذا قال: **«فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم»**؛ يعني: أي واحدة منهن أجابوا إليها فاقبل منهم **«وكف عنهم»**؛ يعني: لا تقاتلهم؛ لأن القتال ليس لأجل الدنيا ولا للاستيلاء على البلاد وغير ذلك، وإنما هو رحمة للكافرين، لإدخالهم في دين الله جل وعلا.

وقوله: «ثم»: هذه زائدة، وهي ثابتة في صحيح مسلم والصواب حذفها **«ادعهم إلى الإسلام»** هذا أول شيء، وهو المهم وهو المطلوب، ولا يبدأ بغيره بل يبدأ به أولاً.

والدعوة إلى الإسلام أمر واجب متعين ولا يجوز القتال قبل ذلك إلا إذا كانوا قد بلغتهم الدعوة فأبوا، واستعدوا لقتال المسلمين؛ فيجوز أن يقاتلوا بهذه الحالة بدون دعوة، ولكن ليس معنى بدون دعوة أنه لا يعرض عليهم مرة أخرى، بل يقول أنتم مخيرون بين أمور ثلاث، كما كان الصحابة يقولون ذلك إما أن تسلموا ويكون لكم ما لنا وعليكم ما علينا.

وإما أن تدفعوا الجزية عن يد وأنتم صاغرون، وإما القتال بيننا وبينكم ويد الله مع من يشاء، هذه هي الخصال الثلاث، والدليل على هذا أن الرسول ﷺ غزى بني المصطلق وأغار عليهم وهم غارون في بلادهم يسقون بهائمهم، فقتل من قتل منهم، وسبى من سبى من ذراريهم؛ لأنه بلغه أنهم يجمعون لقتاله وقد جاءتهم الدعوة فأبوا.

ولا يعارض هذا أن الرسول ﷺ في خيبر، لما أعطى علياً الراية قال له: **«انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام»**[(١)]، فلا بد

---

(١) رواه البخاري رقم ٣٠٠٩، ومسلم رقم ٢٤٠٦.

أن يدعوهم إلى الإسلام هذا من باب الاستحباب ليس واجباً إذا كانت قد بلغتهم الدعوة، أما إذا لم تبلغهم فيجب دعوتهم ولا يجوز القتال قبل أن يُدعوا إلى الإسلام، مع ذلك جاءهم وهم غافلون، خرج عليهم وهم قد أخذوا مساحيهم وآلات حرثهم ليشتغلوا في حروثهم ونخيلهم، فلما رأوه قالوا: محمداً والخميس (يعني: الجيش الذي يخمس) فقال ﷺ: **«الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا صبَّحنا قوماً فساء صباح المنذرين»**[١]، فتفاءل بأن معهم المساحي والفؤوس لأنه هذه آلات هدم.

فقال: «ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم»: واتركهم وبلادهم ولا تعرض لهم بشيء، فهم أسلموا على بلادهم ويكن لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين.

قوله: «ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار الهجرة»: هذا قبل فتح مكة وقبل انتشار الإسلام، وإلا لما انتشر الإسلام فالهجرة إذا أسلموا في بلادهم ليست لازمة.

ومعنى دار المهاجرين؛ يعني: بلاد المهاجرين الذين هاجروا من بلادهم إلى المدينة وهذه هي هجرة الصحابة، أما الهجرة التي كانت إلى الحبشة فهذه هجرة الفرار بالدين عن الافتتان وليست لأجل أن يكون لهم قوة ومدافعة للعدو كما حصل في المدينة، فدار الهجرة إذا أطلقت فهي المدينة؛ لأن الجيوش صارت تنطلق منها لقتال الكفار حتى استتب الأمر كله في جزيرة العرب، وبعد هذا لما فتحت مكة صار الناس كلهم يدخلون في الدين، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: **«لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا»**[٢].

فإذا عادت الأمور كما كانت فالحكم باق على ما هو عليه، يعني: إذا انحصر المسلمون في مكان معين فإنه يجب على الذي يسلم أن يهاجر إليهم،

---

(١) رواه البخاري رقم ٦١٠، ومسلم رقم ١٣٦٥.

(٢) رواه البخاري رقم ٢٧٨٣، ومسلم رقم ١٣٥٣ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

إلا إذا كان لا يخش على دينه يستطيع أن يظهر دينه ويمارس شعائر الدين بدون فتنة أو خوف، فهذا لا تجب عليه الهجرة، وإنما الهجرة لشيئين:

أحدهما: النصرة، أن ينصر المؤمنين.

والثاني: الخوف من الفتنة في دينه، فإذا كان لا يخاف على دينه وطلب منه النصرة وجب عليه ذلك إذا كان مستطيعاً، وإلا فلا تجب عليه، وقد جاء في الحديث أن الهجرة باقية ما قوتل العدو[1]، ما دام المسلمون يقاتلون العدو فالهجرة باقية، وفي حديث آخر: «**لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها**»[2]، ولا يجوز أن نجعله قاضياً على النصوص الأخرى لأنه جاء في صحيح مسلم: «**ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً: طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض**»[3]؛ يعني: لا يقبل من نفس إيمانها، فيضاف إلى طلوع الشمس الدجال، والدابة؛ لأن خروج الدجال قبل طلوع الشمس من المغرب وقبل الدابة، ولأن فيه إيذان بتغير الكون لأن اليوم الواحد يكون كسنة، واليوم الآخر يكون كشهر، واليوم الثالث كأسبوع.

قوله: «وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين»؛ يعني: من الأحكام، وكذلك مما يحصل لهم من الأموال التي تأخذ من الكفار سواءً غنيمة أو فيء.

قوله: «فإن أبوا أن يتحولوا منها، فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين»: الأعراب الذين يكونون في البادية لا يهاجرون، هؤلاء ليس لهم شيء من الغنيمة إلا أن يقاتلوا، وكذلك ليس لهم شيء من الفيء، والفيء هو الذي يتركه العدو خوفاً من المسلمين بلا قتال، ولكن لهم الصدقة إذا كانوا فقراء؛ يعني: الزكاة التي من أغنيائهم ترد على فقرائهم، ولهذا قال: «**ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين**»، فإن جاهدوا فلهم مثل ما للمجاهدين.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم ٢٢٣٢٤، والنسائي رقم ٤١٧٣.
(٢) أخرجه أحمد في المسند رقم ١٦٩٠٦، وأبو داود رقم ٢٤٧٩ من حديث معاوية ﷺ.
(٣) رواه مسلم رقم ١٥٨ من حديث أبي هريرة ﷺ.

قوله: «فإنهم أبوا»؛ يعني: هذه الخصلة الثانية (فاسألهم الجزية)، وهذا دليل على أن الجزية تأخذ من عموم الكفار، سواءً كانوا عرباً أو غير عرب، وعند الإمام أحمد والشافعي أنها تؤخذ من أهل الكتاب ومن المجوس فقط، أما الوثنيون والعرب فلا بد من قتالهم إما أن يدخلوا في الإسلام أو يقاتلوا، فلو بذلوا جزية فإنها لا تقبل منهم، وذلك أن الرسول ﷺ لم يأخذ من العرب جزية وإنما أخذها ممن له كتاب، وكذلك أخذها من المجوس. وبعض العلماء يرى أنها تأخذ من الكفار مطلقاً كما يعطيه ظاهر هذا النص.

ثم هو لم يبين قدر الجزية هنا، ولهذا اختلف العلماء في قدرها منهم من يقول: إنها أربعة دنانير، أو أربعين درهماً، ومنهم من يقول: إنها ثمان وأربعين درهماً على الغني وعلى المتوسط أربع وعشرين، وعلى الفقير اثنا عشر، وهذا هو المشهور عند الإمام أحمد وعند الإمام أبي حنيفة ـ رحمهما الله ـ ولكن هذا الآن لا مطمع فيه ما دام حالة المسلمين بهذه الصفة، فيخشى أنهم هم يدفعون الجزية، والجزية التي تدفع هي في مقابل حمايتهم.

قوله: **«فإنهم أبوا»** هذه الخصلة الثالثة؛ يعني: أبوا عن قبول الإسلام، وكذلك امتنعوا من دفع الجزية **«فاستعن بالله وقاتلهم»** هذه هي الثلاث الخصال.

قوله: «وإذا حاصرت أهل حصن، فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه»: هذا هو الشاهد، الذمة هي: العهد، والميثاق، تقول: أنت لك عهد الله أو لك حكم الله بيني وبينك إن فعلت كذا. فالواجب أن يقول مثلاً: لك عهدي، أعاهدك أني لا أخالف كذا وكذا، وأني أعمل كذا وكذا، وكذلك ما يجوز أن يقول لك ذمة نبي الله وإنما يجعل ذمته وذمة أصحابه الذين معه؛ ولهذا قال: **«فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك»**؛ لأن هذا ليس سهلاً بل هو عظيم جداً؛ لأن المخالفة تكون فيها انتهاك لذمة الله وعهده جل وعلا وما حرمه، وفيه أيضاً تغريراً للناس الذين لا يعرفون حقيقة الإسلام فيكون بذلك صد عن سبيل الله وعن الدخول في دين الله جل وعلا إذا رأوا مثل هذا قالوا إذاً

الإسلام فيه الغدر، وفيه الخيانة فيكون هذا من الموانع، والأول أعظم.

والذمة: هي الدين الذي يدين به الإنسان، يقول: أنا ديني يأمرني بالوفاء لك وأعطيك ذلك، أعاهدك أني أوفي بهذا الشيء.

والعلة هو قوله: «**فإنكم إن تخفروا ذممكم وذمة أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيه**»، والإخفار معناه: المخالفة، والنقض لما عاهده عليه. أخفره: إذا خانه وخالف ما بينه وبينه.

وهو دليل على وجوب مراعاة الأمور، وأنه إذا كان لا بد من ارتكاب محذور فيرتكب أخف المحذورين ضرراً، وكذلك يؤخذ منه ما يقابل هذا وهو: إذا كان أمامك أمران متعارضان ولكن فيهما خير فإنك تبحث عن الشيء الذي خيره أكثر ونفعه أعم فتختاره، وهذه القواعد أخذت من هذا الحديث وغيره، وقد قررها العلماء في هذا، ولهذا قال: «أهون»، فيجب أن يكون الإنسان يختار الشيء الذي هو أهون وهذا فيما يخص الإنسان وما يكون عاماً.

قوله: «وإذا حاصرت أهل حصن»؛ يعني: هذه مسألة أخرى.

قوله: «فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله، فلا تنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدري أتصيب فيهم حكم الله أم لا»: فهو ينزلهم على حكمه، وهو في ذلك يجب أن يجتهد لإصابة الحكم الحق، وفي هذا دليل على أن لله في كل قضية حكم، وأن حكمه واحد لا يختلف وأن المصيب في المجتهدين واحد، وليسوا عدداً كما تقوله المعتزلة وغيرهم.

فهذا يدلنا على أن الإخبار بأن هذا حكم الله أمر يجب أن يتثبت فيه ويكون بدليل.

ويدلنا على أن الأحكام التي تجد وتكثر في الأمة أنها كلها ترجع إلى شرع الله، ولكن ما كل واحد يفقهها وينزلها على الأدلة التي تستنتج من كتاب الله وسُنَّة نبيه ﷺ.

ويدلنا كذلك على أن الحق واحد لا يتعدد، فحكم الله واحد وأنه ليس

كل حاكم يصيب حكم الله ولكن إذا كان الحاكم مجتهداً وطالباً للحق ونيته طلب الحق وإظهار أمر الله فإنه وإن أخطأ فله أجر الاجتهاد، وقد جاء النص على هذه المسألة كما في الصحيح: «**إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر**»[1]، ولكن بشرط أن يكون أهلاً للاجتهاد ليس كل واحد يجتهد، فالجاهل الذي لا يعرف الاستنتاج والاستدلال والعموم والخصوص في الأدلة يكون آثماً على كل حال.

ومثل هذا القول في معاني كلام الله، فإن الإنسان إذا كان أهلاً لذلك فإنه يؤجر، أما إذا كان ليس أهلاً فإن قال الحكم كذا وكذا أو معنى هذه الآية كذا وكذا فهو وإن أصاب فهو مخطئ إذا لم يكن متأهلاً لذلك، هذا هو الذي حمل عليه حديث: «**من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار**»[2].

فالمقصود أن القول على الله بغير علم أمره كبير جداً حتى عده بعض العلماء أكبر من الشرك وأخذوا هذا من قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝﴾ [الأعراف: ٣٣]، قالوا: إن الله جل وعلا في هذه الآية بدأ بالذنوب التي هي أقل، ثم رتبها بما هو أعظم وختمها بالقول عليه بلا علم، فهو أعظم من الشرك؛ لأنه يتضمن الشرك وزيادة.

فالمقصود أن هذا يدل على أن الحق واحد فإذا اجتهد المجتهدون فالمصيب واحد، ولكن إذا كان المجتهد مخطئاً وهو أهل للاجتهاد فهو معذور ومأجور على اجتهاده، والخطأ يكون معفواً عنه.

❁ **قال المؤلف رحمه الله: فيه مسائل:**

❁ **الأولى: الفرق بين ذمة الله، وذمة نبيه، وذمة المسلمين.**

لأن ذمة الله وذمة نبيه لا يجوز أن يتساهل فيها، ولا يجوز أن تكون بينك وبين غيرك وأنت لا تعرف هل تتم الأمور أو لا تتم؛ لأن هذا في المستقبل

---

(١) رواه البخاري رقم ٧٣٥٢، ومسلم رقم ١٧١٦ من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد في المسند رقم ٢٠٦٩ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

فيجوز أنه يختلف، يجوز أنه لا يفي بذلك، فلا يجوز أن يعطى ذمة الله وذمة رسوله في مثل هذا وهو غير ضامن ومتيقن بأنها تتم، هذا هو السبب.

فإذا مثلاً صارت المخالفة لذمة المعاهد الأمير مثلاً مع من معه من المسلمين يكون أسهل، وليس معنى ذلك أنه لا يكون آثم، بل هو آثم لأنه لا يجوز نقض العهد أصلاً، ولهذا أمرنا بالوفاء بالعهود وأكد هذا جل وعلا ولكن الإنسان يختار ما هو أسهل؛ يعني: المخالفة فيه يكون الإثم أهون، هذا هو الفرق.

۞ **الثانية: قوله: «اغزوا بسم الله في سبيل الله».**

الغزو هو قصد الكفار في بلادهم لقتالهم، هذا هو المتعارف عليه عند العلماء، وقوله: «**اغزوا بسم الله في سبيل الله**»؛ يعني: أن القتال يجب أن يكون لإعلاء كلمة الله، أما إذا كان الغزو لدنيا فالإنسان خاسر في هذا، فهو من الذين تسعر بهم النار كما جاء في صحيح مسلم: «**إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتي به فعرفه نعمه فعرفها قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت قال: كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال جريء فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار**».

فالغزو يجب أن يكون في سبيل الله، وسبيل الله؛ يعني: معناه أن يكون الإنسان مخلصاً في قتاله أنه يريد في قتاله إعلاء كلمة الله وإدحاض الباطل، يقاتل في سبيل الرحمٰن أولياء الشيطان.

۞ **الثالثة: قوله: «قاتلوا من كفر بالله».**

هذا من الأدلة العامة التي تبطل قول من قال أن الجهاد للمدافعة فهو قال: «**قاتلوا من كفر بالله**» ولم يقل قاتلوا من قاتلكم، فكل من كفر بالله يجب أن يقاتل إذا كان المسلمون عندهم مقدرة على هذا وعندهم القوة؛ لأن هذا مربوط في الآيات الأخرى التي فيها ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]؛ يعني: لا يجوز للإنسان أن يغرر بنفسه أو بمن معه من المسلمين، فإذا كان ليس عنده طاقة ولا قدرة فلا يجوز أن يقتحم الأمور التي يقضى عليه فيها

ثم تموت الدعوة، ولهذا حدد الله جل وعلا العدد الذي لا يجوز للمؤمن أن يولي دبره فيه قال: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ [الأنفال: ٦٥] ثم خفف جل وعلا صار الرجل لا يجوز أن يفر من اثنين، والعشرة لا يجوز أن يفروا من عشرين من الكفار، والمائة من المئتين، والألف من ألفين، وهذا من التخفيف، فهذا التحديد يدل على أن الأمر متعلق بالطاقة وبالاستطاعة.

۞ الرابعة: قوله: «استعن بالله وقاتلهم».

يعني: أنه لا بد من الاستعانة بالله، والاستعانة بالله دين وعبادة فلا بد للعبد أن يكون قتاله تديناً وعبادة لله جل وعلا فهو يقاتل بالفعل ويستعين على ذلك وليس المعنى أنه يعتمد على قوته وعدده وعدته وقد أخبرنا جل وعلا في دروس علمنا إياها في حياة الرسول ﷺ دروس يجب أن تكون عبرة للأمة فمثلاً في غزوة حنين خرج الرسول ﷺ في اثني عشر ألف لملاقاة هوازن ومن معها من المشركين، فقال أحد المسلمين: لن نغلب اليوم من قلة[1] فنحن كثيرون فعاقبهم الله جل وعلا على هذا القول فحصلت الهزيمة قال: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [التوبة: ٢٥]، ثم بعد ذلك أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وتراجعوا وقاتلوا فنصرهم الله جل وعلا، هذا درس، فالإعجاب بالنفس والكثرة والقوة قد تبطل العمل.

الثاني: ما وقع في غزوة أحد وهو أن الرسول ﷺ اختار سبعين من الصحابة من الرماة وحدد لهم مكاناً وجعل عليهم عبد الله بن جبير وقال لهم: **«إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم»**[2]؛ يعني: لو رأيتمونا نقتل لا تعدوا مكانكم؛ فوقفوا في ذلك الموقف فهزم الله المشركين

(١) دلائل النبوة للبيهقي ١٢٣/٥.
(٢) رواه البخاري رقم ٣٠٢٩.

وأدبروا وصاروا يصعدون في الجبل والمسلمين خلفهم يقتلون ويأخذون فقالوا: علام نجلس هنا نذهب نشاركهم في أخذ الغنائم، فذكَّرهم أميرهم قول الرسول ﷺ، ولكن لم يطيعوه فعصوا؛ فحصلت الهزيمة، جاءت خيل الكفار من الخلف وقتلوا من المسلمين سبعين وجرحوا رسول الله ﷺ وحصلت الهزيمة للمسلمين بسبب هذه المعصية، معصية واحدة؛ يعني: معناه أن العبد إذا عصى ربه فالمعصية هي سلاح الكفار؛ يعني: أشد من سلاح الكفار على المسلمين، وقد فهم الصحابة هذا.

فالمقصود أن الدروس التي في السيرة يجب أن نعتبرها ويجب أن ندرسها وننظر فيها، إذا كان في زمن الصحابة الذين هم أولياء الله وأفضل الناس بعد الأنبياء مع سيد الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين يحصل العقاب ويحصل الانهزام بسبب معصية حدثت من بعضهم، ليس كلهم يوافقونه بل بعضهم، فكيف إذا حصلت المعاصي وحصلت المخالفات وحصلت الأمور الظاهرة، ولهذا لا يستغرب الآن تسليط العدو على المسلمين لكثرة معاصيهم فيجب أن يصلحوا أحوالهم أولاً ثم يتجهوا إلى ربهم بالاستعانة به على عدوهم وعلى أنفسهم.

❁ **الخامسة: الفرق بين حكم الله وحكم العلماء.**

حكم الله يجب أن يصان، وأن يحترم، وأن لا يخاطر الإنسان فيه، أما حكم العلماء وفتواهم إذا لم تكن بنص فهذه يجب أن تعرض على الكتاب والسُّنَّة فإذا وافقت الحق قبلت وإلا أقل ما يقال فيها أنه معذور في هذا لأنه مجتهد وله أجر على ذلك، أما أنه يجب العمل بها ويجب أن لا تخالف فهذا ليس هذا لها، الذي يجب أن لا يخالف هو كلام الله وكلام رسوله ﷺ، هذا هو مقصوده وهو يعرض بهذا لما يحصل لكثيرٍ من الناس إذا قلت له مثلاً الله جل وعلا يقول كذا وكذا في مسألة من المسائل، أو الرسول ﷺ يقول كذا وكذا، يقابلك يقول لك: المذهب كذا وكذا، أو الإمام يقول كذا وكذا، فهذا لا يجوز، لا يجوز أن يعارض الكتاب أو السُّنَّة بالمذاهب أو بأقوال أصحابها

أو بقول العلماء، يجب أن يكون حكم الله وحكم رسوله هو الذي يرجع إليه دائماً في كل حال.

۞ السادسة: في كون الصحابي يحكم بحكم لا يدري أيوافق حكم الله أم لا؟.

يعني: الصحابي وغير الصحابي، لكنه نص على الصحابي لأنه بالإمكان مراجعة الرسول ﷺ ومعرفة الحق، ومعرفة حكم الله في هذا، فإذا كان هذا في وقت الصحابة وهو يحكم بحكمه لأنه احتاج إلى ذلك وقد تكون المراجعة تحتاج إلى وقت فأذن له بذلك وأن يحكم بهذا، وهذا من فضل الله جل وعلا والتوسعة على المسلمين، فإذا اجتهد المجتهد في طلب الحق وأخطأ فهو معفو عنه ويؤجر على اجتهاده.






الباب الرابع والستون

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ: باب ما جاء في الإقسام على الله.

يعني: أنه من محبطات العمل، ومن فعل ذلك ذهب توحيده. والإقسام على الله في الأحكام وفي الجزاء وما أشبه ذلك.

الإقسام والحلف واليمين بمعنى واحد. فمعنى ذلك أنه يذكر اسم المعظم عند ذكر الخبر تأكيداً للخبر. والمعظم الذي يُذكر اسمه هو الذي يقدر على عقابه إذا كان كاذباً، ويثيبه إذا كان صادقاً، وهذا لله جل وعلا، ولهذا منع من القسم إلا بالله أو باسم من أسمائه أو صفة من صفاته. وأما الإقسام بالمخلوق فهو شرك بالله جل وعلا.

ومناسبة الباب لكتاب التوحيد أنه يجب تعظيم الله جل وعلا، وأنه لا يجوز أن يحكم على الله بأنه يفعل كذا أو لا يفعل كذا، وهو لا يتيقن من ذلك، فإن هذا جرأة ومن حصلت منه هذه الجرأة يكون إما فاقداً للتوحيد، أو يكون توحيده ضعيفاً يعاقب على تركه التوحيد الذي يجب أن يكمل به دينه. ثم ذكر النص الذي فيه الدليل.

قال المؤلف رحمه الله: عن جندب بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان، فقال الله عز وجل: من ذا الذي يتألى علي أن لا أغفر لفلان؟ إني قد غفرت له، وأحبطت عملك» رواه مسلم[١].

وفي حديث أبي هريرة أن القائل رجل عابد. قال أبو هريرة: «تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته»[٢]، يتألى: يحلف.

---

(١) رقم ٢٦٢١.

(٢) أخرجه أحمد المسند رقم ٨٢٩٢، وأبو داود رقم ٤٩٠١.

كلمة واحدة قالها فحبط عمله وخسر دنياه وآخرته، حديث أبي هريرة الذي يشير إليه «أن الذي تكلم بهذه الكلمة كان عابداً».

جاء تفصيله، عن عكرمة بن عمار قال: دخلت مسجد المدينة فناداني شيخ فقال: يا يمامي لا تقولن لرجل والله لا يغفر الله لك أو لا يدخلك الله الجنة أبداً، قلت: من أنت يرحمك الله. قال أبو هريرة. فقلت: إن هذه لكلمة يقولها أحدنا لأخيه وصاحبه إذا غضب، قال: فلا تقلها فإني سمعت النبي ﷺ يقول: **«كان رجلان في بني إسرائيل متواخيين، فكان أحدهما يذنب والآخر مجتهد في العبادة، فكان لا يزال المجتهد يرى الآخر على الذنب فيقول: أقصر، فوجده يوماً على ذنب فقال له: أقصر، فقال: خلِّني وربي أبعثت علي رقيباً؟ فقال: والله لا يغفر الله لك أو لا يدخلك الله الجنة فقبض أرواحهما فاجتمعا عند رب العالمين فقال لهذا المجتهد: أكنت بي عالماً؟ أو كنت على ما في يدي قادراً؟ وقال للمذنب: اذهب فادخل الجنة برحمتي، وقال للآخر: اذهبوا به إلى النار»**، قال أبو هريرة: والذي نفسي بيده لتكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته.

قوله: «إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: أنه كان رجلين في بني إسرائيل»: والظاهر أن هذا القول، قاله غيرة وغضباً لله ومع ذلك أحبط عمله لأن القول على الله جل وعلا ليس سهلاً والحكم عليه أنه يفعل كذا أو لا يفعل كذا من الجرأة المهلكة.

ثم هذا الحديث لا تعارضه الأحاديث الأخرى، مثل حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كسرت الربيِّع وهي عمة أنس بن مالك ثنية جارية من الأنصار، فطلب القوم القصاص فأتوا النبي ﷺ فأمر النبي ﷺ بالقصاص، فقال أنس بن النضر عم أنس بن مالك: لا والله لا تكسر سنها يا رسول الله ـ وقصده بهذا أنه يفديها بما يستطيع وليس قصده معارضة حكم الرسول ﷺ ـ فقال رسول الله ﷺ: **«يا أنس كتاب الله القصاص»**، فرضي القوم وقبلوا الأرش، فقال رسول الله ﷺ: **«إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره»**[1]، وهذا ظاهر أنه لا يُريد معارضة حكم الله.

---

(١) رواه البخاري رقم ٤٦١١، ومسلم رقم ١٦٧٥.

وكذلك الحديث الآخر، **«رب أشعث ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره»**[1]، ومنه أيضاً حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: **«رب ضعيف متضعف ذي طمرين لو أقسم على الله لأبر قسمه، منهم البراء بن مالك، فإن البراء لقي زحفاً من المشركين وقد أوجع المشركون في المسلمين فقالوا: يا براء إن رسول الله ﷺ قال: إنك لو أقسمت على الله لأبرك فاقسم على ربك، فقال: أقسمت عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم ثم التقوا على قنطرة السوس فأوجعوا في المسلمين، فقالوا له: يا براء اقسم على ربك، فقال: أقسمت عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم وألحقتني بنبيك ﷺ، فمنحوا أكتافهم وقتل البراء شهيداً»**[2]، على هذا نقول: **الإقسام على الله أنواع:**

النوع الأول: أن يقسم الإنسان على الشيء الذي يؤمن به حسب خبر الله يقيناً مثل قولك: والله ليبعثن الله الناس، أو والله ليدخلن المؤمنين الجنة، أو والله ليدخلن من مات كافراً النار. فهذا لا بأس به لأن هذا خبر الله ويقسم بهذا لأنه متيقن من هذا.

النوع الثاني: أن يكون راجياً ربه، موقناً بنصره حسب أمر الله جل وعلا وليس من باب الاعتراض والحكم على الله، فهذا مثل قصة أنس بن النضر، فهذا جائز ولكن إذا وثق الإنسان بذلك، ليس كل واحد يذهب يقسم.

النوع الثالث: ما في هذا الحديث، كونه يقسم على حكم لا يدري ما الله يحكم فيه فيقول: والله ليفعلن الله كذا والله ليدخلن فلان النار، أو ليدخلنه الجنة، فهذا الذي قصد بهذا الباب وأنه من المحرمات والقول على الله بلا علم، فمن فعل ذلك فإما أن يكون توحيده ذاهب كما في هذا الحديث ويحبط عمله، وإما أن يكون ناقصاً، ولكنه آثم على كل حال.

۞ فقوله: قال رسول الله ﷺ: «قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان».

هذا ليس عنده دليل أن فلان لا يغفر له، وإنما حكم على الله حكماً لا

---

(١) رواه الترمذي رقم ٣٨٥٤ من حديث أنس بن مالك.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك رقم ٥٢٧٤.

يدري ما الله فاعل به، ولهذا يكون ارتكب إجراماً، وهذه المقولة التي قالها صارت سبباً لإحباط عمله وإدخاله النار، وهذا يدلك على عظم القول على الله جل وعلا بأنه يفعل كذا أو لا يفعل كذا.

مثل ذلك الحكم على الله في دينه، أن يقول حكم الله في هذه المسألة كذا وكذا بلا علم قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [النحل: ١١٦]، هذا لا يجوز أن يتجرأ عليه، ولهذا كان العلماء يعظمون مسألة الفتوى ويقولون: الفتوى حكم الله لأنك تقول الحكم كذا وكذا. فيجب أن تكون على بينة لكن إذا خف الخوف من الله والعلم تجرأ الناس على الفتوى **«أجرأكم على الفتيا أجرأكم على النار»**[1].

قوله: «قال الله ﷻ: من ذا الذي يتألى علي»: يجوز أن يكون هذا القول في الحال، قاله في حال من قال هذه المقالة، ثم قبضهما إليه وحكم بينهما في ذلك الوقت.

وهذا يدل على أن الإنسان قد يكون هلاكه بسبب تجاوزه لأمر من أمور الله يرى أنه على حق، فلا يجوز التساهل في هذا، والواجب أن يتأنى وينظر في الأدلة على حكم الله في ذلك.

كما أنه يدل على أن العبد قد يغفر له بسبب مكروه إليه مثل لو قابلك إنسان وقال لك: والله لا يغفر الله لك، فإن مثل هذا الكلام مكروه لك.

ويدلنا على أن الحكم إلى الله بين عباده، لا يجوز أن يشهد لإنسان لنفسه أو لآخر لا بجنة ولا بنار، ولهذا اتخذ أهل السُّنَّة هذه عقيدة ينصون عليها في العقائد يقولون: «ولا نشهد لأحد لا بجنة ولا بنار مهما كان عمله إلا إذا شهد الله له أو شهد له رسول الله ﷺ» أخذاً من هذا ونحوه.

وشهادة الله إما أن تكون عامة أو تكون خاصة، وقد كان الصحابة ﷺ يفرح أحدهم أن تكون له شهادة من الرسول ﷺ مع أن كلهم يحب الحق

(١) سنن الدارمي رقم ١٥٧.

ويجاهدون فيه وأن تكون أموالهم وأنفسهم في ذلك، ولكن الإنسان لا يكون عنده يقين من عمله بأنه قُبل كما أنه لا يكون عنده يقين من أن توبته واستغفاره قد قبل، فهو يكون دائماً على خوف ووجل، هذا هو سبب خوف المؤمن، وهذا هو الذي يجب أن يكون.

أما الحديث الآخر الذي أشار إليه فهو ظاهر أن المتكلم في ذلك عابد وهذا الرجل قال ذلك غضباً وهو لم يعذر بغضبه والناس كلهم يغضبون ولكن الغضب نوعان:

النوع الأول: غضب يسمونه إغلاق؛ يعني: يغلق عليه تصرفه فيكون شبه المجنون، فهو يتكلم ولا يدري أنه يتكلم بهذا، فمثل هذا إذا طلق فلا يقع طلاقه لأن عقله قد غطاه الغضب.

الثاني: يعلم ما يتكلم به ويدري أين هو، ويدري من يكلم فهذا يؤاخذ بتصرفه.

وفيه خطورة الكلام، فقد يتكلم بالكلمة التي لا يلقي لها بالاً، أو ربما تكلم بها ليضحك بها القوم فيكتب له الله بها سخطه، فقد جاء في صحيح البخاري وغيره في هذا المعنى أحاديث عدة، وكذلك في حديث معاذ الذي رواه الترمذي وغيره لما ذكر له أبواب الخير: «**ثم قال ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟ فقلت له: بلى يا نبي الله فأخذ بلسانه فقال: كف عليك هذا، فقلت: يا رسول الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: ثكلتك أمك يا معاذ وهل يكب الناس على وجوههم في النار أو قال: على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم**»[1].

وفي هذا أحاديث كثيرة، فقد ألف فيه ابن أبي الدنيا كتاباً سماه «كتاب الصمت»، وكذلك السيوطي وغيرهما كثير، وبينوا خطورة اللسان، وأنه يجب حفظه إلا من ذكر الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبذل الخير والدعوة إليه ويجب أن يفكر في كلامه، هل هو له أو عليه؟ أما إذا كان لا يضبط لسانه فهو دليل على أن دينه غير مستقيم، يقول أحد التابعين: صحبت

(١) رواه الترمذي رقم ٢٦١٦، وأخرجه أحمد في المسند رقم ٢٢٠١٦.

رجلاً من الصحابة فبقيت سنيناً وأنا لم أسمع منه كلمة نابئة وفي يوم من الأيام قال لغلامه: ائتنا بالسفرة نعبث بها، ثم قال: ما هذه الكلمة، والله لا تذهب هكذا، فصار يستغفر ويذكر ربه. فهذه الكلمة فقط جعلها ذنباً كبيراً فصار يتوب منها ويستغفر ربه.

وذكر يحيى بن أبي كثير قال: ركب رجل حماراً فعثر به، فقال: تعس الحمار، فقال صاحب اليمين: ما هي حسنة أكتبها، وقال صاحب اليسار: ما هي سيئة فأكتبها، فأوحى الله إلى صاحب الشمال ما ترك صاحب اليمين من شيء فاكتبه، فأثبت في السيئات تعس الحمار[1]. فمعنى هذا أن كلمة: تعس الحمار صارت في السيئات فكيف في الأمور الظاهرة، ويجب أن يعلم أنه سائر إلى قبره وإلى ملاقاة ربه وإلى مجازاته بعمله وأن أيامه وساعاته مراحل، كل ساعة مرحلة يقطعها فيجب أن يستغل وقته فيما هو نافع له، وطرق النفع كثيرة جداً، قد بيَّنها الله وبيَّنها رسوله ﷺ، فإن لم يستغل ذلك صارت خسارة كبرى، والندامة ستكون بلا شك، فإنه إن عكس الأمر وصار يتزود من ساعته بما هو زاد إلى النار فماذا تكون الحال؟ ولا بد من أحد الأمرين إما هذا أو هذا، فيجب أن يتنبه العبد ويحفظ وقته، ويحفظ لسانه، ويعلم أنه محفوظ عليه كل شيء. ففي هذا الحديث معتبر، فيجب أن نعتبر في ذلك.

۞ قال المؤلف رحمه الله: فيه مسائل:

۞ الأولى: كون النار أقرب إلى أحدنا من شراك نعله.

أخذ هذا من الحديث فهو لما قال هذه الكلمة صار فيها هلاكه قد يقول كلمة مثلها فيهلك.

۞ الثانية: فيه شاهد لقوله: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة..» إلى آخره.

آخره: «**ينزل بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب**»[2].

---

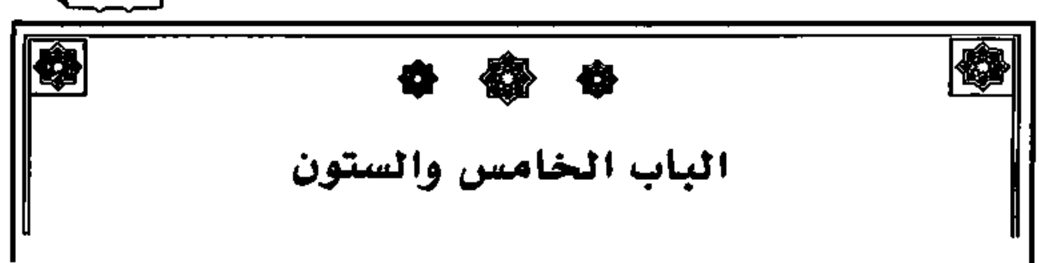
(١) جامع العلوم والحكم ١/ ١٣٤.

(٢) رواه البخاري رقم ٦٤٧٧، ومسلم رقم ٢٩٨٨ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

❁ **الثالثة: أن الرجل قد يغفر له بسبب هو من أكره الأمور إليه.**

يعني: مثل هذا الذي قابله هذا الرجل ويقسم يقول: والله لا يغفر الله لك، هذا شيء مكروه، لا يستطيع الإنسان استقباله واستماعه، ومع ذلك غفر له بسبب هذا.





الباب الخامس والستون

❁ **قال المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ: **باب لا يستشفع بالله على خلقه.**

الاستشفاع: هو طلب الشفاعة. والشفاعة تطلب من الأدنى إلى الأعلى كالدعاء لأنها نوع من الدعاء، فهي في الواقع ضم دعوة الشافع إلى دعوة المشفوع له عند من يملك ذلك، والله جل وعلا أعظم وأكبر من أن يشفع عند أحد من خلقه.

والشفاعة سبق الكلام فيها، وبيَّنا أن أصل الشرك هو التعلق بالشفاعة قديماً وحديثاً.

قوله: «لا يستشفع بالله على خلقه»؛ يعني: لا يجعل الله شفيعاً؛ لأن الشفيع أدنى من الشافع، وهذا تنقص من قدر الله جل وعلا، ولهذا السبب أدخله في كتاب التوحيد لأن من وقع في ذلك فإنه نقص توحيده أو ذهب كله.

والخلق كلهم عبيد لله، وملك له يتصرف فيهم كيف يشاء وهو بيده الخير كله، وله الملك كله، وله الحمد كله، يفعل ما يشاء لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، وهو لا يعطي أحداً إلا بإرادته ومشيئته، وهو الذي يقذف الطلب في قلوب عبيده ليسألوه توفيقاً منه حتى يعطيهم ذلك وكل الأمور ترجع إليه، ولهذا لا يجوز أن يقال: يستشفع بالله على خلقه، ولهذا قال: **«لا يستشفع»** لأن هذا من المحرمات بل من الأمور الكبيرة التي توقع الإنسان في تنقص رب العالمين.

ثم ذكر الدليل على هذا، وهو هذا الحديث، وإن كان هذا الحديث تكلم فيه بعض الناس، بل الجهمية ومن سلك طريقهم قدحوا في محمد بن إسحاق صاحب السيرة وقد دافع عنه أهل الحق وقالوا عنه ليس له ذنب إلا أنه يروي الأحاديث التي يكون فيها الرد على الجهمية ونحوهم وللإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ كلام فيه.

وعلى كل حال الحديث معناه صحيح، تدل عليه النصوص الأخرى، ومقتضيات الشرع وقواعده.

❁ **قال المؤلف** رحمه الله: **عن جبير بن مطعم، قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله نُهِكَت الأنفس، وجاع العيال، وهلكت الأموال فاستسق لنا ربك، فإنا نستشفع بالله عليك، وبك على الله. فقال النبي ﷺ: «سبحان الله، سبحان الله» فما زال يسبح حتى عُرِف ذلك في وجوه أصحابه. ثم قال: «ويحك، أتدري ما الله؟ إن شأن الله أعظم من ذلك، إنه لا يستشفع بالله على أحد» وذكر الحديث، رواه أبو داود**[1].

قوله: «جاء أعرابي إلى النبي ﷺ»: الأعرابي هو ساكن البادية، يقال له أعرابي، ويقال: عربي، فالعربي هو الذي يتكلم اللغة العربية، أما الأعرابي فهو من كان في البادية مع ماله، من الرحل الذين يترحلون، ولم يسكنوا المدن، وهذا خليق بأن يكون صاحبه جاف كما قال الله تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾ [التوبة: ٩٧].

فالإنسان إذا خالط شيئاً يكتسب أخلاقه منه، فإذا خالط البهائم اكتسب من أخلاقها وطبعها، ولهذا جاء في الصحيح قول الرسول ﷺ: **«والفخر والخيلاء في أصحاب الإبل، والسكينة والوقار في أهل الغنم»**[2]، لأن الغنم ضعيفة وفيها السكينة وفيها الضعف، وأما الإبل فهي خلقت من الشيطان، فأصحابها يكتسبون أخلاقهم منها، وكذلك هؤلاء يكون عندهم شيء من الجفاء وعندهم شيء أيضاً من الجرأة، ولهذا كان ابن عمر يقول: يعجبنا أن يأتي الأعرابي العاقل فيسأل رسول الله ﷺ، ونحن نسمع، وقيده بالعاقل.

---

(١) رقم ٤٧٢٦ وتمام الحديث: **«من خلقه شأن الله أعظم من ذلك ويحك أتدري ما الله؟ إن عرشه على سمٰواته لهكذا»**، وقال بأصابعه مثل القبة عليه: **«وإنه ليئط به أطيط الرحل بالراكب»**.

(٢) رواه البخاري رقم ٤٣٨٨، ومسلم رقم ٥٢ من حديث أبي هريرة.

وقوله: «جاء أعرابي»: يبين أن هذا الأمر لا يُجهل، ولكن الأعرابي مظنة الجهل؛ ولهذا وقع ما ذكر هذا الذي لا يصلح طلبه من الخلق، والله يتعالى ويتقدس عنه.

قوله: «فقال: يا رسول الله نُهكت الأنفس»: نهكت؛ يعني: هلكت وضعفت بسبب تأخر المطر وعدم وجود الكلأ الذي تأكله. وجاع العيال بسبب ذلك؛ لأنهم في الغالب يقتاتون من إبلهم وغنمهم يشربون ألبانها ويأكلون لحمها، وكذلك يصنعون من ألبانها الأقط والأدهان وغيرها، وإلا فهم ليسوا أصحاب زرع ولا صناعات؛ ولهذا قال:

«وجاع العيال» تبعاً لذلك، والأنفس التي هي أعم من العيال مثل البهائم وغيرها.

قوله: «وهلكت الأموال»؛ يعني: الإبل والغنم هذه هي أموالهم.

قوله: «فاستسق لنا ربك»؛ يعني: اطلب لنا السقيا من الله؛ فهم يعلمون أن هذا بيد الله جل وعلا وأن الطلب ينفع وأن الله إذا دعي أجاب إذا كان ممن هو أهل لإجابة الدعوة مثل الرسول ﷺ فهذا أقرب، وكذلك من جُرب في إجابة دعوته فهذا لم ينكره الرسول ﷺ؛ يعني: كونه يطلب مما يرجى إجابة دعوته أن يدعو، فالدعاء هنا عام للمسلمين عموماً، هذا شيء من الواجبات أن المسلم يدعو للمسلمين وإذا وقع فيهم أمر لازم مثل هذا فإنه يتعين هذا ويتأكد، ولكن الإنسان ليس مطلعاً على كل شيء فقد يكون هذا في مكان دون آخر.

قوله: «لنا ربك»: هو لم يقل استسق لنا ربنا!! لأنه يقول أنت لك ربوبية خاصة، ربوبية أخص منا، فالله جل وعلا يجيب دعوتك، فهو ربك الذي منَّ عليك بربوبية خاصة رسول الله يضاف إليه وكل عين تضاف إلى الله فهو يدل على التشريف، والعين هي الشيء القائم بنفسه مثل البيت والناقة والرجل والأمة والسماء والأرض وما أشبه ذلك من المخلوقات.

أما إذا كان المضاف معنى مثل الرحمة والعزة والقوة والعلم، فهذا يضاف بأنه صفة يكون صفة قائمة بالموصوف، ولا واسطة بين هذين الأمرين.

فالإضافة إما أن تكون عين أو تكون معنى فقط، وبهذا يعرف الفرق بين ما أضيف إلى الله صفة أو أنه مخلوق له خصوصية أضيف إليه مثل الرسول والبيت والآية.

قوله: «فإنا نستشفع بالله عليك»: هذا هو الذي أنكره الرسول ﷺ قوله: **«نستشفع بالله عليك»**؛ يعني: جعل الله شفيعاً عليه تعالى الله وتقدس. والله أعظم من أن يجعل شفيعاً بل المقربون هم الذين يشفعون عنده فالشفاعة ملكه، يأذن بها لمن يشاء ليكرمه، وإلا لا يمكن أن تحمل الشفاعة على المتعارف عليه مثل الملك أو الرئيس أو الوزير، قد يكون عنده إنسان مقرب إليه إما زوجته أو ولده وما أشبه ذلك فيضطر أنه يجيب شفاعتهم وإن كان كارهاً، فرب العالمين يتعالى ويتقدس عن مثل هذا، بل هو سبحانه الشفاعة كلها له، والملك كله له، والأمر كله له والعبيد عبيده، وله ما في السماوات والأرض يتصرف فيها كيف يشاء، ولهذا قال جل وعلا: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥] فلا يمكن أن يكون هناك شافع إلا إذا أذن له، والإذن هو الأمر بأن يقول له: اشفع. قبل أن يقول له اشفع فلا يجرؤ أحد أن يتقدم بطلب الشفاعة لعظمته، وتمام ملكه تعالى وتقدس.

وهذا الأعرابي ما عرف هذا المعنى، وما عرف قدر الله وعظمته جل وعلا، ولهذا أنكر عليه الرسول ﷺ.

وقوله: «وبك على الله»: هذا غير منكر، والاستشفاع به على الله هو طلب دعائه، وهذا أيضاً ليس خاصاً بالنبي ﷺ، بل كل صالح يرجى إجابة دعوته يطلب ذلك منه الطلب الخاص والعام، ولكن الاستشفاع بالدعاء ليس بالذوات كما سيتبين لنا إن شاء الله.

وقوله: «سبحان الله، سبحان الله»: سبحان: اسم مصدر مأخوذ من السبح وهو البعد، ومعنى ذلك إبعاداً لله جل وعلا وتنزيها له أن يستشفع به على أحد من خلقه تعالى وتقدس فإنه أعظم وأكبر من ذلك والخلق لا يملكون مع الله شيئاً وكلهم فقراء إليه وهو الغني بذاته عن كل ما سواه.

وهذا هو الشاهد من الباب أن هذا يدل على الجهل بالله جل وعلا، ومن كان جاهلاً بالله فهو ما عرف التوحيد ولا عرف حق الله ولا أتى بالواجب عليه لله جل وعلا، فهذا أمر يقع فيه كثير من الناس سواءً شعروا أو لم يشعروا ليس في هذه المسألة فقط بل في مسائل كثيرة، ولهذا تجد الجرأة من الناس على انتهاك المحارم وعلى ترك الواجبات التي أوجبها الله، وهذا كله يدل على الجهل بالله جل وعلا، وإلا لو عرف الإنسان عظمة الله ما تجرأ على أنه يخالف ربه، ولكن هذا لا يتبين لكل أحد وإنما ينكشف الأمر عند معاينة الموت ينكشف الأمر على حقيقته أو شيء من حقيقته ولكن هناك ما يفيد.

قوله: «فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه»: لعظم الزلة التي ارتكبها هذا الشخص؛ سبح الله كثيراً وهو ما ذكر ألفاظ الرسول ﷺ إلا مرتين ولكنه قال: **«فما زال يسبح»** أكثر من التسبيح واستمر عليه **«حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه»** لأن أصحابه تتغير وجوههم للشيء الذي يشق على الرسول ﷺ أو يثقل عليه، وهذا من الأمور التي يكرهها الرسول ﷺ كثيراً، فإذا انتقص حق الله أو انتهكت محارمه فإنه ﷺ لا يُقر هذا حتى يغيره ويغضب لذلك صلوات الله وسلامه عليه، ولهذا وصف بأنه لا يقوم أحد لغضبه لله جل وعلا، بخلاف نفسه فإنه يعفو ويصفح كما في حديث أنس بن مالك ﷺ قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية فأدركه أعرابي فجبذه بردائه جبذة شديدة حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله ﷺ قد أثرت بها حاشية البرد من شدة جبذته ثم قال: يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه رسول الله ﷺ ثم ضحك ثم أمر له بعطاء»[1]، ولم ينتصر لنفسه صلوات الله وسلامه عليه.

أما إذا انتهك أمر الله فلا يمكن أن أحداً يقوم أمامه أو يكلمه حتى ينتصر لله جل وعلا، وبهذا يُعرف خطأ بعض شراح حديث ابن مسعود ﷺ

---

(١) رواه البخاري رقم ٥٨٠٩، ومسلم رقم ١٠٥٧.

قال: جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد إنا نجد أن الله يجعل السماوات على إصبع والأرضين على إصبع والشجر على إصبع والماء والثرى على إصبع وسائر الخلائق على إصبع فيقول: أنا الملك فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٦٧﴾ [الزمر: ٦٧][(١)] حديث يقول: ضحك رسول الله ﷺ من جرأة اليهود على التشبيه[(٢)].

فهذا باطل ولا يجوز أن يقال مثل هذا لأن الرسول ﷺ عند الباطل لا يضحك بل يغضب ويغير ما حدث من الباطل ولا سيما في حق الله مثل هذا، فلذلك تغير وجهه ﷺ فصار يسبح وعرف ذلك في وجوه أصحابه.

قوله: «ويحك»: كلمة توجع وتوبيخ.

قوله: «أتدري ما الله؟»؛ يعني: هو ما يدري ما الله جل وعلا، ولهذا وقع فيما وقع فيه ثم قال:

«إن شأن الله أعظم من ذلك»؛ يعني: أن يجعل شافعاً عند أحد من خلقه تعالى وتقدس.

قوله: «إنه لا يستشفع بالله على أحد»: هذا تعليم برفق لهذا الجاهل، مع تنزيه الله جل وعلا وتعظيمه.

قوله: «ثم ذكر الحديث»: الحديث فيه أنه ﷺ قال: **«ويحك أتدري ما الله؟ إن عرشه على سماواته لهكذا ـ وقال بأصابعه مثل القبة عليه ـ وإنه ليئط به أطيط الرحل بالراكب»**.

وهذا الحديث كما تقدم فيه محمد بن إسحاق، وقد فرح بذلك المعطلة

---

(١) رواه البخاري رقم ٤٨١١، ومسلم رقم ٢٥٣٣.

(٢) فتح الباري لابن حجر ١٣/٣٩٨، قال القرطبي: فقول اليهودي كذب ومحال، ولذلك أنزل الله في الرد عليه: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: ٩١]، وإنما تعجب النبي ﷺ من جهله فظن الراوي أن ذلك التعجب تصديق وليس كذلك.

ورموه بكل عظيمة بسبب روايته هذا الحديث مع أنه لم ينفرد به، وقد صححه الذهبي في كتابه العلو وغيره وأبو داود كذلك صححه واحتج به على الجهمية.

وفيه إثبات علو الله جل وعلا واستوائه على عرشه.

وفيه أن الاستشفاع بالرسول ﷺ كان معروفاً عند الصحابة يطلبون شفاعته سواءً في الأمور المهمة مثل الاستسقاء أو في الأمور الخاصة التي تخص العبد، وهذا أمر مشهور وهذا مثل ما سبق أن هذا ليس خاصاً بالرسول ﷺ، كل من يرجى إجابة دعوته يستشفع به؛ يعني: يطلب منه الدعاء، وقد روي أنه ﷺ لما استأذنه عمر رضي الله عنه في العمرة قال: **«لا تنسانا يا أخي من دعائك»**[١]، هذا من نوع الشفاعة قال: «قال كلمة ما يسرني أن لي بها الدنيا» وهي قوله: **«يا أخي»**، وقد اغتر بعض العلماء في هذا المعنى وزعم أن الاستشفاع يجوز بالشخص مطلقاً؛ يعني: ليس بدعائه بل بذاته وقال: لا فرق أيضاً في كونه حياً أو ميتاً ما دام أن الاستشفاع بالذوات فلا فرق واستدلوا بحديث الأعمى الذي مضى وليس لهم فيه متعلق لأن الأعمى أتى إلى النبي ﷺ وطلب شفاعته فأمره أن يتوضأ وأن يدعو وأن يقول بدعائه: **«اللهم شفعه في وشفعني فيه»**[٢]، ولو كان بالذات ما يلزم أن يأتي إليه بل يستشفع به ولو كان في بيته، وإن كان بعيداً فهو في الواقع حجة عليهم وليس لهم هذا إذا كان حياً حاضراً ترجى إجابة دعوته، أما إذا كان ميتاً أو غائباً فهذا لا يجوز وهذا من وسائل الشرك، وقد يصل إلى الشرك.

والميت يدعى له ولا يدعى كما شرع لنا ذلك ربنا على لسان رسوله ﷺ مثل الصلاة على الميت يدعو له ويشفع له، وكذلك في زيارة القبر، إذا زار الإنسان القبر فإنه يدعو له بالرحمة ويحسن إليه ويتذكر أنه سيكون في قبر مثل قبره كما قال عليه الصلاة والسلام: **«كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها**

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم ١٩٥، وأبو داود رقم ١٤٩٨.
(٢) أخرجه أحمد في المسند رقم ١٧٢٤٠، والترمذي رقم ٣٥٧٨، والحاكم في المستدرك رقم ١١٨٠.

فإنها تذكر الآخرة، وفي رواية: «**ولا تقولوا: هجراً**»[1] يعني منكراً.

فعكس عباد القبور الأدلة التي تدل على بطلان ما ذهبوا إليه فجعلوها أدلة لهم كعادة المبطلين هكذا، وكتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ لا يدل شيء منهما على الباطل، بل كلها حق والرسل كلهم جاءوا بالتوحيد ولا سيما خاتمهم صلوات الله وسلامه عليه.

وعلى هذا الاستشفاع الذي هو طلب الشفاعة نقول هو أمر جائز، وقد وقع من الصحابة ﷺ كما في الحديث الذي في الصحيحين في قصة السبعين الذين يسبقون إلى الجنة بلا حساب، فقام عكاشة بن محصن فقال: ادع الله أن يجعلني منهم. قال: «**اللهم اجعله منهم**»[2].

وهذا له نظائر كثيرة وقعت من الصحابة، ولكنهم ـ رضوان الله عليهم ـ بعد موته لم يذهب أحد منهم إلى القبر فيطلب من الرسول ﷺ أن يشفع له أو أن يدعو له، وإنما وقع هذا في الخلوف التي جاءت فيما بعد عندما بعد عهد النبوة وحصل في الناس من الخلل في التوحيد، واختلط الحق بالباطل فطمع الشيطان فيهم، ثم فيما بعد في القرون المتأخرة بدأت عبادة القبور والتعلق بهم حتى وصل الحال إلى ما نحن عليه اليوم في أقطار كثيرة من أقطار المسلمين مع الأسف صاروا يتجهون إلى الأموات ويدعونهم وينزلون بهم الحاجات ويطلبون منهم تفريج الكربات وكل هذا مناف للتوحيد الذي جاء به الرسول ﷺ.

❁ **قال المؤلف** رحمه الله: **فيه مسائل:**

❁ **الأولى: التنبيه على تفسير «سبحان الله»**.

مقصوده في هذا أن هذا وقع فيه إخلال في حق الله جل وعلا فجاء بالتسبيح كما أنه جل وعلا إذا ذكر ما يقدح في حقه جل وعلا من المشركين يسبح نفسه: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧] وهذا مثله.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم ٢٣٠٠٥ ورقم ٢٣٠٥٣ من حديث بريدة رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

❁ **الثانية: أن المسلمين يسألونه الاستسقاء.**

الاستسقاء وغيره، وهذا أمر مشهور، ولكن هذا كان في حياته ﷺ، أما بعد وفاته فلم يطمع الشيطان فيهم أن يسوِّل لهم أن يسألوا شيئاً لمعرفتهم التوحيد ومعرفتهم الحق الذي جاء به الرسول ﷺ.







الباب السادس والستون

❁ **قال المؤلف رحمه الله: باب ما جاء في حماية المصطفى ﷺ حمى التوحيد وسده طرق الشرك.**

هذا الباب مكرر مع الباب الحادي والعشرين باب ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد، وسده كل طريق يوصل إلى الشرك. فكرره هنا لأن ذاك الباب ذكر فيه الأفعال، وهذا ذكر فيه الأقوال من المدح والإطراء، وللمغايرة جاء به وإلا فالمعنى واحد.

والحماية هي الصيانة عن أن يدخل شيء فيه من غيره، وحمى التوحيد جوانبه، وأما طرق الشرك فهي كثيرة، وفي هذا الباب ذكر شيئاً من الأقوال فقط، وإلا فقد تقدم أشياء كثيرة.

والرسول ﷺ سد الطرق التي توصل إلى الشرك في الأقوال والأفعال والاعتقادات التي يمكن أنها تقع كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**يأتي الشيطان أحدكم فيقول من خلق كذا من خلق كذا حتى يقول من خلق ربك؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته**»[1]، هذا من سد الطرق على الشيطان، يقول آمنت بالله ثم لينته، هذه الأذكار والأشياء التي يوسوس بها الشيطان.

والأفعال مثل النهي عن الصلاة في القبور، أو إليها وما أشبه ذلك وهذا كثير جداً.

أما الأقوال ففي هذين الحديثين، الأول أنه نهى أن يقال السيد، والثاني أن يقال أنت خيرنا وابن خيرنا.

وكذلك من هذا القبيل النهي عن المدح في الوجه والتمادح حتى ولو لم

---

(١) رواه البخاري رقم ٣٢٧٦، ومسلم رقم ١٣٤.

يكن في الوجه كما ثبت في الصحيح أن الرسول ﷺ سمع رجلاً يثني على آخر فقال: «**ويلك قطعت عنق صاحبك قطعت عنق صاحبك**» مراراً، ثم قال: «**من كان منكم مادحاً أخاه لا محالة فليقل أحسب فلاناً والله حسيبه ولا أزكي على الله أحداً أحسبه كذا وكذا إن كان يعلم ذلك منه**»[(١)]، وفي صحيح مسلم قال ﷺ: «**إذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب**»[(٢)]، وهذا على ظاهره؛ لأن المدح يفسد الأخلاق ويفسد النفوس؛ لأن النفس جبلت على حب الترفع والعلو على الناس، وكل إنسان يعرف ما في نفسه ولكنه إذا مدح يميل إلى المدح ويقول: لعلي كذلك وإن كان يعرف أنه ليس كذلك، ويترتب على ذلك مفاسد عظيمة: مثل العلو والترفع على الناس وازدرائهم وغمط حقوقهم، وهذا إما أنه ينافي التوحيد أو ينقصه.

والمادح غالباً أنه يقول ما ليس في الإنسان وكل من يمدحك في وجهك في شيء ليس فيك فإنه يقول في خلفك ما ليس فيك، هذا شيء واقع.

وكل هذا صيانة لعبودية النفس لأن الإنسان يجب أن يكون خاضعاً لربه ذالاً له، ويجب أن يعود على نفسه بالإزدراء في حقوق الله واحتقارها وأنها لا تساوي شيئاً، ولهذا لما قيل لطاووس رحمه الله: ماذا تقول إذا انتهيت من التهجد؟ فقال: ماذا عسى أن أقول، أقول يا رب لا تمقتني. والمقت هو أشد البغض والكراهية، وهكذا كانت عادة السلف.

وفي هذا الباب أراد أن ينبه على هذه الأشياء وغيرها، مما فيه صيانة لدين الإنسان، بأنه لا يغتر بقول الناس، ولا يغتر بأفعالهم، ومعلوم أن الإنسان أعلم بنفسه من غيره فيجب أن يكون عبداً لله جل وعلا، ولهذا كره الرسول ﷺ أن يقابل بالمدح فنهى عنه.

۞ قال المؤلف رحمه الله: عن عبد الله بن الشخير رضي الله عنه قال: انطلقت في وفد بني عامر إلى رسول الله ﷺ فقلنا: أنت سيدنا، فقال: «السيد الله تبارك

---

(١) رواه البخاري رقم ٢٦٦٢، ومسلم رقم ٣٠٠٠ من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم رقم ٣٠٠٢ من حديث المقداد بن الأسود رضي الله عنه.

وتعالى»، قلنا: وأفضلنا فضلاً، وأعظمنا طولاً، فقال: «قولوا بقولكم أو بعض قولكم ولا يستجرينكم الشيطان» رواه أبو داود بسند جيد(١).

قوله: «انطلقت في وفد بني عامر»: الظاهر أن هذا في السنة التاسعة لأنها هي سنة الوفود؛ يعني: في آخر حياة الرسول ﷺ حيث أتى وفود العرب ويختارون جماعة من مقدميهم ومن كبرائهم فيرسلونهم إلى رسول الله ﷺ يخبرونه بأنهم على الطاعة وأنهم دخلوا في الإسلام ويريدون أن يتعلموا أوامر الرسول ﷺ، ولهذا يرسلهم إلى قومهم بالأوامر التي يخبرهم بها.

قوله: «فقلنا: أنت سيدنا»: السيد: هو المقدم في القوم، وهو يضاف إلى من يكون منهم؛ يعني: يقال: سيد بني تميم؛ يعني: من قبيلتهم، سيد قريش فلان، ولا يقال: سيد تميم كندي أو قرشي، هذه عادة العرب ولغتهم.

والسيد يطلق أيضاً على المولى، وعلى المالك، وله إطلاقات كثيرة.

والرسول ﷺ قال: «السيد الله تبارك وتعالى» لأنه جاء بـ(أل) التي تدل على الكمال والاستغراق، وهذا لا يكون إلا لله جل وعلا.

وقد اختلف العلماء في جواز إطلاق السيد على الله وكذلك على المخلوق. والصحيح أنه جائز وأنه يطلق على الله وعلى المخلوق، وأن إطلاقه على الله يخالف إطلاقه على المخلوق، فإذا أطلق على الله فإنه يقصد به الكمال المطلق ولهذا جاء في تفسير قول الله جل وعلا: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا﴾ [الأنعام: ١٦٤] قال ابن عباس: سيداً.

وكذلك صح في معنى قول الله تعالى: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ ۝﴾ [الإخلاص: ٢] أنه السيد الذي كمل في سؤدده(٢).

وهنا يقول: «السيد الله»؛ يعني: الذي بلغ الكمال، السيادة؛ يعني: في الملك والتصرف والفضل على الخلق فإن فضله لا ينفك عن أحد طرفة عين.

أما إطلاقه على المخلوق، فالصحيح أنه يجوز أن يطلق عليه، ولكن لا

---

(١) رقم ٤٨٠٦.

(٢) تفسير ابن كثير ٨/٥٢٨ قال ابن عباس: هو السيد الذي قد كمل في سؤدده.

يجوز أن يكون من باب الترفع والعلو، والتعاظم، فقد صح أن رسول الله ﷺ قال مخاطباً الأنصار: «**قوموا إلى سيدكم**»[(١)]، يقصد سعد بن معاذ رضي الله عنه لما أرسله ليحكم في مواليه اليهود بني قريظة، وكان مصاباً في يده بجرح يوم الخندق وذلك أنه جاء راكباً على حمار لأنهم طلبوا أن يحكم فيهم، فلما حضر إلى معسكر الرسول ﷺ قال للأنصار: «**قوموا إلى سيدكم**»؛ يعني: أنزلوه أو استقبلوه، والظاهر أنه لم يواجه سعداً بذلك لأن المواجهة بمثل ذلك فيها محاذير.

فالنهي عن المواجهة في ذلك لأن النفس ضعيفة، ولهذا تجد الذين اعتادوا على سماع المدح هم الذين ألفوا على ذلك ولهم مثلاً مناصب، فالذي لا يمدح ولا يثني قد يمنعونه بعض حقه أو كله، أما بالنسبة لنفس الإنسان فالمفاسد أكثر، فلهذا يجب أن يبتعد عنه. وهذا من أوجه حماية التوحيد من هذه الألفاظ؛ لأن ذلك إما أن يذهب بكماله أو قد يذهب به كله فحمى الرسول ﷺ هذا الجانب، من ألفاظ المدح والمقابلة بالثناء.

وصح أنه ﷺ قال: «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**»[(٢)]، ولا يعارض هذا الحديث لأن هذا يفهم منه النهي؛ يعني: لا تقولوا أنت سيدنا وليس بينهما معارضة، فهذا في المقابلة والمدح والثناء في الوجه وذلك إخبار بالواقع ولهذا قال ﷺ: «**ولا فخر**» أتدرون ما ذاك؟ ثم ذكر حديث الشفاعة، وهذا معناه أنه المقدم في هذا الأمر الذي أكرمه الله جل وعلا به مع أن الأمر كله لله كما قال تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزمر: ٤٣، ٤٤]، فهي له سبحانه ولكنه يكرم من يشاء فيأمره بالشفاعة فقط، وقبل أن يأمره لا يفعل. والرسول ﷺ أخبر بهذا حتى يُعتقد ويُعلم؛ لأنه حكم شرعي فلا يكون معارضاً لهذا الحديث، وخبره ﷺ وإنكاره على بني عامر قولهم: «**أنت سيدنا**» مع أنه فيه دليل على جواز إطلاق هذا

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

اللفظ على الله جل وعلا، ولكن بوجود (أل) التي تدل على الاستغراق والكمال، ولهذا قال: «**السيد الله**»، وإذا صح القول عنه ﷺ يجب قبوله واعتقاد ما دل عليه.

قوله: «وقلنا وأفضلنا فضلاً»: وأنكر ذلك أيضاً وهذا يدلك على أن المقصود بالإنكار المواجهة بالمدح وأنه كره أن يكون هذا بين المؤمنين أن يواجه بعضهم بعضاً بالثناء والمدح، وهذه خصلة يجب أن تعلم لأنها واقعة في كثير من الناس، والذي يثنى عليه يجب أن يكره هذا ويمنعه لنفسه لأنه يعود عليه بالضرر ويفسد النفس، وقد تكون باباً في الدخول لما ينافي التوحيد؛ لأنها تدعو إلى الكبر والترفع على الناس، وفي الحديث الصحيح: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**»[1]، فهذا شيء عظيم، والكبرياء لله جل وعلا، فمن نازع رب العالمين في صفة من صفاته فإنه يقذفه في النار.

وقولهم: «**أفضلنا فضلاً**» وهو بلا شك أفضل العباد، بل أفضل البشر ومع ذلك نهى عن هذا، فيجب أن يحمل هذا على كراهة المواجهة في الثناء والمدح، فهو كره ذلك لنفسه، فإذا كان كره ذلك فكراهيته لغيره من باب أولى، بل قد يكون محرماً وهو الظاهر أنه من المحرمات حتى أن المادح يقع في الإثم، وكذلك القابل لهذا المدح والساكت عليه يكون آثماً؛ لأن هذا باب من أبواب انتقاص التوحيد أو إفساده وهذا يجب أن يصان.

ثم قال: «وأعظمنا طولاً»: الطول هو الفضل والإحسان والإنعام، فنهاهم أيضاً فقال: «**قولوا بقولكم أو بعض قولكم**» معنى قولكم؛ يعني: ما تقولونه لبعضكم مع بعض؛ يعني: لا تأتوا بشيء يخصني.

ثم قال: «ولا يستجرينكم الشيطان»: يستجرينكم؛ يعني: لا يتخذكم مراكب يجريكم في الباطل؛ يعني: يجب أن تبتعدوا عن المدح والثناء في الوجه وحب ذلك فإن هذا من الأبواب التي يدخل منها الشيطان وهذا هو الشاهد لصيانة التوحيد وحمايته من أن يتطرق إليه شيء من شوائب الشرك.

---

(١) رواه مسلم رقم ٩١ من حديث ابن مسعود ﷺ.

وكذلك من الشواهد في الحديث للباب قوله: «**السيد الله**»، وكذلك قوله: «**أفضلنا فضلاً**» فهذه الثلاث في الحديث كلها شواهد للباب.

❁ **قال المؤلف** رَحِمَهُ اللهُ: **وعن أنس** رضي الله عنه **أن ناساً قالوا: يا رسول الله، يا خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا، فقال: «يا أيها الناس قولوا بقولكم، ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد عبد الله ورسوله، وما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله** عز وجل» **رواه النسائي بسند جيد**[1].

قوله: «عن أنس أن ناساً قالوا: يا رسول الله».

قوله: «يا خيرنا، وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا»: أنكر قولهم هذا مثل الحديث السابق.

قوله: «أيها الناس قولوا بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان»: يستهوينكم مثل يستجرينكم؛ يعني: لا تكونوا سالكين في هواه ومراده تجرون في ذلك فلا يجوز أن تكونوا رسل للشيطان، ومعنى هذا: اجتنبوا الأمور التي قد تقود إلى فساد ومنها مقابلة الإنسان بالمدح.

وعرفنا أن العلة في هذا أن النفس تحب ذلك، وقد تستدعيه وإن كان باطلاً ثم تفسد عبوديتها لربها بوجود الكبر والترفع على الناس وازدرائهم.

وكذلك تفسد معاملته مع الناس بظلمهم ومنع حقهم لمن لم يثن بالباطل ويقابله بذلك كما هو الواقع.

ثم المحذور الذي هو أكبر من هذا الوقوع في شَركْ الشيطان، وكونه أخذ شيئاً من توحيد العبد إما تنقيصاً أو أخذه كله.

فالمدح باب في الدخول في المحذور وسيما المدح في الوجه، وكذلك المدح بالباطل وإن كان ليس في الوجه فإن هذا لا يجوز، فالمدح في الواقع منهي عنه مطلقاً، كما في صحيح البخاري، وسمعنا في الحديث أن رجلاً أثنى على رجل وليس عنده قال له الرسول ﷺ: «**ويلك قطعت عنق صاحبك**»[2]

---

(١) النسائي في الكبرى رقم ١٠٠٧٨، وأحمد في المسند رقم ١٢٥٥١.

(٢) سبق تخريجه.

وجاء في الحديث أنه لما تكلم رجل قال: «**لا يسمعك**» مع أن الصحابة ﷺ هم أكمل الأمة عقولاً وديناً، وأتبع الأمة لرسولهم وأكملهم علماً ومع ذلك نهى الرسول ﷺ من مقابلة أحدهم بالمدح في هذا لأن هذا أمر يعم الخلق كلهم، وفيه صيانة دين الإنسان وهو المقصود بهذا.

وقوله ﷺ بعد هذا: «**أنا محمد عبد الله ورسوله**».

أما كونه محمد فهذا اسمه العَلَم الذي لا بد من ذكره عند التشهد وعند التعليم، فمثلاً لو سألت من نبيك؟ فلا تقول: رسول الله أو نبي الله هذا لا يعين أحداً، لا بد أن تقول محمد رسول الله، ولهذا جاء في التشهد: «**أشهد أن محمداً عبده ورسوله**»، وفي هذا الحديث قال: «**أنا محمد عبد الله ورسوله**» فكان يعلم ذلك الناس، وكان هو ﷺ إذا تشهد قال: «**أشهد أن محمداً عبده ورسوله**» كما روى ذلك الطحاوي وغيره.

فالمقصود أن ذكر الاسم العَلَم لأجل التعليم أمر ضروري لا بد منه، ولهذا قال: «**أنا محمد**» ولا يكون هذا مخالفاً لقول الله جل وعلا: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣] جاء في التفسير؛ يعني: لا تقولوا محمداً، قولوا: نبي الله، رسول الله، فهذا إذا قطعت الصفة قيل: محمد فهذا لا يجوز فلا بد من التعيين، تعيين الصفة كونه هو رسول الله وكونه عبده.

ثم يجب أن نتأمل جمعه ﷺ في هذا وفي غيره بين العبودية وبين الرسالة قال: «**أنا محمد عبد الله ورسوله**».

وقدم العبودية على الرسالة؛ يعني: أن مفهوم هذا: أنا عبد لله تحت عبوديته وأقوم بها وليس لي من الربوبية والألوهية شيء، وهذا أمر لازم.

وحسب الإنسان الكامل أن يقوم بالعبودية لله جل وعلا، إذا قام بها فهو أكمل الناس والرسول ﷺ هو أكمل الخلق، وقد أثنى الله جل وعلا عليه بلفظ العبد في أشرف المقامات التي يقومها لله وهي:

مقام التحدي: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن

﴿مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٢٣﴾ [البقرة: ٢٣]، فهذا من أشرف المقامات أنه أعطاه الآيات الكبرى التي لا أحد يستطيع أن يأتي بشيء منها.

ومقام الإسراء والمعراج: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء: ١].

ومقام الإنزال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفرقان: ١].

ومقام الدعوة إليه: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩] يدعوه ويدعو إليه، فهذه كلها جاءت بلفظ العبودية.

ويضاف إلى هذا أنه رسول الله حتى ما يحصل الجفاء، ويجب أن يعرف حق الرسول ﷺ ولكن ما يعطى شيئاً مما لله، حقوق الله يجب أن تكون لله جل وعلا، وحقوق الله الربوبية والألوهية فليس له من ذلك شيء فهو عبد لله جل وعلا تعبَّده الله جل وعلا فقام بالعبودية وقام بالرسالة وشرفه بها على الخلق، فهو المصطفى صلوات الله وسلامه عليه، ولهذا مر معنا في أول الكتاب حديث عبادة بن الصامت وقوله ﷺ: «**من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله**»(١)، فهو لم يذكر في هذا الحديث إلا عيسى ﷺ وخصه بالذكر ليس لأنه هو الذي يليه من الرسل، ولكن من أجل أن عيسى ضل فيه أهل الكتاب أو أكثرهم ضلوا فيه، فاليهود عليهم لعائن الله قالوا: هو ابن زانية وحاولوا قتله؛ فشبه لهم ألقى الشبهة على رجل منهم فقتلوه وصلبوه وظنوا أنه عيسى.

والنصارى قالوا: إنه الله؛ يعني: رفعوه فوق منزلته، أو قالوا أنه ابن الله تعالى وتقدس.

وطائفة أخرى قالوا هو وأمه إلهين، ولهذا يسأله الله جل وعلا يوم القيامة: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ

---

(١) سبق تخريجه.

تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾ [المائدة: ١١٦].

ولهذا خصه من بين الرسل من أجل ذلك؛ يعني: أنه يجب أن يعرف حق الرسول ولا يجوز أن يرفع فوق منزلته هذه.

ومعنى هذا أن التوحيد لا بد منه وهو أن يكون الرب جل وعلا هو الإله وهو المتصرف في كل شيء، وهو المالك لكل شيء، وكل من خلقه الله جل وعلا من الملائكة ومن بني آدم ومن الجن ومن غيرهم مهما ارتفع على الناس بمعرفته وعلمه وعبادته والرسالة التي يكرمه الله بها فهو عبد لله، ولهذا أخبر أن الملائكة المقربين لا يستنكفون عن عبادته والاستنكاف هو الترفع والتكبر وأن من يستنكف عن عبادة الله يصليه نار جهنم.

ثم قال: «لا ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله ﷻ».

ومنزلته التي أنزله إياها هي العبودية والرسالة أكرمه بأن كمل له مقام العبودية وتفضل عليه بأن اصطفاه رسولاً إلى الناس، هذه هي منزلته ﷺ فيجب أن تعرف ويقام بها فلا يجوز أن نسلك مسلك الجفاء الذي سلكه اليهود ولا مسلك الغلو الذي فعله النصارى، مع أن الرسول ﷺ أخبر أننا سوف نتبع من كان قبلنا حذو القذة بالقذة، وهذا الحديث صححه العلماء والواقع يدل عليه حتى بالغ في ذلك وقال: **«حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه»**[1]، وكونه خص الضب من بين الجحور لمعنى موجود في الضب لا يوجد في غيره من الحيوانات التي تحفر الجحور، وذلك أن جحر الضب أعسر الجحور لأنه إذا حفر يحفر الجحر ملتوي ومتجهاً إلى التحت، فهو صعب الدخول إليه، وقد أعطى الله جل وعلا كل شيء ما يحمي به نفسه فهذا من الحماية له، وهذا هو السر في تخصيص جحر الضب، والله أعلم.

فالمقصود أن تخصيصه هذا يدل على المبالغة أننا سوف نتبع اليهود والنصارى في كل شيء، وجاء في رواية: **«حتى لو أن أحدهم أتى أمه على قارعة الطريق لكان في هذه الأمة من يصنع ذلك»**[2]، فهذا من أشد المبالغات.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

وعلى هذا لا بد أن يوجد في هذه الأمة من يقول مثل ما قالت النصارى وكذلك يوجد فيهم من يقول مثل ما قالت اليهود، وقد وجد الذين يسبون الرسول ﷺ ويرمونه بالعظائم ووجد الذين يدعون أنه بمنزلة الله جل وعلا فقط ما قالوا أنه الله أو أنه ابن الله أو أنه ثالث ثلاثة لكن أعطوه المعنى الذي قالته النصارى وهذا يكفي.

وهذا من كمال عبوديته صلوات الله وسلامه عليه وكمال نصحه للأمة وتبليغه ما أمره الله جل وعلا به قال: **«ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله ﷻ»**، ومنزلته عرفناها أنها عبد الله ورسوله.

۞ قال المؤلف رحمه الله: فيه مسائل:

۞ الأولى: تحذير الناس من الغلو.

الغلو يكون في القول وفي الفعل، وهو مجاوزة الحد المشروع، بخلاف الجفاء فإن الجفاء ترك الواجب الذي يجب أن تفعله أو تتركه.

والغلو الزيادة على ما شرع، وطُلب من العبد فإذا زاد فقد غلا.

۞ الثانية: ما ينبغي أن يقول من قيل له: «أنت سيدنا».

يعني: أن ينكر ذلك ويأباه هذا هو الذي ينبغي أن يقوله، وليس ذلك معنى أنه ينكره في لفظه وقوله ونفسه تحب هذا يجب أن يكون كارهاً لهذا الشيء مبغضاً له.

۞ الثالثة: قوله: «لا يستجرينكم الشيطان» مع أنهم لم يقولوا إلا الحق.

الحق في الذي قالوا أنهم قالوا: أنت سيدنا و**«أفضلنا فضلاً»** وهذا حق، ومع هذا يقول: **«لا يستجرينكم الشيطان»**، ويستجرينكم؛ يعني: يتخذكم مراكب يجريكم في باطله. وهذا لا يكون إلا في الأمور التي ظاهرها جائزة، ولكن تؤول إلى أمر يحبه الشيطان.

۞ الرابعة: قوله: «ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي».

ومنزلته أنه عبد الله ورسوله؛ فيجب أن يجمع له بين العبودية والرسالة، مع أنه يجب أن يُحب أكثر من حب الإنسان لنفسه ولولده والناس أجمعين، ولكن محبته تكون تبعاً لمحبة الله مكملة لمحبة الله لأنه يحب في الله ولله، ولا تكون المحبة مثل ما يقع لكثير من الناس يحبه مع الله فإن هذه محبة شركية.

الفرق بين هذه وهذه أن الأولى تدل على المتابعة فيكون الإنسان حريصاً على متابعة الرسول ﷺ، والثانية تجده يبحث عن البدع ويعظمها ويكون حبه حب تأله وتعظيم وليس حباً لله لأن الله يحبه ولأن الله أمر بحبه.



الباب السابع والستون

❁ **قال المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ: **باب ما جاء في قوله تعالى:** ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: ٦٧].

أراد المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ أن يذكر شيئاً مما يدل على عظمة الله وكبريائه وخضوع جميع المخلوقات له وأنها صغيرة بالنسبة إليه حقيرة جداً، كلها كأنها بعوضة حتى يتبين بهذا أن المشرك قد ضل ضلالاً بعيداً حيث اتجه بالعبادة إلى مخلوق صغير حقير لا يملك نفعاً وضراً.

وكذلك ليختم بالقسم الثالث من أقسام التوحيد الذي هو توحيد الله جل وعلا بأسمائه وصفاته وأفعاله، فإنه واحد في ذلك لا شريك له فيه حتى يكون المسلم جامعاً بين العبادة كلها التي كلفه الله بها.

وحتى يتبين خضوع المخلوقات جميعها وذلها له، وأنه الكبير المتعال، الذي يقبض السماوات كلها فتكون بكفه مثل الخردلة.

وأراد إثبات عظمة الله مع علوه على خلقه لأن هذا ينكره كثير من الناس والمقصود بالناس العلماء الذين يسمون أنفسهم أهل السُّنَّة، وهم علماء الأشاعرة.

أما أهل الضلال مثل المعتزلة والرافضة فهؤلاء لا عبرة فيهم وهم ليسوا من العلماء أصلاً لأن العلم ليس جمع معلومات وتخزينها في الدماغ وإنما العلم هو امتثال أمر الله وخشيته واتباع أمره وخوفه، وإذا لم يكن كذلك فليس بعالم كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، فكل من لم يخش الله فليس من العلماء؛ لأن العلم لا يزيده إلا ضلالاً ولا يزيده إلا بعداً من الله ـ نسأل الله العافية ـ كما هو الواقع، فالضال من العلماء أسوأ حالاً من الكافرين، فهو ملعون بلسان كل مخلوق.

وقوله جل وعلا: «﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾»: قدروا؛ يعني: ما عرفوا عظمة الله، ما عظموه ووقروه كما قال جل علا: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ [نوح: ١٣] فذكر شيئاً من فعله الذي يدل على عظمته؛ لأنهم يعرفون هذه الأشياء المشاهدة ولهذا قال: «﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾»، القبضة معروفة أنها تكون في يده؛ يعني: أن يده تأتي عليها من جميع الجهات، فالله يقبض الأرض وكل ما فيها من بحار وجبال وخلائق وتكون صغيرة في يده جل وعلا كالخردلة.

قوله: «﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾»: هذا يعطينا أن السماوات مبنية، وأن لها كثافة، وأن لها ثقل، ولها سعة والناس اليوم الذين ينظرون إلى ما يقوله الكفار يقولون أنه ليس هناك سماء، وإنما هي نجوم تسبح في الفضاء فقط، أما أن يكون هناك سماء مبنية فلا وجود لها فيصدقونهم في هذا، مع أن هذا كذب ظاهر، والله جل وعلا أمرنا أن نعتبر في السماء: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾﴾ [ق: ٦]، فهل يأمرنا أن ننظر إلى الفضاء فقط إلى ما لا حقيقة له، والرسول ﷺ عرج به إلى السماء واستفتحت أبواب السماء له مع صحبة جبريل عليه السلام، وقد أخبرنا الله جل وعلا أن السماء لها أبواب وأنها لا تفتح للكافرين، وفي حديث البراء بن عازب في قبض الروح وصعود الملائكة بها إلى السماء والأدلة على هذا كثيرة، وهذه هي عقيدة المؤمنين أن السماوات هي أعظم المخلوقات كما قال جل وعلا: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر: ٥٧].

ومعلوم في العقل أن القادر على الكبير لا يعجزه الصغير، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾، فإذا كان هذا شيء من عظمته فكيف مقام الذي يتجه إلى القبر مخلوق ضعيف مرتهن بأعماله يدعوه كما يدعو رب العالمين!! بهذا يتبين أن المشرك هو أسوأ حالاً من المخلوقات كلها، ولهذا حرم الله عليه الجنة وجعله خالداً في جهنم لأن هذا جزاءه؛ لأنه أعطي عقلاً فلم ينتفع به ونصبت له الأدلة فلم ينتفع بها وأرسلت إليه الرسل، وأنزلت عليه الكتب فلم ينتفع بذلك، فصار جزاؤه أنه يكون أسفل سافلين.

قوله جل وعلا: «﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾»؛ يعني: أن هذا يكون يوم القيامة، أن الله يقبض الأرض وكذلك السماوات، والآية فيها صفة القبض، والقبض يكون باليد ففيها إثبات اليد، وأن اليد يقبض بها جل وعلا ما يشاء، وله يدان كم صرح بذلك في كتاب الله في آيات كثيرة.

قوله: «﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾»: يشركون به، فيجعلون له شريكاً في الطلب والقصد والعبادة، وهذا يتعالى الله عنه ويتقدس، ولهذا صار الشرك من أعظم الذنوب، ومن فعله فإن الله يحرم عليه الجنة، إذا لم يتب منه.

۞ قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد إنا نجد أن الله يجعل السماوات على إصبع والأرضين على إصبع والشجر على إصبع والماء والثرى على إصبع وسائر الخلائق على إصبع فيقول: أنا الملك، فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٦٧﴾ [الزمر: ٦٧][(١)].

قوله: «حبر من الأحبار»: والحبر هو العالم، سمي حبراً لأنه يكتب بالحبر. والكتابة أصلها بالحبر، وأصل العلم الكتابة كما قال جل وعلا: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤﴾ [العلق: ١ ـ ٤]، فمنَّ الله على عباده أن علمهم وأول تعليم الإنسان الكتابة حتى يعرف المبادئ شيئاً فشيئاً حتى يكون حبراً.

والراهب هو العابد ولا يلزم أن يكون عالماً، وقد يكون عالماً.

والغالب أن الأحبار من اليهود، والرهبان من النصارى، ولهذا قال: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١].

---

(١) رواه البخاري رقم ٤٨١١، ومسلم رقم ٢٧٨٦.

قوله: «فقال: يا محمد»: انظر كيف تعنت اليهود وكبريائهم وخبثهم، يخاطب الرسول ﷺ باسمه العلم يا محمد، ولا يتنزل أن يقول: يا رسول الله. الظاهر أنه جاء ليظهر علمه عند رسول الله ﷺ فقط لأن هذا هو الذي يليق باليهود.

قوله: «إنا نجد»؛ يعني: في كتاب الله الذي أنزله على موسى، أو غيره من الكتب التي أنزلت على بني إسرائيل.

قوله: «أن الله يجعل السماوات على إصبع»، وفي رواية: «**يضع السماء على إصبع**»[1]، وهذا هو الصحيح، ولكن «يجعل» جاء في رواية.

قوله: «السماوات»: هنا جمع؛ يعني: جميع السماوات السبع وقد علم أن السماوات واسعة جداً، فالسماء الدنيا تحيط بالأرض من جميع الجهات، والأرض كأنها بيضة في قلب السماء؛ يعني: صغيرة جداً بالنسبة للسماء ثم السماء الثانية محيطة بالسماء الدنيا مثل إحاطة السماء الدنيا بالأرض، وهكذا جميع السماوات كل واحدة تحيط بالتي تحتها.

فأوسع السماوات وأكبرها السماء السابعة وفوق السماء السابعة الجنة، ولهذا أخبر جل وعلا أن الجنة عرضها السماوات والأرض؛ فالجنة أوسع من السماوات كلها وأوسع من الأرض لأنه ذكر العرض فقط.

فالذي فوق السماء السابعة مسافات شاسعة جداً وبها الجنان التي سيُسكِنها رب العالمين عباده المتقين وهي مسكنهم إلى أبد الآبدين.

أما جهنم فهي في أسفل سافلين، ومع كونها في أسفل سافلين إذا أراد الله جل وعلا أن يُري عباده المتقين الذين في الجنة من في النار فهذا سهل ميسور؛ لأن الله لا يعجزه شيء، ولهذا ذكر الله جل وعلا عن رجل من أهل الجنة: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾﴾؛ يعني: المصدقين بالرسل ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾﴾؛ يعني: مطلعون في النار ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾﴾ رآه

---

(١) رواه البخاري رقم ٧٤٥١.

في سواء الجحيم وهو في أعلى عليين فخاطبه: ﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ۝٥٦ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ۝٥٧﴾ [الصافات: ٥٠ ـ ٥٧]؛ يعني: معك في النار.

وكذلك ما ذكره الله جل وعلا من خطاب أهل الجنة لأهل النار ومناداتهم، وكذلك مناداة أهل النار لأهل الجنة فهم يسمعون ذلك ويشاهدونه مع المسافات الشاسعة جداً.

وأخبر الله جل وعلا أن المتقين لا يسمعون حسيس النار لأن سماع الحسيس هذا يخيف.

فالمقصود ذكر كبر السماوات فهي كبيرة جداً، ومع هذا الكبر العظيم والسعة الهائلة التي قد لا يتصورها الإنسان يضعها كلها على إصبع ولو شاء الله جل وعلا لوضع مخلوقاته كلها على إصبع، السماوات والأرض ومن فيها كلهم وتكون بالنسبة إليه صغيرة فهو جل وعلا لا يعجزه شيء.

ولكن هذه الأمور يجب أن يستحضرها الإنسان ولا سيما إذا كان يخالف أمر الله ويعصي فيستحضر ذلك ويعلم أنه يراقبه ويشاهده؛ حتى ينزع عن المعاصي ويخاف من كانت هذه بعض عظمته في الحديث يقول: **«يجعل السماوات على إصبع والأراضين على إصبع والشجر على إصبع والماء والثراء على إصبع، وسائر الخلق على إصبع»**.

سائر: يعني باقي المخلوقات؛ فكملت المخلوقات كلها، ووضعها على أصابعه الخمسة في يد واحدة، واليد الأخرى فارغة، ولهذا روى ابن جرير في تفسير هذه الآية عن ابن عباس أنه قال: قد قبض الأرضين والسمٰوات جميعاً بيمينه. ألم تسمع أنه قال: ﴿مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ يعني: الأرض والسمٰوات بيمينه جميعاً، قال ابن عباس: وإنما يستعين بشماله المشغولة يمينه[1].

وهذا الكلام لا يقال بالرأي والقياس؛ لأن هذا من صفات الله التي تتطلب مجيء النص بالوحي، فلا بد أنه أخذه عن رسول الله ﷺ، ولو شاء الله جل وعلا لجمع جميع مخلوقاته على إصبع واحدة من أصابعه الكريمة ـ تعالى

(١) تفسير الطبري ٢١/ ٣٢٤.

وتقدس ـ فالله على كل شيء قدير، ولكن حتى يعلمنا أن له يدين، وأن لهما أصابع وأنه يقبض بهما وأن المخلوقات تكون في يده صغيرة، وكل هذه الألفاظ لا يستطيع سماعها أهل التعطيل وأهل التحريف ويجعلون من يقرها على ظاهرها مشبهاً غير أنهم لا يستطيعون أن يصفوا الرسول ﷺ بأنه مشبه، وهذا مستقر في نفوسهم ولكنهم لا يتكلمون به في بألسنتهم، وقد فاه بعضهم بأن بعض الأنبياء مشبه.

ثم فيه إثبات الشمال، كما جاء في رواية صحيحة، رواه ابن جرير رحمه الله وسيأتي في رواية مسلم ذكر الشمال. وبهذا يتبين خطأ من قال أن هذا شاذ لأن الشذوذ معناه أن يخالف النصوص ليس فيه مخالفة.

قوله: «فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه»: الضحك يكون لشيء مفرح، أو الشيء المعجب، إما أنه يفرح بذلك أو أنه يعجب منه والرسول ﷺ كان يعجبه أن يأتي شيء عن الرسل المتقدمة بمثل ما جاء به؛ لأن تضافر الأدلة وكثرتها يؤيد الحق ويبينه ويزيده قوة هذا هو السبب.

ومن العجب أن أحد شراح البخاري الذين لهم مواقف في العلم أنكر هذا الحديث أشد الإنكار ـ نسأل الله العافية ـ ولكنها المذاهب والتقاليد فقال: إنه ليس في كتاب الله ولا في سُنَّة رسوله ذكر الأصابع.

ثم قال: فإن قيل قول ابن مسعود: «فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر» قال: أما ضحك الرسول ﷺ فمن جرأة اليهودي على التشبيه.

وأما قول ابن مسعود: **«تصديقاً لقول الحبر»** فهو ظناً منه وحسباناً؛ يعني: أن ابن مسعود أخطأ فما فهم مراد الرسول ﷺ. فأي قدر للصحابة عند هذا القائل بل أي قدر لرسول الله ﷺ عند هذا القائل الذي يجعله يضحك من الكفر. المعروف أن رسول الله ﷺ إذا رأى الباطل أو سمعه فلا أحد يقوم لغضبه حتى ينتقم لله جل وعلا، أما أنه يعهد أنه يضحك للكفر فهذا قد يجعل الإنسان في حرج كبير جداً، إن لم يقال أن إيمانه فيه شك، ولكن هكذا تصنع المذاهب والآراء بالناس حتى تغطي عقولهم، وكذلك تعظيم الرجال

والمذاهب تغطي العقول وتجعل العقول لا تفقه ولا تعي ـ نسأل الله العافية ـ بل تحملها على التأويل الباطل قطعاً.

أقول هذا من أجل التنبيه فقط؛ لأن الإنسان لا يجوز أن يغتر بمن يأتي بخلاف النصوص مهما كان موقفه ومهما كان قدره؛ لأنه لا يمكن أحد من الناس بعد رسول الله ﷺ أن يكون معصوماً من الخطأ، وإنما العصمة لرسول الله ﷺ فقط، ثم الحق يدور مع الكتاب والسُّنَّة والرسول ﷺ أعطى البلاغة والفصاحة والقدرة على البيان أكثر من غيره، كما أنه هو الناصح الأمين وهو أعلم الخلق بالله جل وعلا، فكيف مع هذه العوامل وهذه الأسباب يقول أنه ضحك من أجل كفر اليهود فهذا فيه معتبر لمن يعتبر.

وهذا الحديث لم ينفرد ابن مسعود بروايته، بل رواه ابن عباس وأبو هريرة ورواه عدد، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية إنه متواتر.

والحديث لو لم يكن متواتراً وثبت بسند صحيح وجب العمل به والإيمان به، ووجب نبذ كل ما خالفه مهما كان القائل.

وقوله: «ثم قرأ»: في رواية: «فنزل قول الله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾[1] ولكن هذا فيه إشكال قوله: «فنزل» ووجه الإشكال أن السورة مكية وهي سورة الزمر، وهذه القصة وقعت في المدينة كما جاء مصرحاً بذلك.

ثم هذا الحديث، جاء برواية ابن عباس بالإشارة قال: مر يهودي برسول الله ﷺ وهو جالس فقال: كيف تقول يا أبا القاسم يوم يجعل الله تبارك وتعالى السماء على ذه وأشار بالسبابة والأرض على ذه والماء على ذه والجبال على ذه وسائر الخلائق على ذه، كل ذلك يشير بإصبعه، قال: فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ الآية[2]. رواه الأئمة بالتسلسل؛ يعني: صار الذي روى عن ابن عباس يشير مثل ما أشار هذا الحبر عند النبي ﷺ وأقره على ذلك، وهكذا إلى أن رواه عبد الله ابن الإمام أحمد

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم ٣٥٩٠، والنسائي رقم ٧٧٣٦.

(٢) أخرجه أحمد في المسند رقم ٢٩٨٨.

في كتاب السُّنَّة بالإشارة عن أبيه، أن أباه كان يشير مثل ما أشار، وهذا يسميه العلماء التسلسل، وليس معنى ذلك كما يقول الأشاعرة وغيرهم يقولون أنكم تشبهون، يقول تشيرون بالأصابع إلى العين وإلى الأذن وهذا تشبيه والتشبيه كفر.

نقول أن هذه الإشارة للتحقق، لتحقيق الصفة وليست للتمثيل، وإلا كل عاقل يعلم الفرق العظيم بين رب العالمين وبين المخلوق الصغير الحقير، وقد قال الله جل وعلا: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] فهو ليس كمثله شيء في كل صفاته وفي أفعاله وفي ذاته جل وعلا وفي ما يلزم له.

۞ قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: وفي رواية لمسلم: «والجبال والشجر على إصبع ثم يهزهن فيقول: أنا الملك، أنا الله»[1].

المقصود هنا ذكر الهز **«يهزهن»**، وجاء في رواية أن هذا عندما يموت الناس كلهم وأن الله يقول: **«لمن الملك اليوم لمن الملك اليوم؟ فلا يجيبه أحد ـ لأن الخلق كلهم ماتوا حتى الملائكة ـ ثم يقول لنفسه: لله الواحد القهار ثم يطوي الله السماوات والأرض»**[2]، وفي هذا أبلغ الرد على الجهمية وأضرابهم ومن سلك طريقهم وهو الذي يجب أن يعتقده المسلمون.

۞ قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: وفي رواية للبخاري: «يجعل السماوات على إصبع والماء والثرى على إصبع، وسائر خلقه على إصبع» أخرجاه[3].

۞ قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: ولمسلم عن ابن عمر مرفوعاً: قال رسول الله ﷺ: «يطوي الله عز وجل السماوات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين السبع، ثم يأخذهن

---

(١) رواه البخاري رقم ٧٥١٣، ومسلم رقم ٢٧٨٦، وهذا اللفظ في شرح السُّنَّة للبغوي.
(٢) مسند إسحاق بن راهويه ١/ ٨٧.
(٣) رواه البخاري رقم ٧٤٥١، ومسلم رقم ٢٧٨٦.

بشماله ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟»[1].

قوله: «يطوي الله السماوات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى»: هذا فيه إثبات اليد اليمنى.

قوله: «ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟»: وهذا السؤال فيه التهديد والوعيد لمن أشرك بالله أو كذب رسله.

قوله: «ثم يطوي الأراضين السبع ثم يأخذهن بشماله»: ففي هذا التصريح بذكر الشمال.

قوله: «ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟»: قد يأتي سؤال هنا فيقال: هنا ذكر اليمين وذكر الشمال فكيف نقول بقوله ﷺ: **«كلتا يدي ربي يمين»**[2]، وهذا جاء فيه أحاديث متعددة.

فالجواب أن قوله ﷺ: **«كلتا يدي ربي يمين»** معناه كلتا يدي الله جل وعلا تامة كاملة لا يلحقها نقص ولا عيب، فلا يتصور أن شماله جل وعلا كشمال المخلوق، لأن شمال المخلوق تكون ناقصة واليمين أكمل منها، وهذا المفهوم هو الذي نفي في قوله ﷺ: **«كلتا يدي ربي يمين»**؛ يعني: كاملة تامة. ولا يجوز أن يعتقد أن كلتا يدي الله جل وعلا من جهة واحدة تعالى الله وتقدس فإن هذا شوهة، والذي يقول مثل هذا قد يكون للكفر أقرب منه إلى التوحيد.

قوله: «أنا الملك»: لأن لأمر في هذا واضح، في ذلك اليوم، أصبح الملك كله له والملوك ومن يملك الدنيا ذهبوا، فأتاه الناس فرادى كما ولدتهم أمهاتهم ليس معهم شيء حتى الثياب، فيظهر ملك الله جلياً.

۞ قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: وروي عن ابن عباس: «ما السمٰوات السبع والأرضون السبع في يد الله إلا كخردلة في يد أحدكم»[3].

---

(١) رواه مسلم رقم ٢٧٨٨.

(٢) أخرجه الترمذي رقم ٣٣٦٨، والبيهقي رقم ٢١٠٢٥، والحاكم رقم ٢١٤ وصححه ووافقه الذهبي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) تفسير الطبري ٢١/٣٢٤.

فيه أنها صغيرة بالنسبة إليه، وفيه أن التمثيل للتقريب والتحقيق، ثم يجب أن نعلم أن هذا لا يجوز أن يقوله ابن عباس برأيه لا هو ولا غيره فلا بد أن يكون مروياً عن الرسول ﷺ.

❁ **وقال المؤلف كَلَلهُ: وقال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب قال ابن زيد: حدثني أبي قال: قال رسول الله ﷺ: «ما السماوات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة ألقيت في تُرْسٍ».**

قال: وقال أبو ذر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض»[1].

الترس: المكان المرتفع، إما جبل، أو كثيب. والدراهم السبعة لا تمثل شيئاً بالنسبة للترس، ولكن جاء ما هو أبلغ من هذا جاء أنها في أرض فلاة كدراهم سبعة ألقيت في فلاة، فأي نسبة لهذه الدراهم في الأرض الفلاة.

وقوله: «قال أبو ذر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض»».

«الكرسي»: بعض الناس زعم أنه العلم، هذا يروى عن ابن عباس ولكنه لا يثبت.

والصحيح أن الكرسي ليس هو العلم، بل هو مخلوق من المخلوقات وهو تحت العرش، وقد جاء عن ابن عباس بأنه كالمرقاة تحت العرش.

وفي موضع قال: موضع قدمي الرحمٰن[2]. والعرش استوى عليه رب العالمين تعالى وتقدس.

❁ **قال المؤلف كَلَلهُ: وعن ابن مسعود قال: «بين السماء الدنيا والتي تليها خمسمائة عام، وبين كل سماء وسماء خمسمائة عام، وبين السماء السابعة**

---

(١) تفسير الطبري ٥/ ٣٩٩.

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٦٨٠ عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: الكرسي موضع القدمين، والعرش لا يقدر أحد قدره.

والكرسي خمسمائة عام، وبين الكرسي والماء خمسمائة عام، والعرش فوق الماء، والله فوق العرش لا يخفى عليه شيء من أعمالكم»، أخرجه ابن مهدي عن حماد بن سلمة عن عاصم عن زر عن عبد الله، ورواه بنحوه المسعودي عن عاصم عن أبي وائل عن عبد الله، قاله الحافظ الذهبي ـ رحمه الله تعالى ـ قال: وله طرق[1].

قوله: «بين السماء والأرض»: ذكر هذه المسافات وقد جاءت مختلفة في الأحاديث، وهذا الحديث يقصد به إثبات علو الله تعالى والرد على المنكرين لذلك من الجهمية، وكل هذه الأحاديث ونحوها ردها أهل البدع وكذبوها، والأشاعرة لأنها تبطل مذهبهم، والواقع أن القرآن يبطل مذهبهم، وكذلك أحاديث رسول الله ﷺ، بل كل ما جاءت به الرسل يبطل مذهبهم.

وهذه الأحاديث فيها اختلاف في المسافة لأنه جاء فيها سبعمائة عام وجاء خمسمائة عام وأجاب أهل العلم عن هذا أن هذه المسافات والمقادير بالنسبة للسير، والسير ليس سواء كما هو معروف، فهذا يجعل المسافة من مصر إلى المدينة سبعة أيام، وقد يكون أقل من هذه قد يكون خمسة أيام، ولكن الإبل إذا حملت فإنها تسير شهراً، والخطاب للشيء المعلوم، للذين يخاطبهم الرسول ﷺ يعرفون هذا وهو ﷺ يخاطب الناس بما يعرفون فذكر المسافات التي بين الأرض وبين العرش وأنها مسافات شاسعة جداً، ولكن هذا كله من باب التقريب.

وجواب آخر أن هذا ليس بالتحديد وإنما هو بالتقريب فقط، فليس المقصود سبعمائة عام فقط قد يكون أكثر بل آلاف السنين التي لا يعلمها إلا الله.

ومع هذه المسافة الشاسعة الهائلة جداً التي لا يمكن لا لصواريخ ولا لغيرها أن تصل إليها يأتي الملك بلحظة من عند الله جل وعلا في لحظات

---

(١) أخرجه الطبراني رقم ٨٩٨٧، وابن خزيمة في كتاب التوحيد رقم ٥٥١، وقال الذهبي في كتاب العلو للعلي الغفار ص٧٩: إسناده صحيح.

ينزل جبريل وكذلك الروح إذا قبضت تصعد إما أن تصل إلى السماء الدنيا فتغلق عنها أبواب السماء وتطرح، أو تفتح لها أبواب السماء كلها، من سماء إلى سماء إلى أن تصل إلى السماء السابعة ولكنها مع الملائكة، فهناك يخاطب الله الملائكة الذين يحملونها ويقول لهم: «**اكتبوا كتاب عبدي في عليين وأعيدوه إلى الأرض فمنها خلقتهم وإليها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى**»[1]، فيعيدونه إلى الأرض خلال ما يغسل ويصلى عليه فقط، فإذا وضع في قبره أعيدت روحه في بدنه وجاءه الملكان يسألانه كما جاء تفصيل ذلك، فهذا يدل كله على قدرة الله جل وعلا.

۞ قال المؤلف ﷺ: وعن العباس بن عبد المطلب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «هل تدرون كم بين السماء والأرض؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «بينهما مسيرة خمسمائة سنة، ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة، وكثف كل سماء مسيرة خمسمائة سنة، وبين السماء السابعة والعرش بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض، والله ﷻ فوق ذلك وليس يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم» أخرجه أبو داود وغيره[2].

وحديث عبد المطلب هذا جاء من رواية ابن إسحاق، وابن إسحاق قالوا أنه مدلس وقد دافع عنه ابن القيم في كتابه تهذيب السنن.

قوله: «أتدرون كم بين السماء والأرض؟ قلنا: الله ورسوله أعلم» إلخ: فالمقصود ذكر علو الله وأنه فوق عرشه ويعلم ما الخلق عليه لا يخفى عليه شيء لا كبير ولا صغير وهو فوق عرشه، وعرشه هو سقف المخلوقات كلها مع هذه المسافات الهائلة التي قد لا يتصورها الإنسان.

والآن كما هو معلوم الكفار الذين أعطاهم الله جل وعلا شيئاً من المقدرة والاختراعات وصاروا يطلقون الصواريخ إلى مسافات بعيدة ولكنهم

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند رقم ١٨٥٥٧.

(٢) رقم ٤٧٢٣ وفي لفظه اختلاف، وأخرجه أحمد في المسند رقم ١٧٧٠ وفيه زيادة، وأخرجه الحاكم في المستدرك رقم ٣٥٤٧ نفس اللفظ وصححه وخالفه الذهبي.

إلى الآن وإلى الأبد جند مهزوم لا يصلون إلى شيء من السماء، وهم يقولون هذه التي فوقنا هي فضاء عظيم يتسع وينكرون أن تكون هناك سماء مبنية لأنهم لا يشاهدونها، وهذا لا يمكن لأن بينهم وبينها أبعاد بعيدة في المسيرات، فهم وصناعاتهم ضعفاء بالنسبة إلى خلق الله، وهم لا يصدقون إلا بالمشاهدات ومع ذلك نقول أن هذا الذي نشاهده الذي فوقنا هو السماء لأن الله أمرنا بالنظر إليها قال: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾ [ق: ٦]، والله تعالى لا يأمرنا أن نشاهد شيئاً لا وجود له، ولا يجوز للمسلم أن يغتر بأقوالهم مما يذكرونه للمسلمين، إما ليفسدوا عقائدهم ويخلخلوا دينهم أو لأمور أخرى غير هذا، فنحن نأخذ ديننا عن ربنا جل وعلا وعن رسوله ﷺ.

۞ قال المؤلف رحمه الله: فيه مسائل:

۞ الأولى: أن هذه العلوم وأمثالها باقية عند اليهود الذين في زمنه ﷺ ولم ينكروها ولم يتأولوها.

يعني: صفات الله جل وعلا لأنهم لا حاجة لهم في تأويلها وفي جحدها وإنما يجحدون الشيء الذي لهم فيه حظ من أمور الدنيا أو المناصب أو ما أشبه ذلك.

۞ الثانية: أن الحبر لما ذكر للنبي ﷺ صدقه، ونزل القرآن بتقرير ذلك.

قد تنزل الآية في المدينة ويكون موضوعها في سورة مكية وبالعكس.

۞ الثالثة: وقوع الضحك من رسول الله ﷺ لما ذكر الحبر هذا العلم العظيم.

والسبب في ضحكه ﷺ كما قال ابن مسعود: «تصديقاً لما قال»، فضحكه للتصديق ولأنه وافق ما جاء به من عند الله.

۞ الرابعة: التصريح بذكر اليدين، وأن السماوات في اليد اليمنى والأراضين في الأخرى.

۞ الخامسة: التصريح بتسميتها الشمال.

يعني: يجب أنه يؤمن بها، وأن الله له يدان يمين وشمال، وقد جاء ذكر اليدين في آيات كثيرة، أما الأحاديث فأكثر.

۞ السادسة: ذكر الجبارين والمتكبرين عند ذلك.

ذكرهم لأهانتهم ولعذابهم ولهذا يكونون أمثال الذر يطأهم الناس بأقدامهم.

۞ السابعة: قوله: «كخردلة في كف أحدكم».

يعني: أن هذا ليس تمثيلاً ولا تشبيهاً وإنما هو للتحقيق الصفة وتقريب المعنى، وهذا مثل ما جاء في حديث أبي هريرة وغيره أن الرسول ﷺ لما قرأ ما قرأ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: ١٣٤] وضع إصبعه على أذنه والأخرى على عينه؛ يعني: تحقيقاً للصفة وليس للتشبيه[1].

۞ الثامنة: أن العرش غير الكرسي والماء.

يعني: أن هذا إشارة إلى رد قول من قال أن الكرسي هو العلم كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فالصحيح أنه غير العلم، ولو كان العلم لكان في الآية تكرار فيجب أن ينزه كلام الله عنه.

۞ التاسعة: كم بين كل سماء إلى سماء.

يعني: أن هذا للتقريب فقط، للفهم وإلا ليس هذا للتحديد بالضبط وقد قال الله جل وعلا: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الحديد: ٤]، أما الآية الأخرى التي فيها ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى

---

(١) رواه أبو داود رقم ٤٧٢٨ عن سليم بن جبير مولى أبي هريرة ﷺ قال: سمعت أبا هريرة يقرأ هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨]، قال: رأيت رسول الله ﷺ يضع إبهامه على أذنه والتي تليها على عينه قال أبو هريرة: رأيت رسول الله ﷺ يقرؤها ويضع إصبعيه، قال ابن يونس: قال المقري: يعني إن الله سميع بصير يعني أن لله سمعاً وبصراً. قال أبو داود: وهذا رد على الجهمية.

ﭐلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ [السجدة: ٥]
فهذا واضح في أنها المسافة بين الأرض وبين السماء.

۞ العاشرة: كم بين السماء السابعة والكرسي.

يعني: حسب الذي ذكر في الحديث.

۞ الحادية عشر: أن العرش فوق الماء.

العرش فوق الماء، الماء الذي كثفه مثل كثف السماء وهو أوسع من السماء والعرش فوقه، وهو أكبر المخلوقات على الإطلاق وليس فوق العرش مخلوق، وإنما فوقه رب العالمين جل وعلا، المخلوقات تنتهي إلى العرش.

۞ الثانية عشر: أن الله فوق العرش.

ولا يخفى عليه شيء من أعمال عباده.

۞ الثالثة عشر: كثف كل سماء خمسمائة سنة.

يعني: أن المسافة خمسمائة عام وكثافتها خمسمائة، فتكون ألف س



فهرس موضوعات

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع **الصفحة**

